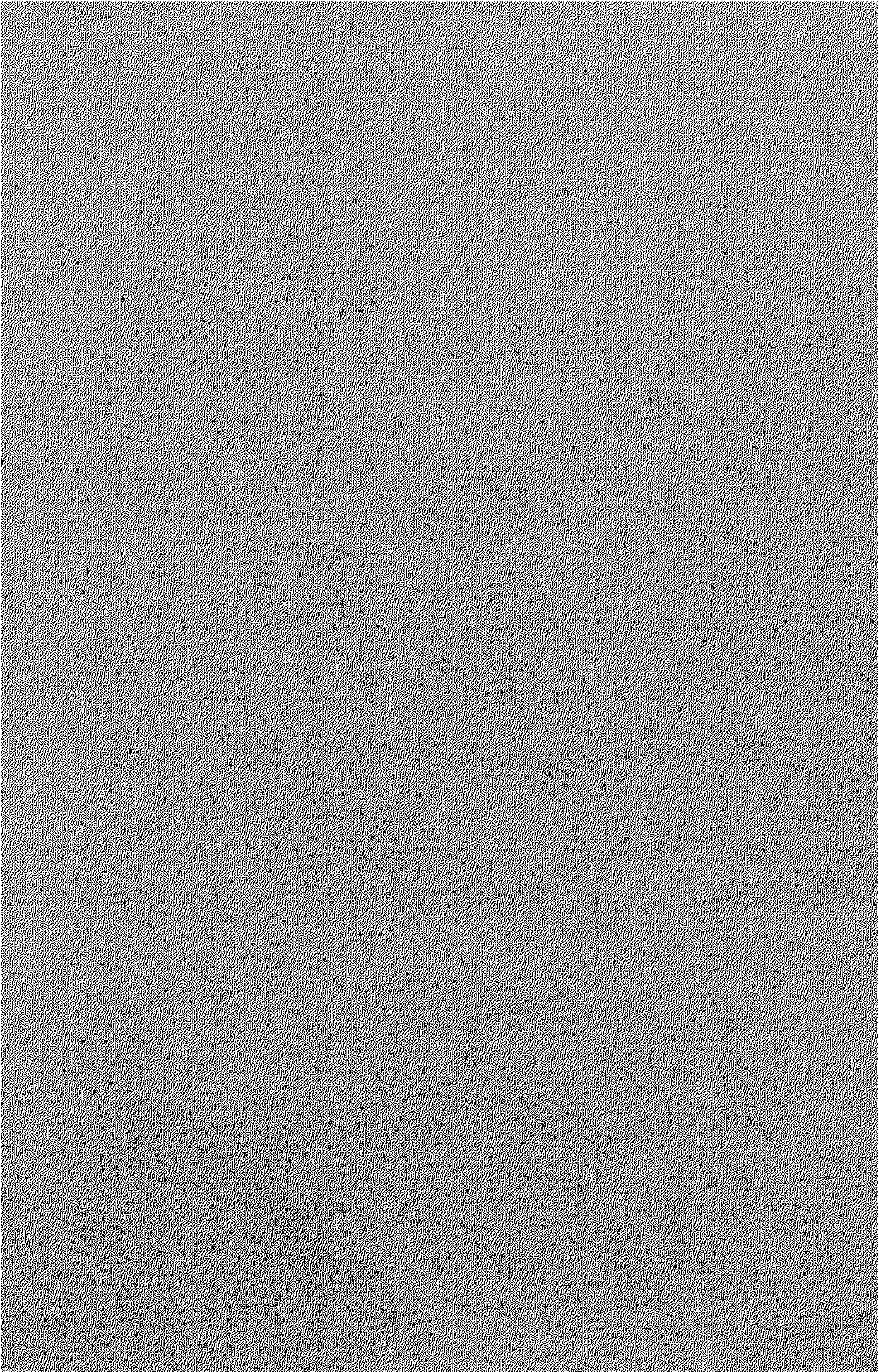
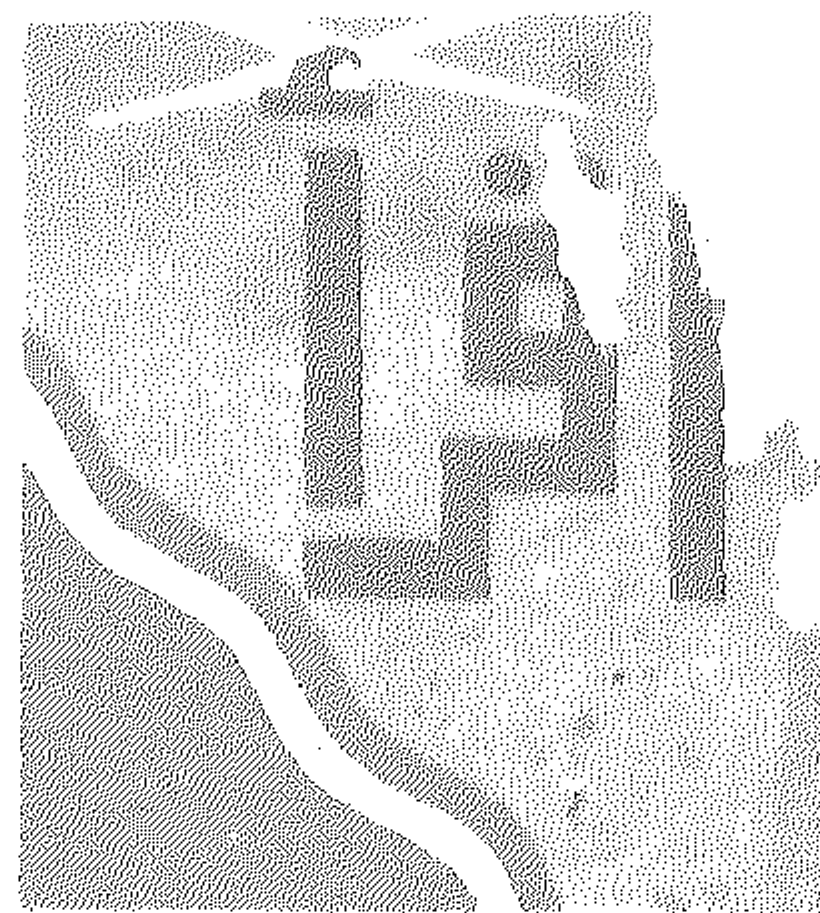


الدكتور عبد العزيز كامل

الإسلام والمستقبل



ولا تقف ما ليس لك
علم ان السمع والبص
والفؤاد كل أولئك
ن عنه مسئولا



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا





الدكتور عبد العزيز كامل

الإسلام والمستقبل

اقرأ ٤٠١

دار المعارف بمصر

(اقرأ ٤٠١)

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

١

الحوار الديني ظاهرة سائدة فى عالمنا المعاصر ، تستهدف بحث الأرض المشتركة بين الأديان والتعاون فيها ، وتوفير المناخ الملائم ليفهم أهل كل دين ما عند الآخرين : ما يتفقون فيه وما يختلفون ، ليعرفوا فيم يتفقون ، ويحاولوا توسيع مجالات التعاون ، وليحددوا مجالات الاختلاف لتكون موطن دراسة وفهم علمى . .

ومن قديم عرف تراثنا دراسة « الملل والنحل » . إلا أن الصيغ المطروحة عالمياً الآن لا تقتصر على مجرد البحث والتقرير العلمى ، أو مناقشة أهل كل دين ما عند الآخرين وإبداء الرأى فيه تأييداً أو تفنيداً ، ولكنها تحاول أن تنتقل بالدراسة خطوة إيجابية نحو إيجاد المعابر بين أهل الأديان ، وفتح مجالات رحبة للسماحة الدينية ، دون تهاون فى أمر الدين أو على حسابه . وفرق كبير بين التمسك بالدين والتعصب غير العاقل له ، وبين السماحة والتهاون .

وكأن الحوار الآن يستهدف تحسين العلاقات الإنسانية بين الأجيال الجديدة عن طريق فهم أفضل وتعاون أوسع . .

٢

هذا وقد أصبح المستقبل الآن علماً له مناهجه وأصوله ، ولا تقتصر دراساته على البيئة المادية وإنما تمتد لتشمل البيئة الحضارية في أوسع مدلولاتها بما فيها الدين . .

والنشاط الديني في الربع الأخير من القرن العشرين — وعلى الصعيد العالمي — يمر في مرحلة من مراحل الربط بينه وبين المجتمع تتخذ المسارات الآتية :

أولاً : كيف نستطيع أن نقدم الفكر الديني وأن نتعاون مع الأجيال الجديدة على الوصول إلى حقائق الدين لا بمجرد التلقين ولكن بالمشاركة الإيجابية .

ثانياً : ما يستطيع الدين أن يقدمه إلى المجتمع من عطاء .

ثالثاً : دراسة الأصول المشتركة في الفكر الديني في شموله وهي القاعدة العريضة التي يمكن أن ينطلق منها التعاون والتطوير الديني ، مع المحافظة على شخصية كل دين ودعم المعابر بينه وبين الأديان الأخرى.

٣

وإذا كانت هذه هي الخطوط الرئيسية للحوار الديني المعاصر ، فإن الصبغة المصرية للحوار لها طبيعتها المتميزة . . ذلك لأنها قائمة فعلا ، وتعتمد أساساً على المعايشة اليومية التي استمرت قروناً : تتجاور فيها المساكن ، ويلتقي فيها المواطنون ، يبنون الحياة معاً ، ويدافعون عنها معاً ، تشهدهم ساحات العمل والنضال الوطني أخوة . وتشهدهم أرض المعارك رفقاء سلاح يحمي كل منهم أخاه ويفديه ، يتلقى منه الأمر ويستمع إليه منه . .

والذى علينا – أول الأمر – فى هذه الصيغة ، أن نضع آذاننا على نبض مصر وقلبها نستمع منها إلى قصة هذه السماحة الطويلة ، ونحاول جاهدين أن نصونها . فهى كأى ظاهرة اجتماعية تتعرض للقوة والضعف وعلينا أن نرعاها صيغة كريمة للحياة فى ضوء من قول الله تعالى « لا إكراه فى الدِّين » (البقرة : ٢٥٦) وقوله « شرعَ لكُم من الدِّين ما وصى به نوحاً والذى أوْحَينا إليكَ وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (الشورى : ١٣)

فنحن – عمليًّا – لا نبدأ من فراغ ، فالحوار – بمفهومه العلمى – مستمر ، إنه يجرى فى حياتنا كماء النيل ، وتنبت ثماره الطيبة كالسنابل السبع فى أرض الحب والإخاء .

ونحن نحاول أن نرصد هذه الظاهرة علميًّا ، كما نسجل ظاهرات حياتنا الطبيعية والحضارية . ثم نحاول ترشيدها والصعود بها . وفى ذات الوقت يمارس كل عابد شعائر دينه ويستجيب لأوامره مبتعداً عن هوى النفس والبغى فى الأرض بغير الحق ، سالكاً سبيل العدل مستمعًا إلى قول الله « فَلِذلِكَ فَادْعُ واستقِم كما أُمرتَ ولا تتبع أهواءهم . وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعْدل بينكم . الله ربنا وربُّكم لَنَا أعْمالُنا ولَكُم أعْمالكم . لا حجَّةَ بيننا وبَيْنَكُم . اللهَ يجْمَع بَيْنَنا وإليه المَصير» (الشورى : ١٥)

فالحوار بهذا عمل جاد وإذا كانت له اتجاهاته العامة العالمية، فله خصائصه المحلية ، وأهدافه التى ينبغى أن تكون واضحة فى الذهن عند تخطيطه ومرونته التى يستطيع أن يستجيب بها لتطورات الحياة .

٤

ويضم هذا الكتاب محاولات على طريق هذا الحوار : بعضها محلى وبعضها عالمى ، إما فى مجال العمل الإسلامى أو الإسلامى المسيحى ، مع نظرات فى علاقة الإسلام بقضايا الحياة الكبرى . .

أدعو الله أن يجعلها خالصة لوجهه ، وأن يرضاها إضافة على طريق الدعوة إليه ، والحب فيه ، والسماحة بين عباده .

(د . عبد العزيز كامل)

الدقى فى : ٢٣ من ذى الحجة سنة ١٣٩٤ هـ
٦ من يناير سنة ١٩٧٥ م

الكلمة والأصالة والتجديد *

* كلمة الافتتاح فى المؤتمر الأول للمؤسسات الإسلامية بأمريكا اللاتينية . ساوباولو : البرازيل .

١٨ - ٢٠ سبتمبر ١٩٧٠

كان الكاتب رئيس شرف المؤتمر ورئيس وفد جمهورية مصر العربية .

كلمة الافتتاح

فى مؤتمر المؤسسات الإسلامية بأمريكا اللاتينية (١)

١٨ — ٢٠ سبتمبر ١٩٧٠

ساوباولو — البرازيل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، الذين أناروا الحياة بنور الوحى الإلهى . وصدق كل نبى منهم من جاءوا قبله ، وبشر بعضهم ببعض فكانوا لنا مصابيح الهدى . وسجل الله هذا فى كتابه الكريم فقال : « آمن الرسُولُ بما أُنْزِل إليْه مِنْ رَّبه والمؤمِنُون ، كلٌّ آمنَ بالله وملائكَتِه وكُتبه ورسُله ، لانفرقَ بَيْن أحد منْ رسُله ، وقالوا سمعنا وأطَعْنا . غُفْرانَك ربَّنا وإليك المصير » (البقرة : ٢٨٥)

١ — تحية

وتحية طيبة — أيها الإخوة — فى هذه المناسبة الكريمة ، التى تجتمعون فيها لأول مرة فى أمريكا اللاتينية على هذا المستوى الشامل ، تتدارسون جوانب حياتكم الدينية والاجتماعية والثقافية ، وتعنون بدور النساء فى حياتنا الإسلامية ، وتنشئة الأجيال الجديدة ، لتكون امتداداً كريماً

---

(١) فى ١٨ سبتمبر ١٩٧٠ .

لجهود قمتم بها ، حفاظاً على دينكم ومقوماتكم ، التى حملتموها إلى الدنيا من أرض الوحى والنبوات . .

وهذه المقومات الفاضلة ، ليست ملكا لجيل من الناس ، أو حكراً على شعب ، وإنما هى ملك للإنسانية على امتداد عصورها وأقطارها ، لأنها هدية الله إلى الناس ، جاءت بها النبوات كما سجل القرآن الكريم « قولوا آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » (البقرة : ١٣٦)

فاجتماعنا هذا يمد يده مصافحاً كل نبى ورسول : يجمع ولا يفرق . يبنى ولا يهدم . لا يدعو إلى عصبية أو عنصرية . وإنما يدعو إلى الانفتاح على كل فكر خلاق دون أن تعوقه عقد من النقص أو الاستعلاء .

حياكم الله أيها الإخوة : أن تفضلتم بتوجيه هذه الدعوة إلى إخوة لكم ، جاءوا من أقطار العروبة والإسلام ، ليسعدوا بلقائكم وليشاركوكم هذا المؤتمر المؤمن ، وإننى أعتقد أننى أعبر عما فى نفسى ونفوس إخوانى من وفود العالم الإسلامى حين أقدم إليكم خالص الشكر وعظيم الامتنان .

وإن قلوب إخوانكم فى العالم العربى الإسلامى — تتطلع إليكم : قلوب الحكام والحكومات والشعوب ، تبارك اجتماعكم ، وترجو أن يكون بداية مرحلة مثمرة على طريق التعاون والإخاء ، على الصعيدين المحلى والعالمى .

تتطلع إليكم قلوب تبنى الحياة ، تدافع عن حقها فى الحياة . وتبذل جهدها فى مواقع العمل والإنتاج ، كما تقف على خطوط المواجهة مدافعة عن المقدسات والأرض الطيبة المغتصبة ، وحقوق شعب فلسطين . أرضنا التى عاشت آلاف السنين عربية القلب واليد واللسان ، باسطة اليدين لكل زائر ، واسعة الرحاب لكل دين ، ترتفع فيها المساجد والكنائس والمعابد ، فى إخاء آمنا به ، وحافظنا عليه ، وعنده يلتقى جوهر الدين

بجوهر الإنسان وحريته فى العبادة ، ونضاله الشريف من أجل إقرار السلام العادل وإثراء الحياة. إنها الأرض التى شهدت مولد المسيح ودعوته وآلامه، وشهدت مسرى محمد ودعوات الأنبياء من قبلهما ، عليهم جميعاً من الله صلاة وسلام .

وأنتم هنا فى البرازيل تعيشون فى وطن سمح ، اجتذب سكانه من مشارق الأرض ومغاربها ، تتعدد فيه السلالات والأديان . ولكنها تتجمع فى حديقة إلهية : ألوانها شتى وخالقها واحد . تؤمنون أن الله خلق الإنسان كما خلق الزهر ، مختلفاً ألوانه ، وأن هذا الاختلاف لا يعدو أن يكون مظهراً لقدرة الله ، ومادة امتحان لنا ، ليرى منا ربنا الذى يرزق الجميع ، ويرعى الجميع ، كيف نعيش الإخاء والود والمحبة .

هذا هو الطابع الغالب فى أمريكا اللاتينية ، طابع عشت فيه عندما زرت البرازيل منذ أربع سنوات ممثلا لوطنى فى مؤتمر دعت إليه هيئة الأمم المتحدة عن التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقية ، وعقد فى برازيليا فى شهرى أغسطس وسبتمبر ١٩٦٦ . وكانت مناسبة قرأت فيها ما قدمه الزملاء العلماء البرازيليون عن طبيعة الحياة هنا : . عن التسامح والمحبة ، والسمو،فوق فروق اللون والعقيدة ، إلى النظرة التى تجمع الإنسانية كلها فى إخاء كبير .

وإن قلوبنا لتحس بخالص التقدير والشكر للبرازيل ، رئيساً وحكومة وشعباً ، ولرؤساء وحكومات وشعوب أمريكا اللاتينية أن يسروا لنا هذا اللقاء فى جو من الإخاء الذى تتعايش فيه الأديان والسلالات ، على أساس من الاحترام المتبادل ،والرغبة الصادقة فى تطوير الحياة والتقدم بها.

وشكراً للتعاون الكريم الذى يلقاه المؤتمر والعاملون فيه من السيد / محافظ ولاية ساوباولو ، والأجهزة التنفيذية والنيابية التى أتاحت فرصاً من اللقاء والتحية ، يسرت السبيل أمام عقد هذا المؤتمر الإسلامى الأول

فى أمريكا اللاتينية ، وشكراً للسيد / حاكم ولاية باراناجوا على ترحيبه ومشاعره الطيبة التى لقيتها من سيادته فى طريقى إليكم .

وشكراً عميقاً للإخوة الأفاضل رجال الدين المسيحى الذين تفضلوا باللقاء والتحية ، فكانوا كالعهد بهم إخوان محبة حماوها معهم من أرض الأنبياء .

٢ — الكلمة الطيبة

أيها الإخوة . . نحن فى لقائنا هذا . . ماذا نريد ؟ وما هو هدفنا من القول واللقاء ؟

ولنبدأ بقضية من واقعنا :

قضية الأرض السليبة : لا نريد فيها أكثر من تطبيق قرار مجلس الأمن .

حقوق شعب فلسطين ، لا نريد فيها أكثر من تطبيق قرارات الأمم المتحدة ، وإعطاء هذا الشعب الأصيل المناضل حقوقه المشروعة الكاملة مع الحفاظ على عروبة القدس الشريف . كل مانريده أن تجد هذه الكلمات القدرة على أن تحيا فى دنيا الناس . وكل جهودنا إنما هى من أجل الوصول إلى هذه الأهداف المشروعة التى صدرت عن أعلى مستويات المنظمات الدولية . ولكن ماذا تستطيع بذور السلام الطيبة أن تصنع . إذا ألقيت فوق أرض صلبة وعصفت بها رياح العدوان ؟

ونعود إلى الإسلام فنرى أن ميزته كانت فى إيمانه بالكلمة الخلاقة . وميزة المسيحية أنها آمنت بالكلمة : فالحق كلمة طيبة . والأخوة كلمة طيبة مثل « كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلُها ثابتٌ وفرعُها فى السَّماء تؤتى أكُلهَا كُلَّ حينٍ بإذن ربِّها ويَضْربُ الله الأمثالَ للناس لعلهم يتذكَّرُون » (إبراهيم : ٢٤ — ٢٥) .

ميزة الكلمة فى صدر الإسلام أنها كانت خلاقة مبدعة :

يأمر الله بالصلاة فإذا بالمساجد تقام وتنتشر وترتفع مآذنها . لم يتزل مع قول الله « أقيموا الصلاة » مساجد من السماء ولا كان عند الرسول مال . ولكن المساجد أقيمت ولا تزال تقام . ذلك لأن الكلمة كان لها رصيدها الضخم من الإيمان العملى . وهذه الكنائس : ما ترك المسيح عليه السلام وراءه مالا لبنائها ، وإنما قال كلمة الإيمان فتحولت الكلمة إلى إنشاءات فى المشرق والمغرب .

ويدعو الله الناس إلى العلم فى أول أمر أنزله فى القرآن : «اقرأ باسْمِ ربِّكَ الذى خَلَقَ» . فإذا بحضارة إسلامية وارفة الظلال تطلب العلم من كل مصادره ، وتترجم كتب الهند وفارس واليونان والرومان ، وتفتح صدرها لرهبان المسيحية وقساوستها ، وأحبار اليهود ، وتكفل الإخاء والسماحة ، وتعطى الدنيا صورة من التطبيق العملى لما تدعو إليه من حق — وتذويب الفوارق بين الناس فإذا العباد كلهم إخوة أمام خالق السموات والأرض . . كل هذا كان لأن الكلمة لها رصيدها من الإيمان وحياتها فى التطبيق .

ولم يحدث التدهور فى تاريخنا الإسلامى إلا عندما انفصلت الكلمة عن الفعل . . ثم هانت الكلمات وكثرت ما دامت عقيماً ليس لها رصيد فى الحياة . . ولكم أن تطبقوا هذا حتى على قرارات المحافل الدولية العالمية فى قضايا مصيرية .

وأقولها ويقولها معى الحق حزيناً : ما أغنى قضية فلسطين والأرض السليبة وحقوق اللاجئين بالقرارات الدولية ، وما أفقرها فى ترجمة هذه القرارات إلى عمل ؟ !

والذى نسعى إليه فى حياتنا الإسلامية المعاصرة هو أن نحلق فى آفاق آمالنا بجناحين من القول والعمل ، مصداقاً لقول الله : « إنَّ الذين قَالوا رَبُّنا الله ثم استَقَامُوا » وهى ليست مشكلتنا وحدنا ، وإنما هى — فى الوقت ذاته — مشكلة قرارات مجلس الأمن والأمم المتحدة . . إنها المشكلة التى

تقابل أى قول صالح فى أى مجال من مجالات الحياة، حينما يضع الشر أمام الخير العقبات ، فلا يجد الخير سبيله إلى التطبيق .

٣ ـ أمجادنا وواقعنا

ولكننا وسط الغيوم نلمح أشعة المستقبل . وبرغم قسوة الحاضر فإن أقدامنا والحمد لله تدب على الطريق الصحيح .

لقد استطاع الوجود العربى المؤمن أن يؤكد ذاته فى كثير من مجالات الحياة ، وأخذ يقيم المعابر بين الكلمة والفعل ، ولم تعد لقاءاتنا ومؤتمراتنا مجرد قرارات تقال ، وإنما أصبحت كلمات الحق والسلام تنفخ فيها عزائمكم وعزائم إخوانكم قوة ـ أصبحت كائنات حية ، ومؤسسات قائمة وجهوداً تبذل من أجل الحق الذى تؤمنون به .

وستظل أرض آبائكم وأجدادكم ـ أرض السلام ـ تذكر مواقفكم وجهودكم . فلقد كنتم ـ وما زلتم والحمد لله ـ عند حسن ظن الأرض المقدسة السليبة وأهلها ، عاملين من أجل السلام الذى نؤمن به جميعاً .

ومن هنا جاء الربط السليم بين ماضينا وحاضرنا ، بين أمجادنا ومسئولياتنا، أقول الربط السليم ، ذلك لأننا مررنا فى فترة أكثرنا فيها الحديث عن أمجادنا الماضية ، دون أن نترجم هذا الحديث إلى واقع فى الحياة : وكانت لقاءاتنا طاقة مستهلكة فى الحديث عن أمجادنا الماضية ، حتى أصبح لهذا النوع من الحديث تأثير مخدر على إحساسنا . على حين تجرى الجراحات فى جسم العروبة والإسلام لا قتطاع أجزاء عزيزة غالية .

ونحن لا نريد أن نعيش فى ضباب ، ولو كان ضباب المجد القديم . . ضباباً يحول بيننا وبين الرؤية الواضحة التى نذكر معها حق الإنسان العربى من حيث هو إنسان فى بيته وحقله وعين الماء التى يشرب منها . . ضباباً يحجب عنا رؤية المسجد الأقصى المحترق ، والعدوان على المقدسات

الإسلامية والمسيحية فى أرض علّمت الدنيا كيف يتآخى أبناء الأديان ..

لقد عاش أتباع موسى وعيسى ومحمد عليهم وعلى جميع الأنبياء صلاة وسلام، قروناً طويلة .. فى رحاب الأرض المقدسة ، والأوطان العربية تتجاور فيها المساجد والكنائس والمعابد، ويعيش فى ظلال أمنها من يتلون التوراة والإنجيل والقرآن .

حديثنا الآن وربطنا بين الماضى والحاضر ، إنما يقوم على أساس من صناعة هذا الحاضر، وبناء الحياة لا مجرد الحديث عن الحياة ، وأن تكون للكلمة فاعليتها وقوتها على إثراء الحياة . .

٤ — بين الأصالة والتجديد

وفى هذا الضوء نستطيع أن نرى الموضوعات الخمسة التى أردتم أن تكون جدولا لأعمال المؤتمر : ١ — حياتنا الدينية، ٢— والاجتماعية ، ٣— والثقافية ٤ — دور النساء ٥ — الشباب فى بناء المجتمع .

ولقد سعدت وسعد إخوانى بقراءة الخطوط الرئيسية التى تفضلتم بإرسالها ، وإننى لأضع تحت أنظار حضراتكم — كمساهمة متواضعة فى الجهد العلمى — مجموعة من أعمال وقرارات مجمع البحوث الإسلامية بجمهورية مصر العربية فى دوراته السنوية الخمس — وهذا المجمع — كما تعلمون حضراتكم — يضم فى عضويته ويشترك فى مؤتمراته علماء من أقطار العروبة والإسلام ، ولقد عنى فى دورتيه الأخيرتين بمشكلات أرضنا السليبة وواجبنا حيالها ، وقضايا الشباب فى العالم الإسلامى المعاصر ، ومشكلات التفرقة العنصرية، وكيف يلتقى الدين مع العلم الحديث من أجل كرامة الإنسان . ومن قبل هذا عنى المجمع ببحوث عن جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية على أساس من الربط بين مصادر الدين وواقع الحياة . .

هذا إلى الإنتاج العلمى للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وهذه الجهود يشترك فيها علماء الإسلام من أقطار كثيرة والحمد لله . . فما وجدتم فيها من خير يلائمكم فى حياتكم فهو لكم، وما كان لكم من ملاحظات فيسعدنى ويسعد كل من ساهم فى هذا الجهد ، أن تتفضلوا بالإشارة إليها ، ورحم الله امرأ أهدى إلىّ عيوب نفسى . والحكمة ضالة المؤمن . . والمؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى .

هذا عن ناحية الموضوعية ولكن أرجو أن تأذنوا لى بالإشارة إلى خط فكرى أساسى يمكن أن نتبعه فى الموضوعات جميعًا : فهدفنا الرئيسى هو إقامة معبر قوى بين جوهر ديننا وحقائق الحياة التى نعيشها ، بحيث لا نحس العزلة عن الدين ولا عن الحياة ،. . فالدين جاء لينذر من كان حيًا . . . بل هو نفسه نور وحياة وفى هذا يقول الله تعالى : « وَكَذَلِكَ أَوحَينا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمرِنا ما كُنتَ تدْرِى ما الكتابُ ولا الإيمانُ ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وقوله تعالى : أَوَ مَنْ كان مَيْتًا فأَحْيَيْنَاه وجَعَلْنا له نُوراً يَمشى به فى النَّاس كَمَن مَثَلُه فى الظُّلُمات لَيسَ بِخَارِج منها » (الأنعام : ٢٢)

وفى هذا التأليف بين جوهر الدين وحقائق الحياة ، نحن محتاجون إلى أمرين :

أولاً : أصالة تحفظ ذاتنا وشخصيتنا فلا تذوب وتنمحى .

ثانيًا : تجريد واجتهاد يثرى هذه الشخصية بحيث تكون قادرة على الحياة متفاعلة معها ، قادرة على المساهمة الفعالة فيها . .

وبين الأصالة والتجديد ينبغى لمجتمعاتنا أن تشق طريقها .

عندنا جوهر هذا الدين فلنحافظ عليه : العقيدة والعبادات والأخلاق

والإطار العام للمعاملات . وما جعل الله علينا فى الدين من حرج : وهناك أمور متجددة ينبغى أن نقابلها بعقل مفتوح فى جوانب حياتنا الدينية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية . . . . وفى هذه الموضوعات جاءت توجيهات الإسلام مجملة دون تفصيل ، وأهم ما يعنى به الإسلام فى هذا الجانب هو اختيار الأوضاع والمواقف الملائمة لتطور الحياة فى حدود التوجيهات الإلهية والمصلحة العامة .

وأسوق إلى حضراتكم مثالا :

بالأمس بعد وصولى إلى ساوباولو حضرت مؤتمراً صحفياً فى فندق جاراجوا وسألنى أحد الشباب من الصحفيين عن العلاقة بين الدين والسياسة. وكان السؤال منصباً على طبيعة مؤتمرنا هذا الأول .

فقلت له فى إجمال : إن الدين يحدد المستوى الأخلاقى للعمل السياسى بل يحدد المستوى الأخلاقى لكل عمل فى الحياة . وإذا ما حدث الانفصال بين العمل السياسى وأخلاقيات الحياة رأينا هذه التناقضات فى حياتنا الإنسانية على الصعيدين المحلى والعالمى . . واكتفى الصحفى بهذه الإجابة. وأعود إلى قصة الأرض السليبة والمقدسات المغتصبة وحقوق شعب فلسطين فى هذا الضوء . . وأزنها بهذا الميزان : إن قرار مجلس الأمن الخاص بتحريم اكتساب الأرض عن طريق العدوان قد صدر . وهو فى هذا قائم على ميثاق الأمم المتحدة . وقرارات الأمم المتحدة التى تنص على حقوق اللاجئين صدرت ، وتؤكدها كل دورة من دورات الانعقاد السنوى . بل إن ميثاق الأمم المتحدة ينص فى وضوح على أساليب معاقبة المعتدى إذا رفض الخضوع لقرار صدر من هذه المستويات العالمية وهدد السلام العالمى . . ولكن المشكلة تبقى فى أخلاقيات التطبيق . . فى أن تعتبر بعض الدول العمل السياسى عملا منفصلا عن الأخلاق . وتعتبر عدم الخضوع لقرار عادل من مجلس الأمن أو الأمم المتحدة مظهراً من مظاهر القدرة والتحدى

للرأى العام العالمى . إن الفرد العادى إذا أخل بتعاقد قانونى أمكن تقديمه إلى المحاكمة . .فكيف لا يطبق هذا على دولة تسلب شعباً أرضه وتاريخه ؟ ..

وإذا ما نادى رجل الدين بالسلام وإعادة الحق إلى أهله .. فإن هذا واجبه . وإذا ما دعا إلى منهج أخلاقى فى الحياة فهذا صميم عمله .. وإذا ما أصبحت الحياة لا أخلاقية ، وصل الظالم إلى العدوان على المسجد والكنيسة واصطلى بناره العامل والزارع والتاجر ورجل الدين معاً ..

فليس هناك فى طبيعة الحياة هذا الفصل بين جوانبها، وإنما فيها تكامل وتفاعل متبادل . وليس الدين قوقعة تحجب الإنسان عن واقع الحياة . وإنما هو دافع إلى العمل، وحافظ دون الانحراف ، ومحدد لمستوى أخلاقيات الحياة فى كل مجالاتها .

من أجل ذلك نصت الأديان على نصرة المظلوم والأخذ على يد الظالم . . . ولو كان الظالم والمظلوم أبناء ملة واحدة أو من ذوى الأرحام ..

هناك ظلم وقع على إخوانكم .. وهناك حق لهم تشهد به الأرض والسماء . والدين يأمرك أن تكون عوناً للمظلوم على الظالم . . وليس هناك من ظلم وعدوان أبشع مما يقع على إخوانكم فى الأرض المقدسة . . عدوان لا يمتد فقط على جبهة محاربة ، وإنما يمتد على جبهة زمنية طولها أكثر من ثلاثين قرناً من الحياة العربية ، يحاول طمس معالمها ونكران عروبتها . . وعدوان يصل إلى الأجيال المقبلة فيضرب بقنابل النابالم أطفالا صغاراً فى مدارسهم وعمالا يبنون الحياة .

الموقف السليم فى هذا كله أن تربطوا بين جوهر الدين وبين حقيقة الحياة بدءاً بالكلمة الطيبة ، مسيرة إلى العمل الطيب . . تؤكدون الحق وتعادون الكذب والظلم الذى يحاول أن يرقى منابر السياسة أو يتلصص إلى كتب التاريخ أو يسيطر على وسائل الإعلام . . أو يغتال حقوق الشعوب . . . .

٥ — واجبنا العلمى

ولن نستطيع أن نصل إلى هذا كله دون أن نكون على المستوى العلمى الملائم للعصر . . وبهذا تبدو أهمية رعايتكم لأولادكم وتوفير الجو الملائم لتنشئتهم ، دون انقطاع عن أصولهم فى أرض الحضارة العريقة ، أرض العلم والإيمان ومهبط الأنبياء ، ولا عن العالم المتحرك حولهم الذى يكشف كل يوم جديداً .

ما يكسبونه من علم سيكون له ارتباطه بالواقع والتجربة العلمية ، وهو يستمد أخلاقياته من توجيه الدين .

ولك أن تقول هذا عن الطبيب فى معاملة مرضاه ، وعن العالم والمربى فى معاملة تلاميذه ، بل عن تعامل الدول بعضها مع بعض . . المتقدمة والنامية ، الكبيرة والصغيرة . .

فليتصل شبابنا بكل علوم الحياة . . ليكن منهم علماء الذرة والفضاء الخارجى ، ليضربوا فى مناكب الأرض ، ويقتحموا البحار ويركبوا الأجواء . . ولكن عليهم أن تكون قراراتهم وعلمهم كما أمرنا ربنا فى أول ما أنزل علينا من قرآن : « اقرأ باسْم ربِّك الذى خَلَق » .

قراءة لها هذه الصبغة الربانية . قراءة تكون عوناً للإنسان والإخاء والمودة . . يكون فيها العلم نوراً أميناً هادياً إلى سواء الصراط .

علم يحترم الإنسان من حيث هو إنسان . . وليذكر أبناؤنا أن تجربة علمية واحدة إذا ما حاولوا ردها إلى أصولها وجدوا فيها جهود أجيال وأجيال من إخوانهم فى الإنسانية على تعدد أقطارهم وتتابع عصورهم .

وإن العلم الحديث الذى تضيع كثير من ثمراته فى الحروب والعدوان ، محتاج إلى نظرة الدين الإنسانية ، يدعو إليها محمد كما دعا إليها عيسى وموسى والنبيون من ربهم ، وبهذه النظرة المتوازنة إلى العلم والإيمان يبدو

عطاؤكم للحياة ، نظرة فيها الحب والخير . نجدها عند المسيح عليه السلام في قوله « لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى . لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة » (مرقس : ٢ : ١٥–١٧) وقوله « أحب قريبك كنفسك » (متى : ١٩) . وفي قول الرسول عليه الصلاة والسلام « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وقوله « الراحمون يرحمهم الله . ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » .

٦ – صناعة الحضارة

بهذا . . أيها الإخوة .. نستطيع أن نتحول إلى صانعي حضارة لا مجرد مستهلكين لحضارة . وأن نصبح مشاركين فيها بالقول الطيب والعمل الصالح . . وإنك لتجد من أهم الموازين التي تستطيع أن تميز بها بين فرد وفرد ، وبين شعب وشعب ، أو بين مرحلتين من مراحل حياة شعب واحد هي مدى المساهمة الإيجابية في صناعة الحضارة . . إضافة وعطاء . . هذا مع المستوى الأخلاقي الذي يتم به التعامل في هذا المجتمع والذي يرتكز أساساً على ما أنزل ربنا من كتاب وحكمة .

خاتمة

أيها الإخوة :

هذه خطوط عامة أردت أن تكون بين أيديكم :

أولاً : أن تكون كلماتنا ولوداً قادرة على الحياة في ترابط بين القول والعمل .

ثانياً : أن يتوفر فينا الربط الوثيق بين ماضينا وحاضرنا جامعين بين الأصالة والتجديد ؛

ثالثاً : أن نعنى بتكوين أسرنا وأبنائنا على أساسين من الخلق الفاضل الذى نستمده من ديننا ، والمنهج العلمى الذى يأمرنا به الدين ، ويدعونا إلى المساهمة البناءة فى صرح الحياة العلمية المعاصرة .

رابعاً : أن نفتح طرقاً جديدة فى تحويل مجتمعاتنا من استيراد الحضارة إلى صناعة الحضارة . . من الوقوف عند مجرد الاستهلاك إلى الإنتاج والعطاء .

خامساً : أن ينعكس هذا على مواقف من قضايا المصيرية تأكيداً للسلام ومساهمة فى إعادة أرضنا العربية السليبة وقدسنا الشريف والحقوق المشروعة لشعب فلسطين الشقيقة . ونحن فى هذا إنما نطبق ميثاق الأمم المتحدة . ومن قبل هذا ومن بعده ـ ما دعانا إليه ربنا « وتعاونوا على البرِّ والتَّقْوى ولا تَعَاوَنُوا على الإثْم والعُدْوانِ » (المائدة : ٢)

شكراً لكم أيها الإخوة : وشكراً لأمريكا اللاتينية : رؤساءها وحكوماتها وشعوبها من مصر ، رئيساً وحكومة وشعباً ، داعين الله أن يزيد ود قلوبنا وازدهار حياتنا ، وعسى أن نتبادل التحية والتهنئة بعودة السلام إلى أرض السلام التى علمت الدنيا . . التوراة والإنجيل والقرآن . وزور الإخوة الفلسطينيين فى ديارهم بعد العودة : يزرعون الأرض الطيبة . أرض الزيتون رمز السلام . ونسعد برؤية القدس الشريف تتردد فيه أصوات المؤذنين ودقات النواقيس وترتيل العابدين فى ظلال السماحة والإخاء . . هكذا كان وهكذا نرجو أن يعود .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الفكر طريق للإيمان *

* بحث نشرته مجلة الهلال (القاهرة) فى عدد سبتمبر ١٩٧٢ م (ص ٥ - ١٢).

ثلاثيات :

الذين يدرسون موضوعاً كبيراً كالدين أو العلم أو التاريخ الإنسانى ، يطيب لهم فى كثير من الأحيان محاولة تبسيط الحقائق عن طريق إظهار حركاتها الكبرى . .

التاريخ عندهم قديم ووسيط وحديث !. الفكر الإنسانى مر من عصر الخرافة إلى الدين إلى العلم !. .

وسرى هذا حتى إلى الفن . فالكوميديا الإلهية لدانتى الإيطالى مقسمة إلى الجحيم والمطهر والفردوس .

المجتمع المعاصر مقسم إلى المعسكرين الكبيرين ، ثم العالم الثالث ، وهو يمثل امتداداً ضخماً إلى جانب المعسكرين الأول والثانى .

وهم من قبل هذا قسموا البشر إلى ثلاثة أجناس كبرى : القوقازى ، والمغولى ، والزنجى .

ومع أن هذه التقسيمات لا تلقى قبولا إجماعيًّا من الباحثين ، فإنها تمثل خطًّا فكريًّا ما زلنا نرى آثاره فى الدراسات البشرية بعامة ، والفكرية بخاصة . ذلك لأن التبسيط يحوى بطبيعته قدراً كبيراً من التجاوز . وإذا كان حديثنا اليوم عن الدين ، فنحن علميًّا لا نستطيع أن نفصل بينه وبين العلم ، كما أن بعض جوانب من الفكر الذى علق بالدين هو إلى الخرافة أقرب ، وجوهر الدين منه برىء . ولكن فى حياة الإنسان تتعايش أو تتفاعل الأفكار الدينية فى صفائها مع إشراقات العلم وغيوم الخرافة .

وإذا ما نظرنا إلى ثلاثية الخرافة والدين والعلم ، وجدنا أنه لا مجال للدفاع عن الدين فى عصر كان الدين هو سمته الكبرى ، وهو ما يقابل اصطلاحاً « العصور الوسطى » . وإنما ينبغى أن يتجه القول ، أكثر ما يتجه ، إلى وضع

الدين فيما يسمى « بعصر الخرافة » ثم إلى وضعه فى « عصر العلم » الذى نعيش فيه .

أقول هذا ونحن نبنى مجتمعنا على العلم والإيمان .

الوثنيون وإيمانهم :

وفى الفكر الدينى كثيراً ما نقرأ أن الإنسان بدأ بعبادة مظاهر الطبيعة من حوله خوفاً وطمعاً . وهذه الصور نستطيع أن نراها فى الحضارات القديمة . وما زالت نماذج منها حية فى قلب أفريقية . . وارتقى الإنسان إلى عبادة عدد محدود من الآلهة : اثنين وأربعين كما فى فترات من حياة مصر القديمة ، وتسعة أحياناً ، وأكثر من هذا وأقل .. وسار إلى ثلاثة ، وإلى اثنين يمثلان النور والظلمة .

وانتهى به المطاف إلى التوحيد المطلق الذى نراه فى الإسلام، حيث الواحد هو الذى يقوم بنفسه ، ما دونه كسور وما فوقه تعدد .

وغلب الإيمان بالله الواحد على ديارنا مهبط الأديان السماوية الكبرى .. ومع تباين فى التصور والتجريد والتجسيد يؤمن كل من اليهود والنصارى والمسلمين بإله واحد . تنص على هذا كتبهم . ولا أريد أن أقف فى هذا البحث عند قضايا الذات والصفات والأقانيم ، وربط الإله بشعب من الشعوب .

هذا الخط الفكرى يذهب إليه الذين يؤمنون بمدرسة التطور ، وإن كانت للمدرسة الوصفية فى الفكر الدينى لا تعنى كثيراً بخط التطور الذى استقطب جانباً كبيراً من الفكر الإنسانى بعد ما نادى به « دارون » .

والذى أود أن أقف عنده قليلا : أن القول بالتعدد عند القبائل الوثنية خضع لدراسات علمية حديثة ألقت عليه ضوءاً يكشف جوانب جديدة من الفكر الدينى عندهم .

وليس فينا من شهد مولد الحياة البشرية على الأرض ولا مولد الدين . وليس أمامنا بعد النصوص الدينية إلا أن نقرأ فى كتاب الحياة المفتوح ، فى هذه الشعوب التى طالما رميناها بالوثنية ، لنرى فيها صورة أقرب ما تكون إلى فجر الحياة الإنسانية .

فى قلب أفريقية :

وسنرحل معاً — فكرياً — إلى قلب أفريقية . ودليلنا فيها بحث كتبه الأستاذ « هانزبرى » عن الديانات الأفريقية المحلية ونشره فى كتاب « أفريقيا كما يراها الدارسون من الزنوج الأمريكيين » (١٩٥٨) ، وهذا الكتاب حلقة من سلسلة من الدراسات العميقة قام بها أبناء أفريقيا فى أمريكا حاولوا فيها أن ينظروا إلى قارتهم من جديد بعيونهم هم ، لا بعيون المستعمرين . وأن يعيدوا تقييم حياتهم وقارتهم . وهو يتواكب مع جهود كبيرة من أبرزها ما اتجه إليه « اليونسكو » أخيراً وهو يضع خطوطه الرئيسية هذا العام (١٩٧٢) ، من كتابة التاريخ العام لأفريقية ، على أساس من إظهار وحدتها الحضارية .

وبحث الأستاذ « هانزبرى » يستند إلى تقارير أصيلة لباحثين يرجعون إلى مطلع القرن السادس عشر وما بعده حتى القرن العشرين .

فهو ينقل عن الدكتور « دابر » (١٦٦٨) ، ودراسته من أعظم الدراسات الواعية عن ممالك وثقافات أفريقية المدارية . وقد كتب عن مواطنى مملكة بنين — وكانت وقتذاك من أعظم دول ساحل غانا — « أنهم كانوا شعباً دمث الأخلاق ، يعيشون معاً فى سلام وتسودهم عدالة وقوانين صالحة .. وعرفوا حق المعرفة أن هناك إلهاً فطر السموات والأرض وهو حاكمهما » .

وتتعاقب الدراسات . . .

يقول « دافيد فان فايندال » عن مملكة بنين : « ليست لديهم فكرة خاطئة

عن الله ، فهم ينسبون إليه صفات القدرة والعلم بكل شيء وعدم إمكان رؤيته. ويؤمنون أنه يسير الأشياء كلها بحكمته ، ولأن الله لا يمكن رؤيته فإنهم يقولون إنه من الحمق صنع أية تماثيل تجسيدية له ، ويصرون على استحالة صنع صورة لمن لم تره عين » .

ويقول « منجوبارك » — وكانت دراسته فى العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر ، وقد درس دول غانا ومالى والصنغاى — يقول عن السكان غير المسلمين هناك : « ولقد تحدثت مع أناس من جميع الطبقات عن عقيدتهم ، وأستطيع أن أجزم — دون أدنى شك — أنهم يؤمنون بإله واحد وباليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ، ويعتقدون أن الله خالق الأشياء جميعاً » .

وبعد هذا بنصف قرن جاء مبشر أمريكى هو « ليتون ولسون » ليقول : « بين الشعوب الوثنية فى ساحل غانا وما بين الرأس الأخضر والكمرون ، يسود إيمان بكائن أعلى خالق الأشياء جميعاً وحفظها . ولا يشوب هذه الفكرة فى أذهانهم غموض أو نقص : بل إن هذه الفكرة محفورة فى طبيعتهم الأخلاقية والعقلية حتى إن الإلحاد فى أية صورة من صوره هو عندهم سخف وانحراف عن الصواب لا يستحق حتى عناء الإنكار » .

وبينما كان « ولسون » يقوم بدراساته فى غرب أفريقية كان « لفنجستون » يقوم بدراسات فى منطقة الزمبيزى يقول عنها : « لدى كل الأهالى فى هذا الإقليم فكرة واضحة عن الكائن الأعلى خالق الأشياء جميعاً والمهيمن عليها . وهم جميعاً ومن حولهم يؤمنون بوجود الله وخلود الروح والمجازاة على الخير والشر » .

وأضيف إلى هذا تأكيداً آخر من القرن العشرين جاء فى كتابات العلامة الفرنسى الكبير « موريس ديلافوس » (١٨٧٠ — ١٩٢٦) ، فهو يذهب إلى أن التصوف الدينى عند الأفريقى لا يسيطر على نظرته إلى الدنيا فقط وإنما يتعداها إلى عالم الغيب . فكل نشاط فردى أو جماعى ، سواء أكان

ذا طبيعة اجتماعية أم سياسية أم اقتصادية أم دينية تتحكم فيه أساساً اعتبارات ذات طبيعة صوفية ودينية .

ويذهب « ديلافوس » إلى أن الزنوج الذين يقال عنهم إنهم لا دين لهم هم فى الوقع من أشد شعوب العالم تديناً .

بل إن الأفريقيين يطلقون على الخالق الأعلى صفات نراها فى الأديان السماوية الكبرى : الخالق . الهادى ، الحفيظ (على العالم) .

ونود أن نقف عند هذا الحد من اعتمادنا على بحث « هانزبرى » ، وفيه يتابع — فى تفصيل — نظرة الأفريقى إلى العلاقة بين الله والإنسان وفكرة الروح إلخ . . فالذى يعنينا أساساً هو وجود « الإيمان بالله الكبير المتعال » عندهم .

هذه النظرة قد لا تتفق مع المدرسة التطورية . ولكن هذه البحوث العلمية تؤكد وجود الإيمان بالله فيما تعارف كثير من الباحثين على تسميته بعصر الخرافة .

عودة إلى الإسلام :

وإذا ما عدنا إلى كتاب الله، نسأله تفسير ذلك ، قرأنا قوله تعالى عن رسله :

« مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ » (غافر : ٧٨) ، وقوله تعالى : « وإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ » (فاطر : ٢٤) ، وقوله عن الإيمان وإسلام النفس لله : « فأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا » (الروم : ٣٠) .

نعم . إنها فطرة الله .

نراها وسط الغابة العذراء . .

نراها فى قلب أفريقية . .

نراها عند شعوب طالما نعتها بعض كتاب الغرب بالتخلف والتأخر . ليتخذ من هذا تبريراً لاستعمارها واستنزاف خيراتها .

إنه يدعى القيام بواجب تطويرها . فهذا عنده عبء الرجل الأبيض . ولكن البحث المنصف والنظرة المستأنية تثبت وجود الإيمان وجذوره الأصيلة فى النفس الإنسانية .

قد تشوب هذه النظرة بعض الخرافات ، وقد يلحق بها شىء من الزيف ، ولكن الحقيقة التى تستعلى على هذا كله هى الإيمان بوجود الله الكبير المتعال .

ولا نستطيع – على أساس علمىّ – أن نجد جماعة البشرية لا دين لها . الدين مرتبط بالحياة ، والإنسان بهذا كائن مؤمن . هذه هى الفطرة ، وهذه هى النظرة العلمية لهذه الشعوب .

ونستطيع بعد هذا أن ننتقل إلى وضع الدين فى عصر العلم .

فى عصر العلم :

والفكر الدينى المعاصر يمرّ فى تفاعل كبير من أبرز مظاهره :

١ – انحسار فى المدّ الدينى فى عدد من الدول أمام الفكر المادى . ولكن جانباً من البحوث الحديثة فى هذه الدول ، وبخاصة فى مجالات علم النفس ، أبرزت أمام العلماء ظاهرات وقف أمامها العالم المادى حائراً . وهذه الظاهرات تؤكد وجود قوى وراء الحس المتعارف عليه .

٢ – عمق الفكر الدينى ، وبخاصة فى العالم الثالث . وذلك لارتباط الشعور القومى والرغبة فى التحرر من السيطرة الاستعمارية ببعث كل القوى

القومية ، ومن بينها الدين ، لتكون مدداً لمعارك التحرير والتطوير . وليس هذا البعث مقتصراً على الإسلام . وإنما هو ظاهرة تشمل المسيحية بكنائسها المختلفة واليهودية والهندوكية والبوذية .

٣ — أن هذا البعث يستهدف ربط الدين بالحياة ، بحيث يصبح الدين مدداً لهذه الحياة ، لا عقبة فى سبيل تطورها . وحين أقول الدين فلا جدال فى أن جوهره الصافى يمد الحياة بزاد قوى ، وإنما القضية فى موقف بعض رجال الدين — أى دين — من قضية التنمية وما يرتبط بها من تغييرات فى المجتمع .

وليست مهمة الدين هنا أن يبرر أمراً قائماً ، وإنما أن يكون عوناً على الحياة .

٤ — وفى دول أخرى متقدمة حاول رجال الدين القيام بهذا الربط ، فى حين انصرفت طوائف من المجتمع عن الدين انصرافاً جزئياً أو كلياً فرحين بما أوتوا من العلم ومتع الحياة . كأن هذه الحياة هى كل شىء : لا قبل ولا بعد .

وهنا نجد أنفسنا على مفرق طريقين فى البحث :

١ — طريق مع الذين لا يؤمنون .

٢ — طريق مع الذين يؤمنون ولا يعملون .

ولنبدأ بالطريق الأول :

مع الذين لا يؤمنون :

وأهل الدين يلجأون عادة إلى براهين إذا كانت محددة المسالك فهى مختلفة الوسائل ، أو على الأصح متطورة الوسائل .

يتحدثون عن دليل الصانع : كل مصنوع له صانع . وعن دليل الغاية : فلكل عمل غاية وجزاء . وهذا الكون إلى غاية وجزاء . وعن دليل الكمال .

فنحن نستهدف الدقة والكمال في كل شيء ، فلا بد من الكمال المطلق .

فالله في الإسلام « هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (الحديد : ٣) ، الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ » (السجدة : ٧) .

وينبغي مع تطور العلم أن نتخذ منه أداة لتأكيد الإيمان . دليل الصانع دليل الغاية ، دليل الكمال . كل أولئك نستطيع أن نؤكده بكشوف العلم الحديث .

وأصبحت المؤتمرات الآن تعقد على الصعيد العالمي لوضع العلم في خدمة الدين . وقد لا يتسع المجال لعرض تجارب الأديان الأخرى . ولكني أود أن أقول في إيجاز : إن علماءهم المختصين يجتمعون ليضع كل منهم خبرة علمه في خدمة دينه . وتقدم هذه المادة العلمية لرجال الدين ليحولوها إلى عظات ومؤلفات . ويتابع رجال الدين تطبيق التجربة على الطبيعة وتقويمها وتطويرها .

هذه المسائل لا تعالج في عالمنا المعاصر بحساسية ، وإنما لها مؤتمراتها ومؤلفاتها . ونحن في أشد الحاجة إلى تطوير وسائلنا على هدى من هذه الوسائل فهي منهج علمي إنساني غير متقيد بدين من الأديان .

علم كلام جديد :

وإذا كان آباؤنا في العصر العباسي قد قابلوا التفاعل مع الفكر اليوناني والفارسي والهندي « بعلم الكلام » ، وبذلوا ما بذلوا من جهد في تأكيد العقيدة والدفاع عنها ، وقام الحوار بينهم خصباً بين الأديان والمذاهب

المعاصرة ، ومن أجل ذلك ذهبت وفود إلى بلاد الروم وجاءت كتب ونشطت حركة الترجمة ، فما أحرانا الآن بأن يكون لنا « علم كلام جديد » يقابل مشكلات العصر بفكر العصر ، ويضع منجزات العلم فى خدمة الدين ، ويكون قريباً من فكر شبابنا وعقله .

نماذج :

ولعل النماذج توضح شيئاً من ذلك . .

عالم النحل على سبيل المثال كان مجال دراسات مستفيضة من أبرزها دراسات العالم النمساوى « د . كارل فون فريتش » ، ولقد بين بها أن النحل له لغة يتفاهم بها ، لغة من الرقص والحركة .

أ هناك الرقصة الدائرية التى تتخذ صورة دوائر صغيرة متتالية فى اتجاه عقرب الساعة ثم تعكس اتجاهها . . وهذه يستخدمها النحل للدلالة على المسافات التى تقل عن مائة متر .

رقصة الذنب وهذه على شكل رقم 8 وهى لما زاد على مائة متر .

ولاحظ الباحث أن النحلة تستطيع أن تستعين باتجاه رأسها على تحديد مكان الهدف (الزهور) بالنسبة إلى الخلية فإذا كان الرأس إلى أعلى كان الطعام فى اتجاه الشمس ، وإذا كان الرأس إلى أسفل كان الطعام عكس اتجاه الشمس .

ولاحظ أن النحلة لا تواجه الشمس دائماً بحركة رأسها فى رفعها وتنكيسها وإنما تنحرف أحياناً عن هذه المواجهة يميناً أو يساراً بزوايا انحراف متباينة وزاوية الانحراف هذه تثبت أن ضلعيها :

ــ الخط الوهمى الممتد بين الخلية واتجاه الشمس وهو الخط الأساسى عند النحلة .

ــ الخط الوهمى الممتد بين الخلية ومكان الطعام أو الزهور .

فالنحل بهذا يستخدم الشمس فى تحديد مكانه وتحديد زاوية انحرافه عنها . وهذه هى بوصلة الشمس التى يستخدمها النحل فى صفو السماء وغيمها ويحدد بها سبيله .

ولنقرأ مع هذا قول الله تعالى :

« وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً » (النحل : ٦٨ — ٦٩) .

ولنقف متأملين فى قوله تعالى : « فاسلكى سبل ربك ذللا » .

وما زالت الدراسات مستمرة ، وعرف الإنسان بها جانباً من منطق الطير .

وهناك آفاق واسعة فى عالم الحشرات والأسماك ، بل الإنسان وبديع صنع الله فيه ، وما يكشف العلم من قوى مذخورة .

ولنا بعد هذا أن ننتقل إلى عالم الطيور وما فيها من هجرات جبارة تصل إلى خمسة آلاف ميل فى الرحلة . . ثم ننتقل إلى عالم الفلك ومواقع النجوم ، ثم إلى عالم الذرة والوزن الذرى للعناصر . والروعة المعجزة فى جدول « مندليف » وترتيب العناصر فيه كأنها سلم موسيقى . وكيف انتهى الإنسان إلى تحويل المادة إلى قوة . . وتبقى بعد هذا الجاذبية ، وهى ذلك الرباط الذى يربط الكون كله . بقى الزمان والمكان ويربط بينهما « أينشتين » فيجعلهما شيئاً متواصلا فى أعماق الحقيقة :

ولنذكر قوله : « إن دينى هو إيمانى العاطفى العميق بوجود قدرة عاقلة مهيمنة تتراءى حيثما نظرنا فى الكون المعجز للأفهام . ومن هنا ينبع الإيمان بالله » .

كل هذه أساليب حديثة يمكن أن نستعين بها على تأكيد العقيدة وإثبات الإيمان بالله .

مع الذين يؤمنون ولا يعملون :

فإذا ما أحسسنا عَرْفَ العقيدة والإيمان ، كان علينا بعد هذا أن نربط بينهما وبين واقع الحياة . إن العقيدة بالنسبة للإنسان دافع إلى عمل ، وعاصم من الانحراف ، ومعيار للمستوى الأخلاقي الذى نمارس به الحياة .

الدين ليس بديلا للعلم ، ولا منافساً لتطوير الحياة .

إنه عصارة حيّة تسرى فى جسم المجتمع . إنه : « صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً » (البقرة : ١٣٨) .

أنت تراه فى السياسة والإدارة والاقتصاد والاجتماع .

تراه على مستوى الفرد وعلى مستوى الأسرة والمجتمع والإنسانية كلها .

هو ترجمة قوية لأهدافنا وعمل صادق من أجلها .

ما الدين عند الطالب ؟ إنه عكوف على عمله ، وعناية بصحته ، وأداء لواجبه نحو وطنه ، ليكون مدداً لكل من الجيش والجبهة الداخلية .

ما الدين عند الجندى ؟ إنه استعداد متكامل ، وسلاح قادر على إرهاب الخصم ، واستيعاب للعلم الحديث ، وتعاون وتلاحم مع قيادته وزملائه ، وثبات فى المعركة .

ولك أن تقول هذا عن كل موقع . .

وعلينا أن نترجم الدين إلى واجبات وثيقة الصلة بالحياة . هكذا يفعلون ، وعلينا أن نفعل .

ولا نكتفى فيه بمجرد الوعظ النظرى ولا مذهب الرفض لكل جديد ، ولا إدانة أى تطوير . وإنما تفاعل صادق مع الحياة يثريها ويثرى بها على مسيرة مبصرة إلى غد واضح مخطط شعاره العلم والإيمان . .

النبي صلى الله عليه وسلم والعلم *

* بحث نشرته مجلة الهلال (القاهرة) عدد أكتوبر ١٩٧٢ م ص ١١-١٧

ليلة في مكة :

منذ عامين ، وبالتحديد فى أوائل شهر شوال ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م) كنت فى مكة أؤدى منسك العمرة بعد عودتى من رحلة فى الشرق الأقصى .

كان قمر شوال يغمر الجبال حول مكة بفيض من النور الهادئ ، ومعى صديق حجازى قديم الود ، واتفقنا على أن نقضى الليلة أقرب ما نكون إلى رسولنا عليه الصلاة والسلام .

وذهبنا إلى شعب بنى هاشم حيث ولد المصطفى ، وقد أصبح المكان الآن « مكتبة عامة » يفد إليها طلاب العلم . . وارتبط مكان المولد — عمليًّا — بالعلم والسعى إليه .

وغير بعيد عن مكان المولد الشريف ، بيت أبى طالب وبيوت الكرام من الصحب والأهل والعترة التى حملت مع الرسول الأعظم لواء العلم والعمل .

سرنا فى الطريق التى كان يسلكها الرسول الأعظم إلى غار حراء . . ووقف صديقى عند صخرة :

— هنا كان يجلس الرسول فى طريقه إلى الغار ، هنا مساره . .

وتابعنا السير ما استطعنا ، وحملتنا السيارة إلى قرب جبل النور . . وصعدت عيوننا على الطريق الوعر إلى الجبل الصديق ، الذى قضى فيه الرسول ماشاء الله له أن يقضى .

نور من القمر . .

ونور نحس به منبعثاً من الجبل . .

والليل قارب الانتصاف . والصمت يلفنا ويلف الأحياء من حولنا ، وجلال الذكرى يصرفنا عن الإحساس بالزمان . .

أنحن قريبون من المكان الذى نزل فيه الروح الأمين ؟

وهنا . نعم هنا ،! نزل الأمر الإلهى الأول : « اقرأ » . نزل على النبى الأمى الذى أجاب أول ما أجاب « ما أنا بقارئ » . . ويتكرر الأمر

« اِقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ » (العلق : ١) .

اقرأ باسم ربك :

ولنقف قليلا عند هذا الأمر الأول لنرى فيه بعض توجيهات الله لنا فى طلب العلم . .

وإن أكبر تكريم للعلم أن يكون الأمر الأول الذى أنزله الله على رسوله .

وإذا ما رجعنا إلى سورة القلم ، وهى ثانية سور القرآن نزولا بعد سورة العلق ، وجدنا فى صدرها أن ربنا يقسم بالقلم وما يسطرون :

« (ن ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ » (القلم : ١) .

الأمر الإلهى الأول هو القراءة .

القسم الإلهى الأول بالقلم أداة الكتابة .

والله يقسم بالقلم فى حركته: « وما يسطرون » ، فعامل الحركة هنا إنما هو تعبير عن وظيفة القلم ، عن الأداء . .

ونعود إلى سورة العلق لنرى فيها أن القراءة « باسم ربك الذى خلق »، ونحن فى حياتنا نرى أنواعا كثيرة من القراءة .

قد تكون القراءة باسم التسلط والهوى والشهوة والاستعلاء الكاذب .

قراءة الدول الاستعمارية وما عندها من علم وضعته فى خدمة عدوانها الاستعمارى .

قراءة الاستعمار الأمريكى فى أرض « فيتنام » . وقراءة إسرائيل فى

فلسطين والأرض العربية السليبة .

كل أولئك علم وقراءة . ولكنها ليست باسم الله .

ويبدو من ذلك ضرورة ربط العلم فى الإسلام بهدفه الأخلاقى : أن يكون باسم الله وأن يكون فى خدمة الإنسان .

بل لو تعمقنا فى التأمل فى هذا الأمر الأول لوجدنا فيه عمقاً عميقاً فى قول الله « باسم ربك » ولم يقل باسم الله . . لماذا ؟ لفظ رب يدل على التربية والتكوين والرعاية ، رعاية تبدو فى الآية فى رحلتين :

الأولى : رحلة الخلق : « اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ » (العلق : ١ — ٢) .

الثانية : رحلة العلم : « اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ » (العلق : ٣ — ٥) .

وكان القلم فى الآية الأولى « أداة » يذكرها القرآن ، كما كان أول ما أقسم به الله كما رأينا فى سورة « القلم » .

عبقرية هذا الدين :

وأعود إلى ليلة فى مكة ، على خطا الرسول الأعظم ، وهو فى تقلبه بين داره وغار حراء . أسير مع صاحبي فى ليل يغمره ضوء القمر ، ويحتوينا صمت مبين ، نسمع فيه بآذان القلب ، صوتاً حبيباً جاء رحمة للعالمين .

وكنت أتخيل لفظ « اقرأ » حينما نزل على الرسول ، كأنما نزل على سطح التاريخ ، فأحدث فيه سلسلة من التموجات المستمرة التى استطاعت أن

تعبر الجزيرة العربية إلى ما وراءها ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، وما زال أثرها مستمراً .

فلننظر إلى بعض هذه الآثار فى حياة الرسول وبعد لقاء ربه :

الظاهرة الكبرى فى حياة الرسول أن المجتمع الإسلامى – بكل مقوماته – كان يتكون والوحى ينزل ، وبعبارة أخرى : أن تكوين المجتمع الإسلامى لم يأت « لاحقاً » و « متأخراً تاريخياً » عن نزول الوحى على الرسول . . وتبدو من هذه الزاوية عبقرية هذا الدين إذا ما قارناه بغيره من الأديان الكبرى .

فالأوامر الإلهية لم تبق نصوصاً مكتوبة تبحث عن التنفيذ ، ولم يعش الإسلام على المستوى النظرى دون ارتباط وثيق بالقاعدة العملية ، وإنما جمع الرسول بين شخصية « القائد » الذى يدير المجتمع ، و « الداعى » إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة .

والقيادة مشكلات وصراعات . والسمة الغالبة للنبوة دعوة وتجميع . وكان على الرسول أن يخوض – على الأقل – هاتين المعركتين بكل أبعادهما . . ووسط هذه الصراعات جميعاً كانت الدعوة إلى العلم ووضعه فى مكانته الكريمة . .

١ – كان الوحى يسجل أولا بأول . . والذين قاموا بهذا حملوا اللقب الكريم « كتاب الوحى » ، وكان هناك تجميع دقيق من أول الأمر بمقاييس العصر لهذا العمل ، ومراجعة مستمرة عن طريق القراءة والحفظ والتطبيق . ولم يشهد القرآن فجوة تاريخية بين نزول الوحى والتسجيل .

وعندما اشتد الصراع بين القاعدة الإسلامية وما حولها ، واستشهد فيه نفر غير قليل من حفاظ القرآن ، بذل الخلفاء الراشدون جهوداً علمية دقيقة فى حفظ وجمع وكتابة المصحف الجامع . فكان الدفاع عن الإسلام دفاعاً عن أرض الدين وكتابه الأكبر فى الوقت نفسه . ويسر الله

لهذا الكتاب مالم ييسره لغيره ، وما زال فى مقدور الطفل قبل أن يبلغ الحلم أن يحفظ القرآن كله .

٢ — ولم يكن حفظ القرآن مجرد ترديد كلمات ، وإنما دعوة دائبة إلى طلب العلم والعمل به . .

المسلم يقرأ فى كتاب الله :

* قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ » (الزمر : ٩) .

* وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً » (طه : ١١٤) .

* وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (النساء : ١١٣) .

٣ — وهو يسمع من الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه :

— العلماء ورثة الأنبياء .

— العلماء أمناء الله على خلقه .

٤ — وهو يرى هذا العلم شاملا كل نواحى المعرفة الإنسانية . وطلب المعرفة عبادة وحياة . ويقرأ قول الله تعالى :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ

اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ » (فاطر : ٢٧ و ٢٨) .

فيرى فى الآية إشارات إلى الظاهرات الجوية والنبات والصخور والناس والحيوان . وهى رءوس موضوعات أصبح كل منها علماً بل علوماً رحبة .

والآية تضم هذه العلوم جميعاً ، وتربطها بخشية الله ، فتعطى العلم مضموناً أخلاقياً ، وتراه طريقاً إلى معرفة الله وخشيته ، وأن مطالعة آياته تزيد الإنسان إحساساً وإيمانا بعظمة الله وقدرته .

٥ — وبرزت مكانة العلم فى مجتمع المدينة حينما حدد الرسول لكل أسير من غزوة « بدر » أن يعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة ، فكان فداء الأسير مقابلا لتحرير المسلم من رقّ الأمية .

٦ — وشجع الرسول الصحابة على طلب العلم ومعرفة اللغات الأجنبية ، فكان الصحابى الحافظ زيد بن ثابت يعرف السريانية والفارسية والحبشية والقبطية والرومية . . وعندما احتاج المجتمع إلى من يجيد العبرية ليكون ترجمان الرسول بها ، تعلمها زيد وقام بهذه المهمة .

٧ — واستعان الرسول بخبرات الصحابة والبحوث العلمية لتعلم فنون من الحرب استلزمها حصار المدن كصناعة المجانيق والعرادات والدبابات .

وثبة بالفكر الإنسانى :

ومما يسترعى انتباه تمجيد القرآن للعلم ، وضخامة هذه المادة فى القرآن الكريم بحيث إنها وردت هى واشتقاقاتها نحو ثمانمائة وثمانين مرة .

هذا الرقم الذى يقرب من الألف يعطينا وحده فكرة عن مكانة هذه المادة فى الإسلام ، والوثبة الجبارة التى وثبها بالفكر الإنسانى حاملا معه التراث القديم من الصين والهند وفارس واليونان والرومان ، فى الوقت الذى

كانت أوربا فيه متنكرة لهذا التراث ، وحفظه ، وأضاف إليه إضافات مبدعة وقدّمه إلى الأجيال التالية فى أمانة وسعة أفق .

وما بعد الرسول :

وقد تكون من أدق المقاييس التى توزن بهادعوة قدرتها على الاستمرار بعد وفاة قائدها .

والنبى — عليه الصلاة والسلام— علم المسلمين ، والدنيا معهم ، أن جهاد الإنسانية واحد . والإسلام — كدين — ليس منقطعاً عن النبوات السابقة. ومحمد صلى الله عليه وسلم كنبى ورسول هو ختام هذه السلسلة النورانية من الأنبياء والمرسلين . والذين يأتون من بعده هم الأمناء على هذا التراث الكبير .

ولنا أن نعود إلى سورة الأنبياء فى القرآن الكريم لنرى تصويراً لهذا الإخاء الإنسانى الكريم . . .

فى السورة يقص علينا ربنا قصص موسى وهارون وإبراهيم ولوط وإسحق ويعقوب ، ويعود إلى قصة نوح ، ثم يدرس قصص داود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذى النون وزكريا ويحيى ومريم وعيسى . . ويعقب على هذا القصص بآية جامعة هى قوله تعالى :

« إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ » (الأنبياء : ٩٢) :

أمة تضم هذا الجهاد كله ، وتتقرب إلى الله باحترام جميع الأنبياء وما دعوا إليه من خير . آية هى على الصعيد المحلى آية الوحدة الوطنية ، وعلى الصعيد العربى آية الوحدة العربية ، وعلى صعيد العالم الإسلامى آية الإخاء وعلى الصعيد العالمى آية المحبة التى تصور الناس جميعاً أمة واحدة . . ومن هذا المنطلق المؤمن جاءت نظرة الإسلام إلى التراث الإنسانى .

هذا هو الأساس الذى نظر به المسلمون بعد عهد الرسالة إلى التراث الإنسانى وحفظوا به ما أبدعته عقول الأمم الأخرى وأضافوا إليه .

وإذا ما تتبعنا هذه النهضة العلمية الكبيرة والسماحة العلمية التى شهد بها مؤرخو تاريخ العلم مثل «جورج سارتون» فى مؤلفاته ، لبعد بنا القول عن الموضوع الذى نطرقه فى هذا الحديث ، ولكننا نرد هذا إلى البذور الأولى فى عهد النبوة .

ولم يقتصر جهد الحركة العلمية الإسلامية على مجرد التحصيل والتوثيق ، وإنما امتدت إلى البحث عن قوانين الحياة فى مجالاتها الطبيعية والبشرية . . وإذا شئنا تعبيراً قرآنياً كان مجال البحث هو الآفاق والأنفس . .

وأقرب النماذج إلينا ما قام به ابن خلدون فى مقدمته من محاولات لكشف قوانين تطور المجتمع . .

وفى مجال الفن تستطيع أن ترد أى قطعة من الفن الإسلامى إلى أصلها ، ومن اليسير عليك أن تعرف ملامحها إذا ما رأيتها بين قطع من فنون أخرى ، وكأن هؤلاء جميعاً تأثروا بعنصر أصيل هو العقيدة الإسلامية التى عبرت عن نفسها فى مجالات الحياة جميعاً . .

خاتمة :

وأعود إلى ليلة فى مكة ، غير بعيد عن جبل النور ، وأتذكر نزول الوحى أول ما نزل القرآن ، وكيف شعّ نور العلم من جبل النور يحمله الرسول الأعظم ويتحرك لسانى بقول الله تعالى :

« يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً » (الأحزاب : ٤٥–٤٦) .

في ليلة القدر *

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ)

(الدخان : ٣)

صدق الله العظيم

* بحث نشرته مجلة الهلال (القاهرة) ، عدد نوفمبر ١٩٧٢ (ص ٥ – ١١)

« إِنا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ »

هناك ترابط بين ظاهرتين فى القرآن : نزول الوحى ، ونزول المطر .
الأولى حياة القلوب ، والثانية حياة الأرض بعد موتها .

ولنستمع إلى قول الله تعالى فى سورة الرعد :

« أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ »(17) .

ثم قوله تعالى :

« أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ » « الرعد ١٩ »

ولنقف قليلا عند هذا التشبيه :

ينزل المطر فتحمله أودية تتباين ضيقاً واتساعاً ، وتنزل أوامر الله فتحملها قلوب تختلف قوة وضعفاً .

وفى تدافع الماء يطفو الزبد ويلمع ويجتذب النظر ، ولا قيمة له .. فى حين

يحملْ الماءُ الطينَ الداكنَ ويتعاونان معاً على إيجاد التربة الصالحة ، وهى ما ينفع الناس .

وعند صناعة المعدن لحلية أومتاع يطفوخبث المعدن– وهو زبد – ويظل أفضل المعدن دون ذلك .

الزبد باطل ، وهو يطفو على سطح الماء ، والتيار مندفع .

والخبث باطل ، وهو يطفو على سطح المعدن ، والنار مشتعلة .

كذلك باطل الحياة قد يطفو ، باطل الناس والقول . قد يدفعه التيار أونيران الحياة إلى السطح . ولكن فى الصراع بين الحق والباطل يبدو قانون إلهى :

« كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ » .

ولنا أن نرجع إلى سورة البقرة لنرى نماذج من الترابط بين أمر الله والعمل به والنية فى الإقبال عليه :

فالذى ينفق ماله رئاء الناس .. « فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً »(٢٦٤)

والذى ينفق ماله خالصاً لوجه ربه مثله « كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »(٢٦٥)

هذا عن الوحى ، ونزوله ، والعمل به . .

خير من ألف شهر :

ويوم نزول الوحى خير من ألف شهر . .

ويوم من الغيث خير من ألف شهر تتطلع فيها الأعين إلى المطر ، انتظاراً لرحمة السماء .

ليلة القدر خير من ألف شهر .

ورحم الله أم المؤمنين أم سلمة حينما بكت عند موت النبى عليه الصلاة والسلام وعبرت عن جانب من ألمها فى قولها : إنما أبكى لانقطاع خبر السماء .

هذه هى الصلة الدائمة . وحى من السماء ينزل فتتلقاه القلوب الواعية حفظاً وعملا . كلامه أفضل كلام . ويومه أفضل الأيام . إنه صلة السماء بالأرض فما صلة الأرض بالسماء ؟

العبادة :

فلنسمعها فى قول الله تعالى :

« وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » « الذاريات : ٥٦ » .

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ » « البقرة : ١٨٦ » .

وليست هناك ليلة تقترب فيها السماء من الأرض كما تقترب ليلة القدر . ولا دعاء يرفع فى ليلة أفضل منها . .

ليلة القرآن والملائكة والروح والسلام : .

والعبادة فى الإسلام معنى شامل . إنه قصد الله بأى عمل طيب . وكل منا يستطيع أن يعبد ربه حيث يكون : فى المحراب وفى الميدان، فى قاعة العلم ، فى جوف المنجم ، فى الفضاء .

والدعاء قصد وتوجه نحو خزائن الله . ومفاتيحها طاهرة لا يمسها إلا المطهرون .

والدعاء والعبادة والعمل ، كل أولئك تعبير عن الإيمان .

إنها جميعاً « الحركة الثانية » ، بعد « نزول الوحى » .

من أجل ذلك نجد فى القرآن الكريم تشبيه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة : أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

الشجرة نتيجة الغيث وثمرته .

والدعاء نتيجة الوحى وثمرته .

كلاهما تعبير نبت من الأرض الطيبة والقلب الطيب . ومن نبينا تعلمنا « إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا » .

وبهذا تكتمل الدائرة نزولا من السماء وصعوداً إليها — وحى وعبادة : وتتمثل هذه الدائرة فى أروع صورها فى ليلة القدر .

وتخبرنا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عن سؤالها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عن أفضل الدعاء ليلة القدر . فيأتى رد الرسول الكريم : قولى : اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة .

ولك أيها القارئ الصديق أن تعرض عملك كله على هذا الدعاء، عفواً عما فرط منك وأنت على الطريق . عافية فى أمر دينك ودنياك وأخراك .

سلام هى ..

والوحى والعمل والدعاء والعبادة ، كل أولئك ينتظمه إطار كبير هو السلام .
والسلام فى الإسلام من أسماء الله الحسنى .

وهو تحية المسلمين فى الدنيا .

وهو تحيتنا حين نختم الصلاة .

وهو دعاؤنا يوم الحج الأكبر : اللهم أنت السلام، ومنك السلام ، وإليك يعود السلام ، فحيّنا ربّنا بالسلام . .

وهو حديث أهل الجنة . . « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً. إِلَّا قِيلًا سَلَاماً سَلَاما » (الواقعة : ٢٥ - ٢٦) .

وهو تحية الملائكة للمؤمنين فى جنات النعيم . . « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ » (الزمر : ٧٣) .

ومن أجل السلام جاء الإسلام . .

وليلة القدر هى ليلة السلام . .

ولكن أى سلام نريد ؟

إنما نريد سلاماً قائماً على العدل .. سلاماً يباركه الوحى والملائكة والروح.

ومن أجل هذا السلام نعمل ونجاهد ونعد أنفسنا سياسيًّا واقتصاديًّا وعلميًّا على أساس من هدى القرآن الذى جاء مصدّقاً لكل نبى ورسول . .

من أجل السلام القائم على العدل ، نعمل لاسترداد القدس الأسير والأرض السليبة وحقوق شعب فلسطين .

ومن أجل السلام القائم على العدل ، ننصر كل مظلوم ، ونتعاون مع كل يد حرة شريفة حتى يطلع الفجر . . فجر العدل والسلام .

تدور مع العام :

وهذه الليلة مع فضلها تدور مع العام . تأتينا صيفاً وشتاء، تطول وتقصر .. .. ونحن نلتمسها فى العشر الأواخر من رمضان . ولك أن تربط هذا بأوقات الفضل فى الدعاء، ستجدها هى الأخرى دائرة مع العام أو مع اليوم أو مع العمل . .

وكل أولئك يدعوك إلى أن تعمل دون أن تقصر جهدك على يوم أو ليلة .

وما دمت تحمل بين جنبيك روح القرآن فأنت تحمل بين جنبيك روح هذه الليلة المباركة . فما تقرب عبد إلى الله بأفضل مما جاء من الله .. وهو القرآن الكريم تدارساً وعملا وصياغة للحياة على أساس من هداه الكريم .

وإن أمة تقوم بهذا كله تكون أمة « القدر » التى استفادت من « ليلة القدر » .

الوجود الاسرائيلى وصراعه مع الإسلام والمسيحية *

* دراسة فى : ١٥ مارس ١٩٧٣

دراسة :

أولاً : مدخل منهجي

١ ــ معاداة السامية :

هناك جوانب من الحديث عن إسرائيل استعد لها الفكر اليهودى العالمى ووضع لكل جانب منها ما يقابله :

فإذا كان الحديث تعميماً عن اليهودية رفع اليهود أمام المتحدث شعار معاداة السامية . وقد أفلحوا فى نحت هذا الشعار وإدخاله فى مصطلحات العلاقات الإنسانية واعتبروا اللاسامية أمراً غير إنسانى وعنصرية بغيضة حتى أدخلوا حرب اللاسامية فى وثائق التفرقة العنصرية التى تصدرها الأمم المتحدة .

وتنشط الصهيونية العالمية وتحرك معها معظم القاعدة اليهودية فى العالم ، ويتعدد ولاء المواطن اليهودى بين دولة ترعاه وتوفر له ولأسرته ولأولاده من بعده الاستقرار والرزق ومجالات العمل ، على حين يكون ولاؤه لإسرائيل رغباً ورهباً . فإذا ما أرادت الدولة والشعب الذى يعيش بينه أن يوقفه عند حده . ويحول دون وجود جيوب داخلية تأتمر بأوامر خارجية ــ صاحت إسرائيل ومعها أبواق الدعاية فى العالم : هذه معاداة للسامية وهذه عنصرية بغيضة . وهؤلاء يهود مواطنون تحاربهم الدولة لأنهم يهود ، وينقلون القضية من أى مجال آخر ، ويتشتت انتباه الناس بين دعوة إنسانية نظرية ، وحقائق خيانة عملية .

وليس هذا مجال تفنيد هذه الدعوة ولا نقل الحديث إليها ، وإنما الذى أود ذكره ، أنها من صنع الفكر الصهيونى كستار يختفون وراءه ، وتهمة يوجهونها إلى من يدينهم على خطأ قاموا به .

٢ ــ عقدة النازي حائط مبكي جديد :

وإذا ما كان الحديث عما حاق باليهود فى العصر الحديث جاء ذكر فظائع النازى وما قاموا به ، ولقد ظل إلحاح اليهود بقيادة إسرائيل على هذا الموضوع وتضخيم أعداد من هلكوا فى سجون ومعتقلات وأفران النازى إلى أرقام خرافية ، أثبت البحث العلمى المنصف أنها غير صحيحة ، وأن المبالغات فيها على الأقل تصل إلى عشرة أضعاف .

واستطاعوا بهذا أن يرهبوا الفكر الإنسانى ، وأن يحملوه أوزاراً لم يرتكبها ، واشتد الضغط على أوربا وبصورة مكثفة على ألمانيا . وإذا بخط أنابيب اقتصادى يبدأ من مصادر الثروة فى ألمانيا ويصب فى إسرائيل تحركه مضخات من الإرهاب الفكرى والسياسى .

وأصبح عدد غير قليل من الساسة واقعين تحت رعب الاتهام بالنازية والاشتراك فى أعمالها ضد اليهود .

ونشطت الأقلام اليهودية وأجهزة الإعلام المسخرة والأيدى والعقول المجندة لتجعل مما حدث فى ألمانيا حائط مبكى فكرياً ، على العالم أن يدفع عنده الثمن ، وعلى الأجيال اللاحقة أن تدفع تكفيراً عما يدعى اليهود أن الآباء صنعوه .

٣ ــ شباب أوربا : هل هو محتاج إلى وثيقة لتبرئه من عقدة النازى ؟

وإذا كان اليهود قد استصدروا من الفاتيكان وثيقة بتبرئتهم من دم المسيح عليه السلام .. ألا يحق لأوربا المعاصرة ولأجيالها الشابة عام ١٩٧٣ .. أن تطلب وثيقة تبرئة من جرائم النازى . وإذا كان هذا حقاً للشباب الأوربى ، فهو حق أصيل للأجيال الجديدة فى ألمانيا .. هذا مع ملاحظة المبالغات

التى أضفاها اليهود على القضية عامدين ، تمهيداً لاستثمارها فى أرضنا العربية .

٤ ـــ وثيقة تبرئة مريم الطاهرة :

وما دمنا بصدد الحديث عن الوثائق : ألا يحق للعالم المسيحى أن يطالب الفكر اليهودى الذى تمثله إسرائيل بوثيقة تبرئة مريم من البهتان العظيم .

كنا نود ـــ حتى عدلا ومساواة دون دخول فى أمور العقائد ـــ أن تصدر وثيقة العلاقة بين اليهودية والمسيحية من شطرين :

الأول : تبرئة اليهود من دم المسيح

والثانى : تبرئة مريم من البهتان العظيم .

ولكن . . أليس من العجيب فى العالم الغربى المسيحى أن تكون جميع الوثائق لصالح إسرائيل ، وليس فيها شىء لصالح المسيحية ذاتها ؟

وبخاصة فى أعز ما تمتلك وهى طهارة أم المسيح التى كرمها الله فى أكثر من موضع وجعل طهارتها قرآنا يتقرب به المسلمون إلى الله ، ويعلنونه على الناس ما دام فى الأرض ناس .

ثانياً : المسيحيون فى إسرائيل

٥ ـــ جولدا مائير فى حضرة البابا :

وبعد لقاء جولدا مائير للبابا علقت على المقابلة فى تصريح نشرته جريدة معاريف الإسرائيلية :

« لقد جلست وفكرت لنفسى . ها هو ذا رأس الكنيسة المسيحية يجلس وجهاً لوجه مع يهودية من إسرائيل، ويصغى لما أقوله عن الشعب اليهودى وعن إسرائيل ، وعن حقوق هذا الشعب . لقد مرت لحظات توتر . وشعرت

بأنني أقول ما أقوله لرجل الصليب الذى يرأس الكنيسة، والذى اتخذ الصليب رمزاً له ، وهو الرمز الذى قتل فى ظله اليهود منذ قرون . إننى لم أستطع أن أتخلص من هذا الشعور الذى لازمنى . وشعر البابا بذلك، وبأن يهودية تجلس أمامه ، وقال : إن هذه لحظة تاريخية » .

٦ ـ صيد المسيحيين :

ومنذ أن أعلنت جولدا مائير تصريحها وشعورها عن هذا اللقاء، ارتفع فى إسرائيل شعار جديد هو صيد المسيحيين ، بعد أن كان الشعار السابق التضييق على المسيحيين .

وأود أن أنبه على هذه الحقائق التى تحدث فى إسرائيل ، ولعل لجان تقصى الحقائق التى تتكون لأهداف أقل من ذلك فى العالم المسيحى ، تولى هذا الموضوع بعض العناية، حتى يتأكد العالم المسيحى من أن إسرائيل رفعت شعاراً جديداً ، وأنها تسير إلى التصفية الكاملة للوجود المسيحى فى إسرائيل . . تصفية تشمل المؤسسات والأفراد معاً . .

وكأن إسرائيل عملياً ترفع شعار « اللامسيحية » .. « واللا إسلام » . هم وحدهم الشعب المختار . هم وحدهم الناس .

فى هذا المعمل البشرى المسمى إسرائيل يبدو جانب من الوجه الحقيقى للفكر الإسرائيلى وموقفه الواضح من الإسلام والمسيحية ، وحديثنا هنا عن المسيحية ويليه حديث عن الإسلام اتباعاً للتسلسل التاريخى . .

فى إسرائيل وفى ٦ فبراير ١٩٧٣ هاجم بعض اليهود المتعصبين أو المدفوعين متجراً يبيع الكتب الدينية المسيحية وأحرقوه، وكانوا يصرخون فى أثناء الحريق « أريقت دماء يهودية كافية بسبب المسيح . ارحلوا وإلا أرقنا المزيد » .

هناك عدوان على الأديرة وعلى المبشرين وإلحاح على طردهم التدريجى من إسرائيل تحت شعار « غير مرغوب فيه» ، ويتعالى صياح رجال الدين اليهود مشيراً إلى أن نشاط رجال الدين المسيحى بدأ يتخذ أحجاماً مثيرة للقلق .

وهناك ظاهرة إقدام إسرائيل على شراء أراضى الكنائس المسيحية فى الأرض المحتلة مثل دير نوتردام دى فرانس، وكانت ملكاً للفاتيكان ومنطقة المسكوبية وكانت ملكا للكنيسة الأرثوذكسية الروسية .. هذا إلى استئجار المنحدرات التى تقع وراء فندق الملك داود من الكنيسة الأرثوذكسية لمدة ١٢٥ سنة.

هذه نماذج من حقائق تتعلق بالمنشآت والأفراد . على العالم المسيحى أن يدرك أبعادها وهى جزء من مخطط يبدو أنه يرمى إلى تفريغ إسرائيل من الإسلام والمسيحية .

وتحاول إسرائيل أن تصور ما يحدث على أنه نوع من الدفاع عن النفس ضد التبشير الذى يمارسه رجال الدين المسيحيون فى إسرائيل .

٧ ــ العدوان والقتل عند اليهود شريعة :

هذه النظرية عميقة أصيلة فى الفكر اليهودى . وهم يعتقدون أن الله جلت قدرته أمر يوشع بما فعله عندما تقدم إلى مدينة «أريحا» وحرموا (أهلكوا) كل ما فى المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقرة والغنم والحمير بحد السيف (يوشع ٦ : ٢١) وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها ، إنما كل الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد تكون قدساً للرب وتدخل فى خزانة الرب (يوشع ٦ : ١٩)

بهذه الروح الهمجية دخل اليهود أرض فلسطين بقيادة يوشع بعد وفاة موسى واضعين نصب أعينهم إبادة السكان الأصليين بلا شفقة ولا رحمة، ودون تمييز بين المحاربين وغير المحاربين من النساء والأطفال والشيوخ ، واستعباد من لم يمت بسيوف اليهود .

وهذا النموذج له نظائر قديمة وتطبيقات حديثة على العالم الغربى أن يعيها ويقارن بينها وبين تخوف من عقد أو إرهاب فكرى تمارسه الصهيونية العالمية .

ثالثاً : عدوان اليهود على المسيحية قديم

٨ ــ من أقوال المسيح عليه السلام :

ولقد أحس المسيح بذلك من أول دعوته بعد أن جعلوا الهيكل المخصص للعبادة مغارة لصوص تنتشر فيه موائد الصيارفة وكراسى باعة الحمام .

ونظر إلى مدينة القدس الشريف ــ مدينة الصلاة يناجيها قائلا : «يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها : كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا . (متى ٢٣ : ٣٧) .

ويشهد التاريخ الصادق أن أولاد أورشليم لم يجتمعوا فى سلام إلا تحت جناح الإسلام عندما ارتفعت المآذن وأبراج الكنائس وسار العباد فى طرقات المدينة وصلّوا فى معابدها آمنين لا يخافون .

ويشهد التاريخ أنها عادت بعد الغزوة الصهيونية مغارة لصوص ووكر إرهاب .

ماذا كان موقفهم من المسيح ــ عليه السلام ــ روح الله وكلمته .. وماذا كان قوله ؟ قال لهم : « أيها الحيات أولاد الأفاعى كيف تهربون من دينونة جهنم ؟ لذلك ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة فمنهم تقتلون وتصلبون ومنهم تجلدون فى مجامعكم وتطردون من مدينة إلى مدينة . . . » (متى ٢٣ : ٣٣)

هذا النبى الذى وسع قلبه للخطأة والمذنبين وفتح لهم أبواب ملكوت السموات .

٩ ـ عدوان مستمر :

ومع هذا كله استمر العدوان اليهودى تحريضًا للحكام الرومان على دعاة المسيحية ورسل عيسى عليه السلام : فقام الرومان بمذابح جماعية للمسيحيين بتحريض من اليهود . . حدث هذا فى أوربا وأفريقية فضلا عما قاموا به من محاولات لتشويه صورة المسيح وأمه الطاهرة . . . وما تقوم به بعض دور النشر التابعة لهم حتى الآن فى هذا المجال فى قلب الولايات المتحدة وأوربا .

رابعاً : مع الإسلام

١٠ ـ نظرة موضوعية واحترام للإنسان من حيث هو إنسان :

والإسلام ينظر إلى الدين باحترام وبغير إكراه . . وأكد وحدة العقيدة فى جوهرها الصافى ، جاء هذا فى القرآن الكريم ، وجاء فى السنة المطهرة ، وفى تطبيقات أسلافنا الصالحين ، وإن لم يخل التطبيق ـ شأن البشر ـ من خروج على القاعدة فى بعض الأقطار والعصور .

الإسلام ينظر إلى الناس جميعًا كإخوة .

« يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ منها زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيراً وَنِسَاءً . واتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا » (النساء : ١)

وفى حجة الوداع خطب النبى عليه الصلاة والسلام الناس جميعًا قائلا : « إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب »

وكان من دعاء النبى عليه الصلاة والسلام :

« اللهم أنا شهيد أنك أنت الله لا إله إلا أنت ، وأن العباد كلهم إخوة » .

وأؤكد هنا على لفظ « العباد » الذى ورد فى الدعاء فى سنن أبى داود .

١١ ـ الإسلام يحارب الشر فى النفس والمجتمع ولا يحارب الإنسان كإنسان:

واحترامًا للإنسان يحارب الإسلام الشر فى النفس الإنسانية ولا يحارب هذه النفس . .

الإنسان كائن مكرم . . ثمرة ناضجة أبدعتها يد العناية الإلهية وجعل فيها السمع والبصر والفؤاد . . كائن يسبح بحمد الله ، وينطق بوحيه ، ويحمل رسالته . . ولكنْ من الناس فريق بعد عن طريق الحق . فإذا حاربه الإسلام فإنما يحارب الشر الذى يتمثل فيه .

قد يكون مسلمًا أو مسيحيًّا أو يهوديًّا . . ولكن الإسلام يحاربه للخطأ فى ذاته . .

وفى هذا يقول الله عن المؤمنين :

« وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا، فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » (الحجرات : ٩)

هذا عن المؤمنين :

فإذا ما حاربنا الشر فى نفوس حكام إسرائيل . والتضليل الذى تمارسه الصهيونية العالمية على الصعيد الدولى ـ فليس فى هذا عدوان على دين أو انتقاص من حق المؤمنين به . . ولا مجال هنا للقول بعصبية أو لا سامية أو عقدة من العقد . .

هناك شرور تمارسها إسرائيل ضد الإسلام والمسيحية ، ما فى ذلك شك : على المسجد والكنيسة ، على رجال الدين من مسلمين ومسيحيين : هناك إحراق وتدمير وتغيير لمعالم دور العبادة غير اليهودية . . هناك فى أذهانهم قدس أخرى غير قدس السلام التى احتضنت الإسلام والمسيحية واليهودية معاً كأديان ، ورفعت لواء العدل فى ظل الحكم العربى الإسلامى بين الجميع ،واستطاع أهل البلاد من مسلمين ومسيحيين عبر القرون أن يفرقوا بضمائرهم الصافية بين أى طغيان يمارسه حاكم أو محارب باسم الإسلام والمسيحية وبين جوهر الإسلام والمسيحية فى نقائه وصفائه الإلهى .

١٢ — فى القرآن الكريم :

وعندما عرض القرآن لأخبار الأنبياء السابقين احترمهم جميعاً ونفى عنهم الإثم ورد عنهم البهتان . . وذكرهم فى سورة الأنبياء ، عقب على ذلك موجهاً الخطاب لنا وللإنسانية كلها « إن هـٰذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (الأنبياء : ٩٢)

أمة إنسانية ربانية مسجدها هذا الكون : أرضه طهور . قبته السماء . مصابيحه الشمس والقمر والنجوم . الناس فيه إخوة لأب واحد . عباد رب واحد قيوم السموات والأرض .

لسنا نحن ولا غيرنا شعب الله المختار . . فالله عادل . . وإذا كنا خير أمة أخرجت للناس فهى أمة عمل وعقيدة وليست أمة عنصرية ولا جنس . . أمة بابها مفتوح لكل إنسان وقلبها مفتوح لكل مؤمن وكتابها مفتوح لكل قارئ . أمة إخاء لا استعلاء . . تتعدد فيها الأجناس والألوان والألسنة ولا تفاضل فيها إلا بالتقوى والعمل الصالح . .

خامساً ــ تطبيقات إسلامية

١٣ ــ فى المدينة المنورة :

وعندما جاء الرسول المدينة عقد عهداً كان اليهود طرفاً فيه .

وبدأ يعمل على تأمين الحياة فيها . . والمسلمون يقرءون القرآن وفيه من أخبار بنى إسرائيل ما قاموا به من خير وشر . جاء القرآن موضوعيًا لهم: فى إقبالهم على الله وإدبارهم عنه وفيه ذكر من آمن وإن كان قليلا ، ومن كفر بالأنبياء . فيه فضل الله عليهم وفيه لعنة بعض الكافرين منهم .

إنه ــ ولله المثل الأعلى ــ كشف وتحليل واقعيان لهذا المجتمع .

وبدت العداوة والبغضاء منهم فما حاربهم الرسول جملة واحدة إلا أخذ بعضهم بذنب بعض . . فهو رسول العدل والحق .

- بادأه بنو قينقاع بالعداوة بعد غزوة بدر فأخرج بنى قينقاع وحدهم دون بنى النضير وبنى قريظة .
- حاربه بنو النضير فى العام الرابع للهجرة وبعد ما حدث فى غزوة أحد فى العام الثالث وحاولوا قتله فانتصر عليهم وأخرجهم دون بنى قريظة .
- انضم بنو قريظة إلى أعدائه فى غزوة الأحزاب وجاء الأعداء من فوق المدينة من عواليها حيث ديار بنى قريظة ، ومن أسفلها حيث مواقع قريش وحلفائها ، وبعد النصر عاقب بنى قريظة وأخرجها .

النبى عليه الصلاة والسلام لم يؤاخذ بعض اليهود بذنب البعض الآخر ، وإنما قصر عقوبته على المذنبين .

- وعندما تجمعوا فى خيبر فى العام السابع حاربهم فيها وأرسل قواته فى العام نفسه إلى مواقع اليهود الأخرى فى فدك وتيماء ووادى القرى ،

وبعد النصر لم يخرجهم من ديارهم ، وإنما أبقاهم على الأرض بشروط مالية معينة ، حتى أخرجهم عمر بن الخطاب بعد ما رأى من مكائدهم على الإسلام وأعطاهم أرضًا جديدة فى شمال الجزيرة العربية بدل ما أخذ منهم .

١٤ ــ تعقيب :

لسنا إذن ضد اليهودية كدين ،ولكن ضد إسرائيل كدولة عدوانية . ولسنا ضد اليهودى كفرد من أهل الكتاب . . ولكنا ضده معتديًا على أرضنا وهادمًا لمساجدنا وكنائسنا ، وجنديًّا محاربًا يحاول دائمًا التوسع فى أرضنا . ولا نريد أن نلقى أحداً فى البحر ولكن نقول : أعيدوا الأرض أولاً إلى أهلها الذين عمروها قرونًا واحترموا قرارات الأمم المتحدة فى هذا المجال .

ولا تعيشوا فى أواخر القرن العشرين بعقلية الغاب . تقتلون الرجال والنساء والولدان وتلقون الجثث فى الآبار . كما فعلتم فى دير ياسين فى مايو ١٩٤٨ ومازلتم تفعلون . وتقتلونهم حتى فى جو السماء كما فعلتم بشهداء الطائرة الليبية فوق أرض تجلى فيها الله للجبل، ومر عليها أشرف الخلق فى رحلة الإسراء . .

١٥ ــ وفى ظل الإسلام :

نرى أولا كيف اتجه المسلمون فى صلاتهم إلى بيت المقدس ، وكيف أسرى الله بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. والتقى هناك مع الأنبياء فى صلاة جامعة هى رمز الإخاء الإنسانى ووحدة العمل المؤمن من أجل الحق والعقيدة .

وأصبحت للإسلام ثلاثة مساجد لها قداستها وحرمتها :

- المسجد الحرام : رمز التوحيد ووحدة العقيدة . .
- مسجد المدينة : حيث قام المجتمع الإسلامى الأول من حوله .
- المسجد الأقصى : رمز الإخاء والسماحة الدينية . .

وإن المسلم الحق يحمل فى قلبه روح المساجد الثلاثة :

- عقيدة يعبد بها الله مخلصاً له الدين .

ومجتمعاً يعمل فيه ومعه على أساس من العدل والإحسان .

- وإخاء إنسانياً ، يضم الناس جميعاً ، ويقاوم به الشر إذا ظهر من نفوسهم وصفوفهم . .

ومن الملاحظات التاريخية الجديرة بالتوقف : أن المسجد الأقصى وما حوله كان أخطر محك لاختبار قوة العالم العربى والإسلامى وروح السماحة ذاتها عبر القرون .

وإن خطر الحروب والمعارك المصيرية ضد التتار وضد الصليبيين وضد الصهيونية إنما تدور أخطر ما تدور حول القدس الشريف . . هو عندنا أرض الصلاة والتسامح وهو عند إسرائيل أرض النار والدمار والأحقاد .

١٦ ــ عندما دخل عمر بن الخطاب بيت المقدس :

ولننظر كنموذج إلى القداسة التى دخل بها عمر بن الخطاب بيت المقدس . . دخول العابدين الراكعين الساجدين . .

ولنقف فيه عند رغبة البطريرك صفرونيوس بأن يكون تسليم المدينة المقدسة لأمير المؤمنين ،

ويستجيب القائد العربى المسلم المنتصر لرغبة الزعيم الدينى العربى المسيحى ، فى إخاء يرتفع فوق الحقد . . واحترام لقداسة المدينة يرتفع فوق

معنى الانتصار والتسليم . يستجيب عمر ويخرج من المدينة المنورة إلى المدينة المقدسة ومعه راحلة وغلام ويقسمون المسيرة نحو القدس مثالثة إحداها لعمر والثانية للغلام والثالثة للراحلة تسير متخففة تستريح . . .

لم تكن رحلة عجولا إلى أفراح النصر ولكنها رحلة صلاة وشكر . . حتى إذا بلغوا جبلا مشرفاً على القدس كبّر عمر فوق الراحلة (وهذا الجبل لازال يحمل اسم جبل المكبر) ثم نزل ليركب الغلام نوبته . . وأصر عمر على ذلك ودخل يقود الراحلة والغلام على ظهرها .

ولما رأى القوم هذا خروا له ساجدين والغلام من فوق البعير يصرخ ارفعوا رءوسكم لا سجود إلا لله .

وتفيض عينا صفرونيوس بالدمع ، ويقبل عليه عمر فى إخاء ومودة . ويخطب عمر الناس قائلا :

« يا أهل إيلياء لكم ما لنا وعليكم ما علينا » .

ويدعوه صفرونيوس إلى زيارة كنيسة القيامة وتدركه الصلاة فيسأل أين أصلى ؟

فيقول صفرونيوس : مكانك صل . ويرد عمر ، بنظرة عميقة الدلالة: ما كان لعمر أن يصلى فى كنيسة القيامة فيأتى المسلمون من بعدى ، ويقولون : هنا صلى عمر ويبنون عليه مسجداً . وابتعد عنها قليلا وصلى وجاء المسلمون من بعده واتخذوا مسجداً غير بعيد عن كنيسة القيامة . .

كنيسة القيامة ومسجد عمر والمسجد الأقصى أماكن السماحة والإخاء الدينى . .

هذه قصة نعيها جميعًا ولكن من أجل صيانة هذه السماحة ، بذل أهل الأرض من مسلمين ومسيحيين ما بذلوا وقاوموا عدوانًا تستر أحيانًا بستار الدين يأتيهم من وراء البحار والسهوب .

١٧ ـ مفاتيح كنيسة القيامة عند المسلمين :

ويختلف المسيحيون فيما بينهم على من يحفظ مفاتيح كنيسة القيامة . وأخيراً يرتضون أن تحفظ المفاتيح عند أسرة إسلامية عريقة ، ويظل الوضع هكذا عبر القرون حتى تجتاح بلادنا وسماحتنا هذه الغزوة الصهيونية الوافدة . .

إن وثيقة الأمان التي أعطاها عمر لأهل المدينة وعرفت باسم العهدة العمرية . هي مفتاح سلام قدمه عمر إلى أهل المدينة ، وكان الرد أن يحفظ المسلمون بعد هذا مفتاح كنيسة القيامة .

١٨ ـ معركتنا من أجل هذه المبادئ :

وإن معركتنا مع العدو الإسرائيلي هي من أجل هذه المبادئ ، من أجل الأرض التي قامت عليها هذه المبادئ ، والشعب الذي صان هذه المبادئ . ضد عدو اغتصب الأرض وطرد الشعب وحطم المبادئ . حرقاً لمسجد وتدميراً لكنيسة وقتلا لشيخ وطفل ونساء وتشريداً للشباب . وإن العالم اليوم يرى من الغرور الإسرائيلي والصلف ما يرى . . غروراً وصل إلى ما ذكرته جولدا مائير عن مقابلتها لرأس الكنيسة المسيحية . ووصل إلى إعطاء أوسمة للقتلة والسفاحين الذين أسقطوا طائرة عربية تحمل مدنيين أبرياء تطير فوق أرض عربية مغتصبة .

إن العالم الغربي المسيحي بدأ يحس هذا الصلف والغرور . وأخذ العدوان على المسيحية يشتد في إسرائيل ، وبدا جانب جديد من الوجه المتعصب الكريه الذي تحاول إسرائيل أحياناً أن تخفيه بالحديث عن المحبة والسلام .

وكثيراً ما كان العالم الغربي يتغاضى عما تفعله إسرائيل بالعرب ظناً منهم أن هذا موجه إلى المسلمين أو أن العرب جميعاً مسلمون . . ولكن

نار الحقد الإسرائيلى تأكل فى الأرض المقدسة كل غصن أخضر غير يهودى . كل غصن مسلم أو مسيحى . . . . فهل يتيقظ العالم الغربى والأمم المتحدة لهذا كله ؟ . . وهل آن لنا أن نرى فى هذا الوجود الإسرائيلى امتداداً لأحقاد قديمة ونظرة استعلاء على الناس أجمعين ؟ .

وهل للعالم من حولنا أن يعلم أننا – ونحن نخوض معركتنا – إنما نخوضها من أجل مبادئ الإخاء الإنسانى التى عاشت بها أرضنا قروناً لنا وللناس جميعاً ، كما نخوضها من أجل الأرض والشعب لنعيد إليها الإخاء والسماحة والأمن .

ولا أريد فى هذا المقام أن أتحدث عن التفرقة العنصرية فيما بين اليهود الشرقيين والغربيين ، ولا التناقضات بين من جاءوا من الخارج ، ومن ولدوا فى فلسطين ، وإنما الذى أود التركيز عليه هو هذا الغرور والصلف الذى امتد إلى غير اليهود من السكان ، مهما يكن المصدر الذى جاءوا منه .

إن الحرب الآن تمارسها إسرائيل ضد الإسلام والمسيحية معاً ، مما يستدعى يقظة من كل مؤمن بحرية العقيدة ، ودراسة مشتركة وتقصياً للحقائق فى الأرض السليبة . .

١٩ – إسرائيل : استعمارية عنصرية يهودية بيضاء :

هذا الكيان يمكن أن تصفه بأنه كيان استعمارى عنصرى يهودى أبيض :

الحكم الإسرائيلى ضد المسيحيين فى إسرائيل وإن كانوا بيض الوجوه جاءوا من الولايات المتحدة . وضد اليهود إن كانوا سوداً . وضد العرب لأنهم أصحاب الأرض . ويهود الشرق السمر فى إسرائيل أدنى مرتبة من اليهود البيض .

واليهود البيض عندهم فى صراعات بحسب المصدر الذى جاءوا منه .

هذه هى العقلية التى لا تزال تؤيدها قوى لها مكانتها العالمية وتعطيها المزيد من أحدث أسلحة القتال ، وإن ارتفعت فيها أصوات منصفة أخذت تستجيب لحقنا .

٢٠ ـ خاتمة :

ويمكن أن يكون هذا الموضوع دعوة إلى مزيد من البحث الإسلامى المسيحى فى هذا المجال . وأن يتحرك الموضوع دولياً وشعبياً ـ وأن توجه الدعوة إلى عقد ندوات وإلى إرسال لجان تقصى حقائق ونشر كتاب عن الاضطهاد الدينى هناك .

هذا مع تكثيف العمل السياسى بأوسع مدلولاته التى تشمل قوة الاستعداد العسكرى ، بحيث يبدو هذا النشاط دعماً لجهود قائم على الصعيد الدبلوماسى والعسكرى والاقتصادى ، لا صرفاً للأنظار نحو موضوع ـ مهما تكن قيمته ـ فهو جزء من استراتيجية عمل كاملة ، رأس الحربة فيها المعركة ذاتها .

ومن ناحية أخرى يمكن أن يكون هذا الموضوع من مجالات التعاون الإسلامى المسيحى المستمرة على الصعيد المصرى أولا والعربى ثانياً والعالمى ثالثاً . .

القاهرة ١٥مارس سنة ١٩٧٣ .

الصهيونية تتاجر بمآسي ضحايا وهميين *

* — حايم وايزمان : إننى أفضل أن يفنى كل يهود ألمانيا على التنازل عن الحصول على فلسطين .
— ملايين اليهود الذين هلكوا فى أوربا أثناء الحرب : أكذوبة صهيونية يروجونها لاستدرار عطف الناس .
— الحقيقة أن الذين اختفوا من يهود أوربا لا يزيدون عن ٣٥٠,٠٠٠ معظمهم فروا إلى أمريكا وأستراليا .
— الصهيونية تنظم فى ألمانيا ألوف المحاكمات لكى يستمر فيض التعويضات على إسرائيل .
— الشهود يرغمون على تقرير ما يملى عليهم أو يقتلون .
— العرب وحدهم هم الذين يدفعون ثمن هذه الأكاذيب الصهيونية .

المعلومات التى ندلى بها فى هذا التقرير ليست أسراراً ، أو بتعبير أدق : لم تعد أسراراً ، لأنها نشرت فى معظم بلاد أوربا . .

نشرها فى سلسلة مقالات وتحقيقات قانونية وصحفية محام ألمانى عكف من سنوات على دراسة أساليب الدعاية الصهيونية ، وتولت توزيعها شركة أنباء عالمية ، ولولا أن أعوان الصهيونية اجتهدوا فى التغطية عليها لكان لها صدى أبعد مما وصلت إليه .

هذا المحامى يسمى برنارد كنيتل Bernard Knittel وقد اجتهدت الوكالة الصهيونية فى إيقاف نشر حلقات التحقيق ، فلم ينشر فى سويسرا — مثلا — شىء منها ، وفى بعض البلاد — مثل ألمانيا الغربية وبلجيكا نشرت منها حلقة أو اثنتان ، ثم توقفت .

هذا مع العلم بأن برنارد كنيتل لم يأت بشىء من عنده ، كل ما أورده موجود فى محاضر محاكمات أو مذكرات منشورة أو كتب متداولة . ولكن الصهيونيين يعرفون أن أحداً لا يقرأ ألوف الصفحات التى تتألف منها محاضر المحاكمات ، وأن قليلا جداً من الناس يقرأون الكتب ، وإذا قرأها بعضهم فسرعان ما ينسون ما قرأوه .

ثم إنهم وعملاءهم ينشرون أضعاف ما ينشر الآخرون ، وأكاذيبهم تنتهى إلى أن تكون حقائق ، لكثرة الإعادة والتكرار . .

وهل يشك أحد فى أوربا وأمريكا — مثلا — فى أن النازيين قتلوا ستة ملايين من اليهود؟ ومع هذا فسترى من تفاصيل هذا التقرير أن هذه أكذوبة ، وأن كبار الصهيونيين يعرفون أنها أكذوبة ، وهم يروجونها لأنها تنفعهم ، وقد استغلوها ، ومازالوا يستغلونها — إلى أقصى حد — فى تأييد أكذوبة

أخرى : دولة إسرائيل والحصول لها على معاونات ضخمة مستمرة لتستمر على قيد الحياة .

إلى هنا ينتهي كلامنا ، وما يلي ذلك كله كلام صاحب التقرير ، لن نضيف إليه إلا ما لابد منه ليستطيع القارئ تتبع السياق .

ألوف المحاكمات لصالح إسرائيل :

فى فرانكفورت تجرى الآن محاكمة نفر آخر ممن يسمونهم « مجرمى الحرب » والمراد بهم بقايا النازيين . هذه المحاكمات تدور عادة حول ما اقترفه المتهمون ضد اليهود ، لأن الدعاية الصهيونية عرفت كيف تقنع الناس بأن هتلر لم يعلن الحرب على إنجلترا أو فرنسا أو غيرهما ، بل على اليهود وحدهم ، هؤلاء هم الذين تحملوا التضحيات وحدهم فى سبيل ما يسمى بالعالم الحر ! ولهذا فواجب على هذا العالم أن يستمر فى تعويضهم إلى الأبد . لم يعد أحد فى إنجلترا أو فرنسا أو هولندا يفكر فى محاكمة مجرم حرب ، ولكن المسألة أصبحت تقليداً فى ألمانيا ، وألمانيا لابد أن تستمر تحت الإحساس بما اقترفته فى حق اليهود ، لا بل أن تؤدى حساباً لا ينتهى لإسرائيل .

لقد بلغ عدد هذا النوع من المحاكمات فى ألمانيا من سنة ١٩٤٥ إلى الآن ١٢٠٠ ، ويقدر عدد المحاكمات التى تمت مع رعايا ألمان خارج ألمانيا بأربعة آلاف ، والرقم فى زيادة مستمرة .

وليس هناك اعتراض على محاكمة إنسان على مافعل ، ذلك تطبيق طبيعى للعدالة ، ولكن ليس من العدالة فى شىء المبالغة فى الاتهام والمجازفة بالإدانة فى سبيل أغراض سياسية وتحويل المحاكمات إلى مهازل .

محاكمات أم مسرحيات :

ويتولى أمر هذه المحاكمات فريتز باور Fritz Bauer وهو المدعى العام فى مقاطعة هيس الألمانية ، وهو فى نفس الوقت المدير العام لإدارة مجرمى الحرب فى لودفيجزبورج ، وهى الإدارة التى تجمع عناصر الاتهام ضد النازيين .

وتاريخ هذا الرجل طويل ، فقد هرب من ألمانيا سنة ١٩٣٦ إلى الدانيمارك ثم السويد ، ثم عاد إلى بلاده سنة ١٩٤٩ ، ومن ذلك الحين وهو ينادى بأن خطر عودة النازية إلى ألمانيا ما زال قائماً ، وبسبب هذه الدعوة ترقى فى السلك القضائى ووصل إلى المركز الذى ذكرناه ، وما زال الناس يذكرون تصريحاً أدلى به سنة١٩٦٣ قال فيه إن هتلر لو عاد إلى ألمانيا اليوم لوجد الأرض ممهدة له أكثر مما وجد نابليون أرض فرنسا عند هربه من جزيرة إلبا ، وأنه — أى هتلر — يستطيع لهذا أن يحكم ألمانيا مدة أطول بكثير من المائة يوم التى حكمها نابليون لفرنسا ، وهو تصريح أزعج السلطات الألمانية ، فأطلقت يده فى البحث عن النازيين أكثر وأكثر .

وفى ديسمبر الماضى بدأت فى فرانكفورت محاكمة ٢٢ رجلا يقال إنهم كانوا من حراس معسكر آوشفيتز . وقد صرح محامى الدفاع الدكتور لاترتسر Latrezer بأن كل إجراءات المحاكمة غير قانونية وأنها تتعارض مع أبسط قواعد قانون المرافعات الجارى فى ألمانيا ، ولكن أحداً لم يسمع له .

وتولى الاتهام المحامى فريد ريش كاول ، وقرر فى أول كلامه أنه يهودى وأنه عضو فى الحزب الشيوعى فى ألمانيا الشرقية ، وتبين بعد ذلك أنه يأتى بكل الوثائق التى يقدمها من بانكوف فى ألمانيا الشرقية . هناك يعدون له هذه الأوراق ، والسلطات تسمح له بالذهاب إلى هناك والعودة بحقيبته ملأى بالأوراق دون أن يجرؤ أحد على تفتيشه مرة واحدة . وقد

قضى هذا الرجل على كثير من الرجال المحترمين فى ألمانيا الاتحادية ، ومع أن حكومة بون تعلم أن أصابع أولبريخت وراء هذه المآسى ، إلا أنها تغمض عينيها ، لأنها تريد أن تظهر للعالم حرصها على القضاء على كل أثر للنازية . وقد اعترض أحد الوزراء الألمان —وهو أوبرلينلر — على ذلك ، ولكنه لم يستطع عمل شىء .

وعلى هذه الصورة استمرت المحاكمات وستستمر ، وسيسقط المئات ضحايا لهذا الطراز الغريب من العدالة .

رفض أن يقر ما تريده الصهيونية فقتلوه :

وفى القصة التى نتحدث عنها ، قضية حراس معسكر آوشفيتز Auswitz تقدم للشهادة ٢٥٠ شخصاً . ومعظم هؤلاء الشهود محترفون ، أى أنهم شهدوا قبل ذلك فى قضايا مماثلة ، ثم إن أحداً منهم لا يستطيع إلا أن يدلى فى المحكمة بالشهادة التى تملى عليه قبلها فإذا رفض أو خالف فلا بد أن يجد نفسه بعد قليل فى قفص الاتهام ليحاكم على أنه نازى .

ولم يعترف بالجرائم التى وجهت إليه إلا اثنان من المتهمين الاثنين والعشرين ، أولهما هانزشتارك والثانى أوتوكلار ، ولم يقرر واحد منهما أن أحداً من اليهود قتل بالغازات السامة ثم أحرق جسده . لقد اعترف أوتوكلار بأنه قتل نفراً من المسجونين بإعطائهم حقناً من الفينول ، ولكن المدعى العام باور أصر على أن يعترف بأنه قتل ألوف اليهود بالغاز السام .

وكان من بين المتهمين رجل يسمى ريتشارد باير ، كان يعمل قومندانا لمعسكر آوشفيتز ، ولم يعترف باير بأنه كانت هناك غرف للإعدام بالغاز وأصر باور على أن يقرر هذا الرجل ذلك ، ولكنه أصر على رأيه . وكان من المقرر أن تبدأ محاكمته فى ربيع هذا العام ، وفجأة فى ١٧ أبريل أعلن أن باير قد توفى .

وقد دهش الناس لهذا الموت المفاجئ ، وقررت زوجة باير أن زوجها كان يتمتع بصحة طيبة إلى ما قبل موته بأيام ، ثم أخذ يشكو آلاماً حادة فى معدته ، وفى يوم وفاته استدعت له الطبيب على عجل ، ولكنه وصل بعد موته . وأصدرت إدارة الطب الشرعى فى فرانكفورت بياناً عن أسباب موت هذا الرجل نشر فى مجلة « دويتشه هيربشول ليررتسايتونج » ، يقول إن باير مات مسموماً والغريب أن جسد هذا الرجل أحرق بعد موته مباشرة ، وهو أمر دهش له الناس جميعاً ، ونشرت مجلة « ريفارول » التى تصدر فى باريس مقالا تتساءل فيه عن سر هذه الجريمة ، وتقدم محام يسمى كريفولد ببلاغ يؤكد فيه أن باير مات مقتولا ، ولم ينظر هذا البلاغ إلى الآن .

أما السبب الحقيقى فى موت باير المفاجئ فهو أنه كان الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يقرر ما إذا كانت غرف الإعدام بالغاز قد استعملت فى آوشفيتز . ولا شك أن هذا الرجل كانت لديه البينات على ما أكده من أن أحداً لم يعدم بالغاز فى المعسكر ، فإذا تأكد ذلك ضاعت أسطورة الملايين الستة الذين أعدمهم النازيون ، والمدعى العام باور يريد أن تستمر هذه الأسطورة ، ولهذا كان لابد أن يموت باير .

الدعاية الصهيونية تحدد مقدماً عدد الضحايا اللازم للدعاية . . . :

وأسطورة هذه الملايين ترجع إلى ما قبل نهاية الحرب العالمية الثانية بل إن هذا الرقم تحدد قبل أن تبدأ محاكمات نورمبرج ، حددته الدعاية الصهيونية وأيدته دعاية الحلفاء .

فى صفحة ٦٣٥ من المجلد ١١١١ من سجلات محاكمات نورمبرج قرر الشاهد فيلهلم هوتى Willhelm Hotti أن ايخمان قال له إنه قتل ٦ ملايين من اليهود . وهوتى هذا كان ضابطاً فى فرق الهجوم الهتلرية

وكان يعمل فى نفس الوقت جاسوساً للمخابرات البريطانية ، وقد نشر سلسلة مقالات فى مجلة « ويك — آند » الإنجليزية ابتداء من ٢٥ يناير ١٩٦١ تحت عنوان « مندوبنا فى فرق الهجوم » وقرر أنه كان يعمل فى الفرقة الرابعة من قوات الأمن الهتلرية ، وأنه اشترك فى كل العمليات التى قامت بها هذه القوات فى معسكرات الاعتقال. ولكن محاكم نورمبرج برأت هوتى وإن كانت قد حكمت بالإعدام على رئيسه كالتنبرونز Kaltenbrunnre وهوتى هو أحد المروجين لأسطورة الملايين الستة .

بل إنه كان هناك من يقولون إن هذا العدد بلغ ٩ أو١٢ مليوناً ، وكلها أقوال لا تقوم على دليل ، لأن ألمانيا كلها لم يكن فيها هذا العدد من اليهود ، وإحصاءات السكان فى ألمانيا من سنة ١٩٣٩ إلى ١٩٤٨ تؤكد ذلك ولم يذكر واحد من الشهود فى قضية فرانكفورت الحالية أن الإعدام بالغاز استعمل فى معسكر أوشفيتز بالذات .

نائب فرنسى يكذب دعاوى الصهيونية :

وقد تطوع لإثبات كذب هذه الأسطورة رجل فرنسى لا يشك فى صدقه هو بول راسينييه Paul Rassinier وكان أثناء الحرب رئيساً للمقاومة السرية فى شمال فرنسا ، ثم وقع فى يد الجستابو وسجن فى معسكر بوخنفالد ثم نقل إلى معسكر دورا، وبعد الحرب عاد إلى بلده بلفور حيث كرمته السلطات الفرنسية وأصبح نائبا فى البرلمان .

هذا الرجل من المؤمنين بضرورة تحالف الشعبين الفرنسى والألمانى ونسيان الماضى ، وقد دهش من كثرة الأساطير عن فظائع الألمان وأحس أن هذه الأكاذيب ليست مع صالح التفاهم الذى يسعى إليه ، فنشر كتاباً عن أيامه فى معتقلات النازيين عنوانه «أكذوبة أوليسيس "Mensng d''Ulisse" طبع ست مرات فى فرنسا وترجم إلى الإسبانية وطبع فى أسبانيا مرتين ، ونشر

كذلك بالألمانية ، وقد قرر راسينييه فى كتابه أن الجنود الألمان كانوا يكتفون بمراقبة المعسكرات من الخارج ، أما إدارة المعسكرات فكانوا يتركونها لرؤساء من المسجونين أنفسهم وكان الإشراف على معسكر بوخنفالد بيد اثنين من الشيوعيين الألمان وهما تيالمان Thalmann وبرايتشايد Breitscheid ، وهذان الاثنان هما اللذان قاما بكل أصناف التعذيب والسرقة والقتل التى جرت فى المعسكر ، وفى هذا الصدد يقول راسينييه فى كتابه المذكور : « لقد كان هذان الرجلان يعاملاننا بمنتهى القسوة ، كانا يسرقان أطعمتنا وملابسنا ويعذباننا حتى قضيا على ٨٢ فى المائة منا . وقد اخترعا أسطورة غرف الإعدام بالغاز لكى يتخلصا من مسئولية الجرائم التى ارتكباها » .

وقد قرر هذه الحقيقة ألمانى معاد للنازية يسمى أويجن كوجون Eugen Kokgon فى كتابه : دولة فرق الهجوم D r SS. Stadt فقال إن المسجونين كان يعذب بعضهم بعضاً ، بل كان رؤساء المعسكر منهم يضربون إخوانهم ضرباً مبرحاً يفضى إلى الموت فى أحيان كثيرة ، ولما كان المشرفون الألمان لا يحاسبونهم على ذلك فقد كان المسجونون أنفسهم يتولون عقابهم .

وهؤلاء الرؤساء من المسجونين طلقاء اليوم يتنقلون من بلد إلى بلد دون أن يجرؤ أحد على حسابهم .

غرف الإعدام بالغاز ، أسطورة مختلقة :

وليس هناك دليل واحد على أنه كانت هناك فى معسكرات الاعتقال الألمانية غرف للإعدام بالغاز السام .

بينما هناك كل الأدلة على أن هذه الأسطورة اخترعها الصهيونيون ليؤيدوا ما زعموه من أن ستة ملايين منهم هلكوا فى هذه المعسكرات ،

والهدف الرئيسى من ذلك هو تهويل صورة الاضطهاد الذى وقع عليهم وإجبار الرأى العام العالمى على العمل على إنصافهم ، وإنصافهم هو تأييد إسرائيل وإغداق الأموال عليها .

فقرر راسينييه فى كتابه أن الذين ماتوا فى معسكرات الاعتقال ما بين يهود وغير يهود – لا يزيد عددهم على ٥٠,٠٠٠ ، وقال إن الوفيات كانت تقع بسبب الجوع والبرد والمرض وسوء المعاملة ، أما غرف الإعدام بالغاز فلم توجد قط . وقرر أن السلطات الألمانية نفسها كانت تبادر إلى عقاب المشرفين على المعسكرات إذا اتضح أنهم أسرفوا فى القسوة ، ومن أمثلة ذلك أن الهتاريين قدموا القومندان كوخ المشرف على معسكر بوخنفالد للمحاكمة وأعدموه فى سنة ١٩٤٣ ، وقال فى كتابه : « لقد أكد الأب جان بول رينار – وقد قضى ٧ سنوات فى معسكرات الاعتقال – أنه لم يرشيئاً يسمى غرف الإعدام بالغاز وقال ذلك أيضاً يهودى ألمانى يسمى بندكيت كاوتكى فى كتابه المسمى « الشيطان والملعون » .

القوات الأمريكية تروج أسطورة الملايين الستة :

وأغرب ما تبين من التحقيقات حول الموضوع أن القوات الأمريكية التى دخلت ألمانيا هى التى أنشأت وروجت أسطورة إعدام الملايين من اليهود فى معسكرات الاعتقال .

وقد أوحى إليها بهذه الفكرة الصهيونيون الذين وجدوها فرصة سانحة للترويج لما يسمونه استئصال اليهود فى ألمانيا .

فإن القوات الأمريكية عندما استولت على معسكر داخاو علقت لافتتين على شجرتين هناك تقولان إن التراب حول الشجرتين يتكون من رماد ٢٣٨,٠٠٠ إنسان ، وهذا هو الذى قاله الأب نويهاوزلر فى كتابه المسمى « هكذا كان الحال فى داخاو » الذى نشر سنة ١٩٦٠ . لقد

قضى هذا القس الكاثوليكي سنوات فى هذا المعسكر ، وقرر أنه لم تكن هناك غرف للإعدام بالغاز ولا أفران لحرق الجثث ، وذكر أن الذين ماتوا فى المعسكر كانوا ٢٨,٠٠٠ وهو عدد هائل حقاً ، ولكن لا معنى للمبالغة فيه. وذكر أن ما يشاهد الآن من بقايا الأفران إنما قام بإنشائه الأسرى من فرق الهجوم بأمر من الأمريكيين وتحت تهديدهم .

وقد قرر مثل هذه الحقائق الدكتور راينكه Reinecke فى محاكمات نورمبرج . نفى وجود غرف الإعدام بالغاز ، وإن كان قرر أن السلطات الألمانية كانت تتهاون مع الذين يسيئون معاملة المسجونين . والرأى السائد اليوم عند كل من يعرفون الأحوال فى معسكرات الاعتقال النازية هو أنه لم تكن هناك قط عمليات إعدام جماعية لليهود .

وعند محاكمة هويس Hoess الذى كان مديراً لمعسكر آوشفيتز حتى ديسمبر ١٩٤٣ قرر فى محاكمات نورمبرج أنه قضى على مليونين من اليهود بالغاز السام أثناء إدارته للمعسكر ، ولكن اتضح بعد ذلك أنه كذب ، لأنهم وعدوه بتخفيف الحكم عنه إذا قرر أنه قتل أكبر عدد من اليهود ، وشفيتز لا تقع فى أرض ألمانية بل فى بولندا ، وكان الروس هم الذين استولوا على ذلك الموضع ، ومع أن اليهود أنفسهم يقولون إن القوات الألمانية نسفت غرف الإعدام بالغاز قبل انسحابها—وهذاما يقرره ليون أوريس فى قصته «الخروج» (ايكسودوس) — فإن الناس شهدوا غرفاً من هذا النوع بعد استيلاء الروس على الموقع ، واتضح بعد ذلك أن الجيش المنتصر نفسه هو الذى بنى هذه الغرف ليصور شناعة الألمان . وقد حكم بالإعدام على هويس ، ثم خفف الحكم إلى السجن مدى الحياة ، وفى السجن كتب الرجل مذكراته وقال إنه لم يقتل هذا العدد ولا قريباً منه. وقد قرر ويلهيلم ساسن Wilhelm Sassen الذى يقال إنه كان صديقاً لآيخمان أن هذا قال له إن عدد اليهود الذين دخلوا آوشفيتز لم يزيدوا على بضعة آلاف استطاع معظمهم

الهرب والاختفاء فى الغابات المجاورة ، والكثيرون جداً منهم يعيشون اليوم سعداء ، وقد نشر سلن ذلك فى مجلة لايف الأمريكية .

وتستعمل الدعاية الصهيونية اليوم وثائق رفضتها محاكم نورمبرج على أنها زائفة ، ومثال ذلك ما قرره كورت جيرشتاين Kurt Grstein من أنه رأى غرف الإعدام بالغاز فى معسكر بلزن Bel n وقد رفضت المحكمة كلامه إذ تبين أنه كاذب ، ولكن اسمه يتردد فى كل الكتابات الصهيونية على أنه رجل صادق . وهم يتاجرون باسم رجل يسمى أرتور برايتفايز Arthur Breitweiser ذكر أنه كان يستعمل مادة سامة تسمى « سيكلون ب » فى المعسكرات للتطهير وقتل الحشرات ولكن الدعاية الصهيونية تحرف الكلام وتقول إن هذه المادة السامة كانت تستعمل لقتل اليهود . وبلغ الأمر بالصهيونيين إلى الإقدام على إعدام من يخشون شهادته ، فعندما أدلى كيتزنر K tzn r بأقوال تناقض ما تريده الصهيونية قتله رجالها اغتيالا سنة ١٩٥٢ .

وتعتمد هذه الدعاية الصهيونية على أن الناس لايفكرون طويلا فيما يقرأون ، ومن أمثلة ذلك أن أحد دعاتهم ويسمى بيرسى بورد ذكر أنه كان مسجوناً فى آوشفيتز وأنه رأى كل يوم ابتداء من سنة ١٩٤٢ ما بين ٦٠ إلى ٧٠ قطاراً تصل محملة باليهود إلى المعسكر ، وحمولة القطار الواحد ٣٠٠٠ ، فإذا حسبنا الحسبة تبين أن عدد اليهود الذين سجنوا فى ذلك المعسكر يزيدون على ٢٠٠ مليون .! ومع ذلك فإن النشرات الصهيونية تردد كلام بيرسى بورد هذا . . . . .

وأبسط ما يدحض دعوى الصهيونية هذه ما تقرؤه فى دائرة معارف بروكهاوس الألمانية ، من أنه إذا كان النازيون قد أعدموا ٦ ملايين يهودى وأحرقوا جثثهم فإن الأفران الخمسة المزعومة فى معسكر آوشفيتز لابد أن تكون قد عملت باستمرار حتى سنة ١٩٦٤ حتى تحرق هذا العدد الهائل :

أكاذيب مخجلة ، ولكن الدعاية الصهيونية لا تعرف الخجل . . . :

هذا واليهود أنفسهم لا يصدقون هذا الكلام ، ولكنهم يعتبرونه وسيلة لاستدرار عطف الناس على إسرائيل ، وحتى هذا يستنكره بعضهم ، فقد كتب أمريكى — يهودى يسمى الدكتور ليستوييفسكى Listojewski فى مجلة تسمى « ذى بروم » تصدر فى سان دييجو – كاليفورنيا أنه بصفته متخصصاً فى الإحصاء يقرر أن عدد اليهود الذين اختفوا من ألمانيا أثناء حكم هتلر يتراوح بين ٣٥٠,٠٠٠ ، ٥٠٠,٠٠٠ ، ويرى أن المبالغة فى هذا الرقم وجعله ٦ ملايين أمر مخجل .

واعتماداً على هذه الأكاذيب كسب الصهيونيون عطف الناس واستطاعوا بالعنف والقتال الاستيلاء على جزء من فلسطين وطرد مليون عربى من أهلها واغتصاب أراضيهم .

وهذا بالضبط ما كان يفكر فيه حاييم وايزمان . فقد ذكر يهودى ألمانى يسمى بورج J.G. Burg فى كتابه المسمى « الجريمة والمصير » أن الكولونيل الإنجليزى ماريناتسهاجن Meinerzhagen أحد مستشارى الجنرال اللنبى سمع حاييم وايزمان يقول فى محادثاته مع القائد الإنجليزى : « إننى أفضل أن يفنى كل اليهود الألمان على التنازل عن الحصول على أرض فلسطين » .

وكان بورج يعرف تماماً أساليب الإرهاب الصهيونية ، فقال فى خاتمة كتابه المذكور : إذا أصابنى شىء فستنشر فى الحال مذكراتى ووثائقى التى أودعتها أيدى أمينة فى سويسرا .

ولم يقدم أحد على الاعتداء عليه ، خوفاً من نشر مذكراته ، واليهود يعرفون أنها تفضح الكثير من أكاذيبهم .

وفى التقرير بعد ذلك حقائق أخرى كثيرة ، ولكن حسبنا ما ذكرناه .. المهم لدينا أن الذين يدفعون ثمن هذه الأكاذيب الصهيونية هم العرب

وحدهم ، فهم الذين اعتدى الصهيونيون على أراضيهم ، وهم الذين تحصل إسرائيل على المعاونات من كل صنف لمحاربتهم . .

والناس فى أوربا وأمريكا لا يعنيهم كثيراً تحقيق هذا الموضوع ، لأن مصيبة الصهيونية حلت بغيرهم وهم سعداء لابتعاد الصهيونية عنهم وتركيز متاعبها كلها على العرب .

وفى ألمانيا لا يعارض الناس كثيراً فى القول بأن النازيين قتلوا هذا العدد الهائل من اليهود . لأنه على الأقل يخيف اليهود من العودة إلى ألمانيا والألمان لا يكادون يصدقون أنهم تخلصوا منهم .

ولكن على العرب أن يفضحوا هذه الأكاذيب حتى يجردوا خصمهم من أكبر سلاح يستعمل فى حربهم .

سلاح استدرار العطف والأموال بأسطورة الملايين من الضحايا[١] .

د . حسين مؤنس

---

(١) أعد هذه الدراسة ونشرها الزميل الأستاذ الدكتور حسين مؤنس عن متاجرة الصهيونية بمآسى ضحايا وهمية ، وقد تفضل مشكوراً بالموافقة على نشرها ملحقة بالبحث السابق وتوضيحاً لأكاذيب إسرائيل .

مقترحات عن وحدة الأمة الإسلامية *

* ألقى هذا البحث فى الملتقى الإسلامى السابع الذى دعت إليه وزارة التعليم الأصلى والشئون الدينية بالجزائر وعقد فى مدينة تيزى أوزو عاصمة ولاية القبائل فى الفترة فى يوليو ١٩٧٣ .

تحية وشكر :

بين يدى حديثى إليكم أرجو أن أضم صوتى إلى أصواتكم فى تحية إلى الجزائر رئيساً وحكومة وشعباً ، أن يسّروا لنا هذا اللقاء ، الذى يعتبر بحق صورة من صور وحدة الأمة الإسلامية : وحدة تتمثل فيها أقطار الإسلام وقضاياه ، والتواصل المثمر بين أجيال متتابعة على أساس من الحوار ، ليكون الغد أفضل من اليوم .

تقسيم الموضوع :

ونستطيع أن ندرس موضوعنا من ثلاثة جوانب :

الأول : الجانب المنهجى .

الثانى : الجانب الموضوعى.

الثالث : المقترحات العملية .

أولا : الجانب المنهجى

بين التشابه والتباين[1] :

فى أية دراسة عن الوحدة تقابلنا مجموعتان من عناصر الدراسة :

أولاهما : عناصر التشابه بين مكونات الإقليم أو القطر أو موضوع الدراسة أيًّا كان .

والثانية : عناصر التباين بينه وبين غيره .

وتطلع الإنسان إلى التشابه والتباين أمر فطرى يحاول به أن يمد نظره

---

(١) للكاتب فى هذا الموضوع تحليل منهجى يمكن الرجوع إليه فى البحث الآتى : السودان الجنوبى : دراسة فى التوجيه الحضارى . وقد نشر فى الكتاب الآتى : دكتور عبد العزيز كامل : دراسات فى الجغرافيا البشرية للسودان ٩١ : ٩٨ دار المعارف بمصر ١٩٧٢.

إلى ما وراء الأفق القريب الذى يعيش فيه .

وأنت إذا ما نظرت إلى أى فردين من سلالة واحدة استطعت أن ترجعهما إليها مع وجود تباين بينهما . كذلك فى أى إقليم طبيعى هناك تباين بين أجزائه ، ومع هذا تنسب الجزأين إلى الإقليم الكبير .

مثال ذلك : هنا فى الجزائر ، تشابه فى المناخ بين مدينة تيزى أوزو التى يعقد فيها مؤتمرنا ، ومدينة الجزائر العاصمة : يتشابهان فى المطر الشتوى والجفاف الصيفى ، وبهذا ندخلهما معاً فى إقليم البحر المتوسط ، ولكن هناك تبايناً بينهما فى كمية المطر والحرارة على مدار السنة . ومع هذا فإن كلاً من المدينتين يقع فى إقليم واحد هو إقليم البحر المتوسط . .

وفى الفن الإسلامى ، من الغرب إلى الصين ، تستطيع أن ترد أية قطعة ترجع إليه ، إلى أصولها مع فروق اقتضاها تباين البيئات فى حدود الوطن الكبير مع أنها جميعاً فى إطار الفن الإسلامى .

فهدف الدراسة فى المناطق أو مجالات البحث التى تبدو متشابهة — بعامة — ليس مجرد « إظهار أوجه الخلاف » ولكن « مدى هذا الاختلاف » فإذا ما أظهرت الدراسة التفصيلية أن هذه الفروق ضئيلة أمكن القول بالتشابه . أى أنها متشابهة فيما بينها ومتباينة عن غيرها .

فالفروق موجودة فى الحالتين ، وإنما العبرة فى مداها ، فإن كان قليلاً قلنا بالتشابه ، وإن كان كبيراً قلنا بالتباين .

وهذه النقطة من أخطر ما يقابلنا منهجياً وتطبيقياً . وعلى أساسها يمكن « توجيه » الدراسة والربط بين العناصر الموضوعية والتخطيطية فى حياة أمة أو إقليم ، تخطيطاً تتدخل فيه العناصر والعوامل من أجل صناعة هيئة حضارية جديدة .

وعلى هذا — كما يقول « هارتسهورن » ، وهو مختص فى مناهج البحث الجغرافى — « ليس التشابه نقيض التباين ، وإنما هو مجرد تعميم ،

يتغاضى عن بعض الفروق الصغيرة ويؤكد الفروق الكبيرة[١] .

التشابه الكامل بين جزأين فى أى إقليم أو شعب أو أمة أسطورة، وإذا ما تتبعنا التقسيم فى محاولة للوصول إليه ما استطعنا الانتهاء إلى شىء . .

وجه الإقليم — نظرة تطبيقية :

وليس هناك وجه ثابت ثبوتاً مطلقاً لأى إقليم أو أمة ، وإذا كان لبعض الملامح صفة تقرب من الثبات النسبي ، ففى بعضها الآخر ملامح أخرى أكثر استجابة للتغيير .

١ — وإذ ما حاولنا تطبيق ما انتهينا إليه من التشابه والتباين ، على قضايانا الكبرى مثل « وحدة الأمة الإسلامية » لوجدنا أن الدراسات التى تستهدف الفرقة بين المسلمين تحاول أن تبرر الفروق — مهما تكن صغيرة — وأن تركز عليها، مقللة ما استطاعت من مكانة أوجه الشبه ، فى حين أن الدراسات التى تستهدف وحدة الأمة الإسلامية ، تركز على أوجه الشبه. وإذا ما عرضت لأوجه التباين فإنها تبرز كيف تتعايش فى ظل أوجه الشبه الكبيرة .

٢ — فى العالم الإسلامى فى أفريقية، يحاول الاستعمار أن يفرق بين الزنوجة والعروبة، بين أفريقية جنوبى الصحراء ومن فيها من المسلمين ، وبين إخوانهم من العرب شمالى الصحراء . وفى الشمال يحاول التفرقة بين المشرق والمغرب العربى . وفى نطاق المغرب يحاول التفرقة بين الهجرات التى جاءت قبل الإسلام فيطلق عليها اسم القبائل أو البربر ، وبين العرب الذين جاءوا بعد الإسلام .

---

(١) Hartshorne, R, (1959) ; Perspective on the Nature of Geography, P. 17. Chicago.

٣ ــ وفى المشرق العربى حدث التقسيم بين الترك والعرب ، وتتابع التمييز والتقسيم وأخذت تظهر وحدات سياسية جديدة صغيرة ، وتكاثرت الحدود السياسية بصورة لا نكاد نجد لها نظيراً فى العالم .

وتحريك الضوء على أوجه التباين والتشابه ، له دوره الكبير فى الدراسة. وأنت فى دراستك ، وفى حدود الوقت المتاح لك ــ مهما تكن موضوعياً لن تملك إلا الاختيار من المادة العلمية المتاحة لك . وأنت فى اختيارك تملأ إطاراً للبحث اخترته فى حدود معرفتك ، وتسير إلى هدف تعمل له .

هذا جانب منهجى وددت أن أبدأ به ، ويستطيع كل منا أن يطبقه على ما بين يديه وفى مكتبته من دراسات عن وحدة الأمة الإسلامية أو العربية ، فيجد معظمها لا يكاد يخرج عن أحد هذين الخطين :

إمّا تركيز على التشابه ، وإما تركيز على التباين ، حسب الهدف الذى يستهدفه الكاتب .

ثانياً : الجانب الموضوعى

الأرض :

من ناحية المكان تعيش الأمة الإسلامية فى وطن كبير ، نواته فى قلب العالم القديم ، حتى إننا نستطيع القول بأنه قارة وسطى بين القارات الثلاث ، ومما يسترعى الانتباه ــ والله أعلم حيث يجعل رسالته ــ أن ينشأ الإسلام فى هذا الوطن المتوسط ثم ينتشر منه ــ أكثر ما ينتشر ــ على خطوط التجارة فى العالم القديم ، يحمله الدعاة والتجار والملاحون ، ويستطيعون الوصول به إلى المشارق والمغارب ، ويتوغلون به فى شمال أوربا وآسيا وقلب أفريقية ، ثم يهاجرون به إلى العالم الجديد ، فنراه ممثلا

فى جاليات فى أمريكا الشمالية والجنوبية وأستراليا .

وإذا ما أردنا أن نتصور نمطاً متكاملا يختزل كثيراً من التفاصيل قلنا ما يأتى :

هناك نواة يتمثل فيها الإسلام ، وتتكلم اللغة التى نزل بها القرآن . وحولها دائرة فيها الإسلام دين غالب ، ولغة القرآن لغة عبادة لا لغة حياة . وحولها إطار — يمثل شبه الظل لأرض الإسلام — فيه جاليات إسلامية تمارس حياتها فى أمن تتباين درجاته . ثم على أطراف العالم الإسلامى جاليات أو جزائر إسلامية منقطعة عن الجسم الكبير — إلا برباط العقيدة — وبعض هذه الجاليات معرض للقهر أو للذوبان فى الحياة الجديدة بكل اندفاعاتها ومطالبها . وهناك تصور ثان نستطيع أن نقسم به أرض الإسلام إلى ثلاثة نطاقات كبرى :

أولها : النطاق الأساسى الممتد من المحيط الأطلسى غرباً إلى أندونيسيا شرقاً ، ويشمل العالم العربى والأقطار الإسلامية غير العربية . وهنا الإسلام دين الغالبية وإن اتخذ بعض أهله لأنفسهم لغاتهم الأصلية أو لغة حديثة . وزيادة المسلمين فى هذا النطاق ترجع أساساً إلى الزيادة العددية والنمو الطبيعى .

الثانى : نطاق التراجع ويقع إلى شمال النطاق السابق . وأقصد بالتراجع هنا مفهوماً تاريخياً كبيراً يشمل ما تركته الحروب الصليبية وبعض الحركات القومية والاتجاهات المادية . هذا النطاق يشمل أجزاء من جنوب أوربا ووسطها ، ووسط آسيا. والذى أقصده بالتراجع هنا مقارنة بما كانت عليه الأمة الإسلامية فى فترات ازدهار قامت فيها هذه الأقطار بإضافات بناءة فى الفكر والحياة الإسلامية .

الثالث : نطاق التقدم ويقع إلى جنوب النطاق الأساسى ، ويمثل —

إلى حد كبير — المجال الذى يتقدم أو يستطيع أن يتقدم فيه الإسلام ، وأهم أجزاء هذا النطاق أفريقية المدارية[١] .

ومع كثرة القول بأن الإسلام يتقدم فى هذا النطاق ، فإن هذا القول لا يمكن قبوله على إطلاقه ، فأمام ضغوط الحياة المادية ، وتوافر مدارس الإرساليات التبشيرية ، حدث نوع من النزيف فى المجتمع الإسلامى يفقد فيه بعض دمائه وأبنائه لتصب فى شرايين أديان أخرى . هناك فى هذا النطاق قرى مسلمة ترك أهلها ، أو كثير من أهلها ، دينهم ، وتحول أبناؤها إلى مدارس الإرساليات التبشيرية .

ولا نستطيع أن نلوم إنساناً نشيطاً فى عمله ، وإنما علينا أن نراجع أساليبنا فى الحفاظ على أبنائنا وحسن إعدادهم فى هذه الأقطار للحياة بالعلم والإيمان .

هذا الامتداد الإسلامى مهدد من الجنوب : استطاع الاستعمار أن يدور حوله ، وأن يضغط من الجنوب ضغطاً قوياً يحاول به وقف المد ، ثم تحويله إلى جزر إسلامى. ولنا أن ننظر ما يحدث فى منابع النيل الاستوائية وما يليها غرباً ، وإلى ما يحدث فى أرتريا ، وأن نربط هذا بما يحدث فى الأطراف القصية كالفيلبين حيث يصل الجزر الإسلامى إلى حد الإبادة الجسدية والتصفية .

وإذا كان النطاق الجنوبى وأطراف العالم الإسلامى تلقى هذا التهديد الذى يختفى أحياناً فى ابتسامة مدرس أو علاج طبيب ، أو يبدو كالحاً فى تصفية جسدية ، فإن القوى الغازية قد استطاعت تحت ستار الصليبية

---

(١) A. Kamel ; The face of the Moslem World.

وقد نشر هذا البحث فى مجلة الجمعية الجغرافية المصرية : المجلد ٣٨ص ١٢٩ : ١٥٣ سنة ١٩٦٥ القاهرة ، وفيه دراسة لنطاقات العالم الإسلامى وتحركها وتحليل لتباين الإحصاءات عن المجموع الكلى للعالم الإسلامى .

والصهيونية أن تغرس الخنجر الإسرائيلى فى قلب النطاق الأساسى ، واستطاعت لأول مرة فى التاريخ أن تشطر الجسم المتصل إلى شطرين عن طريق احتلال فلسطين وسيناء وصحراء النقب . ومن هذا المركز المتوسط تحاول الصهيونية والاستعمار مد نفوذهما إلى مناطق البترول والاستقرار البشرى . يضاف إلى هذا الضغوط التقليدية التى يلقاها النطاق الرئيسى عن طريق الشمال وعن طريق العالم الجديد .

الناس :

وإذا كانت هذه صورة أرض الإسلام ، فإن صورة المسلمين لا تقل خطراً ولا إثارة عنها ، ولقد أشرنا إلى بعض ملامحها فى حديثنا عن الأرض . ونستطيع أن نضيف إلى ذلك مجموعتين من التشابه والتباين :

أولا — التشابه :

١ — هناك أولا : وحدة العقيدة وبساطتها وسهولة تعلمها وكيف تلخصها الشهادتان لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

٢ — وهناك ثانياً : العبادات وأنماطها واحدة من صلاة وصيام وزكاة وحج . ويستطيع المسلم أن يمارسها فى أى مكان فى وطنه الكبير ... الأرض مسجد وطهور . القبلة محددة . الأذان محدد . المناسك معروفة : وحديث النبى عليه الصلاة والسلام بين أيدينا : « أيها الناس خذوا عنى مناسككم » ، وقوله «صلوا كما رأيتمونى أصلى» ، ولهذا التشابه وما كانت — ولا تزال — تقوم به المساجد من تيسير إقامة الشعائر وإيواء الغريب ، وما كنا نلحقه بها من دور ضيافة يتعاون أهل القرية أو المحلة فى إكرام من يفد إليها ، لهذا كله أثره فى دعم روابط الوحدة والأخوة بين

المسلمين ، بحيث كان المسلم يستطيع السفر من أقصى المغرب إلى المشرق فى ضيافة ورعاية وإخاء لا يحس غربة نفسية إلا ما تقتضيه طبيعة النفس من إلف المكان والحنين إلى الوطن .

٣ ــ الأخلاق: ونبينا يعلمنا : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، وهى تبدأ من معاملة الفرد لنفسه وأهل بيته والحيوان الأعجم الذى يرعاه ، وتتسع دائرتها إلى الجيرة وأهل المدينة ، إلى الأمة ، إلى النظرة الإنسانية الشاملة التى نحسها فى الحديث الشريف : « اللهم ربنا ورب كل شىء أنا شهيد أنك الرب وحدك لا شريك لك ... اللهم ربنا ورب كل شىء أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة » (رواه أبو داود) .

٤ ــ المعاملات : وأصولها العامة ، وبعض تفاصيلها التى يقيم بها الإسلام دعائم المجتمع ، ثابتة . والقاعدة الأصولية عندنا هى « إجمال ما يتغير وتفصيل ما لا يتغير » . ومن هنا جاءت العقيدة والعبادات ــ بخاصة ــ واضحة ومحددة ، فى حين جاءت الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى مبادئ وكليات مرنة تستطيع أن تستجيب لحاجيات الحياة فى تجددها وتدفقها .

ثانياً ــ أوجه التباين :

هذه النقطة الأخيرة تقودنا إلى أوجه التباين بين الأقطار والعصور ، وهى دليل صحى على حيوية الإسلام وسرعة استجابته لحاجات الحياة دون أن يفقد شخصيته . وتفيدنا النظرة التاريخية فى توضيح مجالات التباين :

١ ــ فمن منطقة القلب الذى نبض بالإسلام أول ما نبض فى مكة والمدينة ، حدث انتشار تفاعل فيه الإسلام مع أرض وناس كانوا تحت سيطرة الفرس والروم . وتخطى هذا إلى أرض كانت تحت سيطرة

الهند والصين أو قبائل التتار فى وسط آسيا ، أو كانت لها حضاراتها القديمة فى مصر والمغرب العربى وقلب أفريقية .

٢ – كان من الطبيعي أن تحتفظ هذه الأقطار – وهى تتقبل الإسلام – ببعض ما فيها من حضارات قديمة ولغات بعضها اكتسب الإسلام ديناً والعروبة لغة – كما سبق القول – والبعض اكتسب الإسلام ديناً والعربية لغة عبادة. وتباين احتفاظ هذه الشعوب بما كان عندها من دين ، واستطاعت بعض طقوسها القديمة أن تجد طريقها إلى الحياة ، متسترة فى بعض أثواب من الدين الجديد . وعند هذه المرحلة تتعدد زوايا الرؤية :

(ا) بعض الكتاب أخذوا يؤكدون ما يسمى « بالإسلام الإقليمى » ، وأن الإسلام فى كل إقليم يأخذ طابعاً يتأثر بالديانات والحضارات القديمة فى هذا الإقليم ، وأخذوا يلقون الضوء على « الإقليمية الإسلامية » وهنا يعود بنا القول إلى ما قدمنا به لهذا البحث فى موضوعى التباين والتشابه . هذا الاتجاه الفكرى تستطيع أن تلمسه – على سبيل المثال فى بعض كتابات الكاتب الإنجليزى سبنسر ترمنجهام عن إفريقيا[1] .

ولا يمكن أن نلغى فكرة التأثير والتأثر إطلاقاً ، وتقمص بعض القديم ثوب الجديد أو بعض أثوابه ، ولكن الذى ينبغى العناية به هو مدى هذا التأثير ، وبالتالى مدى التباين ثم الإلحاح الفكرى عليه أو على أوجه التشابه .

(ب) وبعض الكتاب يأخذون الوضع المقابل ، ويؤكدون صور

---

(١) Trimingham S.

(a) Islam in the Sudan, 1949, Oxford Univers. Press.

(b) Islam in Ethiopia, 1952 O.U.P.

(c) Islam in West Africa, 1961, O.U.P.

(d) Islam in East Africa, 1964, O.U.P.

(e) The Influence of Islam Upon Africa, 1968, Longmans.

التشابه وأثر الإسلام فى أخلاقيات الشعوب التى تمثلته ديناً ثم حملته إلى من وراءها . وتستطيع أن تجد نموذجاً لذلك من كتاب سير توماس أرنولد «الدعوة إلى الإسلام»[1]، وهو من أفضل ما كتب فى هذا الموضوع ، وله ترجمة عربية .

٣ — وقد ساعد على تعميق الفروق ، الدعوة إلى القوميات المحلية ، بكل ما تحمل من اعتزاز بالماضى . وقد يشمل الاعتزاز بالماضى اعتزازاً بالدين ودعوة إلى الأصالة ، ومن هنا نجد إحياء للدين فى كثير من أقطار العالم الثالث ، ولكن قد تحمل أيضاً تمجيداً لحضارات قاومت الإسلام واستطاع هزيمتها سياسيًا وعسكريًا . وعادت لتطل ، لا على صعيد البحث العلمى ، ولكن على صعيد مزاحمة الفكر الإسلامى نفسه .

٤ — ولنا أن نضيف إلى هذا العمق الحضارى تعدّد الألسنة والأجناس وتنوع البيئات فى أرض الإسلام ، مما شجع على بقاء بعض المذاهب والطوائف فى شبه عزلة فى معاقلها الجبلية أو النائية .

وإذا ما رجعنا إلى الخرائط التى ترسمها الدوائر الاستعمارية ، أو النظم التى وضعتها فى بعض الأقطار الإسلامية لتأكيد الطائفية وتعميق الأخاديد بين أبناء الوطن الواحد ، رأينا كيف يحاول الاستعمار التمزيق وزرع الشقاق ، مما يقتضى منا جهوداً مضاعفة فى العمل .

٥ — يضاف إلى ذلك تعدد الأنظمة السياسية والاقتصادية التى يعيش فى ظلها المسلمون . فضلا عن الجاليات والأقليات الإسلامية ، بحيث أصبح غير قليل من أقطار الإسلام يدور فى أفلاك سياسة لها قدرة جذب جبارة . والمسلمون يفعلون هذا — طوعاً أوكرهاً — ثم يدافعون عنه كأنما يدافعون عن حرية اختيارهم فى عالم أصبحت بعض المبادئ فيه ،

---

(١) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام — الترجمة العربية بقلم د. حسن إبراهيم حسن وآخرين ، القاهرة ١٩٥٧ .

كالسلع التجارية تصدر من قطر إلى قطر ، وتجد لها من الدعاية ما يحملها عبر البحار والقارات .

٦ — ويرتبط بهذا أيضاً المستوى العلمى والتكنولوجى الذى يعيش فيه غير قليل من شعوب الإسلام. وهو مستوى يجعل كلاً منها يبذل محاولة للارتفاع . وقد تعوقه قيود من الحاجة ، أو قيود من الترف والوفرة ، تلقى على الأعين غشاوة فلا ترى الحقيقة . . هذا الإنفاق الاستهلاكى أو الترفى ، أو تكديس الأموال فى أيد أجنبية تحركها ولا يملك بعض المسلمين منها إلا أرقاماً تبين رصيدهم فى البنوك . . وهذا الفقر القاتل وهذه الأعباء الغليظة التى تنوء بها الكواهل فى معارك التحرير . كل أولئك من الوسائل التى تباعد بين المسلمين وبين وحدتهم المبتغاة وتجعل لكل منهم طريقاً إلى مستقبله .

وقد يلتقى شعب مسلم مع غيره فى القول . ولكن القضية عندنا — أقولها فى وضوح — هى الفجوة الواسعة بين القول والفعل . .

العقبة عندنا هى الكلمات العقيم . . وما أشد حاجتنا إلى كلمات ولود . . كلمات تلد فعلا ، وصورة جديدة للمجتمع والأمة الإسلامية . ولنتأمل معاً هذه الصورة الكريمة للكلمة الولود المثمرة فى قول الله تعالى :

«أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » (إبراهيم ٢٤ — ٢٥) .

نحن فى عصر التجمعات الكبرى ، وأقوى دول العالم الآن من الشرق إلى الغرب اليابان والصين والاتحاد السوفييتى ومجموعة غرب أوربا والولايات المتحدة الأمريكية . وقد تتباين هذه الدول فى المساحة ومدى توافر

المواد الأولية ، ولكنها تلتقي عند مستوى علمي مرتفع وتنظيم دقيق وعقيدة في الحياة هي عندهم أمر بقاء أو فناء .

وإلى جنوب هذا النطاق العملاق ، نطاق آخر من التفتت النسبي ، اصطلحوا على تسميته بالعالم الثالث ولنا أن نقارن بين أمريكا اللاتينية وأمريكا الشمالية ، أو بين العالم الإسلامي والدول الأفريقية والآسيوية والوحدات الكبرى إلى الشمال .

وليس لنا من حياة إلا في حدود وحدتنا في عالم العمالقة . لا مجال للأقزام أو الوحدات المفتتة الصغيرة في هذا العالم . ولا نستطيع عملياً أن نتابع الحياة ونحن وحدات صغيرة وشظايا بشرية يمكن أن تستقطبها الوحدات الكبرى .

في أرضنا مصادر الطاقة وموارد أولية غنية . ولنا موقع متوسط وتاريخ طويل ومصالح مشتركة ونقابل عداوات مريرة . فالوحدة لنا قدر ومصير . إنها الحياة .

الجانب الثالث : مقترحات عملية

هذه المقترحات لا تعدو أن تكون تأكيداً وترجمة عملية لأوجه التباين وتنظيماً للجهود الإسلامية على الصعيد المحلي والعالمي .

أولا — الهيكل التنظيمي :

١ — على مستوى كل قطر تتعدد أجهزة العمل الإسلامي . ومن المتعين كخطوة أولى أن تتوحد أجهزة العمل داخل كل قطر ، أو أن تكون هناك — كحد أدنى — منظمة للعمل الإسلامي على الصعيد المحلي ، يتم وفقاً لها تنسيق الجهود الداخلية أولا ، تمهيداً لتحديد صلة هذه الأجهزة المحلية بمستوى العمل الإسلامي العالمي .

٢ — هناك أكثر من لقاء على المستوى العالمي ؛ هنا في الجزائر

وفى طرابلس (ليبيا) وفى القاهرة وفى الأرض المقدسة (مهبط الوحى) وفى الشرق الإسلامى الأقصى ... وكلها على مختلف موضوعاتها واهتماماتها تعمل على الصعيد العالمى. وحتى الآن — ومع الجهود المبذولة — لا نستطيع القول بأن هناك لقاء منتظماً بين المسئولين عن هذه المؤتمرات واللقاءات الإسلامية العالمية. وإننى أتقدم باقتراح محدد فى هذا الصدد هو عقد اجتماع دورى سنوى يضم المسئولين عن اللقاءات والمؤتمرات المنتظمة لتنسيق الجهود فيما بينها، ودراسة وسائل تنظيم وتكامل نشاطاتها، ولا شك أن تنفيذ مثل هذا الاقتراح سيؤدى إلى القضاء على التكرار، واقتصاد الوقت والجهد والنفقة بقدر ما سوف يثرى العمل الإسلامى ويضاعفه.

٣ — هل نستطيع أن نصل إلى ما يمكن أن نسميه «المجلس الإسلامى الأعلى» لتنظيم أمر النشاط الإسلامى؟ إن مجلساً كهذا — الذى أرجو أن نسير إليه — يمكن أن يقترح استراتيجية عليا للعمل الإسلامى تكون دليل عمل يمكن أن تسترشد بها الدول والمؤسسات الإسلامية لخدمة الإسلام داخل دياره وخارجها.

٤ — لقد أقام المجتمع الإسلامى «المؤتمر الإسلامى» وتلك خطوة جديرة بالحمد. وأصبح لوزراء خارجية دول العالم الإسلامى لقاء منتظم ثم جاء بعد هذا لقاء وزراء الأوقاف فى الكويت فى الربيع الماضى ١٩٧٣ ولم يكن جزءاً من إطار مخطط. والذى أقترحه الآن هو إيجاد كيان ينسق وينظم على المستوى الرسمى الجهود جميعاً، دون أن يكون فى هذا أى قضاء على شخصيتها. وإذا كنا بدأنا بوزارة الخارجية ومن بعدهم وزراء الأوقاف، فإنه يمكن أن نتابع الاجتماعات فى شئون[1]

---

(١) انعقد مؤتمر لوزراء مالية الدول الإسلامية فى الفترة من ٢١ — ٢٢=

الاقتصاد والاجتماع والتعليم حتى نصل إلى اجتماع وزراء الحرب والدفاع عن أرض الإسلام . إن الملل الأخرى أخذت بهذا السبيل من التنظيم ، والتنظيم من صميم ديننا .

ثانياً — الجانب التخطيطي والتنفيذي :

١ — فى ظل هذا التنظيم الإسلامى المقترح يمكن أن تتحدد مجالات العمل . . فإذا ما كان اجتماع وزراء الخارجية قد انتظم ومن بعده وزراء الأوقاف ، فاليأت دور رجال التشريع والاقتصاد والتربية مسيرة إلى وزراء الحرب والدفاع عن الإسلام .

٢ — وأقترح أن يكون التعاون الإسلامى العالمي فى أول أمره محدود المدى ، لنعطيه تجربة نجاح تدعو إلى مزيد من الأمل ، ولا نحمله من أول الأمر ما لا طاقة له به . وأن يكون التعاون — ابتداء — فى القدر المتفق عليه . وأن يكون البحث فى هذه المجالات ، دون عرض لأوجه الخلاف أو الحديث فيها .

مثال ذلك : لو بدأنا فى قضية فلسطين برعاية منتظمة لأبناء فلسطين والأرض السليبة تقوم على أساس الحفاظ عليهم ، ودعم حب الوطن الأصيل فى نفوسهم ، وتأكيد روح العودة فيهم . لكان فى هذا خير يدعو إلى مزيد من الجهد الإيجابى . وقد يكون ما تنتهى إليه — كمرحلة أولى — تنسيقاً بين جهود قائمة ، وملئاً لثغرات موجودة ، ولا يحول هذا دون أى نشاط إيجابى أوسع مدى تمارسه هيئات قائمة الآن .

=من ذى القعدة ١٣٩٣ هـ الموافق ١٥ — ١٦ ديسمبر ١٩٧٣ بناء على دعوة الأمانة العامة للمؤتمر الإسلامى . واستعرض المؤتمر موضوع إنشاء بنك إسلامى للتنمية يكون مقره جدة ، كما أقر المؤتمر إنشاء وكالة للأنباء الإسلامية وصندوق للتضامن الإسلامى يعاون الحكومات والجماعات الإسلامية على حفظ كيانها وتنمية مواردها.

مثال آخر: لو وجهنا جهودنا فى قضية مسلمى الفلبين إلى الحفاظ على أرضهم ، فلا تغتال باسم التوسع الزراعى والتنمية ، والحفاظ على أبنائهم بإعطائهم فرصاً أوسع فى التعليم الحديث مع دعم العقيدة الإسلامية فى نفوسهم ، ولو تعاونا معهم على تمويل مشروعات عمرانية هناك ، لفعلنا خيراً كثيراً ، يستطيع أن يجعل نشاطهم بعد هذا ذاتى الحركة .

٣ ــ أن يكون العمل الفكرى والتنفيذى ثابت الخطو واضح المعالم . لننظر إلى ما يفعله أعداؤنا ، وكيف جاءوا فلسطين لينتزعوا أرضنا الغالية ، وليجمعوا السكان اليهود من أقطار العالم ، وليوجدوا الأنظمة والعلاقات الدولية . ذلك لأن القضية عندهم «إرادة الحياة» أولاً ، قبل أن تكون مجرد وجود عناصرها .

٤ ــ ونحن محتاجون فعلا مع التخطيط الطويل إلى تقسيمه إلى مراحل، وإلى توزيع إقليمى له ، بحيث لا يصبح العمل مرتبطاً بأفراد، بقدر ارتباط الأفراد بفكرته والإيمان به والتوفر على إنجاحه .

٥ ــ أن ننشئ مركز توثيق إسلامياً عالمياً لهذا كله يجمع المعلومات الصحيحة ويوزعها وينظم الخطط ويتابع تنفيذها .

٦ ــ أن تربى الأجيال الجديدة المؤمنة بذلك ، وأن يؤمن لها العاملون ظهرها فى العمل ، ويكفى ما تلقاه من أعدائها .

وصفوة القول فى أبواب العمل ومقترحاته أننا نريد تنظيماً على مستوى عالمى ، كما صنعت المنظمات التى تحمل صفة العالمية فى كل قطر إسلامى ، ونظاماً سليماً على مستوى كل قطر ، واقتصاداً فى الجهود ، وتخطيطاً طويلا يرتبط به العاملون فيه ، وتتحرك معه المستويات المحلية حركة تنظم العمل الإسلامى العالمى فى مرونة واستجابة لاحتياجاته المتطورة .

خاتمة

وقبل أن أبرح مكانى هذا ، هل تأذنون لى بكلمة وداع ، فقد اقتضت ظروف عملى أن أعود إلى القاهرة قبل نهاية الملتقى .

وداع إلى الجزائر رئيساً وحكومة وشعباً .. الجزائر أرض الإيمان والجهاد والاستشهاد وإعادة بناء الحياة .

إلى هذه الجبال الخضر التى شهدت آيات البطولة ، وضمت رفات الشهداء .

إلى هذا الجيل الجديد من أبنائنا الذى أنبتته العقيدة والتضحية السخية وإرادة الحياة ، فارتفعت هاماته فوق الأحزان إلى مستوى المسئولية كزرع أخرج شطأه فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار .

إلى هذه الولاية الطيبة « تيزى أوزو » وأجهزتها الشعبية والسياسية والتنفيذية أن أفسحوا لنا الصدور والدور .

وإلى الصديق الأستاذ مولود قاسم وزير التعليم الأصلى والشئون الدينية ، وزملائه ومعاونيه .

وإلى لقاء فى ملتقى جديد أدعو الله أن نكون فيه أقرب إلى أهدافنا ، استرداداً لفلسطين الغالية ، وأرضنا السليبة ، وبناء مجتمعنا وشبابنا على أسس راسخة من الإسلام والتخطيط والعمل الخالص . . .

خطوات إلى وحدة الفكر الإسلامي *

* نشر بمجلة المصور (القاهرة) عدد ذي الحجة .
١٣٩٣ هـ - ديسمبر ١٩٧٣م .

هناك اعتذار تقليدى أود أن أبدأ به هذا الحديث : وهو اتساع الموضوع وضيق المجال المتاح له . . من أجل ذلك سيقتصر القول على خطوط عريضة فى الموضوع أو ما نستطيع أن نسميه — إذا استعرنا تعبيراً فنياً — خطوط القوة فى الدراسة . وإلا فكيف نتحدث عن وحدة الحضارة الإسلامية فى امتدادها الزمنى أربعة عشر قرناً . . وفى امتدادها المكانى من أقصى اليمين شرقاً وما وراءه فى جزائر المحيط الهادى — فى الفيلبين — إلى أقصى المغرب وما وراءه من جاليات إسلامية استقرت فى العالم الجديد وأطلت على المحيط الهادى من أقصى الغرب ، وزحفت جنوباً إلى أستراليا ، وأقامت مؤسساتها — مساجدها أولا — تحمل آية حضارتها ، وشمالا وصلت إلى المناطق الباردة فى فنلندا وما حولها ، حيث جاليات لم تستطع أعاصير المنطقة بصقيعها وثلجها أن تقتلعها من جذورها ، واحتفظت بدفء الإسلام فى شتاء الحياة ؟

هى حضارة متنوعة المظاهر واحدة المصدر كالضوء إذا سقط على منشور زجاجى نرى فيه كل ألوان الطيف ، وهو نابع من مصدره الأصيل : القرآن والتوحيد وكالنهر : ماء واحد تنبت به زهور وثمار مختلف ألوانها . .

هذه الحضارة بجوانبها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية . . فى آفاقها المتعددة : الطب ، الهندسة ، الحساب ، الجبر ، الرياضة . . ومكتبتها العملاقة النامية . . ماذا نريد من حديثنا اليوم عنها ، بعد أن رأينا معاً — فى سطور — آفاقها الزمانية والمكانية والموضوعية ؟

فليكن حديثنا أولاً عن خصائصها ، ومن هذه الخصائص نستطيع أن نتبين عوامل الوحدة فيها . . الوحدة فى السمات العامة مع التنوع فى

الأساليب والأنماط . ثم ننتقل إلى الوسائل التى تؤكد هذه الوحدة الفكرية بمرونتها وإيجابيتها ، ولنبدأ معاً هذه الرحلة . .

أولا — الخصائص :

ما نقطة البدء فى الحضارة الإسلامية ؟

أعتقد أنها كلمة واحدة : القرآن .

بدء نزول القرآن كان إيذاناً بعهد جديد من عهود الحضارة الإنسانية ، حمل لواءه النبى عليه الصلاة والسلام ، وتعاون معه صحابته فى إقامة أول مجتمع إسلامى ، وانتشرت بعد هذا موجات من الحضارة من مركزها الأصيل فى الجزيرة العربية ، ثم من مراكزها الجديدة فى ديار الإسلام إلى المدى الذى نراه الآن .

والنداء الأساسى فى الإسلام هو نداء التوحيد : إذا نطق الإنسان بالشهادتين وأقر بهما كان مسلماً . ومن هذا النداء تبدو أول ملامح هذه الحضارة وأنها :

١ — ربانية :

ونستطيع أن نرجع إلى مجالات الحضارة الإسلامية ، ولن نخطئ فيها هذا الأساس المكين ، ولنأخذ نماذج على ذلك :

* فى تأسيس الدولة نفسها . نرى العامل الربانى قوياً : فى المغازى وما بذله الصحابة فيها من جهد مع الرسول « ص » ، ثم فى حروب الردة وفى فتوح فارس والروم وما فيها من بطولات . فى الحروب الصليبية وحروب التتار ، وتطوير السلاح . فى الثورات وحركات المقاومة التى قامت فى ديار الإسلام عندما غزاها المستعمرون . . مسيرة إلى عبور

قناة السويس فى العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ هـ « ٦ أكتوبر » وكيف أن نداء المقاتلين كان « الله أكبر » .

د مجالات الفن الإسلامى كانت لها جذورها التى ترجع إلى المصدر الأول . ولها مع هذا تنوعها العظيم : « تنوع فى أشكاله وصناعاته وزخرفته وأقاليمه ورجاله ، تنوع بلغ من الشدة حداً يصعب فيه كثيراً أن نجد تحفتين متماثلتين . ومع ذلك فإنه يمتاز بوحدته . فلو أنك عرضت على أى شخص تقتصر معرفته بالفنون على المبادئ العامة البسيطة ، صوراً متنوعه لتحف مصنوعة فى العصور الإسلامية ، منها صورة لقطعة من العاج الأندلسى وأخرى لقطعة من النسيج المصرى ، وثالثة لقطعة من المعادن الإيرانية ، فلا شك فى أنه يشعر بوحدة أساليبها ، ولا يتردد فى الحكم بانتمائها جميعاً إلى الفن الإسلامى » .

آثرت أن أذكر هذا النص من تصدير د . أحمد فكرى لترجمة كتاب « ديماند » عن الفنون الإسلامية (ص ١١) ، ويتابع بعد هذا عرضاً لآراء « ديماند » التى تؤكد وحدة الفن الإسلامى . ويعقب على هذا بقول المؤلف (ص ١٥٨) من الأصل : « قد يكون من الصعب فى أغلب الأحيان ، أن نحدد بدقة الإقليم الذى يصلح أن يرجع إليه من بين الأقطار الإسلامية الفضل فى ابتكار نوع الخزف ، أو شكل معين من أشكال زخرفته ، إذ أننا نلقى كثيراً هذه الأنواع والأشكال المختلفة بعينها فى أقطار عديدة من العالم الإسلامى » .

ولكن ، كيف نربط بين هذه الوحدة الكبيرة ، وبين الأساس المؤمن الذى قامت عليه هذه الحضارة ؟.

هذا مجال فسيح لقراءة الآثار الحضارية وتفسيرها ، نكتفى بخطوطه الرئيسية.

ء ولو انتقلنا إلى مجال العلم لرأينا الجانب المؤمن من حياة علمائنا . . هم يبدءون بدراسة العقيدة والأصول . وما من مسلم إلا وله صلة قوية أو لينة

بهذه الأصول . وفى الإنتاج العلمى الإسلامى تحس هذه الروح المؤمنة : فى البدء «بسم الله الرحمن الرحيم» فى حمد الله والثناء عليه والصلاة والسلام على خاتم رسله وعلى سائر الأنبياء والمرسلين . فى الإنابة إلى الله والخضوع له .

وأنت تستطيع أن تدرك جانباً من شخصية المؤلف من طريقته فى تقديم كتابه ، وتستوقفنى مقدمة ابن النديم لكتاب الفهرست . يقول فيها بعد البسملة : «رب يسر برحمتك . النفوس — أطال الله بقاءك — تشرئب إلى النتائج دون المقدمات ، وترتاح إلى الغرض المقصود دون التطويل فى العبارات . فلذلك اقتصرنا على هذه الكلمات فى صدر كتابنا هذا ، إذ كانت دالة على ماقصدناه فى تأليفه إن شاء الله . فنقول ، وبالله نستعين ، وإياه نسأل الصلاة والسلام على جميع أنبيائه وعباده المخلصين فى طاعته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم» .

ويتابع فى الفقرة التالية فى تكثيف رائع هدفه من كتابه فيقول : «هذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب وقلمها ، فى أصناف العلوم وأخبار مصنفيها وطبقات مؤلفيها وأنسابهم وتاريخ مواليدهم ومبلغ أعمارهم وأوقات وفاتهم ، وأماكن بلدانهم ، ومناقبهم ومثالبهم ، منذ ابتداء كل علم اخترع ، إلى عصرنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلثمائة للهجرة .

وتقرأ هذه المقدمة فتحس أنك لا تستطيع أن ترفع منها كلمة واحدة مع محافظتك على معانيها الكاملة التى قصدها المؤلف . .

وقد تطول المقدمة فتصبح كتاباً برأسه ، كما صنع ابن خلدون ، وأنشأ بمقدمته علماً جديداً : علم العمران البشرى ، أو علم الاجتماع .

وتسير مع المؤلف فى كتابه وتنتهى معه . فإذا بك مع العلم فى رحلة مؤمنة لها أخلاقياتها وحدودها ، ويختم كتابه بحمد الله على ما وفقه سائلا

إياه مغفرة له ولأشياخه وأساتذته ، ونفعه بما بذل للناس أجمعين . .

تستطيع أن تقرأ هذا فى كتب الفقه والتشريع والتاريخ والجغرافيا والرياضيات . . فهذه الربانية سمة غالبة فى الفكر الإسلامى .

٢ ـ الإنسانية :

وهناك الطابع الإنسانى لهذه الحضارة . نظرتها إلى الإنسان كإنسان أبدعته يد الله ، وجعلته خليفته فى أرضه . ومنحته العقل ليحمل المسئولية ويعمر الكون ، وأرسل إليه الرسل مبشرين ومنذرين . ثم مرده بعد هذا إلى الله ليجزيه بما عمل .

* هذه النظرة الإنسانية تبدو ـ أول ما تبدو ـ فى القرآن الكريم ، تأكيداً للإخاء الإنسانى الشامل :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً » (النساء : ١) .

* وتبدو فى الحديث الشريف فى خطبة الرسول « صلى الله عليه وسلم » الجامعة فى حجة الوداع :

« أيُّها الناسُ : إنَّ رَبَّكُم واحدٌ ، وإنّ أبَاكُمْ واحد . كلُّكُم لآدمَ وآدمُ من تراب ، أكرمكم عندَ الله أتقاكُم ، وليس لعَرَبىّ على عَجَمِى فضلٌ إلاّ بالتَّقْوَى » .

وحتى فى مجال الحرب ـ أعلى ذروة تتكثف فيها الطاقة الفردية

والاجتماعية – ترى الأساس الإنسانى فى الإسلام . وفى وصية الرسول « ص » إلى أسامة بن زيد يوم عقد لواءه قبيل وفاته : – يا أسامة !. . اغز باسم الله فى سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ، ولا تمنوا لقاء العدو ، فإنكم لا تدرون لعلكم تبتلون بهم ، ولكن قولوا : اللهم أكفناهم ، واكفف بأسهم عنا . فإن لقوكم قد أجلبوا وصيحوا فعليكم بالسكينة والصمت . ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ،وقولوا : اللهم إنا عبادك،نواصينا ونواصيهم بيدك ،وإنما تغلبهم أنت . واعلموا أن الجنة تحت ظلال البارقة» (وهى السيوف)[1] .

فهنا نجد سواعد ترفع السلاح بقانون أخلاقى ، وتضعه بقانون أخلاقى ، وتؤمن بربها ، وتعمل بكل وسعها فى الحدود التى رسمها لها الدين ، جامعة بين طاقة الإيمان فى العمل ، وضوء الفكر فى التخطيط والتنفيذ .

* وتبدو فى نظرة المؤلفين الإسلاميين إلى الإنسان من حيث هو إنسان نظرة تتساقط دونها حواجز اللون والجنس والعصبيات الضيقة :

فالناس من لدن آدم إخوة لأب وأم .

والقرآن الكريم يعتبر المؤمنين جميعاً على اختلاف عصورهم وتتابع أنبيائهم يعتبرهم أمة واحدة. ولنا أن نرجع إلى سورة الأنبياء فى القرآن وكيف أخبرنا ربنا عن المرسلين ثم عقب عليهم جميعاً بقوله : « إنّ هـٰذه أمّتكُم أمةً واحدةً ، وأنا ربّكم فاعبُدُون » (الأنبياء : ٩٢) .

ومن هذا المنطلق جاءت محاولات مؤرخى الإسلام فى عرض التاريخ الإنسانى العام وفق ما توافر لهم من مصادر . . نرى هذا – على سبيل المثال – فى كتاب تاريخ الرسل والملوك لأبى جعفر جرير الطبرى ،

---

(١) المقريزى : إمتاع الأسماع ١ : ٥٣٦ – ٥٣٧ . القاهرة ١٩٤١ .

وكتاب البداية والنهاية لابن كثير الدمشقى ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير الجزرى .

فالطبرى يذكر فى قصة الخلق بعض الأقوال : بعضها مسند إلى رواته والبعض غير مسند . ولكنك تحس فى هذه الأخبار المروية – وهى من مختاراته – هذه اللمسة الإنسانية :

نزول آدم من الجنة نقرأ فيه :

« لما علم آدم أن الله عز وجل مهبطه إلى الأرض جعل لا يمر بشجرة من شجر الجنة إلا أخذ غصناً من أغصانها ، فهبط إلى الأرض وتلك الأغصان معه ، فلما يبس ورقها تحات ، فكان ذلك أصل الطيب »[1]

« حدثنا ابن بشار قال :– ويرتفع الطبرى بالمتن إلى الأشعرى – إن الله تبارك وتعالى لما أخرج آدم من الجنة زوده من ثمار الجنة ، وعلمه صنعة كل شيء . فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير »[2] .

ولا أقف عند تحقيق هذين النصين ، ونظائرهما فى تراثنا كثير . . وإنما أقف عند المعنى الإنسانى فيهما ، معنى تستطيع أن تجد له رابطة من نوع ما ، بروح الآية الكريمة : « فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » (البقرة : ٣٧) ، وقوله تعالى : « وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ » (طه : ١٢١ – ١٢٢) ،

نزول آدم فى المفهوم القرآنى صحبته من الله توبته عليه ، واختياره للخلافة وهداية وكلمات من التواب الرحيم . .

وهذه النظرة إلى الأب الأول نراها فى الفكر الإسلامى تشمل أبناءه جميعاً . هم مجال حب ورحمة . واختلاف ألسنتهم وألوانهم لا يعدو أن يكون

---

(١) تاريخ الطبرى ١ : ١٢٦ ط . القاهرة ١٩٦٠ .

(٢) المرجع نفسه ١ : ١٢٧ .

مظهراً لقدرة الله . . كاختلاف ألوان الزهر والثمر .

وفي مسجد المدينة كان الإمام نبينا محمداً عليه الصلاة والسلام العربي القرشي ، وكان المؤذن بلالا الحبشي .

من علمائنا الذين نعتز بهم ونقرأ نسبتهم إلى بلادهم فترى صورة من الإخاء الكبير الذى كان يربطهم وما زال يربط إنتاجهم : السندى ، الخراسانى ، البغدادى ، الصنعانى ، الدمشقى ، المصرى ، التونسى ، الجزائرى، المغربى القرطبي إلخ . ولم تكن نسبتهم إلى بلادهم مجال عصبية،وإنما مجال تعريف. بل إن الفرد منهم ليحمل أكثر من نسبة: نسبة مولد . نسبة إقامة . نسبة معهد علمى .

٣ ـ الانفتاح :

وأقصد بالانفتاح هنا الاستفادة من التراث الإنسانى كله. ما سبق الإسلام وما عاصره فى عهود ازدهاره ، وما يعاصره فى عهود كفاحه ونموه . .

هكذا كانوا مع تراث الفرس والرومان واليونان والهند والصين . .

وإذا كانت بذور التفاعل مع الحضارات المجاورة ترجع إلى العهد النبوى فى المدينة ، وتتمثل فى الرحلات والبعثات ذات الطابع العلمى للاستفادة من أساليب أو أدوات عسكرية مستخدمة أو سلع تجارية ، فإنها فى العصر العباسى أخذت طابعاً منظماً أهم معالمه تأسيس بيت الحكمة وأخذت بمن فيها من العلماء والمترجمين فى نقل التراث العلمى والفلسفى لتصبح فى متناول العرب فى ترجمات عربية جيدة . وكان المأمون يبذل الكثير فى توفير الجهد العلمى والمرتبات السخية للمترجمين فضلا عن الجوائز على الأعمال الأدبية والعلمية الممتازة .

ونستطيع ــ لمجرد المقارنة ــ أن نضع إلى جوار ذلك ماكان يلقاه رجال للعلم فى أوربا فى ظل الحكم الرومانى من ضغط الكنيسة مما حدا بنفر من

العلماء إلى الهجرة من الإمبراطورية الرومانية إلى ساحة الفكر الإسلامى واستقرارهم فى بعض المراكز كمدينة الرها .

ولم تكن النظرة إلى هذا التراث نظرة استعلاء ، وإنما هى حصاد لإيمانهم بالربانية والإنسانية . . إنهم جميعاً لله رب العالمين ، أبناء أب واحد وأم واحدة ، ومهما تعددت الطرق وغامت المسالك أو اتضحت فإن التراث العلمى هو ملك إنسانى شامل .

وعنى المسلمون بعد الترجمة بتصحيح ما استطاعوا من أخطاء وقع فيها من سبقوهم ، كما حدث فى مراجعاتهم لأبعاد الأرض ومحيطها ، وماقاموا به من تجارب علمية فى صحراء سنجار كانت أدق ما قام به العلم الإنسانى وقتئذ من دراسة لهذا الموضوع ، هذا إلى إضافاتهم إلى هذا التراث مع اعترافهم بفضل من قاموا به ، وما فى كتاباتهم من تقدير للمفكرين القدامى . .

هذا الانفتاح هو الذى حفظ التراث القديم ــ أكثر ماحفظ ــ من الضياع ليقدمه بعد هذا إلى الأجيال الجديدة من أبناء أوربا . .

وفى جامعاتنا الإسلامية ، وفى حلقات الدرس ، وفى دور الحكمة ، لم تكن هناك تفرقة بسبب اللون، أو الدين أو الوطن . ولنا أن نقول مع جوستاف ليبون : « لا نستطيع أن ندرك تأثير العرب على الغرب إلا إذا تصورنا حالة أوربا عندما أدخل العرب الحضارة إليها » .

ونستطيع أن نتابع دراسة هذه الخصائص منتقلين إلى خصائص أدق فى مجالات الحياة الفنية ــ على سبيل المثال ــ من التجريد والارتفاع بالنقطة والخط إلى مستوى من التعبير والدقة والنظام والتماسك . . . ثم البعد ــ فى كثير من المجالات ــ عن التصوير الإنسانى ، فاختفت بذلك من جدران الآثار الإسلامية عبادة الفرد وتمجيد بطولات حكام يأتى من وراءهم ليطمسوا ما فعلوا . .

وإنما الغالب فى الآثار الإسلامية الإضافة لا الحذف . وبخاصة فى المساجد ، فهى أولا وأخيراً بيوت الله .

ونستطيع أن نتتبع ملامح الحضارة الإسلامية فى كل أنحاء العالم .

ولكنى أود فى هذا الحديث أن أقف عند هذه النقاط الثلاث من الربانية والإنسانية ، والانفتاح ، لنتخذ منها المحاور الثلاثة التى يمكن أن نعتمد عليها فى مسيرة جديدة لتوحيد الفكر الإسلامى .

وينقلنا هذا إلى الحديث عن الوسائل بعد الحديث عن الخصائص والمحاور .

ثانياً — الوسائل :

١ — دائرة معارف إسلامية :

ونود هنا أن نسجل الجهد الكبير الذى قامت به المراكز العلمية فى الشرق والغرب من أجل هذا العمل الجبار . حقًّا هناك دائرة معارف إسلامية ضخمة ، وهناك مختصر لها . وقبل أن ينتهى عالمنا العربى من ترجمتها كانت طبعتها الثانية قد صدرت ، ولكن الذى أعنيه — مع الاستفادة الكاملة من هذا الجهد المبذول — أن تكون لنا دائرة معارف إسلامية ، نضع تخطيطها ، ويتعاون فيها العالم الإسلامى مع علماء الإسلاميات فى العالم ، ويستهدفون من عرضها إبراز هذه الأصول العريضة الواحدة التى قامت عليها حضارتنا وفكرنا . دائرة يكون توزيع الضوء فيها متوازناً على المواد وكتابة هذه المواد ، وتستهدف خطتها العامة إبراز « وحدة الفكر الإسلامى» وحدته فى شموله . وأن التنوع — فى إطار الوحدة — إنما هو مصدر قوة وإثراء .

وحبذا لو ارتبط هذا المشروع بمناسبتين كبيرتين :

الأولى — احتفال العالم الإسلامى بألفية الأزهر الشريف ، فتكون هذه

الدائرة هدية علماء الإسلام والإسلاميات إلى الفكر الإسلامى فى هذه المناسبة ، أو احتفالنا بمطلع القرن الخامس عشر الهجرى .

الثانية — ما نراه من تعاون الدول الإسلامية فى اجتماعات المؤتمر الإسلامى على مستويات القمة والوزراء المسئولين : الخارجية ، الاقتصاد ، والأوقاف والشئون الدينية . . وأقترح أن يتبنى المؤتمر الإسلامى — وله دورة قريبة — هذا المشروع بدءاً من حيث الفكرة ثم سيراً إلى التنفيذ بعد ذلك .

٢ — المؤتمرات الإسلامية العلمية :

ومما يعين على هذا أن تتعاون الدول الإسلامية على مستوى مؤتمراتها العلمية فى دراسة جوانب هذا الفكر — كل فى اختصاصه — وتخصص دورة لكل مجال من مجالات هذا الفكر ،لتكون عندنا حصيلة متكاملة فى هذا المجال ، نعنى فيها بأوجه الشبه وخطوط التعاون دون دخول فى التباين إلا من حيث هو مظهر حيوية وليس تناقضاً عدائياً .

جانب من هذا أشرت إليه فى بحث سابق عرضته فى الملتقى السابع للفكر الإسلامى الذى دعت إليه حكومة الجزائر فى يوليو ١٩٧٣ . والموضوعان متكاملان .

٣ — تعاون الجامعات الإسلامية :

ومن الممكن — بل من الواجب — أن يمتد التعاون إلى الجامعات بحيث تستهدف براجمها العلمية وأبحاث أساتذتها هذا الهدف الكريم .

أولاً : بالتعاون فيما بين الأساتذة المختصين فى فرع واحد .

ثانياً : فى استكمال أوجه النقص الإقليمى والموضوعى فى الدراسة .

ثالثاً : فى تدعيم تبادل الأساتذة والبحوث .

وأكتفي هنا بمثال واحد عن مدى معرفتنا بالمسلمين فى الشرق الأقصى . فنحن كثيراً ما نعنى بجوانب الفكر الإسلامى فى الشرق العربى والمغرب العربى دون أن نبذل جهوداً مكثفة فى تتبع أحوال الجاليات الإسلامية فى الشرق الأقصى . ماذا حدث لهم بعد سقوط بغداد فى أيدى التتار عام ٦٥٦ هـ ؟ ما تأثير هذا الحادث الضخم على تقلصات الوجود الإسلامى فى الشرق ؟ ما دورات الصراع بينهم وبين الصليبيين فى مياه المحيط الهندى والهادى ؟ ماهي الإمارات الإسلامية التي قامت ؟ وكيف كافحت ؟ وكيف سقط منها ما سقط وبقى منها ما بقى ؟

نواح كثيرة من النقص أحسست بها عندما اتصلت اتصالا مباشراً مع إخوة من علماء هذه الأقطار — على مستوى كريم من الأصالة العلمية وهم — وآسف حين أقول — معروفون فى دوائر غير إسلامية أكثر مما تعرفهم الدوائر العلمية الإسلامية . .

ولا أقصد بالمعرفة مجرد قراءة البحوث والاطلاع عليها ، وإنما أقصد المعرفة المباشرة والتفاعل المستمر فيما بين الجامعات عندهم وعندنا . . ومدى عنايتنا بما يبذلون من جهد أصيل فى ظروف علمية واجتماعية قاسية .

٤ — رجال الثقافة والإعلام :

وإذا كان الغالب على المقترحات الثلاثة الأولى الجانب العلمي والأكاديمي ، فإن هذه المفاهيم تحتاج إلى تغذية مستمرة .. إلى خبز يومى تتكفل به مجالات الثقافة والإعلام وهى متداخلة مع الوسائل الثلاث السابقة ولكنها — وفى الوقت نفسه — متداخلة فى حياة الأفراد اليومية : فيما يقرأ من صحيفة وجريدة وكتاب . . فيما يسمع من إذاعة .. فيما يرى فى الإذاعة المرئية والأفلام .

٥ ـ مجال الشباب :

وأختم هذا المقال بوجوب عنايتنا بتركيز هذه المعانى فى شبابنا . . فتياناً وفتيات حتى ينشأ الجيل الجديد أعمق منا وعياً ، وأقدر على حمل الأمانة ـ وأكثر بعداً عن الرواسب الإقليمية والعصبيات المحلية . .

ونحن ـ مع التأليف الأكاديمى ومع الجهد الإعلامى والثقافى ـ علينا أن نكون مكتبة للشباب يكون من كتبها ما يعنى بوحدة الفكر الإسلامى ، كما يعنى بالخطوط العامة لوحدة الفكر الإنسانى ، وفى الوقت نفسه يعنى بإبراز شخصيته التى يعيش بها فى العالم : لا يذوب فيه ولا ينفصل عنه ، لا يعمل دونه ولا يتعالى عليه ، وإنما يحسن الأخذ والعطاء فى جو من الربانية والإنسانية والانفتاح .

ورقة عمل فى تنظيم ودعم الأنشطة الدينية بين مصر والسودان *

* ألقيت ونوقشت فى الاجتماع الأول للجنة الوزارية العليا بين جمهورية السودان الديموقراطية وجمهورية مصر العربية. عقدت اجتماعاتها فى الإسكندرية أغسطس ١٩٧٤.

١ ــ مدخل تاريخي :

الأنشطة الدينية فى أرض النيل قديمة ومستمرة ومتواصلة . .

١ ــ ١ قديمة . . نستطيع أن نتتبعها منذ الحضارات الأولى التى قامت فى منابع النهر وسودانه ومصره .

١ ــ ٢ مستمرة . . لأن الحياة لم تنقطع فى هذه الأرض ، ولم ينقطع الوجود الدينى بأركانه الثلاثة الأساسية من الإيمان بالله والجزاء الأخروى والعمل الصالح فى الدنيا ، وإن اختلفت وتتابعت مظاهرها حتى جاء الإسلام مصدقاً لما بين يديه من الرسالات مؤمناً بكل نبى ورسول .

١ ــ ٣ متواصلة . . لأن أوجه الشبه فيما بينها ــ على امتداد النهر ــ أثبتتها البحوث العلمية المنصفة من العهد الفرعونى والحضارات التى عاصرته إلى العهد المسيحى إلى مجيء الإسلام .

وهذه الأبعاد الثلاثة من القدم والاستمرار والتواصل ، لا تقتصر على أرض النيل وحدها ، وإنما لها امتدادها إلى ما وراءها فى أجزاء غير صغيرة من آسيا وأفريقيا وجنوب أوربا .

فإذا ماجئنا اليوم لندرس جوانب من تنظيم ودعم الأنشطة الدينية على المستوى الإقليمي الذى نعمل فيه الآن ، كنا فى هذا صادقين مع التاريخ والواقع الذى نعيشه ، مستجيبين لحاجات متجددة تعين على رسم صورة مستقبلنا .

٢ ـ مدخل معاصر :

ومن ناحية أخرى . . اتجهت عناية الباحثين إلى الدراسات والأنشطة الدينية فى عالمنا المعاصر ، وارتبط هذا ـ أكثر ما ارتبط ـ بالبحث عن الذات ومقوماتها . واتخذت شعوب كثيرة ـ فى العالم الثالث بخاصة من الدين مصدر دفع إلى الأمام ورباطاً بين الماضى والحاضر والغد. نرى هذا فى الأقطار العربية وبقية أفريقيا ، كما نراه فى آسيا وأمريكا اللاتينية ، ومع تعدد الأديان فى هذه الأقطار ما بين الإسلام والمسيحية واليهودية والهندوكية والبوذية . . إلا أن الخط الذى ينتظمها جميعاً فى العالم المعاصر ،هو الاستمداد ـ أو محاولة الاستمداد ـ من الدين كمصدر للدفع القومى وكمقوم للحياة فيها .

ولا ينفى هذا أن هناك أقطاراً كبيرة انسلخت عن الفكر الدينى ، ثم بدأت قطاعات ـ فى بعضها ـ تعود إليه ، أو أن أقطاراً أخرى نأت عن الدين إلى مدى غير قليل فى حياتها اليومية . ولكنى فى هذه الورقة لست فى صدد البحث عن الصعيد العالمى ، ولا تقويم هذه التجارب فى أقطارها ، فليس ذلك ـ من الناحية الموضوعية والتنظيمية ـ بالذى يدخل فى أعمال هذه اللجنة الموقرة ، وإن اقتضت ضرورة الإشارة إليه من قريب .

والذى أردته من هذا المدخل إبراز أن هذه الأفكار مطروحة على الفكر العالمى المعاصر ، ولها مؤتمراتها ومؤلفاتها . وأكتفى فيها بالإشارة إلى البحث القيم عن « الدين » والذى جاء فى الجزء السادس الخاص بالقرن العشرين من كتاب تاريخ البشرية وهو من الأعمال الكبيرة لهيئة اليونسكو .

٣ – ماذا يستطيع الدين أن يقدم من عطاء ؟ :

والقضية المطروحة أكثر من غيرها : ماذا يستطيع الدين أن يقدم من عطاء للمجتمع ؟

ويرتبط بهذا السؤال – كهدف – سؤال آخر عن الوسيلة . كيف نربط بين الدين ومشكلات الحياة المعاصرة ؟ وبعبارة أخرى . كيف نقيم معبراً بين جوهر الدين وبين حياتنا المعاصرة ؟

وهذه القضية لها آفاقها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية : والدين – فى كل هذه الآفاق – عصارة حية تمدها بنماء وخصب ، يمكن أن تبرز فى ثلاثة مجالات أساسية :

١ – إعطاء الفرد والمجتمع طاقة تدعو إلى مزيد من العمل والإبداع .
٢ – أن يحول بين الفرد والانحراف .
٣ – أن يحفظ المستوى الأخلاقى لأداء العمل .

هذه المجالات الثلاثة – بطبيعتها – متداخلة ، وإن غلب على الأول : زيادة حجم العمل والإنتاج ؛ والثانى : تكوين طبقة عازلة – إن صح هذا التعبير – بين الفرد والانحراف ؛ والثالث : تحدد المستوى الذى يتم به العمل إتقانا وإخلاصاً واستمراراً .

وإذا شئنا لها تشبيها من الكهرباء ، كان الأول : زيادة قوة التيار ، والثانى : صيانته ، والثالث : استمراره على المستوى المطلوب أداء العمل به :

٤ – الدين والتنمية :

وأمام الشعوب جميعاً قضية مطروحة هى قضية التنمية .

الأمم المتحدة لها عقد التنمية الأول فى الستينيات وعقدها الثانى فى السبعينيات . الدول الكبرى والصغرى لها خططها فى التنمية فى عصر أخذت

تتعقد فيه العلاقات بين الموارد المتاحة ــ ما كان منها متجدداً أو قابلا للنفاد ــ وبين حجم السكان . ثم ما ينتج من تفاعلهما من مشكلات ، أبرزها توزيع الموارد وتصنيعها وإعداد الكفايات العلمية القادرة على ذلك ، ثم الأخطار التي تتعرض لها البيئات ، ومن أهمها التلوث .

وأخذت هذه المشكلات تطرق أبواب الأمم ، وتدق نواقيس الخطر ، وتوقد المصابيح الحمراء فى المكاتب القيادية ، حتى أصبح رغيف الخبز ونسمة الهواء غير الملوث وكوب الماء النقى والمسكن الضرورى وقبس النار للإضاءة ومصدر الطاقة . . أصبحت هذه المشكلات تهدد حياة الإنسان فى كل من المجتمعات المتقدمة والنامية، مع اختلاف فى الدرجة والموقف. وأصبح البعد عن هذه القضايا المطروحة ، والتى تلح على الإنسان المعاصر عنيفاً ، نوعاً من الهروب من الواقع ومشكلاته يدين صاحبه ، وإن كان من رجال الدين .

واتجه الفكر الدينى المعاصر فى عدد من المجتمعات المتقدمة والنامية إلى العناية بالمضمون الاقتصادى والاجتماعى للدين ، وتخطى فى أوربا والعالم الجديد ــ على سبيل المثال ــ مرحلة كانت العناية فيها أكثر اتجاهاً إلى قضايا الربط بين العلم والدين ، ومن قبلها مرحلة كانت تعنى ــ أكثر ما تعنى ــ بالربط بين عالم الغيب والشهادة .

ومع أن المضمون الاقتصادى والاجتماعى أصيل فى الدين ، ونستطيع أن نجد نماذجه فى الربط بين الصلاة والزكاة فى الإسلام ، وبين الرزق والعقيدة فى قول الله تعالى مخاطباً قريش : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ » ، وكانت حروب الردة ضد من حاولوا التفريق بين الصلاة والزكاة ، وبعبارة أخرى بين العبادة والمضمون الاقتصادى والاجتماعى للدين ــ مع هذا كله فإن القضية تحتاج إلى مزيد من التركيز وإلقاء الضوء المنير على ربط الدين بالحياة عامة

وبهذه المضامين خاصة .

وصفوة القول أن الربط بين الدين والحياة اليومية وقضاياها ومشكلاتها أصبحت له الصدارة ، مع الإفادة من منجزات العلم الحديث فى دعم الإيمان بالله تعالى والربط بين الكلمة والسلوك العملى فى مجالات تنمية المجتمع .

٥ ـ الشباب :

وللشباب الآن قضايا وثورة . والقضية عالمية وإن اختلفت حدتها من قطر إلى قطر ، وتمثل فى قطاع كبير منه تمرداً على أوضاع قائمة ورفضاً لها ، دون أن تتضح أمامه معالم الجديد الذى يرغب فيه .

فالتمرد « على » وضع قائم ، أوضح فى ذهنه من الثورة « لأجل» مستقبل محدد. وما ينادى به الشباب وما برز فى الغرب من الحديث عن «الفجوة» بين الأجيال أصبح أمراً له انعكاساته وآثاره فى تطوير أكثر من مرفق من مرافق الحياة ، وبخاصة فى مجال التعليم والعلاقة بين سلطات المجتمع ،ومدى تمثيل الأجيال الجديدة فيها .

ومما يجدر تسجيله أن ثورات الشباب عندما بحثت عن « ملهم » أو فيلسوف اختارته شيخاً تمثلت فى كتاباته أشواقها . ورأت فى فلسفة الرفض أو « النبى » التى نادى بها ما تحدد به خطوطاً فى آمالها . من هنا جاء إقبال الشباب على مؤلفات وآراء هربرت ماركيوز الفيلسوف الأمريكى الموطن اليهودى النشأة . وأخذت آراؤه تحتل ـ عند قطاع كبير منهم فى الغرب ـ المكان الذى كان يحتله الفكر الماركسى .

وإذا كان لماركيوز نقده لكل من الماركسية والرأسمالية بأوضاعهما الراهنة وجوانب من أصولهما الفكرية ، فإن الذى أود الإشارة إليه فى هذه الورقة أنه استطاع أن يقدم هيكلا فكرياً وخطاً للتطور ،يقوم فيه كل من الشباب والأقليات المقهورة والعالم الثالث بدور إيجابى .

هذه أفكار يموج بها العالم المعاصر ، ويتأثر بها شباب الربع الأخير من القرن العشرين ، الذى ازدادت رحلاته — مهما تكن موارد رزقه وقدراته وهو يحاول أن يكتشف العالم لنفسه ، وأن يرى مناطق الحضارات القديمة ، والدول المتقدمة الحديثة . ونشطت بذلك السياحة الحرة الفقيرة ومعسكرات العمل وبيوت الشباب .

ومع كل هذه الأنشطة يزداد الاحتكاك الفكرى والحضارى ويعود الشباب إلى بلادهم بخبرات ومواقف فكرية جديدة .

ونحن — والحمدلله — فى موقف أفضل . .

فالأصالة الحضارية التى نستمدها من ديننا وتقاليدنا ، والسماحة التى تعودنا أن نعيشها ، والاحترام المتبادل بين أفراد الأسرة ، ووجود قضية مصيرية تدفع إلى بذل الجهد وحشد الطاقة ، وتحديد ملامح الطريق والتخطيط لمستقبلنا — كل أولئك يساعد على أن تكون القاعدة التى ينطلق منها شبابنا أكثر رسوخاً .

ولقد برهن شبابنا فى العاشر من رمضان على أصالته . . بالعلم والإيمان وخوض معركة فتحت عهداً جديداً من حياتنا ، تحمل فيه مسئوليتى التحرير والتعمير . ورأى شبابنا مجالات جديدة من التعاون على مستوى القيادة والمستويات الحكومية والسياسية والشعبية . وواجبنا أن نبلور معه ومن أجله تفاصيل ومناهج هذه المجالات ، وأن تتواكب إعادة صياغة الفكر الدينى ، مع المحافظة على جوهره — وهذا أساس ليس محل جدل — مع قدرته على الارتباط بالحاضر والاستجابة والتخطيط للمستقبل .

ومع وجود ميراث مشترك بين الأديان يتمثل أكثر ما يتمثل — فى الأصول الثلاثة التى سبقت الإشارة إليها : من الإيمان بالله والجزاء الأخروى والعمل الصالح ، وفى شمول العمل الصالح للناموس الأخلاقى الذى لا تقوم أية حياة فاضلة بغيره ، فإن لكل دين ، ولكل منطقة حضارية ، خصائصها التى تحتاج

إلى إعادة عرض فى ضوء الإخاء والسماحة، دون أن يكون تعدد الأديان فى أية أمة مدعاة إلى فرقة، بل داعياً إلى التعاون والوحدة الوطنية والسلام العادل.

٦ ــ من سلبيات الفكر الدينى المعاصر :

وسط هذه التيارات يحتاج الفكر الدينى إلى تقويم لتحديد سلبياته وإيجابياته وسأبدأ أولا بتحديد جانب من السلبيات ، تليها إيجابيات هى بمثابة اقتراحات أو توصيات أعرضها على اللجنة الموقرة وسآخذ التطبيقات من الإسلام كنموذج لهذه الدراسة التى يمكن ــ إذا كانت محل قبول ــ أن تكون منطلقاً لتوسيع وتعميق . والقضية فيها ــ عملياً ــ لا تقتصر على الفكر الإسلامى ، وإنما لها نظائرها فى العالم الغربى .

٦ ــ ١ مذهب الرفض :

وقد عانى منه العمل الإسلامى فى أكثر من قطر مع ميل الشباب إلى الإسلام وحبه له وممارسته شعائره . قد يبدأ مذهب الرفض نوعاً من « الانعزال » عن تيار الحياة العام. وينطوى على نفسه أو على مجموعة صغيرة من الأصدقاء .. يصلّون معاً ، ويذاكرون معاً ويتريضون معاً ، ليصونوا أنفسهم من مفاسد المجتمع الذى يعيشون فيه .

ولو اقتصر الأمر على هذا لما كان فيه أى خطر .فالفكر والحوار الفكرى والعبادة والقدوة الصالحة خير . . ولكل شاب أن يختار لنفسه أصدقاءه وكتبه ويربط نفسه بالنماذج الطيبة ــ ممن قدموا الخير للدين والدنيا .

ولكن قد يقع الشاب هنا تحت تأثير نظرة لا ترى من حوله إلا الفساد ، وتتجاهل جوانب الخير فى المجتمع ، وتكثر من الحديث عن الفساد وعن الانحلال ، وتزيد من حجم الخطأ ، وتملأ نفس الشاب بالمرارة . . ويحس الشاب شيئاً فشيئاً أنه يزداد عزلة عن تيار الحياة من حوله . وينتقل تحت تأثير هذه النظرة إلى مرحلة جديدة يقول فيها صاحبه الذى تولى التأثير عليه

« إن علينا أن نتخذ من المجتمع » موقفاً « يستهدف » تغيير » هذا الواقع . .

وقد وصل الأمر ببعض الشباب ، فى بعض الأقطار العربية والإسلامية ، إلى الانعزال الكامل — فكرياً — عن تيار الحياة من حولهم . وكتموا مافى نفوسهم حتى عن آبائهم وأساتذتهم وعلمائهم ، ورأوا فى هذا المجتمع « جاهلية » جديدة تحتاج إلى تغيير جذرى ، وإن هذا التغيير الجذرى فرض عليهم ينبغى أن يستخدم فيه أى سلاح ، ولو التآمر والقتل والتدمير . ومع تراكم هذا الاتجاه فى نفوسهم وانعزالهم واتخاذهم موقف العداء من المجتمع ، حدث أكثر من مرة — تفجرات — رأى فيها بعض الشباب —باسم الإسلام— — أنهم المنقذون للدين ، «والمنفذون» لأوامر الله ، والمخلصون للمجتمع من شروره .

إن فكرة المنقذ أو المخلص قديمة فى الفكر الدينى ، وليست مقتصرة على الإسلام . وقد يرى بعض الذين يعتنقونها أنهم يستلهمون الوحى مباشرة من السماء ، أو من قراءة جديدة للنصوص الدينية ، أو من هواتف النفوس ، وأحياناً تنطلق فى المجتمع رصاصاً وخناجر ، وتترك بعد هذا طابعها الدامى على العمل الإسلامى ،وتدعو بعض الآباء والشباب إلى الإحجام عن النشاط الإسلامى ، لما قد يكون وراءه من مزالق وشبهات .

ونستطيع أن نجمع هذه الظواهر كلها تحت عنوان واحد نسميه « مذهب الرفض » ، وقلما يستطيع شبابنا أن يربط بين هذا الذى نراه فى عالمنا الإسلامى ، وبين الرفض باعتباره تياراً فكرياً ومعاصراً وعالمياً .

٦ — ٢ الفكر المثالى :

ويرتبط بمذهب الرفض الفكر المثالى الإسلامى . فلكى نبرهن على صلاحية الإسلام — وهو ذاته صالح — نحاول أن نصور الواقع الإسلامى فى عهود ازدهاره بصورة تقرب من الفكر الأسطورى وتنأى به عن الواقع . ونلجأ فى هذا إلى اختيار نماذج محدودة المدى من عصور ازدهار الإسلام دون أن

ننظر إلى المجتمع نظرة شاملة تبدو فيها قوى البناء وقوى الهدم متفاعلة فى وقت واحد .

ونحن لا نستطيع أن نتصور قوة إيمان المؤمنين وشدة مراسهم ، إلا بقدر ما خاضوه من معارك ضد الكفر والنفاق ولو كانت هذه المعارك هزيلة لما كانت مجالا لبروز إيمان المؤمنين . وسعنى قوة هذه المعارك أن الكفر والنفاق كانا على درجة من القوة ينبغى أن يعمل لها حسابها . وهى موجودة فى مكة قبل الهجرة وبعدها ، وأن النفاق كان موجوداً فى المدينة وله أساليبه ومؤامراته . . وكأن الإسلام بهذا ـ من أجل إعلاء كلمة الحق ـ خاض معارك متتابعة تعاونت فيها القيادة والقاعدة من أجل تثبيت دعائم الإسلام وحمايتها ؟

وإن التأكيد على إيجابيات هذه المراحل من تاريخنا مع إغفال أو تهوين شأن السلبيات البشرية ، وهى جزء من الكيان الإنسانى والتاريخى يعطى الشباب صورة غير متوازنة وغير واقعية عن عهود ازدهار الإسلام .

ونتيجة تفاعل هذين العاملين — وأعنى بهما مذهب الرفض والفكر المثالى — تزداد الفجوة بين الشباب — بخاصة — والواقع . الماضى عنده فى غير صورته المتناسبة ، والحاضر عنده فى غير حجمه . ومع تشويه الماضى والحاضر — بالتكبير والتصغير — تضطرب مقاييس العمل . وقد ينتهى الأمر إلى « معاداة » الحاضر . وفرق كبير بين الرغبة الواعية فى الصعود به وبين معاداته ، فرق كبير بين الإصلاح والتدمير ، بين التطور المخطط والهدم ، بين النفس الطويل فى العمل والاندفاع الانتحارى .

٦ — ٣ الأخطاء المنهجية :

وتحاول بعض اتجاهات الفكر المعاصر تيسير هذا على الشباب بأن تبين أن التغيير يمكن أن يحدث عن طريق إصلاح دستورى . عن طريق المعارك الانتخابية والظفر بكراسى المجالس النيابية .. إلى هنا وهذا حق المواطن .

ثم يتدرج الأمر بعد هذا إلى الرغبة فى السيطرة على الحكم بأية وسيلة. وإن الإصلاح الأخلاقى الفردى طويل ، وإن الهجرة إلى المدينة كانت أساساً للبحث عن قاعدة يحكم فيها الإسلام وتصير كلمته هى العليا . وكأن كل إصلاح هجرة. وكل داع إلى الإصلاح يبدأ من جاهلية وحوله أصنام مكة!!

ويأخذ الإلحاح الفكرى يدق على رأس الشباب ؟ ؟ فما دام الحكم هو أقرب السبل وأسرعها فليكن الاتجاه هو الاستيلاء على الحكم . . ويتحول الأمر إلى الرفض والتآمر المسلح . .

كل هذه وغيرها رءوس أقلام فى الحديث عن سلبيات التفكير الإسلامى المعاصر أود أن أربط بها أمرين :

٦ ــ ٤ اللامبالاة :

وهى نقيض الموقف السابق الذى يجمع بين الرفض والفكر المتعالى : واللامبالاة أسلوب فى الرفض السلبي الذى يحس فيه الشاب بأن عليه أن يعنى بذاته فقط . هو مركز الدائرة ومحيطها . وفى اتجاهات الشباب العالمية ــ ما قد يشجع على ذلك . وعلى امتداد الخط ما بين قاعدة الالتزام الواعى الإيجابى ، واللامبالاة السلبية فى ناحية ، والرفض فى ناحية أخرى ، نجد مواقف كثيرة . وعلينا أن نزيد من تركيز التوجيه الدينى الواعى على هدى وبصيرة متعاونين من أجل إقامة مجتمع العلم والإيمان .

٦ ــ ٥ . . غياب الحوار ومكتبة الشباب الإسلامى :

ونحن حتى الآن لم نقم على مستوى قومى باستفتاء علمى للشباب عن الإنتاج العلمى الإسلامى ونسأله :

ــ ماذا يريد منا ؟

ــ هل الذى كتبه له هو الذى يريده ؟

ــ هل إذاعاتنا المسموعة والمرئية ملائمة له ؟

ــ هل كتب الدين فى مدارسنا حبيبة إلى قلبه قريبة من عقله ؟

– هل يعود إليها بعد انتهاء العام ويحتفظ فى مكتبه بها ؟
– هل خطب الجمعة ملائمة له من حيث الموضوع والمستوى ؟

وسيرتبط بهذا إعداد رجل الدين نفسه. ذلك الذى يستطيع أن يقوم بكل هذه المسئوليات. وإعادة النظر فى البرامج والمناهج وخطط الدراسة على مستوى إعداد رجال الدين ومستوى الكليات والمدارس .

وفى غياب هذا التواصل المستمر –أو على الأقل عدم انتظامه ومنهجيته علينا أن نتحمل مع الأجيال الجديدة ، وأن نحدد مسئولياتها علينا .

وهذا يقودنا إلى دراسة :

٧ – إيجابية الفكر الدينى المعاصر :

« مقترحات بتوصيات » :

٧–١ . . الهياكل الإدارية والوحدة الوطنية . .

وأول ما يقترح البدء به هو تنظيم التعاون بين الهياكل الإدارية العاملة فى الحقل الدينى على الصعيد الوطنى ومجالات تعاونها الداخلية والخارجية.

إن الدين يدعو إلى الإيمان بالله والإخاء بين الناس. وأبرز مظاهر الإخاء أن يكون الدين سنداً قوياً للوحدة الوطنية .

وهناك مجالات مشتركة فى العمل الدينى على صعيد الوحدة الوطنية. وكانت لنا تجربة قريبة فى مصر فى صيف ١٩٧٣ عندما دعا الرئيس محمد أنور السادات إلى دراسة المتغيرات العالمية وتأثيرها على أوضاعنا الداخلية والخارجية . وقدمت وقتئذ إلى الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى العربى ، وبتكليف منها ، ورقة عن الدين فى عالم متغير ، وقام بمناقشتها زملاء من رجال الد الإسلامى والمسيحى فى لقاءين أولهما فى الإسكندرية والثانى فى القاهرة .

هذا مجرد مثال سقته ولحقت به أمثلة أخرى . . فى المؤتمرات الدولية الإسلامية والمسيحية تبدو مظاهر هذا التعاون تؤكد الوحدة الوطنية والسماحة

التى نرتوى منها كما ترتوى من ماء النيل ».

وهناك فى خريف (١٩٧٤) مؤتمرات مشتركة إسلامية مسيحية ستنعقد فى أوربا ، وستحضرها بإذن الله وفود مشتركة إسلامية ومسيحية من مصر .

فالتعاون قائم على الصعيدين المحلى والعالمى . والحوار أصبح فى عالمنا المعاصر صيغة واسعة الانتشار لا يقف عند أوجه التباين ، وإنما يعنى — أساساً — بأوجه الشبه والتعاون ويحاول دعمها .

ومن المنطقى أن تكون الهياكل الإدارية على المستوى الوطنى متلائمة مع هذه الأهداف النبيلة .

وأقترح فى هذا الموضوع أن تصدر عن اللجنة الموقرة التوصية الآتية :

توصى اللجنة بتنظيم الهياكل الإدارية الدينية على المستوى الوطنى بما يزيد من دعم الوحدة الوطنية وتيسير التعاون الفكرى على الصعيد المحلى والإقليمى العالمى »

وأتصور لجنة فرعية منبثقة من هذه اللجنة الموقرة تنسق التعاون بين القطرين ، وتتعاون فى كل قطر مع الوزير المسئول عن الوحدة .

نحن — عملياً — فى حاجة إلى هذه اللقاءات النوعية لتغطى مجالات التعاون جميعاً فى خطة قصيرة ، وأخرى خمسية إلى عام ١٩٨٠ سيراً إلى تخطيط طويل يعين على رسم خريطة المستقبل ، ولعل تقريراً سنوياً يصدر عن هذه اللجنة الموقرة يغطى هذه الأنشطة كافة ، ويكون عوناً على المتابعة والتنمية .

٧ — ٢ الحوار مع الشباب :

وهذا مجال واسع من مجالات العمل ، ويستطيع هذا الحوار أن يقابل السلبيات بالتواصل الخصب .يقابل الرفض والتفكير المثالى والأخطاء المنهجية واللامبالاة .

وهذا الحوار له مجالات متعددة : فى المدرسة ، فى الكلية ، فى المسجد فى الكنيسة فى الاتحاد الاشتراكى ، فى التجمعات الجماهيرية ، فى أجهزة الإعلام.

وسيلتنا إليه : اللقاءات المتدرجة على مستويات المسئولية المتتابعة ، وقياس الرأى العام قياساً سليما يقودنا إلى تحديد اتجاهات ورغبات ومشكلات الشباب . بحيث تكون خطواتنا نابعة نبعاً صادقاً من مصادر الدين ومن حاجات الشباب فى الوقت نفسه .

وفى هذا أقترح التوصية الآتية :

« عمل دراسات علمية عن اتجاهات الفكر الدينى قائمة على استبيانات ودراسات ميدانية تمهيداً لمراجعة التوجيه الدينى من حيث الأساليب والمضمون والأهداف دعماً لجوهر الدين وربطاً بينه وبين الأجيال الجديدة».

٧ – ٣ . . المكتبات الدينية :

وأقصد بها المكتبات المتدرجة مع مراحل السن المتتابعة . . من الطفولة إلى الفتوة والشباب . . والنضج والتخصص .

وأود أن أضرب مثالا :

لو جاءنى شاب مسلم وطلب منى تحديد عشرة كتب متكاملة متوسطة الحجم سهلة العبارة معتدلة الثمن ، تعطيه صورة شاملة للفكر الإسلامى فماذا تكون إجابتى ؟

فلتبدأ بهذا النوع من التأليف المتكامل. وقد قدمت هذا الاقتراح إلى مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف بعد توجيه من الرئيس محمد أنور السادات بتنظيم العمل الدينى فى مصر . والموضوع محل دراسة وسيطرح فى مسابقة عالمية .

ولكن هل نحن فى حاجة إلى سلسلة واحدة ؟ أو مرحلة سن واحدة ؟ وأطفالنا ماذا يقرءون ؟ وماذا يسمعون ؟ أين كتبهم الدينية الجميلة ؟

أين أغانيهم التى تجمع بين الإيمان بالله والثقة فى المستقبل والتفاؤل والعمل من أجل الوطن ؟

أين أغانى العمال القائمة على تمجيد الإيمان والعمل ؟

ومكتبة خريج الجامعة التى تقرب إليه المعرفة بدينه دون إرهاق لميزانيته : ودوائر المعارف الميسرة المبسطة . .

هذا مجال واسع من مجالات التعاون بين مصر والسودان ، وقد درس المؤتمر الإسلامى جانباً من ذلك . . ونحن فى حاجة إلى تخطيط مكتبة إسلامية . ولنركز فى هذه المرحلة على الأطفال والشباب . ولا شك فى أن التعرف على الجهود المبذولة فى هذا المجال على الصعيد العالمى توفر كثيراً من الجهد وتختصر الطريق .

وأقترح أن تصدر اللجنة الموقرة التوصية الآتية :

تكوين لجنة تخطط لوضع المكتبات الدينية الملائمة لمراحل السن والبيئات المتنوعة مع عناية خاصة بالأطفال والشباب ، وتوثيق التعاون بين أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية فى هذا المجال دعماً للإيمان بالله والسماحة والأخوة» .

٧ — ٤ . . تبادل الزيارات :

تشجيع تبادل الزيارات بين العلماء والباحثين والشباب بين مصر والسودان ، وعقد ندوات علمية لدراسات مفصلة عن العلاقة بين الدين والمجتمع ولهذه الندوات نظائر فى العالم العربى وأوربا وأمريكا . . وتقدم توصيات هذه اللقاءات لتكون تحت نظرة هذه اللجنة الموقرة أو اللجنة الفرعية المختصة إذا ما أنشأتها ، ويمكن أن يصدر بهذا المضمون توصية من اللجنة بذلك .

الإسكندرية فى ٥ أغسطس ١٩٧٤

مؤتمر قرطبة *

* دعت جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية بمدريد إلى عقد أول مؤتمر إسلامى مسيحى بمدينة قرطبة فى جنوب إسبانيا فى الفترة من ١٠ إلى ١٥ سبتمبر ١٩٧٤ .

وفى الجلسة الافتتاحية ألقيت الرسالة الموجهة من السيد الرئيس محمد أنور السادات إلى المؤتمر .

وقد ألقى البحث التالى فى ثانى أيام انعقاد المؤتمر ، كما ألقيت كلمة الشكر فى ختام الجلسات ، وفيها صدر بيان قرطبة عن المؤتمر .

ومن الجدير بالذكر أنه فى خلال انعقاد المؤتمر فتح مسجد قرطبة الكبير لأداء صلاة الجمعة فى ١٩٧٤/٩/١٣ .

رسالة من الرئيس محمد أنور السادات

رئيس جمهورية مصر العربية

إلى المؤتمر الإسلامى المسيحى بقرطبة

١٠ — ١٥ سبتمبر ١٩٧٤ (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة . . :

يسعدنى أن أبعث باسمى وباسم شعب جمهورية مصر العربية بخالص التحية إلى مؤتمركم الموقر ، وتحية إلى إسبانيا رئيساً وحكومة وشعباً على استضافتها له ، وإلى العالمين الإسلامى والمسيحى ممثلين فيكم ، وأنتم تلتقون من أجل فهم أوسع وتعاون أفضل .

وفى عالمنا هذا الذى يزداد فيه اتصال الشعوب والأديان والحضارات ، استطاع العلم فيه أن يزيل حواجز العزلة الإقليمية . ووصلت رحلات الإنسان فيه إلى الفضاء الخارجى ، نجد أنفسنا فى حاجة إلى رحلات أخرى فى داخل عقولنا وقلوبنا ، نكشف فيها آفاقا جديدة رحبة من السماحة والأخوة ويفهم من خلالها — كل منا — ما عند أخيه. والفهم أول طريق السلام .

هذا التعاون من أجل الفهم والسلام يد مبسوطة بالمعرفة والحب الكبير الذى لا يعرف الكراهية والحقد . ويتطلع إلى إخاء عالمى يربط الأرض بالسماء ، والإنسان بالإنسان ، والعبادة بالسماحة ، والكلمة الطيبة بالعمل الطيب . والشعوب المتقدمة بالشعوب النامية ، ومناطق الوفرة بمناطق الحاجة

---

(١) تليت فى حفل الافتتاح صباح العاشر من سبتمبر ١٩٧٤ .

ولقد دعا نبينا محمد كما دعا المسيح ومن سبقهما من الأنبياء ، عليهم جميعاً من الله صلاة وسلام، إلى الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح؛ وإذا كان لأهل كل دين عقائدهم وأساليبهم فى الإيمان ، فى ظل من الحرية الدينية ، فإن علينا كمجتمع إنسانى كبير أن يكون لنا أسلوبنا المتقارب ثم الموحد فى العمل الصالح من أجل الإنسان ومستقبله .

ونحن فى مصر وفى عالمنا العربى والإسلامى ، تفتحت أعيننا على السماحة والأخوة ، هما عندنا من أمر الدين وأسلوب الحياة . فى بلادنا ترتفع المآذن وأبراج الكنائس ويلتقى الشيخ بالقس . ويتلقى أبناؤنا العلم فى المدارس والجامعات من أساتذتهم مسلمين ومسيحيين فى ظل وحدة وطنية ومحبة ، ويخوضون المعارك معاً من أجل استرداد أرضهم المغتصبة والحقوق المشروعة لشعب فلسطين وعروبة القدس الشريف . ويقدمون أرواحهم فى ساحة الشرف ، وتمتزج على أرضها دماؤهم . . . تعرف عيونهم دمعة الحزن النبيلة على شهيد ، وفرحة النصر بما حققوا من إنجازات فى معارك التحرير والتعمير ولهم فى المؤتمرات الدولية إسلامية ومسيحية وعالمية صوت واحد: هو إدانة الظلم حيث كان ، والوقوف إلى جوار الحق والعمل الدائب من أجل السلام القائم على العدل .

أيها الإخوة . . .

لقد عانت بعض أجزاء العالم الإسلامى والمسيحى قروناً من سوء الفهم وتربية الأجيال الجديدة عليه . وتلك صفحات نرجو جميعاً مخلصين أن تختفى آثارها من برامج التعليم ووسائل الإعلام ومجالات الحياة اليومية . وبهذا نستطيع أن نتخذ من آلام الماضى وصراعاته عملا يحفظ للأرواح نقاءها ، وللعقول سعة آفاقها ، ويزكى فى نفوس الأبناء على المستوى المحلى ، وحدة وطنية ، وعلى المستوى العالمى إخاء إنسانياً . ، وما أشد حاجة

الشباب فى هذا العصر الملىء بالشك والقلق إلى أن ينهض رجال الدين بتجلية جوهر الإيمان بالله .

أيها الإخوة . :

حياكم الله فى لقائكم ، ورعاكم برعايته ، وأدعوه أن يجعل خطواتكم سلاماً ولقاءكم سلاماً وقراراتكم سلاماً .

محمد أنور السادات

تقديم إسلامى للمسيحية

فى صورة تمكّن المسيحى من رؤية نفسه فيها

أيها الإخوة :

يسعدنى أن أضم صوتى إلى أصوات طيبة سبقت إلى هذا المنبر ، وأصوات تنتظر لتقدم الشكر الخالص لإسبانيا رئيساً وحكومة وشعباً ، ولكنيستكم وجمعيتكم الموقرة ، ولقرطبة العريقة ، ولجهازها الإدارى وشعبها الطيب ، أن أتحتم لنا فرصة هذا المؤتمر الذى جاء خطوة فى مرحلة جديدة من مراحل اللقاء بين الإسلام والمسيحية :

هنا على المنبر الواحد يتعاقب مسلمون ومسيحيون . يتحدث المسلم عن المسيحية والمسيحى عن الإسلام. والاثنان عن مجالات التعاون . وأصبح الحوار يدور حول: فيم نتفق ؟وكيف نوسع أراضى اللقاء ؟.. أما ما نختلف فيه فلا أطلب منك ، ولا تطلب منى ، إلا أن أفهمك وتفهمنى ، وأسمع منك وتستمع إلىّ ، دون إكراه فى الدين . . توسيعاً لدائرة الفهم والاتفاق .

إن التركيز فى لقائنا هذا على ما يمكن أن نسميه « تقديماً متبادلا

للإسلام والمسيحية ،ودعماً لمجالات التعاون فيما بيننا » . لجأ فيه كل منا إلى كتب أخيه يقضى معها وقتاً ، ويزداد فيها تأملا وتعمقاً . . واسترجع تجاربه ، وأعد عقله وقلبه لمزيد من الصداقة والمحبة والتعاون السمح ، الذى لا يتجه إلى عداوة ، ولا يستهدف إلا الحق والسلام القائم على العدل .

أيها الإخوة :

لقد جئت إليكم من أرض السلام والمحبة . . من مصر . . مصر المؤمنة التى دأبت من أقدم عصور حياتها على أن تتخذ إلى الله سبيلا .

ومنذ أيام ، وقبل حضورى إلى مؤتمركم ، كنت فى صعيد مصر ، أشهد بعض أحفالنا الإسلامية ، وهى أحفال يشارك فيها الإخوة المسيحيون بالحضور ، يؤكدون وحدتنا الوطنية وإيماننا العميق . وزرت بعض الآثار المصرية القديمة هناك، ورأيت كيف تمثلت فيها الأركان الثلاثة الأساسية فى الدين : إيمان بالله وبالجزاء الأخروى ، وعمل صالح فى هذه الحياة . وأخذت أستعيد أحداث التاريخ ، وكيف استقبلت مصر المسيح طفلا – كما جاء فى إنجيل متى – وحفظ المصريون مسيرة العائلة المقدسة : فى سيناء وشرق الدلتا ووسطها وغربيها وعند رأسها وفى صعيد مصر . وفى كل مكان نزلت فيه أقاموا كنيسة ، ظل لها توقيرها واحترامها وحياتها بإقامة الشعائر فيها .

ودخلت المسيحية مصر ، وحافظت كنيستها على تراثها وعقيدتها ، وتحملت فى سبيل ذلك ما سجله تاريخنا .

وجاء الإسلام فاستقبلته مصر استقبالا كريماً ، وأشاع روح السماحة والإخاء ، وتعايش الإسلام فيها مع المسيحية ، ومرت قرون وقرون . . ومصر – وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس – تقدم نموذج الإخاء والمحبة الذى تحاول جاهدة أن تزيل ما يعلق به من غبار الحياة ، وما قد يحاول حجب ضوئه من تصرفات لا يلبث تيار السماحة أن يزيلها ، كما يزيل

النيل عقبات مجراه . ويلتقى الكل حول سماحتهم كما يلتقون على ضفاف نهرهم . الإيمان غذاء لأرواحهم ومدد لوجودهم ، والنيل شريان حياتهم وبه تخضر الأرض وتزدهر . وكما أقاموا سداً عالياً ينظم ماءه عند أسوان، أقاموا سداً عالياً من السماحة والمحبة فى كل قلب، تسير به الحياة وتتدفق .

وحتى فى ظل الإسلام تعاقب فى مصر أهل السنة والشيعة . . ولكن مصر اتخذت الموقف الذى يجمع بين الاتباع الأصيل للقرآن وسنة النبى عليه الصلاة والسلام ، والحب العميق لأهل بيت النبى ، رضى الله عنهم .

هذا أسلوب الحياة فى أرض عشت فيها . . فعندما أكتب عن سماحة الدين وعن الإخاء ، فإنما أكتب عن جو عشت فيه ومارسته وآمنت بثمراته الطيبة .

من أجل ذلك أحس بأن كل دعوة إلى التعاون والمحبة إنما تنبع نبعاً صادقاً من مصدر كريم يروى أرضاً نبت من ثراها ، وجاهدت من أجلها كما جاهد الملايين عبر القرون .

ولا أستطيع من موقفى هذا إلا أن أذكر أروع مظاهر الإخاء الوطنى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ (رمضان ١٣٩٣ هـ) ، عندما وقف أبناء مصر والوطن العربى — من مسلمين ومسيحيين — يدافعون عن الأرض وعن التاريخ وعن الحاضر وعن المستقبل . . ولم تكن قواتهم تمتد إلى جبهة القناة أو الجولان أو داخل فلسطين العزيزة فقط ، وإنما كانت تمتد على جبهة حضارية يزيد عمقها على سبعين قرناً من التاريخ المتصل :

وإذا كنا قد أودعنا ثرى أرضنا شهداءنا الأعزاء . . وامتزجت على أرض معركة الشرف دماؤهم الزكية ، فإننا لنرجو أن يتحقق من وراء الجهد الغالى سلام نادى به محمد كما نادى به من قبل عيسى عليهما السلام ، ودعا إليه كل نبى ورسول ، سلام نقرؤه فى دعاء النبى محمد

صلى الله عليه وسلم ، مناجياً ربه :

« اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، وإليك السلام ، فحيّنا ربنا بالسلام » ، ونقرؤه فى الإنجيل يترنم به الرعاة وتردده الأجيال من بعدهم:

« المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة »

أيها الإخوة :

هذا هو الجو النفسي والحضارى الذى نعيش به فى ديارنا ، والذى جئنا إليكم به. وحينما أتحدث إليكم عن تقديم إسلامى للمسيحية بصورة تمكّن المسيحى من رؤية نفسه فيها . . أجد نفسى على مفرق طريقين :

الأول : طريق ألجأ فيه إلى أقوال الشراح ، وكبار رجال الدين ، بدءاً من تفسيرات وإضافات القديس بولس إلى توماس الإكوينى والقديس أوغسطين ، إلى بارث وتّمبل ونيبوهر ، وأن أعرض لجوانب الدين وقواعد ما وراء الدين .

وقد يحس المستمع أو القارئ الذى نود أن ننقل إليه البساطة والسماحة أننا سرنا به فى دروب وعرة المرتقى . نعم ، هى دروب علمية ومنهجية ، ولكنى أحس أننا — عملياً — بحاجة إلى أن نزداد اقتراباً من المواطن غير المتخصص ونقيم معبراً رحباً محبباً بينه وبين الدين .

الثانى : وهو الطريق الذى أجده قريب المنال فى الإنجيل والقرآن . وما أثر عن محمد وعيسى عليهما وعلى جميع الأنبياء صلاة وسلام . الطريق الذى أقنع الصياد وراعى الغنم ، واجتذب العشّار وتاجر القوافل . . واستجابت له الخاطئة فتابت . . وسارت على خطوات الأنبياء . . الطريق الذى يقرب الدين إلى الطفل ويفتح له ملكوت السموات ؟

وآثرت الطريق الثانى . . رأيت أن أجعله رسالة أكتبها إلى الجيل الجديد من الشباب المسيحى محاولا أن يرى نفسه فيها .

الرسالة

أيها الأعزاء :

يكتب إليكم هذه الرسالة مسلم يأمره دينه بأن يؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين ، ويؤمن بنبوة محمد كما يؤمن بنبوة عيسى ، ومن سبقهما من الأنبياء والمرسلين ، عليهم جميعاً من الله صلاة وسلام ، ويتقرب إلى الله بمدحهم ، ويقرأ فى القرآن الكريم عن مريم العذراء الطاهرة قول الله :

« وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ » (آل عمران : ٤٢ و ٤٣) .

وفى السورة نفسها نقرأ خطاب الله تعالى لمريم عن عيسى عليه السلام :

« إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ » . (آل عمران : ٤٥ — ٤٦) .

ويقرأ عن محمد عليه الصلاة والسلام :

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حسنة لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا » (الأحزاب : ٢١) .

ويؤمن أن الأنبياء إخوة ، وأنهم أمة واحدة ، وأن الله بعد أن قص علينا قصصهم فى سورة الأنبياء قال مخاطباً رسوله :

« إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ » (الأنبياء : ٩٢) .

ويؤمن أن محمداً ، عليه الصلاة والسلام ، فى ليلة الإسراء والمعراج التقى بالأنبياء ، وجمعتهم الصلاة ، ورآهم فى ليلة طوى الله فيها الزمان والمكان، وأرانا مظاهر الإخاء بين الأنبياء لنتعلم منهم دروس الإخاء والمحبة.

هذا — يابنى — شيء عن الذى يتحدث إليك عن نفسك، ويحاول أن يقدم إليك صورة من دينك ترى نفسك فيها .. فلننظر معاً إلى هذه الصورة لنرى أهم ملامحها :

— ١ —

إن عيسى عليه السلام جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، معترفاً بحق من سبقه من الأنبياء والمرسلين . وأشاع بهذا روح المحبة والإخاء قائلا «لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس والأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل (متى : ٥ — ١٧) .

ويصور نبينا محمد عليه الصلاة والسلام هذا الإكمال بمثال محسوس فيقول :

« مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » (رواه مسلم عن أبى هريرة) .

ونستطيع أن نسمى هذا : البعد التاريخى، أو الامتداد التاريخى للدعوة إلى الله .

— ٢ —

إن المسيح دعا إلى حب الله وحب الناس . . وعندما سئل :

* يا معلم أية وصية هى العظمى فى الناموس ؟

فقال يسوع : تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك . هذه هى الوصية الأولى والعظمى . والثانية مثلها : تحب قريبك كنفسك . بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء (متى : ٢٢: ٢٦ — ٣٩) .

وأنت ترى الوجود كله يقوم على الحب وعلى التجاذب . . عد إلى الذرة . . هناك تجاذب بين الإلكترون والبروتون . . وانظر إلى الكون تره كأنه ذرة كبيرة . . ولك أن تقول إن الذرة كون صغير . . وحدة الخلق فى الذرة والأكوان الضخمة . عد إلى الأسرة إنها تقوم على الحب بين الأب والأم والأبناء . . إن التجاذب بينهم هو الذى يحمى البيت من الانهيار .

ولك أن تقول إن هذا هو البعد العاطفى أو القلبى فى الدعوة إلى الله. وكما رأيته فى حب يملأ قلبك لله ، تراه فى حب للناس يتناسقون به مع نظام الوجود كله . ولك أن تقرأ مع هذا وصف الله تعالى لما بينه وبين المؤمنين :

« يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ » (المائدة : ٥٤) .

ويترجم الرسول بأمر الله هذا الحب إلى نظام فى الحياة :

« قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » (آل عمران : ٣١) .

— ٣ —

إن المسيح — عليه السلام — عندما دعا إلى حب الناس عاد إلى أخوة إنسانية شاملة وعندما كره الشر إنما كرهه فى نفوس الناس وحاربه فيها فإذا خرج الشر حل محله الحب والخير .

من أجل ذلك جالس العصاة والمذنبين والخاطئين ، وأجاب عندما

اعترض الكتبة والفريسيون على ذلك بقوله :

« لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى . لم آت لأدعو أبراراً ، بل خطاة إلى التوبة » (لوقا ٣١و٣٢) .

واستمع إلى قول الله تعالى فى القرآن الكريم :

« قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » (الزمر : ٥٣) .

ودعا الله نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام إلى العناية بالفقراء والضعفاء . . وهو فى حياته عرف اليتم والفقر وخاطبه الله قائلا :

« وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا » (الكهف : ٢٧) .

ونستطيع القول إن هذا هو البعد الإنسانى فى الدعوة إلى الله .

الإنسان . . كل إنسان . . أى إنسان . . تتجه إليه كلمة الله كما يرى أمامه نور الشمس، وكما يرى الزهر والثمر . والسماء التى ينزل منها الوحى فتحيا به القلوب، ينزل منها المطر فتحيا به الأرض بعد موتها.

— ٤ —

وربط المسيح بين الكلمة والعمل : الكلمة ينبغى أن نكون ولوداً لا عقيماً . كلمة الحق هى أغلى ما أعطانا الله . . بها تحركت الإنسانية فى مسارها .

وما أهم ما بين يديك من المسيح الآن ؟ كلمات الإنجيل .

وأخوك المسلم ما أغلى ما عنده ؟ كلمات القرآن . ونحن فى لقائنا هذا كيف نتفاهم ؟ كلمات نحاول أن نترجمها إلى عمل صالح.

وعندما تكلم المسيح ربط بين القول والعمل . . وعندما جاء أورشليم ودخل الهيكل قلب موائد الصيارفة وكراسى باعة الحمام وقال لهم : « مكتوب بيتى بيت الصلاة يدعى . وأنتم جعلتموه مغارة لصوص . . وتقدم إليه عمى وعرج فى الهيكل فشفاهم » (متى ٢١و٢٣و٢٥) .

فاليد التى تمتد لتقلب كراسى باعة الحمام وموائد الصيارفة تربط بين الكلمة والعمل ، وتطهر الهيكل من اللصوص ، وتمتد فى الوقت نفسه حانية شافية الأعمى والأعرج .

واشتد بقوله على الذين يفصلون بين الكلمة والفعل . . والذين يقولون قولا ويفعلون غيره فقال : « ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم مثل القبور المختفية ، والذين يمشون عليها لا يعلمون » (لوقا : ١١ — ٤٤) .

« وويل لكم أيها الناموسيون لأنكم تحملون الناس أحمالا عسرة الحمل وأنتم لا تمسون الأحمال بإحدى أصابعكم » (لوقا : ١١ — ٤٥) .

هذا بعد أن وصفهم بأنهم يحبون المجلس الأول فى المجامع والتحيات فى الأسواق (لوقا : ١١ — ٤٣) .

ونجد التحذير من هؤلاء بصفاتهم واضحاً فى إنجيل مرقس (١٢ : ٣٨ : ٤٠) :

« تحرزوا من الكتبة الذين يرغبون المشى بالطيالسة والتحيات فى الأسواق والمجالس الأولى فى المجامع والمتكآت الأولى فى الولائم . الذين يأكلون بيوت الأرامل ولعلّة يطيلون الصلوات . هؤلاء يأخذون دينونة أعظم » .

وانظر إلى تحذير الله للمؤمنين من الفصل بين القول والعمل فى القرآن الكريم :

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟

كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » (الصف : ٢-٣) :
وقال تعالى واصفًا المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون :
« وَإِذَا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا إنَّا معكم إنما نَحنُ مستَهزئون . الله يَستهزئُ بهم ويَمدُّهُم فى طُغْيانهم يَعْمَهون . أولئك الذين اشتروا الضَّلالة بالهدى فما رَبِحَت تِجارتهم وما كانوا مُهتَدين » (البقرة : ١٤ - ١٦) .
ولك أن تسأل :
لماذا عنى المسيح عليه السلام بالكلمة . . الكلمة الولود المثمرة عملا صالحًا ؟ ولماذا عنى بها القرآن الكريم ؟
وستجد أن هذه القضية من أهم ما يقابل أى حق من عقبات . . وراجع بنفسك الحجم والقوة التى تصدر بها قرارات تتعلق بحقوق شعوب فى الأمم المتحدة والمؤتمرات الدولية . وانظر إلى الترجمة العملية لهذه القرارات . . ألسنا نسمع عن قرارات حق يقولون عنها إنها قصاصة ورق ! أو لاتساوى المداد الذى كتبت به ؟ !

ونحن فى مرحلتنا هذه علينا أن نقى قراراتنا من خطر الانفصام بين الكلمة والعمل . بل إن أهم التوصيات التى يمكن أن نخرج بها من مؤتمراتنا فيما أتصور : أننا نقرر استمرارنا فى التعاون ، فلا ينقطع ، ومتابعتنا له لنرى ما الذى حققناه مما قلناه . وماذا نستطيع أن نضيفه إليه فى كل لقاء . . ومدى قدرتنا — ونحن جميعًا نعمل فى الحقل الدينى الكبير — الحقل الذى شرف بالأنبياء والوحى — على أن تحول الكلمة إلى عمل ، وأن نتصدى بإيمان وثقة لقضايانا .
وأكتفى بأمثلة محدودة :
١ — نحن نتكلم عن التسامح والإخاء . . فهل نستطيع — وأرجو أن نأخذ هذه التوصية بأن نقوم بتأليف كتب إسلامية مسيحية مشتركة

لتأكيد الإيمان بالله دون دخول فى تفاصيل العقائد : : الإيمان بالله الواحد ؟

٢ — هل نستطيع أن ننشر مخطوطاتنا فأريك ما عندى ، وتريني ما عندك ، ونعرض العلم للنور ، ويستطيع رجل الدين الإسلامى أن يقضى فترة باحثاً فى دير ، وأن يقضى رجل الدين المسيحى فترة باحثاً فى مكتبة إسلامية ، عاكفاً على نص أو محققاً وثيقة ؟

٣ — هل نستطيع أن نخطط لتلاقى أبنائنا وعلمائنا تحت مظلة السماحة فى ندوات أو مؤتمرات تنظمها خطة رحبة من التعاون ولتكن « خطة خمسية على سبيل المثال » تحدد أبعادها بلجنة عمل متخصصة تنبثق من هذا المؤتمر ؟

كثيرة هى المجالات التى نستطيع أن نؤكد بها الربط بين القول والعمل : فنحن هنا نتحدث عن خطوط التعاون العامة ، ومن ورائها خطوط تعاون تفصيلية بين :

١ — علماء الدين ٢ — بين الشباب ٣ — بين المؤرخين ٤ — بين المتخصصين فى الحضارات الإنسانية — ٥ — فى الدراسات المقارنة .

وأتصور هذا كله وما نتفق عليه يتضمنه بيان قد نرتضى أن نسميه « بيان قرطبة » اعترافاً بفضل هذه المدينة على الإنسانية . . إحدى المدن العشرين التى اعتبرها المؤرخ العالمى أرنولد توينبى مدن الحضارة العالمية .

— ٥ —

وعد يا بنى إلى الإنجيل واسأل نفسك : هل آثر المسيح عليه السلام نفسه يوماً بشىء من طعام ، من شراب ، من كساء ؟ لقد عاش العدالة

والمساواة . . ولم يكن يشبع وإخوانه من حوله يشتكون الجوع . ومعجزاته فى تكثير الطعام ، وإطعام من حوله ، علينا أن نترجمها فى حياتنا بأسلوب جديد :

* زيادة الإنتاج وعدالة التوزيع :

هذه هى روح المعجزة وكأنه يخاطبنا قائلا :

* القليل الذى عندكم اجعلوه كثيراً . . والكثير وزعوه على من يحتاج إليه . . والتوزيع . . والسير على هذا الهدى يقتضى تحول الأفراد إلى منتجين عاملين . . وبذلك يصبح العمل عبادة ، والإنتاج عبادة ، وعدالة التوزيع عبادة .

لقد امتدت يده الطاهرة إلى عالمى الحيوان والنبات ممثلين فى السمك والخبز . . ومـا زالا أهم مصدرين للرزق . . ومـا يشتكى منه مجتمعنا المعاصر من مجاعة غذائية نجد علاجه فى هاتين القاعدتين اللتين مارسهما المسيح عليه السلام بأسلوبه المعجز : زيادة الإنتاج وعدالة التوزيع ، وبهذا نقابل المجاعتين الكبيرتين : مجاعة الغذاء ، ومجاعة الروح .

— ٦ —

ويقتضى هذا توفير المعرفة العلمية لزيادة الإنتاج ، واتساع القلب والعقل لعدالة التوزيع ؛ وبذلك تتحدد أبعاد وآفاق من العلاقات والتعاون فى داخل الوطن الواحد ، وعلى الصعيد الدولى . تعاون تتساقط فيه أسوار التفرقة العنصرية دون تعصب للون ، والعصبية الدينية ، فلا يضار شعب لعقيدته ، ولا لمستواه العلمى ، أو حاجته إلى المعرفة ، وتستطيع الإنسانية السير إلى المواطن العالمى ، والوطن العالمى ، مع التقدير لأوطاننا الأم ، فلا تعارض . . وإنما اتساع دوائر . .

— ٧ —

وأود أن أختتم حديثي إليك بنظارة إلى موطن المسيح والأنبياء قبله ، ومسرى محمد ، وملتقى الأنبياء ، عليهم جميعاً من الله صلاة وسلام .

ألست ترى الدماء المراقة فيه ؟ والهدم والتخريب والحرق ؟ فلم تنج كنيسة القيامة ولا المسجد الأقصى . ألست ترى رجال الدين من مسلمين ومسيحيين كيف يساقون إلى السجون فى أرض السلام ظلماً ؟ ألست ترى تدمير آثارنا الإسلامية والمسيحية بدعوى البحث عن الآثار ؟ ألا تذكر إخوانك الذين ملأت جثثهم آبار دير ياسين عام ١٩٤٨ ؟ وكيف تحركت آلة الحرب الشريرة بين يدى العدوان الإسرائيلى تحصد الرجال والنساء والأطفال دون تفرقة بين مسلم ومسيحى . وتتابعت المجازر والحرائق فى أرض السلام ؟

لقد وقف إخوانك فى فلسطين العزيزة وفى القدس الشريف ، وقفوا مسلمين ومسيحيين يجمعهم الإيمان بالحق والسلام . وسقطت منهم طلائع عزيزة شهيدة على أرض الوطن شهدت جهاد المسيح وأصحابه. وشهدت مصرع يحيي عليه السلام والأنبياء قبله من أجل الحق .

فما حق أرض شهدت مولد المسيح وجهاده عليك ؟ وما حق أرض هاجر إليها المسيح طفلا عليك ؟

كل الذى نريده منك أولا أن تدرك هذا الحق ، وأن تجعل كلمة الحق هى التى تحركك إلى ما تحب من عمل ؟ كلمة الحق الولود المثمرة.. المؤمنة بالحب والسلام القائم على العدل . وإن موطن المسيح يطالبنا بكلمة فى هذا المؤتمر فلنقلها . . وإذا كنا قلناها فلنؤكدها . كلمة حق للقدس الشريف ، لفلسطين المناضلة ، للأرض السليبة . ولو كان وطن يغنى عن وطن لكانت مصر أولى الأراضى بالمسيح ، فقد رعته وأحبته

طفلا . . ولكنه عاد ليتابع جهاده هناك . وما نريده أن يعود أبناء فلسطين والأرض السليبة إلى ديارهم يتابعون عمارة أرضهم والتقدم بها فى ظل السلام والرخاء . وإذا كنا نتحدث عن التقديم الإسلامى للمسيحية ، أو التقديم المسيحى للإسلام ، أو مجالات التعاون ، أو التطور التاريخى ، فسيظل موطن المسيح وماحوله ميزانًا دقيقًا يحدد مدى قدرتنا على التصدى لمسئولياتنا ، ومجالا محتمًا للتعاون الإسلامى المسيحى .

وأكاد أتصور بعداً آخر لهذا المؤتمر . . إن وطننا العربى بمن فيه من المسلمين والمسيحيين يتعاونون فى الحياة اليومية ، وفى بذل دمائهم من أجل استرداد أرضهم . . إنه عصر شهداء جديد نمر فيه لنصل إلى السلام القائم على العدل . والبعد الجديد المطلوب هو دعم التعاون بين الوطن العربى بمن فيه من مسلمين ومسيحيين ، والعالم الإسلامى بمن فيه من مسلمين ومسيحيين . . دعم التعاون بينهم وبين العالم المسيحى الكبير .

وإننى لعلى يقين بأننا نزداد كل يوم اقترابًا من الحق . .نعرفه ونتحرر به . . . وأملنا أن نصل إلى السلام العادل . وأن تتحول أسلحة الحرب إلى أدوات سلام . وتتحول ميادين الحرب إلى حقول ومصانع : وخطوط القتال إلى مدن عامرة . تعود بها البسمة إلى الشفاه ، وأبناء فلسطين إلى ديارهم ، والقدس الشريف إلى عروبته ، تتجاوب فيه أصوات المؤذنين بأجراس الكنائس ، وتصبح فيه جميع المعابد مفتوحة للعابدين فى ظل سماحة نؤمن بها . وتعود الفرحة إلى الضفة الغربية والجولان وسيناء . ونتلاقى فى المجامع والحياة والجامعات مسلمين ومسيحيين من أجل السلام . يدنا إلى الجميع مبسوطة بالخير .

وعلى لساننا كلمة السلام ، وفى قلوبنا حب السلام. . ولكم من الله تحية وسلام .

بيان قرطبة

انطلاقاً من الإيمان بالله والقيم الدينية والأخلاقية التى يدعو إليها الإسلام وتدعو إليها المسيحية ، ورغبة فى التعاون من أجل العمل المشترك لتعميق الإيمان بالله لإسعاد المسلمين والمسيحيين والبشرية جمعاء ؛ وأملا فى تنقية العلاقات بين المسلمين والمسيحيين ، مما شابها فى بعض فترات التاريخ من شوائب أو سوء فهم ؛ دعت جمعية الصداقة « الإسلامية المسيحية » بإسبانيا لعقد مؤتمر إسلامى مسيحى ، فلبى الدعوة وفود وأشخاص ينتمون إلى ثلاث وعشرين دولة إسلامية ومسيحية. وعقد المؤتمر فى مدينة قرطبة من العاشر إلى الخامس عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٧٤ (الثالث والعشرين إلى الثامن والعشرين من شهر شعبان ١٣٩٤هـ) ، وكانت الموضوعات التى طرحت للبحث هى :

١ — تقديم مسيحى للديانة الإسلامية ، فى صورة تمكن المسلمين من رؤية أنفسهم فيها .

٢ — تقديم إسلامى للديانة المسيحية ، فى صورة تمكن المسيحى من رؤية نفسه فيها .

٣ — الترابط بين الدين والتوسع السياسى .

٤ — أزمة العقيدة والتجارب التربوية فى كل من الإسلام والمسيحية .

٥ — ميادين العمل المشترك التى يمكن أن يتعاون فيها المسلمون والمسيحيون.

وفى جلسة الافتتاح تليت رسالة تحية وتأييد من الرئيس محمد أنور السادات رئيس جمهورية مصر العربية . كما وردت إلى المؤتمر رسائل وبرقيات من الرئيس أحمد حسن البكر رئيس الجمهورية العراقية ، والسيد ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ونيافة الكردينال بيندولى رئيس إمامة العلاقات مع غير المسيحيين

بالفاتيكان، والسيد خوسيه لويس مسيا المدير العام للعلاقات الثقافية بوزارة الخارجية الإسبانية.. وقد أبرقت أمانة المؤتمر إلى حضراتهم بالشكر والتقدير.

ثم ألقيت بحوث متعددة فى كل من الموضوعات السابقة ، وأعقبها حوار اشترك فيه أعضاء المؤتمر ، واتسمت البحوث ، كما اتسم الحوار بالانفتاح والعمق والمودة . وسوف تقوم جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية بإسبانيا بنشر هذه البحوث وإذاعتها ، لتمكن أكبر عدد من المسلمين والمسيحيين من التعرف على جو المؤتمر وما دار فيه .

وفى ختام هذا اللقاء التاريخى ، يسر المؤتمر أن يتقدم إلى العالمين الإسلامى والمسيحى وإلى كل محبي السلام بالتوصيات التالية التى وافق عليها المؤتمر :

١ - إقامة تعاون إسلامى مسيحى ، لتأكيد الإيمان بالله ، وتعميق القيم الدينية والإنسانية ، وقصر دراسة الخلافات العقائدية على مجالات المتخصصين ، مع الاحترام المتبادل بين الجانبين .

٢ - الدعوة إلى تأليف فى حقل العقيدة ، يتعاون فيه متخصصون من المسلمين والمسيحيين لنشر الحقائق الداعية إلى الإيمان .

٣ - تيسير تبادل سبل البحث العلمى ، والتعاون بصفة خاصة فى مجال الوثائق والمخطوطات الإسلامية والمسيحية .

٤ - تنقية المناهج والكتب الدراسية فى العالمين المسيحى والإسلامى من الأخطاء التى تسيء إلى أى من الدينين .

٥ - تشجيع تبادل الزيارات والإكثار من اللقاءات وتوسيع دائرتها بين المسلمين والمسيحيين ، لمواصلة الحوار بينهم فى الموضوعات المشتركة .

٦ - عقد المؤتمر المقبل بقرطبة بعد عامين لمواصلة دراسة الموضوعات التى تهم المجموعتين ولمتابعة إنجازات اللقاء الحالى .

٧ - الدعوة إلى إقامة مؤتمرات مماثلة فى البلاد الإسلامية والمسيحية

الأخرى للتعاون على تحقيق الأهداف التى دعا إليها هذا المؤتمر .

٨ ــ مناشدة المسلمين والمسيحيين بأن يعنى كل منهم بنشر عقائده بين أتباعه ، والإهابة بالهيئات الدينية الإسلامية والمسيحية أن ترعى الوسائل الإعلامية والتعليمية والثقافية والفنية حتى لا يتسرب منها إلى المجموعتين ما يفسد خططها وأهدافها من تعميق الروح الدينى وتمكينه .

٩ ــ التعاون بين المسلمين والمسيحيين على منع ما تلاقيه الأقليات الدينية فى أى جزء من أجزاء العالم من اعتداء واضطهاد ، والعمل على وضع حد حاسم لذلك إقراراً للعدل والسلام .

١٠ ــ تأكيد الحقوق الوطنية والإنسانية للشعب الفلسطينى مع اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعى الوحيد لهذا الشعب ، وتأكيد عروبة القدس ، ورفض مشروعات التهويد والتقسيم والتدويل ، وإدانة الاعتداءات التى تقوم بها سلطات الاحتلال الإسرائيلى على الشعوب وعلى المقدسات الإسلامية والمسيحية وخاصة المسجد الأقصى ، والمطالبة بإطلاق سراح جميع المعتقلين لا سيما رجال الدين الإسلامى والمسيحى . وتأييد النضال العادل للشعب الفلسطينى ، والمطالبة بتحرير جميع الأراضى العربية المحتلة .

١١ ــ اعتبار الآثار الإسلامية والمسيحية فى العالم تراثاً إنسانياً ينبغى الحفاظ عليه والإشادة بالمنجزات التى قامت بها إسبانيا فى هذا المجال ، والمأمول أن نواصل العمل لتحقيق مزيد من النتائج .

١٢ ــ تأليف لجنة مشتركة دائمة لمتابعة تنفيذ توصيات المؤتمر :

ومن الحق فى ختام هذا اللقاء ، أن يتقدم المشتركون فيه بعميق الشكر والعرفان بالجميل لكل من يسر إقامته ، ويخصون بالذكر المسئولين فى إسبانيا وفى قرطبة بصفة خاصة ، دينيين ، ومدنيين ، مع الإشادة بالروح الطيبة التى فتحت مسجد قرطبة الكبير للمسلمين لأداء الصلاة ؛

شكر ودعاء

أيها الإخوة :

باسم الوفود التى سعدت بالحضور إلى هذا المؤتمر والمشاركة فى أعماله ، أتقدم بخالص الشكر إلى إسبانيا رئيساً وحكومة وشعباً ، وإلى قرطبة محافظتها وعاصمتها ممثلة فى المسئولين المدنيين والدينيين فيها ، وأخص بالذكر سيادة المحافظ ، ورئيس البلدية ، والعمدة ، وسماحة مطران قرطبة . وإلى جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية برئيسها الصديق السيد جالندو ، والسيد الوكيل الدكتور أحمد هيكل وأمينها العام السيد توجالس .

وإلى الإخوة الذين عاونوا فى هذا المؤتمر بالتنظيم والجهد الإدارى والترجمة الفورية . .

وإلى شعب قرطبة المضياف الذى جمع بين الأصالة والتقدم، وحب الجمال والواقعية ، وحب الحياة والدين :

لقد فتحتم لنا عقولكم وقلوبكم ، فسجد المسلمون منا فى محراب المسجد ، ووقف المسيحيون منا فى ساحة الكاتدرائية . . وترددت الدعوات من منبر المسجد ومنبر الكنيسة تنادى بالإخاء وترفع أكف الدعاء إلى الله أن يجمع بين القلوب بالإيمان والودّ .

أيها الإخوة :

إننا نقف على طريق جديد من طريق الإخاء . وهذا المؤتمر علامة منيرة تعاونا جميعاً على إضاءتها بنور الإيمان . مرحلة نرجو أن نستطيع فيها إشاعة علم ، وتقارب فكر ، وتصحيح خطأ ، وزرع محبة ، ورفع ظلم ، وعون ضعيف ، وهداية حائر ، وتحبيب الأجيال الجديدة إلى الإيمان وتزيينه فى قلوبهم ؟

لقد رأينا هنا فى قرطبة نموذجاً من نماذج الإخاء العالى . . كيف يعتنى الإخوة بالآثار الإسلامية ، ويبذلون الجهد فى ترميمها .

ورأينا من الإخوة الإسبان نماذج من العلماء الذين يجمعون بين عمق البحث ، وسعة الأفق ، ووضوح العرض ، وتواضع العلماء ، وصبر الباحثين ، والإيمان بالحق .

ولم يخل المؤتمر من حوار ، وقد ترتفع أحياناً درجة حرارته وقد تنخفض . ولكن كان له اتجاه واحد هو الرغبة فى الوصول إلى الحق . . وأعتقد أننا نجحنا فى اجتياز الحاجز الأول وبدأنا نرسى علمياً وعملياً تقاليد اجتماعاتنا المقبلة ، التى نرجو أن تكون أكثر خصوبة وإنتاجاً ، وأن يكون الغد عندنا دائماً أفضل من اليوم وأن تتسع دائرة التعاون محلياً وإقليمياً وعالمياً ، ويجد تطبيقه العملى فى مجالات الحياة؛ فالدين هو الحضارة الحية التى تمد وجودنا بالنماء ، وتدعونا إلى كل تقدم . . وهو والعلم الجناحان اللذان نحلق بهما فى آفاق مستقبل مشرق بالحب والتقدم ، تصبح فيه الإنسانية أمة كبيرة ربها واحد .

أيها الإخوة :

وأعتقد أننا فيما نستقبل من أيامنا سنحاول أن نترجم قراراتنا إلى أعمال ، وسنوالى الاتصال ، وعندما نتلاقى بعد عامين بعون الله وتأييده ، سنكون أكثر قدرة على العمل وخضوعاً لله ، واتجاهاً إلى مزيد من الوضوح على طريق الحق .

حياكم الله فى لقائكم ، وحياكم فى سفركم ، ورعاكم برعايته ، وليذكر كل منا أخاه بدعوة صالحة وكلمة طيبة ، وإلى لقاء على طريق الإيمان والمودة والتعاون .

وشكراً لكم .

صلاة الجمعة

فى مسجد قرطبة *

١ ــ صلاة :

كانت لفتة كريمة من الإخوة المسيحيين فى قرطبة أن جعلوا من برنامج المؤتمر الإسلامى المسيحى العالمى الأول (١٠ ــ ١٥ سبتمبر ١٩٧٤) أداء صلاة الجمعة فى مسجد قرطبة الكبير .

واحتاج القرار إلى شجاعة أدبية ، وصمود أمام بعض الضغوط والمخاوف ، وارتفع أفق جديد وأصيل من آفاق السماحة تمثل فى أسقف قرطبة ، الذى وافق على ذلك عندما عرضه عليه رئيس جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية وأعضاء مجلس إدارتها المسلمون والمسيحيون فى إسبانيا . وكانوا فى استقبالنا ــ مشكورين ــ عند دخولنا المسجد ظهر يوم الجمعة ١٣ من سبتمبر ١٩٧٤م الموافق ٢٦ من شعبان سنة ١٣٩٤هـ.

كان أمر الصلاة قد انتشر مع بدء انعقاد المؤتمر . وفى ضحى يوم الجمعة هبطت فى مطار قرطبة طائرة من مدريد تحمل سفراء الدول الإسلامية فى إسبانيا ، وطائرات من أقطار المغرب العربى تحمل صفوة من علمائها وكبار الشخصيات الإسلامية فيها . والتقى الجميع فى المسجد فى المناسبة التاريخية تنتظم صفوف الصلاة .

* نشرت بجريدة الأهرام فى ٢٥ من رمضان ١٣٩٤ هـ (١١ أكتوبر ١٩٧٤ م) .

٢ ــ الراكعون الساجدون :

وتمر عيني على صفوف المسلمين . . عباءات من المشرق ، برانس من المغرب ، رؤوس حاسرة ، عمائم ولحى بيضاء فيها جلال المشيب ، كهول مكتملون ، شباب متفتح ، ومن حولنا وقف الإخوة المسيحيون وفى نظراتهم مودة وتطلع إلى هذا المشهد الجديد القديم . .

وصوت القارئ يرتفع بالقرآن . . ومن حولك الراكعون الساجدون . . وترى الدموع وتسمع النشيج تطلقه روعة الذكرى ويكتمه جلال الموقف، وقد انطوى كل عابد على نفسه فى عالمه بذكرياته وحاضره . .

وتمتد الأعين إلى الآيات الصامتة على جدران المسجد والمحراب . . وتقرأ « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق » (الأعراف : ٤٣) . ظلت هذه الآيات صامتة على الجدران ثمانية قرون حتى ترددت من الحناجر فى يوم الجمعة المشهود . .

ويرتفع صوت الأذان : الله أكبر . . الله أكبر ، ويزداد معه الحزن والبكاء ، وتتذكر الأذان الأول . . أذان بلال فى المدينة المنورة . . وكيف حملته القلوب والأيدى والألسنة المؤمنة عبر الصحارى والجبال والبحار والقارات حتى ارتفع من صومعة مسجد قرطبة وظل يتردد فيها قرونًا . .

وتستمع إلى خطبة الإمام عن الحضارة الإسلامية وسماحتها وإخائها ، ويرتفع صوته داعيًا الله أن يحفظ للقلوب صفاءها ونقاءها ، وأن يجمعها على الهدى والمحبة ، وأن يوثق التعاون لترتفع أعلامه النقية .

٣ ـ مسجد :

ومسجد قرطبة درة فى جبين العمارة الإسلامية . . وضع عبد الرحمن الداخل ـ صقر قريش ـ أول حجر فيه عام ٧٨٠ ميلادية : وكان آخر حجر فيه على رأس الألف الأول الميلادى . مائتان وعشرون عامًا فى استكمال عمل فنى ممتاز تحس حين تراه كأن المعماريين الذين أسهموا فيه كانوا فريقًا واحداً يقوده عقل واحد .

والراجع أن المسجد بنى على أرض عذراء . . بدأ قسمه الأول فى عهد عبد الرحمن الداخل ، وجاءت توسعته الثانية فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، والثالثة فى عهد عبد الرحمن الثالث وولده الحكم الثانى . وهذه التوسعة الثالثة هى قمة عالية من قمم الفن الإسلامى وصل بها المحراب إلى ضفة نهر الوادى الكبير . . وكأن ملك بنى أمية والمسجد كانا على موعد ، فبعد هذه التوسعة بدأ الضعف فى الدولة وفى توسعة المسجد معًا . .

وجاءت التوسعة الأخيرة على يد الحاجب المنصور بن أبى عامر ، ولم يكن أمامه إلا التوسع شرقاً على طول المسجد .

وظل عامراً بالصلاة والقضاء وتدارس العلم والأدب حتى سقوط قرطبة عام ١٢٣٦ عندما خرجنا من هنالك وتركنا المسجد وحيداً يلقى صروف الزمان . .

٤ ـ عودة الحياة :

ولقد تحول جزء من المسجد تبلغ مساحته نحو ١٥ ٪ إلى كتدرائية ، وتحولت صومعة المسجد (المئذنة) إلى برج أجراس . . ومن أجل ذلك أزيل ثمانون عموداً وقوسًا وما فوقها من سقف . .

وأغلقت أبواب كانت مفتوحة تدخل قدراً من الضوء أراده الفنان

الذى صمم المسجد . . ولم يكن التداخل المعمارى محل رضا الذين أمروا به . . . وجاء غير متناسب مع الوحدة الهندسية للبناء والحاول المعمارية التى ابتكرها العقل الذى ظل مسيطراً على البناء أكثر من قرنين حتى إتمام هذه الصورة العبقرية التى لم تتكرر . .

فليس هناك مسجد غيره فى أرض الإسلام اعتمد على فكرة العقود المزدوجة . . وأنت لا تجد عموداً يزيد قطره على خمسة وعشرين سنتيمتراً ، وتنتهى الأعمدة بعقود ، وعلى رأس العمود تجد قاعدة جديدة أقام عليها المعمارى عموداً آخر ، وتتشابك الأعمدة بعقود غاية فى الدقة والرشاقة . . . فإذا نظرت إليها رأيت نفسك فى حديقة من حدائق الإيمان . . كأن الأعمدة أشجار والعقود فروع أثقلتها الثمار . . أو كأنها نافورات تجمد ماؤها . . وتمتد أمامك وتمتد إلى ما لا نهاية كأنها ترتبط بمساجد الشرق . . هناك فى مصر والجزيرة العربية والشام . .

والمحراب آية أخرى من آيات الفن ، وهو عبارة عن حجرة صغيرة . . . أو مسجد صغير سقفه من قطعة واحدة من الحجر على هيئة صدفة . . وفوق بلاطة المحراب والبلاطتين المحيطتين بها عن يمين وشمال ثلاث قباب صغيرة بلغت الذروة من الجمال ودقة الفن . .

واستخدام الضوء كان بنسب تتوازن مع ما يدخل من الأبواب . . . وهنا تحت القباب كانت قراءة القرآن . . نور القلب . . تحت نور السماء . . وفيض النور المتدفق من الأبواب . . . نور على نور . .

وفى الجزء الشمالى من المسجد صحن مكشوف تغطيه أشجار البرتقال . وإذا كنت فى المسجد ناظراً إلى الخارج رأيت التداخل بين الأعمدة الرشيقة وأشجار الحديقة . .

وفى الزيارات التى قمت بها شكراً لأسقف قرطبة وكبار المسئولين المدنيين دار الحديث حول المسجد والكاتدرائية . .

وهناك اتجاه فى إسبانيا يرمى إلى نقل الكاتدرائية إلى مكان مجاور للمسجد وإعادة المسجد إلى صورته التى كان عليها ، وقد وجدت هذه الفكرة قبولاً لدى نفر من المثقفين الإسبان . فالمسجد فى كماله واكتماله عمل عبقرى لن يجود بمثله الزمان . . والذين يفدون إلى قرطبة إنما يفدون أساساً لزيارة المسجد . . حتى نستطيع القول بأن قرطبة نفسها « ضاحية » المسجد . وقد جرت أحاديث بين الإسبان وبعض الشخصيات العربية المسئولة الكبيرة حول التعاون على تنفيذ مشروع النقل ، ليعود المسجد إلى صورته الأولى .

وإذا كان الأمر يحتاج إلى بعض الوقت لتتقبله الجماهير . . فإن الصورة المقترحة والتى اطلعت على بعض دراستها مما يساعد كثيراً على أن تصبح لكل من المسجد والكاتدرائية شخصيته الواضحة الكاملة ، ويعطى بعداً جديداً تطبيقياً من أبعاد التعاون بين العالم الإسلامى والعالم المسيحى . .

إننى أحس وأومن أننا تسير على طريق جديد من طرق التعاون والمحبة رأينا بعض ثماره ، وكلنا فى انتظار المزيد . .

وتحية إلى قرطبة السمحة وإلى إخوة مسلمين ومسيحيين أعطوا النموذج الكريم والخطوط الرئيسية لتعاون إسلامى مسيحى عالمى .

وحدتنا الوطنية

* ألقيت في حفل المجلس الملي للأقباط الأرثوذكس وفي العيد الأول لمعركة رمضان (أكتوبر)
* أقيم الحفل في قاعة محاضرات الكنيسة الكاتدرائية بالعباسية مساء يوم ٩ — ١٠ — ١٩٧٤ بالقاهرة .

وحدتنا الوطنية

حضرات الإخوة والأخوات :

تحية طيبة مباركة فى هذه المناسبة الكريمة التى تفضلتم بدعوتى إليها والحديث فيها .

وإذا كان لى أن أبدأ بتحية فهى إلى إخوة سبقوا إلى الله تبارك وتعالى ، بذلوا أكرم ما يكون البذل ، وجادوا أكرم ما يكون العطاء ، وضحوا بأنفسهم من أجل حياتنا ، ووطننا ، وأرضنا وعرضنا .

وكنت فى جلستى قبل أن أقف للحديث ، أطالع وجوه الجالسين والجالسات ، وأرى دمعات نبيلة حزينة تسيل فى صمت وقور . وترتفع الأيدى فى هدوء لتتلقاها أو تسترها . وأحس معها عظمة ما بذل بعضنا . . . وبعضنا منا . فكلنا أهل . والذين سبقوا إلى الله إنما هم — من قبل ومن بعد — أولادنا وأكبادنا تمشى على الأرض ، ولقد تعلمنا من نبينا عليه الصلاة والسلام حينما اختبره الله فى ولده فسالت دموعه على خديه وقال : إن العين لتدمع ، وإن القلب ليخشع ، ولا نقول ما يغضب الرب ، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون » .

فأيامنا هذه إذا كنا نذكر فيها فرحة النصر ، فإنا نذكر — قبل هذا وبعده — أبناءنا وإخوتنا الذين سبقوا إلى الله تبارك وتعالى . وكان من حكمته أن يجمع فى قائدنا فرحة النصر ونبل الحزن : فاستشهد أخوه فى ميدان القتال . فإذا كان المنتصرون يرون فيه قائد النصر ، فإن أهل الشهداء يرون فيه أبًا وشريكًا فى هذا الحزن النبيل ، على من سبق إلى الله تبارك وتعالى .

تحية لشهدائنا وإلى أهلنا الذين صبروا الصبر الجميل من بعدهم ،

وتحية إلى قائد مسيرتنا الرئيس المؤمن محمد أنور السادات ، الذى جمع فى شخصه بين فرحة القائد المنتصر وبين الحزن النبيل لمن سبق من بعض أهله فى هذا إلى الله، وتحية إلى قواتنا المسلحة الصامدة ، وتحية إلى قداسة البابا الذى دعانا إلى هذا الحفل الكريم وإلى حضراتكم جميعاً .

وكما قال قداسته : فإن يوم ٦ أكتوبر يوم لا يمكن أن نفصله عما قبله ولا عما بعده، ولقد تكلم عن بعض العبر فى ذلك اليوم والحكم فيه، وجال بنا جولة واسعة على الصعيد المحلى والعربى والأفريقى والعالمى ، ووازن بين منطقنا قبل ذلك وبعده .

الوحدة الوطنية

وما أريد أن أتابع القول فى هذه الجوانب . وإنما سأختار زاوية واحدة أركز حديثى حولها ، وهى الوحدة الوطنية وأثرها فى مصر. ويكاد هذا الحديث أن ينقسم بين يدى إلى قسمين :

قسم يتعلق بأحداث من تاريخ وطننا ، شاركنا فى صناعة بعضها، والبعض يرجع إلى تراث ورثناه ، وكل الذى علينا أن ننميه وأن نرعاه ، وأن نسلمه أكثر إزهاراً وإثماراً إلى أجيال من بعدنا .

وقسم آخر من الحديث يتعلق ببعض خطوط عامة واقتراحات للمستقبل .

العائلة المقدسة وأهل البيت

أما فيما يتعلق بالماضى فلقد استوقفت ذهنى مقارنة حدثت فى التاريخ الإسلامى والمسيحى ، حينما أراد الله تبارك وتعالى للعائلة المقدسة أن تهاجر ، كان أمامها أن تهاجر إلى عدة أمكنة ولكن الحق جل وعلا

اختار لها أن تهاجر إلى مصر . وجاءت العائلة المقدسة إلى مصر . وفى كل مكان نزلت فيه وجدت رعاية وعوناً وحماية وتمجيداً . بل إن كل مكان نزلت فيه ، أقام فيه المصريون كنيسة ظل لها توقيرها واحترامها .

هذه الرحلة بعضها كان فى سيناء الحبيبة وبعضها كان فى شرق الدلتا ، وبعضها فى وسط الدلتا ، وبعضها فى غرب الدلتا ، وبعضها عند رأسها ، وبعضها فى صعيد مصر .

وأعود إلى ناحية من تاريخ الإسلام ، فأرى أنه عندما حدث الصراع بين أهل البيت وبنى أمية وطلب والى المدينة من العقيلة الطاهرة السيدة زينب بنت الإمام الحسين رضى الله عنهما أن تبرحها . وخيرت السيدة زينب رضى الله تبارك عنها فى هجرتها منها ، قالت : إن كنت تاركة مدينة جدى فلن أتركها إلا إلى مصر . . وجاءت العقيلة الطاهرة إلى مصر ، ومعها على زين العابدين بن الحسين (رضى الله عنهما) واستقر هذا الفرع النبوى فى مصر . وأصبحنا نطلق أسماء أفراد البيت النبوى على أحياء فى القاهرة : السيدة زينب . السيدة نفيسة . السيدة سكينة . السيدة رقية . سيدى حسن الأنور ، سيدى زين العابدين .

وأسائل نفسى : ماالذى جعل هجرة العائلة المقدسة إلى مصر وهجرة بيت النبى إلى مصر ؟ إن هذا الشعب الذى استطاع أن يكرم العائلة المقدسة هو نفسه الشعب الذى أكرم بيت النبى عليه الصلاة والسلام . ذلك لأنه شعب مؤمن يحب الإيمان والمؤمنين من قديم ، وإذا ما رجعنا إلى التاريخ المصرى الذى يمتد قروناً بعد قرون وجدنا أن تاريخه لم ينقطع وأن حضارته لم تتوقف ، وأن إيمانه لم يبتر فى عصر من العصور ، وحتى فى مصر القديمة عندما كانوا يؤمنون بآلهة كثيرة ، كانوا يعتبرون أن لهذه الآلهة كبيراً يؤمنون به ، وكما تعلم المصريون أن يلتفوا حول نهرهم يستقون منه الخير ، فقد تعلموا أيضاً أن لا حياة لهم مع نهرهم إلا بالوحدة والتوحيد .

كذلك كان دينهم وحدة وتوحيداً عبر القرون ، مصر إذن أرض الحضارة المستمرة . مصر أرض الوحدة والتوحيد . من أجل ذلك فإن كل دعوة إلى الاستمرار الحضاري ، وإلى الوحدة والتوحيد والإيمان ، تجد صداها في كل قلب ، ويحس كل إنسان منا أنها تتلاقى مع ما في أعماقنا من حضارة أصيلة ، تسري في فكره كما يسري دمه في عروقه . وأي دعوة إلى التنافر أو البغضاء أو الحقد أو الإلحاد لا تجد صدى في نفسه الطيبة .

من أجل ذلك حينما نتكلم عن الوحدة والتوحيد إنما نتكلم أساساً عن طبيعة عاشت بها هذه الأرض الطيبة ، وحينما نتكلم عن أخوة ومحبة فنحن لا نفتعل شيئاً ، وإنما نحن نضع آذاننا على نبض مصر ، وقلبها. ونسمع ما يقول هذا النبض ونترجمه فإذا به « فليحب بعضكم بعضاً » .

لا إكراه في الدين

١ ــ إنني أعتقد ديناً ، إن الله سبحانه وتعالى علمنا في كتابه أن نؤمن به . وأن نترك لكل فرد أساوب الإيمان به « لا إكراه في الدين » وهناك مجال واسع مشترك في العمل سأعرض له بعد قليل ، وإنما الذي أود أن أسجله في هذا المجال أن المصريين قبل الإسلام ، وجدوا أن حرية عقيدتهم وحرية وطنهم ، أمران متلازمان ، وأن الدفاع عن قضية العقيدة أمام الظلم الذي مارسته بيزنطة ، كان في الوقت ذاته دفاعاً عن حرية الوطن . وعصر الشهداء الذي شهدته مصر لم يكن أكثر من تصوير عملي لما آمن به المصريون وقتئذ : من وجوب أن تترك حريتهم الدينية ، هذا هو الأسلوب الذي عاشته مصر في هذه الناحية .

٢ ــ وعندما جاء الإسلام ترك حرية العقيدة لمن شاء أن يؤمن . وأكبر دليل على هذا ما ذكره المؤرخون الجغرافيون والعرب كالمقدسي

عن تعايش المسيحية والإسلام هذه القرون كلها : وكما تعود المصرى : مسلماً كان أو مسيحياً ، أن يرد نهر النيل ، ليسقى أرضه ، وليرتوى هو وماشيته ، فإنهم تعودوا جميعاً أن يأتوا إلى نهر السماحة والإخاء يشربون منه ويعيشون جميعاً إخوة متحابين .

٣ ـ وعندما حاولت أوربا أن تتستر وراء صلب المسيح عليه السلام ، ذلك المعلم الجليل الداعى إلى السماحة والمحبة ، وستروا أطماعهم بستار دينى رقيق ، لم يخف ذلك على ذكاء إخواننا هنا ، واستطاعوا بنظرتهم الثاقبة أن ينفذوا إلى ما وراء هذا الستار ، وأن يعلموا أن الذين جاءوا إلى ديارنا ، إنما جاءوا طامعين فى أرضنا وخيراتنا ، فإذا بالأقباط وبالمسلمين معاً يقفون صفاً واحداً يدافعون عن وطنهم ضد الغزو الدخيل وغيروا مساره . فى معركة حطين (١١٨٧ م) وغيروا مسار الغزو التتارى فى معركة عين جالوت (١٢٦٠م)

واستطعنا بعون من الله تغيير مسار الغزوة الصهيونية فى ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ :

إن معركة العاشر من رمضان (السادس من أكتوبر) أصبحت درة فى جبين الوحدة الوطنية : قادة من مسلمين وأقباط ، هم محل احترام جنودهم من مسلمين وأقباط ، الماء الذى يشربونه من نهر واحد . الطعام الذى يأكلونه جاء من الأرض الطيبة الخضراء . الهواء الذى يتنسمونه إنما تنسمه قبلهم آباؤهم وأجدادهم . وتعلموا أنه هواء السماحة والمحبة والإخاء . على هذا عشنا أيها الإخوة ، وعندما جاءت المعركة كانوا يعبرون قناة السويس ، وكل منهم يحاول أن يفدى أخاه بنفسه ، لا يسأله ما اسمه ، إنه أخوه فى الوطنية وفى الإيمان بالله . عبروا القناة معاً ووضعوا أقدامهم على أرض سيناء الحبيبة ، الأرض الغالية التى مشى عليها المسيح عليه السلام فى طفولته ، ومشت عليها مريم العذراء ، ومشت عليها الأسرة

المقدسة ، والتى مر عليها النبى عليه الصلاة والسلام فى ليلة الإسراء والمعراج ، والتى شهدت مسيرة أكثر من نبى ، هذه الأرض التى احتضنت دير سانت كاترين . والذى أبرزت فيه صورة من صور الإيمان والمحبة والسماحة عزت على الدنيا ، وذلك الدير الذى اعتدت إسرائيل على كنيسته ومسجده ومكتبته ومخطوطاته بعد أن كان فى رعاية المسلمين والمسيحيين.

بهذا استطعنا عبور القناة وأن نتقدم خطوات واثقة على الطريق إلى القدس الشريفة ، إلى المسجد الأقصى الأسير ، إلى كنيسة القيامة الأسيرة . ولو كان للمسجد الأقصى ولكنيسة القيامة أن يرسلا إلينا رسالة، لأرسلا إلينا خطاباً واحداً يقولان فيه : «أنقذونا من إسرائيل » وأنتم تعلمون أن مفاتيح كنيسة القيامة كانت محفوظة عند أسرة مسلمة ، برضى واتفاق من الإخوة المسيحيين دون أى تعال أو تكبر ، وإنما سماحة بين الجميع على أمر لو أرادوا غيره لكان ، ولكننا تعلمنا أن نعيش الإخاء وأن نعيش المحبة .

لقد كانت حرب رمضان حرباً رأينا فى نارها نور الأخوة والسماحة والمحبة ، وجاءت برهاناً جديداً وأصيلا يدعم براهين قديمة من التاريخ الإسلامى والمسيحى والفرعونى على أننا نعيش دائماً الإخاء والمحبة والود والخير .

. . . والمستقبل

أما ما يتعلق بالمستقبل فأذكر من قريب ، وفيما بين العاشر والخامس عشر من سبتمبر الماضى (١٩٧٣) ، أنى كنت مع إخوة من المسلمين والمسيحيين فى قرطبة ، نحضر المؤتمر الإسلامى المسيحى العالمى ، حضره مندوبون يزيدون على المائة من كبار علماء الإسلام والمسيحية يمثلون نحو ثلاث وعشرين دولة ، والتقينا جميعاً على قضايا بعضها يتعلق

بالفكر وبعضها يتعلق بالقضية المصيرية ، وكان من أبرز هذه المقررات تأكيد حقنا فى عروبة القدس بلا تهويد ولا تدويل، وتأكيد حق الشعب الفلسطينى فى أرضه ، وتأكيد حقوق الشعوب العربية فى أرضها المغتصبة السليبة . والذى استوقف نظر المؤتمر ما بدا عمليًا لا قولا مجرداً ، من محبة وتواد وتعاطف فيما بين أعضاء الوفد المصرى ، لماذا ؟ كان الجهاز التنفيذى ممثلا بوزيرين أحدهما مسلم والآخر مسيحى. كانت الأجهزة الدينية ممثلة بزميلين أحدهما من الأزهر والثانى من الكنيسة القبطية . ومعنا أستاذان من الجامعة مختصان فى الدراسات الإسلامية المقارنة ، وفى تاريخ العصور الوسطى . حينما كانت تنبت أية نابتة تحاول أن تنحرف بالمؤتمر عن مساره فى الإخاء والمحبة ، كان يتصدى لها الوفد المصرى بمن فيه من مسلمين وأقباط معًا . يتعاونون جميعًا من أجل تأكيد معنى الإخاء والمحبة . وتقدم الوفد المصرى بعدة مقترحات كانت محل قبول .

الحوار الدينى ودعم الوحدة الوطنية

ومن توفيق الله سبحانه وتعالى أنه قبل دخول هذه القاعة ، كنت أجلس إلى جوار قداسة البابا ، وتحدثنا عن بعض المشروعات التى يمكن أن نقوم بها ، دعمًا للوحدة الوطنية ، وذكر قداسته بعض هذه المشروعات: فقلت له : كأنك تقرأ الورقة التى معى . فإننى كتبت هذه المشروعات فى هذه الورقة التى أمامى ، وإن ما تقدمت به باسم إخوانى فى قرطبة ، هو الذى سجلته فى هذه الورقة وهو الذى حدثنى فيه قداسة البابا لنتعاون فيه :

أولا : نحن نعلم أن الحوار الدينى الآن أصبح صيغة مقبولة بين أهل الأديان . والحوار الحديث لا يتصيد نقط الخلاف وإنما يستهدف الأرض المشتركة بين الأديان فيما يتعلق بعقيدتك لك حريتك ، وما يتعلق بعقيدتى

لى فيه حريتى . ولكن هناك أرضًا واسعة مشتركة فيما بيننا، فما أهم ملامح هذه الأرض ؟

هناك قضية الإيمان بالله الواحد . ويمكن أن يلتقى عدد من الزملاء العلماء من مسلمين وأقباط من المتخصصين فى كافة فروع المعرفة : علم النبات . علم الحيوان . علم التشريح . علم الفلك . ويقدم كل منهم بعض الحقائق العلمية المبسطة التى تؤكد وجود الله ، ونجمع هذه المعلومات كلها فى كتاب كنقطة بدء ، تليها مجموعة من الكتب الأكثر تفصيلا لتأكيد وجود الله . وإلى جانب الفوائد العلمية ستزداد الألفة بين علمائنا وتكون لهم لقاءاتهم ويتعود أبناؤنا أن يروا كتابًا واحداً فيه عشرات من أسماء العلماء من مسلمين ومسيحيين كلها تؤكد معنى واحداً هو الإيمان بالله الواحد .

ثانيًا : فيما يتعلق بقضية فلسطين والأرض السليبة والقدس الشريف : نحن نعلم أن لإسرائيل مزاعم فى هذا الموضوع . وقد تكلم الأزهر وتكلمت الكنيسة فى ذلك على أعلى المستويات . ولكن لماذا لا نعقد ندوة مشتركة إسلامية مسيحية عن القدس الشريف ونتكلم جميعًا عن هذا الأمر . ونخرج كتابًا واحداً نترجمه بلغات مختلفة ونوزعه على العالم كله ليقرأ آراء رجال العلم والدين من مسلمين ومسيحيين، رأى الأزهر ورأى الكنيسة. يقرأ هذا كله فى كتاب واحد يؤكد عروبة القدس وأنها عندنا — قولا وفعلا — رمز السلام والإخاء والمحبة .

ثالثًا : هناك موضوع الأخلاق الفاضلة وهى السلوك فى الحياة دعا إليها عيسى كما دعا إليها محمد والنبيون من قبلهما عليهم من الله السلام. وأنت ترى هذا الخلق الفاضل فى الحواريين كما تراه فى الصحابة . وتقرأ مدح هؤلاء وهؤلاء فى القرآن الكريم .

هذه نماذج أذكرها لحضراتكم فى هذه المناسبة وأود أن نعلم أن علينا

بعد ٦ أكتوبر أعباء كثيرة فى التحرير والتعمير ، وإننى أفهم التعمير بمعناه الواسع : إن التعمير فى أوسع مدلولاته يشمل تعمير الأرض بالمنشآت وتعمير النفوس بالإيمان بالله . كما أفهم التحرير بمعناه الواسع : هو تحرير للأرض من العدو وتحرير للنفوس من رق الهوى والشهوات . وعلينا ـ ونحن نعنى بهذه الجوانب الروحية والفكرية والأخلاقية أيها الإخوة ـ أحس أن علينا ـ أن نتخذ خطوات إيجابية فى هذا المجال ، بهذا نكون قد تحركنا فعلا بروح العلم والإيمان التى جاء ٦ أكتوبر تعبيراً عملياً عنها ، ونكون قد قدمنا خريطة فكرية جديدة تتفق مع الخريطة الشاملة التى أرادها السيد/ الرئيس حينما قدم ورقة أكتوبر العظيم .

أيها الإخوة : أرجو ألا أكون قد غاليت فى استغلال صبركم وحسن استماعكم ، وأرجو أن تكون أعمالنا أفضل من أقوالنا ، وأن يكون غدنا أفضل من يومنا . « ربَّنا عَلَيْكَ توكّلْنا وإليْكَ أنبْنا وإليْكَ المصير » إن السلام كان دعوة أنبيائنا .. وهو من قبل ومن بعد دعوة الله لنا .. لنعيش السلام فى ظل العدل والإخاء والتقدم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الإسلام ودوره في بناء الإنسان المعاصر *

* عقد فى معهد الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية بجامعة تونس الملتقى الإسلامى المسيحى فى موضوع :

« الضمير الإسلامى والضمير المسيحى فى مواجهة تحديات النمو » .

وذلك فى الفترة ما بين ١١ و ١٧ نوفمبر سنة ١٩٧٤ ، وعقدت جلسته الأولى فى فندق أميلكار بقرطاج (تونس) عصر يوم ١١ نوفمبر .

وقد ألقى هذا البحث فى الجلسة الافتتاحية باسم الإسلام ، مع بحثين آخرين أحدهما باسم المعهد الداعى والثانى باسم المسيحية .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى إخوانه من الأنبياء ومن سار على هداهم إلى يوم الدين .

السيد / الرئيس :

حضرات الإخوة والأخوات :

أودّ أن أقدم الشكر خالصاً إلى تونس الشقيقة : رئيساً وحكومة وجامعة وشعباً ، أن يسروا لنا هذا اللقاء الأخوى فى ظل السماحة والرغبة فى مزيد من التفهم المتبادل والتعاون .

وتحية إلى مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية : مديراً وأساتذة وطلاباً . .

ومن مصر أحمل إليكم تحية الرئيس والحكومة والشعب داعياً الله أن يثبت على طريق الإخاء أقدامنا ، وأن ينير قلوبنا وعقولنا بنور الإيمان والعلم .

السيد الرئيس :

حضرات الإخوة والأخوات :

إن تونس حرية بموقعها الجغرافى ، وتراثها التاريخى ، وعطائها الإنسانى ، أن تقوم بدور إيجابى فى هذا الحوار الخصب بين الإسلام والمسيحية ، بين الشرق والغرب ، بين العالمين الأوربى من ناحية والعربى والأفريقى من ناحية أخرى .

فى منتصف الطريق العربى الممتد بين الساحل الشرقى للبحر المتوسط وجبل طارق غرباً ، وفى موقع كأنه شرفة حضارية متقدمة تطل على صقلية وإيطاليا وجنوبى أوربا ، وعلى رأس طريق صحراوى يقود إلى

قلب أفريقية ، وعلى الباب الشرقى بلجزيرة المغرب حيث تمتد سلسلة الأطلس وحيث تنتقل مؤثرات المغرب إلى المشرق العربى : هنا — فى تونس — نجد الملتقى الحضارى الذى يشهد ملتقانا هذا ، متابعاً رسالته التاريخية ، باحثاً عن الصيغ الجديدة لبناء المستقبل .

فأنت فى تونس فى لقاء بين محورين : أحدهما رأسى والآخر أفقى ، الأول يربطك بأفريقيا وأوربا ، والثانى بالمشرق والمغرب العربيين . . . ولك هنا — من قديم — أن تركب البحر أو تمشى فى مناكب الأرض عالماً أو متعلماً . وإذا كان من طبيعة مناطق اللقاء الحضارى أن تكون أكثر من غيرها تأثراً بنبض الأحداث العالمية ، ففى عالمنا المعاصر الذى اختزل المسافات ويسر طرق التواصل ، لم تعد القضية مجرد الاستجابة للتفاعلات العالمية ، ولكن « الاختيار الأفضل » بين البدائل المتاحة وتركيز العناية على قضايا ، لها — بوزنها وأثرها — أن تجتذب البحوث الجادة . وبهذا تبدو أهمية هذا الملتقى فى أنه حوار بناء بين إخوة علماء يمثلون العالمين الإسلامى والمسيحى ، ويتدارسون معاً كيف يواجهون تحديات النمو .

ولا أتصور أن أسلوبنا فى العمل سيقتصر على العرض المتوازى ، وإن كان من الممكن أن يبدأ به — أو يستفيد منه — كما أننى لا أتصور أننا نود أن نبتدع تركيباً جديداً من الإسلام والمسيحية : فكل من الدينين حقيقة قائمة وراسخة . ولا أتصور أننا ندعو مسلماً أو مسيحياً إلى التساهل أو الترخص فى دينه . وإنما أومن أن كلا من جوهر الإسلام وجوهر المسيحية دعوة إلى الإيمان العميق بالله تعالى ، الإيمان بالله الواحد. ودعوة إلى حب الإنسان واحترامه . ودعوة إلى العمل الصالح فى هذه الحياة ، ثم كلنا سنعرض على ربنا يوم تجد كل نفس ما عملت محضراً .

أتصور أننا نريد المسلم الذى يحسن اتباع دينه ، والمسيحى الذى

يحسن اتباع دينه ، ويحترم كل منهما ما عنده وعند أخيه . ولهما معاً مناطق مشتركة ، يعملون فيها ، ويحاولون جادين أن يوسعوا مجالها ، عن طريق التعاون والدراسة المشتركة ، وهو ما نحن بسبيله الآن . وعندهما مناطق تميز بين الأديان ، وهذه مجال فهم متبادل ، دون أن تكون مثاراً لما سبق أن عانى منه الدينان قروناً ، وترك طابعه على تاريخ العلاقة بين الشرق والغرب .

ثم حين أتحدث عن دور الإسلام فى بناء الإنسان المعاصر لا أقطع هذا الإنسان عن ماضيه ولا عن مستقبله ، ولا عن رؤيته فى المنظور العالمى ، فالمعاصرة لا تعدو أن تكون تركيز البحث على قطاع زمنى ، إذا كان من اليسير أن نحدد مركزه ، فمن الصعب — إن لم يكن من المستحيل — أن نحدد فيه البدء والنهاية . فالتاريخ — كما نعلم جميعاً — فى تدفق مستمر ، نتبادل فيه التأثير والتأثر ، والإسلام بدوره لم يقطع مساره عن تاريخ الإنسانية العام فى الآفاق والعصور ، ولا عن جهاد الأنبياء والمرسلين و بناء الحياة والرقى بها .

من أجل ذلك لا نملك فى هذا البحث إلا الاختيار ، اختيار قضايا رئيسية يسهم بها الإسلام فى بناء الإنسان المعاصر . وسأعرض منها ست قضايا أو ركائز رئيسية فى حدود الوقت المتاح :

أولاً : الإيمان .
ثانياً : الإخاء الإنسانى .
ثالثاً : المنهجية العلمية .
رابعاً : القانون الأخلاقى .
خامساً : حجم السكان .
سادساً : التنمية الشاملة .

ولعلكم ترون معى أن كل موضوع منها يحتاج إلى وقفة مستأنية ، وأرجو أن يعقب هذا اللقاء ندوات أكثر تفصيلا ، تستطيع أن تحول الخطوط العامة إلى برامج تفصيلية عملية نجد تطبيقها المرن فى حياتنا .

والبدء – كما ترون – من الإيمان وتحديد مركز الإنسان فى الكون، وأنتقل معه إلى علاقته بأخيه الإنسان ، ثم إلى منهجه فى سعيه الرائد إلى الحقيقة ومزيد من العلم . وهو فى سعيه عليه أن يلتزم بقانون أخلاقى يعيش به وترجع إليه تصرفاته ، ثم علينا أن ندرس الحجم السكانى ومشكلاته ، وتلتقى هذه الدراسات جميعاً فى تنمية شاملة متكاملة .

هذه هى استراتيجية البحث ونقاطه الأساسية ، أنتقل منها إلى عرض متتابع ومترابط لهذه العناصر .

أولاً – الإيمان :

١ – ويربط الإسلام فى أول آياته نزولا بين الإيمان والعلم : « اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِى عَلَّمَ بالقَلَمِ ، عَلَّمَ الإنْسَانَ ما لَمْ يَعْلَمْ » (العلق : ١ – ٥) .

وتبين الآيات الكريمة أن للإنسان رحلتين : أولاهما رحلة الخلق « خلق الإنسان من علق » والثانية رحلة العلم الإيجابية المستمرة فى حياته وفيها يدأب على ارتياد طرق المعرفة فى الأنفس والآفاق، فى تكوين الإنسان وتكوين الكون . وهذه جميعًا طرق إلى الإيمان .

فنحن نقرأ باسم ربنا الذى خلقنا . وكل ما نكسبه من علم ، يزيدنا تواضعًا أمام خالق هذا الكون كله ، وزيادة إيمان بوجوده . .

٢ – هذه القضية مستمرة فى الوجود الإنسانى كله. قضية الإنسان من حيث هو إنسان فى كل عصر ومكان . ومهما تتابعت القرون وتباينت الأقطار فلكل منا – دائمًا – هاتان الرحلتان : رحلة الخلق ورحلة العلم . وبهما تصبح أبواب الإيمان فى زيادة مستمرة . ويستطيع علماؤنا بما يكشفون كل يوم من جديد يؤكد وحدة الإرادة والتكوين فى هذا الكون الكبير ، وفى النفس الإنسانية . . يستطيع علماؤنا أن يقدموا لنا

زاداً نامياً لتأكيد الإيمان بالله تعالى .

والجديد الذى يكشف كل يوم فى وجودنا هو الذى دعا عالماً جليلا « كأينشتين » إلى أن يقول أمام روعة هذا الكون :

« إن الذى لا تجيش نفسه لهذا ، ولا تتحرك عاطفته ، حى كميت. إنه خفاء لا نستطيع أن نشق حجبه . ومع هذا نحن ندرك أن وراءه شيئاً هو الحكمة أحكم ما تكون . ونحس وراءه شيئاً هو الجمال . أجمل ما يكون .

« وهو حكمة ، وهو جمال ، لا تستطيع أن تدركهما عقولنا القاصرة إلا فى صور بدائية أولية . وهذا الإدراك للحكمة . وهذا الإحساس بالجمال — فى روعته — هو جوهر العبادة عند الناس .

« إن الشعور الدينى الذى يستشعره الباحث فى الكون هو أقوى حافز على البحث العلمى وأنبل حافز .

« إن دينى هو إعجابى — فى تواضع — بتلك الروح السامية التى لاحد لها. تلك التى تتراءى فى التفاصيل الصغيرة القليلة التى تستطيع أن تدركها عقولنا الضعيفة العاجزة . وهو إيمانى العاطفى العميق بوجود قدرة عاقلة مهيمنة تتراءى حيث نظرنا فى هذا الكون المعجز للأفهام . ومن هنا ينبع إيمانى بالله » .

٣ — والإسلام يبدأ قضية الإيمان مصدقاً بجميع الأنبياء والمرسلين. والمسلم يتقرب إلى الله بمدح أنبيائه . والإيمان بهم جزء من الإيمان بدينه مصداق قول الله تعالى : « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » (البقرة : ٢٨٥) . وإن القرآن لا يقتصر على ذكر الأنبياء ، وإنما يقص علينا أخباراً عن الصالحين من أتباعهم ، ويتخذ من هؤلاء جميعاً معالم منيرة على طريق الإيمان بالله تعالى .

بل إنه ليعتبر ما قصه علينا من أخبار الرسل اختياراً من عدد أكبر لم يذكره كله ، وفى هذا يقول الله تعالى : « مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ » (غافر ٧٨) فهناك فى تاريخ الإنسانية جهود وجهود لم ترد كلها فيما جاءنا من وحى الله .

٤ — فمن هذه النظرة الشاملة التى تضم جهود الأنبياء والمرسلين ، ومن فتوح العلم فى الأنفس والآفاق ، نستطيع أن نجد مجالا واسعاً للتعاون يدعو إليه الإسلام كما تدعو إليه المسيحية فى توسيع دائرة الإيمان وتعميقه فى نفس الإنسان المعاصر . يستطيع رجال العلم أن يقدموا الكثير من المواد العلمية التى تعين على تأكيد الإيمان . وأن يتعاون رجال العلم ورجال الدين من مسلمين ومسيحيين فى هذا الأمر فى لقاءات متخصصة . وإلى هذا ذهب المؤتمر الإسلامى المسيحى العالمى الأول الذى شهدته قرطبة ما بين ١١و١٥ سبتمبر ١٩٧٤ فى مقرراته . . بل إن هذه المعلومات العلمية المؤكدة للإيمان ، تستطيع أن تجد طريقها إلى عظات رجال الدين من مسلمين ومسيحيين . . وتستطيع طريقة العرض العلمى — مع الاحترام الكامل للمنهجية — بل من أجل الاحترام الكامل للمنهجية — أن تكون موجهة نحو هذا الهدف دون لجوء إلى أساليب التلقين التقليدية ، ولكن معينة للأجيال الجديدة على الوصول إلى حقائق الإيمان عن طريق الملاحظة والتجربة والتعاون العلمى المشترك . وسنعرض لهذا عند دراسة المنهجية العلمية .

٥ — إن الإيمان بالله يحدد الخيط الأول الذى يعرف به الإنسان موقعه من الوجود . . وإن الإسلام يجعل كل إنسان يبدأ مع خالقه صفحة جديدة لا يحمل فيها وزر أحد ولا أخطاءه . . والإنسان فى القرآن هو خليفة الله فى أرضه . . مر أبوه الأول بتجربتين :

الأولى : علّمه الأسماء فتعلمها . وسأله عنها أمام الملائكة فقالها ، وأسجد له ملائكته ، وأسكنه جنته ، وكفل له أموراً أربعة هى أساس

فى حاجات الإنسان : « إنَّ لكَ ألاَّ تجوعَ فيها ولا تعرَى . وأنَّكَ لا تظمأ فيها ولا تضحى » (طه : ١١٨ — ١١٩) — الطعام والشراب والملبس والمسكن — ونهاه نهياً صريحاً عن الأكل من شجرة معينة ، ودار الصراع بين صريح الأمر الإلهى والطموح الذى يحاول به الإنسان أن يتخطى حدوده « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلاَّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إنّى لكما لمن الناصحين . فدلاَّهما بغرور » (الأعراف : ٢٠ — ٢٢) .

الإغراء كان للأب الأول والأم الأولى . الصراع فى النفس كان طلباً للخلود أو أن يكونا ملكين . الخطأ كان من الاثنين . ثم تسمع قول الله فى القرآن : « وعصَى آدمُ ربَّه فغوى . ثم اجتباه ربُّه فتاب عليه وهدى » (طه : ١٢١—١٢٢) ، وقوله تعالى : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم » (البقرة : ٣٧) .

وجاء بعد الذنب توبة . ومع التوبة اجتباء واختيار لهذه المهمة السامية : « وإذ قال ربُّك للملائكة إنِّى جاعل فى الأرض خليفة » (البقرة : ٣٠) .

فى المفهوم القرآنى كانت التجربتان مدرسة لآدم — فى الاتباع وفى الخطأ — ومع الاتباع سجود الملائكة . ومع المعصية غواية ، ثم تتداركه رحمة الله بالتوبة ، ويختاره خليفة ، ويكلفه هو وأبناءه بعمارة هذه الدنيا . فحين أعامل ربى أعامله من صحيفة بيضاء لا أحمل فيها وزر أحد ، وإنما ينطبق علىّ قول الله : « وكلَّ إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً . من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضلَّ فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (الإسراء : ١٣ — ١٥) .

ذكرت هذا الموضوع لأنه أساس فى بحث المسئولية فى الإسلام ، وموقف الإنسان من خالقه ، وبيان لمهمته فى كل العصور . وهو بنص القرآن الكريم : الخلافة — عن الله — وعمران الأرض — والتقدم بها . وأن يتعاون مع إخوانه من أجل ذلك . هذا ينقلنا إلى الحديث عن :

ثانياً — الإخاء الإنسانى :

فكما يقيم الإسلام الحياة على أساس من الإيمان بالله ورسله والعمل الصالح فى هذه الدنيا والجزاء الأخروى . وأن يبدأ الإنسان حياته مع خالقه بصحيفة بيضاء ، يقيمها على أساس من الإخاء الإنسانى الشامل الذى يعلو فوق فروق اللون والجنس والطبقة والإقليم الجغرافى والمستوى الاقتصادى والاجتماعى .

وما التفرقة العنصرية والحواجز اللونية ؟ إننا فيها نحاول أن نحمل الابن «ذنب» لون أبيه إذا كان فى اللون ذنب . ومن هنا يأتى الارتباط الوثيق بين أن أبدأ حياتى فلا أحمل ذنب أبى الأول ، وأن أبدأ حياتى لا أحمل عاقبة أبى أو وضعه الاجتماعى . ويأتى التكامل فى النظرة الإنسانية بين موقفى من أبى الأول وأبى المباشر . ولا يعدو اللون فى الإسلام أن يكون مظهراً لقدرة الله تعالى وانعكاساً جزئياً لظروف البيئة الطبيعية .

أنت وأنا وهو . . وكل إنسان فى الخلق سواء . . بيننا المساواة فى نسبتنا إلى الأب الأول . ونحن جميعاً — حيث نكون أسرة إنسانية كبيرة واحدة تربطها صلة الأرحام وفى هذا نقرأ قول الله تعالى :

« يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ مِنْهَا زوجها وبَثَّ منهُمَا رِجَالاً كَثِيراً ونِسَاءً . واتَّقُوا اللهَ الَّذِى تساءلون به والأرْحام إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُم رَقِيباً» (النساء : ١) ؛ وقول الرسول عليه الصلاة والسلام فى حجة الوداع : « أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى » . .

من هذا المدخل يقيم الإسلام حياة الإنسان المعاصر على أساس المساواة مع إخوانه فى الإنسانية .

وأنت ترى حول الكعبة حجاجاً من جميع أجزاء الأرض ، تختلف ألوانهم وأجناسهم ، يلبسون ثياباً بسيطة ، خلت من التفاخر والزينة . ويؤدون شعائر واحدة أمرهم بها ربهم . ورأوا نبيهم والذين اتبعوه بإحسان يؤدونها جيلا بعد جيل ، ويستلمون — أو يحاولون — استلام الحجر الأسود. هل نقف قليلا عند لون هذا الحجر ، كأنه تحد دائم لكل من ينادى بتفرقة لونية ؟ هل نذكر بلالا الحبشى المؤذن على ظهر الكعبة عام الفتح ، فيكون أول صوت فى عهد النبوة يرتفع فوقها بالأذان ، صوتاً ترجع أصوله إلى قارتنا الأفريقية ؟ هل تذكر أستار الكعبة السوداء بجلالها ووقارها وكلنا حولها طائفون وركع سجود ؟ !

إن الإسلام فى هذه الشعيرة يقدم التصوير العملى لنظام الكون . كأن البيت الحرام ومن حوله من العابدين يمثلون نظام الذرة . أو نظام المجموعة الشمسية بدوران كواكبها حول شمسها . ويمثلون وحدة الإنسانية المصدقة بجميع أنبياء الله ورسله على اختلاف ألوانها وأقطارها ، وهى تدور حول بيت الله الواحد قيوم السموات والأرض .

ولقد استطاع الإسلام — عملياً — أن يمتص ما قد طفا على سطح حياته فى بعض العصور من مشكلات تتعلق باللون ، جاءت من تهجير بعض العناصر الأفريقية إلى أجزاء من أرض الإسلام . كما أن المسلمين هاجروا يحملون دعوتهم إلى قلب القارة ، فى حين بقيت هذه المشكلات بارزة برءوسها فى بعض المجتمعات المتقدمة ، وبخاصة فى العروض المعتدلة الباردة . ولا نود ونحن نحاول أن نبنى عالمنا الجديد أن نستعيد رحلات الآلام عبر المحيط الأطلسى إلى الأرض الجديدة وما أصاب سكانها الأصليين أو الوافدين من عنت ، وما يلقاه إخوتنا الأفريقيون فوق أرض الآباء

والأجداد فى أقصى جنوب أفريقيا ، ولكنى أومن أن صوت العلم وصوت الدين يلتقيان معاً من أجل إخاء إنسانى شامل تتساقط دونه حواجز اللون والطبقة والوضع الاجتماعى والمستوى الاقتصادى والعلمى .

وإذا كانت الأمم المتحدة قد جعلت من عام ١٩٧١ عاماً لإدانة التفرقة العنصرية وساهمت وكالاتها المتخصصة وبخاصة اليونسكو والدول جميعاً فى هذه الإدانة ، فعلينا أن نتعاون فى أن نزيل من طريق الإنسان ما بقى من هذه التفرقة عملياً فى مجالات الحياة موضوعياً وإقليمياً ، بدلا من تراكم الآلام وثورات الرفض الإيجابى لهذه التفرقة واختصاراً واعياً وعاقلا لمسار الإنسانية نحو مستقبلها ، دون أن تضطر إلى مزيد من التضحيات بأنفس وأجيال من أبنائها كلهم — من قبل ومن بعد — إخوة فى الإنسانية يأماون — حين يصدقون — فى سلام قائم على العدل » .

وقبل أن أنتقل إلى النقطة التالية أود أن أقف عند مقابلة تاريخية لنؤكد السماحة والإخاء فى حياتنا . .

عندما جاء نصارى نجران من جنوب الجزيرة العربية المدينة المنورة وزاروا الرسول صلى الله عليه وسلم فى مسجد المدينة ، وحان وقت صلاتهم أذن لهم بالصلاة فى المسجد . فاتجهوا ناحية المشرق وأدوا صلاتهم . وعندما دخل عمر بن الخطاب مدينة القدس الشريفة بعد تحريرها من الرومان عام ١٥هـ ، وأذن له البطريرك بالصلاة فى كنيسة القيامة ، فضل عمر أن يصلى خارجها لئلا يتخذ بعض المسلمين من بعده مكان صلاته ذريعة لإقامة مسجد . . وفى دير القديسة كاترين فى سيناء العربية ، تجد مع الكنيسة مسجداً يؤدى فيه المسلمون صلاتهم . وفى زيارتنا الأخيرة لقرطبة دعانا الإخوة المسيحيون هناك إلى أداء صلاة الجمعة فى مسجدها الجامع [١] بعد أن انقطعت فيه الصلاة قروناً ،

(١) ٢٦ من شعبان ١٣٩٤ الموافق ١٣ من سبتمبر ١٩٧٤ م .

كما دعونا بعد هذا إلى حضور قداس فى الكاتدرائية المقامة فى المسجد . . وكانت الكلمات التى ألقيت فى كل من اللقاءين الإسلامى والمسيحى داعية إلى الإخاء والمودة والاحترام المتبادل .

هكذا بدأنا ، وهكذا بدأنا نعود ، بعد رحلة طويلة عسى أن نستطيع تأكيد الإخاء والسماحة .

ثالثاً — المنهجية العلمية :

عرضت لجانب من مكانة العلم عند الحديث عن الإيمان ، وتأكيد التفاعل المتبادل بينهما . ومفهوم العلم فى الإسلام شامل يضم المعرفة فى أوسع مدلولاتها . . نراه فى القرآن منسوباً إلى الله وملائكته ورسله والصالحين من عباده وجاء وصفاً لوحى الله ، كما جاء لما يكسبه الناس من معرفة من خلال تجاربهم وإضافاتهم وسعيهم فى الأرض .

واعتبر الإسلام طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . وإذا كان هنالك حوار بين العلماء حول حدود العلم الذى هو فريضة ، فالذى يعنينا هنا هو الحث على طلب العلم وأنه فرض ، وأن على الإنسان أن يرحل فى سبيله ويهاجر . وهو مثاب على كل خطوة يخطوها فى هذه السبيل . ويرفع الإسلام من شأن العلماء فيجعل مداد العلماء كدماء الشهداء .

وإذا كنا فى المفهوم المعاصر لم نعد نطلق العلم بهذا الشمول وإنما نقصره على مجموعة من المعارف النامية تنظمها وحدة وقوانين . . وأن المنهجية العلمية تقوم أول ما تقوم على قواعد تعارف عليها علماؤنا من الملاحظة والتجربة ، وإعادة الاختبار والتقييم والمقارنة واستخلاص النتائج ثم تطبيقها ، ودراسة هذا التطبيق ؛ فإن الإسلام من ناحيته — يدعو إلى التجريب ويحذر الإنسان من اتباع طريق لا علم له به . . بل إنه ليعتبر عدم

استخدام العقل خطيئة . ولنعد معاً إلى آيات من القرآن الكريم فى هذا المجال :

١ — « ولا تَقْفُ ما لَيْسَ لك به عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ والبَصرَ والفُؤاد كل أولئك كَانَ عَنْه مَسْئُولا » (الإسراء : ٣٦) .

٢ — « هَلْ يَسْتَوِى الَّذِين يَعْلَمُون والَّذِين لاَ يَعْلَمُون » (الزمر : ٩) .

٣ — « وقَالُوا لَوْ كُنَا نَسْمَع أو نَعْقِل ما كُنَّا فى أصْحَابِ السَّعِير ، فَاعْتَرفُوا بِذَنْبهم فَسُحْقاً لِأصْحَابَ السَّعِير » (الملك : ١٠ — ١١) .

ولقد عنى علماؤنا بتأصيل مناهجهم العلمية. وابتدعوا طرائق فى التحقيق العلمى تفردوا بها ، لعل أبرزها مناهج الجرح والتعديل وتحقيق الأحاديث الشريفة .

فكل الجهاد العلمى مادام مقصوداً به خير الإنسانية يلقى من الإسلام دعما وتأييداً . وهو فى الإسلام عبادة حين يرتبط بالنية الصالحة . . عبادة فى محراب هذا الكون الكبير بين يدى خالق هذا الكون .

الإسلام دعوة إلى مزيد من البحث فى عالم الإنسان والكون الكبير : والله تبارك وتعالى يقول : « سَنُرِيهِم آياتِنَا فِى الآفاقِ وفِى أنْفُسِهِم حتى يَتَبَيَّن لَهُمْ أنه الحق » (فصلت : ٥٣) .

وإذا عرضنا لمراتب البحث العلمى فى أكمل مظاهرها وجدناها أربعة :

١ — مرتبة التجارب والمشاهدات .

٢ — مرتبة المقارنات والمقابلات .

٣ — مرتبة الفروض الخصبة .

٤ — مرتبة الإلهام . وفيها سنجد لقاء قويًّا بين العلم والدين .

١ — ونحن نعلم أن التجربة هى أساس البحث العلمى . ولها أصولها وقواعدها . والإضافات الإسلامية فى مجال العلوم البحتة قامت على أسس

عريضة من التجارب . : فى الكيمياء — فى الطب — فى الزراعة — فى العمارة :

٢ — وفى اتصال المسلمين بالحضارات السابقة أخضعوا نتائجها لتجاربهم ، واستطاعوا تصحيح أخطاء سابقة . كما حدث فى قياس محيط الأرض بتوجيه من الخليفة المأمون العباسى ، وذكر القصة ابن يوسف المصرى (المتوفى سنة ٣٩٩ هـ — ١٠٠٩ م) . فى الباب الثانى من كتاب الزيج الحاكمى الكبير نسبة إلى الخليفة الحاكم الفاطمى . وقد كلف المأمون فريقين من العلماء : كل فريق من اثنين ليقوما فى مكانين مختلفين بالقياس فى وقت واحد ، وجاء القياسان متفقين . ويعقب نالّينو على ذلك بقوله فى كتابه علم الفلك : تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى — ط . روما ص ١٩١ — ٢٨٤، « قياس العرب (لمحيط الأرض هو أول قياس حقيقى أجرى كله مباشرة على كل ما اقتضته تلك المساحة . . من المدة الطويلة والصعوبة ، واشتراك جماعة من الفلكيين والمساحين فى العمل فلا بد لنا من إعداد ذلك القياس فى أعمال العرب العلمية المجيدة المأثورة[1] » .

ومن هنا تبدو تطبيقيًّا العلاقة الوثيقة بين التجارب والمقارنات والمقابلات ، فالمسلمون يتقبلون التراث الماضى بقبول أو رفض كاملين . . ما رفعوه إلى مرتبة تعلو على النقاش ولا أحرقوه أو أغرقوه . . ولكنهم نظروا إليه كجهد إنسانى يخضع للمقارنة والمقابلة ، ومن هنا كان جانب من إضافتهم إلى التراث الإنسانى .

٣ — ومع دعوة الإسلام نظريًّا وتطبيقيًّا إلى التجربة والمقابلة فإنه

---

(١) راجع : عبد الرحمن بدوى : دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى فى فصل : قياس محيط الأرض ص ٢٣٠ — ٢٣٤ ط . القاهرة ١٩٦٥ .

يسير إلى المرحلة الثالثة من الفروض الخصبة . . نقول الخصبة : : لأنها تجمع بين نتائج المرحلتين السابقتين ، وتحاول أن نقدم فروضاً تحتمل الخطأ والصواب ، ولكنها فى الوقت نفسه تدعو إلى مزيد من البحث ، وتفتح فيه آفاقا جديدة . والقدرة على تخيل الفروض العلمية الخصبة قدرة خاصة لا تتوافر إلا لمن لهم مواهب كبيرة فى هذا الباب ، وتاريخ العلم ملىء بالفروض الخصبة التى أعانت على فتح آفاق من العلم جديدة .

٤ — وهذه مرتبة تكاد تلتقى فيها إلهامات العلماء بالمتصوفة ، وتكاد أن تكون إشراقايأتى بعد المعاناة الطويلة فيدل الباحث على الحل الصحيح[١].

وهذا الإلهام لا يهبط دون استعداد أو فى أى مكان وإنما — عملياً — أنسب أمكنته معامل العلماء والبيئات العلمية المنظمة وتمهيد العلماء فى المراتب الثلاث السابقة . ولنا أن نطبق هذا على نظريتى التطور والنسبية ، وما سبق كلا منها من بحوث عظيمة فى الرياضيات والفيزياء . ولهؤلاء العلماء الجهابذة أثرهم فى دفع الحركة العلمية ، لافى قطرهم وحدهم ولكن فى غيره من الأقطار . .

آثرت أن أذكر هذه المراتب الأربع بهذا الشمول لأؤكد التأثير القوى المتبادل بين العلماء على الصعيد العالمى .

وإن الإسلام فى عهود قيادته الحضارية فتح الباب أمام الإنسان ، كل إنسان وأى إنسان . وفى ظل الدولة الإسلامية كان العلماء من مسلمين ومسيحيين ويهود وغيرهم يجدون الجو العلمى الذى يعملون فيه ، والرعاية والحماية . وكانت الأوقاف الكثيرة على دور العلم ومعاهده ، ودور الحكمة ، تعين الباحثين على التفرغ والتوفر على بحوثهم . .

---

(١) انظر فى هذا : محمد كامل حسين : متنوعات ٢ : ١٣٨ — ١٦٢ وفيه دراسة عن البحث العلمى ط . القاهرة (بدون تاريخ) .

وإننا كمسلمين فى هذا العالم المعاصر نحاول جاهدين أن نطبق ذلك . وهناك أقطار إسلامية يلتقى فى جامعاتها أبناء الإسلام من أكثر من ثمانين قطراً يجدون الاستضافة العربية الكريمة . . . وهذه كانت تقاليد جامعاتنا العريقة من قديم : فى الأزهر ، والزيتونة ، والقرويين على سبيل المثال . . وإننا لندعو باسم الإسلام إلى مزيد من الإخاء العلمى ، وإلى دعم التعاون بين الباحثين ، وإلى تبادل المعرفة ، فهى كالنور والهواء والماء . فهذا تطبيق للقول الإلهى الأول : « اقرأ باسْم ربّك الّذى خلق » (العلق : ١) فنجعل القراءة والعلم والقلم حقّاً لكلّ إنسان فى حياتنا المعاصرة .

رابعاً ــ القانون الأخلاقى :

ولا أتحدث هنا عن قانون أخلاقى جامد ، وأستطيع أن أضرب المثال من حياة الأنبياء أنفسهم . إنهم ــ كما يوضح القرآن الكريم ــ نماذج من الأخلاق الكريمة ، ولكنك واجد فى حياة كل منهم تركيزاً على جوانب كانت أكبر ما يحتاج إليه عصرهم ، وأنت واجد فى حياة كبار أتباعهم نفس القاعدة . وكان تركيز جهادهم على نقاط الضعف الموجودة فى مجتمعاتهم ، وعلى تأكيد جوانب الخير . وهذه النقاط تختلف من مجتمع إلى آخر . ونستطيع أن نضرب أمثلة قريبة :

حياة المسيح عليه الصلاة والسلام كانت هزة روحية عميقة للوجود الإسرائيلى والرومانى فى عهده ، هذا الفكر الذى اشتد التصاقه بالأرض والمادة والنصوص والمناقشات المجدبة ، حتى أصبحت ــ هذه جميعاً ــ أشواكا متكاثفة تحول دون نمو الزهر والثمر فى حديقة الإنسانية .

جاء معجزة فى ميلاده وطفولته وما أجراه الله على يديه من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى .

ومن قبله جاء يحيى عليه السلام صوتاً صارخا فى البرية منذراً . . فيه العنف

والشدة ليمهد الطريق أمام المسيح :

إن الأساس الأخلاق الذى نبعت منه تصرفات يحيى والمسيح واحد . ولكن تباين سلوكهما وفق المواقف التى كان على كل منهما أن يقابلها :

وحياة الرسول عليه الصلاة والسلام اقتضت أن يجمع بين الدعوة إلى الله وإقامة الدولة الجديدة فى كافة مجالاتها ، السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وقابل المشكلات التى تنجم عن إقامة مجتمع جديد التقت فيه عناصر وفدت من أكثر من مكان فى الجزيرة العربية أو خارجها .

ذكرت هذه الأمثلة لأمهد بها لسؤال :

ماهى المواصفات التى نود أن نركز عليها فى القانون الأخلاقى للإنسان المعاصر ، وما عطاء الإسلام فيها ؟

لقد تحدثنا عن الإيمان ، وعن الإخاء الإنسانى ، وعن العلم والمنهجية العلمية . . ثم سننتقل بعد حديثنا عن الأخلاق إلى الحجم الأمثل للسكان وإلى التنمية الشاملة . والأخلاق فى هذا كله عصارة حية تعين هذه المجالات جميعاً على ما يأتى :

١ — أن تحافظ على مستوى سلوكى قادر على صيانة ذاته من الانحراف :

٢ — وقادر فى الوقت نفسه على الاستمرار والنمو الأمثل .

٣ — وقادر على أن يعيد الفرد أو الجماعة إلى الصواب إذا ما أخطأت أو انحرفت .

٤ — وقادر على مقابلة متغيرات الحياة فى محاولة مستمرة للتغلب على عقبات الطريق .

ونحن — إنسانياً — فى حاجة إلى هذه الخطوط العامة التى يتكون بها المواطن الإنسانى العالمى حيثما كان موطنه . . وإذا كنا — كأهل دين — نحس بانتمائنا إلى إخواننا فى العقيدة ، فإننا — كأهل دين أيضاً —

نحس بانتمائنا الإنسانى الكبير ، فى عالم استطاعت فيه طرق الاتصال أن تختزل المسافات ؛ واستطاعت المعرفة أن تختزل العصور والحضارات ، وتعين على اقتراب فجر جديد من التعايش والتفاهم العالميين .

هذا القانون الأخلاقى أساس فى تقدم الحياة . . والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، والإتمام بناء على أمر قائم . ووصفه ربه بقوله : « وإنَّكَ لعَلَى خُلُقٍ عَظِيم » (القلم — ٤) .

وإن مما أعان على تقدم العلم أن قواعده عالمية : الرياضيات — الطبيعة — الكيمياء — الهندسة — الطب . . . بحيث يستطيع من يجيد أى علم من هذه العلوم أن يعمل فى أى قطر مادام يملك أداة اللغة التى تعينه على التخاطب مع أهله . ذلك لأن أصول هذه العلوم أصبحت لغات عالمية يتفاهم بها أبناء هذا التخصص .

وإذا ما بنى المهندس المعمارى بناء فهو يجمع بين أمرين : تمكن من قوانين العلم ، ثم حسن التصرف فيها بما يحقق الهدف من إنشائه مع جمال فى الأداء ، وتناسق مع البيئة الطبيعية والحضارية .

ونحن لا نرى فى اتباع المهندس لقواعد الهندسة قيداً على حركته ، بل إن الحرية الحقيقية هى فى حسن استيعابه لهذه القواعد وتصرفه فى حدودها . ولا أتصور الأخلاق فى شمولها غير هذا . . إنها هندسة النفس الإنسانية ، وإن السلوك الإنسانى فى تنوعه مع وحدة المصدر الأخلاقى لا يختلف — من هذه الزاوية — عن هندسة الإنشاء . .

ونحن محتاجون إلى هذه اللغة الأخلاقية العالمية ، أو على الأقل إلى خطوطها العامة . وما يدعو إليه الإسلام هو شيوع هذه اللغة الأخلاقية ، إذا كان لنا أن نستخدم هذا التعبير ، وأن يتسع تطبيقها من مجال الأسرة الصغيرة ودور العبادة إلى الحياة على اتساعها . . نحن محتاجون إلى لغة أخلاقية فى حقوق الإنسان . . وفى حقوق الشعوب فى إقامة السلام على العدل .

ولكن أن تصبح الأخلاق قمراً صناعيًّا تابعاً، يدور مرة فى فلك المصلحة ومرة فى فلك القوة .. فلا يتحدث بها إلا الضعيف لينال حقه. . فصورة نؤمن من قلوبنا أنها غير سليمة ، وتفرض علينا أن نتعاون جميعاً فى ألا تصبح الأخلاق أضعف المشتركين فى معترك الحياة . ولتكن قوتنا وقدراتنا وسائل لدعم القيم التى تثرى بها الحياة . .

وبين أيدينا مثال حى :

لقد كان حقنا نحن العرب واضحاً وقويًّا فى أرضنا السليبة وفى مقدساتنا ، وفى الحفاظ على عروبة القدس وحقوق شعب فلسطين فى وطن آبائه وأجداده .. ولكن ظلت حقوقنا فى حالة كمون ، خافتة الصوت ، محدودة الحركة ، تدخل إلى المجامع الدولية لتأخذ مكاناً تقليديًّا تزداد به الأوراق والقرارات التى لا تستطيع الحياة خارج حوائط المجامع الدولية . . ظلت كذلك حتى استطاعت هذه الحقوق أن تحرك المؤمنين بحقهم فى حرب رمضان المجيدة[1] ، تؤيدهم الشعوب والحكومات العربية، ومن ورائهم العالم الإسلامى ، واستجابت لهم قلوب وعقول فى العالم المسيحى والرأى العام العالمى ، وكان عبورنا تحقيقا لسيطرة شريعة الأخلاق على شريعة الغاب وصيانة لمقدسات الأنبياء .. مسرى النبى ومولد عيسى وأرض النبوات .

وكما نحن فى حاجة إلى هذا الميثاق الأخلاقى لصيانة أرضنا واستقلالنا ، نحن فى حاجة إليه فى عمارتها اقتصاديًّا وعلميًّا ، وتعاوننا الداخلى والخارجى.

وهذا أيضاً مجال واسع من مجالات التعاون الإسلامى والمسيحى ، الذى نرجو أن يتسع ويعمق فى لقاءات بين العلماء تمهيداً للقاءات أوسع بين العاملين فى حقول الحياة العريضة .

---

(١) عام ١٣٩٣ هـ - أكتوبر ١٩٧٣ م .

خامساً ـــ حجم السكان :

وهذا الموضوع يمكن أن نعرض له على مستويات متعددة ومتتابعة ، فى الأسرة ، الأمة ، القارة ، الأقاليم الدينية ، العالم .

وقد دعت الأمم المتحدة إلى اعتبار عام ١٩٧٤ « سنة سكانية » يعنى فيها العالم كله ببحوث السكان . وشهدت الدول ـــ بوفود على مستوى عال من الكفاية العلمية مؤتمر السكان العالمى فى بوخارست فى الثلث الأخير من شهر أغسطس الماضى (١٩٧٤ م)

القضية عالمياً مطروحة . وهى هنا فى مؤتمرنا هذا مطروحة ، ولها جلسة خاصة . ولهذا سأكتفى بأن أعرض لرءوس الموضوعات بحيث يتكامل العرض الذى بين أيدينا :

١ ـــ فالتنظيم فى الإسلام مرغوب فى كل أمر . وهذا الكون كله له نظامه . يقول تعالى : « مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمن مِن تَفَاوُت » (الملك : ٣) ، وهناك وحدة فى تنظيم هذا الكون نراها فى نظام الذرة ، وفى الجدول الذرى للعناصر ، كما نراها فى المجموعات الشمسية .

ولا تستطيع الأسرة وهى نواة المجتمع أن تعيش بغير نظام . فلو اختلت لسرى اختلالها إلى المجتمع الكبير . ولقد وضع الإسلام للأسرة نظامها : فى العلاقات الإنسانية بين الأب والأم والأبناء . وعلاقاتها الاقتصادية فى مصادر الكسب وأبواب الإنفاق وتوزيع الثروة . وعلاقاتها الاجتماعية من حيث غرس العقيدة والمبادئ التى تمكن الفرد من الوفاء بالتزاماته نحو أسرته ومجتمعه . فهى بهذا وحدة متحركة . . ولا يمكن أن تتحرك بكامل فاعليتها بقيادة رب الأسرة أو ربتها ما لم يكن عدد الأسرة نابعاً من نظام . ولك أن تتصور حركة مصنع أو حتى حفل أو اجتماع . . دون أن يعرف المسئول فيه عدد المتحدثين والعلاقة بين سعة المكان وعدد الحاضرين .

٢ — إن قيادة المجتمع مسئولية . وقيادة الأسرة مسئولية . ولا يمكن تنظيم أمر المجتمع مالم تكن خطوات القادة المحليين — وهم أرباب الأسر — متناسقة مع خطوات القيادة العامة للمجتمع فى مسئولياتها عن الإنتاج والخدمات وحماية المجتمع داخلياً وخارجياً ، وهذه القيادة ينبغى أن تكون على أساس علمى . ولاعلم بدون إحصاء . وكثيراً ما تضيع منا هذه الحقيقة إذا كان الأمر متصلا بالدين . . كأن كل أموره ذاتية وكيفية . . وكأن البحث العلمى موضوعى وكمى .

٣ — ولكن الأمر فى الإسلام غير ذلك ، فهو يجمع بين الكم والكيف ، والذات والموضوع . والإسلام يقوم فى جوانب كثيرة منه على الحساب والإحصاء :

العقيدة توحيد . ودون دخول فى تفاصيل العلاقة بين الدراسات الرياضية والدينية ، نرى أن الواحد الصحيح هو الرقم الأوسط : ما دونه كسوره ، وما فوقه مضاعفاته ، وفى الإسلام الصلاة لها عدد معين من الركعات . وكل ركعة لها حركاتها المحسوبة من قيام وركوع وسجود ، مع مرونة فى التطبيق إذا كنت وحدك ، والتزام بالإمام إذا كنت فى جماعة . والصوم أيام معدودات . والحج أشهر معلومات . والطواف والسعى تحدده أرقام . وكل أنصبة الزكاة تستطيع أن تردها إلى أساس رقمى يتدرج من ٢,٥٪ إلى ٢٠٪ . . ثم حسابنا يوم القيامة بميزان العدل فى ظل الرحمة . ونستطيع أن نجمع هذا كله فى قول الله تعالى : « والسَّماءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيزَانَ . ألاَّ تَطْغَوْا فِى المِيزانِ . وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالْقِسْطِ ولا تُخْسِرُوا المِيزَانَ » (الرحمن : ٧ — ٩) .

٤ — ألا يدعونا هذا الميزان الذى أمرنا ربنا بوضعه إلى أن يكون لنا

ميزاننا السكانى بين الحجم والموارد . .

على مستوى الأسرة ينظم هذا الميزان العلاقة بين أفرادها على مستويين : رأسى وأفقى . وأقصد بالرأسى العلاقة بين الأجيال المتتابعة ، والأفقى العلاقة بين الإخوة أو بين الجيل الواحد ، ثم ينطلق منها إلى العلاقة بين الأسرة والمجتمع الكبير . والتنظيم السكانى هنا ليس هروبا من مسئولية ، بل يمكن أن نقول « إن التنظيم حب ومسئولية » حب لأبنائى فأرعاهم كأحسن ما تكون الرعاية ، ووفاء بمسئوليتى نحوهم وهى مسئولية قدسها القرآن حين اعتبر القرآن الأبناء « قرة أعين » (الفرقان . ٧٤) و« زينة الحياة الدنيا » (الكهف : ٤٦) وعلى أن أوفر لأبنائى الفرص وأتعاون معهم على أن يكونوا عملياً قرة أعين وإضافة لهذه الحياة ، وإذا كنا فى الإسلام ندعو ربنا قائلين : « رَبَّنَا ولاَ تُحمِّلْنا مَالاَ طَاقَةَ لنا به » (البقرة : ٢٨٦) ، فأول مايتجه إليه الفكر حجم الأسرة الأمثل الذى أستطيع الوفاء بمسئولياته ، وبالتالى الحجم الأمثل للمجتمع وعلاقته بالدولة . وهنا ستتجه العناية مع النمو العالمى السريع إلى ارتفاع المستوى الكيفى للأبناء . . فلا يكون نمو المجتمع مجرد زيادة مسطحة يزداد به عدداً وإنما نمو كيفى يزداد به الفرد فاعلية وقدرة على مقابلة حاجات المجتمع المتجددة .

٥ — ولكنى أود أن أقول : إنه ليست هناك صيغة ثابتة جامدة علينا أن نطبقها على كل أقطارنا . فالسياسة السكانية تنبع عملياً — أكثر ما تنبع — من مستوى القطر نفسه . إنها تستطيع أن تستفيد من الخبرات والاتجاهات العالمية ، وأن تتصرف بوحى من عقيدتها . وأن توجد الدولة والمجتمع — على الصعيد القومى — الصيغة الملائمة له : ولكن — حتى على مستوى القطر — ستجد أن الأمر — عملياً — أمر تراض بين الأب والأم . ثم من حق الأبناء أيضاً أن يكونوا فى أمان على مستقبلهم . ومن حق الدولة ألا نحملها برغبات الأفراد فى زيادة حجم أسرهم بأكثر مما تطيق .

فليكن هناك البحث عن الحجم الأمثل للسكان ، وكيف نسير إليه : وكيف نضع التنمية فى خدمة السكان . وكيف نرتفع ارتفاعا دائما مستمراً بالكيف السكانى . وهذا عندى من أهم الجوانب التى ينبغى أن تتجه إليها البحوث . ولا نستطيع أن ننظر إلى قطر يعانى من خلخلة سكانية مثلما ننظر إلى قطر مكتظ بالسكان . أو نطالب قطراً سبق أن عانى من نزيف سكانى انتقل به جانب من سكانه إلى آفاق جديدة وعالم جديد .. ثم نقول له حافظ على عددك الحالى . . ولا أن تكون فى الدراسات السكانية شبهة سيطرة لون على لون أو جنس على جنس أو عقيدة على عقيدة . ولهذا ينبغى أن تبدأ دراساتها من احترام عميق للإنسان باعتباره ثمرة كريمة أبدعتها العناية الإلهية ، وكلفتها بخلافة الله فى أرضه ، تعمرها على أساس من نور الوحى والعلم — فى ظل الإخاء .

وعلينا ونحن نضع سياساتنا أن نحقق هدفين :

أولهما : أكبر قدر ممكن من التقدم للسكان ، وثانيهما : حجم أمثل للسكان .

أما الجوانب الشرعية فى التنظيم وتقويم كل وسيلة من وسائله فأعتقد أن هذا من نصيب الجلسة الخاصة بهذا الموضوع ، وسأكتفى بالإشارة إلى مجموعة الدراسات التى أصدرها الاتحاد العالمى لتنظيم الوالدية بعنوان « الإسلام وتنظيم الأسرة» وسجل فيها بحوث ومناقشات المؤتمر الإسلامى الذى عقد فى الرباط من ٢٤ — ١٩٧١/١٢/٢٩م .

سادساً — التنمية الشاملة :

من أهم ما تميز به الإسلام فى عهد النبوة الترابط الوثيق بين نزول الوحى وتطبيقه فى الحياة اليومية .

ثلاثة عشر عاماً قضاها الرسول صلى الله عليه وسلم فى مكة ، يدعو إلى

ربه وبعدَ أصحابه ، ويبحث عن قاعدة للإسلام ، حتى وجد هذه القاعدة فى المدينة فأقام فيها أول مجتمع إسلامى متكامل .

هذا مما انفرد به الإسلام . . فلم تتأخر دولته عن دعوته . . بل تكونت والوحى ينزل ، ويبنيها يوماً بعد يوم ، وجمع النبى صلى الله عليه وسلم فى شخصه بين الإمامة فى المسجد والقيادة فى الجيش ، والقضاء بين الناس وحكم الدولة . . وكان المسجد هو الأب الأول الذى تفرعت منه مرافق الدولة ، كما كان الرسول الأسوة الحسنة لمن ولوا مسئوليات هذه المناصب جميعاً ، بعد أن تشعب العمل الإسلامى وتعددت مسئولياته .

ويصور لنا هذا المدخل نظرة الإسلام إلى الحياة فى تكاملها ووجوب تنميتها فى كافة مجالاتها .

وأنت إذا ماعدت إلى القرآن الكريم تقرؤه ، وجدته يعطيك فى السورة الواحدة « وحدة حيوية » . ينقلك من العبادة إلى التجارة إلى ميدان القتال ويعود بك إلى بيتك وأسرتك ، ثم يقوم معك برحلة فى صحبة الأنبياء ، ويدعوك إلى تأمل هذا الكون بسماواته وأرضه ، وسحبه وأمطاره ، ويتخذ من هذا كله ما يعينك على إثراء الحياة بالعمل الصالح والإخاء الإنسانى ، ويفتح لك أبواب الأرض والسماء .

وكما رأينا تكامل المجتمع فى نموه ، رأينا تكامل النظرة الإسلامية إلى الوجود .. نظرة تضم الدنيا والآخرة والبشر على امتداد أقطارهم وتعاقبهم ، ومناشطهم على تعددها وتنوعها ، واختلاف ألسنتهم وألوانهم .

وهذه النظرة تنبع من دعوة الإسلام الأولى إلى الوحدة والتوحيد، مع اعتراف بفروق الأزمنة والأمكنة ، وقبولها — لا لتعميقها — ولكن لاجتيازها ، تقارباً وتعارفاً : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتقاكم إِنَّ الله عليم خَبِير » (الحجرات : ١٣) .

وإذا كان هذا هو المنطلق الإسلامى الذى يدعونا إلى الحركة فى كل عصر ، فإن مساهمة الإسلام فيه طبيعية فى عصرنا هذا ، الذى تنادى فيه الشعوب والحكومات والمجامع العلمية بالتقارب والتعاون والإخاء العالمى .

إن هذا التحرك مساهمة إيجابية فى صناعة الحياة الجديدة وتصحيحها بالعلم والإيمان ، وهذا التصحيح يمكن أن يتخذ ثلاثة مسارات متعاونة ومتكاملة . .

الأول المسار السياسى : فالدين يدعو إلى حرية الإنسان فى وطنه وأمنه فيه . . ويجعل الدفاع عن هذا الوطن فريضة وواجباً مقدساً : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » (الحج : ٣٩ — ٤٠) .

وتأسيساً على ذلك نطلب الحرية لأنفسنا وغيرنا ، ولا يستطيع قطر أن يبدأ تنمية حقيقية إلا من قاعدة حرة يحس فيها أن مقاليد وطنه السياسية بين يدى أبنائه . .

وحينما حدد الله مهمة الرسول فى القرآن الكريم قال إنها « يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ » (الأعراف : ١٥٧) .

وليس هناك من غل وإصر أقسى من ضياع الاستقلال :

يأتى بعد هذا المسار الاقتصادى : ولا بد من تكامل الحرية الاقتصادية مع الحرية السياسية . وأقصد بالحرية الاقتصادية أن تكون مقاليد البلاد الاقتصادية فى أيدى أبنائه . أما أن تتحكم قوى استعمارية قديمة أو جديدة فى هذه المقاليد ، أو أن تكون أسعار السلع العالمية سلاحاً فى يد

الدول القوية تشهره فى وجه الدول النامية أو الصغيرة ، وتحاول أن تحكمها بسلاح الجوع إذا مارغبت عن استعمال السيف ، أما أن تصبح أسعار السلع الصناعية فوق الطاقة ، وتتسع الفجوة بين الموارد الأولية والمصنوعة ، أما أن يتساقط الآلاف والآلاف صرعى الفيضانات والمجاعات والأوبئة — أما أن يحدث هذا كله فالحديث عن الاستقلال السياسى يصبح حديثاً لا رصيد له فى أسواق الحياة العملية .

وإن هذه الفجوة الواسعة بين المنتج والصانع ، بين الدول النامية والمتقدمة ، من أعظم التحديات التى تحاول الدول النامية أن تجتازها . . وإذا كانت هذه الدول الآن نامية ، فلنذكر ما استنزفته الدول المتقدمة من ثروات وبشر ، فى استغلال مدمر . حطم وراءه حضارات ، ودولا ، ثم سحب عليها ذيول التناسى والنسيان فى مؤلفاته التاريخية .

نحن لا نحاكم الأجيال المعاصرة من أبناء الدول المتقدمة على ماصنعه الآباء . . ولا ندينها عليه . . ولكن نود أن نبدأ معهم صفحة جديدة من الإخاء نتعاون فيها جميعاً اقتصادياً وسياسياً على تضييق الفجوة الحضارية بين الشرق والغرب وبين الدول النامية والمتقدمة . . وتوفير الحياة الكريمة والتقدم والأمن لأجيالنا المقبلة .

وهذا التعاون السياسى والاقتصادى يحتاج إلى مسار ثالث هو تكوين الإطارات العلمية القادرة على صيانة الاستقلال السياسى والاقتصادى . . فالمعرفة الآن أصبحت من أخطر أسلحة العصر إن لم تكن أخطر أسلحته . وإذا كنا نقسم الدول إلى نامية ومتقدمة فهذا التقسيم مرادف للذين سبقوا على طريق العلم والذين يحاولون اللحاق بهم :

. . والقضية فى أقطارنا النامية ليست مجرد استيراد أدوات الحضارة ، وإنما صناعة الحضارة نفسها . . حضارة الأفكار لا حضارة الأشياء فقط . . حضارة الابتكار لا حضارة التقليد . . حضارة الإضافات الإيجابية

لاحضارة الترف والتمتع لما يصنعه الغير ، والوقوف عند ذلك :

وهذا يفرض علينا جهداً مضاعفاً فى الجهاد العلمى ، ويفرض على إخواننا المتقدمين أن يتعاونوا معنا على هذا الطريق :

ونحن حين نقدم أيدينا للتعاون لا نقدمها خاوية أو يداً سفلى .. وإنما يد الأخ إلى أخيه فى الإنسانية . : يد طالما أعطت ، ولا تزال قادرة على العطاء ، وتعاونت ، ولا تزال قادرة على التعاون .

إن أرضنا أعطت الإنسانية رسالات السماء ، وسعدت بأن مشى عليها النبيون والمرسلون والحواريون والصحابة . . ورعت العلم وأهله وحملت مشاعله . . والعلم والإيمان جناحان تحلق بهما إنسانيتنا المعاصرة فى آفاق مستقبلها .

هذه صورة التنمية المتكاملة التى نريد بها أن نكون بحق خلفاء الله فى أرضه نعمرها بالإيمان والعلم ، والتعاون والحب ، والإنتاج وعدالة التوزيع ، فى تخطيط ينظر إلى الإنسانية فى شمولها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، مع مراعاة التباين الإقليمى ، محاولا إيجاد المعابر فوق أخاديد الحياة ، وفتح طرق الاتصال الأخوى عبر القارات ، ومقابلة المشكلات التى تهدد المصير الإنسانى فى محاولة دائبة ليكون المستقبل أكثر إشراقا من اليوم .

وما عندى من اقتراحات قدمته إلى حضراتكم عند دراسة كل نقطة من النقاط الست .

ومن مصر أكرر لكم التحية ، من أرض تعيش الإخاء والوحدة الوطنية ، حارب أبناؤها من مسلمين ومسيحيين معركة رمضان / أكتوبر المجيدة معا . تجاورت فى الحياة منازلهم ، وامتزجت فى المعارك دماؤهم ، وعلى المودة يرعون أبناءهم . إننا فى عالمنا الإسلامى نطلق على أبنائنا أسماء جميع الأنبياء . وعلى بناتنا أسماء كرمها الإنجيل والقرآن ، وفى سمائنا

ترتفع المآذن وأبراج الكنائس . وفى مجامعنا يلتقى الشيخ والقس ، وفى قدسنا الشريف رأت الدنيا كيف تتعايش الأديان وتسرى أنوار المحبة والإخاء .

وأختتم حديثى بما تعلمته من دعاء فى القرآن الكريم :

« ربنا آتنا من لدنك رحمة وَهيِّئ لنا من أمرنا رشدا » (الكهف : ١٠)

وأشكر لكم حسن استماعكم . .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المسجد والمجتمع : تجربة ميدانية *

* أساس هذه الدراسة بحث مفصل عنها مزود بملاحق توضيحية ألقى فى الدورة الخامسة لمؤتمر مجمع البحوث الإسلامية (٢٢ من ذى الحجة ١٣٨٩هـ) ٢٨ من فبراير ١٩٧٠م ونشره المجمع فى أعماله ص ٢٣٥ — ٣٣٥ . وقد روجعت هذه الدراسة على ضوء التطوير الذى مرت به التجربة فى وزارة الأوقاف (مصر) حتى نهاية عام ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) .

١ ـ هذه التجربة :

هذه تجربة علمية واسعة النطاق ، ساهم فيها عدد كبير من العلماء والوعاظ بدأت مع العام الهجرى ١٣٨٨ هـ (مارس ١٩٦٨م) فى جمهورية مصر العربية ، وأول خصائصها أنها قامت على تخطيط علمى وتعاون واسع :

والهدف الأول من عرض هذه التجربة : هو توثيقها وتشجيعها. والثانى: أن تكون بين أيدى الزملاء العاملين فى حقل الدعوة الإسلامية يلقون عليها من ضوء خبرتهم ما يعين على إثرائها ، وزيادة فاعليتها ، وليكون من وراء العرض حوار خصب يعين الدعاة فى كافة أرض الإسلام على الإفادة من تجارب إخوانهم .

فحتى الآن مازال كل قطر من أقطار الإسلام ، يقابل مشكلات نشر الدعوة الإسلامية على أساس إقليمى فى الغالب ، يرتبط أكثر ما يرتبط بالقضايا المحلية التى تقابل هذا القطر أو ذاك . والمشكلات من حيث طبيعتها يمكن أن نميز فيها بين قسمين واضحين :

الأول : المشكلات التى تقابل الإسلام ككل : من حيث الترابط بين أقطار العالم الإسلامى ، والمواقف المشتركة بإزاء القضايا المصيرية كالحفاظ على عروبة القدس واستعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى والأرض العربية السليبة .

الثانى : المشكلات المحلية التى يحاول بها كل قطر من الأقطار أن يتبين حكم الإسلام فى قضايا حياته اليومية . وجانب من هذه المشكلات إذا كان محلى الموضع ، فإنه شامل المدى . . فقضايا العناية بالشباب ــ على سبيل المثال ــ محلية الموضع فى كل قطر إسلامى ، وقد يكون لكل

قطر خصائصه فى هذه المشكلات ـ كأن تأخذ القضية مظهر الرفض أو العنف ـ إلا أن العناية بالأجيال الجديدة من أبناء الإسلام تحتاج منا جميعا إلى تعاون وتدارس وتبادل فى الخبرات ، وحوار بين أبناء الأجيال المتتابعة وتقويم لهذه التجارب ، فنى ذلك اختصار للجهود والزمن ، ودعم للتعاون بين العاملين فى مجال الدعوة الإسلامية .

٢ ـ تجارب سابقة :

وككل تجربة ، لا يمكن أن نفصل ما يبذل من جهد ، عما سبقنا إليه سلفنا بإحسان ـ جزاهم الله عنا وعن الإسلام خير ما يجزى به عباده الصالحين ـ فقد توفر نفر منهم على تغيير طرق الوعظ وربط الدين بالحياة. ولهم فى هذا مناهج متنوعة يمكن أن تكون وحدها موضوعاً لمؤتمر أو ندوات علمية :

فمنهم من حاول تحديد وظائف العام والعبادات التى تؤدى على مداره ابتداء من المحرم إلى ذى الحجة ; وما يرتبط بها من آيات وأحاديث وتراث كريم . ونموذج ذلك ما كتب ابن رجب الحنبلى فى « لطائف المعارف » . ومنهم من اختار « مجالس وعظ » وحشد فيها من الآيات والأحاديث وقصص الصالحين ما يرقق به القلوب . مثال ذلك ما قام به أبو الفرج بن الجوزى فى كتابه « بستان الواعظين » . فالوحدة عند ابن رجب زمنية ، وعند أبى الفرج بن الجوزى موضوعية ، وإن كان فيها جانب زمنى كما فى مجلسه عن الصوم .

وقد تيبست بعض هذه التجارب فى دواوين ظلت لاصقة بالفكر الإسلامى بعد أن أدت دورها فى مرحلة تاريخية معينة . ولا تزال بعض هذه الخطب التقليدية تردد منذ قرون فى المساجد النائية التى لايستطيع علماؤها ـ بحكم العزلة النسبية ـ أن يظلوا على اتصال منتظم بتفاعلات

الحياة الإسلامية فى تدفقها المستمر . وأعطت هذه الدواوين صورة تقليدية عن المسجد وألقت عليه – فى بعض المواقع – ظلاً من البعد عن واقع الحياة المتجددة ..

ولا شك فى أن هذه الدواوين – برغم طابعها – قد استطاعت أن تحفظ للإسلام صوتاً يتردد، وأن تؤكد فى الأذهان والقلوب حفظ مجموعة من الآيات والأحاديث وقصص من تراثنا الإسلامى ، يعتبرها كل مسلم جزءاً من زاده فى حياته . ولكنها إذا ما كانت مرحلة ، فقد بقيت بغير إتمام : وإذا كانت منطلقاً ، فقد ظل وراءها فراغ دينى تضل فيه خطوات الشباب . ولا يكفى الضوء الخافت المنبعث منها لكى يبدد ماحوله من ظلمة ، ويكشف له أبعاد الحياة .

وقد حاولت بعض دور النشر المعاصرة أن تقوم بطبع مجموعات من الأحاديث والخطب مرتبطة بالمناسبات ، يقوم بتأليفها كاتب واحد ، أو يشترك فيها عدد من الكتاب ، كما ساهمت المواسم الثقافية المرتبطة بالمناسبات الإسلامية، والتى تنظمها الدول واوزارات والهيئات المعنية بالشئون الإسلامية – ساهم هذا كله فى إحياء الصلة بين الدعوة الإسلامية والمجتمع . وهى جهود تحتاج منا إلى رصد مركزى ، وحبذا لو تواصينا بأن تقوم كل هذه الهيئات ، على الصعيد الإسلامى ، بتبادل مطبوعاتها وأن يصدر لها كتاب سنوى ، أو أن تقوم كل دولة بإحصاء ما يرتبط بالدعوة الإسلامية فى مناشطها كمرحلة أولى ، ثم ترسله إلى هيئة مركزية – كالمؤتمر الإسلامى – ليصدر كتاباً سنوياً شاملا عن هذا الأمر كمرحلة ثانية ، تتواكب – مع جهود مقابلة – فى المجالات الأكاديمية تقوم بها هيئات متخصصة عالمية .

الذى أستهدفه هنا ما يرتبط بالدعوة الإسلامية ، ووضع الخطوط التى تكفل توثيق تجاربها ونشر الاستفادة منها ، ربطاً بين الدين والمجتمع.

ولا شك فى أن هذه الجهود التى سبقت الإشارة إلى بعضها بينها ترابط

وتفاعل ، فالتجارب الإسلامية — عملياً — لا يمكن فصلها زمنياً ولامكانياً ولا موضوعياً :

زمنياً : كل تجربة تستفيد مما سبقها ، وتبنى عليها . وقد علمنا هذا ربنا فى كتابه فقال عن الرسل السابقين مخاطباً رسوله الأعظم صلوات الله وسلامه عليه: « وكُلاً نقصُ عليْكَ من أنباء الرسُلِ ما نُثَبِّتُ به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحقُّ وموعظةٌ وذكْرى للمؤمنين» (هود: ١٢٠) وخاطبنا جميعا فقال « لقدْ كانَ فى قَصَصِهِمْ عِبرَةٌ لأولى الألباب . ماكان حديثاً يُفتَرى . ولكن تَصْديقَ الذى بين يديه وتفصيلَ كُلَّ شىء وهُدًى ورحمةً لقوم يؤمنون » (يوسف : ١١١) .

ومكانياً : يأمرنا ربنا بالسير فى الأرض فيقول «قدْ خلَتْ من قبلكُمْ سُنَنٌ فَسيروا فى الأرض فانظُروا كيفَ كان عاقِبةُ المكذِّبين. هذا بيانٌ للناس وهُدى وموعظةٌ للمتَّقِينَ » . (آل عمران: ١٣٧ — ١٣٨) يضم فى هذه الآيات الزمان والمكان .

موضوعياً : يأمرنا ربنا بالتدبر فى الأنفس والآفاق « وفى الأرْض آياتٌ للموقنين، وفى أنفُسِكُمْ أفلا تُبصرون، وفى السَّماء رِزقُكُمْ وماتُوعَدون، فورب السماءِ والأرْضِ إنه لحقٌّ مثلَ ما أنكم تَنطِقُون» (الذاريات: ٢١ — ٢٣) ، وقوله تعالى: « سنُريهم آياتنا فى الآفاقِ وفى أنفُسِهِم حتى يتَبَينَ لهُم أنه الحق. أو لم يكفِ بربك أنه علَى كل شىء شهيد». (فصلت : ٥٣) .

كما أن جانباً كبيراً من قوة التجربة يرجع إلى مدى ارتباطها بالمجتمع

واستجابتها لحاجاته المتجددة . ومن هنا تبدو ضرورة الربط الوثيق بين الدين والحياة[1] .

٣ — زاد الخطيب :

وأود أن أقف قليلا عند أقرب التجارب السابقة التى قامت بها وزارة الأوقاف فى هذه السبيل فى ميدانى تدريب الأئمة وإمدادهم بالمادة العلمية التى تعينهم على عملهم . فقد أصدرت الوزارة سلسلة « زاد الخطيب » صدر الجزء الأول عام ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٤ م وأعيد طبعه عام ١٩٦٨ ، والجزء الثانى عام ١٣٨٧ هـ وذلك بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ م .

واستجابت الوزارة من فورها لواجبها المقدس دعماً لمعنويات أمتنا فى معركتها المصيرية ، وشمل الكتاب مواضيع عن : الشباب ودوره فى بناء المجتمع — دور التعاون فى دعم الكيان العربى — الإسلام والعلاقات الاجتماعية — واجبنا فى المعركة — العمل والإنتاج فى الإسلام — القوة فى الحق طريق النصر . . .

فمن حيث الموضوعات كان هناك ارتباط وثيق بين الدين والحياة . . وكان المنهج المتبع فى كل موضوع أن نذكر عناصره بعد عنوانه ، يلى هذا آيات مختارة وأحاديث . وهذه المادة العلمية تستغرق نحو صحيفة ، من

---

(١) عالج الكاتب هذا الموضوع بكثير من التفصيل فى بحثه (الدعوة إلى الإسلام) المقدم إلى المؤتمر الإسلامى العالمى فى كوالالمبور فى صفر ١٣٨٩ هـ (أبريل ١٩٦٩م) ونشره فى كتابه « مواقف إسلامية » سلسلة اقرأ رقم ٣٢٧ دار المعارف بالقاهرة . ويعتبر بحث ماليزيا أساساً نظرياً لهذا البحث الذى بين أيدينا .

بعدها الخطبتان ، ولم تكن الآيات المختارة هى كل ما يرد فى الخطبة ، وإنما هى دليل للعمل فيها ، على حين تحوى الخطبة قدراً أكبر من الآيات والأحاديث وقصصاً من تراثنا الإسلامى .

هذا إلى مراعاة الاحتفال بالمناسبات الإسلامية كرأس السنة الهجرية ، والمولد النبوى الشريف ، ورمضان ، والعيدين ، وكان أكبر تركيز الجزء الأول من الكتاب على المناسبات الإسلامية فى العام بدءاً من الهجرة النبوية إلى موسم الحج .

٤ ـ التدريب فى هذه المرحلة :

وكان تدريب الأئمة يتم مركزياً فى القاهرة ، فى قاعة المحاضرات بمسجد عمر مكرم . ويشمل التدريب أساساً قدراً من المحاضرات واللقاءات العلمية بين السادة الأئمة وأساتذة الجامعات وكبار رجال الدين . ولم يكن من اليسير أن تستمر المحاضرات فى اليوم الواحد أكثر من أربع ساعات لمدة أسبوعين ، تعقبها اختبارات تحريرية لتقويم مستوى التحصيل . ولم يكن من المستطاع عمليا أن يعود الأئمة لمتابعة المحاضرات بعد الظهر ، إلا على حساب صحتهم . وكان بعضهم ـ لظروف أو عوائق صحية ـ يفضل البقاء فى المسجد .

هذه كانت طبيعة العلاقة بين الإمام والوزارة فى مجالى التدريب والمعلومات فزاد الخطيب هنا إذا كان عنوانا للسلسلة التى اختارتها الوزارة وقتئذ ، فقد كان ـ عملياً ـ يحدد نقطة الانطلاق التى يمكن أن يبدأ من عندها العمل .

٥ – الإمام فى المسجد :

ولا شك فى أننا جميعاً نقدر الجهد الكبير الذى ينبغى على الإمام القيام به فى مسجده :

إنه أولا مطالب بأن يعرض على الناس عقله كل أسبوع مرة فى خطبة الجمعة أمام جمهور أغلبه ثابت يسمعه بانتظام ، ويعى ما يقول كل مرة وهو مطالب – باستمرار – بالتجديد .

وإذا ما كانت الأنهار بعد أن تلقى بمائها فى البحار يتحول الماء الملح الأجاج إلى سحب ، تعود فتسقط أمطاراً ، ماؤها عذب فرات . . فإن موقف الخطيب أعسر وأصعب . وهو مطالب بفيض جديد . ولا يستطيع تقطير خطبة قديمة لتصبح جديدة . . وإلا حكم على نفسه بالذبول والعقم .

وهو فى تجدده أحد رجلين :

(ا) إما أن يركز فى خطبته على سلبيات مجتمعه أو سلبيات الحياة فيقف على المنبر ناقداً ، لا ترى عينه إلا الخطأ ، ولا تقع إلا على نقط الضعف ، فيصبغ خطابته بصبغة قاتمة من اليأس ، ويلجأ إلى أسلوب من النقد العنيف ينعكس عليه عصبية وهديراً معادياً لما حوله . ويقوده هذا إلى نوع من الانعزال الفكرى غير المتوازن . وقد يستطيع الإمام بهذا الأسلوب أن يجتذب أنظار بعض الناس ، بعض الوقت ، ولكن هذا سيجعله أسير هذا الأسلوب .

(ب) وإما أن يهتم ببناء النفوس وتأكيد الإيجابيات فى تكوين الفرد والأسرة والمجتمع والكيان الإسلامى . . وحديث الإيجابيات بطبيعته يحتاج منه إلى عناء أكثر : دراسته للمجتمع الإسلامى الأول من عهد النبى عليه الصلاة والسلام والذين جاءوا من بعده ، وساروا على هديه بإحسان . .

ويحتاج منه إلى فتح آفاق العمل ، وتوجيه أذهان المسلمين إليها بحيث يحسون معه أنهم يسيرون على الطريق الصاعد إلى آمالهم . وهو فى تحذيره من الأخطار والانحرافات يمسها كما يمس الطبيب داء المريض : مع التشخيص علاج وأمل فى الشفاء ، وبين عينيه قول الله على لسان يعقوب « يا بنىّ اذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه ولاتيأسوا من رَوْح الله. إنه لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون » (يوسف : ٨٧) .

الإمام القادر على إيجاد هذه الصلة بينه وبين المصلين ، يجعل المسجد حبيبا إلى قلوبهم ، ويشجعهم على إحضار أبنائهم معهم ، وتصبح صلاة الجمعة لقاء علميا يتحقق به قول الله تعالى « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتُوا العلْم درجات ، والله بما تعْملون خبير » (المجادلة ١١) ويصبح أداء الصلاة والاستماع إلى الخطبة لقاء يذكّر المسلم — حيث يكون — بمسجد المدينة ومنبر الإسلام الأول ، وصفوة الصحابة من وراء رحمة الله المهداة — رسول الله عليه الصلاة والسلام — ويصبح اللقاء رحلة يختصر بها المسلم المكان والزمان ، ويعيش مع إخوانه العابدين والطائفين والركع السجود والمجاهدين . صفوفاً صفوفاً ، تتكامل دوائر حول المسجد الحرام ، وصفوفاً صفوفاً مدافعة عن الحق والإسلام .

ما ينطبق على خطبة الجمعة ينطبق على الدروس ، وإن أمسى زوادها محدودى العدد بحكم ضغط ظروف الحياة ، ووفرة وسائل الإعلام وما بها من مواد دينية . وأصبحت بذلك خطبة الجمعة أبرز معالم الحياة فى المسجد ، هذا إلى الاجتماعات الكبيرة فى الأعياد والمناسبات الإسلامية الكبرى .

فكيف نوفر للإمام أولا المادة العلمية التى تعينه على عمله بانتظام ؟

٦ — أركان ثلاثة :

هناك أولاً موضوع الخطبة . وثانياً المادة العلمية التى تقوم عليها الخطبة وثالثا صياغتها النهائية .

والتقى المسئولون عن الدعوة الإسلامية بالوزارة فى تدارس لهذه الجوانب وبين أيديهم التجارب السابقة للوزارة، وكان هذا فى أواخر العام الهجرى ١٣٨٧ هـ لنبدأ مع العام الهجرى ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م بخط فكرى جديد . .

وتم الاتفاق على خطوط رئيسية :

١ — أن يكون تعاون الوزارة مع الإمام بمده بموضوع الخطبة والمادة العلمية .

٢ — وأن تترك له مرونة واسعة فى الصياغة ، فلا تقدم إليه الوزارة خطبة كاملة .

وكان هذا تغييراً جذريًّا للخط الذى سارت عليه الوزارة فى العناية بالخطبة مع اختصار المادة العلمية المساعدة .

ولكن متى تصل هذه المادة إلى المسجد ؟ وبعبارة أخرى : هل نلجأ إلى أسلوب الكتاب الذى يصدر كل عام مرة أو مرتين ، أم إلى أسلوب النشرة الأسبوعية ؟ أم نصف الشهرية ؟

وحدث الاتفاق على أن ندع جانبا — وبصفة مؤقتة — أسلوب الكتب ونتبع أسلوب النشرات التى تحوى المادة العلمية اللازمة للموضوع .

وبدأنا بدءاً طموحا فى أول الأمر بإصدار النشرة الأسبوعية ، ولكن مشكلة المواصلات وقفت فى سبيلنا ، ولم نستطع عمليًّا أن نوصلها كل أسبوع فى وقت ملائم إلى المسجد : فأصدرناها نصف شهرية ابتداء من مطلع العام الهجرى ١٣٨٩هـ (مارس ١٩٦٨م) وعدلنا اسمها من « النشرة الأسبوعية » إلى « الدين والحياة » .

٧ — المكتب الفني :

ولكن : من الذى يقوم بإعداد النشرة ويحفظ الصلة بين المسجد والمجتمع؟ من أجل ذلك تكون مكتب فني ، منبثق من الإدارة العامة للدعوة بالوزارة روعى فى العاملين به عدة اعتبارات :

١ — أن يكونوا هم أنفسهم من أئمة المساجد الراغبين بصدق فى البحث العلمى .

٢ — أن يظلوا قائمين بعملهم كأئمة يجمعون بين الإعداد العلمى للمادة والتطبيق العملى لها ، والصلة الدائمة بجمهور المصلين ، مع إعفائهم من الدروس فى أثناء الأسبوع . وكونت الوزارة لهم مكتبة علمية واختارت لهم مكاناً هادئاً فى مسجد السيد ./ عمر مكرم ، يفرغون فيه إلى جهادهم العلمى طوال الأسبوع . ثم اتسع العمل فانتقل المكتب إلى مسجد صلاح الدين على ضفة النيل . . فى مكان يجمع بين الهدوء والاتساع ويستجيب لأعباء العمل المتزايدة .

ويقوم العمل فى المكتب على أساس من التقسيم والتعاون فى الوقت نفسه ، بحيث تتوفر للإمام فرصة واسعة لإعداد المادة العلمية اللازمة للنشرة ، ويوزع العمل بينهم على جدول مدته ثلاثة أشهر . . أى أن السنة أربع دورات ، تتحدد فيها المواضيع الرئيسية التى سيتناولها البرنامج بما فيها المناسبات الدينية الرئيسية ، ويعتمد الخط الفكرى الرئيسى لكل ثلاثة أشهر قبل البدء فيه بوقت كاف ، وتحدد الموضوعات الرئيسية فى كل دورة مع مرونة فى التطبيق إذا جد ما يستدعى التغيير العاجل .

والتخطيط موضوع على أساس من توسيع قاعدة العاملين فى المكتب الفنى ، والسير نحو مساهمة علماء المحافظات مع الديوان العام فى هذا العمل العلمى ، ويسبق هذا توفير المادة العلمية ، وتنظيم اللقاءات ،

والحوار العلمى بينهم وبين زملائهم العاملين فى المكتب بالقاهرة .

كما أن هناك لقاءات وتعاونا بين إدارتى الدعوة بالأوقاف والوعظ بالأزهر الشريف الذى اتخذ علماؤه الخط نفسه فبادروا إلى إصدار نشرات على هذا النسق لتكون بين أيدى السادة الوعاظ .

والذى نود الوصول إليه ، فى العمل على المستوى الإقليمى أن يكون هناك تعاون منتظم بين الهيئات الدينية ، الثلاث الكبرى فى المحافظة وهى إدارة الوعظ ، المعهد الدينى بعلمائه ، مديرية الأوقاف . . وبهذا يمكن تنسيق النشاط الدينى فى المسجد والجمعيات الدينية ، ومد المدارس والمؤسسات بحاجتها من المحاضرين فى المناسبات والقضايا الإسلامية . بعض هذا يحدث الآن ، على أساس تجريبى ، وبحكم الصلة الطبيعية الواجبة بين هؤلاء جميعاً ، وصولا إلى تخطيط شامل مرن لهذا العمل .

٨ — بناء النشرة :

ويمكن أن نأخذ النشرة الأولى كنموذج للعمل عندما بدأ فى صورته الجديدة : كان هذا فى احتفال العالم الإسلامى بالهجرة النبوية الشريفة فى مطلع عام ١٣٨٩ هـ . وكان عنوان النشرة «منهجان فى عرض التاريخ» فنحن نحتفل كل عام بالهجرة النبوية الشريفة . وقد يأخذ هذا العرض صورة مما يأتى :

١ — التركيز على الجانب المعجز فى القصة كما ورد فى بعض كتب السيرة : بيت العنكبوت . الحمامة . الأغصان المتدلية . وقد يمتد هذا العرض ليسجل قصصاً من الإعجاز وردت فى كتب المناقب ، ولا نستطيع أن نردها كلها إلى أصول صحيحة .

٢ — تأكيد الجهد المبذول فى الإعداد والتخطيط للهجرة من حيث تنظيم وصول الطعام والأخبار من مكة والتعفية على الآثار ، مع فتح الطريق

إلى المدينة عن طريق الرواحل المعدة .

ولا شك فى أن كل جانب من هذه الجوانب له أهميته ؛ ولكن لو تركنا السرد التاريخى المسطح جانبا ، لوجدنا أن معظم التركيز – على الصعيد العام – فى سرد قصة الهجرة ينصب على الجانب المعجز ، دون عناية كبيرة بتأكيد جوانب التنظيم والتخطيط والجهد المبذول فيه .

ونحن فى حياتنا المعاصرة ، وفى صراعنا المقدس ضد قوى الباطل : الصهيونية والاستعمار وربيبتهما إسرائيل . . محتاجون إلى تأكيد الإيمان العميق بالله تعالى . الإيمان الدافع إلى العمل العلمى المنظم ، والذى يعبر عن نفسه دائماً بالربط الوثيق بين القول والعمل . والعمل هنا معاناة مستمرة من أجل الوصول إلى الحق . هذه المعاناة هى الاختبار والابتلاء الذى بينه لنا ربنا فى كتابه فقال « أحَسِبَ الناسُ أن يتركوا أن يقولوا آمنّا وهُم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » (العنكبوت ٢ ، ٣) .

ومما يعين المؤمن على الصبر فى هذا الامتحان ، أن يرى – عند عرض تاريخه ودراسته – الجهد الكبير الذى يبذله المؤمنون من أجل دينهم والذى يستحقون به نصر الله تعالى . النصر بعد بذل الجهد لا قبله « أم حَسِبتم أن تدخلوا الجنَّة ولما يأتِكُم مَثَلُ الذين خلوا من قبلكم ؟مَسَّتهُم البأساءَ والضرّاء وزُلْزِلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه: متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » (البقرة : ٢١٤) .

من هذه الزاوية يمكن فى عرض الهجرة أن نؤكد جانب التنظيم العلمى الذى لم يترك أى شيء فيها دون أن يقابله :

١ – اختيار مكان الغار فى الجنوب الشرقى بينما طريق الهجرة إلى الشمال مباشرة وإلى الغرب عن طريق الساحل .

٢ – اختيار مكان وعر المرتقى حتى إن الرسول (ص) لم يصل إليه

إلا بعد أن دميت أقدامه وكان وقتئذ فى الثالثة والخمسين من عمره .

٣ — تنظيم أمر الطعام والشراب والأخبار .

٤ — تنظيم الاتصالات : فعامر بن فهيرة يتصل بعبد الله بن أريقط . وعبدالله بن أبي بكر على صلة ببقية أفراد بيت أبي بكر .

٥ — على بن أبي طالب هو الذى ينام فى فراشه وهو الذى يتولى عنه رد الودائع . وهو من أهله وأعلم الناس بهذه الدخائل .

مثل هذا العرض يدفع الإنسان إلى العمل ، ويفتح له الباب الذى يلجه إلى آفاق النصر المرتقبة ، وبه يتنزل عون الله على العاملين المخلصين من عباده .

أما إذا عرضنا الهجرة كأنها إعجاز فى إعجاز ،فقد يأتى من يقول : وماذا أستطع أنا فى أمرى ؟ إنها حياة الأنبياء ، وإن تاريخ صدر الإسلام تاريخ صحابة، وهو أمام هذا التاريخ يقف فى احترام وإعجاب . ولكن نود أن يتحول الإعجاب إلى التأسى الذى دعانا إليه ربنا فقال « لقدْ كان لكُم فى رسولِ الله أسْوَة حسنَة لمنْ كان يرجُو الله واليومُ الآخر وذكر الله كثيراً» . وما أعمق تعقيب الله على ذلك« ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدَنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادَهم إلا إيمانا وتسليما. منَ المؤمنين رجال صدَقوا ماعاهدوا الله عليه فمنْهم من قضَى نحْبَه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » (الأحزاب : ٢١ — ٢٣) هذا بعد أن عرض ربنا صورة من أروع صور الصراع بين الحق والباطل فى قاعدة الإسلام . وذورة من أخطر ما ارتفع إليه الموقف بين إيمان المؤمنين ومكر المنافقين ومن شايعهم من يهود بنى قريظة ..

وتتابعت بعد هذا موضوعات النشرة مرتبطة بواقع حياتنا المحلية والعربية والإسلامية .

وجاءت بعد هذا انتخابات فعرضت النشرة لمكانة الشورى فى الإسلام

وأمانة الاختيار مستشهدة بقول الله تعالى «فاجْتنبوا الرجْس من الأوثان واجْتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السَماء فتَخْطفهُ الطَّير أو تهوى به الرِّيح فى مكان سحيق » . (الحج : ٣٠ ، ٣١) فقرنت الآية بين النهى عن رجس الأوثان وقول الزور .. فكأن الزور هنا وثنية اللسان . . والأوثان زور العبادة .

وعرضت لتكامل العلاقة بين العقيدة والعمل ودرست قضية فلسطين من جوانبها المتعددة وربطتها بالتعاون العربى والإسلامى والمستوى العالمى .

وأخذت من السيرة دروساً تستفيد بها لمعركة المصير مع عدو الله وعدونا . ومن الممكن أن نجد نموذجا تفصيلياً لنشرة كاملة من الرباط والجهاد فى الإسلام .

وعندما اشتدت الحرب النفسية بين إسرائيل وأوطاننا العربية والإسلامية، عنيت النشرة بدراسة الصراع العنيف فى قاعدة الإسلام فى المدينة بين القوة المؤمنة من المهاجرين والأنصار من ناحية ، وقوى الشر فى داخل المدينة من قبائل اليهود والمنافقين الذين تواطأوا مع قريش ومن حالفها من قبائل الساحل ونجد ، والقوى المتربصة بالإسلام فى شمال الجزيرة العربية تمثلها تجمعات اليهود فى خيبر وفدك ووادى القرى وتيماء ، وما وراءها فى أرض فارس والروم .

هذا مع العناية — باستمرار — بتأصيل العقيدة وربط الأحداث بها . . استجابة من الدين لمطالب الحياة المتجددة فى صراعها المستمر مع قوى الشر والطغيان .

كما أضيف إلى النشرة بعد هذا باب بعنوان «خُذوا حِذْركم» يركز على أساليب العدو فى حربه السافرة والخفية عسكرياً ونفسياً .

وإذا كان الله تبارك وتعالى يعلمنا فى القرآن الكريم كيف نؤدى صلاتنا وسط المعركة والحرب دائرة ، فإننا من هذا المنطلق نستطيع أن نحدد دور

المسجد فى هذه الظروف . وما يستطيع الإمام أن يسهم به ، لا فى مجال الكلمة المنطوقة فقط ، وإنما فى العون الاجتماعى والإسعافات الأولية ، والخدمات المدنية ، ويمكن أن تعاونه النشرة على ذلك بالمعلومات والتوجيه إلى المراجع .

٩ ــ النشرة والمراجع :

ويمكن اعتبار النشرة مكتبة للخطبة والدرس لمدة أسبوعين فى المتوسط وقد تزيد المدة على ذلك فى بعض الظروف ، إذا ما خصصنا شهراً لموضوع رئيسى كالشباب مثلا .

وتقوم على حصر عناصر الموضوع ثم تتناول كل عنصر على أساس منهجى :

الآيات : بسورها وأرقامها . الأحاديث بتخريجها . المختار من تراثنا معزواً إلى مراجعه مع تحديد الأجزاء والصفحات .

ميزة هذه الطريقة أنها تزيد من صلة الإمام بالمراجع ، وتفتح له أبواب الاستزادة ، من أى موضوع إذا ما كان راغبا فيه ، وكان جمهوره مقبلا عليه ، وتعوده أن يربط بين ما يقول وبين مصادر الفكر الإسلامى . وهى أيضاً كبيرة الفائدة لجمهور المسجد إذا ما أراد الشباب ــ بخاصة ــ التوسع فى أى موضوع من الموضوعات ، مع القراءة والتوجيه إلى أفضل المراجع ، والتركيز الرئيسى على القرآن الكريم وتفسيره المأثور والسنة المطهرة.

وأمكن للنشرة بهذا أن تفتح للسادة الأئمة ــ عن طريق الحوار المستمر ــ أبوابا لم يكن الكثيرون يطرقونها فى خطب الجمعة والدروس الدينية لقلة ما بين أيديهم من مراجع عنها : كقضايا الشباب ، وتكوين الأسرة ، ورعاية الطفولة وتنشئتها على الإسلام ، ودور العامل والفلاح والمجاهد والتاجر والمثقف فى بناء المجتمع . وثواب كل منهم على ما يعمل ، والعلاقة بين

العلم والإسلام ، وحث الإسلام على الاستزادة من كافة العلوم : مع إعطاء النماذج على ذلك بتراجم وافية لعلمائنا فى كافة مجالات المعرفة الإنسانية .

١٠ — حجم النشرة وتوزيعها :

ولقد بدأنا أول الأمر بحجم صغير وتوزيع محدود ، وكنا نود أن نضبط التوزيع الأسبوعى .

ولعلكم تعرفون أن عدد المساجد فى جمهورية مصر العربية نحو ثلاثين ألفا (حتى نهاية عام ١٩٧٤) منها نحو خمسة آلاف تابعة مباشرة للوزارة (مساجد حكومية) والباقى مساجد أهلية تعينها الوزارة ماليا وعلميا ولكنها أساسا تقوم على الرغبة المؤمنة فى ضمير هذه الأمة . ووزارة الأوقاف نفسها ، ليست أكثر من حل ذاتى ، أرادت به القلوب المسلمة عبر التاريخ أن تعبر عن ذاتها فى كافة مجالات الحياة وخدماتها . . ولولا هذه الرغبات الصادقة فى أجيال المسلمين المتتابعة لما أوقفت الأموال ، ولا كانت وزارات الأوقاف والحبوس .

القضية إذن — والحمد لله — مبدؤها الإيمان وغايتها الإيمان ، من أجل ذلك لم يكن هناك مجال أو داع للتفرقة بين هذه الأنواع من المساجد ؛ فكلها بيوت الله .

ولكن أردنا أن تقوم النشرة على أساس من الحب والاستفادة ، لا على أساس من الإلزام .

بدأنا نطبع نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة وكتبنا إلى المحافظات والهيئات الإسلامية باستعدادنا لمدها بالنشرة إذا رغبت فى ذلك . .

وكان عدد صفحاتها أول الأمر لا يزيد عن اثنتين .

وأخذت النشرة تنمو عدداً فارتفع المطبوع منها إلى خمس عشرة ألف

نسخة توزع ما بين مساجد الجبهة المحاربة فى أقصى الشمال إلى الواحات فى الصحراء الغربية .

وحجماً بدأت تنمو مع زيادة فاعلية المكتب الفنى ، فأصبحت تتراوح ما بين ٢٤ ، ٣٢ صحيفة ، ثم تراجعت بعد ذلك قليلا تحت ضغط ظروف الورق . وتقتضى المصلحة زيادتها — والوزارة بسبيل ذلك — حتى تشمل المساجد جميعا والجمعيات الدينية وملتقيات الشباب .

ومع تطورات العمل أدخلنا مع النشرة مشروعا تكميلياً أطلقنا عليه اسم :

١١ — مكتبة الإمام :

ويمكن تلخيص فكرتها الأساسية فيما يأتى :

على أساس من المعلومات الواردة فى النشرة أو عناصر الموضوع الملائمة للمناسبة هجرة أو احتفالا بذكرى غزوة ، يقوم الإمام بإعداد خطبته . وخطبة الجمعة تذاع من الراديو . كما أن صلاة الجمعة تؤدى فى مسجد التليفزيون وتذاع منه على الهواء أيضا .

ويختار لهذا العمل الأئمة المشهود لهم بالقدرة . وقد كان هناك تركيز على عدد محدود من الأئمة لهذا العمل . واتجهت الوزارة إلى توسيع هذه القاعدة وإعطاء فرص واسعة للأجيال الجديدة من شباب الأئمة فى هذا المجال ، وفى افتتاح المساجد الجديدة فى المحافظات وحفل الافتتاح عادة — صلاة جمعة — روعى أن يخطبها إمام المسجد إذا كان المسجد مجدداً ، أو الإمام المعين فيه ، أو إمام من ذات المنطقة .

وتجمع هذه الخطب وتلحق بالنشرة التى سبق توزيع عناصرها ، وتنشر كل مجموعة منها مع نسبة الخطبة إلى الإمام الذى أعدها وألقاها ، وتحديد تاريخ الخطبة ومكان إلقائها : هذه هى نواة مكتبة الإمام التى

أصبحت « ديوانًا مشتركًا » بين الأئمة ، ومجالا يتعرف فيه بعضهم إلى بعض وميدانًا تتفتح فيه مواهبهم ويسجل فيه إنتاجهم .

ثم رؤى توسيع الاستفادة من مكتبة الإمام بإصدار أعداد ممتازة : صدر منها عدد خاص بالسيرة النبوية الشريفة ، وأعداد من قضية فلسطين وعن حريق المسجد الأقصى ساهم فى تحريره نخبة من الأئمة العاملين بالمكتب الفنى ، كما تضم نصوصًا إسلامية قديمة ومعاصرة عن قادة الفكر الإسلامى :

١٢ – جهود الوعظ :

وإذا كان من طبيعة عمل الإمام أن يكون مرتبطًا بالمسجد خطابة وتدريسًا ، فإن جهود السادة الوعاظ من طبيعتها أن تغطى أساسًا النشاط الإسلامى خارج المسجد فى الجمعيات والمؤسسات الإسلامية ، وتتعاون مع الأوقاف فى المناسبات الإسلامية الكثيرة وفى المساجد التى تحتاج إلى جهودهم المشكورة :

ولقد سبقت الإشارة إلى الخط المتوازى الذى اتخذته الإدارة العامة للوعظ فى نشراتها ، والتعاون المشترك بينها وبين الأوقاف فى هذه السبيل ، ولكنى هنا أود أن أضيف خطًا جديداً من خطوط العمل وهو « قوافل التوعية » .

فقد نظمت الإدارة قوافل تغطى المحافظات بالجمهورية ، وتتكون كل قافلة من عدد يتراوح بين الثلاثة والخمسة تقضى فى كل محافظة أيامًا ، بحيث تستطيع أن تقدم زاداً دينيًا فى قضية رئيسية فى توقيت منتظم .

على سبيل المثال : بعد تصاعد المعركة مع عدونا ، وهجومه على المصانع والمدنيين كان لابد من جهد يقوم به السادة الوعاظ : ليزداد المؤمنون إيمانًا بنصر الله ، وصبراً على الفتنة . فكانت هذه المبادرة التى

تتواكب مع جهود يبذلها الجنود على خط المواجهة والعاملون فى كل موقع من مواقع الإنتاج والخدمات .

ومن هنا يبدو التكامل والتعاون بين عمل الأئمة والوعاظ فى المساجد وخارجها . وسنعود إلى صورة أخرى من صور التعاون بعد قليل .

١٣ ــ تدريب الأئمة :

ومع التوسع الكبير فى إنشاء المساجد لم تستطع كلية أصول الدين بالقاهرة أن تفى بحاجتها إلى الأئمة مما دعا إلى إنشاء كلية جديدة فى أسيوط ، حتى تستطيع أن تسهم فى مد الصعيد بجيل جديد من العلماء يستطيعون القيام بدورهم الدينى فى بيوت الله والمؤسسات الإسلامية ، وقد تم افتتاح هذه الكلية فى العام الدراسى ٦٩/ ١٩٧٠ .

هذا إلى اشتداد الضغط على جامعة الأزهر من الدول والجامعات الإسلامية وبخاصة فى كليات أصول الدين والشريعة واللغة العربية .

ولابد للأزهر أن يستجيب لحاجة أرض الإسلام وأبنائه . فهو منهم ولهم . وإذا كان الأزهر مصرى الموقع ، فهو عربى اللسان ، إسلامى الأهداف ، عالمى الخدمات .

وما نعانيه من نقص فى عدد الأئمة تعانيه معنا أقطار إسلامية كثيرة . هذه ناحية كمية ، ترتبط بها أيضاً ناحية نوعية تستهدف الربط المستمر بين الإمام والحياة فى تطورها وتدفقها المستمر .

فلابد من الاحتفاظ بنوع من الصلة العلمية بين الإمام والأجهزة العلمية المرتبطة بالمسجد فى الأوقاف والأزهر : ومن هنا تبدو ضرورة التدريب وفتح المجال أمام الأئمة للقاءات علمية ، على فترات يجددون فيها معلوماتهم ويتدارسون قضاياهم ، ويعرضون مشكلاتهم ويعودون إلى عملهم

إد جديد يضاف إلى ما عندهم من علم ورغبة فى خدمة الإسلام والمسلمين .

يستهدف التدريب – بهذا – دعم الصلة بين الإمام وجمهوره : بين المسجد والمجتمع . وإذا ما أحس المصلى بالانقطاع الفكرى بينه وبين المسجد تراخت صلته به ، أقول الانقطاع الفكرى لأن الاعتماد المطلق أو الأساسى على الصلة القلبية والعاطفية ، لا يمكن على المدى الطويل أن يصون هذا الرباط بين المسجد والمجتمع . فلا بد من صلات روحية وفكرية وترابط عضوى يضع المسجد فى مكانه الطبيعى فى الحياة الإسلامية . والإمام – عملياً – هو المسئول الأول عن هذا كله . هو حلقة الاتصال بين الدين والحياة . بين ماضى المسلمين وحاضرهم . بين واقعهم وآمالهم : قولا وسلوكاً . وإذا كان الناس يقرأون الدين مسطوراً فيا بين أيديهم من كتب ، فإنهم يحبون أن يقرءوه حياً فيما يشاهدون من نماذج بشرية .

هذا إلى أن مناهج التدريس الجامعى – بصورتها الأكاديمية – لا تستطيع الوفاء بالخبرات الإدارية والمالية التى يتطلبها العمل فى الإمامة والتوجيه ، فالمسجد ليس مجرد خطبة ومنبر .

وتحقيقاً لهذه الأهداف قامت الوزارة منذ جمادى الأولى سنة١٣٨٦هـ (يوليو ١٩٦٦م) بإعداد وتنفيذ برنامج عام لتدريب الأئمة وموجهى (مفتشى) المساجد ، ليشمل الدراسات والخبرات التى تدعو إليها طبيعة العمل فى المسجد مع مرونة فى التطبيق ، يستطيع بها أن يقابل حاجات المسجد المتطورة وتفاعلاته المستمرة مع الحياة .

واختير لإلقاء محاضراته وإدارة ندواته نخبة ممتازة من أساتذة الجامعات وكبار رجال الدين والفكر الإسلامى . وبدأ تنفيذ البرنامج على دورات

تستمر كل منها – أول الأمر – سبعة عشر يومًا (أسبوعان ثم يومان للاختبار) : وينتظم بكل دورة عدد من الدارسين يتناسب مع الإمكانيات المادية المتاحة للوزارة .

وبعد تقويم الدورات التدريبية التى تم تنفيذها من هذا البرنامج رأت الوزارة فى مطلع العام الهجرى ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م) أنه أصبح فى حاجة إلى تطوير مواده وطريقة تنفيذه ليتناسب مع ظروفنا الحالية وما توجبه متطلبات المعركة ضد العدو الصهيونى ومن ورائه الاستعمار العالمى من حشد لكافة الطاقات المادية والمعنوية لقوى الشعب العاملة ومضاعفة الإنتاج لإزالة آثار العدوان .

وقد ترتب على ذلك إضافة بعض المواد الجديدة والتركيز على بعضها الآخر وتوسيع قاعدة اختيار السادة المحاضرين بحيث أصبح يشترك أكثر من محاضر فى تدريس المادة الواحدة لإتاحة المجال أمام الدارسين لمناقشة كافة الآراء والاستفادة منها .

وكذلك تم إعداد وتنفيذ برنامج تدريبى نوعى للسادة الأئمة ومفتشى المساجد الذين اجتازوا البرنامج العام وحصلوا فيه على تقدير بدرجة ممتاز وجيد جدًا وجيد ، يستهدف إمدادهم بالمزيد من الدراسات العلمية التى تمكنهم من أداء رسالة الدعوة الإسلامية ، وتعينهم على شرح الإسلام شرحًا يتفق مع اختلاف الثقافات والمهن وتفاوت الأفكار والمطالب والقضايا ، حتى يمكن تخريج أفواج قادرة على توجيه الجماهير فى كافة المناسبات وعلى مستوى جميع القوى العاملة ، دعمًا للعلاقة بين المنبر والمجتمع ، وليكون المسجد أكثر قدرة على أداء رسالته فى شتى البيئات التى يقع فيها ، وبين جماهير المسلمين الذين يترددون عليه فالمفهوم التقليدى لوظيفة الإمام قد تغير ، فأصبح الإمام داعيًا دينيًا ومصلحًا اجتماعيًا للحى الذى يعيش فيه – وقد أطلق على هذين

البرنامجين : « معهد الإمامة » .

وروعى أن يخصص يومان على الأقل بكل دورة تدريبية — كلما أمكن ذلك — من دوراتهما للدراسة الميدانية — يزور خلالها الدارسون بعض المصانع الإنتاجية المختلفة والمنتشرة فى أنحاء جمهورية مصر العربية وكذلك جبهة القتال ومناطق التعمير ، فضلا عن إعداد بعض اللقاءات فى كل دورة مع السادة أعضاء التوجيه المعنوى بالقوات المسلحة يلقون خلالها على السادة الدارسين محاضرات عن المعارك التى قامت بها قواتنا المسلحة ببسالة لإزالة آثار العدوان وعن الحرب النفسية التى يبث سمومها العدو بغية النيل من معنويات الشعب وصموده فى المعركة .

ورغبة فى الاستفادة من خبرات المعاهد التدريبية المختلفة فقد تم تبادل الزيارات بين المسئولين عن معهد الإمامة والمسئولين عن المعاهد المذكورة للاطلاع على نظام الدراسة بها وقد أدى ذلك إلى إيجاد تعاون وثيق فيما بينهما . ونذكر على سبيل المثال التعاون القائم بين معهدى الدراسات العليا لضباط الشرطة ومعهد الإمامة . وقد أدى ذلك إلى تبادل خبرات السادة المحاضرين فى هذه المعاهد .

كما أن الوزارة تقوم بتنظيم بعض اللقاءات يجتمع فيها بعض السادة الوزراء وكبار المسئولين بالدولة ، مع الدارسين بالمعهد المذكور ، وتجرى خلالها مناقشات فى الموضوعات المتعلقة بأعمال وزاراتهم والتى تفيد الأئمة فى حياتهم العملية .

وحتى يفرغ الدارسون لتلقى وتحصيل العلم فقد قامت الوزارة بتنفيذ هذين البرنامجين داخلياً فى مدينة ناصر للبعوث الإسلامية مع الإعاشة الكاملة والمبيت ، على أن تتحمل كافة تكاليف هذا النظام ، وخصصت قاعتين للدراسة ، وأخرى لتناول الطعام — وأعدت حجرة نوم مستقلة لكل دارس .

وينتظم فى كل دورة عدد مناسب من الدارسين يتراوح بين خمسين أو ستين دارساً حسب الإمكانيات المادية لاستيعاب هذا العدد لمدة شهر .

والوزارة بسبيل إنشاء معهد مستقل ومتكامل للتدريب يوفر الوسائل الحديثة والجو الإسلامى وإمكانية تطبيق ومتابعة التجارب الجديدة فى دعم الصلة بين المسجد والمجتمع .

١٤ ــ عرض وتحليل برامج التدريب ونظامه :

وأود بعد هذه الرحلة أن نعرض أهم ملامح نظام التدريب بصورته الحالية :

أولاً : المدة والإقامة : لم تكن المدة الأولى كافية فزيدت إلى أربعة أسابيع مع مضاعفة الاستفادة من « اليوم » على أساس من الإقامة الكاملة فى نظام داخلى ، حتى يستطيع الإمام أن يفرغ تماماً لعمله فضلاً عما فى الإقامة من معانى المعايشة الإسلامية وأداء الصلوات فى جماعة والتفرغ للعبادة . وأصبح من اليسير تنظيم الليل والنهار ، والاستفادة من أى وقت أو جهود ، كانت تستنفدها وسائل المواصلات ، والتفكير فى نظام المعيشة . والوزارة كما سبق القول تتحمل نفقات هذا كله .

ثانياً : التفاعل مع المجتمع : وكانت « الكلمة » أبرز ملامح حياة الإمام خطابة وتدريساً . فحاول نظام التدريب أن يدعم الصلة بين الإمام والمجتمع مع الجبهة والمصنع بزيارات ميدانية لمجالات التقدم الجديدة . فهناك يشاهد الإمام إخوانه العاملين أمام أفران الصهر يساهمون صامتين فى حياة أمته . لو غفلت عين أحدهم عن آلة أو مؤشر ساعة ،

لأدى هذا إلى إصابة أو كارثة. ويدرك أنه وهؤلاء جميعاً فى كافة مجالات الصناعة يعملون من أجل هدف كبير دعماً لمعركة مصيرية طويلة على طريق التحرير والتعمير .

وهو يزور الجبهة ويلتقى هناك بإخوانه الضباط والجنود يعايشهم ، ويرى كيف يحافظون على سلاحهم ودينهم ، صابرين مرابطين فى سبيل الله ، ويرى النماذج المؤمنة التى استطاعت فى حرب رمضان المجيدة أن تحقق بالعلم والإيمان والنظام والتضحية صفحة من أروع صفحات تاريخنا. وهو يشاهد مجالات التعمير الجديدة والجهود الدائبة للعمل فيها .

ثالثاً : الحوار المفتوح : وهو يشترك فى حوار مفتوح مع صفوة من كبار المسئولين يوضحون له جوانب قد تكون خافية عليه فى تفسير الأحداث وتبسيطها أمام القواعد الشعبية . أذكر على سبيل المثال — ندوة اشترك فيها السيد / وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية تحدث فيها عن أهم معالم تطورنا الاقتصادى ، وواجبنا فى هذه المرحلة . . وتدارس مع الأئمة مضار الإسراف ، مستنداً إلى قوله تبارك وتعالى فى سورة الإسراء : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفوراً » . (الإسراء : ٢٦ و٢٧) . فسأله أحد الأئمة : كيف يكون الفلاح مسرفاً ؟ والعامل مسرفاً ؟ وإذا كنت أعمل فى الريف ، والمصلون فى المسجد أرزاقهم محدودة . . . فكيف أحدثهم عن الإسراف ؟

وتحدث الوزير قائلا : إنى لا أنظر إلى العامل أو الفلاح كإنسان كل صلته بالمجتمع أن ينال أجراً على عمله ، وأن يكون مسئولا فقط عن إنفاق هذا الأجر على زوجه وأولاده . ولكنى أنظر إليه كفرد من أسرة كبيرة هى هذا المجتمع . ومسئوليته ليست أمام أهله فقط ولكنه مسئول أولا أمام الله تعالى ، وهو مسئول مسئولية مشتركة عن المجتمع كله

ويمكن أن توضح الأمثلة ما أعنيه بالإسراف : إن العامل مسئول فى المصنع عن آلة كبيرة غالية الثمن : وهذه الآلة اشتريناها بالعملة الصعبة . ويستفيد منها عدد كبير من الناس . فإذا ما انتبه العامل إلى هذه الآلة، واتقى الله فيها ، استطاعت أن تؤدى عملها فى دقة وكفاءة : وإذا ما قصر فى إدارتها وصيانتها أدى هذا إلى تلف بعض أجزائها أو توقفها ونحتاج بعد هذا إلى « قطع غيار » لتركيبها ، وهذه ندفع فيها عملة صعبة ، فضلا عن الوقت الضائع وتعطل الإنتاج . وهذه صورة من صور الإسراف :

وإذا ما نظرنا إلى مصانع النسيج ، وجدنا على العامل مسئوليات كبيرة فى الاحتفاظ بنظافة الأقمشة وعدم وجود أخطاء فيها وتقليل « العوادم » وهى نسبة التالف إلى الناتج . هذه صورة أخرى من صور الصيانة المطلوبة ومحاربة الإسراف .

والزارع أيضًا ، إذا أخذ من ماء الرى أكثر من حقه ، أدى هذا إلى إضرار بزرعه من حيث لا يدرى ، وحرم أخاه من الماء الضرورى . فالضرر مزدوج ، وهذه صورة أخرى من الإسراف . إن الفلاح هنا جعل يده مغلولة إلى عنقه : بحرمان جاره من الماء ، وجعل يده مبسوطة كل البسط : فى إعطاء أرضه أكثر مما تحتاج إليه من الماء . ولابد بعد هذا من أن يقعد ملومًا على تفريطه فى حق أخيه ، محسوراً على إفراطه فيما ظنه فائدة ، وهو فى حقيقته إضرار بأرضه وثمره .

كان هذا هو الخط الفكرى الذى عرض به الوزير للإسراف فى مجالات الصناعة والزراعة ، وكيف أنه قد يؤدى إلى إضاعة آلاف الجنيهات على الثروة القومية .

بل إن الأمر ليصل إلى أكثر من ذلك : إذا ما أهمل العامل فى صناعة مهمات ، من طعام أو ذخائر للأسلحة ذاهبة إلى الجبهة ، إن

الأثر هنا يتعدى المال إلى النفس ، والإسراف يمتد إلى مجال البشر والأرواح وإزهاقها نتيجة إهمال فى صناعة من الصناعات .

وشملت اللقاءات أيضا كبار المسئولين فى القوات المسلحة والشرطة : ورأى الأئمة بأنفسهم الدور الرائد الذى يقوم به إخوانهم فى الجبهة — ما حققوه من نصر وما عليهم من مسئوليات الحفاظ عليه والسير به نحو استرداد بقية الأرض السليبة كما زادت مجالات التعاون بينهم وبين رجال الشرطة فى الحيلولة دون وقوع الجرائم كالثأر وإحراق المزروعات . . إلخ عن طريق اللقاءات الدينية التى يطبقون بها حديث الرسول عليه الصلاة والسلام :

« ألا أدلكم على ما هو خير من الصلاة والصوم والصدقة » ؟

قالوا : بلى يا رسول الله قال : « إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هو الحالقة . لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين » .

١٥ — المرحلة العامة :

فى الوقت الحاضر تأخذ الوزارة بنظام المرحلتين فى البرنامج . الأولى عامة ، والثانية تخصصية . ومدة كل مرحلة نحو شهر كما سبق القول . والإطار العام متشابه بين المرحلتين كما هو موضح فى الفقرة السابقة .

وتعنى المرحلة الأولى بدراسة علوم القرآن والعقيدة والفلسفة ، وعلوم السنة ، وفقه المذاهب والفقه المقارن ، والدعوة إلى الله علمياً وعملياً ، ثم دراسات فى علم الاجتماع وعلم النفس ، وبعض المشكلات الاجتماعية والاقتصاد السياسى .

هذه هى مجموعة المواد التخصصية الفنية . ويضاف إليها مجموعتان: إحداهما عن الفكر السياسى فى المجتمع العربى : والاشتراكية والاستعمار والصهيونية والجهاد والتعاون . .

والثانية : مجموعة المعلومات الإدارية، وتعنى برسالة الوزارة وأهدافها وأعمال التفتيش والقوانين والحسابات إلخ . .

والملاحظ فى هذه المرحلة أن فيها جانبين : أولهما عام أو أصولى يتعلق بمصادر الفكر الإسلامى نظرياً وتطبيقياً . والثانى إقليمى يتعلق بحاضر مصر والعالم العربى ويزداد التخصص فى الدراسات الإدارية .

ومن الطبيعى أن المجموعة الثانية وبخاصة جانبها الثانى ، تتغير من قطر إلى قطر . فهذه تطبيقات تخضع للتطور . وإن كان بها جانب من القضايا ذات الوزن الإسلامى الشامل كالاستعمار والصهيونية والعلم والحضارة ثم فريضة الجهاد . .

والذى يحرص عليه المحاضرون هو الشرح والحوار الموضوعى الذى يؤدى إلى تجميع القلوب من أجل خير الإسلام والمسلمين ، مع احترام الأنظمة الداخلية لكل قطر من أقطار الإسلام ، والذى يعنينا أساساً أن تكون الجهود موجهة إلى المعركة المصيرية استنقاذاً لأرضنا ومقدساتنا فى أى حوار جانبى يقودنا بعيداً عن هذا الهدف الكبير .

١٦ ــ المرحلة التخصصية :

تأتى بعد هذا مرحلة تخصصية تقوم أساساً على توثيق الصلة بين الإمام وأمهات المراجع الإسلامية ، مع دراسة وتقييم لهذه المراجع . والمواد التى تدرس فيها لا تخرج فى إطارها العام عن مواد المرحلة العامة :

هناك أولا دراسات القرآن الكريم : وفيه يعنى المحاضر بتفسير المنار باعتباره من أوفى التفاسير التى تربط بين الدين والحياة المعاصرة ، مع العناية بمناهج المفسرين واتجاهاتها وارتباطها بالتيارات الفكرية للعصور التى ظهرت فيها . وفى دراسات السنة تتجه العناية إلى كتاب فتح البارى

شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر العسقلانى مع العناية بعلوم الحديث ومصادرها . وفى التصوف والأخلاق يدرس الإمام أحد كتابين : مدارج السالكين للإمام ابن القيم أو إحياء علوم الدين للإمام الغزالى مع العناية بتخريج أحاديثه وهو ما قام به الحافظ العراقى .

ولكن هذه المرحلة تمتاز بميزة أساسية هى عنايتها بقضايا نشر الدعوة الإسلامية بين قوى المجتمع : العمال والفلاحين ، المثقفين ، الجنود ، الرأسمالية الوطنية . فمع وجود قضايا مشتركة فى الفكر الإسلامى ينبغى أن يكون هؤلاء جميعا على علم بها ، إلا أن لكل قوة من هذه القوى قضاياها التخصصية التى ينبغى أن يقابلها الإسلام ، من أجل ذلك يتلقى الإمام دراسات فى علاقة الدعوة الإسلامية بكل قطاع من قطاعات المجتمع الرئيسية .

ولنأخذ موضوع الشباب على سبيل المثال :

فى الشباب إقبال كبير على الدين — وذلك من فضل الله — حتى إن المساجد أصبحت الآن — عمليًا — لا تفى بالمترددين عليها . واسترعت هذه الظاهرة انتباه عدد غير قليل من الباحثين فى العالم الخارجى . وبينت الدراسات الإحصائية أن نسبة مرتفعة من المترددين على المساجد من الشباب .

وإذا كان الإيمان الدينى الأصيل فى شبابنا ، يجذب الأجيال المتتابعة إلى العبادة ، فإن قضايا العصر ومشكلاته تفرض نفسها على الموضوعات التى ينبغى أن يتناولها الإمام فى خطبته ودروسه : العلاقة بين الدين والعلم ، بين الدين والتطور ، بين الدين والتخطيط ، بين الدين والتنمية . . .

١٧ ــ المسجد والمعركة :

وتعنى المرحلة الثانية أيضًا بإعداد نفر من السادة الأئمة بالدراسات الخاصة بالقوات المسلحة ويلتقى الأئمة بكبار المسئولين عن التوجيه المعنوى بالقوات المسلحة يتعرفون إليهم ويدرسون جانبًا من القضايا التى سيتناولها عملهم بالقوات المسلحة . . هذا العمل يأتى بعد إتمام الدورة والنجاح فى اختبارات اللياقة البدنية ، ثم يمرون فى مرحلة ثالثة أكثر تخصصًا يلحقون بها بوحداتهم . والتعاون فى هذا مستمر بين إدارة التوجيه المعنوى بالقوات المسلحة والأوقاف والأزهر عن طريق تبادل المطبوعات والخبرات والزيارات واللقاءات المشتركة ، ودعم قوة العاملين من رجال الدين بالقوات المسلحة ، كما يعملون فى مناطق التعمير الجديدة ، يدفعون إلى العمل ويساهمون بالقلب واللسان واليد فى أداء ما عليهم من واجب .

١٨ ــ خطوط المستقبل :

وهناك أكثر من مشروع فى هذا المجال نود القيام به عونًا للعاملين فى الحقل الدينى :

١ ــ من أهمها : « قاموس القرآن الكريم » أو « موسوعة القرآن »، والذى أقصده موسوعة شاملة موجزة تشمل جوانب الجغرافية والتاريخ وشرح المفردات ــ فى أى علم كانت ــ والمواقع الجغرافية وحبذا لو كانت فى مجلد واحد ليسهل تداولها وتناولها وبخاصة بين أيدى الشباب .

٢ ــ ولو استطعنا إخراج سلسلة للمعارف العامة الإسلامية فى حجوم مناسبة للشباب تريه تاريخ القرآن والسنة والأبعاد الرئيسية لعلوم الإسلام الرئيسية بحيث تكون مرحلة تالية لقاموس القرآن الكريم من ناحية الحجم واتساع

المجال ، مع بساطة فى الأسلوب وحسن إخراج ودقة فى المعلومات . تجعلها صديقاً للشباب ومعبراً إلى آفاق الإسلام الأوسع . : لو قمنا بهذا ترجمنا واجبنا نحو الشباب إلى خطوط عملية نافعة .

٣ — ويمكن أن تمتد الدراسة إلى مشكلات الشباب الإسلامى المعاصر من حيث علاقته بالدين إيمانًا به وانصرافًا عنه أو انحرافًا بأساليبه وأهدافه وملاءمة بينه وبين المجتمع .

٤ — ويمكن أن تخصص سلسلة من الدراسات عن الشباب والحياه المعاصرة ، نضع فيها المعلومات والاتجاهات التى نود تأكيدها فى نفوس شبابنا : دعمًا للعقيدة ونماذج من الشباب فى تاريخ الإسلام ، ونماذج من الشباب المعاصر فى المعارك ، وتبصرة لما تقوم به الصهيونية إعداداً لشبابها وتحديداً لخطوط العمل ، وخدمة القضية المصيرية وفتحًا متوازنًا لآفاق الحياة أمامه .

٥ — من هذه الجوانب ستحدد عندنا الخطوط الرئيسية لبرامج الدراسة الدينية فى مرحلتنا المعاصرة فى مراحل التعليم العام وفى الجامعة وبخاصة فى الكليات العملية فى الأزهر الشريف ، وكليات إعداد الأئمة والوعاظ — كما ستزداد خطوط العمل فى المسجد وضوحاً مما يساعد على دعم الصلة بين الدعوة والمجتمع . وسيفتح هذا مجالا رحباً لتطوير برامج التعليم الدينى فى مدارسنا .

٦ — تعريف موضوعى مقارن للأديان المعاصره فى وقت أصبح الحوار الدينى فيه قضية مطروحة على الصعيد العالمى ، بحيث يتعرف صاحب كل دين على ما عنده وعند غيره ، مع دعم التعاون القائم على الإيمان والفهم الموضوعى لكل من التشابه والتباين .

هذا الحوار لا يستهدف تفريطاً فى إيمان ، وإنما يستهدف الفهم الواعى لتيارات الفكر الدينى ، والمعابر القائمة والممكنة بين أهل الأديان .

خاتمة

وبعد : فقد بدأ هذا المشروع دعماً للصلة بين الإسلام والمجتمع بعد هزيمة يونيو ، وأكتب هذه الكلمة بعد نصر رمضان .. لقد عاشت هذه النشرة — وعشت معها — سنوات الهزيمة — بكل مرارتها ، وبكل تصميمها على جمع الصف ودعم العقيدة والوحدة الوطنية ، وزيادة الإنتاج ورفع كفاءة أمتنا عسكرياً ومدنياً حتى تحقق النصر الكبير .

وإننا ندعو الله أن يتابع علينا التوفيق فى التحرير والتعمير ، وأن يثبت على الطريق خطى قائد مسيرتنا الرئيس المؤمن محمد أنور السادات ، وأن يجمع عليه وبه ومعه كلمة العرب والمسلمين وكل محب للسلام عامل له مؤمن به ، حتى نسترد أرضنا المغتصبة ، ومقدساتنا السليبة ، ونستعيد حقوق شعب فلسطين وقدسنا الحبيب ونعيد السلام إلى أرض السلام وتجمعنا صلاة فى المسجد الأقصى . . . آمين .

وتحية إلى كل الإخوة الذين عاونوا على وضع قواعد هذا العمل الكبير ورعوه وهو ينمو ويستوى على سوقه ، وشاركوا فى توثيق الصلة بين الدين والحياة وفى دعم الإيمان ، وفى بناء مجتمع العلم والإيمان والدعوة إلى الله ، هنا فى مصر وفى أقطار العروبة والإسلام ، وحيث يرتفع صوت بالقرآن والأذان داعياً إلى الصلاة والفلاح ، مبلغاً رسالة الله فى مشارق الأرض ومغاربها .

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً ! :

القاهرة فى : غرة المحرم سنة ١٣٩٥ هـ

١٣ يناير سنة ١٩٧٥ م

القدس في المنظور السياسي

* ألقيت فى اللقاء الإسلامى المسيحى من أجل القدس « الذى دعت إليه جامعة الدول العربية وعقد فى مقرها بالقاهرة صباح الخميس ١٦ يناير (كانون الثانى) ١٩٧٥ م .

حضرات الإخوة والأخوات .

باسم السيد الرئيس محمد أنور السادات ، رئيس جمهورية مصر العربية ، أرحب بكم ، وأحمل إليكم تحياته ، وتحيات مصر حكومة وشعباً ، وتمنياته لمؤتمركم كل التوفيق ، وأمله أن تكون جهودكم خطوة إيجابية جديدة نحو تركيز العمل الدولى والشعبى وتحويل القرارات إلى أعمال نستطيع بها متعاونين الحفاظ على عروبة القدس الشريف وإعادة السلام العادل إلى مدينة السلام ونسترد حقوق شعب فلسطين والأرض العربية السليبة .

تحية شكر إلى الجامعة العربية والسيد الأمين العام أن استضافوا هذا اللقاء وتحية إلى الإخوة الذين التقوا من أجل القدس : من أجل أرضها وأهلها ، وروعة تاريخها ، وجمال آثارها ، وعراقة وجهها وما تمثله من قيم إنسانية أبرزها الإيمان والسماحة الدينية والإخاء الإنسانى .

وتحية إلى المناضلين من أجل القدس وعروبتها . تحية إليهم حيث كانوا : الذين سبقوا إلى الله شهداء ، والذين يتابعون المسيرة على طريق النضال الوعر ، والذين يرفعون من أجلها الصوت بكلمة الحق فى المحافل الدولية ، والذين يحملون السلاح مدافعين عنها بالروح والدم ، والذين يقضون أيامهم فى سجون إسرائيل ومعتقلاتها ، والذين يرفعون الدعاء فى محاريب المساجد والكنائس .

حضرات الإخوة والأخوات :

عندما دعيت إلى هذا اللقاء رجعت إلى ملف عن القدس أستعيد مافيه : فوجدت قرارات متوالية من هيئة الأمم المتحدة تؤكد وضع القدس

الإنسانى المتميز ووجوب الحفاظ على طابعها ، وقرارات من مجلس الأمن تطلب إلى إسرائيل إلغاء جميع التدابير التى صار اتخاذها ، والامتناع فوراً عن إتيان أى عمل من شأنه تغيير مركز القدس ؛ وتسجل أشد الأسف وأبلغ القلق لعدم التزام إسرائيل بقرارات مجلس الأمن .

وأقرأ هذه القرارات الصادرة من أعلى المستويات الدولية العالمية من الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، فأراها لساناً واحداً ناطقاً يشجب جميع الإجراءات المؤدية إلى تغيير معالم القدس .

وأترك هذه المجموعة من القرارات إلى مجموعة أخرى أصدرتها الوكالات المتخصصة : فأجد هيئة اليونسكو تتابع تأكيدها لقراراتها بأن تمتنع إسرائيل عن أية حفريات أثرية ، وعن نقل أية ممتلكات مماثلة ، وعن إحداث أى تغيير لظاهرها أو خصائصها الحضارية أو التاريخية ، وبخاصة فى المواقع الدينية الإسلامية والمسيحية . بل إنه ليدعو إلى ضمان وجود اليونسكو فى مدينة القدس من أجل تحقيق تنفيذ فعال لقرارات مؤتمره العام ومجلسه التنفيذى فى هذا الشأن .

فالصوت العادل الذى يصدر عن الأمم المتحدة فى هذا الشأن هو الصوت الذى يصدر عن وكالاتها المتخصصة مسجلاً أن إسرائيل تصر على عدم الاستجابة إلى هذا . وهى تواجه الجميع : الأمم المتحدة ومجلس الأمن والوكالات المتخصصة بأنها لن تنفذ هذه القرارات .

وأنتقل من هذه المؤسسات الدولية العالمية بما لها من وزن ، بعد أن أحس هذا التناقض الظاهر بين وضوح القرارات وارتفاع مكانتها من ناحية ثم تضاؤلها حين تصل إلى إسرائيل ، حيث أرض التنفيذ . وأحس الخطر الكبير الذى يتهدد هذه القرارات دائماً ، وأنها فى حاجة إلى رصيد من القوة يجعل لها التقدير الواجب والضرورى ، وينقل كلماتها إلى فعل وتنفيذ عملى .

وأنتقل من هذه المؤسسات إلى لقاءاتنا الإسلامية المسيحية وأذكر منها – على سبيل المثال – المؤتمر الإسلامى المسيحى العالمى الأول فى قرطبة فى سبتمبر سنة ١٩٧٤ وكيف صدر عنه قرار جامع يطالب بالحفاظ على عروبة القدس واستعادة الحقوق الكاملة المشروعة للشعب الفلسطينى والأرض العربية السليبة وبأن منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى .

وأفتح صفحة أخرى من ملف القدس تمثل قرارات مؤتمرات القمة الإسلامية . وكان الأول فى ديسمبر سنة ١٩٦٩ بعد حريق المسجد الأقصى فى ٢١ أغسطس ١٩٦٩ . وكان الثانى فى فبراير ١٩٧٤ بعد انتصارنا فى حرب رمضان (أكتوبر ١٩٧٣) وإذا كانت القدس هى محور هذه المؤتمرات ، فقد رأى العالم كله على لهب حريق المسجد الأقصى بشاعة العدوان الإسرائيلى ، لا على ذات المسجد ومنبره التاريخى وجدرانه ونقوشه وسقفه ، وإنما العدوان على الدين وعلى الحضارة الإنسانية . واستعاد العالم ما سبق هذا من عدوان على المساجد والكنائس تخريباً وتدنيساً وسرقة .

لقد أكدت هذه المؤتمرات عروبة القدس والحفاظ عليها كما أكدت وجوب استعادة الحقوق الكاملة والمشروعة للشعب الفلسطينى والأرض العربية السليبة .

وأتابع صفحات الملف فى مؤتمرات القمة العربية والأفريقية والتضامن الآسيوى الأفريقى ، وكلها تؤكد وجوب الحفاظ على عروبة القدس .

وأعود لأسأل :

– إذا كان هؤلاء جميعاً على كل هذه المستويات وبقرارات لو ذكرنا أرقامها ونصوصها لملأت مجلدات. ولو حددنا المواقع التى صدرت عنها لاحتجنا إلى خريطة كاملة للعالم. إذا كان هؤلاء على هذا الرأى

فلماذا تظل إسرائيل فى عدوانها ؟ ومن أين تستمد قوتها وسلاحها ؟

وأحاول أن أتتبع جذور هذا الطغيان. وأسأل: من الذى يدفع ثمنه ؟

ـ هل حكومات معينة ؟

ـ وهل تمتلك الحكومات هذه الأموال ؟

إن الحكومات لا تعدو أن تكون أجهزة تنظيمية للشعوب : والذى يدفع الثمن الأساسى فى أى نفقات حكومية عادلة أو ظالمة هو المواطن العادى . هو دافع الضرائب . وأختار من هؤلاء أكثرهم مساهمة فى هذا الإنفاق : وهو المواطن الأمريكى العادى :

إليه أتوجه بالحديث : هذا العامل فى المصنع . الزارع فى الحقل : العالم فى المختبر . التاجر فى متجره . هذا المواطن العادى الذى لا يريد من حياته أكثر من سعادة لنفسه ولأسرته ولإخوته فى الإنسانية :

إنه عمليًّا يتعرض لنوع خطير من الابتزاز الفكرى والمادى تشنه عليه أجهزة إعلام تسيطر عليها الصهيونية العالمية وتعتصر من ماله ومال أولاده. إما عن طريق ما تعتمده الحكومة أو عن طريق تبرعات هى فى حقيقتها قريبة من القهر والإرغام :

ما العلاقة بين هذا المواطن وبين قضية القدس؛ ولماذا يمول هذا الإرهاب الصهيونى ؟ إرهابا يهدم به مدينة عريقة من أعرق مدن الدنيا؟ ظلت قرونا طويلة فى ظل الحكم العربى، ويخرج منها أهلها ، ويحطم فيها آثارها الموجودة فعلا باسم البحث عن آثار موهومة . وكل حفر جديد يؤكد الوجود العربى الأصيل . ولايزداد الحافرون الإسرائيليون بعده إلا شراسة فى الحفر والتخريب ، وتضع إسرائيل الخطط لإنشاءات جديدة تستمر فيها متحدية كل القرارات التى أشرنا إلى جانب منها :

وأعود فأقول : إن جانباً كبيراً من هذا كله يموله المواطن الأمريكى

العادى فأين صوته الحر فى ذلك ؟

هل أضيف إلى ذلك ما يقدمه هذا المواطن العادى من سلاح ؟ أو على الأصح ما يقتطع من ماله ليتحول إلى سلاح يذهب إلى إسرائيل ؟ لقد آن الأوان لكى نفتح حواراً عريضاً مع هذا المواطن. وأن نتصل به فى حياته اليومية . أن نحدثه كما يحدث الإنسان الإنسان عن المسارب التى تختفى فيها أمواله بدلا من أن تتجه إلى جوانب الخير فى بلاده أو على الصعيد العالمى .

علينا أن نحدثه عن هذا المواطن الأمريكى الإسرائيلى ذى الولاءين . ولاء للولايات المتحدة وولاء لإسرائيل . أن نحدثه بسؤال بسيط : لو تعارض الولاءان فأين يقف ؟ وها هو يرى كيف أن الرأى العام العالمى والاتجاه الدولى أخذ يتحول نحو تأكيد الحق العربى . هذا المواطن ذو الولاءين الذى يفضل — كما حدث فعلا — أن يلقى ربه وهو فى أمريكا ملفوفاً فى علم إسرائيل لا أمريكا ؟

لقد سمعت من أصدقاء عرب يعيشون فى الولايات المتحدة وكندا كيف أخذت قطاعات من الرأى العام الأمريكى تضيق بما يقتطع من أموالهم ليقدم إلى إسرائيل ، وبخاصة فى مرحلة التضخم العالمية وارتفاع الأسعار الكبير وصعوبة الحصول على القوت . .

ولكن بعض هذه الأصوات لا يستطيع الارتفاع كثيراً . وهى أصوات وفية لوطنها وللقضية الإنسانية ككل . وعلينا أن نقيم المعابر بيننا وبين هؤلاء ، منطلقين من هذا إلى قطاعات عريضة فى الرأى العام العالمى تؤمن بحقنا .

أيها الإخوة والأخوات :

خلاصة ما أذهب إليه أن حقائق القضية علينا أن ننقلها إلى المواطن العادى بخاصة فى الأقطار التى تستند إسرائيل إلى أموالها ودعمها ،

وأن نوسع دوائر اتصالنا ، بالإضافة إلى الجهد الكبير الذى يبذل على الصعيد السياسى الرسمى .

ومع كل هذا ما زلت أذكر كلمة سمعتها بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ من مؤرخ غربى : إن كلمتكم المقبلة ينبغى أن تكون على الأرض التى انتزعها منكم إسرائيل ، قولوها بعد أن تحرروا جزءاً ، أما قبل هذا فلن يسمع لكم أحد ؟

ولقد قلنا كلمتنا فى معركة رمضان . قالها قائد عبورنا الرئيس محمد أنور السادات . قالها حكامنا وقادتنا . قالتها جيوشنا وشعوبنا . قلناها فى سيناء وفى الجولان اقتراباً من قاب الأرض العربية الغالية السليبة . قالتها معسكرات اللاجئين الصامدة . قالتها دول المواجهة . قالها التضامن العربى ، قالها التضامن الإسلامى المسيحى . قالها الرأى العام العالمى . قالها بصوت جديد ووزن جديد بعد معركة رمضان المجيدة .

ومع إيماننا العميق الكامل بالسلام وهو عندنا من أسماء الله الحسنى وتحمله مدننا : فالقدس مدينة السلام . ونكرره فى عبادتنا وفى تحياتنا. ومع أن أرضنا تنبت الزيتون الذى اتخذه العالم رمزاً للسلام والمحبة . إلا أننا نحمى حقنا بسلاحنا ، وعلينا دائماً أن نجمع بين أمرين : قوة الكلمة وقوة السلاح . ونرجو كما قالت فلسطين كلمتها : ألا يدفعنا العالم إلى إلقاء غصن الزيتون وحمل السلاح . . .

أيها الإخوة والأخوات :

من مكانى هذا أبعث تحية أرجو أن تصل إلى أعماق سجون أرضنا السليبة حيث المطران كابوتشى وزملاؤه . . حيث الإخوة المجاهدون الأحرار . . . السجناء المسلمون والمسيحيون فى أوطانهم على أيدى الغرباء .

تحية إلى كل جندى ومناضل :. داعيا الله أن يعيد إلينا القدس لنعيدها كما كانت مدينة السلام يلتقى فيها العابدون جميعاً فى رحاب الإيمان والسماحة . .

وشكراً لكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

خـــاتمة

وبعد : فهذه مجموعة من البحوث المختارة أردت أن أقدم بها — جهد المستطاع — صورة متكاملة عن العمل الإسلامى فى المستقبل ، وهى تتناول آفاقاً متعددة : بدءاً من المسجد وربطه بالمجتمع وسيراً إلى تنظيم العمل الدينى الإسلامى ، ودعم التعاون فى مجال الوحدة الوطنية والتعاون الثقافى فى مصر والسودان ، وقضية الوجود الإسرائيلى وصراعه مع الإسلام والمسيحية والتعاون الإسلامى المسيحى العالمى ، ثم التعاون العالمى على هدى مما جاءنا به ربنا من كتاب وحكمة .

والأمر لا يتعلق فقط بمجالات الأبحاث وتدرجها فى الاتساع ، وإنما عنيت — وبخاصة فى بحث التعاون بين مصر والسودان — بقضايا الشباب والأجيال الجديدة . وطرقت هذا الموضوع بشىء من الإجمال الذى يحدد رءوس الموضوعات ويعطى مؤشرات الدراسة ، ويقدّم التوصيات التى يمكن أن نحولها — بعد هذا — إلى برامج عملية . ولقد كان ذلك محل قبول من الإخوة المجتمعين .

فى هذه الفترة التى كتبت فيها الأبحاث وألقيتها كنت أشغل منصب نائب وزير الأوقاف ثم وزير الأوقاف وشئون الأزهر فى جمهورية مصر العربية ما بين مارس ١٩٦٨ إلى يناير عام ١٩٧٢ وعدت نائبا لرئيس الوزراء للشئون الدينية ووزيراً للأوقاف فى مصر ما بين مارس ١٩٧٣ إلى إبريل عام ١٩٧٥ . وبين ذلك شغلت منصب أمين الدعوة والفكر والشئون الدينية بالاتحاد الاشتراكى العربى شهوراً ذهبت بعدها مديراً لجامعة

الكويت فى العام الدراسى ١٩٧٢-١٩٧٣ . وعدت بعد هذه الرحلة إلى عملى الأساسى أستاذاً للجغرافيا البشرية بمعهد الدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة .

وأخذت أراجع أوراقى ، وأنظم ما لم أنشره أو لم أكمله فى دراساتى الإسلامية والجغرافية . وبدأت إعداد هذا الكتاب فى أثناء عملى الوزارى وأكتب خاتمته الآن من معهد البحوث والدراسات الأفريقية . وتجمعت بين يدى بحوث عن الشباب كنت أفكر فى أن أضمها إلى هذه البحوث المنشورة ، ولكنى آثرت أن أفرد لها كتاباً برأسه عن « الإسلام والشباب » أحاول فيه أن أدرس بالتفصيل ما أجملته هنا .

وكان أكثر اعتمادى فى هذه البحوث على الاتصال المباشر بقضايا الحياة الإسلامية وأعتقد أن مشكلات الشباب تحتاج إلى دراسة وإلى حوار . إلى استماع وإلى توجيه . إلى دفع دون اندفاع ، وتعقل دون استرخاء .

ولقد كانت بين الإسلام والشباب أزمات بعضها من شدة الإقبال غير الواعى ، وبعضها من الانصراف واللامبالاة ، وبعضها من اهتزاز القيم وضعف الثقة فى الكلمة والعمل .

ودفع بعض شبابنا ثمن ذلك غالياً من حياته ومستقبله وكان البعض ضحايا بريئة للاستغلال والانتهازية أو التعصب أو التوجيه الخاطئ ، أو الظلم والبطش .

فكيف نفتح الحوار مع الشباب ؟ أو على الأصح نرفع من شأن الحوار مع الشباب ليؤتى الحوار ثماره ؟ وأول ثماره أن يكون الشباب أكثر فاعلية وتدينا وتعقلا وخدمة لمجتمعه .

وفى الوقت الذى أضع فيه القلم بعد هذه الجولة العالمية فى مؤتمرات تناولت بعضها بالدراسة لا أستطيع إلا أن أمد عين الأمل إلى الجهود الإسلامية العالمية الآن وأبرزها المؤتمر الإسلامى .

لقد كان لى شرف عضوية وفد مصر إلى مؤتمر القمة الإسلامى الأول فى الرباط فى ديسمبر ١٩٦٩ م ، ثم رياسة وفد مصر إلى مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية الذى مهد لمؤتمر القمة الإسلامى الثانى فى لاهور (باكستان) فى فبراير ١٩٧٤ م ، ورياسة وفد مصر إلى نفس المؤتمر فى دورة كوالالمبور فى يونيو ١٩٧٤ م ، ورياسة لجنته السياسية . ولمست عن قرب الآمال المعقودة عليه والقضايا التى طرحت هناك على جبهة تمتد من الفلبين شرقاً إلى العالم الجديد فى أقصى الغرب . . وكيف أن الملوك والرؤساء اتفقوا على مجالات واسعة من التعاون تغطى الاقتصاد والاجماع والتعاون والإعلام والدعوة الإسلامية ووضع العالم الثالث فى العالم المعاصر .

وواجبنا أن تثرى هذه التجربة وأن تُعطى فرصاً أوسع للنجاح حتى تؤتى ثمارها المأمولة إن شاء الله .

ولقد كان من عمل المؤتمر أن أخذ فى تنظيم الجمعيات والأنشطة الإسلامية على مستوى القارات

وبهذا نستطيع أن نضع خريطة سليمة تبدو بها ثغرات العمل وتحدد مجالاته وآفاقه وبرامجه الطويلة والقصيرة .

فإذا كان الغالب على هذا الكتاب ماجاء من كلمات من المؤتمرات ذات الطابع العلمى فإن جهود المؤتمر الإسلامى على الصعيد الدولى لها مكانها فى هذا المجال .

إلا أنه كما أشرت فى ثنايا الكتاب لابد من تنسيق بين المؤتمر الإسلامى وبين المنظمات ذات الطابع القريب منه ، ولكل قطر من أقطارنا الإسلامية مناشطه الدولية .

وفى غياب هذا التنسيق سيظل فى أعمالنا كثير من التكرار الذى تضيع به جهود يمكن أن نحسن استخدامها والاستفادة منها .

لقد بدأ المؤتمر تنظيم الأنشطة الاقتصادية والإعلامية وظهر صندوق التضامن الإسلامى ليخطط ويمول ويرعى مشروعات التنمية على مستوى الشعوب والجالات والجاليات الإسلامية . وإذا كانت الآمال المعقودة عليه أكبر من إمكانياته . فإن هذه سنة الحياة دائما . . أن يكون الأمل أوسع من الإمكانيات. فنحن نعيش عصر الآمال الكبيرة التى تحتاج إلى تعاون أعرض وأعمق ، لا بين الدول الإسلامية وحدها ، وإنما بين الدول النامية والدول المتقدمة . . وهذا ما أخذ بسبيله مؤتمر لاهور ودفع بمشروعاته بعد هذا إلى ساحة الأمم المتحدة .

وسنجد أنفسنا قريبا بحاجة إلى مؤتمرات نوعية أكثر تخصصاً : عن الشباب والطفولة والمرأة . عن التعليم الجامعى وإعداد الإطارات العلمية وتخطيط البحث العلمى . عن تخطيط التنمية على غرار ما يقوم به « نادى روما » على الصعيد العالمى والإقليمى . بحيث تتحدد أمامنا — ما استطعنا — صورة المستقبل للعالم الإسلامى ووضعه بين القوى العالمية الكبرى مؤمنا بالله تعالى ، عاملا من أجل السلام. وهو فى الإسلام من أسماء الله الحسنى .

٢٨ من جمادى الأولى عام ١٣٩٥هـ

٨ من يونيو ١٩٧٥ م

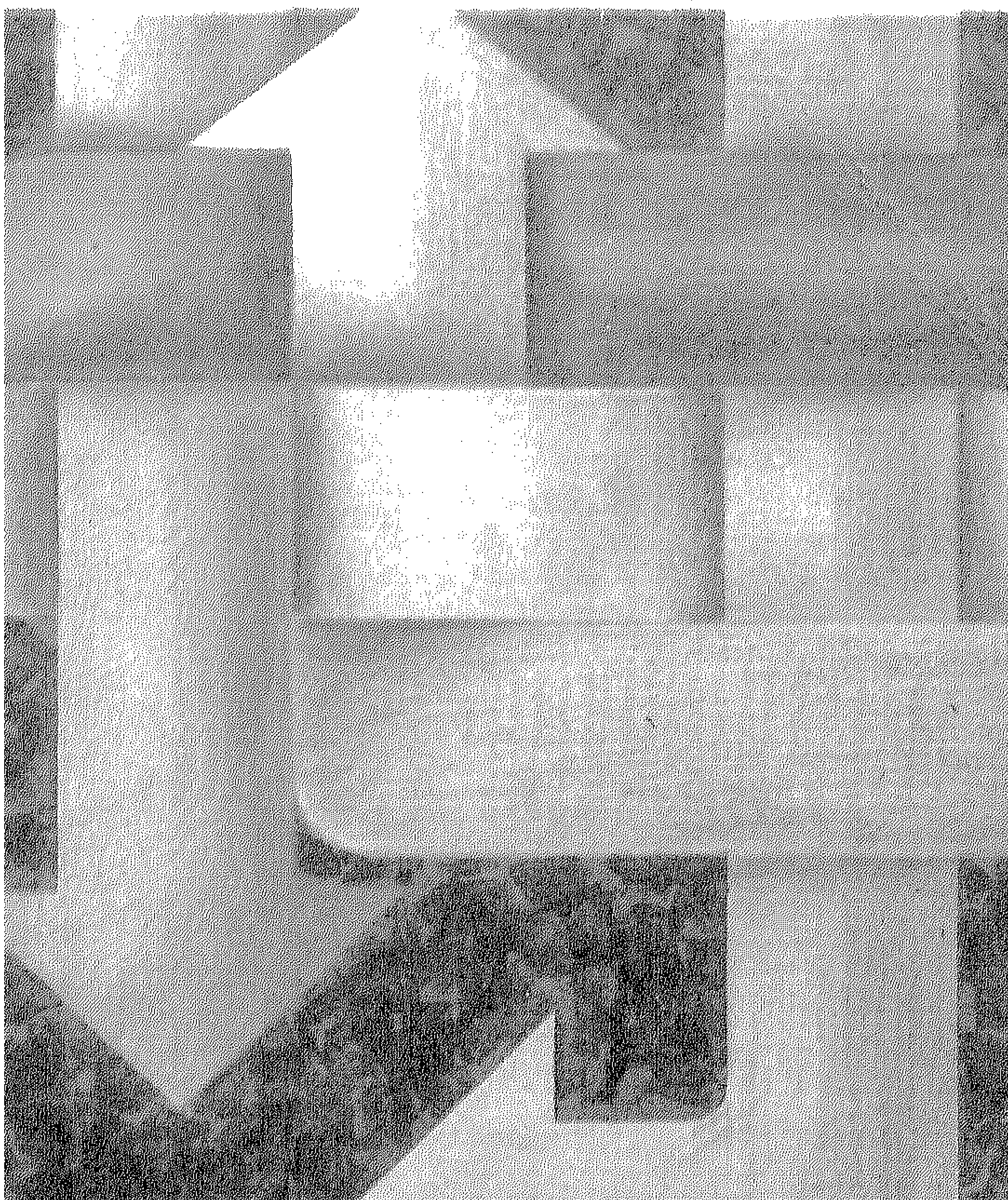
الفهرس

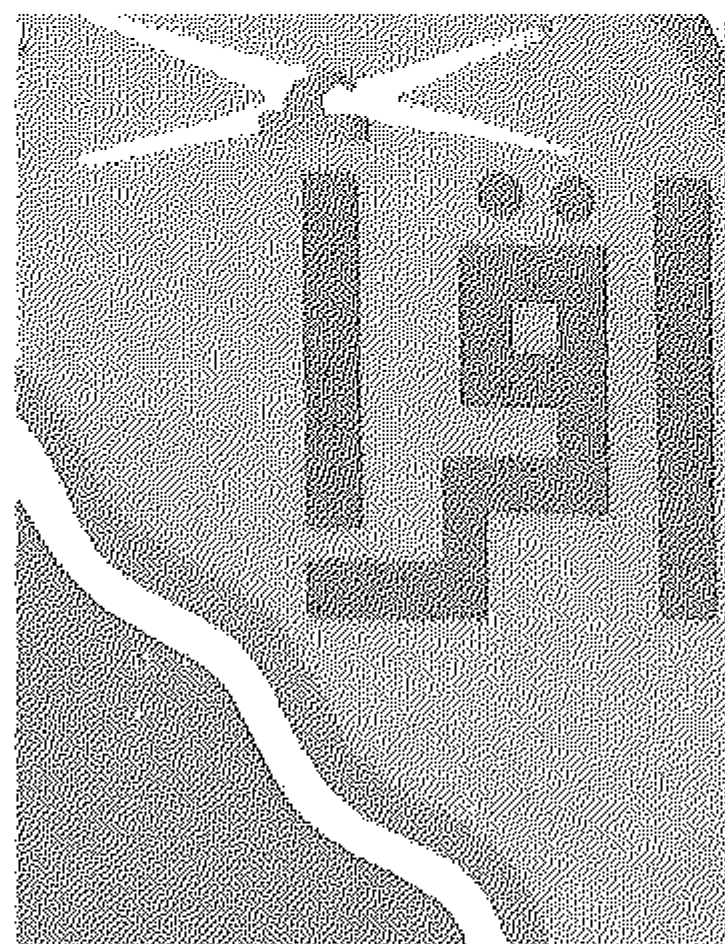
صفحة

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٥/٤٣٢٤
مطابع دار المعارف بمصر – ١٩٧٥
١/٧٥/٢٣٩

م

٢٠





السيد فرج

القيادة والحرب عند العرب



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر



السيد فرج

القيادة والحرب

عند العرب

اقرأ ٤٠٢

دار المعارف بمصر

(اقرأ ٤٠٢)

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الإهـــداء

إلى أبطال حرب رمضان البواسل الذين عبروا بالأمة العربية مفازة النكسة وأثبتوا بكل مقاييس الفنون العسكرية كفاءة القيادة والحرب عند العرب

السيد فرج

الموسوعة الحربيّة العربيّة

حقيقة تاريخية كبرى ، ولكنها ليست بين أيدينا

على مر العصور والأجيال وتتابع مراحل التاريخ كتب الكتاب من رجال الجندية والسياسة والاقتصاد والعلوم والآداب كتباً متعددة ومراجع وافية عن الحرب وفنونها المختلفة تناولت شتى أسبابها ودوافعها ، وأصولها ومبادئها ، وأحداثها ونتائجها ، وأسلحتها ومعداتها ، وماديّاتها ومعنوياتها .. ومن ذلك كله ورثت كل أمة رصيداً من المخطوطات والوثائق والمطبوعات صدرت بأقلام كتابها ولغاتها أو ترجمت عن كتابات العسكريين النابهين والخبراء الثقات فى مختلف اللغات .

وموضوع « القيادة والحرب » من الموضوعات التى تجتذب القراء وبخاصة فى إبان الأزمات والأحداث الكبرى ،وهى أيضاً من الموضوعات التى اجتذبت القادة والمفكرين فى شتى الأزمان فشرعوا أقلامهم لتسجيلها وسطروا الصفحات لإثباتها وتوضيحها ، وقدموا من المشاهدات والخواطر والتعليقات ماجلا الكثير من خوافيها وغوامضها .

وبذلك يمكن القول إن لكل أمة مكتبة حربية تعتز بها وتستنير بما تلقيه من أضوائها على متعدد المواقف والأحداث ، بين سير عسكرية ووقائع حربية وصور وتسجيلات وانطباعات تحدث بما وقع لهذه الأمة من تجارب وما مر بها من وقائع كان لها الفضل فى بلورة فكرها العسكرى ،

وتكوين عقيدتها الحربية خلال عدة أجيال متتابعة ؛

وإذا كانت مبادئ الحرب ثابتة وأصولها متفقاً عليها فإنه لا غنى عن استمرار البحث والتجربة والممارسة والتطبيق ، لأن التطور والارتقاء من طبائع الحرب ومن ظاهرات الجندية ، ولهذا لا تتوقف الأقلام عند غاية ولا تهدأ المطابع عند نهاية ، وإنما يستمر الفكر يؤدى دوره فى الخلق والابتكار والتجديد وتستمر الممارسة فى تقديم التجارب والتعديلات فى الخطط والمناهج وتستمر حصيلة الفكر والتجربة فى التزايد والتجدد ؛

ولقد يحدث أن تقع الحرب فى أى جيل وعلى أى ميدان فيرتاع الناس لأهوالها ويفزعون لما يقع خلالها من أحداث وويلات ويطلقون عليها أضخم الأوصاف ، حتى إذا هدأت ثائرتها وانتهى وطيسها أخذت ذكراها تخفت رويداً رويداً ؛ . فإذا ما أقبلت حرب ثانية بأسلحة أشد فتكاً وأدوات أكثر ضراوة نظر القوم إلى الحرب السابقة نظرة ساخرة وعبثوا بالقول والإشارة والنكتة على ما كان يستخدم فيها من أسلحة هزيلة وأدوات كلعب الأطفال ؛

هكذا الحرب دائماً ، تتطور وتتجدد ، وتتضاعف شرورها وتتزايد ويلاتها ، فى جيل بعد جيل ؛

وهذا هو أيضاً شأن فنونها المختلفة ،.

ومن فنونها المتصاعدة وشئونها المتزايدة يلتقى القارئ فى كل بلد وفى كل عصر بنتاج الفكر العسكرى وثمرات التجربة الميدانية فى الاستراتيجية والتكتيك وفن القيادة ، وتتجمع لديه الحقائق والأسانيد بين ضفاف

المخطوطات وأضابير الوثائق وغُلُفُ الكتب مما جد فى إبداعه القادة العظام والمؤرخون الأعلام .

والأمة العربية جديرة بأن تحسب فى عداد الأمم ذات التاريخ الحربى الوضاء وذات المراجع العسكرية الوافية فى شئون القيادة والحرب ؛

فعلى مدى أربعة عشر قرناً من الزمن حفل تاريخ الأمة العربية أحداث البطولة وظاهرات التجلى وآيات السبق والتفوق، فى ميادين صراع واسعة ومتنوعة امتدت من الخليج العربى إلى المحيط الأطلسى .

ولكن المكتبة العربية لم تكشف عن كل نفائسها بعد ، أو أن التنقيب عن المخطوطات والمراجع لم يبلغ الغاية ، بل لا يكاد يصل إلا إلى القليل من أصداف الفكر العربى وجواهره ؛

ولكن الذى نشر —على قلته— يعطى انطباعاً صادقاً بأن العرب كانوا أبناء صنعة وأصحاب موهبة فى شئون القيادة والحرب ؛

وربما تقع هذه الحقيقة موقع الدهشة عند الأجانب الذين لا يعلمون من أمرها شيئاً .

ولكنها أيضاً تقع موقع الدهشة عند الكثيرين من أبناء الأمة العربية فى زمننا هذا ؛

وموقع هذه الدهشة أن الأجيال العسكرية الحديثة ، وليس عامة القراء فحسب ، قد تتلمذت على المكتبة العسكرية الأجنبية ، مدرسة نابليون ، وولنجتون ، وليدل هارت ، وويفل ، وفون شليفن ، وموللر ، وغيرهم من القواد والمفكرين والمعقبين العسكريين ؛

وتاريخ الحملات الحربية الذى يدرس فى مدارسنا العسكرية — حتى عهد قريب — فى الشرق العربى كله هو تاريخ حملات اللنبى وويفل، وأحداث الحربين العالميتين فى غربى أوربا وشرقيها ، وفى شرقى آسيا .

والكتب والمراجع التى توالت على المكتبة العربية هى كتب القادة والمؤرخين الإنجليز والفرنسيين والألمان والروس .

والقادة أصحاب الشهرة والسطوة عند جماهير العالم — ومنها الجماهير العربية — هم الإسكندر وهانيبال ونابليون ومارلبورو وقيصر وجنكيزخان وروبرت لى ورومبل ومونتجمرى وزوكوف . .

ولا ينكر أحد ما لهؤلاء من شهرة وكفاية ومكانة تاريخية ، كما أنه لا خلاف فى أهمية تزويد مكتباتنا بكل طارف وتليد من كتب المؤرخين الأجانب وسير القادة من جميع الأوطان ، ولكن الذى عليه الخلاف هو خلو مكتباتنا من تسجيلات مؤرخينا وسير قادتنا ، وأيضاً قلة علمنا بما خلفه أوائلنا من مخطوطات ومراجع وكتب قيمة .

وبينما تملأ تواريخ وسير الأبطال الأجانب مكتباتنا وتدرس فى معاهدنا لا نجد عن أوائلنا وصناع مجدنا إلا القليل ، ولا يعرف النشء عنهم إلا النذر اليسير ، كذلك لم يصل إلى الدوائر الأجنبية من هذه السير والأمجاد ما يغريها بنشر وإذاعة أنباء وبطولات ومناقب قادتنا العظام .

وقد اعتادت مكتباتنا أن تتلقى أفواجاً متتابعة من الكتب الشائعة بأقلام المشاهير وبكافة اللغات عن عظماء التاريخ ، دون أن يرد كتاب واحد عن بطل عربى ، كما اعتادت دور النشر وكبريات الصحف نشر

موضوعات تاريخية وتسجيلات وقوائم عن أبطال الحروب وكبار القادة دون أن تذكر اسما عربيًّا واحداً .

فإذا نظرت إلى قائمة كبار القادة التى نشرها فى الماضى أو الحاضر كتاب وقادة ومحققون عسكريون — من جميع الأجناس — تجد أن تلك القوائم تحمل أسماء متعددة من دول شتى وفى أجيال متعاقبة منذ فجر التاريخ حتى اليوم ولم يظهر فيها اسم بطل عربى واحد ، كأنما خلا تاريخنا من البطولة وكأنما لم يكن لنا فى ميدان النصر والفتح أيام خالدة ووقائع باهرة ورجال من الطراز الأول .

هل أقول إن معلومات أبنائنا — فى شتى مراحل التعليم — ما زالت قاصرة بالنسبة لتاريخنا الإسلامى والعربى وإننا لم نتعمق دراسة سير وحياة ومناقب قادتنا العظام .

وهل أقول إن معلومات أبنائنا — فى الشرق العربى — عن الإسكندر وهانيبال ونلسون ونابليون وروميل ومونتجمرى .. أشهر وأغزر مما نعرف عن سيف الله خالد بن الوليد والجندى القوى الأمين أبو عبيدة بن الجراح والجندى الدبلوماسى الشاعر عمرو بن العاص ، والقائد الأسد سعد بن أبى وقاص ، وغيرهم من القادة الميامين والنوابغ والأفذاذ .

هؤلاء القادة البررة الذين آمنوا برسالتهم وأخلصوا لوطنهم العربى الكبير وقادوا جيوشهم البسيطة الشجاعة عبر ساحات قتال صعبة وفى مواجهة جيوش جرارة لم تقهرهم الأسلحة والمعدات التى تفوق ما كان

بأيديهم ، ولم تصدهم الحصون والقلاع المنيعة ، وابتكروا الأنظمة واستحدثوا الخطط وكشفوا حقائق الحرب وعوامل النصر ورسموا خريطة الوطن العربى من المحيط إلى الخليج :

إن أبطال الحرب العرب يقفون فى الصف الأول فى ساحة التاريخ مع نظرائهم المشاهير من كل دولة وزمان ، بفعالهم الباهرة وصفاتهم الجليلة .. تجد فى فعالهم علامات الموهبة والكفاءة من العناية بالاستطلاع والقدرة على استجلاء المواقف والجسارة فى وضع الخطط وتنفيذها والبراعة فى فهم وتحريك الرجال وإذكاء العزيمة فى نفوسهم : . وهذه هى صفوة لباب الحرب :

كما تجد فى صفاتهم حاسة الحرب تدعمها البساطة والشجاعة والذكاء والهدوء النفسانى والصبر على المكاره ، وهذه هى جماع الميزات الأساسية التى ينبغى أن تتوافر للقائد ليحسب فى عداد الأبطال ..

* * *

ولقد خاض العرب حروباً متعددة فى عدة ميادين مختلفة وأمام حشود متباينة فى تنظيمها وأسلحتها وأساليبها فى القتال ، ولقد اقترن الفكر بالممارسة ، والتحم الابتكار بالتجربة فتتابعت التجارب وتزايدت الخبرات فأثرت الفكر العسكرى ونوعت فنون القيادة وطورت الخطط والأساليب وأنشأت ما يمكن أن يطلق عليه : تقاليد الحرب أو مدرسة القيادة .

ولكن أين هى موسوعة الحرب العربية ؟

أين وثائق الحروب العربية .:. ؟

الحقيقة أن الموضوع كبير وشاق ، وقد يكفى هنا الإشارة إلى عدد من المراجع :

القرآن الكريم ...

خطب رسول الله صلوات الله عليه وتوجيهاته للسرايا والبعوث ...

كتب أبى بكر إلى قواد جيوشه ...

كتب عمر إلى قواد جيوشه ...

وفيها أرقى ما يطمح إليه الفكر العسكرى من أصول القيادة ومبادئ النصر فى الحروب .

وإشارة ثانية إلى عدد من المخطوطات والمراجع القديمة :

الجامع لأحكام القرآن : لأبى عبد الله القرطبى .

تاريخ الرسل والملوك : لأبى جعفر الطبرى .

سيرة سيدنا محمد رسول الله : لأبى محمد بن عبد الملك بن هشام .

الطبقات الكبرى : لمحمد بن سعد كاتب الواقدى .

تاريخ ابن خلدون : لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون .

الكامل فى التاريخ : لابن الأثير .

فتوح البلدان : لأحمد بن يحيى البلاذرى .

فتوح الشام : لمحمد بن عمر الواقدى .

الفتوحات الإسلامية : للسيد أحمد دحلان .

الإمامة والسياسة ، وعيون الأخبار والمعارف : لابن قتيبة .

عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير : لابن سيد الناس .

كتاب الدرر فى اختصار المغازى والسير : لأبى عمر .

المغـــازى : لموسى بن عقبـــة .

... وعشرات أخرى من أصداف وجواهر الفكر العربى التى تأخذ بألباب المعاصرين من المتخصصين فى شتى فنون الحرب .

ثم عشرات أخرى من الكتب والمراجع الحديثة بأقلام الأعلام من المفكرين وأصحاب الرأى فى العصور الحديثة ، ومنها :

حياة محمد — الصديق أبو بكر — الفاروق عمر :

لمحمد حسين هيكل

عبقرية محمد — عبقرية أبى بكر — عبقرية عمر — عبقرية خالد :

لعباس محمود العقاد

أشهر مشاهير الإسلام : رفيق العظم .

فجر الإســـلام : أحمد أمين .

دائرة معارف القرن العشرين : محمد فريد وجدى .

دائرة المعارف الإسلامية .

هذا أيضاً إلى جانب العديد من المؤلفات الحديثة فى اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية لعدد من المؤلفين العرب والمستشرقين الأجانب.

* * *

ومن تلك النصوص والتعاليم والرسائل التى ضمتها آلاف المخطوطات والمراجع والكتب العربية يمكن أن نخرج « انسكلوپيديا القيادة والحرب عند العرب » .

هذا هو الخاطر الذى مرّ بى وحكم علىّ أن أقدم كتابى هذا :

وكنت خلال كتابتى أتوقف عند بعض الفقرات وقد بدت كالوهج الذى يخطف البصر ويخلب اللب مما احتوته من صدق وروعة يتضاءل معها ما وصل إلى علمنا من المراجع الأجنبية .. أو أتوقف عند انسياب الحديث عن أحد القادة العرب وقد بدأ عملاقاً بالنسبة لأمثاله ممن وضعتهم بلادهم فى صفوف الدهاة والعباقرة .

وعندما استقر هذا الخاطر فى نفسى ، وجدت أن هناك من سبقنى إليه ، إذ تذكرت رأياً للقائد الأمريكى الجنرال دوجلاس ماك آرثر الذى كان قائداً للقوات فى الباسيفيك .

قال ماك آرثر :

« لو محيت جميع أخبار الحروب من
صفحات التاريخ ما عدا أخبار جنكيز خان
لبقى لرجال الحرب معين لا ينضب
من المعلومات والدروس الحربية » .

وكنت أتمنى لو سبقته فقلت :

لو أننا أغفلنا جميع كتب الحرب التى صدرت فى جميع اللغات لكفانا كتاب يجمع ما خلفه لنا أوائلنا العرب عن القيادة والحرب .

* * *

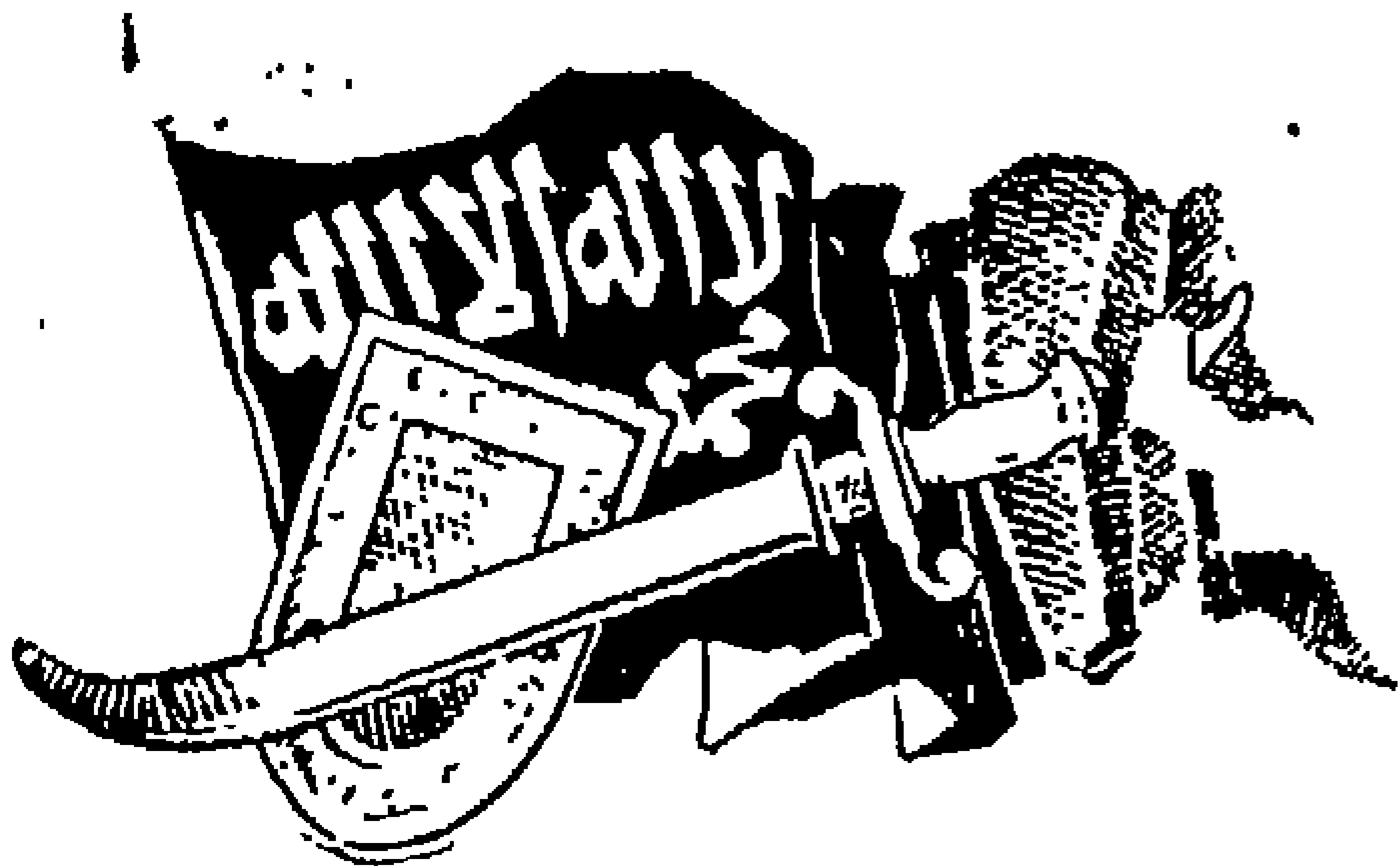
ليتنا نفتح هذا الكتاب .. أعنى ما وصفته فى السطور السابقة بأنه إنسكلوبديا الحروب العربية .

ليتنا نعكف على هذا المشروع الكبير فتقدم تلك الموسوعة الحربية العربية التى تضم ما تركه السلف من تراث عظيم عن القادة والمعارك والتاريخ الحربى العربى :

هل لى أن أقول إن الأمة التى صنعت هذا التاريخ العظيم والتى أحرزت هذه الانتصارات الساحقة والتى بنت هذه الإمبراطورية الشاسعة الراسخة بين الخليج والمحيط . . هى ذاتها الأمـــة العظيمة التى حققت النصر المؤزر فى رمضان / أكتوبر ١٩٧٣ واستطاعت أن تنتزع تاريخها وكرامتها وأمجادها من النكسة المؤلمة التى حلت بها فى غفلة الزمن ، وأنها جديرة بأن تستعيد زمام الموقف وتستخلص النصر وترفع من جديد أعلام الحرية والعزة والبطولة العربية ! ؟ .

السيد فرج

القيادة عند محمد صلى الله عليه وسلم



١ ــ خصائص القائد العظيم

كان محمد صلى الله عليه وسلم هو أول قائد فى الإسلام ...

النبوة كانت أولاً ، ثم القيادة ...

إن محمداً لم ينشأ قائداً ولم يتعلم الحرب فى مدرسة ولم يسع إلى القيادة راغباً أو طموحاً ، ولكنه اضطر إلى القتال اضطراراً حتى يدفع الأذى الذى حاق بأهله وصحبه وحتى يردع العدوان الذى شنه أعداء الإسلام بلا رحمة ولا هوادة .

فالقيادة عند محمد لم تكن هواية ولا احترافاً .

وإنما كانت مسئولية حتمية استوجبتها احتياجات الدفاع عن الدعوة وحماية المؤمنين الذين تعرضوا لعدوان المشركين .

وهو ــ كقائد ــ لم يبدأ أحداً بالعدوان ولم يحارب إلا للدفاع والاتقاء ، بعد أن مارس كافة المحاولات سعياً إلى السلام وتجنباً لسفك الدماء .

فالإسلام دين سلام .

وقد أمر الله رسوله أن يدعوا الناس كافة إلى عبادة الله ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وأن يكون سبيله إلى ذلك الحكمة والموعظة الحسنة وليس العنف والإكراه والقتال :

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة

الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربلك
هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم
بالمهتدين »   (١٢٥ ك النحل ١٦)

عندما تلقى محمد الرسالة بشر بها عدداً محدوداً من المقربين إليه واستمر فى الدعوة سرًّا زهاء ثلاث سنوات حتى أمره الله أن يظهرها :

« وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض
جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن
عصوك فقل إنى برىء مما تعملون »
(٢١٤ — ٢١٦ ك الشعراء ٢٦)

« لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد
من الغى » .
(٢٥٦ م البقرة ٢)

كانت دعوة سلام ولكن قريشاً استقبلتها بالإنكار والعدوان ، وتعرض المسلمون لشتى صنوف الإهانة والتعذيب حتى هاجر بعضهم إلى الحبشة فراراً بدينهم ثم هاجر النبي وصحبه إلى يثرب ، وهكذا لم يقابل العدوان بمثله ولم يحض أتباعه على القتال لأنه كان يطلب الهدى لقومه جميعاً على حين كانت قريش تجد فى إيذاء المسلمين ، وهو لم يلجأ إلى القوة داعياً ولم يتخذ العنف سبيلا ، حتى إن الأنصار فى المدينة ناشدوه أن يأذن لهم بالرد على العدوان ، وقال قائلهم :

« والذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن

على أهل منى غداً بأسيافنا » .

قال عليه الصلاة والسلام :

« لم نؤمر بذلك » .

.. وفى المدينة انتهى الترحال وهدأ البال وانتظم الصف وانتشرت الدعوة وأصبح المسلمون كثرة وقوة ، وكان المرتقب أن يستعدوا للثأر من قريش وأن يقيموا الحد على المعتدين ، ولكن رسول الله كان معرضاً عن الانتقام مبشراً بالسلام .

فلما توسعت قريش فى عدوانها واشتدت فى إيذاء المسلمين وفى تأليب العرب على الإسلام أذن الله للمؤمنين فى قتال الذين يقاتلونهم ويؤذونهم : ؟ .

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن
الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا
من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا
الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض
لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد
يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله
من ينصره إن الله لقوى عزيز » .

(٣٩ ، ٤٠ م الحج) .

ثم وضع القرآن الكريم الفارق الكبير بين الحرب المشروعة وغير المشروعة :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم
ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » .

(١٩٠ م البقرة ٢) :

فالإذن للرسول بالقتال إنما أعطى لغايات محددة، لدفع الظلم وصد العدوان

وصدع المؤمنون بالأمر فسالموا من سالمهم وحاربوا من اعتدى عليهم، وجاءت كل طلعات جهادهم تشهد بذلك المبدأ السليم ، ضد قريش وضد اليهود ثم ضد الفرس والروم .

ولما كان حامل الرسالة هو قائد المسلمين ، فقد نشأت قيادته فى ظلال المبادئ التى وضعها الإسلام :

لا إكراه
وإن جنحوا للسلم فاجنح لها
ولا تعتدوا
وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم
وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة

* * *

:. وبهذا المنطق ومن هذا المنطلق أخذ القائد محمد صلى الله عليه وسلم يحشد رجاله وينظم صفوفهم ويعبئ قواهم ويعدهم إعداداً رشيداً ، بالسيف والروح ، لكى يدافعوا عن عقيدتهم ويصدوا عن حماهم ويقاتلوا المشركين قتالاً باسلاً حتى النصر أو الشهادة .

وإذا جاء الحديث عن محمد القائد فلابد أن نقوم ميزان القيادة وحده، وأن نقيس بمقاييس العبقرية الحربية دون سواها ومن غير تأثر بصفاته الأخرى الجليلة ، وأن ننظر بعين علمية محايدة ، وهذا مطلب صعب — ولا ريب — ولكنه ضرورى ولا مندوحة عنه لكى يكون الحكم خالصاً والشهادة بينة .

فما هى خصائص القائد العظيم ؟

وما مقدار فهمه وممارسته لمبادئ الحرب ؟

وما هى نتائج معاركه وحروبه ؟

قاد محمد سبعاً وعشرين زحفاً واشترك بالفعل فى تسع معارك : بدر — أحد — المريسيع — الخندق — قريظة — خيبر — فتح مكة — حنين — والطائف .

فهو لم يكتف بإرسال السرايا — وقد بلغت سبعاً وأربعين سرية — ولم يقف عند توجيه دفة القتال فحسب ، وإنما اشترك بالفعل كمقاتل فى كافة المعارك الكبرى .

وقد كشفت هذه المعارك عن اتصافه بكل صفات القائد كما حددها كبار العسكريين وثقاة المؤرخين ، وهى :

المعرفة — الشجاعة — الصلابة — الكتمان — القدوة الحسنة — قوة الخلق .

١ – المعرفة :

قبل أن يتلقى النبي محمد الوحى وينهض بحمل الرسالة كان قد عرف بأخلاق طيبة وخصال كريمة جعلت له مكانة مرموقة واحتراماً عامًّا بين أهله وصحبه والمتعاملين معه ، فاشتهر بالأمانة وسعة المعرفة وحسن السعى فى التجارة ، كان دائم اليقظة متنبه الوجدان مملوءاً خيراً وحكمة وبركة.

وقبل أن يتلقى محمد إذن ربه فى قتال الذين يقاتلونه كان قد أحاط بالكثير من المعرفة عن أهله وقومه وخصومه ، كما كان عارفاً بطبيعة الحياة ومجريات الأمور فى زمنه ، وعن الطرق والمواقع والأماكن المشهورة .

وكان قبل توليه القيادة العسكرية قد تدرب على قيادة الرجال وتوجيه الدعوة وتنظيم الاجتماعات وإدارة الندوات والمحاورات ، والقيام بالمناورات والتحركات السرية بعيداً عن أعين وآذان الرقباء ، كان خبيراً بالشعور والعواطف التى تؤثر فى الرجال لإثارة حميتهم إلى مناشدتهم الصبر إلى تبشيرهم بالنصر

أى أن محمداً كان مهيئاً للرسالة قبل نزول الوحى ، وكان أيضاً مهيئاً للقيادة قبل صدور الإذن بالقتال .

وهو قد صف رجاله فى سبيل الله وجعل منهم جماعة مؤمنة صابرة مستبشرة ، فلما دعا داعى النضال أخذ يعبئ رجاله للمعركة بأسلوب القائد الفطن الذى يعرف كيف يقود رجاله إلى النصر وكيف يواجه خصومه إلى نهاية قدراتهم :

ولهذا فإن محمداً القائد كان يملك « طبيعة الجندى » ظاهره وباطنه :
كان يعيشها بالفطرة قبل أن تطأ قدمه أرض المعارك ، وعاشها بغير أدنى صعوبة وهو بين الصفوف وتحت الأعلام ، ولم يكن فى طبيعة الرجال ولا فى طبيعة الخصوم ما يعتبر غريباً عليه .

ثم انفتح المجال أمام هذه القيادة الطبيعية الملهمة بالممارسة العملية والإدارة الفعلية والاطلاع الواسع والتحصيل المتواصل ، والتحم الفكر بالتجربة ، وتدعمت المعنويات بالماديات وزادت حصيلة المعرفة الميدانية والدروس المستفادة من المعارك البطولية التى خاضها جنود الإسلام ، وهم يسعون إلى النصر أو الشهادة .

ولا ريب أن أهم ما فى القائد أن يكون على معرفة بصنعته ولكن الثقافة العامة — وليست المعرفة العسكرية وحدها — هى المدرسة الحقيقية للقيادة ، وليس بين عظماء القادة فى التاريخ كله من لم يغترف من نتاج الفكر البشرى والمشاعر الإنسانية ومن لم يكتسب من الاطلاع والتجربة مرونة الذهن وسعة الأفق .

تقول كتب القيادة ، كما تحدث سير عظماء القادة — أن معرفة القائد يجب أن تستند إلى الإدراك العام (Common Sense) والمعرفة بالشئون العامة والأخلاق والمشاعر والعواطف الإنسانية »

وفى رأى حديث للفيلد مارشال مونتجمرى أوف علمين أنه لكى تقود جيشاً يجب عليك بادئ ذى بدء أن تكون واسع العلم بالطبيعة البشرية لأن هذه هى المادة الأساسية التى ينبغى على كل قائد أن يكون

بالغاً أعماقها . وإذا أنت أهملت العامل الإنسانى فلن تكون قائداً ناجحاً .

ومن الدراسات العصرية الموفقة فى تحليل القيادة ما جاء به الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه المشهور « عبقرية محمد » إذ قال عن «عبقرية محمد العسكرية » : « لقد كان نعم القائد البصير إذا وجبت الحرب ودعته إليها المصلحة اللازمة ، يعلم من فنونها بالإلهام ما لم يعلمه غيره بالدرس والمرانة ، ويصيب فى اختيار وقته وتسيير جيشه وترسيم خططه إصابة التوفيق وإصابة الحساب وإصابة الاستشارة » .

وفى المقارنة الدقيقة التى عقدها بين محمد القائد ونابليون القائد ، والمضاهاة بين خطط كل من القائدين انتهى إلى أن محمداً القائد كان سابقاً فى جميع التفاصيل ، وبينهما مئات السنين — والفضل للأسبق — على الرغم من أن الأول كان يقود مئات من المشاة والجمال وحملة السيوف والرماح ،أما الثانى فكان يدفع عشرات الألوف من الفرسان ويستخدم الرصاص والمدافع .

٢ — الشجاعة :

لا جندية بلا شجاعة .

والجندية الحقة تعتمد على الشجاعة فى مواجهة أهوال الحرب ومفاجآت المعارك ، والشجاعة هى التى تدفع الجندى إلى المخاطرة بحياته وإلى خوض معمعان الموت . . وهو يعلم أنه الموت .

وإذا لم يكن القائد شجاعاً فإن نتيجة المعركة تدرك سلفاً قبل بدء القتال ، على حد قول المتنبي :

سراياك تترى والد مستق هارب وأصحابه قتلى وأمواله نهبى
كذا يترك الأعداء من يترك القنا ويقفل من كانت هزيمته رعبا
فحب الجبان النفس أورثه التقى وحب الشجاع النفس أورده الحربا

وكذا قول شوقى :

وقام فتانا الليل يحمى لواءه وقام فتاهم ليله يتلعب
وهل يستوى القرنان ، هذا منعم غرير وهذا ذو تجاريب قلّب
فأعرض عن قواده الجند شاردا وعلمه قواده كيف يهرب

لا غرو أن تكون الشجاعة فى مقدمة صفات العسكريين فهى المعين الذى يزود الجندى بروح الكفاح ، والقوة الكامنة التى تدفعه لخوض الأهوال وانتزاع النصر فى مواطن الشدة واليأس .

وقد حفل تاريخ الحروب بوقائع وأحداث كان للشجاعة فيها النصيب الأوفى قبل أى سلاح آخر من أسلحة القتال ، وإذا كان القائد هو رأس الجيش فإن شجاعته — العقلية والبدنية — هى القياس الصحيح لحالة الجيش ومستقبل المعركة ، فالقائد الشجاع يرى النصر ماثلاً أمامه ، وهو حين يشير إلى جنده بأمر فإنه يدفع فيهم من قوة عزمه ورباطة جأشه قوة معنوية بالغة التأثير .

إن شجاعة محمد القائد كانت القدوة لرجاله ، فهم يرون فيه شجاعة الفكر وشجاعة القلب ، وهو الذى كان يجهز رجاله للقتال

وهو يعلم أنهم أقل من الخصوم عدداً وعدة وهو الذى كان لا يكتفى بتوجيه القوات من موقع قيادة آمن، بل كان يشاركهم فى المعركة ويتقدمهم إلى مراكز الخطر :

وقد أثر عن على بن أبى طالب قوله :

« كنا إذا حمى البأس
التقينا برسول الله (صلى الله عليه وسلم)
فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو »

وآية شجاعة محمد أنه كان يتجنب القتال فى غير ضرورة ، كما كان يخوض الحرب غير هياب إذا لم تعد عن الحرب مندوحة .

فلما استقر الرأى على قتال قريش عند « أحد » ، وتغلبت فكرة المبادأة على الانتظار وقال قائلهم : « اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنا منهم وضعفنا » اتخذ القائد قراره ، ولبس لأمته – أى تجهز للحرب – فلما خشى بعض المؤمنين أن يكونوا قد استكرهوا القائد على اتخاذ خطة دون الأخرى وجدوا منه الرأى الحازم والقول الفصل ، ذلك أنه قد اتخذ قراره :

« ما ينبغى للنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل »

وهذا أسلوب عظيم ينم عن ديمقراطية القيادة واحترام الرأى وقوة القرار ، فالجندى – متى استشير – يدلى برأيه فى حرية وشجاعة وأدب ، وإن كان مخالفاً لوجهة نظر القائد ، وقد كان رأى الأغلبية المبادرة إلى لقاء العدو ، وقد صدر القرار فلا تردد ولا تراجع :

إذا همّ ، ألقى بين عينيـــه عزمه   وأعرض عن ذكر العواقب جانبا

وفى معمان معركة أحد ، وفى قلب دائرة الخطر ثبت القائد ــ والحراب والسهام ترصده من كل جانب ــ ولم يبق معه إلا اثنا عشر رجلا :: وخلص العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقذف بالحجارة حتى وقع لشقته وأصيبت رباعيته وشج فى وجهه وكلمت شفته فجعل الدم يسيل على وجهه ، ولكنه استمر على موقفه يدرأ المهاجمين له ويدير دفة القتال ، وهذا دليل سكينة النفس فى غمرة الخطر وشجاعة العقل فى ظلمة الهزيمة ، فلما حانت منه التفاتة ووجد أن بعض المشركين يحاولون بلوغ ناحية الجبل دفع عمر بن الخطاب ورهطاً من المهاجرين حتى تغلبوا عليهم وأنزلوهم وسيطروا على هذا الموقع الحاكم .

وفى غزوة حنين اعتذر القائد عن تجنب خطر القتال وشارك رجاله بشجاعة فيما يستهدفون له ، فلما مال ميزان المعركة وأحدق الخطر بالمسلمين كان ثباته نقطة التحول فى الموقف ، إذ اقتدى به رجاله وتحولوا عن الفوضى والفرار إلى الثبات والاستبسال حتى تغير الحال وتحول إليهم النصر :

فالشجاعة عند محمد القائد كانت تدفعه إلى القسوة فى القتال وإلى الإطاحة برقاب الخونة والمارقين وإلى الثبات فى مواطن الشدة والخطر : فإذا انتهت المعركة انتهت معها كل ظواهر وبواطن الخصومة والعداوة وحلت محلها الرحمة والرأفة :

الخيـــل تأبى غير « أحمد » حاميا   وبها إذا ذكر اسمه خيلاء

شيخ الفوارس يعلمون مكانه   إن هيجت آسادها الهيجاء
ساقى الجريح ومطعم الأسرى ومن   أمنت سنابك خيله الأشلاء
إن الشجاعة فى الرجال غلاظة   ما لم تزنها رأفة وسخاء

٣ ــ الصلابة :

إن خير القواد من كان شديداً لا تهزه كارثة ولا توهن عزمه مفاجأة : والحرب صنعة قاسية لا يصلح لها إلا الرجل المتين .

وإذا كانت كل أسلحة وأدوات الحرب تتميز بالصلابة والمتانة فلا ريب أن تكون هذه الصفة فى مقدمة صفات القائد ، الذى يتربص به الخطر وتدور حوله المفاجآت وتنزل بساحة قيادته الأحداث والكوارث .

فالصلابة فى العرف العسكرى هى القدرة على تحمل صدمات الحرب وتلقى مفاجآتها وعنها يقول المارشال ويفل :

« عندما تقرأون التاريخ العربى لا ينبغى أن تفوتكم ملاحظة الإخفاق الذى كان سببه غالباً افتقار القائد إلى صفة الصلابة » .

ثم أوضح ذلك فى البيان التالى :

« لقد اعتاد رجال المدفعية اختبار متانة المدافع بإلقائها من ارتفاع معين ، فإذا استمر المدفع صالحاً بعد هذه « الصدمة » تقرر قبوله ، ذلك لأن المدافع الجبلية كانت عرضة للسقوط من التلال والمرتفعات ولهذا يجب أن تكون صالحة للعمل بعد هذه السقطة ، كذلك كانت الأسلحة الصغيرة ــ كالبنادق ــ تطمر فى الوحل لمدة ثمان وأربعين ساعة

قبل أن تختبر لتقدير كفايتها ؟ ؟

وعقل القائد لا يطمر لمدة ٤٨ ساعة فقط بل أياماً وأسابيع فى أوحال المعلومات غير المؤكدة ورمال العوامل المجهولة ، ويتلقى القائد الصدمات من تحركات العدو المفاجئة أو الحوادث غير المتوقعة مما لا يحدث مثلها للمدافع حين تقع من ارتفاع مائة قدم » .

وتاريخ محمد القائد يؤكد أنه كان متصفاً بالمتانة .

فقد كان يتخذ قراره الشجاع بالمضى إلى الحرب غير هياب ولامتزعزع الثقة .

وكان لا يكتفى بإدارة المعركة بل كان يخوضها كما يخوضها رجاله المحاربون .

فإذا اشتدت رحى القتال كان يُرى فى دائرة الخطر يدفع بما فى يده من سلاح .

وإذا دارت دائرة الحرب على جيشه لم تفارقه شجاعته ولم يبارحه ثباته وإنما يتلقى الصدمة ويدرأها ويحث رجاله على الثبات ويلوح لهم ببشائر النصر .

وفى معركة أحد – على سبيل المثال – أحدق به الخطر وتسابق الخصوم إلى ضربه وطعنه ومحاولة قتله ، ولكنه استمر فى القتال وتبادل الضربات ولم تفته محاولة العدو اعتلاء الجبل ، فنظر إلى عمر بن الخطاب وأشار إليه فحمل مع بعض الرجال البواسل حتى احتلوا قمة الجبل ودرأوا الخطر ، وبذلك تغير الموقف من الهزيمة المهينة إلى النصر المؤزر

وكذلك وقعت له مفاجأة فى معركة حنين كادت تقضى على كل أمل لولا صلابته وشجاعة نفسه فقد ثبت فى الموقف الشديد وعلم رجاله الثبات :

وكان محمد هو القائد الرزين الذى يدرس الموقف بعناية وفطانة ويستشير صحبه حتى إذا اتخذ قراره لم يرجع عنه .

وكان هو القائد الذى لا توهن عزمه أحداث الحرب وصدماتها ، ولا تحوله عن هدفه أى طوارئ أو مفاجآت .

٤ ــ الكتمان :

من المأثور عن الكاردينال ريشليو قوله : إن الكتمان هو روح الأعمال .

وقد اعتبر الكتمان أو السرية من لوازم العمليات الحربية ، وأيضاً من صفات القادة الكبار ، ولم يكن هناك من يضارع نابليون فى صمته ، وقد علم قواده أن يحيطوا أنفسهم بمثل صمت الرهبان ، ولم تكن شفاههم تنطق إلا بالقرارات فى حينها ولا تعلن عن أية تحركات أو أوامر قبل الشروع الفعلى فى تنفيذها :

فالكتمان يحفظ أسرار الخطط والعمليات الحربية حتى لا يعلم بها العدو ، ولذلك استخدمت الرموز وحددت النسخ التى تصدر بأوامر العمليات وتعليمات التحرك وأودعت الخزائن كالجواهر التى لا تقدر بثمن ، وأنشئت إدارات المخابرات للحصول على المعلومات عن العدو ، وأيضاً

الحيلولة دون وصول المعلومات إليه ، إلى غير ذلك من الإجراءات التى تحفظ الأسرار الحربية حتى لا يعلم بها العدو ، وحتى يمكن تنفيذ الخطط والعمليات وما فيها من تحركات مفاجئة وتوقيتات غير متوقعة .

أما بالنسبة لمحمد القائد فقد كان الكتمان من خصائصه البارزة منذ تلقى رسالة ربه إلى الناس كافة ، فقد بشر عدداً محدوداً من المقربين إليه الموثوق بقدرتهم على حفظ السر وعلى الاحتياط فى القول والعمل ، ونزلت الآية :

« وأنذر عشيرتك الأقربين »

واستمرت الدعوة سراً زهاء ثلاث سنوات حتى أمره الله أن يظهرها.

وفى سيرة محمد العسكرية تتضح عنايته بالسرية والأمن ، وقد كان يختار الفرصة التى يجهر فيها البعث أو الغزو ويحدد الطريق ويضع الخطة ، ثم يسر بها للقائد فى الوقت الملائم قبيل التحرك أو بعده ويزوده بالوصايا والتوجيهات اللازمة .

وفى بعض المواقف التى تحتاج إلى المزيد من السرية والكتمان كان يعطى القائد رسالة مغلقة لا يفتحها إلا بعد وصوله إلى مكان محدد أو بعد وقت معين حيث لا خشية بعد ذلك من معرفة محتوياتها ، ومن ذلك بعث عبد الله بن جحش ، فقد جهزه القائد للتحرك دون أن يعلم أحد من المحيطين به شيئاً عن اتجاه التحرك وهدفه ، ثم سلمه رسالة وكلفه ألا يفضها قبل مسيرة يومين — حيث لا يكون بعدها خطر من الإعلان وحتى يصبح الرجال على مقربة من مسرح العملية المطلوبة — فلما سار

عبد الله يومين فض الرسالة وقرأ فيها :

« سر حتى تأتى بطن نخلة ، على اسم الله وبركاته . لا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك . وامض فيمن اتبعك حتى تأتى بطن نخلة فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم » .

إن بعث عبد الله بن جحش كان بمثابة دورية استطلاع ، لابد أن يحاط مسارها وهدفها بالسرية التامة ، لأن مهمتها هى الحصول على معلومات عن العدو ، فاذا بلغه خبرها أمكنه أن يظفر بها ويقضى عليها لأنها ليست معدة للقتال ، لا عدداً ولا غاية .

٥ ـ القدوة الحسنة :

جعل الله نبيه صلى الله عليه وسلم قدوة للمؤمنين يأخذون عنه ويتمثلون به ويقتدون بفضائله وأفعاله :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة »

كذلك كان محمد القائد قدوة لرجاله بما كان عليه من يقظة وثبات وإقدام وصبر وتحمل .

وإذا كان القائد هو مطمح أنظار وأفكار جنوده فإن القدوة تعمل عملها وتؤثر فى عقليات ونفوس ومشاعر الجنود ، ولذا يقال :

« مثلما يكون القائد تكون الجنود »

من واجب القائد الذى يرتب جنوده ويحركهم ويتطلب منهم النظام والإقدام ويدعوهم إلى الصبر على المكاره والثبات فى مواطن الشدة أن

يكون هو نفسه متحلياً بهذه الصفات :

وقلدوا أمركم لله دركمو رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفا إن رخاء العيش ساعده ولا إذا عض مكروه به خشعا

وقد كان محمد القائد نموذجاً لرجاله بحق ، ومن أمثلة ذلك :

١ — عندما خرج من المدينة إلى أول معركة ضد قريش كان مجموع رجاله ثلثمائة وخمسة وعدد الظهور سبعين بعيراً ، فكان لكل ثلاثة رجال بعير واحد يعتقبونه — أي يركبه كل منهم مرحلة ويمشي مرحلتين — فطلب شريكا القائد أن يتنازلا عن حقهما ويتركا له البعير فيركب هو ويقطعا هما المسافة مشياً . ولكنه أبى وأصر على أن يسير كما يسير كل منهما شوطين ويركب شوطاً .

وقال :

« ما أنتما بأقوى منى على المشى ، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما »

وفى التعليمات الحديثة للقيادة نرى درساً بالغ الأهمية ألقاه على الضباط الفيلد مارشال وليام سليم :

« فى ساعة حرجة من ساعات التقهقر صادفت إحدى السرايا تفتح طريقاً فى الغابة وأنبأونى أن الحالة سيئة فألقيت عليهم نظرة واحدة وقلت لنفسى : يا إلهى إن الحالة أسوأ بكثير مما كنت أظن . .

وسرت حول ركن الثغرة فوجدت الضباط يهيئون لأنفسهم الشاى ! حقيقة كانوا مجهدين كالجنود ، ولكن ليس هذا هو لب الموضوع . . لأن الضباط وجدوا ليقودوا الجنود ! ؟

وإنى أناشدكم بصفتكم ضباطاً ألا تأكلوا أو تشربوا أو تدخنوا أو تجلسوا . . أو حتى تستندوا إلى شجرة : حتى تتأكدوا تماماً أن جنوكم قد هيأت لهم الظروف أن يفعلوا ذلك ، قبلكم » ! ؟

٢ ــ أخذ محمد القائد برأى سليمان الفارسى فى حفر الخندق عند الثغرة التى خيف أن يهجم منها المشركون على المدينة ، فأمر بحفر الخندق واشترك بنفسه فى الحفر ، أى عمل بيديه كما طلب من رجاله أن يفعلوا .

٣ ــ إن محمدا القائد كان لا يقنع بالقيادة من موقع آمن ــ وكان هذا حقاً له ، وكثيراً ما نصح به ــ ولكنه كان يشارك رجاله فى جميع العمليات ويتقدم إلى مواقع البأس والشدة ويقاتل بجرأة وبسالة ويستهدف الخطر ، وإذا رجاله يقتدون به ويقدمون إقدامه ويلتفون حوله يرجون حمايته وتلقى الضربات عنه .

كما أنه ثبت فى وقعة حنين ، حين طارت النفوس شعاعاً وضعفت العزائم أمام بأس الخصوم ، فلما وجدوا قائدهم ثابتاً صابراً مناضلاً تأثروا بموقفه وحذوا حذوه وعادوا إلى مواصلة القتال حتى عدلوا الموقف وأحرزوا النصر .

إن الجنود ــ كل الجنود ــ يتأثرون بقائدهم ويقتدون به ، فالقائد هو المثل الأعلى ، والمثل خير معلم ، وكيفما يكون القائد يكون الجنود :

وفى الحديث الشريف :

كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .

ويعتبر هذا الحديث بمثابة البند الأول فى دستور القيادة : فقد أوضح

أهمية القائد فى كل رتبة من رتب القيادة وفى كل معترك من معارك الحياة . فكل قائد مسئول عن الرعية ، وكل رعية فى حاجة إلى قائد ، والقادة — معاً — مسئولون مسئولية جماعية عن الرعية .

٦ — قوة الخلق :

قال تعالى جل شأنه مخاطباً نبيه عليه الصلاة والسلام .

« وإنك لعلى خلق عظيم » .

وقال عليه الصلاة والسلام .

« أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

وهكذا تولى قيادة المسلمين فى أول عهدهم بالقيادة والحرب قائد على خلق عظيم .

فما هو وضع « الخلق » فى قائمة صفات القادة فى جميع الأزمان .

لقد أجمع الثقات والخبراء فى شئون القيادة على كثير من خصائصها ، ولعل أهم ما يتجمع لطبيعة القائد فى صفتها المثلى : الشجاعة ، الحزم ، الصراحة ، الغيرة على الشرف ، الطاعة ، الإيمان بالحق وحب الإنجاز .

لا بد أن يحتل الشرف العسكرى اعتباراً سامياً فى نفس القائد ، فالخلق مقدم على الذكاء ، وقد كانت قوة الخلق أهم خصائص القواد العظام .

والجندية تقوم على الشجاعة والغيرة ، وكان يحرم من شرف الجندية كل من ثبت عليه التراجع أو النكوص فى كلمة الشرف التى أخذها على نفسه .

إن « شرف الجندية » غال ، ولابد أن يتخذ القائد سلوكاً يميزه عن بقية الناس ويجعله قدوة لرجاله ، وإن الشعار الذى يجب على القائد أن يتخذه لنفسه ولجنده هو :

« الموت ، ولا العار »

وإذا أوذى شرف القائد فلا شىء يكفر عنه ، حتى الموت .

إن القائد العظيم — كما وصفه مارشال فايول — هو الذى يجمع إلى متانة الخلق سلامة الذوق ، وكثيراً من التحصيل .

ويقول مارشال ويفل :

إن القائد الناجح يجب أن يكون على خلق ، إنه أمام هدف يحتاج تحقيقه إلى الشجاعة وقوة العزيمة .

والحق أن القائد فى حاجة لكل فضيلة بشرية ، ولكن هناك صفات أكد عليها واتفق على أهميتها كبار الباحثين فى سير القادة ، ومنها الإرادة وهى التى تجعل القائد يتخذ قراراً وهو مقدر لنتائجه ، والثبات على الجهد وهو الذى يقضى على التردد ويذلل كل صعب ، وما العبقرية إلا جهد عظيم ، وتسعون فى المائة منها عرق ، ثم الشجاعة الفطرية التى لا يهتز صاحبها أمام الكوارث ولا يطير لبه بفعل المفاجآت .

وقد راجع المارشال مونتجمرى وقابل بين صفات ثلاثة من القادة — يعتبرهم هو ثلاث نماذج للقادة العظام — وهم : موسى ، وكرومويل ، ونابليون بونابرت وخرج من هذه الدراسة بالنتيجة التالية :

« القيادة هى التصميم على العمل بروح تستحوذ على ثقة الجنود

وإن قياس قدرة القائد تتوقف على أمرين :

الأول : التصميم على مواجهة الرجال والأحوال التى تحيط به والقدرة على تجميع نفسه ورجاله بأقصى قوتهم لإحراز غرض معين ، دون أن يحوله أى شىء عن ذلك الهدف .

والثانى : قوة خلقه وعظمة شخصيته التى تجعل رجاله يضعون ثقتهم فيه ويؤكدون قدرته على قيادتهم إلى النصر .

وقال مونتجمرى :

إن الميزة الكبرى لموسى وكرمويل ونابليون هى :

إيمان الجنود بالقائد ، وثقة القائد بنفسه ورجاله وهدفه .

إن القائد الذى لا يهتم بالناحية الإنسانية هو قائد فاشل .

وإذا كان هذا هو موقع الخلق من قائمة الصفات الأساسية للقائد ، فإن محمداً القائد صلى الله عليه وسلم يعتبر من هذه الناحية فى رأس القائمة بين كبار القادة فى جميع الأزمان . .

٢ ـ نظرات محمد فى القيادة والحرب

إن القائد الذى لم تكن الحرب حرفته أو هويته ، والذى كان يدعو إلى الإسلام والسلام ، لم يكن يخشى الحرب إذا فرضت عليه ولم يعد منها بد ، فكان يمضى إليها موفور العزم مكتمل العدة كبير الثقة .

وقبل أن يؤذن له بقتال الذين يقاتلونه كان محمد يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ولم يلجأ إلى الشدة والإكراه ، والذى حدث هو أن قريشاً

أعرضت عن دعوته وناصبته العداء ونكلت بأصحابه وأتباعه وأصابتهم فى أموالهم وأنفسهم فأنزل الله آيته الكريمة « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير » ثم توالت الآيات البينات تعاليم هدى للمحاربين ودستور سلام وحرب :

« وإن جنحوا للسلم فاجنحْ لها

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوْا فلا عدوان إلا على الظالمين .

« إن الله اشترى منَ المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنةَ

« يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون .

« الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجةً عند الله وأولئك هم الفائزون .

« انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله .

« وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً .

« إذا لقيتم الذينَ كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبارَ .

« يا أيها النبى حرض المؤمنينَ على القتال ، إنْ يكنْ منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهونَ .

* وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم .
* فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين .
* وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين .
* ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله .

وهكذا فإن محمداً القائد دخل الحرب وهو على بينة منها يعلم أنها شر لابد منه وخطر تتحتم منازلته ، وأنه حاول أن يتفاداها فلم يستطع ، وأنه قد صار عليه أن يخوضها مستعداً بأقصى ما يصل إليه من قوة ، وأن يحرض المؤمنين على القتال ، وأن يوصيهم بالصبر على المكاره ، وأن يكون قدوة لجنوده فى الجهاد والجود والشجاعة والتحمل . .

ثم إنه يعلم أن الحرب صنعة تعتمد على عناصر لابد من توافرها وقوى لابد من تجهيزها وصفات وخصائص لابد من التحلى بها ، وأن الحرب لها سلاحان ؛ سلاح مادى وسلاح معنوى ، وأنه لابد لكسب الحرب من أصول ومعلومات وفطانة .

لم تكن احتياجات الحرب مذكورة فى كتاب ولا مبادئها معروفة لهذا النفر من الذين آمنوا ، ولكنها كانت أشياء جديدة عليه وعليهم ، ولهذا كان عليه أن يفكر ويبتكر ويجرب ويمارس . . كان عليه أن يضع الخطط والنظم والتعليمات والتوجيهات .

كان عليه ، إذن ، بعد أن أصبح فى مركز القيادة أن ينظم رجاله وأن يختار لكل منهم مكانه ودوره ، وأن يستقرئ ويستخدم ما لديهم من خصائص ومزايا ، وأن يشاورهم فى خططه حتى يعودهم التفكير والرأى ويحثهم على المشاركة والشعور بالمسئولية واقتحام الأخطار .

كان هو القائد والمعلم والمخطط والموجه ، كما كان هو واضع المبادئ النظريات والأخلاقيات التى عمل بها قواده وخلفاؤه ثم صارت للمسلمين جميعاً من بعده رسالة ودستوراً .

ومن نظرات محمد القائد ما نقدمه على سبيل المثال :

١ — مشروعية الحرب .

٢ — الديمقراطية فى الجيش .

٣ — اختيار الشباب للقيادة .

٤ — أهمية الاستطلاع والمعلومات .

٥ — الخدعة والمفاجأة .

٦ — قوة الروح المعنوية .

١ — مشروعية الحرب :

كان رأى محمد القائد أن السلام خير وأن الحرب شر ، وأن الحكمة أولى من الإكراه ، وأن الاعتداء على القوم الآمنين جريمة ينهى عنها الدين وتمقتها الإنسانية .

ولا تكون الحرب مشروعة قبل استنفاد كل الوسائل السلمية ،

فإذا ما وضح أن العدو مبيت للشر سادر فى أطماعه المجنونة مستمر فى أعماله العدوانية ، لم يعد بد من رد الصاع صاعين ولم يبق غير الحرب بكل الإمكانيات وبكافة الأسلحة وبمنتهى الشدة وبأقصى التضحية .

لقد دعا الإسلام إلى السلام ونهى عن الإكراه ولم يلجأ الرسول إلى القوة داعياً ولم يلجأ إليها مدافعاً حتى تصاعد العدوان وأشتد الكرب واستفحل الخطر فأذن الله للمؤمنين فى قتال الذين يقاتلونهم ويعتدون عليهم .

والمسلمون لم يلجأوا إلى السيف إلا للدفاع عن حرياتهم وأمنهم ولم يدخلوا الحرب اختياراً ولكن اضطراراً ، ولم يعمدوا إلى استخدام القوة إلا ردعاً للعدوان أو تثبيتاً للحق أو دفاعاً عن العرض والكرامة ، وكان شعارهم فى الحرب من قوله تعالى :

وقاتلو فى سبيل الله الذين يقاتلونكم

ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » .

ومجمل القول فى حروب الإسلام أنها لم تكن حروب هجوم واعتداء وإنما كانت حروب دفاع ووقاية لدفع الأذى وتأمين الدعوة .

والحروب الإسلامية كان باعثها الجهاد فى سبيل الله وفى سبيل نشر دينه الحنيف وحماية الدعوة ومواجهة طغيان الظالمين والمعتدين .

والمسلمون لم يتخذوا القوة العسكرية وسيلة لإخضاع الخلق وقهر البلاد، وإنما سالموا من يسالمهم — كما فعلوا مع الحبشة — وحاربوا من بدأهم بالعدوان ، كما فعلوا مع قريش ومع يهود المدينة الذين نقضوا العهد ، ومع

الفرس ومع الروم الذين كانوا يهددون بالإغارة على الوطن الإسلامى وقتلوا وفود السلام .

وقد بلغ الشاعر شوقى غاية ما يقال فى مشروعية الحرب ، فى همزيته النبوية ومنها قوله :

الحرب فى حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواء
والحرب من شرف الشعوب فإن بغوا فالمجد مما يدعون براء
والحرب يبعثها القوى تجبراً وينوء تحت بلائها الضعفاء
كم من غزاة للرسول كريمة فيها رضى للحق أو إعلاء

٢ ـ روح الديمقراطية :

كان جيش الجهاد الإسلامى جيشاً من الأحرار يؤمنون بالدعوة ويدركون ما يدبر لهم من خصومهم ، ويتوقون لقتال الذين يقاتلونهم ويسعى كل مجاهد ليحصل على أحدى الحسنين : الظهور أو الشهادة .

لم يكن جيشاً مساقاً بالرغم منه ولا متجهاً إلى حيث لا يعرف ولم يكن جيش غزو وأطماع وقهر وعدوان .

ومثل هذا الجيش يكون على علم بكل فكرة وخطة وهدف ، ولهذا فإنه يقدم عن اقتناع ويحارب بلا هوادة ويقبل على التضحية باستبسال واستبشار ه

وهذا الذى كان عليه الجيش الإسلامى هو ما تسعى إليه الجندية الحديثة ، لكى تدخله على الجيوش العصرية فتذكى روح الديمقراطية

وتثير فى العقل عوامل الإدراك والثقة والاقتناع ، وتحاول أن تعطى الضباط والجنود تفاصيل المعلومات وجزئيات الخطة وفرص المناقشة وإبداء الرأى وحرية العمل فى نطاق الخطة العامة .

وبهذه الحقيقة — التى تدرس اليوم فى الكليات العسكرية وتحاول القيادات الكبرى تقريرها — كان محمد القائد يمارس المشاركة والمشاورة مع رجاله .

قبل وقعة بدر جاءت الأخبار بأن قريشاً تستعد للمسير وتبيّت للإحداق بأصحاب محمد والإجهاز عليه ، فأخذ القائد يجمع رجاله ويشاورهم فى الأمر ، هل يقدم على حرب قريش أو يحجم ؟

بدأ المحاورة المقداد بن عمرو ، قال :

يا رسول الله ، امض لما أمرك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى « فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فوالذى بعثك بالحق لنكونن من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك أو يفتح الله لك بالنصر المبين .

وكان رد القائد : خيراً ، ودعا له بخير .

وقال عمر :

يا رسول الله إنها قريش وعزها ، والله ما ذلت منذ عزت ولا آمنت منذ كفرت ، والله لتقاتلنك ، فتأهب لذلك أهبته وأعد لذلك عدته .

والتفت القائد إلى الأنصار يريد أن يعرف رأيهم ، قائلاً :

« أشيروا عليّ أيها الناس »

فتقدم سعد بن معاذ ، الأنصارى ، وقال :

« والله لكأنك تريدنا يا رسول الله »

قال : أجل

قال سعد :

« لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله كما أردت فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد .

وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً .

إنا لصُبُر عند الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء .

لعل الله يريك منا ما تقر به عينك .

فانهض بنا على بركة الله »

وهكذا ، بعد أخذ الرأى واستكمال الشورى قرر القائد أن يواجه قريشاً وينازلها ، وقال :

« سيروا على بركة الله وأبشروا

فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين

والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم »

• •

وفى المكان الذى اختارته القيادة ، قريباً من بدر ، بدأ القائد

عملياته الاستطلاعية، وأخذ يعرض الموقف على رجاله — كما يفعل القائد العام مع أركانىّ حربه أو مجلس الحرب — فتقدم منه الحباب بن المنذر وهو يجوس ببصره حول الموقع — وقال :

« يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه . . أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ » .

وجاءه رد القائد :

« بل هو الرأى والحرب والمكيدة »

قال الحباب :

« يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل فانهض بنا حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القُلُب ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه فنشرب ولا يشربون » .

وفكر القائد بسرعة وهو يتابع هذا التخطيط الجديد ، وقال :

« لقد أشرت بالرأى »

ونهض القائد فعدل الخطة وسار ومن معه حتى أدنى ماء من القوم فنزل عليه ثم أمر بالقُلُب فغورت وبنى حوضاً على القليب الذى نزل عليه فلئ ماء ثم قذفوا فيه الآنية .

هذا مثل من أجلّ أمثلة القيادة الرشيدة ، فإن محمداً القائد لم ينفرد بالرأى ولم يستقل بوضع الخطة — وهو على ذلك قدير — وإنما أخذ برأى أصحابه واستشارهم حتى حصل على الرأى الصائب وجعلهم يفكرون

ويقترحون ويشاركون ، ثم إنه نزل عن رأيه أمام جميع رجاله فشهدوا وشهدت الأجيال المتتابعة وشهد فن القيادة بأن محمداً القائد كان خير قدوة،وكان أجل وأشرف وأعقل من قاد الرجال وجمع القلوب وحشد الأفكار وأكد الديمقراطية ورفع لواء الحرية .

٣ ــ اختيار الشباب للقيادة :

الشباب فى الحرب مناط النشاط والحيوية و براعم الشجاعة البدنية والمتانة .. وهى القدرة على تحمل الصدمات وتلقى المفاجآت .

ولهذا كان اليونان والرومان القدماء يختارون لجيوشهم القادة الشبان الذين يستطيعون أن يمتطوا صهوات الخيل عشرين ساعة فى اليوم ، ثم يحيطونهم بهيئة أركان حرب من الرجال الكبار ذوى الخبرة والدراية بالمسالك الجبلية وبالتجارب السابقة فى الحروب .

وقد أحرز كبار القادة فى التاريخ شهرتهم الحربية وانتصاراتهم الخالدة وهم فى عز الشباب وضحوة العمر،وتمت أعظم الأعمال تحريكاً لنفوس الجماهير على أيدى شباب بواسل يجمعون بين القوة والاندفاع والفطانة ، فالشباب هو عهد البطولة .

كان الإسكندر المقدونى فى الخامسة والعشرين من عمره عندما أحرز النصر العظيم فى معركة « أرابيلا » إحدى المعارك الفاصلة فى التاريخ ، فقوض ملك فارس أقوى إمبراطورية فى ذلك الزمان القصى ، وغزا مصر وبابل وفتح الهند ؟

وعبر هانيبال البحر وصعد الجبل وأقدم على مجازفة أو عمل من أعمال الشياطين . . وغزا إيطاليا اولكنه بعد ستة عشر عاماً من انتصاراته الكبرى لم تعد لديه القوة اللازمة لقهرالشاب الصاعد : سيبيو . وفاز الشاب الجديد على الشيخ صاحب الأمجاد فى معركة « زاما المشهورة » .

وهكذا لمعت فى ريعان الشباب أسماء القادة العظام فى التاريخ : بلزاريوس ، وفردريك الأكبر — أعظم جندى فى أوربا — وجاكسون وجوستاف أدولف وتورين مارشال فرنسا فى الثانية والثلاثين — وكوندليه — القائد العام فى الثانية والعشرين . . وسابوتى وشارل الثانى عشر والبرنس أوجين الذين كانوا جنرالات قبل سن الثلاثين .

وحارب نابليون أوربا وهو فى شرخ الشباب وأخذ يحرك التيجان على رقعة الشطرنج، ويضع تصميماً جديداً لأوربا من صنع خياله وبحد سيفه . وكان من رأى نابليون ألا يولى القيادة من تجاوز عمره الخامسة والأربعين . . ولعل ذلك كان سر انهزامه فى ووترلو ، فقد كان عبر الحد الذى قرره لأعمار القادة . . كان قد بلغ السادسة والأربعين فى تلك المعركة الفاصلة التى اشتهرت بكلمته الذائعة. «خسرنا كل شىء إلا الشرف » .

وإذا نظرنا إلى قائمة القادة العسكريين خريجى مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم وجدنا أمثلة لا يحصيها عد لقادة ينبضون شبابا وشجاعة وحكمة وإيماناً ، قادة ذوى أخلاق ومبادئ ومثل . . كانت سيوفهم تقطر دماً وقلوبهم تفيض بالخير والرحمة .

فى قيادة محمد كان الشباب الوثاب موضع العناية ومعقد الرجاء . . ولقد تمرسوا بالحرب واشتركوا فى وضع الخطط وتدربوا على القيادة ، ولمعت أسماء علي وخالد وعمرو والزبير وأسامة .

وقد كان تعيين أسامة بن زيد وهو فى العشرين من عمره قائداً لجيش المسلمين — وفيه أبو بكر وعمر وكبار المسلمين — شيئاً يثير التساؤل والاندهاش ، وإنما ولاه القائد الأكبر ليجعل له من فخار النصر ما يجزى به استشهاد أبيه زيد بن حارثة فى « مؤته » ، وما يعوّد الشباب الاضطلاع بتبعات القيادة ، وكان آخر ما أمر به قبل وفاته :

« أيها الناس ، أنفذوا بعث أسامة » .

ولقد كان أسامة خليقاً بالقيادة كما كان أبوه خليقاً بها ، فحمل اللواء واندفع بشبابه الوثاب يقطع البيد ويتخطى المفاوز تحت وطأة الحر الشديد والسرعة المطلوبة حتى بلغ البلقاء ونزل بعساكره فى « مؤته » ومنها أغار على « آبل » وقبائل « قضاعة » وأعمل فيهم القتل والحرق والغنم فى عملية خاطفة وهجمة جريئة فى عماية الصبح .

٤ — أهمية الاستطلاع والمعلومات :

عندما استقر مقام المسلمين فى المدينة وأدرك محمد القائد أن قريشاً تتجهز للقضاء على مجموعة المسلمين وإخماد الدعوة ، أخذ يوجه اهتمامه لمعرفة استعدادات قريش وتحركاتها وقوافلها وأموالها وما تعده من أفراد وأسلحة ومؤن حتى يكون على بينة من أمرها وعلى علم بخططها ، وكان

من وسائله فى ذلك إرسال أطواف وسرايا تتلمس المعلومات وتكشف المؤامرات وترصد التحركات .

هذا التفكير الذى اهتدت إليه طبيعة القيادة فى محمد صلى الله عليه وسلم ، والذى يعنى أنه لا بد قبل مواجهة العدو من معرفة تجهيزاته ، هو التفكير الذى تأخذ به الجيوش الحديثة عن طريق الجاسوسية والمخابرات والطابور الخامس قبل احتدام القتال ، وأيضاً بعث دوريات الاستطلاع ودوريات القتال للحصول على المعلومات أو القيام بعمليات ميدانية محدودة كتدمير موقع منعزل أو تفجير مرفق حيوى أو القبض على أسير قد يدلى بأسرار لها قيمتها..إلى غير ذلك من أغراض الدوريات.

وقد كان أول بعث بقيادة حمزة بن عبد المطلب — فى ثلاثين راكباً من المهاجرين — فالتقى هذا الطوف بجماعة كبيرة من قريش وكاد يحتدم بينهم القتال لولا تدخل قوم محايدين موادعين ، ثم كان بعث عبيدة ابن الحارث والتقاؤه بجماعة يقودها أبو سفيان ، وهو البعث الذى اشتهر برمية واحدة من قوس سعد بن أبى وقاص ، فكان أول سهم رمى فى الإسلام .

كان محمد القائد يشترك بنفسه فى كثير من الأطواف التى ترصد تحركات قريش واليهود وأخبارهما وتعود بالمعلومات التى لا غنى عنها قبل وقوع الصدام .

ومن البعوث المشهورة بعث عبد الله بن جحش ، فقد اختاره للقائد وأسند إليه مهمة سرية محددة ، وسلمه كتاباً أمره ألا ينظر فيه

حتى يسير يومين — كما هو الحال فى الأوامر السرية المختومة التى لا تفض إلا فى وقت أو مكان معين — وتضمن الكتاب :

« سر ، حتى تأتى (بطن نخلة) على اسم الله وبركاته ، لا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك، وامض فيمن اتبعك حتى تأتى بطن نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً أو عيراً لقريش وتعلم لنا من أخبارهم » .

إذن ، هى دورية استطلاع مكلفة بمهمة سرية لا يكشف عنها القائد قبل بلوغه موقعاً معيناً ، ولا يشاركه فيها غير رجال مقتنعين بها قديرين عليها وقد تحددت مهمتها تماماً وهى الحصول على معلومات ، من غير أن تكشف عن نفسها أو تتورط فى قتال .

لكن الدورية وقعت فى خطأين ، أحدهما عسكرى والآخر دينى ، فقد تعدت حدود التعليمات وجاوزت المهمة — وهى مجرد الاستطلاع — واشتركت فى قتال مع قافلة لقريش فأصابت غنيمة وعادت بأسيرين ، وكان ذلك فى شهر شعبان .

المخالفة العسكرية كانت تحولاً عن الهدف المحدد والمخالفة الدينية كانت الحرب فى شهر حرام .

لذلك يعتبر بعث عبد الله بن جحش من الناحية العسكرية اختباراً لتقدير مبدأ هام من مبادئ الحرب وهو المحافظة على الغرض . لقد حدثت مخالفة وعلم بها المسلمون وأدركوا خطأ مخالفة الأمر وأهمية المحافظة على الغرض .

أما من الناحية الدينية فيعتبر مفترق طرق فى سياسة الإسلام وفيه نزلت الآية الكريمة :

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردونكم عن دينكم إن أستطاعوا » .

وقبل التحرك لملاقاة قريش – فى غزوة بدر الكبرى – بعث القائد بطوف من نبهاء المجاهدين : على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد ابن أبى وقاص فتسللوا نحو قريش يتلمسون أخبارها ويتكشفون تجهيزاتها ، فوقع فى أيديهم رجلان شاهدان فأدليا بمعلومات قيمة ، إذ حددا مواقع قريش وكم ينحرون : « يوماً تسعاً ويوماً عشراً » فاستنتج القائد أن القوم ما بين التسعمائة والألف وقال :

« هذه مكة قد ألقت إليكم بأفلاذ كبدها » .

وهكذا سبق محمد القائد بمبدأ الاستطلاع والحصول على المعلومات المتيسرة عن العدو حتى يستطيع أن يقدر الموقف ويسبر قوة خصمه ويستعد لملاقاته .

٥ – الخدعة والمفاجأة :

من مآثر توجيهات محمد القائد قوله :

« وادرعوا الليل فإنه أخفى للويل »

والمعنى أن يتخذ من الليل درعاً يحمى القوات من نظر العدو ونيرانه حتى تفاجئه وتنزل به الويل .

وهذا سبق بعيد العهد لما تدعو إليه اليوم مناهج التدريب الحديثة ، فى أهمية التدريب الليلى وتحقيق مبدأ المفاجأة وضرب العدو من حيث لا يتوقع .

عندما ظهر الخطر على الحدود بسبب تحركات الروم ، بعد الذى كان بينهم وبين المسلمين فى « مؤتة وفى تبوك » اتخذ القائد قراراً بتجهيز جيش كبير لحماية التخوم العربية ودرء خطر الروم ، وجعل على رأس هذا الجيش قائداً شاباً لم يبلغ العشرين من عمره هو أسامة بن زيد ، وزوده بالنصائح والتوجيهات .

لقد أمره أن يوطئ الخيل تخوم « البلقاء » و « الداروم » من أرض فلسطين ،وأن ينزل على الأعداء فى عماية الصبح وأن يمعن فيهم قتلا وأن يحركهم بالنار وأن يتم ذلك دراكاً حتى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه ، فإذا تم له النصر فليسرع بالعودة غانماً مظفراً .

وواضح من ذلك التوجيه أنه يتطلب ثلاثاً :

* الهجوم فى الفجر
* السرعة
* مفاجأة العدو

وهى جميعاً من متطلبات المعارك العصرية وخططها المؤثرة .

٦ — الروح المعنوية :

إذا كان اجتهاد المجتهدين من أصحاب الفكر والرأى فى شئون الحرب قد انتهى حتى عهد نابليون بونابرت إلى مبادئ الحرب السبعة المشهورة، فقد كشفت الحروب فيما بعد ذلك عن مبدأ ثامن ، هو الروح المعنوية :

وهذا المبدأ الجديد — الثامن فى مبادئ الحرب — التى لا غنى عنها لإحراز النصر — كان مطبقاً فى عهد محمد القائد صلى الله عليه وسلم ، بل كان من أسلحته الأساسية التى كسب بها معاركه ، وقد أثر عنه قوله :

« نصرت بالرعب »

كانت الحرب — فى رأى محمد سلاحاً وعقيدة

السلاح فى اليد والعقيدة فى الوجدان .

وإذا كانت المهنة قد وضعت فى يد الجندى سلاحاً فإن العقيدة هى التى تضع فى نفسه كفاحاً ، هى التى تدفعه للإقدام وتعينه على مجابهة الخطر .

كان الجندى المسلم يقدم على الجهاد وهو يعرف غرضه جيداً ويصمم على بلوغه تماماً مهما يحدث ، وهو على أى حال مقتنع تماماً بضرورة الظفر بالعدو أو الموت . . سينتصر أو يستشهد .

ومتى صار الموقف واضحاً هكذا أمام الجندى : النصر أو الاستشهاد، فإنه يندفع للقاء عدوه مستبسلاً فى القتال مرحباً بما يجرى له غير عابئ بأية مشقة أو تضحية . . وهذا معناه قوة غلابة تنزل على الخصم كما ينزل

البلاء الشديد ، وقد قدر نابليون القوة المعنوية – بعد مئات السنين – فجعلها تساوى ثلاثة أمثال القوة المادية وكان يقول :

« توجد فى العالم قوتان : السيف والروح .

والسيف دائماً ينهزم أمام الروح » .

إن كثيراً من المعارك ، قديماً وحديثاً ، لم تكن الغلبة فيها لكثرة العدو أو لوفرة السلاح وإنما كان للمعنويات فضل إنقاذ الموقف المتهالك وانتزاع النصر من براثن الهزيمة . وفارق كبير بين جيش معتد يسعى للفتح والقهر وجيش مناضل يقف مدافعاً عن وطنه المهدد بالخطر وقد امتلأت نفوس أبنائه بالعاطفة الوطنية وتضاعفت قوته المعنوية بفضل حبه الوطن والأهل ، وإيمانه بأحقيته فى الحياة الحرة الكريمة .

هكذا كانت عقيدة المؤمنين – حين كانت تتحرك سراياهم للقاء العدو – قوة خفية غلابة فيها إيمان بالله والوطن وفيها سخط ومرارة على الذين أمعنوا ظلماً وتعذيباً وقتلاً فى المؤمنين وفيها إدراك نتيجة الإقدام والتضحية وهى أن تكون كلمة الله هى العليا .

وفى هذا نزلت الآيتان :

« سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب . . » .

« يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » .

وقد ازداد المؤمنون قوة بفضل العقيدة ، فانتصروا فى بدر وكان عددهم ثلثمائة وعدد المشركين ألفاً وحولوا الهزيمة إلى نصر فى أحد بفضل العزيمة والإصرار على القتال فى ظروف سيئة وبتضحيات بالغة ، ثم تتابعت انتصاراتهم وفتوحهم فكان مجرد تحركهم للقتال يثير فى أعدائهم روح الهزيمة ، وبات يخشى بأسهم .

حتى كانت كثيراً من اللقاءات تنفض دون قتال ، ثم امتدت هذه الظاهرة حتى عبرت الحدود وتناهت شجاعة المسلمين وبسالتهم إلى الفرس والروم .

وقد كتب خالد لقائد الفرس قبل اللقاء يخيره بين الإسلام أو الجزية أو الحرب ويقول :

« جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

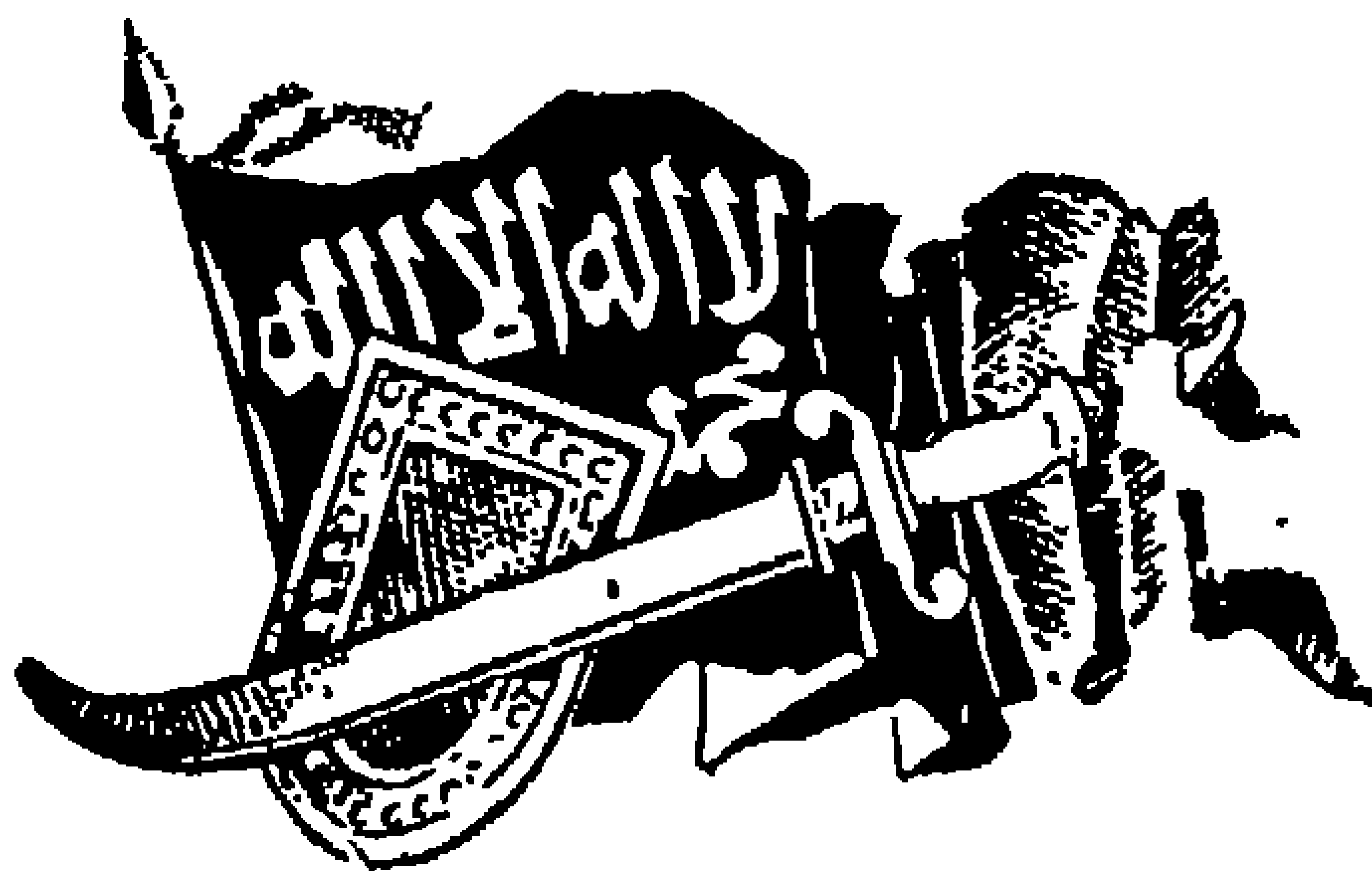
وعندما بعث سعد وفده إلى الملك يزد جرد تكلم المغيرة بن شعبة مخاطباً الملك : الإسلام أو الجزية وإلا فالمناجزة .

أى أمامك أحد ثلاث : أن تتفهم الدعوة وتقتنع بها وتدخل ومن معك دين الله،أو تدفع الجزية عن ذلة وأنت صاغر وإلا، فالسيف .

فمن أين جاء المغيرة وأصحابه بهذه القدرة ، وهم يعلمون أنهم دون خصومهم عدداً وسلاحاً وجاهاً .

إنها قوة العقيدة ، أو القوة المعنوية فى قاموس الحرب الحديثة ، أو المبدأ الثامن من مبادئ الحرب التى لا غنى عنها لإحراز النصر .

القيادة عند أبي بكر



« إن مهمة رئيس الدولة — القائد الأعلى للقوات المسلحة — هي اختيار قادة أكفاء وإعطاؤهم التوجيه السياسي والاستراتيجي اللازم ، ثم : ترك الحرب لهم »

هذا الرأي الحصيف نتاج الخبرة والدراسة في تاريخ القيادة والحرب أدلى به في سنة ١٩٧٠ الفيلد مارشال الفيكونت مونتجمري قائد معركة العلمين الشهيرة .

وهذا الرأي — الذي يمثل أزهى وأصح ما وصل إليه الفكر السياسي والعسكري في تحديد التبعيات والمسئوليات — كان يعمل به — قبل أربعة عشر قرناً — أمير المؤمنين أبو بكر الصديق !

ولي أبو بكر خلافة المسلمين بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان أول الخلفاء الراشدين .

وقد واجهه غداة توليه المسئولية العظمى حادثان كبيران :

أولهما : الردة ، إذ انقلبت بعض الأفراد والقبائل على أعقابها بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وارتدت عن دين الله ، فكان على الخليفة أن يواجه المرتدين ويضرب على يد المارقين ويحمي الدعوة من المنقضين والمضللين .

وثانيهما : لقاء الروم ، إذ كان رسول الله قد أعد جيشاً لوقف الروم عند حدودهم بعد ما تناهى إليه صلوات الله عليه من تآمرهم

وعدوانهم واستهانتهم بالدعوة وتجهزهم للانقضاض على قاعدة الإسلام ، وقد كان آخر ما أشار به قبل أن يدركه الموت :

« أنفذوا بعث أسامة » .

وقد كان أول ما فعله أبو بكر – فور أن تمت بيعته – إنفاذ بعث أسامة .

اتخذ القرار وهو يعلم بأن الظروف مضطربة على أثر وفاة النبي ، وأن خطر الردة شديد ، وأن هناك معارضة لتسيير الجيش وانتقاضاً على أن يكون أسامة قائد الجيش .

ولكن أبا بكر حسم الموقف وأصدر القرار .

وأعلن على الناس :

« ليتم بعث أسامة . ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف » .

وهكذا القيادة العليا :

دراسة الموقف . . تجهيز الجيش . . تعيين القائد . . إصدار القرار .

وقد أعطى أبو بكر القدوة الحسنة للقائد الأعلى فى ظروف عصره وأحداث زمانه ، إذ خرج يودع الجيش وهو ماش على قدميه ، وأسامة راكب لكى يزيدهم لإمارة أسامة إذعاناً وتسليماً ، وقد رجاه أسامة أن يركب فلم يقبل ، ورجاه أن يسمح له بالنزول من فوق دابته فقال أبو بكر :

« والله لا تنزل ووالله لا أركب

وما عليّ أن أغبر قدميّ فى سبيل الله ساعة » .

وخطب أبو بكر فى توديع جيش أسامة :

« أيها الناس

قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عنى :

لا تخونوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة .

وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له .

وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه .

وتلقون أقواماً قد حفوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً .

اندفعوا باسم الله ، أفناكم الله بالطعن والطاعون » .

ثم قال لأسامة :

اصنع ما أمرك به نبى الله صلى الله عليه وسلم

ابدأ ببلاد قضاعة ، ثم ائت آبل .

ولا تقصرن فى شيء من أمر رسول الله

ولا تعجلن لما خلفت عن عهده

وهكذا رئيس الدولة يختار القائد ويحدد له الهدف ويقدم له من

التوجيهات العامة حصيلة الفكر والتجربة وجماع الرأى فيما ينبغى أن تكون عليه الحرب التى قصد بها إلزام العدو الحدود، وما ينبغى أن يكون عليه المجاهدون من سلوك وأخلاقيات، ثم إنه يحرض المؤمنين على قتال أعدائهم بمنتهى البأس والشدة وأن يخفقوا بالسيف خفقاً هؤلاء الذين يريدون أن يلبسوا الليل للغدر بهم والعدوان على مقدساتهم .

فلما عادوا منتصرين ، وكانت المعارك ضد المرتدين على أشدها، لم يشأ أن يستخدمهم برغم شدة حاجته إليهم وإنما قال لأسامة وجنده:

استريحوا وأريحوا ظهوركم

حتى إذا جم الجيش وأخذ كفايته من الراحة ، أمر بهم فخرجوا إلى « ذى القصة » استعداداً لمعركة حامية ضد المرتدين ، وقسم الجيش إلى ثمانية ألوية — وجهتها الجنوب — وحدد لكل منها هدفاً وعلى رأس كل منها قائداً مغواراً :

خالد بن الوليد

عكرمة بن أبى جهل

شرحبيل بن حسنة

ابن أبى أمية المخزومى

سويد بن مقرن الأوسى

العلاء بن الحضرمى

حذيفة بن محصن الغسانى

عرفجة بن هرثمة

أما بالنسبة للشمال فقد وجه أبو بكر ثلاثة ألوية ، الأول بقيادة عمرو بن العاص لقتال قضاعة ، والثانى بقيادة معن بن حاجز السلمى لقتال بنى سليم وهوازن والثالث بقيادة سعيد بن العاص لتصفية منطقة الحدود .

وجعل الدفاع عن المدينة للأنصار فهم أعلم بأمرها وأحرص من غيرهم على الزود عنها .

وهكذا القائد الذى يعرف قومه جيداً ويزن رجاله تماماً ويضع كل جماعة فى موضعها وكل رجل لما يصلح له .

ولهذا قال عنه عمر بن الخطاب :

« أمر خالد نفسه ، يرحم الله أبا بكر ، كان أعلم بالرجال منى » .

وكان ذلك فى مناسبة الحديث عن خالد بن الوليد ، فقد جعله أبو بكر قائداً عاماً بالجيوش المسلمين فى القتال الكبير ضد الفرس والروم ، فأبلى بلاءً حسناً فى الجبهتين وأحرز انتصارات حاسمة على الدولتين ، فلما ولى عمر الخلافة كان أول ما فعله عزل خالد وهو على قمة النصر .

كان خالد يضرب بشدة ويقضى على المارقين بالموت الزؤام ، فلم يعترض أبو بكر لأنهم أعداء مكرة لا يؤمن جانبهم ، وكان يقول لخالد :

« جد فى أمر الله ولا تثنين ، ولا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ونكلت به جهرة ، وإن أصبت من حاد الله أو صاده ممن ترى فى قتله صلاحاً فاقتله » . .

فأمعن خالد فى سياسة الإرهاب والتنكيل ، وحسم الأمر .

كان أبو بكر يختلف عن عمر فى تقدير شخصية خالد .

عمر كان يرى أن فى سيف خالد رهقاً ، وحق عليه أن يقيده .

وأبو بكر كان يقول : «ما كنت لأشيم — أى أغمد — سيفاً سله الله على الكافرين .

وكان يرى أعداء الإسلام والمتربصين بالمؤمنين ليس لهم سوى سيف خالد. كانت المرحلة تقضى بالشدة والظروف لا نسمح باللين أو الهوادة. ولقد ضرب أبو بكر على أيدى المرتدين بشدة وقضى فيهم قضاء مبرماً ، حتى إذا استتبت للدعوة أسباب الأمن والدعم فى شبه الجزيرة وجه أبو بكر ألوية الجهاد إلى الحدود لتأمينها والذود عنها مما كان يتهددها من خطر الفرس والروم ، وجعل خالد بن الوليد قائداً عاماً لجيوش المسلمين ، وكان يقول :

« عقمت النساء أن يلدن مثل خالد »

فالصديق أبو بكر ، كقائد أعلى كان يضع الخطط العامة ويختار القواد للمهام المختلفة ويوجه إليهم النصح فإذا ما بلغوا ميادين معاركهم كان لكل قائد حرية التصرف وكامل المسئولية .

وبهذا الأسلوب فى فهم طبيعة القيادة ومسئولياتها وتقدير احتياجات الحرب ومقتضياتها استطاع الخليفة أبو بكر أن يقضى على الفتنة ويخضع الثائرين والمرتدين ويؤمن شبه الجزيرة ويشيع فيها الوحدة والطمأنينة ، وبعدها أخذ يجهز أمة المسلمين للمضى فى رسالتها ويخطط لجيوشها

فتح الشام والعراق .

إن عهد أبى بكر كان عهد نضال وحروب وقمع فتن وتأمين حدود . وكانت المرحلة تقتضى الشدة . فالحرب حرب ولابد لخوضها من أعمال القسوة والبطش استعجالاً للنصر واختصاراً للآلام والتضحيات .

وكان يرى أن أهم ما فى الجيش قائده — وهذه حقيقة ملازمة لجميع مراحل التاريخ الحربى — فالقائد الجيد هو الذى يحصل على ثقة جنوده وهو الذى يحرز النصر ، والجنود — كل الجنود — يحبون القائد العظيم .

إن المسلمين لم ينتصروا بكثرة عددهم ولا بوفور عدتهم وسلاحهم ، وإنما انتصروا بمهارة القيادة وبالروح المعنوية . . فالعلة — كما خطرت لأبى بكر — هى علة القيادة ، وكان الموقف يحتاج إلى القائد الكفء الجسور الذى لا يعرف فى الحرب هوادة ولا يهاب الموت .

وعندما نثر أبو بكر كنانته وعجم أعواد رجاله تكشفت له الخصائص التالية :

أبو عبيدة — على مقدرته — رجل رقيق القلب .

عمرو بن العاص — على دهائه فى السياسة — هياب غير مقدام .

عكرمة : مدوار مقدام ، لكن تعوزه دقة التقدير .

. . غير هؤلاء لم يسبق لهم تولى القيادة فى المعارك الكبرى .

وليس بين القادة من يسلم للآخر بالتفوق على سائرهم تفوقاً يكفل بسلطانه وحدة القيادة . . غير واحد فقط :

خالد بن الوليد

وقالها أبو بكر :

والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد .

* * *

ومن رسائل أبي بكر لقواده تظهر معانى الإيمان والولاء وتقدير القيادة وتقرير الجزاء :

١ — من وصية أبي بكر لقائد جيشه خالد عند مسيرته إلى بزاخة لقتال المرتدين :

« فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً عن الحملة فإنى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد وسر بالإدلاء وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل ، وسر فى أصحابك على تعبئة جيدة ، واحرص على الموت توهب لك الحياة ، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات فإن للعرب غرة . . وإذا لقيت أسداً وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك وبعضهم لا عليك ولا لك ، متربص السوء ينظر لمن تكون الدبرة فيميل مع من تكون له الغلبة . . سر على بركة الله » .

٢ — من وصية أبي بكر لجيش خالد بن الوليد عند مسيرته من اليمامة إلى العراق :

« لقد أمرت خالد بن الوليد بالسير إلى العراق لا يبرحه حتى يأتيه أمرى ، فسيروا معه ولا تثاقلوا عنه ، فإنه سبيل يعظم الله فيه الأجر لمن حسنت فيه نيته وعظمت فى الخير رغبته ، فإذا قدمتم العراق فكونوا بها حتى يأتيكم أمرى » .

٣ — من وصية أبى بكر إلى يزيد بن أبى سفيان :

« إذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه ، وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً .

وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به . وامنع من قبلك من محادثتهم ، وكن أنت المتولى كلامهم

واسمر بالليل فى أصحابك تأتك الأخبار وتتكشف لك الأسرار .

وأصدق اللقاء

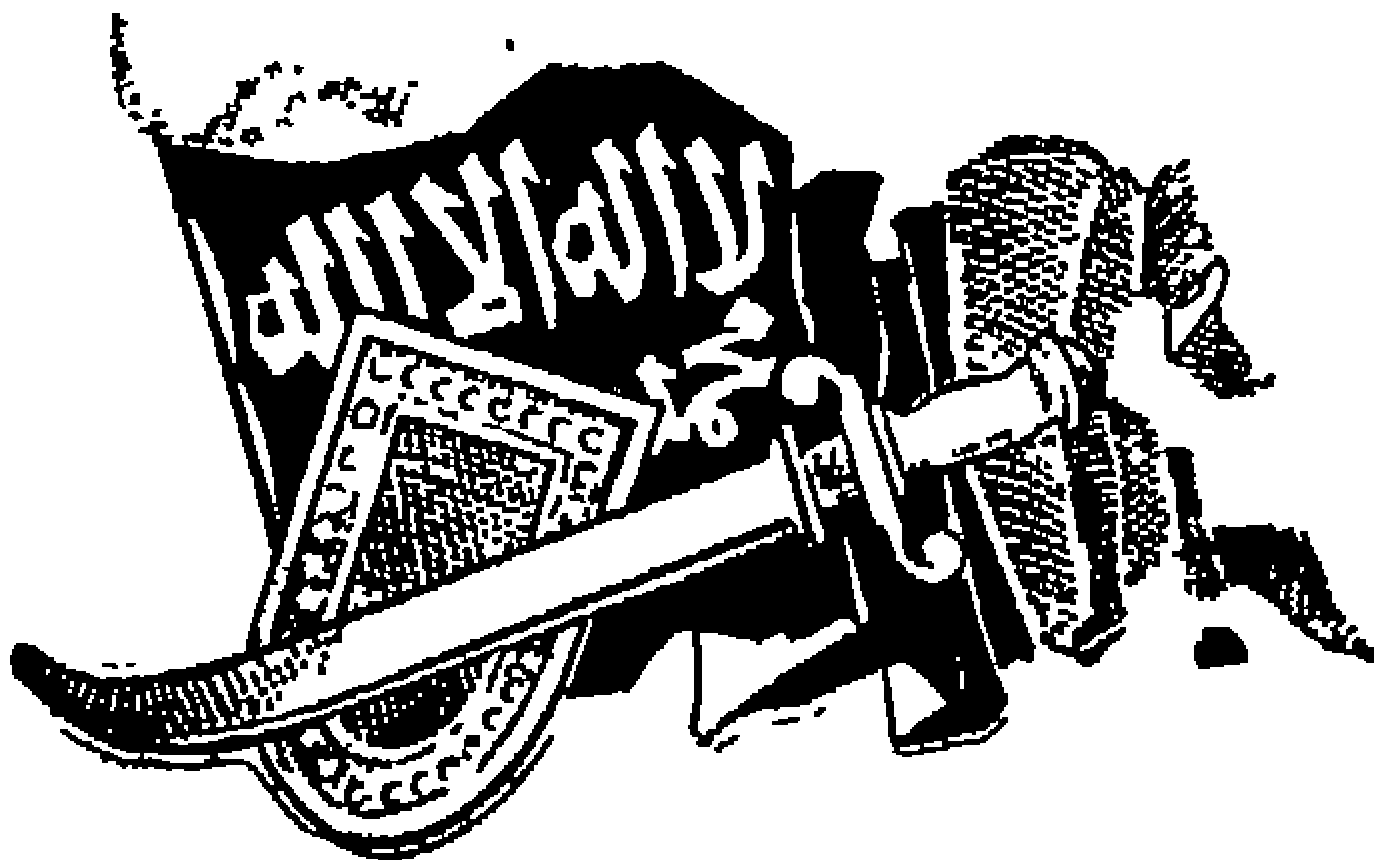
ولا تجبن فيجبن الناس ».

وفى السطر الأخير من الوصية تكمن أعظم حقائق القيادة، وهى أنه كيفما يكن القائد يكن الجنود .

* * *

أقول إن أبا بكر كان سابق زمنه، وأزمنة كثيرة بعده فى فهم مبادئ القيادة ومقتضيات القيادة العامة والقيادة الميدانية ، وحدود التبعات والمسئوليات ومواقع المراجعة ومواقع المشاركة ومواقع اتخاذ القرارات . . وأنه كان بإيمانه وعقله وخلقه نموذجاً للقائد الأعلى يصلح لجميع الأزمان .

القيادة عند عمر



فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فتح العرب العراق والشام ومصر ودالت دولة الفرس والروم أعظم إمبراطوريتين فى ذلك الزمن .

وكانت الظروف التى آلت فيها مقاليد أمور المسلمين للخليفة الفاروق ظروف حرب صعبة المراس متعددة الساحات ، وكانت جيوش المسلمين حين قبض أبو بكر تحاول دون جدوى فتح طريقها إلى المدائن ودمشق ، وقد توقفت فى مواجهة الجيوش الكثيفة التى تصادمها فى بطاح فارس وعلى ثرى الشام .

ولم يكن الموقف جديداً على عمر لأنه كان المساعد الأول للخليفة الصديق أبى بكر ، ولكن تبعات المسئولية المباشرة أثقلت كاهله وهزت وجدانه يوم توليه إمارة المؤمنين . فحمل العبء الجسيم ونهض بالرسالة الجليلة فى إيمان وإصرار وعزم وشدة . وبفضل صفاته الطيبة ، وبخاصة صفة الصلابة نجحت قيادته واستطاعت الجيوش الإسلامية فى عهد خلافته أن ترسم حدود الإمبراطورية الإسلامية الراسخة بكل علامات وسمات الإمبراطورية العظمى فى التاريخ من حضارة وثقافة وعلم وعدالة ورخاء .

فإذا كان عهد أبى بكر قد تميز بالقضاء على الفتنة والردة وصد العدوان عن الحدود ، فإن عهد عمر كان عهد الفتوح والانتصارات العظمى الحاسمة التى أفضت إلى قيام الإمبراطورية الإسلامية .

وكان الخليفة — من وجهة النظر العسكرية — هو القائد الأعلى للجيوش الإسلامية ، وقد جالت وصالت فى شبه الجزيرة حتى دانت جميعاً لراية الإسلام ؛ وتدربت واختبرت وتطورت حتى أصبحت قادرة على مواجهة أعظم جيوش ذلك الزمان ، فصادمت الفرس فى العراق والروم فى الشام ، وبعد معارك عاتية متعددة قضت على خصومها وسادت وفتحت صفحة خالدة فى التاريخ الحربى إلى جانب صفحات مشرقة فى تاريخ الحضارة والقيم الإنسانية .

وإذا لم يكن لعمر فضل إنشاء الجيش الإسلامى ، الذى كان الفضل الأول فيه لقيادة محمد وبعوثه وسراياه ومغازيه ، وإذا لم يكن له فضل قيادة المعارك الأولية فى حروب الردة وتأمين الحدود — وقد كانت المهمة الشاقة والمرحلة الفاصلة فى ظل قيادة أبى بكر — فإن عمراً كان له فضل قيادة المعارك الحاسمة فى ميادين جديدة وآفاق واسعة ، وقد استكمل العمليات الأخيرة ضد الفرس والروم ، ثم أقدم على مخاطرة كبرى وعمل إسلامى وعسكرى كبير هو فتح مصر وضمها إلى جامعة الأمة الإسلامية .

ولم يكن عمر حين ولى الخلافة جديداً على الجيش وأموره والقيادة وخصائصها لأنه كان من القادة المبرزين الذى نشأوا فى مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقدعهد إليه بعمليات رئيسية فى كثير من البعوث والسرايا ، كما كان عمر أحد المختارين فى مقدمة الصفوف فى الجيش الذى أعده النبي القائد فى أخريات أيامه والذى اشتهر باسم «بعث أسامة».

وتظهر قيمة عمر العسكرية من شهادة الخليفة الصديق إذ قال فى مرض وفاته :

« وددت أنى كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام ، وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق ، فكنت قد بسطت يدى كلتيهما فى سبيل الله » .

وقد اشتهر عمر — كمسلم كبير — بالإيمان عن تفهم واقتناع ، وبالعدالة الكاملة التى لا تشوبها عاطفة ، وبالشدة التى يعامل بها القريب كما يعامل بها الغريب ، وبالجرأة التى لا تعرف أنصاف الحلول ، وبالقوة التى يخشاه بها المقربون ، وبالرجاحة التى كان يكسب بها المواقف الحرجة ويصدر بالرأى السليم .

وهذه الصفات — فى الأغلب والأعم — لازمة للقائد الأعلى ، وزاد عليها أنه كان صاحب صفات أخرى عسكرية تماماً لا غنى عنها، بل جاء ذكرها بين خصائص كبار العسكريين فى جميع الأزمان .

ومن هذه الخصائص :

الحصافة

الصلابة

الإرادة

روح الديمقراطية

الشجاعة الفطرية

الحصافة :

كان عمر يعلم أن القيادة الصحيحة هى أول دعائم النصر ، فكان يهتم باختيار القائد ، فإذا رشح له رجل فإن عمر كان قوى الملاحظة شديد الفراسة يلمح صفات الرجل ويقدر حسناته وسيئاته ، وبميزان العدالة الدقيق – وقد كانت العدالة صفته الغالبة – يصدر حكمه .

عندما رشح له سليط بن قيس – وهو يعرف كثيراً من محامده وأهمها الجرأة والتجربة – قال :

« لم يمنعن أن أؤمر سليطاً إلا سرعته فى الحرب .
وفى التسرع إلى الحرب ضياع إلا عن بيان .
والحرب لا يصلحها إلا المكيث »

وقد عاود هذا الرأى فى وصيته لأبى عبيد عمر بن مسعود ، وفيها ما يكشف عن ملكة القيادة فى عمر وتوافر شروطها فيه :

« لا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب ،
والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى
يعرف الفرصة والكف » .

وكان عمر يقدر عمرو بن العاص ويعرف فيه الذكاء ، ولكنه كان يعرف فيه أيضاً حبه للإمارة ، فلما سعى عمرو إليه ليزكيه لإمارة الجيش بدلاً من أبى عبيدة ، واجهه بصراحة قائلاً :

« أبو عبيدة أفضل منزلة عندنا

ويحك يا عمرو ! إنك لتحب الإمارة »

الصلابة :

الصلابة — أى المتانة — من الصفات الأساسية اللازمة للقائد ، وقد أشرنا فى غير هذا المكان إلى رأى المارشال ويفل : إننا إذا بحثنا فى أسباب إخفاق عدد كبير من القادة ، فإننا سنجد فى المقدمة الافتقار إلى صفة الصلابة ، أى القدرة على تحمل صدمات الحرب ومفاجآتها .

وقد اشتهر عن عمر صلابته فى الحق ومتانة أعصابه فى مواجهة الأحداث الخطيرة ، ومن ذلك ما حدث عندما بلغته هزيمة أبى عبيد الثقفى أمام قوة فارسية .

فلم يبتئس عمر بل اشتد عزماً وإصراراً ونهض يريد أن يتقدم بنفسه عدداً من الرجال لولا أن صرفه عن ذلك كثرة من ذوى الرأى فولى سعد ابن أبى وقاص ودفعه للانتقام والثأر حتى فتح الله للمسلمين أبواب فارس جميعاً .

ولم يهتز بن الخطاب حين هزم المسلمون فى وقعة الجسر وارتدوا مدحورين إلى المدينة وثار عليهم أهلها ونهروهم ، فتصدى لهم عمر ، وقال قولته المشهورة :

« يا معشر المسلمين ، لا تجزعوا ، اللهم كل مسلم فى حل منى ،

أنا فئة كل مسلم » وسارع بإرسال المدد إلى المثنى بن حارثة ، وعدل الموقف وكسب معركة البويب التى أزالت عن المسلمين هزيمة معركة الجسر .

وربما تكون صفة الصلابة هذه المنشودة فى القائد المسئول مرادفة لصفة « الغلظة » التى وصفها به عبد الرحمن بن عوف أو « الشدة » التى وصفه بها أبو بكر ، أو « القوة » التى وردت فى قوله : وهو يعلن تولية عمر خليفة له :

لقد وليت عليهم خيرهم وأقواهم وأحرصهم » .

الإرادة :

يعتبر عمر بن الخطاب ، كقائد أعلى للجيوش العربية ، من النوع المكيث ، أى القائد المتأنى الذى لا يتسرع فى الحرب .

هذه الصفة تقتضيها مسئولية القائد العام فى كل زمن وفى أية معركة لأن أية غلطة تودى بحياة العشرات والمئات كما تؤثر فى مصير الحرب وربما فى مصير الشعب لسنوات عديدة .

وقد اشتهر عدد من القادة فى التاريخ بالتأنى ، أى الدراسة المستفيضة والتحضير الطويل للضربة ، ومن هؤلاء الجنرال اللنبى فى معاركه ضد الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى ، وربما تكون هذه الصفة من الصفات الأساسية للقواد الإنجليز .

وليس المكث أو التأنى فى الحرب خطيئة ولا هو ضد الشجاعة والروح الهجومية ولكنه يعتبر تجميعاً للإرادة ، فإذا ما تمت دراسة

الموقف ووضحت الخطة فإن القائد المحنك يضع قراره ، أى لا يكون القرار ارتجاليًّا ولا متعجلاً والمهم أن يعرف القائد كيف يتخذ قراراً ومتى وكيف ينفذ القرار .

والإرادة هى التصميم على الضربة التى أعدت للعدو أو تنفيذ الخطة التى تقررت ، ولا تردد بعد إصدار القرار ، على حد قول الشاعر :

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأى أن تستردّدا

عندما ولى عمر الخلافة ، والقيادة ، وجد أن الجيوش الإسلامية تعانى مركزاً صعباً فى ميدانى قتالها ضد الفرس وضد الروم فوضع خططه وشدد إرادته على استكمال الفتوح ، وبذل الجهد البليغ فى تلبية احتياجات الميدانين من الرجال والعتاد وارتبطت إرادته بالنصر .

فالصبر العظيم والثبات على الجهد وقوة الإرادة كانت من الصفات البارزة فى عمر بن الخطاب وكانت طبيعة القائد راسخة فى كيانه واضحة المعالم فى شخصيته فتجمعت له صفات القيادة المثلى من شجاعة وحزم ونظام وتقدير للمسئولية والتزام بالرسالة .

ونجد فى خلال قيادة عمر مواقف صعبة تكتنفها المخاطر ، ولكنه يصدر قراره فيها ببساطة وثقة وتصميم ما دامت إرادته قد أملت القرار ، ومن ذلك قراره بعزل خالد بن الوليد أعظم قادة الإسلام قاطبة وهو على أبواب المعركة الأخيرة فى الشام .

كان عمر قد قدر وقرر دون أن تغيب عن فطنته دقة الموقف العسكرى وشهرة خالد وتعلق الجنود به وارتباط النصر بكفاءته وألمعيته . .

وصدر القرار فى الساعة الحرجة وتغلبت إرادة عمر على كل ما عداها من تحذيرات أو مثبطات .

ولسنا فى صدد مناقشة القرار ، التى ما زال حتى اليوم يصادف الاندهاش ويتطلب المراجعة ويواجه النقد ، ولكن الأمر الذى لا مراء فيه هو أن عمر بن الخطاب قد اتخذ القرار وبرزت فيه إرادة القائد الأعلى المسئول عن جميع القواد والجيوش والمعارك والمصير .

ويمكن القول إن عمله هذا لم يكن يجرؤ عليه إلا القليل من أقوى الحكام فى تاريخ الحرب كله .

وقد اتخذ عمر قراره هذا وحده دون مشاورة غيره .

ولكن لم تكن هذه طبيعته فى اتخاذ القرارات وإنما كانت المشاورة أسلوبه المفضل وفنه المعروف .

هكذا المسئول الكبير يقدر مواقع المراجعة والمشاورة ، ويقدر أيضاً مواقع إصدار القرارات ، متحملاً المسئولية الجليلة فى الحالين .

وقد كان معروفاً عن عمر جيشان الشعور وفرط الحس وغرابة الاستجابة إلى الطوارئ وقوة الفراسة والولوج إلى الغيب والأسرار .

كما أنه كان رجلاً مهيباً قوى الشكيمة حتى قال عنه رسول الله : إن الشيطان ليخاف منك يا عمر .

وبهذه الصفات القوية ، ومنها الهيبة والإرادة وجيشان الشعور وقوة الشكيمة تكاملت شخصية الفاروق ، وبها ساس الشعوب المختلفة وأدار الحروب المتعددة وأقام القادة الأفذاذ وأشرف على الميادين البعيدة

ونجح فى كل ما هم به وعزم عليه وسدد إرادته لتحصيله من انتصارات وفتوح .

روح الديمقراطية :

قدمنا من صفات عمر صفتين ربما تبدوان مختلفتين أو متعارضتين : المكث أى التأنى ، والإرادة أى التصميم على بلوغ الغرض . وقلنا فى موضع إنه كان يشاور الناس وفى موضع آخر إنه كان يتخذ القرار وحده ، كما فعل فى عزل خالد بن الوليد .

وربما يكون هناك اختلاف بين بعض هذه الصفات وبعضها الآخر أو تكون الظروف قد حكمت بكل منها فى حينه ، وعلى أى حال فإن من الصفات المطلوبة فى القائد ما يعتبر متناقضاً أو مختلفاً مع بعضه لبعض ، وفى هذا قال سقراط قبل آلاف السنين :

يجب أن يكون القائد دقيقاً حمولاً لماحاً . . طيباً وقاسياً . . بسيطاً ومبهماً . . مخادعاً ويقظاً . . كريماً وبخيلاً . . متعجلاً ومتمهلاً .

وقد وافق سقراط على هذا الرأى كثيرون من المفكرين والمعقبين العسكريين وفى مقدمتهم المارشال ويفل ، فهو يعتبر ما تطلبه سقراط فى القائد العظيم أحسن ما قيل .

أما بالنسبة لعمر بن الخطاب ، فقد كان يملك صفات متعددة يطبق كلاً منها فى موضعه الملائم . وكان معروفاً عنه أنه عظيم الشدة فى مصارعة العدو ولكنه عظيم الرقة حيال الضعيف والمظلوم ، وكان

معروفاً بشدة البطش وجيشان الشعور وقوة الإرادة حتى يفطن أنه وحده كفيل بتحريك كافة الأمور وقدير على مواجهة المواقف الصعبة وإصدار قراره فيها ، ولكن عمر كان فى حقيقته كثير التشاور مطبوعاً على أخذ الرأى وطلب النصيحة .

كان عمر لا يكتفى بمشاورة الخاصة بل كان يضع الموقف أمام العامة ، ويخطب الناس فى المسجد ويعرض عليهم ما عنده ويناقشهم ويشاورهم ويطلب من قادته المشاورة واستطلاع الرأى كما فعل مع أبى عبيد الله الثقفى عندما أمره على الجيش المرسل إلى العراق ، فقد نصحه بأن يسمع من أصحاب رسول الله وأن يشركهم فى الأمر وأن يشاور سليط بن قيس لجرأته وتجربته .

ولا ريب أن هذه الروح الديمقراطية تعتبر فى مقدمة عوامل التفوق والوعى فى الجيوش . وفرق كبير بين جيش يتشاور فى الأمر ، وجيش آخر يتلقى التعليمات ويتحرك ملتزماً التطبيق الحرفى لأوامر القيادة .

إن عرض الموقف على القواد وعلى أكبر عدد ممكن من الجنود هو الوسيلة الفعالة للحصول على جندى مقتنع وفاهم وراغب فى تحقيق الأهداف .

وفى الدراسات العسكرية يبرز السؤال :

ما الذى يدفع الجندى ليخاطر بحياته ، بكل شجاعة ؟

وسؤال آخر تابع ولاحق :

ما هو نصيب القائد فى تنمية البسالة فى الجندى ؟

وقد جاء الرد بأن الذى يدفع الجندى إلى المخاطرة هو فهمه للغرض وتصميمه على بلوغه ، وإن القائد الذى يحوز ثقة جنوده ينمى فيهم البسالة . . فالقائد الذى يفهم جنوده ويتفاهم معهم ويحصل على ثقتهم هو القائد الملهم الذى يدرك أن أول متطلبات النصر هى : ثقة الجنود بأهداف الحرب .

ولا يكون ذلك إلا نتيجة تفاهم ومشاورة واقتناع .

* * *

وهذه سطور من رسائل عمر إلى قواده تنبئ بعلمه وفطانته وقدراته فى القيادة ونظراته فى الحرب .

من عمر بن الخطاب

إلى عبيد الله بن مسعود قائد المدد لجيش المسلمين فى العراق :

« إسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأشركهم فى الأمر .

ولا تجتهد مسرعًا بل امتد ، فإنها الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة . .

ولا يمنعنى أن أؤمر سليط بن قيس إلا سرعته فى الحرب .

والسرعة إلى الحرب — إلا عن بيان — ضياع .

إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية .

إنك تقدم على قوم تجرأوا على الشر فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه

فانظر كيف تكون

واحرز لسانك ولا تفشين سرك ، فإن صاحب السر – ما يضبطه – متحصن لا يؤتى من وجه يكره ، وإذا لم يضبطه كان بمضيعة »

ومن هذه الرسالة تتضح جوانب من أهم أمور الحرب :

المشاورة .

الاتئاد ، أى الأناة فى الاجتهاد

السرية ، أى الكتمان .

* * *

من عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص بعد اختياره لحرب فارس :

إذا انتهيت إلى القادسية ، وهو منزل رغيب خصيب، دونه قناطر وأنهار ممتنعة ، فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر ، والجراع بينهما ،

ثم الزم مكانك فلا تبرحه ،

فإنك إذا أحسوك أنغضتهم ورموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم .

فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتبستم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن أن تنتصروا عليهم ، ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم .

وإن تكن الأخرى كان الحجر فى أدباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم :

ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم .
وكانوا عنها أجبن وبها أجهل .
حتى يأتى الله بالفتح عليهم ويردكم الكرة . . »

وهنا تظهر من أفكار هذا القائد العظيم دروس جديرة بالتقدير والاعتبار :

١ — اختيار الموقع الملائم للمعركة .
٢ — الإشارة إلى أهمية مصادر المياه فى الحرب .
٣ — التريث قبل الاشتباك حتى تتضح خطة العدو .
٤ — أهمية الصبر والصدق فى القتال .
٥ — أن يكون طريق الارتداد ميسوراً احتمالا للتقهقر .

* * *

وكان عمر ينظر فى الموقف العام ولا يتدخل فى التفاصيل ، بل يترك الحرب للقائد الفعلى فى الميدان ، وفى هذا كتب لأبى عبيد الله بن مسعود :

« أنت الشاهد وأنا الغائب
والشاهد يرى ما لا يراه الغائب ، وأنت بحضرة عدوك
وعيونك يأتونك بالأخبار .
فإن رأيت الدخول إلى الدروب صوابًا فابعث إليهم السرايا :
وادخل عليهم بلادهم وضيق عليهم مسالكهم :
وإن طلبوا إليك الصلح فصالحهم » .

وهنا أيضًا نظفر بدروس عظيمة :.

١ ــ إن القائد الأعلى لا يتدخل فى أعمال القائد الفعلى الذى يدير المعركة .

٢ ــ أهمية الدوريات .

٣ ــ تحقيق مبدأ السلامة أو الوقاية .

٤ ــ أهمية المبادأة والمبادرة بالهجوم .

٥ ــ إيثار السلم على الحرب إذا جنح العدو إلى السلم .

* * *

وبعد ، فقد رأينا فى هذه العجالة شخصية قيادية على أعلى مستوى ، ونموذجاً عالياً للقائد العظيم ، شكلا وموضوعاً .

فعمر بن الخطاب كان يجمع بين مظاهر وبواطن القوة والعزيمة والعدالة والحكمة .

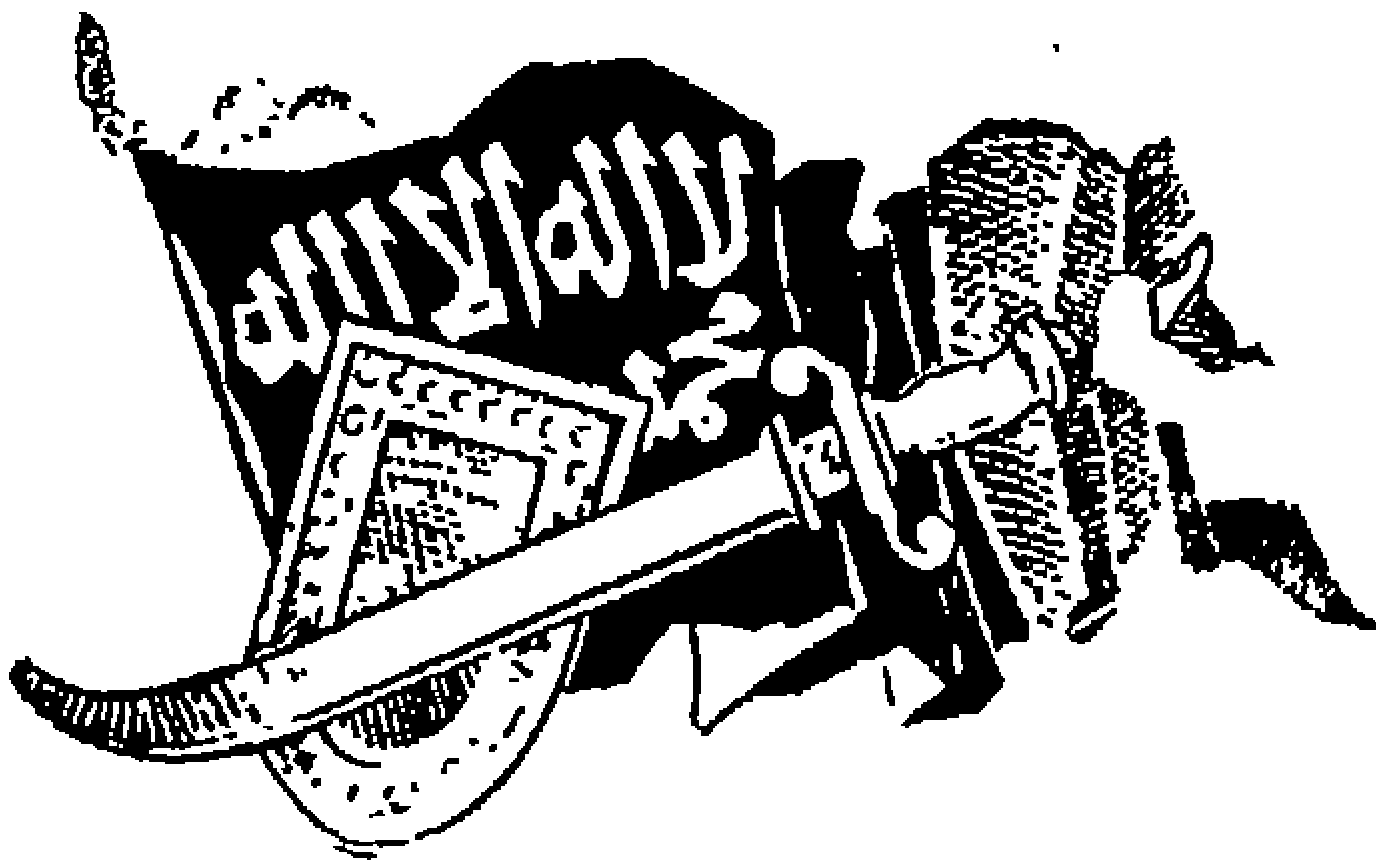
وكان يمتاز بالإدارة ودقة المحاسبة وحسن التنظيم .

كما كان خبيراً بالرجال عارفاً بمتطلبات الحرب وعوامل النصر .

وقد شهد له محمد صلى الله عليه وسلم :

« لم أر عبقرياً يفرى فريه »

قيادة خالد



كان الصديق أبو بكر خليفة رسول الله يقول إن العلة في القيادة ، فقد كان يرى الجيوش هي هي ، والعدوّ — تقريبًا — هو هو ، ولكن لا بد للنصر من القائد المنتصر .

وهو حين نثر كنانته وعجم أعواد رجاله وجد أن أقدرهم في قيادة الرجال وأكفأهم لإحراز النصر هو : خالد بن الوليد :

وخالد — بشهادة رسول الله — أعظم العظماء ومربى الرجال والقادة — كان سيفاً من سيوف الله ، واشتهر باسم سيف الله المسلول :

وكان أبو بكر يثني عليه ويثق به ويقدره قدره حتى قال :

عقمت النساء أن يلدن مثل خالد .

وقد حارب خالد ضد المسلمين — قبل إسلامه — في وقعة أحد وحارب بعد إسلامه مشتركًا في عدد من السرايا والمغازى في عهد رسول الله ، ثم قاتل المرتدين في عهد أبي بكر وقاد عمليات تطهير الحدود ، وتولى القيادة العامة في الحروب الكبرى ضد الروم ، وحقق أمنية أبي بكر :

« لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد »

كذلك قاد العمليات الشاقة ضد الفرس في خمس عشرة موقعة لم يهزم ولم يخطئ ولم يخفق قط في واحدة منها ، وقد كان مستعداً دائمًا لقتال العدو حيث لقيه مفاجئًا أو غير مفاجئ ، وكان كما وصفه عمرو ابن العاص :

« فى أناة القطاة ووثبة الأسد »

فكيف كان خالد يمارس القيادة ويفهم الحرب ؟

ننظر إليه فى أول وقعة تاريخية اشترك فيها ضد المسلمين . وهى وقعة « أحد » وقد كان خالد — قائد فرسان قريش — فى الجانب الخاسر من المعركة لأن المسلمين أحرزوا نصراً واضحاً منذ بدء القتال ، ولكنهم خالفوا تعاليم القيادة وأفقدهم النصر وعيهم وطغى على روح الطاعة والانقياد فأسرعوا وراء المغانم وتركوا الموقع الحاكم وأهملوا تعزيز النجاح . .

وهنا أدرك خالد بن الوليد فرصته — كقائد لماح لا يرتضى الهزيمة ويتحين الفرصة — فوثب برجاله إلى الموقع الحاكم وأحدث ثغرة فى صفوف المسلمين فقلب ميزان المعركة وأشرف على إحراز النصر لولا ثبات محمد وصحبه الأقربين ولولا أن أفاق المسلمون من المفاجأة فحاربوا وثبتوا وصبروا إلى أن استعادوا الزمام وأحرزوا النصر الأخير .

وتسجل هذه المعركة لخالد أنه كان قائداً ذكياً نشطاً لا يعرف اليأس بل يعرف أن الحرب خدعة وأن المفاجأة لازمة وأن الفرصة قد تسنح فى أية لحظة ، وأن على القائد الأريب أن يتوقعها وأن يحسن استخدامها :[1]

ثم كان أول قتال يشترك فيه خالد بعد إسلامه سرية مؤته التى جردها رسول الله إلى البلقاء لتأديب المعتدين الغسانيين ، وقد جرت المعركة فى غير صالح المسلمين واستشهد فيها القائد زيد بن حارثة ثم خليفته فى القيادة جعفر بن أبى طالب ، وبعده استشهد عبد الله بن رواحة . . وتلفتت الأنظار ودارت الأفكار فى ساعة الهول حتى اجتمعت الكلمة على تنصب

خالد بن الوليد . . فنظر فى الموقف نظرة سريعة نافذة فإذا هى معركة غير متكافئة إذ منى المسلمون بالهزيمة وكثر عليهم أعداؤهم ، فلم تملكه فطرة المجازفة وإنما استجاب لفطرة القيادة البصيرة . . وفعل ما يفعله القلائل من عظماء القادة فى المواقف المماثلة : اصطنع الاستعداد للهجوم تمويها على الأعداء ، فلما كان الغد قام بعملية انسحاب باهرة وارتد بجيشه سالمًا الهزيمة والضياع :

كما أنه أمن جيشه عند انسحابه بتوليه « قتال المؤخرة » حتى يضمن له السلامة ، وعرف أنه أبلى فى ذلك القتال حتى اندقت فى يده تسعة سيوف .

كذلك حدث لخالد فى معركة حنين عندما انهزم جيش المسلمين ، « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئًا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » .

وكان النبى مشتركًا فى المعركة ولولا ثباته وثبات رجاله المقربين لانتهت المعركة بالخسران المبين ، ولكن خالداً قام بدور بطولى وأبدى من فنون الحرب وحيلها ما عدل الموقف برغم إصابته بجراح شديدة ، وقد تغير الموقف بفضل الثبات والشجاعة والحيلة ، ولقى خالد تقدير النبى عليه السلام ، فبارك له وواساه .

وإذا كان القائد الكبير يشتهر أمره بالانتصار فإنه يلقى أعظم التقدير فى المواقف الصعبة وكيف يتصرف إذا دارت عليه المعركة . . ومن المواقف المماثلة التى تحسب للقادة العظام فى التاريخ ما قام به الفيلد مارشال

روميل عقب هزيمته فى معركة العلمين ، إذ تولى سحب جيشه بأمان — برغم الظروف الخطيرة التى كانت محدقة به من البر والبحر والجو — واستطاع أن ينجو به من كارثة الاستسلام وأن يمضى به على الشاطئ الأفريقى منسحباً من جحيم المعركة وشبح الأسر أو الفناء .

واشترك خالد فى حروب الردة ، من بدايتها إلى نهايتها ، وكان اسمه وحده بشيراً بالفوز فى كل وقعة حتى قال أبو بكر :

« أيها الناس ، سيروا على اسم الله وبركته .. فأميركم خالد بن الوليد » .

وهكذا يحدث اسم القائد فعل السحر فى نفوس الجنود ، وأيضاً فى نفوس الأعداء .

وقد اختار خالد خطة الهجوم برغم ثبات العدو فى مواقع محكمة . كان الموقف يتطلب السرعة ، والسرعة لا بد لها من جسارة ، وكان خالد — كما قال — لا يعتصم بغير الله .. : أى أن هناك قوة معنوية غلابة تفوق ماديات العدو وإمكانياته ، وقد انتصر خالد بفضل ثقة الجيش به وبما أودعه فى الجيش من قوة معنوية ، هى التى توضع اليوم بين مبادئ الحرب الثابتة .. وقد كان خالد يعمل بمبادئ الحرب جميعاً قبل أن يسجلها نابليون ، بمئات السنين .

كان خالد يسير دائماً بجيشه كامل التعبئة مستعداً للقاء العدو على أى أرض يظهر فيها وفى أى وقت يبدأ فيه القتال ، أى أنه كان مقتنعاً وممارساً وحفيظاً على مبدأ « الحشد » أول مبادئ الحرب ومعناه أن يكون القائد مجهزاً ساعة الصدام بأكمل ما يحتاج إليه الموقف من رجال وعتاد

ونظام ويقظة تكفل إحراز النصر .

وكان يبعث العيون والطلائع فى مقدمة الجيش محققاً مبدأ « الوقاية » أو السلامة ، وكان أبو بكر يوصيه بذلك كما حدث عند تقدمه إلى « بزاخة » لقتال المرتدين . .

فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً عن الحملة

فإنى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد

وسر بالأدلاء وقدم أمامك الطلائع

وسر فى أصحابك على تعبئة جيدة واحرص

على الموت توهب لك الحياة . . . »

كذلك كان خالد جريئاً مقداما يفضل الهجوم ، ويأخذ بمبدأ أن العمليات التعرضية هى أجدى وسائل الدفاع .

وامتازت أغلب معاركه بالدهاء الذى يحقق له إيهام العدو ثم مفاجأته بما لا يقدر من ناحيتى الزمان والمكان وقوة الضربة :

من أروع وأشق عمليات خالد اختراقه بادية العراق ، فقد اختار أطول الطرق وأشدها قسوة على الجيش الزاحف وأبعدها عن تصور العدو ، وذلك لكى يضمن عنصر المفاجأة ولكى لا يتعرض له أهل العمران على الطرق الأخرى الميسورة .

وبادية العراق كانت مفازة مجهولة غير مطروقة لا يصاب فيها ماء وكان جيش المسلمين يطوى مسافة اليومين فى يوم واحد . وقد ضرب خالد رقماً قياسياً ، فاجتازها فى ثمانية عشر يوماً وحقق نصراً لامعاً

فى معركة أجنادين ، وكانت أجنادين هى الفاتحة لمعركة اليرموك أشهر معارك المسلمين وهى التى فصلت فى الموقف بين العرب والروم ، وتم فتح الشام .

وقد انتصر خالد فى معارك كثيرة ، ولكن معركته الكبرى كانت مع نفسه .. ذلك أن المعارك الحربية قد أثبت فيها خالد عظمته كقائد له جميع مميزات وخصائص كبار القادة فى التاريخ ، ولكن معركته مع نفسه يوم عزله تضعه فى منزلة عزيزة وتجعله خير قدوة للقادة فى كل زمان ومكان .

ففى أعظم معاركه وفى أوج انتصاراته ، صدر أمر الخليفة ــ القائد الأعلى للجيوش الإسلامية ــ بعزل خالد بن الوليد ، فلما أبلغه أبو عبيدة بالأمر صدع به فى الحال ــ وكانت المعركة محتدمة وقد ظهرت بوادر النصر ــ ونزل خالد عن القيادة وحارب تحت إمرة أبى عبيدة حتى تحقق النصر النهائى .

إنها حادثة القيادة والولاء فى التاريخ وأبلغها درساً وأطيبها ذكراً ، وهى تقول للعسكريين جميعاً فى كل عصر وزمان :

« إن أول واجب على الجندى هو إطاعة الأمر فى الحال ، وبغير تردد »

إن خالداً ــ سيف الله والقائد المغوار والبطل المنتصر ــ صدر قرار عزله وهو يزجى الصفوف ويقضى فى عدوه ، فلم يبد عليه أى تأثر أو انحراف ، وإنما أطاع الأمر فى الحال ونزل عن القيادة بكل ارتياح ، واستمر تحت إمرة القائد الجديد يوجهه إلى دوره ووفق احتياجات المعركة .

وقال أبو عبيدة :

« إن القيادة مسئولية وليست غنماً ولا جاهاً ولا شهرة »

وقال عمر :

« أمر خالد نفسه ، يرحم الله أبا بكر . . كان أعلم بالرجال منى »

وقال لخالد :

« ما عزلتك لريبة فيك ، ولكن افتتن بك الناس فخفت أن تفتتن بالناس »

* * *

ربما كانت الخاتمة لهذا الجندى الكبير على غير ما أراد ، وعندما حانت منيته بكى وأبكانا معه بقوله :

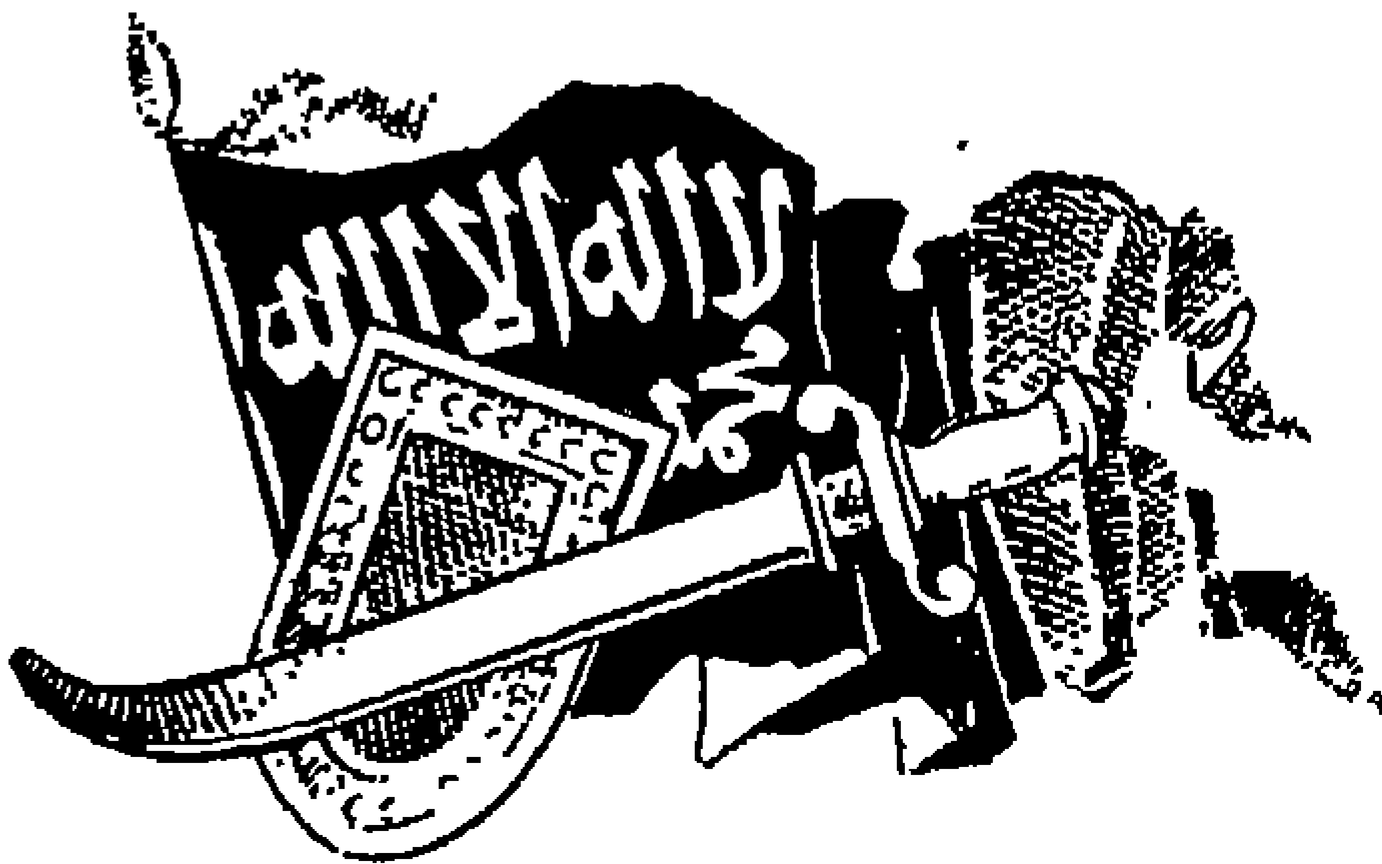
« لقد شهدت مائة زحف أو تزيد ، وما فى بدنى
موقع شبر ليس فيه ضربة سيف أو طعنة رمح . .
وهأنذا أموت على فراشى كما يموت العير ،
فلا نامت أعين الجبناء . . »

* * *

هذا هو خالد بن الوليد — سيف الله المسلول — قامع الفتنة والردة وقاهر دولة الأكاسرة وهازم الروم وصاحب الدور التاريخى البليغ فى الحروب الإسلامية .

وهو قائد لم تنقصه قط صفة من صفات القائد الكبير وهى : الشجاعة وحضور البديهة وقوة التأثير . . ولهذا ينبغى أن يوضع خالد فى قائمة عباقرة الحرب مع الإسكندر وهانيبال وقيصر ونابليون .

قيادة عمرو



اشتهر عمرو بن العاص قبل إسلامه بأنه كان من خير فتيان قريش وأثبتهم جناناً وأشدهم دهاء ، وقد اشترك فى عدة معارك ضد المسلمين فكان الخصم العنيد والعدو الماكر ، الذى جمع بين حنكة السياسة وشجاعة الجندية ، وحفل تاريخه الحربى والسياسى معًا بالمبتكرات والمفاجآت والتصرفات الذكية فى ساعات الحرج . وكانت له فى الحرب كفاية غير مسبوقة وخطط وأساليب تضعه فى صف كبار القادة ، ليس فى زمانه وحسب ، وإنما فى جميع الأزمان .

فهو لم يأخذ الحرب على أنها قتال وحسب ، ولكن الحرب عند عمرو — كجندى موهوب وسياسى محنك — كانت جهاداً يمكن خوضه بأساليب متعددة وأدوات شتى تتناول جميع الأشخاص والأشياء ، حتى إنه يمكن وصفه بالمكيافيلية التى تعتبر أن الغاية تبرر الواسطة ، ولكن دون أن تنحرف الغاية عن القصد الشريف فى آخر الأمر ، وقد أدخل عمرو كثيراً من ضروب الحيل والخداع والتمويه والمكائد فى مواقفه وحروبه .

وعمرو بن العاص هو أول من فكر فى إشراك المرأة فى الحرب . كان يستنفر قريشًا لقتال المؤمنين ، ورأى أن اشتراك المرأة فى القتال يدفع الرجال إلى المزيد من الاستبسال دفاعاً عن العرض والحمى ، وخشية أن تقع النساء أسيرات حرب .

وقصة خروج النساء مع قريش فى لقائها مع المؤمنين مشهورة فقد

كن يصرخن ويشجعن الرجال على القتال ويقفن فى وجوه المستضعفين، وكن يضربن على الدفوف — كما تؤدى الموسيقات العسكرية مارشات الحماس — وكن ينشدن الأناشيد المثيرة التى تحرك همم الرجال ومنها :

نحن بنات طارق نمشى على النمارق
إن تقبلوا نعانق أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

أى أنهن للرجال المنتصرين فقط !

وفى وقعة أحد كان عمروا من أعلام قريش ضد المسلمين ، وقد برز هو وخالد بن الوليد فى المناورة وانتهاز الفرص حتى كادت المعركة تميل إلى جانبهم ، وفى معركة الخندق كانا يناوشان بمهارة ويستخدمان الحيل لعبور الخندق ويتناوبان أعمال الدوريات والتهديدات المزعجة حتى عظم البلاء على المسلمين واشتد الكرب ، ولكن ثبات الرسول وصحبه غير الموقف وجعل النصر لعباده المؤمنين .

وعندما أسلم عمرو كان إسلامه بشير خير له وللمسلمين ، فقد فتحت أمامه أبواب الجهاد وميادين المعارك الكبرى ، كما أنه كان من سيوف المؤمنين التى سلها على المشركين حتى تم النصر الكامل للأمة الإسلامية .

وأصبح عمرو قائداً من كبار قادة الجيوش الإسلامية فلمع نجمه وذاع صيته وواتته الفرصة الكبرى لإظهار مواهبه الكامنة .

. . فلما كانت غزوة ذات السلاسل ولاه النبى على ثلثمائة من

المهاجرين والأنصار وكلفه أن يستعين بمن فى طريقه من العرب لأنه كان ذا رحم فى تلك الأنحاء فأراد النبي أن يتألفهم به :

وقد سبق عمرو القادة العصريين بمئات السنين عندما فكر فى القيام بالعمليات الليلية إمعانـًا فى التستر وتجنبـًا للإجهاد وتحضيراً للمفاجأة ، ففى هذه الغزوة عمل على تحويل أذهان العدو عن تحركاته ، فصار يكمن النهار ويسير الليل .

وعندما نزل بأرض جذام ـــ وكان شتاء ـــ أراد أصحابه أن يصطلوا، فمنعهم عمرو حتى لا ينكشف أمرهم بسبب النار التى يراها الخصوم ليلا على مسافات بعيدة ، وبذلك طبق مبدأ الوقاية .

ولما علم بأن العدو أكثر عدة وعدداً وسار فى تقدير الموقف إلى ترجيح كفة الخصوم لم يندفع فى القتال،ولم يقامر بدخول معركة محفوفة بالأخطار فى ظروف دقيقة تستلزم الحيطة والحذر لأهمية نتائجها.فبعث فى طلب مدد يستعين به على الموقف حتى تكتمل الأهبة ويتم الاستعداد.

وقد قدر له النبي صلى الله عليه وسلم موقفه وبعث إليه أبا عبيدة عامر بن الجراح ومعه مائتان من المهاجرين والأنصار وعقد له لواء وأمره أن يكونا جميعـًا ولا يختلفا ، فلما لحق بعمرو وأراد أبو عبيدة أن يؤم الناس ويتقدم عمرو ، قال له عمرو : « إنما قدمت مدداً ، وليس لك أن تؤمني وأنا الأمير » . . فقال أبو عبيدة : « انظرن ياعمرو . . تعلمن أن آخر ما عهد إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـــ أن قال : « إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا »، وإنك والله

إن عصيتنى لأطيعنك » .

وهكذا حقق عمرو مبدأ توحيد القيادة ، وحافظ على كيان القائد المسئول الذى أخذ المسئولية على عاتقه واضطلع بأدائها ،وأثبت قبل مئات السنين نظرية نابليون بونابرت : أن قائداً عادياً خير من قائدين عبقريين .

وكان هذا من أهم أسباب نجاح غزوة « ذات السلاسل » ، فقد جعل القيادة كلها فى يده ، وسار — وقد صار فى خمسمائة — حتى دخل بلاد « بلى » ودوخها . . وكان اسمه وحده بشيراً بالفوز ، فقد ذكرت المراجع أن عمراً كلما وصل إلى محلة بلغه أنه كان بها جمع فلما سمعوا به تفرقوا . . وبهذا شتت جموع أهل الشام وأعاد هيبة المسلمين .

وكان عمرو أحد القادة العظماء الذين عهد إليهم القضاء على المرتدين فبدأ بقتال « قضاعة » — فى شمال شبه الجزيرة — وقضى على الردة فيها ، ثم وصلت رسالة من الخليفة الصديق يخبره أن يبقى حيث هو ، أو أن يسير إلى الشام فكان رد عمرو :

« إنى سهم من سهام الإسلام وأنت بعد الله الرامى بها والجامع لها ، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم بها شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحى . . » وعندئذ أمره أبو بكر على فلسطين . . ثم كان من قادة المعركة الكبرى ضد الروم ، قائداً للميمنة فى معركة اليرموك الفاصلة التى تم بها فتح الشام .

لقد قال المؤرخون فى عمرو : إن دهاءه السياسى كان يفوق براعته الحربية ، إذ كان حذراً غير مقدام وأنه كان يميل إلى الرياسة ، ويسعى

للإمارة ، فلما قال الخليفة أبو بكر : « إن جمعتكم حرب فأميركم أبو عبيدة بن الجراح» ، لم ييأس عمرو بل ذهب إلى عمر بن الخطاب يناشده أن يكلم أبا بكر ليجعله أميراً على المسلمين بالشام . . فكان جواب عمر : «لا أكذبك! ما كنت لأكلمه فى ذلك أبداً ، وأبو عبيدة أفضل منزلة عندنا منك ، ويحك ياعمرو ؟ . . إنك لتحب الإمارة والله ما تطلب بهذه الرياسة إلا شرف الدنيا . . فاتق الله ياعمرو ، ولا تطلب بشيء من سعيك إلا وجه الله فأخرجه إلى هذا الجيش ، فإن لم تكن أميراً فإنك ستكون فيما بعد » :

وسرعان ما أقبلت الفرصة حين تم فتح فلسطين والشام واستتب الأمر فى عهد الخليفة عمر ، فجاء عمرو بن العاص يستأذنه فى السير إلى مصر ، ووصفها بأنها أكثر الأرض أموالا ، وأنه إذا فتحها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم وتأميناً لسلطان العرب فى الجنوب كما أن بقاءها فى يد الروم يعرض الموقف فى الشام للخطر . وما زال به حتى أذن له وعقد له على أربعة آلاف رجل .

كان لعمرو سابق معرفة بمصر عند قدومه إليها للتجارة فى أيام الجاهلية ، وقد أعجب بخصب أرضها ووفرة خيراتها فطمع فى أن يعقد له اللواء ويكون الأمير ، ولم يزل يهون الأمر على الخليفة ويغريه ، ويعدد له المزايا غير أن الخليفة كان يشغله قبل كل شيء تثبيت أقدام المسلمين فى البلاد التى فتحوها والتى كان جندهم يقيم فيها بين الجزيرة والشام وفارس : ولذلك فإنه ظل متردداً برغم موافقته ، وبعث إلى ابن العاص بجواب مشهور يأمره بالعودة إذا وصله الجواب قبل دخول مصر .

وقد حذر الداهية عمرو ما يمكن أن يكون فى هذه الرسالة التى وصلته فى رفح ، فلم يفتحها حتى دخل أرض مصر ، ثم أعلنها على جنوده .

وكان جيش الروم يبلغ عشرين ألفًا بقيادة القائد تيودور ، ودارت المعركة فى مكان « القاهرة » وكان التفوق العددى فى جانب الروم ، والإيمان وحسن التدبير فى جانب العرب وقد كان العرب ينتصرون بفضل القيادة البارعة .

ثم كانت المعركة الفاصلة حول حصن بابليون الذى استمر يقاوم سبعة أشهر ثم سقط بعمل من أعمال الخداع ، وبعث المقوقس فى مباحثة العرب فخيره عمرو بين الإسلام أو الجزية أو القتال :

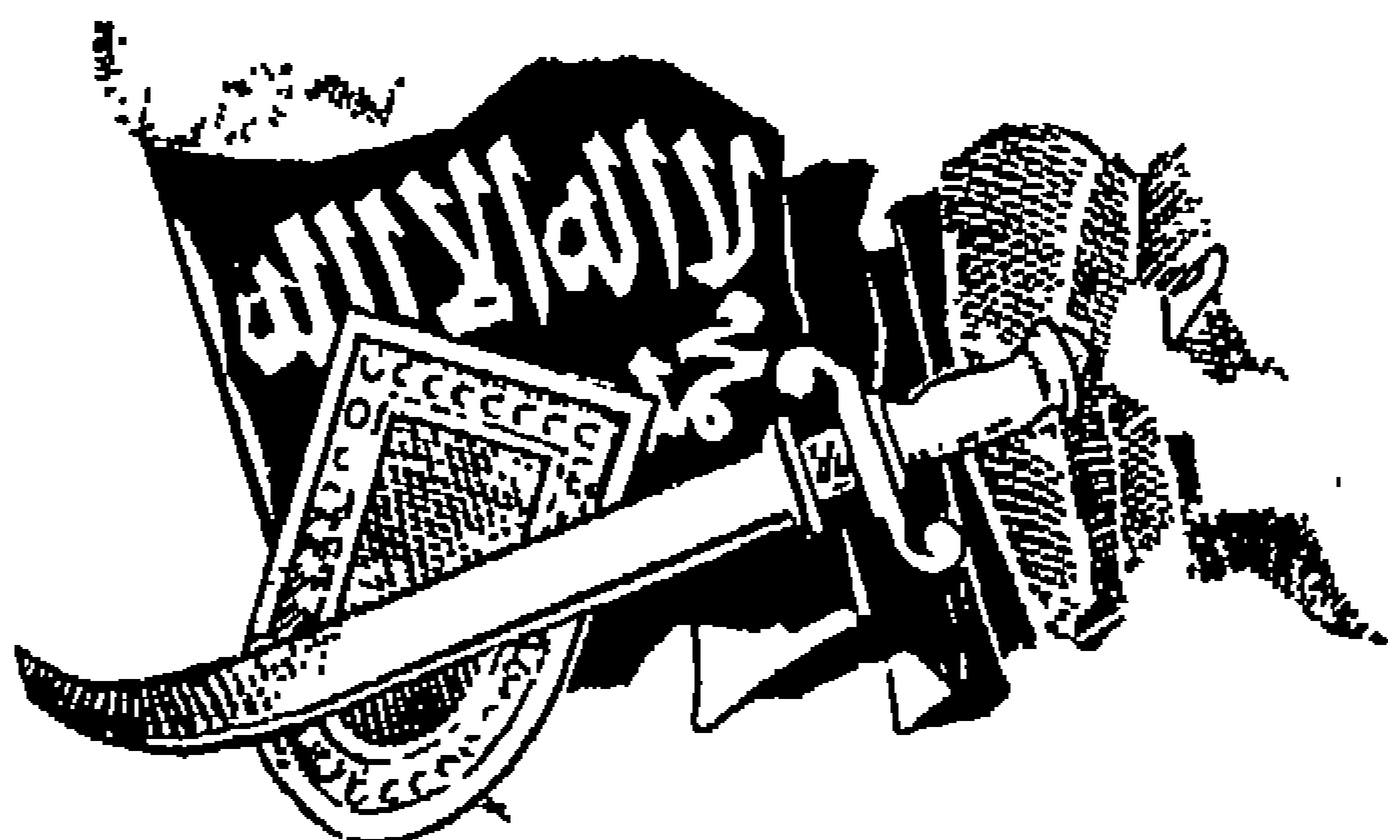
وعاد رسول المقوقس يحمل إلى سيده شروط الصلح ، ويصف العرب وصفًا رائعًا ويقول : « رأينا قومًا الموت أحب إليهم من الحياة والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحد منهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، جلوسهم على التراب ، وأميرهم كواحد منهم » .

وقد تأثر الحاكم بهذا الحديث وأدرك كنه العرب وقدر ما كانوا عليه من نظام وآداب فصار وقومه عونًا للمسلمين .

وفى مصر تجلت مواهب عمرو فى الحرب والسياسة والإدارة ، وكان عهده خيراً عظيمًا عليها ، فنظم القضاء ووضع التقسيم الإدارى والضرائب وأشاع الحرية والعدالة .

ودخل عمرو ساحة التاريخ الذى وضعه فى صف عباقرة الحرب والسياسة . . ولا غرو فقد كان عمرو الجندى السياسى الأديب الذى وصف بحق بأنه « داهية العرب » .

قيادة أبى عبيدة



يعتبر أبو عبيدة عامر بن الجراح قائداً عسكريًّا من الطراز الأول فضلا عن صفاته الأخرى التى جعلته بطلا من أبطال العروبة والإسلام ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد وصفه بأنه « القوى الأمين » وقال عنه :

« أبو عبيدة أمين هذه الأمة » .

ولا بد أن صفاته الطبيعية قد أهلته للقيادة ، فقد كان من المسلمين الأوائل المؤمنين بصدق وعمق ، وكان ثامن من أسلم — والإيمان قوة للجندى تسمو على قوة السلاح والعتاد — وكان أبو عبيدة فى مقدمة المهاجرين إلى الحبشة فراراً بدينهم ، حتى إذا أذن الله للمؤمنين بالقتال عاد من مهجره وانتظم فى صفوف الجهاد وهو مكتمل العقيدة موفور الإيمان .

ولأبى عبيدة موقف تاريخى يضعه فى مصاف عظماء المسلمين ، عندما انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى حدث خلاف فيمن يخلفه ، واشتد الحوار بين المهاجرين والأنصار ، ورأى عمر بن الخطاب أن يحسم الموقف فالتفت إلى أبى عبيدة قائلا : « ابسط يدك لأبايعك فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله » .

فرد أبو عبيدة على الفور :

« ما رأيت لك فهة (أى سقطة) قبلها منذ أسلمت يا عمر . .

أتبايعنى وفيكم الصديق وثانى اثنين . . » .

وقال أبو بكر :

« لقد رضيت لكم أحد الرجلين : عمر بن الخطاب وأبو عبيدة . .

« أما أبو عبيدة فسمعت رسول الله يقول :

« لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » .

« وأما عمر فسمعت رسول الله يقول :

« اللهم أيد الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل » .

وأخيراً حسم الموقف عمر بن الخطاب وأتى فصل الخطاب بقوله :

« يا أبا بكر : امدد يدك أبايعك » وبايعه .

وقال أبو عبيدة :

« يا أبا بكر : إنك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، فمن ذا ينبغي أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ؟ » وبايعه ، وتبعه الآخرون ، وتمت البيعة .

واشتهر عن أبى عبيدة قوله :

« ما سلطان الدنيا أريد ، وما للدنيا أعمل »

فهو — كقائد — لم ينظر إلى القيادة كغنيمة أو مكسب أو جاه .

وعندما انفلت زمام معركة أحد من أيدى المسلمين ودارت عليهم الدائرة ظهر أبو عبيدة شاهراً سيفه ومتجهاً إلى حيث كان رسول الله قاصداً إلى حمايته والتضحية فى سبيله وقد دافع دفاعاً مستميتاً وقاتل ببسالة نادرة حتى دفع الخطر — هو ومن معه من رجال قليلين —

عن مركز القيادة حتى عدل الموقف وكسب المسلمون المعركة الخاسرة.

وقد اشترك أبو عبيدة فى حروب الردة فأبلى بلاء حسناً ثم ولاه عمر بن الخطاب قيادة الجيش الرابع ،أحد الجيوش الأربعة الموجهة لفتح الشام ، وكانت غايته « حمص » .

وقال أبو بكر لقواده :

إذا اجتمعتم فقائدكم أبو عبيدة .

وهى الشهادة التى رفعته إلى مركز القائد العام لجميع الجيوش الإسلامية .

وله ، كقائد ، موقفان ينمان عن إيمانه وأمانته ويكشفان عن متانة تكوينه وعظمة نفسه وعلو همته .

فى الموقف الأول كان أبو عبيدة قائد جيوش المسلمين فى الشام ، وطالت الوقفة عند اليرموك ، فقرر الصديق أبو بكر — القائد الأعلى — أن يقوم بعمل حاسم ضد الروم وقال قولته المشهورة :

« والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

وبعث خالداً من العراق إلى الشام أميراً على مجموعة الجيوش العربية التى كان يقودها أبو عبيدة .

وتقبل أبو عبيدة التغيير فى القيادة بالرضا ونزل عن إمارة الجيوش لخالد ، فقد كان أبو عبيدة غير مفتون بالدنيا ومظاهرها .

أما الموقف الثانى ، فكان أيضاً فى الموقع نفسه ، بعد وفاة أبى بكر فقد قرر الخليفة عمر بن الخطاب إجراء تبديل فى القيادة وجعل أبا عبيدة


لا اله الا الله
محمد رسول الله

قائداً عامًّا وبعث إلى أبي عبيدة بقرار عزل خالد وتوليته القيادة .. فأخفى أبو عبيدة الأمر ، واستمر فترة فى مكانه خلف خالد حتى تحسن الموقف الحربى وظهرت بشائر النصر . . وقد سئل عن عدم أخذه بلواء القيادة فور وصول الأمر فقال :

« ما سلطان الدنيا أريد وما للدنيا أعمل » .

فالهدف عند أبي عبيدة كان النصر للمؤمنين ، ولم تكن له غاية شخصية من شهرة أو جاه أو منظر .

كان قائداً بسيطاً شديد الإيمان ، لم يسع إلى القيادة ولكن خبرته بها واستبساله فى القتال وطموحه الشديدة لهزيمة الأعداء كانت هى عوامل توليته القيادة .

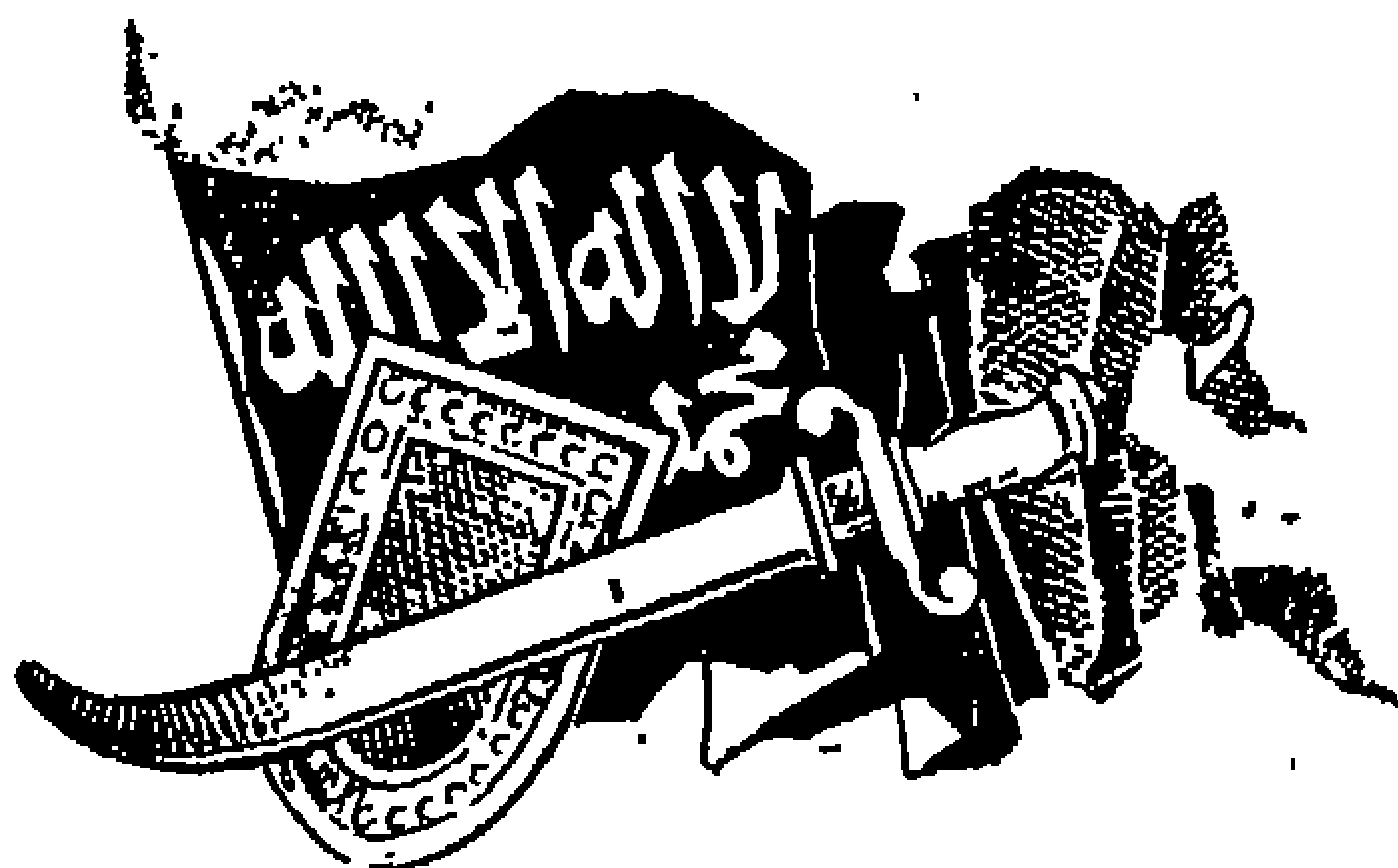
وعندما مات أبو عبيدة لم يجدوا فى بيته سوى أدوات الحرب وقطع خبز جافة فبكى عمر بن الخطاب وقال :

« لقد غيرتنا الدنيا جميعاً إلا أبا عبيدة » .

فإذا كانت القيادة هى تولى أمور الجيش لإحراز النصر ، فهى واجب خطير ورسالة جديرة بالاحترام والتقدير ، ما دامت لم تشبها شائبة من التظاهر أو الطمع الشخصى أو الأنانية .

وهكذا كان أبو عبيدة عامر بن الجراح نموذجاً طيباً للقائد النزيه ، الذى وهب نفسه للدعوة وللجهاد ولم يأخذ شيئاً لنفسه .

قيادة سعد



عندما استشار عمر بن الخطاب أهل الرأى فيمن يوليه حرب الفرس أشاروا عليه بسعد بن أبى وقاص ، وقالوا عنه : « إنه الأسد عادياً » ، فسلم إليه قيادة الجيوش الإسلامية فى تلك الحرب الفاصلة .

ولا ريب أن الإجماع الذى تم لسعد كان له من المقدمات ما يسوغه ، وذلك بما عرف عن هذا الجندى الكبير والمسلم العظيم من صفات ومميزات قبل أن يتولى هذه القيادة الضخمة ، كما ثبت فيما بعد أن هذا الإجماع كان فى موضعه ، فقد كان سعد عند حسن الظن بكفايته ومقدرته حين مضى لمهاجمة دولة الأكاسرة ، وحين راح يدفع الجيوش العربية البدائية من بلد إلى بلد وينتصر بها فى معركة بعد معركة ويرفع راية الإسلام ولواء العروبة ويكتب سطوراً خالدة فى كتاب البطولة العربية .

لقد كان سعد من شباب محمد — صلى الله عليه وسلم — الذين استجابوا لدعوته وتأثروا برسالته واغترفوا من حسناته وبركاته ، فصفت نفوسهم وصح إسلامهم واشتدت فى الجهاد عزيمتهم وصقلت فى غمار الأحداث شخصياتهم ، فكانوا أبطالا فى ساحات الوغى وساعات الشدة ، يقبلون على الموت فيفر منهم الموت ، وتنتصر قلتهم على أضعاف أضعاف عدوهم . . وبهذا هزموا المشركين ، وقضوا على المرتدين فأزالوا دولة الروم وقضوا على سلطان الفرس وصاروا من أصحاب الفواصل فى التاريخ .

إن فى حياة سعد بن أبى وقاص صفحات مجد وفخار تسجل كل منها مرحلة من حياته الحافلة ، وتشهد بعظمة نفسه وقوة إيمانه وشدة بسالته ووفرة كفايته .

وأنت حين تقلب هذه الصفحات تجده الأسد عادياً ، سواء فى الجاهلية حين كان فتى مرهوب الجانب موفور الهمة نافراً من طباع الجاهلية وعاداتها ، أو فى مجالات التجارة حين ظهرت براعته فأثرى وغنم ، أو فى هجرته حين وجد من حسن الرأى أن يفر بدينه ، أو فى ميدان القتال حين أعطى اللواء فأثبت أنه من أعظم القادة فى التاريخ كله . . وأخيراً تراه يستأثر بالتقدير والتوقير حين تسعى إليه الخلافة وهو يأباها ، وحين يشتد التنافس على الحكم فيعتزل الفتنة وينأى عن مواطن الإغراء والشبهة . . حتى يحين حينه ويلقى ربه راضياً مرضياً .

كانت صناعة سعد رمى النبل ، وكان ماهراً فى الرمى لا يخطئ ولا يخيب ، وقد رمى يوم أحد ألف سهم ، وكان رسول الله — صلى الله عيله وسلم — يقول : ارم فداك أبى وأمى ، ارم أيها الغلام الحزور « أى الصائب » .

وتناول سعد سهماً لا نصل له ، فقال له النبى — صلى الله عليه وسلم : ارم . . فوقع السهم فى نحر « حيان » أحد الفرسان الأشداء فى صفوف المشركين ، فدعا له النبى — صلى الله عليه وسلم — أن يسدد الله رميه ويجيب دعوته .

وكان سعد يقول :

« إنى لأول العرب رمى بسهم فى سبيل الله . والله إنا كنا لنغزو مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما لنا طعام إلا التمر وورق الحلبة » .

وفى صحبة النبى — صلى الله عليه وسلم — مضى سعد ينمى مواهبه ويزيد تجاربه ويصقل شخصيته ويتم استعداده حتى أتيحت له الفرصة ليضع قدمه فى ساحة التاريخ ، ويقرن اسمه بأعظم المعارك الفاصلة دون أن يخرجه ذلك المجد العظيم عن صفاته الأصيلة وطباعه الملازمة ، فكان كثير التقوى ، شديد الورع ، كبير الإخلاص ، عميق الإيمان ، لا تخدعه الدنيا ولا تصرفه عن طريقه أعظم المغريات . . ولو كانت إمارة المؤمنين ! فقد كان أحد الستة أصحاب الشورى الذين عهد إليهم عمر ، وكانت له عصبية كبيرة تريده على الخلافة وهو يأباها وقال له ابن أخيه « إن مائة ألف سيف تريدك على الخلافة » ، ولكنه رفضها .

ومن عجب أن هذا القائد البدائى الذى لم يتعلم الحرب فى مدرسة ولم يضع الخطط على الورق ، قد برع فى قيادته إلى درجة يستوى عندها مع كبار العسكريين فى جميع الأزمان ، وقد أبدى من المرونة والثبات والحنكة ما يجعله نداً لأعظم القادة فى التاريخ كله ، وقد انفرد بتنفيذ مبادئ الحرب قبل أن يعرفها العالم الحديث . . فتراه فى معاركه يبدأ بدراسة موقف العدو ، ويجمع المعلومات من مصادر شتى ، ثم يبدأ بالسيطرة على الموقف لتكون لقواته ميزة « المبادأة » ويمعن فى التستر ليحافظ على مبدأ المفاجأة ، ويبعث العيون تكشف تحركات العدو حتى « يضمن الوقاية » وحين يبدأ الهجوم تراه يضرب بشدة ليكون فى الساعة

الحاسمة أكثر قوة وأعظم جنداً ، محققاً مبدأ « الحشد » .. وغير ذلك مما سنذكره مفصلا فى المعارك التى خاضها وقادها سعد بن أبى وقاص :

انظر إليه فى أول اختبار :

عقد له النبي لواء إلى الحراز ، بناحية المدينة ، فخرج على رأس عشرين رجلا من المهاجرين — مشاة — فكانوا يكمنون النهار ويسيرون الليل .

فإذا سألت عن سر هذا « التكتيك » قيل لك : إن هذا مبدأ من مبادئ الحرب يطلق عليه « الوقاية » يعمد إليه القائد الفطن حتى لا تظهر تحركاته للعدو فيظل أمره خافياً مستوراً حتى يمكنه مفاجأة خصمه والقضاء عليه . . وهذا هو ما فعله المارشال ويفل فى تقدمه على المعسكرات الإيطالية فى الصحراء الغربية عام ١٩٤١ فى الحرب العالمية الثانية ، فحقق له شهرة واسعة !

وكان سعد والزبير وعلى بن أبى طالب من الخبراء فى أعمال «المخابرات » ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم — يبعث بهم لاستقصاء أخبار خصومه فيعودون إليه بأدق المعلومات ،وهذا هو ما تفعله الجيوش الحديثة . . حتى ليقال : إن الجيوش بمخابراتها .

وعندما انهزم المشركون فى وقعة أحد بعث النبي — صلى الله عليه وسلم — سعداً خلفهم ، لكى يستطلع أخبارهم ويعرف اتجاههم . . فإن ركبوا الإبل وجنبوا الخيل فهو الطعن ،وإن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فهى الغارة . . فخرج سعد يتبعهم فى حذر وخفاء حتى بلغ نقطة « المراقبة »

فإذا هم ركبوا الإبل وجنبوا الخيل ، فعاد فأخبر النبى – صلى الله عليه وسلم – بعدولهم عن معاودة الهجوم !

وكان سعد يعلم أن أهم هدف فى الحرب هو رأس الجيش ، أى قائده ، فلما كانت إحدى الليالى الحافلة بالأحداث مضى سعد إلى مكان القيادة ليحمى النبى القائد . . قالت عائشة : سهر رسول الله ليلة مقدمه المدينة فقال . ليت رجلا صالحاً من أصحابى يحرسنى الليلة . . فبينما نحن كذلك إذ سمعنا خشخشة سلاح فقال : من هذا . . ؟ قالوا سعد بن أبى وقاص ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم – ما جاء بك ؟ فقال سعد : وقع فى نفسى خوف على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فجئت أحرسه . . فدعا له الرسول – صلى الله عليه وسلم .

بدأ سعد عملياته فى دائرة صغيرة ، ولكنها سرعان ما اتسعت ، فانتقل من قيادة عشرين رجلا إلى مائتين إلى عدة مئات فى المعارك التى خاضها ضد المشركين ، وقد امتاز خلالها بثلاث ميزات :

١ – دقة التصويب . . حتى إنه نثر كنانته فى إحدى المواقع ، وكان فيها عشرون سهماً ما منها سهم إلا وجرح إنساناً أو دابة . . وكان النبى – صلى الله عليه وسلم – يقول له : ارم ، فداك أبى وأمى .

٢ – شدة الثبات . . وقد ثبت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى معركة أحد بين خمسة عشر رجلا ،منهم سبعة من المهاجرين .. أبو بكر – عمر – عبد الرحمن بن عوف – على – طلحة – أبو عبيدة – الزبير وسبعة من الأنصار .

٣ ـ وفرة الفطانة . . ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يكلفه هو وعلى والزبير بأعمال المخابرات وتقصى خطط المشركين ونواياهم .

انتصر الإسلام على الشرك ، وقضى على الردة ، واستتب له الأمر فى شبه الجزيرة . . وبلغت جيوش المسلمين مشارف العراق وأصبحت على حدود الوطن العربى والشام وخليج فارس حيث كانت أعظم دول ذلك العهد تزهو بتقدمها ، وتتمنع فى حصونها ، وتسيطر بجيوشها المنظمة المدربة وأسلحتها المبتكرة النافذة .

وبدأت مرحلة نشر الدعوة الإسلامية ، وأخذ خليفة المسلمين أبو بكر يعد العدة للفتح فبعث إلى العراق بخالد بن الوليد وعياض بن غنم والمثنى بن حارثة والقعقاع بن عمرو ، وتم لخالد بن الوليد إخضاع الحيرة وقضى على دولة المناذرة التى كانت تحكم العراق من قبل الأكاسرة ، وانصرف خالد إلى الشام مستخلفاً المثنى على العراق وحدث أول صدام كبير بين العرب والفرس ، فانهزم الفرس وكان ذلك نذيراً بانحلال دولتهم ، والقضاء على قوتهم الغاشمة .

وعندما ولى أمر المسلمين الخليفة عمر وفد عليه المثنى بن حارثة يستأذنه فى حرب الفرس ، وبخاصة أنهم فى حالة اضطراب بعد وفاة ملكهم شهريار وتنازع الأمراء والقواد على الحكم ، فدعا عمر إلى الجهاد ، وجعل أبا عبيدة بن مسعود على رأس القوة السائرة إلى العراق ، وبدأت المناورات بين العرب والفرس ، وأخذ كل من الفريقين يستعد للمعركة الفاصلة .

ورأى عمر أن اساعة الحاسمة أقبلت ، فأخذ يستنفر الهمم ويجمع

المجاهدين فانسابت الإمدادات وأقبلت القبائل يدفعها روح الجهاد ونفحة الإسلام وصوت الحق :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

وعندما استشار الخليفة كبار المسلمين فيمن يعهد إليه بالقيادة أشاروا عليه بأن يعهد بها إلى سعد بن أبى وقاص ، وقالوا إنه الأسد عادياً.. فأمره على حرب العراق وناط به غزو فارس وأسر إليه بوصيته التالية :

« إنى وليتك حرب العراق ، فاحفظ وصيتى فإنك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلص منه إلا الحق . فعود نفسك ومن معك الخير ، واستفتح به ، واعلم أن لكل عادة عتاداً ، فعتاد الخير الصبر » .

« يا سعد : عليك بالثبات عند الشدائد ، والتجلد فى المكاره ، فاصبر وصابر ، والله مع الصابرين » .

وقد حقق سعد بن أبى وقاص نصراً كاملا على الفرس فى معركة القادسية وقضى على قواتهم قضاءاً نهائياً استسلمت بعده حاضرة الفرس « المدائن » ودخلها سعد وهو يتلو من آيات الله البينات .

«كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين » .

وهو إلى جانب كفايته الحربية كان من أعظم المسلمين شأناً وأبقاهم أثراً ، واشتهر بصدق الحديث ودقته فى الرواية حتى قال عنه عمر بن الخطاب :

« إذا حدثك سعد عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلا تسأل عنه غيره » .

وكان كريم الأخلاق ثابت الوفاء ، وقد روى عنه أنه كان بينه وبين خالد كلام فذهب رجل يقع في خالد عند سعد ، فقال له سعد :

« مه ! إن ما بيننا لم يبلغ ديننا » .

وهكذا أغلق فم النمام المغتاب .

وكان سعد رجل مبادئ فقد أسلم عن اقتناع ومضى في صحبة الرسول وخلفائه عن عقيدة ، فإذا صادفه أمر على غير ما يرى سارع إلى المجاهرة به ، حتى إنه كان يراجع النبي — صلى الله عليه وسلم .

وقد كان أحد الستة أصحاب الشورى الذين عهد إليهم عمر ، وكانت له عصبية كبيرة تريده على الخلافة وهو يأباها ، حتى قال ابن أخيه هاشم إن مائة ألف سيف تريدك . . فرفض ، واعتزل الفتنة .

ولما دخل على معاوية بعد استقرار الأمر له قال :

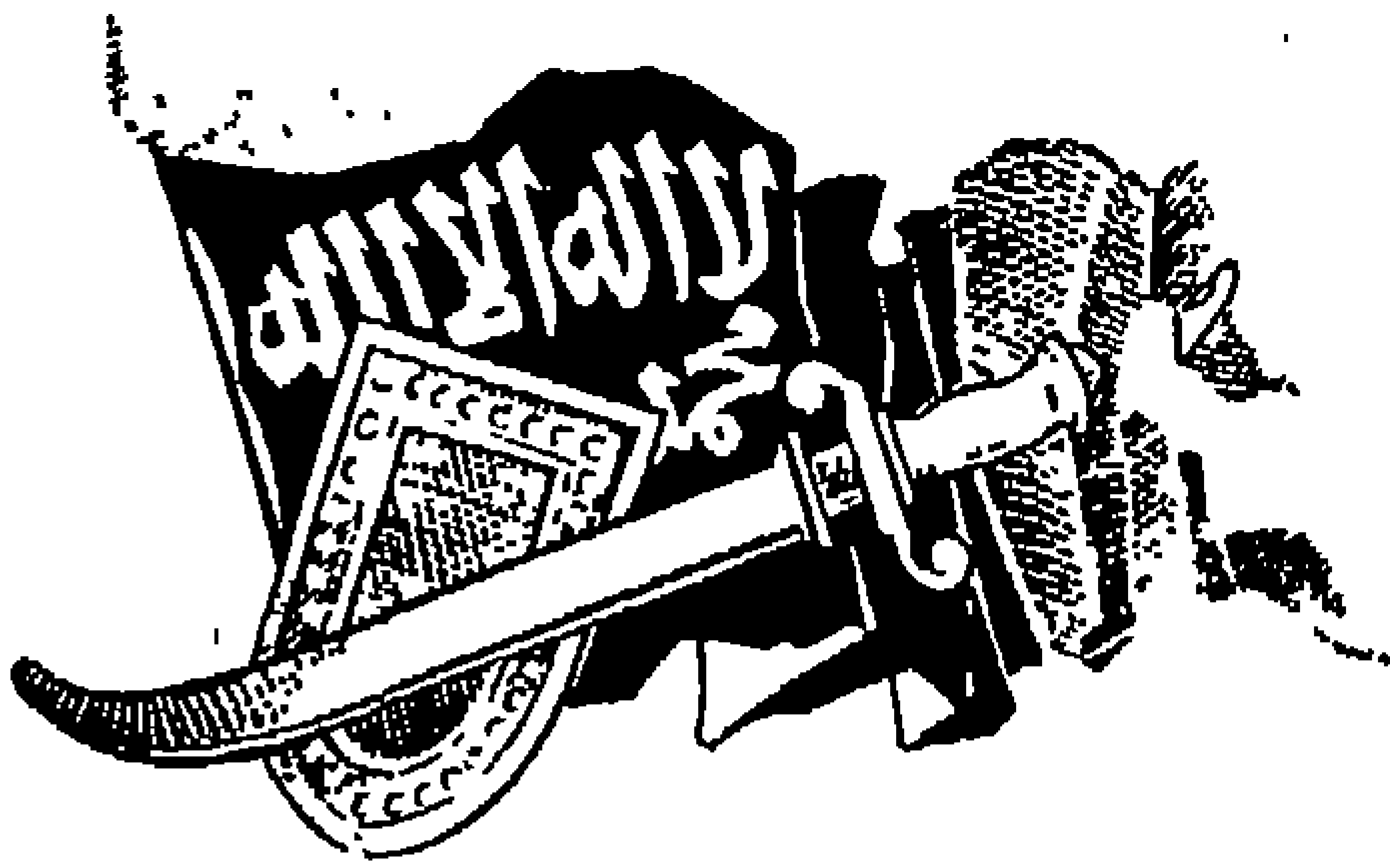
السلام عليك أيها الملك .

فضحك معاوية وقال : ما كان عليك يا أبا إسحق لو قلت يا أمير المؤمنين .

فقال سعد : والله ما أحب أني وليتها به ! (يقصد أنه وليها بالسيف)

وعندما حضرته الوفاة طلب جبة له من الصوف كان قد لقي المشركين فيها يوم بدر فأخفاها ليوم وفاته ، ومات وهو في الثالثة والثمانين من عمره وكان آخر العشرة الكرام موتاً .

قيادة صلاح الدين



اقترن اسم صلاح الدين بأمرين جليلين فى تاريخ الأمة الإسلامية .

أولهما : إيمانه بضرورة توحيد الجيوش الإسلامية فى مواجهة أعداء العروبة والإسلام .

وقد تحقق له ذلك وقاد الجيش العربى الموحد ، فقضى على العدوان الصليبي وحقق للوطن العربى الكبير الوحدة والعزة والمنعة .

وثانيهما : انتصاره العظيم على أخطر أعداء العروبة والإسلام ، الذين أقبلوا تحت ستار الصليب ليفرضوا سطوتهم واحتلالهم البلاد الإسلامية . . هذا الحدث الخطير فى التاريخ الذى اشتهر باسم « الحروب الصليبية » .

لم يكن صلاح الدين ملكاً بالوراثة ، أو حاكماً بمقتضى الصدفة ، ولكنه جاء من عامة الشعب عربيًّا مخلصاً لعروبته مسلماً غيوراً على دينه ، وقائداً من الذين قلما يجود بمثلهم الدهر ، وعبقريًّا من أصحاب التاريخ الذى يختصهم بأحداثه الباهرة ووقائعه الفاصلة فيؤثرون فى مصاير أممهم ومستقبل العالم بأسره .

إنه أحد الكبار الذين أنجبتهم الدنيا فاعتز به الشرق وازدان به تاريخ الجهاد فى الدين والوطن .

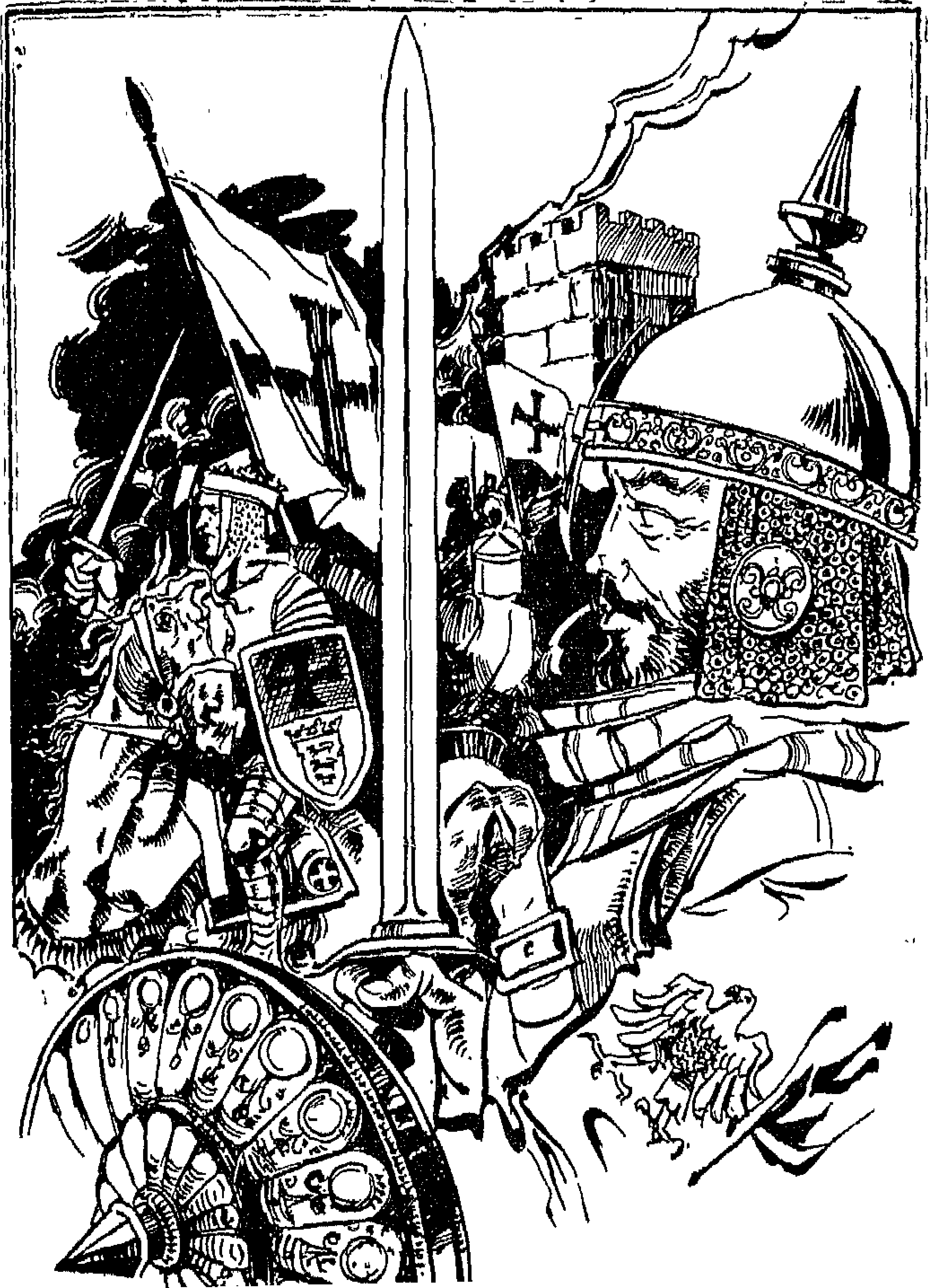
أتته الوزارة منقادة . . فأحسن القيام بشئونها وأجاد تصريف أمورها ، فى ولاء وإخلاص وكفاية ، وانتهت إليه القيادة فنهض بأعبائها واضطلع

بمسئولياتها ، وخفّ إلى الحرب موفور العدة مسدد الخطـــة فأحرز غاية النصر وبلغ قمة الظفر .

عاصر صلاح الدين فترة المحنة الكبرى التى حلت بالمسلمين والحادثة الشنعاء التى تعرض لها العرب والشرق ، فأسرع يأخذ بيده القوية راية الإســـلام ويدفع بقيادته الرشيدة جيش المسلمين فصد الخطر وقضى على قوات الشر وحال دون تعديل خريطة العالم .

لقد كانت الحرب الصليبية حادثة جنون من حوادث التاريخ الشاذة جاءت من الغرب كالريح الهوجاء تذكوها النعرة الدينية وتدفعها الأطماع الأشعبية فشغلت من عمر الدهر قرنين كاملين عبأت خلالهما أوربا قوات تستظل بالصليب وتدعى حماية بيت المقدس وتنشد دحر المسلمين وقهر الوطن العربى .

وقد اعتبر بعض الدعاة هذه الغارات حرباً دينية بفكرة أنها تتجه إلى الأماكن المقدسة تحمل شارات الصليب ، ولكن ثبت قطعاً أنها كانت أيضاً حرباً سياسية فقـــد أرادت الدولة البيزنطية أن تستعيد ما كان لها فى مصر والشام وفلسطين منذ فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس ، ولهذا جرت اشتباكات عديدة على مر السنين بين « الفرنج » والمسلمين ، ومن أشهرها معركة « عمورية » التى انتصر فيها الخليفة المعتصم فى العصر العباسى الأول ثم الوقائع التى دارت بين البيزنطيين ودولة الحمدانيين وفيها تم إخراج العرب من جزيرة كريت واستيلاؤهم على بعض بلاد الشام ، إلى أن جاءت دولة الفاطميين فى مصر والسلجوقيين



فى الشام فاستعادوا المدن والحصون وشددوا النكير على البيزنطيين .

أما الأقطار الإسلامية التى كان يتهددها ذلك الخطر فكانت موزعة بين خلافتين : الخلافة الفاطمية فى مصر ، والخلافة العباسية فى بغداد .. وكانت جميعاً تعانى من الوهن وسوء الحكم وشيوع الفرقة ما يغرى بالإغارة عليها واستباحة حماها .

وجاءت غارة الصليب الأولى فى سنة ٤٩٠هـ (١٠٩٦م) وقد نجحت فى تكوين مملكة لاتينية فى القدس وأنطاكية والرها .

وحدثت الغارة الثانية فى سنة ٥٤١هـ (١١٤٧م) فى عهد السلطان نور الدين محمود ، ولم تحقق أهدافها ..

أما الغارة الثالثة فكانت فى سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) فى عهد السلطان صلاح الدين الأيوبى الذى سدد للصليبيين ضربة قاصمة فى « حطين » .

كان صلاح الدين يرى أن مصدر القوة للشرق فى « مصر » وأن طلعة الجهاد تبدأ من القاهرة ، فأنشأ سوراً ضخماً وقلعة منيعة كما نظم جيشاً قويًّا مهيباً ، وكانت أمنيته أن يوفر للبلاد أسباب المنعة وعوامل القوة فتلتف حولها قلوب المسلمين وتسعى للاتحاد معها بقية الأقطار . . فتتكون قوة كبرى موحدة لقهر الصليبيين وإجلائهم عن فلسطين .

وقد أجرى صلاح الدين إصلاحات عدة فى مصر والشام فنظم شئون الحكم وأرسى عوامل السكينة والثبات ، وقضى على سلطان الأمراء ودخل حلب فاتحاً غازياً فى شهر يونيو ١١٨٣ ثم خضعت له الموصل فى شهر فبراير ١١٨٥ ، وبذلك جمع كلمة المسلمين وقضى على العاصين

وأعد نفسه وبلاده للجهاد الأكبر .

كانت سياسة صلاح الدين تتلخص فى أمرين .

أولهما — توحيد كلمة المسلمين .

ثانيهما — طرد الصليبيين من فلسطين .

وقد تم له تحقيق الهدف الأول فأصبح هو السلطان غير منازع فى مصر والشام جميعاً، ثم شرع يحقق هدفه الثانى وهو : دحر الصليبيين . وكان بين الطرفين هدنة نقضها الصليبيون باعتدائهم المنكر على إحدى قوافل الحجاج المصريين ، مما أثار سخط المسلمين ، فلما انتهى أجل الهدنة تحركت قوات صلاح الدين إلى المعركة الحاسمة التى طال ارتقابها .

وفى « حطين » حدثت معركة كبرى من معارك التاريخ الفاصلة التى غيرت مصائر الشعوب وحددت معالم الدول ، فقد التقت الجيوش الإسلامية المتحدة بالجيوش الصليبية المعتدية ، وقائدها يحمل « صليب الصلبوت » . . فهزمهم صلاح الدين هزيمة منكرة وأسر ملكهم وأسقط الصليب من يده وأمر بقتل « أرناط » الأمير الصليبي — الذى كان شديد الخصومة للمسلمين — انتقاماً لما حدث لقافلة الحجاج المسلمين عند مرورها بالكرك .

ولم تستطع الحملة الثالثة من حملات الصليب أن تغير من واقع الأمر شيئاً فقد ظهر للجميع مدى ما يتمتع به السلطان صلاح الدين من كفاءة ومنعة ، وكان رتشارد الأول ملك الإنجليز (قلب الأسد) قد أعجب بصلاح الدين وأدرك أن هزيمته غير ممكنة وأن اتحاد الأقطار الإسلامية قد

ضيع الفرصة على الصليبيين ، فكتب إليه يعرض شروطاً للصلح لم يقبلها صلاح الدين ، ورد عليه برأيه النهائى فى هذا الموضوع فى كتاب تاريخى جدير بالذكر والتقدير :

« أما القدس فهو لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما عندكم، فإنه مسرى نبينا ومجمع الملائكة .. فلا تتصور أننا ننزل عنه ! أما البلاد فهى لنا فى الأصل، واستيلاؤكم عليها كان طارئاً لضعف من كان فيها من المسلمين فى ذلك الحين » .

وهى رسالة صالحة لأيامنا هذه برغم مرور مئات السنين .

ولو أننا أخذنا بهذه الرسالة فجعلناها سياسة . . لحق للبلاد العربية النصر المبين .

وخلاصة الرسالة أو السياسة : أن بلاد العرب للعرب وحدهم . وأن وجود الصهيونيين ظاهرة شاذة كوجود الصليبيين بالأمس ! .

وهدف الرسالة أو السياسة هو توحيد الصفوف وجمع كلمة العرب ، وبهذا نفوت الفرصة على الصهيونية ومن ورائها الاستعمار ، ونقضى على كل نفوذ أجنبي القضاء النهائى .

حقًّا أن التاريخ يعيد نفسه ..

وأن عهداً لصلاح الدين يوشك أن يعود .

معـــركة بـَـدر



وقعت غزوة بدر يوم الجمعة السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية للهجرة .

كان الخلاف قد احتدم بين المسلمين والمشركين وتكررت الوقائع بين الفريقين وصار كل منهما يتأهب للآخر ويتعرض له ما واتته الفرصة ووسعته الحيلة ، وأصبح على المسلمين الذين طال بهم الصبر على أذى قريش وتعذيبها أن يكونوا على حذر وألا يقفوا عند حدود المدافعة أو الاتقاء .. كما فطنوا إلى المبدأ القائل بأن خير وسائل الدفاع هو الهجوم .

كذلك اتسعت صورة الحرب بين المسلمين والمشركين وتعددت أسلحتها وأصبح العامل الاقتصادى ممثلا فى المعركة أى أن الهدف لم يعد مجرد لقاء بالأسلحة أو هزيمة يتلوها انسحاب أو فرار ، وإنما صار الاستيلاء على أموال وممتلكات العدو هدفاً قائماً بذاته أو محسوباً بين أهداف القتال .

وعلى هذين العاملين — التعرض ، وإصابة أموال قريش — وضعت خطة المسلمين لغزوة كبيرة قدر لها أن تحدث قرب ماء بدر وتشتهر فى التاريخ الإسلامى باسم غزوة بدر الكبرى .

وقد تميزت هذه الغزوة بأفكار ومبادىء لم تجد بمثلها معركة سابقة لها ، كما انتهت إلى دروس ونتائج جديرة بالفحص والاعتبار ، ولهذا نقدم

أحداث وقعة بدر حدثاً حدثاً لكى نكشف عن كل أمر فى حينه مع السياق :

١ — خرج أبو سفيان فى خريف السنة الثانية للهجرة فى تجارة كبيرة يقصد الشام ،وكان نبأ القافلة قد بلغ المسلمين متأخراً ففاتهم لقاؤها فى ذهابها وخططوا لاصطيادها فى العودة وهى محملة بأموال كثيرة .

فالهدف كان التعرض لقريش والاستيلاء على أموالها .

وكان ذلك رداً على عدوانها القـديم المتكرر واستخداما لميزة المبادءة ، وأيضاً إصابتها فى الأموال وتكبيدها الخسائر وإرهابها حتى تحسب حساب المسلمين ويثبت فى ذهن زعمائها أن المسلمين أصبحوا قادرين على المواجهة وعلى رد الصاع صاعين .

٢ — استعد المسلمون للقاء قافلة تجارة قريش فى عودتها من الشام وتجمعت المعلومات عنها فإذا هى تجارة كبيرة يحملها ألف بعير ويحرسها أربعون رجلا .

والحصول على هذه المعلومات يوضح كيف بدأ المسلمون أعمال الدوريات والمخابرات مبكراً ، فحصلوا على بيان الأمـوال ، وتوقيتات العودة ، وطريق القافلة فى إيابها .

٣ — خرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) من المدينة وحشد رجاله على بعد ميل خارج المدينة — عند قبر أبى عتبة — حيث استعرض ثلثمائة وخمسة من المتأهبين للعملية المقبلة بينهم أربعة وستون رجلا من المهاجرين والباقى من الأنصار ، والجميع تحت لواء مصعب بن عمير ،

وحمل المهاجرون راية الأنصار والأنصار راية أخرى .

٤ ـ كان المشركون يتوقعون أن يتعرض المسلمون لهم ، فأرسلوا إلى مكة يستنفرون القوم إلى أموالهم فخرجوا مسرعين لنجدة قافلتهم .

٥ ـ وبعد أن تم للرسول(صلى الله عليه وسلم)تعبئة المسلمين شاورهم فى الأمر ، تماماً كما يحدث فى اجتماع مجالس الحرب العصرية للنظر فى الموقف ووضع الخطة .

وهكذا استطلع القائد رأى كبار أعوانه ووجد منهم إجماعاً على خوض المعركة، فارتحل بهم إلى ساحة العمليات المرتقبة، قريباً من بدر .

٦ ـ وفى الموضع الذى اختارته القيادة للقاء العدو ، بدأ الاستعداد وهو ما يعبر عنه فى العرف العسكرى «بالأعمال العادية فى الموقع» ـ وكان فى مقدمة ذلك إرسال طوف (داورية) استطلاع اشترك فيه علي ابن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص .

ومن هنا تتضح حقيقتان كبيرتان :

ـ الأولى : أهمية الاستطلاع والحصول على المعلومات .

ـ الثانية : أن القائد الملهم أخذ فى اكتشاف الكفايات الصاعدة، فاختياره لهؤلاء الثلاثة ـ الذين أصبحوا فيما بعد من مشاهير قادة العرب فى التاريخ ـ يؤكد النظرة الثاقبة ويدل على أنه فى ظل القيادة الرشيدة تبرز الكفايات ويلمع أصحاب المواهب ، ولقد كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) أستاذ المدرسة التى أنجبت للإسلام والعروبة القادة الميامين الذين أحرزوا النصر فى شتى المعارك وحققوا أعظم الفتوح ووضعوا خريطة

العالم الإسلامى وأرسوا أساس الوطن العربى الكبير .

٧ ـ تحركت داورية الاستطلاع فى حذر وبراعة واقتربت إلى أقصى ما تستطيع من تجمع قريش ، واستطاعت أن تلقى القبض على رجلين شاهدى عيان ، وعادت بهما الداورية إلى حيث تم استجوابهما وأدليا بمعلومات مفيدة .

وبناء على المعلومات بدأ الحديث فى الخطة .

لم ينفرد بالرأى ولم ينهض بالمسئولية وحده ، وإنما استشار أصحابه وأخذ رأى القادة حتى إذا جاء أحدهم بالفكرة الطيبة والرأى الصائب وافق عليه ووضعه فى الخطة ولم يأنف ـ وهو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ـ أن ينزل عند رأى أحد قادته المجاهدين البسلاء حين أشار بتعديل الأوضاع وتبديل الخطة .

وكذلك واتت فكرة مشرقة سعد بن معاذ فكاشف بها الرسول (صلى الله عليه وسلم)قال يا نبى الله : ألا نبنى لك عريشاً تكون فيه ونعد عنده ركائبك . ثم نلقى عدونا . . فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أصبناه ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد لك حبًّا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك » .

فأثنى عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ودعا له بخير ، ثم بنى عريشاً فكان فيه .

إن عرض فكرة سعد واستجابة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لها تكشف عن أهمية الشورى وضرورة إشراك القادة فى وضع الخطة وتشجيعهم على إبداء الرأى وتقديرهم إذا تقدموا بأفكار طيبة .

والفكرة التى عرضها سعد تكشف عن « حاسة الحرب » وفن تقدير الموقف . فإن هذا المجاهد قد أدرك أن العدو متفوق فى العدد ، وأنه إذا التقى الجمعان فقد تتغلب الكثرة ، فرأى أن يضع احتياطيًّا فى موقع القيادة التى يتولاها الرسول ، وأن يكون الاحتياطى خفيف الحركة حتى يستطيع أن يسرع إلى المدينة لاستنفار المؤمنين للحاق بالمعركة فيشتد الضغط على العدو — وبخاصة بعد الموجة الجديدة — إلى أن يتحقق الفوز.

وهكذا استخدم المسلمون الأول « الاحتياطى الخفيف الحركة »الذى تدرسه المعاهد والأكاديميات الحربية فى زمننا هذا بعناية فائقة إلى حد القول المأثور بأن أية خطة لا تشتمل على احتياط لا تكون خطة ناجحة.

وقبل أن يبدأ القتال كان المسلمون قد تم حشدهم فى المكان الملائم والوقت الملائم ، كما أنهم نظموا قوتهم ومياههم كما ردموا البئر التى قدروا أن تستخدمها قريش .

فلما ارتحلت قريش وأقبلت على الساحة التى اختارها المسلمون واستعدوا فيها اكتشفوا أن عدد المسلمين أقل بكثير مما هم عليه، وقال قائل منهم : « غر هؤلاء دينهم » .

ونزلت الآية الكريمة :

« إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينُهم ، ومن

يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم » .

كان عدد المسلمين ثلثمائة وعدد المشركين ثلاثة أمثال المسلمين :

أى أن قريشاً كا لها التفوق فى العدد بنسبة ١٠ : ١ .

ولكن هناك قوة أخرى كشفتها لنا وقعة بدر : هى القوة المعنوية ، التى تحدث عنها القواد المعاصرون وجعلوها ثامن مبدأ من مبادىء الحرب المشهورة .

وإذا كان الفرد الواحد من المسلمين يستطيع أن ينازل عشرة أفراد من المشركين ، فلابد أن فيه قوة خفية تشد أزره وتدعم ذاته وتشعره بالفوز .

وفارق كبير بين محارب لايعلم غايته ويخشى أن تحين نهايته ، وبين محارب يعرف هدفه جيدا ويثق بأنه لا محالة حاصل على إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة : أى الجنة .

ودارت المبارزات الفردية على نحو ما كان مألوفاً فى اللقاء ، فتقدم عبيدة بن الحارث وحمزة وعلى فانتصر كل منهم على غريمه وقتله ؛

وقد ناشد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ربه النصر ، ثم انتبه فجأة وقال لأبى بكر :

« أبشر أبا بكر أتاك النصر » .

أى أن القائد أحس بشعور المنتصر .

ودارت رحى القتال واشتد أوار المعركة .

وقال رسول الله ، وهو يشجع المجاهدين :

« والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » .

وإذن فما الذى يمنع المسلم من الاندفاع إلى القتال والاستبسال حتى الموت ، مادامت غاية الغايات هى الجنة .

ولهذا اندفع « عمير بن الحمام » — وكان فى يده تمرات يأكلهن فقذف التمرات من يده — وأخذ سيفه وظل يقاتل ويقتل حتى قتل ، فكان أول قتيل من المسلمين .

وتم نصر الله لعباده المجاهدين فى سبيله ، وحقت على قريش الهزيمة .

ولكن ظل سعد بن معاذ ونفر من الأنصار يحرسون رسول الله فى مقر قيادته خشية كرة العدو .

وهذا مثل رائع فى الحفاظ على النصر حتى لا تحدث ثغرة أو تقع خديعة .

وعنى المسلمون بجميع الأسرى دون قتلهم وكان هناك من يرى « الإثخان فى القتل أحب من استبقاء الرجال » .

وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وهو ينظر الأسرى :
استوصوا بهم خيراً .

كذلك استشار الرسول (صلى الله عليه وسلم) أصحابه فى أسيرين كانا أشد الناس عداوة وإيذاء للمسلمين ، فأشار عمر بقتلهما ورأى أبو بكر الإبقاء عليهما مع طلب الفدية ، ونزلت الآية الكريمة :

« ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون

عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم » .

فكانت آية كريمة مكرمة ، فيها تكريم للإنسانية وتعظيم لشأن الإسلام بالارتفاع عن قتل الأعزل الذى لم تعد له قدرة ولم تبق لديه حيلة فلا تعذيب ولا تنكيل ولا قتل للأسير . . وهو ما تشير به قوانين الحرب الحديثة ، وإن كان غير منفذ عند مجرمى الحرب وأعداء الإنسانية .

وأخيراً ، لعل أعظم ما كشفت عنه وقعة بدر هو أهمية الروح المعنوية والثقة بالهدف ووحدة القائد والجنود ، واستطاعة فئة قليلة أن تغلب فئة كثيرة بفضل إيمانها وقوة معنوياتها .

وفى هذا نزلت الآيتان الكريمتان :

« وألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » .

و « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال . إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » .

الدروس المستفادة من معركة بدر الكبرى

١ ـ أن الهدف من المعركة ليس الانتصار على القوات العسكرية فحسب ، وإنما الاستيلاء على اقتصاديات العدو أيضاً أو تدميرها .

وفى معركة بدر كان الغرض هو الاستيلاء على أموال وتجارة قريش مما يؤثر فى إضعاف قدرتها على القتال ، ثم تصبح مغنما للمسلمين .

٢ ـ أهمية الشورى والديمقراطية فى قيادة الجيش : وقد كان القائد يستشير رجاله فى كل موضع ويأخذ الرأى فى كل مناسبة ، وقد نزل على رأى الحباب بن المنذر فغير مكان الحشد وأخضع الخطة دائماً للرأى والحرب والمكيدة .

٣ ـ أهمية « الاحتياطى » : فإن أية خطة حربية ينقصها عنصر الاحتياط لا تكون خطة كاملة . ولهذا نفذت فكرة « العريش » التى أشار بها سعد بن معاذ ، لتعزز النجاح فى حالة النصر ، أو لتستنفر القوم إذا ما ظهرت بوادر هزيمة .

٤ ـ أهمية المعلومات : فقبل بدء المعركة أرسل القائد عيونه تأتيه بالأخبار ، كما حصل على معلومات أسير أدلى ببيانات هامة عن مكان تجمع العدو وعن عدده ـ بناء على كمية المؤن ـ وبهذا استعدت قوات المسلمين وهى متيقنة من الموقف .

٥ ـ انتصار القوى المعنوية : فإن عدد المسلمين كان ثلثمائة وعدد المشركين زهاء الألف : كما أن المعركة كانت شديدة وكان النصر رهناً بالصبر والإقدام والبسالة .

٦ ـ انتصار التقاليد العسكرية الرشيدة : فقد رفض القائد الإثخان فى القتل اكتفاء بما لحق بالعدو من هزيمة وارتداد ، كذلك نظر إلى الأسرى نظرة إنسانية ، وقال : « استوصوا بهم خيراً » ، فوضع بهذا وبغيره من الأمثلة الطيبة طرفاً من التقاليد العسكرية العالية المناسبة لكل زمان ومكان .

معــركة أحُــــد



كانت غزوة أحد فى شهر شوال سنة ثلاث هجرية :

وبين غزوتى « بدر » و « أحد » تحركت سرايا الجهاد الإسلامية للقضاء على محاولات قريش وخيانات اليهود ، ومنها غزوة « بنى قينقاع » من يهود المدينة الذين نقضوا العهد بعد غزوة بدر[1] ، ثم غزوة بنى غطفان الذين كانوا ينظمون جموعاً للتحريض والإغارة على المدينة ، وبذلك كانت سرايا الجهاد دائمة الاستعداد لكشف كل محاولة للعدوان والقضاء على أية فتنة أو خيانة . وهى فى تلك العمليات لم تبارح خطة الدفاع عن النفس واتقاء المفاجأة وتحقيق اليقظة الواجبة إزاء محاولات العدو المتربص للثأر من هزيمة بدر والمتطلع إلى استعادة النفوذ والسلطان.

أخذت قريش تستعد للثأر وتجمع الرجال والأموال حتى استقر الرأى على الانتقام . . وقال قائلهم « لا نريد أن نرجع إلى ديارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه » ثم تجهزوا بالسلاح والمال ووضعوا أرباح

---

(١) فى ذلك نزلت الآية الكريمة : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون » الآية ٣٦م الأنفال (٨) .

والمعنى : إن المشركين يريدون العودة إلى قتال المؤمنين وصدهم عن دينهم فجمعوا لذلك الأموال وأرباح التجارة وإنهم لينفقونها فى هذا الغرض ولكنها ستذهب هباء وسوف يتحسرون على ضياعها لأن نتيجة عدوانهم ستكون الهزيمة ولأن نهايتهم ستكون جهنم .

تجارتهم فى أغراض القتال .

خرجت قوات قريش تقصد المدينة وقد بلغ عددها ثلاثة آلاف رجل مزودين بالسلاح والمؤن ومائتى فارس وثلاثة آلاف بعير فسارت إلى « الأبواء » ، ثم « العقيق » ونزلت فى سفح جبل أحد على مسافة خمسة أميال من المدينة .

وبلغت أخبارهم النبي (صلى الله عليه وسلم) فاستبشر خيراً وجمع رجاله وشاورهم فى الأمر وبدأت دراسة « تقدير الموقف » و « طرق الحل المتيسرة » وأولها :

هل يتخذ المسلمون خطة الدفاع ؟

أى يتركون المشركين حيث هم — وفى ذلك مشقة عليهم — فإذا هاجموا المدينة قاتلوهم وردوهم .

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

« فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا : فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم » .

ثم عرض رأى آخر . .

قال رجل من المسلمين :

اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنّا منهم وضعفنا .

هذا الرأى يقضى بالمبادأة وخطة التعرض ، وقد أخذ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بوجهة النظر هذه واستعد للحرب ولبس «لأمته» ؛ أى ارتدى عدة القتال لا يخلعها حتى تضع الحرب أوزارها ؛

وخشى أصحاب هذا الرأى أن يكونوا قد غلبوا رأيهم ، قالوا يا رسول الله : « استكرهناك ولم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد » .

فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل .

أى أنه : بعد اتخاذ القرار . . لا رجعة .

وهكذا وضع السلف الصالح الأصول الثابتة والتقاليد المحمودة : حرية الرأى . . الشورى . . القرار .

لقد عبّر القائد عن وجهة نظره : الدفاع .

وعبّر غيره عن وجهة نظر مغايرة : المبادأة أى الهجوم .

وأخذ القائد بوجهة النظر الأخرى، بعد أن قدر سلامتها ومحاسنها، ولكن أصحاب النظرة الأخرى ، وهم يثقون فى القيادة ويحترمون القائد راجعوا أنفسهم خشية أن يكونوا قد أثروا بشكل أو آخر فى رأيه .

فكانت إجابته حاسمة : لا رجعة بعد اتخاذ القرار .

أى أن التفكير والمشاورة وإبداء الآراء مكفولة للجميع ومتاحة للمناقشة والمراجعة إلى أن يتخذ القرار . . وبعد اتخاذ القرار لا مجال للتراجع أو التردد . . وإلا فإن العواقب تكون وخيمة .

إن قريشاً قد تجمعت وتحركت واستعدت بكل ما لديها ، ووضعت كل قوتها وجميع مواردها لكى تضرب ضربتها وتثأر من هزيمتها فى بدر وتطيح بقوة المسلمين وتستعيد مكانتها وتنشر نفوذها وتؤمن تجارتها .

وأرسل النبى (صلى الله عليه وسلم) رجال الكشف والاستطلاع

فعادوا بمعلومات مؤكدة عن الحشد الذى قامت به قريش والأرض التى نزلت بها استعداداً للقتال .

وتحرك جيش المسلمين ، وقوامه ألف مجاهد ، وفى الطريق من المدينة إلى أحد حدثت عدة مواقف تستوقف الانتباه وتحفل بالدروس والعظات .

الموقف الأول : أن الجماعة التى كان رأيها الإقامة فى المدينة والأخذ بمبدأ الدفاع قد ساورها القلق وشغلها الاعتداد بالنفس عن التسليم بحكم الأغلبية ورأى الجماعة، فتوقفت عن المسير وغلبها التردد وداخلتها الهزيمة وقال زعيم تلك الجماعة عبد الله بن أُبَى : أطاعهم وعصانى .. ما ندرى علام نقتل أنفسنا ؟

وهكذا كشف عن نفس قلقة وجماعة مترددة غير مؤمنة .

فماذا يكون وزن هذه الجماعة ، وهل كان استمرارها فى المسيرة — وهى على هذه الحال من فقدان القوى المعنوية — أفضل من انفصالها ، وهل يقلل من العدد ويضعف الحشد .

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

إنها طيبة ، وإنها تنفى الخبث كما تنفى النار خبث الفضة .

أى أن خروج المترددين لا يؤبه له ، إذ لن يجيء بفائدة ، بل هو خير ، إذ يتخلص المعدن الأصيل من الشوائب وبذلك يتحقق النقاء ويبقى الجوهر .

الموقف الثانى ؛ هو أنه عندما انشق المترددون — وكان عددهم

ثلاثمائة — اختلف المسلمون فى أمرهم ، فقالت جماعة نقتلهم وقالت جماعة نتركهم . . وكادت الجماعتان تقتتلان .

واستقر الرأى على ترك الجماعة المتخاذلة تعود من حيث أتت ونزلت الآية الكريمة :

« فمالكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا ، أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا »[١] .

الموقف الثالث : هو أنه عرضت فكرة لبعض الأنصار . قالوا : يا رسول الله ألا نستعين بحلفائنا من يهود .

قال : لا حاجة لنا فيهم .

أى أن القائد لم يتأثر لخروج جماعة كبيرة . وهو موشك على اشتباك حاسم .

ومع ذلك فإنه لا يقبل أن يضم للصفوف جماعة أخرى غير موثوق بها ، وبخاصة بعد أن أثبتت التجارب عدم إخلاص اليهود .

فليس الأمر فى الحرب أمر عدد وعدة ولكنه إيمان وإخلاص وروح معنوية عالية .

وهكذا تخلص جيش المسلمين وهو فى طريقه إلى لقاء كبير من دعاة التردد والهزيمة وأصحاب النفاق والريب ، وأصبح جيشاً نقيًّا يعرف

---

(١) الآية ٨٨ م النساء ٤ والمعنى : لقد تخلف المنافقون المترددون عن الجهاد فكيف يختلفون فى أمرهم — وقد ارتدوا إلى الكفر بعد الإيمان . إن نيتهم سيئة وإيمانهم غير صحيح فهم فى حكم الكفرة .

غايته جيداً ويثق بقيادته تماماً .

وسلك الرسول صلى الله عليه وسلم برجاله — الذين بلغوا سبعمائة — طريقاً لا يرقبه العدو ويصل به فى خفية عن أنظارهم ، حتى يبلغ موقعاً على قرب منهم ، حتى نزل فى عدة الوادى وجعل ظهره وعسكره إلى « أحد » وقال : لا يقاتل أحد حتى آمره بالقتال .

وهذا معناه فى العرف العسكرى الحديث أن القائد أخذ مكانه أقرب ما يكون إلى العدو ونظم صفوفه وأصدر أمره بالاستعداد وحذر من بدء القتال حتى تجيئ الساعة المناسبة — ساعة الصفر — وعندها يصدر أمره بالقتال .

كذلك أخذ بمبدأ الوقاية حينما وضح له من الموقف أن العدو قد يأتى من خلف الموقف ما لم تكن هناك قوة قادرة على وقفه وصده ، وبخاصة إذا استخدم الخيل فى العملية الشاقة ، ولهذا وضع مجموعة من الرماة قوامها خمسون رجلاً بقيادة « عبد الله بن جبير » وحدد مهمته :

« انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا » .

فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك .

أى أن الأمر كان صريحاً : لا يبارح ولا يتعدى حدود مهمته — وهى تثبيت العدو — مهما كانت النتيجة ، هزيمة أو نصراً .

كذلك نجد فى هذا الأمر — إلى جانب مبدأ الوقاية — تطبيقاً لمبدأ آخر من مبادئ الحرب وهو : الاقتصاد فى القوة ، إذ شكل قوة

الوقاية من خمسين محارباً يستخدمون النبل لتثبيت الفرسان وحماية القوة الرئيسية .

وعلى الجانب الآخر من أرض المعركة المرتقبة كانت قريش قد حشدت ثلاثة آلاف رجل منهم مائتا فارس وكان على ميمنة الخيل خالد ابن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبى جهل .

وبعث الرسول صلى الله عليه وسلم عينين له (أى اثنين من الكشافة) يأتونه بالأخبار فكان على علم بعدد القوات وأوضاعها .

وبدأت المعركة — كما كانت عادات ذلك الزمان — بمبارزات فردية ، فتقدم حامل اللواء من كل فريق ، وتقاتلا ، فانتصر لواء المسلمين .

وخرج سعيد بن أبى طلحة بين الصفين فنادى :

« أنا قاصم من يبارزنى . .

يا أصحاب محمد زعمتم أن قتلاكم إلى الجنة ، وأن قتلانا إلى النار .

كذبتم واللات لو تعلمون ذلك حقاً لخرج إلى بعضكم » . .

وإذ كانت هذه هى عادة القوم فى إقاءات ذلك الزمن ، فإن النصر فى هذه المبارزة الفردية يتوقف على الشجاعة والمهارة الفردية ، ونتيجة ذلك القتال تؤثر أيما تأثير فى نفوس الجنود .

والذى تقدم يطلب المبارزة بجرأة ظاهرة سعيد بن أبى طلحة أحد المغاوير ذوى الشهرة فمن يقدم على مبارزته ويجد الشجاعة لملاقاته . .

لقد خرج على بن أبى طالب ، فاختلفا ضربتين . . وقتله على .

ثم دارت المعركة ، بعد هذه الفاتحة ، وحمل المسلمون على المشركين فنهكوهم قتلاً .

وكان هذا انتصاراً للقوى المعنوية لأن المسلمين كانوا ثلث عدد المشركين ولأن المسلمين كانوا جميعاً من المشاة ، بلا فرسان . . أى أن القوة العددية كانت للمشركين والقوة المعنوية للمسلمين .

من ذلك أن رسول الله مد سيفه وسأل أصحابه : من يأخذ هذا السيف بحقه .

فقال أحد الرجال الشجعان «أبو دجانة» ، وما حقه يا رسول الله، قال : أن تضرب به فى وجه العدو حتى ينحنى .

قال أبو دجانة : أنا له يا رسول الله بحقه .

وقد ذكرت هذا المثل على الشجاعة الفردية دليلا على الروح المعنوية وأثرها فى المعارك ،فقتال صاحبي اللواءين ، وقتال سعيد وعلى، وأخذ أبي دجانة سيف الرسول ليضرب به وجوه العدو حتى ينحنى . . كلها علامات معنويات عالية وظاهرات إيمان وبسالة .

وقد عجب الزبير بن العوام لأن الرسول لم يخصه بسيفه وأعطاه أبا دجانة،فاهتم الزبير بمتابعته ،فإذا به يخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه ، وقالت الأنصار أخرج أبو دجانة عصابة الموت ، وهكذا كان يقال إذا عصب بها ، فخرج وهو يقول :

أنا الذى عاهدنى خليـــلى ونحن بالسفح لدى النخيل
ألا أقـــوم الدهر فى الكيّول أضرب بسيف الله والرســـول

فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله :

وكان فى المشركين رجل لا يدع جريحاً من جرحى المسلمين إلا قتله ، فالتقى به أبو دجانة وهجم عليه وضربه ضربة فقتله .

ثم هجم على هند بنت عتبة — وكان يظنها رجلاً — وعندما هم بضربها ولولت ، فرفع عنها السيف ، وقال هذا الجندى النبيل الباسل :

أكرمت سيف رسول الله عن أن أضرب به امرأة .

وكان يحمل لواء المشركين طلحة ، فطلب المبارزة فخرج له على ابن أبى طالب فقتله فأخذ اللواء عثمان بن أبى طلحة فحمل عليه حمزة فقضى عليه ثم حمله أبو سعيد بن طلحة فرماه سعد بن أبى وقاص فأصاب حنجرته فقتله ثم حمله مسانح بن طلحة فرماه عاصم بن ثابت فقتله ، ثم حمله الحارث بن طلحة فرماه عاصم فقتله ، ثم حمله كلاب بن طلحة فقتله الزبير ابن العوام ، وهكذا حتى قتل أصحاب اللواء وانكشف المشركون منهزمين لا يلوون على شيء وتبعهم المسلمون يعملون السلاح فيهم حيث شاءوا . .

وهنا وقعت حادثة هامة .

فإن هذا النصر الذى أحرزه المسلمون لم يحافظوا عليه ولم يعززوه . وربما لعب النصر برءوسهم فاستسهلوا المهمة وجروا وراء المغانم(١).

(١) لنابليون قول مشهور فى مثل هذا المقام : إن أعظم الأخطار يتهددنا فى لحظة النصر .

وأغرى هذا الغنم الرماة الذين أوصاهم الرسول بالثبات وأعطاهم مهمة الوقاية، فطلبوا من قائدهم عبيد الله بن جبير أن يأخذوا نصيبهم مما ترك العدو ، فقال :

لا أجاوز أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بغى .

أى أن هذه المغانم لا تلهينى عن الواجب الذى أناطته بى القيادة .

ولكنهم خالفوه ، وقال قائلهم :

لقد انهزم المشركون فما مقامنا هاهنا ؟

فانطلقوا يتبعون مكان الغنائم وتركوا الجبل .

وهكذا انفتحت الثغرة وضاع مبدأ الوقاية أو السلامة .

وهكذا انكسر « الضبط والربط » أى روح النظام العسكرى المنطوى على الطاعة وتنفيذ التعليمات .

ونظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله ، وهو الفارس اللماح الشجاع ، فانتهزها فرصة وكر بالخيل، فحمل على من بقى من الرماة وأداروا فيهم الضرب والقتل ، واستشهد قائد الرماة عبد الله بن جبير ، وانتقضت صفوف المسلمين واستدارت رماحهم وانتشرت الإشاعات عن قتل الرسول (صلى الله عليه وسلم) وضياع جيش المسلمين .

قال موسى بن عقبة :

« لما فقد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أى انقطعت أخباره وسط هوجة القتال قال أحدهم إن رسول الله قد قتل فارجعوا إلى قومكم — أى إلى قريش — يؤمنونكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم فإنهم داخلون البيت » .

وقال رجل منهم : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا .

وقال آخرون إن كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد قتل أفلا تقاتلون على دينكم وعلى ما كان عليه نبيكم حتى تلقوا الله عز وجل شهداء :

أى أن المعركة المعنوية اشتد أوارها ، وجاءت اللحظة الحاسمة التى يتم فيها الفصل بناء على روح الجنود وإرادتهم وتصميمهم .

وظهر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . .

ثبت وثبت معه أربعة عشر رجلا من أصحابه .

ووصل القتال إلى مركز القيادة ، وخلص العدو إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقذفه عتبة ابن أبى وقاص بالحجارة حتى أصيب وشجّ فى وجهه وشقت شفته ، ووقع فى حفرة فأخذ بيده على ابن أبى طالب وطلحة بن عبد الله حتى استوى قائماً .

ونزع أبو عبيدة بن الجراح الحلقات التى أصابت وجه رسول الله ، وترّس دونه أبو دجانة — أى جعل من نفسه درعاً تحمى الرسول فكان النبل يضرب فى ظهره .

وجاءت لحظة حرج بالغة الخطورة ، وكاد المشركون يصلون إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويفصلوا فى المعركة ، ولكن الجنود البواسل استمروا فى القتال فكان سعد بن أبى وقاص يرمى السهم فلا يخطىء ، وأحدث ظهور النبي (صلى الله عليه وسلم) أثره فى المسلمين فهللوا وكبروا واندمجوا فى القتال بروح معنوية عالية ، وبدأ ميزان المعركة

نحو الاعتدال ، وأراد المشركون إنهاء المعركة بضربة مفاجئة من الخلف إذ علت قريش الجبل فأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بمنعهم، فانقض عليهم نفر من الرجال البسلاء حتى أهبطوهم .

وشعرت مكة بأن الهزيمة أطبقت عليها فركنت إلى الفرار .

وانتهت معركة أحد .

المعركة التى تأرجحت نتيجتها بين النصر والهزيمة ، والتى كشفت عن أهمية تطبيق مبدأ الوقاية ، ودلت على آن الهزيمة يمكن أن تتحول إلى انتصار نهائى بفضل الصبر والعزيمة والإصرار على القتال فى أسوأ الظروف حتى يتحقق النصر .

فهى — بحق — معركة القوى المعنوية .

الدروس المستفادة من معركة « أحد »

١ — انتصار القوى المعنوية على القوة العددية : فقد كان عدد المسلمين تسعمائة فى حين كان عدد المشركين ثلاثة آلاف .

كذلك استطاع المسلمون عند الهزيمة التى حاقت بهم فى لحظة النصر أن يصبروا على البلاء ويتحملوا المكاره ويعاودوا الهجوم بروح غلابة لا تقهر حتى واتاهم النصر بفضل روحهم المعنوية العالية وإرادتهم وإيثارهم الموت على الهزيمة .

٢ — فقدان مبدأ « الوقاية » : عرض المسلمين للهزيمة ، فعندما

تخلت قوة الرماة عن واجبها فى مراقبة الفرسان ومضى أفرادها فى طلب الغنائم ، استطاع المشركون أن يضربوا ضربتهم وأن ينالوا من المسلمين .

٣ ــ النقاء العسكرى وأهميته فى معنويات الجيش ووحدة الرجال :

. . فقد فطن المسلمون إلى أن بين صفوفهم عدداً من المترددين والمستضعفين ودعاة الهزيمة فتخلوا عنهم وأبعدوهم عن صفوف الجيش ، كما أنهم رفضوا فكرة الاستعانة باليهود المشهورين بالنفاق المجبولين على الخيانة . وبذلك خلت الصفوف من المارقين والخونة والجبناء .

٤ ــ وحدة القيادة والجيش : فقد كان القائد يعيش بين جنوده كأحدهم ويشاورهم فى الأمر وينزل عند رأيهم ما دام صواباً وفيه خير . إن الديمقراطية فى الجيش تثبت الثقة وتشجع الابتكار وتنمى الشعور بالمسئولية وتقوى الروح المعنوية وتدعم وحدة القيادة والجيش .

٥ ــ الهجوم خير وسائل الدفاع :

كان المسلمون يواجهون رأيين . البقـــاء فى المدينة انتظاراً لهجوم المشركين ، أو التقدم للقائهم فى مواضعهم . وكان التفضيل للرأى الآخر حيث أخذ المسلمون المبادأة وحرية الحركة وحققوا مبدأى الحشد والتعرض :

معركة الخندق



كانت غزوة الخندق — على قدم العهد بها وبساطة رجالها وأسلحتها — نموذجاً للعملية الدفاعية التي تنتهي بالهجوم وتعزيز النجاح .

حدثت هذه المعركة في شوال سنة خمس هجرية .

وقد مهد لها وأثار غبارها اليهود الذين دأبوا على مناوأة المسلمين وبث المكايد والفتن ونقض العهود ، وبخاصة بعد النصر المؤزر الذى أحرزه المسلمون في وقعة بدر الكبرى .

وكانت خطة اليهود تقوم ظاهرياً على محالفة المسلمين خشية بأسهم ثم تملق المشركين وإثارتهم وحفزهم على القتال .

وقد تنبه الرسول (ص) لما برع فيه اليهود من حيل ومكايد وإثارات ، فلقنهم عدة دروس بليغة في غزوة بني قينقاع وبني النضير ، ولم يكن يأمن شرهم أو يصدق توبتهم ، ولهذا رفض الاستعانة بهم في غزوة أحد ، خشية المكيدة والخيانة .

نجح اليهود في إثارة قريش وقبائل العرب وزينوا لهم أسباب الاجتماع والتحالف لقتال المسلمين ، وقال قائل من قريش ، على ما تروى المراجع : يا معشر يهود . إنكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه ، أفديننا خير أم دينه (يقصدون دين محمد) .

قال اليهود ، إمعاناً في التملق والرياء : بل دينكم خير من دينه ،

وأنتم أولى بالحق منه[١] .

وبهذا نجحت الوقيعة واجتهد اليهود فى تجميع الأحزاب ونشر الدعوة إلى المغالاة والتشدد والانتقام حتى يستطيع التحالف المؤيد بقدرات اليهود أن يهزم المسلمين هزيمة حاسمة ونهائية .

وبدأت القبائل تحشد رجالها وخيلها وبعيرها وأموالها حتى تجمع عشرة آلاف محارب من قريش وغيرها من البقاع — مما أطلق على جمعهم اسم « الأحزاب » — وباستعراض هذه القوة المتحالفة يتضح أنها كانت أكبر حشد يتجه نحو المدينة فى أعظم أهبة وتعبئة للقيام بأشد غارة وأعنف قتال ، وكان تحالف « الأحزاب » يضم القوات التالية :

١ — من قريش : أربعة آلاف تحت لواء عثمان بن طلحة .

٢ — ثلثمائة من الفرسان وألف وخمسمائة بعير يقودهم أبو سفيان ابن حرب .

٣ — بنو سليم : سبعمائة يقودهم سفيان بن عبد شمس .

٤ — بنو أسد : ألفا ومائتين يقودهم طليحة بن خويلد .

---

(١) وفى ذلك نزلت الآية الكريمة : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً . أم لهم نصيب من الملك فاذاً لايؤتون الناس نقيراً . أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً . (٥١—٥٥ النساء ٤).

٥ ــ فزازة : ألف يقودهم عيينة بن حصن .

٦ ــ أشجع : أربعمائة يقودهم مسعر بن رخيلة .

٧ ــ بنو مرة ــ أربعمائة يقودهم الحارث بن عوف .

وهكذا تجمع عشرة آلاف من قريش والقبائل وتم تنظيمهم فى ثلاث فرق وكانت القيادة العامة لأبى سفيان .

وبلغ خبر هذا الاستعداد والحشد رسول الله (ص) فجمع رجاله وشاورهم فى الأمر فقال كل رأيه، ثم استقر الرأى على إتخاذ خطة الدفاع عن المدينة وإنشاء خندق يحتمى فيه جنود المسلمين ويعوق تقدم العدو حتى تضعف قوته وتهن عزيمته .

وسرعان ما بدأت عملية حفر الخندق واشترك المجاهدون بهمة كبيرة فى حفره وتأمينه، واقتضى ذلك جهداً كبيراً ونشاطاً عظيماً وكشف عن جدية وحماسة على حين ظهر بعض التخلف والخور لأن بعض ضعاف العزيمة وأنصار الدعة والراحة أخذوا يلتمسون المعاذير ويحاولون التسالل والهرب .

وفى ذلك نزلت الآية الكريمة ، وفيها وصف عملى لما ينبغى أن تكون عليه العلاقة بين الجنود والقائد :

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم . لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضا قد قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره

أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم[١] .

وقد تم إعداد الخندق فى الوقت الملائم ووضع رسول الله رجاله فى الأماكن المناسبة وكانوا ثلاثة آلاف تحت لواءين : لواء المهاجرين بيد زيد بن حارثة ولواء الأنصار بيد سعد ابن عبادة .

كذلك عنى الرسول بتطبيق مبدأ السلامة ، فجعل على حراسة المدينة ثلثمائة مجاهد ، وتقدمت قريش وحلفاؤها ففوجئوا بالخندق، وقال قائلهم :

« والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها » .

ونظر رسول الله (ص) إلى قريش وحلفائها، ففوجئ بالحشد الكبير

---

(١) الآيتان ٦٢ ، ٦٣ م النور ٢٤ المعنى : القائد والجنود فى هذا المجال على أمر جامع هو الاستعداد للقاء العدو وتحطيم هجومه فلا يجوز أن يبارح الجندى مكانه أو يتخلف عن عمله قبل أن يستأذن من القائد . فالذى يسلك هذا المسلك ويستأذن ثم يعود بعد قضاء حاجته هو الجندى المؤمن حقاً ، وللقائد أن يأذن أو لا يأذن على حسب مقتضيات الموقف .

وعلى الجندى أن يخاطب القائد بلهجة مؤدبة لا يرفع صوته عليه ولا يناديه كما ينادى واحداً من زملائه ، لأن للقيادة شأنها وجلالها .

و بالنسبة لرسول الله (ص) فى الآية نهى عن ذكر اسمه دون وصفه بالرسالة أو النبوة والصلاة والسلام عليه . أما الذين يخرجون خفية ومن غير إذن فانهم مارقون متخلفون ، يتسللون لواذاً أى (زوغاناً) ومآلهم العذاب وسوء المصير .

من المشاة والخيل وكثرة القبائل المتحالفة مع قريش .

وأخذ يعمل فكره ويضع تقديراً للموقف .

وفكر فى أن يتصل ببعض القبائل ويغريها بالتخلى عن التحالف وعقد صلح خاص ، ولم ينفرد بالرأى بل استشار كبار معاونيه ومنهم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة صاحبا لواءى الأنصار والمهاجرين .

قالا : يا رسول الله أأمرا تحبه فنصنعه ، أم شيئاً أمرك الله به لابد لنا من العمل به أم شيئاً تصنعه لنا .

قال صلى الله عليه وسلم : بل شىء أصنعه لكم . والله ما أصنع ذلك إلا أنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما .

قال سعد بن معاذ : يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه . وهم لا يطمعون أن يأكلوا ثمرة إلا قرىً أو بيعاً ، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه . . نعطيهم أموالنا ؟ ما لنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

قال رسول الله (ص) : فأنت وذاك .

وأعطاه الصحيفة التى أعدت للتفاهم والمصالحة . فمحا ما فيها وقال: « ليجهدوا علينا » .

وهنا لابد من وقفة لتوضيح هذا الموقف الكبير ، من وجهة النظر الحربية .

إن « قائد جيش المسلمين » حين ألقى نظرة على الموقف بدأ يضع خطته على أساس الحقائق التالية :

أولاً : بالنسبة للعدو :

١ ــ العدو متفوق فى العدد والعدة والخيل والإبل .

٢ ــ العدو يتخذ خطة الهجوم ويملك حرية الحركة والمناورة .

٣ ــ التحالف ينبئ بشدة التصميم على خوض معركة كبيرة وإحراز نصر حاسم .

٤ ــ إنها معركة الثأر من بدر وأحد .

ثانياً : بالنسبة لجيش المسلمين :

١ ــ أقل عدداً وعدة .

٢ ــ يتخذ خطة الدفاع ، فلا يملك ميزة المبادأة وحرية العمل .

٣ ــ الروح المعنوية لدى المدافعين أقل منها عند المهاجمين ، وكلما طال أمد الحصار كان ذلك فى غير مصلحة المدافعين .

٤ ــ على الرغم من الإيمان الصادق الذى تشربت به نفوس المسلمين فإن هناك عدداً من القوم لم يكتمل دينهم ولم تكتمل عقيدتهم ولم يصدق جهادهم .

٥ ــ أن المعركة المرتقبة توشك أن تكون ذات أثر خطير ، ولهذا رأى «القائد» أن يستخدم الحيلة وأن يصرف بعض الحلفاء ــ والحرب خدعة ــ فأراد ذلك حتى يجنب قومه معركة عنيفة ومصيراً شديداً .

ولكن «القائد» لم ينفرد باتخاذ القرار وإنما دعا معاونيه ــ أى أركانى

حربه — يستشيرهم فيما عقد عليه العزم ، فراجعوه الرأى وخالفوه فى الاتجاه ولكن بأسلوب بلغ الغاية فى احترام القائد وتقديس حرية الرأى وأيضاً فإن « القائد » أرسى الديمقراطية فى جيشه وبلغ الغاية فى النزول على رأى الجماعة عندما استمع لهم واقتنع بحججهم ووثق برجاحة فكرهم .

وأقبلت قريش وحلفاؤها يثيرون الغبار ويستعرضون القوة ويرسمون خطة الحصار ويعدون العدة للثأر والانتصار .

وتقدمت منهم قوة تختبر الخندق وتحاول اقتحامه فى موضع ضيق فأسرعت إلى الموضع قوة باسلة يقودها على بن أبى طالب فأخذوا عليهم الثغرة التى أقحموا منها خيلهم وأعملوا فيهم الضرب حتى ردوهم مثخنين بجراح.

ومن طرائف مشاهد معركة الخندق ، أنه لما بدأت المبارزات الفردية — كما كانت عادة استهلال القتال — ظهر عمرو بن عبدود — وكان قد أصيب بجراح فى بدر فلم يشهد وقعة أحد — فسأل هل من مبارز ، وكان بادى القوة راغباً فى الانتقام والبطش .

فتقدم على بن أبى طالب وقال : أنا له يا نبى الله .

قال رسول الله (ص) : اجلس إنه عمرو .

ثم كرر عمرو النداء وجعل يؤنب المسلمين ويقول : أين جنتكم التى تزعمون أن من قُتل منكم دخلها ، أفلا تبرزون لى رجلا .

فقام على وقال : أنا يا رسول الله .

فقال : اجلس إنه عمرو .

ثم نادى الثالثة وقال شعراً :

ولقد بححت من النـداء بجمعـكم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن المشجـع وقفـة الرجـل المناجز
وكـذاك إنى لم أزل متسرعاً قبـل الهزائـز
إن الشجاعـة فى الفـتى والجـود من خـير الغرائز.

فقام علىّ فقال أنا له يارسول الله . فقال إنه عمرو ، فقال وإن كان عمراً . فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومشى على إلى عمرو وهو يردد شعراً :

لا تعجلن فقـد أتـاك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نية وبصيرة والصدق منجى كل فائز
إنى لأرجـو أن أقـيم عليـك نائحة الجنائز
من ضربة نجـلاء يبقى ذكرها عنـد الهزاهز

فقال عمرو : من أنت ؟ قال : أنا على

قال : ابن عبد مناف ؟

قال : أنا على بن أبى طالب

قال : غيرك يا ابن أخى من أعمامك من هو أسن منك ، فإنى أكره أن أهريق دمك .

فقال على : ولكنى والله ما أكره أن أهريق دمك .

فأبدى عمرو غضبه ونزل وسل سيفه كأنه شعلة نار ، ثم أقبل نحو على مكشراً عن أنيابه ودار بينهما قتال فانتصر على وقتل عمراً .

وفى هذا اللقاء تتضح أهمية الإيمان وفضل الشجاعة الأدبية ، فلا العدد

ولا السلاح تغنى عن الإيمان والبسالة والقوى المعنوية للأفراد وللجماعات وللجيوش والشعوب .

أين إذن تكمن القوة الحقيقية ؟

لم يختلف القادة والمراقبون والمؤرخون في الماضى والحاضر فى أن القوة الحقيقية تكمن فى النفوس ، وأن أهم أسلحة الحرب : الرجال ذوو البسالة .

وكيف تكسب المعارك بغير شجاعة الرجال وتصميمهم على الفوز؟

بل كيف لا تكسب المعارك إذا خاض غمارها الرجال وهم فى ثقة ورضا وتصميم على النصر أو الشهادة ؟!

انظر إلى تصميم الجندى فى دعاء سعد بن معاذ :

« اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقنى لها ، فإنه لا قوم أحب إلى أن أجاهد من قوم آذوا رسولك وأخرجوه وكذبوه . اللهم إن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعل لى شهادة ، ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة » .

إن الشهادة والروح المعنوية وتفضيل الموت على العار هى جوهر الحرب ونواة النصر .

فى هذه المعركة ــ الخندق ــ كان سلاح العرب الإيمان ، دون أن يتخلفوا عن باقى أسلحة الحرب وفنونها ، فإذا كانوا أقل عدداً من خصومهم أو لم تكن لهم قوات من الفرسان وكثرة من الأموال فقد اتخذوا للحرب عدتها وأقاموا الخندق فجعلوه بينهم وبين أعدائهم ، وهكذا سقط فى يد

قريش التى جربت دفع قوات من الفرسان فلم تستطع إلى اجتياز الخندق سبيلا وأسفرت الهجمات التى حدثت عن إخفاق وعجز ، ولم يعد لديهم من أسلحة القتال فى هذا الموضع سوى مواصلة رمى النبال ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم .

وأيقن أبو سفيان وقادة ألويته أنهم يقيمون أمام الخندق دون جدوى وبلا أمل ، واشتد عليهم الشتاء ببرده وهوائه ، وأنذر بمطره واشتداد رياحه وهم فى العراء ، وكان المسلمون يحتمون بالخندق وبمنازلهم وراءه فى مكة وفى غطفان ويستطيعون البقاء طويلاً دون عناء كثير .

وهكذا وضح أن النصر السريع المرتجى قد أضاعته مكيدة الخندق وأن المعركة التى قدرت لها قريش يوماً أو بعض يوم قد طالت وأن ظروف المكان والجو غير ملائمة للبقاء .

وبدأت روح التردد والهزيمة تفشوا فى نفوس الحلفاء بعد أن طال بهم أمد الحصار واشتدت عليهم الريح فلم يستطيعوا صبراً .

وظهر شبح الهزيمة وضياع كل جهد بذلته قريش وخاصة تجميع الأحزاب ، فإذا أخفق هذا الحشد الكبير فإنها النهاية ، ولا أمل بعد ذلك فى ثأر أو انتقام ، وإنما هى الهزيمة والتفرق والضياع .

وقد قدّر اليهود سوء مآلهم إذا انسحبت الأحزاب ، وفكر حيىّ ابن أخطب فى حيلة يؤجل بها الانسحاب ويحفظ معنويات الحلفاء حتى يضرب بآخر سهم فى جعبته ، وهو إقناع بنى قريظة بنقض العهد والانصراف عن معاونة المسلمين والانضمام إلى قريش وحلفائها ، وبذلك

تنقطع المؤن عن المسلمين وينفتح الطريق إلى يثرب .

والتقى حيي بن أخطب وكعب بن أسعد — صاحب عقد بنى قريظة — فتداولا فى الأمر ، الأول بحيلته وإغرائه الآخر بيهوديته وطبيعته الخيانة والغدر ،فنقض اليهود العهد ، وانتقلوا خفافاً من جانب المسلمين إلى جانب المشركين فى أشد أوقات المعركة بل فى لحظة تقرير مصيرها»[١].

وكان لهذا الانقلاب أثره الشديد فى المعسكرين .

فالأحزاب استعادت معنوياتها وتغيرت نظراتها من اليأس إلى الأمل .

وأما المسلمون فقد وقع عليهم الخبر موقعاً سيئاً . وبخاصة أن المعركة كانت قد أوشكت أن تنتهى بارتداد الأحزاب .

واشتد القتال عشرة أيام مريرة .
وأقبل الأعداء من كل جانب .
ونزلت الآية الكريمة :

« إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنا لك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً.

وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غروراً . وإذ قالت طائفة منهم ياأهل يثرب لا مقام فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً[٢]» .

(١) على أثر علم الرسول (ص) بهذا انقلاب أرسل بعثة لتقصى الأمر والتقوا هم وكعب فإذا به يفاجئهم بقوله : من رسول الله . . لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ! ؟

(٢) سورة الأحزاب — الآيات من ١٠ — ١٣ .

هكذا حدث التحول فى الموقف ومال ميزان القوى ، بسبب الخيانة والغدر ، فى أثناء المعركة ، إذ انتقلت من جانب المسلمين إلى جانب المشركين فئة — كانت فى أقل القليل يؤمن شرها ولكنها كانت تحمى مدخل يثرب وتؤمّن وصول المؤن — فلا غرو إذا اهتزت صفوف المشركين فرحاً وأملا وتحركت لاستعراض قوتها وخيلائها وتمارس أعمال التهديد والعدوان .

أما صفوف المسلمين — فبالرغم من النكسة — فقد ظلت على ثباتها وتصميمها مهما كانت المكاره المتوقعة والويلات المنتظرة

ولم ينجح المشركون فى محاولاتهم اقتحام الخندق ولا إرهاب المسلمين ، ثم هبت عاصفة شديدة بليل وهطل المطر غزيراً فانهارت خيام الأحزاب واهتزت نفوسهم ، وخالطهم الرعب . ولم يستطيعوا على هذا المقام صبراً ولا ثباتاً : واتجه تفكيرهم إلى التحلل من التحالف والفرار من الردى .

وكان فى مقدمة المفارقين طليحة بن خويلد حامل لواء بنى أسد فنادى عشيرته :

« إن محمداً قد بدأكم بشر ، فالنجاة النجاة » . .

ووقع اليأس فى قلب أبى سفيان فقال لمن معه :

« يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام . ولقد هلك الكراع — أى الخيل — والخف — أى الجمل — وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم ما نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، ما يستمسك لنا بناء ولا تثبت لنا قدر ولا تقوم لنا نار . . فارتحلوا فإنى مرتحل » .

أى أن قريشاً وحلفاءها لم يثبتوا فى وجه العاصفة ولم يستعينوا بالصبر، وإنما طارت نفوسهم شعاعاً فى ساعات ، وهم الذين كانوا يتظاهرون بالقوة ويتأهبون للغزو ويحلمون بالقضاء على خصومهم. وبذلك انهارت عزائمهم وقضوا على أنفسهم بالهزيمة قبل اللقاء وبالفرار قبل بدء المعركة .

وهكذا انتهت معركة الخندق دون قتال يذكر فكانت معركة الصبر والثبات وأيضاً معركة الحيلة كما أن الطبيعة كان لها دور كبير فى هزيمة المشركين .

ولكن انصراف الأحزاب عن الخندق — وإن كان هزيمة لقريش — فإنه لم يكن انتصاراً كاملاً للمسلمين ،إذ عادت الجماعات إلى دورها — وبخاصة بنى قريظة — دون أن تحاسب على غرورها وإثمها ، فكان لابد من متابعة الانسحاب والقضاء على بنى قريظة .

هذه العملية هى ما يطلق عليها فى الحرب الحديثة « تعزيز النجاح » أى متابعة الخصوم المرتدين وضربهم حتى لا تقوم لهم قائمة وحتى تكون لهم عبرة إذا فكروا فى المعاودة .

كما أن هذه العملية تعتبر تنفيذاً عملياً للمبدأ القائل بأن الدفاع يجب أن ينتهى إلى الهجوم ، إذ لا يحقق الدفاع وحده غاية المعركة ، وإنما لابد فى المعركة الدفاعية الناجحة من الانتقال إلى الهجوم[1] .

---

(١) فى العرف العسكرى العصرى أن أية عملية دفاعية لا يتحقق الهدف منها إلا إذا تبعها هجوم — مهما تكبد الخصوم من خسائر فى الأنفس والأسلحة والمعنويات — ولكن النصر رهن بهجوم يفصل فى المعركة ويقضي على إرادة العدو=

خف المسلمون إلى المعركة الجديدة ، وانتقلوا من الدفاع إلى الهجوم، ومن المكوث وراء الخندق إلى مواجهة المخابئ والتحصينات التى أنشأها وأقام فيها اليهود وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله .

وقد ظل الحصار خمساً وعشرين ليلة لم يقع خلالها إلا تراشق بالنبل والحجارة ،وشدد المسلمون على خصومهم ولم يدعوا لهم فرصة للخروج حتى جهدهم الحصار ودخل قلوبهم الرعب .

وطلب اليهود شروط التسليم ، ونزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزلت فى الخندق وبنى قريظة :

« يأيها الذين آمنو أذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنا لك أبتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً . وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً . وإذ قالت طائفة منهم

= ويجبره على التسليم .

وفى وقعة الخندق باءت محاولات المشركين بالإخفاق وتعرضوا للبقاء فى العراء أياماً وليالى بين قسوة ظروف الحرب ، واشتداد العواصف مما اضطرهم إلى الانصراف ، ولكن لم تنزل بهم الهزيمة فكان لا بد لدحرهم من عمليات هجومية يبادر إليها المسلمون .

ولهذا قال رسول الله (ص) بعد الخندق : لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم .

يأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً . ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا . قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيراً . قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فاحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً . يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا . لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً . ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانًا وتسليماً من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا . ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً . ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويًّا عزيزاً وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً

تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شئ قديراً »(١) .

وهكذا تم إخضاع بنى قريظة وانهارت معنويات قريش وفقدت بأسها وخيلاءها وسكنت أصوات المدعين والمنافقين ، واستتب الأمر لرسول الله (ص) وسجل تاريخ الجهاد العربى لمعركة الخندق أهميتها الحربية ونتائجها الباهرة فى تقويض دعائم قريش ودحر اليهود وتفرقة الأحزاب وانتقال المسلمين من مرحلة الدفاع عن النفس إلى مرحلة الهجوم الوقائى والتعرض الذى لا غنى عنه لحماية المعتقد وتأمين السلم .

---

(١) الآيات : ١٩ - ٢٦ م الأحزاب ٣٣ ، قال تعالى : قل لن ينفعكم الفرار . وهذا درس يصح لكل زمان ولكل قوم . فهل الفرار من الجهاد عاصم من أمر الله ، وهل الموت يهبط فى الحرب فقط ؟ . وماذا ينفع الفرار غير قتل الروح وإهدار الكرامة وتمتع بالحياة إلى حين ؟ !

أما رسول الله (ص) القائد فكان نموذجاً لجنوده ومثالا للمجاهدين ، واشترك بيده فى حفر الخندق وعاش عيشة رجاله وتعرض للمكروه معهم ، وكان لا ينفرد برأيه ، بل كان الأمر شورى بينهم . وكان المؤمنون حقاً يجاهدون ويصبرون ويصدقون فى اللقاء ، فمنهم من استشهد ومنهم من شهد رفع الغمة وقدوم النصر . وقد انفضت الحرب بغير معركة حاسمة لما حدث فى صفوف المشركين من فرقة وما ألم بهم من ريح صرصر زلزلت أقدامهم وما وقع فى قلوبهم من رعب . وكان للمؤمنين النصر والغلبة وكانت لهم ديار الكفار وأموالهم بإذن الله لقاء إيمانهم وجهادهم فى الله حق الجهاد .

الدروس المستفادة من وقعة الخندق

١ ــ لا تكون العملية الدفاعية خطة كاملة إلا إذا تبعها هجوم يحقق هزيمة العدو تحطيم إرادته .

ولهذا تحركت قوات المسلمين فور انسحاب الأحزاب وحاصرت بنى قريظة حتى أجبرتها على التسليم .

٢ ــ فقدان المسلمين لمبدأ « السلامة » : إذ اعتمدوا على بنى قريظة ، وفى ساعة الحسم ، اتضحت خيانتهم وكادت المعركة تنقلب وبالاً على المسلمين . فالحذر والحيطة ضروريان لابد من إلتزامهما من أجل سلامة القوات .

٣ ــ استخدام مبدأ الحشد : حيث قرر رسول الله أن يتخذ خطة الدفاع عن المدينة وحفر الخندق ووضع قواته بين الخندق والمدينة فكانت له المبادأة وحرية العمل وكانت قريش تتوقع أن يكون اللقاء فى أحد .

٤ ــ استخدام مبدأ المفاجأة : وذلك بحفر الخندق ــ وكان أمراً جديداً فى ذلك الزمان ــ ففوجئ به المشركون وقال قائلهم :

« والله إن هذه المكيدة ما كانت العرب تكيدها » .

فكانت المفاجأة فى المكان وفى الخطة على غير ما كان العدو ينتظر .

٥ ـ الديمقراطية فى جيش المسلمين : إذ كان الرسول القائد يشاور رجاله فى كل أمر ويأخذ بالرأى الذى تبديه أو توافق عليه الأغلبية ، كما كان الرسول القائد أسوة طيبة ومثلاً أعلى لرجاله . كان بينهم كأحدهم وقد عمل فى حفر الخندق بيديه فكان يرفع التراب ويدعو إلى الصبر ومضاعفة الجهد .

إن الجنود يتأثرون بالقائد ويحذون حذوه ، وكيفما يكن القائد يكن الجنود ، ولهذا فإن التوجيهات الحديثة للقادة هى أن القيادة تحتم تقديم المثل الطيب قبل أية فضيلة أخرى[١] وأن يشارك القائد جنوده كل ظروف المعركة .

---

(١) للمارشال وليم سليم قول مأثور :

« الضباط وجدوا ليقودوا الجنود . وإنى أناشدكم بصفتكم ضباطاً ألا تأكلوا أو تشربوا أو تدخنوا أو تجلسوا . . أو حتى تستندوا إلى شجرة قبل أن تتيقنوا أن ذلك متاح لجنودكم » .

معـركـة الـقـادسـيّة



فى خاتمة حياة رسول الله (ص) كانت الدعوة الإسلامية قد انتشرت وطابت لها نفوس العرب ، وكان جيش الجهاد الإسلامى قد انتصر على مناوئى وخصوم الدعوة، واستطاع أن يهيمن على شبه الجزيرة العربية ، حتى أستظلت برايته واحتمت بقوته ، ثم اختبره منطقة لحدود وألزامها الطاعة والجزية ثم التقى — عبر الحدود — بأعظم جيوش ذلك الزمان — وهو جيش الروم — فاكتسب من غزواته ومعاركه خبرة ودراية ، كما تطورت تشكيلاته وتنظيماته وأسلحته ، ومارس شتى التحركات والفنون الحربية المتفوقة .

وكان آخر عمل عسكرى تولاه القائد (محمد صلى الله عليه وسلم) هو تعبئة الجيش لمواجهة تجمعات الروم على الحدود وقيادة هذا التحرك الشاق إلى « تبوك » ، وما كان من انسحاب الروم إلى داخل بلادهم واحتمائهم بحصونهم ، ثم كانت العودة إلى المدينة دون أن يزول خطر ملاقاة الروم ، فلما فرغ من حجة الوداع أمر بتجهيز جيش كبير جعل فيه صحابته وأمّر عليه أسامة بن الشهيد زيد بن حارثة ، وهو بعد شاب فى العشرين * .

---

* وهكذا بدأ التفكير مبكراً فى تقلد الشبان قيادة الجيوش ، وفى مدرسة محمد القائد تخرج عدد من الشبان النابغين الذين لمعت مواهبهم وأنجبت قيادتهم انتصارات باهرة ومبادئ حربية خالدة .

وكانت تعليمات محمد القائد إلى أمير جنده أسامة أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم — من أرض فلسطين على مقربة من « قوته » حيث استشهد أبوه — وأن يفاجئ الروم فى « عماية الصبح » فيقضى فيهم أشد قضاء ، وأن يتم ذلك خفية ودراكاً حتى لا تسبقه أنباؤه إلى أعدائه ، وأن ينهى جولته معه بأسرع ما يستطاع ويعجل بالعودة .

هذه التعليمات أقرب ما تكون إلى أمر عمليات حرب خاطفة : التحرك خفية والضرب مفأجاة والعودة العاجلة . . تماماً على النحو الذى كان يتفاخر قيصر حين قال : « ذهبت وانتصرت ورجعت » .

حال دون تحرك جيش أسامة فى اللحظة الأخيرة مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم والجيش على أتم أهبة وأكمل استعداد ، وثار حوار هل يتحرك الجيش أو ينتظر . . . إلى جانب الحوار المثار عن وضع أسامة « الشاب » على رأس الجيش وفيه عظماء المهاجرين والأنصار . . ولكن خفت الحوار وساد الصمت فى ساعة من ساعات التاريخ الرهيبة حتى انتقل الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى الرفيق الأعلى .

ولما ولى الخلافة الصديق أبو بكر أصدر لأمره لأسامة بالتحرك لتنفيذ عمليات ردع الروم على حدود الشام تنفيذاً لفكرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحقيقاً لأمن الحدود واستمراراً فى نشر دعوة الإسلام ، وقد تحرك الجيش بقيادة أسامة الذى كان عند حسن ظن الرسول القائد فقام بعملية جريئة ،فأغار على البلقاء ودحر خصومه وعاد مرفوع اللواء الذى عقد له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بيده .

وقد أعقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ارتداد نفر من ضعاف الإيمان والمنافقين والمترددين، فقاد أبو بكر معارك الردة حتى قهر المرتدين وعاد لمتابعة رسالته فى نشر الدعوة وتوجيه جيش الجهاد إلى الأقطار المجاورة ، وفيها جماعات وقبائل تدين بالسيادة للفرس والروم .

كانت فارس واحدة من « إمبراطوريتين » هما صاحبتا الشأن والحضارة والقوة فى ذلك الزمان ، الأخرى كانت بيزنطية — دولة الروم — كلتا الدولتين نشرت نفوذها وسيرت جيوشها وأرست أعلامها على بقاع شاسعة وبلدان عدة وحدث بين القوتين علة مصادمات على مدى سبعة قرون متتابعة ، وقد خضعت العراق — دولة لخم — للفرس ، وخضعت الشام — دولة غسان — لعروم وحدثت معارك حربية ضارية بين الروم والفرس كان أشدها انتصار الفرس فى سنة ٦١٥ م ودخولهم القدس وفى أثرهم الدمار والخراب والدم المراق ، ثم تحولهم بعد ذلك إلى فتح مصر وإزالة سلطان الروم عنها* .

ثم وقع صدام آخر فى سنة ٦٢٨ م وانتصر الروم وأحاطوا بعاصمة الفرس « المدائن » حتى جلت قوات فارس عن الشام ومصر ودخل هرقل بيت المقدس .

ولم يكن انتصار الروم يعنى أنهم أحرزوا الغاية وأخذوا بميزان القوة

---

* فى ذلك نزلت الآية الكريمة « آلم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » .

كما لم تكن هزيمة الفرس تعنى الضياع ،وإنما المعنى الواقعى لمعاركتهما الأخيرة أن كلتا الدولتين قد هبطت من عليائها وشاع الضعف والخور فى كيانها وبدأت شمسها فى المغيب ، عندما أذن الله بثورة الإسلام وانتقاضة العرب .

كان الاتجاه السابق فى التحرك العربى هو البدء بالروم ، حيث جرت لقاءات فى مؤته وتبوك والبلقاء ، ولكن حدث تحول فى الموقف أدى إلى تحويل التفكير من البدء بالشام إلى التحرك نحو العراق حيث كانت دولة الفرس تنشر سيطرتها وتمارس سلطانها .

. . ذلك أن المثنى بن حارثة الشيبانى من فرسان بنى بكر أهل البحرين جمع جموع القبائل العربية حتى دانت له منطقة الخليج :

وأرسل إلى الخليفة أن يأذن له بالإمارة على المنطقة حفاظاً على ما بلغه من سيطرة عربية وحتى يستطيع أن ينشر الدعوة ويرسى قواعد الحق والعدالة وأن يقف فى وجه الفرس .

ونظر الخليفة الصديق فى الموقف نظرة المرؤوس عن نشر الدعوة والقائد الذى عاش فى كنف الرسول وقيادته ، وأخذ يضع خطته لنشر الدعوة فى العراق وتنظيم الجيش والقيادة الكفيلين بإحراز النصر وبلوغ الغاية :

ولم يكن جيش المثنى بن حارثة قادراً على هذه المهمة الجليلة الصعبة فى مواجهة جيش الفرس الجرار وقوة فارس المسيطرة المتسلطنة ، فلم يكن به من عدد كبير ، ولم يكن به من قائد عبقرى ، ولهذا صدرت أوامر الخليفة بتحرك عشرة آلاف مجاهد للانضمام إلى جيش المثنى الذى يبلغ

ثمانية آلاف وأن تكون القيادة العليا لسيف خالد بن الوليد .

عبر جيش الجهاد الإسلامى حدود العراق إلى سهل بابل أو منطقة السواد حيث كان الحشد الفارسى بقيادة هرمز فى الانتظار ، ودارت معركة مصادمة سريعة ارتد بعدها جيش الفرس إلى منطقة الجسر الأعظم فى الفرات ، وهو مكان مدينة البصرة .

ثم حدث صدام آخر سريع عند « المذار » — قريباً من التقاء دجلة بالفرات — حيث كانت الإمدادات المرسلة بقيادة الأمير « قادن » تنضم إلى جيش « هرمز » واستطاع خالد بن الوليد بعمليات سريعة متقنة أن يبدد شلل الفرس وأجبرهم على ترك المكان .

ثم انتقل القتال إلى « الولجة » حيث احتشدت جماعات من رجال القبائل تقودهم وتؤيدهم قوات عسكرية فارسية تحت إمرة القائد جاذويه الذى أدار معركة حامية لم يكتب له فيها الفوز ولم يتسن لقواته ولقبائل الأعراب المتعارضة معها طول المقاومة فكانت معركة الولجة هزيمة جديدة فى سجل الهزائم التى حلت بالفرس على يد العرب ، وهم يطوون بساط فارس .

وكان اللقاء التالى عند « أليس » حيث ألقى خالد بن الوليد بقواته فى معركة هجومية على دفاعات الفرس التى لاذ بها وقاتل عنها قوات فارسية يقودها « جابان » ويؤازرها أهل القبائل المندفعون فى قتال العرب تحت الرياسة الفارسية وبتأثير ما كان للفرس من قوة وضراوة، ولكن العمليات الدفاعية باءت بالخذلان وتراجعت قوات فارس منهزمة متداعية وتاركة

العديد من الأسرى والكثير من الغنائم .

وظهرت « الحيرة » عاصمة « العراق » بأسوارها ودفاعاتها القديمة ، وتقدم خالد فأحاط بها وشدد عليها الحصار ودعا أهلها إلى الإسلام أو الجزية فأبت وتمنعت ولكن لم يطل بهـا الوقت ولم تثبت على المقاومة فهوت دفاعاتها وهبطت معنويات أهلها وجندها فقبلت التفاوض وارتضت دفع الجزية ودخل خالد الحيرة ، فكانت قاعدة جيشه ومقر رياسته .

وقضى خالد وجيشه نحو عام فى الحيرة يدبرون الأمر ويضعون الخطط وينتظرون تعليمات الخليفة دون أن تغيب عن فطانته محاولات التمرد أو تحركات الجيش الفارسى ، فسارع إلى ملاقاة الكتائب التى بدت تجمعاتها ومناوراتها عند الأنبار وعين التمر حيث كان الجنود والأهالى يحتمون بالأسوار ويقيمون الخنادق فلما كان اللقاء عبر المسلمون ما كان أمامهم من خنادق واجتازوا ما صادفهم من أسوار حتى دخلوا المدينتين فى أيام قليلة .

بيد أن هذه العمليات — على أهميتها — والانتصارات التى أحرزها العرب — على تتابعها — لم تكن أكثر من خطوات حاسمة على الطريق . أما الغرض فكان الجيش الفارسى الكبير وأما الغاية فكانت حاضرة الفرس : المدائن .

وكان أمام المسلمين هدف آخر لا يكمل النصر دون إحرازه ذلك أن الحصار الذى فرضه العرب على دومة الجندل لم يأت بنتيجة ، وبذلك بقى فى منطقة الحدود مركز حيوى يشق عصا الطاعة ويمثل تهديداً للجيش

المتقدم سواء إلى العراق أو الشام، هذا فضلا عن الحاجة إلى تأمين الحدود ضد أية غارة فارسية أو رومية مرتقبة .

ولم يكن طبيعياً والموقف على ما قدمنا أن يستمر خالد بن الوليد فى شق طريقه إلى معركة كبرى فاصلة فى العراق على حين تقع مقاومة فى منطقة الحدود الأمر الذى دعا الخليفة إلى طلب التريث من خالد وطلب التشدد من عياض، فلما طال به المكث وأدرك عجز عياض فى القضاء على مقاومة دومة الجندل أرسل إلى خالد لكى يقوم بهذه المهمة فيقطع الفيافى والقفار بجانب من جيشه المنتصر ويقضى على تلك « البندقة الصعبة الكسر » وهو ما توصف به القلعة المنيعة والمدينة المدافعة .

ومرق خالد بجيشه يقطع ثلثمائة ميل فى صحراء مقفرة وظروف جوية صعبة ، فانتقل من ساحة إلى ساحة ، وترك معركة ذات طبيعة إلى معركة ذات طبيعة مغايرة ، وأنجد الحليف حليفه وتعاونا فى خطة مشتركة تولى بها خالد دحر القوات المعادية وقهر الدفاعات واقتحام الحصن وانتزاع الشوكة التى كانت موجهة إلى جانب الجيوش العربية .

وعاد خالد ، بعد هذا النصر السريع ، إلى مقر قيادته فى الحيرة، وما كاد يعاود النظر فى الموقف والتفكير فى الخطوة التالية حتى جاءه أمر الخليفة بوقف أى حركات جديدة ضد الفرس والاكتفاء بنصف الجيش للحفاظ على المكاسب الإقليمية والتحرك بنصف الجيش إلى مهمة أخرى عاجلة .

. . لقد كان خالد أسرع رحالة فى زمانه .

وكان الموقف يقتضى تحركاً سريعاً .

ولهذا ترك خالد قرابة نصف الجيش فى العراق تحت قيادة المثنى بن حارثة ، وبارح هو هذا الميدان متجهاً إلى اليرموك حيث كان الاشتباك وشيكاً وعلى جانب كبير من الخطورة بين المسلمين والروم .

وهكذا واجه جيش الجهاد الإسلامى أعظم قوتين فى ذلك الزمان — الروم والفرس — فى آن واحد .

وبدأ التاريخ يسجل فصلا من فصوله العظمى .

وفى مقدمات هذا الفصل نجد تغييرات فى الحرب والحكم بالنسبة لميدان العراق .

فى الحرب : بارح الميدان نصف الجيش العربى بقيادة خالد سعياً إلى تأييد الحشد للقاء الروم ، وبقى نصف الجيش بقيادة المثنى بن حارثة فى انتظار وصول إمداد يعضده ويشد أزر قواته حتى تستطيع أن تتابع انتصاراتها وتكمل مهمتها .

وفى الحكم : مات الخليفة الصديق ، ومات كسرى أرشير وتولى خلافة المسلمين عمر بن الخطاب وتولت عرش فارس الملكة بوران .

وقد بعث عمر بن الخطاب مدداً إلى العراق ، وجعل قيادة الجيش لأبى عبيد بن مسعود ، والتفتت بوران أيضاً إلى العراق وعقدت القيادة العامة للقائد المشهور « رستم » وقيادة قوات العراق للقائد « جاذويه » .

ولا ريب أن « الميدان » قد تأثر بهذه الأحداث الحربية والسياسية .

وبدأت العمليات بلقاءات جانبية ولكن حاسمة فى « النمارق » ثم

فى كسكر حيث انتصر الجيش العربى ودان له سواد العراق .

وعلى جانبى الفرات وقف الحشد الفارسى فى ناحية والحشد العربى فى الناحية المقابلة ،وبدأ استعداد الجانبين لمعركة الفصل وساعة الحسم وبينهما مانع مائى له أثر كبير فى القتال المرتقب .

ويبدو أنه قياساً على النجاح السابق فى كل لقاء بين العرب والفرس ، فقد تسارع أبو عبيد بن مسعود فى التحرك دون تقدير لإمكان استخدام المانع المائى فى الدفاع ،فاختار أن يتقدم وأن يعبر الفرات وأن يقطع الجسر بعد العبور حتى لا يتبقى أمام الجيش العربى سوى القتال والنصر أو الموت .

وفى الجانب الآخر كان جاذويه يقدر الموقف تقدير الخبير المدرب فاتخذ خطة الدفاع مستفيداً من المانع المائى ومستخدماً الفيلة كعامل مفاجئ فى الحرب وكان له ما أراد فقد شق المانع على العرب فكبدهم الكثير من المشقة وجاست الفيلة بين صفوفهم فأحدثت ذعراً واشتد أوار المعركة واستشهد القائد العربى تحت أقدام الفيلة ثم استشهد بعده قواده ، وخيمت الهزيمة مادياً ومعنوياً فارتد العرب ولكن «البحر» وراءهم والعدو أمامهم فانقلبت الهزيمة إلى كارثة ،ولكن المثنى بن حارثة تدارك الأمر فأبلى وجنوده فى الدفاع وصدوا هجوم الفرس وأوقفوا اندفاعهم حتى أعيد بناء المعبر وتمكن باقى الجيش من الانسحاب فى ستار من قتال المؤخرة الذى قام به المثنى بجسارة وبراعة .

وكلفت هذه المعركة العرب أربعة آلاف قتيل ،أى ما يربو على نصف الجيش الذى تشتت شمله وتعرض للضياع ،لولا أن الفرس وقفوا عند ذلك

الحد دون استثمار لنجاحهم وبلا مطاردة ولا تعقيب، مما أعطى العرب فرصة النجاة من الكارثة والثبات بعد الانهيار، واستطاع القائد المدرب النابه المثنى بن حارثة أن يعيد تنظيم الجيش وتقدير الموقف وطلب الإمداد وحشد قواته فى «البويب».

وفى «البويب» جرت معركة أخرى شديدة الشبه بمعركة «الجسر» مع اختلاف الخطط، ففى الأول بدأ العرب باقتحام المانع المائى فأفاد الفرس فى عملية دفاعية انتهت بالهجوم، وفى الثانية بدأ الفرس باقتحام المانع المائى فتلقاهم العرب بالضرب والرمى حتى كانت لهم الغلبة وانحدورا إلى المعبر فقوضوه وبذلك أصبح الفرس بين الماء والأعداء وحدث لهم من المكارة والهزائم ما لم يحدث للعرب.

وهكذا الحرب — كما قال عمر بن الخطاب — «لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكيف».

انتصر العرب فى معركة «البويب» وعززوا انتصارهم بمطاردة فلول الفرس والضغط على اتجاهات رجعتهم، فكانت هزيمة الفرس ماحقة وانتصار العرب مبيناً مما حقق لهم السيطرة على بلاد السواد وبين النهرين.

وقد حركت هذه المعركة نفوس الفرس قيادة وجيشاً وشعباً، فأدركوا أن ما حل بهم من هزائم كان نتيجة الخلاف والفرقة وعدم النظام، وساعد على إعادة التنظيم اعتلاء يزدجرد العرش واستتباب قيادة الجيش وعقد العزم على رد الجيش العربى ومسح آثار الهزائم السابقة.

جاءت أخبار هذه الاستعدادات والتصميمات والخطط إلى معسكر

العرب ، فنقلها القائد المثنى إلى الخليفة عمر الذى أنعم النظر فى الموقف ورأى توزع قواته بين العراق والشام وأدرك ما يستعد له الفرس ، وأعطى أوامر بسحب القوات العربية وإخلاء الأراضى المحتلة والعودة إلى الحدود ، لأن تقدير الموقف أثبت خطورة بقاء قوة محدودة على مواصلات بعيدة وفى مواجهة جيوش عظمى لدولة تتحفز للانتقام وتستعد لضربة حاسمة .

وهكذا ثبت مبكراً أن الاستيلاء على مساحات شاسعة من الأرض ليس انتصاراً واحتلال جانب من أرض العدو ليس كسباً ، وإنما النصر رهن بتدمير القوات الرئيسية وقهر إرادة الشعب ، كما ثبت أن العرب كانوا بعيدى النظر فى شئون الحرب ، فقد أدركوا خطورة امتداد المواصلات وصعوبة الأمداد والتموين وخطأ القتال فى جبهتين قويتين .

سحب الخليفة عمر قواته من العراق — برغم انتصاراتها المتتابعة — وكلفها العودة إلى مناطق الحدود — برغم ما استولت عليه من مساحات واسعة وعمل على أن تبلغ من الاستعداد ما يؤهلها للمهمة التاريخية التى نيطت بها وهى غزو دولة الفرس .

وبدأ الحشد ينتظم فى « صرار » التى أصبحت قاعدة التجمع ومركز الاستعداد ، وجاء عمر إلى قاعدة الجيوش يحف بها أهل الرأى والسبق . وأخذ يجيل النظر فى الموقف ويستشير فيمن يوليه القيادة :

وقد أشار عليه أصحابه باختيار سعد ابن أبى وقاص ، وقالوا عنه « إنه الأسد عادياً » .

فسلم عمر إلى سعد قيادة الجيوش الإسلامية فى حرب الفرس ؛

وقد أسر إليه بوصيته التالية :

« إنى قد وليتك حرب العراق ، فاحفظ وصيتى فإنك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلص منه إلا الحق. فعود نفسك ومن معك الخير واستفتح به ، واعلم أن لكل عادة عتاداً ، فعتاد الخير الصبر .

« يا سعد عليك بالثبات عند الشدائد ، والتجلد فى المكاره ، فاصبر وصابر ، والله مع الصابرين .

خرج سعد ومعه أربعة آلاف مقاتل فيهم السراة وزعماء العرب ، وشيعهم الخليفة عمر إلى موقع الأعوص وأوصاهم وقوى عزائمهم ، فلما بلغوا موقع « زرود » انضم إليه أربعة آلاف ، ثم وافاهم الأشعث ابن قيس فى ألف وسبعمائة وانضمت إليهم قوات المثنى بن حارثة فصار تحت لواء سعد ثلاثون ألفاً كلهم متعطش للجهاد متحمس للفوز .

وجاء كتاب من أمير المؤمنين يقول فيه :

أما بعد ، فسر من « شراف » نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله ، واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمم عددهم كثير وعدتهم فاضلة وبأسهم شديد ، وعلى بلد منيع وإن كان سهلا ، وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدأوهم بالشر والضرب ، وإياكم والمناظرة لجموعهم ولا يخدعنكم فإنهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم إلا أن تجادوهم . . وإذا انتهيت إلى القادسية ، والقادسية باب فارس فى الجاهلية وهى أجمع تلك الأبواب لمادتهم ، ولما يريدونه من تلك الأصل . وهو منزل رغيب خصيب دون قناطر

وإنها ممتنعة ، فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر ، ثم الزم مكانك ، فلا تبرحه فإذا أحسوك أنفضتهم رموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ، ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وإن تكن الأخرى كان الحجر من أرضكم ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتى الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة .

وترجمة ذلك الكلام فى « الأوامر » الحديثة هو :

« لا تتوغل فى أرض العدو واتخذ خطة الدفاع الهجومى فى منطقة الحدود فإن العدو سيلقى صعوبة ومشقة فى الوصول إلى مواقعك . إذا انتصرت تكون قضيت على قوتهم الأساسية ويصعب بعدها أن يعدوا قوة مثلها وإذا انهزمت يكون فى استطاعتك الانسحاب بسهولة على أرضك التى تعرفها جيداً ويجهلونها » . . !

وجاءته أيضاً وصية لها قيمتها من جندى باسل عرك هذا الميدان بالذات وكانت له فيه تجارب وخبرات ،وهو المثنى بن حارثة الذى فاضت روحه من جروحه ،وكانت وصية المثنى لسعد ألا يتوغل فى بلاد العدو بل يصمم على قتالهم عند الحدود .

وكتب سعد إلى عمر يصف له القادسية فقال :

القادسية بين الخندق والعتيق ، وإن ما عن يسار القادسية بحر

أخضر فى جوف لاح إلى الحيرة بين طريقين ، فأما أحدهما فعلى الظهر وأما الآخر فعلى شاطئ نهر يدعى « الحضوض » يطاع بمن سلكه على ما بين الخورنق والحيرة ، وأن ما عن يمين القادسية إلى الوجلة فيض من فيوض مياههم .

وهكذا كانت الاتصالات مستمرة بين الخليفة وقائد جنده يتبادلان خلالها المعلومات ويتفقان بموجبها على الرأى والخطة ، وقد أقام سعد بالقادسية شهراً دون أن يتحرك إليه العدو فلم يضيع الوقت هباء بل كان نشيطاً فى أعمال المخابرات للحصول على المعلومات عن الأرض والماء والكلأ وتحركات العدو . . إلخ .

وبدأ سعد يضع خطته ، فقرر أن يبدأ بالسياسة قبل القتال وكان هذا من رأى عمر [1] تجنباً لإراقة الدماء إذا ما استمع الفرس واستجابوا للحق ، فالهدف الحقيقى لحملة العرب فى فارس لم تكن الغزو والغلبة ، وإنما كانت الدعوة إلى الإسلام ، وإلا فالجزية . . وأخيراً . . الحرب !

بعث سعد وفداً إلى الملك يزدجرد منهم النعمان بن مقرب والأشعث ابن قيس والمغيرة بن شعبة وعمرو بن معدى كرب ، فقابلهم الملك بازدراء واحتقار ، واعتبر أن غزو العرب لفارس نوع من المقامرة والجرأة ، فأجابه النعمان برسالة الحق ودعاه وقومه إلى الإسلام فإذا أبى فالجزاء

---

(١) من عمر إلى سعد : لا يكربنك ما يأتيك عنهم ولا ما يأتونك به : واستعن بالله وتوكل عليه وابعث إليه « يزد جرد » رجالا من أهل المنظرة « الهيبة » والرأى والجلد يدعونه فإن الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم وفلجاً « نصراً » عليهم .

(أى الجزية) وإلا فالمناجزة (أى الحرب) .

ثم قال المغيرة : اختر إن شئت الجزية عن يد (أى عن ذلة) وأنت صاغر وإن شئت فالسيف أو تسلم فتنجى نفسك .

فرد يزد جرد مغضباً : أتستقبلنى بمثل هذا! لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم، لا شىء عندى لكم ! ارجعوا إلى صاحبكم فاعلموه أنى مرسل إليكم « رستم » حتى يدفنه ويدفنكم فى خندق القادسية وينكل به وبكم من بعد ، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم فى أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور .

ثم أمر بتراب فحمله أشرفهم — وقد فاز بهذا الشرف عاصم بن عمرو — فلما عادوا إلى سعد ورأى ما يحمله عاصم من تراب فارس قال : أبشروا فقد أعطانا الله مقاليد ملكهم .

وقال يزدجرد لخاصته : لقد وعدت القوم أمراً ليدركنه أو ليموتن عليه .

أما رستم فقد تطير مما حدث !

فقال أحد رجاله :

ذهب القوم بأرضكم من غير ذى شك .

ومكث الفرس أربعة أشهر لا يتقدمون للقتال ، والعرب — كما رأى عمر — يلتزمون مكانهم ، لا ينخدعون من هذا الصمت ولا يبدلون تلك الخطة التى تقضى بالبقاء فى القادسية حتى يسير إليهم الفرس ولا يضجرون بمكانهم فينصرفوا . .

ودفع سعد بمقدمته أمامه وبدأ نشاط المخابرات وغارات الحدود واختبار الجبهة، ثم أخذ الفرس يتحركون ووصلت طلائعهم إلى نهر العتيق وصاروا قباله قوات المسلمين؛ وبعث سعد إلى رستم يقول : « إنا لم نأتكم لنطلب الدنيا ، وإنما طلبتنا وهمتنا الآخرة . ونحن ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإخراج العباد من عبادة الأصنام إلى عبادة الله تعالى وأن يكون الناس إخوة » .

ثم أرسل سعد بن عامر فدخل على رستم وهو فى سرير من ذهب وزينة ومظاهر . فكان الزهد والبساطة فى جانب والفخافة والمظاهر فى جانب آخر . . وقال : اختر الإسلام وندعك وأرضك أو الجزاء فتقبل ونكف عنك ! ؟

وقد عاد رستم فطلب مندوباً آخر من قبل الحرب لمزيد من الحوار ، فأرسل سعد إليهم حذيفة بن محصن ، فأقبل على فرسه فى ثياب يسيرة وهيئة متواضعة وليس معه سوى رمحه فقيل له : انزل . . قال ذلك لو كنت جئتكم فى حاجة لى ، فقولوا لملككم : أله حاجة ؟ أم لى ؟ فإن قال لى ، فقد كذب ورجعت وتركتكم .

فقال رستم : : دعوه ، ثم سأله : ما جاء بكم ؟

قال : إن الله عز وجل منّ علينا بدينه وأرانا آياته حتى عرفناه وكنا له منكرين، ثم أمرنا بدعاء الناس إلى واحدة من ثلاث ، فأيها أجابوا إليها قبلناها : الإسلام وننصرف عنكم ، أو الجزاء ونمنعكم إن احتجتم إلى ذلك ، أو المنابذة .

فلما كان من الغد أرسل رستم إلى العرب : ابعثوا إلينا رجلا . فبعثوا إليهم المغيرة بن شعبة فأقبل حتى جلس على السرير ، وهم يتظاهرون باحتقاره وتهوين شأنه . . فقال :

« اليوم علمت أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون ، وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول » .

وقدم رستم عرضه : « آمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم ، وآمر لكل رجل منكم بوقر (حمل) وتمر وبثوبين ، وتنصرفون عنا ، فإنى لست أشتهى أن أقتلكم ولا أأسركم » .

وكان رد المغيرة :

الإسلام أو الجزية وأنت صاغر وإلا فالسيف !

وفى اليوم التالى بعث سعد إنذاره الأخير على يد ثلاثة من ذوى الرأى ،ولكن لم تصلح المفاوضة وتهيأ الفريقان للحرب ، قال رستم : أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم ؟ قالوا : بل اعبروا إلينا .

وقف العرب فى جانب يشد أزرهم إيمانهم بالرسالة وثقتهم بالنصر أو الشهادة ، وفى الجانب الآخر أقبل الفرس بخيلهم وفيلهم وعددهم وعدتهم واستعد كل فريق للمعركة .

وكان سعد مصاباً بجروح لا يستطيع معها الركوب أو الجلوس فأصدر « الأمر اليومى » لجيشه قال :

إنى قد استخلفت عليكم خالد بن عرفطة ، وليس يمنعنى أن أكون مكانه إلا وجعى الذى يعودنى « النساء » وما بى من الحبون « الدمامل »

فإنى مكب على وجهى وشخصكم لى باد، فاستمعوا له وأطيعوه ، فإنه إنما يأمركم بأمرى ويعمل برأيى .

وكان سعد معنياً بالتعبئة الروحية عالماً بأهمية القوة المعنوية، فجمع الشعراء والخطباء وذوى النجدة والسيادة لكى ينطلقوا بين المجاهدين يحضونهم على الاستبسال ويشجعونهم على المكاره حتى دفعوا فى نفوسهم الحمية وحببوا إليهم الموت فى سبيل الله .

ووضع سعد توقيتات العمليات ، وكان التوقيت بالتكبير .

كبر التكبيرة الأولى فأخذت كل جماعة مكانها ، ثم ثنى فاستعد كل فرد ثم ثلث فتحركت القوات، وأخيراً كبر سعد التكبيرة الرابعة — هى « ساعة الصفر » — فبدأ الزحف العام .

وبدأت الجولة الأولى بمفاجأة كان الفرس قد أعدوها لقهر معنويات العرب ، فقد أخذت الفيلة تؤثر فى الموقف وارتدت أمامها صفوف العرب وكادت تضيع ، وفرت خيلها نفاراً ، فدفع سعد لنجدتها بنى أسد ، فأعملوا نبلهم فى الركبان واستدبروا الفيلة فقطعوا وضنها ، وهنا تغير الموقف وصرخت الفيلة وألقت حملها وعادت مذعورة واستمر القتال حتى غروب الشمس دون أن يحدث تغيير فى موقف القوات ، وإن كانت خسائر بجيلة وأسد كثيرة ، ولكنها وقت العرب وحالت دون إفلات زمام المعركة .

وهكذا انقضى اليوم الأول من أيام القادسية وهو يوم أرماث — كما جاء ذكره فى المراجع القديمة — ومضت ليلة الهدأة — بغير قتال —

ثم كان اليوم الثانى « يوم أغواث » الذى أقبلت فيه الإمدادات من الشام وعلى مقدمتها القعقاع بن عمرو ومنهم خمسة آلاف من ربيع ومضر وألف من اليمن والجميع بقيادة هاشم بن عتبة .

دخل القعقاع المعركة بمظاهرة هائلة ، عشرة بعد عشرة ، فاستبشر الجنود وقويت معنوياتهم ثم تقدم إلى الفرس ونادى : من يبارز ؟ فتقدم أحد شجعانهم فصرعه القعقاع ،ثم أقبل عليه آخرون فجرت عدة مبارزات فردية بين العرب والعجم كان النصر فيها للعرب .. وكان القعقاع يقول « يا معشر المسلمين . باشروهم بالسيوف ، فإنما يحصر الناس بها » .

ودارت رحى المعركة ، وبخاصة بعد انتفاء عنصر المفاجأة — وهو الفيلة — حتى قيل إن الفرس وجدوا من الإبل يوم أغواث أعظم مما لقى المسلمون من الفيلة يوم أرماث .

وكانت نتيجة المعركة تتجه لصالح المسلمين ،فبلغ عدد القتلى من المسلمين ألفين فى حين كان قتلى الفرس عشرة آلاف .

وكان سعد معنيًّا بالشئون الإدارية ،فجعل النساء يقمن بدفن الموتى وإسعاف الجرحى ونقل السلاح والماء والغذاء .

ولم يضع الليل سدى .

وكان سعد يأمر فتستعد قواته على نحو ما تستعد القوات الحديثة للعمليات الليلية ، فاتخذت كل جماعة أهبتها وكل جندى استعداده لبدء هجوم الفجر .

وجاءت بقية إمدادات الشام بقيادة هاشم بن عتبة قبيل بدء القتال .

وكان الفرس قد أعدوا للساعة الحاسمة عدتها فأعادوا تنظيمهم وجهزوا عدداً من الفيلة فى حماية المشاة .

وبدأ القتال فى اليوم الثالث « يوم عماس » — المعركة الحاسمة — ونجح هجوم الفيلة ، فقام القعقاع وعاصم بعملية فدائية وأصابا الفيل الأول فى عينه ودخل بعض الفدائيين فصنعوا مثلهم فنفرت الفيلة وفرت مذعورة وأحدثت هرجاً ورعباً . . وبهذا فتح العرب طريقاً فى صفوف الفرس واشتدت رحى المعركة وصارت الدائرة لمن صبر .

وعلاج مشكلة الفيلة فى هذه الموقعة من قبيل معالجة الأسلحة المفاجئة فى الحروب الحديثة ، فالدبابات ثم الغازات السامة كادت تضع نهاية للقتال فى الحرب العالمية الأولى لولا نهوض الطرف الآخر إلى معالجتها بأسلحة مضادة أو أساليب واقعية فضاع عنصر المفاجأة وحول اتجاه المعركة .

وفى الوقت نفسه لم يسلم الفرس بهزيمة الفيلة ، وإنما أحدثوا تطوراً فى استخدامها ،وذلك بدفع قوات راكبة « خيالة » حولها لحمايتها من الفدائيين ، ومع ذلك انتهت المفاجأة ولم تحقق أثرها الذى كان منتظراً .

واستمرت المعركة على أشدها بين الفريقين ، وقد تميزت بإقدام العرب واندفاعهم فى حومة اوت ، وتأرجح المصير ، حتى إن أوامر القائد

العام لم تعد مسيطرة على الموقف ،فقد اندفع طلحة فى ناحية والقعقاع فى ناحية أخرى ، ومضت الليلة فى عراك وخيم العاقبة ،حتى إذا طلع الصبح اتضح أن العرب هم الأعلون واشتد القتال حتى الظهيرة وبدأ الخلل يتسرب إلى صفوف الفرس ، وضاع أمل قائدهم فأسلم إلى الفرار ، ولكن جماعة من المسلمين أحسوا بمحاولته فمضوا وراءه حتى أمسكوا به ، واستطاع هلال التيمى أحد رجال القعقاع أن يقتله بضربة سيف ويصيح « قتلت رستم ، ورب الكعبة » !

حدثت الهزيمة إذن ، وأقرها قائد الفرس ، فحدث الانهيار فى الجبهة ولم تستطع محاولات « الجالينوس » — القائد التالى لرستم — أن تنقذ الجيش المنهار فغرق ثلاثون ألف فارس فى النهر .

وأجرى سعد ما يسمى فى العرف الحديث — عملية إعادة التنظيم — كما أجرى عملية مطاردة القوات المنسحبة ، حتى إذا اطمأن على الموقف بعث إلى الخليفة ينهى إليه بخبر النصر :

«أما بعد ، فإن الله نصرنا على أهل فارس، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال شديد ،وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهائها ، فلم ينفعهم الله بذلك ، وأتبعهم المسلمون على الأنهار فى الفجاج » .

وجاء رد الخليفة أن يبقى القائد فى القادسية حتى تصله أوامر أخرى ، وقد جاءت هذه الأوامر بعد شهرين بالسير إلى المدائن ، فدفع إليها بمقدمة على رأسها زهرة بن الحوية ثم عبدالله بن المعتم ،فالتقوا هم وحاميات

فى الطريق وفلول قوات منهزمة ومقاومات محدودة كان أهمها ماحدث فى بابل،ووصفته الكتب القديمة بأنه « كلفت الرداء » ثم هزم جنود « المظلم » الذين كانوا يقسمون بأن ملك فارس لن يزول ما عاشوا . . فلما دخلها سعد قرأ « أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال ؟ ».

وحاصر سعد بلد « بهرسير » شهرين مستخدماً المجانيق والعرادات والدبابات وهى من الأسلحة المؤثرة فى الحصار — حتى أتم غزوها وأسر أهلها .

أخذ سعد يفكر فى عبور دجلة إلى المدائن . .

كان أمامه طريقان : إما العبور على سفن ، وهو مالم يكن متيسراً حيث إن الفرس لم يتركوا بها ذات ألواح ودسر .

وإما الخوض ، وهو ما لم يكن على علم به . . فأخذ فى دراسة طرق العبور .

والموانع المائية تعد فى مقدمة ما يضايق الجيوش فى تحركاتها — سواء فى الماضى أو فى الحاضر — وخاصة إذا كان العبور إلى المعركة الحاسمة . .

وقرر سعد العبور من مخاضة دله عليها بعض الدارسين لطبيعة المنطقة ، ولم تكن المشكلة مشكلة العبور فى حد ذاته ، فقد كانت هناك مشكلات أخرى : تأمين العبور — الدفاع عن المنطقة — المقدمة — رأس الكوبرى . .

وكان ينتظره على الضفة الأخرى خطة مقابلة .

ودفع سعد بمقدمة على رأسها عاصم بن عمرو ،وصاح عاصم فى جنوده السمّائة « الرماح . . الرماح . . أشرعوها وتوخوا العيون » ! .

وقالت المصادر القديمة إن من لم يقتل من الفرس صار أعور ! .

ونجحت معركة العبور ، وتلاحق معظم الجند ، وركبوا اللج ،وإن دجلة لترعى بالزبد ، وإن الناس ليتحدثون فى عومهم ما يكترثون، كما يتحدثون فى مسيرهم على الأرض ، وطبقوا دجلة خيلا ورجلا حتّى ما يرى الماء من الشاطئ أحد،ثم خرجوا من الماء والخيل تنفض أعرفها صاهلة،فلما رأى الفرس ذلك أنطلقوا لا يلوون على شئ وانتهى المسلمون إلى القصر الأبيض . .

ودخل سعد المدائن وانتهى إلى إيوان كسرى وأقبل يقرأ « كم تركوا من جنات وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكين : كذلك وأورثناها قوماً آخرين » .

وهكذا قاد سعد معركته الكبرى ، وهى إحدى معارك الإسلام الحاسمة،فقضى على دولة الأكاسرة وترك الدليل على كفايته الحربية التى تضعه فى مصاف عظماء القادة ، فكان واسع الأفق فى تقديره الموقف ووضعه الخطة ، واستشارته رفقاءه وتصرفه فى الأزمة وصبره على المكاره . .

وهو إلى جانب كفايته الحربية كان من أعظم المسلمين شأناً وأبقاهم أثراً ، واشتهر بصدقه فى الحديث ودقته فى الرواية حتّى قال عنه عمر بن الخطاب :

« إذا حدثك سعد عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلا تسأل عنه غيره » ؟

وكان كريم الأخلاق ثابت الوفاء ، وقد روى أنه كان بينه وبين خالد كلام فذهب رجل يقع فى خالد عند سعد . فقال له سعد :

« مه . إن ما بيننا لم يبلغ ديننا » .

وهكذا ختم على فم النمام المغتاب .

وكان سعد رجل مبادئ ، فقد أسلم عن اقتناع ومضى فى صحبة الرسول وخلفائه عن عقيدة ، فإذا صادفه أمر على غير ما يرى سارع إلى المجاهرة به ، حتى إنه كان يراجع النبى (صلى الله عليه وسلم) .

وقد كان أحد الستة أصحاب الشورى الذين عهد إليهم عمر ، وكانت له عصبية كبيرة تريده على الخلافة وهو يأباها ، حتى قال لنا ابن أخيه هاشم إن مائة الف سيف تريده ، فرفض ، وقال على يغبط سعداً وعبد الله بن عمر اعتزالهما الفتنة .

ولما دخل على معاوية بعد استقرار الأمر له قال :

السلام عليك أيها الملك .

فضحك معاوية وقال : ما كان عليك ياأبا إسحق لو قلت أمير المؤمنين .

فقال سعد : والله ما أحب أنى وليتها بما وليتها به (يقصد أنه وليها بالسيف) .

وعندما حضرته الوفاة طلب جبة له من الصوف كان قد لقى

المشركين فيها يوم بدر ، فأخفاها ليوم وفاته « ومات وهو فى الثالثة والثمانين من عمره ، وكان آخر العشرة الكرام موتاً » .

الدروس المستفادة من معركة القادسية

١ ــ أهمية قوة العدو وعدم الاستهانة به : فعلى الرغم من الانتصارات التى أحرزها العرب على الفرس قبل معركة القادسية فإن الخليفة قد بصر قائده سعداً بقوة الخصوم حتى لا تخدعه الظواهر والسوابق وحتى يكون على علم بأن العدو قوى وأن الحذر ضرورى ، فقال : « عددهم كثير وعدتهم فاضلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وإن كان سهلا » كما قال عنهم إنهم « خدعة مكرة » .

وإنه لمن أشد الخطر بالجيوش عدم إدراكها لقوة عدوها أو استهانتها بأمره .

٢ ــ أهمية الهجوم : وهو مبدأ من مبادئ الحرب ، يجعل المبادأة وحرية التحرك والدوافع المعنوية فى صف المهاجم ، ولهذا قال عمر لسعد : « إذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدأوهم بالشر والضرب » .

٣ ــ أى خطة دفاعية لا تنتهى بالهجوم لا تكون خطة ناجحة محققة للغرض : ولهذا أجمع رأى الخليفة عمر ورأى القائد المجرب المثنى ابن حارثة على ألا يتوغل سعد فى أرض فارس وإنما يلزم مكانه عند القادسية ويلتزم خطة الدفاع حتى تتحطم هجمات الفرس وعندها يبدأ عملياته الهجومية لإحراز النصر الأخير .

٤ - الحرب امتداد للسياسة : على الرغم من استعداد العرب وقدرتهم على اللقاء العاجل، فإن سعداً بدأ يعرض على خصومه الحل السامى تجنباً لإراقة الدماء وتمشياً مع منطق العقل والحكمة والصواب ، وكان الهدف الأصلى هو الدعوة للإسلام ، وليس الحرب للغزو أو الاحتلال ، ولهذا بعث سعد من مقر قيادته ومركز عملياته رسلا إلى يزدجر لإقناعه بالإسلام فلما رفض لم تعد عن الحرب مندوحة .

٥ - استخدام المفاجأة : وقد نجح الفرس فى استخدام المفاجأة بإدخال سلاح جديد فى المعركة لم يألفه العرب وهو « الفيلة » وقد أثر وجود هذه الحيوانات الضخمة الثقيلة تأثيراً شديداً ،فارتدت أمامها الجيوش ونفرت منها الخيول ولم تنفع معها السهام . وكادت المفاجأة تقضى فى المعركة لولا فطانة العرب وقدرتهم على علاج المفاجأة بعد أن هدأت حدتها وأمكن مقاومتها ثم التغلب عليها .

٦ - النصر مع الصبر : كان الواضح طوال معركة القادسية أن النصر يتأرجح ويفد إلى جانب الفريق الآخر ، بمعنى أن القوى متكافئة وأن القتال شاق مرير ، ولهذا يكون الفريق الأكثر احتمالاً وصبراً هو الأقدر على كسب المعركة ومرجع النصر فى المعارك الشديدة هو الروح المعنوية .

٧ - استغلال النجاح : أخفق الفرس فى القضاء على الجيش العربى بعد هزيمته فى معركة الجسر بعدم متابعة الانسحاب وتعزيز النجاح ، ولم تفت

هذه الحقيقة العرب بعد انتصارهم فقاموا بعمليات مطاردة سريعة وشديدة .

٨ ــ أهمية القائد فى المعركة : على الرغم من مرض سعد بن أبى وقاص وقيادته المعركة وهو على فراشه فقد كان رجاله يقدرون قدره ويشعرون بآلامه ودفعهم إلى الاستبسال والتضحية .

وفى الجانب الآخر كان مقتل رستم قائد الفرس نذيراً بانهيار المقاومة واكتمال الهزيمة .



معـــركـة الـيرمـوك



(٨)

كان أول لقاء فى الحرب بين العرب والروم فى « مؤتة » سنة ثمان هجرية .

أرسل النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى ملك الروم رسالة ، فوقع حامل الرسالة الحارث بن عمير فى قبضة بنى غسان فقتلوه ، فبعث النبي (ص) سرية — قادها زيد بن حارثة — نزلت معان فى أرض الشام ، فلما سمع الروم بخبرها بعث « هرقل » جيشاً لجباً من مائة ألف مقاتل لصد المسلمين ، جرى قتال غير متكافئ فى قرية « مؤتة » ، واستطاع خالد بن الوليد أن يخدع الروم بإبداء الاستعداد للهجوم ثم قام بعملية انسحاب بارعة سليمة وأنقذ جيش المسلمين .

ولما دانت شبه الجزيرة العربية لراية الإسلام — بعد فتح مكة — بدأ الجهاد الإسلامى يخطو عبر الحدود ، وبلغ جيش المسلمين « تبوك » و « دومة الجندل » فأحرز النصر وفرض الجزية ، وكانت هذه العمليات مقدمة لتحرك أكبر حشد إسلامى بقيادة أسامة بن زيد للقاء الروم لقاءً حاسماً فاصلا .

ولكن هذا اللقاء تأخر عن موعده المقرر ، بسبب وفاة النبي (ص) واتجاه الخليفة الصديق إلى العراق قبل الشام ، فاكتفى عن الحشد الكبير بإرسال سرايا يقودها خالد ابن سعيد بن العاص فجازت حدود الشام تدعو القبائل للانضمام تحت راية الإسلام وتحفزهم إلى شق عصا الطاعة

على الروم ، وقامت تلك السرايا بعدة عمليات قصد بها مناوشة الروم وتثبيتهم دون تورط فى القتال ، فجرت اشتباكات فى « القسطل » و « مرج الصفر » كانت بمثابة مناورات واختبارات إلى أن جاء الوقت المناسب وبلغ الاستعداد الغاية التى رأى عندها الخليفة الصديق أن يدفع الدعوة فى بلاد الشام وفى حمى قوات كبيرة مستعدة لقتال الروم على أوسع مدى .

أمر أبو بكر بالتعبئة العامة ضد الروم فى أواخر العام الثانى عشر من الهجرة ، وجمع لهذه المهمة أربعة جيوش عظيمة يضم كل منها نحو سبعة آلاف مجاهد وعلى رأس كل جيش أحد القادة الميامين ، فجعل على الجيش الأول يزيد بن أبى سفيان وأسند إليه فتح دمشق وعلى الجيش الثانى شرحبيل بن حسنة لاحتلال بصرى وعلى الجيش الثالث عمرو بن العاص وغايته احتلال فلسطين وعلى الجيش الرابع أبو عبيدة ووجهته حمص .

وقال أبو بكر لقواده : إذا اجتمعتم فقائدكم أبو عبيدة .

وتعتبر وصية الصديق وثيقة تضم غاية ما يمكن أن يوجه إليه القواد من تعاليم القيادة وآداب الحرب :

« إذا سرت فلا تضيق على نفسك ولا على أصحابك فى سيرك . ولا تغضب على قومك ولا على أصحابك وشاورهم فى الأمر واستعمل العدل وباعد عنك الظلم والجور ، فإنه لا يفلح قوم ظلموا ولا نصروا على عدوهم » .

« وإذا لقيتم القوم فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواهم جهنم وبئس المصير » .

« وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولداً ولا امرأة ولا طفلا ، ولا تعقروا بهيمة إلا بهيمة المأكول ولا تغدروا إذا عاهدتم ولا تنقضوا إذا صالحتم » .

وفى رسالة أبى بكر إلى قائد جنده يزيد بن أبى سفيان قال :

« إذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه ، وإذا وعظتم فأوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً . وأصلح نفسك يصلح لك الناس . وصل الصلوات لأوقاتها وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به وأنزلهم فى ندوة عسكرك ، وامنع من قبلك عن محادثتهم وكن أنت المتولى لكلامهم ، وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة ، واسمر بالليل فى أصحابك تأتك الأخبار وتتكشف عنك الأستار ، وأكثر حرساك وبددهم فى عسكرك وأكثر مفاجأتهم فى محارسهم بغير علم منهم بك ، فمن وجدته غفل عن حرسه فأحسن أدبه وعاقبه فى غير إفراط ، وأعقب بينهم بالليل واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فإنها أيسرها لقربها من النهار واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس » .

وفى هذه الرسالة توجيه من القائد الأعلى إلى قائد الجيش يتضمن عدة إرشادات ونصائح فى السياسة والحرب والقيادة ليست صالحة لذلك

الزمن القصى وحسب ، وإنما هى صالحة كل الصلاحية لزمننا هذا العصرى المتقدم دون أن يقال من شأنها تقدم العلوم والمعارف وتطور الأسلحة والمعدات ، وفى مقدمة ما أراده أبو بكر :

١ ـ أن يكون القائد مثلا أعلى لجنوده ، وكيفما يكن القائد يكن الجنود .

٢ ـ حسن معاملة القائد لجنوده ، ومعرفته بهم ومحادثتهم دون ما إفراط .

٣ ـ العناية بمقدم رسل العدو إذا ما دعا السلام دون إطالة اللقاء والحديث ومع صيانة الأسرار .

٤ ـ العناية بالأمن والحراسة .

تحركت الجيوش العربية تباعاً واجتازت الحدود وانتشرت كما تنتشر المروحة فاتجهت كل شعبة على طريق هدفها حتى يقع العدو فى شرك توزيع قواته على مساحات واسعة وجبهات متعددة . فلا تكون الحرب ، كما أراد ، معركة واحدة يضع فيها كل ثقله وخيله ورجله .

كان التكوين المعنوى والمادى فى جانب الروم ولكن جيشهم اللجب كان يحمل فى طياته عوامل الهزيمة أكثر مما يحمل عوامل الغنيمة، فقد كان الجيش الرومانى خليطاً من الروم والأرمن والعرب والمرتزقة ولا يجتمعون على مبدأ سليم أو عقيدة صادقة ، وإنما يمثلون دولة الرومان قرب مغيب شمسها ، من خلاف على المذاهب الدينية ، وفقدان للوحدة بين الرياسة

والأهالى وقواد الجيوش ، وانتشار الخلافات والفتن *.

كما أن نظام الجيش الرومانى قد أصابه الخلل من جراء اضمحلال الروح المعنوية وفتور الشعور بالحمية وإرباء السلم والدعة عن الجهاد وانصراف الثوار إلى المكاسب الشخصية والنهب والسلب والعربدة .

ولم يكن للجيش الرومانى حمية العرب ولا اندفاعات الفرس ، فالعرب يقاتلون عن عقيدة ويقبلون على الموت للنصر أو الشهادة ، والعرب كانوا يحاربون الفرس دفاعاً عن العراق ، وكانت عاصمتهم المدائن فى داخل العراق على شاطىء دجلة .. أما الروم فكانوا يعتبرون الشام ولاية رومانية يحكمونها ، وكانت عاصمتهم القسطنطينية بعيدة عن بيت المقدس ودمشق .

وهكذا كانت المعركة المرتقبة معركة معنويات تفصل فيها العقيدة والحمية كما يفصل العدد والسلاح ، وربما فطن الروم للنتيجة سلفاً بما بلغهم من انتصارات المسلمين فى فارس وما علموه عن جنود الإسلام من شجاعة وبسالة وإقدام .

---

* قريب من ذلك الوصف ما كان عليه جيش الروم فى حرب الثغور ضد سيف الدولة ابن حمدان على حد قول المتنبى :

أتوك يجرون الحديد كأنما ... سروا بجياد ما لهن قوائم

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه ... وفى أذن الجوزاء منه زمازم

تجمع فيه كل لسن وأمة ... فما تفهم الحداث إلا التراجم

فلله وقت ذوب الغش ناره ... فلم يبق إلا صارم أو ضبارم

تحركت الجيوش العربية عبر الحدود الشمالية فى الشام ، وكان جيش يزيد بمثابة المقدمة التى دفعت المقاومات وطردت حراس الحدود وأمنت الطريق فى تقدمها نحو غزة ثم ،تبعته باقى الجيوش فجازت الحدود واتجه كل منها على طريق هدفه وتناهت أخبار الجيوش الأربعة إلى هرقل فاضطرته إلى تعديل خطته وتوزيع قواته ، فوجه إلى كل جيش عربى جيشاً رومياً يفوقه عدداً وعدة وسلاحاً ،فبعث قائده « تداراق » على رأس تسعين ألفاً لمواجهة عمرو بن العاص ، و « الفيقار» على رأس ستين ألفاً لمواجهة أبى عبيدة «والدراقص» على رأس ستين ألفاً لمواجهة شرحبيل ؟ « وابن تدرا » على رأس أربعين ألفاً لمواجهة يزيد .

واستعد الجانبان للمعركة ، والتفوق العددى فى جانب الروم .

وتشاور القواد العرب وتدارسوا الموقف واستقر الرأى على أن المعركة لن تكون متكافئة وأن اجتماع الجيوش العربية فى صعيد واحد يفضل هذا التوزيع ، وقال عمرو بن العاص :

« الرأى الاجتماع ، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة »

ولما أرسل فى طلب رأى الخليفة أبى بكر قال بالاجتماع :

« اجتمعوا فتكونوا عسكراً واحداً ، والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين فإنكم أعوان الله والله ناصر من نصره وخاذل من خذله ،ولن يؤتى مثلكم من قلة وإنما يؤتى عشرة الآلاف والزيادة عن عشرة الآلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب فاحترسوا من الذنوب واجتمعوا باليرموك متساندين » . .

ثم تجمع الجيوش العربية اليرموك بقيادة أبي عبيدة .

وإزاء ذلك التحول الكبير فى الخطة اضطر هرقل إلى تعديل خطته فجمع جيوشه عند « الواقوصة » على اليرموك ، فى موقع « واسع القض واسع المطرد ضيق المهرب » أى أنه أراد لقواته أن تهجم ولا تفكر فى الارتداد.

ونظر عمرو بن العاص نظرة ذكية إلى الميدان فإذا الروم فى سهل فسيح وقد جعلوا ظهورهم إلى ممر ضيق ، ففطن إلى أن انسحابهم سيكون شاقاً إذا ما أجبروا على الانسحاب ، وقال عمرو :

« أيها الناس : أبشروا ، حصرت والله الروم .. وقلما جاء محصور بخير » .

وإذا كان العرب اختاروا مكان التجمع المناسب الذى يجعل لهم المبادأة وحرية الحركة ، وإذا كان الروم قد نزلوا منزلا يفقدهم تلك المزايا فإن التفوق فى العدد والعدة والسلاح كان فى جانب الروم .

وأرسل القائد العربى إلى الخليفة الصديق يشرح له الموقف ويطلب مدداً غزيراً ، ولم يجد الخليفة ما يجيب به القائد على العجل والمعركة الحاسمة وشيكة الحدوث وكان الموقف فى العراق غير عاجل ، فكتب الخليفة إلى القائد النابه خالد بن الوليد يطلب إليه أن يسارع بنصف الجيش فى العراق لإنجاد جيش الشام ، وسارع خالد فأطاع الأمر وقاد عشرة آلاف مجاهد عبر البادية المخوفة بسرعة فائقة ، وقد اختار أصعب الطرق وأعسرها ، حتى ينزل على جانب جيش الروم فجأة وكان له ما شاءته إرادته الحديدية ، فبلغ غايته قبل بدء المعركة التى تقرر أن يتولى قيادتها ويحسم أمرها .

ومثل هذا الحدث التاريخى فى حاجة إلى مراجعة واعتبار ، فإن الجيوش العربية كانت تواجه الروم وعلى رأس كل جيش قائده ، وعقدت القيادة العامة لأبى عبيدة . . وقبل لحظات من بدء المعركة الحاسمة يطير من العراق قائد جديد يمثل النجدة والمدد ويحمل أيضاً أمر الخليفة بأن يتسلم مقاليد الأمور وصولجان القيادة .

كتب أبو بكر إلى أبى عبيدة .

« سلام الله عليك . أما بعد فقد وليت خالداً قتال العدو فى الشام فلا تخالفه واسمع له وأطع ، فإنى لم أبعثه عليك لأنه عندى خير منك ولكنى ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك . . . » .

. . . هذا الكلام الحر الشجاع الواضح الصريح ينبئ عن عقلية كبيرة وإيمان صادق ورأى صواب ، فالحرب ليست نزهة أو استعراضاً يتولاه الأصحاب ولكنها العملية الدامية والمسئولية العليا يتولاها الماهر المحنك الضليع .

لقد أراد الخليفة أن يكسب معركة فاصلة ، فأرسل إليها قائداً منتصراً وقرر واثقاً « لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

أما بالنسبة لخالد ، فإنه لم يسع للقيادة ولم يفرح بحوزتها وإنما نظر فى الموقف نظرة المسئول وهو يتلقى الأمر الذى لا راد له ، فأول واجب على الجندى إطاعة الأوامر .

ولم ينس خالد الناحية الإنسانية فكتب إلى زميله أبى عبيدة يوضح له ما قد يكون خافياً عنه ، قال :

« أتانى كتاب خليفة رسول الله يأمرنى بالسير إلى الشام ،

وبالمقام على قيدها والتولى لأمرها ،
والله ما طلبت ذلك ولا أردته ولا كتبت إليه فيه ،
وأنت – رحمك الله – على حالك التى كنت عليها ،
لايعصى أمرك ولا يخالف رأيك ولا يقطع أمر دونك ،
فأنت سيد من سادات المسلمين لا ينكر فضلك ولا يستغنى عن رأيك . . . » .

وهكذا أوضحوا –قبل مئات السنين– مبادئ الجندية وأصول القيادة وأظهروا أفضل ما فى الجندية « نقاء رجال الحرب » ، هؤلاء المجاهدين الأبرار والجنود المغاوير الذين قادوا صفوف المسلمين لا يرجون كسباً ولا غنما ولا شهرة وإنما يبتغون وجه الله وعزة الإسلام وشرف النصر للأمة العربية .

تولى خالد بن الوليد قيادة الجبهة العربية ، وعمل تحت قيادته قواد الجيوش الأربعة التى أعدها الخليفة أبو بكر لفتح الشام .

ووقف الجيش العربى عند اليرموك فى مواجهة جيش الروم واستعد كل من الفريقين لمعركة فاصلة .

قبل أن يبدأ التحرك للمعركة قال خالد بن الوليد لقواد جيوشه :
هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى ،
أخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم ، فإن هذا اليوم له ما بعده»
« يوم له ما بعده » . . .

كان هذا هو وصف القائد العربى اللماح ليوم معركة اليرموك ، فانتصار الجيش الإسلامى معناه أن ترتفع راية الإسلام والعروبة على ربوع الشام

وفتح الطريق إلى جميع بقاع إمبراطورية الروم الشرقية ؛

أما هزيمة الجيش الإسلامى فمعناه ضياع أكبر قوة عسكرية مدربة ومعززة بمشاهير الثوار مما يغرى جيش الروم بغزو الجزيرة العربية وتعريض الدعوة الإسلامية للنكسة ؛

وأما هزيمة الروم فى اليرموك فتعنى الفصل فى مصير الشام ومصير دولة الروم وانتزاع بيت المقدس ودخول مصر فى جامعة الوطن العربى ، ولهذا بلغ استعداد كل فريق غايته ، وانتظر كل منهما حركة الفريق الآخر فى حذر .

وضع خالد خطة عملياته على أساس أن يبدأ الروم الهجوم ، فإذا ما تبددت الهجمة الأولى تبدأ عملية تثبيت بالمواجهة ويجرى الالتفاف على الجانب الأيمن ، فإذا ارتد العدو أمكن الجناحان الإطباق عليه كما يفعل طرفا الكماشة .

معنى هذا أنه وضع قوة فى الوسط لتلقى هجوم الروم ، ويتولى قيادة هذه الجبهة أبو عبيدة وجعل على الميمنة قوات خفيفة يقودها عمرو بن العاص ، وعلى الميسرة قوات مماثلة يقودها أبو سفيان .. وجعل القيادة العامة بمثابة احتياط وعمق معد للتحرك السريع لتعزيز النجاح أو إنقاذ أى موقف يجد .

واتخذ خالد نظام الكراديس أى المجموعات وعلى رأس كل كردوس أحد المناضلين ذوى الخبرة ، وكانت هذه أول معركة تنظم فيها الجيوش

العربية تنظيما جديداً – لا يقوم على أساس النظام القبلى ولكن على أساس العناصر اللازمة لكل مجموعة والترتيب المناسب لاحتياجات المعركة .

وكان رأيه فى ذلك أن العدو قد كثر وطغى وليس أكثر فى العين من نظام الكراديس .

وعنى خالد باستنهاض الهمم وشحذ العزائم فجعل يزيد بن أبى سفيان يتنقل بين الكراديس يشجع المجاهدين ويستثير حميتهم وجعل المقداد يقرأ من سورة الانفال وجعل رئيس كل كردوس ينشط عزائم رجاله ويقدم إليهم التوجيهات وينقل إليهم ما خطر لعمرو بن العاص :

« غضوا الأبصار واجثوا على الركب وأشرعوا الرماح فإذ حملوا عليكم فانهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا فى وجوههم وثبة الأسد .:. فلا تهولنكم جموعهم ولا عددهم فإنهم لو صدقتم الحملة تطايروا تطاير الحجول . . . » .

وكان لنساء المسلمين دور فى المعركة ، فقد جئن مع الحملة واتخذن موقعاً خلف الصفوف حتى يعلم المجاهدون حماة الإسلام وطلاب الشهادة أنهم يدافعون عن العرض والشرف والدين ، فلا تكون رجعة ولا ارتداد وإنما استعانة واستقتال .

ودارت رحى المعركة بهجوم الروم هجوماً عاماً بالفرسان والمشاة على قلب الجيش العربى ، فكانت صدمة ترنح لها التشكيل وهزة اعترت

الميدان كله فتراجعت كراديس الوسط أمام شدة الهجوم وانطلاق الفرسان وفتحت ثغرة فى صفوف العرب .

ولما بلغت الصدمة مداها وأحدثت ما أحدثت من تخلخل وانكسار وبدأت وهجة المفاجأة تتلاشى تجمع العرب فى وجه تيار الهجوم وانتفض الحماس بعدد يبلغ الأربعمائة مجاهد فبايعوا على الموت وانقضوا فى معمعانه فذهبوا بين شهيد وجريح حتى حل الثبات محل الهرج وتماسك الصف العربى واشتدت روح المقاومة والصدام .

ونظر خالد فإذا فرسان الروم، وقد استخفهم النصر يسارعون فى عملياتهم فأوجد ذلك ثغرة بينهم وبين المشاة ، وكانت فرصة خالد ، الذى انقض بقواته بين الفرسان والمشاة واقتحم إلى قلب قوات الروم فعدل ميزان المعركة وحمى وطيس القتال وانطلقت السهام والرماح ، ووجلت الخيول واضطربت مشاة الروم وانقلب الموقف تماماً فى أخريات اليوم وشمل الميدان كله اهتزاز تحت أقدام الروم فسقطوا أو لاذوا بالفرار ، والمجاهدون العرب وراءهم بالمرصاد وقد اشتد حماسهم وتوالى تقدمهم وبدأ النصر قاب قوسين أو أدنى .

ووصلت الأخبار إلى هرقل وكان جد مشغول منذ دارت رحى الحرب ،فلم يستطع ثباتاً ولم يقدر على إصدار أمر الدفاع والمقاومة،وإنما سارع إلى عاصمة ملكه وأصدر أمراً بالمقاومة والثبات فى حمص كمحاولة لوقف تيار الانقضاض العربى ، ولكن — كما ذكرت المراجع القديمة — كان قد سلم بالهزيمة وأنه ودع سوريا وداعاً أخيراً تمثل فى قوله :

« سلام عليك يا سوريا . . سلاماً لا لقاء بعده » .

وهكذا لم يمض على معركة اليرموك سوى يوم وليلة حتى قضى فيها بالنصر للعرب والهزيمة والارتداد للروم، وفتحت دمشق أبواب حصونها للمسلمين بعد حصار دام شهرين فدخلوا غوطتها حيث السهل الفيسح والأنهار الجارية والأشجار والأعناب والرياحين وبعدها تم الاستيلاء على حمص وحماة واللاذقية وقنسرين .

وفى أواخر سنة ١٥ هجرية دخل المسلمون بيت المقدس .

وكأنما حقق العرب أمر الخليفة أبى بكر بحذافيره . إذ كان قد كتب لأبى عبيدة قبل فتح الشام يقول :

« أما بعد ، فابدأوا بدمشق فانهدوا لها ، فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم ، واشغلوا عنكم أهل (فحل) بخيل تكون بإزائهم فى نحورهم ، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذى نحب وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق ، فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها . وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على (فحل) فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص وضع شرحبيل وعمراً بالأردن وفلسطين » .

وكان الذى حدث بعد فتح دمشق أن صارت قاعدة للجيوش العربية تحت قيادة يزيد بن أبى سفيان ، وزحف شرحبيل إلى (فحل) فغلبوا الروم عندها ، وتقدم أبو عبيدة ومعه خالد فاستولى على حمص وحماة واللاذقية ثم دخل خالد « قنسرين » ، وزحف عمرو بن العاص فحاصر بيسان حتى طلب أهلها الصلح ودخل شرحبيل طبرية ، وتابع

عمرو زحفه فدخل أجنادين وسقطت مدن « فلسطين » يافا ونابلس ، وعسقلان وغزة وعكا ثم حاصر بيت المقدس واضطرت حاميته للتسليم بشرط أن يكون ذلك على يد عمر بن الخطاب الذى أقبل يحف به قواده العظام فأعطى الأمان وسلمت له المدينة المقدسة فمنحها الحرية الدينية والعدالة والسلام .

وهكذا حققت معركة اليرموك غايتها الكبرى وتم فتح الشام ورفرفت عليه راية الإسلام والعروبة .

وبهذا تعتبر معركة اليرموك من معارك الإسلام الكبرى .

وقد كشفت معركة اليرموك عن كثير من الدروس العظام وسجلت فصلا باهراً فى القيادة ينبغى أن نحتفل به ونقدمه عنوان مجد وفخار للجندية العربية والنقاء العسكرى الإسلامى .

وعندما ظهر للخليفة أبى بكر أن المعركة التى كانت مرتقبة فى الشام ستكون معركة ضارية وفاصلة ، رأى أن يعهد بالقيادة العامة لخالد بن الوليد وانتقل خالد على جناح السرعة من العراق إلى الشام وتسلم الموقف وباشر مهام قيادته ووضع الخطة وحرك القوات للعملية وكسب المعركة .

وحدثت مفاجأة تبدل لها الموقف فى القيادة العامة .

لقد مات الخليفة أبو بكر وتولى الخلافة عمر بن الخطاب .

وقد قرر عمر عزل خالد وتولية أبى عبيدة قيادة الجيوش فى المعركة الدائرة الرحى ، ووصل القرار إلى أبى عبيدة فكتمه حتى انجلى الموقف وظهرت

علامات النصر ، فأبلغه خالداً الذى تلقاه بثبات ونزل عن القيادة لأبي عبيدة .

إنها حادثة القيادة فى التاريخ كله وأبلغها درساً وأجلها مقاماً .

فإن القائد المنتصر قد صدر قرار عزله وهو ينظر مصارع خصومه ويرفع ألوية انتصاره فلم يبد عليه أى تأثير أو انحراف أو ضيق وإنما أطاع الأمر فى الحال ونزل عن القيادة بكل ارتياح ولم يطلب المعاش أو العودة إلى بلده ،وإنما استمر تحت قيادة القائد الجديد يوجهه على حسب دوره ووفق احتياجات المعارك .

والقائد الجديد لم تسكره الفرحة ولم يعجل بتسلم القيادة وإنما كتم السر فى نفسه حتى تحقق النصر ، ثم أعلن الخبر لصاحبه على استحياء .

وهكذا قال لنا خالد بن الوليد : إن أول واجب على الجندى إطاعة الأمر ، وعلى الفور ، وبدون تردد .

وقال لنا أبو عبيدة : إن القيادة مسئولية وليست غنماً ولا جاهاً ولا شهرة .

وقال عمر : رحم الله أبا بكر كان أعلم منى بالرجال .

وقال لخالد : ما عزلتك لريبة فيك ولكن افتتن بك الناس فخفت أن تفتتن بالناس .

وهذا درس عظيم القيمة لجميع القادة من كل الأجناس ، وفى كل الأزمان .

وقد يكون لزاماً علينا فى ختام دراسة تلك المعركة الكبيرة أن نذكر طرفاً من أمر قائدها المغوار وبطلها الفذ النابغة .

حارب خالد الفرس فى خمس عشرة وقعة لم يهزم ولم يخطئ ولم يفشل قط فى واحدة منها ، وكان يسير بجيشه دائماً على تعبئة كاملة فيقاتل عدوه حيث لقيه مفاجئاً أو غير مفاجئ وكان — كما وصفه عمرو بن العاص — فى أناة القطاة ووثبة الأسد » فلا يهمل الحيطة ولا يجعل التعويل كله على الشجاعة دون الحزم والحيلة .

وكان خالد يعمل بمبادئ الحرب — قبل نابليون بمئات السنين ، فهو كان دائماً فى كامل (الحشد) فى الزمان والمكان الحاسمين ، وهو لا يسرف فى استخدام رجاله ، فإذا كان استخدام ألف رجل يغنى عن ألفين اكتفى بألف رجل مطبقاً مبدأ « الاقتصاد فى القوة » وهو يبعث العيون والطلائع ويرسل المقدمة ، أو يضع رجالا فى أعلى الجبل للمحافظة قاصداً (الوقاية) وهو يقبل على الموت بروح هجومية غلابة ، لعلمه بأن النصر يتطلب « الأعمال التعرضية » كما أنه يوحى إلى خصمه بغير ما ينتوى حتى يستخدم « المفاجأة » .

ومما يذكر لخالد فى مقام الثقة بالنفس — وهى من دعائم القيادة — أنه كتب لقائد الفرس قبل المعركة يخيره بين الإسلام أو الجزية أو الحرب ويقول : جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة .

فلما طلب قائد الفرس مبارزته نزل خالد وصارعه وصرعه .

وعندما التقى الجيشان انتصر العرب فى وقعة « ذات السلاسل »

وهرب الفرس . ثم اشتبكا فى وقعة « القار » التى بلغ قتلى الفرس فيها ثلاثين ألفاً وهرب الباقون ، وكان ذلك نصيب الباقين فى وقائع « الوجه » و « أليس » و « الفراض » من وقائع حرب العراق التى قضت على نفوذ الشاهنشاه الأعظم !

وقال أبو بكر : عقمت النساء أن يلدن مثل خالد بن الوليد .

وقال فى موضوع آخر : لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد .

وبلغ خالد فى معركة اليرموك قمته العليا التى لا مرتقى بعدها لراق .. قمع فتنة الردة ، وهزم دولة الأكاسرة ووحد قيادة المسلمين ، وهزم الرومان ، فكان صاحب دور تاريخى يضعه بين عظماء القادة فى جميع الأزمان .

الدروس المستفادة من معركة اليرموك

١ ـ أهمية السرعة فى الحرب : لو بدأت معركة اليرموك قبل وصول خالد ابن الوليد لكان للعرب فيها شأن آخر ، غير ذلك النصر المؤزر الذى قضى على الجيش الرومانى وأدخل الشام فى جماعة الوطن العربى ، وقد كان خالد قبل المعركة بفترة كافية هو الحدث الذى قرر مصير المعركة ونقل النصر من عسكر إلى عسكر ، ولم يكن خالد ليصل إلى المعركة فى الوقت المناسب لولا خفة حركته وما كان يدرك من أهمية السرعة فى الحرب ، فإن انتقاله من العراق إلى الشام على مفازة

مهلكة تبلغ ستمائة ميل قاد فيها عشرة آلاف مجاهد وقطع المسافة بين الحيرة و بصرى فى ثمانية عشر يوماً ، وطوى مسافة اليومين فى يوم واحد .

٢ ـ الطاعة قبل القيادة : بغير قيادة لا يكون عمل عسكرى ، ومن غير طاعة لا تكون قيادة ، فالطاعة خميرة الجندية. وتعلم الطاعة واعتيادها سابق لتعليم القيادة وفنونها . وواجب القائد أن يتلقى الأوامر ويتحمل التبعة فى الحال إذا استقام الأمر واستقرت التبعة ، وواجبه أن يراجع إذا اتسع مجال المراجعة .

وهكذا ضرب خالد بن الوليد المثل الأعلى فى الطاعة والقيادة ، وكان عليماً بموقع الطاعة وموقع المراجعة وموقع المشاورة حتى يصل إلى الحد الذى يحمل التبعة فيه .

٣ ـ شروط الموقع الدفاعى الصحيح : قرر عاهل الروم أن يضع جيشه فى موضع « واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب بين النهر والبحيرة والوادى الذى يواجهه جيش المسلمين . لا يسمح له بالانسحاب وهو على حق إذا بلغت معنويات الجنود هذا المبلغ من التصميم والمغامرة ، غير أنه لا بد لكل خطة من عنصر الاحتياط والموقع الدفاعى ينبغى أن تكون له خطوط انسحاب مأمونة حتى إذا حدث تراجع يكون الانسحاب سليماً » .

ولهذا قال عمرو بن العاص عندما ما ألقى نظرة على الموقع « حصرت والله الروم » .

٤ ـ أهمية الغرض عند المحارب : كان الفريقان فى « اليرموك » يعلمان أنها معركة فاصلة فى مصير الشام .

المسلمون حاربوا بالدعوة ، جهاداً فى سبيل الله ، والروم حاربوا للاحتفاظ بولاية الشام البعيدة عن مملكتهم الأصلية ولحماية بيت المقدس الذى استولى عليه الفرس من قبل ، وكانوا على حال من الاستهانة فى الحرب والحرص على الحياة وفقدان النظام مما جعل النصر بعيداً عن متناولهم .



معركة حطّين



١٠ أشبه الليلة بالبارحة .

إن المأساة نفسها يجرى تمثيلها من جديد ، وعلى نفس المسرح : فلسطين .

البارحة : غارات الصليب بدعوى حماية الأماكن المقدسة .

والليلة : عدوان الاستعمار بغرض تثبيت إسرائيل ودعمها .

والهدف : قهر الوطن العربى حتى يظل خاضعاً خانعاً لا تقوم له قائمة.

والطريقة : إشاعة الفرقة والخلاف بين العرب فتتبدد قوتهم وتتضارب خططهم وتذهب ريحهم ، فيستسلمون . .

وكادت المؤامرة تحقق أغراضها فى الماضى بسبب أطماع حكام الأقطار العربية وتفرق الكلمة ، فأقبل الخطر بخيله ورجاله ودعواه ودعايته وتعرض الوطن العربى للهزيمة وأشرف على الضياع ، لولا أن قيض الله له جندياً شجاعاً ووطنياً عربياً حكيماً هو صلاح الدين الأيوبى الذى قاد الجهاد بثاقب نظره وحسن سياسته وخبرته بفنون الحرب والحكم ، فنادى بالوحدة العربية وقاد الجيش العربى الموحد ، وصد غارات الصليب عن الشرق وأهله واستبقى للحضارة الإسلامية فاعليتها وقدراتها .

كذلك كادت المؤامرة تنجح فى الحاضر بفضل الدعاية التى عمت الأقطار لنصرة الصهيونية وبفضل المحاولات الإمبريالية للنيل من وحدة العرب وتفريق جمعهم بالضغط وبالرشوة وبالإغراء مستخدمين شعارات

شتى كالأحلاف العسكرية والمعونة الاقتصادية والمصالح المشتركة والتبادل الثقافى ومقاومة المبادئ الهدّامة .

ولقد لاح الخطر الصليبى فى فترة اقترنت بضعف أو انحلال الدولة العباسية والدولة الفاطمية فى آن معاً .

لقد كان ضعف القيادة هو السبب الأول فى انحطاط الدولة العباسية ، إذ انصرف الخلفاء عن الجهاد وحكمت عناصر أجنبية ، وشاعت الفرقة وعمت عوامل الفوضى والانحلال مما أورد البلاد موارد الضياع ، فصارت حمى مباحا !

أما الحرب الصليبية فكانت حادثة جنون من حوادث التاريخ الشاذة جاءت من الغرب كالرياح الهوجاء تذكوها النعرة الدينية تدفعها الأطماع الأشعبية فشغلت من عمر الدهر قرنين كاملين عبات خلالهما أوربا قوات تستظل بالصليب وتدعى حماية بيت المقدس وتنشد دحر المسلمين وقهر الوطن العربى .

وكانت خاتمة الصراع الصليبى فى « معركة حطين » حيث أحرز صلاح الدين قائد الجيش العربى الموحد انتصاراً تاريخيًّا خالداً .

كانت سياسة صلاح الدين تستهدف غرضين رئيسيين :

أولهما : توحيد كلمة العرب .

ثانيهما : طرد الصليبيين من فلسطين .

وقد تم له تحقيق الغرض الأول فأصبح السلطان غير المنازع فى مصر والشام جميعاً ، وبعدها شرع فى تحقيق غرضه الثانى .

بدأت غارة الصليب الأولى فى سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦) م ، وقد نجحت فى إنشاء مملكة لاتينية فى القدس وطراباس والرها .

وكانت الغارة الثانية فى سنة ٥٤١ هـ (١١٤٧ م) فى عهد السلطان نور الدين محمود ولم تحقق أغراضها .

أما الغارة الثالثة فقد اشتعل أوراها فى سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧م) فى عهد صلاح الدين الأيوبى .

كانت بين المسلمين والصليبيين هدنة أتفق عليها فى سنة ١١٨٤ لمدة ٤ سنوات ولكنها كانت هدنة لا تخلو من أسباب الخداع وتتخللها محاولات مستمرة من جانب الصليبيين خاصة وقد شعروا بالخطر المطبق عليهم من قيام صلاح الدين وتوحيده كلمة المسلمين وتوليه قيادة جيش عربى موحد .

وكانت تلك الهدنة فى جانب صلاح الدين حيث استطاع خلالها أن يتم استعدادته وأن يدعم بناء الجيش والدولة ويقضى على أسباب الضعف والتخلف والاختلاف ، ولكنه لم يسارع — حين أتم استعداده — إلى القتال بل حفظ العهد وصبر على الموقف حتى يجئ خرق الهدنة من الجانب الآخر الذى بدأ يمل الانتظار وتدفعه طبيعته المتمردة المتهورة إلى التماس أسباب الانقضاض برغم ما اعترى معسكره من عوامل الضعف والانحراف .

كان « أرناط » قائد حامية الكرك خرا متهوراً غداراً انقض على

قافلة حجاج مسلمين فقتل وأسر وغنم ، وكان ذلك خرقاً منه للهدنة وإشعالا للحرب .

ومن مقر قيادته العليا فى دمشق دفع صلاح الدين جيشاً إلى الكرك وجيشاً إلى عكا ولم يلجأ إلى أسلوب الغارات وإنما رأى التجمع لمعركة فاصلة ، وكان يرى أن أمامه رسالة واجبة الأداء ، وأثر عنه قوله :

« إن الأمور لا تجرى بحكم الإنسان ، ولا نعلم قدر الباقى من أعمارنا ، ولا ينبغى أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجهد بالجهاد . . »

وفى ميدان المعركة كان الصليبيون يتخذون مواقع دفاعاتهم عن جبل طبرية من الغرب ، وهاجم صلاح الدين مدينة طبرية حتى يخرج الصليبيين من حصونهم للمقاتلة فى الخلاء ودمر صهاريج المياه وحال دون مصادر المياه الطبيعية مستغلا ظروف وقدة الصيف ، وقد حاولوا عبثاً أن يشقوا طريقهم بالقوة إلى الماء وصاروا محصورين ولكنهم احتموا بجبل صغير عند حطين ونظموا دفاعهم ، وهكذا تحدد ميدان العمليات ودارت رحى القتال .

واستمرت الهجمات من الجانبين ، والمبادأة وحرية الحركة والروح المعنوية فى جانب المسلمين ، ففقد الصليبيون بمضى الوقت قدرتهم على القتال وصبرهم على العطش ، فلم يجدوا بداً من التسليم .

وأسفرت المعركة عن كثير من القتلى وكثير من الأسرى ، أو كما جاء فى المراجع «كان من يرى الأسرى لكثرتهم لا يظن أن هناك قتلى ، فإذا رأى القتلى حسب أنه لم يكن هناك أسرى » .

قتل صلاح الدين عدوه وعدو الإسلام أرناط ، أما الملك « كى » فقد أحسن صلاح الدين معاملته وله فى ذلك قول مشهور .

« لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك » .

وهكذا تمت فى خلال يومين معركة من أشهر وأهم معارك التاريخ ، فقد كانت هزيمته ما حقة للصليبيين ونذيراً بجلائهم عن فلسطين .

وبعدها سلمت طبرية وقلاعها ثم سلمت عكا ويافا وكافة الحصون والقلاع التى أقامها وتمتع فيها الصليبيون ردحاً من الزمان .

وحشد صلاح الدين قوة تواجه صور التى تجمع إليها انسحاب الصليبيين ، وسار بقواته الرئيسية فى قلب فلسطين قاصداً بيت المقدس فأحكم حولها الحصار وشرع يهاجمها .

وبعد أسبوع من الحصار الشديد والهجوم المرير فقد الصليبيون قدرتهم على المقاومة وطلبوا التفاوض وقبلوا شروط التسليم ، وكان ذلك فى شهر أكتوبر ١١٨٧ م .

ودخل المسلمون بيت المقدس وأدوا الصلاة فى المسجد الأقصى وأقاموا المنبر الذى كان نور الدين محمود قد أعده قبل عشرين سنة .

وعن القدس قال صلاح الدين – فى كتاب لريتشاد قلب الأسد وآخر قائد للصليبيين فى فلسطين :

« أما القدس فهو لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما عندكم ، إنه مسرى نبينا ومجمع الملائكة . . فلا تتصور أن ننزل عنه ، وأما البلاد فهى لنا فى الأصل واستيلاؤكم عليها كان طارئاً لضعف من كان فيها

من المسلمين ، فى ذلك الحين » .

وفى هذه الكلمة تتضح سياسة صلاح الدين .

وهى سياسة صالحة لأيامنا هذه برغم مرور مئات السنين .

وخلاصة الرسالة أو السياسة : أن بلاد العرب للعرب ، وأن القدس فى رحابهم وساحتهم وأن وجود الصهيونيين اليوم ظاهرة شاذة كوجود الصليبيين بالأمس .

وهدف الرسالة أو السياسة هو توحيد الصفوف وجمع كلمة العرب ، فبالوحدة العربية والجيش العربى الموحد يضيع كل أمل للصهيونية ومن ورائها الإمبريالية ولا يقوم نفوذ أجنبى من أى نوع فى هذه البلاد .

فهل يعيد التاريخ نفسه .

وبهذا الرأى دفع الخطر الذى تهدد الوطن العربى وكسب المعركة وأجلى الاستعمار الصليبى وأعطى البلاد الحرية والقوة والسلم .

الدروس المستفادة من معركة حطين

١ – الاستراتجية قبل التكتيك : كان صلاح الدين ينظر نظرة استراتجية حصيفة وهو يواجه الاستعمار الصليبى فى فاسطين – والاستراتجية هى إعداد جميع القوى وإمكانيات الدولة لمواجهة الحرب التى تخوضها الدولة ، والتكتيك هو فن إدارة المعارك وعمليات القتال – فكان قبل معركة حطين قد فرغ من توحيد البلاد ونظم ودرب الجيش العربى الموحد وأعد عدته للسيطرة على مصادر المؤن والمياه

وكسب المعركة المعنوية قبل اللقاء الحربى

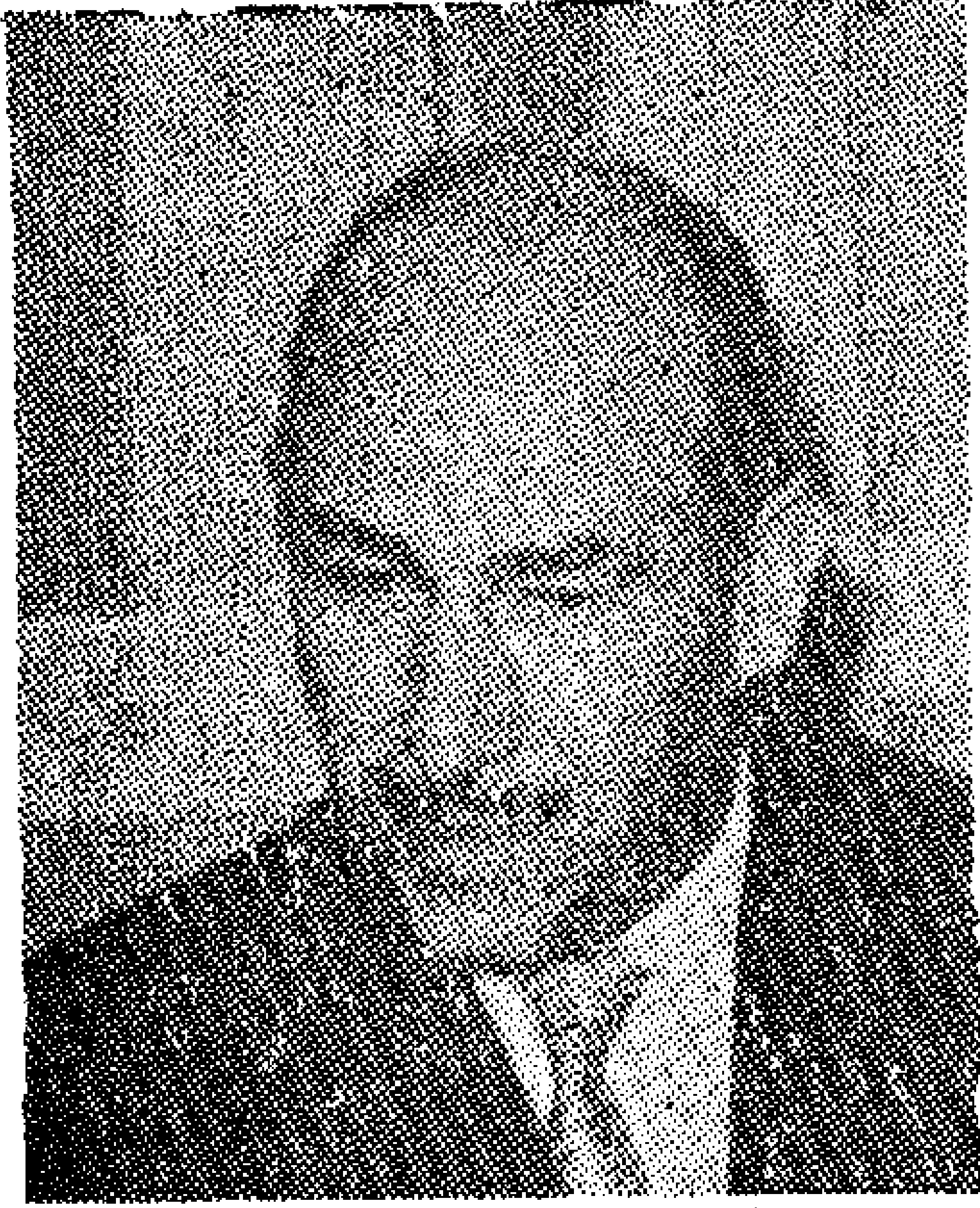
إن الاستراتجية الناجحة تعتمد أكثر ما تعتمد على استخدام الوسائل المعنوية الناجحة ، وقبل أن يقوم رجال السياسة بإعلان الحرب عليهم أن يتيقنوا من أن استعداد الدولة أصبح كاملا ، جيشاً وشعباً .

٢ ـــ الجيش من الشعب : لا يمكن الفصل بين الجيش والشعب قوة أو ضعفاً ، فكما يكن الشعب يكن الجيش ، والأمة سيف والجيش هو حده القاطع .

لقد انتصر الصليبيون فى بداية غاراتهم بسبب انحراف الدولة العباسية وانصراف الخلفاء عن الجهاد واختلاف القوم فيما بينهم ، فصار الوطن العربى حمى مباحاً ولهذا انهزم الجيش .

فلما ولى الأمر صلاح الدين عمل على جمع الشمل وتوحيد الأمة العربية ـــ مصر وسوريا وفلسطين ـــ فى جيش عربى موحد ، وبذلك استطاع أن يقهر الصليبيين ويستعيد الموقف .

٣ ـــ التقاليد العسكرية والشرف العسكرى : لا يستقيم أمر الجيش ما لم يقم على تقاليد سامية كريمة وإيمان بالشرف العسكرى ، وقد أوردنا فى سياق الحديث عن معارك المسلمين والصليبيين فى عهد صلاح الدين عدة أحداث تثبت أن الجيش العربى الموحد قد التزم بعهوده لم ينقض أحدها ويقع فى انحرافات أخلاقية كالنهب والسلب .



الكتاب . . والمؤلف

● هذا الكتاب هو رقم ٤٥ من مؤلفات السيد فرج وكان أولها كتاب « الرياضة فى بلادنا » الذى أصدرته «دار المعارف» فى أول يناير سنة ١٩٤٠

● وقد شغل السيد فرج عدة مناصب ثقافية وإعلامية بارزة خلال العشرين سنة الماضية

● فى سنة ١٩٥٦ عين وكيلا ومديراً بالنيابة لدار الكتب

● فى سنة ١٩٦٠ عين مديراً عاماً لجامعة الثقافة

● وفى سنة ١٩٦٥ عين وكيلا لوزارة الإعلام

● وقد اختير عضواً فى المجلس الأعلى لدار الكتب والوثائق القومية والمجلس الأعلى لرعاية الشباب وعضوا فى مجلس إدارة المؤسسة الثقافية العمالية ومجلس إدارة المؤسسة الاجتماعية العمالية ورئيساً لمجلس إدارة مسرح العمال ومديراً لتحرير مجلة الثقافة العمالية

● وقد زار السيد فرج منشآت ومراكز الثقافة والإعلام فى عدة دول أوربية ، كما أسهم فى تنمية ودعم العلاقات الثقافية والإعلامية العربية

● وللمؤلف صلة قديمة ومستمرة بدوائر الرياضة البدنية والصحافة ، وكان لقلمه مكان مرموق على صفحات الأهرام والمصرى ومجلة الهلال ومجلة المشآة ومجلة رابطة العالم الإسلامى ، وكان يوقع كثيراً من مقالاته بإمضاء « سيف »

● وللسيد فرج ٤٥ كتاباً فى موضوعات حربية وثقافية وإعلامية من أشهرها « جيشنا فى فلسطين » و « القيادة والقادة العظام » و « عبور القناة » و « تيتو فى الميدان » و «صور من البطولة العربية» ومسرحية «ساعة إخلاص»

المحتويات

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٥/٤٣٧١
مطابع دار المعارف بمصر - ١٩٧٥
١/٧٥/٢١٧



اقرأ

فاضل السباعي

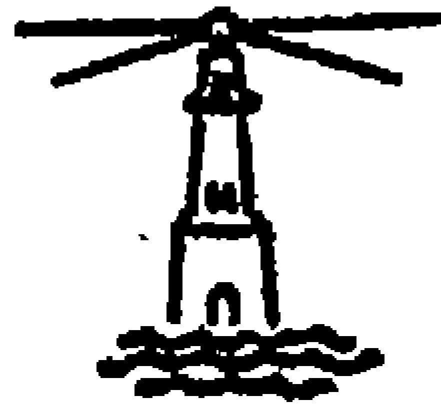
رحلة حنان





تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر



فاضل السباعى

رحلة حنان

مجموعة قصص قصيرة

اقرأ ٤٠٣

دار المعارف بمصر

(اقرأ ٤٠٣)

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

الإهـداء

إلى أبناء أمتى .

جيل الغد .

فتيةً ، وأطفالاً ، وأَجِنَّةً فى ضمير الغيب .

فى لهوهم البرىء ،

وأحزانهم الصغيرة ،

وفيما يستروحون من نسيم الحرية والعدل ،

أو يعانون من ألم الظلم والخطأ والغباء . .

فمِنْ رحلتى الحنون إلى عالمهم الزاخر ،

استلهمتُ هذه الوقائع ،

ومن وهج حياتهم قَبَسْتُهَا شُعَلاً ،

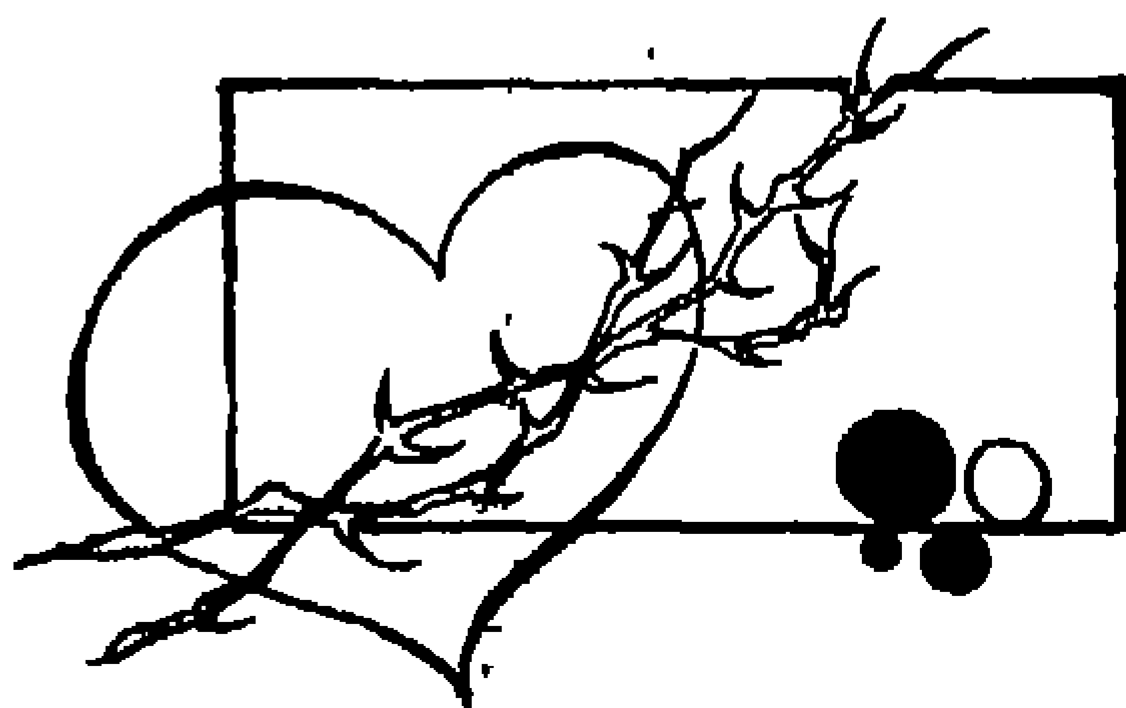
لأردّها إليهم :

فنًّا ، وحبًّا ،

وهم يتلمَّسون طريقهم نحو الحق والخير والجمال ،

فاضل

أريد أمّي



وقع لى ذلك فى يوم ربيعىّ ، فى عام من الأعوام، وكان المعلم يلقى علينا درساً فى حنان الأم . وأذكر أن أبى كان قد استطاع أن يزرع ، فى نفسى ، بطريقة ما ، خلال الأشهر الخمسة التى أمضيتها فى كَنَفه ، الكراهيةَ التى يرغب نحو أمى ، وأن يُوغر صدرى عليها !

لست أدرى من أين أبدأ قصتى ! ولكن الذى أعيه جيداً أن هذا المعلم النحيل ، المرهف القسمات ، ما كاد يعلن أنه سيتحدَّث اليوم عن الأم وحنانها ، وعن قدسيَّة دورها فى الحياة ، وتقدير المجتمع لها ، مشيراً فى ذلك ، إلى كتاب أنيق الغلاف يحمله فى يده . . . حتى كانت صورة أمى الحبيبة — التى انتُزِعْتُ من أحضانها انتزاعاً — قد شغلت خاطرى ، وملأت صدرى وخافقى ، حتى لم أعد أتنفس إلا رائحتها وهى تضمنى إلى صدرها ، حانية علىّ ، ماسحة بيدها الرحيمة شعرى ، مقبلة وجنتى وجبينى ووجهى كله . .

لقد أخذ أبى على عاتقه ، من يوم أن حملنى إلى بيته ، أن يغذونى كرهاً بتلك الشابة الطيبة التى لم تطق العيش معه أكثر من أسابيع معدودات ، عادت بعدها إلى بيت أمها وقد استكنّ فى أحشائها جنين هو الأول والأخير ، كما انتوت من يومها أن أكون ، وأعترف بأنى لقيت ، إبّان طفولتى التى أمضيتها فى بيت أمى ، رعاية عوضتنى عن عطف الأب ، الذى طلقته أمى ، قبل مولدى ، غير آسفة على

شيء . وعندما تفتّح وعيي ، وأدركت أنه ينبغي أن يكون لكل طفل فى بيته أب يسبغ عليه رعايته ، كنت أسأل أمى فى إلحاح :

— ماما ! لماذا لايقيم أبى معنا ، ياماما ؟

فتجيبنى ، وهى تمر بشفتيها على جبينى :

— أبوك . . . فضل أن يعيش بعيداً عنا ، ياحبيبى !

وما كانت هذه الإجابة ، ومثيلاتها ، لتُروّى فضولى ، وأنا فى سنى السؤول ، مقدار ذرة . ولكن أمى ، كما أذكر جيداً ، كانت تدأب على أن تبعث بى إلى حيث يعيش أبى مع أخته عمتى المترملة ، فأراه ويرانى ... دون أن تلفحنى فى لقائى إياه ، العاطفة التى كنت أنشد !

* * *

فى ذلك اليوم الربيعىّ ، وقف المعلم النحيل ، المرهف القسمات ، الذى تعلّقنا به حبّاً منذ أول العام الدراسى ، يتلو فى لهجة خاشعة :

— « ولا تَقُلْ لهما أُفّ ، ولا تنهرهما ، وقل لهما . . . » .

وأكملت الآية فى ذات نفسى : « . . . قولا كريما » . ذلك أنى حَفِظْتُها قبل اليوم . حفّظتنى إياها أمى التى طالما جلست إلى جوارى تلقننى العلم ، وتشرف على دروسى ، وتسهر على الليالى .

ذكرت ، ههنا ، الموقف الذى دُفِعْتُ إلى اتخاذه قبل أيام فى مواجهة أمى . كان موقفاً ليس أقسى منه أو أكثر ظلماً واعتسافاً ! ولكن أبى . . . كان هو دافعي ، هو ملقنى ! لقد كان أبى يحرضى من يوم أتى بى إلى بيته . ويوم جاء ينتزعنى من حضن أمى ، وقد أتممت

السابعة من عمرى ، أخذت أمى تنتحب وتقول :

ـ آه ! لسوف يحرمنى من أن أضمّه بعد اليوم إلى صدرى !

فتجيبها جدتى :

ـ ولم هذا الظن يابنيّتى ؟ أنت لم تقصّرى فى حقه خلال سنوات حضانتك السبع الماضيات ، يابنتى . كنت تحملينه إليه حيث يشاء .

ولقد صدق حدْسُ أمى .

فلم تكد قدماى الصغيرتان تطآن عتبة بيت أبى ، حتى أخذ فى تلقينى بحضور عمتى دون هوادة :

ـ أمك تكرهنى ، ياعدنان !

ـ . . ! . . . ! . . . !

ـ لقد تركتنى . . . منذ كنت فى بطنها جنيناً !

تساءلت ببراءة ابن السنوات السبع :

ـ ولماذا تركتك يا أبى ؟ . . لماذا لاتعود إليك ؟ . . لِمَ لم تأت بها معى ؟!

فصرف أبى بأسنانه :

ـ إنها تكرهنى . ولسوف تكرهك ، أنت أيضاً !

رفعت صوتى معترضاً :

ـ ولكنها تحبنى . . . أنا . . . يا أبى !

ـ كانت ! كانت تحبك ، أيها الشقى ! وأما اليوم ، وقد أصبحت فى بيتى فإنها تكرهك قدر كراهيتها لى !

فأكَّدتُ :

ــأمى تحبنى . أعرف ذلك . ولا يمكن لها أن تكرهنى أبداً .

فصرخ بى :

ــأقول لك:أمك تكرهك.. أتفهمنى ياولد؟ عليك أن تكره أمك، وتُقْلِع عن محبَّتها ! !

وملأ صدرى خوف عظيم .

ــأمك قاسية . هجرتنى . لم تصبر على . اكره أمك ، أقول لك!

رأيت الزَّبَدَ يتطاير من بين شدقيه . . . فازددت خوفاً ، ولاذت عيناى بعمى .

ــ قل : أكره أمى! ردد معى : أكره أمى! أكره أمى !

رافعاً يده ، فى غضبه الأعمى ، فوق رأسى .

أجبت مفزوعاً ، وأنا أحس الدموع تَنْهَلّ من عينى :

ــأكره أمى! !

ــ قل : لن أحبها !

ــلن أحبها ! !

ــلن أحب أمى بعد اليوم !

ــ لن أحبَّ أمى بعد اليوم ! !

وحجزنى ، من يومئذ ، عن الذهاب إلى بيت أمى ، أو لقائها فى طريق ، أو مقابلتها على باب المدرسة !

فأرسلت أمى إليه الرسل ، تترجاه بلسانهم ، وتستعطفه أن يتيح

لها فرصة أن تضمني في بيتها ليلة كل أسبوع. وهو ماض في عناده ، الذي لم أر عمتي مرة تقره عليه . وكان مايفتأ يعلن في غلّ :

ـ لن أدعها تلمس ظفر رجله !

وعمتي التي تكبره سناً ، تزجره بغمغمة تريدها ألا تبلغ مسمعي :

ـ لا تثقل على الصبي . إنك ، على هذا ، ستجعل حياته بيننا جحيماً !

ثم لم يكن بدٌّ لأمي من أن ترفع أمرها إلى القضاء ،الذي حكم لها ، بعد أشهر ، بأن تراني ، في فناء المحكمة ساعة في الأسبوع . وإني لأذكر لحظة توجّب على أبي أن يصحبني إليها ، في يوم «الرؤية» الأولى ، وكيف أنه شحن سمعي بتلقينه :

ـ إياك أن تكلّمها ، ياعدنان ! إنها عدونا اللدود : عدوتي وعدوتك ! إن كانت مشتاقة لك حقّاً ، كما تدعي،إن كانت ترغب في أن «تراك» ، فلتنظر إليك من بعيد ، دون أن تقترب منك ! أتفهمني ياولد ؟ ! لاتدعها تلمسك ! لا تكلّمها ! إن وجهت إليك سؤالا ، فاعتصم بالصمت ! لقد هجرتني ! لم تعش معي سوى أسابيع ! إن امتنعت عليها ، فسأشتري لك . . . . .

وفي فناء المحكمة ، وقفتُ بإزاء أمي ، بعد ذلك الفراق الطويل ، متسمراً في مكاني . . . وكياني الصغير يعاني ألف انفعال .

قالت أمي تحدثني بصوت رقيق مازال في سمعي :

ـ اشتقت لك ، ياعدنان . أما اشتقت لي ياحبيبي ؟

انتظرت منى جواباً .

ـ ما لك صامتاً ؟ تكلم .

وانعطفت عليّ تريد أن تأخذنى إلى صدرها . فأسرعت أدير ناظرى نحو أبى ، المنتصب على مقربة : فوجدته عابس الوجه ، مقطب الجبين تقدح عيناه شرراً ! فابتعدت عنها ، متشبثاً بلاشيء .

ـ هل أنت « زعلان » ؟ أنا اشتقت لك . خمسة أشهر . . . .

ونطق لسانى :

ـ لم تركت أبى ؟ !

فوجمت أمى .

ـ إنك تكرهين أبى ! وتكرهيننى !

احتقن وجهها الجميل بحمرة وردية .

ـ لم هجرت أبى ؟ !

ـ هو الذى تركنى .

ـ أنت التى هجرته . . . وأنا ، بعد ، جنين فى بطنك !

صرخت أمى ، وهى تتلفت يمنة ويسرة كمن يبحث عن مصدر شرٍّ خفى :

ـ ماذا تعلمون الصبى ؟ !

رد أبى ، من موقفه ، بصوت يابس :

ـ نحن لا نعلمه ، عدنان غدا شاباً ، يعرف كل شيء !

وأمعنت فى مراضاة أبى :

ـ لك ساعة فى الأسبوع . . . تنظرين إلىّ ، فيها ، من بعيد !

وارتجف صوتها ، وقد استحالت حمرة وجهها الوردية إلى لون الورس :

ـ ماهذا التعليم ! ماهذه الإنسانية ! أهذا كلام يخرج من فم طفل عمره سبع سنين ؟ ! أليس هذا تلقيناً ؟ (وانهارت منتحبة) كنت موقنة بأنه سينقل إليه حقده الدفين ! (والتفتت إلىّ) أنا التى ربيتك ، يا عدنان ، أنا أمك . رعيتك سبع سنين . وأبوك أخذك منى بحكم القانون . خمسة أشهر لم . . . . .

أحسست ، وأمى تتكلم على هذا النحو ، بجسمى كله يرتعد من انفعال كظيم ، وبالدموع السخينة تتصبب على وجنتى . وتحركت يدى إلى ثوبها الأزرق ، الموشى بزهيرات ملونات ماتزال صورها ماثلة فى خاطرى . . . امتدت يدى ، دون إرادة منى ، لتتحسس ذيل ثوبها ، مثلما كانت يدها الحانية تتحسس رأسى ساعة أكون فى حضنها ، وفى نفسى رغبة لو أعانقها ، لو ألثم يدها ... آه ، وددت لو أمسح بوجهى ، الدموع التى بللت يدها ، أو أزيد هذه اليد الكريمة بللا من دمعى الصبيب . . .

ولكن . . . ردتنى عن ذلك كله نظرةٌ من أبى ؟

* * *

وأفقت ، وأنا فى قاعة الدرس ، على صوت المعلم ، وهو يقرأ من الكتاب فى يده بلهجة شجية :

ـ . . . وفى الليل ، عندما أستلقى على فراشى طلباً للنوم ، أسمع

حسيس أقدامك يا أمى ، وأنت تقبلين إلى ، ثم تحومين حولى ، تحكمين الغطاء على ، وتهدهدين كتفى، وتطبعين على خدى قبلة الحنان . . . .

ذكرت ، فى تلك اللحظة ، أية إساءة وجه أبى ، ووجهتُ، إلى أمى ، فى يوم الرؤية الثانية ، قبل يومين مضيا. إنى كلما تمثلت فى خاطرى ذلك الموقف ، أغرقنى شعور بالندم والألم من قمة رأسى حتى أخمص قدمى ،فأنتفض حزنًا وخزيًا . لقد بدأ اللقاء الثانى هادئاً على غير ما أراد أبى، بدوت ، هذه المرة ، أكثر طواعية لأمى واستجابة ، وأقل التفاتاً بناظرى نحو أبى . أجلستنى أمى إلى جوارها ، وراحت تسألنى عن دروسى ، وعن امتحانى الأخير ومانلت فيه من الدرجات ؟ وإذ أفضيت إليها بأنى حظيت فى موادى كلها بدرجة «جيد» ، عدا «الحساب» الذى ساء حظى فيه فكان «وسطاً» ، بدا الغم فى محياها الجميل :

—لم تكن ، ياعدنان ، لترضى فى الحساب بأقل من «جيد» . فكيف رضيت، اليوم، «بالوسط» ؟ أى شيء شغلك عن دروسك ياحبيبى ؟

وأبى ، كما أتخيله ، يقدحنى بنظراته العابسات ، وقد تعمدت أن أجعل جلستى بحيث أدير له نصف ظهرى .

وتفتح أمى حقيبة يدها البيضاء ،لتقدم إلىّ قطعة من «الشوكولاتة» المغلفة بالورق المفضض . فالتهمتها بلذة ، وأنا ماأزال مشيحاً بوجهى عن أبى . وأمى تسألنى عن مدى الرعاية التى ألقى فى بيت أبى؟ فأثنيت على عمتى وما توليني إياه من الاهتمام .



ـ عمتك . . منصفة ، تقدر الظروف . إنها امرأة طيبة .

قلت : بدأ اللقاء الثانى هادئاً . وقد كان خليقاً به أن يمضى كذلك ، لولا أن قدر لأمى أن تعود إلى حقيبتها ، فتنقب فيها ، ثم تمد يدها إلى « بملبسة » كبيرة الحجم على غير المعتاد :

ـ دونك هذه ! قلت للبائع : أريد أكبر ملبسة فى دكانك ، لابنى عدنان !

هتفت ، وأنا أقلبها فى كفى :

ـ ما أكبرها ! .

ـ إن فى هذه الحقيبة حلوى لك كثيرة ، تأكل منها ما تشاء ، وتحمل معك الباقى لتتسلى به خلال الأسبوع .

فابتسمت فرحاً . ورفعت الملبسة الرائعة إلى فمى .

وههنا . . أحسست بأبى يندفع نحوى عدواً ، لينتزع الملبسة من يدى ، وهو يصيح فى غضب عنيف :

ـ أتنوين أن . . . تقضى على الصبى ؟ !

راشقاً الملبسة ، بعزمه كله ، إلى أقصى فناء المحكمة .

أجابت أمى ، وقد انبهر نفسها :

ـ أإذا قدمت إلى ابنى ، وحيدى ، ملبسة . . . يعنى أنى أنوى القضاء عليه ؟ !

ولكن أبى يتابع فى سورة غضبه :

ـ أتنوين أن تسميه ، يامجرمة ؟ ! !

لم أصدق أذنيّ ما سمعتا ! نظرت إلى أمى ، التى امتقع لونها ، وهى تعلن :

ــ ما هذا الكلام ؟ !

لم أعد أدرى ماالعواطف والانفعالات التى جاشت فى صدرى : هل أرادت أمى حقًّا أن تجرعنى السم ، فى هذه الملبسة الرائعة ؟ ! أيعقل هذا ؟ ! ولماذا ؟ !

توجه أبى إلىّ :

ــ أمك حاولت الآن أن تسمك ياعدنان !

فقلت ، من خلال عبراتى التى انسفحت ، وكان لابد أن أقول :

ــ لماذا تريدين أن تسمينى ، يا أمى ؟

أخذت أمى تبكى بوجدان جريح ، وكبرياء قد أُذِلَّت . . . تبكى أمامى ، بملء غريزة الأمومة فى جوانحها ، وتقول :

ــ أ أنا أسمك ، ياحبيبى ؟ ! شلت يدى . أنا أسم من يسمك :

فعاجلها أبى :

ــ إذن سمى نفسك ! (ثم اندفع يقول مزبداً) لما رأيت الصبى وقد خرج من حضانتك إلى الأبد ، نويت أن تقضى عليه بالسم فى ملبسة ! (وانعطف يعانقنى) إنها ملبسة مسمومة ، ياعدنان ! إنها مسمومة !

وتجمع حولنا الناس يتفرجون .

وأقبل المحامى ، محامى أمى ، من المحكمة على صراخ أبى . . .

فحكت له أمى ماكان ، وهى تنتحب ، حتى انعقد لسانها فلم تعد تقوى على الكلام .

قال المحامى فى مهابته يخاطبنى :

– إنها أمك ياعدنان ، التى حملتك فى بطنها ، وحضنتك سبع سنين . (ثم التفت إلى أبى) وأنت ياسيد : ماهذا الكلام! ما هذا اللغو ! أى أسلوب هذا الذى تتوسل به ؟ حقًّا ، إنك لغريب الأطوار !

وفى مساء ذلك اليوم ، رأيت أبى يختلى بعمتى فى غرفة ، فيتحدثان ، ثم مايلبثان حتى تعلو منهما الأصوات ... وعمتى تهيب به :

– دع المرأة فى حزنها . حرام عليك !

وهو يزيد فى عناده :

– أكرهها ! أكرهها ! لن أدعها تنعم برؤيته ، ولو ساعة فى الأسبوع !!

وأدركت ، تلك اللحظة ، ماكنت أجهل .

* * *

– ... أماه ! كنت أناديك بلسانى . وأما الآن، فلم يعد لى إلا الورق أريق عليه عواطفى نحوك ، يا أمى ، بعد أن ترفعت عن دنيانا المفعمة بالآثام ، وصعدت إلى عالم غير عالمنا . سأعود إلى البيت، فلا ألقاك ، ولكنى أجد الظلام طبقات بعضها فوق بعض، لأن عينيك الطافحتين بالنور، قد شاء لهما الله أن تنطفئا. سأجد السكون والوحشة

لأن قلبك العامر بحبى ، يا أمى ، قد كف اليوم عن الخفقان . . . .

المعلم مايزال يقرأ فى كتابه . وفى صدرى، عالم زاخر بالعواطف الجياشة . لقد خيل إلى ، فى تلك اللحظات ، أن أمى ، التى عذبها أبى قبل يومين سلفا حتى أدمى فؤادها ، وعذبتها معه انسياقاً ، هى التى رحلت عن دنيانا المفعمة حقًّا بالآثام والشرور ، وما هذا الرثاء الحزين إلا التعبير الصادق عن حزنى وندمى وعذابى .

أخذ صدرى يعلو ويهبط . وإذا الدموع تتحدر من عينى فى صمت . وإذا صوتى يرتفع ، لينفلت من لسانى ذلك النداء اللهيف :

ــ أماه ! . . .

فيكف المعلم عن القراءة ويتلفت التلاميذ نحوى .

ــ أحب أمى !

ثم وجدتنى أغادر موضعى بين رفاقى ، مندفعاً بقوتى كلها إلى الباب ، معلناً فى صوت دامع :

ــ أريد أمى ! أريد أمى . . . .

منطلقاً إلى باحة المدرسة ، مجتازاً بابها . . . ورحت أعدو فى الشوارع فى اتجاه بيت أمى .

انطرحت فى حضنها ، وأنا ألهث ، والدموع تغسل وجهى :

ــ أحبك ، يا أمى ! أريد أن أعيش بقربك . لقد أرهقنى أبى ، وهو يوغر صدرى عليك ، ويبث الكراهية فى نفسى ، أحبك ، يا أمى بقدر ما أكره أبى !

ضمتنى أمى إلى صدرها طويلا . . . ومسحت بيدها الحانية الرحيمة على رأسى ، وقبلت جبينى ووجهى مراراً ، حتى اختلطت دموعها بدموعى .

ومن عجب أن سمعتها تُناشدنى ، بصوتها الرقيق :

— أَحِبَّ أباك يابنى ، ولا تضمر له كرهاً . . . فليس له فيما يفعل ، سلطان على نفسه !

وعرف أبى ما كان منى من بكاء فى قاعة الدرس ، وعرف أمر انطلاقى من المدرسة إلى حجر أمى . . . فانكفأ يصرخ بى صراخاً جنونياً مرعباً ، ثم أهوى على بالضرب ، لولا أن استخلصتنى عمتى من بين يديه ودافعته جاهدة إلى غرفة ، وأوصدت دونه ودونها الباب .

كفكفت دمعى ، لأسترق السمع والنظر من ثقب الباب .

وجدت أبى يقول ، وهو يصرف بأسنانه من غلّ :

— لم يكره أمه . مازال يحبها . لم يكرهها ، المغضوب! يرغب فى أن يعود إلى العيش معها !

ثم يلطم وجهه بكلتا يديه ، وعمتى تتشبث به لتحول بينه وبين أن يمعن فى ضرب نفسه ، وهى تصيح معولة :

— ارحم نفسك يارجل ! حرام عليك ! أَتْلَفْتَ أعصابى . أنت تُميتنى !

وعادت دموعى ، وأنا وراء الباب ، لتنهمر على خدى . ولكنه الآن ، بكاء ينطوى على عاطفة أخرى : استشعرت فى صدرى حبًّا

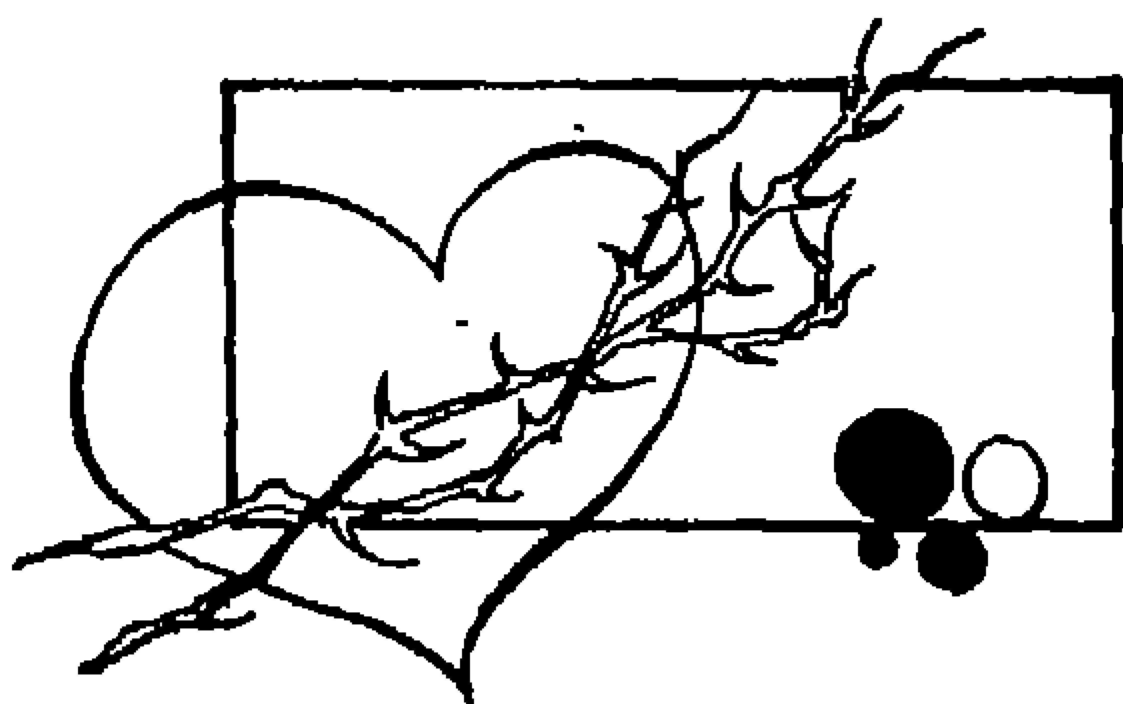
دافقاً للمسكين أبى ، وقد أدركت لِمَ لم تستطع أمى صبراً على العيش معه أكثر من أسابيع ، دون أن تضمر له شيئاً غير العطف والإشفاق ، ودون أن تتطلع إلى الزواج من سواه . . . .

وظللت مع أبى : أحبه ، وأرعاه ، وأداريه .

* * *

وقع لى ذلك ، فى يوم ربيعى ، فى عام من الأعوام ، وقد كان المعلم النحيل ، المرهف القسمات ، الذى تعلقنا به حبًّا ، يلقى علينا درساً فى حنان الأم .

رسالة غير وديّة



دلفت « علياء » إلى مدخل المدرسة . وأحست وهي ترتقي الدرجات العشر الرخامية ، بقلق صغير ينبثق في صدرها . وضغطت على المحفظة تحت ساعدها الأيمن ، محدثة نفسها : « إنها هنا ، قد دسستها بين أوراق كتاب ! » . أجل ، فقد ضمتها في مظروف أبيض ، ثم دستها بعناية بين أوراق كتاب القراءة . وأعلنت ، بينها وبين نفسها في غل ، بينما هي تجتاز الباب العلوي إلى الصالة : سأنتقم منها . . . لسوف أبلغها رأيي فيها ، هذه المعلمة التي لا تعدل !

دخلت قاعة الدرس . رفيقاتها متوزعات بين المقاعد . وتوجهت نحو مقعدها ، الأقرب إلى الباب والملاصق للجدار ، وهي تفكر بألم : حتى مقعدي أُبْعِدَ هذا العام ، عن منضدة المعلمة : حين مُنحت « رجاء » ، بنت المعلمة ، المقعد الأول المواجه للمنضدة ! لماذا ؟ حطّت محفظتها على المقعد . حتى تكون في وجه أمها ، في عينها : « قومي يارجاء ، إلى اللوح وحلي هذه المسألة ! » ؛ « كيف نكتب كلمة : ماقتئ ، يا رجاء ؟ هيا إلى اللوح فاكتبيها ! » ؛ « عوفيتِ يا سعاد ، أخذت في الاستظهار عشراً على عشر ! » . . . رجاء ، رجاء ، رجاء ! كله رجاء ! !

اتخذت لسها . القلق الصغير ، تحسه الآن أكبر . الوجيب في صدرها يتعاظم . ولكن . غلها سيشفى بعيد قليل ، في الدرس الأول الآتي ، في الدقائق الأولى من الدرس ! لرجاء العشرات ، ولي أنا :

« علياء انتبهى إلىّ ، ياعلياء » ؛ « عليا ! اصمتى ، ياثرثارة ! » ؛ « علياء ! قللى من حركاتك ، وكونى معى ، ياعلياء » ! « علياء ! هل تنوين أن تكونى ، السنة ، آخر البنات ؟ » . . . هذه « النية » ، التى ليست عندى ، بدأت تثمر : غدوت بقدرة قادر ، متأخرة فى « الإملاء » ، التى ما أعرف أنى نزلت فيها عن العشر ! تعطينى ، فى امتحان أمس ، ثمانى ، وتعطى – الظالمة – بنتها عشراً ؟ !

وتأوهت ، متمنية : آه ، ياربى ، لِمَ لم تجعل من أمى ، والدة التسعة ، معلمة مدرسة ؟ كانت رفعت الغبن عنى ! أنا لا أطالب منك ياربى ، أن تجعل أمى معلمة كى تمنحنى درجات فوق ما أستحق ، كما تفعل المعلمة مع بنتها ؛ ولكن لتمنع عنى الظلم فقط ! فأنا مجلة أعرف نفسى كما تعرفنى أنت ، ياربى ! كسرت لى المعلمة ، أمس درجتين فى امتحان الإملاء ، على غلطتين ما عودتنا أن تعتبرهما غلطاً : « اذا » بدون همزة ! « انمى » بدون همزة ! رفعت أصبعى ، حين تسلمت ورقتى منها :

– آنسة ، هذه ليست غلطاً !

وهى لا تلتفت إلى .

– آنسة خانم . . . آنسة خانم . .

وهى تتابع توزيع الأوراق على البنات . ودق جرس الانصراف ولم تفرغ من التوزيع . لحقتها ، وهى فى الصالة تسير مسرعةً ، وصوتى الشاكى يرتعش :

ــ آنسة خانم . . . أنا . . . أخذت ثمانى . . . انظرى ورقتى !

فردت على فى ضيق :

ــ أوه ، علياء ! دعينى الآن . . . فى همى

همها ، ابنها الذى طال مرضه ! ! وهمى أنا ، من يسأل عنه ؟ وهنا التفتت ابنتها إلى . أفلتت يدها من يد أمها ، وكرت نحوى :

ــ انظرى ، ياعلياء ، ورقتى . . . أخذت عشراً !

ــ أرينى ، رجاء . . . أرينى .

عشر ! يا الله ، هى ذى ، عشر نعم ! وأحسست الغيرة ناراً تحرقها . عشر ! رجاء ليست أحسن منى فى الإملاء . ألمت عيناى بالأسطر . هى ذى : « انمى » بدون همزة ! مامعنى هذا ؟ و « انا » ، أين « انا » ، حتى أرى ؟ خطفت منى رجاء ورقتها ولحقت بأمها . وعلت أدراجى ، وأنا لا أبصر طريقى !

فكرت علياء فى حقد : خطأ مظنون تكسر لى فيه درجتان ! وخطأ مماثل ، عند بنت المعلمة ، لاينال من درجاتها العشر شيئاً ! ! !

ثم تلمست كتاب القراءة فى محفظتها ، بحثاً عن . . .

* * *

ودعت « إلفت » طفلها بنظرة حزينة . وأكدت ، قبل أن تغادر البيت :

ــ الحبوب ، كل ساعتين حبة . لاتنس . والحقنة « أم سعيد » تأتيك فى العاشرة . هل أطمئن ، أبا الوليد ؟

أجاب زوجها بصوت يبعث على الاطمئنان الذى تنشد ، لولا

شائبة تشوبه :

ــ ياستّى ، أعرف مُهِمَّتى : « واجباتى المنزلية » صرت أتقنها : الحبوب ! الحقن ! الشراب ! وأشياء أخرى . . . شفا الله صغيرنا « وليد » ، يا « أم الوليد » !

ثم رأته ينعطف على الطفل فى سريره ، هاتفاً فى حنان كبير :

ــ كيف حالك ، الآن ، يا حبيبنا وليد ؟ . (لم يجبه الوجهُ الشاحب بشىء) حمداً لله أنى بدون عمل ، كى أبقى إلى جوارك أُعنى بك ياصغيرى !

ودفعتْ بنتَها أمامها فى رفق ، محاذرةً أن يلمح زوجها الدمعة التى طَفَرَت من عينها :

ــ هيّا ، يارجاء . الوقت يوشك أن يتركنا .

وطغى عليها اللحظة حبٌّ لزوجها كبير ، حبٌّ هائل تحسه يبتلعها فى أعماقه فتنعم به ، حبٌّ عظيم لا يضارعه سوى عطفها على وحيدها العليل .

وفكرت : من تُراه كان حقيقاً بأن يُعنى بابنى فى غيبتى عن البيت ، او لم يكن زوجى فاقداً عمله ؟ ونزلت الدرج أمى ؟ أين أمى ، واحسرتى ؟ وأمه ، حماتى ، عجوزٌ غير قادرة وغير صابرة . لم يكن بدٌّ ، إذ ذاك ، من ممرضة .

ــ هاتى يدك ، يارجاء .

وأخذت تقرع الرصيف بقدميها . ما بالها تُغِذّ السير معجلة ؟ إن فاتها الوقت ، دقائق من الوقت ، فإن المديرة والبنات أعلم بحالها .

والمعلمات ، زميلاتها ، مافتئن يسألنها عن صحة وليد ؟ تجيبهن : « بخير» « إن شاء الله أحسن »! ولكنه لايكاد يتقدم . تتحسن حاله ، ثم تتردى . سألتها معلمة الصف السادس ، التى التحقت بالمدرسة حديثاً إذ علمت :

ـ ومن يظلّ فى البيت يرعاه ؟

أسرعت المديرة تجيب نيابة عنها :

ـ زوجها « موظف متقاعد » .

وأطلّت من عينى المعلمة الجديدة نظرة ذات معنى . حسبت ، لابد ، أن أبا الوليد متجاوز سن الستين ! فمالت المديرة إلى أذنها تهمس . فزايل العجب الوجه الجديد :

ـ هكذا . وأنا قلت فى نفسى إنها شابة لا تتجاوز الثلاثين ! هو متقاعد شاب ، إذن .

بلغت فى مسيرها الساحة . تشبثت بيد ابنتها ، وتلفتت يمنة ثم يسرة ، قبل أن تجتاز الشارع الوسيع . كم ضاق « الشاب » ذرعاً بحياته فى البيت ! كم تشكّى ، وتذمّر ، وجعل منها مستنزفاً لنزقه !

ـ هكذا الدنيا تسير ! (يقول فى مرارة) رجل كالحصان يقضى ساعات نهاره فى البيت ! وزوجة شابة تسعى وتعمل فى مدرسة ! (ثم يعلن فى انكسار) طَقّ عقلى ضمن أربعة الجدران ، يا ألفت ! تأخذين أنت رجاء ووليد فى الثامنة صباحاً ، وأظل وحدى ! (ويهيب بها مترفقاً) أعطينى كتباً ، يا أم الوليد ، هاتى . نزلى كل ما فى « السقيفة »

من كتب قديمة ومجلات ، فقد أتيت على ما فى الخزانة هنا . حسن ، سأصعد إلى السقيفة غداً . . . (ويتجه إلى أعلى) سبحانك ربى ، لو تمنحنى أربعة أمثال راتبى التقاعدى الذى أتقاضاه وتقول لى : « اجلس فى بيتك بلا عمل » ، لرفضت النعمة ، وفضلت الربع الضئيل مع العمل خارج البيت ! (ثم ينكفئ إليها مداعباً فى مرح) أم الوليد، أم الوليد ، إيه ، ولا يهمك ، ما دامت الصحة فى إهابنا فأجدر بنا أن نكون سعداء برغم كل شىء . . . سعداء . . . سعداء . . . (ويصفق كالسعيد ، مطلقاً ضحكة عالية ، ويقوم إليها يحملها على زنديه ، على مشهد من رجاء ووليد !) .

كآبة وفرح ! غضب ورضى ! عبوس مقطب وضحك مجلجل أحياناً ! . . . أحوال متناقضة تنتابه فى اللحظة الواحدة ! باتت تخشى عليه أن يجن ، أن « يطق » عقله » كما يعلن على الدوام . ثم وفد مرض وليد ، فتغيرت أحواله تغيراً واضحاً . وجد أمامه قضية كبرى يعيش لها وقته كله : العناية بصبيِّنا الأوحد . آه ، يا وليد ، من أين جاءتك هـذه العلة ، ياحبيبي ؟ تعرضك لما يؤلم ، وتمتحن جلدنا وقوة احتمالنا . أنا من جهتى لا أعصاب عندى . أنا مرهقة حتى العظم . أنا إنسانة فقدت اتزانها . هم وغم ، وعمل فى المدرسة يومى لا يفتر ، وعمل فى البيت : خدمة منزلية ، ثم تصحيح أوراق التلميذات ، وظائف ومذاكرات وامتحان . . . أحرى بى أن أكون « آلة » ! واستدركت : ولكنه يعمل . ولكنه يساعدنى ، أقول الحق : إنه يساعدنى . وتبسمت :

ألم يعمد أخيراً إلى غسل الصحون فى المطبخ ؟ وهو الذى كان يزعق فى رهطه صوتًا فيتبسّون ! طاعة ونظام كان يفرضهما بقوة شخصه. وهو الآن فى المطبخ ، يغسل القدور !

لقد أقلع هذه الأيام عن مطالعة الكتب ، فقد وجد فى البيت سلسلة من « الواجبات » يقضّيها . ما تبقى له من الوقت يمضيه بصحبة البنات : بصحبة أوراقهن . شغلةٌ يسيرة ، إلا أنها مملّة فى رتابتها . ولكنها — واعجباه ! لا تبعث عنده إملالا . بل إنه ليُهيب بها : « أم الوليد ، هاتى الأوراق أصحّحها . دعينى أعطى الدرجات لبنياتك . وجدت فى عملك هذا سلوى ! » . ويستضحك ، ثم يشترط عليها شرطًا : « أنا ، فى الليل ، لا أصحح ! » ، فإن السهر عنده أمام « التلفزيون » أمر يسلى ، تزجية طيبة لساعات سأم . « تتركين لى الأوراق على المنضدة هنا ، أصحّحها نهار غد » . لا بأس . وتبسمت فى قرارة نفسها ، وهى تصعد هذا الشارع الفرعى . إنه يمرّ على أوراق تلميذاتها الاثنتين والأربعين فى « سويعة صباح » ، كما يقول . . . لتستردّها منه ظهراً فتحملها رجاء معها إلى المدرسة .

— ماما . اشترى لى كعكة من هذه الكعكات الساخنة ، يا ماما !

دنت وإياها من البائع الصغير :

— خذى لك واحدة ، يا حبيبتى .

* * *

أرسلت علياء ، وهى فى مجلسها ، إلى منضدة المعلمة نظراً خاطفًا :

هى ذى هناك ، رَمَتْها بجوار سجل الدوام ، دون أن يدرى بها أحد !

وفكرت ، والصمت مُطْبِقٌ على قاعة الدرس: سيشفى غِلّها ! ولكن..

واعتصر الحزن فؤادها : الدرجتان فقدتهما على كل حال ، خسرتهما فى أولى جولات هذا الامتحان ، ولسوف تخسر درجات أخرى عداهما، فتتفوق عليها فى الامتحان الأول رجاء بنت المعلمة! و « أسامة » فى البيت ، أخوها أسامة الشيطان ، لن يكفّ عن معاكستها كلما نالت درجة أدنى ! كانت مساء أمس ، فى غم واحد حتّى بلغت البيت . لقد حكت لإخوتها ما نالها من المعلمة من سوء . فوجدت عندهم تعاطفاً طيباً . إن « منيرة » لتتذمّر :

ـ يالطيف ، معلمتكم ما أظلمها !

فكررت شكواها من خلال دموعها :

ـ إنها لا تعدل ، لا تعدل ! ترى الكلمة فى ورقتى خطأ ، وتراها فى ورقة بنتها صحيحة ! وقرر « ودود » الصغير بادى الحزن :

ـ معلمتك ، يا دادا . . . لن تدخل الجنة !

وهتفت « سميرة » فى ارتياح :

ـ الحمد لله أن بنت معلمتى كبيرة ، فى الصف السادس !

ولكن أسامة الشيطان ينصرف ، فى أثناء ذلك ، إلى محفظته ينقب فيها . قرأت ، فى بادئ الأمر ، فى عينيه شماتة صامتة لم يعلنها لسانه ، وقد كان خليقاً به أن يطلقها عالياً وهو « أشطن » شياطين البيت ! تحبّ إخوتها الثمانية ، عداه ، هذا القوىّ السفيه الذى يشتمها ويعبث

بها ويسومها العذاب . إنها تحدث رفيقاتها عنه ، فترثى رفيقاتها لحالها . بتن فى المدرسة يعرفن أخباره وحكاياه . تودّ لو تشكوه إلى أبيها ، ولكن أباها قلما يكون فى البيت حين يوقع أسامة عليها الأذى . تشكوه إلى أمها ، ولكن أمها مشغولة بإخوتها الصغار . وإنها لترد عليها فى ضيق : « اتركيني ، يا علياء ، أما ترين شغلى ؟ تسعة أولاد فى رقبتى » . فإذا أقبلت عليها مرة باكية من صنيع الشيطان بها ، اكتفت بأن ترفع عقيرتها : « أسامة ، يا شيطان ! يا عفريت ! دع علياء وشأنها ! » ، فلا يزيد هذا « التقريع » الشيطان إلا تمادياً ، إنه يقول فى همس : « أوخ ! ماما ما قالت لى أى شىء ! أوخ ! » . تتمنى لو أنها « صبى » ، إذن لكان فى وسعها أن تقدر عليه ، على الرغم من أنه يكبرها بعام . تكرهه . تحب سائر إخوتها وتكرهه . يسميها « الخنفسة » ! لا يناديها إلا بالخنفسة ! إن شاء الله يموت ، لن تحزن عليه مقدار ذرّة !

وأدارت فى وجوه البنات نظراً .

أسامة أخرج من محفظته ورقة ، هى ورقة امتحان الإملاء الذى أجرى فى يومه الماضى . قال لها :

— لتنظرْ عيناك ، إذن يا خنفسة خانم ، إلى ما حصلتُ عليه من الـ . . .

قرأت . إنها عشر !

أعلنت فى حزن :

— وأنا . . . لو كانت المعلمة أنصفتنى ، لكنت أخذت عشراً .



فتصدّى لها بوقاحته التي تعرف :

ـ أنصفتك ما أنصفتك . . . ثمان أنت وأنا عشر . . . أنت ثمان وأنا عشر . . . أنت ثما . . . .

أخذ يكررها . . . فإذا هي ذات « نغم » ! وإذا النغم ينقلب بين شدقيه إلى « أغنية » ! وإذا الأغنية تصاحَب بتصفيق من يديه يصم الأذن ! ثم أخذ يرقص أمام عينيها ، رقصَ وحوش الغابة ! ! وتكاد هي تنشق من الغيظ ، وقد تمثلته شيطانًا حقيقيًّا هذه المرة ، وتمنت لو تنشب أظافرها في قلب عينيه !

قامت باكية إلى أمها . . . فوجدت على ثديها خالدون الصغير يرضع ، مطبقًا جفنيه . وبدلاً من أن تأخذ أمها بناصرها ، صرخت بها :

ـ أيقظت الصبي ، الله يهلك ، أيقظته وأنا طلعت روحي في تنويمه ! (ثم نادت) أسامة ، دع أختك ، وانصرف إلى دروسك ، يا رذيل ! الله يغضب عليك ، إلهي وسيدي ! والله لأشكونّك إلى أبيك ، انتظر !

وإلى متى الانتظار ؟ وماذا في وسع أبيها أن يفعل ؟ يضربه إن فعل . ولكن من ذا الذي يسعه أن يرفع عنها حيفًا وضعته على كتفيها معلمتها : أم رجاء ؟!

بكت طويلا . . .

وعاودها البكاء ساعة أوت إلى فراشها . غم ، ثم غم آخر : المعلمة في المدرسة ، وأخوها في البيت ! لم يكف الشيطان عن تعذيبها طوال السهرة . حتى إذا كفّ ، لم يكن لذلك « النغم » الكريه أن يزايل خاطرها !

نغم أخذ يضرب فى رأسها ، يضرب وسط عالم مشوّش يتراءى لها . . . انقلب النغم إلى ضرب متواتر على طبل كبير . . . وجدت نفسها فى غابة . . . ورأت متوّحشين يدقون الطبول ، يقرعونها بجنون ، فيتردّد فى أرجاء الغابة ذلك النغم ! ورأت وحشاً فى صورة أسد ، يرقص على قرع الطبول . . . كانت تعتلى شجرةً تطلُّ منها على الوحش فى رقصه . . . . لم تحسّ فى صدرها خوفاً أى خوف ، ما أحسّته كان حقداً ، حقداً كبيراً ، أخذ ينمو فى داخلها وينمو ، والوحش يتابع الرقص على قرع الطبول . . . انتزعت من الشجرة التى تعتليها غصناً . . . استلَّتْه . . . نزلت به إلى حيث الوحش يرقص ، فأقعى أمامها راكعاً . . . همت بضربه بما فى يدها ، فازداد الوحش خنوعاً : « أنا عبدك الطيع ! » . . . ولكنها أهوت عليه بالغصن . . . فإذا الغصن فى يدها يستحيل إلى سيف يقطع رأس الوحش فيتدحرج بين قدميها ! وإذا هو رأس . . . أسامة ، أخيها !!! يقول معاتباً : « هكذا ، يا علياء تقتلينى ؟! » . . . وتنهار فوقه تنتحب بصوت قد انطفأ فى حلقها ، فهى — حتى هى — لا تسمعه . . .

وتفيق من نومها مذعورة !

وجافاها ، من ساعتها ، النوم .ظلت فى فراشها ترتعد من الخوف ، وقد تراءى لها أنها أذنبت تجاه أخيها إذ انهالت عليه بالغصن ، وبالسيف ! واستدركت : ولكن الذنب ، آه ، يا ربى ! إنه ذنب المعلمة التى لا تعدل . قتلتُ أخى فى المنام ! ليت المقتول . . . ابنها العليل !

فأخى لم يظلمنى فى المدرسة ، وإنْ سامنى العذاب فى البيت . وخطر لها، مع إطلالة الشمس من شباك غرفتها : ماذا لو كتبتُ إلى المعلمة رسالة ؟ رسالة تعبر عن رأيى فيها ، أضعها فى صندوق البريد ؟ أقول فى مستهلها : « انا لا أحبك يا آنسة . انا (تكتبها بدون همزة!) أنا أكرهك كثيراً » .

راقت لها الفكرة . نعم ،ماذا لو كتبت إلى معلمتها رسالة ؟ تقول فيها : « بنات الصف يكرهنك . كلهن يكرهنك مثلى » ، بل إنهن يكرهنها أكثر منها ! « قتلت أخى من أجلك . . . أنت بتحبي بنتك رجاء وما بتحبينا » . . .

هى ذى الجمل تتوارد على لسانها . هرعت إلى ورقة تدون فيها الكلمات قبل أن تضيع . « تعطى بنتاك العشرات فى الإملاء ،وتعطيننا تسعات وثمانيات وخمسات و . . . . . » . . . . . « قتلت أخى أسامة من أجلك » ! وعاودها الإحساس بالندم ، فخطت يدها : « ابنك إن شاء الله ما يشفى ، إنشاء الله ما يطيب » ! لقد انتقمت . وثنت الورقة ثم تلبثت لحظة : لم يشف غلها . اختتمت الرسالة : « ابنك المريض إنشاء الله يموت » . . . أحست راحة أكبر . وضمتها فى مظروف أبيض .

صحت علياء من خواطرها . وأرسلت من جديد نظرة خاطفة إلى منضدة المعلمة . الرسالة هناك .ستقرؤها المعلمة فور دخولها . لم ترسلها إليها بالبريد . ذلك طريق يطول . ولكن . . . واستشعرت فى داخلها خوفاً : ألم تكن الرسالة قاسية ، تبًّا لها ! إنها لقاسية . لِمَ أضافت العبارة الأخيرة ؟ وتعاظم الوجيب فى صدرها :

أطلت المديرة من باب الصف :

ــ ألم تأت إلفت خانم ؟

ابتهلت ، وهى فى مكمنها : يا ربى ، ليت المديرة لا تلتفت إلى المنضدة !

أجابت العريفة :

ــ كلا ، آنسة .

عادت تتساءل ، فى ندم عظيم : لم كتبتُ الرسالة ؟ حين كانت المديرة تغيب وراء الباب . هل تكره البنات المعلمة ، حقًّا ؟ هل أكرهها أنا ؟ إننى أحبها . والله أحبها . فهى أحلى معلمات المدرسة . ليتنى أستطيع استرداد رسالتى اللعينة . تعذيب أسامة هو الذى ساقنى إلى كتابتها ، والمنامُ الأسود ! المعلمة تحب ابنتها ، وما فى ذلك ؟ أو أن أمى معلمة الصف لأحبتْنى دون البنات . وما فى ذلك؟ ولكن أمى ، واحسرتاه ، تهملنى ! المعلمة تظلمنى : همزتان بدرجتين ! وبنتها تأخذ العشرة كاملة . لماذا ؟ لماذا ؟

* * *

رنتْ إلفت ، من بعيد إلى باب المدرسة الحديدى الكبير : هو ذا يفْغَر فاه لابتلاعها طوال ساعات أربع صباحية ! وفكرت : ما أقسى بُعْدَ الأم عن بيتها عندما يكون طفلها ، وحيدها ، طريح الفراش؟ يُعْنى به . أبوه يعنى به كل ساعتين حبة . وأم سعيد ، الممرضة ، تعطيه الحقنة فى الساعة العاشرة . «مهمتى فى البيت صرْتُ أُتقنها» . يا له من زوج عطوف ! تحبه . يهتم بها وبولديه . يحرص على أن يأخذ

نصيبه من المسئولية كاملا . ويأخذ ، منذ أمسى بلا عمل ، أكثر من نصيبه ، طائعاً مختاراً . هو الآن ، أو بعد قليل . . . وتبسمت بسعادة ، مكب على أوراق الحساب يصححها . إنه ليقرأ : باع فلاح ٩٧ بيضة ، سعر البيضة . . . . هذه المسألة عليها أربع درجات . تستحق منها ، هذه الورقة ، ثلاثًا ، أو درجتين ونصفاً فقط . دقيق فى تقديره . بل إن يده أميل إلى الشدة ! هل تراه يظلمها فى هذا العام ، تلميذاتها ؟ لا بأس ، ما دام يزن أمورهن جميعًا فى ميزان واحد . المساواة فى الظلم عدل . دقيق ونشيط . أوراق أمس تتسلمها منه فى ظهيرة اليوم مع جداول الدرجات ، معدّة للتوزيع . . . لا تحتاج إلى غير قلمها الأحمر ، تمرّ به عليها ورقة ورقة ، لتمهرها بتوقيعها !

وابتلعها الباب الكبير . إنها لتشفق عليه من التعب . ولكنه العزيز ما يفتأ يعلن : « يا ستى ، أقول لك هذا عملٌ يسلينى ، مادمت أؤديه فى النهار . . . إنه لعمل يسلينى ! » .

وصعدت الدرج ، وإلى جوارها بنتها . يسليه ، هكذا يقول . ولكنها تجد نفسها ، برغم كل شىء ، مندفعة إلى مشاركته التصحيح . أوراق الإملاء ، التى وزعتها يوم أمس ، لم تدعه يصححها وحده . لقد حرصت على أن تصحح نصفها فى تلك الليلة ، وأكمل هو النصف الآخر فى ضحى اليوم التالى . وكان من حظها أن مرت بها ورقة . . . سعاد . وفكرت : لابد أن شدّته قد نالت من « حقوق » نصف البنات . واستنقذت هى كامل حقوق النصف الآخر ! بعضهن شكون إليها ،

أمس ، إجحافًا فى تقدير درجات الإملاء ! ثلاث تلميذات أو أربع ، أوه ، حقهن عليها. كان الأولى أن تصحح هى الأوراق كلها ، أو تدعه هو يصححها كلها . من الخير أن توزن أمورهن بيد واحدة :

واجهتها ، فى الصالة ، ساعة الجدار الكبيرة : لقد تأخرتْ دقائق سبعًا . وأعجلت خطاها عبر الصالة نحو صفها. لا جلبة تصدر عن تلميذاتها . عاقلات ، يقدرن دواعى تأخرها .

ولامس سمعها نداء ترسله المديرة خلفها :

— رجاء ، رجاء !

لحظة كانت تجتاز ، هى ، الباب فى دخولها قاعة الدرس :

ارتفع صوت العريفة :

— قيام .

وأشارت لهن بالجلوس .

* * *

سألت المديرة :

— كيف حال أخيك وليد اليوم ؟

أجابت رجاء :

— أحسن قليلا .

— عليه العافية .

— الله يعافيك ، آنسة .

وتراجعت رجاء إلى الوراء خطوتين . ثم استدارت ، وهرعت إلى قاعة الدرس .

نظرت علياء إلى بنت المعلمة فى دخولها القاعة بعد أمها . كان الترقّب قد ملأ فؤادها خوفاً . وفكرت : رجاء أخت وليد . وهى ، فى الصباح ، تمنت الموتَ لوليد ! آه ، كم كانت قاسية ! إن رجاء بنت صالحة . وأمها معلمة طيبة . آه ، يا ربى ، ماذا جنيت ؟ المعلمة تخلع معطفها ، هى ذى ، لم يأنْ لها أن تقع عينها على الرسالة اللعينة . أخوها هو السبب . عذّبها ليلة أمس ، فاندفعت تخطّ هذه الرسالة الحمقاء . ليت الأرض تنشقّ . . . ليت المنضدة تنشق وتبتلع الرسالة . يا ربى ، ماذا فعلت يدى؟ إن المعلمة تقلّب الرسالة فى يدها ! وامتلأ قلبها من جديد رعباً أسود :

عجبت المعلمة من أمر المظروف الملقى على المنضدة . وجدته مغلقاً ، وغفلا من العنوان . فضته بفضول .

علياء ترقب صنيع المعلمة . سلّت المعلمة من داخل المظروف ورقة . التلميذات معلقات الأبصار فى المعلمة ، وهى تقرأ شيئاً ما فى يدها . علياء تحس هوّة فى داخلها تتفتح . محيا المعلمة الجميل يعبس . الهوة فى داخل علياء تتّسع . والعبوس ينتشر فى المحيا الجميل .

رمت المعلمة الرسالة فى غضب . وخبطت بقبضتها المنضدة ، صائحة بصوت لم تألفه هى نفسها من قبل :

— من منكنّ كتبت هذا الكلام ؟ !

لا جواب . صمت غائر ابتلع قاعة الدرس ومن فيها .

— أية لعينة فعلت هذا ؟!

رجاء ، بنت المعلمة ، رأت الغضب يشتعل فى وجه أمها ، فخشيت عليها من فرط الغضب ، وأوشكت أن تبكى خوفًا عليها. وعلياء ، هى أيضًا ، خشيت على المعلمة، ولكنها خافت على نفسها كذلك : لقد أوشكت أن تعلن . . . .

المعلمة تصيح فى هياج :

ـ من القبيحة التى كتبت هذا الكلام القبيح ؟ لتعترف من تلقاء نفسها ، وإلا عاقبتها أشنع عقاب !

أوشكت علياء أن تعلن : أنا . . . أنا . . . يا آنسة . . . أنا أخطأت . . . اغفرى لى . . .

المعلمة تتابع صياحها :

ـ أقول : لتعترف، ذلك خير لها ، وإلا أخرجتها من مقعدها جرًّا . . . وشددتها من شعرها، كالكلبة الجرباء، إلى غرفة المديرة ! يمكننى أن أعرفها من نظرة واحدة !

خاطبت علياء نفسها فى فرق عظيم: يا ربى ! لماذا فعلت ذلك ؟ آه إنها ستعرفنى ؟ هل أعترف ؟ ؟ والهوة فى داخلها أمست، الآن ، هاوية !

أخذت المعلمة الرسالة بعصبية ، تمر عليها شواظ عينيها . وتوقفت :

ـ من منكن لها أخ اسمه . . . أسامة ؟

وأيقنت علياء أنها ساقطة فى الهاوية ، لا محالة .

ارتفع ، من ورائها صوتان أو أكثر :

ـ آنسة ، لعلياء أخ . . . لعلياء أخ اسمه أسامة ... علياء ... علياء . . . علياء . . .

سقطت علياء فى الهاوية .

اتجهت إليها المعلمة :

ـ إذن ، فأنت ؟!!

ـ . . . . . .

ـ أنت ! أنت ! وجهك اللئيم يدل !

فتحت علياء فمها :

ـ إنه أخى . . . هو الـ . . .

المعلمة خرجت عن طورها :

ـ ابنى . . . إن شاء الله ما يشفى ؟ ؟

ـ أسامة . . هو الـ . . .

ـ إن شاء الله ما يطيب ؟ ؟

ـ . . . .

ـ وحيدى وليد إن شاء الله يم . . . ؟ ؟

ـ . . . .

ـ تموتين أنت ، يالئيمة !

أطلّ هنا ، على القاعة وجه المديرة . تلفتت البنات إليه ، وراء الزجاج فى ذعر . وعلياء لمحته أيضًا ، ولكنها لم تتبينه تمامًا . لقد غامت الدنيا فى عينيها ، وثقل رأسها ، ثم . . . سقط إلى الخلف !

المديرة تسأل بصوت اجتهدت أن تجعله خفيضاً :

ـ ما الخبر ، يا إلفت خانم ؟

اتجهت المعلمة بنظرها إليها :

ــ آه ! (وارتجف صوتها) أعلمهن وأشقى ، لتكتب إلى إحداهن . . . (وأحست فى جسمها إعياء) رسالة تلقيها على المنضدة هنا . . . تتمنى فيها الموت . . لطفلى العليل !

قالت المديرة :

ــ هدّئى أعصابك ، يا إلفت خانم . من التى فعلت ؟

لم تجب المعلمة . كان الإعياء قد سرى فى جسمها كله : حين كانت البنات يجبن على سؤال المديرة :

ــ إنها علياء ، يا آنسة . . . علياء . . . علياء . . .

أدارت المديرة عينيها صوب علياء ، فوجدتها . . . وجدت رأسها ملقى إلى خلف ، مستنداً إلى الجدار ، وقد كسا وجهها شحوب أصفر. فما كان منها إلا أن أشارت إلى إحداهن معجلة :

ــ نادى « الآذنة » ، هيا ، هيا !

وصدرت عن تلميذات الصف همسات ، تعالت ، ثم انقلبت إلى صرخات خوف صغيرة :

ــ أغمى عليها . . . علياء . . . أغمى عليها . . .

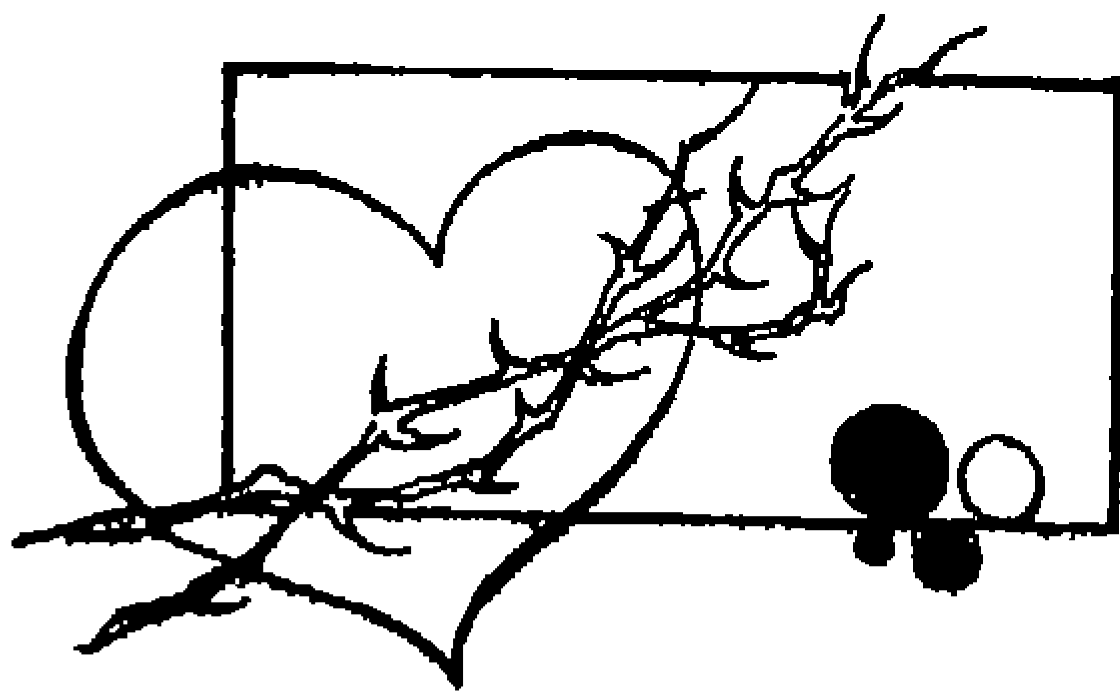
والمعلمة ، هناك . . . تهالكت على الكرسى ،

وقد غسل وجهها فيض من دمع . إنها تشهق وتقول :

ــ ليتنى أموت . . . ليتنى أموت وأستريح !

ثم سقط رأسها ، هى الأخرى ، على المنضدة ، وقد غامت الدنيا فى عينيها :

وقفة على باب الغيب



لم أكد أدخل باب منزلى ، حتى كانت بنتاى الصغريان تتطايران نحوى كفراشتين مسحورتين ، وتتصايحان فى بهجة غامرة :

ــ ماما فى المخاض ! ماما فى المخاض ! . .

وسرعان ما عاودنى مع هــذه البشرى ، قلقٌ بت أعانيه منذ أخذنا أهبتنا لاستقبال وليدنا الجديد . . .

رفعتُ الصغرى بين ذراعىّ ، وانعطفت أقبل خدها ، وأهمس فى أذنها بما جريت على ترديده لها فى الفترة الأخيرة :

ــ لن أحضنك ، بعد اليوم ، يا « إيمان» . فأنت لن تعودى ، منذ الليلة ، صغرى أخواتك ، سنحمل على صدورنا أختك الجديدة : « منتهى » !

كان قد مضى على زواجى ثمانية عشر عامًا ، أنجبت خلالها بنات ثلاثًا ، دون أن أوفق إلى إسعاد الأسرة بأخ صبى واحد !

وبلغنى صوت « بسمة » العاتب :

ــ لا تقل « منتهى » ، يا بابا ! سيبعث الله إلينا بأخ يسعدنا نسميه « تمام » !

وتدفقت فى صدرى موجات من ذلك القلق الحادّ .

ــ لا يهم ، يا بنيتى ، إن جاءتنا منتهى ، أو أقبل تمام. المهم أن تضبع لملك بالسلامة .

كنا قد كففنا ، منذ سنوات عشر ، عن إنجاب الذرية ، مخافة أن يتجدد إخفاقنا فى تقديم الوليد المرغوب لأخوات قد أضنتهن الأشواقُ

لاستجلاء طلعته البهية .

تسربت إيمان من بين ذراعى ، لاحقة بأختها . حين كانت ابنتى الكبرى ، تطل على لتخبرنى :

ــ توجعت أمى منذ ساعة ، فأسرعت أهتف إلى القابلة .

تمتمت ، وأنا غارق فى تأملاتى :

ــ حسناً فعلت يا ابنتى .

ــ وهى الآن فى طريقها إلينا .

أطريت همتها :

ــ أنت ، الليلة ، سيدة البيت ، يا « أمل » .

واجترت الباب إلى حيث الأم فى سريرها ، وقد أحاطت بها : بسمة وإيمان ، عن يمين ويسار .

ــ كيف حالك ، يا « أم أمل » ؟

رنت إلىّ ، ترد تحيتى بابتسامة شاحبة .

ــ شدّى عزائمك ، يا أم البنات الحلوات . وامنحينا ، الليلة ، بنتنا الظريفة الرابعة . سنكون بها سعداء جداً .

فأغضتْ بناظريها ، وهى تكتم توجعاً تحرك فى أحشائها . حين انحنت عليها بسمة ، تقبل بطنها من فوق اللحاف ، ثم تدعو برجاء حار :

إن شاء الله يأتينا تمام، يا ربى ! نحن بحاجة إلى أخ ! يكفى أننا ثلاث بنات .

وأفعم هذا الدعاء الواله قلبى حزناً وخوفاً : ما يكون حالهن إن بلغ

عددهن ، آخر هذا اليوم ، أربعًا ؟!

ولحقت بنا أمل ، لتطرح ما بين يديها على السرير : ملابس الوليد المنتظر . فاندفعت الصغيرتان تنقبان فيها ، وقد علت منهما أصوات الفرح . هى ذى إيمان تأخذ أحدها ، لتنشره على صدرها ، هاتفة بشوق يذكو فى عينيها :

ـ بعد ساعة . . . يلبس أخونا قميصه هذا !

وتضيف بسمة ، مادة ذراعها بمرْط طويل :

ـ وتزنّره القابلة بهذا الزنّار !

أسرعت أمل إلى زجرهما :

ـ اتركا « الديّارة » . لا تعبثا بها ، أقول لكما !

فكرت : وأية سعادة جدير بها أن تغمر قلوب أفراد الأسرة ، إذا ما استجاب القدر ، أخيراً ، فوافانا بتمام ؟ !

وحدقت بزوجتى ، التى تتوجع فى صمت : بدا لى القلق ، الذى أعانيه ، ماثلا فى قلب عينيها ولـــكنه عندها مشوب بما يخيل إلى أنه توسل و رجاء .

* * *

انطلقت إلى حديقة المنزل . كان القمر البدر يسهيل ضوءه على أزهار الحديقة وأشجارها والبركة الرخامية . وكان يرين سكون فى هدأة الليل. أى تعلق ، تشهد عيناى فى بناتى ، بأخ لهن يضفى على الأسرة جوًّا من السعادة الحقيقية !

اقتعدت حافة البركة : أنا سعيد ببناتى الثلاث سعادةً لا حدَّ لها :
هنَّ صديقاتى ، وأنا لهن الأخ الأكبر . تزوجت فى سن مبكرة ،
وأنجبتهنَّ على مدى ثمانى سنوات . شببن عن الطوق ، وكبرتُ معهنَّ
ولكنى ما كبرت على صداقتهن . لم يخامرنى قلق من تواردهنَّ واحدة
بعد الأخرى (بعد أمل بسنوات خمس وَلدت لنا بسمة ، ووافتنا إيمان بعد
عامين اثنين) . . . ولكنَّ « للمجتمع » رأياً آخر : كان بعض أصدقائى
يغدقون على عطفاً ورثاء ، هما عندى أشدُّ مضاضة وأقسى من عذاب
النار . تأخر مخاض اليوم أسبوعين عما قدر له من موعد . بعضهم يسألنى :

ــ وأين مولودكم الجديد ؟ نراه قد تأخر !

فأجيب مصطنعاً نوعاً من الدعابة :

ــ والله ، لقد وصلتنا منه « برقية » روحية تقول إنه قد أجل قدومه
حتى الشهر القادم ! !

ويتضاحك الصحاب ، قبل أن ينبرى أحدهم « مطيباً خاطرى » :

ــ فى علمى أن الجنين إذا أطال فى بطن أمه . . . فهو الصبى ، لا محالة !

ويتولى عنى الجواب من يحمل وجهة نظرى :

ــ إن الصبيّ والبنت فى هذا الزمان ، صنوان : يدرسان معاً ،
يعملان ، يبرعان ، ينبغان . . والمجتمع الجديد يتيح الفرصة لهما بمقدار واحد !

وههنا ألمح البسمات الصغيرة ، الخبيثة ، تترى من زوايا الشفاه :

ــ الحقيقة : ليس من عنده الصبيان والشباب ، كالذى خلّف البنات !

وأجدنى مندفعاً إلى حسم الحوار بدعابة من عندى :

ـ أنا ، يا إخوان ، مَن نوع من الرجال لا ينجب سوى البنات (أو « أفلسف » الأمر على نحو آخر) إن إنجاب الرجل ذرية من البنات هو أصعب من إنجابه الذكور . . . لأنك ، فى إنجابك البنات ، تخرج ، أنت الرجل ، من صلبك ، ما ليس من جنسك !

ثم أراهم يقهقهون « للنكتة » . . . حتى ليستلقوا على أقفيتهم !!!

* * *

صحوت من أفكارى على جرس الباب يرنّ . إنها القابلة . هى ذى تحمل حقيبتها فى يدها . شابة فى نحو الثلاثين ، عزباء ، وديعة ومرحة ومتدينة :

غابت فى البيت :

ولم ألبث طويلا حتى لحقت بها ، أسألها :

ـ متى الولادة ، فيما تقدرين ، يا آنسة « نَبْهَلة » ؟

كان عقربا الساعة يشيران إلى العاشرة والنصف .

ـ بعد منتصف الليل ، إن أراد الله .

وبناتى الثلاث متحلقات حولها ، يوسعنها نظراً يرشح أملا ورجاء .

أعلنت إيمان الصغيرة فرحة ، وهى التى تتميز بعنادها :

ـ لسوف أسهر إلى ما بعد منتصف الليل !

وأيدتْها بسمة ، المعروفة بغرامها بالنوم :

ـ وسأسهر معك . لأكون فى استقبال أخى تمام لحظة ولادته !

وعدت إلى الحديقة ، أمشى الهوينا . وملت إلى حوض القرنفل

أقطف زهرة. كانت تغتسل بضوء القمر . أدنيتها من أنفي ، وعببتُ من أريجها ما ملأ صدري . كم بذلت جهداً في رعاية الحديقة وأزهارها وأشجارها ! وكم تعبتْ بنياتي في سقاية أحواضها وغسل بلاطها ! بعد منتصف الليل ، سينضاف إلى أسرتي عضو جديد ، يأخذ دوره في خدمة الحديقة : إن جاءت منتهى انضمت إلى أخواتها . . . فإن أقبل تمام عهدت إليه برعاية الشتول التي أغرسها ، فيتولى توثيقها بخيطان ، حماية لها من أن تستلقي فروعها على التراب ، فيأتي الماء والطين على أزهارها . قبل أيام وجدتني أشكو لأم أمل ، وأنا أقيم الشتول على عيدان القصب : « لم يعد جسمي يطيق الانحناء ، يا أم البنات الحلوات ! » . . . أجابتني وهي عاكفة على خياطة ثوب صغير لمولودنا المنتظر : « قريباً يأتيك ابنك ، فيأخذ عنك القيام بهذا العبء! » ، وأومض في عينيها بريقٌ أفسح لخاطري عالماً من الأمل والتأمل !

تلقطت أذني همساً يدور وراء الباب :

ــ نحن ثلاث بنات . . . يا ترى : هل نصبح ، الليلة ، أربعاً ؟ أم نظلُّ ثلاثاً ويكون تمام رابعنا ؟

كانت تلك إيمان الحريصة على السهر . وبسمة تحاورها في ابتهال :

ــ يا ربي ، يا ربي ، يأتينا صبي نسميه تمام !

ناديتهما :

ــ إيمان ! بسمة !

ــ نعم ، يا بابا .

ــ ألن تتوجها إلى غرفتكما ، فترقدا ؟

ـ سنسهر . . . حتى نرى أخانا تمام !

أشفقت على الصغيرتين :

ـ بل يحسن أن تذهبا إلى النوم ، يا حبيبتىّ . فربما تأخرت الولادة حتى الفجر .

أعلنتا بلسان واحد :

ـ نسهر . . . حتى الفجر !!

* * *

تصاعدت أصوات الطلق . وتسرّبت إلىّ عبر نافذة الغرفة المطلة على الحديقة . حين أقبلت ابنتى الكبرى تدعونى إلى العشاء .

قلت لها :

ـ لا أحسُّ جوعًا يا أمل . اهتمى بأمك يا بنيتى .

إنها اليـوم فى ربيعها السابع عشر . صبية واعيـة ، تنهض بالعناية بأمها ، فى هذه الليلة الحاسمة ! وتبسمت بمرارة ، وأنا أستحضر فى خاطرى صورتها يوم ولادة أختها إيمان ، وقد تسمرت فى باب الغرفة فى المستشفى، ترفض أن تنظر إلى الوليد الجديدة ، وتدق ـ فى احتجاجها ـ الأرض بقدمها الصغيرة ، وهى تعلن من خلال نحيبها : « لا ، لن أدخل ! لم أعد أريد أخوات ! لِمَ لم تأت أمى لنا بأخ ؟! » ! . . .فهل تصنع الصغيرتان الليلة إذا فوجئتا بأخت رابعة ، صنيع أختهما بالأمس البعيد ؟!

وانبعثت من الغرفة صرخة أشـدّ ! فقمت فى قلق أجوس الحديقة ، وأنا عاقد ذراعى على صدرى .

مشيت خطوتين . ولكنى لم ألبث حتى نكصت ، وأطللت من وراء النافذة :

ـ هل من مساعدة أسديها يا بنتى يا أمل ؟

هرعت ابنتى ، متنشطة ، إلى النافذة تفتح مصراعها :

ـ شكراً يا أبى .

فسألت القابلة :

ـ أين وصلنا ، يا آنسة نهلة ؟

أجابتنى ، وهى مشمرة عن ساعديها :

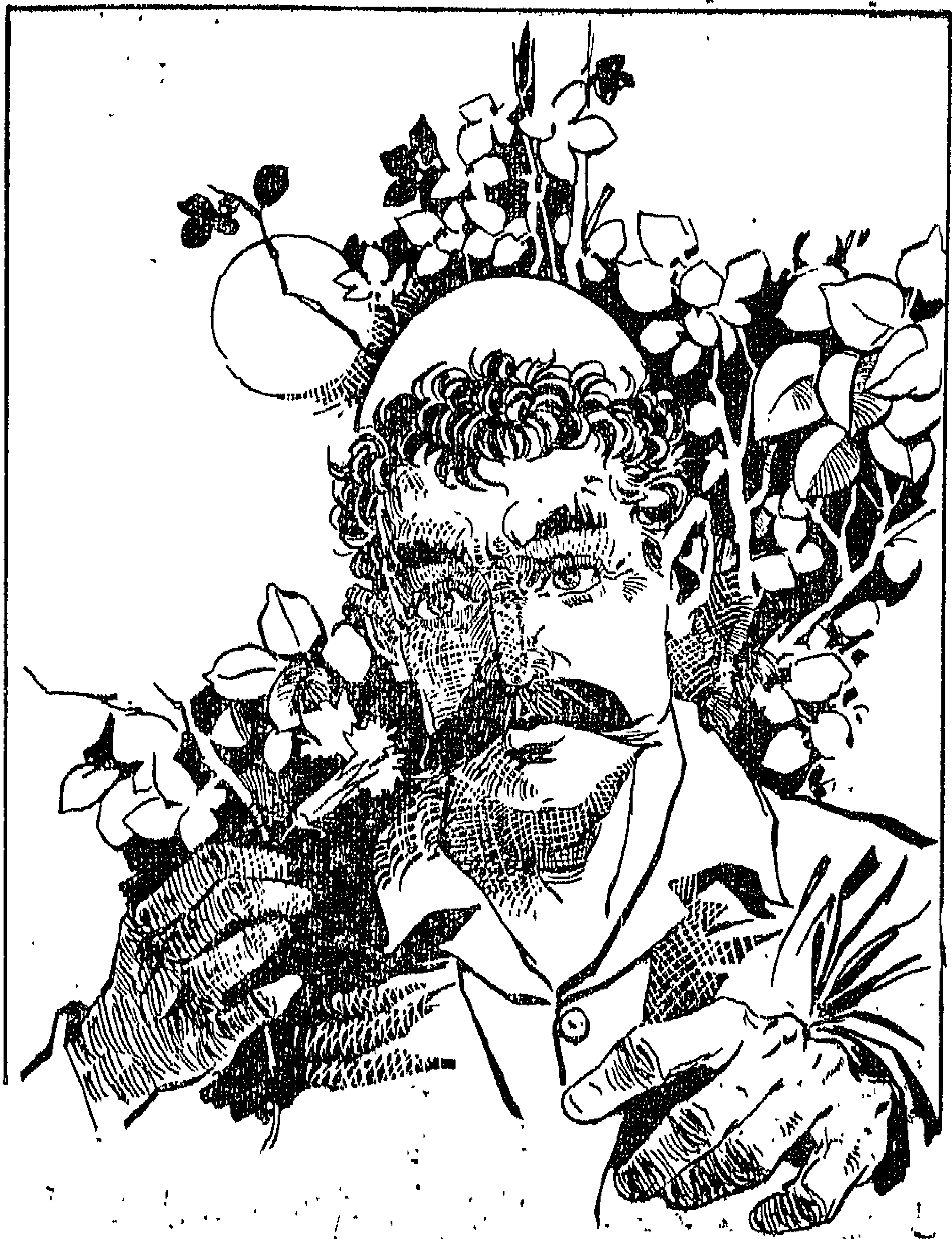
ـ أقلّ من ساعة ، وينتهى كل شىء بالسلامة .

فأضفى ردّها على قلبى راحة .

وأعليت من صوتى :

ـ كل ما أترجاه ، يا حبيبة ، أن تضعى حملك بالسلامة .

وعدت إلى تأملاتى فى ضوء القمر : ما ضرّ لو أن الله منحنا صبياً يكون أخاً لأمل وبسمة وإيمان ؟ إن حنينى ، يارب إلى الصبىّ ليملأ خافقى ، فى وقفتى هذه الواجفة على باب الغيب . بودّى أن يكون لى أخيراً ابن . . طفل ينمو ويكبر وأصحبه فى زياراتى إلى الأصدقاء . فى نفسى أن أراه يدخل إلىّ ، فى زيارة أحدهم لبيتى ، مقدماً إليه وإلى فنجان القهوة . أشتاق أن أراه يسير برفقتى وأنا متوجه إلى السوق لأتبضّع حاجاتنا المنزلية : يمسك معى « الشبكة » الطافحة بمحتوياتها فأوهمه بأنه « يعاوننى » فى حملها ، بينا هو يثقلها بما يزيد على وزن



ساعده الصغير البضّ ! لسوف أشترى له شبكة من نيلون صغيرة ، أضع له فيها برتقالة ويوسفيتين وثلاث جزرات ، فيمشى إلى جوارى مزهوًّا ، وقد ملكه إحساس بأنه يبذل جهداً فى معاونة أبيه . ولكنه ما يلبث حتى يعان : « بابا ! تعبتُ! » . . . فأتوقف لأخفف عنه ما ناء به ساعده الصغير ! يا عينى عليك ، يا تمام ! لماذا تأخرت ، يا ولدى ، ياحبيبى ؟

انطلقت ، عبر النافذة ، صرخة بلغت مسمعى ، وأنا فى أقصى الحديقة . أيكون هو من يدق ، الآن . أبواب دنيانا هذا الدقّ العنيف ! ؟

اقتربت ، مرهف السمع :

طلقة أخرى أشد وأمضى !

والقابلة ، فى انهماكها ، تنادى ، تتضرّع :

— يا الله ! يا الله ! يا معين !

وانطفأت الطلقة دفعة واحدة . حبست أنفاسى : ولكن بكاء الطفل لم يَعْلُ ! صمتٌ مطبقٌ يمسك بخناقى !

كنا قد دأبنا ، من قبل ، على أن تكون الولادة فى المستشفى. ولكن أم البنات الخلوات أصرت ، هذه المرة ، على أن تستقبل وليدها الجديد فى البيت ، مثلما رغبتْ فى ألا يشاركها ، لحظتها الحرجة ، أىٌّ من القريبات أو الصويحبات . لقد حرصت على أن تغير المكان ، وتحتجب عن الوجوه التى ألفناها فى الولادات التى سبقت .. فلعل الحظّ يتغيرّ ، لعله !

* * *

تلاحقت الطلقات ، واشتدّت عزماً .

والقابلة تهتف :

ـ هيّا اضغطي . . . اضغطي أكثر . . . يا الله ! يا الله !

وأنا وراء النافذة أمسك أنفاسي .

أي عذاب يجري في بيتي ! والقمر مال إلى المغيب ، والفجر يوشك أن يسفر .

طلقة جديدة أشد مضاء .

ـ يا الله ! يا معين ! . .

وتنطفئ .

ولا بكاء !

وينفطر قلبي ، وأنا أتنصّت . ما هذا العذاب المقيم ! أفعم صدري ، بغتة ، خوف ما ، خوف من مجهول ! أنا الذي كنت ، طوال الساعات التي مضت ، أحلم بالصبي يزرع القرنفل ، ويحمل الشبكة الصغيرة ، ويقدم القهوة إلى ضيوفي !! ماذا لو وقع ، الآن ، تحت سمعي وبصري ، ما ليس في الحسبان ؟! ركبني غم مريع . هتفتُ بلهفاتي كلها : أريد الوضع أن يتم ! في نفسي أن أسمع بكاءها : بكاء منتهى ، إيذاناً بالخلاص من هذا العذاب . ستنتظمين ، يا بنيّتي ، عقداً من شقيقات لك ثلاث أحبهنّ . لسوف تنالين من حبي قدْراً أعظم .

صوت القابلة يرتفع مجهداً :

ـ هذه آخر طلقة . اضغطي بكل قوتك . يا مهوّن ! يا معين !

مزّقت الصرخةُ سكون الليل ، حتى نخلتها بلغت سمع القمر الذى غاب .

وساد صمت : ثوان خمس. . . عشر . . . دهرٌ طويل !

وانفجر بكاء الوليد. . . .

نأيت بنفسي عن النافذة . لم تعد بى طاقة على الوقوف . تهاويت على حافة البركة .

كان قد ارتفع فى تلك اللحظة ، اسم الله تردده المآذن القريبة .

ــ الله أكبر . الله أكبر .

أحسست بمآقى وقد أترعت دمعًا .

انهمرت دموعى ، سعيداً بالولادة أنْ تمت .

ــ حمداً لك ، يارب ، يا من يتردد اسمك فى هدأة الفجر .

خطوات عجلى تقترب .

خجلت من دموعى تشهدها ابنتى . ألْفتنى ، فى موضعى ، معتمداً وجهى بين راحتى . وقفتْ متهيبة لحظة . ربتت كتفى . همست :

ــ أمى ولدت ، يا أبى .

وانتظرت أن أسألها ، لهيفًا ، عما وضعت أمها . ولكنى لبثت صامتًا أكفكف خفيةً دمعاتى ببنانى .

انحنتْ تعانقنى . وبصوت راعش أعلنتْ ، وما كان فى وسعها أن تظلَّ معتصمة بالصمت :

ــ ولدت أمى أخانا تمام ، يا أبى !

وداريت ارتعاشاً فى صوتى :

ــ سيان ، يا ابنتى . . أن يكون الوليد ذكراً أم أنثى . . . المهم عندى سلامة أمك .

لثمتْ أمل خدّى ، فأحسست فى وجهها بللا .

* * *

وجدتنى ، مع غبشات الصبح الوليد ، رجلاً آخر : أبا لأربعة فيهم صبى ، أنا فى طريقى إلى « التعرف » إليه .

اطرحت ، بعيداً ، قلقى العظيم ، حزنى ، خوفى ، اغتمامى. . . ونهضت صوب النافذة .

ومن وراء زجاجها أبصرته. ، موسداً فوق حشية ــ يا عينى عليه !ــ وقد لفّع بدثار .

هتفت بينى وبين نفسى : هو ذا تمام المجيد ، الذى انتظرته الأسرة ، طوال ثمانية عشر عاماً ! إنه يمتص سبابة يسراه ، ويدفع بقبضته اليمنى الصغيرة فى الهواء ما أحلاه : نهم ، وقوى مجالد !

والقابلة ، التى غابت عن ناظرى ، تتابع مهمتها .

تراجعت خطوتين .

قلبى يفيض حبوراً . لقد تفجر عندى فرح كان قبل مكتما ! أحس سعادتى الأسرية قد اكتملت من بعد نقصان طال أمده ! آه، ما أسعدنا به ! ما أسعد الصغيرتين ! لقد أرهقهما السهر ، حتى لم تعودا تقويان على

مغالبة النعاس ، فنهدتا إلى النوم .

اقتربت من حوض القرنفل ، وجاوزته إلى حوض المنثور ، متابعًا سيرى إلى حيث شجرة الكبّاد . . . ولكن نفسى لم تطاوعنى على الابتعاد . أودأن أشهد وليدى الرائع عن كثب .

ارتددت إلى الغرفة .

نقرت الباب بأصبعى . فردت القابلة بصوت قوىّ واثق :

– تفضل !

رأيت الصبي محمولا على كفّيها فوق الطّسْت . وأمل تصبُّ عليه الماء الفاتر من إبريق . . وهو ممعن فى صمته ، يتقبل راضياً ما شاءت دنيانا أن تفرض عليه من طقوس أولية !

انحنيت على الوالدة المجهدة ، ألثم جبينها المتعرق :

– حمداً لله على سلامتك ، يا . . . « أم تمّام » !

رفعت إلىّ عينين مكدودتين . ولكن نشوة من الظفر والانتصار كانت تشرق فى وجهها . وأحسستنى ، الآن ، أكثر قربًا إليها من أية لحظة سبقت !

– تهيّئى ، يا حبيبة ، لتضعى لتمام أخًا .

فأغمضت ، من جُهْد ، طرْفها .

واحتجت القابلة الشابة ، بصوت يفيض حيوية :

– إنها لم تنس آلام الولادة بعد !

وقد أخذت تلف جسد الوليد بمنشفة .

— الشكر لك على عنايتك ، يا آنسة نهلة . لطالما رددت «أم تمام» أن يديك لا تتلقيان غير الصبيان . الآن عرفت لم أصّرت على الولادة في البيت على يديك !

أشرق صوتها ، وهي تمعن في الجسد الورديّ تنشيفاً :

— هذا من فضل ربي :

وددت أن أهيب بها ، وهي تفرك جسد الصغير : رويدك ، لا تقسى على الصبي !

— تهيئى ، إذن ، لكى تستقبلى فى مثل هذا اليوم من العام القادم وليدنا الآخر !

وأمل توسلت بصوت واجف :

— بابا ! أرجوك . يكفينا تمام العزيز .

فطنتُ :

— آن للصبيتين أن تنهضا .

أعلنت أمل ، وهي تدفع بالقميص إلى القابلة :

— إنهما تغطان فى النوم . من يقدر على إيقاظهما فى هذه الساعة ؟

— أهذا ظنك ؟ حسن .

وسعيت إليهما :

وعلى سرير إيمان انعطفت أهمس :

— إيمان ! اصحى ، يا بابا !

وهى غارقة فى أحلامها .

ــ أمك ولدت يا إيمان . ألا تستيقظين يا حبيبتى ؟

فتحت الحمامة الصغيرة عينيها . وفى صوت مثقل بالنعاس قالت :

ــ تمزح ! أنت تمزح ، يا بابا !

ــ لا مزاح فى هذا ، يا بنيّتى .

فهتفت بلهفة ، وقد فارقها نعاسها :

ــ وَلَدَتْ أمى ؟ ماذا ولدت ؟ !

ــ تمام ! جاءنا تمام ، أخيراً !

اندفعت الصغيرة ، التى أضناها انتظار أخيها ، تعانقنى . ثم قفزت ، مثل رشأ ، من سريرها وبينما هى تبحث بقدميها عن خفّيها . . . رأيت — يا لعجبي ! — بسمة التوءم ، تدلى هى الأخرى ساقاً ، ثم ساقاً ، بحثاً عن . . . . .

هرعتا إلى حيث الوليد الذى اكتسى ، الآن ، نصفه الأعلى . قلت:

ــ هذا أخوكما تمام . عمره ، الآن . . . خمس وعشرون دقيقة ؛ تعرّفا إليه جيداً .

حوّمت الصغيرتان حوله تعاينان ، بنظراتهما اللهيفة ، موضعاً من جسمه لم يزل عارياً . وإذ أبصرتا ، تدافعتا نحو أمهما ، تعانقانها ، وتصرخان كمن مسّه جنون :

ــ تمام ! تمام ! جاءنا تمام !

شكرت بسمة ربّها :

ـ الحمد لله أننا لم نصبح أربعاً !

وإيمان وعدت :

ـ لسوف أخبر صديقاتى ، فى الصباح أن جاءنا أخ !

* * *

صباحاً ، وأنا فى طريقى إلى عملى ، أخذت أحلم بأن « تمام » قد شبّ عن الطوق . . . فهو يرافقنى إلى السوق ، ويطالبنى ، مرةً بعد مرة ، بأن أجعل فى شبكته مقادير أكبر من المشتّريات !

وتصوّرته ، وهو يشدّ محفظته الجلدية الصغيرة ، العامرة بالكتب ، إلى ظهره ، ماضياً إلى مدرسته مع باكر الصباح !

وفى عين الخيال رأيته يعاوننى فى توثيق شتول القرنفل والمنثور . . ويتسلق ، بحذر ذكى : شجرة الكباد ليقطف منها ثمرات تستصنع مربّى للأسرة .

وإنه ليساعد ، فى غمرة نشاطه ، أخواته الثلاث فى سقيا أحواض الحديقة ، وفى رش زرعها وأشجارها . . . ولكن شيطان العبث يغريه ، أحياناً ، فيسلط خرطوم الماء على أخواته ، وعلى المارة فى الشارع . . . فيبل ، ويؤذى ، ويبعث على الاحتجاج ! وأجدنى أنصحه فى المساء: « لا ، يا تمام ! هذا صنيع لا يليق بصبى مهذب مثلك » ! . فيغضى استحياء !

وأكدت عزمى : لن أعامله معاملة الابن الوحيد ، خشية أن يفسده الدلال . لسوف أحرص على أن أصحبه إلى السينما وإلى الملعب والمسبح : سأكون

له صديقاً ، كما كنت لأخواته . ولكن أى بون ! أربعون ، إنها أربعون من الأعوام ! لا بد من أن نسرع فى إنجاب أخ له ، صديق ، فى عامنا الآتى !

* * *

سألنى زملاء العمل عما إذا كانت شريكة العمر قد . . .

فأجبت أن نعم .

فبادروا يستفسرون فى فضول :

ـ حنطة ؟ أم شعير ؟

ـ جاء تمام !

بعضهم أعلن فى فرحة :

ـ ألم نقل لك : إن البطن التى تعطى بناتاً ، لا تبخل بالصبىّ !

* * *

هتفت ، فى الضحى إلى بيتى :

ـ كيف حالك ، يا « أم تمام » ؟

جاءنى منها صوت واهن :

ـ الحمد لله .

ـ وكيف حال تمام ؟

ـ إنه يبكى . . . ما يفتأ يبكى !

سألت فى قلق :

ـ ولِمَه ؟

— إنه جائع ، ولا يقنع بماء الزهر المحلّى .

— ولم لا ترضعينه ؟

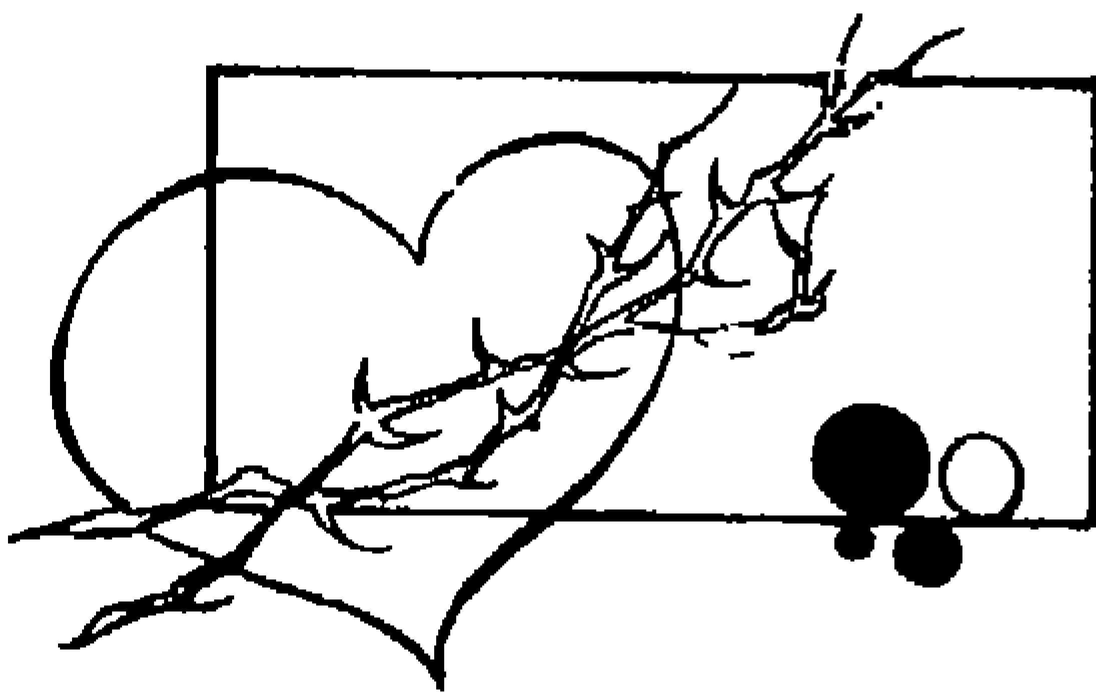
— لم يدرّ الحليب ، بعد .

وترامى إلى سمعى ، عبر خط الهاتف ، بكاؤه : كان بكاء صارخًا ، احتجاجًا قويًّا ، من إنسان يحس جوعًا ، ويطالب بحقه فى الغذاء ، وفى الحياة .

وحدّثت نفسى ، وأنا أعيد سماعة الهاتف إلى موضعها : هو ذا عضو فى أسرتنا جديد ، ينزل إلى معترك الحياة !

وقطع علىّ وحدتى أن أخذ الزملاء والأصدقاء يتوافدون إلىّ ، مهنئين ، مطالبين بالحلوى .

همـوم كبـيرة



لم يكد « خلدون » يضع المشط من يده ، حتّى تلقّطت أذنه رنين جرس الباب ، فتساءل من هذا الذى يجىء فى ساعة القيلولة هذه ؟ وألقى نظرة على نفسه . قبل أن ينسحب من أمام المرآة : الشعر قد صفف بعناية ، ولكن الصدر عار إلا من قميص « الفانيلّة » . . . ومضى نحو الباب : لعله أجير الكوّاء جاء يطرق بابنا ، والأهل مازالوا نياماً .

صاح بصوت جهير لم يُخْنَ بتلطيفه :

ــ نعم ؟ (ويده على مقبض الباب) مين ؟! . .

فطالعه محيّا تلك الغادة اللطيفة ، الذى طالما ارتسم فى خاطره ، وإلى جوارها ظهرت أختها الحلوة الآسرة !

أحس أنه يذوب خجلا ، وهو فى « بنطال » المنامة وقميص الفانيلة الكاشف عن صدره والزندين ! أغضى لحظة ثم رفع رأسه مرحباً بصوت حرص أن يجعله رقيقاً هادئاً :

ــ أهلا وسهلا . تفضّلوا .

فاتحًا لهما مصراع الباب على آخره ، مرتدًّا ، وهو فى البهو أمامهما ، بخطوات مضطربة ، نحو الصالون ، ففتح لهما بابه ، وهو ما يزال مغضياً بناظريه . حتّى إذا دخلتا ، استأذنهما بالصوت الرقيق ذاته :

ــ عفواً ، لحظة واحدة ، ربّما أدعو لكما « باسمة » !

ومضى نحو غرفة أخته ، محدثًا نفسه بمرارة : يا لحظى النكد ! لو أنهما تأخرتا فى مجيئهما دقائق معدودات ، إذن لكنت فى أكمل هندام !

أو ليتني نهضت من سريري قبيل دقائق ! ولكن . . . ما بال أختي في غرفتها لم تبرز إلى ضيفتيها ؟ واعتصر الغم قلبه : أختي باسمة ، إنها علتي ، وأصل متاعبي ! . . .

نقر باب غرفتها ، مناديًا برفق :

ـ باسمة !

لم يتلق جوابًا . فكر في غضب كظيم : أنا لست مكلفًا بفتح الباب لصديقاتها ، واستقبالهن ، ثم أترفق في إيقاظها ! لتقم هي ، حضرتها ، تفتح وتستقبل ! ولكن سرعان ما أخذ يفكر بحنان : لو أنها تظل ، الآن ، غارقة في نومها ! لو أني في بدلتي ! وأطلق آهة حرى : كنت أمضيت معهما لحظات طيبات ، آه ، وملأت صدر أختي غيظا وقهراً !

عاد ينقر الباب بأصبعه ، مترفقا :

ـ باسمة ! باسمة ! . . .

فترامى إلى سمعه صوتٌ خمول :

ـ نعم . . . !! (ثم في ضيق) ماذا تريد ؟!

فأطل عليها :

ـ ماذا أريد ؟ أليس بينك وبين بعضهن موعد ، يا فهيمة ؟!

فتفكرت أخته لحظة ، رفست بعدها الغطاء جانبًا :

ـ يا لي من غبية ! إنهما « كوثر » و « غالية » . يا لله ! أخذني النوم .

فتهكم بها :

ـ معلوم ! الصديقات لك ، وأقوم أنا بواجب استقبالهنّ ! « تشريفاتي »

عند حضرتك ، يا خانم !

رقّ صوتها ، وقد غدت فى وسط الغرفة :

ـــ وأين هما ، يا خلدون ؟

ـــ وأين تكونان ؟ قد أدخلتهما الصالون ، فهما تنتظران مقدمك الكريم !

فسألته ، وهى فى الباب :

ـــ وهل استقبلتهما ، وأنت فى هذا الـ . . . منظر » ؟

ـــ نعم ستى ، متُّ خجلاً ! انبسطى !

قالت تعتذر ، وهى فى البهو :

ـــ آسفة . يا خلدون . أشكرك على عنايتك باستقبال صديقتىّ !

واتجهت إلى حيث المغسلة . . .

* * *

وقف خلدون أمام المرآة فى غرفته : الماكرة ، تبدى لى أسفها ، وتشكرنى ! هى سعيدة ، لا شك ، لأنى بدوت لعينيها وأنا فى بنطال المنامة والفانيلة ! ذلك ما يؤكد لها أنى لم أجالس صديقتيها لحظة واحدة ! باسمة علىّ ! إنها تجلب لى المتاعب ، تكيد لى ، تنتصر على أبداً ! . . . وما كان هذا ليتحقق لها ، لولا أن أمى تشد من أزرها على الدوام :

ـــ خلدون ! تعال إلىّ ، يا خلدون ! . .

كم من محاولة رغب فيها أن يجالس الزائرات من أترابها ، ساعة ، دقائق لحظات وجيزات ! يحس فى نفسه ميلا إليهن ، ميلاً جارفاً . . . يتوق إلى أن يتطلع إليهن : أن يصغى ، يبادلهن الحديث . . . ولكن أخته

تأبى عليه ذلك ، تسلبه كل فرصة تجود بها الظروف . تبدأ أولاً ، إذا ماواتته السانحة ، بأن ترمقه بنظرة من جانب عينيها ، معناها : «دعنى ، يا خلدون ، أنا وصديقتى . . . أنا وصديقاتى . . أنت أمسيت رجلا ، ونحن بنات!» . نظرة بات يفهم جيداً ما تحمل فى طياتها . مضى يستجيب لها . بادئ الأمر ، فيغادر الغرفة مرغما ! ولكنها أمعنت ، فلم يعد يستجيب ، ذلك يضيع عليه الفرص الذهبية . فأمست تصارحه :

ــ خلدون ! دعنا ، يا خلدون . بيننا حديث بنات ، لا يحسن أن تستمع إليه !

وأحيانًا تغلو فى مصارحته : على مسمع من صديقاتها :

ــ لا تتطفل علينا . يا خلدون ! نحن بنات ، وأنت صبىّ !

فيضطر ، مع هذا الإحراج العلنى . إلى أن ينسحب من بينهن ، خجلان خزيان . ولكنه ــ كذلك ــ أخذ يتمرد عليها ، متهكمًا بها :

ــ وأية أسرار سخيفة تلك التى تريدين أن تفرغيها فى الآذان ؟ !

فإذا هى تستعين بأمها . شدّ ما يغيظنى من أختى أن تستعين علىّ بأمى . إنها بذلك نبرهن على أنها من جنس ضعيف . بنات جنسها حلوات ، ظريفات ، عذبات . ولكنهن سرعان ما يظهرن ضعفًا ، لا يثبتن أمام قوة ، لا يبدين مقاومة ، ما يحنقنى أن أختى لا تتصرف بمنطق وإلا ما معنى أن تصر ، فى تلك اللحظات ، على أن تصارح صويحباتها بحديث مما لا يحسن أن يستمع أخ إليه ! ؟ لم لا تفضى إليهن بأسرارها حين لا أكون بينهن ، فتدعنى بصحبتهن دقائق ،

لحظات ؟! كم هى قاسية ! أنانية ! غيور ! سخيفة ! : : :

وأمى — لله درّها ! — ما تفتأ تشد من أزرها :

— خلدون ! عندما تكون صديقات أختك فى زيارتها ، فليس لك أن تفرض نفسك عليهن !

ولكن من زعم أنى أفرض نفسى ؟ إنهن يرحّبن بوجودى . أنا لا أسبب لهن إزعاجًا . أنا أسليهن بطريف نوادرى ، أمتعهن . يرنحن لى ، تشع البسمات فى الثغور ، فى الأحداق . لكن باسمة . . . تغار ، تغار ، تغار !

تلقطت أذناه وقع خطواتها فى البهو . قد أتمت لبسها : فهى ، الآن ، تتوجّه إلى صديقتيها اللطيفتين

أصاخ السمع ، تنقر على الباب .

صياحهن ، الثلاث ، يتعالى :

— أهلين وسهلين . . . كوثر ، غالية . . . باسمة !

ما أعذب صياحهن ، وما يثرن من ضجيج ! ما أحبهن إلى القلوب ! لم تقسو أختى علىّ ، فتحرمنى من مجالستهن ومؤانستهن ؟! أهى تعاملنى بالمثل ؟ أنا ، حقًّا ، أحس غيرة عليها من أصدقائى . ولكننى — أنا — رجل ، والأمر مختلف ! نعم ، أنا لا أسمح لها بأن تجالسهم . أذكر يوم قامت تفتح الباب لصديق من أصدقائى ، وأدخلته الصالون ريثما تدعونى : بدا أن صديقى . . . قد استلطفها : ذلك أنها إذ أقبلت بصينية القهوة تقرع الباب ، هفا — اللعين — بناظريه نحو الباب ،

فأحسستُ النار تشتعل فى إهابى ! . . . نعم ، إنى رجل ، فالأمر يختلف ! ولكن أى ضير فى أن أجلس ، أنا ، إلى صويحباتها ؟ أنا أعرف نفسى طيباً ، مهذباً ، رقيقاً . لو أنى كنت ، الساعة ، فى بدلتى . إنى أهفو إلى هاتين الغادتين اللطيفتين . هل تعرف أختى مشاعرى نحوهما ؟ أنا لم أفصح لأحد عما أكنه لهما من أحاسيس وعواطف مكبوتة . هل قرأت فى عينىّ ، فى قلبى ، ما أجتهد فى خبسه وراء الضلوع ؟ أنا أستلطف الأختين ، نعم ، وما فى ذلك ؟

وعاد بذاكرته إلى زمن مضى إلى ما قبل عامين كان إذ ذاك فى الرابعة عشرة ، فى مثل عمر أخته الآن . وليس للأيام أن تمحو من ذاكرته صورة الأختين ، وهما تدلفان إلى فناء المبنى .

كان فى ساعة عصر . وكانت الدنيا فى مطالع الصيف ، كما هى الآن تماماً . كان يلعب الكرة فى الفناء وحيداً ، يقذفها بقدمه إلى الجدار ، فترتد إليه ، فيقذفها من جديد . وإذ أخطأ التصويب مرة ، فانحرفت الكرة يميناً باتجاه المدخل ، برزت لعينيه من هناك صبية حلوة ، أنيقة، تلبس الأبيض الناصع . . . بدت له ملكاً تنزّل من السماء . فما كان منها ، والكرة تتدحرج صوبها ، إلا أن اندفعت تردها إليه بضربة من قدمها الصغيرة ، بحيوية طافحة ومرح استرعيا انتباهه . فاستقبل الكرة ، وردها إليها . . . فإذا أختها ، التى ترتدى الأبيض أيضاً ، تتصدى للكرة . . . تبادل وإياهما اللعب لحظات من أمتع لحظات لعبه بالكرة ، بل من أسعد أيام عمره ، قبل أن يعرف أنهما تقصدان أخته !

سألته الكبرى سؤال العارف :

ـ أنت أخو باسمة .

أجاب :

ـ نعم .

ـ هى هنا ، طبعاً .

ـ أجل .

أضافت الصغرى ، وهى تحد النظر إليه :

ـ لله كم يشبهها ، يا كوثر !

فتاقت نفسه ، وهو يراهما تدخلان البيت : لو يتاح لى أن أعرفهما معرفة أوثق . رشيقتان ، لطيفتان ، مرحتان !

ولكن أختى ، آه ، إن أختى ، علىّ ، لا تريد لى الخير . عندما أخذت الأختان فى التردد علينا ، فالتقيت بهما لماماً ، وجاذبتهما شيئاً من الحديث ، ذلك لم يزدنى إلا ارتياحاً لهما ، وإعجاباً بهما ، وافتتاناً برقتهما . آثرت الكبرى لأنها أوعى (تصغرنى بسنة واحدة) ! ولكنى فتنت بالصغرى (تصغرها بسنتين) لأنها أشد عذوبة ! هل نمّت عيناى عما فى صدرى ؟ إنى كلما التقيت بهما عرضًا ، أحسست أنهما تمنحانى راحة ، مرحًا ، انطلاقًا ، شعوراً مستعذبًا ، بالاختصار : أجدنى ، أمامهما ، وقد أمسيت إنساناً آخر ! هل كشفتنى أختى ؛ لابد أن : فرحى ، اضطرابى ، احمرار وجهى ، ساعة تكونان فى زيارتنا ، ذلك كله يشى بى ويفضحنى . وأختى تغار ! إنها تنتقم منى ، تعاملنى

بالمثل ! ولكنها تخطئ إذ تعاملنى بالمثل . الأمر يختلف . أنا أمنعها ، نعم ، من استقبال أصدقائى . ولماذا تستقبلهن ؟ أنا . . . لا أقول ذلك بدافع الغيرة ! لا أدرى كيف أفسر الأمر ! ربما كانت . . هى الغيرة !! ولكنى إلى ذلك ، لا أذكر أنى لمحت ، فى زياراتى لأصدقائى ، أختاً من أخواتهن ! فلماذا تستقبلهم أختى ؟!

ــ تفتحين لهم الباب ، لا مانع . وأما أن تجلسى وإياى ، فى زيارة أحدهم لى ، فلا . إن فعلت ذلك دققت عنقك !

أعترف بأنى شديد صارم . لأنى أعرف من سرائر أصحابى ما تجهله أختى . ولكن ماذا عن سرائرهن ، أولئك اللطيفات الأنيسات ؟ ماذا يمكن أن يصيبنى منهن من الأذى ؟ أنا لا أضمر لهن إلا الإعجاب . إنى أستلطفهن وحسب . وأختى تضن علىّ ، تصرفنى من حضرتهن ، بالحسنى أو بالقول الصريح الذى يحزّ فى النفس ! فإذا أخفقت ، بعد ذلك كله ، فى صرفى ، التجأت إلى أمها :

ــ مامى ! قولى لخلدون يتركنا !

فترفع أمى من صوتها :

ــ خلدون ! تعال إلىّ (ثم تاوى على مقرّعة) مائة مرة قلت لك : عندما تكون لدى أختك صديقاتها ، لا تحشر نفسك بينهنّ !

ــ ولكن . . . ليس بينهن أسرار ، يا أمى .

فتصرخ بى :

ــ دع أختك وصديقاتها ، أقول لك ! (وتلوح بيدها فوق رأسى

مهددة) أتفهمني ، يا ولد ؟!

أنا في نظر أمي ، مجرد ولد وأمي سريعة الاستثارة ، غضوب . وباسمة قادرة على الاستفادة من هذه التناقضات ! أمي تضربني أحياناً ، وهي غالباً ما تضربني بسببها . وهل أنسى يوم ثارت ، يوم جن جنونها ، فانهالت عليّ ضرباً بال . . .

* * *

أرهف خلدون سمعه : وقع خطوات باسمة في البهو .

تدخل ، الآن ، المطبخ . أجل ، لتعد للأختين كأسين من الشراب البارد . لو أن الفهيمة ذاتُ ذوق وكياسة ، لما تركتهما ، هاتين الضيفتين اللطيفتين ، في الصالون وحيدتين ، لا تفعلان شيئاً سوى التطلع إلى أ بعة جدران وسقف ! . . . لو أن العلاقة بيني وبينها حميمة على نحو ما ينبغي أن تكون العلاقة بين الأشقاء الطيبين ، إذن لعمدت أنا نفسي ، ودون تكليف من أحد ، إلى أن أعد كؤوساً ثلاثاً ، أصفها في صينية ، وأتوجه بها إلى باب الصالون ، لأقول همساً :

ـ دونك الضيافة ، ياباسمة !

فتهتف ، وقد أشرق محياها :

ـ الشرابَ ؟! الله !! شكراً ، شكراً . لتسلم يداك ، يا أخي .

فأجيب من وراء الباب :

ـ هل من خدمة أخرى أؤديها ، يا أختاه ؟

فتدعوني ، بصوت أجده لا أعذب ولا أرقّ :

ـ خلدون ، أخى الحبيب ! لم لا تمنحنى لحظات من وقتك، فترتدى بذلتك فى الحال ، وتأتينى لأعرفك إلى صديقاتى الظريفات ؟ هيا أسرع ، قبل أن آذن لهن بالانصراف ، يا عزيزى !!

ضحك خلدون بينه وبين نفسه ، وهو يذرع الغرفة : إنه حلم ، أين منه الواقع الذى يعانى ؟ وفطن إلى أنه كان فى سبيله إلى أن يرتدى بذلته، فإذا الأحلام تراوده ، والأوهام ، والذكريات . . .

إنه لحلم يقظة ، ليس إلا ، أن يسمع أخته تدعوه ، من فمها هى، لتقدّمه إلى بعض لداتها ! ولكنها دعته مرة ! نعم ، دعته، ولكنه اعتذر! وكان جديراً به أن يعتذر. . .

كان ذلك من نحو عام . ألحّت فى دعوته للدخول ، فرفض ! فرجته متوسّلة ، فأبى واستكبر ! فذهبت إلى أمها تشكوه . . .

وأعلن أمام أمه ، بملء جرأته :

ـ ماما ! أرجوك ، لا تحاولى أن ترغمينى على أن أفعل أمام الناس ما يحطّ من قدرى ! غدوت شابّاً كبيراً أطول منك، ولى كرامتى : لا أريد أن أقوم أمامهن بما يفعله « مصلح كهربا » !

دارت أمه بسمة كادت تطفر إلى شفتيها (لقد لمحها !) ، وخرجت : وانسلّت وراءها باسمة ، والدمعة فى مقلتيها : لتبك، لتنشق من الغيظ : كم مرة أبكته !

ومضت إلى أبيها سمعها تبكى ، وتقول :

ـ بابا ! جهاز الموسيقى فى الصالون معطّل، فيه ذلك الخلل الخفى الذي

لا يعرف أحد فى البيت أن يصلحه غير أخى ! تصليحه لا يحتمل سوى دقيقة . وخلدون يرفض . لعله هو الذى أحدث الخلل ، يا بابا ، ليحرجنى أمام صديقاتى . نريد أن نسمع الموسيقى ونرقص . ولكن الجهاز معطل . توسلت إليه ، فرفض بعناد . حدثته أمى ، فاحتج بأنه شاب له كرامته . ما دخل الكرامة بتصليح الجهاز ، بتصليح خلل فيه هو صاحبه ! بابا ، أرجوك ، قل لخلدون أن يصلحه !

وكان لابد لأبيه من أن يتعاطف معها ، ما دامت شكت وتباكت : جنس ضعيف !

— لم لا تصلح جهاز الموسيقى لأختك ، يا خلدون ؟

— لأننى لا أعرف تصليح . . .

— ومن ذا الذى يعرف فى البيت إذن ؟ من الذى خرّبه سواك ، أنت الذى نراك تعبث به على الدوام ؟!

كلامها مسموع ! اتهاماتها مصدّقة دائمًا !

— ولكن ، يا بابا . . .

— لا أريد أن أسمع كلمة أخرى . خلل أنت صاحبه . أصلحه فى الحال .

— سأحاول . ولكنى إذا لم أستطع . . .

— طيب ، طيب ! حاول ، وتعال فأخبرنى .

ودخل إلى حيث الصويحبات ، مطرقًا ، خجلان ، ممتعضًا ، وما ألقى عليهن سلامًا . قلن ، لابد ، فى أنفسهن : عديم ذوق ! ليحسبن ذلك وما هو أسوأ . فإنما أرغم علىّ أن يدخل عليهنّ دخلة أجير كهربائى !

انحنى على الجهاز ، والعرق يرشح من جبهته . عالج أشرطته الخلفية (يعرف جيداً موطن الخلل!) . وسرعان ما أخذ الجهاز يعمل . يصدح بالموسيقى ، وإذا البنيات يتقافزن من فرح ، مصفقات ،مهللات . راقصات . . . ما أحلى ضجيجهن ! ولكنهن ، مع الصخب الذى أثرنه ، ما فاتهن أن يشكرنه على صنيعه :

ــ شكراً ، خلدون . . . شكراً لك . . . شكراً . . .

أجاب منشرح القلب :

ــ عفواً . لا شكر على واجب .

هل أعلمتهن أخته بامتناعه ، بادئاً ، عن إسعافهن بالإصلاح ؟ وهو ينقل نظراته بينهن مخلوب اللبّ ، مشوقاً إلى أن يصخب معهن ! وأمه ، بعدئذ ، حاسنته القول :

ــ خلدون ، ابني ! أما كان خيراً لك أن تنهض إلى إصلاحه ، من البداية ، ياولدى ؟ لم لا تسمع الكلمة ، يا عينى ؟ لم العناد ، يا حبيبي ؟

فتجارأ يقول معاتباً :

ــ إن ما يهمّك ، يا أمى ، أن تُقْضَى مطالبُ ابنتك ، مطالبها وحدها . وأما كرامة ابنك ، فشيء لا يهمك كثيراً . لقد دخلتُ عليهنّ خزيان ، وخرجت نديّ الجبين ! أيرضيك ذلك ، يا أمى ؟

* * *

أخذ خلدون يتأمل نفسه أمام المرآة : أيهما أليق بالبدلة : ربطة العنق هذه أو تلك ؟ كان قد لبس بنطاله الصيفى ، ثم لم يلبث أن

نضاه . شاقه أن يرتدى بدلة ، بدلته هذه الجديدة :

خلع ربطة العنق : تلك أليق :

أخته تدخل، الآن ، إلى الضيفتين ،بصينية الشراب . لقد تركتُهما، قليلة الكياسة ، عشر دقائق تـَعُدّان بلاطَ الغرفة من سأم! ليتنى كنت وإياهما ، خلال هذه الدقائق العشر ! يسعدنى أن أدخل عليهما مضيفاً مرحباً ، لا أجير كهربائى! أمى قدرت فى ذلك اليوم مشاعرى،فلم تُقْسِرنى على إصلاح الخلل. ولكن أبى هو الذى لم يقدر . تبنى كل اتهام ادّعته أختى ، فكان أن نالنى من أبى ذلك القسر الشديد . ولكنها – باسمة الطيبة ! – كانت السبب فيما نالنى من أمى من أذى كبير ،فى ذلك اليوم الذى ثارت فيه ثائرتها وجن جنونها ، فانهالت على ضرباً بالخرطوم ، ضرباً مبرحاً لا أنساه ما حييت !

كنت فى العاشرة من عمرى . وكنا ، يومها ، فى بيت جدتى . ذهبت أمى وخالتاى وجدتى جميعاً فى جولة ، وتركتنا فى البيت ، نحن عشرة من الأحفاد أو يزيد . ذلك يوم لن تمحوه الأيام من ذاكرتى . انصرف الصغار إلى اللعب فى البهو . وجلسنا ، نحن الأكبر سناً، فى الغرفة نتجاذب أطراف الحديث .

كنت ، آنذاك ، أحمل فى رأسى أفكاراً ما ، عجيبة ، عن المرأة والسُّفور والزينة والتبرج ،قد جرعنا إياها أحد أساتذة المدرسة ، حين غرس فى نفوسنا حذراً من الجنس الآخر، أو لأقل: حذراً مشوباً بالازدراء فالمرأة بالاختصار : جنس مثير للفتن !

أعترف بأنى كنت غرًّا حين أقبلت ، دون تمحيص ، على تناول هذه الجرعات الكبيرة كلها من الأفكار البالية! ولكن هل كان يسع ولداً ، فى سنى آنذاك ، أن يفطن إلى ما فى أقوال أستاذه المحبوب من مغالاة أو تجنٍّ ؟ كان من نتائج تأثرى به أن أخذت أزرى بشأن أختى الطفلة — وكان عمرها ثمانى سنوات — كلما تناقشت وإياها : « وهل تفهمين ؟ ما أنت إلا أنثى ، بنصف عقل ! » . وهى ما كانت لتستوعب أبعاد هذه الكلمات القليلة ، ولكنها شكتنى يوماً إلى أمى ، فساءلتنى أمى من أين جئت بهذه الأفكار العالية ؟! أجبتها ببلاهة : « من أستاذى ! » فقالت : « أستاذك مجنون ! » حاسمة الأمر بالحكم على أستاذى بالجنون !

ولكنى فى ذلك المساء ، وأبى والكبار غائبون ، رحت أعيب — منساقاً مع منطق أستاذى — على المرأة أموراً وأموراً . كان قد أترعنى بآرائه ومشاعره وكلماته . والأولاد ، وفيهم باسمة ، يستمعون إلىّ :

— المرأة شر . هى لا تتزين إلا لتخلب الرجال وتفتنهم ! . .

كفّ الصغار عن اللهو ، وتجمعوا فى الغرفة يصغون ، وأنا أتحدث كخطيب . فقد كان أستاذى حاذقاً فى تلقينى . كان قد شبّه لنا المرأة ، وكذلك فعلت أنا تلك الساعة :

— . . . والمرأة أشبه بالخرزة الرخيصة البراقة : المرأة تلمع تحت المساحيق ، كما تلمع الخرزة بالألوان الكاذبة تحت ضوء الشمس !

كانت تلك « عموميات » قدّمتها ، انتهيت منها إلى أن أعلن ، بمنتهى الصراحة — وهنا موطن الخطورة — « توصياتى » :

— إن على أمى وخالتى أن يقلعن عن التزين والتبرج ، ويعدن إلى عهد الحجاب ، حتى لا يجعلن من أنفسهن فتنة فى الشوارع تخلب الأبصار !

فرغت من خُطبتى ، وانفضّ الاجتماع ، وقام كل سامر إلى لهوه . ولكن بدا أن أختى اللعينة قد حفظت — وما أقوى ذاكرتها فى فعل الأذى ! — كل كلمة نطق بها لسانى ، وبخاصة هذه الكلمات التى سلّتها من أقوالى سلا : «المرأة شر ! أمى فتنة فى الشوارع ! أمى فتنة تخلب الأبصار !» حتى إذا عادت أمى وجدتى والخالتان من جولتهن ، سكبت أختى ، فى أذن أمها ، على انفراد ، ما سمعت منى وما لم تسمع فما وعينا ، نحن من فى البيت ، إلا وصرخة تنبعث من إحدى الغرف :

— فتنة !! أنا فتنة فى الشوارع ؟ !

طرقت الصرخة مسمعى : إنها كلماتى ! وإنه لصوت أمى العاصف

— وأين هو ؟

أوجست خيفة ، وقد تبينت أن أذى ما يوشك أن ينزل بساحتى . وسرعان ما غدوت ، بقفزتين ، فى البهو ، ومنه تسربت — على مرأى من الأولاد — إلى أول غرفة استقبلنى بابها المفتوح ، متوارياً فيها مابين سريرين . كنت أعرف جيداً أمى إذا ثارت ثائرتها ، وإنما صرختها المعلنة نذير غضب عظيم !

وأولاد الخالتين يتبرّعون بدلالتها :

— هنا ، هنا ، دخل خلدون إلى هنا !

وأمى توالى صرخاتها :

ـ أنا فتنة تخلب الأبصار !

انبطحت على بطنى ، زاحفاً إلى ما تحت أحد السريرين .

ـ أين هو ، المغضوب ؟

والصغار ، الذين لا يؤتمنون ، يشيرون إلى مكمنى :

ـ هنا ، إنه هنا ...

جذبتنى أمى من قدمى ، فانجذبت ، وانقلبت بين يديها ... فإذا أنا وإياها وجهاً لوجه ، وفى يدها قطعة من خرطوم لا أدرى أى حظ نكد وضعها فى متناول يدها !

ـ ماذا كنت تقول ، فى غيبتنا ، يافيلسوف ؟ !

ـ وماذا قلت ؟

ـ أمك تتبرج ! فتنة للأبصار ! خرزة رخيصة براقة !!

وكان لابد من أن أنكر :

ـ أنا لم أقل شيئاً !

ـ أتريد أن تعيدنا إلى «عصر الحريم» ؟ !

ـ أنا لم أقل هذا !

ـ بل قلت ماهو أسوأ .

وأهوت على بالخرطوم المطاطى .

ـ اعترف . قل الحقيقة ، أيها الشقى ! هل قلت كل هذا ؟

ـ لم أقله .

ـ لم تقله ، ها ؟ !

وأخذ الخرطوم يخفق فى يدها ، فيغمرنى بضربات مبرحة ، على كتفى ، وصدرى ، وجنبىّ ... تنهال* به على كيفما اتفق ، وكأنما مسها صاعق من جنون :

ـ المرأة شر ؟! تقول عن أمك : فتنة ؟! أنا وأختاى نتزين للرجال ولمن تريدنا أن نتزين ؟ للنساء ؟! أيطمع أستاذك المجنون أن ينتشر الشذوذ بين البشر ؟! ... بالأمس تقول لأختك : «أنت أنثى ، بنصف عقل ، لا تفهمين ! » والآن تعيب على أمك أنها تلبس وتتزين ! أتريدنى أن أزهد ، وأنا فى عز شبابى ؟! لم يعد ينقصنى إلا أن تحرض أباك على !! ابنى الصغير ، يتحكم بى ، وهو بعد بطول ساقى !!

وأنا أستجير . والأولاد ، صبياناً وبنات يتفرجون ، ولا من مجير ولما تراءى لحدتى أن تتدخل ، كانت أمى قد استنفدت بالضرب عزمها كله ، فانهارت على السرير تنتحب بعصبية ! وأما أنا ، وقد حملت من الغرفة حملا ، فلم يبق فى جسمى موضع إلا وفيه ضربة من ذلك الخرطوم اللعين !

ظللت ، طول الليل ، أئن من فرط الألم ، وأنا ألعن باسمة التى فتنت وأستاذى المجنون المأفون ! وأمى ما تفتأ تطل على ، فى غرفتى ، بين الساعة والأخرى متعللة بالبحث عن شيء ، وماهى بحاجة إلى شيء ، ولكنها تسعى إلى أن تسكن قلقها على ولدها الموجوع ، بتفقدها إياى وأنا فى سريرى ، وتعرفها على أية حال أمسيت !

وقد سولت لى نفسى ، فى اليوم التالى ، أن أشكوها إلى أبى متوسلا

إلى بسط شكواى برسالة سطرتها إليه — أنا ابن العاشرة — رحت أقص عليه فيها أى اضطهاد نالنى — بسبب باسمة — من أمى ، وأى ضرب مبرح وأذى ، أمام الكبار والصغار فى بيت جدتى ... وختمتها بأن بللتها بدمعات امتزجت بحبر أسطرها ، ثم مهرتها بهذا التوقيع : «ابنك المعذب من أمه» ! ودسستها فى أحد جيوبه ، فى غفلة من العيون ... ولست أدرى ما إذا كان كاشف أمى بالأمر ، أو أن يداً امتدت إلى الرسالة — وهى فى جيبه — فمزقتها ، هى يد أمى ، أو لعلها يد أختى الشقية الفتانة : باسمة !

* * *

صحا خلدون من خواطره ، فأدرك أن عواطفه قد استثيرت على نحو جلى ، حتى لقد اغرورقت عيناه . فحادثة ذلك اليوم خلفت فى نفسه ندباً ما ينمحى ... ولكنه تبين ، أيضاً أنه قد استبدل بربطة العنق ثالثة ، وهو لا يدرى !

ساءل نفسه : إلى أين أنت ذاهب ، الآن ؟ فقد أنساه استطراده أنه كان قد نهض من قيلولته ليذهب إلى صديق. وأحس مرارة : إن « يوم الخرطوم » ينسينى ولا أنساه !

ترامت إلى سمعه جلبة ، فى البهو ، صغيرة : الضيفتان الحلوتان تتصرفان .

أصاخ السمع : ضحكات عذبة صافية تصل .

— سنراك قريباً ، يا باسمة ... ها ؟

إنه صوت الكبرى : كوثر !

وأخته تردّد :

ـ أكون عندكما فى الموعد تماماً .

ـ لا تنسى أن تحضرى معك ... الأسطوانات !

إنها الصغرى : غالية !

ـ وكيف أنسى ، يا عزيزتى !

الأصوات تبتعد ، تغيب ...

هُرِع إلى النافذة، وهفا بناظريه إلى الفناء : تلك هى كوثر تلبس الوردى هذه المرة ، لله ما أروعها ! وغالية تلبس اللون ذاته كأنهما توأمان . ما أرقى ذوقيهما ! ما أرقّهما ! ترى، هل لهما أخ فى مثل سنى تجِدّان فى تعذيبه ، وأم قاسية ، وأب لا يسأل ؟ ...

غادرتا الفناء إلى الطريق .

تضمخ بالعطر ، ملقيًا نظرة أخيرة إلى المرآة: كمالٌ فى الهندام ! وانطلق من الغرفة متنشّطا .

تقابل وأخته ، فى البهو . هتفت مأخوذة :

ـ يا للرائحة ! (وأمعنت النظر إليه) ما هذه الأناقة كلها ! إلى أين ، وأنت فى أحلى بدلاتك ، يا خلدون ؟ !

شمخ بأنفه :

ـ إلى ... موعد !

فاتسعت منها العينان :

ـ موعد ؟ !!

لم ينبس :

أولاها ظهره ، وهو يجتاز البهو : قد أثرْتُ فى صدرها شكوكا ! تصنع الجد ، وقد غدا فى الباب ، فلم يلتفت إليها ، وتخيّلها ـ فى صمتها وسكونها ـ تلاحقه بنظرات مرتابة !

وفى الفناء أحس راحة عظمى تتنزل على قلبه : يبدو أنى أفلحت فى أن أثير عندها ظنوناً ووساوس ! وحدث نفسه : ههنا تلقّت كوثر الكرة قبل سنتين ، فردّتها إلىّ بضربة من قدمها الصغيرة الأنيقة !

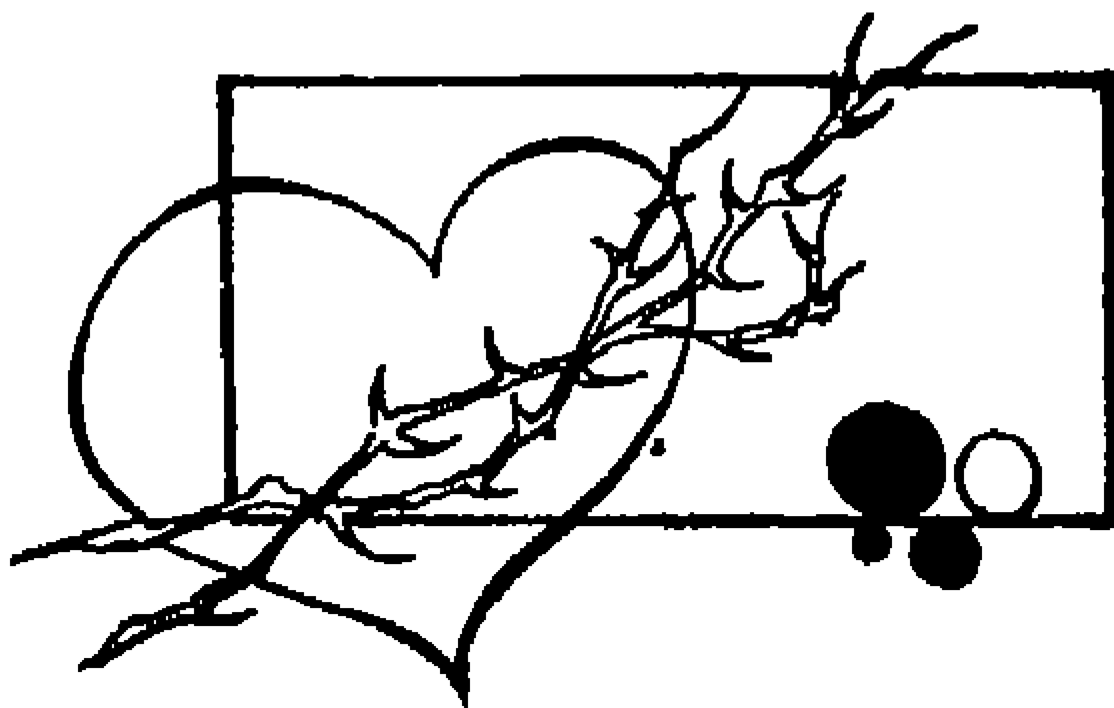
وفى الطريق فكر بسعادة : إن كنتُ قَدِرت أن أوهم باسمة بأنى ماض الآن ، إلى الأختين ، فى موعد اختلسته لحظة فتحت لهما الباب ، أكون بذلك قد سجلت انتصاراً عليها ، يعدل انتصارها هى على فى ... يوم الخرطوم !

لمحهما فى المنعطف : غزالتان شاردتان ، عصفورتان !

زفر بمرارة : آه ، ماضرّ لو كان بينى وبينهما موعد الآن ، فألتقى بهما ، وأتحدث إليهما حديثاً ممتعاً ، يتناول العام الدراسى الذى انقضى والكتب التى أستعد لمطالعتها ، وأحب الأغنيات إلى نفسى ! ونَدعُ ما سوى ذلك إلى ... لقاء آخر !

أجل ، ياربى ، أى ضير ! ...

حذار من العدوى



ما كادت « خالدة » تتحدث فى البيت عما لاحظته فى زميلة المدرسة « زينب » ... حتى رأت أمها تستزيدها تفسيراً ، ثم تقوم إلى جهاز الهاتف ، تطلب مديرة المدرسة ! وأشفقت خالدة ، بينها وبين نفسها : ما تنوى أمى أن تفعل ؟ أتشكو صديقتى إلى المديرة ؟! ولكن... أى ذنب ارتكبتْ حتى تستحقَّ الشكوى ؟ إنها تَحُكُّ جسدَها ، ما تفتأ تحك جسدها ، وحسب !

ولكن أمها ... هاهى ذى ، قد نقلت إلى المديرة حديثها بتمامه غير مغفلة منه شيئاً . بل لقد سمعتها تتزيد فيه مضيفة وصفاً لم يكن ليخطر فى بالها حين أخذت تتحدث عما لاحظته فى زميلة المدرسة التى تشاركها المقعد فى قاعة الدرس ! رباه ، ماذا تفعل أمى ؟!

ــ حتى لاتدخل بيتنا هذا ... « بلية » نحن فى غنى عنها !!

* * *

فى تلك الليلة ، هجعت خالدة فى سريرها ، وهى تحسُّ أسفاً لامزيد عليه . لماذا باحت لأمها بما رأت فى صديقتها زينب ؟ إنهما معاً فى مقعد واحد ، منذ مطلع العام الدراسى . وإنها لَتُكِنُّ لها الود والمحبة لطيفة وناعمة . أبوها يبيع البطيخ الحلبى ، فى الساحة تحت ، والعنب والتين ، فى فصل الصيف ، وفى الشتاء يبيع البرتقال واليوسفى والكَرْمنتينا لطالما اشترى أبى من « دكانته » ، تلك المؤلفة من أعمدة خشبية أربعة قائمة ، تصل ما بينها عوارض قد غطاها قِلْعٌ كبير مهترئ ومرقع .

إن أبى ليداعبه ، أحياناً ، وهو يحاسبه : « راعنا ، يا أبوعلى . لا تعل على . نحن أصحاب » ؛ فيجيب الرجل : « ولو يا أستاذ ... أنت زبون قديم ! » ؛ يرد أبى : « بل ... إن بيننا ,, صداقة عائلية .. ، نسيت بنتك زينب ، صديقة فى المدرسة لبنتى خالدة ، تجلسان فى مقعد واحد ! » ويطلق الرجل ضحكة تبدو من خلالها نواجذه المصفرة وهو يمد إلى أبى يداً تنطوى على الباقى من المبلغ غير مزيد عليه قرش واحد . ويعاتبنى أبى ، مازجاً — كعادته — الهزل بالجد: «لا أرانى مستفيداً من علاقاتك الشخصية شيئاً ، يا خالدة ! أبو زميلتك زينب لا يراعينى بقيراط!» ...

نعم ، تشتركان معاً فى مقعد واحد . عادت خالدة تتمثل فى خاطرها موقف أمها على الهاتف . لشد ما يقلقها أن تعلم زينب ، غداً ، أنها قد نقلت حديثاً عنها إلى أمها ، وأن أمها نقلته إلى المديرة ، والمديرة ......ترى ما تفعله المديرة غداً ؟ أمها أوصتها بأن تتكتم بألا تشيع أن الحديث عن «الحكة» صدر عنها ! ولكن تلميذة من تلميذات الصف لم تلحظ مافى صديقتى زينب ، عداى . لقد استرعى انتباهى أنها تكثر من حك صدرها ، وإبطيها ، وساعديها ...

— وتحك كفيها ، أيضاً ؟

— أجل ، يا أمى .

— هل دققت النظر فيما بين أصابعها ، فوجدت حبوباً ، بثوراً ؟

— وإنها لتفلت القلم من يمناها ، أحياناً ، وتلوى على ظاهر كفها

اليسرى .... تحكّ ، تهرش وهى تصرف بأسنانها ! أسألها : «ما بالك تحكّين ، يازينب»؟؛ تجيبني : «لا شيء ، لا شيء» ... وتكف!

فكرتْ : أنا التي نقلتُ الوصفَ الدقيق إلى أمى . مسكينة زينب ! ماذنبها ؟ وأمى قد هتفت إلى المديرة ! هل تُعاقَب زينب غداً ؟ !

– حذارِ أن تلمسى زينب ، ياخالدة ! نحن فى غنى عن بلية تدخل بيتنا ! انهدّت عافيتى ، وأنا أركض هنا وهنا ، وأتعب ، وأشقى . . . فهمتِ ؟ لا تقربى زينب !

* * *

فى الصباح . . . لمحت خالدة ، فى باحة المدرسة ، صديقتها زينب . فأسرعت تُدير ناظريها عنها إلى حيث بنات يتراكضن . وما هى إلا لحظة ، حتى كانت يدٌ تربت كتفَها :

– صباح الخير ، خالدة !

إنها : ينب !

اضطرت خالدة إلى أن تلتفت :

– صباح الخير .

– كتبت واجباتى ، ليلة أمس . ولكنّ مسألةً من مسائل الحساب عَسِرت علىّ . ألا تطلعينى على دفترك ؟ هل تشرحينها لى ؟

احتوت خالدة وجه زميلتها بنظرة شفوق : لقد أسأتُ إليها ، دسَسْتُ عليها دسيسة ، فى بيتى مساء أمس . . . وهى لا تدرى !

– أية مسألة ؟

ـ تلك التي أولها : : . . . .

أخرجت خالدة دفتر الحساب من محفظتها ، وناولته زينب . تلقفته هذه بكلتا يديها ، وقد وضعت محفظتها ما بين قدميها . أمعنت خالدة النظر في الكفين ، وهما تقلبان الدفتر ، لتوقفا عند آخر المسائل المحلولة : الأصابع ! ما بين الأصابع ! وتلك هي البثور ! آه ، إنه ذاك المرض الذي يُعدي ! ما تراها ، المديرة، تفعله لها ؟ أتعاقبها ؟ يا حرام ! ما ذنبها ؟ أبوها أبو علي ، بائع البطيخ والبرتقال ، لا يُعنَى بها .! وأمها تهملها . . .

ـ هو ذا « الحل » ، إذن ! كيف غاب عني ؟

طوت الدفتر ، وردته إليها :

ـ شكراً ، خالدة .

اليد ممتدة نحو خالدة . إنها تُنقّل ناظريها من وجه زميلتها ، إلى يدها ، وتتفرس في الكف ، في الأصابع ، في تلك الحُبَيْبات الصغيرة !

ـ لم لا تأخذين دفترك ؟ لماذا تحملقين في يدي هكذا ؟ !

أسرعت خالدة تستردُّ دفترها ، وتقول كالمعتذرة :

ـ عفواً . لقد شرد ذهني !

* * *

قرع باب قاعة الدرس ، فجأة .

توقفت المعلمة ، لتُعلي من صوتها :

— تفضلي .

فأطلَّت « الآذنة » برأسها من وراء الباب :

— زينب . . . تطلبها المديرة خانم !

مسَّ خالدة صاعق من خوف . حين استدارت المعلمة إلى البنات !

— زينب . . . إلى المديرة !

بدت زينب وقد فوجئت ، هي الأخرى ، بهذا الاستدعاء . وتجسَّدت لخالدة ، ههنا ، مسئوليتُها عما يمكن أن يلحق بصديقتها من أذى : أنا التي وشيتُ بها إلى المديرة ، وليست أمي ! آه ، ياربي : أيُّ خاطر شيطانيٍّ دفع بي إلى أن أبوح لأمي بالذي رأيت ؟ أي ضرر يحمله جهاز الهاتف للآخرين ؟ زينب صديقة طيبة ، لم تؤذ عمرَها أحداً ، لطيفةٌ وطيبة . أي احتقار ستضمره لي إذا هي علمت أني أنا الواشية الدسَّاسة ؟ وأي ازدراء سألتقي من زميلات الصف ؟ نمَّامة دسَّاسة ! ولكن . . . من أين لزينب أن تعلم ؟ أخطأتُ ، مرة ، إذ بُحتُ لأمي بما رأيت في زميلتي . ولكني لن أخطئ ، ثانية ، فأُفصح لهنَّ عما نقلتُ إلى أمي ! فمن أين لهن أن يعلمن ؟

قرعت الآذنة الباب ، ثانية :

— المديرة خانم تطلبك إلى الإدارة !

ازدادت خالدة إحساساً بمسئوليتها عن هذه الحوادث التي تتعاقب اليوم . إن الأمور تتعقَّد سريعاً .

علا ضجيج البنات :

ــ أيُّ ذنب ارتكبت زينب ، ياترى ؟

بعضهنّ أعلنّ :

ــ ولكن زينب بنتٌ طيبة !

وخالدة تهتف فى ذات نفسها : إنها لأطيبُ منكِ ، يا خالدة ! لأنها . على الأقل ، لم تَشِ بإحدانا إلى ... أمها ، أو إلى المديرة ! وأحسَّت أنها باتت « محاصرة » بقوة ما .

* * *

فتح الباب على مصراعيه .

تطلعت خالدة مذعورة : بدت لها الآذنة الآن ، أشبه ببومة ، وهى تحمل مقعداً مُفْرَداً أبيض اللون ، عبرت به الباب فى جلَبَة ، ووضعته هناك ، هناك . . فى تلك الزاوية ، على مبعدة من مقاعد البنات !

ــ يا حرام ! . . سيعزلونها عنّا ! . . ما بها ! . . ياه !. . ياه !

والحصار ، حول خالدة ، يشتدُّ : أنا الدسَّاسة ، التى كان يجب أن تُعْزَل !

عادت المعلمة إلى القاعة ، مُقَطَّبَةَ الجبين . فصمتت البنات ، رانيات إليها مستطلعات . وفى إثرها دخلت زينب ، تجرُّ خطواتها جرّاً ، منكَّسة الرأس . إنها إطراقة الخزى : حزرت خالدة ! ولكنْ . . . حَسَنٌ إن زميلاتها لا يعرفن هذه الحقيقة !

ــ اجلسى هنا ، يازينب !

أشارت المعلمة بإصبعها إلى المقعد الأبيض :

رفعت زينب ، بصعوبة عينيها عن الأرض . فبدا وجهها وقد فَرَّت منه الدماء ، فهو شاحب أشبه بليمونة .

— آنسة ... . والله ما فىّ شىء !

أمرتها المعلمة :

— اجلسى هنا .

وعينا زينب مُغْرَوْرِقتان بالتوسُّل :

— آنسة . . إنها « حساسية » !

— هاتى كتبك من درجك ، وضعيها فى هذا المقعد .

— آنسة ، والله حساسية ، يا آنسة . . . أنا . . لست « جرباء » !

زجرتها المعلمة :

— اسكتى . لا تفصحى !

وتعالت أصوات البنات ، فزعات يتمتمن .

صرخت المعلمة :

— سكوت .

وزينب تتوسَّل :

— ما فىّ شئ . إنها حساسية . . غداً أشفى !

— إلى المقعد الأبيض ، زينب . لا تجادلى . وائتنا ، غداً ، بأمك أو بأبيك .

أمسكت زينب عن الكلام . كانت الدموع قد انهلَّتْ من

عينيها ، وها هي ذى تغسل وجهها . وإنها لتقول بصوت يرتعش :

ـ الله : . . يجا . . . زيها !

فيما هي تُدير عينيها البليلتين نحو . . . خالدة !

وخالدة . . . أحسَّت ، الآن ، وهي تتلقَّى هذه النظرة ، أنها قد رُشِقَتْ بخمسين سهماً ، مائة ، ألف !

اقتربت زينب من مقعدها « القديم » . فازدادت السهام نفاذاً في جسد خالدة . وخالدة قد شملت صديقتها الطيبة بنظرة حنون مستغفرة :

زينب ترتعش حزناً وألما . قالت وهي تُخلي درجها :

ـ كلُّه منك ، يا . . . خالدة !

بدر من خالدة استنكار :

ـ أنا ؟ ! !

حين تعالت صرخات البنات من كل جانب :

ـ ياه ! . . خالدة ، إذن ! إنها خالدة التي فتنت ! صديقتها خالدة هي التي نقلت إلى المديرة ! زينب ليست جرباء ! كذب ! حساسية . . . إنها حساسية !

نقرت المعلمة بطرف المسطرة على المنصَّة ، غاضبة :

ـ أقول لكنَّ : سكوت !

اندفعت خالدة تبكي :

ـ أنا . . . لم أقل . . . للمديرة شيئاً ! والله . . . لم أقل لها أي شيء !

رنَّ ، ههنا ، الجرس ، إيذاناً بانتهاء الدرس الأول .

والتفَّت البنات حول خالدة :

ـــ لماذا فتنتِ لدى المديرة ، يا خالدة ؟ ! زينب ، صديقتك ليست جرباء ، إنها حساسية !

وخالدة تكفكف دموعها :

ـــ زينب صديقتى . وأنا أحبها . . أحبها أكثر منكن . اسألْنَها .

توجهن إلى زينب :

ـــ من أبلغك أن خالدة هى التى وشت بك إلى المديرة ؟

أجابت زينب :

ـــ حزرت !

استجمعت خالدة شجاعتها :

ـــ أنا . . . لا يمكن أن أفتن ، أو أدسّ ، عند المديرة ، يا زينب !

ـــ فمن قالت لها إنى جرباء ، إذن ؟

راغت خالدة من الجواب :

ـــ أنا أعلم أنها حساسية . ألم تقولى لى ذلك ؟ ليس الذى فيك جربًا . وغداً تشفين . والآن . . هيًّا نلعب معًا فى باحة المدرسة ، يا زينب !

وخرجت وإياها من القاعة . وهى تعانقها بيد ، وتمسح بالأخرى بقية دموعها .

* * *

بعد أن فرغت خالدة من الاستحمام ، تناولت أمها « قطنْنَة »

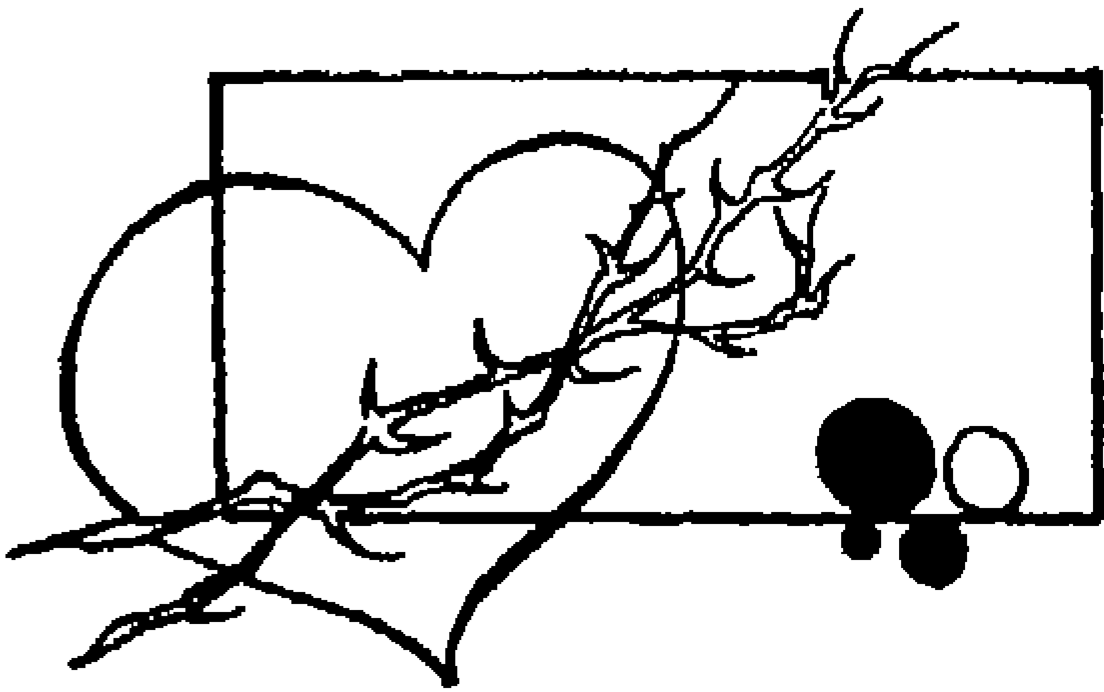
مبلولة بذلك المحلول الأصفر الذى يكوى ! . . وأخذت تمر بها على جسدها ، وتقول فى حنق عظيم :

ـ من أين لنا بهذا الوباء القذر ؟ أريد أن أفهم : البنت زينب وعُزِلَت عنك ! كيف انتقلت إليك العدوى ؟ ! كم حذَّرتُك !

وأبوها ، الذى ينتظر خروجها من الحمام دامعةَ العين ، يقول لها ، مازحًا ـ كعادته ـ الهزل بالجِدّ :

ـ صديقتك زينب العجيبة . . لا أبوها يراعينى فى بيع البرتقال والبطيخ ! ولاهى تراعيك فى عدوى الجرب ! قطع الله دابر تلك الأسرة !

هدية للصديقة سعاد



تقلَّبت « ريما » في سريرها . ثم أرسلت ناظريها ، عبر النافذة الشرقية ، نحو الفضاء الدامس : . وزفرت :

ـــ ما أطول هذه الليلة !

وحاولت ، دون جدوى ، أن تُغْمِض جفنيها على عينين قد استعصى عليهما النوم .

ـــ ألَن تطلُع ، اليوم ، شمس النهار ؟ !

ثم حانت منها التفاتة إلى أختها « لَمى» ، الهاجعة في سريرها ، تَغِطّ في نوم هانئ . فهتفت بينها وبين نفسها : « الحفلة » آه ، قد أقمناها ، وكان « الرَّيْع » مبلغًا طيباً ! كيف أنت الآن ، يا « سعاد » ؟ ليتك كنت معنا مساء أمس ،ورأيت بأم عينك أيّ فنّ أبدعنا ! ولكنها استدركت في أسى : وكيف يمكنها أن تحضر ؟ هل في وُسْعِها أن تسير على قدميها ؟ !

* * *

وعادت الذاكرة بـ « ريما » إلى ما قبل الأيام الخمسة التي مضت . فتراءت لها رفيقتها سعاد ، وهي تسير وإياها الهوينا في باحة المدرسة . . . فإذا سعاد تتلقّى دفعةً عشواء من بنات طائشات كنّ يتراكضن فتنطرح أرضًا ، وتطلق صرخةً حادة ، ثم . . تروح في إغماءة ! وتتجمّع حولها بنات المدرسة ، هلعات ، صائحات ، مشفقات . وسرعان ما تستدعي المديرة الإسعاف بالهاتف ، ليزعق ، بعد قليل ،

تعيبُ سيارة ينزل منها رجلان ، ومعهما « نقّالة » يحملان عليها سعاد ، ويمضيان بها إلى المستشفى ! ومن هناك جاء النبأ الأليم : «سعاد الطيبة ، قد كُسِرت ساقها ! » .

واستشعرت ريما ، منذ ذلك اليوم ، حزناً لا مزيد عليه . فقد دخل فى رُوعها أنه كان يَسَعُهَا — لو أنها كانت أكثر حذراً وأسرع بديهة — أن تقى رفيقتها شرّ السقطة ، وهى التى بَصُرت بالطائشات وهنّ يندفعن اندفاعهنّ الجنونى نحوهما ! ومما زاد فى حزنها أن سعاد من أسرة رقيقة الحال ، فأبوها بائع متجول ، وهم يسكنون قبواً لا تدخله الشمس ولا يتخلّله الهواء . ولكنها أحست فرحاً حينما عرفت فى اليوم التالى ، أن إدارة المدرسة قررت أن تدفع من « صندوق التعاون » نفقات العلاج كلّها ، بل إن معلمتين من معلمات الصف ، قد تعهّدتا بالذهاب إلى بيت سعاد لتلقينها دروس الحساب والقواعد إلى يوم تستطيع السير على ساقيها !

وليست تدرى ريما ، فى غمرة الأريحيّة التى عصفت بإدارة المدرسة كيف تفتّق ذهنها ، هى الأخرى ، عن « فكرة» فيها خير لرفيقتها التى تُشاطرها الجلوس فى مقعد واحد . وما أسرع ما سكَبَتْها فى أذن أختها الصغيرة « لمى » . . . فإذا لمى تستطير فرحاً ، وإذا هما تسعيان ، حالا ، إلى حيث المديرة !

وعلى باب الإدارة سألتهما « الآذنة » عما تبغيان، حتى تستأذن لهما بالدخول فأوشكت لمى أن تفصح ، لولا أن نَحّتْها ريما جانباً لتقول :

— نريد أن نعرض على المديرة « اقتراحاً » بشأن رفيقتنا سعاد !

ثم إن « ريما » عرضت على المديرة اقتراحها : أن تقام ، فى صالة المدرسة ، حفلة صغيرة ، تقدم فيها كل تلميذة ذات فن شيئاً من فنها يسر البنات، ويكون حضور الحفلة لقاء « رسم » تدفعه كل منهن . . . ثم يشترى بالحصيلة شيء نافع تقدمه التلميذات إلى سعاد ، القعيدة فى بيتها ، تنسيها بعض مصابها !

التمعت عينا المديرة — كذلك لاحظت ريما — قبل أن تتوجه بالسؤال إلى أختها :

— وماذا يمكنك أن تقدمى من فنك ، أيتها الصغيرة لمى؟

أجابت لمى :

— أغنى أغنية « ماما يا حلوة » !

— وأنت يا ريما ؟

أعلنت ريما مزهوّة :

— أعزف على الكمان عزفاً بتُّ أحسنه بعد طويل التمرين ، يا آنسة !

وههنا قالت المديرة ، وقد أشرق وجهها بابتسامة :

— إنكما لتؤكدان للإدارة أنكما تلميذتان محبتان للفن . بورك فيكما . (ولكنها أضافت ، وقد اتخذت هيئة أخرى) اسمعى يا ريما ، وأنت يا لمى : لقد خرجنا، بالأمس ، من الامتحان الأول . ومثل هذه الحفلة تحتاج إلى تحضير وتدريب . . . ومعلماتكن مشغولات ،

بهذه الأيام ، بتصحيح أوراق الامتحان وإعداد النتائج ! (وأضافت) على كل حال، لقد قامت إدارة المدرسة بأداء واجبها نحو زميلتكما سعاد كما تعلمان ، أيتها العزيزتان ! !

خرجت « ريما » من غرفة الإدارة، وقد استبد بها حزن . وما كان ليخفف من عظيم حزنها أن المديرة ودعتها ، هى وأختها، بصوت بالغ سمع الآذنة على الباب :

ــ أشكر لكما مشاعركما النبيلة ، أيتها الصبيتان. سلما على أمكما !

فإن ألف شكر عندها لا يعدل أداءها فنها أمام « الجمهور» لحظة واحدة ، ولا إحساسها بصنيع الخير تجاه صديقتها الحميمة سعاد !

وقد جاءت أمها مساءً تبكى . وقصت عليها ما كان من اقتراحها، ومن اعتذار المديرة ! فأبدت أمها إعجابها بالفكرة ، بقدر ما أسفت للاعتذار ... ولكنها طيبت خاطرها بأن معونات قد قدمت إلى رفيقتها على كل حال ، فلم هذا الحزن كله ، وعلام البكاء ؟ وما فات أمها أن تحدث أباها ، والأسرة مجتمعة على مائدة العشاء ، بالاقتراح ، وبالاعتذار ، وبالبكاء جميعاً .

ومن عجب أن رأت « ريما » أخاها الأكبر « خالد » يستفصحها :

ــ هل لى أن أسألك سؤال المديرة ، يا ريما : ما فى وسعك أن تقدمى على المسرح ؟

قالت ريما :

وأجيبك جواب المديرة : أعزف على كمانى !

فقهقه خالد بفظاظة :

ـ أجل ، تلك الآلة التي ثقبت آذاننا باللعب عليها في تمارينك الأسبوعية !

فعاتبته أختها « سوسن » :

أراك تسخر ، يا خالد ؟

وأبوها معتصم بالصمت ، وكأنه غارق في تفكير .

ـ بل أنا أتحقق من مقدار ما تملكه أختانا من الفن ! وأنت ، يا لمي ؟

ـ أنا أغني أغنية ، واثنتين ، وثلاثا . . . أتريد أن أسمعك ؟

ـ لا ، ليس على الطعام ! وماذا عندكما غير هذا ؟

وقد اندفعت ريما ، ههنا ، تقول بحماسة وقد كان أخوها « سعد » الصغير يُنقِّل ناظريه بين الوجوه :

ـ إن أردت الجد . . . لو أن المديرة تعهد إلينا ، أنا ولمى ، بملء برنامج الحفلة كله ، لما صعب علينا !

فهتف خالد :

ـ الله ، الله ! لأنكما فنانتان قديرتان !

وأحست ريما أنها تهان . وهمت بأن ترد على أخيها الكبير بما . . . لولا أن زجره أبوها ، الذي خرج أخيراً عن صمته :

ـ كُفَّ عن هذا ، يا خالد !

ـ ولكنها تدعي ادعاء عريضاً ، يا أبت !

وتوجه إليها أبوها بالسؤال :

ـ أأنت واثقة ، يا ريما ، من أنك لا تغالين فى تقدير مواهبك ؟

ـ أجل ، يا أبى . وإن المسألة أبسط مما يتصور أخى خالد . أستطيع ، أنا ولمى وعدد من زميلاتى أختارهن ، أن نمثل أكثر من تمثيلية صغيرة مما نشاهد فى التليفزيون .

ـ والتحضير لهذا « المشروع » ، ألا يشغلكن عن دروسكن ؟

ـ ساعة فى اليوم ، أو ساعتان ، على مدى ثلاثة أيام أو أربعة :

ـ طيب . . . (وأمعن تفكيراً) ما رأيكما ، أيتها الفنانتان البارعتان ، فى إقامة حفلتكما . . . هنا ، فى البيت ؟ وتدعوان الرفيقات لحضورها ؟ (واستدرك) طبعاً ، بعد الاستئذان من ربة البيت ، أمكما .

لم تصدق ريما هذا الذى تسمعه أذناها . فالتفتت إلى أختها لمى ، فوجدتها مبهوتة هي الأخرى ، فلكزتها بمرفقها :

ـ قولى شيئاً ، يا لمى ! لماذا أنت صامتة ؟

ـ وماذا أقول ؟

ـ قولى إننا موافقتان !

هتفت لمى من فرط الفرح :

ـ يعيش بابا العظيم !

وهمت ريما بأن تردد الهتاف : « يعيش ، يعيش ! » ، لولا أن أمها انبرت تسأل مقطبة الجبين :

ـ ماذا ، يا أبا خالد ؟ حفلة . . . تقام فى . . . بيتى ؟

ـــ نعم ؟

ـــ وعلى أى « مسرح » من « مسارح » البيت ترى أن نقيمها ؟

ـــ على « مسرح » نعلمه فى « قاعة الاستقبال » ، يا عزيزتى وإنها لمكان فسيح .

ـــ والأثاث الذى فيه ؟

ـــ نزيح بعضه جانباً ، ولا خوف على بعضه الآخر .

ـــ أو تحسب أنه ينقصنى مزيد من التعب والشقاء ، حتى تقترح إقامة « حفلة عامة » فى بيتى ؟ !

ـــ ولكن البنتين ، كما ترين أيتها العزيزة ، راغبتان فى أداء فنهما وفى صنع الخير . والمديرة اعتذرت . فَلْنُسْتِحْ ، نحن ، لهما الفرصة . أىّ ضير ؟ إن التربية الحديثة تحتم على الأهل أن يتبنّوا « مشروعات » أولادهم ، ما دام رائدها النفع الخاص والعام . . . بل إن على الأهل أن يشجعوهم عليها ، ويحضوهم حضاً . وإنك لربة بيت تقدرين . .

ورأت ريما أمها وهى تهز رأسها ، أمام منطق أبيها الراجح :

ـــ حسن لا بأس . . . إذا وعدتنى البنتان بالمحافظة على النظافة والهدوء والنظام !

هتفت ريما ولمى بصوت واحد :

ـــ نعدك ، يا أماه .

وعلا ، فجأة ، صوت سعد الصغير :

ـــ ريما ! أريد أن أشترك معكما فى التمثيل ! !

وأعلنت سوسن :

ـ أنا أعد لكما حواراً سهلا عن قصة « سَنْدريلاّ » !

وهتفت لمى من جديد :

ـ تعيش ماما الحبيبة !

فرددت ريما :

ـ تعيش، تعيش ! (وأضافت) أنت أحسن « ماما » فى الدنيا !

وكان لا بد لريما من أن تُشيع ، فى اليوم التالى ، الخبر فى المدرسة : حفلة تقيمها فى بيتها ، تحضرها من ترغب من التلميذات لقاء « رسم » معلوم ، ليشترى بالريع أهلية تقدم إلى العزيزة سعاد ! فتهافتت عليها البنات ، ما بين متسائلة ، ومهنئة ، وراغبة فى الحضور ، وحريصة على الاشتراك فى تقديم فنها الجميل !

وأما أخوها خالد ، الذى أبدى سُخْرَهُ فى اليوم السابق، فقد عرض الآن خدماته بأن يقوم بدور « المخرج » ! على حين عكفت سوسن على إعداد نص مبسط لقصة « سندريلا » ! ولكن سعداً الصغير أبى ، بإصرار عنيد ، أن يكون فى عداد المتفرجات ! فما كان من ريما إلا أن اقترحت عليه :

ـ أنت تقدم أنشودة « وطنى » !

وقد نشطت الأسرة ، فى يوم الحفلة ، نشاطاً لا عهد للبيت به : فأخليت قاعة الاستقبال من بعض أثاثها . . . وأقيم « مسرح » من منصات ضُمّ بعضها إلى بعض ! ورُفع فى مقدمته ستار عريض ! وصفت

الكراسي ، ما هو في البيت منها وما استعير من بيوت الجيران ! وتوافدت بعض البنات مبكرات ، ليقمن بآخر التجارب التمثيلية . وكان سعد لصغير يساعد في الترتيب قليلا ، ويعبث بنظام الحفلة كثيراً . وما كفّ عن عبثه إلا حين هددته ريما بإلغاء دوره إن لم يركن صنيع الأطفال العاقلين !

وتوارد الجمهور في الموعد المحدد . وكان أمراً شيقاً لريما ، وممتعاً لها غاية الإمتاع ، أن ترى إلى المتفرجات ، وهن يجلن بأبصارهن في الأرجاء، ويرين الستار ، وهو ملاءات قد خيط بعضها إلى بعض ، ثم شلها من أعلاها حبل رفيع . وعلى أحد الجدران ، هناك ، علقت لافتة كانت أمها أشارت على لمى أن تخط عليها : « حافظي على الأثاث يا أختاه» ! وما كان ليفوت لمى أن تصنع أخرى تقول فيها : ممنوع أكل البزر » !

افتتحت ريما الحفلة باسم الله والوطن . ثم أفاضت بالحديث عن دواعي إقامة هذه الحفلة « المتواضعة » ، مؤكدة محبتها لصديقتها العزيزة سعاد ، مشيدة بأخلاقها الرضية ، ومذكرة بما استشعرته الرفيقات من حزن لما أصابها في باحة المدرسة في ذلك اليوم المشئوم !

ثم أدت بعض البنات الأناشيد على المسرح . وعزفت ريما على كمانها لحناً مما تلقنت ، فأبدعت في العزف ، وصفق لها الجمهور طويلا !

وكذلك صفقن للمى إذ غنت بصوتها الحنون : « ماما يا حلوة » !

حتى إذا جاء دور سعد الصغير ليؤدي أنشودته الوطنية ، أشفق على نفسه من « مواجهة الجمهور » . . . فإذا هو يولي هارباً ، تاركاً

القاعة لروادها ، ليتوارى فى ركن عميق من أركان البيت ! وحاول أبوه، عبثاً ، بث الطمأنينة فى نفسه لعله يغريه « باعتلاء خشبة المسرح » فالبنات ينتظرون ، مما اضطره آخر الأمر إلى أن يستعين بخالد ، الذى حمله بين ساعديه وحطه على المسرح ، بين تصفيق البنات وضحكهن وتهليلهن . . . وإذا الخجل يزايله ، فيروح ينشد بجرأة وحماسة ! بل إنه ، بعد أن استعذب ما حظى به من التصفيق والإعجاب ، راح يتعلق بأذيال أخيه ، مطالباً إياه بإلحاح ، أن يعيده إلى المسرح لينشد مرة أخرى !

وقدمت ريما ولى وصويحباتهما ، تمثيلية « سندريلا » . وكان خالد قد اتخذ له موقفاً خلف « الكواليس » ، يلقن منه « الممثلات » أدوارهن ، ويوجههن بصوت خفيض !

وقد انفردت لمى بالمسرح ، مرات ، لتحكى حكايات : « عقلة الأصبع » و « القداحة العجيبة » و « تمر حنة » و « عصفور الجنة » ...

* * *

تقلبت ريما فى سريرها ، وهى ما تزال ترنو فى سماء ذكرياتها القريبة : كل شىء قد سار فى الحفلة ليلة أمس ، على ما يرام ؛ ما كدّر عليها هناءتها إلا أن الحبل ، الذى شد به الستار ، قد انقطع قبيل نهاية الحفلة ، فأثار هرجاً بين البنات ! لشد ما جعله خالد رفيعاً واهياً !!

— ولكن . . . ما بال شمس النهار لا تشرق !

لقد كان ريع الحفلة مبلغاً طيباً ! حتى إنها وجدت نفسها تصيح ،

فى انصراف البنات ، طرباً :

ـ ماما ! إن الريع أكبر مما توقعنا . انظرى ، يا ماما !

وأضافت لمى :

ـ لقد امتلأت القاعة بـ « المتفرجات » ، حتى أتينا بكراسى الحمام الصغيرة .

ولكن أمها ما أبدت فرحة ، بل هزت رأسها فى أسف ظاهر :

ـ أجل ، أيتها الفنانتان البارعتان ! لقد قلبتما لى البيت رأساً على عقب ! كم يتعين على أن أشقى ، طوال غد ، قبل أن أعيد كل شىء إلى موضعه !

على حين سأل أبوها ، وقد كان يصغى :

ـ ماذا تنوين أن تشترى بالمبلغ لصديقتنا سعاد ، يا أم خالد ؟

أجابت ، وقد تطلقت أساريرها بعض الشىء :

ـ لا أرى خيراً من معطف صوف يقى البنت برد الشتاء ، متى سارت فى القريب على قدميها .

وهتفت ريما ، وهى ترسل ، من جديد ، ناظريها نحو الفضاء :

ـ هو ذا الفجر قد أسفر !

وفكرت : لقد كانت ليلة ؛ برغم السهاد ، من أعذب الليالى ! حلمت ، فى السويعات القليلة التى أغفت ، أنها تعزف على مسرح حقيقى ، فى صالة تضم جمهوراً غفيراً . . . تعزف على كمانها ـ الذى لم يعد ذلك الكمان المتواضع ـ ألحاناً صعبة الأداء ، انتزعت بها الإعجاب ،

واستحقت الثناء والتقدير ، فقررت الحكومة أن . . . توفدها للدراسة الموسيقى فى ديار الغرب ! !

بل إنها حلمت أنها نزلت مع أمها إلى السوق ، واشترت معطفاً صوفياً رائعاً . . . وحملته إلى المدرسة ، وعرضته على المديرة التى سألتها : « ما هذا يا ريما ؟ » ؛ أجابتها مزهوة : « إنه لصديقتى سعاد . قد اشتريته من ريع الحفلة التى أقمناها فى بيتنا ، يا آنسة ! » ، وودت لو تكمل : « الحفلة التى رفضت إقامتها فى المدرسة ! » . . . فازداد إعجاب المديرة بحماستها ، وفنها ، وحبها للآخرين . ثم إنها أخذت منها المعطف الجميل ، لتطوف به على التلميذات فى قاعاتهن : « انظرن ، يا بناتى ! هذا ثمرة جهود ريما ، وأختها لمى ، ومؤازرتكن . إنه هدية لزميلتكن العزيزة سعاد ! » . . . والبنات ، فى ذلك ، يتمتمن مفتونات : « يا سلام ! أختان فنانتان منذ الصغر ! » . . . . .

وهتفت ريما ، أخيراً :

— هى ذى الشمس . . . قد طلعت !

* * *

حملت ريما صندوقاً من الورق المقوى ، قد لُف بقرطاس زاهى الألوان ، وعقد بشريط حريرى أحمر . وتوجهت به إلى بيت صديقتها سعاد ، ترافقها لمى وإحدى رفيقات المدرسة .

رأت سعاد مضطجعة فى فراشها ، تحوط بساقها الأربطة البيضاء ، ويخالط وجهها شحوبٌ أصفر »

قدمت إليها الصندوق . فتساءلت سعاد فى استعجاب :

ــ ما هذا ، يا ريما ؟ !

ــ لقد أقمنا فى بيتنا ، حفلة تمثيلية ، يا صديقتى . . . حضرتها رفيقات المدرسة .

وتابعت لمى :

ــ وجعلنا الدخول إليها لقاء رسم . فتجمع لدينا ما اشترينا به هذه الهدية لك .

فضت سعاد الصندوق الكبير ، فى لهفة وشوق . وإذ وقعت عيناها على المعطف الجميل ، راحت تشكر صديقتها ريما وأختها لمى ورفيقاتها . ثم ما لبث أن ندّعنها صوت راعش :

ــ كنت أتمنى . . . لو أتيح لى أن أشهد الحفلة مع رفيقاتى، فإنى أكون أكثر سعادة !

وسرعان ما أعلنت ريما :

ــ إننا على استعداد لأن نعيد الحفلة ، متى تم شفاؤك .

ــ شكراً ، شكراً ، يا صديقتى .

وأضافت لمى :

ــ ونزيد عليها مشاهد جديدة ، وأغانى وحكايات !

وضمت سعاد المعطف الجديد إلى صدرها ، وقد اخضلّت عيناها بدموع الفرح ، وقالت :

ــ لقد أنسيتمانى مصابى ، أيتها الصديقتان النبيلتان .

* * *

وفى طريق العودة إلى البيت ، أكدت لمى :

ـ فى الحفلة القادمة ، التى ستحضرها سعاد ، سنشد الستار بحبل متين ، لا يكون رفيعاً ولا واهيا !

فلكزتها ربما بمرفقها :

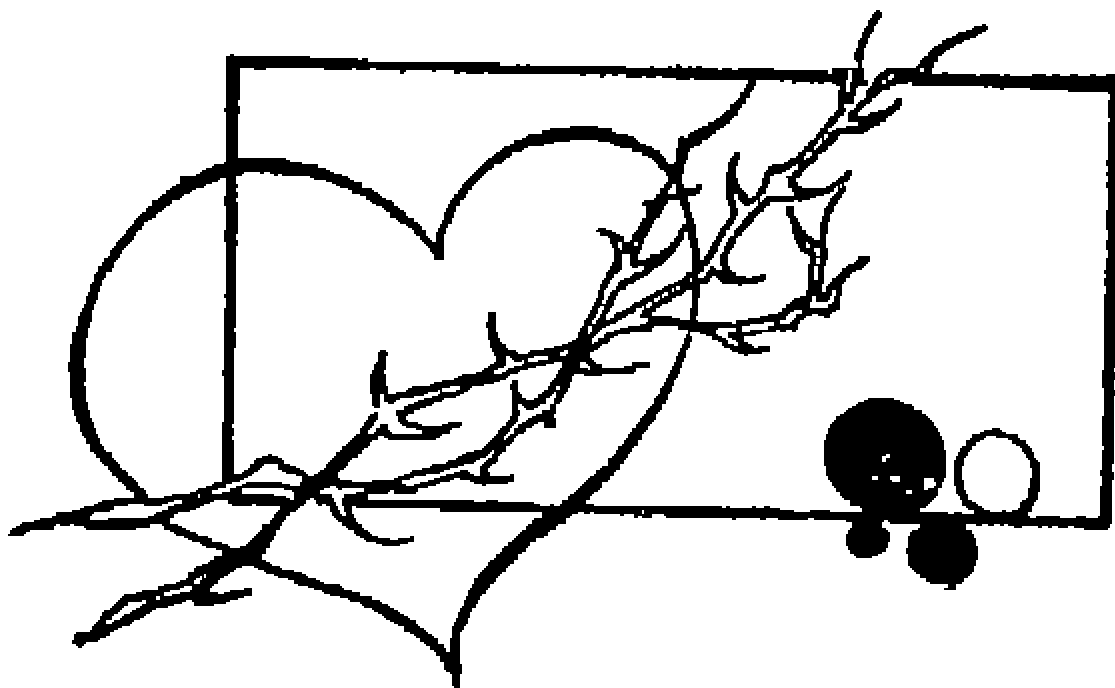
ـ فكرى أولا ، يا أختاه :

من منّا التى تجرؤ على مفاتحة ماما بإقامة حفلة ثانية فى البيت؟ !!

فما كان من لمى إلا أن غمغمت ، وعيناها إلى الأرض :

ـ آه . . . حقًّا ، حقًّا !

عیشانِ سوداوان



« نوران » طالبة مثالية فى مدرستها . فهى ، فضلا عن تفوقها على لداتها فى دروسها ، فتاة مرحة ، رصينة ، لبقة ، قد اجتذبت اهتمام المديرة والموجهات ، وحظيت بحب معلماتها ، وبإعجاب مدربة الفتوة بخاصة ، التى رأت فيها فتاة « انضباطية » تعشق النظام فى أثناء التدريبات اليومية ، حتى لقد عينتها ،على حداثة سنها ، « قائدة سرية » ، وكلفتها بمهمة رفع العلم صباح كل سبت .

ونوران تعرف هذه المزايا فى نفسها، وتعرف أن من ملكاتها حب الشعر ، وهوايتها الأدب ، وغرامها بالموسيقى ، وبراعتها النسبية فى فن الرسم . . . وتعرف ، عدا ذلك ، أنها صبية « حلوة »، كما يزعم الآخرون ــ بغير حق ! ــ أحياناً ، ولكنها كانت حريصة على ألا تدع لهذه « المعرفة » أن تحملها على جناحى الغرور الفتاك : ولطالما تلقت من أبيها ، الساهر أبداً على توجيهها، نصحه بأن تحافظ على نقاء نفسها ، فيقول :

ــ خير ما فى الإنسان الجيد تواضعه الصادق الجميل ، يا نوران !...

على أن أمراً يحيرها الحيرة كلها فى المدرسة : فبقدر ما تحبها موجهة صفها « الآنسة هدى » ، وتوليها اهتماماً ، وترئسها على بنات الصف الأذ (العاشر) لتنظم اصطفافهن ثم سيرهن نحو قاعة الدرس، كانت موجهة أخرى ، هى « الآنسة وسيلة »، تناصبها نوعاً من العداء السافر ، والغامض الأسباب والمسوغات ، كلما سنح لها سانح من الفرص ،

فهى لا تخاطبها إلا ووجهها مختلج بالغضب والاستياء – لا تدرى لم ! – وإذا صادف أن مرت بها فى الباحة لم يكن نصيبها منها إلا نظارة شزراء! هذا إذا لم تستدعها إليها ، بإشارة من يدها غير مستلطفة، لتسألها شيئاً أو توجه إليها انتقاداً لا محل له ! . . . .لذلك لم تستغرب نوران – وإن تألمت أبلغ الألم – ساعة نادتها الآنسة وسيلة، لتشدها ، من أعلى كمها ؛ هكذا ، فى صورة أقل ما توصف به أنها تعبير فاضح عن عاطفة سيئة يكنها إنسان لإنسان !

والحق ، أن أول ما بدا لنوران من الآنسة وسيلة كان فى مطلع العام الدراسى .، وللموجهة مستجدة فى المدرسة . وقعت عينها عليها وهى فى الباحة ، فأمعنت فيها النظر قليلا، ثم ما لبثت أن استدعتها بتلك الإشارة غير المستلطفة من يدها ، منادية إياها بملء فيها :

– أنت ، أنت ! تعالى هنا .

ثم تسألها بامتعاض :

– لماذا تُكَحِّلين عينيك ، أيتها الطالبة ال . . . نجيبة ؟ !

ولم تكن نوران بالفتاة التى ترضى أن تمر بالمرود على عينين قد وهبهما الله حوراً بادياً وهدباً أسود يغنيان عن مراود الكحل الغناء كل الغناء . ولكن الموجهة التبس عليها الأمر. ونوران تصحح لها الظن دون جدوى ! . . . وقد انتهت المحاورة بأن انتهرتها الموجهة مختلجة الشفتين فى غضب :

– امشى من قدامى . . إذا رأيت عينيك ، مرة ثانية ، مكحلتين ... فسوف أعاقبك !

وقد حدثت نوران ، فى مساء ذلك اليوم ، أباها. فأمسك عن الكلام لحظة . . . ثم أعلن وهو يبتسم :

ــ هذا جزاء من وهبت عينين مثل عينيك، يا ابنتى ! إذن . . . فقد حسبت أن فيهما كحلا أسود! (وضحك طويلا) كحلا أسود !! (ثم استفصحها) ما لون عينى آنستك، يا نوران ؟ بل ما شكلها ؟ أهى . . . ؟ أم أنها . . . ؟ أو هل هى متزوجة وذات أولاد؟ (ثم انتهى إلى القول) إن من المتوقع أن تظهر من هن فى مثل حالها عواطف من هذا القبيل ، نحو من هن مثلك، يا ابنتى ! فتجملى بالصبر والأناة . إن هذا فى جبلة الإنسان .

وكان لا بد لنوران ، مع هذا الرأى الذى أعلن أبوها بين المزاح والجد ، أن تتدرع بالصبر بإزاء مضايقات الآنسة وسيلة ، وهى ترى منها فى كل حين عجباً، فتعود إلى البيت لتحدث والديها : فتتميز أمها غيظاً لما تبدى الموجهة من فنون العداء نحو بنتها، ويكظم أبوها ما فى صدره ببسمة تنتهى إلى أن يقول فى أسى :

ــ ذلك من طبائع المرأة ، يا نوران . إن مثل هذا لا يقع فى مدارس الذكور ، يا ابنتى . تجملى بالصبر ، ولا تجزعى !

صبرت نوران ، ولم تصبر أمها . . . فذهبت يوماً إلى المدرسة ، وزارت المديرة ، التى أشادت بتربية نوران إشادة أبجمت لسان الأم عن أن تعلن مآل شكواها من تلك الموجهة القاسية. ثم تحولت إلى غرفة الموجهات ، وما كان فيها غير الآنسة هدى ، التى انكفأت ، الأخرى ،

تطرى نوران إطراء لم تكن الأم لتتصور أو تتتوقع :

ــ بنتك مثال للطالبة المجدة ، المرحة ، التى يعز نظيرها فيمن نرى من البنات . . . كم عمرها ؟

أجابت الأم :

ــ ستة عشر

فتمتمت الآنسة هدى بعبارات لم تتبينها الأم ، ولكن خيل إليها أنها سمعت كلمات مثل : « يا خسارة ! » . . . « صغيرة بعد! » ...

واتفق ، فى تلك الأثناء ، دخول مدربة الفتوة إلى الغرفة. وما كادت تعلم أن الزائرة هى أم نوران حتى انطلق لسانها :

ــ أحسن الفتيات عندى انضباطاً هى نوران. كلفتها ، العام ، بمهمة رفع العلم . وهى مرشحة لأن تكون « الأسبوعية » ، التى تهتف فى ظلال العلم، فى العام الدراسى الآتى ، عندما تمسى فى أعلى صفوف المدرسة !

غادرت الأم المدرسة وما قضت من الوطر إلا أن عادت محملة بآراء إعجاب بابنتها غير محدود . فهان عليها ، بعدها، ما تلقى البنت من مضايقات موجهتها . وأخذت تحضها مثل أبيها ــ على التجمل والتحمل . . وقد أصاخت نوران كدأبها ، ولكن للصبر حدوداً . . . أفيعتبر ، من قبيل التحلى بالصبر والأناة ، أن تسكت على الآنسة وسيلة إذ أمسكت بها ، من أعلى كمها ، بكلتا أصبعيها ، وشدتها هكذا

إلى غرفتها ، فى صورة أقل ما توصف به أنها . . . . . ؟ ؟

* * *

كان المرح قد استخف نوران ، فى ذلك اليوم الجميل ، واستهواها الصبا ، والشمس الدافئة ، والهواء العليل ، فدخلت الحلبة ترقص بين أترابها . بدأت إحداهن الرقص ، وهن فى قاع المدرج الأثرى ، ولما صعدن إلى قاعدة المسرح أخذت أخرى بالرقص ، وتبعتها ثالثة ، فرابعة ، فخامسة . . . . فاستخفها — هى الرصينة — المرح ، فما كان منها إلا أن تقدمت وسط البنات ترقص ، وترقص ، وتبدع فى رقصها . كفت البنات الخمس ، واصطففن جانباً يشهدن . وصفقت الزميلات على إيقاع ، وقد تبدى فى عيونهن طرب ومرح وإعجاب ، ولكن أخريات كانت عيونهن تشى بعاطفة من نوع ما ! والسياح والسائحات ، الذين كانوا جلوساً على المدرج يستروحون أنسام الشرق ويستمتعون بشمس السماء ، قد نهضوا ، هناك فوق ، واقفين . . . . وقد التمعت بين أيديهم آلات التصوير !

هتفت إحدى البنات مجبورة :

— الأجانب يلتقطون لنا صوراً !

وشهقت أخرى فى استعجاب :

— أوه ! تلك آلة تصوير سينمائى ، فى يد ذاك الأشقر الطويل النحل يدور بها علينا ، ، ثم . . . يوجهها إليك ، أنت أنت ، يا نوران !

ونوران تتابع رقصها ، الذى جاء ، مع غرامها بالموسيقى ، عفو الخاطر والإلهام .

صرخت ، فجأة ، إحداهن بصوت يرتعش :

— كفّى عن طيشك ، يا نوران ! إنك لتسيئين إلى حياتنا الشرق ! ما تراهم يقولون عنا فى بلدهم ، غداً ؟

توقفت ، ههنا ، نوران عن الرقص وتساءلت مبهورة النفس من تعب :

— وماذا تحسبين يقولون عنا ؟

كان الصوت المرتعش قد استحال إلى باك : أدارت صاحبته وجهها إلى وراء . . .

وانبرت فتاة تقول فى حماسة :

— إن الرقص أجمل تعبير عن المرح والسعادة . نوران تستحق منا الثناء ، لا أن تثورى وتبكى ، لأنها منحت غرباء عن شعبنا فرصة أن يشهدوا كيف نلهوا ، لهونا البرىء ، فى ساعات فراغنا !

وإذ عادت نوران من رحلتها مساء منهكة القوى . علمت أن فى غرفة أبيها « خطاباً » قد جاءوا يطلبون يدها . ثم علمت أن أباها قد اعتذر لهم عذره المعهود :

— نوران بنت ستة عشر ، صغيرة ، لا أزوجها ؛ ولا أخطبها ؛ حتى تدخل الجامعة فتنال أعلى مراتب العلم . بنتى ذكية وناجحة !

وقد حدثت ، فى الصباح التالى ، بعض صويحباتها ، عن الخاطب الذى . . . زارهم فطربن لهذا الحديث ، وضحكن ، وعلقن عليه

تعليمات شتى ! ولعل إحداهن تسللت ، فى الفرصة الأولى ، إلى غرفة الموجهات ، فهمست ، فى أذن الآنسة هدى ، همسة ما . . . ذلك أن الموجهة الطيبة لحتها فى الصالة بعد دقائق ، فنادتها :

— نوران ، نوران !

— نعم ، هدى خانم ؟

— سمعت أنك . . . تُخْطبين !

استغربت نوران :

— أنا أخطب ؟ ! (وقد اعتراها ارتباك) لا ، لا !

— ألم يأتكم خُطّاب ، ليلة أمس ؟

— من أين علمت ، هدى خانم ؟

— حدثتنى الحمامة !

— جاءوا . . . ولكن أبى اعتذر لهم بأنى صغيرة السن .

وطارت نوران إلى صويحباتها :

— من منكن حدثت موجهتنا بحديث خطّاب أمس ؟ لتعترف « الحمامة » التى نقلت الخبر !

وأنكرن جميعهن ، وضحكن طوال الفرصة . وطغى على نوران ، خلال الدرس الثانى ، إحساس جميل هو مزيج من الفرح والسعادة والظفر والنجاح ، وبالاختصار : إحساس بأنها امتلكت العالم . وكان هذا الإحساس الرائع كفيلا بأن يلازمها الفرصة ، والدرس الذى يليها ، والنهار كله ، وبضعة الأيام الآتيات ، لولا أن . . .

سعت نوران ، فى الفرصة الثانية ، إلى غرفة الموجهات لتسأل الآنسة هدى فى أمر . قرعت بإصبعها زجاج الباب ، ودخلت . أدارت لحاظها فى أرجاء الغرفة :

ــ هدى خانم . . . ليست هنا ؟

وتراجعت إلى الوراء . كانت الآنسة وسيلة تحادث بعضهن ، وظهرها إلى الباب . وشدت نوران الباب وراءها بهدوء كما فتحته . ولكن بدا أن الموجهة التفتت نحو الباب لحظة إغلاقه ، فلمحتها . . . فإذا هى ترفع من صوتها مطلقة نداءها عينه :

ــ أنت ، أنت . . . تعالى !

كانت نوران قد أغلقت الباب ، وسارت فى الصالة بضع خطوات ، وهى تفكر : أتراها تقصدنى ، أنا ؟ وتوقفت فى منتصف الصالة : لا بد !ـ فاسمى عندها ، لا يعدو ضمير المخاطبة المكرر : « أنتِ، أنت ! » . وارتدت إلى الغرفة تبغى المثول أمامها .

فى هذه اللحظة فتح الباب ، وبدا من ورائه وجه الآنسة وسيلة الغاضب ، وهى تقول فى صوت حانق :

ــ أناديك . . . فتهربين ؟ !

أجابت نوران فى دعة :

ــ وسيلة خانم . . لم تناديني باسمى . . . وقد فكرت ، وقدرت أنك تقصدينني . . . وهأنذى أعود إليك . . . نعم ؟ جئت أرى هدى خانم . . .

لم تأبه الموجهة بما قالت نوران . فقد كان همها إلى شيء آخر : اندفعت نحوها ، ، ومدت إليها يداً ، وأمسكت بها ، من أعلى كمها الأيسر بنهايتى إصبعيها ، كما يمسك السايم الأجرب فى حالة اضطرار .. وأخذت تشدها إلى غرفتها شداً ، على مشهد من بنات اتفق مرورهن فى الصالة ، وعلى مرآى أولئك اللواتى كن داخل الغرفة !

أحست نوران أنها تهان ! احتجت :

— لماذا تشدينى هكذا ، يا آنسة خانم ؟

— وكيف تريدينى أن آتى بك ؟ أحملك على الراحات ؟ ! هيا قولى لى : ماذا فعلت ، فى رحلة أمس إلى مدرج « بُصْرَى الشام » ؟

بادرت نوران تقول :

— إن كنت تعنين الرقص ، يا آنسة . . . فإنَّا قد رقصنا .

— رقصت ، إذن ؟ !

— بلى .

— وبوقاحة تعترفين ؟ !

أحست نوران أنها تصفع صفعاً أليماً :

— إنى أقول الحقيقة ، يا آنسة . . . حقيقة ليس فيها ما يشين . فلا داعى لأن تصفينى بالوقاحة !

وأقبلت ، فى هذه الأثناء ، الآنسة هدى .

— . . . ومشاكسة ! فظاعة : ما رأيت أكثر منك وقاحة !!

— احتجت نوران :

ـ أرجوك ، وسيلة خانم !

ـ أرجوك ، وسيلة خانم !

تساءلت الآنسة هدى ، فى رفق :

ـ ماذا فعلتِ ، يا نوران ؟

ردت الآنسة وسيلة :

ـ أرأيت ؟ ! بناتنا يأتين خلاعة فى محل عام ، وعلى مشهد من رجال يقومون بتصويرهن ! !

سألت الآنسة هدى فى غير تصديق :

ـ ونوران فعلت ذلك ؟

ـ كانت أكثرهن خلاعة !

تعيَّن على نوران أن تدافع عن نفسها ، وهى تحس وجهها يشتعل خِزْياً :

ـ كنَّ بنات خمساً ، وأنا سادستُهنَّ . رقصنا ، داخل حلقة من زميلاتنا ، فى رحلة أمسِ ، ياهدى خانم .. وأى ضير ، فى هذا ، ونحن فى ساعة لهو برىء ؟

جأرت الآنسة وسيلة بصوتها الغاضب :

ـ و « الكَمِرات » ، فى أيدى الأجانب ، التى دارت ؟ ياقلَّة الحياء ! ياللأخلاق التى انعدمت ! جاءتنى إحدى البنات ممَّن كنَّ فى الرحلة ، صباحاً ، تبكى وتشكو . لو أنى نقلت الحادثة إلى المديرة ، فأى إجراء صارم يمكن أن يُتَّخذ بحقك ، يا . . . رافعةَ العلم ؟ ! ! -

* * *

عادت نوران إلى بيتها ، ظهراً ، دامعةَ العينين : أية جريمة اقترفت حتى تنال هذه الإهانات كلّها ؟ إن موجّهة صفّها ، حتى الآنسة هدى الطيّبة المحبة ، لم تستطع أن تَدْفع عنها بكلمة واحدة : ذلك أن الهجوم كان مُبَيَّتًا ، مركّزاً ، يَفْلُج ! ربّاه ، ماذا تفعل ؟ أين أبوها تقصّ عليه هذه الظّلامة الجديدة ؟

واحتدّت أمها ، وهى تحكى لها كيف أخذتها الآنسة وسيلة ، من اعلى كمّها ، بإصبعيها :

ـ لا تقولى : الآنسة وسيلة . . . إنها « وسيلة إلى الشرّ » ! عودى إلى مدرستك ، واعرضى الحكاية على أبيك ، مساء ، فنسمع رأيه .

وعادت نوران إلى المدرسة ، حضر جسمُها والعقل غاب . متى يئين موعد الانصراف لترى أباها ، وتحكى له ، وتبكى بين يديه ؟

سألتها صويحباتُها عن دواعى ثورة الآنسة وسيلة فى غرفة الموجّهات ؟ فحدثتهن بما كان . . . فأجمعن على أنها مُبْغِضة لها بغضًا موصولا وغير مُسْتَتِر . . . وتساءلن عن السبب ؟

وما هو إلا أن أقبلت عليها بنات من صفّ آخر من صفوف المدرسة ، وساءلْنَها ــ الأخريات ــ عما أتت فى رحلة أمس ، من فعل إدّ ؟

عجبت نوران أبلغ العجب ، واستفصحتهن واجفةَ القلب :

ــ وماذا سمعتنّ من فعلى الذى أتيت ؟

ـ جئنا نسألك . دخلت موجهتنا ، الآنسة وسيلة ، قاعة الصفّ ، قبل دقائق . كانت إحدى البنات قد ضُبِطَت ، فى امتحان الصباح ، مُتَلَبِّسَةً بالسرقة من دفتر فى دُرْجها . ونُقِل أمرها إلى الإدارة ، فجاءتنا الموجهة الآن تعلن : « ماشاء الله ! ما شاء الله ! بناتنا ، هذه الأيام ، يفعلن الأعاجيب : إحداهن تُضْبَط ، اليوم ، وهى تغشّ فى امتحان ! ويوم أمس فعلت رافعةُ العلم ، نوران ، فى الرحلة إلى بُصْرى الشام ، ما فعلت ! » . . . فأىّ فعل ارتكبت ، فى الرحلة ، يا نوران ؟

لم يبق لنوران إلا أن تفقد عقلها : أهى حملةُ تشهير تشنّها عليها هذه « المربّية » الحقود ؟ آه ، تشدها من كمّها بإصبعيها ، ثم تُشَهِّر بها فى الصفوف ؟ ! وليتها أفصحتْ ، فى تشهيرها ، عن حقيقة ما « فعلت » فى مدرّج بُصْرى ، حتى لا تُطلِق للخواطر أعنّة الخيال ! ! أية « مربّية » ، هذه « الوسيلة » البارعة إلى الشرّ والأذى والإيلام ؟ أى قَدَر رماها بين يدى هذه المعذّبة الظالمة !

وبكت فى البيت ، أمام أبيها . . . وأهرقتْ غزير الدموع .

ـ لا تبكى ! (انتهرها أبوها فى شدّة) لا أريد لعينيك أن تدمعا بإزاء موقف كهذا . ولكنى أريد لعقلك ، الذى ربّيتُ ، أن يعمل : ما كان للدنيا أن تخلو . يوماً من الحاقدين والأشرار والظّلام . وإلا كانت الفردوسَ الموعود . إن فى الدنيا ظلماً ، بقَدَر ما فيها من العدل والإنصاف ، يا ابنتى .

كفكفت نوران دمعها :

ــ أريدك ، يا أبتِ ، أن تذهب معي إلى المدرسة .

ــ لن أذهب . . . لا ، ولن أتدخّل !

تطلّعت نوران إلى أبيها عاجبة .

ــ لقد علّمتك كيف تتصرفين في حال الصّفْو وفي حال الكَدَر جميعاً : هيّا أجيبيني : ما ينبغي أن تفعلي ، غداً ، يا نوران ؟

فكّرت :

ــ سأشكو .

ــ ولمن الشكوى ؟

ــ لمديرة المدرسة .

ــ وماذا تقولين للمديرة .

ــ أحكي لها كل ما كان من الآنسة وسيلة نحوي : من البداية ، حتى تشهيرها بي ، في أحد الصفوف ، مساء اليوم .

ــ ودون أن تعرّضي بالموجّهة التي قست عليك ، أي تعريض . قصّي عليها الحقيقة بتجرّد مطلق . ثم دعي لها ، هي الإنسان المُنْصِف ، أن تحكم بما يوحيه لها ضميرها . . . وتعالي فأخبريني .

* * *

ــ . . . أجل . تلك هي الحقيقة كاملة ، ياآنسة خانم . أمسكت بي ، هكذا ، وشدّتني إلى داخل الغرفة ، على الرغم من أني مستجيبة لندائها من تلقاء نفسي ! اعترفتُ لها بأني رقصتُ مع من رقصتْ من زميلاتي ، فوصمتني بالوقاحة والمشاكسة ! وفي المساء أعلنت في أحد صفوف المدرسة ، أن رافعة العلم ، نوران ، قد فعلت ، في الرحلة إلى بُصْرى

الشام ، ما فعلت ، حتى جاءت البنات يسألنى !

قالت المديرة ، وهى ما تزال مقطّبة الجبين :

— ألا تعتقدين أنك أخطأت فيما سلكت فى الرحلة ؟

أجابت نوران :

— عرفتُ ، بعد ، أنى أخطأت ، وكل منّا معرّضة للخطأ ؛ فأنا بحاجة إلى إرشاد . من موجّهة صفّى : وأما الإهانة ، وأما التشهير ، من موجّهة أخرى ، فهو . . . إنه . . .

وأمسكت .

حدّقت فى المديرة : إنها تمعن تفكيراً . هل لا مستْ قناعتَها ؟ لتمضِ فى شكايتها :

— إن حظّى ، مع الآنسة وسيلة ، كان ، من البداية ، غير موفّق ! من يوم أن وقعت عينُها علىّ ، فى مطلع العام ، نادتنى وأنا فى الباحة « أنت ، أنت ! تعالى هنا ! » ، فلما جئتُها قالت لى : « لماذا تُكَحِّلين عينيك، أيتها الطالبة النجيبة ؟ ! » ، قلت لها : « أنا لا أُكحِّل عينىّ ! » ، ولكنها تابعت تزجرنى : « قولى لماذا تكحِّلين عينيك ! أنت تلميذة ، ها ؟ ! » ، حلفتُ لها : « آنسة ، والله ، أنا لم أكحِّل عينىّ ! » ، انتهرتنى : « لا تكذبى ! يعنى إذا حلفت تظنِّين أصدِّقك ؟ إذا رأيت عينيك ، مرة ثانية مكحَّلتين ، فسوف أعاقبك ! يا الله ، امشى من قدّامى ! » . . .

لمحت نوران بسمة على شفتى المديرة ، سُرعان ما غاضت :

– حسن : عليك أن تعتذرى إلى الآنسة وسيلة !

تساءلت نوران :

– أعتذر إلى الآنسة وسيلة ؟

أكدت المديرة ، وقد عاد إليها قطوبها :

– اعتذرى إليها أولا . . . ودعى لى بقية الأمر .

انعطفت نوران بأدب ، وتراجعت إلى الوراء خطوة ، وهى تقول باشة الوجه :

– أفعل ما تأمرنى به الآنسة المديرة .

ورأت المحيا العابس يهش ويتبسم . وقبل أن تبارح الغرفة ، كانت يد المديرة تتلمس موضع زر الجرس فى الجدار وراءها .

والتقت ، وهى فى الباب ، بالآذنة ، التى أسرعت تستجيب لنداء الجرس .

ثم ترامى إلى سمعها ، قبل أن تبتعد عن الباب صوت المديرة وهى تقول فى لهجة لا تخلو من حدة :

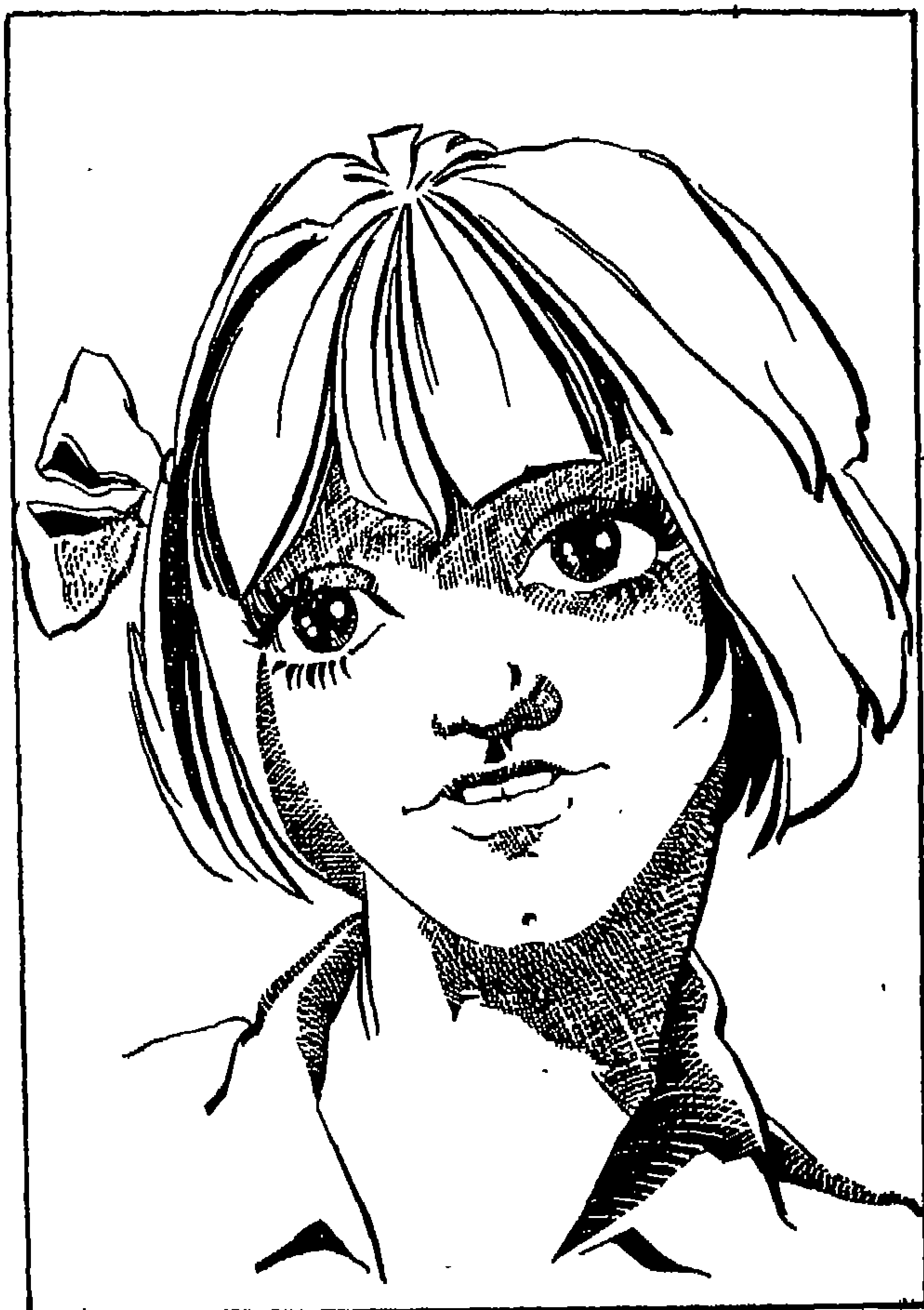
– نادى لى الآنسة وسيلة :

فكرت نوران فى حبور : إلى أى حد وُفِّقْتُ فى عرض مسألتى على المديرة ؟ لقد كانت تُدارى بسمة همت ، مرة ومرة ، بأن تطفر إلى شفتيها . . . أو هذا ما خيل إلى !

ولكن . . . عليها ، أولا ، أن تقدم اعتذارها .

* * *

فى الفرصة التالية ، سعت نوران إلى غرفة الموجهات : تسمرت ،



لحظةً ، وراء الباب متهيِّبة . ثم قرعت بإصبعها زجاج الباب ، ودخلت . أدارت لحاظَها فى أرجاء الغرفة ، فرأت الآنسة وسيلة والآنسة هدى ، وأخريات . ولكنها أحسَّت بجوٍّ من الوجوم يَرين على الغرفة . وكانت الآنسة وسيلة مصفرَّة الوجه .

اقتربت منها بأدب . وبصوتٍ خفيض ، وعلى مسمع من الآنسة هدى قالت :

ـــ أعتذر عمَّا بدر منى فى الرحلة ، يا وسيلة خانم !

زمّت الموجِّهة شفتيها، وكأنها خائفة أن يُفْلِت منهما ما لا يُشتَهى وصَرَفَت بأسنانها من غيظ كظيم . واضطرب صدرها يعلو ويهبط . . ثم لم تلبث حتى انفلت من فمها صراخُ مَنْ فقد السيطرة على زمام نفسه :

ـــ أغربى عن وجهى ! أنتِ ، أنت ! لا أريد أن أراك ! لا أريد أن : : .

متراجعةً إلى الوراء ، تتلمَّس بكلتا يديها كرسيًّا ، ورأسها يتلوَّى ذُعِرَتْ نوران ، وآدها أن ترى إحدى مربيات المدرسة تتألم أمامها وتساءلت : أأكون أنا السبب فى هذا الذى تشهده عينى ؟

هُرِع إلى الموجِّهة بعضهنّ . وأسرعت الآنسة هدى بكأس ماء دلقتها فى كفّها ، ومرَّت بها على الوجه الذى ازداد شحوبًا .

وقد سألت نوران موجّهتها ، فيما بعد :

ـــ هل تراني ارتكبت حماقة باعتذارى ، وأنا لا أعرى ؟ !

أجابت الآنسة هدى :

ـ لا ، أنت لم تخطئى فى تصرفاتك قطّ ، يانوران ولكن . . . ماذا أقول ؟ (بدت لها الموجّهة الطيبة وكأنها تبحث عن العبارة المناسبة) إن كياستك . . . إن صَفْحَك . . . إن أسلوبك فى الاعتذار . . . وأشياء أخرى ، كانت كلها فوق احتمال زميلتنا ، يا نوران ! !

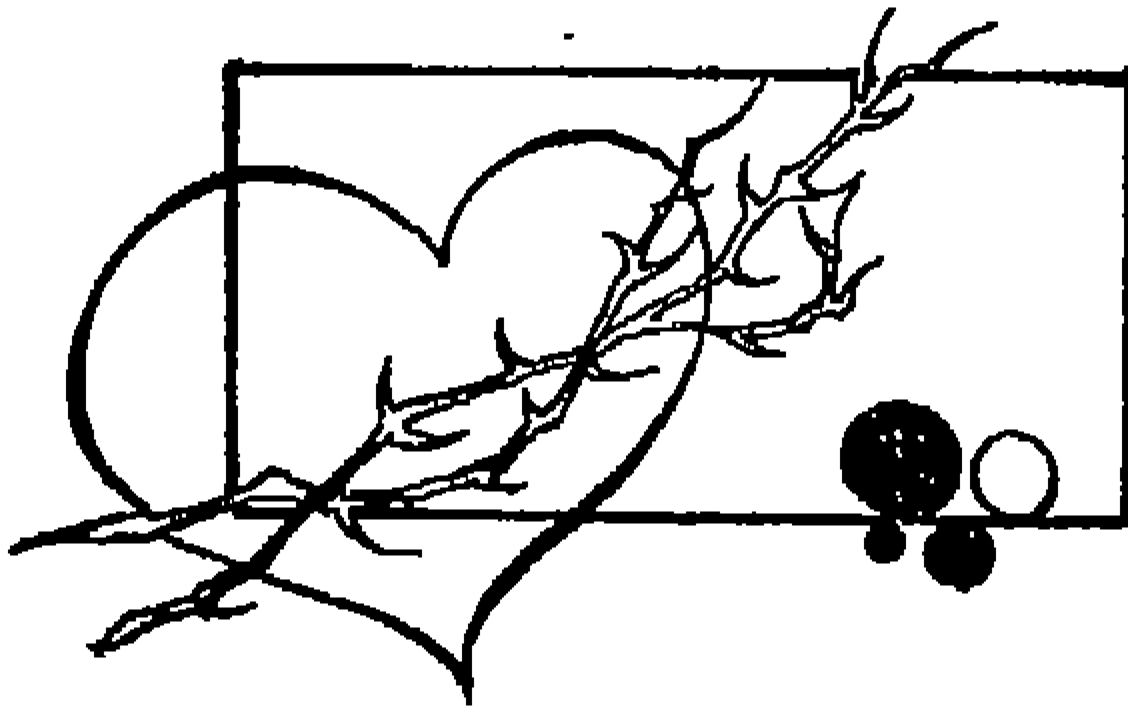
فكّرت نوران بهذا القول طويلاً ، وتساءلت : هل صمودى أمام عدوانها هو ما كان فوق احتمالها ؟ أم أن عداءها لى ، الموصول السافر ، هو الذى أولى به أن يكون فوق احتمالى ؟ !

وقد أعلنت إحساسها ذاك أمام أبيها ، مساءً ، وأضافت :

ـ أريد أن أتبيّن وجه الحقيقة ، يا أبت !

ولم يفصح أبوها . ولكنه أحدّ النظر فى عينيها السوداوين ، وبسمةٌ ذات مغزى ترتسم على شفتيه .

صبية عاقلة جدًّا



أفلحتُ – حتى اليوم – فى أن أنتزع إعجاب اثنتى عشرة فتاة ، و « ل ٢ » هى الثالثة عشرة ، وأنا ، بعدُ ، فتى فى آخر مرحلة دراسته الإعدادية ! أسجّل ذلك بنفسى بافتخار ، وأنا أزهو على أقرانى فى كسب ودادهنّ .

وليس يقتصر « نشاطى » على محيط القريبات ومعارف الأهل . ولكنى أتصدّى لكل غادة صغيرة تستهوينى فى رواحها إلى المدرسة ، أو فى عبورها الشارع الذى أسكنه .

بات الأمر عندى هواية ، كهواية بعضهم جمع طوابع البريد . وإنى لأدوّن ، فى دفتر أحفظه ، أسماءهنّ . . . وإذا توخّيت الدقة قلت : رموزاً تدلّ على أسمائهنّ ، وذلك حفاظاً على « سرية العمل » واتّقاء أن تَفْسد الأمور إذا ما وقعت « الوثائق » (أعنى : رسائلهنّ ورسائلى) فى يد أمى !

ولكنى ، منذ أيام ، وأنا أسائل نفسى فى حيرة : هل لى أن أسلك اسم الفتاة « ل ٢ » فى دفترى ؟ !

إن من عادتى ، إذ أتصدى لهنّ ، أن أبدأ مناوشتى بِرِنْوَة من عينى ! وأتطلع ، فى المرة الثانية ، وأنا أدفع من صدرى آهة معذبة ! ! حتى إذا استلفتُّ نظرها ، دنوت منها ، وهمست فى خجل بِتُّ أملك القدرة على اصطناعه : . هل تسمح الآنسة بكلمتين ؟ ؛ وقد أضيف : « إنى ، منذ ليال ، لم أعرف طعم النوم ! » . وغالباً ما تضطرب الفتاة

الصغيرة لدى سماعها ذلك ، فتهرع إلى أمها ، لا لتشكو لها أمرها ، ولكن لتستجمع فى أحضانها شجاعتها ، استعداداً لأن تتلقى منى البوح فى الغد التالى !!

إلا أن « ل٢» ، هذه الصبية التى طالت قامتها — فى هذا الموسم — أكثر من لداتها . . . لم تضطرب ، إذ تصديت لها فى الساحة تحت ، ولم تجزع ؛ بل التفتت إلىّ قائلة بثبات :

— إذا كنت تشكو الأرق ، فخذ حبّة منوّم !

وقد كنت جديراً بأن أحسن الظنّ — لو أنها ابتسمت مع هذا الجواب الغريب ! فأقنع نفسى بأنها ترمى إلى مداعبتى ! ولكنها قالت ما قالت فى لهجة « حيادية » فكيف يحق لى أن أدون اسمها فى دفترى ؟ !

أقول : إذا كان من دأبى أن أحقق نجاحاً فى انتزاعى إعجابهنّ ، فأبثهن هُيامى فى رسائل وفى لقاءات أسترقها وإياهن فى الشوارع المجاورة لمنازلنا ، أو أدعوهنّ لتناول طبق من « الكاتو » ، أو أهديهن شرائط من حرير . . . . إلا أن الأمر ليس سهلا هيناً على الدوام ؛ إن علىّ أن أعترف بأن منهن من استعصين على براعتى ، فلقيت من أجلهن المتاعب : بعضهن شتمنى ! وبصقتْ فتاة ، مرة ، فى وجهى ! وبلغ الغضب بإحداهن حد أن أهوت بكفها على صفحة خدى فى صفعة رأيتها أحلى مذاقاً من العسل ! ولن أنسى « أباً » عرك أذنى ، وتوعدنى بما هو أدهى إذا ما عدت للتعرض لابنته ! وكيف يفوتنى أن أذكر معركة خضتها مع « أخ » كان أعلى منى قامة وأشدّ ضراوة ، خرجت منها مدمى الوجه ممزق

الرداء ! . . . إن ذلك كله لا يخجلنى أبداً ! ولكن ما حيرنى حقاً ، هو لقائى – الساعة – بأبى « ل٢ » ، ذلك الكهل المهيب ؛ لقاء تمنيتُ معه لو يصفعنى أو ينهال على ضرباً ، كى يمنحنى مسوغاً للهرب . . . ولكنه كلمنى وحسب ، وردّ إلىّ رسائلى !!

فأية أسرة « مدهشة » هى أسرة « ل ٢ » ، هذه الصبية الثابتة الجنان ؟!

* * *

كثيراً ما بصرت بها ، وأنا متخذ موقفى فى مدخل الشارع بجوار بيتنا ، فى مرورها من أمامى إلى حيث منزل أهلها فى منتصف الشارع. إنها ذات شعر كموج الليل ، وعينين مغرقتين بالسواد . لم تكن تسترعى اهتمامى حتى الصيف الذى مضى ؛ ولكنى رأيتها ، فجأة ، تشبّ وتطول ، حتى لقد فاقت أترابها ، وحاذتنى طولا ، مع أنى أكبرها – كما أقدّر – بعامين أو نحو ذلك .

كانت تدخل الحارة رزينة وديعة ، وهى تحمل حقيبتها المدرسية ، وحيناً – فى الليل بخاصة – تحمل آلة « الكمان » فى صندوقها الأسود ! لقد فطنت ، منذ البداية ، إلى أن هذه الصبية البارعة الجمال سيكون لها شأن يذكر . إنها من طراز من البنات مختلف . أفلا ينبغى أن أضمّ اسمها إلى أسماء « رفيقاتى » فى دفترى ؟ !

أعرف أن اسمها « لينا » . وأذكر أنى رجعت ، مرة ، إلى « القاموس » لأتعرف على معنى هذا الاسم الجميل الذى يشيع بين بنات اليوم . . . فإذا هو

إليَّن من النخل ! وإنها ، والله ، لطرية العود، هذه الـ « لينا ». ومشوقة كـ . . . النخيل !

رحت ألاحقها برنواتى ، حتى ظفرت بانتباهها . فلما التفتت إلىّ تصنعت اضطراباً ، وأغضيت ، واحمارّ وجهى ! (إن لى قدرة على بث الدم فى أرجاء وجهى ، لحظة أريد !) . . ثم أصبحتْ ، من بعدُ ، هى التى ترسل نظرها إلىّ حيث أقف فى فم الحارة . وزفرتُ ، وأطلقت آهاتى الوالهة . ودنوت منها :

— هل تسمح الآنسة بكلمتين ؟

وما أسرع ما أجابتنى :

-نعم ؟

وسرت بجوارها :

إنى . . . — إنى ، منذ ليال ، لم أعرف طعم النوم !

وندّ عنها سؤال لا يخلو من استعجاب ، فيما هى تتابع سيرها لا تلوى :

لم تعرف طعم النوم ؟ !

وتسمَّرت فى موضعى : لئن كنت قد وفقت إلى استلفاتها على نحو يرضينى ، إلا أنها — ها هى ذى — لا تفسح لى مجالاً لقول ! حسن ، فإن فى وسعى أن آسرها « بالكلمة المكتوبة » . . .

« لينا » !

وفتحت اللغز . الرمز «ل» .

ونظرت : إن الفتاة رقم«٦١» كان اسمها « لمياء » وكنت أخاطبها ،

قبلي أن نفترق بخصام، بـ «ل» مجرّدة . فـ «ليكا» إذن : «ل٢» !

أمسكت بالقلم :

عزيزتي «ل٢» .

وفكرت : لسوف تسألني يوماً : «لم تخاطبني بـ «ل٢» ، يا حبيبي فؤاد ؟! والجواب عندي معد أحسن الإعداد : «لأن ما عندي لك من الحب ، يعادل مثلي ما عند أي شاب لفتاته» ! ولسوف تطروب ، وهي تغضي حياء ! شئون أعرفها !

عزيزتي «ل ٢» .

أعطر تحية من محبّ قد رميت فؤاده بسهم الحب القاتل وأنت لا تدرين .

لقد تغير حالي منذ وقعت عيني عليك في الصيف الماضي ، بعد أن أصبحت صبية تلفتين الأنظار يا حياتي .

والواقع أن الأساتذة في المدرسة قد لاحظوا شرودي عن الدروس ، ولاحظ رفاقي أني لا أشاركهم لهوهم وأفراحهم ، فأخذوا يسرون عني مع أنهم لا يعرفون السبب . وأمي تسألني : لماذا تطيل التفكير يا بني ؟ وأنا أتهرب من الإجابة ، مع أن أمي سيدة شديدة حتى على زوجها !

ولكن السبب هو أنت أيتها الحبيبة المقدسة . فساعديني أرجوك .

أنا منذ الصيف ، وحتى الآن ، وإلى آخر حياتي ، يا حياتي ، أحبك ! وسأظل وفياً لك . تأكدي من ذلك . لأني لم أر ولن أرى ألطف منك بين البنات ولا أحلى من قامتك ووجهك . أنا شاب أشقر ذو عينين رماديتين صافيتين ، وأنت حنطية اللون ذات عينين سوداوين ،

وكل منا يميل إلى ضده .

فهل عرفت من أنا ؟

أنا الذى أقف ساعات طويلة أما بيتنا منتظراً مرورك بفارغ الصبر لأكحّل عينى بمرآك .

أعبدك يا حياتى . قبلة على الورق .

كتبت « مسودة » الرسالة فى البيت . وفى المدرسة « بيضتها » : وأسرعت فى انصرافى إلى مدخل الشارع أترقبها .

وهمست فى أذنها قبل أن أقصر خطوى :

— عندى لك رسالة . يمكنك أن تأخذيها ، بعد لحظة ، من صندوق بريدكم !

ودلفت فى أعقابها إلى المبنى ، لأسقط الرسالة فى الصندوق .

ثم انطلقت وأنا أتنفس الصعداء .

* * *

ولما كان من خطتى ألا أتوانى ، فقد أكببت فى ليلتى على تسطير رسالة أخرى :

حبيبتى « ل٢ » :

هذه ثانى رسالة أكتبها إليك بعد الأولى التى كتبتها أمس الاثنين والحقيقة أنى أردت أن أصبر يومين أو ثلاثة ، ولكنى لم أستطع .

هل أعود لأؤكد لك أنى شارد الذهن بسببك؟ ودليلى أنى أسهر وأنا أفكر فيك . وأمى ما تزال تسألنى : لماذا تحملق فى الفضاء ؟ وأنا أكتم

عنهم. والحقيقة أنى لا أنام أيضاً. وعندما أفتح الكتاب لأستذكر دروس الكفاءة ، فإنى لا أرى أما . . عيني كلمات ، بل أتمثل طلعتاك الحلوة فأقول : سبحان مقرب القلوب لبعضها !

معبودتى :

لا تستغربى إذا خاطبتك بهذه الصراحة : فإن تدفق الحب يهدم السدود ويجعل الجبال العظيمة تخر وتنهار .

اكتبى إلى رسالة تبل جوانحى اكتبى أى شيء يخطر على بالك. كونى شجاعة . هل تخافين من أبيك ؟ أنا لا أخاف منه . ولا بأس فى أن ترفقيها بصورة لك فى وضع جميل ، كذكرى أحملها معى أنّ ذهبت ، لأنظر إليها وأنت غائبة عن ناظرى فأراك ماثلة أما . . عيني فلا أشعر بالوحدة :

على كل حال سأنتظرك فى الساحة القريبة أما.. المكتبة فى تمام الثانية عشرة عائدة إلى البيت .

أراك أحياناً تحملين صندوقاً أسود . فهل فيه « كمان » وهل تجيدين العزف عليه ؟ وهل أنت شاطرة فى هذه الأمور ؟

وكيفية تسلمى رسائلك فإنى سأكون اليوم أما.: بيتنا من الساعة الخامسة مساء حتى السادسة . تسلمينى إياها بيدى أو تلقين بها خلف إحدى السيارات الواقفة وأنا ألتقطها .

ارحمينى يا حياتى . وخذى بيدى .

ولبثت واقفاً أما .. بيتنا إلى ما بعد السادسة مساء ، وعيناى لا تفارقان مدخل مبناها ، أملا فى أن ألمحها خارجة وفى يدها رسالة ترغب فى أن تلقى بها خلف

إحدى السيارات المنتظمة أمام رصيف بيتنا ، دون جدوى !

حدثت النفس : إنه الخجل والتردد ! ولكنى لم أيأس من أن ألتقى بها فى الموعد الذى ضربته لها فى الساحة القريبة .

وهناك ، لاحت لى ، عن بعد ، وهى تقترب نحوى : كانت تطرق برأسها إلى الأرض تارة ، وترسل نظرها إلى بعيد تارة أخرى ، وكأنها شاردة الذهن فى أمر ما . وأى شاغل غير رسالتى اللتين سهرت ليلتين فى تنميق كلماتهما الدافئة المعسولة !

وإذ مرت من أمامى ، وأنا متسمر على الرصيف أحس ارتعاشاً ، وأتتنى الجرأة فبادرتها :

— مرحباً ، لينا !

رفعت ناظريها إلىّ ، وكأنها فوجئت بى :

— نعم ؟

— . . . .

— ماذا تريد ؟

لم تكن لهجتها رقيقة ، ولا كانت جافية !

— أريد أن أحدثك فى أمر جوهرى ! هل تسمحين ؟

هشّت لى :

— تفضل .

— إنى . . . منذ رأتك عينى . . . وأنا لا أنام الليل !

بدا لى أنها ابتسمت ، بل لقد بدا أنها قطّبت الجبين ! وبلهجة

حيادية جداً أعلنت :

— إذا كنت تشكو الأرق ، فخذ حبة منوِّم !

يا لتعاستى ! لقد فهمتنى فهماً خاطئاً . كم أنا غبى ! على أن أصرح . ولكنى أراها تخطو إلى أمام ، تريد أن تمضى .

— هل تلقيت رسالتى ؟

أجابتنى وكأنى بها تُخفى بين شفتيها بسمة صغيرة حلوة :

— نعم !

ولكن خاب ما توقعت من أن تحدثنى عنهما . أن تسألنى ، مثلا ، لماذا أخاطبها بـ« ل ٢» !

— ما رأيك فيهما ؟

التفتت تقول :

— إن فيهما شيئاً يدعو إلى الرد !

يا لسعادتى ! لقد أثمرت رسائلى . ولكنها لم تسألنى لماذا . . .

— هل حزرت لم أخاطبك بـ« ل ٢» ؟

أجابت وهى تتابع سيرها :

— لأنك . . . مغرم بالرموز الجبرية !

بدا لى ، مرة أخرى ، أنها تفهمنى خطأ !

— بل . . . لأن عاطفتى نحوك قوية ، يالينا . . . إنها تعادل ضعف ما يمكن أن يحسه شاب نحو فتاته من عاطفة الحب !

ويلغى صوتها المتسائل وهى تمضى :

ـ ولكن . . . كيف عرفت ذلك ؟ كيف ؟ !

خيل إلى أن سخرية ما كانت ترشح من قولها الأخير !

* * *

حبيبتى الغالية « ل٢ » .

كانت فرحتى باللقاء عظيمة جداً . إن الحوار الذى جرى بينى وبينك سيظل محفوراً فى صدرى طول حياتى .

ولكن لاحظت أنك لم تفهمينى بالنسبة لبعض الأمور منها : (حبة المنوم) !

هل كنت خجلة حتى إنك لم تنتبهى لكلامى ؟ أنا لا أنام الليل منذ وقعت عينى عليك . هذا من شدة الحب يالينا . ولكنى لا أريد أن أهرب من عدم النوم ومن الأرق ، فإنه محبب إلى نفسى ما دمت أنت سببه .

مخاطبتى لك بـ« ل٢ » : ثقى أنك أملى ومعبودتى وأن حبى لك يجل عن الوصف . قلت لك إنه يعادل ضعف ما يضمره شاب لفتاته من الحب . والحقيقة أنه يعادل ثلاثة أمثال أو عشرة بل قولى مائة مثل يا ملهمتى . . . صدقينى .

علمت أن عندك يوم الجمعة بعد غد مباراة فى الملعب فما رأيك فى أن أرافقك فى الذهاب والإياب ؟ سأكون فى انتظارك فى الساحة .. أما .. المكتبة . فإذا كنت موافقة فانظرى إلى ساعتك لحظة ترينى على الرصيف ، فأفهم أنك موافقة فأتبعك .

لا تخيبى أملى فيك ، يالينا الحبيبة . تشجعى . هل تخافين من أحد ؟

أنا لا أخاف حتى ولو علمت أمى . كونى شجاعة : فالحب الوفى يحتاج إلى الشجاعة كما يحتاج إليها الجندى فى الحرب ، وسلاحنا نحن هو الحب ، وهو أمضى سلاح . لا معنى للحياة مع الخوف .

وبالمناسبة : إن عيد ميلادى هو يوم الأحد القادم أى أول الشهر . أريد أن أصحبك إلى شارع « . . » لنتحدث ونأكل الكاتو فى محل « . . . »

ما زلت أنتظر منك الرسالة التى وعدتنى بها . وكما أخبرتك فى رسالتى الأخيرة سأكون أما.. فراغ بيتنا مساء اليوم من الساعة ٥ ــ ٦ . تلقين بالرسالة خلف إحدى السيارات وأنا ألتقطها .

افهمينى جيداً : إنى أحبك ولو لم تجيبى . وحبى لك لا يمكن أن يصيبه أحد بأذى ، حتى ولو علم والدك وأمى .

* * *

ارحمينى يا حياتى .

وقد « رحمتنى » لينا .

وهى لم تلق برسالتها خلف إحدى السيارات الواقفة أمام رصيف بيتنا ، بل سلمتنيها بيدها ، إذ اعترضتها وهى فى الساحة عائدة إلى بيتها ، ولم تقل لى فى ذلك شيئاً غير :

ــ اقرأها جيداً ! !

هتفت فرحاً :

ــ لسوف أستظهرها .. كما استظهرت « سئمت تكاليف الحياة ومن يعش » .

جارنا السيد فؤاد .

الحب الذى تتحدث عنه يثير استغرابى . فكيف يمكن لإنسان أن يحب هكذا ؟

رأيتك تتلعثم حين تكلمنى . هل فى لسانك عىّ ؟

لماذا تتلهى عن دراستك وأنت فى صف الكفاءة ؟ فكيف يمكنك أن تقدم للوطن نفعاً بدون علم ؟

إذا كنت تشرد ولا تنفعك الحبوب ، فأنصحك بعرض نفسك على طبيب !

بخصوص الكاتو : فى بيتنا كاتو كثير .

وأما أن أعطيك صورتى ، فأنا لا أوافق على ذلك . ولماذا أعطيك صورتى ؟

لاحظنا يا سيد فؤاد خطأ إملائياً يتكرر فى كتاباتك : أنت تأكل الميم دائماً من آخر كلمة «أمام» . مثلا تقول : « أما عينى »،« أما بيتنا»، «أما المكتبة » ! كيف تنجح فى امتحان شهادة الكفاءة ؟

فكرت فى نزق : و «يا سيد فؤاد» هذه لماذا ؟ أبيننا حاجز ؟ تبدو لى معلمة ، ناصحة ! «لاحظنا» بالجمع ! ما معنى هذا ؟ إن هذه الصبية إما أن تكون أعقل ممن هن فى سنها ، أو أنها قاصرة العقل غبية ! ولكن . . . بالمثابرة ، بالترويض أكسبها !

وقبل أن أتفرّغ لتسطير رسالة جديدة ، عدت إلى ما فى صندوق من صور الرسائل التى بعثت بها إليها : وجدت أنى «آكل» الميم ، فى آخر «أمام» حقّاً !!

* * *

حبيبتى « ل ٢ » .

إن كنت فرحت برسالتك الغالية إلا أن فرحى كان يمكن أن يكون أعظم لو لم تختصرى العبارات فيها . كانت رسالتك أشبه . « ببرقية » !

أمرد ذلك إلى الخجل ، فأنت لا تقدرين أن تفصحى عن حقيقة مشاعرك ؟

أم أنه خوفك من أن يعلم أهلك ؟ لكن الأحباء يا عزيزتى لا يخافون بل يدافعون عن حبهم حتى الموت . وأما أبوك فأعترف لك بأنى لا أرتاح له كلما رأيته ماراً أمام بيتنا (هل نسيت الميم ؟) أعتقد أنه يفزعك . ثورى على جبروته . أعانك الله على تحمل قسوة الحياة معه .

فما بالك بالله عليك ؟

أطلب منك موعداً نتلاقى فيه يوم عيد ميلادى فلا تجيبين طلبى .

ثم تقولين إن فى بيتكم كاتو كتير ! !

أطالبك بصورة لأنظر إليها وأنت غائبة عن عينى فتكتبين : أنا لا أوافق على ذلك ، ولماذا أعطيك صورتى ؟ هأنذا مثلا مستعد لأن أعطيك صورتى . هيا اطلبيها .

أقول لك إنى لا أنام الليل فتنصحيننى بأن آخذ حبات منوم ! ثم تكتبين إلى أن أعرض نفسى على طبيب ! وقد نسيت أنك أنت طبيبى .

أود أن أعلمك بأننى إذا تلعثمت فى حديثى معك وإذا أكلت أحرفاً من أواخر الكلمات ، فهذا دليل على أن عقلى لم يعد معى .

إنك زهرة تتفتح للحياة . فإما أن تمنح الناس أريجها ، وإما أن تحجبه عنهم فتلوعهم . ونحن يا لينا إما أن نتساعد فنصبح أحباء بكل معنى

الكلمة ، وإما أن تحرميني من عطفك ومن الأمل الذي أحتاج إليه وتغرسي في قلبي اليأس القاتل المميت . فهل هذا هو ما يستحقه المحب من محبوبته ؟

عشر رسائل كتبتها يوم أمس . ولكني مزقتها واحدة بعد أخرى . وعدت اليوم لأكتب لك من جديد هذه الرسالة الطويلة . . . فهلا عطفت علىّ فوصلتني بلقاء يعيد إلى الثقة بنفسي وبحبي ؟

لقد وضعتك في ذروة قلبي . ولكنك لم تهتمي بذلك مطلقاً . والدليل هو (عدم الاستجابة — وعدم إعطائي ما طلبته منك . . .) ولعلك تقولين وأنت تقرئين رسالتي هذه : إنها حبر على ورق ! ولكن دمائي ليست بحبر وقلبي ليس بورق .

ليتك تذكرين تلك الأيام (في الصيف الماضي) عندما كنت أقرع جرس باب بيتكم خلسة . كانت تلك بداية حبي لك ، ولم أجد وسيلة لأجعلك تنشغلين بشيء أنا سببه إلا أن أقرع الباب وأهرب ! أتذكّر كل هذا وأستعرض ماضي قصتي معك . . . وأبكي . ولكن ماذا تفعله الدموع ؟

بالمناسبة : أنا شاطر في دروسي . وإني على استعداد لأن أقدم لك كل مساعدة تطلبينها في مجال العلم والمعرفة وبخاصة (الجبر — الهندسة — الكيمياء) فإما أن ترسلي طلبك برسالة ، وإما أن تسأليني هاتفياً (رقم هاتفنا هو ٨٨٤٤٢٢) وعندما يرفع أحد في البيت سماعة الهاتف فإن التعريف على شخصك يكون بأن ترددي مطلع أغنية عبد الحليم (نار يا حبيبي نار) .

ملاحظة : سأكون مشغول البال من لحظة وضع هذه الرسالة فى صندوق بريدكم إلى حين تسلمى ردًّا عليها . أريد الجواب بسرعة . فإما أن تحققى أحلامى وتكملى سرورى ، وإما أن تغرقى قلبى بالأحزان !

جف القلم ودموعى لم تجفّ :

حبيبك إلى الأبد

* * *

طويت الرسالة فى مغلف ، ومضيت

وإذ نزلت إلى الشارع ، أخرجت رسالتها — البرقية ، أمرُّ بعينى على أسطرها ، آسفاً لأنى لم أفلح بعد فى كسب ودادها .

ولكنى ، على مقربة من بيتها ، لمحته ! كهل ذو مهابة، مهابة تبلغ حد الصرامة ! أسرعت أدس الرسالة فى جيبى . إنه علىّ ! أعانها الله وأعانى ! لقد حدثتها عنه فى رسالة اليوم ، بما يليق به ! حمداً لله إنه لم يفاجئنى ، وأنا فى مدخل مبناهم ، أمام صندوق البريد ! ينبغى أن أكون أكثر حذراً !

تحاشيت النظر إليه ! ألم أعترف لها بأنى لاأرتاح إليه إذا ما واجهته فى الشارع أو واجهنى ؟ ولكن — عجباً ! — بدا لى أنه — هو — على العكس : يرتاح للنظر إلىّ !! هو ذا يحدّق فىّ ! بل إنى ، فى استراق النظر إليه من جانب عينى ، أراه يتجه نحوى!

إنه يطلبنى !

أشار إلى بيده إشارة أن : أدْن منى ! ورجعت ، فى الحال ، إلى

نفسي أسائلها عما إذا كان ينبغي أن أستجيب فأدنو ؟ أم يحسن أن أطلق ساقي للريح ؟ فماذا لو فتش جيوبي ، فعثر على رسالة ابنته وعلى آخر ما كتبت إليها ؟ !

انقدت إليه ، وقد طغى على شعور يشبه الخوف . ثم لست أدرى كيف ارتفعت يدى ، بحركة تلقائية ، تؤدى له التحية ، صنيع تلميذ يواجه « أستاذه » !

سألني :

ـ أنت من يسمى . . . « فؤاد » ؟

أجبت بأدب

ـ نعم ، أستاذ !

ـ فى أية مدرسة أنت ؟

ـ فى « الإعدادية الرابعة » ، أستاذ !

هتف كمن وقع على ما يسره :

ـ الإعدادية الرابعة ؟ إن مديرها صديق لى قديم . هل ترغب فى أن أوصيه بك خيراً ؟

أسرع لساني يعلن :

ـ كلا ، أستاذ !

ثم انعطف يخاطبني فى لهجة ودودة :

ـ اسمع ، يا فؤاد : إن شرودك وأنت تستذكر دروسك (فكرتُ : كيف تسنى له أن يعرف ؟ !) . . . أمر يعز على أفراد أسرتى ، باعتبارك

من جيرتنا ! إننا نقرأ رسائلك أولا بأول ! (يا لله !!) تقرؤها علينا ابنتى لينا ! (يا للخائنة!!) وقد حدثتنا ، أخيراً ، عن تصديك لها فى الساحة تحت ! (إذن فقد كانت تخدعنى !!) لقد وددت أن ألقاك قبل الآن لأنهاك عن ذلك ، وأرد إليك « رسائلك » . دونك إياها ! (كانت فى أحد جيوبه ، فى متناول يده ، فأخذتها!) أعتقد أن ابنتى سلمتك رسالة ، أليس كذلك ، يا فؤاد ؟

فكرت : يا للرجل الا تخفى عليه خافية !

— بلى ، أستاذ !

— يمكنك أن تعيدها إلى ! لعلك استفدت شيئاً من الملاحظات التى عملت أسرتى ، دون علمى ، إلى إملائها على لينا . إذا لم تكن الرسالة معك فهيا اصعد إلى البيت ، وائتنى بها !

بادرت أقول :

— إنها معى !

ودفعتها إليه ، بيد ترتعش .

— حسن ، بوركت من فتى مطيع! أنت بحاجة إلى رعاية ، يا بنى لقد حللنا نفسيتك من خلال رسائلك !

هل أكتفى بالقول : إنى تمنيت لو أن الأرض تنشق تحت قدمى ؟ ! أم أضيف بأنى تمنيت ، أيضاً ، لو يرفع يده ليضربنى ، كى يمنحنى مسوغاً للهرب؟!! . . .

— لن أخبر أمك ، فأخشى أن تتصرف معك على نحو يتنافى وأصول

التربية الحديثة . ولكني آمل أن تقلع عما يسيء إلى دراستك ، يا ولدى !
وتركني مصعوقاً ، ومضى .

* * *

فالأسرة ، كل الأسرة ، كانت تقرأ ، بإمعان ، كل ما أحبّره من رسائل ! !

يا للشَّرَك الذى وقعت فيه يا لغفلتى ! لكم خدعت !

لقد هتكت أسرارى أمام أهل فتاة ! إنى — وأنا مغلق باب غرفتى علي — لأنشق من الغيظ ، من الحزن ، من الألم ، لأن رسائلى العاطفية ، التى عنيت بصياغتها ، كانت مبعث هزءهم : يحللون نفسيّتى ! ! !

ولكن ، أى آب هو هذا الرجل ! إنه ، بعد كل شيء ، دمث واطيف . يالخجلى لو كنت أسقطت الرسالة فى صندوق بريدهم ، فقرءوا ، وتليتْ على الأب تلك العبارات التى أعملت ذهنى فى انتقائها وتنميقها : « ثورى على جبروته » ! إنى لأحسبنى سأتوارى عن ناظريه كلما لمحته فى طريق ! وإذا ما وقعت عينى على ابنته ، وهى تسير على رصيف أسرعت أثب إلى الرصيف الآخر !

يا للجهد الذى ضيعت فى تسطير آخر رسائلى ! أولى بى أن أمزّقها إرباً إربا .

مددت يدى إلى جيبى ألتمسها ، لأمر عليها نظراً خاطفاً .

ولكنى . . . لم أعثر عليها !!

بحثت عنها فى جيبى الآخر . . . فوجدت أن رسالتها إلىّ ما تزال

فى جيبى ! وأننى - ياللعجب ! - إنما سلمت الأب رسالتى الرابعة ليس غير !!!
يا للطامة !

إنى لأسمع ، اللحظة ، رنين الهاتف ينبعث من الصالة فيصلنى عبر الباب الموصد . إنه يرنّ فى تواصل ملح ، زادنى توجّساً !

كف الهاتف عن الرنين .

أمى تتكلم :

— ألو . نعم ؟

صوتها يرتفع :

— من يطلبه ؟

ثم تقترب بخطواتها نحو غرفتى !

فتحت على الباب ، لتخاطبنى بوجه عابس :

— رجل ، لم يفصح عن اسمه ، ينتظرك على الهاتف !

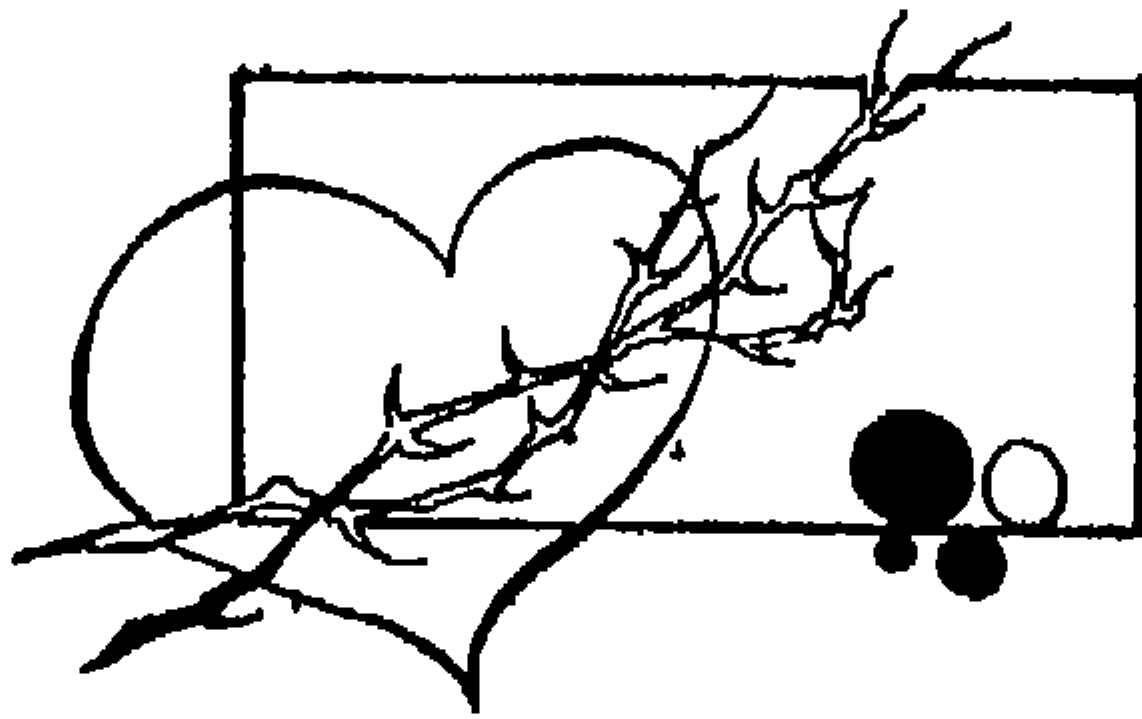
يا إلهى ! إنه هو . . . جاء يطلبنى ، برقم هاتفنا الذى ذكرت فى رسالتى !

أحس بدوار . أحس أنى أتهاوى .

أمى ما تزال تحدق فىّ بنظرات مرتابة .

أحس بأنى ، هالك ، الساعة ، لا محال . . .

صرخة في عالم غير مألوف



فتحت عينيها . . . وحدقت فى السقف هنيهة كالمدهولة ، قبل أن تدرك أنها فى « المهجع » بين زميلاتها . وهتفت ، بينها وبين نفسها ، فى نشوة :

— يا له من منام !

وانقلبت ، وهى فى سريرها ، إلى الجانب الآخر ، صوب النافذة الشرقية ، وقد استشعرت خوفاً حقيقياً : إنه يطاردنى حتى فى الأحلام ! ثم فكرت : أما آن له أن يعلم أنى بنت شريفة ؟! أنا لست كبنات المهجع الآخر ! شريفة ، أنا بنت شريفة ! أولئك هن من يرتمين فى تلك المداعبات التى تؤدى إلى . . . وصعدت من أعماقها تنهدة ، ثم سحبت اللحاف إلى ما فوق رأسها : أقول لهم : . عبدو سلام يطاردنى» وهم لا يصدقون ! لا يصدقون ! لا يصدقون ! . . . اختلط الخوف فى صدرها بالنشوة : طيب ، لن أصده بعد اليوم ، أو أهرب منه . . . ليفعل بى ما يشاء »

أرسلت إليها الشمس أشعتها عبر النافذة . اقتحم نورها الظلمة الصغيرة التى اصطنعتها تحت اللحاف . يا له من حلم ! هتفت بينها وبين نفسها ، ثم فكرت : عبدو سلام يُشْبه « تيسير بيك » ! وتساءلت : لماذا يرِد هذا التشابه على خاطرى دائماً ؟ وتملّت النظر من شجرة السرو ، المهتزّة من هواء الربيع ، السابحة فى نور الشمس : يوم جميل ! إنه يوم جميل ! سعيدةٌ هى بوجودها هنا . ليت أيامها فى « المعهد » تطول . تحب عبدو سلام . يلذّ لها أن تستعيد فى خاطرها كلمات تيسير بيك . ولكن ، وا أسفاه : يقولون إنهم « سيُحَلّون

سبيلَها » عما قريب ! وما ينفعها أن تتحرَّر ، أن تخرج من هنا ؟ ألكى تعود إلى الخدمة فى بيوت الناس ؟ خير لها أن تبقى فى المعهد . لقد سئمت العمل فى البيوت صانعة ، صانعة ! تكره سيدتها : « أم مروان » ! اضطرب أمرها فى بيتها ، آخر البيوت الذى انتهت منه إلى المخفر ، بسبب السِّوار الذى ضاع ! قررت فى تصميم : أنا لست سارقة ، أنا صانعة أخادم ، ولكنى لا أسرق ! وفكرت فى حنق : تباً لأبى ! حملها أبوها ، وهى طفلة ، من الضيعة إلى دمشق . نقَّلها من بيت إلى بيت . . . أتعس البيوت كان : الأول والأخير . ولكنها — لتقل الحق — سعدت فى بيت سيدتها أم مروان . وتذكرت تيسير بيك ، ابن أخت سيدتها : ما أعظمه ! ما أرقَّ كلماته ! ما أعذب نظراته ! آه ، كانت دقيقةٌ واحدة فقط ، ولكن لن تمحوها الأيام من ذاكرتى . كنت ألبس ذلك الفستان الأحمر الذى « دَوَّرَتْه » لى سيدتى من فستان قديم لبنتها « حسناء » . دخلتُ الصالون على تيسير بيك بصينية القهوة . اختلستُ منه نظرة : وجهٌ مورَّد ، وشاربٌ أشقر مزجَّج . كنت أعرف فى سيدتى تباهيها بابن أختها الذى يتلقَّى علمه فى مصر . وها هو ذا أمامى ، يمدُّ يده لتناول الفنجان من الصينية ، الحق ، لقد أغضيتُ ، ثبَّتُّ نظرى فى الصينية ، استحياء . لماذا كان ذلك منك ، ياسُعْدَى ؟ يا سعدى ؟ لقد لمحتُ فى عينيه بريقاً ! كان فيهما شىء . . . كيف أعبِّر عنه ؟ تحسَّس ، بعينيه ، صدرى الناهد ، أوه ، أخجلنى ! ثم رفعهما إلى

عينىّ السوداوين :

— من أين أنت ، ياصبية ؟

وتولّت سيدتى عنى الجواب . لم تدعنى أتكلم : لسانها الثرثار لا يستريح . ثم أضافت فى شكوى :

— إنها تتعبنى ، يابنَ أختى ! لا تُحْسن العمل ، تكسّر : بحاجة إلى من يقف فوق رأسها : : :

ما أكذبها ! ! جرّحنى هذا الادعاء الباطل ، لماذا تكذب سيدتى ؟ لماذا تقلّل من شأنى أمام ابن أختها ؟ ألا يكفى أننى صانعة تخدم فى البيوت ؟

كان قد رشف من فنجانه رشفةً صغيرة ، ثم تطلّع إلىّ :

— هل أنت التى صنعت القهوة ؟

أسرعت أجيب ، قبل سيدتى :

— نعم !

وجدتُ ، أنا نفسى ، فى صوتى رقّةً لم آلفها .

— أنت ماهرة فى إعداد القهوة !

لم أسمع مثل هذا الثناء ، عمرى !

تدخّلت سيدتى :

— إنه : : . البنّ الممتاز !

— ما اسمك ؟

— سعدى :

— حتى اسمك حلو : عربيّ الأرومة !

ما معنى هذه الكلمة : « الأرومة » ؟ ! . . .

أمعنت سعدى النظر فى الشمس تطل عليها من خلال شجرة السرو : لماذا لم تَدَعْها سيدتها ، القاسية ، لحظة أخرى ؟ كان ذلك السيد العظيم جديراً بأن يمضى فى مساءلتها والثناء عليها . . . ولكن « رِقّة عين » من سيدتها ، حملتها على وضع الصينية على « الإسْكَمْلة » والإسراع فى مغادرة الصالون . ثم لم تُدْعَ إلى هناك ثانية . وهى ، على كل حال ، انشغلت فى المطبخ بتحسس صدرها — نعم نعم ، لقد أحست فيه ثورةً — وفى تلمّس خدّيها اللذين وجدتهما يتّقدان . وقد استرقت ، من وراء الباب ، نظرات إليه ساعةَ انصرافه : ما أجمل شبابه ! وإذ لمّت الفناجين ، أَهْوَتْ فى المطبخ على فنجانه ، على الثمالة الباقية فى قعره ، تلعقها لعقًا ، قبل أن تدفع به إلى ماء الحنفية . . . لقد وجدت فى ثمالته طعمًا خاصًا !

* * *

ليست جائعة . إنها فى هذا الصباح لا تحسّ جوعًا . والجرس ما يزال يرنّ ، معلنًا موعد الفَطور . و« ماما نوال » ، هناك وراء البِرْكة ، تسوقهن :

— إلى المطعم ، يابنات . . . إلى المطعم .

وظلت هى فى أرض الدار ، فى المقعد المواجه للباب : متى يُطِلّ بوجهه المورد ؟

اقتربت المراقبة منها :

ــ سعدى ! هيا إلى المطعم يا سعدى :

ــ لا أشعر بالجوع يا ماما !

ارتسم الاستغراب على الوجه العطوف :

ــ كيف لا تشعرين بالجوع ؟ هل تشكين شيئًا ياسعدى ؟

كاد لسانها يشكو : إنه يطاردنى ! ما زال يطاردنى ! يطاردنى حتى فى المنام ! قبّلنى من هنا ومن هنا : . عبدو سلام ! !

المراقبة تُوالى سؤالها ، فيما هى تربّت لها رأسها بحنان :

ــ هل أنت منزعجة من شىء ؟ هل ضايقتك إحداهن ، يا بنيّى ؟

كان استحضارها لصور المنام قد أثار فى صدرها أشواقًا . أخذتها المراقبة من يدها . وهى تحدّث نفسها : كاد يفعل بى أشياء أخرى ، يا ماما ! وعصفت فى صدرها الأشواق مشوبة بالخوف ! ولكنى استغثت إنه يطاردنى . لماذا لا تصدقوننى ؟

وبغتتها ، إذ غدت فى باب المطعم ، خوفٌ سمّر قدميها ، وأوشك أن يشدّها إلى وراء . لولا أن سمعت ماما نوال تهمس فى أذنها :

ــ مابالك ، ياسعدى ؟

كادت تفصح : هنا هنا ، يا ماما ، أمسك بى عبدو سلام ! كنا وحيدين ، كنت منعطفة عليه أساعده فى مهمته ، فترك كل شىء وهمّ بى . . . يا ماما ، يا ماما !

ثم أطلّت بعينيها على المطعم ، فوجدت البنات كلٌّ فى موضعها وراء موائد الطعام : وفكرت ، وهي تسير إلي أمام : حسَنٌ ، ليس

ثمة ما يخيفنى ، الآن !

التقت عندها نظرات البنات . إنها تقرأ فى أعينهن ّ أشياء !

المراقبة أعطت « الإيعاز» بالبدء بالأكل .آه ، أى شهية عندى للأكل ، اليوم ؟ أمسكت بفنجان الشاى يُذَكّرها . . . إنه يذكرها بفنجان القهوة الذى لعقته فى مطبخ سيدتها أم مروان . . . وبابن أختها الذى يدرس فى مصر . . . وبالبريق فى عينيه . . . أوه ، إنه يخجلها ! عبدو سلام . هو الآخر ، تحسّس بعينيه صدرَها لحظة وقع نظره عليها أول دخولها المعهد ! إنه يُشبه تيسير بياك ، فى الشباب الفاتن والوجه المورد والشارب الرفيع الأشقر ! كلما خطر فى أرض الدار رشقها بنظرة تحسس ّ لها لذّة ً جديدة مضاعفة ! إنه ليحدق فى عينيها تحديقة ً تُضْمِر معنى — باتت تفهم هذه الأشياء — بينما يزداد وجهه توردّاً ! أنا جميلة، أنا بنت خمسة عشر ، لم لا يخطبنى ؟ سألتْ ، مرة ّ ، « ماما وداد » ، التى تَمْحَضُها حبّاً خالصاً ، عن عبدو سلام ؟ فعرفت أنه موظف حديث فى المعهد . إنه « آذن المعهد » ، يحمل أوراقاً إلى « قصر العدل » ويعود بأوراق . إنه يأتينا كل صباح بالمواد الغذائية من المستودع الكبير فى « جناح الذكور» . إنه فتى طيب . وأنا بنت طيبة وحلوة . المراقبات جميعهن : « ماما وداد » و « ماما نوال » و « ماما تيريز » ، يقان إنى بنت « آدمّية » .

مضى علىّ فى المعهد أربعون يوماً ولم يشكين منى من شىء ،

وشكين من زميلاتي كثيراً . أنا لم أسرق سوار الذهب من خزانة «ستّي أم مروان» ! لعل مروان ابنها هو الذي سرقه : اتهموني باطلا وضربوني : قلت لهم : «أنا لست سارقة ماذا أفعل بسوار الذهب؟» ضربوني ، وطلبوا مني أن أُقِرّ : أين خبّأتُه ! أخذت أستغيث : أين أنت ، يا أبي ؟ لماذا وضعتني في هذا البيت ؟» . كنت أتخيل، وأنا تحت الضرب ، تيسير بيك وحديثَه العطوف : «من أين أنت يا صبية ؟» ، «هل أنت التي صنعت القهوة ؟» ، «أنت ماهرة ...» ... ليته يراني وأنا أُضرب . إذن لصدّقني ومنع الأذى عني كان تبين الحقيقة في قولي وأقنعهم ببراءتي من سرقة السوار ! ولكن تيسير بيك لم يكن له أن يأتي ، لأنه عاد من يومه إلى مصر ... إن أحداً لم يمنع عني الأذى ... وهم قد هدّدوني بالحبس ، بأن يُسلّموني إلى الشرطة للتحقيق معي ! وقد تساءلت : «أيمكن أن تكون الشرطة أقسى من ستّي أم مروان ؟ !» .

فطنتْ إلى أنها تأكل ، وهي لا تدري . وتبسمت ، ويدها ترتفع إلى فمها بحبّة زيتون : ههنا آكل بشهية ! ما ألقاه من المراقبات الثلاث اللواتي يتناوبن الإشراف علينا ، وما ألقاه من معلمة الخياطة «ماما فردوس» ، ومن الإخصائية الاجتماعية ، ومن المدير ... كنت ألقى ضدّه من ستي أم مروان ومن ربّات البيوت السابقات عليها : كلهنّ قاسيات ، أقسى من «الشرطة» ! وتبسمت ثانية ، واللقمة في فمها : لقد وجدتُ الشرطة رجالاً طيبين . هربتُ إليهم في ذلك

اليوم . بعثتْ بى ستى إلى البقال لأشترى لها حاجات صغيرة ، وسلّمتنى ليرة ثمناً لها . وضعت الليرة فوق جهاز التليفزيون . وانطلقت من البيت أهيم على وجهى فى الطرقات . كانت نزهةً حلوة . سرت فيها طويلاً ، وأنا لا أريد أن أسأل عن مخفر الشرطة . كنت أفكر وأفكر . فكرت بكل شيء وبتيسير بيك : لو يرانى الآن ، لكان له أن يسائلنى ويحدثنى بما يحلو له ، فخالته أم مروان ليست معنا ! وكان لى أن أسأله : ما معنى أن اسمى عربىّ « الأرومة » ؟ الأرومة ، الأرومة . . . قادتنى قدماى إلى مخفر الشرطة . فاهتمُّوا بى ، وأنصتوا إلى قصتى . وجدتهم لطفاء جدًّا . كانوا يُغْدقون علىّ فيضاً من نظراتهم ، ولكن نظرات تيسير بيك كانت أحلى . وقدموا لى غداء : « رغيف فلافل » شهيًّا . ثم « هتفوا » إلى سيدى « أبو مروان » :

— « الصانعة التى تعمل عندكم سعدى ، هى عندنا فى المخفر ، يابيك ! ! » .

ترك سيدى بيته ، وأقبل على عجل :

— ما تفعلين هنا ، يا شقية ؟ !

أطرقت من خوفٍ ، بادئَ الأمر ، ولم أجب .

— ضاعت ! صانعتنا ضلّت الطريق .

وأخذ يدى . فتمنّعت .

— ما بالك ياسعدى ؟ حملتنى على أن أترك الغداء وآتى إلى هنا . ستّك أم مروان بالها مشغول عليك .

هنا ذهب الخوف عن فؤادى .

— لا أذهب معه ! ستى أم مروان تتهمنى بسرقة سوار ضيّعتْه ، وتضربنى . لا أذهب إليها .

سألنى أحدهم :

— وأين تريدين أن تذهبى ياسعدى ؟

— أدخل الحبس . أهون لى !

همّ سيدى بأن يصفعنى :

— أنا دافع « حقّك » لثلاث سنين ! (والتفت إليهم) هذه البنت سرقت سوار زوجتى !

فواتتنى جرأة عظيمة :

— إذن أدخل الحبس . . . لأنى سارقة !

— وقحة ! وقحة ! وقحة !

* * *

اتخذتْ مجلسها فى المقعد المواجه لباب الدار : أما آن له أن يأتى ؟ وتأوّهتْ : ولكنه لم يعد يهتم بى ! وقرّعت نفسها : آه ! أنا ، أنا ، ألم أشكُه إلى « الإدارة » ؟ ! قلت لماما وداد : « عبدو سلام يطاردنى ، يا ماما ! » . واستفسرتنى ، فما أخفيت عنها ؟ أوه ، لماذا كفّ عن [الاهتمام بى ؟ كان يحبنى ،] نعم ، قرأتُ فى عينيه [الحب ! أنا أعرف أنه يريدنى لنفسه ، هذه هى الحقيقة : يريدنى أكثر مما أريده ! ولكنه ، آه منه . . . : يخاف !

وتطلعتْ نحو الباب : لماذا كفّ عن الاهتمام بى ؟ طالما سألتْ نفسها ، فكانت تجيب : لأنه إن أنشأ بينه وبينى علاقةً فصلوه من عمله ! حدّثوها بأنه على شبابه ، صاحب « عيلة » يعيلها . مات أبوه بالأمس القريب ، مخلّفًا له إخوةً صغاراً وأمه . كان طالب مدرسة فاضطر إلى ترك مدرسته والعمل هنا . يأخذ أوراقًا إلى قصر العدل ، ويأتى بالمئونة اليومية من المستودع . تراه أحيانًا متأبطًا كتابًا . سألته أول مجيئها : « ما هذا الكتاب ؟! . لمحت فى عينيه بريقاً ذكّرها ببريق عينى ابن أخت سيدتها أم مروان . أجابها ، محاذراً أن يسمعه أحد : « كتاب التاريخ لطلاب البكالوريا » . لماذا خفّض صوته ؟ يمتنع عليه أن يخاطب البنات . آه منه : وجدته يعنى بها وحدها ، حين لا يولى غيرها من البنات اهتماماً آه منه ! والبنات يحببنه . فتى وسيم يدخل إلى حيث لا يدخل رجل سواه ، عدا المدير . وجدت عنايته بها فى ازدياد وعندما يكلمها يصطبغ وجهه بحمرة على ما فيه من لون وردى . إنها تتسلل فى غفلة من المراقبة المناوبة ، إلى المطعم وراءه ، فتساعده فى تفريغ المئونة التى يجلبها فى الصوانى والصحون . تكون معهما الطاهية « أم محمود » المرأة السمينة التى لا « ترى » جيداً ! لا تفهم إلا فى السمن واللحم والمرق ! لا ترى عبدو سلام وما يصطبغ به وجهه الوسيم من ألوان ! تتمنى لو تتحسس وجهه ! مرة « مدّت يدها إليه ، تلامس كتفه . نظر هو إلى كتفه ، ليرى ما إذا كان ثمة . « شىء » على كتفه . أحبت أن تداعبه ! فلما لم ير شيئاً ، صوّب نظره إليها : كانت تحدّق فيه

بشغف ! الحقيقة ؟ وتبسمت : لقد أحببته ! أحببته ! أحببته ! والبنات عرفن ذلك من الوهلة الأولى ! آه ، لقد اضطرب من تحديقتها فيه . ما أجمل المداعبات وأسرع يدير نظره صوب أم محمود ، ليرى : المرأة تشهد ؟ وأم محمود غارقة فى فحص السمن والرز والشعيرية ! إنه يخاف الإدارة . وضح لها أنه يخاف . وإنها لتحبه، فى خوفه وأمنه ! ووضح للبنات أنها تحبه . ولكن . . واحسرتاه ، لقد كف من يومئذ عن التحدّث إليها ! وكفّ ، آه ، حتى عن النظر إليها ! إنها لتعاونه فى المطعم ، وتبذل فى معاونته جهداً ، فلا يبدى اهتماماً أى اهتمام .ترى ، أى خوف فيه ؟ كل ما باتت تراه فيه سكوت مطبق فى وجه يصطبغ ألواناً . إنها لتكره فيه هذا الصمت ! تمثال جامد ، ذو وجه يتوردا . . . تكرهه ! بات يطاردها ! يطاردها ، على نحو غير مألوف ، فى اليقظة والحلم ! لماذا يداعبها ؟ إنها لا تريده ! إنها بنت شريفة . . . شريفة . . .

ــ بماذا تفكرين يا سعدى ؟

صحتْ على صوت إحداهن .

ــ بماذا تفكرين ؟

إنها فاطمة ــ هى ذى تجلس إلى جوارها ــ التى قطعت شوارع دمشق متسولة .

ــ لا أفكر بشىء .

كانت عيناها مشدودتين إلى الباب شدّاً .

ــ لا تفكرين بشىء ؟! (لمحتْ على شفتى صديقتها الخبيثة بسمة)

عبدو سلام ... هم م م ... تنتظرين مجيئه !!

سارعت تعلن :

ـ أنا ... أنا ... أكرهه !

ضحكت صاحبتها :

ـ خفضى صوتك لئلا تسمعنا ...

ـ أقول لك : أنا أكره عبدو سلام !

ـ مليح : أنت تكرهينه ، ونحن جميعاً نحبه ! هل زارك الليلة فى المنام ؟!

فشتمتها :

ـ يلعنك ، فاطمة !

ـ وجدتك فى الصباح الباكر تتكلمين مع نفسك !

ـ أنا ؟! (وتفكرت) وهل سمعت ما حدثت نفسى به ؟

ـ كان الذى يتكلم شفتاك وعيناك وقسمات وجهك ؟ وأما صوتك فلا يكاد يسمع . كنت تخرجين رأسك من تحت اللحاف ، ثم تطمرينه ، ثم تخرجينه ... وأخيراً علا صوتك !

صوتى علا ؟ ! طيب ، ماذا قلت ؟

ـ ترددين : شريفة ! شريفة ! أنا بنت شريفة !

أنكرت بصوت جسور :

ـ أنا لم أقل هذا !

ـ خفّضى صوتك ، ومن أين لى أن أعلم ؟ لئلا تسمعنا ماما فردوس !

سمعتك بأذنى ياسعدى . أنت. .. (وتضاحكت بوقاحة) إلى متى تظلين « مجنونة » بعبدو سلام ؟ أنت مجنونة بحبه ، يا سعدى ! أنت مجنونة ! قد يحيلونك إلى « العصفورية » ! اصحى على نفسك . هل . . . (رأتها تبتسم بمكر) هل داعبك ليلة أمس فى المنام ، يا سعدى ؟

فكرت فى حنق : هى ذى فاطمة تحزر ! ولكنى لم أحك المنام لأحد ! اللعينة تعرف .

ـ هل داعبك فى المنام ؟ داعبك عبدو سلام ؟

أعلنت فى عزم :

ـ خسىء !

فاطمة تتأوه :

ـ آه ! ليته يداعبنى أنا ، فأستسلم له !

وجلدت صوتها يعلو :

ـ خسىء ! خسىء ! خسىء !

ـ أقول يداعبنى أنا ، لا أنت ! لماذا تغضبين ؟ أراك تغارين !

ـ أنا لا أغار !

ـ قولى إنك تحبينه ! أنت تغارين عليه .

وانفجر ههنا فى حلقها نداء مذعور :

ـ ماما ! ماما ! ماما ! . . . .

أقبلت فى إثره ، ماما وداد والإخصائية الاجتماعية ، خرجتا إليها من « الإدارة » ركضاً ! سألتها الإخصائية :

ـ ما بك يا سعدى ؟

ـ ماما ... إنها تعذبنى !

ـ مَنْ منهن ؟

تلفّتت بحثاً عنها :

ـ فاطمة ، يا ماما ... إنها فاطمة « الشحاذة » !

ـ أين هى ؟

تجمعت حولها البنات ، متسللات من « المشغل » ، متحلقات حول البركة ، ثم مالئات أرض الدار . وجئن بفاطمة ، فانتهرنها ... و... :

ـ أى شىء جعلك تغادرين المشغل يا فاطمة ؟

رأتها تجيب بخوف :

ـ استأذنت ماما فردوس ، لأشرب .

ـ وشربت ؟ أم أنك خرجت تتعرضين لسعدى ؟ كم مرة قلنا لكن : دعنها وشأنها ! هيا إلى المشغل .

* * *

ارتقت الدرج ، وهى تفكر بسعادة : الإدارة تُعنَى بى ! نعم ، إنهن يعنين بها ويُلبِّين رغباتها : تتمنّع عن الطعام ، فيترضينها ! تتشكى من إحداهن ، فيدفعنها عنها ! تصدف عن تعلم الخياطة ، فيتركن لها حرية دخول المشغل والخروج منه وقت تشاء !

ودفعت باب المهجع ، محدِّثة نفسها بصوت :

ـ وهأنذى ، الآن ، أرغب فى الصعود إلى المهجع ، فتسمح لى ماما وداد !

واستدركت ، وقد غاضت السعادة فى قلبها : ولكنه لا يهتم بى ! ، آه ، إنه يخاف الإدارة . يموت رعباً من الإدارة ! لم يعد يكلمها ! وهى كلما أمعن فى صمته ، اشتد حبها له ! إنها تكرهه . صامت ، أخرس ، لا ينطق ! مرة مدّ يده نحوها . كانت إلى جواره فى المطعم ، تحت ؛ وكان مقرفصاً يفض أغراضه التى جاء بها ، وهى منعطفة عليه تساعده ؛ مد إليها يده ، تلك التى تمسك خيطاً من قنب ، حدثت نفسها فى ابتهاج : هوذا يتعلل بذلك ليتحسس صدرى ، فيما تكبت أم محمود اللحمة تعاينها ! . . . ولكن يده ترتفع إلى وجهها ، فقالت فى نفسها : يريد لمس خدى ! . . . يده تزداد ارتفاعاً ، قالت : شعرى ! ... ولكن اليد تتابع انطلاقها كالسهم . . . فإذا هو — يا لخيبتها ! — يقصد مسماراً فى الجدار قد تراكمت عليه «الخيطان» ، فيضيف خيطه القنبى إليها ! كادت ، من خيبتها ، تصرخ . كادت تهوى بيدها عليه ، وقد عاد يتابع عمله ! تكرهه ، نعم ، نعم ، فلماذا لا تشكوه إلى الإدارة ؟ إنه يتحرش بها ، يريد أن يمتحن استعدادها ! يجب أن تُوصل الأمر إلى الإدارة . لقد أسرّت إلى ماماوداد :

— مدّ يده إلىّ ، ياماما . قصد أن يداعبنى ، فأجفلتُ ، وتراجعت إلى الوراء . فلما لم يجد منى استجابة ، تظاهر بأنه يريد أن يعلق خيطاً على مسمار فى الجدار ! آه ، يا ماما . . . عبدوسلام رذيل . إنه يتحرّش بى !

واعترضت عليها ماما وداد :

— ولكننا لم نلحظ عليه مأخذاً من هذا القبيل ، يا سعدى ، من

يوم توظفه فى المعهد وهو يدخل إلينا ويخرج بأدب . .

فأكدت لها (وهل تخفى الحقيقة عن ماما وداد ؟) :

ـ أنت لاتعلمين ، ياماما ؟ ؟ إنه يحملق بى ! ومن أين لك أن تعلمى ؟إنه يرشقنى بنظرات ذات معنى !

ـ وأين يراك ؟

ـ فى أرض الدار ، وفى المطعم .

ـ فى المطعم ؟ ! وما يحملك على الدخول إليه ؟ ألسنا مانعاتكن من دخوله ، فى غير أوقات الطعام ؟

اعترفتْ لها :

ـ إنى أتسلل إليه ، دون علم أحد ، يا ماما ! إنى أساعده ! إنه ، يا حرام ، يتعب ! إنى أساعده مع أم محمود .

لقد لمحت ، هنا ، فى عينى ماما وداد ، إيماضة :

ـ سعدى . . . صارحينى ، يا ابنتى : ما رأيك بعبدوسلام ؟ لاتخفى علىّ .

أحست ، الآن ، أنها أشد قرباً إلى قلب ماما وداد :

ـ إنه شاب وسيم ، يا ماما . . الحقيقة : أنه وسيم وطيب . إنى أحبه ! ولكنه ، ياماما ، يطاردنى !

ـ يطاردك ؟؟ !

لألأت دهشة تلتمع فى عينى المراقبة التى تحبها !

ـ نعم . إنه يأتينى فى المنام ، ويداعبنى !

ـ أوه ، سعدى ! سعدى ! أنصحك بألا تفكرى فيه . ابتعدى

عن طريقه ، يا سعدى . دعى الرجل فى حاله . لسوف نعمد إلى إخلاء سبيلك ، عما قريب. لقد كتبنا إلى أبيك فى ضيعته ، وقد آن له أن يحضر لتسلمك قاضى الأحداث مهتمّ بأمرك !

فكرتْ ، وهى فى ضجعتها على السرير : كتبوا إلى أبى ! أنا لا أريد أن أفارق المعهد . وانقلبت إلى الجانب الآخر : لماذا تنصحنى ماما وداد بألا أفكر فى عبدو سلام ؟ ولكنى لا أفكر فيه. وجلست فوق السرير : إنه هو ، هو الذى يستبد بفكرى ! توجهت نحو النافذة الشرقية : الذنب ذنبه . ولكنى لا أريد أن أخرج من المعهد ، إلى حيث ينقلنى أبى من بيت ، إلى بيت يدفع أصحابه أجراً أكبر فأتلقى من التعذيب قدراً أكبر ! وتطلعت إلى شجرة السرو : لن يتاح لى ، فى غير هذا المكان ، أن أستمتع بهذه الوحدة . إنى أصعد إلى المهجع حين أريد ، وأخرج من المشغل حين أريد ! ثم فكرت على نحو آخر : إنى ، من يوم ماقصصت على ماما وداد حديثى ، من عشرة أيام . وهى تزيد فى تدليلى وملاطفتى والعناية بى ! بل إن الجميع ازدادت عنايتهن بى وتغيرت معاملتهن . لقد رفعوا عنى كل قيد — ما معنى هذا ؟! — إلا قيداً واحداً وضعته على الإخصائية الاجتماعية فى صيغة الأمر : « لا تدخلى المطعم عندما يكون فيه عبدو سلام ! » . . . . لماذا ؟ لماذا ؟ أيخافون علىّ منه ؟ أنا بنت شريفة ! أنا لا أخاف منه !

وقفت أمام المرآة : ما أجمل عينيك يا سعدى ! واسعتان ، تسبحان فى سواد . كم تحبهما ماما وداد !

وهبطت بناظريها إلى بدلتها ، والمشط فى يدها تسرح به شعرها . أى فارق بين لبس الخدمة فى البيوت ، وبين هذه البدلة الكحلية النضيفة تلبسها هنا ! تخيط البدلات لهن ماما فردوس .

وعاودت النظر إلى عينيها ، تخاطب نفسها فى عزم : حياتك هنا ، يا سعدى ، سعيدة ، أليس كذلك ؟ ولكن ما يشغلك ، أيتها المسكينة ، عبدو سلام. إنه يطاردك. يطاردك فى الأحلام! البنات عرفن خبر الأحلام! لن يخيفنى ! أنا بنت قوية . سأبرز له ! سأتحداه ! ما باله تأخر اليوم ؟ لم أسمع ، بعد ، الرنة التى يبعثها فى جرس الباب . سأتسلل إلى المطعم ، بعد قليل ، دون أن يشعر بى أحد وأبرز له . قبلنى فى المنام . هل يقبلنى فى اليقظة ؟ آه ، متى يقبلنى فى اليقظة ؟ قبلنى من هنا ، من هنا ، من هنا. . . لم تكن أم محمود معنا ! أمسك بى هكذا ، هكذا . عانقنى وقبلنى من شفتى ، وكاد . . . آه . كاد يهم بى ، لولا أن صرخت . .

وخاطبت نفسها : لماذا صرخت يا سعدى ؟ وأحست بجمرة تملأ جوانحها : لِمَ استغثت ؟ لمه ؟ لمه ؟

سمعت ، هذا رنين الجرس يصلح فى أرض الدار ، رنة عبدو سلام المعهودة !

وفكرت فى تصميم : لن أصده ، هذه المرة !

وأسرعت إلى النافذة . . . تطل .

* * *

امتلأ قلبها فرحاً : هو ذا عبدو سلام فى أرض الدار ، يحمل مئونة اليوم .

أغلقت باب المهجع وراءها فى رفق . قلبها يخفق خفقاناً مريعاً .
نزلت الدرج بتؤدة . تحاذر أن تقع عليها عين . هوذا يعاود الحمل من الباب إلى المطعم .

هتفت بينها وبين نفسها : يا عبدو ! يا عبدو ! لماذا أنت هكذا ؟
ألا تسمعنى ؟ لماذا تطاردنى ؟ تطاردنى ؟ تطاردنى ؟ لسوف أشكو أمرك معى إلى الإدارة ، ها !!

غدت فى أرض الدار . تلقّطت أنفاسها . دخل المطعم . وباب الدار أغلق . خير لها أن تسير فى أرض الدار صامدة ، دون ما خوف أو احتراس لا خوف ، لا خوف ! تريد . . . إنها تريد أن تذهب إلى «دورة المياه» . غدت قرب البركة . هوذا المشغل مغلق بابه . وباب حجرة الإدارة مغلق أيضاً : هنّ فى اطمئنان : إنها فى المهجع ، فوق ! لا عين تراها . لتدخل فى هذا الباب ، إذن . لا يخامرها خوف . الباب أغلقته وراءها فى هدوء . عبدو سلام ، هو ذا — يا عينى عليه ! — يضع صندوقاً على الأرض . إنه يدير وجهه نحوها . ينظر إليها . وجهه يتورّد .

— دعى الباب مفتوحاً !

صاح بلهجة أقربَ إلى الأمر .. فكرت : آه منه ! إنه يتكتّم ، يحاول دائما أن يخفى عاطفته نحوى . طيب ، لو كان الأمر فى يده أتراه يهتف بى فى رفق : «سعدى ، حبيبتى ، أنزلى رتاج الباب ، وهلمى إلىّ ! » . . .

تدانت منه ، وهو يدنو إليها فى رضى . ثم . . . رأته ، فجأة ،

يقبل عليها أى تبدل ! ولكنه تجاوزها إلى الباب ، يفتحه ! كاد لسانها يعلن : « إلى متى ، عبدو ؟» . وقف فى الباب لا يبرحه . إنه ينادى :

ــ أم محمود ! تعالى ، يا أم محمود !!

آه ، الجبان يستغيث ! بدل أن تطلق هى صرخة استغاثة ! أم أنه ينادى أم محمود لتعاونه ؟

ــ أنا أعاونك ، يا عبدو !

قال يخاطبها فى تأنيب :

ــ أقول لك : : دعيه مفتوحاً !

تساءلت غير مصدقة : لماذا يظهر اليوم هذه القسوة كلها ؟ ووجدت نفسها تخاطبه فى داخلها فى رقة : « عبدو ! يا ملاكى إنى أراك فى منامى ! » أتعالنه بما تراه فى الليل ؟

أقبلت أم محمود ، حاملة بين يديها الأوانى .

ــ هأنذى جئتك ، يا عبدو . هات لأرى .

قعدت القرفصاء . وقرفصت أم محمود قبالته .

ــ هذى فاصوليا بيضا .

سألته أم محمود :

ــ أرنى لحمة اليوم ! كانت لحمة البارحة . . .

وفكرت ، وهى ترمقهما فى حقد : يهملنى ! يتحدث فى الأكل ولا يهتم بى ! أبصرت إلى جوارها طبقة من الصحون النحاسية . عبدو سلام لم يعد يهتم بها . تتمنى لو تتناول واحداً من هذه الصحون ، وتهوى به

على رأسه . لم هذا الخوف كله؟ لم لا يسفر ؟ قبلها الليلة الماضية !
إنه ، الآن ، وأم محمود يتحاوران . قبلها الليلة الماضية . مازالا يتحاوران.
أكياسٌ تُفَرَّغ ، وأوانٍ تملأ ، قبَّلها الليلة الماضية . لم لا يقبِّلها ، الآن؟
تكرهه ! تسللت إليه برغم كل مانع. قبَّلها هنا ، في هذا المكان .
ودنت إليه . عندما قبلها الليلة الماضية ، كان في المطعم ، هنا ، مقرفصاً
هكذا ، كما هو الآن ! وكانت هي إلى جواره كما هي الآن ! تحس الآن
خوفاً . لم تكن أم محمود في الليلة الماضية معهما .

— خذ الأكياس معك . تجمع منها عندنا عدد كبير .

— سآخذها .

لا يحُسَّان بوجودها . لا يحسُّ هو بوجودها . قبَّلها . ترك في الليلة
الماضية ما في يده ، فيما هي منعطفة عليه ، وقام ليمسك بها . قبلها من
هنا ، من هنا . آه ، وكاد . أحست خوفاً ، مزيداً من الخوف .

أم محمود تقول ، وهي تغادر المطعم :

— لا تنس ، يا عبدو : خذ الأكياس معك .

امتلأ فؤادها بالخوف . هي وعبدو سلام ، وحيدان في المطعم !

هو ذا يمد يده نحوها . يمدها الآن في اليقظة ! يمدها حقيقة !
آه ، تخافه ! تشتاقه ! حدقت في يده الصاعدة إليها : ليس فيها الآن
خيط ! إنه يقصدها ، هذه المرة ! أتراه يقصد صدرها ؟ . . . خدها؟
. . . شعرها ؟ . . . أخذت ، فجأة ، في إطلاق صرخة حادة مصدوعة
فيما هي ترى إلى يده تتجه نحو . . . الحائط ! !

ـ ما بك يا سعدى ؟ ما بك ؟ ما باك ؟

أحست نداءه اللهيف يتغلغل فى أعماقها ، حين كان العالم من حولها يستحيل إلى . . . .

. . . .

. . . .

تحاول ، على غير طائل ، أن تفتح عينيها . إن صوتاً كصوت عبدو سلام ـ ولكن مرهقاً ـ يتسرّب إلى سمعها :

ـ أردتُ أن . . . أرزم الأكياس . . . بخيط ! مددتُ يدى إلى . . . الحائط ، إلى المسمار . . . كانت هى بجوار الحائط . . .

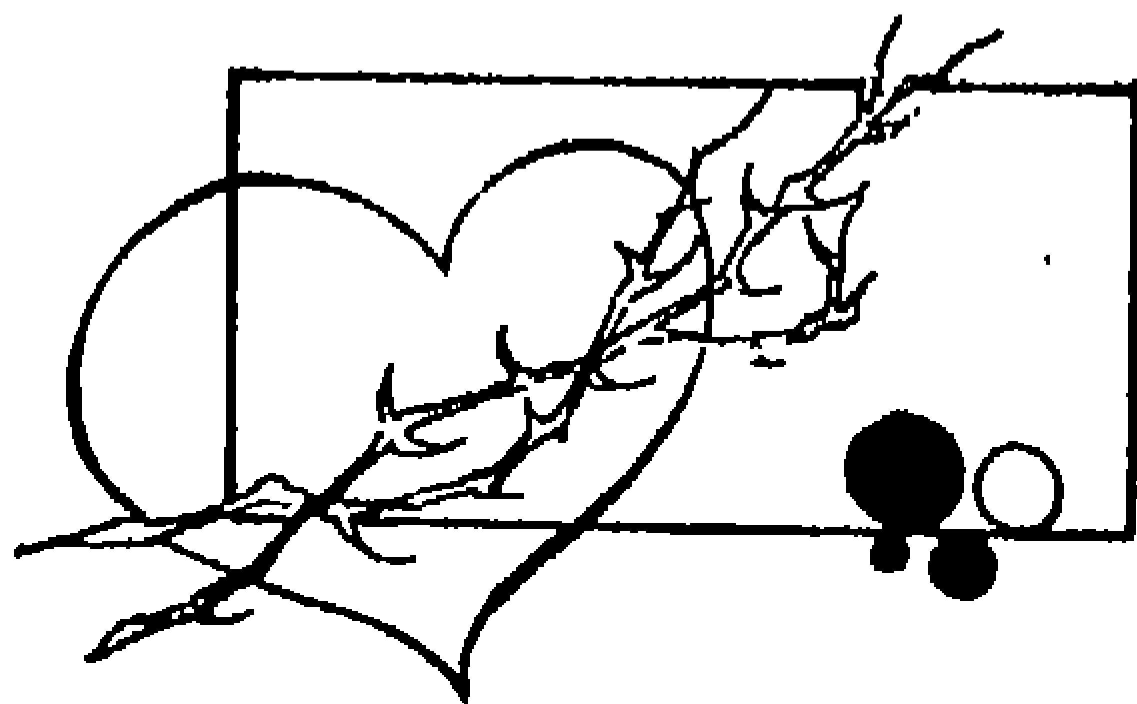
فتحت بالجهد عينيها .

وجدت نفسها موسدة على سرير المعاينة ، فى « إسعاف » المعهد !

هى ذى ماما وداد ، والإخصائية الاجتماعية ، والمدير أقبل من جناح الأحداث الذكور . . .

وهو ذا عبدو سلام يحكى ، رافعاً يده . . . بخيط قنبّ !

نهار مُشرق



ما إن وضعت قدمها على الرصيف ، حتى تبدت لها الدنيا أكثر إشراقاً . فرفعت وجهها نحو السماء : آن لها أن تشرق ، بعد أربعة أيام ممطرة !

وتساءلت برجاء : هل تصدق الصبية ، فيراجع أخوها المدرسة ، اليوم ، فيتسنى لى أن أتعرف إليه؟ أن أستقبله فى « غرفة الموجّهات » ؟

يا لشمس هذا النهار ، ما أبدعها !

سأقول له ، فى صوت أضفى عليه مزيداً من الرقة : « أختك ، هند ، تلميذة لطيفة ومهذبة ، تحبها زميلات الصف جميعاً ! » . سأكون فى هذا كاذبة ، فإن هند بنت خمول وغير محبوبة . . . « ولكنها ، فى العربى والرياضيات والإنكليزى ، تحتاج إلى عناية ! » . . . وقد يداعبنى ، إذا كان مرحاً : « فماذا يبقى لأختى من مواد دراسية هى بارعة فيها ؟ ! » . ويضحك ، ويغرق فى الضحك ، حتى ليهتزّ جذعه ، وهو قبالتى على الكرسى الخيزرانى ، فيستلفت بذلك نظر زميلاتى الموجهات !

ستظل تذكر لحظة لمحته ، يوم الثلاثاء الماضى ، هو وأخته ، واقفين أمام واجهة أحد المحال ، تشير الصبية إلى حذاء يلتمع تحت الأضواء ، وكأنها تحضه على أن يشتريه لها ! وقبل أن تفلح فى إقناعه ، كانت هى — فى إقبالها عليهما — قد تعثرت قدمها فى مسيرها على الرصيف (أو هى تعمدت ذلك !) ، فصدرت عنها جلبة استلفتت بها الأنظار ! . . فإذا الصبية تهتف بأخيها : « انظر ! إنها الآنسة فريال ،

موجهة صفى ! » . ثم ، وقد تجاوزتهما ، لم تعد تدرى ما أجاب أخته . كل ما وعته أن هذا الشاب ، الفارع القامة ، ذا البزّة العسكرية الأنيقة ، هو رجل رائع ، وأنها نجحت فى استلفاته ، وأن نظرات منه دافئة قد لفحتها ، وهى تتابع سيرها . . . مبتعدة عنهما ، وكأن شيئاً لم يحدث !

يا لشمس هذا النهار ، ما أحيلاها ! لقد أبرقت السماء ، فى الأيام الماضية ، وأرعدت وسفحت من هتون دمعها ما سفحت . . .

وصحت إلى نفسها : لقد وفقت إلى أن أنتزع ، بواسطة الصبية ، وعداً منه بأن يزور المدرسة :

ـ هند ! يجب أن يحضر أحد ذويك إلى المدرسة ، يا هند !

ـ آنسة ، أبى متوفى ، وأمى مشغولة دائماً .

ـ ولكن لابد من حضور أحد من أهلك لمقابلتى ، يا هند . أنت بنت طيبة ، وأخشى عليك من الرسوب ، فدرجاتك فى بعض المواد متدنية . . . أليس لك إخوة ؟

ـ بلى ، آنسة . وإن « بسام » أكبر إخوتى .

ـ وماذا يعمل بسام ؟

ـ ملازم طيار ، آنسة .

إنه هو إذن ! واسمه بسام !

ـ وهل يقيم معكم ؟

ـ نعم ، آنسة .

فهو عزب !!

ـ فليصحبك إلى المدرسة ، يا هند ، فى يوم قريب ، فإن عندى كلاماً يخصك يجب أن أحدثه به . . هذا ؟

* * *

وقفت « فريال » حيث تشرف ، من مطلّها ، على التلميذات وهن ينتظمن أرتالا ، ويغادرن الباحة إلى قاعات صفوفهن . إنها تجيل نظرها بينهن . ومن عجب أن تحس أن عينيها لا تبصران ، اليوم ، غير . . . هند أومأت لها بيدها إيماءة أن تعالى .

كم تبدو لها لطيفة ورصينة ! الحق ، أنها لم تكن كذلك . فى مطلع العام الدراسى ! كانت « غير مرتبة » : الملابس عديمة الأناقة ، والشعر مشّعث غالباً ، وظاهر كفيها ينم عن انعدام ولعها بالنظافة ! وأما بلادتها ، فيا حفيظ ! . .

ـ سيأتى أحد ذويك ، اليوم ، كما اتفقنا .

ـ نعم ، آنسة .

ـ ومن الذى يحضر منهم ؟

ـ أخى ، أخى بسام ، آنسة .

ـ فى الساعة ؟

ـ لم يحدد لى موعداً لمجيئه . قال إنه سيحاول أن يأتى . . . وأضاف : « لابد أن آتى إلى مدرستك ، يا هند ! » .

ـ طيب . . . إلى صفك .

ورقص قلبها ! ما ألطفها ! أى أمر بدّلها تبديلا ؟! . . : كانت ، إلى ما قبل أسبوع ، فى عداد التلميذات اللواتى لم تستطع أن تعقد بينها وبينهن وفاقاً قط : «أميمة» الشغوب التى تفتن فى إزعاج المعلمات ، و «نهال» التى خطت على حائط الصف كلمات تمس معلمة الرياضيات و «رغداء» التى تعنى بأناقتها أكثر مما تحتمل سنها ؛ و «ريمة» التى لبست ، يوم الرحلة إلى «الغوطة» ، «شورت» استلفت الأنظار ؛ و «فتون» الباهرة الجمال ، المختالة الحمقاء !! .

ومرت بها «فلك» وهى تتقدم رفيقاتها إلى قاعة الصف . فأشارت لها بيدها . . . فأقبلت هذه تنط نطّا :

ـ صباح الخير آنسة .

ـ أهلين ، فلك . (ثم مالت عليها تسألها فى لهفة) أما جئت بالصور ؟

ـ تريثت البنت لحظة ، وهى تتثنى :

ـ بلى !

ـ وأين هن ؟

ـ «الألبوم» فى محفظتى .

ـ هيا ائتينى به .

ثم أخذت تفكر : لقد عينتها «عريفة» على تلميذات صفها منذ أن . . . وتبسمت بمرارة : بنت خمس عشرة تخطب ، وأنا بنت الحادية والعشرين !!! وفكرت على نحو آخر : لو أن لأبى مثل ما يملك أبوها

من مال وجاه ، لكان عندى ، الآن . . . طفلان ! وضحكت . تزاحم الخطاب على باب هذه الصبية الصغيرة، فاختار لها أبوها منهم ذلك المهندس الشاب الذى أشاعت فلك بين البنات أنه وسيم ، وأنه يغدق عليها فيضاً من حبه ، وأن صوراً وفيرة قد التقطت لهما معاً ، وللأهل ، فى ليلة « كتب الكتاب » ! . . . باتت تميل إلى فلك — مع أنها كانت مائعة ومشاكسة — منذ أخذت تسر إليها بأخبار الخطبة : والحب ، وال . . . — قبلات المختلسة !

هى ذى تعود بالألبوم ، وقد لفته بقرطاس . تناولته منها :

— شكراً ، فلك .

— عفواً ، آنسة .

ودسته تحت إبطها .

وفى « الممرّ » رفعت من صوتها صارخة :

— أنتن ، يامن هناك ! إلى صفوفكن ، هيّا !

وانثنت تسائل نفسها : متى يتين لى أن أتصور ، فى حفلة ، أنا و . . . ؟

دلفت إلى غرفة الموجهات وضعت الألبوم ، فى حرص بالغ ، فى درج مكتبها ، وأنزلت عليه لسان القفل .

وفى البهو ، برزت لها « فتون » ، تلك المعتزة بجمالها ، المتباهية بقامتها الفارعة على صغرها :

— فتون ! لِمَ لم تدخلى صفك ، يا فتون ؟

اقتربت فتون منها ، و « انعطفت » عليها :

ــ آنسة ، سألني أبي مساء أمس : . «أين مفتاح باب الدار ؟ » : أجبته : «قد صادرته مني الآنسة فريال ! » . فأهاب بي : « قولي لآنستك : بابا يرجو أن ترديه إليّ ! » .

يا لجمالها الباهر :

ــ وإذا لم أردّه إليك ؟ !

ــ استغرب أبي أن تصادري مني مفتاحاً !

ــ قولي له لا يستغرب ، فالمفتاح معقود بسلسلة ، رأيتك تلوّحين بها ، وسط الباحة ، كما يفعل الـ . . . شباب ! فتون ! اصغي إلي : أنت بنت مغرورة ! أنت تتصورين نفسك أكبر من سنك ! (أمعنت جيداً ، وهي تلقاها ، في هدب عينيها : لله ما أشد سحره!) عليك أن تعرفي أنك ما تزالين طفلة ! مائة مرة قلت لك هذا . المسألة ليست بالطول ، ولكن بالعقل !

احتجت فتون :

ــ آنسة ، أرجوك ، لا تهينيني !

ــ وتزأرين في وجهي ، ياوقحة !! (قذفت بوجهها بهذا النعت ، وهي ترفع يدها إلى كتفها ، وتدفعها نحو باب صفها دفعاً) يا الله ، امشي من قدّامي !

ثم زفرت في ضيق ، وهي توليها ظهرها : كم أكرهها ! أتمنى لو أسحق رأسها سحقاً !

وبينا هي تتابع سيرها ، ترامى إليها صوتُ فتون يعلو في بكاء :

يا لهؤلاء البنات ، ما أقل حياءهن إن أسوأهن طرًّا أولئك اللواتي منحن حظًّا من جمال ! إنهن بغيضات ، لا يطقن ، قد أسيئت تربيتهن ! «بابا يقول : رديه إلىّ » ! ومن يكون أبوها ؟ « مدير التربية » ؟! ليأت أبوها إلىّ ، فأراه . مغرورات ! بتنا نحمد الله على أنه لم يمنحنا الجمال ، فكفانا بذلك شرّ أن نكون مغرورات ، وقحات ، سمجات ! أف ! ما هذا الجيل ! أى قدر أوقعنى فى هذه المهنة : . « موجهة » فى مدرسة إعدادية لا تضم إلا المراهقات !

وأرسلت ناظريها نحو باب المدرسة ، فلمحت ، هناك ، البوّاب مقتعداً كرسيه ، يتشمّس ، قرير العين . فى نفسها لو تسأله : «هل مرّ بك شاب ، فارعُ القامة ، يرتدى بزّة زرقاء ، وعلى كتفيه نُجَيْمتان ؟ » !

* * *

ارتدّت فريال إلى غرفتها . فرأت الآذنة تعد الشاى الصباحىّ على المدفأة . فما كان منها إلا أن أخرجت رغيفها من حقيبتها ، وناولتها إياه :

ـ سخنيه ، يا «أمّ محمود » !

ودون أن تعير زميلاتها الموجهات التفاتاً ، أعملت المفتاح فى درج مكتبها ، وفضت الألبوم من قرطاسه ، داخل الدرج ، وأخذت تستطلع الصور متفرّجة . .

هى ذى فلك ، فى ثوبها الأبيض الفضفاض ، وخطيبها إلى يسارها ،

يلتصق بها التصاقاً حتى لكأنهما جسد واحد!! أين يمناه ؟ كفه اليسرى تحتوى فى راحتها كف الخطيبة ! ولكن أين يده اليمنى ؟ أين فلك تشرح وتفسر ؟

انتزعتها من أفكارها زميلتها «منيرة خانم» :

ـ أى شيء يشغلك عنا ، يا فريال ؟

ردت ، وهى تسرع فى إغلاق الدرج :

ـ لا شيء لا شيء !

وقدمت لها الآذنة قدح الشاى ، والرغيف الذى غدا ساخناً .

ـ شكراً ، أم محمود .

ـ العفو ، فريال خانم .

اقتطعت لقيمة من رغيف الجبن ، ورشفت من القدح رشفة . ثم ما وعت إلا وهى تسحب الدرج ، وتكب على الألبوم من جديد : الأهل ، هنا ، يحيطون بالخطيبة . وههنا يبدو الخطيب وسيماً حقاً . ولكن « فلك » تبدو ظريفة هى الأخرى . الثوب الزاهى ، والحلى ، والتطرية ، وروعة الاحتفال ، ذلك كله يضفى عليها نضارة ورواء . أحب فلك . لقد اخترتها عريفة على صفها ، من يوم أن أعلمتنى بخبر خطبتها ! ومنذئذ وهى تمدنى بحكايات صغيرة لذيذة ! هذه الصبية ، عاطفتها سبقت سنها ! وكم تخلفت ، أنا ، فى هذا المضمار !!

وخرجت إلى البهو : إن الفتاة ، إذا ما تجاوزت سنى دون أن تعثر على رجل ، قال عنها مجتمعى : قد فاتها القطار !

يا لحظى لم تقبلنى الجامعة فى أى من كلياتها . . . (وأخذت تغسل يديها) فسعيت ، بمائة واسطة ، حتى تمّ لى أن أتوظف موجهة « بالوكالة » ! لو أن « مجموعى » ، الذى حصلت عليه فى امتحان الثانوى ، أعلى بدرجتين ، لكنت قبلت طالبة فى كلية الآداب . . . آه أين ابن الحلال ؟ . . .

انطلقت إلى الممر الطويل . أحست ، بعد دفء الغرفة ، بلسعة برد . إن « الأستاذ بدر الدين » يدرس اللغة العربية « بالساعات » ، شاب مناسب . . . لولا أن معلمة الموسيقى تجد فى إثره ! ولكنه — يا للشماتة ! — لا يأبه بها .

صوته الجهورى يترامى إلى سمعها من نافذة الصف :

— . . . « بشيخ » : الباء ، هنا ، حرف جر زائد .

ضحكت فى سرها : والله ، إن لم تلتفت إلىّ ، يا أستاذ بدر الدين ، لأنت أنت حرف زائد ، حرف لا يجرّ ، حرف مهمل ، حرف ساقط . . . تودّ لو تصيح بملء فيها : رجل لا قيمة له ! » ثم تغرق فى ضحك عريض !

— « إنما الشيخ من يدب دبيبا » !

اختلست النظر إليه ، عبر النافذة : معلم جادّ ، لا يهتم بغير دروسه ، ومن أجل هذا عينوه فى « إعدادية للإناث » ! سيتخرج ، هذا العام ، فيتاح له أن يغدو معلماً « أصيلا » ذا راتب ثابت دائم . إنه على شىء من صباحة الوجه ، ولكن أناقته فى الحضيض . لعل ذلك

بسبب الفقر . حذاؤه أغبرُ على الدوام . سيكون أمام معلمة الموسيقى مجال كبير «للعمل» أن توفق فى «اصطياده» ، ثم تبذل الجهود فى «إصلاح شأنه» !

واتجهت نحو باب المدرسة : وأما أنا ؟ فإن لى . . .

ـ هل أطلّ عليك شاب ، فارع القامة ، يرتدى بزّة عسكرية ، يا «أبو دياب» ؟

ـ لا !

ـ ملازم طيار ، على كتفيه نجيمتان ؟

رمقها البوّاب بنظرة

ـ لم يدخل مدرستنا ، اليوم ، من الرجال غير . . معلم العربى !!

* * *

ـ ما هذا الوضع الغرامى ، أيتها الجنية ؟!

ـ آنسة ، لا تخجليني !

تابعت فى همس :

ـ أين يده اليمنى ؟ أجيبى !

تبسمت الصبية :

ـ تطوّق خصرى ! كان ، تلك اللحظة . . يدغدغنى !

ـ آه ! يا لكما من عفريتين ! وهؤلاء ؟ . . . هذه ، من هذه ؟

ـ إنها أمى .

ـ وتلك ؟

ـ أخته ؟

ـ أخته رائعة الحسن ، كما تبدو . أهم من أسرة ثرية ، أيضاً ؟

ـ أبوه تاجر فى «سوق الحميدية» ، جار لأبى :

فكرت فريال تلك هى الحقيقة ، إذن : «صفقة» بين تاجرين !

ـ حدثينى ، يا فلك هل اختلس منك ، يوم الحفلة ،...؟ هل ضمك إلى...؟

ـ آنسة ! أرجوك ، والله أخجل !

وفرّت من أمامها : صبية فى صف الكفاءة ، تنهل من كأس الحب ؟ وأنا ، التى يجب أن أكون سنة ثانية كلية الآداب ، من أى كأس أنهل ؟

دخلت عليها الآذنة :

ـ فريال خانم ، المديرة تطلبك ، وتقول : أحضرى معك المفتاح الخاص بالتلميذة فتون !

أغلقت الدرج ففتون قد اشتكتنى إلى المديرة ! غادرت المكان : الوقحات ، لا يرعوين ! سأعرف أى أمر أكاشف به المديرة

ـ ما حكاية فتون ، يا آنسة فريال ؟

ـ بالاختصار ، يا حضرة المديرة : فتون بنت تحس أنها أكبر من سنها ، لا تكفّ عن التباهى بجمالها وقامتها الفارعة هى صحيح حلوة ، ولكنها لا تدرك أنها ما تزال طفلة ! قلت لها هذا مائة مرة !

ـ وما حكاية المفتاح المصادر ؟

ـ هو ذا ، إنه ذوسلسلة طويلة ، كما ترين تحتها تختال فى الباحة ، وهى تلوح بالسلسلة ، تلفها حول إصبعها ، ثم تعيد ذلك مرة ومرة ، صنيع الشباب فى عرض الشارع

ـ والحوار ، الذى جرى بينك وبينها ، هذا الصباح ؟

ـ وقفت تجاهى ، وعينها أعلى من عينى ، تحد النظر إلىّ حتى تكاد تفترسنى ، وتخاطبنى بلهجة آمرة : « بابا يقول : ردى المفتاح إلىّ ! » . فطردتها من أمامى . كم كانت وقحة معى ، منذ الصباح !

ـ هل دفعتها بكتفها

ـ ذلك أنها متأخرة عن الدخول إلى صفها !

رنت إلى المديرة وهى تعتصم بالصمت ، لحظة . ما بها ؟ أهى تحقق معى ؟ أنا لم أرتكب خطأ أؤاخذ عليه !

ـ آنسة فريال ، أريد أن أعترف لك بأناك ، إجمالاً موجهة لطيفة مع تلميذاتك . . .

ـ جداً ، يا حضرة المديرة . كلهن مولعات بى !

ـ حسن ، ما رأيك فى أن تزيدى بعضهن تعلقاً بك ؟

ـ إن بين البنات عدداً من المشاغبات الشرسات ، اللاتى لا ينفع معهن اللطف ، يا حضرة المديرة ! أما تذكرين التلميذة نهال وما خطته على حائط صفها ، إذ كتبت اسم معلمة الرياضيات « رمزية علايا » محرفا : « رزية بلايا » ؟! وكيف أن الأخرى ريمة خرجت على

طاعتی ، يوم الرحلة إلى « الغوطة الشرقية » ، عندما لبست . . .

قاطعتها المديرة

— صحيح ، يا آنسة فريال . . . ولكنّ كلا منهن ، بمساوئها ومحاسنها ، تظل بنتًا من بناتنا ! إن الكلمة اللينة ، إن المحبة الصافية ، وإن العطف ، الحنان ، ذلك ما يجعل من التلميذة ، التي تسلك سلوكاً . . . .

* * *

— دونك الألبوم ، يا فلك . لتهنئى بخطيبك . (وخرجت وإياها من الغرفة ، وذراعها تطوّق كتفها) أما عزمت على مصارحتى : هل اختلس منك قبلة ؟

— أوه ، آنسة فريال ! والله أخجل !

— ولم الخجل ؟ أنا فتاة من جيلك . عديني رفيقة لك . هل اختلس . . . ؟

— بل أعطيته إياها برضاى !

— ومن أين قبلك ؟ من أين ؟

— من . . . من . . . . . .

وأشارت الصبية إلى ثغرها ، قبل أن تنسل من تحت ذراعها .

فكرت فريال ، وقد غدت فى المطل المشرف على الباحة : الكلمة اللينة ، المحبة ، العطف إننى أحب التلميذات ، وأعد نفسى واحدة منهن . . . . وها هى ذى فلك ، إنى لأحسدها ، كما لو أنها رفيقة لى أو أخت ! أتطمح المديرة فى أكثر من ذلك ؟

وعن بعد لمحت هند . أشارت لها . إنى لأحب هند أيضاً . أحبها بكل سيئاتها التى كانت وحسناتها الآتيات .٥. . . . .

ــ أنت على يقين من أن « الملازم بسام » سيحضر اليوم ؟

ــ أجــل ، آنسة . قال لى : « لابد أن آتى إلى مدرستك ، يا هند » ! .

ــ ذلك ضرورى ، من أجل مستقبلك . طيب ، شكراً .

فكرت ، وقلبها يرقص طرباً : « مستقبل » ، نعم ، ولكن مستقبل من ؟ حقًّا ، إنه لشابٌ رائع ! أن تحظى به ذلك ما يجعلها تهجر العمل ، وتتخلى عن حلمها العظيم فى دخول الجامعة ، ملقية بهمومها ، دافنة إياها فى بحر النسيان !!

لمحت ، هناك ، رغداء تلك تعنى بأناقتها أكثر مما تحتمل سنّها :

ــ رغداء ! تعالى هنا .

هذه البنت ستورثنى الجنون ! كم نصحتها بالكلام اللين ، باللفظ المعسول ، أن تقلع عن أن تولى مظهرها تلك العناية كلها . . . دون جدوى !

ــ ما هذا « الشال » الفاخر تلتفعين به ، يا رغداء ؟

ــ يقينى للبرد ، يا آنسة !

ــ عينى ! كم مرة نبهتك إلى أن تخففى من غلواء اعتنائك بمظهرك ؟ أنت تلميذة إعدادى ، بعد .

ــ ولكن الدنيا برد ، آنسة !

ــ أأصادره ، كما صادرت أمس ، السلسلة من رفيقتك فتون ؟

ـ لا ، آنسة . يخليك . والله ليس لى .

ـ ولمن هو ؟

ـ لأمى . قد استعرته منها هذا الصباح ، لأدفع به عن نفسى غائلة البرد .

ـ طيب ، لن تلتفعى به غداً !

ـ حاضر ، آنسة .

وانصرفت إلى نفسها تتساءل برضى : وهل للمديرة أن تحلم بأن تتحلّى موجهاتُ مدرستها بلسانٍ أطرى وأحلى؟ كل ما هنالك أنى أعطى كل موقفٍ حقه !

* * *

ـ آنسة ! معلمة الإنكليزى تقول تعالى إلى الصف !

ـ خيراً ؟

ـ إنها أميمة . . . التى ترفض أن تخرج من الصف !

فكرت فريال : تلك الشغوب التى تفتنّ فى إزعاج المعلمات !

ورأت المعلمة ، فى الصف ثائرة :

ـ آنسة فريال ! أعصابى لم تعد تحتمل وجودَ هذه العنيدة ! أمس فرضت عليها أن تكتب الدرس ، الذى لم تتقنه ، عشر مرات . واليوم تأتينى دون أن تكلّف نفسها عناء كتابته مرةً واحدة . « لم يا أميمة؟ » : «عشر مرات كثير ، يا آنسة ! » ، تريد أن تحدد لى عدد المرات التى يحق لى أن أفرضها على الكسولات ! « اخرجى من الصف ! » . أتدرين ما قالت لى ؟

— ... ؟ . : ؟

— «إذا طلبت الجزاء من غيرى ، فاطلبيه منى ! » : تريد أن تعلمنى الأصول ! لم يبق إلا أن تجلس ، هنا ، على المنبر !

توجهت فريال إلى الصبية :

— لم ذلك ، يا أميمة ؟

. فشكت البنت أمرها :

— آنسة! فرضت ، أمس ، على نصف بنات الصف كتابة الدرس عشر مرات . ثم لم تقدر واحدة منا أن تكتب المرات العشر . واليوم رضيت الآنسة أن تؤجل الجزاء للجميع إلى يوم غد ، ما عداى ! !

اهتاجت المعلمة :

— أميمة ! اخرجى من الصف ، أقول لك ! ! (أخذت تصرخ فى لهاث) لم أعد أطيق رؤية هذه البنت الشغوب ! أعلن ذلك أمامك ، أنت موجهة الصف ، يا آنسة فريال اعلمى المديرة بذلك ، أرجوك !

قالت فريال بلهجة آمرة :

— أميمة ! اتبعينى !

ولحقها صوت المعلمة

— أنا لن أقبلها ، بعد اليوم ، فى صفى !

وأخذت فريال تحاور الصبية :

— لم ذلك ، يا أميمة ؟

فدافعت عن نفسها :

— ولكنى لم أخطئ هذه المرة ! تُعنى الجميع ، وتستثنينى ! إنها هى التى لم تعدل !

— وتقولين لها : « إذا طلبته من غيرى ، فاطلبيه منى ! » ؟ . . . تُنَصِّبين نفسَك قيِّمة عليها !

— آنسة ، إن الظلم شىء بغيض ، لا تحتمله أعصابى !

استرسلت فريال فى نصحها :

— اهدئى ، يا أميمة ! أنت صغيرة . ما أنت إلا فى الخامسة عشرة . وأما معلمتك ، فهى فى الأربعين ، تعرف أضعاف ما تعرفين ، وتتحمَّل من ضغوط الحياة أضعاف ما تتحمّلين . . . إذا غضبت أو ثارت ، فعليك أن تُخَفِّضى لها جناحاً ... فإنها التى ترعى عقلَك وتُنمِّى مواهبك . . . ينبغى أن يكون لها عندك منزلةُ الأم ، يا أميمة ، محبتُها ، وإعزازُها . . . (سرّها أنها تجود فى النصح) ألا تعتقدين أن مجابهتك لها ، وهى فى سورة غضبها ، كانت تصرفاً منك لا تشكرين عليه ؟ هيا اعترفى لى ، أنت فتاة ذكية وواعية. إنى أكلمك أختاً لك كبرى ، فأجيبينى أختاً صغرى قد استوعبت الموعظة الحسنة . . . هيّا ! !

أغضت أميمة بناظريها :

— كان علىّ أن أحتمل غضبتها !

استشعرت فريال سعادة :

— طيب . لتبقى ، فى البهو هنا ، ريثما ينتهى الدرس ، فأساعدك فى أن تقبل منك المعلمة اعتذارك عما بدر منك من تهور !

ثم مضت نحو الباحة شامخة الرأس : هأنذى أعالج ، بالكلمة اللينة ، تلميذة شغوباً ذات عناد ، فأفلح في إقناعها . . . أين عين المديرة تشهد ؟

* * *

وتوسّطت الشمس كبد السماء .

— هل مرّ بك الملازم الطيّار ، يا أبو دياب ؟

أجاب البوّاب بصوت أجشّ :

— قد مرّ !

هتفت ، وهي تحسّ قلبها يزداد خفقاناً :

— أين ؟ منذ متى ؟

— قبل . . . عشر دقائق !

— وإلى أين قُدْتَه ؟

— لأنه لم يكن يعرف وجهةً له ، فقد دللْتُه على غرفة المديرة

ارتدّت فريال، مُعْجِلةً ، على عقبيها: اجتازت الباحة بخطواتٍ واسعة . هذا البواب اللعين ! . ثم عدت في الممر الطويل . يا له من مخرِّب ! إنه يتعمّد الإساءة إليّ !

حومت حول باب غرفة المديرة .

تلقّط أذنها حواراً . ولكنها لا تستبين ما يقال . لم لم تستدعها المديرة ؟

— أم محمود ! هل سأل عني أحد ؟

— لا فريال خانم

وطافت فى أرجاء البهو : إنها تحاوره ، منذ عشر دقائق ! ما تريد منه ؟ !

ولمحت أميمة . فلعنتها ، فى سرها ، ولعنت معلمة الإنجليزى ! إن استدعائى إلى الصف ، فى الدقائق الماضيات ، فوّت علىّ فرصة أن . . .

دارت فى رأسها خاطرة ، مضت تحققها دون توان :

— أميمة ! الواقع . . . إن المعلمة بدت غاضبة منك جدًّا . . . أنا لن آخذ الأمر على عاتقى . . . أجدنى مضطرةً لأن أعرض مشكلتك على المديرة ، فيكون لها رأيها !

توسَّلت الصبية :

— لا ، آنسة ، أرجوك . سأعتذر للمعلمة .

كانت فريال قد غدت فى غرفتها ، فتناولت ورقةً من فوق مكتبها ، ومضت بها إلى المديرة .

— أرجوك ، آنسة ! سأعتذر للمعلمة بحضورك ، وأتعهّد بأن أكتب لها الجزاء عدد المرات التى تطلب . أرجوك ، آنسة فريال !

المديرة تحدثه :

— . . . والمدْرسة تَسْعَدُ بمثل هذه اللقاءات الودية بين إدارتها وبين ذوى التلميذات !

استشعرت فريال حنقاً : إنها تتباهى باللقاء ، وكأنها هى التى دعت إليه !

ودفعت الباب :

— حضرة المديرة ، هذه الوثيقة تحتاج إلى توقيع منك . . . إنها . . .

مرت المديرة بناظريها على الورقة سريعاً ، ثم قالت :

— الآنسة فريال ، إحدى موجهات المدرسة . . . حضرته أخو التلميذة هند . . .

تقدّمت فريال منه . انتصب واقفاً . صافحته. شدّ على كفّها ، وهو يشملها بنظرة . . . فيها إغماضة عينَيْ صَقْر !

تابعت المديرة :

— يريد أن يستعلم عن وضع أخته فى المدرسة . . قلت له : إنها بنت طيبة . ما رأيك ، آنسة فريال ، فى أن تحدّثينا عن سير دراستها ، بوصفك موجهة صفّها ؟

كانت فريال قد عاينت — بنظرة خاطفة — شكله: بزّةٌ عسكرية أنيقة، نظيفة ، قد خرجت لتوّها من عند الكوّاء ! ربطةُ عنق معقودةٌ بعناية ! حذاءٌ أسود لمّاع ! . . .

— الواقع . . . أن أختك هند تلميذة لطيفة جدًّا ومهذبة جدًّا... (إنها تجتهد فى أن تُضْفِى على صوتها مزيداً من الرقة والعذوبة) ولا شك أن هذا عائد للوسط العائلى الذى نشأت فيه . . . إن جميع تلميذات الصف يحببنها ! !

أمسكت عن الكلام لحظة ، لتلتقط أنفاسها المبهورة . هنأت نفسها على هذه « المقدمة » البارعة ، مستجمعة فى ذلك شتات ذهنها لمتابعة القول . . . ولكن المديرة — يا للعجب ! — تحشر نفسها فتقول :

— فعلاً هند بنت طيبة ، وما أذكر أن شكوى وصلتنى عنها . وعلى كل حال ، بخصوص دراستها ، هى ، كما أعلم ، فى مستوى

متوسط ، يستدعى منكم السهر على رعايتها فى البيت . تعاون وثيق يجب أن يقوم بين المدرسة والبيت ، وأن يستمر . . .

رأت فريال المديرة تختتم « خطبتها » ، ثم تمدّ نحوها يدها بالورقة ممهورة بالتوقيع . فتناولتها ، وهى تكاد تنشقّ من الغيظ !

— شكراً ، آنسة فريال !

عجباً ! وإنها تريدنى أن أغادر المكان :

— حضرة المديرة ، كنت أريد أن أعلمك بأن هناك تلميذةً مشاكسة هى أميمة ، قد استدعتنى معلمة ال . . .

قاطعتها المديرة :

— دعى ذلك إلى وقت آخر !

ولكنها تابعت :

— لقد اشتجرت الآن ، مع معلمة الإنجليزى ، على مرأى من تلميذات ال . . .

— لتقدّم المعلمة إلىّ تقريراً بالحادثة .

استدارت فريال نحو الباب . لكم تمنّت ، وهى تخطو ، او تتعثّر الآن، تتعثّر حقيقةً، فتهوى على الأرض، فيُسرع هذا الشاب إليها ، يقيها — بزنديه القويين — شرّ السقطة ! !

وما فاتها أن تتبسّم له ، قبل أن تغيب وراء الباب .

ثم جدّفت ، فى البهو : يا للأنانية ! تريد أن تستأثر به ، وهى ال . . متزوجة ! !

* * *

اقتربت منها أميمة ، تسألها فى ضراعة :

ـــ وماذا رأت المديرة ؟

اتجهت فريال نحو غرفتها :

ـــ أقول لك الحق ؟ لقد استاءت جداً ، وأوصت بأن تكتب المعلمة تقريراً بالحادثة ، وأعلق عليه بما أعرفه من سوابق سلوكك الشخصى !

ارتعدت البنت :

ـــ ولكن . . . ما الداعى إلى هذا كله ، يا آنسة ؟ ! ماذا اقترفت ؟

لذّ لها أن تعذّبها :

ـــ من ناحيتى ، قد بذلت جهدى ! ولكن المديرة أصرّت : وسوف يعرض التقرير على « لجنة التأديب » ! وأظن أن الفصل من المدرسة ينتظرك ! (استشعرت راحةً قصوى ، وهى تراها تنشج) والآن ، أنصحك بأن . . . تبحثى ، منذ غد ، عن « مدرسة خاصة تؤويك » يا أميمة ! !

غصّت الصبية بدمعها :

ـــ ! كنت أحسب . . . أن . . . هذه المشكلة الصغيرة . . . ستؤدى إلى فصلى !

ـــ كم قلنا ، وكم نصحنا ، دون جدوى ! نحن فى واد ، وأنتِ

فى واد : تلك هى الحكاية !

قالت فريال ذلك ، ثم خيل إليها أن أذنيها تلقطتا وقع خطوات على بلاط البهو : اشرأبت بعنقها ، فلم تر أحداً ، لم تر شيئاً .

أسرعت تغادر الغرفة .

خلفت البهو وراءها ، منطلقة إلى الممر الطويل .

رأته فى آخر الباحة ، على مقربة من الباب الخارجى . البواب يقف احتراماً ، يؤدى له التحية !

جدت فى إثره .

توارى خلف الباب .

وقال أبو دياب ، وهو يكشف عن أسنانه المصفرة :

— لن تستطيعى اللحاق به . إنه واسع الخطى ، طيار !

وأطلق ضحكة مجلجلة ، كريهة .

لمحته يسير على الرصيف المقابل : عظيم فى مشيته ! يغمره نور الشمس . لا يفصلها عنه سوى شارع ، عرض شارع ، يتدفق فيه شلال سيارات !

لسوف أتغلب على كل الصعاب ، وأفلح فى استدراجه كرة ثانية : سيزورنى فى غرفتى ، ويجلس إلى جوارى ، على الكرسى الخيزرانى ، وأحدثه بما يحلو لى من حديث . . . لقد شد على يدى بحرارة ! !.....

* * *

فى عودتها ، وقد استردت شيئاً من طمأنينتها ، رأت أميمة ما تزال تبكى . فربتت كتفها بحنان :

— كفى عن العويل ، يا أميمة . وأنا أعدك بأن أبذل من أجلك جهداً آخر . إن فى وسعى أن أسوى الأمر مع المعلمة والمديرة كلتيهما ! اذهبى . فاغسلى وجهك أولا . . .

قالوا في أدب المؤلف

• الدكتور نقولا زيادة ، بيروت :

إن أدب فاضل السباعي يمثل الحياة التي يلحظها بين جماعته وأمته . إنه يعالج ، في كل قصة ، مشكلة من المشاكل الاجتماعية والنفسية التي يتعرض لها مجتمعنا ، وهو يكتب عنها بعمق ، فكأنه يحاول أن يسبر غور هذه النفس البشرية ويعرض ما يعتمل فيها من عواطف وبواعث ومنازع . وهو يكتب دون تكلف أو تصنُّع ، كما لو كان يتحدث إليك . وهذا ، فيما أعتقد ، أحد أسرار نجاحه .

• المستشرق الدكتور عبد الكريم جرمانوس ، بودابست ، المجر :

. . . وقصة « أريد أمي » لفاضل السباعي هي قصة بسيطة حقًّا ، ولكنها روحية عميقة القرار ، من يراع فنان مجرِّب ، مختبر لعواطف الإنسان من المهد إلى اللحد ، ولعلها في قمة الإنتاج القصصي الذي يسبر الجوانب النفسية الخفية التي تسود في روح المخلوقين ، لا يفهمها إلا من عانى مرارة الحياة وكابد قساوتها .

• **الدكتور علي الناصر ، حلب :**

. . . وعندي أن على كل من له علاقة بتربية الأطفال ، أن يقرأ القصة الناجحة المفيدة « رسالة غير ودية » ، لعلمي أن الأطفال حساسون جداً تجاه الظلم والإجحاف بحقوقهم . ومن هنا تظهر الفائدة في هذه القصة التي تمكن فاضل السباعي من عرضها — وبلغة الأطفال — عرضاً فنياً موفقاً ، ونجح في إنهائها بصورة لبقة ، وهذا ما يمتاز به أدبه ، روايات طويلة كان أو قصصاً قصيرة .

كتب للمؤلف

روايات :

رياح كانون .

الظمأ والينبوع (طبعة ثانية) .

ثم أزهر الحزن .

ثريا .

مجموعات قصصية :

حزن حتى الموت .

حياة جديدة (طبعة ثانية)

نجوم لا تحصى .

الليلة الأخيرة .

مواطن أمام القضاء .

الشوق واللقاء .

قيد الطبع :

الطبل (قصة مطولة) .

اعترافات ناس طيبين (قصص) .

ثم أزهر الحزن (طبعة ثانية) .

محتويات الكتاب

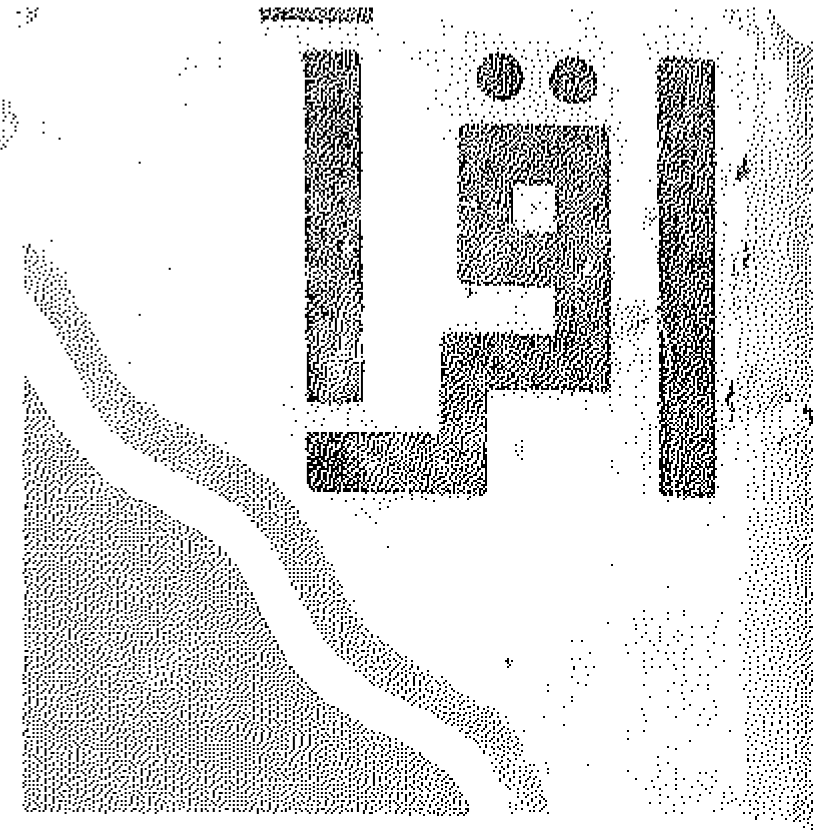
تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٥/٤٥٨٦
مطابع دار المعارف بمصر — ١٩٧٥
١/٧٥/٢٣٨

م
٢٠



عبد الله الكبير

اعترافات عاشق



عبد الله الكبير

اعترافات عاشق

اقرأ ٤٠٤

دار المعارف بمصر

(اقرأ ٤٠٤)

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

الإهــــداء

إلى زوزو

منذ سنين بعيدة أهديتُ إليكِ "دموع القلب" .. كتابي الذي كان من سَنا عَيْنَيْكِ ، ووَحْيِ حبّك . فسخرتِ من دموعي ومزّقت قلبي وتركتني تائهًا ضائعًا ..

واليوم أهدي إليكِ هذه "الاعترافات" لتعرفي إلى أيّ مَهْوًى سحيقٍ رميتِ بي .

مقدمة

لا يأخذ الأدب الصحيح سمته الأصيل ، ويضع بطاقته على واجهة الحياة ، إلا حين يقتلع أقدامه متحرراً من قيود المذهب الاتباعى إلى المذهب الابتداعى ، وإلا حين يذوب المجتمع فى تضاعيفه ، ولا يذوب هو فى تضاعيف المجتمع . . . ولسنا بحاجة إلى أن نذكر أن أدبنا المعاصر قد أخذت تتجلى فى آفاقه مختلف المذاهب الأدبية الأصيلة ، كالإبداعية والرمزية والإمتاعية والواقعية ؛ وأن سمات التحليل والنفاذ إلى الأعماق ، وإيثار بساطة الحقيقة ، قد أضفت عليه طابعها ، فبدأ يسامت آداب الأمم الكبرى . . .

وبين يدى الآن نبعة من أدبنا الحديث المتحرر ؛ لم أكن أدرى — وأنا أتابع قراءتها مشغوفاً بها — أبإزاء أقصوصات قصار أنا ؟ أم بإزاء حياة أديب عبر عن انفعالاته أصدق تعبير وأرقاه ؟ !

كان صديقى العزيز « عبد الرحمن » فى مطلع حياته مثلا للشاب التقىّ النقىّ ؛ ثم جرفه تيار الحب والخطيئة ، فصار — كما وصف نفسه — « شيطاناً عابثاً لاهياً ، وحيواناً يأكل ويبحث عن أنثاه » ! . . ثم تاب توبة صادقة ، وختم حياته العريضة ختاماً أرجو — كما رجا هو — أن يكون تكفيراً عما اجترحه ؛ فقد تحمل من الآلام النفسية والجسدية ما يطهره وينقيه من الخبث نقاء الذهب صهرته النيران !

وقد عرض علىّ الفقيد الحبيب « عبد الرحمن » أمانة نشر قصته ، وكتابة مقدمتها وخاتمتها ، فأبيت أن أحملها ، وأشفقت منها ؛ لكنه ألح

عليّ وألحف ، حتى لم أجد بدّاً من أن أعاهده — وهو فى طريقه إلى ربه — أن أؤدى الأمانة وأنفذ الوصية . . .

وسلمنى الراحل العزيز ، المقيم فى قلوب أحبابه ، مذكراته الطويلة بأحداثها كما وقعت ؛ وقد بسط فيها كل ما جرى بينه وبين النساء من خير وشر ، وذكر أسماء عشيقاته الحقيقية ؛ وطلب منى أن أحلل قصته فى هذه المقدمة ، وأن أغير الأسماء ، وأن أحذف ما لا يليق نشره . . .

أما التحليل فقد رأيتنى عاجزاً عنه ، فتركت القارئ يكشف وحده ما أراده « عبد الرحمن » ، الذى رأى شباب اليوم فى عمى ، فلم يرد أن يتركهم فى عماهم ، بل أحب أن يكشف الحجب عن عيونهم ، وأن يبين لهم أنه « لا خير فى لذة تعقب ندماً » ! . . .

وأما أسماء العشيقات فقد استبدلت بها غيرها ، ووضعت مكانها أسماء ربما لم يلتق « العاشق » بواحد منها . . .

وأما حذف ما لا يليق نشره فقد اضطررت — كارهاً — إلى حذف أكثر من نصف ما كتب ، لأنه — كما يقال — « أدب مكشوف وجنس مفضوح » !

وأقول إنى اضطررت — كارهاً — إلى حذف ما حذفت ؛ لأنه قد عزّ علىّ أن أحرم القارئ شيئاً من التحليل النفسى العميق ، والأسلوب الراق الأنيق ، الذى لا يزال همس موسيقاه عالقاً بأذنى ، وكأن أنفاس هؤلاء العشيقات الجميلات قد تكاثفت فانعقدت ألفاظاً وعبارات ، يعجزك أن تستبدل بلفظة منها لفظة أخرى ، فتغنى غناءها ، أو توازنها دقة ورشاقة ؛ فاتسق توفيق « العاشق » فى المبنى مع توفيقه فى المعنى ، فأثار بهما كليهما الإعجاب !

أمامك نماذج شتى من العذارى والنساء ، قد اختلفن جنساً وديناً ووطناً وثقافة وطبقة ، وتعرّضن جميعاً مع « العاشق » لتجربة واحدة ؛

لكن لم تتداخل إحداهن فى أخرى ، ولم تتكرر حياة فتاة أو خوالجها ، فى أملها ويأسها ، ورضاها وسخطها ، بتكرر غريمتها ؛ ولم يشذ سلوك فتاة ما فى موقف من المواقف إلا فيما تدعو إليه النوازع والأحاسيس من تفاوت وشذوذ ؛ و « عبد الرحمن » هو هو — فى هذه المواقف المتباينة — إنسان قد استجاب لمقتضيات نفسه التى ركبت بين جنبيه ، بكل ما تنطوى عليه من غرائب ومتناقضات !

لقد بكيتك كثيراً يا « عبد الرحمن » حين فقدتك ؛ وبكيتك كثيراً أيضاً وأنا أقرأ حياتك ، وأطالع حديثك عن حساب الضمير والنفس اللوّامة ، وعن تنقلك فى البيت الكبير بعد أن فقد ربّته وروح حركته الدائمة ؛ وبكيتك حينما رأيتك تعانى أعنف الآلام وأقساها ؛ كما بكيت وأنا أقرأ قولك : « ما أعذب هذا الألم العظيم ! . . إنى لأرجو أن يكون تكفيراً عما اقترفت ، وسبيلا إلى عفو الله وغفرانه » .

ولعلى بهذا الكتاب الصغير الحجم ، الكبير المعنى ، أكون قد نفذت الوصية وأديت الأمانة .

رحمك الله ، أيها الراحل العزيز « عبد الرحمن » ، رحمة واسعة ، وغفر لنا ولك ، فهو غافر الذنب وقابل التوب .

عبد الله الكبير

١

الكون ناعس ، والسكون يخيم على كل ما حولى . . . يا له من سكون رهيب !

ابنى وزوجتى فى الحجرة التى عن يمينى ، وطفلتى و « دادتها » فى الحجرة التى عن شمالى ؛ وكلهم قد راحوا فى سبات عميق ، تداعبهم الأحلام الجميلة ؛ وأنا وحيد فى هذه الشرفة العالية ، أترجح بالكرسى الطويل إلى الأمام وإلى الخلف ؛ فتهتز فى بصرى الأنوار المنعكسة على صفحة النيل ، كأنها جنيات البحر ترقص وتتمايل .

هذه القاهرة العظيمة ، ذات الحركة التى لا تسكن ، وربة الضوضاء التى لا تهدأ ، قد لفها الليل الساجى فى غلالة من الصمت العريض ، وكأن ليس فى أحشائها من لم يأخذ الكرى بمعاقد أجفانه . .

لا ، لا . . لم تبلغ القاهرة بعد هذا الحد من طهارة النفس ، ونقاء الضمير ، حتى يأوى أهلها جميعاً إلى مراقدهم . .

اسمع . . ها هى ذى ساعة الجامعة تشق السكون معلنة الثالثة صباحاً . .

انظر . . ها هم أولاء أفاعى الليل وذؤبانه يؤكدون بسهرهم أن الفضيلة إن نامت فالرذيلة لا تنام !

هذه سيارة تمرق فى « كورنيش النيل » ، يتصاعد منها فحيح الأفاعى وعواء الذئاب ، فى ضحكات مجنونة ، وقهقهات مخمورة تعيدنى إلى واقعى ، وتنتشلنى من غمرة الأفكار التى تزحم رأسى : تقلق نهارى ، وتؤرق ليلى ، وتصيبنى بالدوار . .

لماذا أنا سهران ؟ لماذا تجافى عنى المنام؟ أى شيطان لذّ له أن يوقظنى حتّى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، أو هذه الساعة المتقدمة من النهار ، ويسمرنى على هذا الكرسى لا أريم ؟ !

أأقول : شيطان ؟ . . عجباً ، عجباً ، عجباً ! . . إنه لا شيطان هنا ولا ظل شيطان ؛ وإنما هى هذه « النتيجة » المعلقة على الحائط ، قد وقعت عليها عيناى منذ سويعات ، فأثارت فى نفسى فواجع دامية ، وهيجت فى قلبى ذكريات دفينة ، كانت غافية نائمة ، فاستيقظت بطيئة متثاقلة ، ثم اندفعت نشيطة وثابة ، وأخذت تخايلنى وتجذبنى إليها ؛ وهى تتقارب وتتباعد ، ويتدثر بعضها ببعض ؛ ثم تستطيل وتمتد ، ويستوى منها عالم كامل حىّ ، من ماض مطوىّ غير منسىّ . .

ألا لعنة الله على هذه « النتيجة » ! إنها تقول إننا فى اليوم الحادى والعشرين من مايو . . وفى مثل هذا اليوم — منذ أربعين سنةً — وُلدْتُ :

يا لله ! . . أربعون عاماً ؟ . . ما أطولها ! وما أعرضها ! . . كم رقص فيها فؤادى لموعد وصال ! وكم وجب قلبى لوشك ارتحال ! . . كم تمتعت فيها بالغيد الحسان ! وكم شربت من رهينة الدنان ! . . كم انطلق فيها لسانى بالغزل الرقيق يأسر القلب ، وبالنسيب العذب يملك الوجدان !

أربعون عاماً عصرت فيها حياتى قطرة قطرة فى كأس ، فلما رفعتها إلى فمى وجدتها سمّاً زعافاً ؛ ورأيت الذى كنت أنشده ، ويظمأ إليه القلب ، لا يزال بعيداً بعيداً ؛ وألفيت كل ما بلغت بشبابى « عصارة آثام » ، و « باطل الأباطيل ، وقبض الريح » !

الأيام تكر ، والليالى تفر ، وكلما اغتسلت فى ندى الفجر ، مرّغنى الليل فى الأوحال ؛ وكلما تمنيت على فراشى أن يعزينى ، أقضت مضجعى الأطياف والأشباح ، حتى مللت نفسى وملتنى ، وكرهت الحياة

وكرهتنى ، وتغنيت بالموت ، وعشت أنتظره ، وكأنه النازح العزيز !

وكم حاولت أن أنسى ، وأن أعيش ، فما وجدت فى نفسى إلا القدرة على نسيان السرور ، حتى أمسيت أنكر البهجة فى وجوه المستبشرين !

حينما كنت صبياً يافعاً توهمت الحياة فى الشباب ؛ فلما صرت شاباً خيل إلى أن الحياة ستأتى فيما بعد ؛ فلما تقدّمت الأيام تبينت أن الحياة قد مرّت من قبل . . وا أسفاه !

لقد عشت أشعر دائماً شعورَ اليقين أنّ الحياةَ النشيطةَ الهانئةَ ليستْ حيث أحيا ، وإنما هى فى مكان آخر ، وعلى نمط غير الذى أحياه . .

إذا كنت هنا شعرت أنّ الحياة هناك . . هناك . . فى أىّ مكان غير الذى أنا فيه ؛ فإذا ذهبت إليه رأيتها قد تراجعتْ إلى حيث كنت ، بل تراجعتْ إلى المكان الذى زايلته ، وهربت منه ؛ وإذا هى قد فقدتْ لذتها وجمالها . .

ما أشبهَ الأمرَ بالفراشة ! تراها طائرة ، فتبدو فى عينيك جميلة ، بألوانها البرّاقة ، وأجنحتها الخلابة ؛ فإذا ما أمسكتها ، وأطبقت يدك عليها تبدّدت الألوان ، وتحطمت الأجنحة ، ومات الجمال ! . . بل ما أشبهَ الأمرَ بحال من تُقطع لهم ساق أو ذراع ، فلا يحسون ألماً ، ولا يستشعرون حزناً ؛ فإذا ما أفاقوا — بعد إجراء العملية — صاحوا ، وتوجعوا . . وبعدَ ساعات ، وأحياناً بعد أيام ، يشعرون بفقدان العضو الذى بتر ، فيحزنون ، ويعلو صياحهم وأنينهم !

فويل لى من الحياة ، وويل للحياة منى ! . . ويل لى من الحياة ، لأنى سأقضيها محطماً طليحاً ، وأجتازها نضواً جريحاً ! . . وويل للحياة منى ، لأنها لن تجدَ فىّ شيئاً تجاهد ضدّه ، أو شيئاً تجاهد من أجله !

* * *

خطرَ ببالى الليلةَ خاطر شرود . . خطر ببالى أنَّ قصّةَ حياتى لو نشرَت لوجد فيها كثير من الناس ما يشبع نهمهم ، ويرضى فضولهم ؛ فإن الفضول ، والرغبةَ فى إشباعه ، أظهر صفات الإنسان فى كلّ زمان ومكان ؛ بل إن الفضولَ قد شاع فى هذا العصر وتضاعف ؛ فالناس اليومَ — بين المادّيات والنظريات العلمية — قد تخففوا من المبادئ النبيلة ، واجترءوا على القيم الأدبية والمثل الأخلاقية ، وأخذوا يحتفلون بحقائق العلم ، ويسعون وراء خبايا النفس ، وأسرار القلب ، يروْن فى هذه وتلك غذاءً لفضولهم ، وإشباعاً لنهمهم !

راقنى هذا الخاطر ، وألح علىّ . .

ثم صار الخاطر إرادة ، وانقلبت الإرادة إلى تخطيط وتنفيذ .

ولست أرتاب فى أن كثيرين ، ممن يقرءون هذه الحياة ، سوف يهزون أكتافهم ، أو يمطون شفاههم ، أو يبتسمون فى سخرية وازدراء ، ويقولون : هذه قصّة قد نسجها ذهن سقيم ، وفكر مضطرب ، وخيال جامح . .

وسواء لدىّ أعبس هؤلاء وارتعدوا ، أم ابتسم أولئك وسخروا ، فلن يحول هذا أو ذاك دونَ أنْ أسردَ قصّتى ؛ فأنا — والحقّ — إنما أكتب عن نفسى لنفسى أولا ، ثم للناس أخيراً ؛ ومن ثمّ لن أسخر قلمى لإثبات نظريات معينة ، ولن أسعى إلى تملق الذّوق العام ، أو محاولة إرضائه ؛ ولن أعنى كثيراً بوصف البيئة ، واستقصاء الظروف الاجتماعية ؛ إنْ أريد إلا كشفَ النقاب عما أحسسته فى أعماقى ، وإلقاء الضوء على مواضعَ مظلمة من نفسى ، وتصويرَ أحاسيسها المتناقضة ؛ ولهذا قد لا يظفر القارئ فى القصّة بالنظام الفنى المتكامل الذى يصل بين الأحداث ، ويجمع السببَ إلى الأثر ، والعلةَ إلى المعلول ، كما يقول أصحاب المنطق ؛ لكنه — مع هذا — لن يعدمَ فيها تحليلاً ووصفاً ونقداً ، وأشتاتاً تؤلف بينها وَحدَةَ الزمن ، ويجمعها معاً وَحدَةَ الفاعل !

إن قصتي — من ألفها إلى يائها — هي قصة الحب ؛ لكنها ليست قصة عادية ، وإنما هي قصة شاب كان المثل السوء في الخسة والنذالة . . شاب قد قلبه من صخر ، وجرى الدم في شرايينه لهباً سائلا ، فاستحال حيواناً يأكل ، ويبحث عن أنثاه . .

والقصة — في الوقت نفسه — ليست قصتي وحدي ، لكنها قصة نفر على شاكلتي ، سلكوا السبيل التي سلكتها ، وانحدروا إلى الهوة التي انحدرت إليها ، غير أن الجرأة لم تسعفهم ، فيعترفوا بخطاياهم ، والفرصة لم تواتهم فيصوروا آثامهم . أما أنا فيريحني كثيراً أن أبوح وأعترف ؛ ذلك أني بالاعتراف أقدم نفسي للمجتمع — كما يفعل الخاطئ أمام كاهنه — فيقتص مني بالسخط والاحتقار ، وإن كانا مشوبين — كما أرجو — بالإشفاق والإغضاء ؛ وهذا من شأنه أن يخفف عني وقر الندم الملحاح .

ولقد يشق علي أن يلقاني الناس بالتعظيم والتكريم ، ونفسي تصيح من الأعماق : لا ، لست له بأهل ؛ ولقد يشق علي كذلك أن يلقاني بعضهم بالتعالي والاستخفاف ، لأن إنساناً ما لا يرضى — ما دام حياً — أن ينازع ثوب الكرامة والتوقير . . وويل لنفس يكربها التوقير والتحقير في آن !

فكأن هذا الاعتراف مصباح كاشف في الطريق ، يقول للمتطاول : بعض هذه العجرفة ، فلقد أقر بوزره ، فأصبح أشجع منك ؛ ويقول للمتطامن : بعض هذا التهيب ، فلست دونه في شيء ، إن لم يكن هو دونك في كل شيء . .

ثم إني أجد لذة أيما لذة في إيقاظ ذكرياتي الغافية ، ونشر صحائف الماضي المطوية ، وأرى ساعات الذكريات هذه أوقاتاً سعيدة ، تزوي عني الحاضر الكريه ، وتحملني إلى الماضي بما فيه من لوعة وصبابة ، ومن أمل حبيب ، ويأس بغيض ، وتجعلني أحس بلون من الألم العذب

فى بيداء الحاضر المقفر :

إنى لأشعر -- حين أستغرق فى الفكر وحيداً — كأنى أنسلخ من واقعى ، وأتوه فى عالم آخر . . أتأثر بكلّ شيء ، وأتبدّل مع الحوادث ، وتنعكس أمامى صوَر الأشياء ، فأصبح مرآةً متقلبةً لكلّ ما مرّ بى !

كيف جرَى هذا ؟ كيف تصرّفت هذا التصرف ؟ . . ولو رجعتْ عقارب الساعة إلى الوراء ، وارْتدَدْت شابًّا ، أفكنت أفعل هذا الذى فعلت ؟ ! . . لست أدرى ! . . فالحياة تحوّلنا كما تحوّل الفراشةَ من حشرة زاحفة على الأرض إلى طائر ذى جناحين يحلق فى الفضاء ؛ وكلّ يوم يمرّ بنا يغير من أنفسنا شيئاً ؛ فلا تكاد تمضى بضعة أعوام حتى نتغير كثيراً ، وإذا الواحد منا لا يكاد يعرف نفسه بعد أن تطعنَ به السنّ .

وقد يكفى أحياناً حادث واحد كى يطردنا من أنفسنا ، ويضعَ فينا وجداناً جديداً ، وإرادةً جديدة ، وأملاً جديداً ، ويخلقَ منا إنساناً جديداً غريباً ليس إيانا ولسنا إياه .

يا إلهى ! إنه لمريع هذا الأمر ، ورائع أيضاً ! . . لقد حسبت ذلك الماضى قد ضاع فى زوايا النسيان ، وظننت أنى أطرق باباً قد أغلقته إلى الأبد . . لكن . . كم ماضياً فى العمر حتى ننسَى ؟

ولسوف أحاول أن أذْكرَ الحوادثَ كما وقعتْ فى حينها . . وقد أروى أحداثاً تافهةً كان الأليق أن أتحاشاها ، وقد أجمل أحداثاً كان من الأفضل أن أفصّلها . وعذرى أنى أقصّ ما وَعته الذّاكرة ، ولم يطمسه مرّ الأيام .

هأنذا ألجأ إلى القلم والورق ، وأكتب عن نفسى ؛ وأكتب لأتيحَ لأصدقائى — الذين شجعونى على رواية هذه الذّكريات — أن يقرءوها حيث يكونون ، وساعةَ يشاءون ؛ فإن الكلامَ مقيد بظروف المكان والزمان ، أما الكتابة فحرّة طليقة . والمرء حين يتحدّث عن نفسه لا يفرَغ !

٢

المشاهد تتزاحم فى مخيلتى متقطعةً ملتوية ، كشريط سينمائىّ عفاه الزمان . .

الشريط يظلم ، والصوَر تضطرب و يختل ميزانها ، وقلبى يتأرْجح بين تضاعيف ذاكرتى . .

هذه سنونَ مرّت بطيئة ثقيلة ، كنت فيها كحيوان أكلَ حتى اتّخم ، فاستسلم للكسل ، وفقدَ كلّ إحساس بالمسئولية ؛ وتلك سنون انقضتْ هادئةً خاوية ، كنت فيها كمعبد مهجور بعدَ عهده بألحان الذّكر والترتيل ؛ وهاتيك سنون كانت زوابعَ وأعاصير ، وحرباً عنيفةً بينى و بين الدهر ، يفجؤنى كل يوم بجديد لم أتوقعه ، أو بعجيب لم أفكر فيه .

الشريط طويل ، والصوَر تتوالى متباينةً أشدّ التباين ، مختلفةً أبعدَ الاختلاف . . هذه مشرقة باسمة ، وتلك كئيبة باكية . . هذه واضحة ناصعة ، وتلك خافتة ناصلة . . هذه مستقرة هادئة ، وتلك مضطربة صاخبة . . صورَ للفرَح والحزن ، والزّهو والخزْى ، والعزّة والذّلة ، والأمل واليأس . . إنها صور الأحاسيس كلها ، والانفعالات جميعها . وهذه الصوَرَ — على تباينها واختلافها — متفقة فى أن لكلّ منها فى النفس أثراً ، وفى القلب ذكرَى لا تبرح تتراءَى لى صاحياً ونائماً ، حتى تكاد توردنى مواردَ الجنون !

الشريط تتوالى صورَه ، والقلم فى يدى يعجز عن تصوير ما يزدحم به رأسى ، وما تنفعل به نفسى ! . . وكيف يستطيع القلم أن يصورّ

انفعالين متضادّين ينفعل بهما المرء فى لحظة ، ويجريان معاً فى طلَق؟ !

آه ! . . لكمْ كنت أودّ لو تتابعت الصّوَر مرتبطةً متلاحقة ، فأستخلص منها جميعاً صورةً كبيرة تكشف معالم الماضى ، وتجلو ما صَدِئ فى طيات السنين !

من يدرى ؟ ! . . ربما كانت الصّوَر تترى فى ترتيب واتساق ، غير أن بُعْدَ العهد بها ، وغبشَ بعضها ، ونصولَ بعضها الآخر ، هو الذى يجعلها تبدو فى ذاكرتى مضطربةً متزاحمة .

ومن نعم الله علينا — أو من نقمه ، لا أدرى ! — أنه جعلنا لا نحسّ وزْرَ ما نفعل ، ووَطأة ما نحمل ، إلا بعد أن تنتهى التجربة ، ولا يبقى إلا آثارها وذكرياتها !

* * *

أرَى — أولَ ما أرى — كيف كنت صبيًّا هانئاً مغتبطاً ، نفسى وثابة بطموح الشباب المتفتح ، بعدَ سذاجة الطفولة البريئة المفعمة بحبّ المستقبل وكثرة الرجاء فيه ، وكيف كنت مؤمناً ، طاهراً ، أعشق الله فى صلاتى ، كلما تبسّم الفجر ، وعلا نغم الأذان .

وأرَى كيف رَغبَ أبى — صاحب الفضيلة القاضى الشرعى — فى تثقيفى ثقافةً دينية خالصة ، بعد أن تخرّج خمسة من أبنائه السبعة فى الجامعة ، فآثر أن يصنع منى تمثالا للصلاح والتقوى ، فعلمنى الصلاة قبلَ أن أبلغَ السابعة ، وألزمنى أن أهزّ رأسى بعبارات لا أفقه لها معنى ، وجعل يحدثنى عن الله العظيم ، وعن نبيه الكريم ، فكنت أستمع إليه وقلبى يطفح بشَهوَة اللعب ، وخيالى تملؤه كرة أتقاذفها وأترابى ، أو عصفور أشدّ ساقه إلى خيط ، وأطلقه مستمتعاً بطيرانه المضطرب ، دون أن يستطيع إلى الهرب سبيلا . .

كان أبى برًّا بى ، شفيقاً علىّ ؛ لأنى أصغر أبنائه ، وألصقهم بشيخوخته ؛ فلم تشأ عواطفه الرقيقة أن يدخلنى الكتّابَ مخافةَ أن ينالنى عكاز الفقيه وعصا العريف ، فأدخلنى المدرسة الابتدائية ، وأحضر الفقيه إلى البيت يقرئنى القرآن . .

وكان ــ رحمه الله ــ يدعونى إلى الجلوس فى حضرته حيناً بعدَ حين ويختبرنى فى ترتيل آيات مما حفظت ، وينبهنى إلى إتقان مخارج الحروف ، وإلى مواضع الوقف والوَصْل .

ثم انتقل الفقيه إلى جوار ربه ، وقد حفظت ثُلثَىِ القرآن ، فقام أبى مقامه ، ودفعنى إلى الدرس دفعاً ، تعاونه قوًى شتى ، من ذكاء غير قليل ، وذاكرة واعية ، إلى صحة جيدة ، ونشاط موفور ؛ فأظهرت من صفاء الذّهن ، ومن شدّة الانتباه ، ما استبشر به « الشيخ » ، وطابت به نفسه . .

وقبيل أن أتمّ الثانيةَ عشرةَ كنت قد حصلت على الشهادة الابتدائية ــ وكانت أيامئذ من الشهادات العامة ــ وختمت القرآن ، وأجدْت حفظه وأتقنت ترتيله ، وأصبحت مستعدًّا لطلب العلم فى الأزهر الشريف ؛ فما أسرعَ ما وضعوا على رأسى عمامةً كعمامة أبى ! وما أسرعَ ما ألبسونى الجبة والقفطان ، وصاروا ينادوننى بـ « الشيخ عبد الرحمن » !

لست أدرى : أمنْ حسن حظى كان هذا ، أم من نحس طالعى ؟!

لكنّ الذى لا ريبَ فيه أنّ العمامة التى توّجتْ رأسى الصغير ، وصيرتنى مرْموقاً بعين الإعجاب والإكبار ، قد حرمتنى ما يتمتع به أترابى من لهو ومرح ؛ فهذه دراجتى أمامى علاها الغبار ، والعمامة تحول دونَ أن أسابقَ بها أندادى ؛ وها هم أولاء أصدقائى وأترابى يتجمعون ، يلهون ويلعبون ، والعمامة تجعلنى أمرّ بهم ، فأتجاوزهم متظاهراً بالخشوع والوقار ؛ وكأنى أقول لهم بلسان الحال : إنى قد صرت رجلاً ، وإنه لا يليق بى ــ

وهذه العمامة تُتَوِّج رأسي – أن أعبث عبث الأطفال !

في تلك الأيام كان التعليم وَقْفاً على الطبقات الموسرة ، ولم يكن – كما صار في عهد الثورة ، من المدرسة الابتدائية إلى كليات الجامعة – حقاً يتساوى فيه المواطنون جميعاً ، كالماء والهواء ؛ فكانت الطبقة الكادحة تعيش في جهل مطبق ، وأمية عمياء ، وكان المحظوظ من أبنائها من يدخل الكتاب ويفك الخط . . فإن كانت الأسرة على شيء من « الستر » خطا صغيرها من الكتّاب إلى المعاهد الدينية ، أو مدارس المعلمين المجانية . وقلما تجاوز أبناء هذه الطبقة عتبات المدارس الثانوية ، لأن اليسر كان الطريق الوحيد إلى التعليم المأجور والعالي ، وكانت الجامعة لا تفتح أبوابها إلا لأبناء الطبقة الوسطى ومن علاها . .

وفي تلك الأيام أيضاً لم يكن الموسرون يقبلون على تعليم أبنائهم في الأزهر إلا إذا كانوا قد أخذوا أنفسهم أخذاً قوياً بتعاليم الدين : وأحبوا لأولادهم هذا اليقين الذي يجدون في صدورهم ؛ فاختاروا لهم الأزهر حفاظاً على ما للأسرة من جاه ديني ، ومركز علمي ، ومن ثم رغب « الشيخ » – يرحمه الله – في أن أعد لأصير مثله : قاضياً فاضلا ، وعالماً وقوراً ، وخلفاً صالحاً لسلف صالح ، كما كان هو لأبيه ؛ لكنه لم يلبث أن تبين أن الدراسة في الأزهر طويلة قد لا يتسع لها عمره ؛ فهو قد أحيل إلى المعاش منذ عامين ، فعدل عن رأيه ، وقرر إلحاقي بالمدارس الثانوية . . فما أسرع ما نحيت العمامة ، وخلعت الجبة والقفطان ؛ والتحقت بمدرسة أسيوط الثانوية ، لأن بلدتي منفلوط لم يكن بها غير مدرسة ثانوية حرة تنقصها المعامل والأدوات ، وينقصها بعض المعلمين أيضاً .

وفي أسيوط عشت – كما عاش من قبل إخوة لي وأخوات – في كنف أختي الكبرى « إحسان » ، وفي رعاية زوجها النبيل ، الطبيب

« فتحي » ، وفي رفقة أولادهما الظرفاء المهذبين .

وفي كل يوم كنت أجني ثمرةَ اجتهادي وتمسكي بأهداب الدّين: تقدماً في الدرس ، وقدوةً في الخلق . فكنت الطالبَ المهذّب النجيب ، الذي لم يتخلف قط ، ولا جاء ترتيبه مرّة بعد الأول ، سواء في امتحانات النقل ، أو في الامتحانات العامة .

وأذكر أني كنت أولَ الناجحين في امتحان شهادة الثقافة — وكانت تسبق الشهادة التوجيهية بعام — وأذكر أن الفرق بيني وبين الثاني كان سبعَ عشرةَ درجةً ونصف درجة ، وهو فرق قلما يكون ؛ فأكرمني أبواي وأهلي أيما إكرام ، وذهب ذكائي واجتهادي ، وكرم أخلاقي ، مثلا على ألسنة الأمهات والآباء ، ونشر بعض المجلات صورتي مشفوعةً بالتهنئة والثناء!

وأذكر — بين ما أذكر — أنّ « حسني بك » — قاضي المحكمة الجزئية ، وصديق والدي الحميم — قد اشترك في تكريمي وتشجيعي ، وأهدى إليّ مصوّرة ، وكتاباً ضخماً بالإنجليزية يعلم التصوير ؛ وكتب في صدْر الكتاب بخطه الجميل هذه العبارة المسجوعة التي ما زلتُ أحفظها عن ظهر قلب : « إلى فائق الأقران ، في ميدان الامتحان ، ابني العزيز عبدالرحمن » !

* * *

كان أبواي حريصَين على أن أعودَ إلى منفلوط يوم الخميس من كلّ أسبوع ، فأبيت بها ، ثم أصلي الجمعة مؤتمّاً بوالدي الذي كان قد أخذَ — منذ أحيل إلى المعاش — يخطب المصلين ، ويؤمهم يوم الجمعة في مسجدنا الكبير ؛ وكانت شقيقتي « إحسان » حريصةً على سفري هذا ، لما أحمله إليها في عودتي من سمين الطير وألطاف الأمّ الحنون ؛ وكنت أنا أيضاً حريصاً عليه ، لأني كنت أحبّ أن أضع رأسي على صدر أمي ساعةً أراها تعدل الدنيا !

مرّت بى فى أسيوط أربعة أعوام ، وأنا متحرّرٌ من رقابة « الشيخ » ، بعيد عن إرشاده وتوجيهه؛ ومع هذا ظللت طاهراً بريئاً ، لا أنقطع عن شهود الجماعة ، فى يوم الجمعة ، ولا فى غيره من الأيام . وفجأةً انقلبت دنياى ، وصار ذَنَبها فى رأسها ! فإنى ما كدْت أستعدّ لرحلات الصيف ومباهجه ، حتى وَفدَ إلى البلدة شقيقى « حسن » وبصحبته « عزيز بك » الموظف الجديد .

كان « حسن » و « عزيز » زميلين أيامَ كانا يطلبان العلم فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة ؛ وكانا زميلين أيضاً فى العمل بنيابة الفيوم ؛ ثم نقلا كلاهما . أما شقيقى « حسن » فقد نقل إلى نيابة أسيوط ؛ وأما زميله « عزيز » فقد نقل إلى نيابة بلدتنا منفلوط .

نزل بنا « عزيز » ضيفاً كريماً حتى وصلتْ أمتعته من الفيوم ، وقدمتْ عروسه القاهرية ، التى بنى بها منذ عام وبعض عام .

وشاء القدَر أن يختار «عزيز» ، أو أن يختار له أخى «حسن» ، أحدَ المنازل التى أعدّها « الشيخ » على الطرْز الحديث ، وزوّدَها بأنابيب المياه وأسلاك الكهربا ، وهيأها لسكنى كبار الموظفين . . وشاء القدَر أن يكون هذا المنزل ملاصقاً لبيتنا الكبير . . وشاء القدَر أيضاً أن أرَى « هدَى » زوجة « عزيز » ، فتنحرف إبرَة حياتى انحرافاً عنيفاً ، وتتجه اتجاهًا معكوسًا ، ويتحول حالى ، ويتبدل منوالى .

وقع عليها بصَرى — أوّلَ ما وقع — وهى فى بيتنا ، تزور أمى ؛ فلزمت مكانى لا أريم ، وقد اتسعتْ عيناى ، والتهب بدَنى ، وخفق قلبى فى سرعة وعنف ؛ ووقفت أتأملها فى نهم ، وأصعد فيها النظر ، حتى فطنت « الحاجة » ، فصرَفتنى فى كياسة ، وأنا أحسّ أنّ فؤادى يوشك أن يمسك عن نبضه . ومن هذه النظرة انقلب كيانى رأساً على عقب ، فلم أعدْ ذلك الفتى الممراح ، المستبشر بالحياة ، المستشرف فيها كلّ

معانى الخير والبهجة، بل مسخت شاباً كئيباً ، شارد اللب ، زائغ البصر ، طويل الصمت ، مسلوب الفؤاد . .

ماذا ألمّ بالغصن الرطيب فلواه عن مداه ، وغاص به فى أعماق الوحشة ، فلا صيحة اغتباط ، ولا بسمة ترفّ على شفة ؟!

٣

كانت حياتى سلسلة حوادث عادية ، تدفع إلى السأم ، حتى هزّ الغرام أوتار قلبى . .

والحق أنّ الفترة التى تسبق الحبّ ، فى حياة كلّ إنسان ، هى فترة خمود وخمول ، يتعلم فيها الإنسان قليلاً مما يفيد ، وكثيراً مما لا يفيد ، فإذا نزل بنا الحبّ تبدّلت حياتنا ، وأحسسنا — للمرّة الأولى — بخفقات قلوبنا — وبالدّم يركض فى عروقنا — وتعلمنا من فلسفة الحياة ما لا نجده فى كتب الفلاسفة والحكماء . .

ولقد أحسست الحب يغزو قلبى ، فى هجمة عنيفة قلبت حياتى ظهراً لبطن ، منذ رأيت « هدى » . . رأيتها وأنا أتهيأ لزيارة الريف ، فى صحبة شقيقى « عبد الحميد » ، الطالب فى كلية الطبّ ؛ فمن عادتنا كلينا أن نقضى أسبوعاً بالقرية ، فى مطلع العطلة الصيفية ، نلهو هناك ونمرح ، نركب الخيل ، ونصيد الطير ، حتى يحين موعد اجتماع الأسرة السنوىّ ، الذى يضمّ أولاد « الشيخ » و « الحاجة » بنين وبنات ، ويجمع الأصهار والحفداء ؛ فحينئذ نعود إلى المدينة ، ونقضى جميعاً معاً فترة كانت — بلا ريب — من أسعد الأوقات .

لقد كان « الشيخ » يحرص على أن تجتمع حوله أسرته ، كباراً وصغاراً ،

رجالاً ونساء ، بضعة أيام فى صيف كلّ عام . وكان يبذل جاهه ليحصلَ أبناؤه وأصهاره على إجازة تحقق هذا الاجتماع ، بعد أن تنتهى الدراسة بالمدارس والجامعات ، وقبل أن تعلن نتائج الامتحانات ، حتى لا يعكر صَفوَ الجمع رسوب المتخلفين ، وحتى تتاحَ للأبناء والأصهار فرصة قضاء سائر إجازاتهم حيث يشاءون ، بعد أن يرَى الإخوة والأخوات بعضهم بعضاً ، ويعيشوا معاً أياماً سعداء هانئين . ولولا هذه السنّة الحميدة لوجد أكثرنا عنتاً ومشقة فى رؤية الآخرين .

فى تلك الأيام كان البيت يعجّ بالحركة والضوضاء ؛ وكنت أرى أبوَىَّ فى بهجة ضافية . فاجتماع هذا الحشد من البنين وزوجاتهم ، والبنات وأزواجهن ، كان عيدَ « الشيخ » و « الحاجة » ، وأثمنَ مكافأة يستطيع أبناؤهما أن يقدموها إليهما .

كان « الشيخ » الوقور يطرَح عنه تزمّته ، ويداعب حفدتَه الصّغار ، ويلهو معهم ، وهو ينظر إلى « الحاجة » نظرات الحبّ والتقدير ، وكأنه يقول لها : هؤلاء ثمارنا : أولادنا وحفداؤنا . . وكانت « الحاجة » تحتفل بهذا الاجتماع السنوىّ احتفالها بعيد كبير ، وتنشط له نشاطاً موفوراً ، وتظل طولَ النهار صاعدةً هابطة ، غاديةً رائحة ، متنقلة فى أرجاء البيت الكبير ، وحولها « الكتاكيت » الصغار ؛ وهى أشدّ ما تكون فرحاً وابتهاجاً . . إنها لحظات هانئة ، لا يستطيع أن يهيئها إلا حياة الأسرَة النامية السعيدة !

كان شقيقى « عبد الحميد » يعتزم — بعد هذا الاجتماع السنوىّ — أن يسافر إلى المنصورة ، فيقضىَ أياماً فى ضيافة شقيقنا الكبير ، مفتش صحة المديرية ، الطبيب « مصطفى » ، وزوجته « خيرية » بنت عمتنا ؛ وهناك يفيد فائدة مزدوجة : يستريح من عناء الدرس بتغيير الجو والمناظر ، ويرافق أطباء المستشفى « الأميرى » فى عيادة المرضَى والكشف

عن أمراضهم تجريباً وتطبيقاً. أما أنا فكانت نيتى أن أسافر إلى الإسكندرية، لأمضى أياماً هانئة فى ضيافة شقيقتى الحبيبة « سميرة » ، رفيقة طفولتى ، وأقرب أخواتى إلى قلبى ، وأحبهن إلى نفسى .

و « سميرة » الحلوة اللطيفة، ذات الوجه الأزهر، والعينين الزرقاوين الصافيتين، لا تكبرنى إلا بأعوام ثلاثة، أو دون ذلك، لكن عقلها يسبق سنها.. إنها المهذبة الرشيدة التى زرعت فى قلبى كل ألوان العطف وضروب الحنان ، وبعثت فيه روح الإيثار والتعلق الشديد بحب الخير والإحسان .

كانت « سميرة » أيامئذ قد مضى عامان على زواجها من ابن خالتنا ، الشاب الرقيق الأستاذ « يحيى » ، المدرس بالمرحلة الثانوية ؛ وكانت رؤيتهما تشرح صدرى ، وتبهجنى أعظم البهجة .

وإلى اليوم كم يطربنى حديث « سميرة » ! وكم يحدثنى النسيم عن ضحكتها ، ويعيد إلى أذنى صدى صوتها العذب الحنون ! وكم أحب أن أخلو الآن إلى نفسى فى الأمسية والأصباح ، لأسمع من « الريكوردر » صوتها ناعماً رقيقاً ، يداعب روحى ، وينفذ إلى أعماقى !

وإنى لأذكرها — وأنا أكتب هذه السطور ، وهى قد صارت أماً لخمسة ، وجدة لستة — أذكرها طفلة لعوباً ، تثب إلى فى ذلك الزمن البعيد ، زمن الطفولة ، بثوبها الأبيض الأنيق ، فلا يلبث أن يتكسر على جسمها الصغير ، ويحمل آثار الماء والتراب ، إذ تلاحقنى فى الحديقة وألاحقها ، فلا هى تشكونى إلى أمنا ، ولا أنا أشكوها . .

أحلى أيام العمر تلك ! ولا أذكر مرة ذلك الزمن البعيد ، دون أن تهل صورة « سميرة » الجميلة متحدة اتحاداً وثيقاً بصورتى .

* * *

كنت أتهيأ لقضاء أيام فى الريف وأمنى نفسى برؤية « سميرة » ، وأعد عدتى لزيارتها فى الإسكندرية ، حينما رأيت « هدى » ؛ فأحسست

أنى أشد إلى البقاء شداً عنيفاً، وأخذت أتلمس المعاذير ، لأسوغ ازوراري عن هذه المباهج التي كنت أحلم بمتعها ، وألهج بذكرها . فما إن انفض اجتماع الأسرة السنوى ، وسافر « عبد الحميد » إلى المنصورة حتى جعلت مثواى إحدى حجرات الدور الأعلى ، ونقلت إليها ملابسى وكتبي وأدواتى الخاصة ، واتخذت السطح مكاناً مفضلا ، أخلو فيه إلى نفسى ، وأطلق فيه العنان لخيالى ودموعى . .

وسطح بيتنا فسيح كأنه ملعب ؛ وفيه شقة صغيرة ذات حجرات ثلاث ، تطل على الشارع ، ولا تعمر إلا فى الصيف ، حين يتوافد أبناء الأسرة المغتربون ، من حيث يعملون أو يدرسون . إن البيت كله يصير حينئذ خلية نحل ؛ ولا يسكن ويعود إليه هدوءه الرتيب إلا بعد أن يرحل الوافدون .

هأنذا تظللني النخلات الطيبات الضاربات فى السماء ، وهاتان يداى تكادان تلمسان فروع الأشجار ؛ وهذه أسراب الحمام حولى آمنة مطمئنة ؛ وها هو ذا بيت « هدى » لا يفصلني عنه سوى حائط لا يحول ارتفاعه دون أن أكشف البهو كله ، بل لا يحول دون أن أرى بعض ما فى هذه الحجرة أو تلك ، لو رفعت عقبى ، ومددت عنقى . .

خمسة أيام قضيتها سابحاً فى بحار الفكر على أمواج الأحلام . . كيف أثير فضول « هدى » الجميلة ؟ كيف أجذب انتباهها ؟ ماذا أفعل لأراها وأحدثها ؟ !

ثم هدانى التفكير الصبيانى إلى الاستعانة ببندقية الصيد ؛ فكلما حط غراب أو حدأة على شجرة أو نخلة لاحقته بطلق نارى ، قد يصيب وقد يخطئ ، لكنه — فى كلتا الحالين — يفزع الحمام فيطير إلى أبراجه مذعوراً .

ونجحت الحيلة ، وحدث ما توقعت ، فقد لفتت هذه الحركات

والأصوات انتباه « هدى » ، وأثارتْ فضولها ، فصعدت إلى السطح تستجلى خبرها . .

والتقتْ أعيننا . . وكانت نظرة ، فابتسامة ، فسلام . . فسؤال وجواب !

٤

تكرّرت اللقاءات إنْ مصادفةً وإن عمداً ؛ وتناجت القلوب فى صمت أولا ، ثم تجاذبنا أحاديث طفلية يقنعها الخجل ، وتغشيها الرّهبة . . ويوماً بعد يوم جعلتْ قلوبنا تخفق بالمرح والبهجة ، وشفاهنا تفيض بتمتمات المسرة والهناءة ، وأحاديثنا يزخرفها عبث المراهقة وأطياف النشوَة :

وكلما مرّ يوم كان كلانا يطول وتمتد قامته . وبارك الله فى قوالب اللبن والآجرّ المتناثرة على السطحين ، فبفضلها أخذنا نعلو ونرتفع ، وجعل الحائط الذى يفصل بيننا يهبط ويقصر . .

ثم رتبنا لقاءنا كلّ مساء فى وقت معلوم ، حين يغفل الرقيب ويغيب العذول . ففى ساعات الغروب والمساء كانت « الحاجة » تنشغل باستقبال زائراتها من قريبات وجارات ، أو تغادر البيت لقضاء حقّ هذه الزيارات ؛ وفى هذه الساعات كان « الشيخ » يتخذ مجلسه فى البهو صيفاً ، وفى « السلاملك » شتاء ، وينهمك وضيوفه الكثر فى أحاديثَ متنوعة ، كنت أحرص على الاستماع إليها ، وأجد فيها متعةً ولذّة ، وأفيد منها طرائفَ أدبية ، ولطائفَ فكاهية ، وثقافةً عامة ؛ إذ كانت « دائرة معارف» ، تتناول ما ضَمت أمهات كتب الدّين والأدب ،

وما تنشره الصّحف والمجلات. وفى هذه الساعات أيضاً كان « عزيز» يترك زوجته « هدى » ، ولا أنيسَ لها غير خادم صغيرة ، ويذهب إلى نادى الموظفين ، ليلعب « البليارد » و « البوكر » و « الكونكان » ؛ ثم ينتقل إلى خمارة « قسطندى » ، حيث يلتقى هناك بأمثاله من الحكام والشبان الأعيان ، فيلهون ، ويسكرون إلى مابعد منتصف الليل . .

فى هذه الساعات التى يشغل فيها الرقيب ، ويغيب العاذل ، كنا نلتقى . .

وكنت أصغى إلى أحاديث « هدى » وأنا مسحور بها مفتون ؛ وكأنَّ محدّثتى أعلم أهل الأرض طرًّا ، وأكثرهم حكمة ، وأوسعهم معرفة . .

حدّثتنى عن القاهرة وجمالها ، ورغادة الحياة فيها ، حتى لكأنما قد رسمتها فى خيالى واضحةَ المعالم والمغانى . . وحدّثتنى عن خيبة أملها فى زواجها . .

إن زوجها ليس غريباً عنها ، فهو ابن خالتها ؛ وحبها إياه قد نما فى قلبها منذ حداثتها ؛ وقد عاشت تمنى نفسها بالزواج منه ، لجمال طلعته واعتدال قدّه ، ودماثة خلقه ، واستقامة سيرته ، وإشراق مستقبله؛ ولكنه — بعد أن تخرّج فى كلية الحقوق ، وعين وكيلَ نيابة ، وتغرّب عن أهله وذَويه ، وتحررَ من رقابة أبيه — اختلط بأشباهه من الشبان الموظفين ، وأبناء « الذوات » العاطلين من حلى الفضل والعلم ، ففسد خلقه وساءت سيرته ، وفجر وانفجر ، وعاقرَ وقامر .

كانت « هدى » تحبه ؛ وقد صوّرَ لها الوَهم أنها قادرة — بحبها — على أن تردّه إلى سواء السبيل ؛ غير أن الطبعَ الفاسد ، والقدوةَ السيئة ، ومعاشرةَ السفهاء ، قد غلبتها على أمرها ، فباءت بالخيبة والحسرة ؛ وتحوّل حبها إلى نفور ، وانطوت ضلوعها على حقد دفين ؛ ذلك أن المرأة قد تنخدع أحياناً ، فتظنَّ — وهى تمنح من تحبه جسدَها — أنها

موشكة أن تظهرَ على سرّ الحبّ ، وتنعم بالتحليق فى آفاقه العليا ، فى حينَ أن هذا الرجل قد لا يكون أهلا لمرافقتها خطوةً واحدة فى كشف هذا السرّ العظيم ، فتشعر حينئذ بالإخفاق ، بل بالبغض والاشمئزاز ؛ فإن بكارة الإحساس قد تبقى ظمأى بعد أن تزول بكارة الجسد !

حدّثتنى « هدى » عن هذا كله . . وحدّثتنى عن الحبّ . .

إى وربى ! عن الحبّ حدّثتنى . . كم قالت وأعادت إن الإنسان ما خلق ليشقى بحبه ، ويعانى كبح جماح لذاته . . إنما خلقنا لننعم بأطايب الوجود . . والحبّ من الأطايب المريئة ، بل هو زهرَة الطيبات !

وإلى اليوم ، وبعد مرور ما يقرب من ربع قرْن ، لا يزال صوت « هدى » يرن فى سمعى ، ويتردّد صَداه فى خاطرى ، وهى تقول فى عبارة عميقة تقصر عنها هذه العبارات :

هل غاب عنك لماذا يغرّد البلبل وتتألق الزهرة ، ويجرى النهر حثيثاً إلى مصبه ؟! . . إنه الحبّ يدفعها إلى التغريد ، والتألق ، والانسياب . . فالبلبل لا يسترسل فى أنغامه إلا صَبوَةً منه إلى أليفه ؛ والزهرة إنما تتفتق ، وتتبرّج ، هياماً منها بصدر يترصّع بها ، أو بنسيم ينشر أريجها ؛ والنهر إلى البحر ينطلق ، لفرط ما يتشهى الذوبان فى أحضان معشوقه ، خدين الأبد ! . الحبّ . . الحبّ فى كلّ شىء ، وفى كلّ زمان ، وفى كلّ مكان . . ما العالم غير عباب من كلف ووَجد ! وأين تبدو المسرة إن لم يكن حب وعشق ؟! وما قيمة الذّكريات لا تملؤها أحاديث الحبّ ؟! وما الشباب ، الشباب الجميل ، لا تحركه ثورات الحبّ ؟! وما القلب ، القلب الحىّ ، لا يخفق لترانيم الحبّ وموسيقاه العذبة ؟! ما الحياة كلها بدون حبّ ؟! . . إننا ما تهادَينا إلى الحياة لنشيح عن مواردها العِذاب ، بل لكى نلتذّ بخير ما فيها ، ونستمتع بما نهوَى ونحبّ . .

كانت « هدى» تحدثني عن الحب ، فتطنب وتفيض ، وتتغنى باللذّة الموفورة ، وأنها لايتورّع عنها غير البُله والعاجزين ! . . وكنت أنا أبيت أفكر فى أحاديثها ، وفيما تعرّض به ، أو تقصد إليه ؛ وأسائل نفسى : أأبله أنا ؟ ! أعاجز أنا ؟ !

ثم هاج الشوق الطماع ، واستبدّ بى الهوَى القهار ، وثارتْ نزْوَة الوَله القاصم ، وأخذتْ علىّ الرغبة الطاغية كلّ تفكيرى ، فما شعرت بما فعلت ، حين وجدتنى — ذات مساء — أقفز الحائط بين السطحين ، وأحتضن « هدى » . وكانت هذه أولَ مرّة تلتقى فيها شفتاى بشفتَى امرأة ؛ فغمرتنى نشوة وسعادة ، وأحسست ساعتها كأنى أعرف « هدى » منذ زمان بعيد : أعرف حبها ، وطعم قبلاتها ، وطيبَ أنفاسها .

وشدّتنى إليها الغريزة الخفية الكامنة فى أعماقى ، فضممتها إلىّ فى قوّة ، حتى كادت ضلوعها تتقصف بين ذراعىّ الفتيتين . ثم . . ثم أفلتتْ فجأة من بين يدَىّ ، وضحكتْ ضحكة كشدْو الطيور ، لكنها أفزعتنى ؛ وهروَلتْ تهبط السلم ، وتركتنى حائراً مأخوذاً !

كانت الحنكة لم تتمكنْ من البرْعم الرخص . وأنّى لى أن أعلم — وأنا الحدَث الغرّ ، الطاهر البرىء — أن ضحكتها دعاء ، وهربها نداء ؟ !

إن الحنكةَ لا تكون إلا بعد نضْج واكتواء !

ضاقت الدنيا فى عينىّ ، واختنقت بأنفاسى ، وأخذت أقلب زائغ البصَر فيما حولى ، وأنا أرتعش تحت وقر الإثم ووَخز الضمير . . ثم اندفعت إلى مخدعى لساناً من نار ، فاغتسلت وتوَضّأت ، وركعت أستعيذ وأستغفر ، وقد فاضت بالدّمع مقلتاى ، وتطايرَ النواح من شفتَىّ ، وخيال الإثم ما يبرح ينهش روحى ، فأحسّ أنى أحقر من التراب !

أأهوى إلى الوَحل ، وأتسفل إلى الحمأة ، وأغيب فى أوْضارها ؟ !

يا لسفالة الجسد ! . . آه مما فى اللحم والدّم من قبح وشين !

فلتتصاعدْ أنفاسى من بين أضالعى ، ولتهمد نبضات قلبى الذى يستحلّ الزّنى الفضّاح !

إلهى ؛ إليك أتضرّع فقوّنى . . إياك أدعو ، فأغثنى من شهواتى الدنيئة . . بك أستجير من نشوات الإثم الصياحة . . أنقذنى من الرغبة الداعرة المتغللة فى دمى . . قوّنى يا ربّ ، لأدرأ كبوة الجسد عن عفة الروح . . ربّ ، (إلاّ تصرفْ عنى كيدَهن أصْب إليهن وأكنْ من الجاهلينَ) !

٥

كنت واحداً من قوم موسى ، إذ قالوا له : (اذْهب أنتَ وربّكَ فقاتلا إنا ها هنا قاعدونَ) ! فليفعل الله وحدَه ما شاء لصيانتى من الإثم ؛ أما أنا فقد كنت أدعوه بلسانى ، لينتشلنى من الهوّة التى أوشك أن أتردّى فيها ، على حينَ كان قلبى يتوسل إليه ألاّ يحول بينى وبين قرارها السحيق ! فقد كانت كلّ دقيقة من الدقائق العشر التى مرّت على ميعاد لقاء « هدى » ، فى اليوم التالى ، جبلاً صلداً من الزّمن يجثم على صدرى ، فيكاد يوردنى موارد الهلكة الهلكاء !

وقلت أعلل نفسى فى التنصّل من يمين قطعتها ألاّ ألتى « هدى » بعدُ أبداً — قلت : أواجهها بالقطيعة ، ثم أعود لا ألوى على شىء . لكنى حين افتقدتها فى مظانها ، زاد حرصى على لقائها ، موهماً نفسى بأنى لا أفعل هذا إلا لأستطلع طلعها وحسب ؛ فلبثت فى مكانى ينشرنى القلق ويطوينى ، حتى إذا سبقها إلىّ عطرها الفوّاح لم أحس إلاّ وأنا أضمها بين ذراعىّ ، فإذا هى تريح رأسها على صدرى وتهمس : أحبك

يا « عبد الرحمن » ! . .

وأجابتها دموع الفرح والسعادة تنهمر من عينيّ ، فتصيبها منها قطرات !

ولم تطلْ وقفتنا ؛ فقد كفانا — على ما يبدو — ما نلنا من هناءة تضيق عنها الأرض والسماء ، والأعمار الطوال !

* * *

ثم صال الجمال صَوْلته ، وتفنن فى الإغراء ؛ وتناهت « هدى » فى استهوائى بما تلألأ فيها من الصّباحة الريّاّ ، وبما أسبغ عليها الخلاق العظيم من فاتن الآيات ؛ فاستباحت لبي بحور عينيها ، ونضْرَة قسماتها ، وجيَد عنقها ، ورقة خصْرها ، وبضاضَة ذراعيها وساقيها . . ولا عجب ! فقد جمعتْ « هدى » من الفتون ما لا يتماسك حياله ذو خفقة من جنان . . ففى روحها خفة ، وفى قوامها فتنة ، وفى حديثها سحر ، وفى صوتها أرْخم الأنغام . . قد علا جيدها ونهدها وجبينها ، وضَحكت الصّباحة فى قسماتها . . نجلاء العينين كأنّ فى نظراتها نصالاً رهافاً عجالَ الفتكات ؛ أسيلة الخدّين كأن وجنتيها ما خلقتا إلاّ للقبل الماتعة القطاف . أما شعرها الأسود العارى فثلة من دجى لم يتسعْ لليل المفترّ الثغر أن يحوشها ، وهو يلملم نفسه فراراً من ضوء النهار !

ولم تكن « هدى » لتحجبَ عنى فتنةً من هذه المفاتن ، بل لقد طالما زَهتْ بها وافتخرت !

وتمرّ الأيام . . ويمسى قفز الحائط بين السطحين أمراً سهلا ، لا أنا أهابه ، ولا « هدى » تجزع منه ، أو تضطرب له . .

وكان على سطح بيتنا — عدا الشقة الصغيرة التى أقمت فى إحدى حجراتها — حجرة أخرى كبيرة ، يتكدّس فيها الأثاث القديم والفائض عن الحاجة ، ويعلوها برج الحمام ؛ فنقلت منها إلى سطح منزل « هدى »

أريكةً من الخيزران ، وضعتْ هى عليها وسادةً أغنتْ عن الحشيّة ، كنا نتناجى عليها ، فى حمى نخلتين متعانقتين !

وفى ليلة من ليالى أغسطس الملتهبة ، وكان القمر بدراً ، هاجنى الشوق الملتاع ، فلم أنم ، وهاجت « هدى » الشّهوة القاهرة ، فنفرَتْ إلى السطح . .

أحسست حركتها ؛ بل أوشك أن أقول إنى شممت ريحها ؛ فما إن رمتْ شباك حجرتى بحصية حتّى قفزت من فراشى ، وهرولت إليها ، فإذا سناها — فى وهمى — يكسف نورَ البدر !

جعلتْ تنظر إلىّ بعين ذليلة ؛ ويدها البضّة البيضاء ، الطويلة الأنامل ، اللماعة الأظافر ، تداعب شعرى الأسود الغزير ، وهى تقول فى صوت أغنّ : « عبد الرحمن » . . لم أستطع النوم من شوقى إليك . . حبك عذّب قلبى ، وطرَدَ الغمضَ عن أجفانى . . تعالَ . . تعالَ يا حبيبى نسهر معاً . . أنا وحدى الليلة ، فقد ذهب « عزيز » ليحقق فى حادثة قتل ، فى قرية بعيدة ، ولن يرجع إلا فى الصباح ؛ وذهبتْ « فطومة » الشغالة إلى أمها من المغرب ، وستبيت معها ؛ وأبيت أنا ليلتى كئيبةً وحيدة ؛ فتعال آنسْ وَحدَتى . . تعالَ أسعدك وتسعدنى . .

وأمسكتْ بيدى تجاذبنى نحو السلم . .

* * *

كثيراً ما كنت أتمنى فى أحلام اليقظة أن تقع « هدى » بين أحضانى. وإن أحلام اليقظة لتحلل الحرام ، وتدوس المقدّسات ، وتستهين بالأعراف ؛ فكأنها الانتقام السلبىّ للفرد من ممنوعات الدّين والأخلاق والأسرة والجماعة ؛ ولكنها تظلّ أبداً أحلاماً ، بل أبعد من أحلام ، لا ينهض لتحقيقها حتى رؤى المنام ! فإذا أنا وجدتها الساعة تتحقق

فجأة ، وبغير مقدّمات ، فإنى قد شعرت فى اللحظة نفسها بهذه الممنوعات من الدّين والأخلاق والأسرة والمجتمع تذهب جميعها متكاتفة ، لتقف سدّاً منيعاً يحول بين تلك الأحلام والنفاذ ؛ وإذا أنا أجدنى تمثالا صخريّاً فقدتْ كلّ ذرّة من ذرّاته القدرةَ على التحرّك والاستجابة . .

بهتّ وبلجلجت ، وتقهقرت كالبغل الحرون ، وقد تندّى جبينى عرقاً ، فاستطردتْ : إيه . . ما لك ؟ . . أنت خائف ؟ ! . . لا ، لا . . اطمئنّ ، ولا تخف ، فقد دبرت أمرى . . اطمئنّ ، و « حطّ فى بطنك بطيخة صيفى » !

لكنى لم أزْدَدْ إلا جموداً ! . . وأخيراً تكلفت أسلوب « الشيخ » فى النصح والإرشاد ، لأخرج من هذا العىّ الذى استبدّ بى ، فقلت وأنا أسحب يدى من يدها : لا ، يا « هدى » . . تبصّرى فيما تقولين ، يا حبيبتى .

اهتزّتْ فى وقفتها ، وارتجفَ بدنها ، وتهاوَتْ يداها إلى جانبيها ، وكمد لونها ، وتقلب على وجهها ألوان شتّى ؛ وخيل إلىّ أنها تكاد تسقط مغشيّاً عليها ، ففتحت لها ذراعىّ ، فارتمتْ على صدرى تضطرب وتشْهق . .

كنت مشغوفاً ولهان ، لكنى خائف مرْتبك ، تطير نفسى شعاعاً ، فتمتمت فى لطف وعطف بهذه المعانى : « هدى » . . ما أسعدنى وأنا أضمك إلى صدرى ، وأنشق أرجك . . إنّ فيك لشذًى فاتناً يغيب فى تلافيفه الحسّ مخدّراً ! . . واحنينى إليك يا منى القلب ! ولكن . .

قاطعتنى قائلة : وما يمنعك يا حبيبى ؟

وردّ عليها منى التهيب واتقاء الفضيحة : العفة الفاجرة ، والإيمان الملحد !

فتابعتْ : ما يناديك قلبك ؟ !

فاصطنعت التعقل ، وقلبي يقذف بالحمم ، فحاججتها مموّهاً : هناك – ويا للأسف ! – ما هو أقوَى من القلب . .

– أنا لا أعرف شيئاً أقوَى من القلب . .

– صحيح ؟ ! . . ألا تعرفين العقل ؟ !

– العقل ؟ ! . . عقلي يسألني : ما يصْرفك عني ، وهأنذا قد هبْت لك ؟ !

ولم أشأ أن أعترف بالخوف من ضبطي متلبساً في مخدعها ، فتسمني بالجبن ، ويفتر الحبّ ، فاسترسلت : حرام أن نطمس وجه الفضيلة بالخطيئة . . حرام يا « هدى » . .

رفعتْ رأسها في دَفعة ، ومسدَت شعرَها ، وحدَقت إلى وجهي برهة ، ثم أطبقتْ أجفانَها ، وضربت بيدها على صدري ، وقالت في صوت يفيض بالذّلة والغيظ ، ويرشح بالكبرياء والإنكار : أتصدّ عني يا « عبد الرحمن » ، وأنت مصْدَرُ لوعتي وغرامي ؟ ! أيّ قلب من صخر يستقرّ في صدرك ؟ !

– لا ، يا « هدى » . . أنا لا أصدّ عنك . . ليتني أستطيع أن أشقّ صدري ، لترَىْ مكانك في قلبي . . إن قلبي لا يخفق إلا بحبك ، وإن عيني لا تهوَى إلا مرآك . . فيك وحدك أماني وأحلامي . . فبك وحدَك لذّاتي وأوهامي . . آه ! . . لو عرفت يا « هدى » ! . . من علّمَ القلبَ شجيّ الهوَى ؟ ! من هدَى العينَ روائعَ الفتنة ؟ ! من لقن الأذنَ شجيّ النغم ؟ ! من ألهمَ الفمَ حلوَ هاتيك القبل ؟ !

– ما أحلى كلامك يا « عبده » ! يا ليت قلبك مثل لسانك ! هيه ! زدْني من كلامك الحلو يا « عبد الرحمن » . .

– أنت الوَحي يا « هدى » ، ومنك الإلهام . . يا لسحر الأنوثة

المنبثّ فى أعطافك ! ما أروَعه ! . . يا لصراخ الهوَى المنبعث من أجفانك ! ما أبلغه !

— هأنذا ، يا حبيبي ، بين يدَيك . . أنوثتى ، أعطافى ، عيونى ، قلبى . . كلى لك يا « عبده » . .

— لا أقوَى ، يا « هدى » ، على شدّة حنينى إليك ؛ فأنت جارتى ، وفى حماى . . حرام يا « هدى » ، حرام !

وأنطقها لهيب النزْوَة العارمة بهذا التزييف : أين الحرام فيما أدعوك إليه ؟ . . أنت تنظر إلى الأمر بعين الوَهم ، فيخيل إليك أنك تخرج على العفة والطهارة ، وأنك تطعن جارك طعنة قاتلة ، إذا جلستَ إلى زوجه ساعة ، تهوّن عليها غربتها ، وتؤنسها فى وَحدتها . . لا ، لا . . الحرام أنك تعذّب جارتك وحبيبتك ، وتعذّب نفسك يا « عبده » . . وإذا كنت أنا فى حماك فهل يصحّ أن تقسوَ علىّ ، وتتركنى وحيدةً كئيبة لأجل زوج عرْبيد مستهتر ، مثل « عزيز » ؟ ! . . تعرف ؟.. ولا ليلة يرجع إلى البيت إلا بعد أن ينتصف الليل . . وكم ليال كثيرة باتها بعيداً عنى ، بحجة التحقيق فى الحوادث ، ولا يسأل عن الكلبة الحارسة شرَفه ، تبيت وحدَها ودمعها على خدّها !

اضطرب جسمى وقلبى وعقلى ، وأحسست — و « هدى » تدعونى إلى الوقوف منها موقفَ العشيق — أنى أدْعى إلى عالم لا صلةَ لى بمعالمه ، فتقهقرت إشفاقاً ، وقلت مراوغاً : لنظلّ فى حبنا على وَضاءة ، فننعم بوصال الروح . . إنّ فى عناق الأرواح من اللذّة ما يَمّحى بإزائه التصاق الأجساد بالأجساد . .

وجهرت فى عنف : لماذا تريدين أن نسقط فى هاوية الإثم ، ونتمرّغ فى وَحل الخطيئة ؟ !

ساءها ما أعرض عليها من حبّ جافّ ظمآن ، فاغرورْقتْ مقلتاها ،

وقالت : لمَ تلقى حبي بالصدّ والنفور ؟! . . أنا لك الينبوع النمير ، والضوء المنير !

وهزّتني بيديها كلتيهما ، وحدّقت إلى عينيّ ، وقالت : انظر . . أما تغريك عيناى الدّعجاوان ، وقد ارتسمتْ فيهما جواذب السحر الحلال ؟! . . وجبيني المشرق هذا ، أما تنبسط لك فيه دنيا من أنس وصباحة ؟! . . وشعرى الفاحم المسدول على خصْرى ، أما تفوح منه فى أنفك رائحة معطار ، تجذبك إلى الاستزادة من أعرافها ، وتدعوك إلى الالتحاف به ؟!

وارتمتْ فى أحضانى ، وقبلتْ شفتيّ ؛ وعادت تهزّنى ، وأنا مأخوذ بسحر جمالها وحديثها ؛ وقد أمسك بى شيء عن الكلام والحراك ، فغدَوْت تمثالا للأسَى لا يتزحزح عن رَبضته . . فهزّتنى ، وقالت : ما لك ؟ . . خرست ؟!

ونهضتْ وقد قبضتْ على يدى ، وأخذتْ تجذبنى وهى تقول : قم . . تعال ، تعال انزل معى . .

وقفت وقد أطرقت برأسى إلى الأرض ، وصحت فيها — وكأنى أصيح بنفسى الجبانة : لا أستطيع يا « هدى » ، لا أستطيع . . أنا لا أستطيب هذا الحبّ الملطخ بالدّرَن . . نفسى تنبو عن الخيانة . . لن أدنس حبك بشهوة محظورة . . هذا حرام ، حرام يا حبيبتى !

نظرتْ إلىّ نظرةً ارتعشتْ لها أعماقى ، وقالت فى غيظ حبيس : كنت أظنك « رجلا » ذا عقل راجح . . لكن يا خسارة ! تغير رأيى فيك . . ما أنت إلا « ولد » جاهل أحمق ! . . أضحى من أجلك ، وأعرض عليك مفاتنى ، فتخاف وترتعش ؟! . . هذه بلاهة أعيذك منها . .

وترقرقتْ عيناها ، وارتجفتْ شفتاها ، وقبضتْ بيد مرتعشة على ذراعي قبضةً قاسية ، وصاحت وقد تنمرت ، وانقلبت سحنتها ، وغاضت رقتها : أيكون نصيبي منك الاستهانة بعاطفتي ، يا أبله ؟ ! . . أضامن أنت أن تلقي واحدة في جمالي وحبي وإخلاصي ؟ ! . . أضامن أنت أن تقابل حسناء مثلي تعرض عليك نفسها وقلبها ؟ !

وحدّقتْ إلى ناظريّ ، فقرأتْ فيهما خشيتي منها ، وتبينت تقهقري عنها ، فهتفت : تهرب مني ؟ ! . . ماذا يخيفك من التي تحبك وتستعطفك ؟ . . أتراني أتجني عليك ، وأنا أصارحك بحبي ؟ ! . . كن منصفاً يا « عبده » ، ولا تقتلْ قلباً يحبك ويشتاق إليك . . أنت صغير تجهل الحبّ ، وتجهل عذابه . . وأنا أحبك ، فارحم فؤادي . . إني لأعجب لنفسي أن أحببتك في ومضة ، وأنا التي كنت في القاهرة أسخر من المتعبدين لجمالي ، وأنفر منهم كلهم ، وأضحك ضحكة السخرية والاستخفاف ! . . ما كنت أظنّ الأيام تنتقم مني ، وتقضي عليّ أن أحبك أنت ، فتذلني هذا الذلّ . . « عبده » ، كن كريماً يمنح ، ولا تكن جلاّداً يذبح !

كنت أيامئذ — كما قالت « هدى » — أجهل وقع الحبّ في النفوس ، فما اهتزّ قلبي من قبل بدبيب الوَله ، ولا ذكّلت نفسي لحسناء ؛ فشدّدت في استبقاء برقع الحياء ، وربّتّ ظهرها ، وحدّقت إلى عينيها الدامعتين ، وقلت قولاً لا أدري أجادّ أنا فيه أم هازل ؟ أكان مأتاه استهوال الفضيحة وازدراء العشير ، حين ينكشف المستور ؟ أم كانت دوافعه ترفعي عن خيانة من يراني أهلاً للثقة والإجلال ؟! . . قلت : « هدى » . . أنا أهواك . . ولن يتفقَ لي أن أقعَ على من تساويك في الجمال ، أو تدانيك في البهاء ؛ فإن الطبيعة تعجز عن صوْغ نظيرتك ، بعد أن استنفدتْ وسعها ، وبذلت جهدها فيك . . غير أني — مع اضطرام

الفتوّة بين أضالعي – أراني لا أميل إلى الفاحشة؛ فليس الحبّ عندي مرادف الخطيئة والمعصية . . حسبنا هذا اللهو البريء يا «هدى» . . إن للأرواح أن تتصابى ، بدون أن تنحدر إلى بؤرة الغواية . .

قالت وقد رجفتْ على أهدابها دمعة حارت بين التعلق والهميان: أنت تزيد كربى . . . نفد صبرى يا «عبده» . . أحبك . . أحبك . . فلا تعذّبنى . .

ودلّ مظهرها اليائس على مقدار تداعيها ؛ وراعنى أن أبصرها فى هذا الانهيار الأسيان ؛ وصحّ عزمى على أن أهمّ بها . . غير أنى لم أكد أنقل رجلى حتى خذلتنى كلّ ذرّة فى كيانى ، وتكوّمتْ ركاماً يسدّ علىّ الطريق ، فلم أستطع حراكاً . .

ونشبتْ فى أعماقى حرب عنيفة بين نزوة البدن، وفورة الروح ؛ وأحسست روحاً تجنح إلى الشرّ تتملكنى ؛ فأنكرت نفسى ، وأبيت روح الفساد التى تعصف بوجدانى ، وتعبث بإيمانى ، وتزلزل القيمَ فى عقلى ، وتدفعنى إلى الخطيئة . . ورأيت ألاّ مهربَ من هذا الصراع الصاخب إلا فى الفرار من هذا المكان . .

وبقوة شماء بدّدت عنى كل ونية وتردد ، تسلقت الحائط ، وهرولت إلى حجرتى حائراً كئيباً ؛ لا الحسن يجذبنى ، ولا اللهو يشوقنى ؛ ولا أصغى إلى هتافها الذليل ، أو أبالى بالدمع الهامى ، واللوعة الصياحة . .

٦

الحيرة تتملكنى .. الحيرة من نفسى ، والحيرة من مصيرى ، والحيرة من هذا الغرام الذى لا يخبو له سعير . . وكم حاولت أن أجد فى قرارة

نفسي مكاناً للراحة والاطمئنان ، وأن أصل إلى حل يحفظ لى حبى الأول طاهراً نقيّاً ، فلم أفز بشيء ؛ وإنما كانت تتراكم على عقلى وقلبى ظلمات بعضها فوق بعض ؛ فإذا ما أفقت إلى نفسي علمت أنى أوشك أن أنزلق إلى الهاوية ، فأستغفر وأستعيذ ، وأقف بين يدى الله خاشعاً متضرعاً . .

كنت أقضى الليل أبكى وأصلى ، فقد علمنى أبواى — يرحمهما الله — أن الصلاة تقصى عنا نوازع الشيطان ، وأن أكبر الكبائر — بعد الشرك بالله — القتل فالزنى ؛

ونهكت نفسي فى الصلاة ، وفى ترويض جامح هواى ، أحاول أن أطرد من نفسي الشعور الجديد الذى يهدد عزيمتى بالخور والتردد ؛ فلا أكاد أحس الفوز والظفر حتى أتعثر وأكبو ؛ ويطوى القهر جناحى ، فأبكى وأصلى .

كنت أيامئذ قد قطعت ربع عامى السادس عشر ، فتى وسيماً ، سوىّ الخلقة ، قوىّ البنية ، ممتلئ الجسم ، يحسبنى الرائى قد جاوزت العشرين . وعلى فورة دمى والتهاب فتوتى كنت من المتجانفين عن الخلاعة ، طاهر القلب والجسد ، لم أدرج فى نهج الصبابة ، ولا سرت فى درب الهوى . . . كنت أعشق بخيالى لا بجسدى ، وأحب بروحى لا بثورة اللحم والدم ؛ لكن « هدى » لم تكن لتقنع بهذه المتعة البتراء ، وإنما تصبو إلى اللذة الكاملة ، والنشوة الدهاق !

أكذب إن قلت إنى لا أشتهى « هدى » كما تشتهينى ؛ فإنها قد أضرمت فىّ ناراً موقدة . . ولقد جهدت جهدى لأتقى هذا الحب الفاجر ، فإذا هى قد سدت علىّ سبل النجاة . .

تتزاحم الصور فى عينى ، وتتتابع المعانى فى فكرى ، وتتوالى الأحاسيس على قلبى ، ثم تذوب كلها ، وإذا « هدى » فى عينى حسن ، وفى فكرى

سحر ، وفى قلبى فتون ؛ وإذا طيفها رفيقى وقائدى أينما اتجهت خطاى ؛ وإذا هو يشاطرنى طعامى وشرابى ، وأرقى ومنامى ، لا ينصرف عنى حتى فى خشوعى وصلاتى . . ولكم حاولت سلخه من ذهنى ، فإذا هو يرسو فى جنانى ، ويستقر أثبت من الجبال ! . . يا له من عشق شرير نهيم !

* * *

وطال أمر الهوى المشدود العنان . . وكلما مر يوم على هذا الوصال المعتلّ ، الواهب من اللذة أطرافها ، المانع غواليها ، شعرت « هدى » بضرام غرامها ، واسترسلت فى خنوعها ، ترضى كظيماً بالمتعة المبتورة ، ولا تستطيع أن تغرف من الهوى إلا بمقدار !

ثم . . ثم قهرت حلاوة المعصية حرمة الطهارة والعفة ، فإذا كل ما يختلج فىّ من حس يهيب بى أن ألبى نداء الإثم !

حقاً إن القلب يرجح العقل قوة واندفاعاً !

* * *

وما أرانى أمهد العذر لنفسى حين أقرر أنها بدت أمامى أجمل من دمية ، وأسنى من كوكب ، وينبوع رواء يفيض بالسحر ، ويزخر باللألاء ، وروضة معطرة بأنفاس الربيع ، ينتشى منها القلب والجسد . . نعم ؛ كانت الحياة كلها تضحك فى عينيها ، فتسلم النفس إلى الرؤى الجميلة ، وتحيطها بالأحلام اللذيذة ؛ وكان صوتها يتناهى إلى أذنى عذباً ناعماً ، فى جرس مختلف ، يفيض حيناً بالقوة الدافقة ، ويشبه حيناً حنين الريح المتلاشية ؛ لكنه فى كلتا الحالين يشبه الأنين الحزين الذى يعلو حتى يصير صيحات مدوية ؛ فاستولت على فؤادى ، ومست أوتار قلبى ، وهزت كوامن نفسى ، حتى أمسيت جسداً نشيطاً ، وعقلا سليباً يهمس إلى القلب ، وينسى كل القيم والمثل ، ويطرح كل أوامر الشرع ونواهيه ،

فلا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يفهم شيئاً مما يراد به !

وقرأت « هدى » فى قسماتى الاضطراب الذى غمر نفسى ، والوهن الذى نزل بصلابتى ؛ وعلمت — بغريزة الأنثى — ما ملأ عينى من رغبة تضج وتصرخ ؛ فجذبتنى إليها فى دلال رفيق ، وقبضت على يدى ، وتهادت بى إلى السلم ، وهى تقول : تعال يا « عبده » . . تعال . . لا تخف ، ولا تخش شيئاً . .

وتبعتها كحمل يساق إلى الذبح ، وهو لا يدرى !

و حجرة مزركشة الجدران ، وأمام سرير صقيل من خشب الورد ، رصعه براق الصدف ، ونقشت عليه التصاوير ، ونشرت فوقه أغطية من الحرير الأحمر ، كأنه أتون يتضرم — وقفت مرتبكاً ، خائفاً ، تائهاً . . دقات قلبى تعلو وتسرع ، وبدنى كله يرتعد وينتفض كأنى محموم ، ونظراتى قد انعقدت ، كأن الذهول يأبى على الأهداب أن ترف !

وقفت لا أعرف ما سأصير إليه ، ولا أدرى كيف أستحل ما ليس يند عن ذى بصيرة ، مهما ران على حجاه الصدأ ! . . وقفت وقد رسخ فى قلبى أن الحب ذليل ، وأن الجسد — على ما يتحلى به من زهادة — يطفئ وضاءة الروح ، ويهيض جناح الزهو فى أعطاف الضمير !

ومضت الدقائق كأنها دهر طويل ، و « هدى » واقفة أمام غلائلها المنشورة فى خزانتها كقوس قزح ، حتى انتخبت غلالة حمراء شفافة . .

ها هى ذى ساعة نحر المقدسات قد علا رنينها ! . . سينتصر الحب ويسود ، وتنتشى الأنفس الوالهة ، وتنعم الحواس جميعها ! . . فلتنقشع عن محياى هذه الغمامة الدهماء ، ولأنفض عن خاطرى الأكدار والمخاوف ؛ فليس لقلب يخفق برعشة الحب أن تعترضه الحواجز والسدود ! . . لتصفق الحمائم بأجنحتها ابتهاجاً ، ولتخشع النخيل والأشجار إجلالا

للحدث المرموق الوشيك الوقوع ؛ فالحب هو مضرم وهج الشمس ، وهو دعامة الوجود ! . .

تمايلت « هدى » فتنة ودلالا ، وطوقتنى بذراعيها ، وضمتنى إلى صدرها فى شوق ولهفة ، وأدنت فمها من فمى ، واستراح خدها على خدى . . . .

ولست أرانى أستمتع — على الدهر — بمثل ما نعمت به ، فإنى لم أعرف ساعة ألذ من تلك الومضات الخفية على صدر « هدى » ، وفى أحضانها . أقول « ومضات » لذوبانها على عجل ، فطالت وقصرت ، وكأنها شرارة ما إن تلتهب حتى تنطفئ !

ما عسى أن يقول الشاعر ؟ وماذا فى وسع الفنان أن يرسم بريشته المبدعة الصناع ؟

اللغة . . اليراعة . . الريشة . . النغم الحنون . . كل أولئك — فى هذا الموقف — عقيم ، وكل أولئك قاصر لم يبلغ الرشد ، وما هو ببالغه ! . . وكيف تصور رقصات القلوب بين الجوانح ؟ !

إن هذه اللحظة قطعة من الخلود ، وفلذة من النعيم ، لها لغتها الخاصة التى حسب الناس أن يحسوها ؛ أما الإفصاح عنها فلن يكون إلا من قبيل تلك الشطرات الشعرية الوجيزة التى يهتف بها الكروان ، أو من قبيل تلك الأشجان المطولة والمآسى الضافية ، تقصها بنات الهديل فى الأسحار والآصال . . إنها لحظة يلتقى عندها الإنسان بالطير والحيوان ، فهى ذوب الحياة كلها ، والتقاؤها عند ألفها الأولى !

ووقفت أحدق إلى « هدى » وهى تتمطى فى فراشها جذلى ، وشفتاها تهمسان بألفاظ لم أتبينها ؛ لكنها كانت — ولا ريب — ألفاظاً عذبة ، تنغمها النشوة والوله والانشراح ؛ فأحسست كأن دماغى قدر تغلى . .

فهذا الذى أقدمت عليه ليس حباً . . إنه رجس من عمل الشيطان . .

إنه أنكر معصية أرتعد هولا لقباحتها الصادعة ، وشناعتها الدميمة . .

يا لفجيعتى ! .. طارت طهارتى فى الزنى الزنيم ! .. ألا ليت حياتى كلها قد طارت فى تلك النشوة ، لئلا أكابد تبعة ما أقدمت عليه من شناعة ، وإن كانت مبطنة بصفى الرغد !

وزخر صدرى بأحاسيس شتى ، وتزاحمت فى رأسى خواطر متباينة ، حتى اشتبهت على السعادة بالشقاء ، فتلقيت بشفتى لآلئ غالية تحدرت على خدى . .

عفوك يا رب عن لاحس المبرد ، وما يمتص سوى دمه !

وضعت يدى على عينى ، وصرخت . . وعدوت إلى السلم حزيناً أعول وأنوح . .

وقد أبت على الاستقرار الحرقةُ الآكلة جنانى ، كأن فى صدرى جمرات تلسعنى ، وتذيب أنفاسى ؛ فما إن أجلس حتى أنهض ، وما إن أنهض حتى أحس أنى أشتعل كبركان ثائر . . وودت لو أموت ، وأنجو من هذا العذاب !

كيف غرتنى هذه المرأة ، وغررت بى ، وانتصرت على ؟ ! كيف استحلت دفعى إلى المنكر القبيح ، أغوص فى أدرانه ، وأغور فى أوحاله؟! بل كيف خضعت أنا لها وذللت ، وأطعتها فسقطت ؟ ! . . لا ، لا . . أنا الجانى الأثيم ، وبيدى خرقت عصمتى ، وشوهت فضيلتى ، وهدمت كرامتى ، وأهنت البراءة فى خدرها الحرام ! . . نعم ؛ أنا الجانى الأثيم ، فالناس لا يدفعون إلى الإثم دفعاً ، ولا يرغمون عليه إرغاماً ، بل ينقادون إليه راضين . . نعم ؛ إن سقطتى هذه من باب الإرادة ، لا من باب الضرورة ، فأى جناية جنيت على نفسى ؟ ! .. لا عزاء ، ولا سلوان !

ولا أزال — بعد تلك السنين الطويلة — أذكر هذه السقطة الشنيعة وكأنها قد وقعت بالأمس القريب ؛ فمنذ تلك الفعلة أحسست تبدلا يصيب

أعضاء جسدى ، وخلجات عروقى ، ومخ عظامى ! . . ولست أشك فى أن البلبلة التى ظهرت فى حياتى ، واستمرت إلى اليوم ، قد نجمت عن الانطباعات التى دفعتها إلى نفسى هذه السقطة الشائنة !

* * *

اتكأت على رفراف النافذة ، وأسنانى تصرف وتدمدم ، وعيناى تسحان الدمع هتاناً ، والعرق المحموم يسيل قطرات غزاراً . .

كيف أمشى بين أهلى بعد اليوم ؟ .. كيف أرفع عينىّ إلى محيـّا أمى الطاهرة وأبى التقى ؟ !

ألا لعن الله ساعة حبوت فيها إلى مدرج الحياة ! . .

وثرت حنقاً على نفسى ، وعلى « هدى » ؛ وأيقنت ألا نهوض من هذه العثرة ، وتراءى لى أننى أمسيت من النتن بما تسد دونه الأنوف كرهاً واستقزازاً . .

وماتت فىّ وضاءة الخيلاء !

أسفاً عليك أيها الصبى البهى ، التقى ، الذى كنته ! . .

لهفى عليك ! . . ما طلبتك ؟ ما الذى يرد إليك هناءتك وبهجتك ؟ ماذا يمسح الدمع عن عينيك اللتين تشبهان الماء والسماء ؟ ! . . من يستطيع — أى خيال الماضى الطاهر — أن يقشع عنك همومك ، ويكشف عنك غمومك ، ويرد إليك طهارتك الضائعة ، وسعادتك الفقيدة ، ومرحك السليب ؟ !

ليتنى أعرف كيف أطهرك بدموع الندم ! ليتنى أستطيع أن أفجر عليك حنانى ، وأغمرك بلوعتى ، لتعود بى طاهراً نقيـّاً ، طروباً سعيداً !

لقد مت أيها الصبى البهى ، وضاع ما كان لك من طهارة وبراءة ، وأضحت ذكراك أطلالا أعودها كلما استلهمت الألم ، وأعوزنى البكاء !

وأسفا عليك ! . . أسفاً على نفسى لا ينتهى !

٧

كانت ليلة نكراء ، من تلك الليالى التى تخرج فيها الشياطين هائمة ، تبحث عن أرواح تقتنصها ، أو أجساد تتلبسها . . ليلة قضيتها صاحياً إلى الفجر ، لا يكاد يغمض لى جفن ؛ فقد كانت خواطر شتى تملأ رأسى ، وتشغل قلبى ، فتطرد النوم عن عينى . .

كنت أفكر فى سقطتى ، وفقدانى طهارتى و براءتى . . وكنت أفكر فى « هدى » وفى الشهوة التى تجذبنى إليها ، والتى أراها لا تنام ! . . وكنت أفكر فى أبى وأمى . .

كنت غريق الفكر ، عميق الهم ، شديد الخوف . . وكان خوفى من أن يكشف ما جرى بينى وبين « هدى » يقلقنى إقلاقاً شديداً ، ويؤرقنى تأريقاً لا صبر عليه ، وكأننى نائم على شوك حاد !

وأحسست أن أنفاسى قد احتبست فى حلقى ، وأنى أوشك أن أختنق ، وأن كل عضلة فى جسدى ترتعد ، وأن موجات الهم والقلق تتدافع إلى قلبى تدافع أمواج البحر الهائج ، فأخذت أبكى بحرقة وغزارة ، وجعلت الدموع تتقاطر على خدى ، وتنحدر على ثيابى ، وأنا فى حيرة من أمرى . .

ارتميت على فراشى متعباً مكدوداً ، مريض النفس ، كئيب القلب ، حتى هبت نسمات الفجر ، وغلبتنى عيناى ، فنمت . .

وأصبحت بادئ الجهامة ، رخو العزيمة ، دامى الروح . .

تطلعت إلى المرآة ، فإذا لونى قد شاعت فيه كمدة التراب ، كأنما أعانى صعقة داء عضال . . فلم تنته آلامى بانتهاء الليل ، بل زادت حدة

وشدة ، وقد أدمى الحزن قلبي ، وأنضج الأسى كبدى ، حتى رأيتنى غير قادر على شيء ..

جعلت أجلس إلى المكتب ، وأتناول القلم ، وأعبث به على الورق ، فأخط هذيان محموم .. ثم أنتفض ، فأذرع الغرفة إقبالا وإدباراً ، وفؤادى من الكرب فى جحيم !

وخرجت إلى السطح ، فإذا أشعة الشمس تملأ الدنيا ، وإذا الجو يعبق بعطر الزهر ، وإذا الأشجار يداعبها النسيم ، فترقص على غناء الطيور وزقزقة العصافير ، وإذا الحمائم حولى تطير وتسف مبتهجة بالصباح الوليد واليوم الجديد !

عجباً ، عجباً ! .. كيف تبزغ الشمس ؟ وكيف يغرد الطير ، ويتضوع الزهر ، وتترنح الأشجار ، وأنا قد فقدت براءتى ، ودنست طهارتى ، وقوضت صرح زهوى وسعادتى ؟ ! .. كيف لا يتسربل الكون كله بلباس الحداد ، ويشاركنى فجيعتى ومصابى ؟ !

كنت أشعر أنى قد تحطمت حقاً ، وأن قلبى قد عصر عصراً ، وانسحق ؛ فاهتز بدنى كله فى بكاء عنيف متصل لا يكاد ينتهى ..

وتحاميت أن ألقى أبى وأمى ، وجنحت إلى العزلة لا أطيق مرأى إنسان ؛ وأوصدت باب الحجرة ، لا أريد أن يفجأنى فى وحدتى خيال .. حتى « دادة قدم الخير » التى أرضعتنى طفلا ، ورعتنى يافعاً ، والتى كنت أجاهرها بما أتحرج من الهمس به فى حضرة أبوىّ ، قد اتقيتها ، وأبيت أن أفتح لها الباب ، لتغير أغطية السرير ..

ثم سمعت من تنادينى ، فهزتنى النبرة فى دقيق عروقى !

هذه أمى ..

لكم أود لو ألقى رأسى على صدرها ، وأبوح لها بما جنيت !

لكن هذا مستحيل ..

. ماذا أفعل ؟ . . أأفتح الباب ؟ أم أبدو غارقاً فى رقدتى ، لا أعى ؟ ، وإن فتحت فماذا أسوغ عبوسى وحزنى واكفهرار وجهى ؟ !

لن أردّ — إذاً — على النداء . .

وقلقت أمى ، وأمعنت فى النداء ، وفى دق الباب ؛ فقلت فى لهجة خزياء : من ؟ ! فقالت أمى بجزع الملهوف : ما بلك تنام حتى هذه الساعة ؟ ! . . الشمس تملأ الدنيا . . هل تحس شيئاً ، أو يؤلمك شىء ؟ !

أجبت : دعينى يا أمى . . لقد بليت فى ليلتى بأرق طويل ، وأرانى بحاجة إلى الهجعة . .

فأصرت أمى على أن أفتح الباب ، لترانى ، ويطمئن قلبها . .

نفذت عيناها إلى أساريرى ، وأوجعها ما رأت من كمدة لونى ، واحمرار عينى ، وآمنت بأنى قضيت ليلتى مسهد الجفن ؛ فسألتنى عما ألمّ بى ، فتنكرت لكل إيضاح ، وأجبت خزيان خجلا : يا أمى ؛ شربت أمس كثيراً من أكواب الشاى ، فبت الليل مؤرقاً مفتوح العينين !

ماذا أقول غير هذا ؟ . . إن ما عرانى لا يسوغ فيه بيان ، ولا يجوز أن يطلع عليه إنسان ، بل يجب أن يبقى دفيناً فى صدرى ، محبوساً بين جوانحى ، لا ينفرج عن إفشاء . . إنه ملمة مجتاحة ، وعهر قاصم ، وإثم وخيم ، لا يليق أن أنضو عنه الستار . . إنه لطخة سوداء ستظل تحجب عن ضميرى كوى النور !

ربتت أمى رأسى وظهرى ، وأنا متكوم فى سريرى ، ثم قبلتنى طاهر القبلات ، وتهادت عائدة مطمئنة ، تتمنى لى نوم العوافى !

* * *

لقد ذهبت السكرة ، وعادت الفكرة ، وفطنت إلى ما انحدرت إليه ،

وشعرت أن كل ذرة فى دمى قد تلوثت ، وتعفنت ، وشممت الرائحة القذرة تتصاعد من أعماق روحى ؛ ولم يعد لى سوى أمنية واحدة ، تتردد فى خاطرى : أن أتطهر من خطيئتى ، وأدخل الدنيا من جديد ..

كيف أطرح عنى وزرى ؟ كيف أعود طاهراً نقياً ، وأنا كلما أنهكت نفسى فى الصلاة والاستغفار ارتفع تأنيب ضميرى ، وازددت شعوراً بثقل إثمى ، وشدة وطأته ؟ !

أخذت فى وحدتى أناجى وساوسى الدهم ، وأنا أرى الدنيا الرحيبة تضيق عما يزخر به صدرى الطرى من أشجان ، وكأنما الأرض قد زلزلت زلزالها ، وكأنما السماء قد تصدعت دعائمها !

وحننت إلى جلسات أبى وحديثه ، وشعرت بحاجتى إلى استلهام ورعه وتقواه . . وحننت إلى صدر أمى ، ألقى عليه رأسى ، وأشكو إليها بثى وحزنى ، وأهمس فى أذنيها بفجيعتى وغمى . . لكن كيف أرفع بصرى إلى أبوى ، بعد أن أقدمت على هذا العهر المنكر ، وتمرغت فى حمأة الفحش الأخرق والرجس الدميم ؟ ! كيف أرفع بصرى إليهما ، وأنا أرى رأىَ العين كل عرق من عروقى ، وكل نسيج من أنسجة بدنى ، تجرى فيه لذائذ الإثم والخطيئة ؟ !

ألا ليت الأرض تنشق ، وتبتلعنى ، وتدفننى فى مطاويها الفاحمة ، قبل أن يعلم أبواى أنى زان أثيم ، وهما قد أحسنا تربيتى وتهذيبى !

* * *

ثلاثة أيام قضيتها فى جحيم ، مختبئاً فى حجرتى ، لا أبرحها إلا ساعة الطعام . .

رضىَ الله عنك يا أمى ! . . ما كان أطيب قلبك ، وأرقه ، وأحنه ! . . لقد أنقذتنى من الحرج الذى أحسسته حينما التقيت بأبى على مائدة الغداء ، وسألنى عما بى ، وقد رآنى شارد اللب صامتاً ،

فأسرعت تعللين له هذا العارض بأنى قد أرقت ليلتى ،وأنى فى حاجة إلى الراحة والاستجمام . . ثم أردفت تقولين : التعب بدأ يحل به ، نتيجة للسهر فى الدرس والاستذكار . . أنت نسيت يا « أبا مصطفى » أن « عبد الرحمن » أول زملائه فى الثقافة ، وأنه سيأخذ التوجيهية فى العام المقبل ، ويكون الأول أيضاً بإذن الله ؟ !

ما أطول هذه الأيام الثلاثة ! . . لقد قضيتها حليف الحزن ، والندم ، والرغبة !

نعم ؛ كانت تتنازعنى انفعالات متباينة : إقبال وإدبار ، توبة ومعصية ! . .

لكم حدثنى الشيطان ، بلسان الأمارة بالسوء : ما هذا الحزن الذى تلف فيه نفسك ؟ . . أتظن أنك كئيب لفعلتك ؟ . . لا ، لا . . لا تخادع نفسك . . إنما أنت تخاف أن ينكشف أمرك ، ويفتضح سرك ، وتحرم ما تذوقت من لذات . . ألست ترى لوائح الحسن تخايل عينيك ؟ فماذا لو التمست نهلة أخرى من هذا الينبوع النمير ؟ . . ماذا لو قطفت زهرة ثانية من هذا الرونق الزاكى الأريض ؟ . . أما تشوقك الكأس السائغة ، وسلافتها الشعشاع ؟ !

وفى هذه الأيام الثلاثة كانت « هدى » لا تفتأ تضرب شباك حجرتى بالحصيات غير مرة . . فى الصباح والضحى ، وفى الأصيل والمساء . . وكلما رمت حصيّة ارتعشت أنا ، وانكمشت فى إهابى ، وعصرت مآقىّ ، فتنهال دموعى حارة غزيرة !

وكان أخشى ما أخشاه أن تقع عيناى فى عينيها ، فتضعف عزيمتى وأنهار ، وأعود إلى ما تحنّ إليه نفسى من هوى رجيم .

وكان أخوف ما أخافه أن تصعد إلى السطح أمى ، أو « دادة قدم الخير » ، أو واحد ممن يزدحم بهم البيت ، ويروا «هدى» وهى تستدعينى

بهذه الوسيلة التى انتهجتها ، أو يرونى معها ، فتكون الطامة الكبرى .

وفى اليوم الرابع أحسست أنى أشد صبراً ، وأوفر جلداً ، فتهيأت لمغادرة البيت ، والشمس تنعطف على الأفق الغربى فى قبلة الوداع ، فتصبغه بحمرة شفتيها ، والصيف ما برح محموم الأنفاس ..

نزلت من صومعتى ، ومررت بأمى ، فقبلت يدها ، وقضيت معها حيناً ، وقبضت منها ما تيسر ؛ ثم استأذنتها فى زيارة خالتى ، وهممت بالنهوض . .

فى هذه اللحظة كانت « دادة قدم الخير » قد خطت بضع خطوات نحو باب « السكة » الذى يفصل « السلاملك » عن البيت .. ولم تلبث أن فتحت الباب ، وأعلنت مقدم « هدى هانم » حرم « عزيز بك » !

والتقت أعيننا . .

لكم ساءنى ، وآلمنى أبلغ الألم ، أنها كانت تبدو مثال الطهارة والعفاف والنقاء ، وأن مظهرها يشف عن براءة ناصعة ، فلا تلوح عليها خفة أو زيغان أو خيانة ، بل كانت توحى إلى نفس من يراها أنها كريمة الحفاظ ، نبيلة المهزّة !

تركت أمى ترحب بها ، وانقلبت إلى صومعتى ، وعقلى يلعنها .. فلولاها لم تبلغ بى العثرة هذا المنقلب المهين !

وقلت فى نفسى : كيف انقلبت على وضاءتها ؟! . . كيف استباحت حمى الفضيلة ، وشمم العفة ، كأنها لا عاصم لها ، ولا ضمير يردعها ! . . ثم عدت فقلت لنفسى : ومن أنا حتى أتحدث عن الفضيلة والرذيلة ؟ ألست شريكها فى الخطيئة ؟ !

٨

كان لا يفوتنى شهود الجماعة ، وأداء الفريضة لوقتها ، فى مسجدنا الكبير القريب من بيتنا ؛ فصار الناس لا يروننى بينهم ساعات الصلاة إلا نادراً . . وارتسمت على وجهى أمارات الهم والاكتئاب ؛ وحالت نظراتى الهادئة المطمئنة ، الملأى بالبراءة والإيمان ، إلى نظرات زائغة مضطربة ، تنعكس من خلالها هواجس تعاسة ممضة ، لا تدرى أيان تستقر ؛ وبدا علىّ نحول عصبى نكرنى لنفسى ولمن حولى ؛ وصارت حركاتى بطيئة قلقة ، وكأنما أمسك الغم الذى يقلقنى بكل عصب من أعصابى ، أو كأنما شلّ القلق الذى يغمنى سلطان إرادتى ، حتى قعد بى عن أن أريد ، وعن أن أعمل !

وكان الكل من أمرى على عمى ؛ فلم يعرف أحد سبب هزالى وامتقاع لونى ، ولا سبب هذه النبرات الحزينة التى تغشى صوتى ، والتى يلمسها فى حديثى كل متحدث إلىّ . . ولم يطلع أحد على السر الذى يجعلنى أضع يدى على قلبى ، وكأننى أحس الألم فى قرارته وأعماقه !

والحق أنى كنت أحس ــ كلما واجهنى إنسان وحدثنى ــ أن قلبى يوشك أن يثب من مكانه ، وأن مواجهى سيقرأ فى وجهى السر الذى أطويه فى هذا القلب الباكى الحزين !

أخذ الأهل والأقارب يتطوعون بالرأى والفتوى . . هذا يقول إن الشبان ــ فى سنى ــ تنتابهم بعض الأمراض النفسية ، وإن ما بى لا يعدو عارضاً يزول عما قريب ؛ وهذه تزعم أن « العين » قد أصابتنى لذكائى وفطنتى ، ووسامتى وفضيلتى ؛ وتنصح أمى أن تبخرنى ــ ساعة

أذان الجمعة ـــ من شر الحاسدين وأعين الناظرين !

ومر أسبوع ، وأنا أجاهد نفسي أعنف الجهاد ، كيلا أرى « هدى » ؛ وهى لا تبرح تضرب الشباك بالحصيات صباح مساء . . والأسبوع فى دنيا العشاق دهر طويل !

وفى أصيل اليوم الثامن ، وأنا أغادر حجرتى وأهم بالهبوط ، رأيتها تضع يديها على الحائط الفاصل بين السطحين ، وتميل برأسها عليهما فى ذلة وانكسار ، وهى تتطلع إلى حجرتى فى شوق ولوعة . .

وما إن وقعت عليها عيناى حتى رُدَّت الروح إلىّ ، وانتعشت انتعاش الزهرة كللها ندى الفجر البسام ، ورقص قلبى وتهلل ، وتدفقت إليه الحياة ، وركضت الدماء فى شرايينى تروى كل خلية فى بدنى ، وسالت نفسى حنيناً إلى شهوتها الجموح ، وتغلب علىّ الظمأ إلى نهلة الوصال ؛ فقفزت السور فى خفة ونشاط ، وارتميت على صدر «هدى» وأنا أقول : « هدى » . . حبيبتى . . حياتى . . أحبك يا « هدى » ولا طلعت على شمس يوم لا أراك فيه !

ورددت كلمة أحبك . . وكنت أشعر بها خارجة من أعماق قلبى ، صاعدة إلى شفتى ، متطايرة إلى جمالها وظرفها وسحرها . .

وقلت لها ، وكأنى أسمع نصاً من النصوص : « هدى » . . أحبك يا « هدى » . . أحبك حباً أعلى من السحاب ، وأعمق من البحر ، وأصفى من المزن ، وأحر من النار !

وضعت ساعدها فوق كتفى فى صمت ، وألصقت خدها بخدى ، وقبضت على أناملى ، وجذبتنى إلى السلم . . . .

* * *

كانت « هدى » تكبرنى بأربع سنوات ، وتحمل شهادة التوجيهية التى سأتقدم أنا إلى امتحانها فى عام قابل ، وكانت بنت النعمة والحضر ؛

فهى ليست ساذجة فى معيشتها ، ولا غبية فى حديثها ؛ بل كانت ناضجة كل النضج فى جسدها ، وعاطفتها ، وتفكيرها ، وقد وجدت فىّ عجينة طيعة ، فصاغت منها عاشقاً على هواها ، يؤنسها فى وحدتها ، و يسد الفراغ الذى يخلفه زوجها فى أكثر الليالى ، فقد كنا إذ ذاك فى موسم تكثر فيه جرائم القتل ، وقلع الزرع ، وتسميم الماشية ..

وتركت الصلاة ، واستمرأت هذا اللون الآثم من ألوان الحياة ، وانطلقت فيه متمرداً مجنوناً !

ثم انتهت العطلة . . وفارقت « هدى » وبقلبينا كلينا حسرة ولهفة . .

وتركت بيت أختى الكبيرة « إحسان » وزوجها الطبيب النبيل ، وأقمت مع أخى « حسن » وكيل النيابة ، وزميل « عزيز » زوج الحبيبة « هدى » . .

ليتنى ما تحولت عن بيت أختى ! وليتنى ما أقمت مع أخى ! . . ليت ! . . وهل تنفع شيئاً « ليت » ؟ !

* * *

هؤلاء هم أصدقاء أخى يجتمعون فى شقتنا . . وها هم أولاء يشربون الخمر ويلعبون « البوكر » و « الكونكان » ، وأنا فى حجرتى أتظاهر باستذكار دروسى ، وأذناى تنصتان إلى أحاديثهم الفاجرة ، ونكاتهم الداعرة ، يطلقونها عالية فى غير خجل ، ويقهقهون لألفاظها البذيئة ، وصورها العارية ، فى لذة واستمتاع . .

ومرت الليالى ، وألفت أذناى هذه النكات ، وضحكت لها كما يضحكون ، وطربت كما يطربون ؛ بل لقد تمنيت أن تتكرر هذه الجلسات ، وتتوالى .

وعدت يوماً من المدرسة ، فإذا شقيقى مشغول فى تنسيق الأثاث ، وإعداد المائدة ، وتوجيه الطباخ إلى ما يعد من صنوف المقلىّ والمشوىّ ،

وعلمت أن لفيفاً من أصدقاء أخي سيتعشون عندنا ، قبل أن يبدءوا سهرتهم ولعبهم . .

ثم بدأ الضيوف يتوافدون مثنى مثنى ، أو ثلاث ثلاث . . كانوا أحد عشر ضيفاً : رئيس النيابة — رئيس أخي — ووكيل « الحكمدار » ، والمأمور ، ومفتش الصحة ، ومفتش الزراعة ، والمفتش البيطرى ، وأحد مدرسي المدرسة الثانوية التي أتلقى دروسي بها ، وأربعة من أعيان أسيوط الأثرياء . .

تحلق الضيفان حول نضدين في بهو « الشقة » الفسيح ، وبدءوا يلعبون الورق حتى أعدت المائدة ، فانتقلوا إليها في زيطتهم وضوضائهم ، وجعلوا يأكلون ويشربون ، ويهزلون ويقهقهون ، حتى سكروا وعربدوا . . ثم وقف أحدهم يترنح ، ويهز بطنه كأبرع الراقصات !

منظر كريه مؤلم ، كان أبشع وأشنع ما وقعت عليه عيناى . .

لقد حدث مرة — وأنا في التاسعة — أن أصابت ابن عمي رصاصات ، فهوى أمام عيني يتخبط في دمائه ؛ وكنت رديفه على فرسه ، ونحن في طريقنا من المدينة إلى القرية ، ساعة الغروب ؛ فجرى الذين كانوا في رفقتنا ذات اليمين وذات الشمال يطاردون الجناة ، وانقطع المرور على الجسر ، وبقيت وحدى بجوار القتيل أعول وأبكى ، وإذا أربعة غلاظ شداد ، يخرجون من بين حقول الذرة ، فيهجم أحدهم عليّ ، ويحتضنني في عنف يحرمني الحركة ، في حين ينهال الثلاثة الآخرون بعصيهم الغليظة على رأس القتيل ، حتى تناثر مخه . . ثم مضوا ما نال رجلا منهم كلم ، ولا أريق لهم دم !

منظر بشع ، لا ريب . . لكن منظر الموظف الكبير وهو يرقص مخموراً ، كان في عيني أبشع من منظر ابن عمي الشاب السرىّ الفتىّ ، وهو يقتل أمامي هذه القتلة الشنعاء !

لقد نال منى هذا المنظر ، وعقّد نفسى ، وأصابنى بأسوأ مما أصبت به بعد سقطتى . .

وانتقل خيالى فجأة إلى منظر آخر . منظر أبى وهو فى مجلسه الهادئ الذى يضم ذوى العلم ، وأرباب الفضل ، ويعبق بنفحات الإيمان والتقوى ، وأرج المجد والأدب . .

كان أبى عالماً متنسكاً ، كثير الصلاة والصيام إلى حد لم أشهد له مثيلا ، وكان أنيقاً فى هندامه ، وقوراً فى قعوده وقيامه ، ذا جاذبية دائمة فى حديثه . .

وكان — رحمه الله — يستيقظ والفجر ، فيتوضأ ويصلى ، ويرتل بعض آى الذكر الحكيم ، ثم يرتد إلى فراشه ، فينام حتى السابعة ، ثم يصحو ، ويتوضأ ، ويرتدى ثيابه كاملة ، ويتناول فطوره وحده ، ثم يجلس فى « السلاملك » يتصفح جريدة « المقطم » ، الصحيفة المسائية التى كانت توزع فى بلدتنا صباحاً ، ثم يأخذ يقرأ كتب الدين والأدب ، أو يتعبد بتلاوة القرآن ، أو يستقبل الزوار الذين لا يبرحون يتوافدون ، وفيهم رجالات المدينة ، وأعيان القرى المجاورة وعلماؤها . .

وكثيراً ما كان « الشيخ » يستبقى بعض زواره للغداء معه ، فإن لم يكن ثم ضيف — وقلما كان ذلك — تناول غداءه معنا . .

وكنا نرحب باستبقاء « الشيخ » زواره للغداء معه ، ونفرح بمقدم الضيوف ؛ لأن هذا كان يشغله عن الغداء معنا ، ولا يضطرنا إلى تناول الطعام ونحن سكوت لا ننطق ، إلا ما يكون من سؤال قصير وجواب أقصر !

وبعد الغداء يتخفف « الشيخ » من ثيابه ، ويأوى إلى مضجعه ، فيغفو سويعات القيلولة ، فإذا ما استيقظ توضأ وصلى العصر ، وكرر ما كان فى الصباح ، فيجلس فى مقامه يقرأ صحيفة « الأهرام » التى كانت

تصل إلى منفلوط ساعة العصر ، ثم يأخذ يتعبد ويسبح ، حتى يبدأ الزوار يقبلون ؛ وهم طبقة خاصة ، تضم العالم الفاضل، والمربى الحكيم ، والتاجر الأمين ، والعين السرىّ .. وكلهم يجمع شملهم مجلس «الشيخ »، حيث يتحدثون ويتناقشون ويسألون ويجيبون ، ويروون اللطائف ، ويقصون النوادر ، ويناقشون أخبار الدولة والعالم ، فلا يغادر أحدهم المجلس إلا وقد أفاد علماً ، واكتسب فضلا .

ولست أذكر أنى سمعت مرة فى مجلس « الشيخ » نكتة يخجل المرء أن يرويها للصغير والكبير ، وللذكر والأنثى ، فهو مجلس الوقار والرزانة ، ومجتمع العلم والأدب الرفيع .

لقد كان بيتنا الكبير يفتح بابه فى الصباح ، ولا يغلق إلا فى ساعة متأخرة من الليل ؛ ولم تكن ترى فيه أو تسمع إلا كل شريف نبيل . .

استغرقنى التفكير . . وفجأة رأيت « مفتش الزراعة » يسقط عن كرسيه ، ورأيت أخى و « المأمور » يتعاونان على نقله إلى السرير ، فى الحجرة المعدة للضيوف . . ثم ما لبث « المأمور » أن استلقى على الأريكة أمام السرير ، وهو فى ثيابه الرسمية ، وغاب فى الأحلام !

وثارت فى أعماق حرب عنيفة من نوع جديد ، وهالتنى خبائث الحياة ، ونفرت من العيش ، مع كل ما يحفل به من رغادة ؛ وتمنيت لو كنت قطرة حقيرة ، فى مستنقع محجوب ، تبتلعها مراشف الشمس بخاراً ، لاترمقها عين ، ولا يكون لاختفائها صدى !

تكررت هذه الليالى الحمراء ، أو السوداء ، وصارت تقليداً أسبوعياً ، فكنت آوى إلى حجرتى ، وأطفئ أنوارها ، وأضطجع بحيث أرى وأسمع ، وقلبى يثب بين أضالعى ، ونفسى تثور بها الشهوات ، وروحى فى حزن ، وعقلى فى عذاب . .

وليلة مالت الخمر برؤوسهم ، وفقدوا صوابهم وتخدرت حواسهم ،

واعوجت ألسنتهم ، وخرج قيادهم من أيديهم ، وأنا لا أزال سهران أرقبهم . .

وسرت إلىّ العدوى ، وحدثتني الأمارة بالسوء أن أتذوق كأساً من هذه الخمر ، فلعلها تفعل بى ما تفعل بالمأمور ، فلا أعي ، ولا أبصر ، ولا أسمع !

تسللت إلى المطبخ ، وساومت الطباخ أن يأتيني بشيء من هذه الخمرة التي تفعل الأفاعيل ؛ فشرط الخبيث أن يأتيني بزجاجة لم يفضّ ختمها ، إذا سمحت له أن يحمل معه ما تبقى !!

واتفقنا . .

ورحت فى غيبوبة لم أصح منها إلا عصر اليوم التالى . .

يا لى من فتى سيئ الحظ ، منكود الطالع ، أحاطت بى زُمَر الغواية والضلال ، فعرفت المرأة الأولى ، وشربت الكأس الأولى ، وأنا لم أتم عامى السادس عشر ! .. والشاب — بعد أن يعرف المرأة الأولى ، ويشرب الكأس الأولى — قل أن ينجو من شر ، أو يفلت من خطر !

٩

لم يصرفنى ما حفلت به أيامى فى أسيوط عن قضاء عطلة آخر الأسبوع فى منفلوط . . وكثيراً ما تمارضت اليوم واليومين ، ليهدأ القلب الولهان ، حتى تأخرت فى دروسى ، ولحق بى من كان يعرج ورائى ، وسبقنى من كان يلهث ليلحقنى ؛ وأخذ النصح والتأنيب والتوبيخ ينصبّ علىّ من أبى ، ومن الناظر والمعلمين ، وأنا سادر فى غيى لا أبالى . .

وقبل امتحان التوجيهية بحوالى شهرين فوجئت — وأنا أستعد للعودة إلى

أسيوط ، بعد عطلة نهاية الأسبوع ، بأن « الحاجة » مسافرة معى ، لتزور أختى وأخى ، ولتستشير طبيباً إخصائيـًّا فى «مستشفى الأمريكان».

وأمى — رحمها الله ، ورضى عنها —كانت سيدة جديرة بالاحترام ، خليقة بالتقدير والتبجيل ؛ فهى كريمة الخلق ، سويّة الطبع ، معتدلة النفس ، سخية الكف . . . إنها أم فاضلة ، كنت أركع أمامها راضياً مبتهجاً . .

وكانت أمى تؤثرنى على سائر بنيها ، وتخصنى بموفور حبها وعطفها ، غير أنها كانت تعاملنى ، حتى ذيالك العهد ، وكأننى ما زلت هذا الطفل الصغير الذى كانت تدلله وتؤنبه فيما سلف !

حدثتنى أمى — ونحن فى القطار — أنها قد شاءت أن تريحنى من عناء الذهاب والإياب كل أسبوع ، لأتفرغ لدروسى ، وأحقق أملها فى أن أكون الأول فى امتحان الشهادة التوجيهية ، كما كنت الأول فى شهادة الثقافة ، وأنها قد رأت — ووافقها « الشيخ » — أن تسافر معى ، وتبقى إلى جوارى حتى ينتهى الامتحان . .

كان كلام أمى الهادئ البسيط أبلغ من كل نصح وتأنيب ، وأقوى أثراً فى نفسى التائهة ؛ فصحوت من غفلتى ، وجعلت أوازن بين صبرى على « هدى » ومستقبل دراستى وحياتى . . وكنت أملك بقية من عزم ، فعلمت أن فى استطاعتى أن أصبر على فراق « هدى » وإن فى مرارة وألم . .

عكفت على الدرس والتحصيل ، وأنا أغالب مراودة النفس ، ولوعة القلب ، وتحرق الجسد ، حتى أديت الامتحان واثقاً بالنجاح ، مطمئنـًّا إلى التفوق فيه . .

ثم عدنا إلى منفلوط . . وعادت « ريمة » إلى عادتها القديمة ! فاستأنفنا — أنا و « هدى » — حياتنا الآثمة فى شوق وصبابة ، وفى تهور واندفاع . .

ثم رأتنى أمى . .

كانت أمى قد صعدت إلى السطح ، ومعها « دادة قدم الخير » لتعدا الحجرتين المجاورتين لحجرتى ، استعداداً لاستقبال إخوتى وأخواتى الذين سيفدون إلى البلدة عما قريب ، لحضور اجتماع الأسرة السنوى ، ولقضاء فترة من إجازاتهم فى البيت الكبير .

ألقت « الحاجة » نظرة على حجرتى ، ورتبت ثيابى وكتبى المبعثرة ، وهمت بالهبوط ، وهى تظننى أقلب كتب « الشيخ » فى « السلاملك » ، أو أشذب الأشجار ، وأروى الأزهار فى الحديقة . . لكنها لم تكد تستقبل فضاء السطح حتى رأتنى أقفز الحائط كاللص ، عائداً من سطح « هدى » !

فهمت أمى كل شىء ، فقد كان مظهرى أبلغ دليل على جنايتى ، لكنها تظاهرت بتصديق ما زعمته من أن ورقة تهمنى قد طارت إلى سطح الجيران ، فقفزت وراءها لالتقاطها ، غير أن الهواء قد ذهب بها . .

وأغنتنى نظرتها عن كل كلام ؛ وكان سكوتها أقسى عقاب ؛ لأنه ترك خيالى فى حيرة يقدر ما يدور فى ذهنها .

منذ ذلك اليوم بدأت أنكر مهد طفولتى ، وملعب صباى ، وأخذت أضيق بما أحطت به من رعاية ورقابة ! وأهاب بى الارتياع إلى استعجال الهرب ، فحزمت حقيبتى ، وذهبت إلى القرية ، حيث يقيم شقيقى « سيد » ، وسائر الأهل والأقربين . .

و « سيد » هو رابع الإخوة الذكور السبعة ، وقد وقف فى تعليمه عند شهادة الكفاءة — وكانت تسبق « البكالوريا » بعامين — ورغب عن الدرس ، ومال إلى الحياة الحرة فى الريف ، فوكل إليه « الشيخ » الإشراف على الزرع والضرع . .

وقد تزوج « سيد » فى سن مبكرة ، فحفظ طهارته لزوجته ، ورزقا أربعة أولاد ، يعيش اثنان منهم مع جدتهما « الحاجة » فى « البندر » ويدرسان فى المدرسة الابتدائية . .

و « سيد » مثال يحتذى للمالك الطيب ، ورب الأرض النشيط ، والتاجر الأمين ؛ فهو عف صالح كريم ، يتجر فيما تحت يده من الحلال ، وينفق من سعته ، ويعين الفلاحين ، ويعطف على الأجراء ، ولا يضيف إلى مال الأسرة قرشاً فيه شبهة أو ريبة ؛ فبارك الله له ، ونمت الثروة على يديه ، وأحبه الجميع ؛ ووهب له « الشيخ » عشرة أفدنة مكافأة وتشجيعاً ، ولكى يصير « عمدة » القرية ؛ فقد كان القانون يحتم يومذاك أن يملك العمدة عشرة فدادين مسجلة باسمه ، وإن كان تسجيلا « صوريـًا » .

وكان سائر الإخوة يلجئون إلى العمدة فى أزماتهم المالية ، يرجونه ويتملقونه حتى يفرج ضائقتهم . وكان هو يسخر منهم قائلا : « إن الموظفين كل عشرة بقرش » !

* * *

فى القرية رحت على حرب ضروس بينى وبين نفسى ، وبينى وبين الناس أجمعين . . فأنا دائماً ناقم متبرم ، شارد اللب ، حزين النفس ، لهيف القلب ، آهاتى تترى ، وزفراتى متوالية ، ولا من أسمعه شكاتى ، فيصغى إلى بثى . .

هل ينهى عزمى عن مرتبة السلوان ؟ ! . . لست أدرى ! . . فقد مرت بى الأيام كأنها دهور !

ثم عدت إلى « البندر » لأشترك فى اجتماع الأسرة ؛ فأنا أصغر أولاد « الشيخ » و « الحاجة » ، وأصغر الأعمام والأخوال ؛ و « آخر العنقود » له فى محيط الأسرة مقام أى مقام . فلما هممت بالصعود إلى

حجرتى فى الدور الأعلى ، قالت لى أمى : اسمع يا « عبد الرحمن » . . أنا نقلت حاجاتك إلى الحجرة التى تجاور حجرة « الشيخ » . .

وأضافت ، كأنما تعلل لما قالت : أختك «إحسان» وزوجها وأولادها يصلون غداً ، وأنا اخترت لهم الشقة العليا . .

كانت مفاجأة أذهلتنى ، بل صعقتنى ! . . فما إن دعانى شقيقى الأكبر « الدكتور مصطفى » ، مفتش صحة مديرية الدقهلية ، إلى قضاء العطلة فى المنصورة حتى عددت دعوته نعمة جليلة ، تعلقت بها كأنها طوق نجاة يخلصنى من الضيق الخانق الذى كنت أعانيه !

١٠

فى المنصورة عقدت صداقات مع أندادى من الشبان وأبناء الحكام والأعيان ، واندمجت بينهم ، وترددت على نواديهم وملاعبهم ، وشاركتهم فيما يأتون من ضروب اللهو والرياضة ، والمرح والسمر ، وزالت بينى وبينهم الكلفة ، وصرت كأنى أعاشرهم منذ سنين ؛ فقد عرفت بفرط لباقتى ، وبذخيرتى من اللطائف والطرائف والنوادر ، وبفنون الثقافة التى كسبتها بمطالعاتى ، وبالاستماع إلى ما كان يدور فى مجلس «الشيخ» — عرفت بهذا كله كيف أنسجم وشباب المنصورة ، من طلاب المدارس الثانوية والجامعة ، وأبــرز بينهم ، وأملك الدالة عليهم ، حتى أطلقوا علىّ لقب « الجوكر » ، وودت كل طائفة منهم أن أكون بينهم . .

وفى المنصورة رأيتها . . كانت جالسة إلى مائدة منعزلة ، أو تكاد ، فى أحد أركان حديقة النادى ، ترشف كأساً من العصير ، وتضاحك فتاة

صغيرة ، وعيناها تائهتان فى أفق بعيد . .

سألت رفيقى : من هذه الحسناء النافرة ، والغزالة الشاردة ؟

فنظر إليها نظرة تطفح بالغيظ والحقد ، وقال : هذه المغرورة المتعجرفة ؟ ما أثقل دمها! وما أبرد طلعتها ! .. إنها «نعيمة» بنت «شرف بك عبد التواب» .. ما أشد غرورها ! وما أسخف اعتدادها ! .. إنها تظن نفسها أذكى بنات المنصورة ، وأوفرهن جمالا .. بل تعتقد أن ليس على الأرض أنثى تعدلها ، أو تدانى حظها من الرقة والجمال .. إنها لا يملأ عينها شاب من كل هؤلاء الفتيان .. لا يعجبها العجب ولا الصيام فى رجب !

كنت أتأمل رفيقى ، وشفتاه ترتجفان ، والألفاظ تتطاير منهما فى حنق مكتوم ، وغيظ مكظوم ، فعلمت أنه يثأر بجرح خفى عميق .

وطاب لى أن أزيد فى غيظه ، فقلت : أهذه هى «نعيمة» بنت «شرف بك عبد التواب» ؟ ! ما أجملها ! وما أبهاها ! . . كم ذكرتها زوجة أخى «الدكتور مصطفى» ، وكم حدثتنى عنها ، وكم أثنت عليها الثناء العاطر ، وخصتها بفيض من الصفات الطيبة ، وقالت : إنها «بنت ناس» ، ذكية مجتهدة ، هادئة وديعة ، عاقلة أريبة . . وإنها بلغت الغاية فى الجمال والكمال ؛ ثم دعت لى : «ربنا يجعلها من قسمتك ونصيبك» ! . .

فأسرع رفيقى يقاطعنى مهتاجاً : «حيلك ، حيلك ! . . كان غيرك أشطر» !

* * *

كنت قد رأيت «شرف بك عبد التواب» حينما زار أخى فى بيته ، بعد يومين من وصولى إلى المنصورة . . وكان لطيفاً معى يوم ذاك ، وعاملنى كأب ، ودعانى إلى داره ، لرؤية أبنائه ، قائلا : إنكم متقاربون فى السن .. وستقضى معهم أوقاتاً طيبة .. إن حديقة قصرنا واسعة ، وفيها صيد كثير ..

ومرت أيام بعد أن رأيت « نعيمة » فى حديقة النادى . . ثم زرت قصر « شرف بك » فى صحبة شقيقى وزوجه ، وهناك التقيت بأولاده : « طارق » و « نعيمة » و « فائزة » ، والطفل اللطيف « أحمد » ، وبأمهم السيدة الفاضلة ، الجميلة الأنيقة .

وما لبثت عرى الود والصداقة أن توثقت بينى وبين الشاب « طارق » ، الطالب بالفرقة الثانية بكلية التجارة ، بجامعة القاهرة ، وشقيقته « نعيمة » التى أدت — مثلى — امتحان التوجيهية هذا العام . وقد آثرنى الإخوة بودهم ، وآثرتهم بمحبتى ، فكنا نلتقى كل يوم غير مرة ، فى النادى ، وفى « الكازينو » على شط النيل ، أو فى قصرهم المشيد ، وحديقته الفيحاء . .

أكانت « نعيمة » حسناء ؟ . . إنها أكثر من حسناء . . إنها وافرة الحسن ، فياضة الظرف ، خليقة أن تكون إلاهة من إلاهات اليونان القدامى ! . . وجهها كثير الجاذبية ، بالفم الصغير ذى الشفتين الشهيتين العاريتين عن كل طلاء صناعى . . بالجبهة العريضة الملساء . . بالعينين الزرقاوين الفاترتين ، ترسلان سهاماً تصمى الأفئدة . . بالأهداب الكثيفة تسكب السحر والفتنة . . بالشعر النحاسى ، تتصاعد منه شرارات براقة ، فيخاله الناظر تاجاً من الذهب ، يكلل هامة هذه الفاتنة الساحرة . . ثم بشرة فى لون الورد ، وهالة من الجاذبية والكبرياء تحيط بحركاتها ولفتاتها ، وحديث ناعم يجذبك إلى شركها ، فتندفع إليه اندفاعاً ، وتلقى بين يديها قلبك صاغراً !

إن « نعيمة » فتاة قلما تجود الأرحام بمن تعدلها ، فهى جميلة بثقافتها ، وحديثها ، وأناقتها ، ورقتها ورزانتها ، قدر ما هى جميلة بجسمها ، ووجهها ، وشعرها ، وابتسامتها . .

* * *

كنت أظن — بعد تجربة « هدى » — أنى فى مناعة من الحب السريع ، لكن القلب الإنسانى — كما تبينت — لا يستطيع التحصن ضد أنواع معينة من الحب ! فقد ملأت صورة «نعيمة » خيالى ، وطفقت أهمس باسمها فى يقظتى ، وأراها فى أحلامى ، وأخاطبها كأنى أخاطب حاضراً أمامى . .

وكانت رؤيتها تحرك فى نفسى شعوراً داخلياً عميقاً ، وتجعلنى أحس متعة هنيئة ، وبهجة متجددة ، تحيي القلب ، وتبعث على النشاط فى وداعة ورقة ، وتشيع فى كيانى الحياة الزاخرة بالعاطفة والنشوة .. غير أنى كنت — مع هذا — أراها لغزاً يستعصى على فهمه ، فهى مزيج من مكر وسذاجة ، وربة مداعبات بارعة لم أكن أدرى : أهى مداعبات بريئة تدل على صفاء النفس ، ونقاء القلب ، أم ملاعبات جريئة تبعثها خطة خبيثة ، تبغى إذلال نفسى ، والسيطرة على قلبى ؟ !

لم أستطع فى الماضى أن أصل إلى جواب عن هذا السؤال ، وما استطعته إلى اليوم ، وربما لا أستطيعه غداً ! . . فبعد خطيئتى مع « هدى » تبدلت القيم فى نفسى ، وتغيرت نظرتى إلى الأمور ، ولم أعد أفرق بين الحب والجنس !

١١

الليلة ليلة العيد . . عيد ميلاد « نعيمة » . . وها هى ذى أسرتها تحتفل بهذا العيد احتفالا بهيجاً ، وتدعو بعض الأهل والأصدقاء إلى وليمة شهية ، وجلسة سمر لطيفة . .

وكنت أنا وشقيقى « الدكتور مصطفى » وزوجه من بين المدعوين :

والأعيان فى ذلك الزمان كانوا – مثل « شرف بك » – يحرصون على أن تتوثق صلتهم بالحكام ، فينتهزون كل فرصة تسنح ، بل كانوا يخلقون المناسبات ، ليقيموا الولائم والحفلات ، يدعون إليها كبار الموظفين ، تمكيناً لجاههم ، وتسهيلا لقضاء مصالحهم ، وزيادة فى هيبتهم ، وتثبيتاً لسلطانهم على العمال والفلاحين وصغار الموظفين !

ضمتنى والإخوة الثلاثة : « طارقاً » و « نعيمة » و « فايزة » ، وأصدقاءهم ذكراناً وإناثاً ، مائدة واحدة ، فى حجرة نائية عن حجرة الكبار ، فتناولنا العشاء فى بهجة وانشراح : الطعام شهىّ ، والحديث طلىّ ، والوجوه صباح ، واللهو مباح . .

وفيما نحن نغادر الحجرة همست « نعيمة » فى أذنى قائلة : الزمنى ، لا تتركنى . . سيلاحقنى « فاروق » ويضايقنى بسخافاته . .

ثم تفرقنا فى الحديقة مثنى وثلاث ورباع ؛ وصحبت أنا « نعيمة » ، و« فاروق » يلاحقنا . . وكنت قد تحدثت إلى « فاروق » هذا غير مرة ، لكنى لم أكشف إلا الليلة أنه – حقًّا – ثقيل الظل ، جامد النسيم ، وغبى أيضاً . . وكان يضاعف ثقله أنه يحاول أن يستر غباوته وراء الادعاء والكبرياء ، ناسياً – أو متناسياً – أن الكثيرين يجاملونه ، لأنه ابن « سعادة الباشا » المدير !

ضربنا فى أرجاء الحديقة الواسعة ، ونحن نتحدث عن المستقبل ، وآمالنا العريضة فيه . .

وفجأة أقبل خادم يصيح : « يا فاروق بيه ، يا فاروق بيه . . التليفون يا فاروق بيه » . .

ارتد « فاروق » إلى القصر ، وسرت و « نعيمة » ، حتى انتهينا إلى كوخ خشبى قديم ، بقرب سور الحديقة الغربى ، تحيط به شجيرات قصيرات ، فوقفنا حياله . .

قالت « نعيمة » : هذا « الكشك » كان مأوى بواب القصر ، فى عهد جدى « عبد التواب باشا » . . والباب الرئيسى للقصر كان هنا . . هذه آثاره .. فلما عبِّد الشارع الجديد فى الجهة الشرقية ، جعل والدى الباب الكبير هناك ، و بنى المدخل الجديد وما فوقه . .

ونظرت إليها ، ونظرت إلىّ . .

كانت الطبيعة قد تبرجت من حولنا ، ورقصت أمامنا ، وخدرت حواسنا بنشوة عطرها الفاسق ، ولم أكن فكرت فى هذا الموقف ، ولا رتبت له . .

ماذا يفعل عاشق صغير يصور له خياله الغنىّ الجامح ما خفى من مفاتن غانيته ، تصويراً جذاباً ، كله إغراء بجمال القلب ، وترغيب فى جنة الحب ؟ !

إنها لدنيا عاطرة فاغمة ، تترامى طيوبها من كل صوْب ، فتضاعف عندى الشعور بالجمال ، وتحرك فىّ الإحساس بالفتنة ، وتبعث فى صدرى الأمل بنعيم الحياة ، وتناديني إلى التمتع بها !

فى وجه هذه الدنيا — دنيا الحسن ، والعذوبة ، والرقة ، والحب — وقفت مشدوه اللب ، قد صرعتنى الفتنة الغامرة ، ونعم قلبى المطل على رواء الحياة باللطف الحالم ، والنفور الحلو ، والإقبال الظريف . .

انبسطت أمام الطبيعة ، والحب ، والحياة ، والأمل . . وانطلق لسانى فاندفعت أنشد « نعيمة » من شعر الغزل والحب ما ينشرح له صدرها ويضطرب به فؤادها ، والدم يغلى فى عروقى ، ويتصاعد إلى وجهى . وهى تصغى مبتهجة راضية ..

رفعت إلىّ عينيها الفاترتين بأهدابهما الطويلة ، وتبسمت ، فمسحتُ على شعرها بيد ، و ربتّ كتفها بيد ، واحتضنتها . .

فوجئت « نعيمة » بهذه الحركة مفاجأة أذهلتها ، وشلت أعضاءها ،

وحالت دون عقلها أن يفكر ، ودون لسانها أن ينطق ، فارتمت على صدرى ، وأمالت رأسها على كتفى . . وتعانقنا عناقنا الأول ، وتلاقت شفاهنا فى قبلة حوت كل عذوبة اشتهتها العاطفة !

ثم أفلتت من بين أحضانى ، وركضت بين الأشجار فى خفة تغرى ، ودلال يثير ، وارتمت على البساط الأخضر . .

كنت قد أدركت بعض الحنكة ، وفهمت بعض ضروب الإغراء التى تتقنها حواء فى كل سن ، وفى كل مكان ، وتدل بها على الرغبة ، وهى تظهر التمنع والجموح !

وعدوت وراء « نعيمة » . .

كان ثوبها قد انحسر عن ساقيها البضتين ، وكان صدرها يعلو ويهبط . . فوقفت أنظر إليها نظرة السبع إلى فريسة مشتهاة . .

وفجأة لاح فى خيالى طيف « هدى » ، وتيقظت فى خاطرى صورة شبح لعين . . ما أقبح هذا الشبح ! شبح الخيانة والخطيئة !

ارتعشت . . وصرت صنماً لا يتحرك . . ودار رأسى ، وأوشكت أن أفقد وعيى . .

وكان يتنخل من بين الغصون شعاع رقيق شاحب من نور القمر ، فرأيت « فاروقاً » عائداً إلينا ، فى صمت وهدوء ، وكأنه يتجسس علينا ، فرفعت صوتى أناديه ، فأطلق شفتيه بصفيره المعهود . .

كم حمدت لهذا الغبى عودته ، وكم حسبتها مكرمة غفرت له بها كل ثقل دمه ، وغباوة عقله ، فلقد أنقذنى من خطر كبير !

ثم أقبل علينا « طارق » ، وبرفقته فتى لم أره من قبل ، بين من التقيت بهم فى المنصورة ؛ وقدمه « طارق » قائلا : المهندس « محسن » . . ابن عمتى . . وصل الآن من الإسكندرية ، ليشارك خطيبته « نعيمة » فى عيد ميلادها . .

ويلى ! . . « نعيمة » — إذاً — مخطوبة .. وهذا « محسن » ابن عمتها . . خاطبها اليوم ، وزوجها فى الغد !

وتبددت أحلامى اللذيذة ، وتكسرت أطيافها فى حنايا نفسى المتألمة ، فكبتّ ما فى قلبى من حب ، وأمسكت على ما فيه من أسى عميق . .

ثم ظهرت نتيجة التوجيهية ، ونجحت . . ونجحت « نعيمة » . .

وفارقت المنصورة موجع القلب باكياً !

* * *

على طول الطريق بين المنصورة والقاهرة ومنفلوط كنت مأخوذاً ، مسلوب اللب ، قد ضاع منى كل رشد ، وخاننى كل جهد ، وأنا مخمور بمرارة الألم ، أبحث عن نفسى فى تيه الزمان والمكان على حد سواء . .

يا لقسوة الأيام ! إنها لتعبث بالإنسان كيف تشاء ؛ فبينما يرى الواحد منا أن الأمور تسير سيراً حسناً ، وأن كل شىء على ما يرام ، إذا الأقدار تتدخل فتغير مجرى الحوادث ، وتهدم الأمانى والأحلام ، ثم تعود فتمنحنا فرصة نمنى فيها أنفسنا ، ونبنى آمالنا من جديد ، لتعود فتهدمها . . وهكذا دواليك ! ..

آه ! لو أستطيع أن أقاوم أهواء نفسى ، وأقتل ميولها ، وألوى عن جميع أمانى العذاب ، لكنت — إذاً — سعيداً !

إن ما سُكب فى نفسى أيامئذ من الهوى والصبابة ، وما نزل بقلبى من الهم والأسى ، كان أكثر مما فى وسعى أن أحتمل .. وبرغم ما كان يملأ صدرى شعرت فى أعماقى بذلك الحنين الملح إلى الحب والرغبة فيه ..

وتحركت فى خاطرى ذكرى « هدى » . . وأحسست نحو هذه الفاتنة شوقاً جديداً يتمشى فى كيانى ، وأنشأ خيالى وقلبى يذيعان محاسنها وفواتنها موّاجة بالروعة والرواء . .

أواه ! . ألا تزال حمرة الورد تصبغ خديها ، وزهو الفراشات يرف على ثغرها الباسم ؟ ! . . وعيناها المليحتان . . ألا تبرحان تنظران فى حنان ودفء ، وتتألقان بالدعة والإغراء ؟ ! . . وصوتها الحنون . . أيتحدث أيضاً عن متع الحياة ، وهناءة الحب ؟ ! . . والمرح اللطيف والرقة الحلوة ، والجسد الريان العاطر .. من يكون ذاك الذى يلتهمها اليوم بأنظاره وقلبه ؟ ومن يكون الحبيب الذى تضمها ذراعاه غريضة الصبا ، عاطرة الأنفاس ؟ !

كثيرون يقوون على هذا كله ، لكنهم لا يقوون مثلى على الحب ؛ فالحب من شأن القلب الشاعر ، والحس الرقيق !

لجّ طيفها فى الإغراء ، ولج قلبى فى التساؤل . . وتمثل لى زوجها السكير العربيد ، فجننت بالغيرة . .

وأغمضت عينىّ على طيوف تنبع من نفسى ، وتجرى متلاحقة فى خيالى . .

لكم أود لو أختنى و « هدى » الفاتنة بين السحاب الأبيض الجميل ، أو يضمنا زورق يتوه فى عرض البحر البعيد ! . . إذن نقبل على الحياة ما اتسعت لنا الحياة ، أو نستغرق فى عناق محموم ، ونفنى معاً على قبلة طويلة تختصر العمر كله ، فى قلب الموج الموّار ؛ فلا فرق بين الحياة والموت ، إذا الموت وافانى و « هدى » فى قلبى وفى أحضانى !

١٢

وافجيعتى ! واحنينى إلى الأيام الخوالى ! وا أسفاه على ذلك العهد الحبيب ! .. أحقًّا تقضت تلك المباهج والأحلام ، ولم يبق منها إلا ذكرى نوّاحة ، جاثمة على صدرى ، تسكب على روحى اليأس ،

وتمد قلبي بالحسرات ؟ ! . . أحقًّا تركت « هدى » البيت ؟ بل تركت البلدة كلها ؟ !

لا إخال حادثاً من حوادث الأيام كان أشد وقعاً على قلبي ، ولا أبلغ أثراً في نفسي ، من هذا الفراق الذى لم أتزوّد له !

لقد رضّ روحي هذا الحادث رضًّا ، حتى أحسست كل صلابة فيّ قد تداعت ، وكل رجاوة قد تعست ؛ وركبني الهم والغم ، وامتلأت نفسي كآبة وشجناً ، وضعضعتني حمى جموح ، خلخلت لفائف الحجا ، فلزمت السرير كأني مضغة في أشداق النار !

وقلق أبي ، وناحت أمي ، وأطلقت الدمع السخين . . ولزمتني « دادة قدم الخير » ترطب فوديّ وجبهتي بالخل البارد ، فاستمعت إلى ما تحرك به لساني من هذيان ، وما تفجر على شفتي من كلمات ملتوية البيان . .

ومرت أيام . . ثم رحمت الأقدار أبويّ المتداعيين هلعاً ، فسكبت على مهجتي نداوة البرء ، حتى دلفت إلى العافية . .

ويوماً حدّقت « دادة » إلى عيني مليًّا ، وفجأتني قائلة : كيف تركت هذه المرأة تسرق فضيلتك ، وتشوّه طهارتك ؟! » . إنها استحقت ما جرى !

— ماذا تقولين يا « دادة » ؟ ! . . ماذا جرى ؟ ومن هذه المرأة التي تقصدينها ؟ !

صمتت لا تجيب . . فأخذت أتوسل إليها ، وأتوسل ، حتى انفرجت شفتاها ، وجعلت تقص الأمر كله . .

قالت : شكّت « الحاجة » في صلتك بهذه المرأة « هدى » — لعنها الله ! — من يوم أن رأيناك تنط الحاجز بين السطحين ، وخافت عليك ، فنقلت حجرتك إلى جنب حجرة « سيدى الشيخ » . .

ولما حضر أخوك « الدكتور مصطفى » وصّته « الحاجة » أن يأخذك

معه إلى المنصورة ، لتقضى الإجازة هناك ، حتى تظهر نتيجة الشهادة . . سافرتم أنتم من هنا ، وسافر « سيدى الشيخ » وراءكم إلى مصر . . ولم يرجع إلا بعد ما صدر أمر رئيس النيابة الكبير بنقل المغفل « عزيز » إلى الصعيد الجوانى . . إلى قوص . .

وبعد لحظة صمت استطردت تقول : وكنت أنا أهوّن الأمر على « الحاجة » ، وأؤكد لها أن ابنى المؤدب التقىّ لا يعمل الشين والمنكر ؛ فكانت تقول : قلبى يحدثنى يا « قدم الخير » ، وقلب المؤمن دليله ، والوقاية خير من العلاج ، على كل حال ! . . وقد صدق ظن « الحاجة » .. فأنت فى هذيان الحمى كنت تقول : « هدى » ، « هدى » .. كنت تردد اسم هذه الملعونة ، فكشفت نفسك ، وأفشيت سر قلبك . . الحمد لله — يا ولدى — على سلامتك . . وألف حمد لأنه ما سمع هذيانك غيرى . . أتظن — يا ولدى — أن المرأة « هدى » كانت تحبك ؟ . . إنها ما كانت تحب إلا نفسها . . لقيت فيك ما يشبع دناءتها . . المجرمة طمعت فيك ، لأنك « قرص حلاوة » ! . . الملعونة ما كان يهمها ما يصيبك ، وأنت غصن طرىّ . . كان كل همها أن تروى عهرها . . سافلة ! ساقطة !

أخفيت وجهى بالوسادة ، وأنا كالمصعوق حيال هذه الويلات الطواحن وأرتج علىّ ، وتخلخل إدراكى ، وجاوز الهول مداه ، فما استطعت غير البكاء والنواح ؛ و « دادة » لا تنفك تهون علىّ الخطب ، وتحاول أن تخفف أساى وجواى .

و « دادة قدم الخير » هذه قد دخلت بيت « الشيخ » قبل أن ندخله نحن أولاده ، فقد دخلته كاعباً تصغر أمى بسنتين أو ثلاث سنوات . . جاءت مع « الجهاز » وكأنها قطعة منه ! إذ كان من عادات الأسر العريقة — عند تزويج بناتها — أن ترافق العروس جارية أو أكثر . .

وبهدت « قدم الخير » فزوجها « الشيخ » من « مرسال » ، آخر من بقى من سلالة « عبيد » جدى ، الذين ورثهم « الشيخ » فيما ورث من مال وعقار . .

وترقى « مرسال » ، وصار خادم « الشيخ » الخاص ، يعنى بخدمته ، ويرافقه فى إقامته وسفره ؛ وترقت « قدم الخير » وصارت مدبرة البيت الكبير ، تعين أمى ، وتشرف على الشغالات الأخر ، حتى عادت إلى البيت أختى « رقية » ، وقد ترملت ، وترك لها زوجها ولداً فى العاشرة ، ودخلا طيباً من معاش وأملاك ؛ فتولت هى إدارة البيت ؛ وقنعت « دادة » بأن صارت وصيفة « الحاجة » وأنيستها . .

رحم الله « دادة قدم الخير» ! لقد حملتنى ، وحملت إخوتى وأخواتى من قبل ، على يديها المباركتين ، وصدرها الحنون ، وأرضعتنى لبنها ، وكانت لى أمًّا ثانية ، أتوسد كتفها أو وركها أو ذراعها ، وأنام وأنا أصغى إلى حكاياتها عن « الشاطر حسن » و « بنت السلطان » ، و « طاقية الإخفاء » و « خاتم سليمان » !

وضاعف من حنانها علينا أن أولادها كانوا لا يكادون يبلغون الرابعة أو الخامسة حتى يتخطفهم الموت . . ولم يعش لها سوى « ياسين » و « عيشة » ؛ أما « عيشة » فهى فى مثل سنى ، وقد رضعنا معاً ؛ ولهذا كانت ذات حظوة بين أهل البيت . . وأما « ياسين » فيكبرنى باثنتى عشرة سنة ؛ وقد رعاه « الشيخ » منذ طفولته ، وأرسله إلى « الكتّاب » فالمدرسة « الأولية » ؛ ثم جعله معاوناً لشقيقى « سيد » فى رعاية الأرض وإدارة الأملاك . فلما صار « سيد » عمدة القرية اتخذ « ياسين » خفيراً خاصًّا يرافقه فى حله وترحاله . .

رحم الله « دادة قدم الخير » ! لقد أخذت تقلب معى الأمر على مختلف وجوهه ، حتى تبينت أن مصابى مصاب عام ، يعرفه الناس ،

وشرٌّ يألفونه ، لكننا — إذ نتألم ونحزن — تطغى علينا أمواج التشاؤم ، ولا نعود نفكر إلا فيما يحيط بنا من أسباب الهم ، نلتمس فيها مادة لإذكاء التحرق والتلظى ؛ ونتخيل — من حماقتنا — أنه لا أحد أحس حزننا من قبل ، ونتصور — من غفلتنا — أنه لم يقع لأحد أن شهد ألمنا ، أو عانى حر همومنا !

رحم الله « دادة قدم الخير » ! لقد دلت على أنها ذات قدرة بعيدة على تضميد جراح القلب ، وبعث الحياة فى الضمير الميت ، وإضاءة ظلمات النفس الحائرة ، بما تبثه فيها من أمل مشرق ، ومستقبل بسام . .

١٣

جئت إلى القاهرة وأنا على رأى جديد ، وعزيمة قوية ، ورغبة صادقة فى أن أحيا حياة الطيبين الطاهرين ، وأنعم بلذة الفضيلة ، وأرفع الفضائل الحسية فى ذاتى إلى أوج العظمة . .

وكانت عادة « الشيخ » فى تعليم أبنائه ، أن الذين يتعلمون منهم فى أسيوط يقيمون بمنزل أختنا « إحسان » ، فى كنفها ورعاية زوجها الفاضل « الدكتور فتحى » الذى نكنّ له جميعاً أصدق الحب والتقدير ، لما يتحلى به من كريم الخلال ، ولأنه زوج أختنا الكبرى . .

أما الذين يتلقون دروسهم العالية فى الجامعة فقد شاء « الشيخ » أن يعد لهم شقة خاصة فى حى الدقى ؛ فالأولاد — كما قال — « قد صاروا رجالاً يعرفون حقوقهم وواجباتهم ، وفى استطاعتهم أن يرعوا أنفسهم » . . والحقيقة أن « الشيخ » لم يشأ أن نقيم فى منزل أخيه « إسماعيل بك » ، لئلا نقتدى بأولاده ، فى رخاوتهم وحريتهم ، التى

كان يسميها « قلة أدب » !

أثث « الشيخ » الشقة تأثيثاً عصريًّا ، لتليق بأن ينزل بها ، ويستقبل فيها زواره ، كلما وفد إلى القاهرة ؛ واختار أحد الأتباع الأوفياء ، الذين رعاهم منذ حداثتهم ، وقربه إليه لإخلاصه وأمانته ، وزوّجه فلاحة كان يودها ويتمناها ، ثم وكل إليهما القيام بأمر الشقة وخدمة أبنائه الذين يسكنونها . .

إنى لأذكر بالخير هذا « التابع محموداً » ، وزوجته « فاطمة » . لقد كانا أمينين نشيطين ، عنيا أشد العناية براحتنا ، فما شكونا منهما ، ولا تبرما هما بنا . .

أقام « محمود » و « فاطمة » فى الشقة الأنيقة ، يستقبلان الإخوة واحداً يلحق الآخر ، ويعيشان فى نعمة يحسدهما عليها الكثيرون ؛ ففى تلك الأيام البعيدة كان راتب معلم المدارس الإلزامية أربعة جنيهات فى الشهر ، ينفق منها على نفسه وأسرته ، من مأكل وملبس ومسكن — فى تلك الأيام كان التابع « محمود » هذا يتقاضى جنيهاً ونصف جنيه فى الشهر ، فوق الغذاء والكساء والسكن . .

وقدر « محمود » و « فاطمة » هذا النعيم الذى كانا يتقلبان فيه حق قدره ، فصبرا على إساءة الإخوة ، واحتملا — بدون تذمر — ما كنا نوجهه إليهما من قوارص الكلم ، ولواذع التوبيخ ، وضروب الإغاظة . . بل كانا لا يزدادان إلا صبراً وجِدًّا . .

واقتصد « محمود » مبلغاً من المال يعد — فى نظره — ثروة ، فنصحه الناصحون غير مرة أن يتخذ لنفسه مطعماً شعبيًّا ، أو مقهى بلديًّا ، فى أحد الأحياء الوطنية ، لا يدل ذل الخدمة ، وإمارة السادة ؛ فكان يرد عليهم بأنه تابع لا خادم ، وأنه مستريح فى حياته الراحة كلها ، وأنه يربح أكثر مما يدره المطعم أو المقهى ، بدون أن يعانى « إمارة الزبائن » وشجارهم ،

ومغالطاتهم . . فضلا عن أنه يعد نفسه ولى أمر السادة !

استثمر « محمود » مدخراته فى تربية الماشية وتجارة البهائم والحبوب ، فنمت ثروته وتضاعفت ، حتى ملك فدانين وثلاث جواميس ، وعلّم ابنه الأكبر حتى حصل على شهادة الكفاءة ، وأصبح كاتباً محترماً فى المحكمة الجزئية . .

و « محمود » اليوم شيخ هِمّ ، قد جاوز الثمانين . . وكان — إلى ثلاث سنوات مضت — يزور الإخوة الذين خدمهم زورة فى كل عام ، فيهشون للقائه ويبشون فى وجهه ، ولا يتبرمون بزيارته ، بل يبرونه ، وهو فرح بنا وبأولادنا ، يداعبهم ، ويدعو لنا ولهم ، ويترحم على « الشيخ » و « الحاجة » ، ثم يعود إلى زوجته وأولاده حاملا ما يفرحهم وينفعهم ، فيعلو حمدهم ودعاؤهم .. ولا يبرح يردد — ويردد معه زوجه وأولاده — أن برّ « الشيخ » به هو الذى رفعه من أجير يفلح الأرض بالفأس ، من مطلع الشمس إلى مغربها ، إلى مالك يستخدم فى أرضه الأجراء . .

رحم الله « الشيخ » و « الحاجة » ورضى عنهما وأرضاهما !

* * *

أقمت فى القاهرة مع شقيقى «عبد الحميد» الذى لم يبق على تخرجه فى كلية الطب إلا أشهر معدودات . .

و «عبد الحميد » — كأختى « سميرة » — أحب إخوتى إلىّ ، وأقربهم إلى قلبى ، فهو صورة مصغرة من « الشيخ » فى ورعه وتقواه ، وفى إعانته الضعفاء ، وبره الفقراء ، وحبه الخير ، وسعيه فيه جهد طاقته . .

والساعة — وأنا أكتب عنه — أذكر لسقراط كلمة مأثورة ، هى قوله : « أثمن هبة يحوزها الإنسان صديق وفى » ! . . والحق أن « عبد الحميد » — مد الله فى حياته — شقيق وصديق ، ضرب لى المثل الأعلى بسلوكه القويم ، وجده الفائق ، وطهارته المثالية ، فعالج نفسى

من بعض أدوائها علاجاً ناجعاً ، وأبرأنى من جراثيم الشك ، وردنى إلى نور الإيمان ، وحياة العفة والنقاء . . ولا أذكر أننا تنازعنا مرة إلا لانصرافى عن الصلاة أحياناً ، أو لتهاونى فى إقامتها لوقتها . .

كان يوقظنى يوم الجمعة من النيمة الحلوة ، لأغتسل وأتطهر ، ثم أصحبه إلى المسجد لنتعبد حتى نؤدى الصلاة . .

وكان يدعونى إلى مرافقته فى تردده على « جمعية الشبان المسلمين » ، ويدفعنى إلى الاشتراك فى ضروب النشاط الدينى والرياضى والاجتماعى ، حتى برزت فى السباحة ، وعلقت المصارعة وكرة السلة ، وضاق وقتى عن التفكير فى غير الدرس والرياضة . .

ولم يكن « عبد الحميد » يترك لى « راحة بيضاء » أتحرر فيها من رقابته إلا ساعات معدودات فى الأسبوع ، بعد أن يعرف وجهتى وقصدى ، وبعد أن يأخذ على العهد الوثيق ألا أتكاسل عن الصلاة ، أو يشغلنى شاغل ما عن أدائها لوقتها . .

لقد وصته أمنا أن يرعانى ، ويراقبنى ، ويحثنى دائماً على القيام بشعائر الدين ، وأن يكتب إليها بأحوالى كلها بدون إبطاء ، وقالت له : « أخوك جميل وقوى ، والبنات سوف يعجبن به حتى الجنون » ! .. ووصته « دادة قدم الخير » قائلة : « فتح عينك عليه ، وأعطه بالك ، حتى لا تخطفه بنات مصر وتسهويه » !

ومن ثم كانت « راحتى البيضاء » ، التى أتحرر فيها من رقابة « عبد الحميد » وتوجيهاته ، لا تعدو مرافقة بعض الزملاء إلى دور السينما وملاعب التمثيل ، أو نزهة فى حديقة على شاطئ النيل . وأحياناً كنت أزور « نعيمة » ، التى التحقت — مثلى — بكلية الآداب ، واختارت القسم الذى اخترته ، وأقامت فى « حى الدقى » حيث أقيم ؛ ولم يكن يفصل بين مسكنينا سوى بضعة صروح ضخمة .

لقد نزلت « نعيمة » – كما نزل شقيقها « طارق » من قبل – بمنزل خالتهما ، قرينة أحد كبار ضباط الشرطة ، بمحافظة القاهرة . . وقد زرتها وحدى ، وزرتها فى رفقة « عبد الحميد » ؛ وزارتنا هى وشقيقها ، وتناولا معنا الغداء أو العشاء غير مرة ، ولا سيما حين نتلقى هدايا أمنا الحنون .

وقد التقيت مرات بزوج الخالة الكاسف العبوس ، فما اطمأن له قلبى ، ولا انشرح لرؤيته صدرى . . فقد كان ضابطاً جافى الطبع ، غليظ الكبد ، أثر فيه عمله بين المجرمين ، ففقد – على الأيام – رقة اللفظ ، ودماثة الخلق ، فضقت به وبحديثه ومجلسه ، وجعلنا أنا و « نعيمة » نلتقى فى الحدائق ودور السينما .

وظلت « نعيمة » على كبريائها ؛ وانفردت عن زميلاتها بوقار لا تكلف فيه ، ولم تعدل لحظة واحدة عن تحفظها الرائع ؛ فلم يستطع زميل ما أن يتعرض لأى دالة عليها ، ولم يجسر ذو مطمع على مداعبة غير بريئة . وكان زملاؤنا وزميلاتنا يعجبون إذ يرونها تبادلنى وحدى عبارات الود والمجاملة ، بدون تأفف أو نفور ؛ وكأنها تريد أن تطلعهم على الطبيعة الخاصة التى تمتاز بها علاقتنا ، وما يربطنا من صداقة سابقة على زمالة الكلية .

وطالت الأيام ونحن ننطلق بين المرابع الضاحكة ، ونستطيب ذواق النعيم ، ونستزيد قبلات هائمة روعاء ، فقد كان كلانا يعشق رفيقه ، ويثق فيه ؛ غير أن هناك قضية كان علينا أن نراعيها ، هى أن « نعيمة » مخطوبة لابن عمها « محسن » المهندس بالإسكندرية .. أما ما خلا ذلك فإننا تركناه لمشيئة الأقدار !

* * *

كانت « نعيمة » فتاة طاهرة ، تحبنى حبًّا صافياً نقيًّا ، فى حين

كنت أنا فتى دنساً ، أحبها حبّاً أنانيّاً شهوانيّاً ؛ فلم يعد الحب عندى سوى الجنس ! ولم أتبين هذا الضلال إلا أخيراً ، بعد أن علمتنى الحياة أن الأنثى ليست الحب نفسه ، وإنما هى موضوع الحب ! إنها الشيء الجميل ، الجوهرى فى الحياة ، الذى يهيئ لنا فرصة التمتع بالحب وتذوق آماله ، ومعاناة آلامه !

ويوماً فيوماً أخذت الغيرة من خاطب « نعيمة » تغمر روحى ؛ وشيئاً فشيئاً جعل قلبى يمتلئ عليه ضغناً خفيّاً ، وحقداً عميقاً . . . وما لبثت هذه الغيرة أن اتخذت فى نفسى طابعاً خطيراً ، نغّص علىّ هناءة هذا الحب الرفيع الذى كانت « نعيمة » تخصنى به ؛ وعبثاً حاولت هى أن تنجح فى تلطيف ألمى وتهدئة مزاجى الشرس العربيد الذى كان يدفعنى إلى التفكير فى سلوك كلّ مسلك يجعلها خالصة لى ، ويقصى خاطبها ، ويخيب أمله ، بل يفسد عيشه ، ويسمم حياته . .

لقد طفقت نفسى تحدثنى بأنى لم أعد طاهراً بريئاً ، تقنعنى ابتسامة تلقيها « نعيمة » إلىّ ، كما ألقى أنا بالقرش إلى سائل لحوح . .

والوحل لا يعتكر ، ومن كان فى أسفل الهوة لا ينحدر ! . . ومن ثم بدأت أراود « نعيمة » عن نفسها فى إلحاح وإصرار ؛ وهى تنفر منى ، وتهددنى بالقطيعة والجفوة ، وتتجنب الانفراد بى ؛ وأنا لا أبرح مأخوذاً بها ، تجتذبنى إليها عاطفة قوية جبارة . .

وعشنا فترة لا نلتقى فيها إلا فى رحاب الكلية ، أكاتمها ما فى صدرى حيناً ، وأجهر به حيناً ؛ وهى تسر نجوى قلبها عنى ، فما تهمس لى بكلمة من كلماتها العذاب ، إلا ما كان من نظرة هادئة ، أو تنهدة والهة ! . . وبسطت علىّ هذه البرودة فى علاقتنا ظلاً من الخيبة واليأس ، ودبّ الفناء إلى كل بهجة فى قلبى ، وأمست نفسى تسبح فى الفراغ والوحشة .

وبينما أنا فى هذه الغمرة إذا «الشيخ» و«الحاجة» يفدان إلى القاهرة ، ليقضيا معنا أياماً ، ويحتفلا بتخرج شقيق «عبد الحميد» ، ويدبرا له أمر حياته العملية الجديدة . . ولم يكن بدّ من أن أسلك المسلك الذى يرضى أبوىّ ويطمئنهما علىّ ، فعدت أصلى وأقرأ القرآن ، والقرآن يلعنى !

والحق أن نفسى لم تكن راغبة فى أن أرفع قلبى بالصلاة ! . . بل أتعس من هذا أن كنت أعتقد أنى مهما توسلت إلى السماء أطلب عونها ، فلن ألقى إلا سخطاً علىّ وإهمالا لتضرعاتى !

وا أسفاه ! . . فيما مضى — حين كانت نفسى متصلة بالله — كنت هانئاً سعيداً ، أرتع فى أرض خصبة غنية ، وكان كل شىء حولى دافئاً منيراً ؛ أما اليوم — بعد أن اختفى الله من حياتى — فقد انقلب كل ما حولى صحراء جرداء ، وطغى علىّ شعور بالوحدة والوحشة ، وانقلب الفرح كآبة وهمّاً ، وفقدت الصلاة لذتها ، وغرقت روحى فى ظلام دامس ! . .

يا أسفا على تلك الأيام ! . ويا جزعا !

* * *

تخرج «عبد الحميد» فى كلية الطب ، وعمل طبيب امتياز بمستشفى قصر العينى ، وطفق يبيت أكثر الليالى فى المستشفى . . وأصبحت حرّاً طليقاً ، أعيش فى شقة أنيقة ، ويقوم على خدمتى غير واحد ، وأنا رغبة جامحة لا تعصمها إرادة ، وشهوة عارمة لا يكبحها وازع ؛ فبتّ عاجزاً عن امتلاك قيادى ، والاهتداء إلى طريقى ! ونشب فى أعماقى عراك عنيف ؛ فعقلى يريد الاتصال بالله ، والتسلط على رغائبى الداخلية ؛ وجسدى يسلك الأسلوب الوثنى ، ويسعى إلى التمتع بما فى الحياة من لذة وجمال . . وهكذا سرت فى حياتى كمسافر يجهل أين يحطّ رحله ، أو كسفينة لا شراع لها ولا سكان ، تلعب بها الريح العاصفة ، والأمواج

العاتية ، فهى غارقة لا محالة ، إن لم تسعفها النجدة . .
وجاءتنى النجدة فى صورة الإيطالية الحسناء « ريتا » !

١٤

كانت تسكن الشقة المجاورة لشقتى أسرة إيطالية . . عروسان جديدان لم يرزقا أطفالا بعد : « جوزيف » المهندس بإحدى شركات المبانى ، وزوجه الحسناء « ريتا » . ولم يكن يفصل باب مطبخها عن باب مطبخنا ذراع ، ولا يفصل شرفتها عن شرفتنا باع .

و«ريتا» صبية فى ريعان شبابها، وغلواء ربيعها ، جميلة الصورة ، ممشوقة القد ، شقراء الشعر ، ناهد الصدر . . عيناها الزرقاوان تعكسان طيبة القلب ، وشفتاها القرمزيتان تفترّان عن ابتسامة وصلاة ، وعن دعاء وإغراء . . إنها أنثى تلهم خواطر الحب ، وتثير رعشات الحس . . منها مادة ، ومنها دواء ، ومنها خيال !

كنت أراها كثيراً فى الشرفة، فأتظاهر بأنى أغضّ من بصرى، وأنا — فى الحقيقة — أعرّيها فى خيالى ، وأقيسها من فرعها إلى قدمها . .

وجرؤت يوماً وحييتها، فردت تحيتى ردّاً رقيقاً ، وأرسلت إلىّ نظرة طويلة ، وبسمة عريضة . وإذا ضحكت المرأة لغريب فقد دلت على أن قلبها مفتوح ، مهيأ لاستقبال الحب !

ويوماً بعد يوم أخذت العلاقة بينى وبين « ريتا » تصطبغ بالألفة ، وتتشح بالارتياح ، وطفقت هى تصغى — بلذة وشغف — إلى عبارات الثناء ، ألقيها على مسمعيها ، وتقبل علىّ بروحها وقلبها ، وأنا أستعرض لها رغائب نفسى ، وأمانىّ قلبى ، وتظل صامتة تحدق إلىّ فى رفق وعذوبة ، مزهوّة بهذا الإطراء بجمالها وسحرها . .

وكثيراً ما قالت لى « فاطمة » — الفلاحة الساذجة ، زوجة تابعى « محمود » — إن جارتنا «الطليانية» تسألها عنى ، وتتحسس أخبارى ، وتثنى علىّ ، وتقول إنى شاب لطيف مهذب ، « ويظهر أنه ابن ناس طيبين » !

ورحت أناقش نفسى : أيتكرر حادث «هدى» ؟ أيحق لى أن أحب جـــارتى ؟ أوَليس للحب شرائع وقوانين ؟ أوَليس للحب قواعد معينة ، وحدود مرسومة ؟ !

إن الحب — كما عرفت من قبل ، وكما جربت من بعد — سر خفىّ وقوة عمياء من قوى الطبيعة الجبارة ، تُخضع كل شىء ، ولا تخضع هى لشىء . . ولو استطاع العقل ، أو الثقافة ، أو العزة والجاه ، أن تصد تيار الحب مرة ، أو تثبت لجبروته حيناً ، فإنها لا تستطيع أن تحطمه . بل لا تلبث أن تذل له وتخنع !

وبينما أنا أقلب وجوه الرأى ، وأفكر فى وسيلة أتقرب بها إلى « ريتا » إذا هى تجيئنى علىّ استحياء وابتهاج ..

فيوماً — وأنا أتهيأ لمغادرة البيت إلى المسجد ، لأصلى الجمعة — أقبلت « فاطمة » تعلن أن جارتنا « الطليانية » تستأذن فى السماح لها بنشر غسيلها فى شرفتنا ، بعد أن ضاقت عنه شرفتها ؛ فأذنت نشوان مسروراً . .

وأقبلت « ريتا » وخلفها الغسالة تحمل الغسيل ؛ فقادت « فاطمة » الغسالة إلى الشرفة ، وانهمكتا معاً فى نشر الغسيل ، وتبادل الحديث . . ودعوت أنا « ريتا » إلى الجلوس ، فجلست على الأريكة فى بهو الشقة ، وجلست بجوارها ، أرحب بها ، وأحييها ، وألاطفها . . ويومها لم تستنكف أن تهبنى قبلة طويلة . . أطول من عهدنا بهذا التعارف القريب !

وفاتتنى صلاة الجمعة !

* * *

تحركت الألسنة ، وكثر الهمس حول المودة بيني وبين جارتي « ريتا » ، فأبدى كلانا بعض الميل إلى التحفظ ، وتضييق نطاق الأحاديث من الشرفات . .

ثم تصادقنا أنا والزوج « جوزيف » ؛ ودعاني إلى شقته ، ودعوته وزوجه إلى « الأوبرا » غير مرة ، وأخذنا نلتقي على أعين الناس ، ورآنا الجيران والبوابون والخدم نخرج معاً ، وندخل معاً ، فعلا الهمس وصار لغطاً ، ونحن لا نبالي !

و« جوزيف » شاب وسيم أنيق ، ذو مركز مرموق في الشركة التي يعمل بها ، والتي يسهم أبوه بنصيب كبير في رأس مالها . وهو سعيد بزوجه ، يحبها أعمق الحب ، ويثق بحبها وإخلاصها وأمانتها ، حتى لتنطق كل قسمة من قسمات وجهه بالسعادة والهناءة ، وتفيض كل إشارة من إشاراته بالحيوية والنشاط ؛ فإذا ما طاف بنفسه طائف من الهم والانقباض — وما يخلو أسعد الناس من بواعث الهم والكدر حيناً بعد حين — فإن ذلك الهم لا يقوى على محو آيات الطلاقة والمرح ، ولا تفتأ ابتسامته تتراءى من وراء التجهم والعبوس ، كما يتراءى قرن الغزالة من خلف السحب والغيوم . .

ولو أتيح لنا أن ننفذ من المظاهر البادية إلى الحقائق المستسرة ، لألفينا أن ما يشيع في قسمات وجهه من الدعة والسكون ، هو ظل ما يملأ فؤاده من الطمأنينة والرضا ؛ وأن البسمة التي ترتسم على شفتيه ليست إلا صدى ما يعتلج في صدره من الخواطر المشرقة ، والأفكار السعيدة ؛ فما يتلألأ بمثل هذه الابتسامة غير ثغور السعداء الهانئين .

* * *

في ليلة من ليالي الربيع عدت إلى البيت بعد منتصف الليل . ولما صرت أمام باب شقتي تبينت أني فقدت المفتاح ؛ فأخذت أدق الجرس ،

وأطرق الباب ، ولا مجيب . . وهل يسمع أهل الكهف الرقود ؟ !

وقفت أمام الباب حائراً ،وأشعلت سيجارة ، واستندت إلى الحائط ، وأنا أصفر بصوت خفيض ، وأعاود الدق والطرق لحظة بعد لحظة . وفجأة فتحت « ريتا » باب شقتها ، وهي في قميص نوم أبيض معطر ، وابتسمت ابتسامة واسعة هادئة ، وكأنها ترحب بي ، أوكأنها توبخني لهذا السهر الطويل خارج البيت . .

دعتني إلى الدخول ، وأغلقت الباب ، وقالت : إيه ! . . تأخرت كثيراً هذه الليلة . . أين قضيت سهرتك ؟ ! .. يا بختك ! . . أنت تسهر تلهو وتمرح ، وأنا أسهر مع الأفكار التي طيرت النوم عن عيني . .

وقفت ساهماً لا أجيب ، فاستطردت : ما لك؟ ! . . لماذا تضطرب وتسهم هكذا ؟ . . أنت خائف ؟ . . لا تخش شيئاً . . أنا وحدي .. ادخل . . « جوزيبي » سافر إلى الإسكندرية ، ولن يرجع إلا بعد يومين . . أنا وحدي . . ادخل . .

قالت هذا كله ، وأكثر منه ، وأنا صامت ذاهل ؛ فلم يكن يخطر ببالي أن يتيح لي الشيطان — في سرعة — هذه الفرصة الفريدة لأخلو إلى « ريتا » في سكون الليل ، وفي غفلة العيون !

لا بأس أن يخلو فتى أعزب ، ملتهب قويّ ، بامرأة أذابتها تربية الأولاد ، مثل « فاطمة » الفلاحة الساذجة . . أما أن يخلو بغادة فاتنة يشتهيها ، مثل « ريتا » فأمر لا يقوى عليه إلا الأولياء والقديسون ؛ ولست وليًّا ولا قديساً ! .. فما كدت أستفيق من دهشتي حتى ضممت « ريتا » إلى صدري . . وعشنا ساعة في نشوة تفتحت لها عيون الظلام !

ما أجمل أن يضيع المرء مفتاح شقته بعد منتصف الليل ! إن هذا المفتاح الضائع قد فتح الطريق المغلق ، وجعلني أنط — في الفجر — من

شرفة « ريتا » إلى شرفتى . .

كانت « ريتا » حتى هذه الساعة نجمة بعيدة المنال ، فنزلت عن عرشها ، واختفى ذلك الطلاء اللطيف الذى يصطنع الحشمة ، والذى نسعى إلى الاتشاح به ، لنحتجب وراءه حقيقتنا كلما ظهرنا إلى الناس !

ومنذ تلك الليلة اتخذت صلتى بهذه الإيطالية الحسناء طابعاً غرامياً خاصاً ، ونعمنا معاً بأشهى ما يسعد به إنسان . .

وغدت « ريتا » متعة فى عينى ، ولذة فى قلبى . .

ما أعذبهن أولئك النساء الخائنات !

١٥

كنت قد قرأت كثيراً عن عذاب الحب وأهواله ، وعما يلقى المحب من صدود المحبوب وتأبيه ؛ فلما استسلمت قلعة « ريتا » بدون مقاومة ، فقد الحب فى نفسى ما كان يحيط به من هالة قدسية ، وضللت ضلالا مبيناً طريقى إلى الحب الذى يتجاوز شهوات الجسد ، ويصل بالعاشق إلى مشارف الشفافية الوضاءة ، والذى كان فى المستطاع أن أنعم به ، وأعرف كنهه ، لو أننى حددت من شهواتى ، وأدركت الفرق بين الحب والجنس ؛ لكن . . ماذا أفعل ، وقد خاننى الاعتماد على النفس ، وتخلى عنى ذكائى وثقافتى ، وافتقرت إلى رقيب داخلى ، وإلى إقناع عقلى بأن سبيل الإنسان إلى إثراء تجاربه العاطفية هو الارتقاء بالجنس ، وليس بالانغماس فيه ؟ !

ولقد أشحت فى صلف وعناد عن سبل الخلاص التى حاول شقيقى « عبد الحميد » إغرائى بها ، وأهملت تحذيره إياى مغبة اجتناء اللذة الحرام ، أو السعادة على حساب خيانة الآخرين ، وأصررت على استجلاء التفاصيل التى يغلفها التهذيب المنافق بصورة تخفى ما فيها من فظائع

وبشاعات ، وأقبلت على « ريتا » كما أقبلت هى علىّ ؛ وانغمسنا معاً فى وثنية خالصة ، لا تعرف التوبة ، ولا تعرف معنى الخلاص ، بل لا تعرف مجرد الشعور بالإثم .

وكيف أفكر فى التوبة والخلاص ، و « ريتا » جميلة ساحرة ، تتمتع بالعاطفة الملتهبة ، وبقدر من الذكاء غير قليل ، وبموهبة فائقة فى إقامة العلاقات الخاصة . . واجتماع هذه الصفات فى امرأة خليق بأن يجعلها ذات خطر عظيم على من يعرفها . . وما نجوت من خطرها هذا إلا لأنى كشفت — بعد حين — أن جمالها كجمال التماثيل التى تجذب العين ، ولا تحرك القلب . . نعم ، كذلك كانت « ريتا » : لذة ومتعة ، ومسرة عين ، لكنها لا تغذى العقل ، ولا تنشى الروح !

كانت ذات ذوق ملتو ، ومعرفة سطحية بشئون الحياة حولها ؛ تستغرق وقتها فى الاستماع إلى الموسيقى الصاخبة ، والرقص العنيف ، وقراءة الروايات التافهة التى لا أثر فيها لعبقرية الفن والفكر . . فهى لا تشعر بقيمة الجمال ، ولا تدرك عظمة الحياة والحب . . حتى مغازلتها كان ينفر منها الحس الرقيق .

إن هذه المرأة التى سحرتنى ، حتى توهمتها مادة ودواء وخيالا ، لم تنسنى « هدى » ، ولا صرفتنى عن التفكير فى « نعيمة » . ؟ ولقد سيطرت علىّ العاطفة التى تجعل العاشق يرغب فى أن يغذى معشوقته بأفكار الحق والخير والجمال ؛ لكن انطلاقاتى بها إلى الآفاق الرفيعة لم تكن لتلاقى صدى فى نفسها . .

ومن أعالى نفسى ، الرقيقة حتى البكاء ، القاسية حتى الغضب والاحتقار ، فارقت « ريتا » فى نهاية العام الجامعى ، وأنا لا أعلم : أأحب فيها امرأة حسناء ، أم أمقت فيها رفيقة من رفيقات اللهو ؟ !

* * *

فى منفلوط انتابتنى نوبة قلق نفسى وهبوط جسمانى ، جعلتنى أجنح إلى العزلة ، وأرغب فى الوحدة . وزاد الحر فى انفعالاتى ، حتى تداعت فىّ عزيمة الصبر ، وأنا أفكر فى مهرب من سأم هذه الحياة ، ومن خوائها الذى لا يطاق ، ومن العراك المستمر فى أعماق بين رغبتى فى العودة إلى العفة والتقوى ، ورغبتى فى « نعيمة » . .

كنت آوى إلى فراشى كل ليلة وأنا أتعثر فى أحاسيس متناقضة ، وقد ازدحمت أروقة حياتى بصورة « نعيمة » . .

إنى متفائل مسرور لكونها غير متزوجة ، ولأنها بليدة العاطفة ؛ لكنى متشائم حزين ، لأنها مخطوبة ، ولأنى — كطالب — لا أستطيع أن أطالب بها لنفسى : ومع هذا أود ألا يتم زواجها بابن عمتها .

ولا شك أن هناك أناسىّ مثلى يقضون حياتهم فى هذا الألم عينه ؛ فهم لا ينفكون يفكرون فى أنثى ، مرتبطين بها بالأمل والخيال ، ولا يهنأ لهم عيش بدون تملكها ؛ وهم — فى الوقت نفسه — لا يحبون أن تنشد سعادتها مع غيرهم !

كنت أتعذب بخيال « نعيمة » ، وأنا أستعيد فى خاطرى حركاتها البطيئة الموزونة ، وأحاديثها الشهية الطلية . . كل تصرفاتها كانت تتزاحم كالدوامة فى ذاكرتى . . وكل كلمة قالتها كان يتردد صداها فى خاطرى . . جمل غامضة ، كلمات تحمل فى حد ذاتها أقل ما يُظن من رقة وعاطفة ، كانت تتدفق فى فكرى محمّلة معانى غزيرة ؛ فتهز نفسى هزًّا عنيفًا .

فلما تم اجتماع الأسرة السنوى صحبت شقيقى « الدكتور مصطفى » فى عودته إلى المنصورة ؛ وقضيت فى ضيافته حينًا نعمت فيه بلقاء الزملاء الذين عرفتهم من قبل ، ومنهم من لم تنقطع الرسائل بينى وبينهم ، نتناجى فيها ، ويفضى كل منا إلى صديقه بذات نفسه

ودخائل قلبه ،حتى باتت رسائلنا هذه ذخيرة طيبة فى كشف الانفعالات ، وعلاج المشكلات التى تصدم الشبان وتثيرهم . . والأفضل من هذا كله أنى استطعت أن أسترد ثقة « نعيمة » بى ، وأعيد الصلة بيننا إلى عهدها الأول : عهد الود الصافى ، والحب النقى الطاهر . .

لقد حاربت نفسى حربًا لا هوادة فيها ولا لين ، حتى تقنع بالضم والتقبيل ، ولا تتجاوزهما ؛ فاستطعت أن أحتفظ بتلك الصلة نقية بريئة ؛ وأضحت النظرات بيننا تحمل الحب والثقة ، ولا تضطرب بشهوة أو رغبة .

ما ألذ تلك الساعات ! وما أعذب أولئك الأيام ! . . كم كنت سعيداً بقربها ، ناعمًا بأحلامى فيها ! كنت أسترسل إلى أشهى الأحاسيس وأنا أنظر إلى وجهها الفاتن تتجلى فيه آيات الوقار الطبيعى ، وقوة الإرادة ، وإلى شعرها النحاسى يتناثر حول خديها ، ويكوّن إطاراً جميلا لوجهها الصبيح . .

ثم جمال وجلال ، وروعة وبهاء ، وسمو عاطفة ، وخفة روح ، ولطف ملاينة ، فأنّى يعتصم العاشق أمام سحر هذه المفاتن كلها ؟ !

وفى الليل كانت تُجن بى الأحلام ، وتمور قلقًا واضطرابًا ، فأستيقظ غير مرة فى الليلة الواحدة على إثر حلم بهيج أضم فيه « نعيمة » إلى صدرى . .

آه ! . . لو أن الجمد يخرق ذاتى ، ويوغل فيها ، لغبطت نفسى ! أما أن أرى أمامى كل كنوز النفس ، وكل جمالات الجسد وجاذبيته وسحره ، ثم أقف مكتوف اليدين لا أجرؤ على الإقدام ، فأمرٌ فوق طاقتى وجهدى .

وللنجاء مما كنت أعانيه ، ومما أوشك أن أقدم عليه ، وأنحدر إليه ،

فزعت إلى الإسكندرية ألتمس فى جوار أختى الحبيبة « سميرة » ما يعين على البلوى .

* * *

أوشكت العطلة أن تنتهى ، فرجعت إلى منفلوط ، وتزودت من حنان أمى ؛ ثم قفلت عائداً إلى القاهرة : إلى الكلية ، وإلى « نعيمة » ، وإلى « ريتا » . . وعدت أستأنف حياتى : أداعب « نعيمة » إلى الحد الذى سمحت به ، وأواصل « ريتا » إلى أقصى الحدود .

وأتم شقيقى « عبد الحميد » فترة الامتياز بمستشفى قصر العينى ، وعين طبيباً بمستشفى دمنهور ؛ فأقام فى الإسكندرية مع أختنا العزيزة « سميرة » وزوجها الأستاذ « يحيى » ، وأضحى لا يزور القاهرة إلا لماماً ، فيقضى معى ليلة ثم يعود .

اتسعت دائرة حريتى ، وخلت لى الشقة ، أو كادت ؛ فقد عادت « فاطمة » وأولادها الصغار إلى منفلوط ، وأخذ « محمود » وابنه الأكبر « حمدان » يتركان الشقة عصر كل يوم إلى حى « السيدة زينب » ، ليستذكر « حمدان » دروسه مع أنداده ، ويقضى « محمود » مع أقاربه وبلدياته وقت فراغه . .

وصار لى غزل ودعابة ، وصلات جمة بصديقات كثيرات . . لكن صلة من تلك الصلات كلها لم تبلغ مبلغ العشق والهيام ، ولم تشرف بى على مصائب الحب وأهواله ، فقد عصمنى تعدد الصديقات من أن تستبد بى إحداهن .

وكثر ترددى على بيت عمى « إسماعيل بك » ، ورافقت أولاده إلى حيث يلهون ويمرحون ؛ فرقصت وعببت الخمر ؛ وغرقت فى عرق « بنات الليل » ؛ وجعلت ملاهى القاهرة تلوكنى بين شدقيها ؛ وعرفت رجلاى الطريق إلى « عمارات الخديو » وأوكار « عماد الدين » ؛

فتلونت الحياة فى نظرى بألوان ساطعة جذابة خداعة، وعشيت عيناى ، وتبلبلت أفكارى ، وهويت إلى القاع !

وقد اتسعت حياتى لهذا اللهو والمجون ؛ واتسعت لإقامة صداقات كثيرة فى مختلف البيئات والطبقات ؛ واتسعت لأن أفوق زملائى فى دراستى بالكلية ، ولأكون من أبرز شباب أحد الأحزاب السياسية . أتردد على ناديه ، وألتقى بزعمائه ، وأدعو إلى مبادئه .

كانت حياتى عريضة عريضة ، وكنت أتمتع بمزاج فنىّ قادر على الاستمتاع بالإسفاف والسوقية ، وبأرقى ما يصل إليه الوعى الإنسانى من أفكار ومشاعر . .

إنى لم أخضع رغباتى لرقابة أو قانون : وأية رغبات هذه ؟ ! . . هى كثيرة لاعداد لها . . أقلها أن أسعى إلى العيش كما أهوى وأشتهى ، وأن أحب ، وأتدله فى حبى ، وأتيه فى أحلامى ، وأضيع . . ثم أجد نفسى حيث يمكننى أن أجدها بعد الضلال والضياع !

١٦

السماء زرقاء حالمة ، كأنها فى غفوة الحلىّ ؛ والشمس ساطعة تستنكف من اللذع ؛ ونحن سكارى النهى بما يغلى فينا من جذل الفتوة ، نثب ونجرى ، ونُنشد ونغنى ، ونضحك ونقهقه ، وننشر البشاشة حيثما سرنا ، ونخلق الحياة أينما حللنا . .

كنا ثلة من الزميلات والزملاء طلاب « الليسانس » بكلية الآداب ، قد جمعت بيننا المودة ، وألفت الزمالة ، وقرب توافق الطبع وتلاؤم الميول ؛ فتحلقنا حول « أبى الهول » ، نريد أن نقضى سحابة النهار فى لهو ورياضة ، ولعب واستراضة . .

وأثار ضجيجنا فضول السياح الذين قطعوا آلاف الأميال « اشتياقاً إلى ما خلد الفانى » ، فأخذوا يتجهون نحونا ، يسألون ويستفسرون .

كانوا مختلفى الجنسيات واللغات ؛ وكانت مصر وبريطانيا أيامئذ فى نزاع حاد عنيف ، وعلى أبواب مفاوضات جديدة ؛ فاتفقنا فيما بيننا على أن نبصر هؤلاء الأجانب بقضية شعبنا العريق المجد ، الأصيل الحضارة ؛ ونبين لهم كيف أدى الفراعنة ، والعرب من بعدهم ، واجبهم الإنسانى على أتم وجه ؛ وكيف اضطلعوا بدور عالمى فى نشر ظلال المعرفة والمدنية ، وأضاءوا الدنيا بأنوار الحكمة والهداية ، ورفعوا المستوى العقلى والخلقى والاجتماعى للإنسانية جمعاء ؛ وكيف أن حفدة هؤلاء الأماجد جديرون بأن يحيوا الحياة الحلوة الكريمة التى يريدون .

وقد تخلفت « نعيمة » عن هذه الرحلة ، وازمت البيت تشكو التهاب الحنجرة واللوزتين ؛ وكنت ضيق الصدر لتخلفها ، كئيب النفس لمرضها ، غير أن مرح الزملاء ، وتلطف الزميلات ، قد نجحا فى طرد هذا الضيق ، وفى تخفيف كآبتى النفسية ؛ فاستجبت إلى الزميلة « ليلى » وهى تقترح على أن أشاركها الحديث إلى السياح المقبلين إلينا . .

كانوا أربعة فى ريعان الشباب : حسناوات ثلاثاً ، وفتى وسيماً أنيقاً . .

وقفنا نتحدث : . وطال الحديث وتشعب . . يسألون فنجيب ، ونسأل فيجيبون : : وطفقنا نتجادل ونتناقش ، ونضحك ونمرح ، وقد تم بيننا التعارف ، وسعد كل منا بلقاء الآخرين .

أولى الحسناوات وأوفرهن جمالا : « أليس » . . فرنسية الجنس ، باريسية المولد والمنشأ ، وطالبة بكلية الطب فى جامعة باريس ، وشقيقة أحد الكبار فى السفارة الفرنسية بالقاهرة ؛ وقد وفدت إلى

بلادنا منذ يومين ، لتزور شقيقها ، وتقضى أعياد الميلاد ورأس السنة ، تستمتع بشتائنا الدفىء ، وشمسنا المشرقة ، وتشاهد آثار أسلافنا الخالدة .. إنها لمظهر لطيف ، وصبا غض ،وطراوة جذابة . واعتداد بالنفس فى ثقة وطمأنينة ، وهدوء حركة يضفى على أسارير المحيا الباسم روعة رائعة .

أما ثانية الحسناوات فهى « مرجريت » . . فرنسية الجنس . باريسية المولد والمنشأ أيضا ؛ تحمل من نبعتها الباريسية الأصيلة . ومن عملها ، رقة الحديث . وعمق الثقافة ، وصفاء الروح ، وبهاء الجسد ؛ وقد غادرت مدرجات الجامعة منذ عامين لتعمل فى « سكرتارية » سفارة فرنسا فى القاهرة .

وأما الثالثة فهى « مارجو» . . فرنسية الجنس كرفيقتيها ، لكنها قاهرية المولد ، وموظفة فى إحدى الشركات الكبرى فى القاهرة . ومخطوبة إلى « إميل » ، الشاب الأنيق الوسيم الذى يرافقهن ؛ وهو لبنانى الجنس ، إسكندرى المولد ، وموظف فى سفارة فرنسا فى القاهرة ، مع الحسناء « مرجريت » :

انهمكت زميلتى « ليلى » فى الحديث مع « مرجريت» ، وأخذ الشاب « إميل » وخطيبته « مارجو » يتحركان فى بطء غير ملحوظ ؛ ورأيتنى وحدى مع الحسناء الفاتنة « أليس » .

ودارت بيننا الأحاديث فنونا ؛ وعرضت عليها أن تتخذنى رفيقها ودليلها والمترجم لها فى جولاتها بالقاهرة ، فسُرّت وابتهجت ، وشكرت لى هذا الفضل ، وقالت : أرجو ألا تثقل عليك مرافقتى : .

زرت معها دور الآثار المصرية والقبطية والعربية ، والجامع الأزهر ، وخان الخليلى ، والقلعة ، ومسجد « الرفاعى » ، وجامع « ابن طولون » ، وكثيراً من أحياء القاهرة وضواحيها : .

وتلك الساعات الهنيئة التى قضيتها فى رفقة هذه الحسناء ، ذات الوجه « الرومانتيكى » الجميل ، والقلب الرقيق ، والحس الرهيف ، والذوق الرفيع ، قد جذبت كلينا إلى رفيقه جذبًا قويًا ، ورفعت الكلفة من بيننا ؛ فكنت أستمع منها ، وأتحدث إليها ، كما يكون الأمر بين إلفين قد بعُد العهد بما بينهما من المودة والحب ، فليس بينهما تصنع ولا تكلف ، ولا عناية بما يقولان . .

وأضرمت « أليس » أحاسيسى بجذوة فتنتها ، وألهبت خيالى بسحرها ورقتها ، وأثارت فى أعماق نداء الحب . وقد حاولتُ أن أكشف فيها ثغرة أو عيبًا ؛ ثغرة فى الجمال ، أو عيبًا فى التفكير ، يساعدانى على التقليل من إعجابى بها ، وانجذابى إليها ؛ فعدت من البحث الدقيق بالإخفاق التام . إنها — ويا للعجب ! — بدون عيب . . حقًا إنها تنقصها بعض الحرارة التى تزين الفتاة المصرية . لكنها تموج فى جاذبية تفوق مرات جاذبية كل من عرفت . . وقد اتفقت آراؤنا فى كثير من المسائل ؛ واتفقنا فى أن الحب لا يعرف دينًا أو جنسًا ، ولا يعترف بقيد من قيود المجتمع ، وأنه ينقضّ على الإنسان انقضاضًا ، فلا يستطيع له صرفًا ، ولا يملك له دفعًا ؛ وأنه إذا ما تفتّق وصاح جرف صاحبه ، وأذل فيه التيه ، وحرمه القدرة على مكافحة سورة الأهواء . .

وبدأت أستغرق فى أشياء وأشياء من مختلف صور الحب ، تملأ وجدانى ، وتحتشد فى خيالى ؛ لكنى — مع السعادة التى أحسستها أيامئذ — كنت أستشعر الحرج ، وأهاب الإقدام . . كان طيفها يخايلنى ، ويداعب أحلامى كل ليلة ، ثم أفيق ، ويصدمنى الواقع الأليم ، وأغيب فى تحرق قاس ، وعذاب لا يطاق . .

يا إلهى ! . . كم كان مؤلمًا ، وقاسيًا فى ألمه ، ذلك الصراع

العنيف بين عقلى وعاطفتى !

ثم ذهبت إلى محطة القاهرة لأودعها ورفاقها ، وهم مسافرون إلى الأقصر . . قلت لها : أرجو أن يسعدنى حظّى فأتمكن من اللحاق بك ، بعد ثلاثة أيام أو أربعة . فأشرقت أساريرها ، وافترت شفتاها عن بسمة حلوة عريضة ، وقالت : أرجو ذلك ؛ فإنى أرتاح إلى صحبتك ، وأعجب بأخلاقك الدمثة ، وعقلك الذكى ، وقلبك النقى . . فإلى اللقاء ، يا صديقى العزيز !

وفعلت عبارتها هذه فى نفسى فعل السحر ، وقلبت كيانى ، ودفعتنى إلى أن أكذب على أبوىّ ، وأزعم أنى مسافر فى رحلة جامعية إلى الأقصر وأسوان !

* * *

ها هم أولاء الرفاق الأربعة : « أليس » ، و « مرجريت » ، و « مارجو » ، والفتى « إميل » ، قد جلسوا يستريحون فى بهو الفندق بمدينة الأقصر ، بعد أن جالوا ساعات بين ما ترك القدامى من آيات بينات ، تنطق بما كان لهم من أمجاد وحضارات ، أيام كانت الدنيا تحيا فى حالك الظلمات . .

ما إن رأونى حتى هبّت « أليس » مغتبطة القلب ، مشرقة الوجه ، باسطة نحوى يديها ، وكأنى قريب عزيز ، أو صديق حبيب ، يعود بعد غيـــاب طويل ؛ وقد بانت البهجة فى وجوههم أجمعين ؛ فأيقنت أن سرورهم بلقائى لا يعدله إلا سرورى بلقائهم .

فى النهار كنا نطوف بالأطلال ، ونزور الآثار ، ونلهو على صفحة النيل ، ونتنقل بين القرى على ضفتيه ؛ وفى الليل كنا نرقص ، ونسمر ، ونتسلى بلعب الشطرنج أو الورق ؛ وعيناى على « أليس » تنقلان إليها الرغبة والنشوة ، وعيناها علىّ ترسلان إلىّ نظرات عذبة ،

تحمل معانى الود والحنان .

كنا نتلاعب معًا ونتضاحك ؛ لكنى كنت أخص « أليس » بفيض من رعايتى ودى ، كما كانت تختصنى ، حتى بانت الغيرة فى عينى رفيقتها « مرجريت » وفى تصرفاتها .

وفى ليلتى الثالثة بالأقصر ، وكان بردها قارسًا ، أسرفنا فى الشراب وفى الرقص ، فسيطرت الرغبة على القلب ، وانطلق اللسان . .

موسيقى وخمر ورقص . . أمل وهوى وشباب . . أحلام تستيقظ ، وعناق رقيق ، وضم عنيف ، ووسوسة قبلات مخنوقة . . ماذا وراء هذا الطوفان الطاغى سوى الإثارة والإغراء !

وبعد منتصف الليل وقفنا أنا و « أليس » أمام حجرتينا المتجاورتين ؛ فما إن ألقيت عليها تحية المساء ، وتمنيت لها الأحلام السعيدة ، حتى تبسمت ضاحكة ، وقبضت بيمناها على يسراى ، ووضعت يسراها على كتفى ، وقالت : لا أجد نفسى راغبة فى النوم ؛ فهل لك أن نسمر بعض ساعة ؟ ! وجذبت يدى ؛ فدخلت خلفها ، وتركت الباب مفتوحًا فتحة تطرد الريبة ، بدون أن تمكن السائر فى الممر أن يرانا .

كانت عاطفتى الملتهبة ترى فى « أليس » — عدا جمالها الرائع — شيئًا ساحرًا غريبًا ، يجعل هذه الصبية غرضًا للإعجاب ، وموضعًا للفتنة . . وكانت عيناى الراغبتان تريان فيها كل ما تحبان أن ترياه فى ذلك الجسد الفاتن ، وذلك القلب الودود !

آه ! : . كم أخشى أن يخلو قلبها من رغبة محمومة كرغبتى ! . . فهنا البؤسى وسوء المصير !

قالت فى دلال واسترخاء : سنبقى هنا خمسة أيام أخرى ، ثم نعود إلى القاهرة ، فأقضى بها أسبوعًا ، قبل أن أرجع إلى باريس ،

فحتّامَ تبقى أنت هنا ؟

ـ « أليس » . . يا حبيبتى الغالية : . أنا ما جئت إلى الأقصر إلا لأراك ، ولأكون تابعك المخلص وحارسك الأمين ؛ ولن أبقى بعد سفرك دقيقة واحدة . . أوه ! . . كم أتعذب يا فاتنة !

ـ وما يعذبك ، أيها الصديق العزيز ؟

ـ أنت ! . . أنت يا « أليس » من أتعذب بها . .

ـ أنا ؟ : . أنا أعذبك ؟ ! . . وكيف ؟ !

ـ أحبك يا « أليس » . . أحبك حبًّا لم أحببه أحداً من قبل . . وهذا ما يعذبنى أشد العذاب . . ما لقلبى يخفق فى عنف لمرآك ؟ ما لعينى لا تقويان على النظر طويلا إلى عينيك ؟! ما لى أبهت حين تنظرين إلىّ ، ويعجز لسانى عن البيان ؟ !

ـ يا لك من غزِل رقيق !

ـ بل يا لى من بائس شقى ! . . إنى لأحس تجنى الأقدار علىّ منذ ألقت بك فى طريقى . . ويضاعف ألمى وعذابى ذلك المجهول الذى يخبئه مقبل الأيام . . سيرافقنى عذابى إلى آخر أنفاسى ، ويبقى حبك يملأ قلبى ، فلا يتسع لحب جديد . .

ـ وماذا أستطيع أن أفعل يا صديقى العزيز ، كى تسعد وتهنأ ؟ أتظننى طفلة صغيرة ؟ ! أوتَرانى غبية جاهلة ؟ ! . . لا ، لا ، يا عزيزى . . لقد قرأت فى عينيك ــ منذ أن تلاقينا أمام « أبى الهول » ــ كل ما حاولت أن تكتمه ، وكل ما لا تفصح الآن عنه . : ولكن ماذا أستطيع ؟! . . أصدقك القول يا « عبد الرحمن » إنك قريب إلى قلبى ، أثير لدى نفسى . . وهأنذا معك : . وقد منحتك ما أملك منحه ، فى رضا وسماحة ، فماذا بعد ؟ !

ـ سعادتى بين يديك ، وهناءتى رهن مشيئتك . . « أليس » ،

ستعودين إلى وطنك ، وفى خاطرك أنى عابر سبيل التقيت به مصادفة . . وستنسين فى باريس — بين مباهج الحياة، ومرح الأصدقاء — أنك عرفتِني يوماً ما . . أما أنا فسأفقد بسفرك كل متع الحياة وهناءة النفس . . أنتَ الحياة . . أنت الحب . . ستظل نفسى حزينة ، وسيظل قلبي مغلقاً لا ينفتح للحب أبداً . .

تبسم البشر فى عينيها الحالمتين ، وأخذت بشفتىّ بين أصابعها ، وعقدتهما وقالت : إنى لأبادلك عاطفتك : . ولكن . . ماذا أفعل ؟ !

— سينقطع عنى بسفرك مدد الحياة : . لكنك لن تبرحى شعورى لحظة يا « أليس » . . ستبقين دوماً فى سمعى و بصرى وحسى وخيالى : . لقد بثثت حولى دنيا من الجمال والحب والسحر الحلال ، وكنت لروحى مرآة مجلوة ، تتواثب عليها رؤى الحياة وطيوف الأحلام . . وا أسفاه يا « أليس » ! . . حينما رأيتك ، وعرفتك ، توهمت أن الحظ قد وافانى ، وأن الحياة قد نزلت عند رغبتى : . فإذا أنا أستنشق نسيم الخيبة ، وأتنفس هــواء الخذلان . . إنى لكما قال الشاعر العربى :

فكنت كالمتمنّى أن يرى فلقاً ... من الصباح فلما أن رآه عمى!

ترجمت لها البيت العربى ، ثم استطردت : لن أرى الحياة بعد سفرك — أيتها الحبيبة — إلا سلسلة آلام وعذاب ، وسأحس ثقل هذه السلسلة ، وشدة ضغطها ، كلما توغلتُ فى سبيلى . .

— وىْ ! لا تبالغ يا عزيزى ! . . ألست ترى أنى قد أعطيتُ الكثير ؟ ! ألا أستند الآن إلى صدرك ؟ ! أما أبادلك الضم والقبلات ؟ ! فماذا تستطيع العذراء أن تسخو به بعد ؟ ! . . إنى لتسعدنى الساعة التى تجمعنا ؛ لكننى عذراء ، وأحب أن أحتفظ بزهرتى ناضرة . . إن زهرتى كنز ثمين : . وقد علمونى أن واجبى أن أحافظ عليها ناضرة ، وأنه

لا يجوز أن أبيح لأحد اقتطافها . . إلا لزوجي . . لقد شاع بينكم — معاشر الشرقيين — أن الفتاة الأوربية تستهين بعذريتها ، ويسهل عليها أن تضحي بها فى لحظة جنون ، وهذا خطأ صراح . . إن الفتاة الفرنسية لا تهب زهرتها إلا لمن تحب : زوج المستقبل . . حقاً إنه لاعار عندنا على من تتأجج فيها لواعج الهوى إذا هى اختارت من وقع منها موقع الفتون . . فالفتاة الأوربية — ولا سيما الفرنسية — ربة مصيرها كالرجل ؛ وليس لأب أو أخ أو ذى سلطان أن يميل بها عن مطامعها ، ما دامت طليقة من قيود الزواج . . إن قلوبنا تملك حرية الانطلاق بلا رقيب ولا حائل يقف بها عن مضاء الوسع . . ولو كنت فرنسياً ، أو كنت مقيماً فى وطني ؛ أو كنت أنا مقيمة فى وطنك ، لأملت أن نتزوج . . فاست أخفى عليك أنك رجلى المنشود ، الذى أتخيل أنه يجعل أيامى نشيد حب خالد . . والحب هو حياة حواء . . آه ! لو أنك جئت يوماً إلى باريس لوجدتنى أنتظرك . .

وقلت ، وقالت . . « وخلصنا الكلام كله » !

ومضت لحظة صمت وجمود وصراع داخلى فى نفسينا كلينا ، قطعتها بأن ضممت « أليس » إلى صدرى ؛ فدفعتنى عنها ، وقد غضت من بصرها ، وخفضت من صوتها ، وهى تقول : كفى ، كفى . . إننى عذراء . . حذار ، حذار . . أنا عذراء ، وباب الحجرة مفتوح !

انتفضت انتفاضة العقل ، وقهر النفس ؛ ونهضت وأنا أقول فى رعشة واضطراب : حسناً ، حسناً . . سأذهب الآن . . أرجو لك نوماً هادئاً ، وأحلاماً سعيدة ، يا ملاكى . .

وفزعت إلى حجرتى ، وأوصدت بابها إيصاداً ، وصدرى يكاد

ينشق عن قلبي ، ورأسي يزدحم بأفكار سود تحرمني المنام . .
والذي يشكو الحب يسهر !

* * *

— . . .   .

— . . .   .

— لكأنك لم تنم ليلتك ، يا عزيزي . . تفتير عينيك شاهد ودليل . .

— لقد امتد بي الأرق طول الليل يا « أليس » ، ولم يكن رقادي إلا سلسلة طيوف يبعثها سهاد الهوى . .

— هوّن عليك ، يا صديقي العزيز . . لماذا عجلت أمس ؟ كنت أود لو أحدثك كثيراً ، لكنك تركتني ، وعدوْت . . إني لن أدعوك الليلة إلى حجرتي . . إلا . . إلا إذا وعدتني أن تكون ولداً طيباً . .

— سأكون أطيب الأولاد : ولن تجدي مني غير ما يرضيك : . عذراً جميلا يا « أليس » إذا كنت لم أستطع أن أملك قياد نفسي حيال فتنتك الطاغية ! لن أضايقك الليلة بحماقتي . .

ثم قضينا يومنا في غبطة عميقة ، وبهجة غامرة . .

ما أروع أولئك الساعات تنقضي بين العناق والقبلات ، والضم الوثيق ، والنظرات الساحرة ، والأحاديث الشهية الطلية ! ما أكثر ما لذتني ! وما أشد ما عذبتني في آن !

وإذ ضمتنا حجرتها العاطرة ، بعد منتصف الليل ، أحسست الحزن يغمر نفسي ، والهم يحيط بها من جميع أقطارها ، ورأيتني أفكر في الساعة الكئيبة الآتية ، لا ريب . . إن لم تكن غداً فبعد غد . . ساعة تنقشع تلك الهالة النورانية عن الواقع المر ، والفراق المتوقع ، وفقداني هذا الحب ، وحرماني دنياه المسحورة !

ترقرق الدمع فى مقلتىّ ، وانحدر على خدىّ ، فاندفعت إلى باب الشرفة أتطلع من وراء زجاجه إلى أنوار الحديقة ذات الألوان المختلفة ، لأحجب دموعى عن « أليس » . . ولم أجرؤ على أن أرفع عينى لأراها قد لحقت بى . .

وضعتْ يدها تحت ذقنى ، وحولت نحوها وجهى ، وحدقت إليه برهة ، ثم ارتمت على صدرى ، وقبلت شفتىّ ، وقالت : ما بلك ، يا صديقى العزيز؟ أى شىء ساءك وأحزنك ، يا طفلى الحبيب ؟ !

ثم اتجهت إلى الباب توصده . . فاستيقظت الأفعى الراقدة فى أعماقى ، وفعلت الخمر فعلها ؛ وأفلت منا الزمام ، وضاعت فضيلة الصبر ، وأتينا على فضيلة العفة !

مرت الأيام كأعذب الأحلام ، لا تحيا فى وضح النهار ! . . وحانت ساعدة الأحزان . . ساعدة الوداع الذى لا ندرى ألقاء بعده ، أم فراق الأبد ؟ !

استقبلتنى « أليس » فى حديقة « الفيلا » التى يقيم فيها شقيقها ، وعلى وجهها مسحة من الألم والهم . .

وقفنا فى ظل دوحة حانية ، فقالت : سويعات ثم أطير عائدة إلى وطنى ، بعد أن طرت أنت بى على أجنحة السعادة . . لن أنسى ما حييت — هذه الأيام الحلوة التى سعدت بقضائها فى وطنكم الجميل . . لقد تذوقت فيها ما لم أتذوق من قبل !

عقَل الحزن لسانى ، فقدّمت إليها — والدمع يملأ مقلتى — تحفة شرقية ، هى حقيبة حافلة بالتهاويل والصور المصرية القديمة ، من صناعة « خان الخليلى » ، وقلت وأنا أتلعثم وأتلجلج : أرجو — يا عديلة روحى — أن تقبلى هذه تذكاراً لهذه الأيام السعيدة .

— شكراً ، يا « عبد الرحمن » . . سأصلى من أجلك ، يا صديقى

العزيز ، ما دام لى لسان ناطق ، وقلب خافق ، وعين أستطيع أن أرفعها إلى السماء . . سأذكرك يا حبيبى . . وسأحسن ذكراك ، والحديث عنك . . ويكفيك أن تثق أننى سأذكرك ما تردد فى صدرى نفَس . . وإنى لمفارقتك وقلبى يحدثنى أننا سنلتقى مرة ثانية ، وأننا سنجدد هذا العهد السعيد . . إن رحلتى إلى بلادكم قد ملأتنى نشوة ومسرة وأنساً . . وما حسبتنى ألقى من المتعة والهناءة ما لقيت . . وداعاً . . لا ، بل إلى اللقاء ، واللقاء القريب ، أيها الصديق الحبيب . . فى باريس هذه المرة . . إنى لمنتظرتك . . فلا تتأخر كثيراً . . إلى اللقاء يا حبيبى !

لم أستطع غير تجفيف عبراتى المتساقطات . .

وتعانقنا فى قبلة طويلة ، وشددت على يديها الناعمتين ، وقبلتهما . وقلبى متدله ولهان ، تنهشه لواذع لا أعرف لها اسماً ، ولا أستطيع لها وصفاً وتحديداً . .

وهرولت إلى الشارع ، وعيناى لا تبرحان تدمعان ، وطفقت أمشى كأنى مخمور ، أقتلع قدمى من الأرض اقتلاعاً ، وأتمتم بكلمات يمليها الهم الأرعن ، والحرقة العمياء . .

وصلت إلى شاطئ النيل ، فكففت عن المسير ، واعتمدت بمرفقى على السور الحجرى . . كان الحجر بارداً ، والشارع هادئاً ؛ وكنت فى حاجة إلى هذه البرودة ، وإلى هذا السكون ، ليتضح إحساسى بما فىّ من حمى واضطراب . .

كانت هذه الوقفة روْحاً لى ، فقد أنعشنى هواء الليل البارد ؛ وبدأت أتمالك أنفاسى ، وأستجمع أفكارى التى شردت فى كل سبيل ، كجياد عربة جمحت ، وقد أيأسها طول الشوط !

يالله ! . . كم خلّفت لى « أليس » من ذكريات عِذاب ، تجدد لى الهم والعذاب !

١٧

سافرتْ « أليس » ، وحزنتُ حزناً أليماً لفراقها . .

ثم لم ألبث أن عدت إلى أحضان « ريتا » ، وإلى متعة الروح والعقل والقلب فى جوار « نعيمة » ، حتى جاء اليوم الخامس عشر من فبراير .

أذكر هذا اليوم المشئوم ، ولن أنساه ما دمت حيًّا ؛ فى هذا اليوم أعد إبليس عدته ، وأحكم تدبيره ، وهيأ لى مائدة طيبة ، ، وأتاح لى فرصة الخلوة بالحبيبة المستكبرة . .

كانت « نعيمة » قد وثقت بى ، بعد الجفوة الماضية ، واطمأنت إلى نبل صداقتى ، وعادت تتردد على شقتى ، فى رفقة أخيها « طارق » ؛ فلما تخرج « طارق » فى كلية التجارة أمست تزورنى فى صحبة ابن خالتها « خالد » ، الذى سيتقدم لامتحان الشهادة التوجيهية فى نهاية هذا العام الدراسى . .

وفى الخامس عشر من فبراير كنت أنا و « نعيمة » على موعد ، لنتناقش معاً فى إحدى مسرحيات « راسين » .

اصطحبها « خالد » إلى باب العمارة ، وتركها تصعد وحدها ، مطمئنًّا إلى أننى لست وحيداً فى الشقة ؛ وذهب هو ليلتقى بصديقته — — كما عرفتُ فيما بعد — ويرافقها إلى دار من دور السينما تعرض « فيلماً » غراميًّا مثيراً .

دخلت « نعيمة » شقتى ، وهى تختال اختيال الغانية تشعر بفتنتها ، وتعرف قدر جاذبيتها ، وسحر جنسها . .

ما أشد هدوءها ! ما أروع وداعتها ! ما أعظم ما تثير شخصيتها

فى نفسى من أثر طاغ ، وشعور بخوف مبهم خفى !

كان خادمى « محمود » وابنه « حمدان » قد ذهبا إلى حى « السيدة زينب » كعادتهما ؛ و بقيت وحدى ؛ فما إن علمت « نعيمة » أنْ ليس فى الشقة سواى حتى تملكها — وتملكنى أيضاً — شعور غريب ؛ فاضطربت فى جلستها ، واندفع الدم إلى وجنتيها ، وهبّت تريد الانصراف ؛ فأخذت أهدئ روعها ، وأطمئن قلبها ، حتى هدأت واستكانت . .

وأيقظ فىّ حديثها ، وضحكها ، وعطرها ، ذكريات كثيرة : ليلة عيد ميلادها . . يوم حديقة الأسماك . . يوم جزيرة الشاى . . ليلة سينما ريفولى . . ذكريات وذكريات بعثت فى أعماقى جراثيم الغيرة من خاطبها ، وراحت تغرينى بكل معصية ؛ فأسلمت نفسى للقوة الخفية التى تجذبنى إليها ؛ وقد سرى السمّ إلى روحى ، وقتل فيها كل عاطفة شريفة ، وكل ميل طاهر إلى الفضيلة ، فاستسلمت باختيارى إلى أطياف الخطيئة والإثم ؛ وقد جنّد حقدى على الخطيب « محسن » كل ذرة فى كيانى للانتصار عليه فى خطيبته « نعيمة » . . . .

فطنت « نعيمة » إلى سقطتها المروعة ، وإلى الدركة الدنيا التى هبطت إليها ، فأخفت وجهها بيديها ، وصاحت تشهق وتنتحب ، وتبكى طهارتها السليبة ، وعفتها المغتصبة ؛ ثم نهضت كأنها لبؤة قد استثيرت ، وأخذت تسب وتلعن ، وتدور فى أرجاء الشقة كالمجنونة ؛ تخرج من حجرة لتدخل حجرة ، وهى تتلفت ذات اليمين وذات الشمال ، زائغة البصر ، شاردة اللب ؛ وأنا وراءها ، أحاول أن أعزيها ، وأهوّن عليها فجيعتها ؛ وهى لا تنفك سائرة دائرة ، لا تنظر إلىّ ، ولا تنصت إلى قولى ، حتى أصابها الإعياء ، فانكفأت إلى السرير كالطائر الجريح ، تجهش وتتقلب ، ويهتز بدنها ، كأنما مسها تيار كهربى ؛ فانحنيت عليها ، وجعلت أربّت ظهرها ، وأمسح رأسها ، وأقول : اعذرينى ،

يا حبيبتى . . إننى أحبك . . بل أنا مجنون بحبك . . ولم أجد سبيلاً غير هذا يصرفك عن « محسن » ، ويربطك بى . . أحبك ، وأريدك لى . . أريد أن نتزوج ، ونحيا معاً طائرين غردين فى بستان الغرام . . أحبك يا « نعيمة » . .

اختلجت شفتاها بقولها: لا تُدِر السهم فى قلبى . . أرجوك . . أرجوك ؛ دعنى ومصيبتى . . إنما أنت وحش . .

ـ ألا يشفع لى أنى أحبك ؟ !

فازدادت رعدة بدنها ، وقالت : لا تنطق بهذه الكلمة مرة أخرى . . تحبنى ؟ ! هل الحب عندك أن تسلبنى كنزى ، أيها الذئب الضارى ، والكلب المسعور ؟ !

وتعالى نحيبها ، واشتد لهاثها ، وأسرع ارتفاع صدرها وهبوطه ؛ ثم صمتت لا تنطق ، وهى تسكب الدمع غزيراً ، وقد طغت الجهامة على قسماتها ، وأشاعت فيها لوناً قاتماً لا يمسخها ، لكنه يسكب عليها طلاء من الهلع . . فحلك فى صدرى انفعال عنيف ؛ وكوت قلبى آلام نفسية قاسية ، وأدركنى الخرس ، فارتميت بجوارها أبكى بكاء لم أبكه من قبل ؛ وقد غمرنى الحزن ، والحسرة ، والندم . .

ثم أحسست يدها على رأسى ، وسمعت همسها ، وهى تقول فى صوت تلفه مسحة من الألم العميق : أتبكى الآن بعد ما حطمتنى ، وهدمت ركن سعادتى ؟ !

وأخذت تغدق الدمع هتاناً ، وأنا أبكى معها وعليها . .

لهف نفسى عليك يا « نعيمة » ! . . لهف نفسى عليك ، وعلى شبيهاتك اللائى وقعن فى حبالى ، فكن ضحايا بريئة ، وقرابين طاهرة فى معبد الشيطان . .

لقد قطفت من قبلك ومن بعدك زهرات عبقات ، لكنى لم أحس

لهن الأسى والألم ، والحسرة والندم ، قدر ما أحسسته لزهرتك أنت ، أيتها الحبيبة العزيزة !

لهف نفسى عليك وعليهن !

إن قلبى ليعول وينوح ، وأنا أذكرك ، وأذكرهن ، وأذكر تلك المخازى التى أقبلت عليها فى ثبات عجيب ، وفى جرأة لاهية ؛ بل فى نذالة خسيسة ، وخسة دنيئة ، لا تسمو إلى الحضيض ! . .

أية غيلان تخايلنى فى صحوى ومنامى ؟ ! أى عذاب يعصر قلبى عصراً ، وأنا أذكر تلك الصبايا البريئات ، والضحايا الغاليات ؟!

إيه يا قلبى ! لكم أتعذب من أجلك ، أيها القلب التعس ! فمنذ صحبتنى وأنا لا أبرح أثقل عليك بالخطايا والآثام ، وأحملك من الأوزار ما تطيق وما لا تطيق . . مسكين أنت أيها القلب .! إنك لن تعرف — منذ اليوم — راحة ، ولن تحس هناءة . . فاملأ أيامك بالولولة والنحيب ، واعصر ما تبقى فيك من دم قطرة قطرة . . إذا ضمك ظلام الليل ، وخيم عليك سكونه ، وجدت فى فراشك النار التى لا تطفأ ، والتى لا تبرح تشويك ، وتحرمك المنام . . فإن استطعت أن تخبى النار بدموعك حيناً أحسست الحيات التى لا تموت ، تنهش بأنيابها ضميرك ، وتذبل بسمومها بدنك ، حتى تطويك وتقضى عليك ! فاذرف دمعك حبات من ذوب الشجن ، يتألق فيها الندم . . نح يا قلبى ، وأرسل نواحك يدمى أفئدة السحب . . أيها البائس ، يا حليف الهم ، وأليف الحزن ، ابك على مخازيك ، ابك الضمير الذى مات . . افتح عينيك الدامعتين حيناً بعد حين ، وارمق ماضيك تائباً نادماً !

١٨

تصافينا أنا و « نعيمة » . . غير أنى أصبت ببرود فى عاطفتى ، والتبست علىّ الأمور ، وضلت وجهة مسيرى ، وغدا كل أمر يحيط بى تافهاً سخيفاً ، لا معنى له ولا وجود ! . . فمنذ تلك الفعلة تغيرت نظرتى إلى كل شىء ، وانقلبت القيم ، وبدأت مصائبى . . وحين أقول « مصائبى » لا أريد بذلك — على وجه التخصيص — إلا هذه المتاعب العاطفية التى عانيتها ، وتلك الأزمات النفسية التى أتخبط فيها إلى اليوم . والتى قد لا أخرج منها أبداً !

نعم ! كان حادث اغتصاب « نعيمة » كالزيت تصبه على النار ، فيندلع لهيبها ، وتندفع فى سبيلها ، تدمر كل شىء ، ولا تبقى على شىء ! فقد انطلقت بعده متمرداً مجنوناً ، أحس الظمأ القاتل إلى مجهول . وضاعف من تمردى وجنونى أن « نعيمة » لم تعد تلك الفتاة النقية ، والعذراء الطاهرة التى عهدتها ، بل أضحت « امرأة » تعرف كيد النساء ومكرهن ، وتفسد عليها الغيرة ما فى قلبها من حب طالما أولتنيه ، وطالما نعمت به !

وزاد الطين بلة أن « ريتا » لمست انصرافى عنها ، وبُعد الفترة بين اللقاء واللقاء ، على قرب الجوار ؛ ورأت تردد « نعيمة » إلى شقتى ؛ فثارت غيرتها ، وملأت خواطرها الظنون والأحقاد . .

والمصائب لا تأتى فرادى ! فبينما أنا تائه حائر ، غارق فى هذه الغمرات التى أحاطت بى ، إذا الموت يمزق صدرى ، ويفجعنى الفجيعة الكبرى . .

سلبنى الموت أمى !

وحزنت لفقد أمى أشد الحزن ، وأعمقه . . ولعلّى لا أزال حزيناً لفقدها إلى اليوم . .

شيعت أمى إلى مثواها الأخير . ثم عدت إلى القاهرة ، فإذا فجيعة أخرى تتلقانى . . لقد فجأتنى « نعيمة » — وقد هاجت فيها الوهلة — بأن أحشاءها جاهرتها بأنها حامل . .

وسُقط فى أيدينا ، وضاقت علينا الأرض بما رحبت !

إن نكن قد حجبنا غرامنا الدنس ، فكيف نخفى واضح الحمل ؟ ! . . وإن نكن قد استطعنا أن نستّر معصيتنا ، فكيف نقوى على ستر ذيولها ؟ !

فزعنا إلى طبيب يهودى ، وسخونا له فى الأجر ، فأسقط العلقة قبل أن تصير مضغة مخلقة . . ونجت « نعيمة » من الخطر . ونجونا معاً من الفضيحة والعار ، وتنفسنا الصعداء . ومنذ هذا اليوم تحامت « نعيمة » أن تخلو بى ، مهما أتذلل وأحاول .

* * *

ناءت سنواتى العشرون تحت ضغط هذه الأحداث المتلاحقة ، وشغلتنى همومها وأحزانها ؛ فتباطأت فى الكتابة إلى « أليس » ، وفى الرد على رسائلها .

ويوماً حمل إلىّ البريد رسالة لم أكن أتوقعها ، رسالة بالفرنسية من القاهرة لا من باريس ، وبخط غير خط « أليس » الذى أعرفه جيداً ، وأميزه من بين عشرات الخطوط . .

سحبت من المظروف ورقةً زرقاء ، ونظرت — أول ما نظرت — إلى التوقيع فإذا هو « مرجريت » !

أخذت أتأمل الخط الأنيق الناعم الضئيل ، كأن كاتبته تخشى أن تضغط على القلم . . ثم قرأت الرسالة مرة ومرة ، فداخل نفسى شيء

من الهدوء ، وولد فيها أمل جديد ، وأحسست كأن فى هذه الرسالة النجاة من الحيرة التى أعانيها ، والكآبة التى تخيم على حياتى :

« عزيزى عبد الرحمن :

« أبدأ فأعرب لك عن أصدق عزائى ، فى مصابك الأليم بوفاة السيدة والدتك . وعذراً جميلا إذا جاءتك تعزيتى متأخرة ؛ فما علمت بهذه الفجيعة إلا من رسالة صديقتنا كلينا الآنسة "أليس"، التى تسلمتها ضحى اليوم ، تستفسر فيها عن أحوالك ، وترجو أن تعرف ما حال دون ردك على رسائلها الثلاث الأخيرة ؛ وعهدها بك ألا تتوانى فى ذلك ، أو يشغلك عنه شاغل .

« إن "أليس" جد مشغولة عليك ، لأن رسالتك الأخيرة كانت — على حسب تعبيرها — مشحونة بالشكوى والأنين الذبيح !

« وقد شغلت أنا أيضاً عليك ؛ وإنى لأرجو أن يكون سبب انصرافك عن الكتابة إلى " أليس" هو الانهماك فى الدرس والتحصيل ، فأنا أعرف أنك مقبل على امتحان "الليسانس" .

« وإنى — إذ أتمنى لك النجاح الباهر ، والمستقبل الزاهر — لأرجو ألا تستثقل زيارتى ، لأطلعك على رسالة "أليس" وأقدم لك هديتها التى بعثت بها إليك من باريس مع زميل قدم من هناك . .

« أنت تعرف عنوانى . فإن كنت قد نسيته — ولا إخالك — فإن رقم تليفونى هو (••• •••) ، وأنا — عادة — لا أغادرالبيت فيما بين الساعة الرابعة والسادسة مساء . .

« ولك أطيب تمنيات

مرجريت »

* * *

وذهبت إلى زيارة « مرجريت » . .

كانت تقيم فى حى « الزمالك » ، فى بيت يطل على النيل الخالد ، بين أسرة فرنسية قد اتخذت مصر وطناً ثانياً لها ، إذ قضت فيها جل حياتها ، وولد أكثر أولادها فى القاهرة ، وتلقوا دراستهم الثانوية بمدارس « الليسيه » ، ثم أتموا تعليمهم الجامعى فى فرنسا ، وعملوا فى أقطار شتى ؛ ولم يبق منهم بمصر إلا شاب يعمل فى « شركة قناة السويس » ، ويقيم فى الإسماعيلية .

ورحب السيد « جلبرت » وزوجته بأن تقيم بينهما « مرجريت » تؤنس وحشتهما ، وتعمر دارهما كلما غابا عن القاهرة .

قضيت ساعة هنيئة مع « مرجريت » والسيد « جلبرت » وزوجته الشمطاء الظريفة . . ولما استأذنت لأنصرف ، نهضت « مرجريت » وقالت : إنى ذاهبة إلى حى « الدقى » ، حيث تقيم ، لأزور صديقة تسكن هناك .. ويطيب لى أن تصحبنى فى السيارة ، لأحملك إلى طيّتك . .

ــ ألف شكر يا آنستى . . إن هذا شرف عظيم لى . .

ولما أشرفنا على الشارع الذى أسكن فى أحد بيوته أشرت وقلت : إنى أسكن الطبقة الثانية من البيت السادس على اليمين . . أقصد أنى أقيم فى إحدى شققها . .

ــ إنه لشارع هادئ ، وإن منازله لأنيقة جديدة . .

وإذ وقفت السيارة بالباب نزلت ، وقلت فى لهجة لم تخل من توسل ورجاء : ألا صعدت معى ، ورأيت شقتى ؟

ترددت برهة ، ثم لانت أسارير وجهها ، وأشرقت عيناها ، وقالت فى صوت ساحر ، وبلهجة تنم عن تهذيب رفيع : يسرنى أن أصعد معك ، وأن أرى مسكنك . .

ــ ما أكرمك يا آنستى العزيزة ! وما أعظم ما توليننى من شرف

وسرور ! تفضلى . .

صاحت « مرجريت » ، وهى تجيل طرفها فى أرجاء الشقة ، وتطوف بحجراتها : ما أجمل مسكنك ! وما أنظفه ! . . من ذا الذى يتولاه بالعناية ؟ من ينظفه ؟ من يعد طعامك ، ويغسل ثيابك ؟

— تابعى « محمود » هو الذى يتولى الآن تنظيف البيت وإعداد الطعام . أما غسل الثياب فتتولاه غسالة تأتينا فى الشهر مرتين . . وقد كانت « فاطمة » — زوجة « محمود » — تقوم بشئون البيت ، ولكنها سافرت إلى البلدة وأطفالها الصغار .

— شقتك جميلة ونظيفة ، إلا أن مكتبك مهوش ، والكتب والأوراق متناثرة مختلطة غير مرتبة .

— حياة الأعزب ، يا عزيزتى . . ثم إنى أبذل جهداً فى الاستذكار هذه الأيام ، فالامتحان جد قريب .

وبدا علىّ الارتباك ، وأطرقت كتلميذ يقر بذنبه ، فأسرعت تقول : غداً تتزوج ، وتنتظم أمورك كلها .. إن رأيتنى قادرة على معونتك فى تحصيل دروسك فإنه ليسعدنى أن نتبادل المعونة . . أنا أساعدك فى دروس الآداب الفرنسية، وأنت تعيننى فى ترجمة بعض النصوص العربية . . فإنى أعد رسالة عن الفيلسوف الإسلامى « ابن سينا » ، وأجد صعوبة فى تفهم بعض النصوص وترجمتها . . أنا لست فى عجلة من أمر الرسالة ، فلنبدأ أولا بدروسك أنت . . اتفقنا ؟ !

— شكراً لك يا آنستى العزيزة . . سأحفظها لك منة لن أنساها على مر الأيام . .

ثم نهضت واقفة ، وبسطت يدها للتحية ، وقالت : طاب يومك يا صديقى العزيز . . أنا فى انتظار زيارتك ، لنراجع معاً دروسك . .

وفتحت حقيبة يدها ، وأخرجت منها « أيقونة » صغيرة عليها صورة

« العذراء » ، وقالت : أعلم أنكم ، معشر المسلمين ، تبجلون العذراء « مريم » ، أم « المسيح » ، وتكرمونها . . فاحتفظ بهذه « الأيقونة » تذكاراً لهذه الزيارة . . وثق أنها ستجلب لك الحظ السعيد .

— سأحرص عليها الحرص كله ، وسأذكر — كلما رأيتها — رقتك وكرمك . .

وأمسكت لا أزيد . وعادت هي تبسط يدها للسلام ، وتقول : إلى اللقاء . .

— إلى اللقاء ، وشكراً موفوراً يا صديقتى العزيزة .

* * *

أخذت أزور « مرجريت » فى مسكنها يوماً بعد يوم . . وتحدثنا عن الكثير من الأمور ، إلا أننا لم نذكر شيئاً عن أهم الأحاسيس التى كنا نحسها فى صميم قلبينا . .

وكلما مر يوم كنت أكشف أن « مرجريت » دنيا من الفكر والشعر والعاطفة لا يدانى أعتابها فى الفتيات والفتيان إلا القليل . .

إنها لتجيد الحديث عن الأدب والأدباء ، وعن الفلسفة والفلاسفة ، مثلما تجيده عن السياسة العالمية واتجاهاتها ، وأحدث ما وصل إليه الفكر الإنسانى من آراء ونظريات . . وكنت أنا فى جوارها أحس أنى أعيش فى عالم أحلام لذيذ شفاف ، وهى أمامى حقيقة ماثلة تشدنى إليها شداً . .

وفى كل مرة كانت تلقانى متبرجة تبرج الأنثى تصدّت للذكرا وهى دوماً العطوف الودود ، الساحرة اللحظ واللفظ .

مَن لى بها تحس النيران التى تلتهب فى قلبى ، وتشوى جوانحى ؟ ! . . وكيف تحسها وأنا أخافها وأتقيها ، وأخشى أن أبوح لها بغرامى المكين ، وأصف لها دائى الدفين ؟ ! . . وكيف أفعل ، وإنى لأتحاشى أن

تعتدّنى زير نساء ، ينسى الوفاء ، ولا يحفل بالعهود ؛ وهذه صديقتنا « أليس » لا تزال تواصلنى برسائلها وهداياها ؟ !

* * *

صحبت « مرجريت » غير مرة إلى أسواق القاهرة وملاهيها ، وإلى « دار الكتب المصرية » . . وكنت أسير إلى جانبها وأنا أفكر فى هذا الشعور الذى أحسسته يملأ جوانحي . . شعور لم أفطن إليه من قبل ، يوم التقينا عند « أبى الهول » ؛ ولم أفطن إليه طوال الأيام التى قضيتها معها ومع « أليس » ، فى الأقصر والقاهرة . . شعور لم أحسب أنى أجده لفتاة تعبر فى حياتى عبور السحابة ، لا نهتم بها إن أتت ، ولا نأبه لها إن ذهبت ، لأنها شىء لا تربطنا به صلة ، وليس له فى حياتنا أثر . . غير أن « مرجريت » جعلتنى أحبها بقلبى وعقلى ، وبدأت تنسينى مصائبى بحنانها ورقتها ، ولطف معاملتها ، وطيب ملاينتها . .

إنها فى الثالثة والعشرين . . جميلة جذابة . . وأهم ما يجذب فيها عيناها الدعجاوان اللتان تنبعث منهما أشعة الفتنة والسحر الحلال ، وشفتاها الممتلئتان اللتان تفترّان عن بسمة دائمة ، وروحها المرح الذى يجعلها كالطائر السحرى الجميل ، يتوثب بين الأفنان ، ويعكس على أوراقها أشعة جناحيه ؛ فهى تضفى من روحها الفرح والبهجة حيث تحل !

وأحببت « مرجريت » حبًّا ملأ وجدانى ، حتى توهمت أنى لن أحقق الحياة التى أتمناها إلا بأنوثتها الفياضة ، ولطفها الغامر ، وحنانها الدافق ، وجمالها الفتان ، وعقلها البصير ، وثقافتها الواسعة .

وهكذا كنت — فى آن — أشتهى « ريتا » ، وأحب « نعيمة » ، وأهوى « أليس » ، وأعشق « مرجريت » . . أجل ؛ كنت أعشقها وأشتهيها كما يشتهى النور ضرير ، أو كما يشتهى مقعد أن يسير ! . . حلم ناء ، وأمل بعيد !

وهذا أبلغ دليل يدحض رأى من يقولون : « العين لها ألف ، والقلب له واحد » ! فقد يعشق المرء غير أنثى فى وقت واحد ، وقد يتسع قلبه لحب الاثنتين والثلاث والأربع ، كالسكير الذى ينتشى من « الويسكى » ، لكن نشوته منه لا تنسيه نشوته من « الكونياك » . أو من « الزبيب » أو من « عرق البلح » ؛ مهما يختلف اللون ، ويتباين الطعم والمذاق !

* * *

كان يفتننى عقل « مرجريت » الناضج ، وكنت أشتهى جسدها الريان . .

وقديماً قالوا إن الرجل قد يعجب بجسد المرأة أولا ، ثم بعقلها أخيراً ؛ أما أنا فقد سحرنى عقل « مرجريت » أولا ، ثم عشقت جسدها أخيراً . .

وكلما استعدت صورتها فى خاطرى أحسست الرغبة ، وعانيت عذابها . . عيناها السوداوان تضيئان فى حلاوة ، وتترقرق فيهما بسمة وديعة كلما نظرت إلىّ . . رفرفة أهدابها الطويلة . . سحر حديثها . . رشاقة حركاتها . . رفع يدها بالقفاز فى دلال .. تصرفها الرشيق فى أثناء قيامها أو جلوسها أو اتكائها أو سيرها .. ثوبها الرقيق الذى يهب عليه النسيم فيخفق حول ساقيها الملتفتين ، فتسوى ثناياه بأناملها ، مارة بها على أطراف جسمها . . وكانت تأخذنى نشوة العاطفة وأنا أشرب بسمات ثغرها بعينى ، أو أطل منها على نظرة مرتبكة تلفنى بها . .

إنها قد ألهبت عاطفتى بهدوئها واتزانها ، وحدت بحنانها ورقتها كثيراً من انطلاقى وجموحى وغرامياتى العابرة ، وأعانتنى بثقافتها الواسعة فى تحصيل الدروس إعانة لا تجحد ، وكانت لا تفتأ تردد على مسمعى أنها تود أن أجتاز امتحان « الليسانس » بمرتبة الشرف ، وأنها

تعدّ لى مفاجآت سارة بعد النجاح .

وكنا – إذا نال منا الدرس والبحث – ننصرف إلى الحديث ، فنجد فيه متعة ولذة ، وأنا أسرح بصرى فى محاسنها ، وأحس أن قلبى يذوب بين أضالعى .

ولقد كنت أعد جملا كثيرة منتقاة ، لألقيها بين يديها ؛ فإذا حان وقت الكلام ذهبت تلك المختارات ، كما تذهب نفسى حسرات !

ويوماً خلا البيت من ربه وربّته ، وخدمه ، وثار بى الوجد والوله . فمددت يدى ووضعتها على يدها وقلت : آنسة « مرجريت » . .

فرفعت إلىّ وجهها ، وقالت : نعم !

– إنى لأعد هذه الساعة من أسعد أوقات عمرى ؛ فهلا قلت إننا صديقان !

– إننا صديقان يا عزيزى . . أتشك فى ذلك ؟ !

وحدجتنى بنظرة معربدة . . فضغطت يدها ، وأنا ذاهل عما أفعل ؛ وغلبنى الوجد ، فلذت بالصمت ؛ الصمت الشاعرى ، صمت القلب الذى ينظر ويحب ، ويحس ويأمل . . وكثيراً ما يكون السكوت الطويل حلواً ، على ما فيه من لهفة ورغبة ؛ ولقد تذوقت هذه الحلاوة ، بل لمستها ؛ فقد مرت بنا فترة من تلك الفترات الصارخة التى تتخاطب فيها الأرواح بلغة العيون ، وتتناجى فيها القلوب بالزفرات ! . . وكيف يتكلم من عقد لسانه ؟ !

وأخيراً تنهدت وقلت : ما أجهلنا ، معشر الشبان ، بطبائع الأنثى ! إن الواحد منا ليتمنى ويحلم ، ثم توقظه الحقيقة ، فيرى بدل الأنس وحشة ، وبدل النعيم عذاباً !

فافترت شفتاها عن بسمة حائرة ، وقالت : لم أفهمك . .

– بل تفهمين ، لكنك تتجاهلين !

ومرت فترة سكوت أخرى ، لكنها لم تطل ، إذ بددتها بقولى : كنت أعرف — منذ رأيتك — أن حلمى لن يتحقق ، غير أن الأمانى الكواذب كانت تخدعنى ، فأسكن إلى خداعها وأستريح ، فراراً من الاعتراف بالحقيقة التى أحاول التهرب منها . . وها قد صدمتنى الآن ، فعلمت مبلغ جهالتى وحماقتى . .

وكان صوتى متهدجاً حزيناً ، فتطلعت إلىّ وقالت : هلاّ فسرت ، ووضحت ما تروم قوله !

— إن كان يطيب لك سماع قصة أحزانى ، فلا تنسى ، يا آنستى العزيزة ، أن ترديدها يؤلمنى أيما ألم !

فتبدل إشراق وجهها ، وقالت : إن آلام الناس لا تفرحنى ، يا سيدى العزيز . كن صريحاً كعهدى بك . . ماذا تريد أن تقول ؟ ! أفصح !

فأدنيت رأسى من رأسها ، ونظرت فى عينيها ، وقلت : إن للأحلام قدسيتها .. مثلها فى ذلك مثل الحب !

اهتزت . . نشط الجاذب الذى يجذب كلاًّ منا نحو رفيقه . . ناداها الحب ، كما نادانى من قبل ، فاستجابت لدعوته ، واكتسحتها بلجج الصبابة ؛ فقالت وبصرها عالق ببصرى ، كما يعلق بصر المسحور بعينى الساحر : حقًّا ؟ حقًّا ؟ !

جذبت يدها ، وحدقت إليها ؛ فطار صوابى حين رأيت شحوب وجهها ، فطوقت خصرها بيمناى ، ثم قلت ، وأنا أعطفها نحوى : إنى أحببتك يا « مرجريت » منذ رأيتك ، وقد تعذبت طويلا ..

قلت هذا ، وضممتها إلى صدرى ، فما نفرت ولا غضبت . :

وطالت القبلة ، ونسينا كل شىء كأننا سكرانان ، أوكأننا صعدنا إلى عالم يفيض سروراً وأحلاماً ؛ وقد ذهلنا عن الزمن والحياة ، وخيل إلينا

أن العالم كله قد صمت ، ووقف ينظر خاشعاً مبتهجاً . .

ألا ما أجمل الحب ! وما أحلاه !

أفقنا من سكرتنا الطويلة ، وهبطنا إلى الواقع . . فقالت : « عبد الرحمن » ! « عبد الرحمن » !

لم أتكلم ، لأن القبلة الطويلة الساحرة قد سلبت كل ما فى روحى من قوة ، فلم أقدر على الكلام ، وإنما شعرت حينئذ أنى أحب « مرجريت » حباً مجنوناً ، وأحسست أن الحياة بدونها جرداء سوداء . .

وعادت هى تقول فى مرح لا ظل للغضب فيه : « عبد الرحمن » ! هل جننت ؟ . . كيف تقبلنى هكذا ؟ ! . . لكنى سعيدة يا « عبد الرحمن » !

ووجدت صوتى ، فقلت : « مرجريت » . . لم يدر بخلدى أنى جدير بحبك . . أتعرفين أنى أحببتك منذ بصرت بك عند « أبى الهول » ، وأنى أخفيت غرامى بين الحشا والضلوع ، وجهدت فى كتمانه ، مخافة أن تبدو منى بادرة تطلعك على سرى . . ليس لمثلى أن يحب مثلك ، فأنا لا أزال طالباً ، وأنت ذات مركز خطير . . لكن الحب لا يعرف الفوارق . . أحبك ، أحبك ، ولا تطيب لى الحياة بعيداً عنك . .

— سيكون أمامك وقت للحب ، بعد أن تنجح فى « الليسانس » . .

— كيف أقوى على الصبر ؟ ! . . إنى أحترق .

— الحب الصادق الطاهر يصبر ، ويتغذى من الأنسام العليلة ، والورود المتفتحة ، وشعاعات القمر الهادئة . . أما الحب الكاذب الداعر فمستعجل ، لا يطيق الصبر . .

— الأنسام العليلة ، والورود المتفتحة ، وأشعة القمر الهادئة — كل هذه ، يا حبيبتى ، إنما تتغذى وتنتشى بالتنهدات المشتعلة التى تنبعث من قلوب العشاق ، أكثر مما تنتشى بقصائد الشعراء فى كل زمان ومكان !

— أتفلسف الحب ؟ ! . . لقد تناول الناس — منذ أقدم العصور — الحديث عنه ، وتغنوا به ، وبحثوا نواحيه ، لكنهم لم يتبينوا موقعه من حياة الإنسان .. حقاً ، إن الحب بأوسع معانيه هو ألزم الأشياء لصحة الإنسان النفسية ، لكن هناك فرقاً بين الحب والجنس . . وأنت تخلط بينهما ..

— إنى بروحك أحيا ، وبقلبك أحب ، وبعينيك أبصر جمال الحياة ، و . . .

— وأنا أريد أن أجعل لهذا الحب ، بل لهذه الحياة ، هدفاً وغاية . . إنى أتطلع إلى المستقبل . . فلنصبر حتى تتخرج . .

— عواطفنا ليست طوع أيدينا ، يا حبيبتى ، وإنما هى طوع قلوبنا ، تحركها كيف تشاء ، وأنى تريد . .

وحدقت إليها ، فوجدتها تحبس أنفاسها المضطربة بجهد جاهد . .

ثم مدت يدها المرتعشة ، وربتت يدى ، فاشتجرت فى نفسى خواطر متباينة ، لا أعرف ما آخذ منها وما أدع ؛ وهممت أن أقول شيئاً ، لكنى أمسكت ؛ فقد كان حبى جباناً لا يتسم بالجرأة ؛ وكيف لا ، وتجارب الماضى تجعله جديراً بأن يشفق ويحذر ؟ !

وبعد لحظة صمت قلت : حسناً ، حسناً يا « مرجريت » . . لقد وعظت فأبلغت . . سأجتهد ، وسأنجح ، وسأكون جديراً بك ، وبحبك .

* * *

وإذ عدت إلى بيتى وجدت أنى غير مستطيع أن أفعل شيئاً ؛ ففى رأسى دوامة تدور ، تعرض صورة « مرجريت » ، وحركاتها ، ولفتاتها ، وأنغام صوتها . . فأطفأت نور الحجرة ، وجلست فى الظلام أفكر ، وأعيش مع أحلامى . . وكأن القمر قد حن على ، ورق لما أقاسى ،

فدلف إلى الغرفة فى سكون . .

وارتميت فى فراشى تلك الليلة ، وقد ازدحمت ذاكرتى بصور « مرجريت » و « أليس » و « نعيمة » و « ريتا » و « هدى » . . وبدأت أطيافهن تعذبنى ، وأنا أغالب دمامة الوجه الفاجع ، وأجاهد الشهوة القاهرة . .

ومرت الأيام ، وأنا أزور « مرجريت » ثلاث مرات فى الأسبوع ، ونتناقش فى دروسى ، وفى كل شيء ، عدا الحب . .

ثم غرقت فى شواغل الامتحان . .

ثم فارقت القاهرة ومن فيها ، وفى القلب ما فيه !

١٩

وصلت إلى منزلى ، ومسقط رأسى . .

وكنت أظننى واجداً فيه لبانة من العيش . خلفها الزمان هنالك ؛ وكنت أظننى واجداً فيه رجع حنينى ، وصدى شكواى ، وخازن بثى ونجواى . . أو كنت أظننى — على الأقل — واجده يعرفنى ، ويرحب بى ، ويلومنى ، ويعنفنى ويقسو على ، إن كنت أهلا للوم والتعنيف والقسوة ، لكنه لم يفعل من ذلك شيئاً . . لم يلتفت إلى ، بل أنكرنى ؛ فاستوحشت ، وعزّ علىّ منه ، وجعلت أسترضيه وأناجيه : أدخل غرفاته ، وأدلف إلى شرفاته ، وأقف فى ردهاته مردداً النظر ، تائباً نائباً ؛ لكنه لا يجيب ، ولا يلقى إلىّ سمعه وبصره .

أنعمت النظر فيه ، فوجدته يرثينى ويبكينى . . إنه ظننى قد مت ، أو هو قد حكم علىّ بالموت ، فانتزع حياته من حياتى ، وهمه من همى ؛ وظل إلى اليوم يبكى الأحياء والأموات .

لو كان للمنازل قلوب لعرف منزلى كيف تألمت له سالبه الموت جوهرته الثمينة ، ففقد روح حياته ، وتفرق جمعه ، وزال عنه الحشد والعدد العديد ، والنزاع والتهديد . .

لو كان للمنازل قلوب لعرف منزلى أنه كلما أمعن فى القدم ، وأمعنت أنا فى البعد عنه ، ازددت له حنيناً وصبوة وشفقة وإجلالاً ، وتلمست فيه صباى النقىّ ، أريد أن ألمسه فى صورة مجسمة ، لأحيا ذلك الصبا الطاهر من جديد ؛ لكن هيهات !

أين منزلى الذى قضيت فيه طفولتى ، بما كان فيها من براءة وطهارة وتجمُّع أهل ولدات ؟ ! أين منزلى الذى تلقيت فيه ضربات التأديب الموجعة ، وكلمات التأنيب القاسية ، وكدت لأهله ، وكادوا لى ، وتقلبت فى إصباحه وإمسائه دهراً ما كان أبهاه يوم كان ، ويا ما أقضَّ مضجعى لذهابه الآن ؟ !

ويحك أيها البيت ! يأيها الذى يستنطق سنى المارة ، بل سنى الدهر كله ، فيكوّرها جميعاً فى خلدى ، تتحدث عن اليأس فى البقاء والأمل ، لكأنى أعود معك حدثاً صغيراً ، ولكأنك أحد أعمدة الخشب حاملات أسلاك المسرة فى العراء ، فكلما سألتك سمعت منك كما كنت أتسمع من تلك العُمُد حيث تقول : هنا الأسرار المحجوبة ، والألفاظ الطائرة ، وهيهات أن أبوح لك إلا بصدى الألفاظ ، ووهم الأسرار !

أيها البيت الزاهد ، الذى يحمل على الزهد ، أين ربتك وملكتك ؟ أين أهلوك ؟ ألهم أرجل بها يمشون ؟ ألهم أيد بها يبطشون ؟ ألهم أعضاء بها يتحركون ؟ أم أغنتهم عنها حركة الحواس الخفية ، كمن كان عالمهم مسحوراً فى القماقم ؟ !

عجباً ، عجباً ! . . يقول العقل الجاحد : إلا تكن المسحورات

فى القماقم حقاً ، فإن الموت وحده يجعل القلب يقف مؤمناً من غير ما آية أو برهان !

* * *

رحت أدير عينى فى أرجاء غرفتى ، وما حوت من نوافذ وأستار ، وكتب وأدوات ، فإذا عيناى تمجان الحجرة ، وكل ما فيها . .

هنا كنت أقضى سحابة نهارى وفحمة ليلى أقرأ وأحصل ، وأتعبد وأصلى . . هنا كنت أركن إلى كتاب الله ، وأتضرع إليه ، وأستمد رحمته ورضاه . . هنا كانت نفسى تحيا حياة الرضا والطمأنينة . . أما الآن فقد حلت بى نفس جديدة ، وأفدت معارف جديدة ، لكنها معارف مرة رهيبة ، ونفس جديرة بالاحتقار ، قمينة بالزراية أو بالرثاء !

وتلفت حولى ، فإذا الكآبة تخيم على كل شىء ؛ وإذا الصمت العريض طعامى فى هذا البيت ؛ وإذا الأفكار السود تعود تحيا فى دماغى ؛ وإذا أنا أكاد أجن من الفراغ والوحشة ، وفى نفسى من الرعدة ما لا أتماسك به على الوسواس العضوض . .

أيامى كلها تنقضى على وتيرة واحدة ، لا فارق بين الأمس واليوم والغد ؛ فمللت الحياة ، وكرهت العيش ، وسئمت هذه الوحدة التى تكتنفنى ، وتحيط بى . .

إلى متى تمتد بى هذه الحياة التعسة الكريهة ، فلا بارقة أمل ، ولا شعاع رجاء ؟ ! ألا يمكن أن يحدث شىء ما يغير هذه الحال ، ولو إلى أسوأ منها ؟ ! . . والقراءة ؟ . . القراءة التى كنت أجدها متعة خير متعة قد صارت عذاباً أى عذاب ! كل الكتب تعرّينى أمام نفسى ، فأراها متسربلة بالخطايا ، غارقة فى الآثام ، فيملأ قلبى اليأس من روح الله . . .

لماذا خلقنا ؟ ! . . لماذا نقوم حيث نحن ؟! . . أتراها حكمة عالية لا تدركها العقول خلقتنا ، وهي لا تفقه ما نحسه من آلام ، وتركتنا جزافاً لما تجري به صروف الأيام ؟ !

مهما يكن من أمر ، فما تبرح الدنيا — على الرغم مني — كما كانت ، وكما ستكون ؛ وما يبرح الحزن والموت يمشيان إلى جانب الفرح والحياة !

* * *

جعلت أبحث عما أشغل به نفسي ، فرأيت الحديقة قد أمست جرداء جدباء ، لا أزهار تؤرّج جوها ، ولا أشجار تصدح أطيارها ، ولا جداول تترقرق مياهها ، ولا أعشاب تكسو أرضها الكئيبة المقبضة . .

أمرّ خلالها فتمتلئ نفسي تبرماً ويأساً ، وأروح أسألها : كيف أبعث الحياة في هذه الأرض الموات ؟ هل إلى هذا البعث من سبيل ؟ ! وهل عليه من معين ؟ !

ظلت هذه الأرض الميتة عبئاً ثقيلاً عليّ كالداء العياء : فلما كانت العزمة إذا الجداول ذات الأخدود المظلم ، الممتلئ أحجاراً وقتاداً ، أصبح كل منها مرآة أصفى من كل مرآة ، وإذا هي ريّ لليأس الذي كان يضيق به القلب ، وينشق منه الفؤاد .

ولم لا ؟ أولم يصبح النيل طوع يميني ، ويجري من تحتي ؟ ! هذا الجدول ليس لي فيه شريك ؛ أدفعه فيندفع ، وأقف في سبيله فما يريم . . أنظر الحشرات الصغيرة ، والهنات ، وأوراق الأشجار ، سفناً غير ذات شراع ، تتسابق بين ضفتيه ؛ وأرى العصافير تمد مناقيرها ترشف مياهه التي تذهب بين أصول الزهر والشجر ، ترويها فتهتز وتربو . . فإذا أنسيت يوماً ، وصرفت الماء عن الأزهار والأشجار ، سمعت همسها إليّ متوسلة ، وحنينها إلى الماء ، ورأيت ذبولها من جفوته !

لقد كنت أحسب الماء ريّ الجسم الصادي ، فإذا هو في جدولي ريّ

الأرواح ، ومنى النفوس . . وها هى ذى الحشرات السابحة الواثبة تنداح على صفحته كالتجاعيد على الوجه الصبيح !

رأيت الأشجار الوارفة الفينانة — وقد ألقت سعيها واعتمادها علىّ ، وانتظرت منى كالطفل المدد والمعونة — كائناً حيًّا ذا شعور ، عاجزاً عن السعى لنفسه ، فأنا المانحه الحياة ، الواهبه النضرة والبهاء ، وأنا القادر على أن أمد له فى تلك الحياة ، وأضيف له فيها . .

والأشجار مختلفات متنوعات ، كأنها أصدقاء مختلفون . . هذه أحب منها فروعاً دانية فى متناول اليد ، أو ساقاً متعرجة ذات تجاويف ؛ وهذه تجذبنى إليها أزهار أو ثمار ؛ وتلك أعجب بطولها السامق ، الضارب إلى السماء ، وأغصانها التى تتأبى علىّ كالفتاة الوامقة الخجلى !

وكم يستميانى حفيف الأغصان ! وكم يطربنى أن أسمع صداحاً على شجرة ، أو أرى له فيما بينها سكناً ، أنا فى الحقيقة من أقام له الأسس والعمدان !

كيف أنت الآن أيتها الحديقة ؟ !

إنى لأتخيلك اليوم أرضاً يباباً ، تعمرك الحشرات والثعابين ، وتقيم البوم والغربان بين ما تبقى فيك من أغصان ! . .

كم لك ، أيتها الحديقة ، فى عنقى من يد ! . . لقد طالما فرجت كربى ، وآنست وحشتى ، وهونت علىّ مر الأيام ، وأنا أترقب نتيجة الامتحان !

٢٠

« الأستاذ عبد الرحمن . . منفلوط .

« أصدق التهانى لنجاحك بمرتبة الشرف .

« مرجريت »

تلقيت هذه البرقية وأنا أكاد أنفجر مما أعانى ، فكان فرحى بها لا يعدله فرح . . فرحت بنجاحى وتفوقى قدر ما فرحت لاهتمام « مرجريت » بشأنى ؛ فقد دلتنى برقيتها على صدق ودها ، وعلى عنايتها بأمرى عناية جاوزت ما أملت وقدرت . .

وسألنى « الشيخ » عمن تكون « مرجريت » هذه ؛ فأجبت — كاذباً مراوغاً — : زميلة قاهرية ، كنت قد رجوتها أن تبرق لى بنتيجة الامتحان فور إعلانها .

ثم سألنى عما اعتزمت أن أسلك فى حياتى الجديدة ؛ فقلت : إنى لا أحب أن تقذف بى « وزارة المعارف » إلى أقاصى البلاد ، مدرساً فى شمالى الدلتا ، أو فى جنوبى الصعيد ، مقابل جنيهات معدودات . . سأبحث عن عمل آخر غير التدريس ، إذ لا أجدنى راغباً فيه . .

والحق الذى لا مرية فيه أنى لم أعد أطيق الحياة بعيداً عن القاهرة ، بعد أن ألفت أضواء ملاهيها ، ونساء لياليها .

عدت إلى القاهرة وحدى ، وتركت التابع « محموداً » ؛ فلست بعد اليوم فى حاجة إليه ؛ فما أكثر مطاعم القاهرة ! وما أكثر من يغسلن ويكنسن !

* * *

ورأيت « ريتا » فكدت لا أعرفها من فرط شحوبها . . وأدركت من دمعها الساجم ، ولسانها المعقود ، ونظراتها الحائرة قدر ما قاست هذه العاشقة ، فى أثناء غيابى عنها .

أما « مرجريت » فقد استقبلتنى مبتهجة مطمئنة ، رشيقة القد ، خفيفة الحركة ، أنيقة المنظر ، باهرة الحسن ؛ كأن السرور الذى يملأ قلبها قد خلع عليها لألاء ساحراً ؛ فعيناها الواسعتان تتألقان بنور البشر ، ووجهها الصبيح يشع سعادة وفتنة . .

ثم قالت : لقد أعددت لك عملا يسرك . . بل أمامك عملان : إما أن تعمل فى « شركة قناة السويس » ، براتب شهرى قدره ثمانون جنيهاً ، وإما أن تعمل فى القاهرة ، بإحدى شركات التأمين ، براتب قدره ستون جنيهاً . . فأيهما تختار ؟ . . لا شك أن العمل فى « شركة قناة السويس » أربح لك ، لكنى . .

— لكنى أفضل أن أعمل فى القاهرة . . أفضل أن أعمل قريباً منك أنت يا « مرجريت » ، بأقل من أربعين جنيهاً . . ما قيمة المال — مهما يكثر — إذا أبعدنى عنك ؟ ! . . أنت لا تعلمين يا « مرجريت » قدرما لك فى قلبى . . حياتى — وأنا بعيد عنك — حياة فارغة خاوية . . سماء لا يلتمع فيها نجم : . حديقة خرست أطيارها ، وذبلت أزهارها ، وجفت جداولها . . ما الحياة إلا أنت يا « مرجريت » . .

وخيمت فترة صمت . . وكان الصمت فى هذه المرة أشد هولا من دوىّ المدافع ، حتى ألقت « مرجريت » رأسها على صدرى وقالت : آن لى أن أبوح لك بسرى . . إنى أحفظ لك يا « عبد الرحمن » فى قرارة نفسى حباً صادقاً ، منذ تقابلنا عند « أبى الهول » . : لكنى رأيتك تقبل على « أليس » ، ورأيتها تقبل عليك ، فمنعنى انصرافك إليها أن أعرض عليك قلبى . . لقد كانت « أليس » ضيفة تقضى بيننا أياماً ، ثم تعود إلى باريس ؛ فآثرت أن أكتم عواطفى ، وأن أدعكما تمرحان ، دون أن أظهر الغيرة والضيق اللذين كانا يملآن قلبى . . لقد كنت واثقة أنها ستسافر وتتركك ، وأنك ستبقى بجوارى ، وستكون لى . .

وبقيت بجوارها ، وكانت لى ، وكنت لها . . !»

لقد وازنت بين ثمانين جنيهاً من « شركة قناة السويس » وأنا بعيد عن القاهرة ، وعن « مرجريت » ، وستين جنيهاً من « شركة التأمين » فى القاهرة ، وأنا قريب من حبى . . ورأيت أنى — منذ عقلت ووعيت —

لا أقيم للمال وزناً ، ولا أهتم بجمعه وكنزه ؛ وأن الحب عندى خير من المال ، وأنى أدفع كل ما أملك ثمناً للحب ، وأعدّ كل شيء فى سبيله يسيراً ، إلا شيئاً واحداً هو عزتى ، فهى لدى أثمن من الحب والمال ، وأنفس من كل ما أبدعت الحياة !

* * *

احتفلت ببدء حياتى العملية ، فدعوت « ريتا » وزوجها « جوزيف » ، و« مرجريت » ، والسيد «جلبرت» وزوجته الشمطاء الظريفة ، إلى سهرة فى ملهى « الأريزونا » . .

وأكلنا ، وشربنا ، ورقصنا ، وسمرنا . .

ولم يغب عن « ريتا » ما تحمله النظرات بينى وبين « مرجريت » من حنين واله ، ورغبة جامحة ، وحديث عاطفى . . وأخذت تتفحصها من فرعها إلى قدمها ، وتنصت إلى حديثها ؛ فألفتها ذات جمال فتان ، ونضارة أخاذة ، وبهاء ساحر ؛ ورأتها ترتدى ثياباً فاخرة ، وتقدر لرجلها قبل الخطو موضعها ؛ فدبّت الغيرة فى صدرها ، وبدأت التصورات تتوالى على خيالها سريعة خاطفة ، تسخر منها ، وتدلل على عجزها فى عالم الحب والغرام .

ومنذ تلك الليلة أخذت « ريتا » تنغص علىّ عيشى ، وتحاسبنى على اللفتة والنظرة ، وعلى أوقاتى التى أقضيها بعيداً عن البيت ، حتى ضقت ذرعاً بها وبحسابها العسير .

وحاولت — بما فى كلامى من قوة تجبر على الإصغاء — أن أزيل عن صلتى بالحسناء الفرنسية « مرجريت » كل ما يدعو إلى ارتياب الإيطالية « ريتا » ، فأبت أن تصدق . . فلجأت إلى القسوة فى حديثى رجاء إقناعها ببراءة علاقتى بهذه الفاتنة التى تحمل فى قلبها النقاوة ، وفى روحها السماحة ؛ لكنى لم أبلغ بتلك القسوة ما أريد .

وزاد النار فى قلبها اشتعالا أنها رأت غريمتها تتردد على شقتى لزيارتى . .

ذعرت . . ضاق صدرها . . باتت تعيش فريسة نكبة قاسية . . دبّ إلى نفسها قلق فظيع ، وحقد أفظع . . انتفض كيانها كله انتفاضة الواله المغصوب .

لا ، لا . . كيف ترضى بهذه الهزيمة النكراء ؟ ! . . إنها لن تدع الأمور تسير فى طريقها . . إنها لن تسمح لامرأة ما أن تسلبها « حبيبها » ، وتحرمها المتعة التى تسعدها ، وتلطف عليها الحرمان . . إنها ــ كما قالت ــ أولى بى من أى امرأة أخرى . .

ماذا أفعل ؟ ! . . ماذا أصنع بهذه الدمية التى تتحرك بلا روح ؟ ! . . حقًّا إنها متعة فراش . . لكن الجسد وحده لا يكفينى . . وهأنذا قد وجدت عند « مرجريت » كل ما أشتهى من متع القلب ، والعقل ، والروح . . والجسد أيضاً .

كانت « مرجريت » ترقد فى أحضانى ، ورأسها على ذراعى ، وقد اتسعت حدقتا عينيها ، وعمها فرح شامل ، وهى تصغى إلىّ أرتل آيات الحب ، وأدعو الأمل الباسم ، والغد المشرق .

كنت أتمدد فى السرير ، وأدعها تعبث أصابعها بشعر رأسى ، وأنام ملء جفونى ، وهى إلى جانبى تنتظر يقظتى ، وتحلم فى اليقظة أحلامى فى المنام !

كانت ترى الجوانب الشاعرية والرمزية فى الوجود ، وتعرف قدر الحب ، وقيمة الحياة ؛ وكان قلبها كنزاً من العواطف ، وروحها بدعة من الفن ؛ وكنت أتمتع بهذا كله ؛ ولم يكن ينغص حياتى ، ويكدر صفوى ، ويحوّل سعادتى شقاء ، غير حساب « ريتا » وغيرتها التى لا تطاق .

وشئت يوماً أن أغيظ « ريتا » وأحزنها ، فقلت لها : إنى أفكر فى

خطبة « مرجريت » .

يا لهول ما ثار فى قلبها ساعتئذ ! . . لقد انقلب كيانها كله . وبلغ بها الحقد أقصى غاياته ، حتى هددت بالقتل .. هددت بقتل حبيبى « مرجريت » ، وقتلى ، ثم قتل نفسها ؛ فلا معنى للحياة عندها إذا فقدت حبى !

و« ريتا » إيطالية . . والمرأة الإيطالية مشهورة بعنف حبها ، شهرتها بقسوة انتقامها .

وخفت .. خفت القتل ، وخفت الفضيحة ، وخفت مجهولا لا أعرفه .. وكان الضيق النفسى يسبب لى أحياناً حالة من الجنون . . وكنت أحاول الهرب ، ولكن الهرب لم يكن ليجدى فتيلا ؛ فقد كنت أجد الخوف والقلق والضيق حيثما أذهب .

غيرت سلوكى . . فجعلت ألاطف « ريتا » وألاينها ، وأدللها ، وأبدى لها أحر العواطف ، وأفهمها أن غريمتها تجهل كل شىء عن تفكيرى فى خطبتها ، وأن تلطفى إليها لا يعنى إلا الاعتراف بالجميل ؛ لأنها هى التى هيأت لى فرصة العمل الذى أزاوله ، ولولا سعيها المشكور لافترقنا إلى الأبد ، ولكنت الآن مدرساً فى إحدى مدن الدلتا أو مدن الصعيد ، أحرق دمى فى الشرح والتعليم بربع راتبى الحالى .

وهدأت « ريتا » نفساً ، واطمأنت قلباً . .

أما « مرجريت » فقد أعلنت خطبتها فى حفل صغير ، ضم السيد « جلبرت » وزوجته ، وثلاثة من أصدقائى ، وبعض زملاء « مرجريت » وزميلاتها .

وبدأنا نلتقى فى مسكنها ، ونخرج معاً ، وندخل معاً بدون تحرج أو خشية . .

ولمحتنا « ريتا » ليلة ، ونحن نغادر إحدى دور السينما ، مرحين

مغتبطين ؛ فجرّت زوجها ، وشقّت به أمواج البشر ، حتى واجهتنا ، فحدقت إلينا ، وحيّت تحية موجزة ، وقالت : أسركما « الفيلم » ؟ ! . . وغابت بين أمواج البشر ، بعد أن كدرت صفوى ونكدت ليلتى .

والتقيت بها فى اليوم التالى . وقد أعددت عدة الدفاع عن نفسى ، وعن « مرجريت » ؛ لكنها لم تشر إلى لقاء الأمس بخير أو بشر . .

حقًّا إنها كانت مهتاجة ثائرة ، وكان فى صدرها مثل ما فى صدرى .. فعيناها الزرقاوان تتابعُ فيهما ومضات سريعة مخيفة ؛ وشفتاها الشهيتان تختلجان ، وتهمسان بكلمات غامضة ملتوية ؛ وذراعاها البضتان تهصرانى فى قوة مجنونة ؛ وجسمها الريان يرتعش كله محموماً . . وشعرت أن كل حركة ، وكل ارتعاشة ، وكل قبلة تبادلنى إياها ، إنما هى سهام مصوّبة إلى قلبى ، وإلى قلب رجل آخر .

يا للزوج المسكين ! إنه لجميل وسيم ، فتىّ الجسم ، غنىّ الجيب ، وإنه ليحب زوجته ويتعشقها ، وإنه لزوج مثالى تتمنى مثله العذارى ، لولا . . لولا ضعفه الجنسى . . هذا الضعف وحده هو الذى ينغص على « ريتا » حياتها ، ويقلب نعيمها جحيماً .. وربما كان هو دافعها الأول إلى الخيانة .

وإذ هممت بالانصراف ، جذبت يدى واستوقفتنى ، ونظرت إلىّ نظرة كلها غلّ وحقد ، وقالت : أنت تعجب — ولا شك — من أنى لم أذكر صديقتك « مرجريت » ! ثق أنى لن أقف فى طريقكما . . لكن احذر أن تخطو خطوة واحدة نحو الخطبة أو الزواج دون أن تنبئنى ؛ حذار يْك أن تقدم على شىء من مثل هذا قبل أن أضع حملى . . بعد أربعة أشهر . . إن الجنين الذى فى بطنى هو ابنك أنت . . أنا أدرى بهذه الحقيقة . . فإياك . . إياك أن تقدم . . أنت الجانى ! سأحرق قلبك ، وأشوى كبدك !

وعاودنى الخوف ، وازداد قلقى . .

ومرت ثلاثة أشهر ، لست أدرى كيف مرت ؛ وإذا « مرجريت » تحدثنى « تليفونياً » فى مكتبى ، على غير عادتها ، وتطلب منى — فى صوت متهدج — أن أوافيها على الفور فى مسكنها . .

وفجأتنى بالفجيعة التى هزت كيانى ، وبددت أحلامى ! :

لقد نقلت من القاهرة إلى بغداد ؛ وعليها أن تسافر إلى باريس بعد يومين اثنين . . كان وجهها يحاكى وجوه الموتى ، وقد تدلت يداها بجانبيها ، وانبهرت أنفاسها .. فأسرعت بكوب من الماء، وأدنيته من شفتيها المرتعدتين ، لكنى لم أقل : اشربى ؛ بل لم أرفع الكوب إلى شفتيها : ! كنت حائراً مذهولا .

أين آمالنا وأحلامنا ؟ !

لقد انطفأت كما ينطفئ المصباح ، وغربت كما تغرب الشمس أدركها الأفول !

٢١

سافرت « مرجريت » . .

واشتد بى الحزن ، وحزبنى الهم ؛ وأخذت موجات من القلق تنتابنى ، وغمرات من الذهول تطغى علىّ ؛ وشعرت أن كل شىء فى الدنيا قد تغير وتبدل ، وأن الأوصال والوشائج التى كانت تربط بينى وبين الحياة بحبل سرىّ قلما تمزقت وتقطعت ؛ ولم أعد أخشى شيئاً . . حتى القتل نفسه ؛ فقد مت ، واسترحت . . والموتى لا يشعرون : لا يفرحون ، ولا يحزنون ، ولا يخافون !

أين أنت الآن يا « مرجريت » ؟ . . ماذا تفعلين ؟ . : فيم تفكرين ؟

وهل فعلت بك الأشواق ما فعلت بى ؟ ! بفراقك ذقت الصاب والعلقم ، وتقرحت أجفانى من طول الأرق ، وكثرة البكاء . . وها هو ذا خيالك يطالعنى حيثما حللت . . عيناك ونظراتهما . . شفتاك وا بتساماتهما . . شعرك وأسلوبك فى تصفيفه . . حتى حفيف أثوابك . . كل أولئك يتوالى على ذاكرتى المكدودة ، ويعيد علىّ ذكرى الساعات الهنيئة التى قضيناها معاً لاهيين ناعمين . .

أترانى أحببت « مرجريت » حقّاً وصدقاً ؟ ! أهذه الموجة التى غمرتنى — منذ حين — هى موجة الحب الصادق ؟ أم هى غمرة من الفتنة ، عما قريب تنجلى ؟ !

لو أنها غادرت مصر قبل أن تتوثق عرى المودة بينى وبينها ، وقبل أن تصبح الصداقة هياماً وأشجاناً ، لعرفت كيف أسلوها ؛ أما وقد جرى حبها فى دمى فما إلى السلوان من سبيل !

* * *

كنت أيامئذ ، أملك أهم المواهب : الشباب ، والوسامة ، والثقافة الواسعة ، والشخصية القوية ، والمال الوفير ؛ فقد ورثت عن أمى ما كان يعد ثروة فى تلك الأيام ، إلى جانب راتبى الذى يساوى ثلاثة أمثال راتب زملائى الذين عملوا فى « وزارة المعارف » .

وهيأت لى هذه المواهب سبل الحياة فى بيئة يفوح منها ماتع العبير ، لكنى أوشكت أن أختنق بزهرها وعطرها ؛ إذ ولج فى حياتى شيطان جديد خبيث ، شديد الخطر ، هو داء القمار ؛ فقد أغريت حيناً بسباق الخيل ، و « البوكر » ، و « الكونكان » ، و « الباكاراه » ، و « البريدج » ؛ ولم أقلع عن غيى إلا لأعلق الرومانية الحسناء « جنى » ، الراقصة فى ملهى « الأريزونا » . .

عينان سوداوان براقتان ، وشعر حالك ، وبشرة بلورية ، وقدمان

صغيرتان وساقان رقيقتان ، وجسم نحيل عصبي ، يتلوّى ويتكور كجسم الثعبان ، ويطول ويقصر ، كأنه بلا عظام ، أو كأن عظامه لينة ، تلعب بها صاحبته كما تلعب بقطعة من عجين ؛ فبينا ترى رأسها بين فخذيها ، إذا أنت ترى قدميها فوق كتفيها ، وذقنها فى أعلى منكبيها ، وجبهتها تلتصق ردفيها ، مما يدعو إلى الدهشة والإعجاب بما تستطيع « جنى » أن تفعله بجسدها اللدن الذى له قوة الجبابرة ، مع ما هو عليه من تفكك العظام !

شاهدتها وهى ترقص هذا الرقص العجيب ، فلم أستطع التوفيق بين هزال بدنها ، وهذا النشاط فى رقصها ، وما يقال عن قوتها وبأسها .. : إنها لولب يدور على نفسه فى سرعة فائقة فلا يكاد المرء يرى غير خيالها ساعة تدور .. ثم تقف فجأة ، وكأن التيار الكهربى الذى يديرها قد انقطع !

أرسلت النادل يدعوها إلى الجلوس معنا ؛ وكنا ثلة من الأصدقاء .. فتأملتنا هنيهة من بعيد ، ثم أقبلت تضحك مرحة أو ساخرة .. لست أدرى !

لحظت أنها تحمل فى عنقها تعاويذ تخشاها ، ورُقًى تقدسها : منها تمثال صغير للسيدة العذراء ، وسن طفل ، وقطعة من جلد ثعبان ، وأشياء أخرى لم أستطع أن أتبينها ؛ لأن « جنى » لا تسمح لأحد أن يلمس هذه الأشياء المقدسة المسحورة .. ولما سألتها عنها ، ضمتها بيدها فى حب وحرص ، ووضعتها على فمها ، وقبلتها فى خوف ورهبة بدون أن تجيب .

و « جنى » ذات مزاج عجيب ، فهى مستهترة ماجنة مجنونة ، تهزأ بكل راغب ، وتداعب كل طالب ؛ لكنها — على خلاف زميلاتها — لا تلبى دعوة كل مفتون ، ولا تستجيب لنداء اللحم والدم إلا قليلا !

كانت تقضى أياماً صائمة عن الجنس ، فلا تسمح لرجل ما أن يمسها ، ولو كان أحب عشاقها ، وأقربهم إلى قلبها ؛ وفجأة ترمى بفضيلتها ، وتغوص فى أعماق اللذة ، ثم تعود إلى الصيام أياماً ، حتى تستعيد نشاطها وقوتها :

كم راودها الموسرون ، وكم تدلل لها المطهون ، وعرضوا عليها قلوبهم ، وحوافظ نقودهم ؛ فكانت تصدهم ، وتتأبى عليهم ؛ والسعيد منهم من تحن عليه بالمجالسة ، وتتفضل بالمنادمة ! فهى لا تقدم قلبها ولا جسدها إلا لمن تهواه ، لا لمن يقدم لها أوراق « البنكنوت » وزجاجات « الويسكى » و « الشمبانيا » !

* * *

على مدى عام ونصف عام كنت العشيق الأثير للرومانية « جنى » ، والعشيق الوحيد للإيطالية « ريتا » . .

وكان حرصى على استبقاء الصلة بينى وبين « ريتا » تصرفاً سديداً ، ولا شك ؛ فإن « جنى » تخوننى مع آخرين لا أعرفهم ؛ وخيانتها هذه أمر طبيعى ، ونحن متفقان عليها ؛ لأنها بعض عملها ، فلماذا لا أخونها أنا مع « ريتا » ؟ !

هذا إلى أن « ريتا » قد وضعت طفلا جميلا ، بل بالغ الجمال ، إنه بضعة منى ، وبضعة من أمه الفاتنة . . كم أحن إلى هذا الطفل ! وكم أود لو تتاح لى رؤيته ، وحمله ومداعبته ، ليلا ونهاراً ! إنه ابنى . . هذا هو الحق الذى لا ريب فيه ؛ وإن كان — قانوناً وعرفاً — ابن « جوزيف » و « ريتا » . وكان شوقى إلى الطفل « بيير » ينغص عيشى تنغيصاً ، ويشدنى إلى « ريتا » شداً عنيفاً . .

ثم إن « جنى » مهما اشتهيتها واشتهتنى ، فهى امرأة لا أمان لها ، ولا يفخر المرء بصداقتها ، لأنها لا تبرح تتنقل بين البلدان تنقلها بين الأحضان!

.. ثم غضب على « جنى » ذو جاه عريض ، كان أيامئذ يملك السيطرة والسلطان ، فأوحى إلى « وزارة الداخلية » أن ترفض تجديد إقامتها ، وأن تأمرها بمغادرة البلاد . .

وسافرت « جنى » إلى لبنان ، وقبعت صورتها فى ركن من أركان الذاكرة .

وإذا كنت لا أجرؤ على الاعتراف بأنى قد غرقت إلى الأذقان فى حب « جنى » ، فإنى لا أستطيع أن أنكر أنها قد أثرت فى تلافيف عقلى ، وخلايا مخى !

* * *

سافرت « جنى » وخلفتنى أعانى الشوق واللهفة ، كما فارقتنى من قبل « هدى » و « أليس » و « نعيمة » ، و « مرجريت » ، بعد أن أخذت كل منهن فلذة من قلبى ، وحفرت فيه أثراً لا يمحى ولا يلتئم !

وخلا الجو للعاشقة « ريتا » : . .

وأقبلت أنا عليها إقبالا ، وباتت هى تهيئ الفرص لنجتمع معًا اليوم تلو اليوم ، نغترف من اللذات ما نشاء ، والزوج مغفل غافل ، أو عالم متجاهل !

وفى ساعة من ساعات النشوة باحت الشقية بسر رهيب ، ملأ قلبى نفوراً واشمئزازاً ، بل نقمة وكراهية . فبعد ما يقرب من عامين اعترفت «ريتا» بأنها كانت عيناً علىّ ، تحصى حركاتى وتراقب اتصالاتى ؛ وأنها كانت تعلم مدى صلتى بغريمتها «مرجريت» ، ومدى علاقتى بالراقصة «جنى» ؛ وحددت لى أمكنة اللقاء ، وأزمنتها .. واعترفت — يا للمرأة الغيرى ! — بأنها كانت وراء نقل «مرجريت» من مصر ، والتفريق بينى وبينها ، وحرمانى مما كنت أتمتع به فى جوارها من حب بهيج ، وسعادة جاوزت حد الخيال .

غلى الدم فى عروقى ، وأنا أستمع إليها تعترف بأنها مثلت أمامى دور العشيقة الراضية المطمئنة ، فى حين كانت العواصف تنسف أحشاءها نسفاً ؛ فكتبت غير مرة إلى سفارة فرنسا فى القاهرة، وإلى وزارة الخارجية الفرنسية فى باريس ، تشكو « مرجريت » ، وتشوه سمعتها ، وترميها بأنها قد خطفت منها زوجها . وقالت إنها كتبت إليهم مرة ومرة العبارة التى تقطع أنها قد عجلت بنقل « مرجريت » : « .. فلتنقلوها من مصر قبل أن أقتلها » !

خرجت على ما عرفت به من حلم واسع ، وصبر جميل ، وإكرام للمرأة عظيم ، فصفعت « ريتا » على وجهها صفعة قاسية تعالى لها صراخها وأنينها . . وبصقت ، وهرولت غاضباً ، أسبها وألعنها : والقلب الثمل كالرأس الثمل ، لا يقوى طويلا على كبح مشاعره !

٢٢

ملأت الوحشة نفسى ، وعشت حيناً بلا حب ، حتى دعيت إلى حفل ذكرى زواج زميل فى الشركة ، والتقيت هناك بالحسناء السمراء « آسيا » ، فلطفت من هذه الوحشة قليلا . . غير أن المداعبات المتجاذبة ، واللقاءات القصيرة المتباعدة بينى وبينها ، لم تكن لتلطف حرارة قلبى ، أو تخمد النيران المشتعلة فيه ؛ فلم ألبث أن عدت إلى بعض فصول حياتى السابقة : أقامر ، وأصيد النساء . .

وباتت « فينوس » مشتهى نفسى صباح مساء ، وكذلك زميلها « باخوس » ! . . وصار انقطاعى عن الشراب والجنس أياماً يصيبنى باكتئاب النفس ، وضيق الصدر ، وفقدان الشهوة إلى الطعام ، وينزل بى الإمساك والأرق ؛ فأقضى ليلى متشنج الأعصاب ، أتململ فى سريرى ،

وأتقلب ذات اليمين وذات الشمال ؛ أطوى الوسادة على رأسى تارة ، وأدفن فيها وجهى تارة أخرى . . فأطلقت لنفسى العنان، وأعطيتها مداها فى الانقياد إلى هوى الساعة ، وتبذلت لكل ضروب الفجور والخلاعة .

كم قطفت من زهرات ناضرات ! كم تعثرت فى عقد عاطفية ، بما كنت أكشفه كل يوم فى عالم النساء ! كم تورطت فى مآس عنيفة ، وفواجع قاتلة ، كادت توردنى موارد الجنون ، أو تدفننى فى ظلام القبور !

وتراكمت علىّ ديون كانت من الكثرة بحيث كان يقفّ شعرى ، ويقشعر بدنى حينما أفكر فيها . . ووضع لى السم فى الطعام والشراب غير مرة ، وأطلق علىّ الرصاص مرتين !

وفاحت رائحة مسلكى الشائن، ووصلت أخبار طيشى وحماقتى إلى « الشيخ » فرذلنى ، وتصرف معى بصلابة قاسية، حتى هددنى بالحرمان من ملكه ، دون أن يدرك ما كنت أعانيه ، أو يعنى بإنقاذى مما كنت غارقاً فيه ؛ فبدأت عوامل الثورة عليه تتألب فى عقلى وتفكيرى .

ثم وقعت الواقعة ، وزلزلت الأرض زلزالها . . مات « الشيخ » . .

وأحسست أن شيئاً ما فى قلبى قد انقطع ؛ وملأت الكآبة نفسى ، ورانت على فكرى خواطر الشؤم والتشاؤم ؛ وخيل إلىّ أنى سأبوء فى حياتى بالخيبة والخسران ؛ لأن « الشيخ » قد انتقل إلى جوار ربه، وهو علىّ غضبان !

أخذت الأيام تمضى بى بطيئة مكتهلة قاتمة ، وأنا فى نجوة موحشة ؛ لا أجلس إلا إلى نفسى الحزينة ، ودموعى السخينة ؛ ولا أخلو إلا إلى ذكرياتى المضطربة وخواطرى السود ، أشدو دامعاً بالأنين الشاحب الذبيح !

يالحساب الضمير ! . . إن لحساب الضمير وخزاً مؤلماً ، لا تدفعه

المسرات ، ولا تمنعه العزة والجاه ، ولا تشفع فيه حفاوة الناس بالخاطئ الأثيم . . إنه ليس كالألم الذى يعترى الإنسان إذا جرحت عواطفه ، أو صودرت ميوله ، أو أوذيت مصالحه ، أو أصابه مس من الخوف أو الفاقة . إنما هو ألم مصدره ضمير الإنسان الذى يقسو عليه ، وحسابه نفسه التى بين جنبيه على أنه قد ارتكب أمراً يعلم جيداً حين يأتيه أنه حرام ، وأنه مخير بين أن يفعله ، وألا يفعله ، ومع ذلك اجترحه ، فكان من الخاطئين . .

إن حساب الضمير نار يحسها الجانى فى باطنه ، ويعلم أنها نار المجازاة العادلة التى لا مفر منها . . إنه النفس اللوامة ! . . آه منها تلك القوة التى تشتعل فى أعماقنا ، وتسيطر على كياننا ، وتفتش عن خطايانا ، وتحاسبنا عليها حساباً عسيراً ، وتحيل أمسياتنا جحيماً ، وأصباحنا عذاباً أليماً ! . . آه من هذا الهاتف الداخلى الذى يقلق مضاجعنا ، وينفى عنا الرقاد ، ويسلب منا بهاء الحياة ونضارتها ، ويتركنا فريسة لأعنف اللوم والندم !

لكم خلوت إلى نفسى ، وصليت وبكيت ! ولكم ركنت إلى الصيام أحاول أن أطهر روحى وجسمى ، وأعود إلى العفة والنقاء ! لكنى لا أكاد أتطلع فى المرآة ، وأرى وجهى الذى كان نقياً مشرقاً قد هزل ، وامتقع لونه ، حتى أوقن أن السخط السماوى يلاحقنى وأنى لن أستطيع أن أطهر روحى الباطنية ، مهما طهرت وعاءها المادى الخارجى ؛ وأن سهدى الطويل ، وصيامى المتواصل ، وصلواتى الكثيرة ، لن تغنى شيئاً ، ولن تدفع عنى العذاب الذى أحسه ، والعذاب الذى ينتظرنى .

كانت أطياف ضحاياى البريئة التى ضيعت مستقبلها ، وقضيت على زهوها وهناءتها ، لا تبرح تتراءى لى ؛ وكانت أشباح السنوات التى قضيتها فى خراب بينى وبين الله ، لا تنفك تتمثل أمامى تخيفنى ؛ فعنى الألم

الخامر نضرة صباى ، واضمحل جسمى ، ووهنت قواى ، وتحطمت أعصابى ، وتهدم كيانى ، ونزل بى داء عياء . .

كنت إذا أويت إلى فراشى ، محطم القوى ، متخاذل العضلات ، أحاول النوم — تتراءى لى الأشباح فى صورة بشعة . . أشباح من المردة فى سواد أفعالى ودمامتها ، فلا تزال تؤرقنى ، وتسهدنى ، وتسخر منى ، وتضحك من أساريرى الشاحبة . . ثم تدعونى إلى دنيا الإثم والشر ، وتسد فى وجهى أبواب السماء وفردوس الصالحين ، فتطير نفسى شعاعاً ، وتأسر القشعريرة جسدى ، وتشل فىّ حركة التفكير ، ويجف ريقى ، وتموت أصوات الاستغاثة وراء شفتى . . فإذا مددت يداً مرتعشة متخاذلة ، وجذبت الغطاء فوقى ، التف علىّ وعلى الأشباح ، تعانقنى ، وتعصر منى كل معانى القوة ، فأتصبب عرقاً ، وأتفصد هلعاً . .

فإن غلبنى النوم والتعب ، رأيت مواكب أجدادى ، ورأيت أبى التقى النقى ، ورأيت أمى الطيبة الطاهرة ؛ لكنهم جميعاً كانوا يشيحون بوجوههم عن ابنهم الزانى الزنيم ، ويضنون عليه بنظرة راثية !

وكان القلق النفسى ، أو الخوف من مجهول متوقع ، يحيلنى طفلا ضعيفاً ، مرتاعاً مبهور الأنفاس ، كأن جسمى مزود بتيارات نشيطة من الكهربا ، قتلت فىّ كل عاطفة نبيلة ، وأشعلت فى عقلى ، وجميع حواسى ، فكرة الانتحار . .

وأضلتنى بعض الشبهات التى لم أستطع لها رداً ، والشكوك التى لم أقو على مدافعتها بالحجة والبرهان ، فبرمت بهذه الحياة المجدبة الظاهر والباطن ، المصفرة الوجه والقلب ، حتى طابت نفسى إلى الموت . .

لمَ لا أنتحر ، وأنجو من هذا العذاب الأليم ؟ !

٢٣

شقيقى عبد الرحمن

ليس الصبر على متاعب الحياة هو الجبن – كما تقول – وإنما الجبن هو الانتحار ؛ والشجاعة هي الصبر . . وليس للشجاع صفة يتحلى بها ويوصف غير الصبر ؛ فهو أشق ما يكون ، ولا يتحمله إلا الأبطال ؛

وكلما ازدادت مشكلات الحياة ، وتوالت على المرء المآسى ، زادت حاجته إلى الصبر ، وإلى التمسك به ، حتى لا يترك للجزع والاستكانة سبيلا إلى السيطرة على عقله ، وإفساد تفكيره ، فيرى الطريق إلى حل مشكلاته مسدوداً . . فبالصبر – يا أخى – تتاح لك الفرصة لقهر أعدائك ، والتغلب على كل ما يعوق تقدمك ، والانتصار على كل متاعب الحياة .

أما الانتحار ، والهروب الظاهر من تبعات سلوكنا ، فضعف وخور ، لا يلجأ إليه إلا الكافر الجبان . . ولو علم المنتحر ما سيقدم عليه بعد هلاكه ، لفضل أن يعيش فى الدنيا جائعاً عارياً مجذوماً ، مبتور اليدين والرجلين ، على أن يموت منتحراً !

وإذا كان ما تمر به اليوم من أزمة روحية ، وضيق نفسى ، يبعثك على أن تنكر – والعياذ بالله – أن فى السماء إلهاً عادلاً رحيماً ، فليس أدل على وجوده – عز وجل – من حياتك هذه ، وما أنت فيه من الهم الذى تعانيه منذ سنين ، وأنت ذلك الشاب الفطن اللبيب النجيب ، فى حين أن « فهمى أمين » مثلا – وهو ذلك الجاهل الأحمق الذى لا يمتاز من البهيمة بشىء – ينعم بطيب العيش ، هانئ البال مستريح الضمير ! فلو لم يكن الأمر بيد إله موجود ، يدبر الأمر ، ويسير الخلق ، لكان كل منكما – أنت و « فهمى » – فى مركز الآخر . . هذا التباين وحده دليل على

وجود الله . . أما عدله ورحمته فلن تشعر بهما إلا إذا سلبك تلك النعم الجزيلة التي أسبغها عليك ، فأصمك ، وأعماك ، وأقعدك وسلط عليك من لا يرحمك !

يا شقيقي العزيز

إن الريح التي يسمح الله بهبوبها على البشر ليست دائماً هادئة رخاء ، وإن الإيمان كالبحر : يحمل أو يغرق ! والاستسلام لضربات أمواجه العاتية ، بدون تذمر ، يتطلب ثقة عميقة ، وعزماً لا ينثني . .

ومن أنا ؟ ومن أنت ، حتى نعاند الأقدار ؟ ! هل زاد الواحد منا على أنه رقم ضئيل ، في خانة الآحاد ، غارق في طوفان الأرقام التي لا يحيط بها العد والإحصاء ؟ !

لقد عشتَ ما عشت في دنياك هذي ، فماذا جنيت ؟ ! أو ماذا كنت ترجو أن تجني ، وأنت قوة دنيا تسيرها مشيئة عليا ؟ ! . . لقد عشت ما عشت بدون أن تدري شيئاً ؛ وستترك الحياة بدون أن تفطن إلى كنهها ، أو تدركُ سرها ؛ لأنك أخذت الحياة على أنها لعب ولهو ، وزينة وتفاخر ؛ ولم تعرف الحياة على أنها جد وكد ، وعمل وجهاد . والحياة — يا شقيقي — ترضى من لا يسرف في تقاضيها ، ولا يلحف في طلبها ، ويتكالب عليها . . وهي لا تخلو من الخير والشر ؛ فعوامل الخير والشر تعتور كل إنسان في حياته ؛ ولكن عاملا منها لن يقود خطاك إلى جهة معينة ، ما لم تستسلم أنت له ؛ فإن انتفعت بما أعطاك الله من وسائل الاهتداء سلكت طريق الخير ، وفزت بثماره ؛ وإن ذللت لشهوات النفس الأمارة بالسوء كان الشر سبيلك ، وبؤت بأوزاره . ففتش في أعماق نفسك لتعرف فيم أخطأت ؟ وفيم كان اعوجاجها ؟ وكيف غاب عنها أن تسلك الصراط المستقيم ، وهو منها جد قريب ، تهنأ بظلال وارفة من الهدوء ، وتعش بمنأى عن الندم ؟

إن الماضى لن يعود ، وإن المستقبل بيد الله ؛ أما الحاضر فهو وحده الذى نملكه ، فلنحاول أن نجعله سعيداً . .

وإن تعوّد الخير ، وضبط النفس ، أصعب من تعود الشر وترك النفس تنقاد للشهوات . . وإن عمل الشر يجعل التمادى فيه أيسر على الإنسان وأسهل ؛ لا لأن الشر – كما تقول – أصل فى النفس ، وإنما لأن عوامل الشر أقرب منالا ، وأقوى جذباً ، وأفعل سحراً وأعظم خداعاً . . ولو كان الشر أصلا فى النفس ما حادت عنه يوماً إلى جادة الحق والخير والجمال . . فليكن تجنبك الشر بقدر عنايتك بفعل الخير . . ولتفعل ما تسمو به نفسك ، ويمنحها سلامها ورضاها ؛ فذلك الأمر كله ، ومساك الأخلاق المثلى : ضبط النفس ، وتربية الإرادة ، واجتناب المطامع والشهوات . وهذا كله مرجعه إلى الإيمان . .

فإذا قرأت كتابى هذا فقل : أستغفر الله ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ؛ فإنك قد كفرت فى رسالتك ؛ وقد زاد هذا من ألمى لأجلك !

لتلجأ إلى الله ، ولتعتصم به ، ولتأوِ إلى كنفه ورعايته ؛ فليس أصلح لعلاجك من القلق ، واضطراب الفكر ، إلا الإيمان بالله ، والتوكل عليه ، والرضا بقضائه وقدره ؛ وليس أبعث إلى السكينة والطمأنينة من الصلاة والتسبيح . . ولتعلم يا أخى أنه لا خير فى حياة بعيدة عن الإيمان ، مجردة من روح الدين . . فما أتعس الإنسان المنقطع الصلة بخالقه ، المحروم المدد من فيض ربه ! فالخير كل الخير فى الإيمان بالله ، وأداء الفرائض ، واجتناب النواهى . . فعليك بذلك ، يا أخى ، تتذوق كل أنواع البهجة والسرور والانشراح ، وتنل النجاة من عوامل الشر والأذى ، وتبرأ البرء التام من مرض الجسم ، وتعس النفس ، ومن كل ما تشكو من علة ووصب . .

لو كنت فى لجة يحيط بك الموج من كل مكان ، أو فى صحراء موحشة

أو وسط لهب وحريق ، وقلبك عامر بالإيمان بالله ، ولسانك مشتغل بذكره ، فأنت إما ناج من هذه المهالك ، وإما مرحِّب بهذا الهلاك ، مستبشر بقدومه ، لأنه يدنيك من الله . . فالمصيبة عند المؤمن نعمة ، وعند الفاسق نقمة وعذاب !

إيه ، يا عبد الرحمن ! تريد أن تنتحر تخلصاً من متاعب الحياة الدنيا ، فبأى شىء تتخلص من عذاب الحياة الأخرى التى لا ينتهى فيها شقاء المرء ، كما لا تنتهى فيها سعادته ؟ ! . .

أتشكو وتضج من أشياء هى — لا محالة — زائلة ، إن عاجلا أو آجلا ، ولا تتقى عذاباً لا يخفف ولا يزول ؟ !

تشكو القدر الذى حمَّلك من الهموم ما الله وحده به أعلم . . فأين أنت — يا أخى — من ذاك الذى صدمته سيارة ، فكسرت ساقه ، وهشمت أضلاعه ، وتركته لا حيًّا فيرجى ، ولا ميتاً فينعى ؟! . . أين أنت من هؤلاء الذين ابتلوا بالجذام ، أو الشلل ، أو السرطان ، ولا يجدون إلى الخلاص من هذه العلل سبيلا ؟ !

فتعقل ، يا عبد الرحمن ، واطرد عن فكرك هذا الجرم الشنيع ، ولا تجره على لسانك أو قلمك ، فنحن معذبون بفراقك ، وأنت عنا غير بعيد ؛ فكيف لو فارقتنا فراقاً لا لقاء بعده ؟ !

أشفق على أخيك الذى سيقترن عما قريب بزوجة سيكون من أحب الأشياء إليها أن ترى زوجها محوطاً بإخوة طيبين ؛ كما أنه سيكون من أشق الأمور عليها أن يسوءها الدهر فى أعز شقيق عليه .. فارفق بنفسك ، وبأخيك ، ولا تفجعنا فيك ، فنحن نحبك ، ونحب أن تعيش ، وأن تسعد . .

أما خطاياك التى تشكو ثقل أوزارها ، فلو أقلعت عنها ، وتبت ؛ فإن الله غافر الذنب ، وقابل التوب . فلتجعل الله دائماً فى المكان الواجب

أن يشغله من قلبك .. ولتعلم أن الخطيئة تُخرِج الله من قلب الإنسان، وأنها بثرة خبيثة تستشرى فى جسمه، وداء كلب يسرى فى دمه، ووخز قتال يبرى عقله، وعاصفة هوجاء تقصف فى أحشائه ..

والفتى الصالح هو الذى يسمو بهمته على الشهوات الباطلة، والأعراض الزائلة، ويدرك أن هذه الحياة مزرعة لما بعدها؛ فلا يطغيه المال مهما كثر، ولا يستعبده الجمال مهما فتن، ولا يخدعه المنصب مهما علا، ولا يلهيه متاع الدنيا عن نعيم الآخرة، ولا يشغله الشيطان عن مراقبة الله، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور!

فلتنصرف يا أخى بكليتك إلى التوبة، وإلى الإيمان العميق، ولتخلص عبادتك لله، وأقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل؛ وقرآن الفجر، إن قرآن الفجر كان مشهوداً .. وأنا الزعيم بأن يعود إليك توازن نفسك واطمئنانها، وراحة ضميرك وسلامه ..

ومن ضعف الرأى - يا شقيقى - أن تسلك طريقاً يغمض، وقد وجدت السنن اللاحب؛ وأن تطاول المريض فى العلاج، وفى يدك الدواء الذى يشفى عن كثب ..

ولتعلم أن كل شقاء يعانيه المرء فى هذه الحياة هين وجميل إذا قيس بالموت .. والموت آت، لا ريب، فلم تستعجله ؟!

وفى هذا بلاغ لمن له قلب، أو ألقى السمع، وهو شهيد!

أرجو أن تغفر لى نسيانى إهداءك التحية فى البدء، فلتكن فى الختام، مع أصدق الدعوات أن يهبك الله سلام النفس، وصحة البدن، وهناءة البال، وتوفيق الحال .. وسلمت لشقيقك

الإسكندرية ... عبد الحميد

٢٤

قرأت رسالة شقيقى « عبد الحميد » مرة ومرة ، وعشر مرات ، حتى كدت أحفظها عن ظهر قلب ؛ وقد أثرت فى نفسى أثرها المرجوّ ، ففارقتنى صَبْوة الانتحار ، وأرهفت عزمى على أن أطرح الماضى الأثيم ظهريًا ، وأنشط للمستقبل .

وأول خطوة خطوتها فى سبيل تحقيق هذا الهدف ، أنى طلبت نقلى من مركز الشركة فى القاهرة إلى فرعها فى الإسكندرية ؛ لأفارق المواطن التى تثير فى نفسى أقسى الذكريات وأفجعها .

أقمت فى الإسكندرية بمنزل شقيقتى الحبيبة « سميرة » ؛ فبذلت هى وزوجها غاية الجهد ، ليوفرا لى الراحة ، ويذهبا عنى الحزن والوحشة ، ويدخلا على قلبى الأنس والمسرة .

وكان شقيقى « عبد الحميد » وعروسه يجدّان أيامئذ فى تأثيث عشهما الجديد ، فأشركانى معهما فى الاختيار والتنظيم .

وفاض قلبى بهجة وانشراحاً لما رأيت من هناءة العروسين ، ولما لمسته من سعادة ابن عمى « يحيى » وشقيقتى « سميرة » وتوفيقهما ؛ فاشتهيت الحياة الهادئة المستقرة ، وجعلت أحلم ببيت خضل القلب ، هنىء المثوى ، تزينه عروس طيبة ، فاضلة ، جميلة ، لطيفة ، مثل أختى « سميرة » ، أو مثل « تغريد » ، عروس شقيقى « عبد الحميد » .

ثم تلقيت يوماً بطاقة دعوة إلى حفل زفاف . . زفاف « نعيمة » وابن عمها المهندس « محسن » ؛ فثارت بى الأهواء ، وصحّ عزمى على الزواج ؛ ونمىّ هذا العزم ما كان يكرره « عبد الحميد » و « سميرة » على مسمعى ليل نهار ، من ترغيب فى الزواج ، وتنفير من حياة العزوبة والفوضى

والخطيئة . . لكن الاستقرار المنشود كان حلماً بعيد المنال ؛ فإنى لم أكد أختلط بموظفى الشركة فى الإسكندرية ، وأعاشرهم عن قرب ، حتى أحسست الخيبة والحسرة والنفور تغزو قلبى ، وتحققت أن الانسجام وزملائى هؤلاء أمر محال ؛ فهم خليط عجيب ، لا تجمع بينهم جامعة ، ولا يقربهم منى ومن آرائى شىء .

وفكرت فى التخلص من منصبى الجديد ، وأخذت أعد العدة لذلك ، غير أن إله الحب — وهو إله لا يرحم ولا يلين — قدر غير ما ارتأيت ؛ فقد انتزع من كنانته أوغل السهام ، وقذفه من قريب ، فأنفذه إلى الأغوار ، وأصاب منى الأعماق ، إذ ألقى فى طريقى « شارلوت » الهاتفة بالحب .

إنها فتاة لبنانية ، تعمل فى القسم الذى نقلت إليه . دمية جميلة ، وابتسامة دائمة ، وحركة مرحة دائبة ؛ لكن فتنتها مخيفة ، ممزوجة بشىء غريب شيطانى يجعلها كثيرة الطلاب جمة الصحاب . .

اتجه قلبى إليها منذ رأيتها ؛ فإن لحديثها وصوتها وحركاتها وظرفها أثراً بعيداً فى النفس ، لا تقوى معه على التملص من الإقبال عليها ، والوقوع فى شركها ؛ فجعلت أتحين الفرص لألقاها ، وأستمتع بحديثها الشهى ، وصوتها العذب الحنون ، بعيداً عن أعين الرقباء . .

كان لمسها يخدر أعصابى ، وأنغام صوتها الرخيم تسكرنى ، وأنفاسها تعصر فى روحى عطرها ، ووقع قدميها يدق فى قلبى ؛ فأثارت أحاسيسى حتى صرت أرى معها كل ما تقع عليه عيناى جميلا بهيًّا ، ضاحكاً حيًّا . وليس كالمرأة الجميلة شىء يرفه عن الإنسان فواجع الحياة ، ويصرفه عن التفكير فى همومه وأحزانه .

استرحت إلى صداقة « شارلوت » ؛ واستراحت « شارلوت » إلى صداقتى ، واتخذت منى نجيًّا تسر إلىّ بأخبارها ، وتبثنى ما طوته من أسرار قلبها . .

أنبأتنى أنها خُطبت منذ عام ، وأن خاطبها جحد حبها ، وسحر صباها ، بعد ثلاثة أشهر ، ليميل إلى فتاة أقل منها جمالا ، ولكنها من ذوات الجاه العريض والغنى الفياض .. وعزّ ذلك على « شارلوت » ، وحزّ فى نفسها ، ففترت عاطفتها بعض الفتور ، وباتت قليلة الثقة بالرجال ، بعد أن وثقت برجل لم يكن أهلا لهذه الثقة . .

وأنبأتنى أيضاً أنها صدّت – فيما بعد – كثيرين تقدموا لخطبتها ؛ لأنها لم تجد فيهم من هو جدير بأن تمنحه حبها وثقتها . .

ثم قالت : وجئت أنت . . فأيقظت قلبى من غفوته !

وانطلقنا معاً ننعم بالحب على شاطئ البحر ، وفى الحدائق ، نلهو فوق الرمال ، ونتعانق تحت الخمائل ؛ والنسيم يداعب شعرنا ، والقمر يسكب علينا أشعته الفضية . .

ويوماً دعتنى إلى تناول الشاى فى منزلها ، فلبّيت الدعوة شاكراً ؛ فإذا هى وأبواها وأخوها يستقبلوننى أطيب استقبال ، ويرحبون بى أبلغ ترحيب ، ويأنسون بى ، وآنس بهم . .

ومر شهران . . وحدّثت « شارلوت » فى زواجى بها ، فاستجابت راضية مبتهجة ، لكنها استمهلتنى ريثما تستشير أبويها ، لما بيننا من اختلاف فى الدين . .

واستشرت أنا شقيقى « عبد الحميد » وشقيقتى « سميرة » ، وزوجها – ابن عمتنا الأستاذ « يحيى » – فثاروا جميعاً ثورة هوجاء ، ورفضوا بحث هذا الزواج المنشود على أى وجه من الوجوه . . وصاحت « سميرة » الحبيبة : هل ضاقت الدنيا ، أو خلت من الحسان المسلمات حتى تتزوج مسيحية ؟ !

ثم توالت رسائل الإخوة والأخوات تسفّه رأيى ، وتجبهنى بالرفض القاطع ، وتنعتنى بكل وصف سخيف :

وبمثل هذه الثورة قوبلت « شارلوت » حينما أرادت أن تعرف رأى أبويها ، لو أنني تقدمت لخطبتها ؛ فقد رفضا رفضاً باتاً أن تتزوج ابنتهما الكاثوليكية مسلماً ، مهما يكن مركزه وثروته ، ومهما يكن مقام أسرته وذويه .

ركبت رأسي ، وعددت هذا الرفض من والدى « شارلوت » إهانة لى ؛ وحسبت ثورة إخوتى حجراً على حريتى ، وتدخلا منهم فى أخص شئونى ؛ فثرت عليهم جميعاً ، وأعلنت « شارلوت » أنى لا بد متزوجها ، سواء أرضى أهلونا أم أبوا . . وأخذتُ أزين لها الأمر ، وأهونه عليها ، فلبت نداء قلبها ، واستجابت لى ، وجعلت تفكر معى فى كيفية إتمام زواجنا ، وإعداد عشنا السعيد .

وطفقت أحلم ببيت تحيط به حديقة غناء ، بعيدة عن كل ضوضاء ، فيها العشب والهشيم ، والشمس والظل ، والماء والهواء ، وفيها الصنعة والفوضى ، والربيع والخريف ، وكل ما انسجم وكل ما تناقض من هذه الأمور المتباينة التى يتألف منها هواى ومزاجى . .

ثم قالت لى يوماً : سيذهب أبواى وأخى فى هذا المساء إلى حفل ساهر ، وسأبقى وحدى فى البيت . . أفلا تأتى ؟ !

وفى منزلها وضحت الحقيقة ، فإذا هذا الجمال والسحر والفتنة يمسى كله مصدر فزع وألم وحسرة !

ما أمر الحقيقة ! وما كان أعذب الأحلام ! . .

بالأمس كان همسها أحب إلىّ من شدو البلابل ، وشذى أنفاسها أذكى من عبير الريحان ؛ واليوم — وقد بانت الحقيقة — طارت البلابل ، وهجرت أوكارها ، وذبلت الأزهار ، فليس لها عبير . بالأمس كنت أبنى الآمال وأنا أنصت إلى حديثها خاشعاً متهللا ؛ واليوم تهدمت آمالى حجراً حجراً ، وكشفت أنى أسست بنيانى على شفا جرف هار فانهار بى .

بالأمس علمتني حبها ، وأنا أنظر إلى عينيها الساحرتين ؛ واليوم علمتني احتقارها ، وأنا أنظر إلى عينيها الخادعتين !

لقد كشفتُ أنها غير عذراء ، وأن رجلا آخر قد سبقني إليها ، واستمتع باقتطاف زهرتها !

صدمت صدمة قاسية عنيفة ، حطمتني . . ورحت أسائل نفسي : كيف يكون وقع هذا الكشف في نفوس الرجال الذين يتزوجون أنصاف العذارى ؟ ! . . كيف تكون حالهم ؟ وأى تصرف يأتون حين يصدمون بأن حبيباتهم ذوات ماض أثيم ؟ !

وتركتها ونفسي يغمرها التقزز والاشمئزاز ، وقلبي يملؤه الهم والحسرة . وبلغت البيت وأنا كالوحش الجريح يلوذ بعرينه بعد معركة أصيب فيها إصابة قاتلة . فجعل « يحيي » و « سميرة » و « عبد الحميد » و « تغريد » يحاولون أن يعرفوا سبب هذه النكسة التي قلبت كياني ، وردتني إلى الثورة ، وصيرتني في حال هي — بلا شك — أسوأ فترة يمر بها شاب في حياته ، لكني صمتُّ لا أجيب ، واعتزلت لا أخالط .

كنت هدفاً لأشد ثورات النفس ، وأعنفها ، حتى باتت الحياة وقراً عليّ ، وكرهت نفسي ، وعاودني التفكير في الانتحار ، فإن الانطفاء في العدم خير من هذا العيش الزنيم .

لقد استبان لي حينئذ — وأنا الدقيق الحس ، الرقيق الشعور — كأن الشر قد أطبق على كل جوانب الحياة ، وأنه قد قهر الخير شيئاً فشيئاً ، حتى كاد يمحوه ؛ فاستبد بي التشاؤم ، وبدت الحياة كلها في عيني قبائح ورذائل ، كأن الكمال وهمٌ تتعلل به الخواطر ، ولا سبيل لنا إليه . . وفقدت ثقتي بالنساء جميعاً ، واستبدلت بالحب المغامرات العابرة . وكلما اتسعت دائرة مغامراتي ازددت تمسكاً بألا أرتبط بامرأة ؛ فكل امرأة ترضخ لعواطفي الجامحة كانت تؤكد لي أن الخيانة والخديعة ، والمشاعر

الزائفة ، والعواطف الرخيصة ، طبع فى بنات حواء !

إن مغامراتى كلها كانت تجارب وقتية ؛ فهل يمكن أن أعثر على الحب الثابت العميق ؟ ! .

وجعلت تلك الخواطر اليائسة السوداء تصطرع فى نفسى ، وتقيمنى وتقعدنى ليلَ نهارَ ، إلى أن قهرتها إرادة الحياة ؛ فبدأت أسترد أنفاسى شيئاً فشيئاً ، ورحت أفيق من كابوس اليأس الخانق ، وأتناسى ما يحيط بى قائلا : أليس هذا – كما قال عبد الحميد – دليلا أبلغ دليل على أن الخير كامن فى النفس البشرية ، وأنه جزء لا يتجزأ منها ، وأن الإنسان إذا بدا أحياناً ذئباً مقلم الأظافر استسلاماً للغريزة ، فإنه لا ينى أن يعود ملاكاً خيراً ، استسلاماً لما فطر عليه من دوافع الخير ؟ !

٢٥

وسط هذه الغمرات المتضاربة رأيت الحسناء « نجوى » .. التقيت بها وقت الأصيل ، فى شارع سعد زغلول ، ترافق « تغريد » زوج شقيقى « عبد الحميد » . .

وجهها الجميل برىء من الدهان والأصباغ ؛ وشعرها الطويل معقوص كالإكليل ؛ وثوبها الرمادى يستر جسمها حتى معصميها وكعبيها ؛ ونظراتها الصافية تخلع عليها حلة ضافية من الحشمة والبهاء . وحسبك بخبير بدقائق الجمال وسره ، تكفيه النظرة القصيرة يلقيها على الفتاة ليفهم سر ميولها :

نظرت إلى « نجوى » فإذا هى من أجمل الفتيات وأكملهن ، وأكثرهن حياء ؛ لم تفسد المدنية فطرتها ، ولم يجرفها تيار تقليد الأجنبيات والممثلات كما جرف الكثيرات . .

كان أول ما جذب نظرى شعرها الأسود اللامع يزين أجمل رأس :

فلما انحدر نظرى إلى وجهها وجسمها أيقنت أن النظرة الأولى لم تكذبنى .: وجه مشرق ينم عن براءة وطهر ، وعينان دعجاوان تفيضان بالأحلام والسحر ، وفم صغير لا يُرام جناه ، ووجنتان متوردتان تدلان على الصحة والعافية ، وقوام لدن ممشوق يشيع الفرحة والأمل فى عين من يراه . .

وسرنى منظر أسنانها حين ابتسمت ، فقد رأيت أجمل أسنان نضدت بين أغض شفتين ؛ فحدثت نفسى ، وبصرى عالق بوجهها المنير : هذه هى حلم القلب ، ومنية النفس ، وطلبة الروح ؛ فلو غزوت قلبها لبلغت غاية مآربى فى الحياة !

لزمت « تغريد » وصديقتها « نجوى » حتى فرغتا من شراء ما أرادتا ؛ وأنا لا أنفك أحدث نفسى بأنى عثرت — أخيراً — على الفتاة التى ينشدها قلبى ؛ وتحيا بها نفسى ، وتغنّى فلا تقول مرة أخرى : هل من مزيد ؟ ! واعتزمت أن أقتنص قلبها . . والحب لا يعالج إلا بالحب !

* * *

طلبت إلى « تغريد » أن تهيئ لى لقاء بصديقتها « نجوى » ، فارتاعت وصاحت بى : حذاريْك يا « عبد الرحمن » . . ابتعد عن « نجوى » . . إن « نجوى » فتاة فاضلة ، مستقيمة السيرة ، ومن أسرة محافظة ؛ وهى ليست كمن تعرف . . أحذرك . . أحذرك ، وأنا واثقة أن غزلك وألاعيبك وأحاديثك المعسولة لن تجدى معها فتيلا . . وبعد ؛ أفلا ترى أنك تائه ضائع ، وأنك خليق بأن تفكر فى مستقبلك ، وتجدّ فى حياتك ، وتنصرف عن العبث والمجون ، وتؤسس لنفسك بيتاً ، وتكوّن لك أسرة ؟ ! ألم يأن لك أن تهتدى وترعوى ؟ !

— هذا ، والله ، أملى يا « تغريد » . ولقد فكرت كثيراً فى ذلك ، لكن الأيام أبت إلا أن أكون كالطير الطليق ، أحلق حيث أشاء ، وأسقط أنّى أريد .. فخبرتى مع بنات اليوم جعلت الحرية أعظم ماتصبو

إليه نفسى ، ما دمت لا أجد من هى جديرة بوضع الغل فى عنق . .

ـ يا أخى ، الإنسان الرشيد لا يجد الحرية إلا فى بيته ، ولا يحس السعادة إلا بين أسرته . . والمسألة تتوقف على السيدة التى تعمر البيت . . ما أقصر نظرك ! أتظن الفتيات جميعاً على شاكلة من أوقعهن سوء الحظ فى طريقك ؟ . . ما أكثر الطاهرات الشريفات العفيفات ! . . هذه « نجوى » واحدة منهن . . أتراك قادراً على أن تعترض سبيلها ؟ !

ـ الحق أقول يا « تغريد » إنى اليوم شريف المقصد ، نبيل الغاية ؛ وإن إحساسى نحو « نجوى » يختلف كثيراً عن إحساسى نحو من عرفت جميعاً . . اصنعى بى هذا الجميل ، وهيئى لى لقاء معها . .

وطال الحديث بيننا شبيهاً بالمبارزة ، حتى استطعت أخيراً أن أقنعها بشرف مقصدى ، وسمو غايتى ؛ فرضيت أن تهيئ لقاء بينى وبين صديقتها « نجوى » .

و « تغريد » و « نجوى » صديقتان متلازمتان منذ الطفولة ، فأسرتاهما تقيمان فى عمارة واحدة من العمارات الفخيمة ، فى ضاحية « رشدى باشا » برمل الإسكندرية . . وقد شاء القدر أن تسكن هذه العمارة شقيقتى الحبيبة « سميرة » ، وأن تصادق هاتين الأسرتين ، وأن تتبادل الأسر الثلاث الزيارات فيما بينها . وفى إحدى هذه الزيارات رأى شقيقى «عبدالحميد »عروسه « تغريد» ، فأعجب بها ، وأعجبت به ، وتحابا وتزوجا .

وكانت « تغريد » و « نجوى » قد سارتا فى طريق واحدة فى مراحل الدراسة ، حتى تخرجتا معاً فى كلية التجارة ؛ فعملت « تغريد » فى شركة الأقطان ، وعملت « نجوى » فى مصلحة الضرائب . أما « تغريد » فقد استقالت من عملها ، وفرغت لزوجها وبيتها ؛ وأما « نجوى » فظلت تعمل وتنتظر ابن الحلال !

* * *

دعتنا « تغريد » إلى تناول الشاى فى عشها الجديد فى « الإبراهيمية » :
وتأملت « نجوى » مليًّا ، فأدركت أنها حسناء ، جمة التواضع والحياء . :
وتحدثتْ فسحرتنى ، ورنت فأسرتنى . .

وحاولت أن أنصب حولها أشراكى ، وأن أجذب قلبها إلىّ فى سرعة ، فأخذت أتملقها ، وأثنى عليها ، وأنا أعلم أن كل فتاة تحب الملق ، وترتاح بحديث الرجال ، فالغوانى يغرّهن الثناء ! لكنها كانت صعبة القياد ، عسيرة الانخداع ، قوية الإرادة ؛ فما نفعت فيها الرقى ، ولا أثّر فيها لين الكلام وفرط الثناء .

ثم التقينا — أنا و« نجوى » — غير مرة ، فى بيت شقيقى « عبد الحميد» أو فى بيت شقيقتى « سميرة » ؛ فأدركت حقًّا الفرق العظيم بينها وبين من عرفت من فتيات ، فهى محتشمة رشيدة ، لا تفسد وجهها بالجمال المجلوب ، وهن متبرجات طائشات مستهترات .. هى تكره المجتمعات ، ولا ترضى إلا بالصداقة النقية الطاهرة ؛ وهن يبحثن عن المرح والسرور فى المراقص والملاهى .. وهى — لهذا — أكثر منهن فتنة ، وأبهى منهن جمالا ، وأحمد منهن خلقاً ؛ فصبَت إليها نفسى ، وتدله بحبها قلبى . .

وزاد قدرها فى عينى ، ومكانتها فى نفسى ، أنها ذات دين ، تؤمن إيماناً قويًّا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤدى الصلوات الخمس لوقتها ، وتصوم رمضان ، وتصوم كذلك يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع ، وتحفظ عن ظهر قلب أجزاء من القرآن الكريم .

ولم يكن تدينها هذا تديناً شكليًّا كتدين الكثيرين ممن يؤدون الفرض وينقبون الأرض ، ويقولون : « ذى نقرة وذى نقرة » ؛ وإنما هو تدين عميق ، ينعكس على أقوالها انعكاسه على تصرفاتها كلها ، فهى تحب للناس ما تحب لنفسها ، وتعاملهم بالمعروف والحسنى ، وتصون نفسها عما يدنسها ؛ فلا تكذب ، ولا تحنث ، ولا تحلف ولا تشتم ، ولا تحقد

ولا تشمت . . ومن أجلّ صفاتها إنكار الذات ، وإيمانها بأن الدين المعاملة ؛ فكانت تخلص فى عملها الإخلاص كله ، وتتفانى فى قضاء مصالح الناس ، وتسرع إلى نجدة من يسألها العون والمساعدة . .

كانت تحب مكارم الأخلاق جميعًا وتحب الجمال فى الماء والسماء والزهر ، وفى الأطفال والحيوان والطير ، وفى الشروق والغروب . .

* * *

ويومًا انشغل عنا أهلُ البيت ، وخلت الحجرة إلا منا كلينا ، فقلتُ لها : كم يسعدنى يا « نجوى » أن تتكرمى فتتناولى العشاء معى ذات مساء فى أحد المطاعم !

ـــ يؤسفنى ألا أستطيع . .

ـــ إنى لأرجو أن نلتقى وحدنا غير مرّة . .

ـــ وما يدعو إلى هذا المسلك ؟ !

ـــ أحبّ أن يفهم كل منا الآخر . لاتبخلى علىّ بهذه الأمنية . أرجوك.

رجفت أهدابها ، وتداركتْ دقاتُ قلبها ، لكنها لم تلبث أن رنتْ إلىّ قائلة : لمَ تريد أن أتناول العشاء معك ؟

ـــ أحب أن نتحدث ساعة على انفراد .

ـــ ألم تلحظ أن أخاك و « تغريد » قد أخليا لنا الحجرة ، وتركانا منفردين ؟ !

ـــ فى نفسى أشياء كثيرة أحب أن أحدثك عنها . .

فأطرقت ، ولم ترد ، فقلت : هل أغضبتك ؟

ـــ لا . ما أغضبتنى . .

فأشرقت أساريرى ، وتملكنى الفرح ، وقلت : اتفقنا إذاً ؟

ـــ على ماذا ؟

ـــ على أن نتعشى معًا . .

ـ قبلت : .
ـ ومتى ؟
ـ إن شئت فموعدنا يوم الخميس . . بعد يومين . .
ـ ألف شكر يا « نجوى » . .

وفى نومى رأيت أحلامـًا زاهية : . واستيقظتُ فى الصباح وأنا من أسعد الناس نفسـًا ، وأرخاهم بالاً ، وانطلقت إلى عملى بقلب مفعم بالسرور ، جياش بالأمانىّ العِـذاب .

* * *

وإذ جلسنا إلى العشاء لحظت أن « نجوى » حاضرة الشخص غائبة الذهن ؛ فقلت : ما بك ؟ ما لى أراك واجمة ؟ أنادمة على مجيئك ؟ أوَ تكرهينني يا « نجوى » ؟ !

ـ أنا أكرهك ؟ ! ولماذا؟ . . أنا لا أكره أحداً . .
ـ انطواؤك يجعلنى أظن أنك نادمة على تلبية دعوتى . .
ـ أنا ما فعلت شيئـًا أندم عليه . . ولو شئت ألا ألقاك لما جئت . .
ـ لكنك تحذريننى ، وتتجنبين التبسط معى . .
ـ بى صداع شديد ، ولولا أنى وعدتك بالمجىء ما خرجتُ من البيت . . .
ـ ألف سلامة ، يا عزيزتى ، وشكراً لك . لكنى أحس أن هناك شيئاً آخر غير الصداع . .
ـ الحق أنى أستشعر خوفـًا دون أن أدرك مأتاه . . ربما كان سببه أن هذه هى المرة الأولى التى أتعشى فيها مع رجل غريب .
ـ يؤلمنى أشدّ الألم أن تنظرى إلىّ نظرتك إلى رجل غريب . . إن فى هذا الضرب من المعاملة جفوة ورسميات غير مستحبة . .وقد وجدتك تنسين هذا الأسلوب البغيض أحياناً فى بيت أخى ، أوفى بيت أختى ،

فكان حديثك يطيب ، ونظراتك ترق ؛ وإن كنت لا تلبثين أن تعودى إلى التقاليد ، فتقسو نظراتك ، وتقل ألفاظك .. أفلا يمكن — يا « نجوى » — أن نتعاهد على الصداقة ، فتلين الأيام وتصفو ؟

فرفعت طرفها إلى وقالت : إنى لا أعقد الصداقة مع الفتيات إلا بعد اختبار قاس ، وزمن طويل ، فكيف بالفتيان ؟ !

— وأنا مثلك لا أعدو إلى الصداقة عدواً . . غير أنى أجد فى تآخينا غبطة ، وفى صداقتنا هناءة ، وأحس إحساساً خفياً أننا سنتفق فى كثير من المشارب والميول . .

قلت هذا وابتسمت ؛ ومددت إليها يدى ، فوضعت فيها يدها ، فشددت عليها ، وقلبتها ، فبدت راحتها . : وقبل أن تجذب يدها أحنيت رأسى ، وطبعت قبلة على كفها ، ثم قلت : أشكرك يا « نجوى ».

قالت : لقد صدقت العزيزة « تغريد » فيما قالت . .

— ماذا قالت « تغريد » ؟

— لم تقل شيئاً أكثر من أنها حذرتنى منك . .

— حذرتك منى ؟ ! ولماذا ؟ ! وأى شىء أنكرته منى ؟ !

— غزلك . . فهى تقول إنك شاب خطر !

— وبماذا رددت عليها ؟

فضحكت حتى بدت نواجذها الصغيرة ، وقالت : هذا سرى !

— أنا لا أنكر ، أيتها العزيزة ، أنى شاب غزل ، وأنى سرت فى دروب الهوى أشواطاً طويلة .. لكن لا تنسى أن لكل غزل يوماً يسكن فيه إلى من يحبها ، فينسى باطله وغروره ، ويصبح رجلاً مخلصاً وفياً لمن أحب : : وإن كان لا يسلم — حتى بعد بلوغه هذه المرتبة — من تهكم الناس ، ومن ظنهم أنه لم يزل يعبث ويلهو . . بل قد تظن التى يهواها أنه يمكر بها ويخدعها ، وأنه يجرى على سننه السابقة . .

« نجوى » : حدثيني . . ماذا فعلت بقلبي أيتها الساحرة ؟ !

فتظاهرت بعدم الاهتمام ، وقالت وهي تبتسم : إني لا أومن بالسحر !

ــ لقد أحببتك يا « نجوى » ، وإن نفسي لتحدثني أني سأكلف بك ، وأتدله في حبك . . وإن كنت أخشى هذا الغرام ، وأوجس منه خيفة . .

ــ الغرام داء وبيل ، وقد حصّنت قلبي من غزواته .

ــ كيف ؟ ماذا فعلت ؟

ــ آليت على نفسي ألا أصغي إلى حديث شاب ــ إن خطر لشاب أن يعترض طريقي ــ وألا أهتم به ، فأمنت بذلك على قلبي من العشق !

ــ هذه أقوال ومحاولات لا تفيد . . فالحب ــ يا عزيزتي ــ مثل الحصبة يصاب بها كل إنسان ، تقدم أو تأخر به الزمان !

فاهتزت وقالت بدلال : ليس كل الناس يصابون بالحصبة !

ــ إنك لفتاة غريبة حقاً !

ــ وأنت أغرب مني وأعجب !

فملت نحوها وقلت : إن الأيام ما ساقتك إليّ عبثاً ، وإني لأومن أن القدر قد أراد بنا كلينا شيئاً . . منذ رأيتك أحسست أن كلاً منا قد خلق ليكمل صاحبه ؛ وأن سعادتنا في أن نقضي الحياة معاً . . والدهرُ لا يقدّم الفرص الحسان اعتباطاً . . فحريّ بنا أن نغتنم هذه الفرصة ، وأن نجدّ في بناء سعادتنا ، وإلا كان مثلنا مثل مفلس عثر على كنز فخلفه ، وذهب يبحث عن درهم !

كنت أتكلم بصوت يسيل رقة وعذوبة ، ونعومة وحلاوة ؛ وكانت نظراتي طويلة صافية هادئة تنفذ إلى قلبها ؛ فرأيتها تهتز ، وتشرق أساريرها ، ويبدو عليها الاطمئنان والهدوء ، وتفارقها الجهامة والتحفظ ؛

ثم تبتسم وتقول : هذا حديث يحتاج إلى دراسة وتفكير . :

ـ يحتاج إلى دراسة وتفكير ؟ !

ـ نعم ؛ وسأقضى ليلتى فى درسه . .

ـ إنى ما طرحت عليك مسألة رياضية عويصة . .

ـ وهل يزعجك أن أدرس حديثك ، وأتفهمه ؟ !

ـ كلا ، كلا . . ولكنى أعيش الآن فى وحشة : :

ـ أتريد أن يكون مثلنا مثل الجائع الذى يقبل على أى طعام ، وإن كانت نفسه لا تشتهيه ؟ !

فتغافلت عن الإجابة ، وحسبت كلامها إهانة ، فقلت فى حدة : وددت لو يسعنى أن أضربك جزاء هذا القول الجارح .

ـ أترى ما أقول جارحًا ، وتود أن تضربنى ؟ ! ما هذا ؟ . : أنا ما قصدت جرحك ، وإنما قصدت أنّ ما تطلبه لا يجاب عنه فى سرعة . . ثم أنت تعرف نفسك خيراً مما أعرفها : . وكل فتاة عاقلة يجب أن تفكر ، وتفكر كثيراً ، قبل أن تجيب مثلك إلى ما يطلب : .

أحسست أن وجهى قد التهب ، واصطبغ بحمرة الخجل والغيظ ؛ لكنى ملكت نفسى ، وقلت : ليكن ما تريدين يا « نجوى » : : وعفواً إذا كنت قد أغلظت فى القول ، فما تعودت أن أسمع مثلَ ماتجيبين به .

فتلألأت عيناها ، واحمرتْ وجنتاها ، وقالت : إن المشى على الغبراء أسلمُ من التحليق فى السماء : . ثم ألا ترانى مهذبة لطيفة ، حتى تود أن تضربنى ؟ !

ـ أما أنك مهذبة فهذا أمرٌ لا ريبَ فيه . .

فأظلم وجهها ، وقالت ، وكأنها تستعطف : أترانى مهذبة ، ولا ترانى لطيفة ، لأنى صريحة جابهتك برأيى فيك ؟!

ـ أوه ، يا « نجوى » ! إنى أستسلم لكَ ، وأعترف أنك قد هزمتنى . .

فتبسمت ضاحكة ، ونقلت من صحنها إلى صحنى قطعة لحم ، وقالت : كلْ . . كل ، ودع المقادير تجرى فى أعنتها ، كما قال الشاعر !

ــ نعم ، لندع الأقدار تفعل ما تشاء ، فما نستطيع لها تغييراً ولا تبديلاً . . لكننى واثق أنها لن تأتى إلا بالخير . . ما دمت إلى جوارى !

ــ حقًّا ؟ !

ــ أنت ، لا شكّ ، شاعرة ، بمقدار السرور الذى ملأ قلبى لرؤيتك . . لقد كنت فى يأس قاتل قبلَ أن أراك وأعرفك . . كنت أوشك أن أضع بيدى حدًّا لحياتى قبل أن ألقاك . . فلما عرفتك رُدَّت إلىّ الحياة ، وتعلقت بها ، وإنى لمغتبط لذلك ، ولسوف أفجر ينابيع الفرح من قلب حياتى الحجرية القاسية !

ــ أصحيح هذا الذى تقول ؟ !

ــ إنى أقدس هذه الساعة وأجلها عن أن تشوبها شائبة من كذب أو رياء . .

ــ إن الجراح ، مهما تكن أليمة ، تلتئم يومًا ما . . لكننا لا نكاد نصدق ذلك عندما تكون الجروح فى أول عهدها . . وكذلك الذكريات العنيفة . . سرعان ما تتلاشى ، وتصبح فى الأذهان كأنها صورة خيالية . . وسنفرح لانتصارنا فى الذكريات الأليمة الماضية . .

ــ إن لك قدرة خارقة على قلب الحقائق ، وتهوين الشدائد ، حتى ليخيل إلىّ أنك تستطيعين أن تخلبى لب المحكوم عليه بالإعدام ، وهو سائر إلى المشنقة . . أتخيل أنك تقولين له : سيكون موقفك بديعاً ، ومنظرك خلابًا !

ــ ليس إلى هذا الحدّ . . لكنى أومن أن الإنسان يستطيع أن يتغلب على المصاعب ، ويسعد فى حياته ، إذا كان مؤمناً بربه ،

متقبلا تأديبه فى رضًا وشجاعة . .

أخذت أنظر إلى « نجوى » من جميع نواحيها ، فلم تقع عينى منها إلا على ما يعجبنى . . إنى ليعجبنى منها إيمانها ورزانتها واستقامة طريقها . .

ثم ودعتها وهى تهم بركوب السيارة العامة إلى بيتها ، وأنا أوقن أن هذه الفتاة الوديعة الرشيدة ، الجميلة الفاضلة ، قد خلقت لتسعد زوجًا ، وتربى طفلا ، وتدبر بيتًا ترفرف عليه أعلام الهناءة ؛ فهل يسعدنى زمانى فأكون هذا الزوج ؟ ! إن زواجى بها هو النعيم الذى ليس وراءه نعيم !

٢٦

غادرت البيت مبكراً قبل أن يستيقظ أهله ، واتجهت نحو شاطئ البحر ، لأستنشق الأنسام الندية ، وأستقبل أشعة الشمس الأولى ، وأطالع فى صفحات الطبيعة قصائد الكون الخالدة التى تفتحت نفسى عليها ، وأقرأ فى مناظرها آيات الجمال الإلهى الساحر الذى أخذ طريقه إلى قلبى ، وكأن لم يشعر به من قبل قط .

كنا فى مستهل الربيع ، وكان اليوم يوم الجمعة ، وأكثر الناس ما يزالون فى فرشهم لم يفارق النوم عيونهم ، ولم تداعبها أنوار اليوم الجديد .

وقفت على شاطئ البحر أسمع فى هدير الأمواج أناشيد عذبة تطرب لها روحى ، فكأن الشاطئ قد ازدحم بالملائكة يغنون ويرقصون . .

طالت وقفتى ، ولفنى الجمال حولى فى طياته ، واحتوانى بين أحضانه . . ورحت أتأمل الأمواج وهى تعلو وتهبط ، وتطعن الصخور فى عنف ،

وتضرب الرمال فى شدة ، أو ترتمى عليها فى تهالك وإعياء ، والرمال تستقبلها صابرة مرنمة . . !

أخذت أنظر إلى هذا الخلق العظيم نظرات شاردة ، أحاول أن أستشف بين أمواجه الغيب المكنون ، وأفكر فى الصديقة الجديدة « نجوى » ، فتظهر لى سطور المستقبل مشرقة وضاءة يتلألأ سناها حيناً ، وتبدو حيناً آخر طلاسم يعييني تفسيرها ، ويحجبها ماض خافته ورائى ، قد ازدحم بصور جميلة وشائهة . . : ماض كنت فيه مضياعًا متلافًا ، ضالا فى ميادين اللهو والفجور ، لا أعبأ بما أبوء به من خسران فى الدين ، ونقص فى المال ، وضعف فى الصحة ، فلم يكن يهمنى إلا إشباع شهواتى ، وتحقيق لذاتى ، حتى غدوت أحدوثة تتناقلها الألسنة ، وتلوكها الأفواه .

نعم ، كنت فتى عربيداً ، شاذًا فى بيئتى ، متمرداً على تربيتى : زير نساء ، وصياد عذارى ، ونديم كأس ، وحليف قمار . . ورأيت فى « نجوى » من تنقذنى مما أتردى فيه ، فأنا – لهذا – دائم التفكير فيها ، لا تكاد صورتها تفارق ناظرى ، ولا يكاد طيفها يبرح خاطرى ، ولا أكاد أنظر فى أمر من أمور المستقبل إلا ولها فيه نصيب :

لا أدرى كم قضيت فى وقفتى : . فلم أنتبه إلا على الأصوات حولى تعلو ، والشاطئ يزدحم ، والسيارات تقطع « الكورنيش » ذهابًا وإيابًا ؛ فتركت مكانى ، وسرت على غير هدى ، حتى رأيتنى فى أحد المقاهى أتحسى فنجانًا من القهوة ، وقد خالط قلبى انقباض لا أعرف له علة ولا سببًا .

ثم عدت إلى البيت فإذا هو على ما أعهده من الهدوء والسكون ، وإذا الشقيقة الحبيبة « سميرة » تعد مائدة الإفطار فى بهجة وإشراق ؛ فلما رأتنى خفت إلى ، وكأنى طفلها الصغير تريد أن تطمئن عليه ؛

فزايلني القلق والخوف ، وعاودني الرضا والاطمئنان .

وقضيت النهار أفكر في « نجوى » ، وفي مستقبلي معها : : أحقًّا أنها فتاة أحلامي ؟ أحقًّا أن نفسي تقنع بها شريكة في حياتي ؟ ! . . إني لأعرف نفسي محبًّا للغزل ، أجد لذة وافرة كلما غازلت حسناء ، وأحس سرورًا عظيمًا كلما قلت لجميلة إنني قد عشقتها . . فهل أحببتُ « نجوى » حقًّا ؟ . . إن لم تكن هذه العاطفة التي تشوي جوانحي هي الحبّ ، فماذا تكون ؟ أتكون عواطف الرغبة والتملك والاستحواذ ؟ ! . . لا ، لا : : فإني قد أحببتها منذ البداية ، منذ النظرة الأولى . . ويخيل إليّ أن هذا الحب قد تقدم وازداد دون أن تعوقه العوائق :

لقد أصبحت « نجوى » جزءاً من حياتي يزداد أهمية يومًا بعد يوم . : ولم أكن أشعر بهذا في بدء الأمر ؛ وإن كانت صورتها قد نقشت على صفحة خيالي لا تغيب ؛ وإن كان كثير من كلماتها وإشاراتها ونظراتها لا يبرح ذاكرتي : . وهأنذا أشعر بدقات قلبي قوية شديدة كلما رأيتها ، وأشعر بالألم والأسف كلما افترقنا . . ثم هأنذا أشعر بالقلق لغيابها ولا أستطيع أن أنجز عملي كما كنت من قبل أن أعرفها . وكيف أحذق عملا والفكر شارد ، واللب عازب ؟ ! . . فلماذا هذا كله ؟ ولماذا أنتفض لمرآها ، وأنقبض لفراقها انتفاضًا وانقباضًا لم أحسهما لغيرها من قبل ؟ !

لقد أدركت مكانة « نجوى » في قلبي ، وأيقنت أني قد أحببتها !

كانت « نجوى » تسكن — مع أسرتها — في الشقة التي تعلو شقة شقيقتي حيث أقيم إقامة مؤقتة . وفي أحد الأمسية كنت أتأهب للخروج ، فإذا هي تطرق الباب . .

ابتهجت لرؤيتها ، وآثرت أن أقضي فترة أسمر معها : .

ودار الحديث ، والحديث ذو شجون ؛ وتناول الكلام عناصر السعادة

فى الحياة ، وأن فى رأس هذه العناصر الصحة والمال والجاه . . :

فقالت « نجوى » : نسيتم أن فى الحياة أشياء كثيرة أحسن من الجاه وأشرف من المال . .

قلت : مثل ماذا ؟

قالت : إنها أشياء كثيرة يخطئها الحصر . .

قلت : لعلك تشيرين إلى الأسرة والأطفال !.

فضحكت قائلة : لا شكّ أن الحياةَ الزوجية الهانئة من أطيب نعم الحياة . .

قلت : والأطفال ؟

قالت : إنهم زينة الحياة . . قال تعالى : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) ، فالأطفال هم أمل المستقبل ، وهى الذين يحببون إلينا العمل والتعب ، فنركب الصعب ، لنوفر لهم طعامهم وكساءهم ولعبهم . . وقديماً قالوا : لا خير فى دار لا يشرق وجه طفل فى أبهائها ، ولا ترنّ ضحكاته فى حجراتها . .

وشرد بصرى ، وهامت أفكارى ، وقلت أحدّث نفسى : لا بدّ أن أتزوج « نجوى » !

* * *

حاولت غير مرة أن تصحبنى « نجوى » إلى ملهى أو سينما ، ليزداد كلانا معرفة بصاحبه ، ويتفهم أفكاره وميوله ؛ فكانت ترفض رفضاً قاطعاً ، وتأبى أن نتقابل إلا فى بيت أخى أو بيت أختى ؛ بل لقد حرصت على ألا تخلو بى لحظة فى أى من هذه الزيارات : .

ولم يكن بد من أن أطلب إلى شقيقتى « سمّيرة » وإلى « تغريد » ، زوج شقيقى « عبد الحميد » ، أن تجسا نبض الصديقة « نجوى » ، وتستطلعا رأيها ، وتعرفا جوابها لو تقدمتُ لخطبتها .

وكان ردهما أن « نجوى » تعزنى وتقدرنى ، لكنها تخشى ألاّ أتوب ، وألاّ أقلع عن مسلكى الشائن مع النساء والبنات ؛ وأنها تشترط لقبولها خطبتى أن أتوب ، وأمتنع عن الخمر ، وأن أصلى ، ويستقيم سيرى ، وأن تكون التوبة بالفعل لا بالقول . .

وامتنعت عن الخمر والميسر ، وقطعت صلتى بمن أعرف من النساء ، وعدت أصلى . .

* * *

وتمت خطبتنا . . لكن « نجوى » وأبويها رفضوا — فى شدة — أن نخرج وحدنا طوال فترة الخطبة ؛ فكان علينا ألا نزور متحفاً أو حديقة ، وألا ندخل ملهى أو سينما ، إلا إذا كان فى رفقتنا « حرس » من أهلينا .

ولم أكن أستطيع أن أخلو بالحديث إليها إلا فى شرفة البيت ، أو فى حجرة مفتحة الأبواب . فإذا خلونا معاً جلستْ جلسة الولد الصغير الممتلئ قلبه روعة ورهبة ؛ وضمت يديها بين ركبتيها ، وضغطتهما ، لتخفى الرعدة التى تستولى عليها ؛ ولم يكن هذا ليعجبنى ، لكنه كان يستهوى لبى ؛ كما كانت تستولى على مشاعرى بمقدرتها الفائقة على خلق الموضوعات المختلفة للحديث ، فلا تدع لى فرصة للاستسلام لأفكارى السود التى كانت تضطرب فى رأسى اضطراب الخفافيش فى ظلمة الليل !

ومن أهمّ ما كانت تتحلى به « نجوى » أنها صريحة فى القول ، جريئة فى التعبير عما تعتقده وتؤمن به ؛ فهى — حينما تعرب عما تراه أو تلاحظه — لا تهاب شيئاً ولا تخاف أحداً . ومن الناس من هم ذوو شخصية قوية تحمل الآخرين على أن يميلوا إليهم ، ويخضعوا لهم ، ويتأثروا بما يلقون عليهم من قول أو إشارة . وكانت شخصية « نجوى »

من هذا النوع

التقينا يومًا فى منزل أختى ، لتصحبنا إلى إحدى دور السينما ؛ فلما نهضت « سميرة » لتستبدل ثيابها ، خلا لنا الجو ، وكنت أشد ما أكون اشتياقًا إلى أن أطوق خصر « نجوى » وأقبل ثغرها ؛ فملت نحوها ، وقلت : « نجوى » أتغضبين إذا لثمت شفتيك ؟ !

وقبل أن تجيب بلا أو نعم طوقت خصرها ، وقطفت قبلة من شفتيها . .

أخذت بهذه الحركة ؛ فدفعتنى عنها فى غضب وعنف ، وقالت : أنت خائن . . آمنك فتخون الأمانة ؟ ! دعنى أنصرف .

وسالت على خديها الدموع . .

ويعلم الله كم بذلت من جهد لأسترضيها ، حتى عدلت عن رغبتها فى الانصراف ؛ لكنها ظلت كئيبة . لا تضحك لما يضحك له المتفرجون فى السينما ، ولا تجيب — إذا سئلت — إلا إجابة وجيزة ، حتى اضطرت « سميرة » إلى أن تسألها فى صراحة : ماذا جرى ؟ ! كأنك لست معنا . . فاعتلت — كعادتها — بأن الصداع يكاد يصرفها عن كل شىء .

وزاد هذا من قدرها فى نفسى .

٢٧

صعدت إلى شقة « نجوى » لأجلس إليها ساعة ، فإذا أبواها قد غادرا البيت لعيادة خالتها المريضة؛ وليس فى الشقة إلا « نجوى » وشقيقاها اللذان يصغرانها ، وأكبرهما فى مرحلة الدراسة الثانوية ، والآخر فى المرحلة الإعدادية .

استقبلنى شقيقها الكبير ، ورحب بى ترحيبًا حارًّا صادقاً ،

وأقبل فى إثره شقيقها الصغير فحيانى أطيب التحيات ، وقال : أبلة نجوى تصلى المغرب . . وسمعت « نجوى » تقرأ فى صلاتها ، فى خشوع ينفذ إلى القلب : (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) .

ثم أقبلت « نجوى » ، وخلفها الخادم تحمل صينية عليها أكواب عصير البرتقال ، وانصرفت الخادم ، ثم انصرف الشقيقان ، ليستذكرا دروسهما ، وخلت الحجرة إلا منى ومنها .

قمت من مكانى ، وجلست بجوارها ، فارتاعت ونفرت ، وبدأت تتكلم فى سرعة ، تصل الجملة بالجملة ، وإن كانت أحيانًا تقطع الكلمة الواحدة إلى شطرين رهبة وخوفًا ! . . أما أنا فأخذت أبتسم وأضحك .

طوقت خصرها بساعدى ، فقالت : لا ، لا . . دعنى دعنى . .

وحاولت أن تنهض ، لكنى لم أتركها تتحرك ، وهمست فى أذنها : ألا يزال الخجل يستولى عليك ؟ ! . . وضممتها إلى جانبى وأنا أقول : ستكونين لى يا « نجوى » . . سيكون لى كل هذا الجمال ، وهذا الأدب ، وهذا الظرف ، وهذه الرقة . . سيكون لى قلبك النبيل ، وجسمك الجميل ، وروحك الصافية .

فقالت وهى تحاول أن تتخلص منى : « عبد الرحمن » ، دعنى . . وإلا رفعت صوتى ، ودعوت أخوى . .

ــ أدعك ؟ ! . . لن أدعك بعد اليوم . . لقد أذاب الشوق قلبى ، وأحرق كبدى . . أتعرفين كم أحبك يا « نجوى » ؟ ! . . أحبك . . أحبك . . أحبك . .

وكنت وأنا أنطق بهذه الكلمات أغمر شعرها وجبينها ووجنتيها بقبلاتى . . وبدت هى حينئذ كالمستسلمة الراضية . . لكنها عندما

أحست بشفتى تلمسان شفتيها خيل إليها أن ما مس شفتيها كأس مفعمة سمًّا ؛ فدفعتني عنها دفعة شديدة خلصتها من ذراعى ، وقامت نافرة ، والتفتت إلىّ ، وقد وقفت وقفة الذى يستعد للدفاع وصدّ الهجوم .

استولى علىّ الدهش ، وأخذنى العجب ، فقلت — وأنا أرى أمامى فتاة هائجة متنمرة غير « نجوى » الوديعة الرقيقة — : ما هذا يا « نجوى » ؟ ألسنا مخطوبين ؟ !

وتقدمت نحوها ، فمدت يديها تشير إلىّ أن أبقى فى مكانى ، وقالت بصوت غريب : لا تدن منى :

وقفتُ ، وقلت مستعطفًا : « نجوى » ، ماذا فعلت ؟ أتمنعيننى حبك ؟

فاهتزت فى وقفتها وقالت : لا تحاول أن تلمسنى . .

نظرتُ إليها نظرةً غاشية ، كمن كان فى ظلمة حالكة . وخرج إلى نور باهر ، وقلت : ماذا جرى يا حبيبتى ؟

— لا تحاولْ . أنا لا أطيق أن تلمسنى . .

— « نجوى » . . حبيبتى . . حياتى . . لقد تعبت وأنا أبحث عنك . . أنت من كنت أريدها . . ما أسوأ حظى ! وما أعظم شقائى ! . . أحين أعثر عليك تنأين عنى ؟ ! . . يالتعاستى !

كنت شديد التأثر والانفعال من أثر ما يخالجنى من عاطفة جامحة ، وإحساس مجروح ، وخوف من فقدانها . ومشيت أريد الوصول إليها ، فصاحت بى : لا تدن منى . . لا تدنُ :

وكان صوتُها متهدجاً متقطعاً ، وأنفاسها سريعة ، ثم انطبق فمها على صوت بين الانتحاب والضحك ؛ فتراجعت عنها ، وأسقطت يدىّ المبسوطتين ، وقد حرك منظرها فىّ شعوراً عميقاً حملنى على التراجع .

وغمرتنى ساعتئذ رغائب جمة ملحة ، وجدت نفسى مأخوذاً بها ، وكان أشد تلك الرغبات ظهوراً رغبتى فى امتلاك هذا الجمال الباهر الذى أراه متجلياً فى ساعة الغضب والخوف .

لقد خيل إلىّ من قبل أنها من أجمل الفتيات اللائى عرفتهن . أما الساعة فقد اتضح لى أيضاً أنها ذات تأثير أخاذ وجاذبية قوية تصل بها إلى الأحشاء ، وتتغلغل القلوب ؛ فعزّ على أن أروّع هذا الجمال ، أوأفزع صاحبته ؛ فهدأت ثورتى ، ونظرت إليها نظرة وادعة ، وقلت بصوت غير ثابت : حسناً يا « نجوى » . . لقد فهمت . .

وجلستُ . أما هى فظلت برهة واقفة صامتة ساكنة ، لا يبدو منها غير تلك الحركات السريعة المتتابعة التى تضطرب بها أهدابها وشفتاها . . فلم أر بدّاً من الانصراف ؛ فنهضت وخطوت خطوة نحو باب الحجرة . فإذا هى تدنو منى ، وتلقى رأسها على صدرى ، وتطوق عنقى بذراعيها ، وتقول : وأنا . . أحبك يا « عبد الرحمن » . . لكنى أخافك . . سأكون لك كلى بعد الزواج ، فلا تزعجنى مرة أخرى . .

ربّت ظهرها ، وقلت فى حنان : أنت حاضرى ومستقبلى ، وكل حياتى يا« نجوى » . .

ــ وأنت أيضاً يا « عبد الرحمن » . . إنى أحبك . . ولم ينطق لسانى بهذه الكلمة من قبل إلا لأخوىّ . . أحبك ، وأحب أيضاً أن أحفظ لك كل أعضائى طاهرة نقية . . فلا تلمنى إذا تأبيت عليك . . لا تجزع ولا تستعجل . . وإنى لأحب أن تحفظ أنت نفسك لى طاهرة ، كما أحفظ لك نفسى . . حسبك ما أفنيت من صحتك ومالك فى اللهو والعبث ، ولتبدأ حياتك من جديد فى طهر ونقاء :

أدركت وجلا أنى لم أعد صاحب سلطان على نفسى ، وأن عاطفة قوية ، لا أعرف بم أسميها ، تستولى علىّ فى هذه اللحظات ، فلم أستطع

إلا أن أقول : إلى اللقاء يا « نجوى » . .

وعدوت أهبط السلم إلى الشارع ، ونفسى تزخر بأحاسيس شتى .

* * *

كيف يمكن أن أحيا بلا قبلات وبلا أحضان ؟! . . إن هذه الأشياء الصغيرة ذات أهمية بالغة لى ، كأنها الماء للسمك ! ومن ثم عدت أبحث عن الأحضان والقبلات بعيداً عن فضيلة الشيخة « نجوى » .

وكانت لى جارة لعوب ، ممشوقة القد ، وجهها جميل جذاب ، ورقبتها فضية منسجمة ؛ وهى لا تنفك تشاغلنى ، فتحدق إلىّ تحديقاً ، وتداعبنى بنكاتها وطرائفها ، وتمس طرتها بأناملها تارة ، وترفع حاشية ثوبها تارة . . وكانت تدعو نفسها إلى العشاء معى ليلة ، أو حضور رواية سينمائية ليلة ، فكنت أجيبها إلى طلبها مرّة ، وأتهرب منها مرات : . فلما تأبت علىّ « نجوى » ، وتمسكت بقواعد الدين ومثله القويمة ، قلت لنفسى : لماذا لا ألهو حيناً مع « سناء » ، وهى مليحة لطيفة ، فى عينيها بريق مستحب ، وفى وجنتيها احمرار لا يغيب ؟!

كانت « سناء » تشمخ بأنفها ، وتنتصب فى جلستها ومشيتها انتصاباً يجعلها تظهر أطول من حقيقتها ؛ وكانت تبدو دائماً فى أكمل زينة ، وعلى أحسن هيئة فى ملابسها . وليس ذلك راجعاً إلى أن ملابسها متفقة مع « المودة » ، أو لأنها كثيرة التكاليف ، غالية الثمن ؛ كلا . إنما كان ذلك راجعاً إلى أنها تلائم جسمها الجميل التقاطيع كلّ الملاءمة من حيث اللونُ والتفصيل . وكان من أبرز ظواهر « سناء » ، وأكبر ميزاتها عيناها اللامعتان بأهدابهما الطويلة التى يخيل إلى الرائى أنّ لهما ظلا منتشراً . وكان شعرُها أسودَ شديدَ السواد ، لكنك إذا نظرتَ إلى حاجبيها رأيتهما أشدّ سواداً .

ووجدت عند « سناء » ما اشتهيت من قبلات وأحضان ؛ لكنى —

والحق يقال — لم أخدعها ، بل قلت لها فى صراحة جافية : إنى خاطب ، وخطيبتى جميلة حلوة — كما تعرفين — وليس فى نيتى أن أفسخ خطبتى ؛ فقالت : لا يهمنى . . ولو كنت زوجاً وأباً . . أنا أحبك ، وأجد سعادة فى قربك . . ولست أخفى عليك أنى كنت أتمنى أن أربط حياتى بحياتك . . وكم تخيلت نفسى ونحن زوجان ! . . كم تخيلتك وأنت فى عملك ، وأنا فى بيتنا أنظر إلى ساعتى ، فأجد موعد عودتك قد أزف ، فأهب لأعد لك بنفسي طعامك حتى لا تضيق بالانتظار : . ثم أجدنى أمعن فى التخيل ، فأعمل جهدى فى الحفاظ — ساعتئذ — على سكون البيت وهدوئه حينما تقبل كيلا تزعج أو تقلق . .

ووقفت « سناء » لى عواطفها وحواسها وأفكارها ؛ وبلغ من اهتمامها بى أنها كانت تعد تأخرها عن موعد لقائى دقيقتين أو ثلاث دقائق خيانة وجناية . وقد أدركت ذلك كل الإدراك ، فكان له أطيب الوقع فى قلبى :

وخلوتُ إلى نفسى وما فيها من ثورة وأفكار ، وذكريات وأمانىّ وتعلات ، وفكرت ، وفكرت . . ولم أجد حرجاً ولا إثماً فى أن أكون خاطب « نجوى » ، وصديق « سناء » .

وذات ليلة عدت إلى البيت بعد منتصف الليل ، فرأيت شقيقتى الحبيبة « سميرة » ساهرة تنتظرنى ، ووجهها تعلوه الجهامة ؛ ولم تستقبلنى — كما تعودت — بالحنان والترحيب ، وإنما فجأتنى بسؤالها : أين كنت ؟

— كنت فى السينما . . ماذا حدث ؟

— ومَن كان معك ؟

— أحد زملائى . .

ـ أحد زملائك أم إحدى عشيقاتك ؟! . . أنت عربيد يا « عبد الرحمن » ، ولن ينصلح أمرك . . لكم أندم على أن سعيت لتتم خطبتك على « نجوى » ! . . لقد رأتك « نجوى » مع صديقتك يا شاطر . : رأتك وذراعك تحت ذراع « سناء » تلك الفتاة اللعوب ذات الشعر المقصوص ، والوجنتين المصقولتين ، والفم المصبوغ ، والأظفار الملونة البراقة . . إن كانت هذه الأشكال تعجبك ، وإن كنت لا تستطيع أن تتوب عنها ، فلماذا وقفتنا هذا الموقف المخجل أمام صديقتي ؟ ! . . لقد خدعتني أنا أيضًا يا « عبد الرحمن » ؛ بل خدعتنا جميعًا ، وجعلتنا نصدق أنك تائب نائب . . لكن . . وا أسفاه يا أخي ! . . أنت كذيل الكلب ، دائمًا أعوج لا ينعدل !

لأول مرة تخاطبني « سميرة » الحبيبة بهذه الحدة ، وهذه اللهجة المرة ، ولأول مرة أقف أمامها خزيان كتلميذ صغير مذنب يقف أمام معلمه القاسي ، فلا يحير جواباً . .

وأخيراً قالت « سميرة » وهي تجهش بالبكاء : لقد حطمتَ هذه الفتاة الشريفة الطاهرة التي لا تستحقها . . مسكينة ! . . صدمت صدمة أليمة . . كانت تحبك إلى حدِّ الجنون ، وكانت تحب أن تعيش معك ولك ؛ لكنها كشفت ــ في الوقت المناسب ــ أن سلوكك كريه فظيع ، يفري القلب ، ويشوي الكبد ، ويؤرق الجفن ، ويسلب الإنسان كل هناءة . . وقد صممت على فسخ خطبتك : . اذهب لتنام ، والصباح رباح .

* * *

وانقضى نهاري ، وأنا في شرِّ حال . .

وفي الأصيل أقبلَ والد « نجوى » يرد إليَّ خاتم الخطبة والسوار الثمين ، ويبدي تألمه لمسلكي الشائن : وقد حاولتُ أن أسترضيه ، وطلبت أن يأذن

لى فى لقاء « نجوى » ، لأعتذرَ إليها ، وأصحح لها فكرتها ؛ فقال : لا فائدة ترجى . . إنها رأتك مرتين قبل أمس . .وقد تعارفنا أحبابا فلنفترق أحبابًا . . وإنى أنبهك إلى أمر خطير : لا تحاول أن تعترض سبيل بنتى بعد اليوم . .

ولزمتْ « نجوى » البيت ثلاثة أيام ؛ ورفضت أن تسمح لى برؤيتها ، أو أن تزور أختى فى حضورى . وفى اليوم الرابع لزمت أنا البيت ، فرأيتها تذهب إلى عملها ، فلحقت بها .

استقبلتنى أسوأ استقبال ، وصدت عنى صدًّا عنيفاً قائلة : لا أريد أن أراك . . إنك لا تفهم ، ولن تفهم ، معنى الشرف والفضيلة . . وقدسية الزواج . . وكيف يمكن لطبع مثل طبعك أن يعرف العفة والطهارة ، ويصل إلى حقيقتهما . . اذهب ، ولا تدعنى أراك ، ولا تحاول أن ترانى بعد اليوم .

كان وجهها شديد الامتقاع ، ونفسها مهتاجة ، وقلبها طعينًا ؛ وحاولت أن ألطف ثورتها بكل ما أستطيع ، فلم أفلح ؛ وإنما كانت ثورتها تزداد وتعنف ، فلم أستطع إلا أن أقول : لن أنساك يا « نجوى » . . وانصرفتُ خائبًا حزينًا ، وقد كبر علىّ أن أخفق فى حبى العظيم هذا ، وأن تلفظنى « نجوى » لفظ النواة ، وتفر منى فرار الغزال من الأسد !

ولم أجد ما أتعزّى به فى حالى التى صرت إليها : . ولم يكن بد من أن أحتمل وحدى عاقبة سلوكى وتصرفى ، بدون أن أستطيع أن ألقى بشىء من المسئولية على غيرى ، فقد طالما نصحنى أهلى ، وكشفوا لى حقيقة الحياة ، فلم أعرهم إلا أذنًا صماء . : ومن هنا نجم شقائى ، وغرقت فى الإثم ، وتعرّضت للمخاطر .

كان يجب ألا أثق بكل عاطفة تجول بين جنبى ، وألا أستسلم لها

حتى تستحوذ على عقلي . كان يجب أن أجمع فى يدى عنان العقل ، وألا أدعه يفلت مني . . كان يجب أن أكبح جماح عواطفي بلجام الحكمة والتروى قبل أن أتردى بها فى الهوة السحيقة التى تبتلع كل من يهوى إليها .. لقد خدعت حين اتخذت عاطفتى مصباحاً يضىء لى سبيل الحياة ، وحجراً أبنى عليه أساس مستقبلى .

وكانت الأيام التالية عذاباً لا يطاق ، ولست أدرى كيف عبرت . .

وضاعف عذابى ، ونكأ جرحى أن « نجوى » تركت الإسكندرية ، وانتقلت إلى القاهرة .

وكان ماحدث أمراً غريباً غير مألوف ، حتى إنى لم أستطع أن أصدقه فى سهولة ، أو أعتقد أنه حدث حقاً . .

كيف أخفقت فى حب « نجوى » هذا الإخفاق الشنيع ؟ !

فكرت ، وفكرت ، وفكرت : . ثم قررت أن أغادر مصر إلى أوربا ، وإلى فرنسا ، فلعلنى أفيق من هول ما نالنى من فواجع ، ولعل جسمى يبرأ من دائه ، ونفسى تطيب من علتها .

بعت بعض ما ورثت ، وصار معى مال كثير ، يكفى لأعيش به حيناً فى أوربا عيش الوارثين المترفين ؛ وأعددت عدتى ، وحزمت حقائبى . .

٢٨

الباخرة تنفخ فى الصور إيذاناً بالرحيل ، وأنا متكئ على حاجزها ، أتطلع إلى جمهور المودعين يلوحون بمناديلهم ، ويشيرون بأيديهم : . ثم أرفع رأسى ، وأقلب بصرى فى معالم الإسكندرية ، وحولى المسافرون يصخبون ويتصايحون بلغات العالم ، ورأسى يكاد ينفجر مما يغلى فيه من خيالات وأوهام ، وآمال وآلام : .

الباخرة تتحرك فى هدوء ، وتترك مكانها فى خفة ، وتشق ماء الثغر المصرى الأكبر فى خيلاء ، حتى جاوزت حدود المياه الإقليمية ، فجدّت فى مجراها ، مخلفة فى مؤخرها ذيلا من الماء الأبيض يحسبه الناظر نهيراً من اللبن ، يعلوه الزبد ، يأبى أن يختلط بمياه البحر الملحة ، وزرقته الصافية .

كانت تلك أول مرة أركب فيها البحر ، فشعرت بلذة عميقة حين رأيت الباخرة تشق الماء ، والإسكندرية — على عظمتها ، بل الأرض كلها — تبتعد عن عينى رويداً رويداً ، حتى غاب الشاطئ ، وطواه الأفق .

وكان الوقت ظهراً ، والبحر هادئًا ، والريح رخاء ، والمسافرون يزحمون الباخرة الكبيرة ؛ فنحن فى فصل الصيف ، وكثير من الحكام والسادة الأثرياء يقصدون أوربا ، بدعوى الاستشفاء ، أو حضور المؤتمرات .

ولم يكد الليلُ يتقدم حتى عصفت الريح ، واصطخبت الأمواج ، وأخذت الباخرة تعلو بنا وتهبط ، فشعرتُ بشىء من الخوف ، لكنى رأيت الركاب هادئين مطمئنين يسمرون ، ويتبادلون الفكاهات والنوادر ، فثابت نفسى إلى الطمأنينة .

استيقظت فى صباح اليوم التالى قويًّا نشيطًا ، وتناولت فطورى ؛ ولم يطب لى أن أظل معتكفًا عن سائر الركاب ، فاختلطت بهم ، وجرت بيننا الأحاديث شتى ، فلم نلبث أن تعارفنا ، وصرنا كأننا أسرة واحدة . . وكان أكثر المسافرين قد ركبوا البحر غير مرة ، فما يكاد يبدو لنا منظر قريب ، أو منظر بعيد ، حتى أراهم يتحدثون ويصفون . :

وألفت تلك الحياة ، لا . . بل كاد الملل يدب إلى نفسى ، فقد مرت

بنا أربعة أيام متشابهة الصور والألوان ، ليس بين أيدينا إلا الماء ، وليس فوقنا إلا السماء . . وقد نلمح سفينة على اليمين أو على اليسار ، أو نمر فى بعض الطريق بجزيرة ، فلا نقترب ولا نقف . . حتى إذا دنونا من سواحل جزر إيطاليا امتلأت السماء بالضباب والسحاب ، وهبت الريح عاتية ، ورقصت بنا الباخرة رقصاً خفيفاً . . ثم ما لبث البحر أن ثار ، وأعلن ثورته علينا فى موج كالجبال ، يلطم الباخرة الكبيرة ، ويهزها هزاً ، فغمر الخوف قلوب بعض الركاب ، وعلا صياحهم ، وغلب القىء بعضهم ، فتهاووا فى أماكنهم ، أو أمالوا رءوسهم فوق حواجز السفينة ، ولفظوا فى البحر ما فى بطونهم .

ما أعتاك أيها الخلق العظيم ! . . ترجرج ما شئت أن ترجرج ، فالجيوش الجرارة ، والأساطيل المخارة ، آلافاً مؤلفة ، ليست سوى قطرات فى صعيد ماثلك !

تطاولت يد الإنسان على الأرض تعميراً وتخريباً ، ولكنها إلى شاطئك المنحدر تقف ! إلى هنا وأنت صاحب الساطان . . ملك مطلق فى سهولك اللجية الواسعة ، وجبالك البلورية العالية ، تقيم منها ما تشاء ، وتهدم منها ما تشاء . . تحمل ما تشاء وتغرق ما تشاء . . . إذا بطشت بطشت جباراً . . بلطمة واحدة تخر السفائن الجارية وما عليها ، ويهوى الغرقى إلى قاعك ، لا تحفر لهم قبور ، ولا تعد لهم أكفان ، ولا يعلم لهم مستقر !

ليس فيك مجال للإنسان ، لأن قدمه لا تثبت فى ساحتك . . : أما قوته الجبارة فهو يسلطها على الأرض . وأنت تزدريه ، وتزدرى قوته ، فتقذف به إن شئت إلى الهواء ، ثم تهبط به طى أمواجك ، فلا يعرف له خبر !

وقفت فى صباح اليوم الخامس على ظهر الباخرة أرنو إلى هذا الخلق

العظيم ، وحركات أمواجه الدائمة ، والهواء يلفح زرقتها ، فتتطاير من ثورتها زبداً أبيض . . وتهت فى أودية المنى والخيالات والأوهام ، وأنا أسائل نفسى : ترى ما باريس التى قالوا إنها عاصمة الدنيا ، بل عاصمة الدنيا والآخرة ؟ ففيها الجنة بحورها ونعيمها المقيم. وفيها جهنم بزبانيتها ، وعذابها الأليم !

ما باريس ؟! .. عجبًا ، عجبًا . . من ذا الذىلم يسمع بها ؟ ومن ذا الذى لم ينهل من مدنيتها وعلومها وآدابها ؟! . . إنها لنهر عذب فياض ، لا يجف ولا يغيض .

لقد رأيت باريس من قبل ! . . نعم ؛ رأيتها حكاية وأسطورة ، ورأيتها صناعة وفنًا . . رأيتها فى صور عماراتها الكبيرة ، ومبانيها الفخيمة ، وأبراجها الشاهقة ، وشوارعها الفسيحة ، وميادينها الرحيبة ، وآثارها النادرة ، ومدنيتها الزاهرة ، وغيدها الحسان !

نعم ؛ رأيت باريس من قبل كتاباً وصورة . . وإن صورتها فى ذهنى لشبيهة بما قرأت فى « ألف ليلة وليلة » من روائع الخيال ، وبدائع الأساطير . . وكم تمنيت لو أفتدى آمالى كلها بأمل واحد ، هو أن أرى باريس ، وأعيش فيها حيناً ، ثم أموت !

كيف أرى الآن هذه العاصمة التى عشقتها على الورق وفى الخيال ؟! . . كيف أعيش فى بيئتها ، وأخطو على أرضها ، وأمرح فى ملاهيها ؟! . . وأى مستقبل مجهول ينتظرنى هناك ؟ !

وما برحت خواطرى تتحرك مع المستقبل المجهول ، وأنا أتطلع حيناً إلى صفاء السماء ، وأحدق حيناً إلى البحر ، وأرسل النظر إلى الآفاق . . الزرقة تحيط بنا وتلفنا ، وأنا أرى بعين الخيال ما تصوره أحلامى وأوهامى . : أراه مجسمًا واقعاً . : أرى الحسان الفاتنات ، والليالى الصاخبات ، وأرى قبر « نابليون » ، وقصر « فرساى » . . وأرى « اللوفر » ، وبرج « إيفل » . .

وأرى الكاتدرائيات الشهيرة ، والتماثيل البديعة . .

وعلى النفير المفاجئ لصفارة الباخرة صحوت من خيالاتى . .

ها هوذا شاطئ فرنسا يبدو لنا ، وها نحن أولاء ندخل مياه مرسيليا ، أكبر موانى البحر المتوسط . . وها هى ذى البهجة تعلو الوجوه ، والبشر يعم الجميع . .

٢٩

ضم الشاطئ الفرنسى الباخرة إلى صدره ، فوقفت أتأمل ما حولى . .

صيحات هنا وهناك . . أشكال غريبة . . لغات مختلفة . . لهجات متباينة . . « رصيف » طويل يزدحم بالبواخر السياحية والتجارية من جميع أرجاء المعمورة ، يصعب على النظر حصرها .

وسمح لنا بالنزول . فتركت نفسى لمرشد فرنسى شاب ، قادنى إلى فندق « إنجلترا » فى « بولفار جامبتا » ؛ وهو فندق يكاد يكون صورة من فندق « الكونتيننتال » فى القاهرة ، من حيث شكله وحجمه وطبقة نزلائه .

استرحت حتى غابت الشمس ، ثم تزينت ، ونزلت . .

وكنت أظن أنى سأغزو غزوات ناجحة ، وأجد الحب حيثما سرت . . ولم لا ؟ ألست الآن فى فرنسا ، بلاد الحب والجمال ؟ ! . . لكنى أصبت بخيبة أمل لم تكن لتخطر على البال ؛ لأن مرسيليا مدينة عمل ، وأكثر أهلها ينفقون حياتهم كادين فى سبيل جمع المال ، وتوفير وسائل العيش الهنيء . .

إنها مدينة كبيرة ، يؤمها التجار من جميع أنحاء العالم . . وجوّها شبيه — إلى حد ما — بجو بورسعيد . . وسكانها خليط من مختلف الشعوب ،

ولا سيما شعوب البحر المتوسط ، من إسبانيين وإيطاليين ، ومالطيين ويونانيين ، وسوريين ولبنانيين ، وتونسيين وجزائريين ، وليبيين ومغاربة . كما يستوطنها بعض الإنجليز والهنود . فمن كان مثلى ، همه الرياضة واللهو ، والبحث عن الحب ، فقد لا يظفر فى مرسيليا بما يصبو إليه ، بل قد لا يجد من بين أهلها صديقاً يلطف شعوره بالغربة والوحشة !

وكنت — منذ ركبت الباخرة من الإسكندرية — قد اعتزمت ألا أدخل باريس قبل أن أزور بعض المدن الفرنسية الكبيرة ، وأهيئ نفسى لزيارة العاصمة العظيمة ، فلست أحب أن أدخل باريس وأنا أجهل عادات الفرنسيين ، ونظم حياتهم ، فأكون كالصعيدى « الخام » الذى يزور القاهرة زورته الأولى ، فيقع فريسة المحتالين ، ويصير موضع سخرية الساخرين ، ومن ثم قررت أن أبقى فى مرسيليا أياماً .

وماذا ورائى يعجلنى ؟ ! فلأتفرج — إذاً — فى أنحاء مرسيليا ، ولأزر معالمها ، وأختلط بأهلها المختلفى الجنسيات والألوان والسمات :: وإن فاتنى الحب فيها ، فقد أستفيد فائدةً من الفوائد التى ذكرها الشاعر العربى فى قوله : « سافر ففى الأسفار خمس فوائد .. » !

لكن . . كيف يفوتنى أن أتذوق الحب فى ليلتى الأولى على أرض فرنسا ؟ ! لا بد أن أتذوق الحب هذه الليلة ، مهما تكن التضحيات!

سألت عن أعظم شوارع مرسيليا ، فقيل لى إنه « بولفار كانبيار » ، فأخذت طريقى إليه ، فإذا هو يشبه شارعى « سليمان باشا » و « فؤاد الأول » بالقاهرة ، فى كثرة المقاهى والملاهى ، ومحال التجارة ، ومكاتب الشركات ، إلا أنه يفوق شوارع القاهرة فى اتساعه ، وفى أن به متنزهاً يقسم عرض الشارع قسمين ، ويقوم فى هذا المتنزه «أكشاك» لبيع الجرائد والمجلات ، والكتب الحديثة والقديمة . .

ومن العجيب أن أهل مرسيليا الذين يشغلهم العمل ، ويستغرقهم

السعي وراء المال ، يقبلون على شراء الكتب بشغف ملحوظ ، لا يقل عن إقبال أهل القاهرة على ارتياد المقاهى والسينما ، ولعب « الطاولة » ، و« الدومينو» ، و« الكوتشينة » !

جعلت أتسكع أمام دور السينما ، وأتظاهر بالنظر فى صور اللوحات الحائطية ، وأنا لا أنفك أقلب طرفى فيما حولى ، والحسان يطفرن أمام عينى ، يعبق بهن العطر ، ويضوع منهن الطيب ، وثيابهن ذوات الألوان المختلفة تضغط أجسادهن الرشيقة ، تضغط الصدر الناهد ، والخصر المياس ، حتى تذوب نشوة بما تضم ، فترق وتشف ، وتود لو تنشق الأكمام الطرية عن الورود الجنية !

وتلاقت أعيننا . . وبهتّ !

لم يكن يفصل بينى وبينها سوى أمتار خمسة ، أو دون ذلك ، فأخذت أحدق إليها ، وجعلت هى تتأملنى وتبتسم ، ثم تحوّل وجهها عنى ، لتعود فتنظر إلى ، وتبتسم ، فعل الأنثى قلبها مفتوح للحب !

ورأيت فى عينيها ما يجذبنى إليها ، ويدعونى إلى مغازلتها . . كان ينبعث منهما شعاع يبهرنى ، ويهز كيانى ، ويحرك مشاعرى . . لقد دخلت قلبى فى سرعة خاطفة !

وجرؤت ، فدنوت منها حتى واجهتها ، فانحنيت قليلا ، وكأننا فى مرقص ، وقدمت إليها نفسى : شاباً غريباً وحيداً ، وصل إلى هذا البلد فى الصباح . . ورجوتها أن تقبل دعوتى إياها إلى العشاء ، إذا كان هذا لا يزعجها !

نظرت إلىّ هذه الحسناء الفارهة ، البادية الأناقة ، وجعلت تتأملنى فى شبه غضب ، وقالت : ما أجرأك أيها الشاب ! . . من أى بلد أنت ياسيدى ؟ !

— من بلد « الأهرام » و« أبى الهول » ياسيدتى . :

— من مصر ؟ : . ولماذا جئت إلى فرنسا ؟
— جئت للزيارة والرياضة . .
— وما عملك ؟ . . وكيف ؟ . . وأين ؟ . . ومتى ؟ . .
— سأجيبك عن كل سؤال ، بالإيجاز أو بالتفصيل ، كما تشائين ، لو سمحت أن نجلس فى مكان ما بعض ساعة .
— حسنًا . . إنك لتعجبنى . . أقصد تعجبنى جرأتك ولباقتك ، ويطيب لى — وأنت ضيف غريب — أن أدعوك أنا إلى السينما . . عما قليل يصل أصدقائى ، وأعتقد أنهم يرحبون مثلى بأن تقضى سهرتك معنا . :
— شكراً ، شكراً ، سيدتى . . أفضل أن تمنحينى شرف صحبتك وحدك ، إن شئت !
— لماذا ؟! . . إنك لجرىء جدًّا ، أيها الفتى المصرى !
— ياسيدتى الجميلة ، إنى حديث عهد بالحياة هنا . . وأخشى أن يصدر عنى ما يثير سخرية الآخرين . . وأنا لا أطيق أن يسخر منى أحد . .

— لا تخش شيئًا . . ستكون بيننا كواحد منا ياسيدى .
والحق أنه لم يكن بى خوف ولا خشية ، لكن قلبى — مع هذا — لم يكن بين جنبى ، وعقلى لم يكن فى رأسى ، فكل ما يشغل حسى أن « أصطاد » هذه الحسناء ، فى ليلتى تلك ، فاستطردت : ستقودين خطاى إلى حيث تحبين ، وسأكون طوع يمينك فى كل ماتشائين ، فحسبى أن أكون معك . . لقد وصلت إلى مرسيليا فى صباح اليوم ، وقد أغادرها غداً ، أو بعد غد : : وكل أملى أن نكون صديقين . . لن تندمى على الوقت الذى ترافقينى فيه ! . . أحب أن تجلسى إلىّ ساعة ، تلقنينى فيها درسًا عن الحياة الفرنسية : .

ــ إنى أنتظر أصدقائى ... فدعنى حتى أعتذر إليهم ، ثم أنظر فى طلبك !

ــ فضل كبير منك ، وشرف عظيم لى أن تنزلى عند رغبتى . . وأرجو ألا تثقل عليك مرافقتى ، وأن تتحملى ما قد . .

ــ هاهى ذى « جانيت » و« شارل » قد أقبلا . .

خطوت خطوات وقلبى يدق فى سرعة وعنف ، وعيناى لا تتحولان عن هذه الحسناء التى ما لبثت أن أقبلت علىّ وهى تبتسم وتقول : هيا ! لقد اعتذرت إلى أصدقائى ، لأرافقك ساعة . .

ذهبت بى إلى ملهى « ريتز » ، أفخم ملاهى مرسيليا ، فتعشينا ، وشربنا ، ورقصنا . .

وانقشعت سحب الكلفة ، واختفى طلاء الحشمة ، وبدونا على طبيعتنا ، وكأننا صديقان عزيزان ، يعرف كل منا رفيقه منذ زمان . . وعلمت « جوزفين » ما شاءت أن تعلم عنى وعن بلادى . . وعرفت أنا أنها فى الخامسة والعشرين ، وموظفة فى إحدى شركات النقل البحرى ، وأنها قد تزوجت وهى فى التاسعة عشرة ، ثم ترملت منذ عام ونصف عام :

لما نظرت إليها امتلأ بها قلبى ، ولما سمعت صوتها فتنت بها نفسى ، ولما جالستها صرفت إليها عن كل شىء ، وعددت لقائى بها أولى النعم التى تحبونى بها فرنسا الكريمة !

ومن الإنصاف أن أقول إنه ليس ثمة وجه للمقارنة بين الحسناء « جوزفين » ، ومن عرفت من قبل ، فالناظر إلى وجهها الفنى التكوين ، الفاتن الحيوية ، يؤمن أنها لم تتم العقد الثانى بعد ، ويحس أن فى شخصيتها الجذابة ناحية غامضة مجهولة ، ليس من السهل تعليلها ، أو التغلل فيها . .

وزادت بى الجرأة فقلت لها : أين يمكن ، يا عزيزتى ، أن يجد الغريب فى مرسيليا مكاناً يقضى فيه ساعة أنس ولهو هادئة ، بعيداً عن أوكار « بنات الليل العموميات» ؟ !

امتعضت قليلاً لتعبير « بنات الليل العموميات » ، ثم استغرقت فى ضحك عال متصل ، دهشتُ له وذهلت ، وقلت عذراً يا « جوزفين » إذا رأيتنى لا أحسن التعبير ، أو لا أبالى باللياقات ، أو لا أتقيد بآداب السلوك . . إنى غريب أجهل طريقتكم فى التعبير عما ترغبون . . و « الغريب أعمى ولو كان بصيراً » ، كما نقول فى مصر ! . . فعذراً . . عذراً جميلاً يا « جوزفين » . . لقد شعرت منذ التقت عيناى بعينيك أن قلبى قد تفتح لك ، وحسبت أنى مستطيع أن أتحرر معك من بعض قيود المجتمع ، فأكثرها — فى رأيى — زيف ونفاق !

أطرقت رأسها لحظة ، ثم رفعته ، ونظرت فى عينى ، وقالت : حسناً . . سأذهب بك إلى سيدة تستطيع أن تهيئ لك ما تشاء . . قم نزر صديقة قديمة ، فلعلك تجد فى بيتها ما تشتهى . .

ما إن خطونا بضع خطوات فى الشارع الكبير ، حتى أشارت إلى « تاكسى » ، وذكرت له عنواناً ، وصعدت وهى تجذبنى من يدى . :

كنت فى نشوة وافرة من الرقص والشراب . . والأمل المنشود ، فضغطت خصرها بذراعى ، فإذا هى تلتصق بى ، وتلقى برأسها على صدرى ، وتقول : لم ألتق فى حياتى بمن له مثل جرأتك !

— ليس ما بى جرأة . . إنه الحب . . « جوزفين » . .

ولم أكمل ، وإنما أكملت عيناى ويداى ، فقد احتويتها بين ذراعى ، واحتضنتها برفق وحنان ، وأنا أقول : أحبك يا « جوزفين » !

— بهذه السرعة ؟ !

— ليس للحب وقت ، وليس للحب شرائع وقوانين . . فمنذ وقعت

عيناى عليك أحسست رعشة تسرى فى جسدى ، وتجرى فى دمى ، وتهز مفاصلى ، وتتغلل مخ عظامى . . لقد ظهرتِ لى من وراء المجهول ، وكأننا على موعد ، وكأن لقاءنا من صنعنا نحن ، وليس من صنع الأقدار . . وكلما ازددت معرفة بك ، ازددت لك حبًّا ، وبك إعجابًا . . إنك رائعة يا « جوزفين » . . وإنك لتجعليننى — بجمالك ، وفتنتك ، وبشخصيتك ، ونضج تفكيرك — أعيش ليلتى الأولى بفرنسا فى حلم جميل فاق كل ما صور خيالى . . إننى أحببتك يا « جوزفين » . . وليس الحب شيئًا نستطيع أن نتّقيه بالفرار منه ، والبُعْد عنه ، وصدّ تيّاره . . ليس الحب ريحًا نتّقيها بإغلاق النوافذ . . إنه فوق إدارة الإنسان ، سواء أكان حبًّا يحوطه الأمل ، أم حبًّا يائسًا لا أمل فيه . . إنه قضاء وقَدَر ، لا نملك سوى الاستسلام لمشيئته ، فهل مسّ قلبَك ما ملأ قلبى نحوك من حبٍّ ووله ؟ !

لم تُجب ، بل تركت نظرات عينيها تجيب عنها ، وقد أخذ كل منّا يرنو إلى صاحبه . . وأودعنا نظراتنا ظمأ الليالى التى انسلخت من عمرنا قبل أن نلتقى !

٣٠

وقفت بنا السيارة أمام « ڤيلا » أنيقة فى حى هادئ ، يُشبِهُ حىَّ « جاردن سيتى » فى القاهرة . . وتقدّمت « جوزفين » ، ودقّت الجرس :

وفتحت الباب فتاةٌ لطيفة ، كانت ابتسامتُها العريضةُ إذنًا بالدّخول : .

ثم أقبلتْ ربّةُ البيت : شيْخةٌ لها مهابةٌ ووقار ، فرحّبت بنا

ترحيباً حارًّا ، واحتضنت « جوزفين » ، وجعلت تقبِّلُها في وُد وحبّ . .

وتبسَّطت الشَّيْخةُ معي ، ففارقني ما كان قد عراني من ذهول وحياء . .

كان مَظْهَرُ ربَّة البيت يُنْبِئ أنها من « مُخَلَّفات » الطبقة التي كانت ذات ألقاب في سالف الزمان ، فهي — على شيخوختها — أنيقة الهِنْدام ، مَهيبَةُ الطَّلْعة . . سمات الجمال الضائع لا تزال تَطْبَعُ وجهَها وتكوين جسمها . . والأمجادُ السالفة لا تبْرحُ تَتَجلَّى في سكونها وحركتها ، وفي لُغَتِها العالية ، ومعانيها الشَّريفة . .

وخلَتْ « جوزفين » بربّة البيت دقائق ، تتحدّثان في هَمْس ، ثم عادتْ إليَّ تقول : وعدتُك أن أتيح لك الليلة فرصة اللَّهْو التي تريدها ، لكنّ « مدام دي ڤيت » تعتذر بأننا لم نُخْطِرْها من قبل ، والوقتُ متأخِّر الآن ، ويتعذَّر عليها أن تهيئ لك طلبتَك . .

وقالت « المدام » : غداً تجدُ هنا ما تَهْوى . . لو أنكم أنبأتموني لهيَّأْت لك جِلْسة هانئة . .

ثم دعتْنا إلى الانتقال من بَهْو « الڤيلا » إلى الطبقة الثانية ، وفتحتْ حجرةً ذُهِلْتُ لما حوَتْ من أثاث ورياش وتُحَف ، أخذتُ أنقِّل بصري فيها ، فإذا هي شَرَكُ العيون ، وبهجة النفوس ، وكأنما قد هُيِّئَتْ لمُنادمَة الأمَراء . . ولم أفِق من ذهولي إلا على صوت « المدام » تقول : يُسعدني أن تقبَلوا ضيافتي الليلة : : لقد سرتْني رؤيتُك أيها المصريّ الأسْمَر . . « جوزفين » أثْنَتْ عليك أطْيَب الثناء . . وإني — إعراباً عن سروري بزيارتك — أقدِّم لكما الشَّراب على نفقتي : : وغداً أُعِد لك مفاجآت طيبة . .

ثم ما لبثت الفتاة الضاحكة التي فتحت لنا الباب أن دخلت ، تحمل الشراب والمشهيات والفاكهة والأزهار . : وقضت ربة البيت لحظات تسامرنا بأشهى الأحاديث وأعذبها ، ثم تركتنا ، فأخذت « جوزفين » تقص على قصتها ، فإذا فراستي لم تجانب الصواب ، وإذا « مدام دى ڤيت » من تلك الأسر العريقة ذات الأمجاد السالفة . .

قالت « جوزفين » : إن « مدام دى ڤيت » كانت فى صباها جميلة ، بل من الحسان المشهورات ، وهى اليوم – كما ترى – قد اجتازت سن الحب ، وجار عليها الزمان ، وألجأها إلى أن تحسن استقبال الشبان والصبايا ، وتغض الطرف عن شهواتهم الجامحة ، وتسمح لهم أن يتخذوا بيتها هيكلا للحب ، لتربح من وراء ذلك ما يعينها على هذه الحياة المترفة التى تحياها ، ولتتمتع برؤية العشاق يتحابون ، بعد أن عجزت عن الحب !

وجرى الحديث بيننا متنقلا كفراش الربيع وأنا مخمور بخمرين : بالكئوس المعتقة ، وبحديث «جوزفين » تهمس به إلى فى تهانف ضحكتها ، ورخامة صوتها . .

ولعبت الخمر برأسينا كلينا . . . .

ومنذ تلك الليلة أمسيت أسر أعظم السرور بهذا الصنف من النساء اللائى تشتعل النار فى داخلهن ، وتستيقظ أميالهن إلى حد الجنون ، لكنهن يتماسكن ، ويبدين الحياء ، إن طبعا وإن تكلفا . .

ثم قدمت إلى « مدام دى ڤيت » أجر الضيافة وثمن الخمر فأبت ، وزادت أن دعتنى إلى زيارتها – متى شئت – ما دمت فى مرسيليا . .

وركبنا إحدى سيارات الأجرة ، فحاولت « جوزفين » أن تذهب

بى إلى الفندق لكنى أصْررْتُ على أن أطْمَئِن أولاً على وصولها إلى بيتها . . وفى أثناء الطريق دسستُ فى حقيبة يدها خَمْسَمائة فرنك* . . ومن الحق أن أعترف أن هذا المبلغ لم يكن إلا إعرابًا عن تقديرى وحبى :

وفى ظُهر اليوم التالى حَمَلْتُ هديَّة من الزهْر النادر إلى « مدام دى ڤيت » . . فاستقبلَتْنى بالأحضان والقُبُلات ، وكأنى ابنُها العائدُ من سفر بعيد ، وجعلت تُؤْنِسُنى بحديثها المُمتِع ، وذكرياتِها الشائقة ، وأسرارِ حياتِها العاطفية . . وما أكثرها !

وحدَّثَتنى عن صديقتى « جوزفين » وأثْنَتْ عليها ، وامتدحت أخلاقَها وطباعَها ، وقالت : إن « جوزفين » ، لم تدخُلْ بيتى منذ تَرَمَّلَت ، وكانت من قبلُ تأتى كلَّ أسبوع ، فتقضى ساعةً مع صديقها . . شكراً لك أن جِئْتنى بها . . بل شكراً لها هى أن جاءت بك . .

ثم أقبلتْ — ونحن جلوسٌ فى البَهْو — « ميريل » : : جسم من رُخام ، وفمٌ منْ أُرْجوان ، وشَعْرٌ منْ ذهب ، يتَّفق وهذا الوجه الصَّبيح الضَّحوك الذى لفَحَتْه شمسُ الصيف ، وحمَّاماتُ البحر . .

وأُعْجِبْتُ بالحسناء « ميريل » ، فحدَّثتُ عنها « المدام » ، فقالت : لا عَجَبَ أن مال قلبُك إليها من أول نَظْرة . : إنها قريبتُك . . فهى إسبانية ، فيها بقايا من الدم العربى الذى يجرى فى عُروقك . . لكنى أنْصحُك ألا تَشْغَل بها بالك . . هذه حبُّها ابنُ ساعة . . حب ليس له غَد ! . . إنها زوج وأمّ ، وهى تجرى

---

* كان الفرنك الفرنسى يساوى أيامئذ اثنين وثلاثين مليما . فالخمسمائة الفرنك كانت تساوى ستة عشر جنيهاً مصرياً .

وراء المال أكثر مما تبحث عن الحب . . فلا تشغل نفسك بها . .
« جوزفين » هى سيدة الكل . . تعرف قدر الحب ، ولا تهتم بالمال . .
لم أعرف لها إلا صديقاً واحداً . . وقد ترهبت منذ ترملت . .
أعتقد أن هذه البنية قد أحبتك . . ولولا أن حبك شغف
قلبها ، وأيقظ أحلامها ، ما جاءت بك إلى هنا ، ولو أعطيتها
الآلاف ! . . إنك بفتوتك ورجولتك ، وسمرتك الجميلة هذه ،
تستطيع أن تجد عشرات من الصبايا تطيب لهن مرافقتك . . لكن . .
صدقنى أنك لن تجد مثل العزيزة « جوزفين » . . لا تتركها . . هل
تراها الليلة ؟

ــ إننا على موعد فى تمام السابعة . .

ــ قل لها إننى أدعوكما إلى العشاء ، وقضاء السهرة هنا . . سيكون
عندى ثلاث فتيات ممن بلغن الغاية فى الجمال والظرف والرقة ،
ومع كل منهن صديقها . .

ــ هل تعتقدين أن « جوزفين » تقبل ، دون أن تحس
الحرج ؟ !

ــ إننا ، أيها الشرقى العزيز ، لا نرى فى هذا حرجاً . . ثم إن
بيتى ، ياعزيزى الشاب ، لا يدخله إلا الأصدقاء . . وبساط الشراب
عندى يطوى بما جرى عليه !

ــ حسناً ، حسناً . . سنأتى . . شكراً لك يا سيدتى الكريمة . .
ألف شكر . .

ــ اسمع ، أيها المصرى العزيز ، قد تسرفون فى الشراب
والمباسطة ، وقد تحدثك نفسك بمداعبة الفتيات . . فحذار . .
حذار أن تداعبهن فى حضرة « جوزفين » . . إنى أحب هذه
الفتاة . . ولا أشك أنك أنت أيضاً تعزها ، فهى جديرة بالحب

والتقدير . . ويَعِزّ عليّ وعليها أن تُهينَها بمغازلة غيرها أمامها . .

ــ شكراً لكِ ، يا سيدتي العزيزة ، على نصيحتك وتحذيرك . . وأرجو أن تثقي أننا نفهم ما يليق ، وما لا يليق ، كما يفهمه غيرنا . . بل أكثر مما يفهمه الآخرون .

ــ ماذا ؟ . . أغضبت ؟ ! . . إنما أردتُ تنبيهك إلى فعل الخمر . .

ــ وأنا إنما أردتُ أن أشكرَ لكِ دعوتكِ الكريمة ، ونصيحتكِ الغالية . . فإلى اللقاء ، يا سيدتي العزيزة ، في المساء . .

٣١

ما أصدق « مدام دي ڤيت » ! . . لقد عرفت عندها صديقات كثيرات ، وقضيت مع كل منهن أوقاتًا سعيدة ، لكني ــ حقًا وصدقًا ــ لم أنعَم مع إحداهن بما كنتُ أنعَمُ به مع « جوزفين » المُحبّة الفاتنة . . فقد كانت تفوق سائر الصديقات بفرط جمالها ، وظَرف حديثها ، وشدّة تدلُّلها ، ورقّتها وحنانها ، وتتصرف معي كأني سيدُها ومعبودُها ! . . وكنت أقدم لها الهدايا من ثياب وحُليّ وعطور ، وأحاول أن أعطيها بعض المال ، فكانت تتقبّل الهدايا مبتهجةً شاكرة ، وترفُضُ في صدق قبول المال . . بل لقد أعادت إليّ خمسمائة الفرنك التي دسستُها في حقيبة يدها في ليلة لقائنا الأولى ، وقالت : لقد أهنتَني بفعلتك هذه . . أتظن أني عرفتُك طمعاً في المال ؟ ! . . لو شئتُ ذلك لجمعتُ مئات الألوف . . لكني أحببتُك أيها العِفريتُ المصريّ !

حقًّا . إنها وحدها التى كنت أحس معها الحب الصادق ، والحَنان الدافق ، والبهجة الغامرة ، واللّذةَ الوافرة . . إنها وحدها التى لطّفَتْ وحشْة غربتى ، وقضت على ما كنت أشعر به من ضيق نفسىّ ، ولولاها ما طابت لى الإقامةُ فى مرسيليا شهراً وبعض شهر .

كنت أقضى صدر النهار سائحاً ، أطوف بأرجاء المدينة الكبيرة منفرداً ، أو فى صحبة إحدى الصديقات . ومما لفت نظرى فى أثناء تجوالى أن شوارع مرسيليا الداخلية ضيقة غير مستقيمة ، شبيهة فى ضيقها بشوارع الإسكندرية ، فوق أنها على جانب كبير من القذارة . وقد شاهدت بعينى بعض السكان يرمون القمامة من النوافذ ، كما نرى فى الأحياء الشعبية . . ولولا العناية العظيمة التى تبذلها « البلدية » فى نظافة المدينة ، لكانت من أقذر المدن التى زرتها . .

وقد أثار انتباهى أن المرأة فى مرسيليا — كأخواتها فى أكثر بلدان أوربا ، بعد الحرب العالمية الثانية — تشارك الرجل فى أعماله ، بل إن المرأة المرسيلية تمتاز من الأوربيات الأخر بأنها تشارك الرجل فى أعماله الشاقة ، مما لم نعهده فى سواها ، وما يندر أن نجده فى غير نساء الدول الاشتراكية ، فهى تشارك الرجل فى نقل الأمتعة ، وحمل الأثقال ، وقيادة العربات ، والخدمة فى المصانع .

ومن أعجب ما رأيت فى مرسيليا ، وفى البلاد الكثيرة التى زرتها فيما بعد ، وطوّفت فيها : « البطون البلورية » . . إن هذه البطون مستشفى ، أو — بالأصح — معرض ، ترى فيه أحدث الطرق للعناية بالأجنة التى تولد غير تامة الخلقة قبل تمام مدة الحمل . .

هذه المواليد الناقصة تعرض فى صناديق بلورية ، تباح مشاهدتها فى صحبة الممرضات ، وتحت رقابة الأطباء . والصناديق مربعة يبلغ طول ضلع كل منها ذراعاً ونصف ذراع تقريبًا ، وفى كل منها وليد

لا يزيد طوله على قدر شبر ، يحيط به القطن من كل جانب ، وهو مغمض العينين ، يفتح فمه أحيانـًا . .

فى هذه البطون البلورية آلات وأنابيب وأسلاك كهربية تنظم حرارتها ، وتجعلها مشابهة لحرارة بطن الأم . . وفى أوقات معلومة تخرج الممرضات هذه المواليد من مساكنها للتغذية والتنظيف ، ثم يرجعنها إلى صناديقها كما كانت ، لا تبكى ، ولا تضحك ، بل هى فى سكون يكاد يشبه الهمود . .

والأمهات يزرن أولادهن ، ويرينهم — كما نراهم نحن الغرباء — من وراء البلور . .

ومتى بلغ المولود تمام الشهر التاسع من تاريخ تكوينه ، يسلم إلى أمه .

فتبارك الله أحسن الخالقين ، وسبحان الذى علم الإنسان ما لم يعلم !

* * *

كنت أطوف ما أطوف ، حتى إذا ما وجبت الشمس ، واختفت وراء الأفق ، التقيت بالحبيبة « جوزفين » . .

كان الليل من أوله ملكـًا لهذه الحبيبة العاشقة . . فالحب فى النهار لم يكن يوائم مزاجها ، أما الليل فكان يثير الحب فى فؤادها . .

فإذا ما بدأ ظلام الليل ينحسر عن أضواء الفجر صحبتها إلى بيتها ، وأويت إلى الفندق ، وارتميت على السرير واهن القوى ، قد أنهكتنى الخمر والسهر والهوى والصراع !

نعم ، كنت آوى كل فجر إلى فراشى كحصان منهوك ، يستعيد أنفاسه لليوم المقبل !

وربما كان من الإنصاف أن أقول إنى أطلت إقامتى فى مرسيليا ، لأن صداقاتى فيها لم تكن تتقاضانى الكثير من النفقات . . هدية رمزية

إلى الصديقة ، وهدية أخرى إلى « مدام دى ڤيث » صاحبة الفضل فى تقديم هؤلاء الصديقات اللائى كن يحسبن أنفسهن الفائزات الرابحات ، فى حين كنت أحسبنى الرابح الوحيد فى هذه « الصفقات » ، فإنى — كأبى العلاء — لا أحب بالخلد انفراداً ، فكيف بالوحدة فى مرسيليا التى تغمر أهلها الحركة الآلية الدائمة ، وتخيم على منازلها مظاهر الهدوء والركود ، تزيدها وحشة سمرةُ طلائها الخارجى ؟ !

ما ألطف أولئك الصديقات ! وما أكرمهن ! . . لقد علمننى دروساً نافعة فى الحب وفى الحياة : . ما ألطف أولئك الصديقات ! وما أكرمهن ! . . لقد كن لا يلقيننى إلا وفى حقيبة كل منهن هدية : « كراڤات » ، قداحة ، « فتوغرافيا » . . أى شىء . . أى شىء ، دليلاً على الود والحب .

ومرة قدمت إلىّ إحداهن علبة سجائر من الصنف الذى تعودت تدخينه . . فلما قرأت فى عينى العجب والتساؤل ، قالت : إنما هى دليل على أنى كنت أفكر فيك ، وأنا بعيدة عنك ! . . ما أرقها ! وما أظرفها !

* * *

كنت — إذا رأيتنى فى تجوالى قريبًا من الميناء — أتسكع هناك ساعة أستطلع وجوه المسافرين والقادمين . وبعد قرابة شهر ، من نزولى بمرسيليا ، التقيت بثلاثة من الفنانين المصريين يغادرون الميناء حائرين ، يقلبون أبصارهم فيما حولهم ، كما فعلت أنا حين وطئت قدماى أرض فرنسا . . وكنت أعرف فنانًا منهم ، جمعتنى به غير مرة جلسات خاصة فى القاهرة ، فاتجهت إليهم أحييهم ، وأرحب بهم . . ثم صحبتهم إلى فندق « إنجلترا » الذى أنزل به ، ودعوتهم إلى الغداء معى . .

وعلى مائدة الغداء اتفقنا على أن نسافر معاً إلى باريس فى ضحى الغد . فلما التقيت — فى المساء — بالصديقة الحبيبة «جوزفين» ، وحدثتها عن الفنانين المصريين ، وعما اعتزمته من السفر فى الغد إلى باريس ، خيم عليها الوجوم ، وكست وجهها الكآبة ، وتندت عيناها بالدموع . .

فى هذه الليلة تنقلنا بين الملاهى والمراقص ، وقلب كل منا مشغول ، والصمت يغلب علينا ، حتى إذا خلونا معاً فى « ڤيلا مدام دى ڤيت » انفجرت « جوزفين » دفعة واحدة تشهق وتنتحب ، وتعول وتنوح ، وتدفن رأسها فى صدرى ، وتقبلنى فى حرارة ونهم ، وأنا أربت رأسها وظهرها ، وأهون عليها هذا الفراق ، وأسرف فى وعدها بأنى عائد إليها بعد شهر أو بعض شهر . .

— كفكفى ، ياحبيبتى ، هذه الدموع الغالية . . أتحبيننى إلى حد البكاء لفراقى يا « جوزفين » ؟ ! . . ما أسعدنى بك ياحبيبتى ! . . لا تبكى . . لا تكدرى صَفْوَ هذه الساعة . .

— إن إحساساً كئيباً ينذر بالشؤم يخيم على قلبى بالرغم منى . . ياللهول ، لو كانت هذه آخر ليلة أراك فيها ، ياحبيبى !

— سرعان ما تبدد عودتى إليك جميع مخاوفك . . أنا ما جئت إلى فرنسا إلا لأزور باريس . . ولولا أنى عرفتك ما بقيت فى مرسيليا يوماً واحداً . . فدعينى أزر باريس ، وأحقق أملى برؤية معالمها .. ليتك تستطيعين أن ترافقينى يا « جوزفين » ، فتتم سعادتى . .

هدأت بعض الهدوء ، وتطلعت إلىّ بعينيها الجميلتين الدامعتين ، وسألتنى — فى توسل — أن أؤجل سفرى إلى باريس أسبوعين ؛ لتصحبنى فى السفر حتى ليون حيث تقضى أياماً ، تنجز فيها بعض الأعمال الخاصة بشركة النقل التى تعمل بها .

عددت رغبتها هذه فرصة طيبة ، تتيح لى أن أزور ليون ، قبل

أن أدخل باريس ؛ فأجبتها إلى طلبها ، وقررت أن أبقى فى مرسيليا أسبوعين آخرين ؛ فأشرق وجهها ، وزايلته الكآبة ، وغمرته البهجة . واحتضنتنى فى وله ومرح ، وأمطرتنى وابلا من القبلات . .

وفى ضحى الغد ودّعت الفنانين المصريين معتذراً ، داعياً لهم بالتوفيق .

٣٢

ساربنا القطار فى حذاء نهر الرون يتلوّى فى مشيته كالثعبان ، لكن فى سرعة فائقة : : وكنا نرى من وراء سجوف النوافذ وجه البرية الباسم ، وجمال الطبيعة الباهر ، ونهر الرون السريع الجريان بين الأشجار الباسقة ، والسهول الشاسعة ، والتلال الصغيرة . : . . .

ونزلنا فى فندق « اللوفر » ، أفخم فنادق ليون : .

فى الصباح كنت أرافق الحبيبة « جوزفين » إلى مقر الشركة التى تعمل بمركزها الرئيسى فى مرسيليا ، ومن ثم أتنقل وحدى فى أرجاء المدينة الكبيرة ، حتى يحين منصرف الموظفين ، فأسرع إلى لقائها ، وكلانا على شوق متجدد إلى رفيقه ، فنتخذ هيئة العاشقين السائحين : نستريح حيث تطيب لنا الراحة ، ونأكل حين نحس الجوع ، ونلهو ونرقص أينما حلا لنا اللهو والرقص ؛ فإذا ما مضى من الليل ثلثاه أوينا إلى الفندق ، وضمنا سرير واحد ، وكأننا عروسان يقضيان « شهر العسل » !

وليون تمتاز بجمال موقعها ، واستقامة شوارعها ، وفخامة مبانيها ، وعناية « بلديّتها » بنظافتها وتنسيقها . وهى مدينة صناعية ، شيدت

على صعيد وربوة ، تحيط بها المصانع من كل جانب ، على مسافة تتجاوز عشرة أميال ، عدا مصانع الحرير ونسج الأقمشة ، فإنها تقوم فى داخل المدينة نفسها . . وربما كان هذا سبب اختناق جوها .

وقريباً من المدينة يلتقى نهرا الرون والسون ، ويختطان الأرض فى أشكال بديعة ، ثم يدخلان ليون ويخترقانها فى هيئة ساحرة ، من صنع الطبيعة المبدعة . .

وقد قسمت الطبيعة مدينة ليون إلى أقسام متنوعة ؛ منها قسم شرقى نهر الرون مكتظ بالحدائق والمتنزهات والأندية ، وقسم غربى نهر السون أكثره مرتفعات ، تقوم على أحدها كنيسة « البازليك » المشيدة على الطراز القوطى الفخم ، والتى يصعد إلى منارتها بمصعد كهربى ، وبجوارها برج عال من الحديد يستخدم « إيريال » ومرشداً للطيارات . ومن مرتفعات هذا القسم تتجلى ليون بجملتها فى منظر خلاب ، وتبدو أجزاؤها المترامية فى شكل ساحر جذاب . .

ونهرا الرون والسون يشقان ليون متوازيين ، وفى حجم يكاد يكون متساوياً ؛ بيد أن الرون سريع الجريان تشوب ماءه العكر مادة طفلية ، تشبه الطمى الذى كان يلون مياه النيل أيام الفيضان ، فى حين أن السون هادئ فى سيره ، مخضر فى لونه . .

يالله ! ما أجمل الجسور الكثيرة المقامة على النهرين ! إنها آية من آيات الفن والجمال . .

وأهل ليون على جانب عظيم من النشاط ، والتربية القويمة ، والأخلاق الفاضلة ، يمثلون النفس الفرنسية الأصيلة . .

وشهرة جامعات ليون تغنى عن تكلف القول فيها . . أما متنزهاتها وميادينها الواسعة، فملأى بالتماثيل الجميلة لمشاهير رجال التاريخ الفرنسى عبر العصور ؛ وأما متحف الفنون الجميلة بها فيضم مجموعة نفيسة

من الصور الزيتية ، القديمة والحديثة ، وتماثيل الملوك السابقين ، وبعض مخلفاتهم الثمينة ؛ وأما الحرير الذى أكسب مدينة ليون شهرة فاقت بها مُدُنَ العالم جمعاء ، فى نسجه وتصديره ؛ فقد زرت يومًا أحد مصانعه ، ورأيت الحرير يخرج من الأنوال الكهربية مهفهفًا ، فى ألوان زاهية ، فتتلقفه أيدى الفتيات العاملات فى نعومة لا تقل عن نعومة ما بين أيديهن منه !

ويومًا آخر زرت أنا و « جوزفين » معرض الحرير المنسوج ، وشاهدنا بعض النسيج القديم ، الموشى بخيوط الذهب ، واستعرضنا أشكال الأنوال القديمة ، وتبينا كيف تطورت من نول يدوى صغير إلى هذه الأنوال الكبيرة التى تديرها الكهربا :

وقد برهنت « جوزفين » على أنها ليست حبيبة فاتنة ، وحسناء حبتها السماء منحة السيطرة على الأكباد وحسب ، وإنما هى أيضاً أستاذة فذة لبقة ، عالية الثقافة ، ساحرة الحديث ، فلا أكاد أسألها عما حولنا حتى تفيض فى شرح يأخذ بالألباب . .

ما أحلى تلك الأيام التى قضيتها فى ليون ! . . لقد كانت تدور فى أجمل فلك من الغبطة والهناءة ، ولم يكن ليعكر صفوى إلا أن أرى « جوزفين » شاردة اللب ، غير هنيئة المثوى ، لا تنفك تشكو زمنها المطواع وتتبرم بعيشها الرغيد ، وتتصاعد أنفاسها شهبًا تنفث الزفير الدمى .

إنى لأعلم ما يقلقها ، ويشغل بالها ، ويثير أشجانها ، لكنى أتجاهل الحديث فيه كيلا أنكأ جراحها :

ويومًا فاضت بها الشجون ، فانهالت عبراتها حارة غزيرة ، حتى عكَّرت صفاء عينيها . . ثم ارتمت على صدرى ، وقالت : « عبد الرحمن » ، لقد أحببتك من أعماق قلبى ، أيها المصرى الأسمر ، وبودى لو قضيت

حياتى كلها « عبدة » لك ! . . إنى لن أحس طعم الحياة بعد اليوم إلا فى جوارك ، أيها الحبيب العزيز . . وكلما فكرت فى أنك ستبعد عنى ، وتنسانى ، انقبض صدرى ، وملأ الهم قلبى . . خذنى معك إلى حيث تذهب . . عد بى إلى بلدك . . قلبى يحدثنى أنك لن تعود إلى . . هذا ما أحسه ، وهذا ما يجعل رحيلك أمراً بغيضاً كريهاً ، مؤلماً أعمق الألم . .

ولم تواصل حديثها ، فقد علت حشرجة تنهداتها ، وهى تحاول عبثاً أن تخمد دموعها . .

جعلتُ ألطف جواها ، وأخفف شجاها ، وأمنيها الأمانى العذاب . وأعدها بأنى عائد إليها وإلى حبها الذى يملأ قلبى ، بعد أن أزور باريس وأشاهد معالمها . .

والحق أنى أحببت « جوزفين » حباً جماً . . ولولا ما كان يشغل قلبى من التفكير فى باريس ، وحسانها ، وملاهيها ، لهويت إلى الأذقان فى حبها ، ولرأيتها جديرة بى وبحبى ، خليقة بأن أمضى معها العمر كله . .

إن قلبى لتتنازعه رغبتان قويتان ، كلتاهما تجذبنى إليها جذبا عنيفاً : رغبة فى زيارة باريس ومشاهدة معالمها الشهيرة ، ورغبة أخرى تشدنى إلى الحبيبة « جوزفين » التى تكمن فى قلبها كل خصائص الأنثى كمون الرحيق فى الزهرة ! . . « جوزفين » التى ملكتنى بدلها وجلالها ، وظرفها وجمالها ، وسكبت فى نفسى ما شاءت من الهوى ، وكانت لا تنى تمد لى نظرات ناعسة طويلة ، ترسل فيها خواطر الحب ورعشات الحس . . « جوزفين » التى تجمع فى ذاتها كنوز النفس كلها ، وجمالات الجسد جميعها ؛ فاشتهيتها ، وأحببتها ، ووجدت عندها متع القلب والجسد ، والعقل والروح ، إلى حد أنى لم أفكر لحظة

فى خيانتها ، ونحن فى ليون ، على يسر الحب هناك ، واتساع دروبه !

وغلبتنى الرغبة فى زيارة باريس ، وقلتُ لنفسى : إن عز صبرى على فراق « جوزفين » فما أسرع الرجوع إليها !

وكان ختام إقامتنا فى ليون ساعة تناجينا فيها ، وتعاهدنا ، فى متنزه « رأس الذهب » الذى يعد من أجمل متنزهات العالم وأبدعها تنسيقاً : . إنه متنزه عظيم حقّاً ، يضم ضروباً مختلفة من النبات ، وأنواعًا شتى من الحيوان ، وتتوسطه بركة واسعة ، تستمد مياهها من نهر الرون ، وتسبح فيها زوارق الأحباب والعشاق : . وزقزقة العصافير على الأفنان تثير العواطف ، وتدفع العشاق بعضهم إلى أحضان بعض . . والنسيم يخدّر الأعصاب ، فإذا ما تنشقه المرء مع عطر النبات شعر بعامل خفىّ قوىّ يدفع به إلى العشق والغرام . .

حولنا عشاق يتبادلون القبلات على كل مقعد . : حتى اجتاحتنى عدوى المكان ، فضممت « جوزفين » إلى صدرى ضمة قوية ، أحسست بعدها براحة نفسية عميقة . . أما هى فكانت فى شرّحال . . فهى تارة فى هدوء النسيم ورقته ، وتارة كالموج الصاخب ، والريح العاتية ، قد اربدّ وجهها ، ورنّ صوتها بمسحة من الأسى والألم وشحت عينيها غمامة من الحزن والكآبة ، وتاهت نظراتها حائرة حيرة الرسام حينما ينقلب ضوء النهار الساطع إلى ظلال يحار فى التعبير عنها !

لقد عاد الواقع الجاف ينتصب عارياً بليداً فى سبيل ما كانت ترجو من سعادة : . هذا الواقع المر الذى كنا نتناساه أحيانًا ، وكنا نزهى أحياناً أخرى بقدرة الحب على قهره ، واغتصاب اللذات من بين شدقيه !

كان كل ما حولنا يبعث فى النفوس البهجة والمرح ، وكان لشدو الطيور وخرير الماء موسيقى حنون ، تجرف أمامها كل هم وحزن ، إلا همّ « جوزفين » وحزنها !

٣٣

ودعت « جوزفين » وهى تصعد فى القطار العائد إلى مرسيليا ، وكلانا تملأ عينيه الدموع . .

وبعد ساعة ركبت القطار الذاهب إلى باريس . . وقبعت فى زاوية من « الديوان » الخالى ، بجانب النافذة ، وغبت فى أحلامى وخيالاتى ؛ وقد ازدحم رأسى بما يدور فيه من صور مختلفة ، وخواطر متباينة . . باريس . . برج « إيفل » . . قصر « ڤرساى » . . متحف « اللوڤر » . . الليالى الحمر . . الحسان الفاتنات !

« جوزفين » بحبها وفتنتها ، بظرفها وروعتها ، برقتها ووداعتها . .

« أليس » التى لا يبرح طيفها يداعبُ خيالى طوال هذه الأعوام الأربعة ، والتى لا ينفك فراقها حسرة من حسراتى على الأيام . .

ثم دخلت « الديوان» سيدة فى منتصف عقدها الثالث ، طويلة القامة ، حلوة القسمات ، دقيقة التكوين ، سوداء الشعر ، كحلاء العينين ، بيضاء البشرة ، أنيقة الهندام ، تبدو عليها مظاهر النعمة والثراء العريض . .

جلست فى زاوية الديوان المقابلة بدون أن تتجه بنظراتها نحوى ، أو تعيرنى التفاتاً ؛ وجعلت تتطلع من النافذة حتى تحرك القطار ، فأسبلت أجفانها ، ودفعت رأسها إلى الخلف ، وغابت فى خواطرها . .

أخذت نظراتى تتفحص السيدة ، ونفسى ناقمة عليها ، لأنها حالت دون أن أطير بأجنحة الخيال ، أهيم تهياماً ، وأتصور العاصمة العظيمة التى ملكت علىّ لبى ، وصارت زيارتها أقصى أمانيى ، وأحلى أحلامى ؛ فماذا أفعل ، والمسافة بين ليون وباريس يقطعها القطار

السريع فى حوالى سبع ساعات ، جريًا بين المروج المنبسطة ، والمزارع المنمقة ، والأشجار المنتشرة فى كل مكان ، بنظام وبغير نظام ؟! . : كيف أقضى هذه الساعات الطويلة ؟ !

إن يكن قد فاتنى الخيال فلعلى أحظى بواقع حىّ مثير . ولا شىء كالأسفار يثير فى النفس روح المغامرة ، ويحرك غريزة الفضول ، وحب الاستطلاع ، ويدفع إلى السعى وراء الجديد المجهول . .

غادرت « الديوان » ، وقطعت ممر العربة مرتين أو ثلاثًا ، ذهابًا وإيابًا ، ثم عدت إلى مقعدى ، وقد عزمت أن أعرف — بأية وسيلة — هذه الحسناء ، وأن أتحدث إليها .

جعلت أنظر إليها ، وأنا آمل أن تلتفت إلىّ ، وتقرأ فى عينىّ ما يخالج قلبى من رغائب ، فتعطينى فرصة لأجترئ وأكلمها . . وفطنت هى إلى نظراتى النافذة ، فرمقتنى بنظرة طويلة ، وكأنها لم ترنى من قبل ، ولا أحست وجودى ، فقلت : أتسمح سيدتى أن أدخن هنا ؟ أم أرانى مضطرًا إلى ترك « الديوان » ، كلما اشتهيت التدخين ؟ !

حدقت إلىّ ، وافترت شفتاها عن بسمة غامضة ، وقالت : كما تشاء يا سيدى : : تمتع بحريتك كاملة . وفتحت حقيبة يدها ، وأخرجت علبة ذهبية أنيقة ، فأسرعت أشعل لها سيجارتها ، فأطالت النظر إلىّ ، وقالت : شكراً ، شكراً . . يبدو أن السيد غريب . : من أى بلد أنت ، يا سيدى ؟ !

— من مصر . .

— من مصر ؟ ! . : ما أجمل مصر ! . : لقد زرتها فى الشتاء الماضى ، وقضيت بها فترة أعدها من الأيام الحلوة التى لا تنسى ! . . لمَ جئت إلى فرنسا ؟ . . أجئت للدرس ؟ !

ـ لا يا سيدتى . . ما جئت للدرس . : بل جئت للحب !
ـ جئت للحب ؟ ! : . عجباً! : . كيف جئت للحب ؟!
ورنت ضحكتها كتغريد البلابل !
أنشأت أسرد عليها حكاية التقائى ـ منذ أربع سنوات ـ بالباريسية الحسناء « أليس » ، فى ظلال الهرم ، وسفرى وراءها إلى الأقصر . . وجعلت أوشى الحديث ببعض الملح والطرائف ، وهى تستمع وتبتسم فى وقار وجلال ، وتعلق ـ بين لحظة وأخرى ـ تعليقات لطيفة ، مغلفة بالمجاملة الرقيقة ، والتهذيب الرفيع . .

وعرفت أنها باريسية المولد والمنشأ ، وزوج وأم لطفلين ، وأن بعلها صاحب مصنع للحرير فى ليون ، ورب ثروة طائلة ؛ وأنها مسافرة إلى باريس لعيادة أبيها المريض : :

واتصل الحديث بيننا . . فحدثتنى عن السفر بالقطر والبواخر والطيارات ، وعن مصايف فرنسا الشهيرة التى يفد إليها الناس من مشارق الأرض ومغاربها ، وأفاضت فى تبيان محاسن كل مصطاف ، وما يمتاز به من غيره . . وحدثتنى عن أسفارها الكثيرة إلى سويسرا وإيطاليا وإسبانيا ، وعن رحلتها ـ منذ أشهر ـ إلى مصر ، وعما أثار إعجابها من مناظر جميلة ، وآثار خالدة ، وما جذب نظرها فى حياتنا من تقاليد وعادات ؛ وقالت إن سفرتى هذه قد صححت كثيراً من معلوماتى الخاطئة عن مصر والمصريين . . وليس راءٍ كمن سمع !
وقد طربت أيما طرب لما ساقت من ثناء على بلدى وأهله .
ثم حانت ساعة الغداء ، فتقدمتنى إلى « عربة الأكل » ، ونظراتها تدعونى إلى أن أشاركها المائدة . .
وأنس كلانا بصاحبه ، وكشف بعض صفاته ومزاياه . .
وإذ عدنا إلى « الديوان » ـ وقد احمرت منا الوجوه ، وامتلأت

البطون طعامـًا وخمراً — عدنا نستطرد فى الحديث الذى لم ينقطع منذ ابتدأ . . :

وأخذت هى تضحك فى نشوة ومرح ، وقد لمعت عيناها ، ورقت نظراتها ، وخفت حركاتها ؛ فأثارت فى حناياى انفعالات تدفعنى إلى أن أضمها . . ولقد جاهدت نفسى جهاداً لأصرف هذا الدافع ، غير أن ضحكتها الرقيقة ، وجلستها المسترخية ، وحديثها الناعم ، ونظراتها المغرية — كل أولئك كان يثيرنى إثارة ، ويدفعنى دفعـًا ، حتى غطت بصيرتى غشاوة ، فانتقلت إلى جوارها واحتضنتها . . وهى — من ذهول المفاجأة — لا تكاد تعى !

وإذ تنبهت دفعتنى عنها فى عنف وشراسة ، ولطمتنى بظهر كفها ، ومدت يدها إلى الجرس ، تريد أن تدعو الحارس ، فأمسكت يدها ، وقبلتها ، وحدقت إلى عينيها كأنى منوم مغناطيسى ، ومضيت أصب فى أذنيها عبارات العذر الجميل ، والغزل الرقيق ، أطرى جمالها ، وأصف وقعه فى نفسى ، وأثره فى دمى الإفريقى الفائر ؛ وأبدى إعجابى بشخصيتها وذكائها ، فى كلمات ناعمة ترضى غرور كل أنثى ، وتحرك عاطفتها ، وتجعلها أيسر تذليلا ، وأكثر استجابة ، وأسرع انقياداً . . فهدأت ، وأشرقت أساريرها بعد انقباض ، وعاودها المرح والخفة ؛ فإنى — على شدة اندفاعى — أعرف للأنثى الجميلة قدرها ، وأقيم لها وزنـًا عظيمـًا ، وأشعر فى أعماقى بما تفكر فيه ، فأسوق إليها الكلام عنه فى حماسة أخاذة . . :

والرجل إن أثار غرور المرأة بجمالها وكمالها ، وجعلها تحس أنها ضرورة قصوى لا بد منها لاكتمال الحياة ، فقد قطع نصف الطريق إلى قلبها !

كنت أعرف هذا جيداً . . عرفته بالتجربة مرة ومرات . .

ثم إنى أعرف — إلى جانب هذا — متى أثبت ؟ ومتى أشدد الهجوم ؟ ومتى أنسحب ؟ . . وتلك مهارة لا يتقنها الكثيرون :

وشيئاً فشيئاً سيطرت عليها ، حتى اتجه قلبها إلىّ بصورة ملموسة ، وأخذت تحوطنى بحنانها ، وتمتعنى بحديثها فى رقة صوت ، ودقة حركة ، وفرط ظرف ، وجمال منظر ، وفى حال ما أشك أنها حال جذل وطرب ، وآية بشر وابتهاج . . :

وقد أحسست نحو « مادلين » إحساساً لا أدرى بم أسميه : . إنه ميل غريب يجذبنى إليها ، ويسلبنى كل إرادة للمقاومة دون أن أستبين حقيقته ، مع أنه يجوس فى صدرى ، ويملأ قلبى ؛ وشعرت أنى أحببتها ، وأنها أحبتنى . : والحب شبكة ، من استطاع الفرار من بعض فتحاتها الواسعة ، يقع فى شرك بعضها الآخر الدقيق !

ومضى الحديث يلج بنا كل باب ، وينقلنا إلى غير واد ، حتى سألتنى : أين تعتزم أن تنزل فى باريس ؟ . . فانتهزت فرصة هذا السؤال ، وأسرعت أعمل على تحقيق ما آمل ، فأظهرت أنى أشد ما أكون احتياجاً إلى من يهدينى سواء السبيل ، ورجوتها أن تتفضل فترشدنى إلى الفنادق التى تلائم حال شاب مثلى يبغى أن يقضى بضعة أسابيع فى لهو ومرح ، ومتعة واستجمام : .

فكرت برهة ، ثم قالت : ألن تذهب إلى صديقتك البارسية ، التى سافرت وراءها إلى الأقصر وجئت — كما تقول — إلى فرنسا ، لتراها ؟ !

— بلى ؛ سأذهب إليها : : لكن بعد أن أستمتع أياماً بمفاتن باريس ، فإنى أخشى أن تقيد صديقتى حريتى : .

— لا أظنها تقيد حريتك ؛ لأنها لا ترضى أن تقيد أنت حريتها . .

على أية حال أعتقد أن « كلاريدج » فى « الشانزليزيه » ، و« نورمنديا » فى ميدان « الكونكورد » ، و « رويال بيكاردى » فى « بولفار السلام » — فنادق تجد فيها راحتك المنشودة . . أما المرح واللهو والمتعة فسبلها كثيرة ميسرة !

— شكراً شكراً ، يا عزيزتى « مادلين » . . : لكن . . ألا يمكن أن أراك فى باريس ؟!

— من يدرى ؟ ! قد نلتقى : . وإنى لأرجو أن ألقاك ، وأطمئنّ على حياتك فى باريس ، وأكفر عن الصفعة التى نالتك . . إن وجدت أبى فى خير فقد أكون فى « سركل السفراء » فى التاسعة من مساء الغد .

— « سركل السفراء » ؟ ! ما هو ؟ وأين يكون ؟ وكيف أذهب إليه ؟

— « سرْكل السفراء » هو مرتاد العظماء وأهل الثراء وعلية القوم ؛ وسوف أدلُّك على الطريق إليه .

انحنيت أقبل يديها قبلات حارة ، وضممتها بيمينى ، وانسابت شمالى تربت جسمها وهى مبتهجة نشوى ، مهتاجة ولهى . .

* * *

وقف القطار مرة ومرة ، وشغل المسافرون مقاعد « الديوان » ، واتخذنا سمة الجد ، وهيئة الوقار ، ومضى بنا الحديث فى ثرثرة هامسة لذيذة ، يموّج بها الوداد ، وقد شب فى قلبى حريق ، وعبث بعقلى هذا الغرام الجديد . . والقطارُ يطوى الأرض فى سرعة خاطفة ، لكنها — مع ذلك — لم تكن أسبق من سرعة أشواقى فى حرارتها وانطلاقها : .

ثم أمالت « مادلين » رأسها على كتفى ، وأغمضت عينيها ، وغفت ، وساد بيننا الصمت . . وعادت الصور المتزاحمة تستغرق مشاعرى ، وكأن القطار يحمل منى جسداً قد انخلع قلبه ، وهامت

روحه ، لولا طائف من النشوة والسرور رد إلى هذا القلب المنخلع ، وهذه الروح الهائمة ، حينما رفعت « مادلين » رأسها عن كتفى ، وأطلت لحظة من النافذة ، ثم هتفت : نحن الآن على أبواب باريس !

ــ حقًّا ؟ ! كم يسعدنى هذا ! . . بل كم يحزننى ! . . إنى لسعيدٌ ، إذ تتاح لى زيارة باريس ، والحياة فيها أياماً ، لكنى حزين . . حزين لأن وصولى إلى باريس ، وتحقيق أملى العزيز برؤية مفاتنها ، قد يحرمنى أملا عزيزاً آخر ، هو رؤيتك أنت ، ومتعة الجلوس معك ، والحديث إليك . . أنت يا « مادلين » عندى مثل باريس . . ساحرة فاتنة . . يهفو قلبى إلى مفاتنك ، كما تهفو نفسى إلى مفاتن باريس !

ــ سأراك ؛ لأطمئن على أحوالك . . أنت فى حاجة إلى من يعنى بك . .

ثم هدأ القطار من سيره ، ودخلنا محطة باريس . .

ووقفتْ منى « مادلين » موقف الأم الرءوم من ابنها القاصر ؛ فقد أشرفت على تدبير شئونى ، وقادتنى إلى فندق « كلاريدج » فى شارع « الشانزليزيه » ، وقضت معى ساعة ، واطمأنت إلى أنى سأكون ــ فى هذا الفندق الفخم ــ هانئاً سعيداً . . ثم ودعتنى بقبلة شهية ، ونظرة أمل ودعاء !

٣٤

تبارك الله ! . . ما أجمل باريس ! ما أبهاها ! ما أشهاها !

كان الأفق الغربى قد احتضن الشمس ، وأنا أغادر فندق « كلاريدج » ، وفى نيتى أن أتسكع ، غريباً وحيداً ، فى شوارع باريس . .

أفواج من الناس وأفواج . . زمر تذهب وجماعات تعود . . والغيد

الحسان يختلن ، ويتثنين : . صدورهن المغرية تضج بالهوى ، وشفاههن الحمر ترف ، وتنادى القبل ، وأنفاسهن المعطرة تلتهب بحرارة الشباب ، وشعورهن المختلفات النسق واللون يزرى أسودها بحلكة الدجى ، ويضحك أصفرها من وهج الضحى !

هذه شقراء ساحرة ، حلوة اللفتات ، تضيء قسماتها بسمةٌ بريئة متخابثة ، وتنطق الرغبة — أكثر ما تنطق — فى عينيها المليحتين ، وصدرها الناهد البض : . وهذه شهوى مغرية كالكأس المترعة ! إنها لا تفتأ تنفض رأسها الجميل إلى الوراء كأنما ترد شعرها ، وهى تلقى عليك نظرة تقول : لك اتبعنى ! . : وهذه صبيًّا متفتح ، يخفق على جسدها الأهيف ثوب من الحرير الأبيض ، كأنه وما يخفى تحته من المفاتن لون واحد ! . . وهذه شعرها نحاسىٌّ يضم ضفائرَه شريط أزرق ، ونظراتها عذراء ، كلما أطلت على نظرة دافئة ترسلها عينا فتى ، غضت من طرفها ، وتدافع الدم إلى وجهها الجميل ! . : وهذه — ويا ويح القلب من هذه ! — قد تركت الشمس على جبينها ووجنتيها شفقاً جريحاً ، يذوب ناراً فى شفتيها : إنها تتمايل فى دل ، وتضفى على ما حولها ظلال الحب ، وألوانَ النعيم : .

وهذه سادسة ، وسابعة . . وعاشرة . . عشرات ومئات يحملهن على الانطلاق سحر المساء . . يسرن ولا يلتفتن إلى ما يتركن وراءهن فى النفوس . . فيهن الحييات الخفرات ، والمغريات المقبلات ، وكلهن يصرعن ذا اللب ، ويأسرن قلبه ، ويسلبنه رشده وحجاه !

بوركت يا باريس ! وبورك فى غيدك الحسان !

* * *

أخذت أتأمل ما حولى ، وأنا أذكر ما خلفت ورائى فى مصر من حياة تهدهدها السذاجة والقناعة الروحية . . أين تلك الحياة

الوادعة من هذه الحياة المادية الصارخة ، وهذه الآلية المزعجة التي تعكس أقصى ما وصل إليه العقل من وسائل المدنية والرفاهية ؟ ! . . ما هذه الأشياء العجيبة الجميلة ؟ ! ما هذه الحياة الرائعة المريعة ؟ !

وفارقني العجب الذي كان يملأ نفسي من أولئك المساكين الذين يفتنهم جمال باريس ، ويفقدون عقولهم في ملاهيها . : بل لقد رحمت أولئك المفتونين ، وعذرتهم ؛ فإن المرء لا يكاد يخطو في باريس حتى يجد نفسه محوطًا بأحر الشهوات ، وأفتن جواذب النوازع ، وأكثر أسباب الخطيئة ، فلا يطيق امتناعًا ، ولا يحسن دفاعًا . . تجذبه المناظر الخلابة ، وتتنازعه الوجوه الخداعة ، وتأخذ ببصره الأنوار الوهاجة ، فيتسلل إليها ، ويتهاوى فيها ، ويحترق احتراق الفراش في وهج النار !

في باريس تركزت الحضارة العصرية بجميع معانيها ، وبكل مظاهرها ، فكانت المثل الكامل للمدنية الحديثة . .

إنها لأولى مدن الدنيا في الآثار التاريخية ، والمتاحف الفنية ، والمعاهد العلمية ؛ وإنها لمركزُ المفكرين والسياسيين والأثرياء ، يفدون إليها من جميع أنحاء العالم ، ويقصدونها من مختلف أرجاء المعمور ، فما قاصد إلا وجد فيها ما يشاء ويهوى من ألوان الحياة ؛ فمن ينزل بها طالباً العلم أو العمل يجد فيها مناه ، ومن يسافر إليها ناشداً اللهو أو الرياضة ، يلقى فيها ضالته المنشودة ، ويحقق آماله البعيدة !

نعم ؛ من أراد الجد في باريس وجده جزيلا ، ومن رغب في الهزل وجده وفيراً !

* * *

طفقت أقطع طريق « الشانزليزيه » الطويل ، وأنا زائغ البصر ، سليب الرشد ، لا تكاد عيني تقع في شرك حتى يجذبها شرك ، فأشراك !

وانتهى بي المسير إلى ميدان « الكونكورد » : . الميدان الذى كان يجتمع فيه رجالات الثورة الفرنسية ، والذى اختلطت على أرضه دماء الأشراف الطغاة ، بدماء الثوار العتاة !

هذا الميدان هو مجلى عظمة باريس . . في أحد أطرافه ينهض قصر « اللوفر » معجزة من معجزات فن العمارة والنقش : . القصر الذى كان فيما مضى مسكناً لأعظم ملوك فرنسا ، وكان النبلاء والأشراف يتمنون أن يقضوا بين جدرانه ساعة أو بعض ساعة . .

يا لفعل الأيام ! . . لقد صار هذا القصر متحفاً من أكبر متاحف الدنيا ، ومعرضاً عاماً يستطيع كل راغب أن يستمتع بالجولان فى أبهائه وحجراته ، ورؤية ما تضم من تحف نادرة ، وآثار ثمينة :

أمام القصر متنزة فسيح ، حوى كثيراً من النافورات والتماثيل المنسقة وسط الأزهار أبدع تنسيق . . وقريباً من هذا المتنزه تقوم المسلة المصرية التى نقلت من بلادى إلى قلب مدينة النور . .

نعم ؛ إن باريس لمدينة النور حقاً ! فقد غابت الشمس منذ حين ، ودقت الساعة تسعاً ، لكن الأنوار الساطعة المنبعثة من كل مكان ، قد قلبت الليل نهاراً . . وأنا لا أزال أتسكع وحيداً ، كمن يمشى وهو نائم ، لا يدرى شيئاً ، ولا يعى !

ماذا أفعل ؟ أين أذهب ؟ كيف أستمتع بلياليّ الأولى فى باريس ؟ هل تكون باريس أقل كرماً من مرسيليا التى أهدت إليّ الحبيبة «جوزفين» والصديقات الأخر ؟ !

ورأيتنى أمام دار من دور السينما ؛ فما كان أسرع ما احتجزت لى مقعداً ، وغصت فيه : .

كان عن يمينى سيد كهل ، وعن شمالى غانية ، بل ثلاث غانيات فى شرخ الشباب ، يتحدثن همساً ، وعطرهن يخدر حواسى ، وضحكهن

يثير انفعالاتى !

ولما انتهت المقدمة ، وأضيئت القاعة ، أخذ الحاضرون يتطلعون فيمن حولهم ، دأبهم فى كل مجتمع ؛ وتلفت حولى ، ووقع بصرى على جارتى ، فإذا شفتاها الحمراوان شفتا طفل برىء سعيد ، وإذا عيناها الفاتنتان تسيلان رقة وعذوبة ، وترسلان إلىّ شعاعًا يسرى فى جسدى ، ويهزّ أوتار قلبى !

نهضَت الغانيات الثلاث ، فنهضتُ وراءهن ، وتبعتهن إلى « بوفيه » السينما ، وأنا لا أكاد أحول بصرى عن جارتى التى غزا جمالها قلبى غزوة خطفته خطفًا . . وفطنت هى إلى نظراتى الجائعة التى تلاحقها ، فأخذت ترمقنى من بعيدبالنظرة بعد النظرة : .

كتبت فى وريقة بضعة أسطر قلت فيها : إنى مصرى غريب وحيد ، وصلت إلى باريس منذ سويعات ويُسعدنى أن تكونى أنت ، أيتها الفاتنة ، أول من أعرف فى هذا البلد الجميل .

وإذ عدنا إلى مقاعدنا جعلت همى أن أراقب حركات جارتى وسكناتها ، وأتعمد أن تمس يدى ذراعها العارية ، حتى سنحت فرصة ، فدسست الوريقة بين أناملها ، وبدأت أشاهد بقايا « الفيلم » . .

انتهى العرض ومنتصف الليل ، وغمرت الأنوار المكان ، فإذا جارتى تنظر إلىّ نظرة فاحصة ، أعقبتها بسمة واسعة ؛ فشجعتنى هذه النظرة ، وهاته البسمة ، فتبعت الحسان الثلاث ، وهن يخطرن فى خفة ورشاقة ، حتى ملن إلى شارع جانبى ، ومشين متهاديات ؛ ثم وقفن أمام صرح ممرد فتحدثن هنيهة ، ثم دخلت إحداهن الصرح ، وتابعت الأخريان سيرهما . .

وسّعت خطوى فسبقتهما ، وإذا أنا فى مفترق أربع سبل : .

وقفت وقد زاغ بصرى حتى مرت بى الحسناوان ، ومست جارتى

يدى ، وكأنها تقول : تعال ؛ فتأثرت خطاهما ، وعيناى عليهما ، فإذا هما تتمهلان ، وتبطئان ؛ وإذا جارتى المشتهاة تبسط الوريقة التى دستها فى يدها ، وتقرؤها على رفيقتها ، وتضحكان ، بل تقهقهان ، وهما تستديران وتنظران إلىّ ، وفى نظراتهما إغراء ودعاء . . فأسرعت نحوهما أحييهما ، وأقدم إليهما نفسى فى جرأة لا تبالى : .

ردتا تحيتى هاشتين باشتين ، وحدقتا إلىّ مليًّا ، ومدت جارتى يدها بالوريقة ، وهى تقيسنى بنظراتها الهادئة النافذة ، وسألتنى والبسمة لا تزال تملأ وجهها : أنت صاحب هذه الرسالة ؟!

ــ نعم ، أنا صاحبها . وعذراً جميلا إذا كنت قد جاوزت حد اللياقة والأدب ، فإنى غريب :

ــ وماذا نستطيع أن نفعل لأجلك ؟!

ــ قرأت كثيراً ، وسمعت كثيراً عن الحب فى باريس ، وعن ملاهيها ولياليها الحمراء ، ويسعدنى ــ إذا كان هذا لا يثقل عليكما ــ أن تقودا خطاى إلى أحد الملاهى الشهيرة ، لأقضى ليلتى الأولى فى مرح وهناءة . . إنه ليسرنى كل السرور أن تتفضلا مشكورتين فتقبلا دعوتى . . أريد أن ألهو وأمرح . . أريد أن أشرب وأرقص . . وأحب أن يكون هذا كله معكما . .

وبعد كثير سؤال وجواب ، قالت مشتهى النفس : لك ما تريد ، يا سيدى الغريب .

٣٥

ذهبت بى الحسناوان : « مارى تريز » و « روز » إلى ملهى « البرج الذهبى » : :

قاعات واسعة ، ومقاعد وثيرة ، وأثاث فخم ، وأنوار متنوعة ، وأجناس من الناس متباينة ، ولغات شتى من كل جهات الأرض ، وغانيات فاتنات فى دقة التكوين ، ودلال الحركات ، وجمال الصدور العاجية ، والسيقان المرمرية . . أشياء كثيرة عظيمة ، لكنى لم أجد بينها ما أفتش عنه ؛ فالابتسامات خداعة ، والعواطف مرائية ، وكل شيء حولى يدل على الكذب والصنعة فى الحركة واللفتة ، والكلمة والغمزة ! فهؤلاء الصبايا الغاديات الرائحات تماثيلُ متقنة الصنع ، لكن لا روح فيها ، وهذه الموسيقى لطيفة جميلة حقاً. لكن ليس فيها عاطفة صادقة تلمس النفس ، وتحرك القلب ، وتأخذ بالروح ، وتلعب بحناياها !

وتضاعفت خيبة أملى حينما رأيت هذا التفاوت الكبير بين الراقصين ، فهذه عجوز شمطاء تراقص فتى يافعاً ، وتلك صبية فى ربيعها العشرين تراقص كهلا جاوز الخمسين . . الربيع والخريف معاً . فى وقت واحد ، وفى مكان واحد !

واشمأزت نفسى ، وقلت لرفيقتىَّ : إنى لا أميل إلى هذا الجو . .

قالت « مارى تريز » : كيفَ ؟ ! . . هذا الملهى من أشهر ملاهى باريس ، وهو مقصد سراة الأجانب الذين يزورون العاصمة . .

وقالت « روز » ألستَ تريد أن تلهو وتمرح ؟ أوَمَا تحب أن ترقص وتشرب ؟ ! . . هنا . . هنا الحب العصرى ، حيث يبحث الشباب عن المال ، وتفتش الكهولة عن الشباب ! . . فهل بعد هذا لهو ؟ ! . .

ورأيت بعين خيالى هاتيك الغانيات الناضرات ، ذوات الأجساد الممشوقة ، يقلبهن المالُ — فى سرير واحد — مع هؤلاء الكهول ذوى الأجسام الهزيلة ، واللحوم المترهلة ، والشفاه المتدلية ، والوجوه المتجعدة . . وتخيلت أيضاً هؤلاء الفتيان الأقوياء يبيعون — كالغانيات — شبابهم وفتوتهم للعجائز المتصابيات . . وغثت نفسى . . ورجوت رفيقتى أن تتحولا

بى إلى ملهى آخر ، لا تكون سمته هذا التناقض الكريه ، الذى لا يمت إلى الحب بآصرة .

فصحبتانى إلى ملهى قد التأم فيه الشبان والصبايا . .

بسمات فاتنة على الشفاه . . دعوات صامتة فى الأعين : . أذرع تتشابك . . أنامل ساحرة تلاعب أوتاراً رقيقة ، فتتأوّه وتتلوّى ، وتبعث الألحان الناعمة ، فتعلو أغانى الحب الحلوة ، وتشيع البهجة فى كل نفس ، وتحيي الأمل فى كل قلب .. فتيات وفتيان كلهم يغنون ، ويرقصون نشاوى ، ويعيشون مائة عام فى ساعة ! . . أجساد ، وأرواح ، وقلوب ، توهب جميعها لنفحة الحياة !

هذا ما أريد ، وهذا ما أفتش عنه !

وتملكنى فرح جنونى استجاشت عناصرَه الخمرُ والندامى ، والرقص والموسيقى ، والحب والغرام !

وطاف بنفس « مارى تريز » فرح شبيه ألهب حواسها ، وأيقظ قلبها ، فإذا هى بين يدىّ مستسلمة . . أطوق خصرها ، وأخترق بها الجموع ، تحف بنا متع الشباب ، وجنّاته العذاب .. ونرقص رقصاً لطيفاً ، طليقاً ، غريب الجمال ، لأنه هزة الروح والبدن : .

كم اضطربت بسحر « مارى تريز » ! كم هفوت إلى القبل تزفّها الشفاه الندية الحمراء ! كم فتحت قلبى على تنهدات لذيذة ، بطيئة ، حارّة ، كأنها عبق الورد فى ليالى الصيف !

أجمل بالحياة تحيا وتمجّد ، وهى تنفخ من روحها فى بنيها !

وقصّت علىّ « مارى تريز » قصتها . . إنها فى الثالثة والعشرين ، وحيدة فى حياتها ؛ فقد فقدت أبويها كليهما وأخاها ، فى أثناء إغارات النازية الوحشية على باريس ، فى أوائل سنوات الحرب العالمية الثانية ، وكانت هى أيّامئذ فى الثانية عشرة ، فكفلتها عمتها ، حتى نضجت ،

وصارت فتنة للناظرين . .

ثم ماتت عمتها ، وهي فى بداية مرحلة الدراسة الجامعية ، فطوت الدفاتر ، وعملت فى أحد الفنادق الكبيرة ، ترد على نداءات « التليفون » ، حتى حصلت على عملها الحالى فى أحد بيوت المال . . وخطبها شاب من نزلاء الفندق الذى كانت تعمل فيه ، وعبث بعفافها ، ثم اختفى . .

وقالت : « ومنذ هجرنى ذلك الوغد الغادر لا أقع إلا على رجال يعاشروننى حينًا ، ثم يختفون ؛ فحياتى ليلة مات ضحاها » !

كانت تتحدث فى لفظ رقيق ، ونبرات صادقة . . وكان لأنغام صوتها رنين الموسيقى الحزينة المطمئنة . . فهو صوت الحزين قد تفطر قلبه ، وتصدعت كبده ؛ وصوت المطمئن قد استراح إلى يأسه ، فلم يترك للجزع سبيلا يذهب ببهائه ووقاره . .

ورق قلبى لهذه الضحية المسكينة ، وتيقظت فيه ذكريات تلتفع بالحسرة ، وتتشح بالألم . . وانثالت علىّ الأفكار ، وتجسمت أمام عينى الآثام الكثيرة التى اقترفتها ، وتراءت لى النفوس البريئة التى قضيت عليها بلهوى وعبثى ، فلم أستطع أن أمنع عن صدرى هزة القلق والإشفاق ، ولم أملك أن أقاوم وخزة الألم التى اعترتنى ، فغاليت فى ملاطفة « مارى تريز » ، وإحاطتها بألوان الحب ، وضروب الحنان ، وأخذت أمنيها بغد أفضل ، وأبعث فى نفسها شعور العزّة ، وأحيى فى قلبها ميت الآمال ثقة بأن الإيمان بالمستقبل ليس هروباً من الواقع المر وحسب ، وإنما هو أيضًا معين فى التغلب على متاعب الحاضر وأحزانه .

* * *

وفى مطلع الفجر ، وقد أخذ النور يرشق بأسهمه البيض سواد الليل ، ذهبنا ثلاثتنا إلى شقة « روز » . . : رجل واحد وامرأتان !

والحق أن « روز » كانت جميلة لطيفة ، ذكية لبقة ، غير أن

التجاذب بين روحي وروحها كان أقل من التجاذب بين روحي وروح « ماري تريز » ، ولكن الموقف فرض عليّ أن أجاملها مجاملة يقتضيها الذوق ، وتتطلبها الرغبة في إدخال البهجة إلى قلوبنا جميعاً ؛ فأخذت أقبّل « ماري تريز » وأقبل رفيقتها « روز » . . وأضرم هذا العبث المجنون النيران فينا ، فعشنا في حلم جميل : كله سحر ، وكله نشوة صرفتنا عن التفكير في غير الحب والجنس . . . .

وإذا كان « أبونواس » — غفر الله له — قد انتشى وقال : « فما لك من سكرين من بدّ » فإني قد سكرت مائة سكر وسكر . . سكرت من الخمر ، ومن الجمال ، ومن الحرية ، ومن الحديث الشهي ، والمنطق العجيب . . وسكرت من كل ما كان حولي !

* * *

كانت الساعة تدق الثانية بعد الظهر ، حينما صحونا من نومنا . . وكان اليوم يوم الأحد ، يوم الراحة الأسبوعية لهاتين الغانيتين . .

وإذ فرغنا من الحمّام أقبلنا على الطعام المجفف ، والشراب المعتق ، والفاكهة الشهية ، وأخذنا نتقارع الكؤوس ، ونتبادل القبلات والمشهيات .

ومرت ساعات بهجة ومرح ، فاقت ما كنت أتخيله وأتمناه . .

ولست أدري : أكان هذا الاندفاع في الحب ، أو — في تعبير أصدق — هذا الميل إلى الجنس ، لوثة وجنوناً ؟ أم كان سرّاً مستغلقاً ؟ أم كان وسيلة إلى التخفيف من وحشة كنت أعانيها ؟ !

لقد فكرت في هذا في حينه ، ثم فكرت فيه من بعد ، فلم أهتد إلى رأى مقنع . .

وعند منصرفي قلت للصديقة « ماري تريز » ، وأنا أطبع على شفتيها قبلة ناعمة : إليك رسالة أخرى كرسالة السينما ! . . ودسست في يدها مائتي فرنك قائلا : اشتري شيئاً ما تذكاراً لهذه الليلة السعيدة ، التي لن

أنساها ما دمت حيًّا . .

وخطوت نحو الرفيقة « روز » ، وكانت لا تزال أمام المرآة تتزين ، وقدمت إليها مائتى فرنك أخرى ، وأنا أقول لها : لك أيتها الصديقة اللطيفة موفور شكرى ؛ فبفضل كرمك ، وحسن ضيافتك ، جعلت ليلتى الأولى فى باريس أحلى ليالى عمرى ، فأرجو أن تقبلى هذا رمزَ تقدير لرقتك ولطفك . .

قالت « مارى تريز » : إنّ « روز » تستحق أجر ضيافتها ، فقد سطونا على ما ادخرت من طعام وشراب . . ويطيب لنفسى أن أنزلَ لها عما أعطيتنى . . أما أنا فحسبى أن أكون معك . . إنك قوى لطيف ، وقد أحببتك . . وإنى ليسرنى أن ألقاك : : إليك رقم تليفونى . . وسأبقى غداً فى شقتى من الساعة الثالثة إلى السادسة مساء أترقب سماع صوتك . . إلى اللقاء أيها العزيز الغريب !

٣٦

عدت إلى فندق « كلاريدج » ، وارتميت فى السرير ، وغبت فى نوم عميق ، لم أستيقظ منه إلا فى الساعة التاسعة مساء على رنين جرس « التليفون » ينادينى . .

إنها « مادلين » — صديقة القطار — تسأل عن حالى ، وتنبئنى أنها ذاهبة إلى « سركل السفراء » ، وتدعونى إلى الذهاب معها ، وتقول إنها ستمر بى بعد ساعة . .

تهيأت للسهرة ، فاستحممت وتطيبت ، وارتديت حلة أنيقة ، ونزلت إلى بهو الفندق ، ثم خرجت إلى الطريق ، فما إن أجلت طرفى فيما حولى ، حتى وقفت أمام الفندق سيارة فخمة تقودها « مادلين » ، وهى كالعروس المجلوّة !

وذهبنا إلى « سركل السفراء » . .

الجدران كلها مكسوة برسوم متباينة الأشكال والألوان ، والأثاث فاخر ، والرياش أنيق ، والنساء والرجال جميعاً فى أكمل زينة ، وأحسن هيئة ، تنطق وجوههم بالبشر والسعادة : حتى الغادات الحسناوات اللائى يخدمن رواد الملهى ، يحملن على شفاههن ابتسامات ملأى بالمداعبات والدغدغات !

وفى « سركل السفراء » التقينا بكثير من صديقات « مادلين » وأصدقائها ، وقدمتنى إليهم كصديق عرفته فى مصر ، حينما زارتها فى الشتاء ؛ وزعمت لهم أننى سبقت إليها بالفضل ، فكثيراً ما رافقتها فى زيارة معالم القاهرة ، وهى تحاول الآن أن ترد بعض الجميل !

وممن قدمتنى إليهن « مادلين » صديقتها الحميمة « مدام جوبير » وزوجها . . لقد حدقتْ إلىّ « مدام جوبير » ، وهى ترحب بى ، واضطربت حينما سلمتنى يدها ، وعبرت عما ألم بها برعشة سريعة ، ونظرات هادئة نافذة . .

وانطلقت الموسيقى هفافة موّارة ، وامتدت الأيدى تصلح من الثياب وعقد الرقاب ، وتستقر على الأزرار تحبسها ، وعلى مناديل الصدر ترتبها ؛ وانساب الذكور إلى الإناث يدعونهن إلى مائدة الفن بانحناءة فاغرة منهومة . . ودرت بالحسناء « مادلين » بضع دورات ، ثم همست فى أذنها كلمات ، ردت عليها ببسمة ملأت قلبى أملا ، وصبت فى عروقى نشوة عارمة . .

وبعد أن مضى من الليل ثلثاه عدت إلى الفندق فى سيارة «مادلين» ، وقد واعدتنا « مدام جوبير » أن نتناول الغداء على مائدتها . .

* * *

انقضى الليل هادئاً على ما يلف من أشواق ، ورقدت على بواسم

المنى ، أرقب الغد ، لألتقى بمن باتت تداعب أحلامى . .

وأقبلت « مادلين » فى الضحى ، فحملتنى فى سيارتها ، وأخذت تطوف بى فى شوارع العاصمة العظيمة ، فرجوتها أن تزيرنى قصر « ڤرساى » الذى يتجلى فيه فن العمارة بأجمل صوره ، وأبهى أشكاله : .

يطل القصر على حديقة قالت « مادلين » صادقة إنها أجمل حدائق الدنيا ، قد نسقت فيها الأزهار والرياحين على أنماط بهيجة ، تخلب اللب ، وتسحر النظر . وتتوسط الحديقة نافورة واسعة قد زانتها السلاحف والأفاعى ، يتفجر من أفواهها فى تقوسات بديعة الماء السلسال لا السم القتال . . ويواجه النافورة من أحد جوانبها طريق معبد فسيح يؤدى إلى سلم فخم يصل إلى القصر ؛ ويواجهها من جانب آخر طريق ثان ، يمتد إلى نافورة فى شكل الخيول ، وأمامها نهير من الماء الساكن ، تنتظم على ضفتيه الأشجار الدائمة الاخضرار . . وبالحديقة — عدا هاتين النافورتين — نافورات أخرى ، ومقاصير فاخرة ، تعيد إلى الأذهان ذكرى عظمة منشئ هذا القصر : « لويس الرابع عشر » : . وهذا كله تحيط به الغابات التى تضرب غصونها فى السماء ، فى بهجة ورواء !

يقوم هذا القصر العظيم فى وسط « ڤرساى » إحدى ضواحى باريس . وهو معرض صامت لا ينطق إلا بأمجاد تاريخ فرنسا ، فجدرانه وسقفه مزدانة بصور الملوك والأمراء والوزراء والقواد وذوى الأثر البين فى تاريخ فرنسا . وعلى الجدران أيضاً لوحات زيتية بديعة تمثل المعارك الهامة ، وصور المعاهدات الكبرى التى تمس تاريخ فرنسا ، كلوحة فتح « أنڤرس » ، وصورة معاهدة باريس . .

ووضعت « مادلين » ذراعها تحت ذراعى ، وسارت بى وهى تقول : سأريك الآن البهو المخصص بالإمبراطور العظيم : .

ووصلنا إلى بهو فسيح ، نقشت فيه وقائع « نابليون » أتقن نقش ،

فى لوحات ذَرْعُ كل لوحة منها عشرون متراً . . ثم انتقلت بى إلى قاعة من أجمل ما يراه الناظرون وقالت : أما هذا البهو فهو « بهو المرايا » . .

إنه بهو واسع قد غطت جدرانه كلها المرايا الكبرى ، أكبر مما يتصوره الخيال للمرايا ، حتى إن الواقف فى أى مكان به يستطيع أن يرى من فيه جميعًا ، من أى زاوية يشاء ، ويرى حركاتهم ، وما يرتسم على وجوههم من انفعالات :

وأشارت « مادلين » إلى منضدة فى منتصف القاعة قائلة : أما هذه المنضدة فلها تاريخ عجيب . . إنها المنضدة التى وقِّعت عليها معاهدة الصلح سنة ١٩١٩ ، فى أعقاب الحرب العالمية الأولى : ومن عجائب القضاء وفلتات القدر ، التى قلما تتكرر ، أن « الإمبراطور غليوم الأول » — إمبراطور ألمانيا — توِّج فى هذا القصر سنة ١٨٧١ ، منتصراً على فرنسا ؛ وبعد مرور ما يقرب من خمسين عامًا على هذا الحادث الأليم ، جاد الدهر على فرنسا ، ومنحها بعض رضاه ، فثأرت لنفسها ، وأملت شروط الصلح سنة ١٩١٩ فى هذا المكان نفسه الذى توِّج فيه « غليوم » : . هنا ، فى هذه القاعة التى تبختر فيها غالبًا ظافراً ، وعلى هذه المنضدة التى جلس إليها فائزاً منتصراً !

قضينا ساعتين كاملتين نطوف بأبهاء القصر وحجراته ، فرأيت حجرة نوم « لويس الرابع عشر » ، ومكتبه . . ورأيت بعض أدوات النجارة وعددها التى كان يلهو بها « لويس السادس عشر » ، الذى كان مولعًا بهذه الحرفة : حرفة القطع والوصل ، والنشر والترميم ، لكنه لم يفد من هذه الحرفة فى سياسته ، فأخفقت وقضت عليه .

إن قصر « ڤرساى » متحف عظيم حقًا ، يعرض فى مختلف حجراته وأبهائه ما جمع من قصور ملوك فرنسا القدماء من أثاث ثمين ، ينطق بما كانوا عليه من بذخ وترف ورفاهية .

وجاوزت الساعة الواحدة بعد الظهر ، واقترب موعد الغداء ، فغادرنا قصر « ڤرساى » ، وقفلنا عائدين إلى باريس ، وقد علقت « مادلين » وعلقتنى ، وعشقتها وعشقتنى !

إن جمال « مادلين » لم يكن من ذلك الجمال الذى يبهر النظر لأول وهلة ، ولكنه كان جمالا ينسكب فى النفس قطرة قطرة حتى تمتلئ به دون أن تشعر ! كان جمالا يتسلل إلى أعماق الفؤاد فى حذر ، وعلى مهل ، فلا تشعر إلا وقد استقر فيها وتمكن !

وإذا كان حياؤها قد حال دون أن تفصح عن مشتهاها ، فإن هيبتها فى نفسى قد حالت دون أن أفصح عن مشتهاى ، فكنا نتحدث فى كل شىء إلا فيما تضطرب به قلوبنا ، وتختلج به حواسنا ، وتشتهيه أنفسنا ، وإن زل اللسان بتعريض عابر ، أو بتورية خبيثة !

* * *

رحبت بنا « مدام جوبير » ترحيباً حارًّا ، وعلى وجهها أمارات البهجة الصادقة ، وسمات الفرح الذى لا تكلف فيه ، ثم قالت : إنى لآسفة ، لأن زوجى لن يستطيع أن يتغدى معنا ، وقد طلب منى أن أعتذر إليكما ، حتى يلقاكما ساعة الغروب . .

وبدت لى « مدام جوبير » ذكية لطيفة ، وعلى قسط وافر من الطلاقة والرقة والجاذبية ، والمكر أيضاً !

وبعد تناول الغداء دعتنا « مدام جوبير » إلى الاستراحة قائلة : لا شك أنكما تودان الاضطجاع قليلا . . تفضلا . . استريحى أنت ياعزيزتى « مادلين » فى هذه الحجرة . . واسترح أنت ، أيها العزيز ، فى تلك . . ستجدان كل شىء معداً لراحتكما . . إنى معتادة أن أضطجع بعد الغداء ، إذا أفرطت فى الشراب ، كما صنعت اليوم ، وإلا فعلت بى الخمر أفاعيلها ، وأصابنى صداع لا يطاق . .

قالت « مادلين » : استريحى أنت ، ياحبيبتى « بوليت » .. أما نحن فوراءنا زيارات كثيرة . .

وقلت أنا : أشكر لسيدتى العزيزة كرم ضيافتها . . وإنى لسعيد أتم السعادة ، إذ أتيحت لى هذه الفرصة الطيبة ، للتشرف بمعرفتك ، ولرؤية الحياة الباريسية على حقيقتها . .

— أوه ! سترى الكثير مما تود رؤيته ومعرفته . . ألن تبقى بيننا فترة ، فأريك ما تشاء من معالم باريس وأنماط الحياة فيها ؟ !

— بلى ، سأبقى شهرين أو ثلاثة . . وإنى لأكرر ، لسيدتى العزيزة ، عظيم شكرى لهذه الرقة البالغة ، والعناية الفائقة ، والكرم الفياض . .

— ثق أنى يطيب لى أن أقوم — نيابة عن أختى وصديقتى « مادلين » — بما تحب هى أن تقوم به نحوك .. إن « مادلين » كأختى حقًّا ، وبيتى بيتها ، ويسرنى كثيراً أن أراك ما دمت فى باريس . .

قالت « مادلين » : نعم ، إنى و « بوليت » صديقتان حميمتان ، بل أختان ، إننا لم نفترق منذ طفولتنا إلا بعد أن تزوجتُ ، وأقمتُ فى ليون . . فلتكن ، يا صديقى العزيز ، على اتصال دائم بها ، بعد سفرى .. ستسهل لك كثيراً مما يصادفك ، ويعسر عليك . . شكراً لك يا « بوليت » . . سنتركك الآن لتستريحى ، ونذهب لزيارة « اللوفر » .

اربدّت سحنة « بوليت » ، وقالت : إنى ليحزننى أن تذهبوا . . كنت أحب أن نقضى معاً سهرة طيبة . .

قالت « مادلين » : إننى سأبقى فى باريس بضعة أيام ، وأحب أن أفى ببعض دينى لهذا الصديق العزيز . . وإنى أدعوك وزوجك إلى تناول الغداء معنا غداً فى « المطعم الشرقى » . .

— أفضل أن نتعشى معاً ، ونسهر معاً . .

— ليكن . . : سأحدثك غداً فى « التليفون » . . :
وودعنا « مدام جوبير » ، وعلى وجهها مسحة من الكآبة !

٣٧

ليس من اليسير أن أصف ما رأيت فى « اللوفر » من تحف ثمينة ، نادرة ، وصور زيتية بريشة مشاهير الرسامين . . فقد مضت سنون طويلة ، وازدحمت الذاكرة ، واختلطت فيها المشاهد : : لكن الذى اجتذب نظرى اجتذاباً ، ولا تزال الذاكرة تعيه ، ولا أظن الأيام قادرة على محوه ، ما رأيته فى هذا المتحف العظيم فى القسم الخاص بالآثار المصرية ، وفى القسم الخاص بالآثار الإغريقية ، وفى القسم الخاص بالسفن البحرية منذ نشأتها . . :

ولن أنسى أبداً ذلك المصوَّر الجغرافى للجمهورية الفرنسية الذى جرت أنهاره من خيوط الفضة ، وصيغت إشارات مدنه من الجواهر ، وبرزت أسماؤها من الذهب !

ولن أنسى أيضاً صورة أخرى مشهورة فى العالم كله هى « الجيوكندا » التى رسمها الفنان العظيم « ليوناردو دافنشى » ، والتى يقال إن « نابليون » قد سلبها من إيطاليا .. إنها صورة صغيرة لا تزيد على نصف متر فى ثلاثة أرباع المتر ، لكنها جميلة حقًّا ، تمثل سيدة تحار الابتسامة على شفتيها حيرة لبّ الناظر فى كشف سرها وفهم مغزاها ، فهى لا تقول : نعم ، ولا تقول : لا !

وقد حدث فى العقد الثالث من هذا القرن أن أحد النقاشين الإيطاليين ممن كانوا يعملون داخل متحف « اللوفر » سرق « الجيوكندا » وفر هارباً ، فأعلنت الحكومة الفرنسية عن استعدادها لدفع « مليون »

فرنك مكافأة لمن يدل على موضع الصورة ، ومقر سارقها الأثيم ، الذى لم يلبث أن انكشف أمره فى إيطاليا ، فأودع السجن ، وأعيدت الصورة إلى فرنسا . .

ثم قالت «مادلين» : أنصحك ، ياصديقى العزيز ، أن تزور « اللوفر » زورة أخرى ، قبل أن تعود إلى وطنك . . والآن تعال ، فأريك أشياء أخرى . .

وتهادت بنا السيارة فى طريق « الشانزليزيه » الشهير ، الذى يقع فيه فندق « كلاريدج » حيث أنزل . « والشانزليزيه » طريق فسيح طويل ، تظلل الأشجار جانبيه ، ويبهر السائر بنظافته وتنسيقه . . فى أحد طرفيه ميدان « الكونكورد » ومتحف « اللوفر » ، وفى طرفه الآخر « قوس النصر » الفاخرة ، التى نصبت تخليداً لانتصارات « نابليون » ، ونقشت عليها صور معاركه الحربية التى خلدت عبقرية هذا القائد العظيم . . وتحت هذه القوس أقيم « قبر الجندى المجهول » الذى يحج إليه الناس أفواجاً فى كل وقت ، ولا يمر به امرؤ دون أن يخلع قبعته إجلالا وتقديراً . . وفى مواجهة القوس طريق « غابة بولونيا» الذى ينتهى بعد سير طويل إلى الغابة نفسها . .

وبعد « قوس النصر » تتشعب الطريق إلى اثنتى عشرة شعبة ، يحمل كل شارع منها اسم أحد القواد العظام الذين حققوا لفرنسا انتصارات حربية غالية . .

قالت « مادلين » : سأذهب بك الساعة إلى معرض حى . . سأذهب بك إلى « فونتنبلو» ، حيث تقيم صديقتك التى جئت إلى فرنسا لرؤيتها . . فهل أنت مستعد لهذه الرحلة الطويلة ؟ ! قد نلتقى مصادفة بصديقتك . . كم أود أن أرى تلك التى شغلت قلبك ، وجعلتك تقطع الأميال سعياً وراء رؤيتها !

فطنت إلى ما ترمى إليه « مادلين » بهذه الغمزة ، فقلت : أفضل أن أرى قبر « نابليون » أو « غابة بولونيا » . : أما صديقتى « أليس » فسوف أراها فيما بعد .

ــ أما تشغل قلبك « أليس » هذه ؟ !

ــ ماذا تعنين بهذا السؤال ، أيتها العزيزة ؟ ! . : إذا زار ليون بعض من عرفت من أبناء مصر ، وسعوا إلى رؤيتك ، فهل من الحتم أن تكون قلوبهم مشغولة بك ؟ ! . . وإذا زرت أنت مصر مرة أخرى أفما تحبين أن ترىْ من عرفتهم فى زورتك السابقة ، واستراح قلبك إلى صداقتهم ؟ ! وهل يكون معنى هذا أنك قطعت آلاف الأميال لرؤية هؤلاء الأصدقاء ؟ ! . . إنما جئت ، ياسيدتى العزيزة ، إلى باريس لأرى معالمها ومفاتنها ، وأرى ــ فيما أرى ــ صديقتى « أليس » التى التقيت بها فى وطنى . . أنا لا أنكر ، يا « مادلين » أن « أليس » كان لها أثر أيما أثر فى اختيارى زيارة فرنسا ، دون زيارة إنجلترا أو إيطاليا مثلا ، حينما أتيحت لى الفرصة .. أما حديث الحب الذى جرى بيننا فى القطار ، فقد بالغت فيه ، وأسهبت ، ليكون سبيلا إلى الحديث إليك أنت : . أنت التى تشغلين قلبى ، ياحبيبتى « مادلين » !

ــ اطمأن قلبى الآن ، أيها الصديق الحبيب . . هيا إلى « غابة بولونيا » . .

وكلمة « غابة » كانت تثير فى نفسى معنى الأشجار الغليظة الملتفة ، والظلام الذى لا تشقه خيوط الشمس ، والحيوان الذى يمرح طليقاً ، ويفترس بعضه بعضاً ، فإذا « غابة بولونيا » تثير فى نفسى البساطة والجمال . .

إنها متسع عظيم من الأرض ، تغطيه أشجار الصنوبر والبلوط ، وتتوسطه بحيرات عدة ، على سطحها تمرق زوارق الرياضة ، وتختال

قوارب العشاق ، وتتخللها جزر كثيرة قامت فيها ملاهٍ فخيمة ، تعدّ من أجمل متنزهات باريس ، وأمتع ملاهيها . .

أوينا إلى أحد تلك الملاهى ، بين الجمال الطبيعى والمصنوع ، وجعلنا نتناجى . . وأخذت أبثها وجدى وهيامى ، حتى توارت الشمس بالحجاب ، وبرز القمر يكسو المكان بأشعته الفضية ، فنهضت «مادلين» وشدت يدى ، وجعلت تقود خطاى بين الخمائل العطرة ، والأشجار الباسقة ، والجداول الرقراقة ، والشبان والصبايا المتمددين على الكلأ الرطب ، فقالت : هنا يطيب الحب !

وكنا نسمع من حولنا تنهدات العشاق ، وهم مستلقون فوق الأعشاب يتداعبون ويتضاحكون ويتحابون . . فالشبان والشابات يذهبون جماعات إلى الحدائق والغابات ، وهناك — تحت ظلال الأشجار ، وبين الأحراش والأدغال ، وخلف الصخور — يتطارحون الغرام . .

ضممت « مادلين » إلى صدرى ، وقلت : لا أستطيع . . لا أستطيع الصبر أكثر مما صبرت . . ما لك لا تتكلمين ؟ ! لماذا جئت بى إلى هنا يا « مادلين » ؟ ! أجئت لتزيدى فى عذابى ؟ ! عودى بى ، ودعينى أقرض طريقى بأسنانى ، وأشقها بأظافرى !

مالت بى إلى خميلة من تلك الخمائل المنتثرة دون أن تنطق ؛ فأحسست أننا تقاربنا جد التقارب ، وأن تجربة مشتركة من الرغبة ، ومن الخوف أيضاً ، تربط بيننا . . . .

وتمتعت مع « مادلين » بالحب فى باريس ، بين الماء والخضرة والوجه الحسن . . فى « غابة بولونيا » ، وفى الحدائق ، وعلى شاطئ نهر السين ، وبين مخارمه الظليلة القاتمة ، والمياه من تحتنا تتدفق ، تدغدغ الصخر والحجر ، وسيقان النبات وجذوع الشجر . .

قضينا معاً خمسة عشر يوماً ، كنا فيها لا نكاد نفترق إلا ساعات

معدودات . . وكانت الصديقة الحميمة « بوليت » تسهل لنا فرص الخلوة فى بيتها ، بعيداً عن الأعين . . وما أرحب بيوت الأصدقاء !

وتعلقتُ الحسناء « مادلين » وتعلقتنى تعلق المرسيلية الحسناء « جوزفين » من قبل ، غير أن الحبيبة « جوزفين » كان عملها يشغلها عنى ، ويتيح لى شيئًا من الحرية ، أما « مادلين » فقد فرغت لى ، فكانت لا تعيدنى إلى الفندق إلا مطلع الفجر ، فأغلق على نفسى باب مخدعى ، وأعيش مع أحلامى، أوأنثرها فى رسائل إلى الأهل والأصدقاء، وإلى الحبيبة « جوزفين » . .

كتبت إلى « جوزفين » أبثها أشواقى ، وأشكر لها ما أحاطتنى به من رعاية وعناية ، وما غمرتنى به من حب وحنان ، وأقول لها إننى لن أنسى ما حييت الأوقات الهنيئة التى سعدت فيها إلى جوارها فى مرسيليا وفى ليون . .

وبدأت أتلقى منها رسالة يوماً بعد يوم ، وكنت أجد فى هذه الرسائل متعة أى متعة ، وكأنى أعيش مع صاحبتها ، ذات الوله الملتهب ، والعاطفة المشتعلة ، والحنان الدافق . :

كتبت مرة تقول : « إنى لن أنساك أبداً ، أيها الحبيب العزيز عبد الرحمن . .

« لن أنساك أبداً ، فكل ما حولى يذكرنى بك . .

« يذكرنى بك هذا الملهى الذى شهد رقصنا ولهونا . . وهذا المطعم الذى تغدينا فيه أو تعشينا ، بله هذا الطريق الذى سمع وقع خطانا . .

« يذكرنى بك فستانى الوردى الذى أحببته . .

« تذكرنى بك يدى الصغيرة التى طالما وضعتها بين راحتيك الكبيرتين الدافئتين . .

«يذكرنى بك شعرى الذى كنت تغمر به وجهك وخديك وشفتيك . .

«تذكرني بك أذناي اللتان كنت تداعب طرفيهما الرقيقين الحساسين بأصابع يدك . . »

ومرة ثانية تهتف :

« إني كلما سألت مرآتي ذكرت ما قلته في شعري ، وعيني ، وخدي ، وعنقي ، وقوامي . . وكلما ارتديت ثوبًا ذكرت ملاحظتك عنه . . »

ومرة ثالثة تصرخ :

« أنا أعلم يا عبد الرحمن ما تفعل في باريس ، وأتعذب . . فلا تضاعف عذابي وشقائي بالشك والحرمان !

« أنت لا تدري ، ياحبيبي ، كم أنا في شوق إليك ! وكم يؤلمني بعدك عني ! .. إنني في الأيام القليلة الماضية لم أفكر إلا فيك وحدك ، أيها الحبيب العزيز . . فلا تتأخر عني ، وبادر بالمجيء إليّ ، قبل أن يخونني جلدي ، فأنتحر ، أو آوي إلى دير يغيبني عن الحياة ! » . .

لا نكران أني كنت أحن إلى الحبيبة « جوزفين » أقوى الحنين . . ولا نكران أيضاً أن الحبيبة « مادلين » كانت تجذبني إليها جذباً عنيفاً بشركها القوي ، ليلاً ونهاراً ، وإنه لشرك منسوج من الجمال والظرف ، والرقة واللطف ، والأنوثة الناعمة ، والثقافة العميقة ، والمال الوفير :

نعم ، إن « مادلين » لم تكن تدعني — مادمت معها — أنفق فرنكاً واحداً من مالي ، وتقول : « أحب أن تعد نفسك ضيفاً عليّ ، فاحتفظ بمالك . . إني من ذوات الثراء ، ولولا خشيتي أن تغضب لحملت عنك نفقات إقامتك كلها في فرنسا » : : .

وهكذا احتلت « مادلين » محلها في خلايا قلبي القلّب !

وإني — في الحق — لمدين لهذه الحبيبة العظيمة بالكثير الكثير ، فبفضلها رايت جلّ معالم باريس ، واطلعت على أنماط الحياة فيها ، دون أن أتكلف جهداً ، أو أنفق مالا ، وبفضلها عرفت كثيراً من الأسر الفرنسية

العريقة ، وفتحت لى أبوابها على مصاريعها ، وبفضلها زرت «صالونات باريس» الأدبية ، وخبرت الحياة الباريسية فى جدها ولهوها ، وبفضلها زرت «مسرح الأوبرا» و«مسرح الرعب» و«مسرح الفولى برجير» و«مسرح الأوبرا كوميك» ، و«كازينو دى بارى» و«الكوميدى فرانسيز» . .

وكان من دأب «مادلين» أن تفاجئنى كل يوم مفاجأة سارة ، بما تعد من وسائل اللهو والرياضة ، وكانت تقدم لما كنا نزوره من معالم بمقدمات نافعة ، كشفت عن ثقافتها الرفيعة ، وإلمامها الواسع بتاريخ وطنها . .

زرنا يوماً قبر «نابليون» ، فقالت ونحن نخطو إليه : كان مما أوصى به «نابليون» أن يدفن جثمانه على ضفاف نهر السين ، بين أبناء فرنسا الذين أحبهم . .

وتنفيذاً لهذه الوصية اختار الفرنسيون لرفات هذا الإمبراطور الأكبر «قصر الأنفاليد» الذى شيده «براون» فى القرن السابع عشر داراً للعجزة وذوى العاهات من قدامى المحاربين . وهو من أفخم الأمثلة للطراز الكلاسيكى فى العمارة الفرنسية . وخلفه قبة «الأنفاليد» ، تحفة المهندس «مانسار» ، وتحتها رفات «نابليون» . .

تأمل . . إن القبر مسوَّر بسور عال . . وفى وضع القبر بهذه الصفة مغزى قل من يفطن إليه ، وذلك أن يطل عليه الزوار من أعلى ، فيطأطئ أعظمهم رأسه إجلالاً وإكباراً لساكنه الفذ ، ولو على كره منه !

— إن هذا لتحليل عجيب ، وتفسير غريب ، ما أظنه يخطر بالبال : .

— إنه الحق ، وإنه الفن ، قد احتفظا لهذا الإمبراطور العظيم بما هو أهل له من تقدير وإجلال . . أترى الناووس ؟ . . إنه مصنوع من الجرانيت الأحمر ، ومحاط بهذه الأعمدة الكثيرة ، التى نصبت تخليداً

للقواد الذين شاركوا الإمبراطور فى حروبه وفتوحاته ، فقد نحت على كل عمود تمثال لأحد القادة الكبار . . انظر هذه المقصورة الفاخرة والصورة التى تتوسطها . . إنها صورة السيد « المسيح » وهو معلق على خشبة الصليب . . وفى جانبها صورة « نابليون » يحيط به أخواه وكبار قواده ، ونقش لبعض وقائعه الحربية ، وانتصاراته الباهرة . . :

— وهل لهاته الأعلام الكثيرة التى ترفرف على رءوس الجميع ، قيمة تاريخية ؟

— نعم . . إنها ، ياصديقى الحبيب ، الأعلام التى غنمها « نابليون » وقواده فى أثناء الحروب . : ومن بينها نيف وخمسون علماً انتزعها « نابليون » فى وقعة « استرلتز » المشهورة : : انظر إلى باب الناووس الرهيب . . إن مصراعيه من الحديد ، وقد نحتت عليهما بعض الوقائع والزخارف البارزة والغائرة . . وكلها من حديد المدافع التى غنمها « نابليون » فى وقعة « استرلتز » !

— أويزور الناس القبر دائماً بهذه الكثرة التى نراها ؟

— إن الزوار من كل الطبقات ، ومن جميع الأجناس ، لا ينقطع توافدهم ، ففى كل وقت تراهم يقفون فى صمت ورهبة وخشوع ، خالعين قبعاتهم ، وكأن على رءوسهم الطير !

والحق أن الشعور الذى أحسسته أمام قبر « نابليون » أجل من أن تحصره الألفاظ ، وأعمق من أن تحده الكلمات ، فلقد تملكنى — وأنا أستمع إلى حديث « مادلين » عن القبر وساكنه — رعشة خفيفة ، وقوية أيضاً ، وذهول عميق ، وروعة جليلة ، واستعرضت — فى خيالى — انتصارات هذا البطل المغوار ، وتصورت همته التى كانت أجل من الدهر ، وتذكرت بيتين حفظتهما فى صغرى يصوران أطماع هذا القائد الكبير :

قالوا لنابليون ذات عشية إذ كان يرقب فى السماء الأنجما
هل بعد فتح الأرض من أمنية فأجاب : أنظر كيف أفتتح السما

ونظرت إلى هذا الحيز الضيق المحدود الذى قهر « نابليون » ، وأرغمه على أن يكون طعاماً لديدانه تحت التراب . . واعتبرت ! فسبحانك (اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير) !

ثم قالت « مادلين » : بعد أن زرتَ قبر «نابليون» يجدر بى أن أزيرك المكان الذى وقف فيه هذا الإمبراطور المعظم وقفته الأخيرة على أرض فرنسا : . سأذهب بك الساعة إلى « فونتنبلو » . . الضاحية التى تقيم فيها صديقتك « أليس » . . : إن بيننا وبينها مسيرة ساعة بالسيارة . . :

ــ إنى ، ياحبيبتى « مادلين » ، سعيد بمرافقتك ، شاكر لك هذه الرعاية ، ولن أنساها ما حييت . . وإذا كنت أشتاق حقًّا رؤية المكان الذى شهد وداع « نابليون » ، فإنى لا أحب أن أزور « فونتنبلو » الآن : .

ــ أتخشى أن نلتقى بصديقتك ؟ أم تخشى أن تلقاك وأنا معك ؟ !

ــ « مادلين » . . أيتها الحبيبة العزيزة ، دعينى سعيداً بقربك هذه الأيام القلائل التى تقضينها فى باريس : . إنى لا أحب أن أفكر فى شيء ما قد يشغلنى عنك ساعة . .

ــ ياحبيبى . . لا تخش شيئاً . : إننا سنزور قصر « فونتنبلو » . . لقد زرت « اللوفر » ، وزرت « ڤرساى » . . ألا فلتعلم أن قصر « فونتنبلو » يفوق « ڤرساى » فى نقوشه وزخارفه ، ويضم أثاثاً فاخراً لا مثيل له فى قصر آخر . . أحب أن أذهب بك إلى « فونتنبلو » . .

ــ فلنذهب إلى « فونتنبلو » . .

وقادت « مادلين » السيارة فى طريق « نبع الماء الجميل » . .

سألتها : متى بنى قصر « فونتنبلو » ؟ ومن بناه ؟

قالت : بنى هذا القصر فى القرن السادس عشر . . بناه الملك « فرنسوا » الأول . . ولهذا القصر تاريخ عجيب ، فقد اتخذه « نابليون » مسكناً له . . وفيه سجن « البابا بيوس السابع » ، ولم يفرج عنه إلا بعد أن أرغمه على التوقيع على وثيقة يعترف فيها برضاه عن إغلاق الموانى فى وجه إنجلترا ، وكان «البابا» قد رفض الموافقة على سلوك « نابليون » ، وأعلن سخطه، وغضبه ، لإغلاق الموانى فى وجه السفن الإنجليزية ، فاعتقله « نابليون » ، وسجنه فى قصر « فونتنبلو » . .

وفى قصر « فونتنبلو» رأيت العجب العجاب . . رأيت عرش « نابليون » ، وقاعة المشورة ، وحجرة نوم « نابليون » ، ومكتبه ، وحجرة الملكة « مارى أنطوانيت » ، وحجرة « هنرى الثانى » التى تعد أفخر حجرات العالم كله . .

وأشارت « مادلين » إلى منضدة صغيرة ، ليس لها رونق ولا بهاء ، وقالت : على هذه المنضدة كتب « نابليون » صك نزوله عن العرش . . وفى هذا المكان ودع حاشيته وقواده ، وسافر منفياً إلى جزيرة « إلبا » . . وهناك كتب مذكراته ، وقد جاء فيها عن هذا القصر : إنه خليق بسكنى الملوك !

٣٨

ودعت « مادلين » عائدة إلى ليون ، بعد أن ملأ حبها أقطار نفسى ، فغلبنى لفراقها الهم والحزن ، وبدت باريس فى عينى كابية مظلمة ، وخواء مقبضاً ، وفراغاً لا حد له . . ففكرت فى أن أكتب إلى العزيزة « أليس » ، أنبئها أنى فى باريس ، وأنى أشتاق رؤيتها ، غير أن شيئاً خفياً كان يقبض صدرى ، ويجعلنى أتهيب الكتابة إليها ، وأخشى

لقاءها . . وفكرت فى أن أتصل « تليفونيا » بالصديقة « مارى تريز » ، لكنى أحسست فى نفسى اشمئزازاً ، فهذه الغانية شيطانة من شياطين الإنس ، ولها — ولا شك — عشاق كثيرون ، ونفسى تنفر من المرأة ذات العشاق الكثر ، مهما يكن جمالها ، ومهما يتعلقها قلبى . .

وربما كان من الواجب أن أعترف أن « مادلين » — بوقارها واتزانها — قد بذرت فى قلبى حب الحياة المطمئنة ، وعلمتنى أن استقرار الحياة يتيح لى أن أتذوق لذات العيش فى دعة وهدوء . . ومن ثم هفا قلبى إلى « بوليت » ، وإلى أولئك الجميلات اللاتى أسعدتنى « مادلين » بأن قدمتنى إليهن : .

وفيما أنا تائه حائر ، غارق فى التقدير والتدبير ، لا أدرى كيف أخطو خطوتى التالية ، إذا جرس « التليفون » يدق . . فبقيت مضطجعاً لا أريم ، وقد عزمت ألا أجيب ، لاعتقادى أن على الطرف الآخر « مارى تريز » ، فهى التى لا تنفك تسأل عنى ، وتطالب أن أزورها فى بيتها . : ولم تكن نفسى ساعتئذ تهفو إلى رؤيتها ، على ما أحسه نحوها من ميل غريب ، ورغبة فائرة ، فإن الدوامة التى كانت تدور فى رأسى جعلتنى لا أحس الظمأ الجنسى ، قدر ما أحس الجفاف النفسى ! : : فحننت إلى « بوليت » ، وإلى الزوجات الجميلات ، وانصرفت نفسى عن الغانيات محترفات الغرام . .

ثم دق جرس « التليفون » مرة أخرى ، وأنا لا أزال مضطجعاً ، أقلب وجوه الرأى ، وأفكر فيما أنا مقبل عليه ، فتناولت السماعة فى تثاقل ، فإذا على الطرف الآخر الصديقة « بوليت » التى كنت أفكر فيها ، لا العاشقة « مارى تريز » التى حزرتها . .

انتعشت ، وأحسست الدماء تجرى حارة فى عروقى ، وقلت أحدث نفسى : لقد فرجت !

* * *

انحنيت أقبّل يد « بوليت » فى حرارة وصدق عاطفة ، فمنذ سافرت « مادلين » مرت بى الساعات القلائل وكأنها دهر طويل ، وكلح وجه الحياة فى عينى ، وامتلأت سماء أفكارى بغيوم الهموم ، وغلبت على نفسى هواجس الغموم ، فرأيت فى سؤال « بوليت » عنى ، وفى دعوتها إياى إلى الغداء ، وفى حضورها إلى الفندق ، نعماً جليلة لا تجحد ، فقبّلت يدها ظهراً وبطناً ، وقلت : أشكر لسيدتى العزيزة هذا الفضل العظيم . . إن ما تغمرينني به ليعقد لسانى عن الكلام ، فعذراً جميلاً ، وشكراً جزيلاً ، ياسيدتى .

ـ لا تقل هذا ، ياصديقى العزيز .

ـ الحق ، يا سيدتى أنى كنت فى شر حال ، قبل أن تتفضلى بالسؤال عنى . . كنت غارقاً فى بحار الهم ، فأنقذتنى !

ـ خمنت أن صدرك ضائق بسفر العزيزة « مادلين » ، فسألت عنك قبل ساعة ، فقيل لى : ربما كنت نائماً .

ـ لم أكن نائماً يا سيدتى . . لكنى اعتقدت أن هنالك خطأ فى الاتصال بى : . فمن فى باريس يسأل عنى ، بعد سفر الصديقة العزيزة « مادلين » ؟ !

ـ كيف يسيطر على خاطرك هذا الوهم ، ياعزيزى ؟ ! ألسنا أصدقاء ؟ ! أفلم أقل لك غير مرة إن « مادلين » أختى ؟ ! أولم أقل لك إنى سأكون بجانبك بعد سفرها ؟ !

ـ هذا كرم عظيم ، ياسيدتى النبيلة ، فشكراً لك ألف شكر !

ـ أحب أن تعدّنى صديقتك ، كالعزيزة « مادلين » . . وأحب أن تناديني باسمى الصغير . : « بوليت » . : لقد تفتح لك قلبى أيها الصديق العزيز ، منذ رأيتك ، وكأنى أعرفك منذ زمان بعيد !

ـ إنك لتوليني شرفاً أى شرف بصداقتك ، يا سيدتى الكريمة .

ـ قلت لك : نادنى باسمى . : « بوليت » . . « بوليت » : . أحب أن أسمع لسانك ينطق اسمى ، كما كان ينطق اسم « مادلين » !

ـ حسناً ، حسناً . . ليكن ما تريدين يا « بوليت » العزيزة .

ـ والآن . : أما تحب أن نخرج معاً ؟ ألا تحب أن تزور مكاناً معيناً ؟ !

ـ لقد زرت فى صحبة العزيزة « مادلين » ، كثيراً من معالم عاصمتكم الجميلة ، غير أنى لم أزر بعد برج « إيفل » ولا « الباستيل » . . فهل أطمع فى أن أزورهما فى رفقتك ، ياسيدتى العزيزة ؟ !

ـ إنى ، كما عرفت ياصديقى ، لا ولد لى . . وزوجى يقضى أكثر وقته بعيداً عن البيت ، وهو على سفر فى أكثر الأيام ، فعمله ذو أهمية كبيرة ، ومسئولياته كثيرة خطيرة : . وإنى لتطيب نفسى أن أصحبك إلى حيث تريد ، كما كانت تصحبك أختى العزيزة « مادلين » . :

ـ شكراً شكراً ، ياعزيزتى « بوليت » : .

وانحنيت أقبل يدها مرة أخرى ، فقالت : لنذهب الآن إلى برج « إيفل » :

* * *

استغرقت زيارتنا برج « إيفل » ساعة وبعض ساعة . .

إنه برج عظيم من الحديد الصلب ، يربو ارتفاعه على ثلثمائة متر ، فى شكل شباك متقاطعة ، تدق فتحاتها وتتقارب كلما ارتفعت . : وهو مقسم إلى أربع طبقات ، لكن الزائرين لا يصعدون إلا إلى الطبقة الثالثة ، فإن الرابعة مخصصة بالآلات والأجهزة اللاسلكية التى تربط وزارة الخارجية الفرنسية بأطراف الأرض : .

صعدنا بمصعد كهربى إلى الطبقة الثالثة ، وجلسنا فى « الكافيتريا » الأنيقة ، فبدت باريس العظيمة ، من هذا الارتفاع الشاهق ، صغيرة

ضئيلة ، حتى خيل إلى أن مساحتها لا تتجاوز بضع مئات من الأمتار !
وخضنا فى أحاديث شهية متنوعة ، وجرى ذكر الغرام على لساننا عذباً ناعماً ، ولمعت عيوننا حباً ورغبة ، وخفق قلبانا وجداً ونشوة . .
وبعد الغداء عادت بى إلى فندق « كلاريدج » حيث أنزل ، وودعتنى على أن تمر بى فى المساء . .
ومضت أيام ونحن نلتقى كل يوم مرة أو مرتين ، فتحملنى فى سيارتها ، وتطوف بى فى أرجاء باريس ، وتدعونى ، أو أدعوها ، إلى الغداء أو العشاء والسهرة ، حتى أكاد أقول إنى رأيت من معالم العاصمة الفرنسية وملاهيها ما لم يره غريب ، وإنى اطلعت على أنماط من الحياة فيها قلما تتاح معرفتها لزائر .
ويوماً قلت لها فى معرض الحديث : جزى الله العزيزة « مادلين » كل خير . . لقد نفعتنى وآذتنى معاً !
— كيف نفعتك ؟ وكيف آذتك ؟ !
— نفعتنى إذ قدمتنى إليك ، أيتها العزيزة « بوليت » . . وآذتنى إذ حبستنى ، ولم تدعنى أجرب جناحىّ . .
— كانت تخاف عليك السقوط !
— لأن أطير وأسقط ، وأطير وأسقط ، خير من ألا أطير على الإطلاق !
— لقد سحرتها أيها الساحر اللطيف ، فحبستك على نفسها . . كانت شديدة التعلق بك ، وقد حدثتنى عنك كثيراً ، وطلبت منى أن أسهل لكما سبل اللقاء ، فكان أن جعلتُ لكما بيتى مهد غرام ! أليس كذلك ؟ !
— بلى ، ياسيدتى العزيزة ، وشكراً ، ألف شكر . . ولست أخفى عليك أنى أنزلتك من قلبى أكرم منزل ، منذ رأيتك . . وإنى

لأرجو أن تسعدنى أيامى ، فأعرب لك عمليًّا عن عرفانى فضلك، وتقديرى صنيعك . . لكم يسعدنى أن تزورى مصر فى الشتاء المقبل ، فأكون فى خدمتك ، وأسهر على راحتك !

ـ حدثتنى « مادلين » كثيراً عن مصر ، فشوقتنى إلى زيارتها . . وإنى لأرجو أن تتاح لى هذه الفرصة قريباً . . والآن ياصديقى العزيز ، ألا تود أن ترى نمطًا جديداً من الحياة الفرنسية ، قد لا تتيسر لك رؤيته ؟

ـ أوَبقى شىء بعد ؟ ! لقد رأيت فى بلادكم الجميلة ما يجعلنى أصف الحياة هنا خيراً مما أصفها فى بلدى .

ـ إنك لم تر ، بعد ، الحياة فى الريف الفرنسى . . وسأذهب بك الساعة إلى زيارة صديقة تقيم فى أحد أطراف العاصمة ، فى بيت جميل ، يقوم وسط مزارعها الواسعة ، كما تقوم الجزيرة المنعزلة فى وسط المحيط . فهل يسرك ذلك ؟ !

ـ يسرنى كل السرور : . ثقى ياعزيزتى « بوليت » أن الاطمئنان والسعادة يملآن قلبى ، ما دمت إلى جوارى . .

وجاوزت بنا السيارة ضوضاء المدينة ، وصرنا بين الحقول ، وهبت علينا أنسامها المنعشة ، فتخدرت أعصابنا ، وتحرك العشق فى أعماقنا ، فوقفت « بوليت » السيارة ، وقالت : تعال نستمتع بالهواء النقى ، والطبيعة الساحرة . .

مرحنا بين المروج ، ونحن شوق ورغبة ، وخوف ورهبة . . وكلانا يود لو هيأ له رفيقه فرصة التعبير عما يحسه ويعانيه . . وشاقنا منظر الأشجار والأزهار ، والخمائل النضيرة ، فأخذت « بوليت » تركض بين الخمائل حتى استظلت خميلة مزدهرة . .

ماذا نفعل والطبيعة ترقص حولنا ، وعطر الزهر يخدر حواسنا ، و « كيوبيد » أطلق سهامه ، فأصاب وأدمى ؟ !

لم نستطع إلا أن ننعم بالقبلات الملتهبة ، والأحضان الوثيقة . .

ثم تهادت بنا السيارة بين المزارع ، فى طريق معبد قد نسقت على جانبيه أشجار الفاكهة والأزهار ، حتى وصلنا إلى « ڤيلا » جميلة ، تحيط بها الحقول الواسعة والمروج الشاسعة ، فبدت كجزيرة منعزلة ، كما قالت « بوليت » . .

استقبلتنا « مدام دى مرسهان » استقبالاً طيباً ، وبدا أنها كانت تنتظرنا وتتوقع مجيئنا . .

و « مدام دى مرسهان » سيدة صغيرة ، جميلة لطيفة . . أنثى كاملة . . وقد رحبت بنا ترحيباً حاراً . . ثم همست فى أذن « بوليت » همساً مسموعاً : كل شىء على ما يرام ، ياعزيزتى « بوليت » !

وتقدمتنا السيدة الصغيرة ، الجميلة اللطيفة ، وهى تخطو متمهلة مترفقة متكسرة الدلال ، فدخلت بنا حجرة نوم واسعة ، فى أحد أركانها مجلس أعد إعداداً فنياً ، يشيع فيه الذوق المترف ، ويتوسطه نضد فوقه صنوف من الفاكهة والريحان ، وزجاجة « شمبانيا » وكأسان . .

وقفت « بوليت » تتحدث فى صوت خفيض إلى السيدة الصغيرة ، الجميلة اللطيفة ، وجعلت أنا أتأمل ما حولى ، مأخوذاً بالأثاث الفاخر ، والصور الجميلة ، والتحف الثمينة ، والذوق الرفيع ، حتى سمعت « بوليت » تقول : لا بد أن تكونى معنا ساعة الغداء يا « أنطوانيت » . . فاتجهت نحوهما ، ووقعت عينى فى عين السيدة الصغيرة ، الجميلة اللطيفة ، فملأت البسمة وجهها . .

ثم خرجت ربة البيت ، وأغلقت الباب علينا ، وهى تتمنى لنا وقتاً سعيداً هنيئاً ، فقالت « بوليت » فى همس : ما تقول فى هذه المفاجأة ، أيها العزيز ؟ !

— مفاجأة ؟ ! . . ما أشهاها ! . . كم تمنيت هذه الساعة

يا « بوليت » : : منذ التقيت بك فى « سركل السفراء » نادتنى عيناك ، ولبى قلبى النداء !

ونعمنا معاً بالأحضان والقبلات والنشوة الكبرى . . . .

ومع اشتهائى « بوليت » ، ورغبتى الشديدة فيها ، كنت أراها دون الحبيبة « مادلين » ؛ فقد كانت « مادلين » تفوق « بوليت » فى صباحة الوجه وأناقة الملبس ، وائتلاق الزينة ورخامة الصوت ، وخفة الدم ، والحديث المهذب ، المنعش المشبع ! كانت ملكة جمال وكمال ، وملكة رقة وأناقة ، وملكة أنوثة ناعمة ومجتمع راق رفيع . .

وغادرت « بوليت » الحجرة ، وطال غيابها ، فقلقت نفسى ، وداخلنى خوف ورهبة . : ثم عادت عروساً مجلوّة . . وبعد قليل أقبلت السيدة الصغيرة ، الجميلة اللطيفة ، تدعونا إلى الغداء ، وهى تتهادى فى تكسرها ودلالها . .

و « مارى أنطوانيت » أصغر سنًّا من « مادلين » ومن « بوليت » . . كانت شابة فارعة ، واسعة العينين ، سوداء الحاجبين ، وضاحة الجبين ، وجهها يشع سعادة ومرحًا ، وجسمها — فى كمال فتنته — دمية مثال بارع ! . وتحدثت فخلبت لبى ، وجذبتنى إليها جذبًا قويًّا ، وبدا القلق واللّهفة على وجهى ، فنظرت إلىّ فى إشفاق نطقت به عيناها الزرقاوان . كانت تتكلم فى لغة عالية ، وصوت مطمئنّ يتناهى رقة وعذوبة كأنها بلبل يشدو . :

ومضت فترة من أحلى ساعات العمر !

ثم ودعنا « مارى أنطوانيت » ، وقد تبلج لى نور جديد ! !

وعادت بى « بوليت » إلى الفندق ، على أن نلتقى فى أول الليل . :

وفى ملهى « الكوليزيه » سهرنا إلى الهزيع الأخير من الليل ، نأكل ونشرب ونلهو ونرقص ، حتى خارت قوانا ، وبحت حناجرنا ، وفترت جفوننا . .

وأوصلونى إلى الفندق سكران ، لا أكاد أعى . .

وضغطت « بوليت » على يدى ، وهى تودعنى وتقول : لقد أفرطت فى الشراب والرقص حتى تعبت . . فلتنم إلى الظهر ، كى تستعيد نشاطك . . لكنى لم أنم ، وإنما ارتميت على الفراش متعباً مكدوداً ، أحس ألماً شديداً فى أحشائى ، حرمنى الراحة والنوم ، فلم يغتمض لى جفن حتى هبت نسمات الصباح .

وزادت آلامى شدة وحدة ، ولم يخفف منها ماتناولت من مسكنات ؛ ورأيتنى غير قادر على النهوض من الفراش ، وشعرت بالحمى تلهب رأسى ، وتتمشى فى مفاصلى ، وأحسست جسمى كله يرتعد ، وأسنانى تقضقض ، كأنى نائم بلا غطاء على فراش من جليد . . واشتدت سخونتى حتى خيل إلىّ أن رأسى سينفجر ، وثقلت أجفانى حتى ما أكاد أستطيع أن أفتح عينى ، فطلبت أن يدعوا لى طبيباً ، وأن ينبئوا « مدام جوبير » بمرضى ، ويطلبوا منها الحضور ، لتتولى أمرى . .

أقبل الطبيب فى دقائق ، وأقبلت « بوليت » وفى رفقتها طبيب ثان . . وقرّ رأى الطبيبين على ضرورة نقلى إلى المستشفى ، للكشف بالأشعة وإجراء التحاليل . .

وتقلبت على ذاكرتى خيالات عن المستشفى ، وأوهام ، ما رأيت شيئاً منها ثبت أمام الشهادة إلا كما تثبت الأحلام على نور النهار !

كنت أظن أنى سأرى مستشفى كأحسن مستشفيات القاهرة ، وأنى سأموت فيه . . فإذا ما لاقيت معجب أنيق ، فاق ما رسمت له فى خلدى ، وما ارتضاه تأميلى . . وأين صورة خطتها ريشتك فى خطوط تتعرج فى فؤادك وتستقيم ، من صورة ليس بها وشيجة من حس ، وصلة من عطف ، وإن عقمت عن أمثالها الألوان !

. . طود راسخ . . ولكن أين من جلال الأطواد كآبة الكهوف ووحشة

المغاور؟ ! : .

يبعد الجبل بُعد الغايات والأهواء ، ويتسع كما تتسع العظمة ، والحرية ، والمجد ، والحب ؛ ويُخاف كما يخاف المجهول في الحياة ، على حب وإغراء . . أما المستشفى — على قربه — فيبعد كما تبعد الأحزان والآلام ، ويتسع كما يتسع الليل يجثم على كل معالم الأرض ، فيكتم أنفاسها جميعاً ، ويُخاف كما يُخاف المجهول على كره وإشفاق ، لأنها جهالة الموت وانقطاع أسباب الحياة !

أجنحة تطول وتقصر ، وتتساوى وتتفاضل ؛ تضيق حجراتها لغرض ، وتتسع لغرض ، ولكل وجهة . . ولكن أين من أجنحة الطائر تهم به إلى حب في درب ، أو إلف في شعب ، أوفرخ في وكر — أجنحة الصخر الصلد ، جثمت كالمقابر ؟! . : ولم لا ، وهي لها المهاد ، ومنها الجلاد ؟ . !

وما ظنك بصروح أقيمت ليسرح عنها الناس ، لا ليقيم فيها الناس ؟! فكل نزل لقرار إلا أنت أيتها المشافي ، فالقرار عنك لا فيك ، والسكون دونك لا منك !

تتطلع إليك من بين المماشي والردهات والدهاليز وأسرّة المرضى وضماداتهم وآهاتهم — عيون المرض ، فتغض طرفك أن يقع عليها رهبًا لا حياء ، ولكنها تظل تلاحقك ، تريد أن تتخطفك كجنيات البحار تقوم على جميع الموارد في ضباب الفجر !

* * *

قضيت في المستشفى أسبوعين : . وكم وددت لو طالت إقامتي ، كيلا أحرم حنان « ملائكة الرحمة » اللائي كن معي كرامًا بررة ، لا يبخلن بالنظرة الحلوة ، والبسمة الماتعة ، والغمزة العابرة ، والقبلة المختلسة : :

نعم ؛ لقد أحببت المرض ، وتمنيت لو طالت أيامي في المستشفى

لئلا أحرم قرب « بوليت » و « مارى أنطوانيت » ، وحنانهما ولهفتهما ، وكيلا أحرم زيارة الجميلات اللائى أحطننى برعايتهن ، وبذلن لى من ودّهن وبرّهن ما حبب إلىّ السقم ،ورغبنى فى سجن المستشفى ، بين الورود والأزهار ، والملائكة الأبرار !

وقبيل مغادرتى المستشفى ، فاجأتنى « مارى أنطوانيت » بزيارة مبكرة ، وقضت معى ساعة ما كان أطيبها ! دار فيها الحديث شهيًّا عذبًا ، يتشح بالوداد ، ويرشح بالحنان . .

ولمحت « أنطوانيت » على المنضدة « كشف حساب » المستشفى ، فتناولته وتطلعت فيه ، ثم نهضت ، فغابت برهة ، وعادت تقول : فكرت أنك قد تكون غير مستعد الآن ، فدفعت — نيابة عنك — نفقات العلاج . . ما لك ؟ ! . . لماذا تنفعل هكذا ؟ ! سآخذ ما دفعت بعد أن تعود إلى فندقك !

— هذا لا يكون ، يا سيدتى العزيزة . . حسبى ما غمرتنى به من رقة وحنان ، وطيب ملاينة . . إن معى لألوفاً من الفرنكات ، ورصيدى فى المصرف وفير . . فشكراً لك يا سيدتى . . إليك ما دفعت . . أرجوك . . ألف شكر !

— لن آخذ شيئاً حتى تزورنى فى بيتى . . ليتك تقضى فى ضيافتى أيام النقاهة ، فتتمتع بالهواء النقى ، والطبيعة الساحرة ، بعيداً عن ضوضاء باريس ، وما يخنق جوها من غاز وبخار . . إن بعض الأسر الصديقة تقضى عندى عطلة نهاية الأسبوع .. فهل تأتى ؟

— سيدتى !

— ألا تود أن ترانى ؟ !

— سيدتى !

وانحنيت أقبل يد للسيدة الصغيرة ، الجميلة اللطيفة ، وأمر بيدى على

ساعدها ، وهى راضية مبتهجة ؛ وقلت : سيدتى ؛ إنى لأتمنى رؤيتك، وأشتهيها كل لحظة . . كم أفكر فيك يا «أنطوانيت»! . . كم أشتهى أن نكون أصدقاء !

ــ ياصديقى العزيز ، إننا أصدقاء : . فلا تظن رعاية الغريب الوحيد فضيلة مقصورة على الشرقيين وحدهم !

ــ من قال هذا يا سيدتى ؟! : . إنى لأحس بينكم أننى أحسن حالاً مما كنت بين أهلى ومواطنى . . وإنى ــ ويعلم الله ــ لعاجز عن التعبير عما يزحم صدرى من عواطف الود والحمد والتقدير ، والاعتراف بالجميل :

ــ إذاً : : لا تستثقل زيارتى ، وقضاء أيام فى مزرعتى . : إن زوجى شاب لطيف ممراح ، ولست أشك فى أنه يفرح لرؤيتك ، ويستريح إلى مودتك . . إليك رقم تليفونى . : سأتركك ، وأنا أنتظر أن ترد على زياراتى . . إلى اللقاء أيها الصديق العزيز.

ــ إلى اللقاء ، ياسيدتى العزيزة . : مع أطيب تمنياتى ، وأحر عواطفى .

وهطلت على يدها دمعة كانت معلقة بين أهدابى .

٣٩

وعند «أنطوانيت» لقيت ما أشتهى من لذات الحس والعقل والروح جميعًا !

ولئن كنت قد فتنت بسحر «أنطوانيت» ، وانصرفتُ إليها ، إنى ــ فى الوقت نفسه ــ لم أنصرف عن «بوليت» ، ولا انقطعت عن زيارتها ، ولا تخلفت يومًا عن دعوتها ؛ فقد كان من الفطنة أن

أحتفظ بصداقتها ، وأن أستكثر من مثيلاتها ذوات الجاه والخطر ، وأن أحرص على استدامة الود بيني وبينهن ، فهن السند القوى لمن كان مثلى غريبًا وحيداً : .

ثم عرضت علىّ « مارى أنطوانيت » أن تختار لنا « عش غرام » ، نتعاطى فيه كئوس الهوى مترعة ، بعيداً عن أعين الخدم وألسنتهم الطوال : .

واستأجرنا حجرة أنيقة فى « رامبوبليه » ، تولت الحبيبة دفع أجرها سلفًا عن أشهر ستة : .

ويومًا قضينا فى « عش الغرام » ساعات هانئة أنستنا كل شىء ، وجعلت « مارى أنطوانيت » — وهى تعود بى إلى الفندق — تقود السيارة فى طريق غير الطريق الذى تعودت السير فيه ؛ إذ وجدنا أنفسنا فجأة فى ميدان واسع ، به أنقاض بالية ، قد قام بينها عمود من « البرنز » ، يتوجه تمثال الحرية ، ممسكًا فى إحدى يديه بشعلة النجاح ، وفى اليد الأخرى يمسك بسلاسل الاستعباد محطمة . .

انفجرت « أنطوانيت » ضاحكة تقهقه وقالت : أتدرى أى ميدان هذا ؟ أتعرف كم بينه وبين فندق « كلاريدج » ؟ !

— من يدرينى ، وأنا الغريب ، الحديث العهد بالحياة هنا ؟!

— ماذا جرى ؟ ! كيف تهت وضللت الطريق ؟! : : يا لى من بلهاء ، أوعاشقة ! : . هذا يا حبيبى ميدان« الباستيل » ! : : أنت تعرف « الباستيل » » ولا شك :

— كل من درس تاريخ الثورة الفرنسية يعرف « الباستيل » . . يعرفه سجناً فظيعاً ، ذاق فيه العلماء أشد العذاب ، وقاسى وراء أسواره رجال الفضل ألوان الأهوال ، وهُدم حين قامت الثورة الفرنسية . .

— صواب كل ما قلتَ ، يا صديقى الحبيب : :

ــ أتعرفين ؟ ! . . إن من حسن الحظ أنك تهت ، وجئت بى إلى هنا . . فنى بنا لحظة . . لقد كنت أحب أن أزور آثار هذا السجن الرهيب . .

وقفت « أنطوانيت » السيارة، وسرنا نحو تمثال الحرية فقالت : كان هنا أفظع سجون العالم !

ــ ألا حدثتنى ، أيتها الحبيبة ، عن تاريخه ، وسبب شهرته الخالدة ؟

ــ كلمة « باستيل » كانت فى أوربا ، زمن العصور الوسطى ، اسماً لمبان ضخمة ، أعدت لسجن « المجرمين » السياسيين . . وكانت فرنسا ــ كسائر دول أوربا أيامئذ ــ تضم عدداً من هذه « البساتيل » : موزعة على مدن كثيرة . .

ــ لكن المرء لا يكاد يذكر « الباستيل » حتى ينصرف الذهن إلى « باستيل باريس » . .

ــ نعم ؛ فهذه الكلمة أصبحت علماً عليه ، نظراً للأحداث الهائلة الفظيعة التى جرت بسببه . .

ــ ومن ذا الذى بنى هذا السجن ؟ !

ــ إنه لم يبن سجنا ، وإنما بنى حصناً . . ويرق إنشاء هذا الحصن إلى القرن الرابع عشر . . فى عهد ملك فرنسا « شارل الخامس » ؛ فقد كان هذا الملك يرى نفسه مهدداً بثورة الشعب ، وظن أن قصر « سان بول » لا يكفى لحمايته ، فأمر ببناء « الباستيل » . . ولما تولى الملك « شارل السادس » فى أواخر القرن الرابع عشر ، زاد فى أبراج الحصن حتى صارت ثمانية ، يتصل بعضها ببعض بأبنية بلغت الغاية فى الضخامة والصلابة ، إذ كان سمك الحائط يبلغ ثلاثة أمتار . . ثم أحاط الحصن بخندق جاوز اتساعه ٢٥ متراً ، وعمقه ٥ أمتار . . وبذلك أضحى

« باستيل باريس » أمنع حصون العالم أيامئذ . .

— وأضحى أيضاً علماً على الحكم المطلق ، ورمزاً للاستبداد الشنيع ؛ فكم فيلسوف عظيم هلك فى بؤره الرطبة ! وكم مصلح كبير تلاشى وراء جدرانه ! وكم سياسى خطير قتل فى كهوفه وسراديبه !

— هو ذاك ، أيها العزيز . . ومن هنا تركزت فى نفوس أجدادنا كراهة « الباستيل » ، وعدُّوه مستقر العسف والظلم ، ومهبط القسوة والغشم ، فما كادوا يثورون على حكومتهم ، سنة ١٧٨٩ ، حتى كان « الباستيل » أول أهدافهم ، فهدموه هدماً ، واقتلعوا أصوله اقتلاعاً .

— قرأت مرة أن جداتكن حلَّين صدورهن بحصاه ، بدل لآلئ العقود . .

— نعم ؛ فقد كان هدم « الباستيل » بدء عهد : الحرية ، والإخاء ، والمساواة . .

ذكرت حينئذ الحبيبات « جوزفين » ، و« مادلين » ، و « بوليت » وعجبت ! . . أكل نساء فرنسا على هذا المستوى العالى من الثقافة التى تلم بكل شىء ، وتفلسف أحداث الحياة ؟ !

وذكرت « أليس » . . لقد زرت برفقتها دورَ الآثار المصرية والقبطية والعربية ، ومعالم القاهرة ، وآثار الأقصر ، فلم أستطع أنا ، ولا أحد من المرشدين السياحيين المتخصصين ، أن نتحدث عن معالم بلادنا وآثارها ، كما كانت تتحدث إلىّ « جوزفين » و« مادلين » و« مارى أنطوانيت » ، وغيرهن ممن عرفت من نساء فرنسا ، يمثلن مختلف البيئات والثقافات والطبقات . .

حقاً ، إن فرنسا أم الثقافة الرءوم !

* * *

كانت كل ساعة تمر بى ترفع من قدر « مارى أنطوانيت » فى نفسى ،

وتشدني إليها شداً قوياً . . وزاد معروفها عندي عظماً أن أعمالها كلها كانت تفور من نبع خفي مصدره حب حقيقي . .

واعتزمت أن أتوب ، وأن أقنع من باريس بصداقة هذه العاشقة المعشوقة التي احتلت قلبي ، واستبدت به . . لكن أية توبة هذه ؟ إنها لتوبة زائفة تسخر منها الملائكة ، وتطرب لها الشياطين ، وتضج في الضحك ! فإن القدر الجبار قد استكثر علي أن أتمتع طويلا بهذه الجنة الراضية ، فحرمنيها . .

ثلاثة أشهر عشتها في هذه الجنة ، ثم أهبطت منها إلى أرض الحقيقة ، ودنيا البحث عن حب جديد ، يروي ظمأ القلب ؛ فقد فارقتني «ماري أنطوانيت» وسافرت في رفقة زوجها إلى إيطاليا ، ومنها إلى غيرها من بلاد الله ، ولن تعود قبل شهرين ونصف شهر . .

بروحي تلك الشمائل الحسان ، والفواتن اللدان ، والشباب الريان !

٤٠

جئت إلى باريس وأنا أشد ما أكون حماسة للإقبال على الحياة ، والرغبة فيها : . وقد أعجبت غاية الإعجاب بهذه العاصمة العظيمة ، بشوارعها وميادينها ، بمتاحفها وحدائقها ، بقصورها وصروحها ، بنسائها الجميلات ، وغوانيها الفاتنات . . وأعجبت بما يغمرها من حيوية ونشاط ، وبما تمثله من مدنية وحضارة ، وبما يملؤها من ألحان رائعة ، تخف عليها أجساد الصبايا ، وترقص قلوبهن في كل مكان ! . . لكني — وسط هذه الجنة التي يشتهيها الكثيرون — كنت أعيش في جحيم داخلي ، يأكل نفسي أكلاً ، ويقف بي دائماً على التخوم ، بحيث لا أرى أين تقوم الحدود بين الحقائق والظلال !

ولقد حاولت غير مرة أن أقهر نفسي ، وأخضع قلبي للأمر الواقع ، فأخفقت . .

وما إن فارقتني « ماري أنطوانيت » وسافرت ، حتى أحسست الفراغ يحيط بي ، ويغمرني ؛ وكلما مر يوم تضاعف إحساسي به . . صار قلبي خاوياً في حاجة إلى من يملؤه ويوقد فيه الحرارة ، فانطلقت انطلاق الطبيعة الحرة التي ترسل الريح أنّى تشاء ، وتفجر الينابيع من صم الصخر حين تروم ، ومن رخي التراب ساعة تريد ، وتجريها هادئة في السهل ، أو تقذف بها من أعالي الجبال ! . . انطلقت انطلاق الطبيعة الحرة التي لا تفرق بين فوضى وانسجام ، ولا تتقيد بجهل أو علم ، ولا تبالي أسخط الناس عليها أم رضوا ! ! . . فالجبال بجانب الأودية ؛ والأشجار تجاور الصخور ، والزنابق تنبت بين الأشواك ، وحشرة صغيرة تطل من جحرها على ثور ضخم !

كذلك كنت ، وكذلك عشت ، وكذلك أكببت على اللهو ، وانغمست في اللذات ، أنهب المتعة نهباً ، كأنما أسابق إليها الحياة . . ومن سابق الدهر عثر !

لم أعد أرى الحياة ، كل الحياة ، إلا الاستمتاع باللذات الثلاث مجتمعة : المرأة ، والخمر ، والموسيقى . . وقد تيسر لي ذلك كل اليسر في باريس ، فأتيت المعيشة من بابها !

كم من نساء عرفت ! وكم من أحضان دافئة تقلبت فيها . . زوجات عاشقات ، وعذارى غافلات ، وغانيات عازفات ، وفاتنات مغردات ، وساقيات مرويات ، وراقصات مائسات ، تضوى بهن حانات باريس وملاهيها ، من كل جنس ، وكل طبقة ، وكل لون ، وكل لسان ! . . كم أبكتني خفقات قلبي ! وكم أطلقت الضحكات من أعماق روحي ! والقدر يقف لي بالمرصاد ؛ فكلما أخذت أنثى تلتصق بنفسي ،

ويغزو حبها خلايا قلبي ، فرّق بيني وبينها . : فرق بيني وبين « نعيمة » و« مرجريت » في مصر ؛ وفرق بيني وبين « جوزفين » المرسيلية ، و « مادلين » الليونية ، و« ماري أنطوانيت » الباريسية . . وفرق بيني وبين كل من احتلت ركناً في قلبي ، أو سكنت زاوية من زواياه !

وسئمت . . ويئست . . وبدت مباهج الحياة حولي ناصلة كابية ، فاستيقظت في قلبي ذكرى الحسناء « أليس » وألحت نفسي في الحنين إليها . .

ذهبت إلى ضاحية « فونتنبلو » ، وتوجهت إلى قصر « دي لومليه » ، فإذا أنا أصدم بأن « أليس » تقضي إجازتها في « دوفيل » ، وأنها لن تعود إلا بعد أسابيع ثلاثة . .

ياللقدر العنيد ! . . كيف يمكن أن أحيا ثلاثة أسابيع تلك الحياة التافهة التي لا غاية لها ، ولا هدف وراءها . . فعدت أتخبط في طريقي . . أصطاد من تثير مشاعري ، وتهز قلبي ، وإن عجزت عن أن تملأ فراغه !

ويوماً اصطدت الإسبانية الحسناء « ماجي » ، وقضيت معها النهار كله في « عش الغرام » الذي كانت « ماري أنطوانيت » قد استأجرته لحبنا في « رامبوييليه » . .

كانت « ماجي » دمية جميلة ، ووجبة دسمة ، فقررت أن أقضي جزءاً من السهرة في خمارة الفندق ، ثم آوي إلى فراشي ومنتصف الليل ، لأجدد نشاطي ، وأستعيد قواي : .

وأمام « البار » رأيت « فيكتوريا » تجلس ، وهي لا تنفك تجرع الكأس تلو الكأس . .

إنها امرأة نَصَف ، جاوزت المعقد الثالث ، أو كادت : : تعبّ الخمر في نهم ، وكأنها لا تطيق أن ترى كأسها فارغة ، ولا تطيق أن

تراها ملأى ! . . وكنت جالساً عن يمينها ، أعجب لنهمها فى الشراب ، وأستمع إلى نقاشها مع الساقى . .وسمعتها تتحدث عن مصر ، فاهتبلتها فرصة ، وسألتها : هل زارت سيدتى مصر ؟

ـ زرت مصر ؟ ! . . لقد عشت فيها خمس سنوات كاملة . . أنت مصرى ، لا شك !

ـ نعم ؛ إنى مصرى . .

ـ ما أجمل مصر ! ما أطيب أهلها ! ما أشهى الحياة فيها ! . . لقد كان زوجى من كبار رجال « السفارة البريطانية » هناك . .

وقرّب ما بيننا الحديث عن مصر ؛ ودعتنى إلى تناول الشاى معها فى أصيل الغد ، لأنها تحب مصر ، وتحب أن تسمع أخبارها ، وتلم بتطورات الحياة فيها . .

وفى أثناء تناول الشاى قالت « فيكتوريا » إنها ستسافر بعد ثلاثة أيام إلى « دوڤيل » لتقضى هناك أسبوعاً . : ودون أن أعى قلت : أسافر معك . . فإنى أريد أن أرى « دوڤيل » ، لكنى استثقلت السفر وحيداً . .

ـ يسرنى كثيراً أن ترافقنى فى هذا السفر . .

* * *

« دوڤيل » : . إنها مسرح الحب والغرام : بين الخمائل العطرة ، والأشجار الباسقة ، والجداول الرقراقة ، والبيوت الصغيرة التى تحيط بها الأزهار والثمار ، فتبدو أجمل من القصور !

كل ما حولى ساحر فتان : . والناس هنا من كل جنس ولون وسن ، والصبايا يختلن بأجسامهن البلورية ، لا يسترن منها إلا كنوزهن ، بما يشبه ورقة التوت التى استترت بها أمنا « حواء » !

وجوه وأجسام تعبت الطبيعة المبدعة فى تكوينها ، فأتقنت فيها كل

شيء ، وأدقّته وأجلته ، فكانت نشوة الحس ، وعربدة الخيال !

هذه شقراء ذات قد ممشوق ، وعينين زرقاوين ، وشفتين أرجوانيتين ، تلبس « بنطلوناً » أحمر قصيراً . . وهذه سمراء ذات ساق رقيقة ، « بنطلونها » أزرق يظهر كل الخفايا . . وهذه ربة الجمال ، بعنقها المتطاول ، ونظراتها الساكنة . . وهذه دمية متقنة الصنع ، تمشي خفيفة في خطوات متسقة ، وقد تركت مفاتنها نهباً للعيون !

هذه تخالط فتى جميلا ، وتلك تكاد تخلط أنفاسها بأنفاس رفيقها ، وهاتيك تميل على صدر صديقها ، تستمع إلى مناجاته !

هنا — في « دوفيل » — يسترسل العشاق إلى الحب ، تحت زرقة السماء ، وبين خرير الماء ، وعطر الأزهار ، وفي ظل الأشجار ، وعلى مرأى الغيوم والعصافير : والنسيم العليل يداعب شعورهم ، ويضاعف نشوتهم وبهجتهم : :

جعلت أطوف أتصفح الوجوه باحثاً عن « أليس » ، وإلى جواري « فيكتوريا » ، تحصى على حركاتي ونظراتي ، وتحيطني بسياج سميك من رقابتها ، وتثور نفسها غيرة وحقداً ، كلما حملقت في أنثى ، أو أظهرت بها إعجاباً ، وتقول : هل تجد عندها شيئاً غير الذي عندي ؟ !

يا للغبية ! : . ما أجهلها بالحب ! . . إنها تظن الحب متعة جسد وكفى ، وتحسب أجساد النساء متشابهة ، وتخال جسداً واحداً يغني عنها كلها ! فأين — إذاً — متعة النفس ، ومتعة القلب ؟ !

و« فيكتوريا » — فوق نهمها الجنسي — تقيّد حريتي ، وأنا لا أطيق أن تقيد حريتي امرأة ، مهما تجمع من صفات الجمال والكمال : . فما كان أسرع ما اختلفنا ! . . وتركتها في « دوفيل » تبكي وتعول ، وعدت وحدى إلى باريس . .

ومرت الأيام ، و« عش الغرام » في « رامبوبليه » يستقبل كل يوم

امرأة غير التي استقبلها فى الأمس . .

وقد أدهشنى أن ليس الباريسيات جميعهن بيضاً ، فقد اصطدت مراراً . مراً يكسوهن اللون القمحى فى خفة ورشاقة . .

٤١

فى صباح صافٍ ضاحك اتخذت لى مجلساً فى حديقة « البلفدير » ، وقد مدت باريس ذراعيها لاحتضان النور ، وفتحت قلبها لارتشاف الشعاع البهى ؛ وغرق حسى فى ماضىَّ القريب ، وزاغ بصرى فى الأفق البعيد ؛ وذكرت « أليس » ، وتمشى فى كيانى شوق جديد إليها . :

إن الرسائل بينى وبينها لم تنقطع طوال السنوات الأربع التى قضيتها فى وطنى بعد سفرها ، فكنت أناجيها بما يضطرم فى جوانحى ، وتطالعنى به أيامى ، وأحدثها عن كل جديد يلقانى ، وأشكو إليها فراغ القلب القاتل ، والوحشة المرة التى كنت أتوه فيها . . وكانت هى تناجينى بالود والحب ، وتحدثنى عن محيطها ، ولا تنفك تغرينى بالسفر إليها ، وتحثنى على اللحاق بها . .

وقد كتبت فى آخر رسالة تسلمتها قبل سفرى تقول : « إنى ما زلت أنتظرك ، يا " عبد الرحمن " وما زلت آمل أن ألقاك فى باريس . . ولو لم ينقل شقيقى " جاك " من مصر لجئت إليك . : »

وخالجنى شعور بأن قلبى لا يزال يعلقها كأول عهدى بحبها . . وزهّدنى طيفها فى النساء ، فعشت أياماً بلا حب ، أليف الهم والأسى ، تصطرع فى فؤادى عوامل الأشجان ، وقد عز علىّ أن أزور فرنسا ولا أراها ، فكتبت إليها أنبئها أنى فى باريس ، وأنى قد سعيت إلى

قصر « دى لومليه » فعلمت أنها فى « دوڤيل » . . وقلت فى رسالتى : « . . وسافرت وراءك إلى " دوڤيل " كما سافرت وراءك ، منذ أربع سنوات ، من القاهرة إلى الأقصر ، لكن الحظ لم يسعدنى برؤيتك . . فإن تسلمت رسالتى هذه فى خلال عشرة أيام ، فإنى لأرجو من أعماق قلبى أن أراك ، قبل أن أغادر باريس . . وإلا فالوداع يا " أليس " . . يا حلم صباى ، وخيال شبابى ، وأمل غدى ! ! »

ومرت أربعة أيام كئيبة ، كأنها أربع سنوات . . وفى ضحى اليوم الخامس صحوت على رنين « التليفون » ، فعلمت أنها هى . . فقد سبق أن نبهت ألا يدقوا « التليفون » ، وألا يقلقوا راحتى إلا إذا كانت المتحدثة هى « الآنسة دى لومليه » . .

ما إن سمعت صوتها العذب الحنون حتى شفيت من أدوائى ، واستراحت روحى ، وهدأت ثائرة نفسى ، واطمأن قلبى ، وانشرح صدرى ، وعادت باريس فى عينى مرابع سحر وفتنة !

وسألت نفسى : ماذا يدفعنى نحو هذه الفاتنة ؟ ! . . منذ أربع سنوات اضطربت لرؤيتها ، والآن أضطرب لسماع صوتها . . أضطرب اضطراب البهجة والانشراح ، واضطراب القلق والخوف معاً . ما الذى يتجاوب بين نفسينا ، ويجذب روحينا ؟ !

إنى لأحس أنها تكشف لى فى كمال صاف عن احتمال سعادة وافية صافية !

* * *

بدت « أليس » فى جاذبية فاتنة تفوق مائة مرة ما أذكره عنها . .

رأيتها وقد تم نضجها ، واكتملت أنوثتها ، ولمع فى عينيها بريق الوفاء والإخلاص ، ونطقت قسماتها وملامحها بحرصها على العهد ، وتمسكها بالمودة والألفة التى سبق أن جمعت بيننا ، منذ أربع سنوات

فى القاهرة وفى الأقصر .

لقد تخرجت — منذ عامين — فى كلية الطب ، وعملت طبيبة للأطفال فى أحد مستشفيات باريس ، وأخذت مكانها اللائق بها وبأسرتها ذات المجد التليد والطريف ، وصارت زهرة من زهرات المجتمع الراقى ، وريحانة من أبهى رياحينه . .

ودعتنى « أليس » إلى أن أترك الفندق ، وأنزل ضيفاً عليها ، وعلى أبويها ، قائلة : القصر كبير ، وحجراته كثيرة لا نكاد نجد من يعمرها ، وينشر فيها الحياة .

أبيت وشكرت واعتذرت . . لكن « أليس » ألحت وألحفت وأصرت ، واضطرتنى إلى أن أنزل عند رغبتها ، وأحل فى قصر « دى لومليه » ضيفاً عزيزاً كريماً . .

راعنى ما رأيت فى القصر من مظاهر الترف والثراء ، وألوان الرفه والنعيم ؛ وسرنى ذلك الاستقبال الطيب الذى استقبلنى به السيد « بيير دى لومليه » والسيدة الفاضلة قرينته ، وما لقيت منهما من ضروب الرعاية والبر التى ذكرتنى بمظاهر الكرم العربى ، وقواعد الضيافة الشرقية . .

وأحاطتنى « أليس » بحبها الدافق ، وحنانها الفائق ، وغمرتنى بنداوة نفسها ، وعطفها على رغائبى ؛ وقدمت إلىّ رسائلها التى أعيدت إليها ، وهى لا تنفك تكرر عتبها ولومها ، لأنى جئت إلى فرنسا منذ أشهر ، ولم أخبرها ، أو أتصل بها . وإذا كانت قد رفضت كلّ ما قدمت من أعذار ، فإنها قد غفرت لى ذنبى ، وجعلت تقضى معى شطراً من النهار وهوياً من الليل . .

و « أليس » فتاة غير عادية المظهر والنضج والتفكير . . وهى — فوق هذا وذاك — جمة الحياء ، شديدة التوقى ؛ فى حديثها عذوبة وطلاوة ، وفى شخصيتها جاذبية وقوة . . وقد اعترف لها الجميع بالتفوق والامتياز ،

وسماحة الطبع ، وندرة العفاف ، . . : نعم ؛ فإنها — مع النشأة المنعمة التى نشئت عليها ، وعلى ما كانت تتمتع به من حرية كاملة فى كل ما تأتى وما تذر — قد نجت من شرور الحرية والانحلال التى وقعت فيها الفتيات فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وهذا — على ما رأيت وخبرت — أمر نادر فى فتيات باريس ، فأكثرهن فقدن زهراتهن ، وصرن ذوات عشاق ، وأقبلن — كما أقبل الشبان جميعاً — على اللهو المباح وغير المباح ، بعد أن رأوا الحضارة ومقوماتها يقضى عليها فى دقائق معدودات ، والموت يحصد الناس حصداً ، وما تعبت البشرية فى بنائه وتشييده ينهار فى ثوان قليلة بأسلحة الدمار والفناء !

وماذا نريد من الناس خارجين من أفظع مجزرة بشرية شهدها التاريخ ، بعد أن ظلت ست سنوات تباعاً تحصد الألوف والملايين ، وهم فى زهرة شبابهم ، وريعان فتوتهم ؟ !

ما قيمة الدين والعقل والحكمة ، والمثل العليا والقيم الأخلاقية فى نظر الإنسانية البائسة المعذبة ؟ ولماذا تقتصد ، وتنهل من الحياة على مهل ، ما دامت رأت ما تصير إليه ؟ . : وهل يحيا الفتيات والفتيان حتى يستمتعوا بشبابهم وفتوتهم وقوتهم ، أو يمسون كما أمسى الملايين : تدوسهم الدبابات ، وتنثر أشلاءهم القنابل ، وتهدم عليهم منازلهم ، وتخرب مصانعهم ومتاجرهم ؟ !

عفاءٌ على الروح والحكمة ، وعلى العقل والدين والأخلاق ! . . ومن هنا ترامى الناس على اللذات والشهوات والمسرات ينالون منها أكبر حظ فى أقصر وقت ، وتهافتوا عليها ؛ فقد لا يتيح لهم الغد فرصة الحلال الطيب ؛ فما الغد فى نظرهم إلا البؤس والمرض والفقر والعاهة والموت الزؤام !

* * *

فى الصباح كانت « أليس » تصحبنى فى سيارتها من « فونتنبلو »

إلى قلب باريس ، وتتركنى حراً أذهب حيث أشاء ، على أن نلتقى — بعد منصرفها من المستشفى — فى مكان نتفق عليه قبل أن نفترق . . فيوماً كنا نعود إلى « فونتنبلو » ، ويوماً كنا نلبى دعوة بعض أقاربها وأصدقائها ، ويوماً كان الحنين إلى المناجاة فى خلوة يستبد بنا ، ويلح علينا فنتغدى وحدنا ، حيث يطيب لنا ، ثم ننطلق نطوف فى الشوارع والأحياء المختلفة ، ونخرج من حفل إلى ندوة ، ومن ملهى إلى مسرح ، ومن زيارة إلى سينما أو مرقص ، ونحن نحلق فى سماوات الآمال المشرقة ، والأحلام الزاهية . .

لله تلك الأيام الغر ! ما كان أنضر نعيمهن ، وأبهى رواءهن ! كنت فيها سعيداً بحب « أليس » ، أحس حنانها ، وآنس بمانع طلعتها ، وعذب حديثها ، وأستنشق عرفها ، وأشعر بأنفاسها تتماوج فى وجهى وعنقى : . وكنت — وهى إلى جانبى — لا أحس مر الزمن ، ولا أدرك المرئيات إدراكاً حقيقياً ، فكل ما تقع عليه عيناى حسن بهيج ، وكل ما يحيط بى جميل محبوب ، فإن غابت عنى خلت حياتى من البهجة ، وبدا كل شىء مشوهاً بغيضاً !

وقد استطاعت « أليس » — بمفاتنها الجسدية والروحية والعقلية — أن تصرفنى عن العبث والمجون ، وأن تثبت قلبى الذى شاء له القدر ألا يثبت على هوى ! وصار حبى إياها هو الحياة نفسها ، تتدفق هادئة هانئة ، وأصبح لحياتى هدف وغاية ؛ فأقلعت عن صيد الحسان ، وقل ترددى على الحجرة التى استأجرتها فى « رامبويليه » الحبيبة الغائبة « مارى أنطوانيت » ؛ وإن كنت لم أستطع أن أنسى الحبيبة المرسيلية الفاتنة « جوزفين » ، أو أقطع عنها رسائلى ؛ وإن كنت أيضاً لم أستطع أن أتخلف عن دعوات الصديقات ذوات الجاه والخطر ، فكنت أزورهن فى صدر النهار ؛ وأرى فى استدامة الود بينى وبينهن سنداً

قويًّا فى غربتى . .

ولقد زرت فى رفقة « أليس » معالم باريس ، تلك التى سبق أن زرتها فى رفقة « مادلين » و« بوليت » و« مارى أنطوانيت » وغيرهن ، لكن متعتى بزيارة هذه المعالم فى رفقتها هى أربت أضعافًا مضاعفة على متعتى بزيارتها فى صحبة الأخريات . وأكاد أجزم أنى — بفضل « أليس » — قد رأيت من معالم باريس ، وخبرت من أنماط الحياة بين طبقاتها ما لم يخبره زائر من قبل !

ترى أتنفتح لى الحياة عن أيام كأولئك الأيام يزحزحننى عن مواكب اليأس والخذلان ، أم تلك أحلام لا تطولها الأوهام ؟ ! . . إنها أحلام الشباب ، وأنت يا قلب شيخ ، وأنت يا قلب محطم طعين !

* * *

قضيت فى قصر « دى لومليه » عشرة أيام ضيفًا على « أليس » ووالديها الفاضلين الكريمين . وبدا حبنا واضحًا لمن فى القصر ، وللأقارب والأصدقاء ، فى نظراتنا تلهف وحنين ، وفى حركاتنا حذر وتوجس ، وفى كلامنا تعثر وتعمية . .

ورأيت من الفطنة أن أعود إلى الفندق ، وحدثت « أليس » فى هذا ، فغضبت ورفضت ، وقالت : أنت هنا ضيفى ، والفندق باهظ النفقات ، وإنى أعد نفسى مسئولة عنك ، وعن مالك ، فى وطنى . .

— أقدر هذا قدره ، يا حبيبتى . . وأشكر لك هذه العواطف النبيلة ، وما حبوتنى من أنعم لا تحصى . . لكنى أرجو أن تسمحى لى أن أغادر هذه الجنة . . أرجوك . .

— هل ساءك شىء ؟ . . هل آذى شعورك أحد ؟ !

— يا حبيبتى ، يا مليكتى . . إنى أخرج من قصركم خروج أبينا الأول من الجنة !

ـ أبونا « آدم » عصى ربه ، فطرده من الجنة !

ـ اصنعى لى هذا الجميل، واسمحى لى أن أطرد نفسى من الجنة!

ـ إذا كنت مصراً على ترك القصر ، فعليك أن توافقنى على أن أختار لك شقة صغيرة مفروشة ، أو حجرة بين أسرة طيبة ، فى باريس أو فى فونتنبلو . . كما تشاء . .

ـ أفضل حجرة وسط أسرة طيبة، فقد لا أقيم طويلاً ، ولست أحب أن أشغل نفسى بأمر شقة ما ، مهما تكن صغيرة . .

ـ وأين تحب أن تقيم يا صديقى العزيز ؟

ـ أفضل الإقامة فى قلب باريس . .

ـ ليكن ما تريد ، ياحبيبى . . سأهيئ لك حجرة لا تكلفك الكثير ، فتتيح لك أن تبقى بيننا فترة أطول . .

ـ شكراً يا حبيبتى الغالية . . آه ، لو تعلمين ! . . لقد مرت بى أيام ، قبل أن ألقاك ، كانت الحياة فى نظرى كالعدم . . ولولا أنى لم أقنط من رؤيتك لحطمت روحى ، ووضعت بيدى نهاية لآلامى، فقد كرهت الوحدة والغربة ، وسئمت الحياة على الصورة التافهة التى كنت أحياها . .

ـ صبراً يا « عبد الرحمن » . . صبراً ، صبراً . . سوف أجعل أيامك بهجة لا تخطر على بال . . لا تظنى لا أقدر حبنا قدره . . فما أزال أحفظ لك فى نفسى أجمل الذكرى . . ولقد انتظرتك طويلاً . . ستعيش معى هنا ، وسأهيئ لك عملا يرضيك . .

ملكتنى عند سماع هذه الكلمات عاطفة غريبة، وطار بى السرور إلى يدها فضغطتها فى رفق ، وقبلتها فى حرارة ، وقد احتبس الكلام فى حلقى ، وزحم الدمع مقلتى . .

٤٢

عرفت الكثيرين من أقارب « أليس » وأصدقائها وصديقاتها ، ومن الأسر ذوات الجاه والخطر، والمكانة السياسية والاجتماعية ؛ وكانت هي وأبواها الفاضلان يقدمونني كصديق من أصدقائها وصديق شقيقها « جاك » الذي عمل خمس سنوات بسفارة فرنسا في القاهرة. وقد أتاحت لي هذه الصداقات أن أعيش الحياة الباريسية الأصيلة على حقيقتها، وأندمج في أوساطها المختلفة ، وأعاشر طبقاتها المتباينة . .

ومن حق باريس أن يثير اسمها كثيراً من التناقض في أذهان من لم يروها ؛ فهي عند بعضهم مهد العلوم ، ومجلى الفنون ، وعند بعضهم الآخر منبع الخلاعة ، ومباءة اللهو والمجون ، ولا عمل لمن فيها سوى انتهاب اللذات واقتناص الشهوات : . وكلا الفريقين يخلع عليها من خياله — فيما يذهب إليه — حلة فضفاضة ، وكلا الفريقين غير مغال فيما يظنه ، ولا مبالغ فيما يتصوره !

فباريس مدينة العلم والعمل ، والفن والجمال والحب ، والعظمة الرائعة في كل مناحي الحياة . : اجتمع فيها كل ما يشخّص الحضارة الإنسانية في عصرنا .. فيها الفرح والحزن، والابتهاج والبؤس، والرجاء واليأس ، والأمل والقنوط . . فيها ما يوائم كل ذوق ، ويلائم كل رغبة :

بلاد تروق العين والقلب بهجة
وتجمع ما يهوى تقيٌّ وفاسق

ومن الحق والعدل أن أقول إن الباريسي على خلق عظيم ، وإن معايبه ورذائله أقل خطراً من معايب الآخرين ورذائلهم ، وإنه يحافظ على عادات قومه ويحترم تقاليدهم ، ويفخر كثيراً بأصله وثقافته ، وإنه

إذا حدثك ملك عليك لبك وسحرك ، حتى كنت أتوهم الواحد منهم يحيك الحديث فى صدره ، قبل أن يلقيه فى لطف ورزانة وبشر وزلاقة ! . .

وحب الصدق من أظهر أخلاق الباريسى ، فهو يـَصدُقك إذا حدثك ، ويُصدّقك إذا حدثته ، ولا يميل إلى غش نفسه وغيره ، بل يحب دائمًا أن يواجه نفسه بحاله الحقيقية ، ولهذا كان سعيد الحال ، صادقًا فى فكره وقوله وفعله ، نشيطًا فى شيء من التهور والعنف . .

ووداعة الباريسى ، وكرم خلقه ، ولطفه وسخاؤه ، تتجلى كلها فى معاملته وسلوكه حيال الأجانب . . وهو — إلى جانب هذا — سريع النسيان ، قريب الغفران لآثام من يسيئون إليه ، إلا أعداءه السياسيين ، فإنه ينظر إليهم نظرة الحقد والكراهية . .

والباريسى يتميز من بين الأوربيين بدقة الفهم ، وحضور البديهة ، ورقة الحاشية ، ولطف المعاشرة ، وفرط الأدب . . كما يتميز بأنه أكثر الأوربيين ميلا إلى البهجة والسرور ، وأنه — كأهل القاهرة — ذو نكتة حاضرة !

وهو — فى ثقته الفائقة بنفسه — لاينسى اعتماده على الله فى تحقيق آماله العريضة ، وإنجاز مشروعاته التى لا حد لها ، والتى يحتمل فى سبيلها كل ما تواجهه به الحياة من المنغصات والآلام ، ويذلل كل ما يعترض طريقه من صعاب وعقاب ، فى صبر يوشك أن يكون عدم مبالاة ، لكنه — فى الواقع — صبر دفين ، يدفعه إليه حبه الحقيقة ، وأمله فى سنوح الفرصة التى لا يتركها تمر به سدى ، بل إنه ينتظرها ويهتبلها للتقدم ، وتحقيق الحياة الناجحة . .

وليس الباريسى نزّاعاً إلى اللهو ، مقبلا على العبث والمجون ، بالصورة التي يصفونه بها ، فهو لا يمضي حياته يلهو ويعبث ويمجن ، كما كنا

نسمع ونقرأ ، وإنما هو يلبس لكل حال لبوسها ، ويساير نظاماً لا يعدوه ، هو السعي فى راحة أسرته وإسعادها ، والعدل على رفعة وطنه وتقدمه ، ثم الترويح عن نفسه من بعد . . وهذا — من غير جدال — خير نظام يحتذيه إنسان !

والباريسى يقدس ساعات لهوه تقديسه ساعات عمله ، لكنه لا ينسى — كما ننسى نحن الشرقيين — فى هذه الساعات كل شىء ، حتى أنفسنا ، فنطاوع غرائزنا ونتهور ، ونحمل رأس الطفل الصغير ! وإنما يرفّه عن نفسه فى حكمة بالغة ، ويلهو مع التفكير فى غده ، فلا يغلو فى لهوه ، ولا يسرف فى دعابته ومجونه . .

إذا كان هذا هو خلق الباريسى ، فمن أين — إذاً — اكتسبت باريس العظيمة هذا الصيت الذائع فى اللهو والمجون ؟ !

مرجع ذلك أن باريس مسرح دولى ، و « عصبة أمم » تضم فى أحشائها أجناسًا مختلفة ، نزحوا إليها من جميع بلدان العالم ، واستوطنوها معجبين بمدنيتها ، ونعيمها المتجدد . . ولو علمنا أن فى باريس عشرات الألوف من أثرياء العالم وسراته ، وأن هؤلاء لا عمل لهم إلا اللهو والمجون ؛ ولو أضفنا إلى هذه الألوف مئات أخرى من الألوف يفدون إلى باريس فى مواسم الربيع والصيف من كل فج ، رجاء اللهو وحده ، ورغبة فى الترفيه حسب — لو قدرنا هذا لأدركنا كيف تجتذب هذه العاصمة الكبيرة طوائف الغوانى من كل صقع وواد . : فهؤلاء الأثرياء الأجانب ، وأولئك الغانيات الباحثات عن المال والحب ، هم الذين خلعوا على باريس هذه الصفات التى اشتهرت بها فى ميادين اللهو والمجون . . لكن الباريسى الأصيل قلما يخرق النظام الذى وضعه لحياته .

أمّا المرأةُ الباريسية فقد غيرت الحرب العالمية الثانية عقليتها وحياتها تغييراً محسوساً ؛ فبعد أن كانت مضرب المثل فى الأناقة والانصراف إلى اللهو ،

والإقبال على المجون ، أضحت تزاحم الرجل فى أعماله مزاحمة ظاهرة. ويكاد المرء يحكم – بدون أن يتهم بالمبالغة – أن النساء الباريسيات العاملات أكثر عدداً من الرجال ، فحيثما سرت وجدت المرأة ، وأينما تلفت وقع نظرك عليها .. فى المحال التجارية كبيرها وصغيرها ، وفى عربات الترام ، وسيارات الركوب ، وفى دُور الخيالة والمسارح والملاهى ، بل فى المصانع والمعامل ، وفى مصالح الحكومة ووظائف الدّولة ، حتى سكة الحديد ، ومصلحة البريد !

ولا ريب أن الحرب كانت العامل الأول فى إقدام المرأة الباريسية على هذا كله ، وفى تحملها كثيراً من المشقة والعناء ، وفى البعد عن غرائز الأنوثة وطبائعها ، فقد يتّمت الحربُ الفتيات ، ورملت الأمهات ، فهرعن إلى ميادين الرجال يعملن عملهم ، ليحصلن على مورد يعشن منه ، بعد أن فقدن العائل والمعين ، فهن يشغلن المراكز التى كان الرجال يشغلونها ، قبل أن تأكلهم الحرب الضروس . .

وكان للحرب أيضًا أسوأ الأثر فى فضيلة البنات ، إذ جعلت زهرات الطهارة والعفة عرضة للاقتطاف والذبول ، بعد أن رأت الفتيات الحياة يقضى عليها فى لمح البصر ، وبعد أن عشن سنوات فى حزن دائم ، وهمٍّ مقعد مقيم . فلما انتهت الحرب أتيحت لهن الفرصة لنسيان آلامهن ، فانغمسن فى غمرات المباهج واللذات . .

ومن الأخلاق التى تدل على نبل الباريسيين ، وصفاء سريرتهم ، عرفانهم حق الآخرين فى التمتع بالحرية ، وإيمانهم بشرف غيرهم ، وعدم إساءة الظن بهم . . فالباريسى – مثلا – لا يلتفت إلى رجل وامرأة قد وقفا على قارعة الطريق يتناجيان ، ولا يلتهمهما بنظراته ، ولا ينالهما بكلمة نابية ، أو غمزة وقحة ، كما نفعل نحن فى القاهرة !

إنى لأومن أن هذا دليل على سمو نفس الباريسى ، لا على غفلته وتهاونه ؛ لأنه :

إذا ساءَ فعل المرء ساءت ظنونه

وصدق ما يعتاده من توهم !

٤٣

اختارت لى « أليس » حجرة أنيقة . بين أسرة باريسية أصيلة . .

وقد أخذ منى العجب مأخذه حين قالت : هذه الحجرة تكلفك ألف فرنك فى الشهر ، تدخلها وجبة الفطور . .

ـ ألف فرنك فى الشهر ، تدخلها وجبة الفطور ؟ ! . . شىء لا يصدق ! إن هذا المبلغ هو أجر أربعة أيام فقط فى فندق « كلاريدج » !

ـ أنت رجل مبذر تبعثر أموالك !

ومنذ انتقلت إلى هذه الحجرة لم تتخلف « أليس » يوماً عن زيارتى ، وقضاء الساعات معى ؛ بل لم أغادر البيت يوماً قبل أن أتلقى منها تحية الصباح ، ونتفق على موعد لقائنا ، بعد فراغها من عملها فى المستشفى . .

وذات ليلة بعد أن لهونا ورقصنا ، فاجأتنى « أليس » بأننى سأعود معها إلى « فونتنبلو » ، فأبيت هناك ، لأشترك فى الصباح فى رحلة تضم لفيفاً من الشبان والشابات . .

وقبل أن تدق الساعة ثمانى دقات ، من صباح نقى البسمة ، تجمع سرب من فتيان الأسر العريقة ، وزواهى فتياتها ، فى حديقة قصر « دى لومليه » . .

وانطلقنا جميعاً صادحين وشاديات ، نقصد أن نقضى النهار فى « غابة بولونيا » . .

وفى فرنسا لا ضير على العذارى والشبان فى رحلات ينظمونها ، وينطلقون فيها أفواجاً فى نقى الهواء المعطر بأريج الصداقة والحب ، فالمجال فسيح لهم ، ولا سيما لذوى اليسر والخطر منهم . . والأهل أنفسهم يجدون فى هذه الوثبات رياضة حافلة بالأنس والبهجة ، قد انتظمت

فيها المشاكلة ، ووفق بين الجمع حسن المخالقة ، فتنطوى على فيض من شهى المفاكهات ، وتنقضى فى متعة حاوة كرغيد الأحلام !

تجوب هذه المواكب المزقزقة الضواحك أنحاء الغابات ، وتموج فى شعاب الحدائق والبساتين ، وتتغلل فى جنبات النوادى ، مندفعة فى قهقهات طويلة متلاحقة ، لا ينقطع سيلها . . وقد آلفت ضواحى باريس مرأى هذه المواكب الفياضة بالسحر ، وتعودت أن ترحب بها ، وتزجى إليها البسمات الفضفاضة ، المنطوية على بهيج الترحيب ، وفائر الإعجاب .

شخص الركب إلى « غابة بولونيا » . . وفى خمائلها الأريضة ماج السرب ليحط عصا الترحال ، فحيا بمأنوس بغامه الأرض المبرقشة الأديم ، الحالية العود ، كأنها لوح من معجزات رسمته بخصيب الألوان يد متفوق موهوب ، ففيه النصاعة والدكنة ، والظل الهادئ والأفق الصحيان ، وفيه الحصاة والصخر ، والماء والخضرة والوجه الحسن !

جمع السرب بعضه إلى بعض تحت ظل خميلة كعين محفوفة بمستطيل الأهداب ، وانتثرت صنوف الفاكهة ، وزجاجات الشراب ، وارتفعت السواعد بالكؤوس ، فى قهقهات لا تتماسك ، وكأن كل قهقهة أنشودة تناهى فيها الإبداع !

وكان للغناء سوق رائجة أزرت بعندلة العندليب ، وشجو الكنار . . ولو ملكت الأشجار الحناجر لأفاضت بصيحات الإعجاب ، مرنحة الأعطاف ، لكنها انحنت تتيماً وخشوعاً ، وقد أحست السحر يجرى فى لبها وجذعها . .

ولم يشأ الرقص أن يحتجب عن مجلس الطرب ، فماست القدود تجلو فواتنها الباهرات . .

فى هذا اليوم رأيت قلوباً كثيرة تتطلع إلى « أليس » وتتشوف إليها ،

وتتمناها باذلة كل ما تستطيع . . رأيت أعناق الشبان تتطاول إليها ، وكلهم كفء ، وكلهم من ذوى الجاه واليسار ، وأنا لا أستطيع منازلتهم فى شىء ، إلا أن قلب « أليس » معى ولى !

كنت أرقبها وهى تراقص غيرى ، فأرى عينيها علىّ ، وهى تشارك رفيقها الحديث بما تفرضه واجبات اللياقة والمجاملة ، فإذا راقصتنى ألقت خدها إلى خدى ، وأقامت من عنقى وسادة لعنقها ، والبشر يتلألأ فى منشور جوارحها ، وجسمها اللدن ينبض بالحيوية والشباب وروحها الجميل يطفح بهجة ومرحاً ، وعيناها الصافيتان تفيضان بالود الذى يكنه قلبها . . وكانت تنسى نفسها كل النسيان حينما أضمها إلى صدرى !

يا رعى الله ذلك اليوم ! . . لقد طرت فيه على أجنحة السعادة ، وتذوقت من الهناءة ما لن تجود به الأيام : . لكن . :وأسفـا على تلك الذكرى وياجزعـا ! . . لقد بقيت فى عنق الزمان عهداً لم يوفّ ، وحلماً قصيًّا بخل بنظيره !

ليقل القائلون فى السعادة ما شاءوا ، وليتبجح الفلاسفة فى تقويمها ما اشتهوا ، وليسكر بها الشعراء ما طابت لهم النشوة ، وما طار بهم خيال ؛ أما أنا فما أجدها إلا ضرباً من الوهم ، وإلا أثراً من بلادة التفكير ! . . فأين هذه السعادة ، والسماء الصافية ترسل صواعقها بدون سابق إنذار ، أو سالف إعلان ، وتصيبنا إصابات لم نستعد لاتقائها ، ولم نحصن لها موضعـا ؟! . . أين هذه السعادة ، والقدر لا ينفك يتربص بنا ، ويقطع كلّ طريق علينا ، ويترصدنا فى كل خطوة نخطوها ؟!

لقد اتفقنا أنا و« أليس » على أن نتزوج ، ونعود معاً إلى القاهرة ، لنحيا فيها ، على أن نقضى فى أوربا شهراً من كل سنة : .وحسبنا الدهر غافلا عنا ، وما كنا ندرى أنه يعد عدّته ليفرق بيننا . .

تقدمت إلى السيد « بيير دى لومليه » والسيدة حرمه ، خاطبـا ابنتهما ،

فتغيرت سحنتهما ، واربدّ وجهاهما ، وصمتا لحظة ، ثم استمهلانى حيناً ، للتفكير فى هذا الأمر وفيما يترتب عليه من فراق ابنتهما العزيزة . .

وعرفت أنهما أخذا يحاولان أن يثنيا « أليس » عن هذا الزواج ، حتى أثاراها وهيجاها هياجاً عربيداً ، فجاهرتهما أنها لن تتزوج غير المصرى !

ساءت العلاقة بين الوالدين وابنتهما ، وسادتها الجفوة . . لكن « أليس » أقسمت أن تخرج من هذا النضال ظافرة ، محققة آمالنا فى الحياة معاً ، يظللنا الحب والوفاء . .

وقلّ ترددى على « فونتنبلو » ، وكثر تردد « أليس » على الحجرة التى اختارتها لإقامتى ، وطالت الفترات التى نقضيها معاً ، ننسى فيها الدنيا ومن فيها ، ولا نبالى إلا بتعاطى كؤوس الحب مترعة ، وتشييد قصور الآمال شامخة !

كان كلانا سعيداً بصاحبه ، يبادله عواطف الحب والتقدير ، وينظر إلى الحياة معه نظرة تفيض بالبهجة والهناءة ، ويملؤها الأمل الحلو ، والرجاء الباسم ، والتطلع إلى المستقبل البعيد فى طمأنينة وثقة . . لكن الله الذى يدبر أمر الخلق على مقتضى حكمته وقدرته ، لم يشأ لنا أن ندفع مع الآمال إلى بعيد ، فقدر علينا أن نفترق إلى الأبد ، قبل أن نرتدى ثياب العرس . .

بقيت ذات صباح فى البيت أنتظر تحية « أليس » التى تعودتها ، حتى دقت الساعة تسع دقات ، و « التليفون » صامت لا ينطق . .

انقبض قلبى ، وبدأت الهواجس تتوافد على خاطرى ، والهموم تتواكب إلى صدرى ، وتوجست شراً مستطيراً ، فأمسكت سماعة « التليفون » فى رهبة ، وسألت عن منية النفس ، فإذا الصاعقة تنقض علىّ ، وتصيبنى بما يشبه الشلل ، فتسقط السماعة من يدى ، ويعجز عن النطق لسانى . .

لقد ودعتنى « أليس » قبيل الفجر ، وهى أبهى ما تكون جمالا ، وأسعد قلباً ، وأتم عافية . . واتخذت طريقها إلى « فونتنباو » ، فإذا سيارة نقل تصدم سيارتها وتقلبها ، وإذا هى تصاب إصابات قاتلة . .

ووقفت فى المستشفى أرى هذه الشعلة المضيئة تنطفىء أمام عينى رويداً رويداً ، وأشاهد سكرات الموت تسرى فى ذرات هذا الأمل المتألق الساطع ، وأقف ــ ساعة بعد ساعة ــ على غيوب هالة من الجمال النورانى ، وتلاشيها ، فتهمى دموعى غزيرة ، أحس مرارتها وحرقتها !

ما أقساها أياماً ثلاثة عصرتنى عصراً ، وامتصت دمى قطرة قطرة ، فجفت الدموع فى عينى ، واحتبست الكلمات فى حلقى ، وطوق حزام حديدى صدرى ! . .

ثم طار البلبل عن روضه ، وحنجرته ملأى بالأغاريد !

ودفنت « أليس » فى ظلال الخمائل ، ومثواها خايق بالمرقد الرفيه ، تشدو فى جنباته الأطيار الصوادح ، وتنبت حوله زواكى الأزاهير . .

ووقفنا من حول القبر نساخ من أكبادنا أنات التفجع ، ودعوات الرحمة لمن ترصدها القدر ، وأودى بها ، وزفها إلى التراب عروساً رخصة ، تلاشت كقطرة من ندى فى مراشف الشمس الحرار !

مَن لك أيها الغريب المسكين ، وقد حرمك الموت « أليس » ، وتركك كاليتيم اللطيم ؟ !

من لك اليوم ، وقد نزع منك القدر الرهيب كل سند وذخر ؟ ! . .

إن كاومك لا تضمد ، وإن بلواك لا عزاء فيها ، وإن كل ما شيدت من آمال قد انهار وتبدد !

لك الله أيها البائس الشقى المشئوم . . لتعصر كل ما فى مآقيك من دمع ، أيها العاشق المفئود ، فالأرض والسماء فى مناهضتك !

٤٤

شقيقي الحبيب «عبد الحميد» :

ذابت نفسي . . احترق قلبي ، وصار رماداً . . طارت الآمال والأحلام التي طالما ندّت نفسي ، ونضرت أيامي . . دب اليأس بين جنبيّ دبيباً مفزعاً . . حالفني الشرود والذهول ، وجفاني المنام ، ونزل بي صداع لم ينفع فيه دواء ، وقال الطب إن أعصاب مخي قد التهبت !

لكم أخشى الجنون ، يا أخي ! ولكم يوسوس إليّ الرجيم أن أدفن في أعماق السين نفسي ، أو أخرق برصاص المسدس جمجمتي ، وأنثر ما جمع لؤم الزمان ، وأضع حداً لعذابي ومخاوفي !

أترى في هذا زيغاً وشططاً ، ياشقيقي ؟ ! . . ألست حراً أتصرف كيف أشاء فيما أملك ؟ ! ألست أستطيع أن أستريح حين أتعب ، وأنام حين تئودني اليقظة ؟

إن أحداً لا يأبى عليّ شيئاً من هذا ، فلماذا يأبى عليّ المجتمع — إذاً — أن أطلب الراحة الكبرى ، وقد تنكرت لي الحياة ؟ ! . . كيف يستضعف الناس المنتحر ، ويحتقرونه ، ويشمئزون من فعلته ، وهم موقنون في قرارة نفوسهم أن راحة الموت علاج ناجع أدين الكل أدواء الحياة ؟ !

لا نكران أن كلاً منا قد قُذف به إلى الحياة من دون أن يسأل أو يستشار . . والشرائع كلها تجيز — في حال الإكراه — أن ينقض المرء عهده ، ويخيس عنه ! . . فلمَ أحرص على الحياة ؟ وفيم تعلقي بها ، وخضوعي لها ؟ ! . . وما يمنع أن أريح نفسي ، وقد استشعرت الشقاء والعناء ؟ !

إن التعلق بالحياة من شان الأحياء الذين لهم مسكة من همة، وفضلة من عزم ، وبقية من أمل . . أما من كان مثلى : لا تغيب شموس أيامه أو تطلع إلا على آمال تصوّح ، وأحلام تبدد ، فليس من دون أمله إلا باب واحد يجد الداخلوه الراحة الكبرى ، وينأون عن نكد الدهر ، وعيث الأيام ؛ فوراء هذا الباب تستوى السعادة والشقاء ، والأمل والقنوط ، والفرح والترح ، ويصبح كل ما فى الحياة زيفًا وباطلا !

ما حظى الآن ، ياشقيق ، وقد أصبحت غرض الأيام ، ومحطّ كيدها وأذاها ؟ ! وكيف يطيب لى عيش بعد اليوم ، وأنا كلما لمعت فى حياتى بارقة أمل ، عدا عليها القدر ، فقضى عليها فى عنف وقسوة ؟ !

لقد كلح وجه الحياة فى عينى ، وانطفأ النور الذى كان يكسبها نضارة وجمالا ؛ فهل ثمة محزنة أقسى من هذا ، وأدعى إلى يقظة الأنفة ، واستفزاز الكبرياء ؟ !

فقدت « أليس » فأقفرت حياتى ، وأجدبت دنياى . . فقدت « أليس » ، ففقدت الوجه المشرق ، الذى كانت تشملنى رؤيته ، تملؤنى بهجة وأنساً ، وسعادة وهناءة ، ونشوة وسروراً . . فقدت « أليس » ، ففقدت النظرة الحنون ، والعقل الرصين ، والعاطفة الملتهبة ، والقلب الطيب ، والوفاء النادر ، والطبع السمح الكريم . . فقدت « أليس » ، ففقدت الحب الصادق ، الملىء بالوجد والوله والهيام ، الحب الذى تصبح الحياة بدونه عبئًا لا يحتمل ولا يطاق . . فقدت « أليس » ففقدت كل أمل يزين الحياة ، ويرغب فيها ، وأعيش أرتقب تحقيقه !

أوّاه ، ياشقيق ! . . واحزنا ! . . لقد ماتت وتركتنى شريداً عاجزاً ، لا أملك من أمر نفسى شيئاً ، ولا أجد لى وليًّا ولا نصيراً . . ماتت . . ولم يبق إلا طيفها يطالعنى فى كل زمان ومكان ! فسلام على

قلبي ، وعلى نفسي ، وسلام على كل ما يجعل للحياة وزناً وقيمة !

نعم ، ياشقيقي ، نعم . . إن الحياة قد فقدت فى عيني كل حياة ، وباتت حقيرة ، دنيئة ، تافهة . . أفليس — إذاً — فى التمسك بهذه الحياة القطيعة عناد وجنون ؟ ! أوَ ليس فيما أقاسي — وفى يدى دفعه واجتنابه — بلاهة وحمق ؟ ! . . إن من كان فى مثل حالى استوت فى إحساسه القيم جميعاً ، وانقلبت رأساً على عقب مفاهيم الأخلاق والقانون والنظام والعرف ، لتصبح كلها أشياء لا قيمة لها . . بل إن الجريمة نفسها لتبدو مغرية فاتنة تستهوى النفس الحزينة المكدودة المتألمة !

ومن يخبر الحياة كما خبرت ، ويتذوق فيها ما تذوقت ، ويعانى منها ما عانيت ، لن يحلو له شهد من بعد . . وأنَّى يتأتى الشهد ، والحب والإخلاص ، والسعادة كلها تفقد جمالها الرائع ، وتتلاشى لذاتها الحلوة دائماً فى طرفة عين ؟ !

إنى — يا أخى — لفى ألم صاعق ، لم يخلق له صبر ، ولم تبتدع له أعصاب . . وإنى لا أحيا إلا على وهم شتيت تلملمه الحياة ، لتجذبنى إليها مرة أخرى ، أو لتنتزع منى آخر رمق فى همتى ، وتستنزف آخر قطرة فى عزمى ، ثم تلقى بى فى الهالكين !

غفرانك، أخى ، إن زل بى القلم ، أو طغى علىّ الرأى ، فإن للنفس جماحاً لا يكبح ، وما هذا إلا بعض همسها ، وأنت أحق من يصغى إليه !

والذى أمدنى بالأحزان قادر أن يمدك بالبهجة والعافية والتوفيق . . ولا زالت أيامك ممدودة بين أمل لك تبلغه ، وأمل فيك تحققه . .

وتقبل تحياتى ، وما يكنه لك فؤاد شقيقك الحزين .

عبد الرحمن

باريس . . . .

حاشية :

أرجو أن توافيني بثلثمائة جنيه على فرع « بنك مصر » في باريس ، وقل للشقيق « سيد » إن هذا المبلغ قد يكون آخر ما أطلب . . فإما عدت إليكم ، وإما رحلت إلى العالم الآخر !

٤٥

شقيقي وصديقي « عبد الرحمن »

الساعة الآن الثانية من صباح الجمعة ، وقد سكن كل شيء حولي ، ونام الجميع ، وأنا ساهر أنشر رسالتك التي بعثت إلى نفسي قليلاً من الطمأنينة ، وكثيراً من القلق والهم ، بعد أن قضيت الأسابيع الماضية في حيرة وألم . .

صدقني إذا قلت لك إني لا أدري ماذا انسلّ إلى نفسي ، منذ أن قرأت رسالتك ؟ ! . . لقد تهت في بحر عميق من الأفكار والهواجس ، وانتابتني نوبة الشك ، تصاحبها لذة اليقين ، وقد كاد يذوب ، فأمسيت أضرب بين لعل وعسى ، وسوف وربما ! وصرت كمن نظر إلى النور ، فبهره جلاله ، لكنه لم يقبل نحوه ، أو كمن أبصر الظلام ، فتأثر بقتامه ، لكنه لم يدخل قلبه !

إن رسالتك ، يا أخي ، قطعة حية من الألم واليأس ، وإني — والله — لمشفق عليك من هذا الحزن ، فقد جربته في نفسي ، ووجدته شيئاً فظيعاً . . إنه ريح قوية عاتية ، تجرّد أغصان النفس من أوراق رجائها ، لتنشئ مكانها قبوراً للخيبة . . إنه سم زعاف يمزق الأحشاء ، ونار بطيئة ماكرة ، تسير في خفوت ، لتندس في حنايا النفس ، فتحرقها ، وتدك صروح آمالها ، لتقيم مكانها أنصاباً سوداء ، حالكة السواد ،

كأنها أخيلة القدر المحتوم !

إنى لمشفق عليك، لأنى أعلم سر هذه الوحشة التى تانتاك، وباعث هذا القتام الذى يغشى نفسك ، وسبب هذا الشجن الذى يشيع فى حياتك ، وينغص عليك عيشك . . إنه الحاجة إلى غامض أعجزك الحصول عليه ، وخاب سعيك فى نيله ، وهو عندك عديل الروح ، وشقيق النفس . . إنه الحب العنيف الثائر ، الذى يضحى المرء فى سبيله بكل شىء ، بالمال ، وبالمواهب ، وبالكبرياء أيضاً . . لكن هذا الحب الذى يسام النفوس إلى الإيمان والفضيلة والسمو ، وثمرات الذهن المتقد والقلب الوثاب ، حب نادر ندرة الكبريت الأحمر ، كما يقال ، بل لعله لا وجود له ، ولعله من اختراع الشعراء ، وخلق الروائيين ، وتصوير الفنانين . . « ومن طلب المعدوم أعياه وُجْدُه » !

ولقد حاولت — غير مرة ، وأنت فى القاهرة — أن أزين لك تغيير أسلوب حياتك ، ولكنك كنت مزعزع الرأى ، واهى العزم ، تعتقد أن الجنس روح الحياة ، وأن الحب نعيمها وهناءتها . . وما أشد بؤس من يعلق حياته وسعادته بأنثى ، ويتخذ منها إلهاً يتوجه إليه بالعبادة والتقديس ! . . إن هذا الوثن — ياشقيقى — من طين ، فإذا لاح لك ألماساً ، أو شيئاً كالألماس ، فإنما هو ضوء المشاعل التى تحملها أنت !

لا ألومك ياشقيقى العزيز ! فالنفس تثور ، وتقلق أحياناً ، وترغب عن أحب الأشياء إليها ، وتحن إلى أمور غامضة ، لا تستطيع تكييفها وإبرازها فى صورها الحقيقية ، ولا تدرك أنها أمانى قد تكون فيها المنية والهوان !

لقد فقدت قبلك — منذ سنين — من أحببتها وأحبتنى ، وعانيت ما تعانى أنت اليوم ، بل شراً منه . . فحبنا لم يكن — كحبك — ثمرة بضعة أشهر ، أو عام ، وإنما كان زمالة سنين ، وصداقة أعوام . . ولولا أنى لا أريد أن أنبش ما دفنت فى صدرى ، لعرفت قدر ما عانيته.

وليس ذلك ضنًّا مني عليك بما أخفى فى قلبى ، وإنما لأنى لا أحب أن أعكر صفو حاضرى بتذكر ما فات . . وحسبك أن تعلم أنى وصفت نفسى – فى مذكراتى الخاصة أيامئذ – بأنى « أعيش فى قبر بارد من الرّخام الصاقع » ! أما اليوم فقد نضج فكرى ، واتزنت عواطفى ، واهتديت إلى خير الطرق للانتصار على ظلم الحياة وظلامها . . إنه تناسى سوءاتها وسيئاتها ، وتذكر محاسنها وحسناتها ؛ فإن الشمس التى يقتل لافحها فى الصيف ، هى التى ينسج من شعاعها ثوب الدفء فى الشتاء !

والهمة لا تنقصك ، ياشقيق ، لتتغلب على ثورات النفس الأمارة بالسوء ، فلست أول محب يفجع فى حبه ، ولست بآخر من أصابه عنت الأيام ، فغدا باكياً بعد حبور ، شقيًّا بعد سعادة ، يائساً بعد هناءة .

لماذا تحزن ، ياشقيق ، وتبكى ، وأنت فى ضحى شبابك ، ولا تزال الحياة لك باسمة ؟ ! . . لماذا تعول وتنوح وما فتئ العيش لك ضاحكاً ؟ !

لِمَ غاضت عن شفتيك الابتسامة العذبة البريئة ، ابتسامة من عرف من الدهر حلوه ، وذاق من العيش رغيده ؟ ! . . إن أمامك لعالمًا زاخراً بطيب الآمال ، ولذيذ الأحلام ، تستطيع أن تصل إليه ، لو رفعت بصرك قليلاً ، ووضعت قدمك فى ثبات وشجاعة ، ولم تجبن عن نازلة تخيرتك لها الحياة ، ورأتك أهلاً لها . .

ولست أفهم كيف تسمى ثباتك ضعفًا ، واحتمالك جبنًا ، ومقاومتك خوراً ! . . إن هذا لحكم جائر ، وجرأة على الحق ، فليس الضعف والجبن إلا فى أمر يمكنك قهره ، فتفر منه ، أما التسليم بما نعجز عنه ، فأمر لا بد منه لمن فهم سر العيش ، وأدرك كنه الحياة . وأحق ما صُبر عليه ما لا سبيل إلى رده !

فتأس ياأخى ، ولا تنح ، فإن الدمعة التى تنحدر من عينيك لن تجد من يكفكفها . . لا تذهب نفسك حسرات على من فقدت ، فنفسك المأخوذة

لن تجد حولها من يطيّب خاطرها .. تأسَّ يا أخي ، ولا تيئس ، وروِّض نفسكَ على تقبل الحياة فى مختلف ألوانها ، فهى ليست دائمًا كالحة قاتمة ، وليست دائمًا مشرقة باسمة .. لكنها — فى كلتا الحالتين — أنضر من رضا الراضين ، وتفاؤل المتفائلين ، وأقوى من سخط الساخطين ، وتشاوم المتشائمين !

إنه لواجب أن نذعن لسنة الحياة ، فإنما هى قضاء المدبر الأعظم ، ولا مفر من الرضا به . . وكلنا صيد يطلبنا الموت حيثما نعتصم ، ويدركنا أينما نكن . . وليس أضعف عقلاً ، ولا أسخف رأيًا ، ولا أضل حلماً — ممن يتفزع ويجبن ويتشاءم ويفرق . . والعهد بك أنك فطن رشيد ! فلا تترك اليأس يفسد عليك عيشك ، وحرقة الجوى تصهر قلبك ، وتذوى شبابك النضير .

إن محزنة الحياة الصادقة ، ومأساتها الحقيقية ، هى أن تروح فى أيدى الناس آلة تستخدم فى سبيل مقاصد تعلم أنت نفسك مبلغ دناءتها وحقارتها . . أما ما خلا ذلك من أحزان الحياة ومآسيها ، من مرير خيبة ، أو نكد عيش ، أو عاثر حظ ، أو سوء منقلب ، فليس إلا طبيعة الأيام :

ومكلف الأيام ضد طباعها   متطلب فى الماء جذوة نار !

وإن الفرح الصادق بالحياة — وهذا ، والله ، مطلبها الأكبر — هو أن تضع نفسك ، وتحشّد قواها كلها ، لتحقيق غرض تؤمن بأنه عظيم ، والتماس مطلب تعتقد أنه فوق كل مطلب ، وأن تبلغ آخر حدود الكلال ، وتعالج أقصى عصارة القوة والمراس ، قبل أن تسلم فى النهاية ، وتقعد ملومًا محسوراً ، وتتهالك على الثرى لاهث الأنفاس ، يائساً مهزوماً مدحوراً !

فأخلقْ بك ، يا أخى ، ألا تحزن ، وأحرِ بك ألا تتألم وتأسى لما نزل

بك ؛ ولتكن كالمحراث يشق طريقه فى الأرض الصلبة ، أو لتكن كالنبتة تميل للريح إذا عصفت ، وتعود فتنتصب من جديد ! . . لتكن قوة من قوى الحياة ، لا كتلة محمومة ، ومجموعة آلام وآهات وحسرات ، لا تكف عن الشكوى من أن القدر قد أساء إليك ، وأن الدنيا قد ظلمتك ، وجارت عليك ، ولم تبذل كل ما عندها لتجعلك الناعم السعيد !

ألا ولتعلم أننا — حين نشغل أنفسنا بلذات الحياة ، وشهواتها — نعطيها من القيمة أكثر مما تستحق ، وأننا — حين نهملها — تقبل علينا باسمة مسالمة ، ونجد فيها محلولاً بسيطًا كل ما كان من قبل معقداً مركباً . .

ألا ولتعلم — وأنت عالم — أن ليس بين الناس جميعًا ، منذ آدم إلى اليوم ، من صفت مشاربه ، واجتمع له من نعم الحياة ما يشتهى ويريد ؛ فمن عاش عمره فى فرح دائم ، لا تغيم فى سماء حياته سحابة من الحزن ؟ ! لا أحد ! . . هذا ناموس الكون ، فإن الله — جلت حكمته — يعطى الصحة ويمنع المال ، أو يهب الصحة والمال ، ويسلب العزة والكرامة ، أو يمنح الصحة والمال والجاه ، ولا يهب البنين . . وهكذا دواليك ! فلا يضق صدرك — بعد اليوم — بما تعانى ، ولا يعظم حزنك على ما حُرِمت ، ولا يشتد أسفك على ما فات . .

ولست أكتمك ، يا شقيقى العزيز ، أنى مسرور لهذه المصائب التى تنتابك ، لأنها تطهر معدن نفسك ، وتبرئها من أدوائها ، كما يبرئ صاب الدواء علة الجسم ، فمقصد الحياة الأخير غلبة الخير على الشر !

أجل يجب أن تجتاز المحن ، وأن تتلظى بنار الخيبة ، لتكسب معرفة آكد بنفسك وبالحياة ، ولتعلم أن الاسترسال فى رسم الغايات بخطوط الخيال جرئ إلى حيرة لا نهاية لها ، وأن الخطر يهدد كل من

يحاول الانفصال عن واقعه الذى يرتبط به ، مهما يكن هذا الواقع محدوداً ضيقًا ، أو تافهـًا مملاً !

وإن لم يكن بد من أن تعشق وتتدله . فليكن مبدؤك فى الحب قول الشاعر :

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن عليك شجاً فى الحلق حين تبين !

أرانى أكثرت الثرثرة . . وما دفعنى إليها — علم الله — إلا تألمى لأجلك ، ورغبتى فى صلاح أمرك : . وإنى لأكتب إليك ودمعة تسيل من عينى ، فتنهمر وراءها أخواتها . : وما أرانى قلت كل ما أريد ، فهذا القلم الجامد لا يمكنه أن يعبر عن شعورى ، فالجماد لن يعبر عن الإحساس ، ولن يستطيع أن يخرج من مكنونات النفس دفين شعورها . هيهات ، يا أخى ، هيهات !

أنا لا أقوى يا أخى على أن أتصور أنك تتألم وتتعذب ، وأنا بعيد عنك ، لا أستطيع أن أواسيك . . أنا لا أقوى على أن أتصور أنك لا تزال شارداً فى أكناف مظلمة ، يلفك الليل فى ثوب أسود ، ويستقبلك الفجر فى ثوب حالك ، وأنا بعيد عنك ، لا أستطيع أن أمد لك يد العون . .

هبك — ياشقيقى العزيز — تزوجت « أليس » ، وعشتما معاً حيناً فى سعادة وصفاء ، ثم أصابها ما شوّه جمالها ، وأذبل نضارتها ، وأقعدها ، وجعلها غير صالحة للرفقة والألفة والمعاشرة ، وصير حياتكما جحيماً لايطاق . . ماذا كنت تصنع ؟! . . أفما كنت تتمنى الموت ، وتسعى إليه أكثر مما تصنع اليوم ؟ !

ألا ترى نفسك يعرض لك اليوم أمر ، فتلوى به ، وقد كنت تشره عليه ، وتتوق إليه ؟ ! . . أفلا يدل هذا على تقلب النفس ، وعدم ثباتها على حال ؟ ! . . فما رغبتك فى شىء ولا نفورك منه ، إلا بمقدار ما يحقق لك من حاجة ، أو يدفع عنك من سوء ، فأنت الذى تعطى الأشياء أثماناً وأقداراً . . وما الأحزان والآمال والمسرات إلا رغبات تخطئ أو تبطئ أو تستجيب !

ويحك ياشقيق ! أتجحد كل ما منحك الله من نعم ، ولا تذكر إلا شيئاً فاتك ؟ ! . . يا لك من جحود كنود ! غفرانك ربى ! . . ماذا تنقم من دنياك ، ياشقيق ؟ وكيف جرفك تيار الجحود ، فنسيت آلاء الله عليك ؟ ! .. لقد أسبل عليك ستره ، وأسبغ عطاءه ، وحرسك بعينه ، وكنفك بعزه ! . . ياالجحود الإنسان ! . . اللهم نسألك أن تملأ بالنور سرنا وجهرنا ، وأن تمنحنا رضاك ، وتكفينا سخطك ، وتوفقنا لذكرك ، وتعيننا على حمدك وشكرك . .

إن الحياة لجميلة ، إذا عرفنا كيف نحياها . . فافتح شباك حجرتك ، واملأ صدرك بالهواء النقى ، وتطلع إلى السماء حامداً شاكراً ، وانظر إلى الأشجار يداعبها نسيم الصباح ، فتنحنى تحية للشمس البازغة والنهار الجديد ، الزاحف على عطر الزهر ، وشدو الطير — تدرك أن الحياة جميلة . : لكن « كن جميلاً ترَ الوجود جميلاً » !

فكر مليًّا ، وقل صدق أخى وأصاب . :

والعليل المعنَّى طبيب إذا عرف علته ، والأريب اللبيب هو الذى يشفى نفسه من الحاجة ويكفها عن تتبع المآرب ، والجرى وراء الوهم والخيال ! والنضج الحق يقتضى الإنسان القدرة على أن يعيش بلا أحلام ، وأن ينفض عن نفسه الأوهام ، ويقاوم الإغراء ، ويجابه الواقع وجهاً لوجه ، بدون خوف أو وجل !

لا تتوانَ فى الكتابة إلىّ ، لأقاسمك لذاذات العيش وهموم الحياة ، فمن رحمة الله بنا أن يكبر السرور بهذه القسمة ، وبها تصغر الأحزان !

أسأل الله أن يوليك سلام النفس ، وراحة البال ، وأن يقشع عن سماء أفكارك غيوم الهموم وهواجس الغموم ، لترى الحياة على حقيقتها ؛ فكل أمر شديدٌ ، وكل شىء نقمة إذا كان قلب المرء مغتمًّا ، فلا الجمال جمال إذا لاح ، ولا النعيم نعيم حين يسنح ويستجيب . . وكل شىء

نعمة تستحق الشكر ، لمن صفت نفسه واستراحت أمانيه ! . .

يا أعز الإخوة والأصدقاء ، أما كفاك عشرون شهراً ضيعتها فى لهو ومجون ؟ ! ألم تشبع بعد ؟ ! ألا تعود إلى أهلك ووطنك ؟ ! ألا تريد أن تبدأ حياتك بداية طيبة ؟ !

إنا إياك لمنتظرون .

شقيقك
عبد الحميد

الإسكندرية . . . .
حاشية :

حولت لك منذ يومين مائتى جنيه ، على فرع « بنك مصر » فى باريس . . وقد استخلصت هذا المبلغ من الشقيق « سيد » بخلع الضرس ! وهو يقول لك إن فى هذا فوق الكفاية ، حتى تعود .

٤٦

أخذت أعيش فى غير اكتراث ، وأتصرف فى كثير من البلاهة الطارئة : والبلاهة أدنى إلى الخلاص من فطنة بتراء ، والعمى أقرب إلى السلامة من بصيرة حولاء ! ومن ثم صرت لا أعبأ بما توشك خواطرى وخطاى أن تقودنى إليه ، فأقبلت — فى شراهة — على السم البطىء الذى يمشى بالإنسان إلى ساحة الموت على هينة ومهل ؛ فبت أنادم الكأس ، حتى تشل فىّ حركة العقل ونشاطه ، وتقتل فى نفسى المشاعر الإنسانية جميعاً ، وأرتمى فى الفراش لا أعى . .

ولا بد للمحزون من مادة قتّالة كالخمر ، ولا غنى لشعوره عن الفرار ساعة فى غشية الشراب . . لكن الخمر قد زادت الطين بلة ، فساءت

حالى ، حتى نصحنى الأطباء بقضاء أسابيع فى مصح خاص ، فى جبال « الألب » ، على الحدود بين فرنسا وسويسرا وإيطاليا . .

قضيت فى المصح شهراً . . وتملكنى أيامئذ إحساس عميق أنى قريب من السماء ، بل أقرب ما أكون منها !

وخفف همى الطبيعة تخلب اللب ، والجمال يأسر العين : جمال أبدعه الخالق ، وصنعه المخلوق ، فكان الفريد المنقطع النظير . . ولطّف جواى مَن عرفت من غانيات فاتنات ، ومن رأيت من جميلات ساحرات . وما أحاط بى من مباهج ولذات ، فطبت من علة جسمى ، أما علة قلبى فقد عجز عنها الطب والجمال !

لكن . . ألم تؤت نصيحةُ الأطباء أكُلها ؟ !

بلى ! لقد فعلت فىّ فعل السحر ، فوجدتنى أستمرئُ هذا الحزن الذى أعيش فيه ! . . وإذا اجترّ المرء أحزانه ، فهذا أول علامات السلو والعزاء !

ووجدت الدموع تندّى عينى ، وقد تخيلت « أليس » تطل علىّ من فردوسها الروحى ، لتبارك إخلاصى لها ، ولوعتى لفراقها ، وتفكيرى فى اللحاق بها ، فكبرت فى عين نفسى ، وهمست : لا شك أنى بلغت أرقى ما يمكن أن يسمو إليه محب من النبل والوفاء !

وإذا لم يكن هذا صحيحاً بالنسبة إلى الحق المطلق ، فقد كان صحيحاً بالنسبة إلى النفس التى ركبت بين جنبىّ ، ذلك أنى وجدتنى جديراً بأن أثيب نفسى على هذا الوفاء بالانغماس قليلاً فى هذا الجمال الذى يحيط بى ، والاستجابة شيئاً لنظرات الحسناوات التى لا تنى تصوب إلىّ عاطفةً على هذا الحزن الذى يطل من عينى . . وما منعنى الولوغ فى العبث مع هؤلاء العاطفات إلا حرصى على الظهور أمامهن بمظهر التفرد بالوفاء لمن أحببت وعشقت !

أما خيال « أليس » فقد بدأ يشط مزاره ، ويقصر لبثه ، إلا حين

أخلو إلى نفسى ، وتعصف بى الوحدة المرة .

* * *

عزمت أن أعود إلى باريس ، فأودع من عرفت ، ثم أستأنف السفر إلى مرسيليا ، رجاء أن أجد العزاء فى جوار الحبيبة « جوزفين » ؛ فالحق الذى لا مرية فيه أنى كنت أحب « جوزفين » كما كنت أحب « أليس » . ولا ريب أن حسب « أليس » ومركزها الاجتماعى ، وثقافتها الرفيعة ، كانت ترفع قدرها فى نفسى ؛ فإذا كان الموت قد اختطفها منى ، فإنى واجد سعادتى المفقودة فى حضن « جوزفين » . .

. . وفى باريس بدأت نفسى تتفتح للحياة من جديد ، وتبسم لها بعد عبوس ، وتخرج من غاشية الهم والحزن ، وتحاول أن تقدر الأشياء قدرها ، وأن تزنها بميزان الواقع لا الخيال !

رعى الله الصديقتين « بوليت » و « مارى أنطوانيت » ، وأحسن إليهما الجزاء ! فقد أعانتانى على اجتياز تلك المرحلة الشاقة الأليمة بمرحهما ورقتهما ، وبما كانتا تصبانه فى أذنى من عبارات العزاء والسلوان ، وبما كانتا تحيطانى به من ألوان الرعاية وضروب التدليل والملاينة ، وكأنى طفلهما الغالى المريض ، حتى عادتا بى إلى حال البهجة والإقبال على الحياة . .

واجتذبتنى باريس مرة أخرى ، وعادت تهز قلبى صباياها الحسان اللائى أحطن بى . وما حيلتى ، وأنا إنسان رهيف الذوق والحس والشعور ، أتلقى الجمال ، فأتأثر به ، وأتذوقه وأسيغه ، وأتمثله ، وأذوب فيه ؟ !

ومع هذا كله ظلت خواطرى قاتمة ، وما برح قلبى كسيراً ، وما انفك بالى مشغولاً بالتفكير فى « جوزفين » . . كنت أكتب إليها من كل بلد أنزل به ، دون أن أتلقى جواباً ، فكنت يوماً أتهم البريد ، ويوماً أصبر النفس بكثرة تنقلى ، ويوماً أقول : ربما نسيتنى ، أو لعلها تزوجت . .

ثم أعيدت إلى رسائلى ، بعد أن طافت ورائى بلاداً كثيرة ، وعليها

ما يفيد أن « جوزفين » قد تركت العنوان المذكور ، وأنها مجهولة المكان ؛ فتبلبلت أفكارى ، وتضاعفت همومى ، وصممت على السفر إلى مرسيليا ، واستقصاء أخبار الحبيبة التائهة .

وفى مرسيليا أخلف الأمل وعده ، وأنجز اليأس وعيده ، فقد دخلت « جوزفين » الدير ، ودفنت فيه نفسها حية !

قصمت الفجيعة ظهرى ، وقوّضت البقية الباقية من همتى وعزمى ، وبدت لى الحياة كذبة كبيرة ، وغمرنى يأس حالك ، لا يخترقه بصيص من نور ، أو شعاع من أمل ، فحزمت حقائبى لأعود إلى وطنى . .

* * *

الشمس ذبيحة يصطبغ بدمها الغسق الرهيب ، وهى توشك أن تغرق فى البحر ، ومعظم المسافرين على أسطح السفينة قد غرقوا أيضاً فى تأملات وخيالات ، أمام هذا المنظر البديع الحزين !

ملت على حاجز السفينة ، وسرحت طرفى فى البحر العظيم بجلبابه الأزرق قد اشتدت زرقته ، وصدره الرحب قد تراخت أبعاده . . وسبح خيالى مع الأمواج ، يستعرض أيام الطفولة : أفراحها ومخاوفها ، وآمالها العريضة بالمقاييس التى كنت أراها بها أيامئذ — حينما كنت ألعب مع أترابى فى الفناء الواسع المستطيل ، وفى الحديقة ، وفى الشارع أمام البيت . .

ودارت فى رأسى صور كثيرة ، لبلاد بعيدة ، ومناظر مختلفة ، ووجوه تمتّ إلى أيام الطفولة والصبا ، وأيام الدرس والتحصيل ، وأيام الشباب والفتاه . . واختلطت الذكريات متشابهة فى أهميتها ، حتى لا أقف عند واحدة أكثر من الأخرى !

وشاهدت بعين الخيال بلدتى الوادعة ، ودارنا الكبيرة . . وتمثلت لى أمى التقية النقية ، بوجهها الباسم ، وقلبها المفعم بالحب والحنان ، وتراءى لى « الشيخ » الذى كنت أخافه وأقدسه فى وقت معاً . . رأيته

بوجهه المشرق ، وجبينه الشامخ الناصع ، وعينيه الواسعتين ، ونظراته النفاذة ، ولحيته البيضاء ، وهيئته المهيبة ، وحديثه الهادئ اللبق الرزين .

وطار بي الخيال كل مطار فرأيت « هدى » و« نعيمة » و« مرجريت » و« ريتا » . . . وعشرات وعشرات من الصبايا والغانيات : :

وغبت في خواطري وأفكاري ، واعتزلت المسافرين، ولزمت « قمرتي »، لا أكاد أغادرها إلا لحظات أقطع فيها سطح السفينة ذهابًا وإيابًا ، لا أكلم أحداً ، ولا أسمر مع المتسامرين .

ومرت أربعة أيام ، والسفينة تسير في الليل سيرها في النهار ، وتسبح آمنة في مجراها . . تمر بجنوب إيطاليا فلا تقف ، وتمر بجزيرة مالطة فلا تعرج ، لأنها لن ترسو إلا في بورسعيد : .

واحتضن الشاطئ المصري السفينة ، ووطئت قدماى أرض وطني الحبيب .

٤٧

رحلت فلا دنيا ولا دين نلته وما أوبتي إلا السفاهة والخرق !

رحم الله « شيخ المعرة » ! ما أصدق بيته هذا في تصوير حالي ! فقد سافرت إلى فرنسا وأنا شقي مريض ، وعدت وأنا شقي ومريض ومحسود ، يظن الغافلون أني سعيد مجدود ، إذ أتيحت لي فرصة زيارة أوربا ، والحياة فيها عامين وبعض عام ، وهم لا يدرون أني أعود بقلب كسير ، ونفس كئيبة ، وجسم واهن ، وعقل ذاهل ، وفكر شريد ، وقد انطبق علي قول « شكسبير » : « قد باع أرضه ، ليشاهد أرض غيره » ، فاغتنت عيناى ، وافتقرت يداى !

وهيأت لي مثوى في القاهرة : . وعدت إلى العمل في « شركة التأمين » : . وعدت أيضًا إلى الاستجابة إلى الشهوات في اندفاع

لا تريث فيه ولا عقل ، فوقعت فى ورطات ومشكلات لم أستطع الخروج منها إلا بجهد جاهد . .

والعجيب أن كثيراً من التعساء أمثالى لا يبرحون يكررون عيوبهم وأخطاءهم ، ثم يُنحون على أنفسهم يجلدونها بسياط التأنيب على آثامهم ، ليزيدوا تعاستهم ، فهم لا ينفكون يوجهون اللوم إلى نفوسهم ، ويضاعفون شعورهم بالإثم والجرم ، فيزدادون غماً على غم . .

ثم حدثت مفاجأة سعيدة ، كان لها أثر أيما أثر فى حياتى . . : فقد التقيت مصادفة بصديقى القديم ، وزميلى منذ الصغر ، الأستاذ « عبد الرءوف » ، الذى كان يعمل مدرساً فى مدرسة بنى سويف الثانوية ، ثم نقل مؤخراً إلى إحدى مدارس البنات فى القاهرة . .

كنا أبناء شارع واحد ، وسرنا فى طريق واحدة ، وقضينا معاً مرحلة الدراسة الثانوية والجامعية ، ثم افترقنا ، وانقطعت أخبار كل منا عن صديقه حتى فوجئت به ليلة يتناول عشاءه فى مطعم « الكورسال » .

كم فرحت وابتهجت لرؤية « عبد الرءوف » ! إنه ألصق الأصدقاء بقلبى ، وأحبهم إليه . . ليس بيننا خبر نستره ، أو سر نطويه ، فكلانا ينفض جعبته لصاحبه فى صراحة وصدق ، وكلانا يستريح لحديث صديقه ، ويستمتع بمحاورته ومجادلته ، برغم ما بيننا من تباين ظاهر فى الأمزجة ، واختلاف ملحوظ فى المشارب والأهواء ، وفى الطباع والسلوك . .

ولاختلافنا فى المشارب وجوه كثيرة ، فأنا سهل القياد ، لين العريكة ، رقيق الطبع ، وهو وعر الجانب ، صلب الإرادة ، حاد المزاج . . أنا جرىء مهذار ، وهو حيىّ خجل . . أنا فاجر النفس ، ماجن القلب ، وهو إيمان ملحد ، وتقشف هلوك ! . . أنا أعب الخمر عبًّا ، وأسافر أميالاً وراء أنثاى ، وهو لا يذوق الخمر ، ولا يقبل على النساء مجبنةً لا تقى !

واختلافنا في الشكل واضح بين . . أما هو فطويل القامة ، نحيف البنية ، له سمة النبلاء ، ووجهه المضيم ينبئ عن انحداره إلى شيخوخة مبكرة متداعية .. وفى حركاته سذاجة كتلك التى ترى فى رجال الريف ؛ وأما أنا فممتلئ الجسم ، سوىّ الخلقة .. أجيد السلوك على قواعد اللياقة ، ونظم « الإتيكيت » !

مسكين « عبد الرءوف » هذا ! إنه يكبرنى بأربع سنوات ، لكن حياته لا نفع فيها ولا ضر ، « وما الناس إلا من يضر وينفع » ! فهو يعيش فى دنيا خيالية ، خارجة عن نطاق الكون ، بعيدة عن محيطه ، لأنه لا يقدر أن يعيش فى دنيا الواقع ! . : تراه فلا تكاد تفهم له أمراً . فعلى وجهه مسحة من الكآبة ، وفى عينيه نور دقيق من الأسى الصامت ، فكأن حزنه يتكلم وهو واجم ، وكأن قلبه يتفطر وهو باسم . . وقد طُبعت على زاويتى فمه دلائل الألم والحرمان ، ونطقت قسماته بذكاء الرجل الذى تعهد مداركه العقلية ، وأكب على الدرس والقراءة ، ثم أهمل ما عداها ، ولا سيما مظهره ، وهندامه . :

تغالى « عبد الرءوف » فى حب المطالعة ، وعكف — بكل ما أوتى من وقت وجهد — على الدرس والبحث ، ووقف عمره على إطعام أحلامه الجائعة إلى العلم . : وكان أيام الجامعة يتشهى أن يعقد صداقات بين زميلاته ، لكن حياءه كان يعقد لسانه دائماً إذا تحدث إلى إحداهن ، أو حاولت إحداهن أن تمزح معه ، أو تروى له نكتة ، فانصرفت عنه الزميلات ، وأعرضن عن صحبته رحمة به ، وإشفاقاً على حيائه . . وحالت كبرياؤه دون أن يسعى إليهن ، أو يطلب صحبتهن ، وانكب على الدرس والتحصيل ، وراح يلتهم ما فى بطون الكتب ، مما يتصل بالمرأة والحب والجنس ، فنمت فى نفسه عقدة ، بعد أن عرف المرأة فى الكتب والأسفار ، ولم يعرفها فى الحياة والمعاشرة . .

ومرت بنا سنوات الجامعة و « عبد الرءوف » لا يعرف طعم القبلة . . حتى القبلة العابرة يخطفها من خد زميلة ، ويتلقى بعدها صفعة أو لكمة !

كان يسخر من الحياة لأنه لم يحب ، وهو لم يحب لأنه تعالى على الحب ، أو جبن عنه ، وراح يبحث عنه فى الكتب لا فى واقع الحياة !

وكان قلبى يحس التياعًا كلما رأيته على صورته الساهمة . . وكم حاولت — بكل ما يسعى الصديق لخدنه — أن أواسى فؤاده ، أو أضمد جراحه فما كنت لأفلح فى تسكاب حنانى على آلامه إلا غبار الميل !

أخذ « عبد الرءوف » يرافقنى إلى مجالس اللهو والشراب ، لكنه كان يجلس ينظر ويستمع ، ويأكل « المزة » بدون أن تمتد يده — مجبنة — لرفع كأس ، أو غمز عضد ! فقد كان منكمشًا متخاذلا ، وكان خجله يصيبه برعدة خفيفة خشية أن يبدو مضحكًا ، وحين يتكلم كان يخالجه التردد ، وتلوح عليه أمارات الانفعال ، غير أنه ينقلب متكبراً متعجرفًا حين يلقى نفسه فى محيط لا يعرفه فيه أحد . ولولا هذه الكبرياء التى تقيد حركاته لكان له من شبابه ما يدفعه إلى غير قليل من الحماقات والسخافات التى تورطت فيها ، ويأخذها على ! . . . .

وما إن مر عامان حتى وصلت إلى النهاية التى لابد أن يصل إليها كل من سلك سلوكى ، وانتهج نهجى ، فضاعت الثروة التى ورثتها عن أبوى ، أو كادت ، وضعفت صحتى ، وذبل شبابى . : ولولا أنى وجدت فى صديقى « عبد الرءوف » هذا إنسانًا يأسى على أكثر مما آسى أنا على نفسى ، ولولا أنى وجدت فيه مواسيًا ورائداً ينتشلنى من نفسى حين أهم بأن أوردها — استهتاراً أو يأسًا — موارد التهلكة ، لولا هذا لما قدر لى أن أسود هذه الصفحات !

وأفقت أخيراً من غفلتى ، وأدركت — بوساطة هذا الصديق الناصح الملحاح — أنى أبعثر أطيب أيام عمرى بلا جدوى ، وفطنت إلى أن هذه خسارة

لا تعوض بوجه ولا حيلة، وأحسست عمق حاجتى إلى الهدوء والاستقرار . .

وخطا « عبد الرءوف » خطوة إيجابية لتكوين أسرة ، فخطب إحدى زميلاته . . وقد رافقته غير مرة فى زياراته لخطيبته « أبلة سعاد » فى بيت أهلها ، وصحبتهما معاً ليالى كثيرة — داعياً أو مدعوًّا — إلى المسارح ودور السينما . .

و « سعاد » شابة على قدر من الجمال والذكاء ، وعلى قدر أكبر من المرح والجاذبية ، وهى تعرف عنى الكثير ، فإن « عبد الرءوف » لا يفتأ يقص عليها بعض أمرى ، ويحدثها عن غرامياتى ، فتألم لحالى ، ولا تمل من ترغيبى فى الزواج كلما التقينا . .

كم قالت ناصحة مشفقة تلك العبارات المتواترة : تطلع إلى المستقبل ، فمن جار على شبابه جارت عليه شيخوخته . . عزيز علىّ أن أراك تقضى تسعة أعشار الليل والنهار فى الشوارع والمقاهى والحانات ، خشية لقيا تلك الحجرة التى طالما تحدثت عن الفوضى التى تعمها . . إلى متى تبقى نزيل الحجرات المفروشة و « البنسيونات » ؟ ! إلى متى تظل « ردّ » ملاه وحانات ! : . لقد جاء الوقت الذى يجب عليك فيه أن تنظف سمعتكَ . . يجب أن يكون لك بيت تستقر فيه ، وأسرة تنعم بينها . . فى نفسى أن اختار لك عروسًا تسكن إليها وتستريح . . عروسًا تملأ عليك حياتك ، وتسد فراغ عينك . . إنى أفهمك أكثر مما تفهم أنت نفسك . . وإنى — والله — لحزينة لأجلك ، متألمة لحالتك . دعنى فأختار لك « التيب » الذى يوائمك ، فمثلك لا تصلح له أى عروس ، مهما تكن جميلة . . أنت تحتاج إلى شاعرة رهيفة الحس . . أنا لا مصلحة لى فى زواجك ، لكنى مشفقة من سهرك الليالى ، وتبذيرك مالك وصحتك . .

ويوماً كنت فى زيارة « سعاد » ، فى صحبة خاطبها « عبد الرءوف » ،

فلفت نظرى إطار جديد أنيق ، على النضد فى حجرة الجلوس . .

تناولت الإطار فإذا الصورة صورة «سعاد» بين صبيتين فى مثل سنها . .

أخذت أتأمل الصورة ، فألفيت إحدى الصبيتين قد جمعت فى ملامحها مشابه من الحسناوات الخاليات : « أليس » و « مارى أنطوانيت» و « جوزفين » . . لها من هذه عيناها وجبينها ، ومن تلك فمها وذقنها ، ومن الأخرى سحنتها وقسماتها . .

وغرقت فى بحار الأفكار . .

ولحظت « سعاد » ذهولى وأنا أتطلع إلى الصورة ، فضحكت ، بل قهقهت ، وربتت كتفى ، وقالت : إلى أين سافر بلك الخيال ، يا « عبد الرحمن » ؟ !

ــ أوه ! . . من هذه التى عن يمينك ؟ !

تأملت الصورة ، والإطار فى يدى ، وقالت : هذه . . « سمية » . . « أبلة سمية » . . زميلتى ، وزميلة « عبد الرءوف » . . مدرسة العلوم . . نقلت إلى مدرستنا فى هذا العــــام . . إنها لكاملة المحاسن ، وإنى و « عبد الرءوف » لنرشحها عروسًا لك . . واعتقادى أنها سوف تنسيك ــ متى عرفتها ــ من عرفت من قبل ، فهى جمال وكمال ، وحلم وأدب ، وظرف ورقة . .

قال « عبد الرءوف » : أخرجينى أنا من هذه المسألة . . إنى أحب أن أسير على الحكمة القائلة : « امش فى جنازه ، ولا تمش فى جوازه » !

قلت : أفهم من هذا أنك غير موافق على ما وصفت به « سعاد » زميلتكما من كمال المحاسن ؟

قال : لا . . ما قلت هذا ، ولاعرضت له . . وإن زميلتنا « سمية » لجديرة بكل ثناء وإطراء ، غير أن ترشيح زوج مسئولية كبيرة ، لا أحب أن أتورط بالاشتراك فيها . . وفى اعتقادي أن الزواج اليوم يجب أن يقوم

على التفاهم الكامل. أما اللجوء إلى طريق « الخاطبة » — وإنْ فى صورة مهذبة — فلا أظنه زواجًا ناجحًا .

قالت « سعاد » : وكيف يحدث التفاهم الكامل ، إن لم يكن لقاء وحديث ؟! .. إننى لا أفعل أكثر من أن أقدم إلى صديقنا العزيز زميلة طيبة جميلة وديعة ، يشهد لها الكل بالاستقامة وعزة النفس . . سأمهد لهما اللقاء الأول ، لإيمانى بأن « سمية » هى العروس التى يريدها « عبد الرحمن » ، ويحتاج إليها ، وأنها التى تنتشله مما هو غارق فيه . .

قلت : هل تعتقدين أن رجلاً مثلى يسعد فى زواجه ، ويصلح لتكوين أسرة ورعايتها ؟ ! . . لقد عرفت حسناوات كثيرات اختلفت ألسنتهن وألوانهن ، وتباينت أديانهن وجنسياتهن ، فأخشى أن تكون هذه المغامرات . .

— هذه المغامرات الماضية إنما هى « بوليصة تأمين » ، تضمن نجاحك فى الزواج . . لقد عرفت كل شىء ، فلن يخونك عزمك لو تزوجت !

قال « عبد الرءوف » : تقصدين أن ماضى الرجل « حقنة تطعيم » ضد الإخفاق ، تحصن الزواج ، وتحفظ الزوج من الانحراف ؟ !

قالت : نعم ، فلا بد من تعثر قبل كل استقامة على السواء . . و « دوران » الرجل يزيد من رغبته فى الهدوء والاستقرار ، ويجعله أشد حرصًا على حياته الزوجية . . على كل حال اسمع يا « عبد الرحمن » . . . « سمية » سترافقنى غداً إلى الحلاق ، فى ميدان « سليمان باشا » لنسوى شعرنا ، ثم نذهب إلى حديقة « جروبى » ، لنتناول الشاى ، حيث يكون « عبد الرءوف » فى انتظارنا هناك . . فتعال . . ستكون هذه فرصة لتراها ، وتتحدث إليها ، ثم تحكم . .

قلت : أتعرف زميلتك أنى قد أحضر ؟ !

ــ من أين لها أن تعلم وأنا لم أحدثها فى شىء بعد ؟! . . لست واثقة أنك راغب فى الزواج ، بل فى رؤية عروس ! ثم . . يجب أولاً أن تلتقيا وتتعارفا ، ليمكن أن نسأل كلاً منكما عن رأيه فى الآخر . .
ــ حسناً . . سأحضر . .

٤٨

رأيت « سمية » ، ودار بيننا حديث ذو شجون ، فإذا شخصيتها لا تبعث فى النفس أثراً طاغياً ، بقدر ما تثير الشعور بخوف مبهم خفى . والإحساس بأنها من أولئك الفتيات « الناصحات » اللائى لا يسهل اكتساب ودهن واستمالتهن ! . . إنها جميلة وديعة ، لكن يخيل إلى أن هذا الهدوء ، أو البرود ، الذى يطبع مظهرها ، ليس إلا صدى حزن دفين ! ففى عينيها المليحتين قلق مكبوت ، وتطلع إلى مجهول ، وانتظار طال أمده ، وعاطفة جاشت ، ثم هجعت إلى حين !

وهى تحاول أن تكون فاتنة جذابة ، فتتحدث فى رقة وشبه همس ، وترفع عينيها كما ترفع أزهار البنفسج كؤوسها الحيية متعطشة إلى الندى ، وتدرج رشيقة الخطى ، كالعصفور حين يهبط ليستقى أو يلقط الحب ! . . لكن هذه المحاولة لا تخفى على عين خبير مثلى ، فإن « سمية » ظمأى صادية ، تبحث عن ينبوع حب ، وإن وراء هذا المظهر الخارجى البارد ناراً ملتهبة تشتعل فى حذر وحرص !

هذا هو الأثر الذى تركته « سمية » فى نفسى ، فى أول لقاء . وقد أويت إلى فراشى ، فى تلك الليلة ، وأنا أفكر فيها ، وذاكرتى تستعيد حركاتها وسكناتها ، وأقوالها وإشاراتها . .

كنت أفكر فيها لا كما كنت أفكر فى الحسان اللائى عرفتهن من قبل ، وإنما هو تفكير يحيط به الحنان ، وتلفه الرغبة فى امتلاكها ،

لإسعادها هى ، ومحو شقائها الذى تحاول إخفاءه . . إنه تفكير غريب حقًّا ، فكأنى أريدها لنفسها ، أكثر مما أريدها لنفسى !

وأبى خيالها أن يفارقنى حتى الصباح . :

وفى تلك الأيام كنت أحيا حياة عارية من المباهج ، ودواعى السرور والهناءة ، ورأيت « سمية » جديرة بأن أغزو قلبها ، وأتسلط على عواطفها ، وطمعت فى أن أفيض على قلبى بعض الدفء الذى يبعثه قربها وحبها . . لكن . . ما لى ؟ ! . . أى تغيير أصابنى ؟ . . ما هذا الاضطراب الذى يعرونى لذكراها ؟ ! . . ما هذه الرعدة التى أحسها حين أراها ، وأجلس إليها ؟ !

لو استطاع إنسان أن يقرأ قلبى أيامئذ لاعتقد أنى هاوٍ فاتر الحس ، خامد العاطفة ، أو محب مبتدئ ، يقيد الشغف لسانه ، ويحبس الكلمات فى صدره !

أتراني أحببتها ؟ !

يخيل إلىّ أن نعم !

ولماذا أحببتها ؟ !

ألجمالها ؟! : . ما أكثر ما عرفت من جميلات !

ألذكائها ؟! . . لم يظهر منه ما يصح أن يكون ميزة لها !

ألثقافتها ؟! . . مهما تكن فلن تسمو إلى ثقافة الحسان الباريسيات!

ألمالها ؟! . . لا أظنها تفضانى فى هذه الناحية !

فلا شك — إذاً — أن هناك موحيات خفيّة قديمة راسبة فى أعماقنا ، توجهنا ، وتسيطر على حياتنا !

* * *

قرأتْ « سمية » ما فى عينىّ ، وقرأتُ ما فى عينيها ، وتفاهمنا . . فميولنا تكاد تلتقى وأغراضنا توشك أن تتحد ، وأمزجتنا يلفّها الوئام والوفاق . .

وأحببت « سمية » . . وشقيت بهذا الحب من مبتدئه ، بقدر ما سعدت به ، إذ استحوذ عليّ خوف وجبن ما عهدتهما فى نفسى من قبل . . وقد فكرت فى هذا الخوف والجبن ، فإذا مأتاهما أن ماضيّ حالك ، حافل بالذكريات ، وأن « سمية » تمشى مرفوعة الرأس ، بلا ماض يثقل خطاها ، فكيف يجتمع النقيضان ؟ !

هبنا تزوجنا . . أفلا تحس « سمية » بعد حين عبء ماضيّ يثقل على قلبها ، ويضيق به صدرها ، فتتنغص هناءتى وهناءتها ؟ !

إن هذا الماضى الأثيم هو مصدر ما أحسه فى حضرتها من اضطراب كان يفارقنى حين أبتعد عنها ، ليترك وراءه هياجًا وأسى وقلقاً ، أكثر مما كنت قبل رؤيتها ! إن هذا الماضى شبح يقف بينى وبينها !

كانت « سمية » تفارقنى ، فأسقط فى وحدة بشعة ، أتألم فيها وأشقى ، وأنفر من المجتمع ، ولا أطيق أن ألقى إنساناً أفضى إليه بألمى ، وأجد الراحة فى جواره . . ثم تنقضى ساعات . . وإذا أنا أحس حاجة ملحة إلى الاجتماع ،لكن الليل قد تقدم ، فآوى إلى حجرتى ، وأطرح نفسى على الفراش ، وأبيت أتقلب ، والآمال والذكريات تعبث بى عبثاً جريئًا لا يرحم وحدتى ،فأنظر فى حيرة وغيظ إلى جدران الحجرة الصماء ، الجاثمة فى جمود ، وأنا أتمنى لو أستطيع أن أحطمها ، وأنطلق فارًّا منها . . كانت هذه الجدران تمثل سجنًا يضمنى وحدى ، فلا أغمض عيناً ، وإنما أبكى كالطفل فقد لعبته العزيزة .

كم كان قاسيًا هذا الذى كنت أعانيه ! . . إنه حالة مريعة كنت ألتذ بها فى الماضى ، وأحسها تشبع روحى ، وتهدئ ثورة نفسى . أما الآن — والليالى تمضى بى بطيئة مكتهلة متشابهة — فإنى أشعر بالحقد على هذا الماضى الذى اقتنصه الشيطان ، وسخرنى فيه تسخيراً . .

كان ماضيّ قاسيًا عليّ ، وكنت ألتذّ فيه بهذه القسوة ، وأفتش

عنها ، وأسعى إليها ، حتى ضيعت مالى ، وأنهكت قواى ، وأنا فى هذا كله أشعر بالسعادة الشاذة ! أما الآن فقد ازدادت نقمتى على نفسى ، ووصلت إلى الوقت الذى أطالب فيه الحياة . . أطالبها للصديقة الجديدة « سمية » أكثر مما أطالبها لنفسى !

ألم أقل من قبل إن حادثًا واحداً قد يكفى ليطردنا من أنفسنا ، ويضع فينا وجداناً جديداً ، وإرادة جديدة ، ويخلق منا إنسانًا جديداً ؟ !

أتراني أمر بهذا الدور ؟ ! أوَ تراك أيتها الصديقة بطلته ؟ !

* * *

قضينا معًا أوقاتًا طيبة هانئة ، فى جزيرة الشاى بحديقة الحيوان ، وفى صحراء الهرم ، وصحراء مصر الجديدة ، وفى نوادى القاهرة ، وبساتين القناطر . . شاهدنا معًا الشمس تلملم أشعتها الواهنة ، وتختفى وراء البيوت . . رأينا معاً القمر يخطو وئيداً ، ويفرش الصحراء بنوره الفضى الهادئ . . سمعنا معًا الريح تصفر صفيراً خفيفًا ، كأنه أنة ناى بعيد . . وأحسسنا الرمال الناعمة تسفى فى رفق ولين ، كأنما تنبهنا من غفوة تخشى أن نستسلم لها !

وتأملت « سمية » جيداً . . إنها ليست فاتنة المنظر ، لكنها فاتنة الروح والنفس ! وهى متحفظة ، حتى يبلغ بها تحفظها حد الاكتئاب ، وهى ليست ثرثارة ، حتى أحس أنها لا تبدى التلطف فى بعض الأحيان إلا كواجب تفرضه المجاملة وقواعد اللياقة ! وصمتها يغيظنى ويحنقنى ، فلم أظفر منها إلا بالقليل ، فانعقد لسانى ، وقاومت رغبتى فى أن أضمها إلى صدرى !

وأكثر ما يلفت النظر فيها عيناها وشفتاها ، فعيناها الدعجاوان الواسعتان ، الفياضتان بالأسى ، تتحدثان عن حزن عميق ، وتومضان ومضات سريعة متتابعة ، وشفتاها الممتلئتان تنمان عن عاطفة زاخرة ،

وتختلجان كأنهما تهمسان بكلمات غامضة !

اقتربت منها مرة ، وحدقت إلى عينيها ، فإذا هما تلمعان لمعانًا خاطفًا غريبًا ، ارتجف له بدنى كله . . كانت نظراتها مجردة من ذلك الإغراء الذى تتكلفه الحسان فى هذه الأيام ، وكانت توحى بمعان يفهمها القلب ، ولا ينطق بها اللسان ! . : فلما لمست ذراعها العارية ، نظرت إلىّ نظرة غاضبة راضية ، ممتنعة راغبة ، مقبلة نافرة ، فتصنّعت الأسف ، وجرى لسانى بكلمات المعذرة والاستعفاء والوجد والوله ، حتّى أشرق وجهها ، وتبسم محياها . . ولما أعطتنى يدها أقبلها ، أحسست الراحة تغمر نفسى ، وشعرت برغبة فى أن أرقص وأغنى كطالب صغير !

وبعد أربعة أشهر استطعت أن أطبع على شفتيها قبلة طويلة ، وكأننا قد التقينا مصادفة بعد تيه طال عليه الزمان ! . . وقضيت ليلتى أهتف بالغمض فلا أعرف السبيلَ إليه ، وأتملق الهدوء فلا يطمئن إلىّ نافره !

لم يعد للتبصر والحذر مكان فى نفسى ، واعترفت لها — لنفسى ، وأنا صافى النية ، نقى السريرة ، متمالك كل قواى — أنى قد أحببت « سمية » ، وأنى مشغوف بها . . ولم يعد يتسلط على مشاعرى ما كان يتسلط عليها من قبل من أمل فى إخضاع الأنثى الجميلة ، والرغبة فى استسلامها ، وإنما استحوذ علىّ شوق ملتهب إلى رؤيتها بجانبى فى كل آن !

وازداد إحساسى بوحدتى المملة ، وبأن شيئاً مهمًّا ينقصنى . . ينقصنى صميم كيانى ، وملء فراغ قلبي . .

٤٩

استشرت إخوتى وأخواتى وأصدقائى فى زواجى من « سمية » . فتباينت مشورتهم . .

زعم بعضهم أن صلات الحب ضروب من اللهو والعبث . وأنها إن لم تكن مباحة فهى — على الأقل — موضع الصفح والغفران . . وحذر بعضهم الآخر مما سموه « عمل الجنون » ، وهو أن يصل الرجل حياته بأنثى لا يعرف عنها كل شيء ، أو لا تساويه تمام المساواة فى الحسب والنسب ، والمزايا الظاهرة . . وقال الخبثاء أصدقاء السوء : إن الشاب يستطيع أن يتصل بكثير من الفتيات ، على اختلاف الطبقات ، وأن يهجرهن حين تحلو له القطيعة . . وهذا أمر لا ضير فيه . مادام الزواج لا يدخل فى منهج هذه الصلات . . إن هذه الحال تسبب لهن قليلا من الحم ؛ لكنها توفر لنا — معشر الرجال — كثيراً من المسرة واللذة !

أما إخوتى وأخواتى وأصدقائى الذين استجابوا لرغبتى ، وأقروا فكرة زواجى من « سمية » ، فقد نصحوا بالتريث والانتظار ، وبأن الحزم ألا أتعجل الأمر . . وهكذا نحن دائماً : ننسج لأنواع عجزنا ، وضروب الضعف فينا ، بروداً تكسبها زى التبصر والقواعد المنظمة !

فكرت . . فكرت فى الأمس ، وفى اليوم ، وفى الغد ، وفيما يأتى به الغد . . وقررت — كما أشار شقيقى « عبد الحميد » — أن أبوح لها بماضىّ كله ، فهذا خير لنا كلينا ، لنعرف إلى أين نسير ، قبل أن « نتورط » ويمسى الفكاك عسيراً . .

ويوماً ، بعد أن تناولنا الغداء فى « جزيرة الشاى » ، أخذت أصارحها بكل ما أريد ، وأجسم لها ما أقاسى بدون أن أرفع عينىّ إلى وجهها ،

كيلا تصدنى ابتسامتها وشعاع ناظريها عن إتمام اعترافى . .

ولست أدرى كيف تقبلت هذا الاعتراف ، ولا كيف كان وقعه على قلبها ! . . وسواء لدى أبالرضا تقبلته ، أم بالسخط والنفار ، فحسبى أنى أرحت ضميرى ، وجلوت لها ما ينبغى أن تعلمه ، يدفعنى إلى هذا أنبل دافع .. فلشدّ ما كان يؤلمنى أن أخدعها اليوم ، فنشقى معاً فى المستقبل . وإنه لخير ألف مرة أن أذل كبريائى ساعة ، من أن أراها — فيما بعد — منغصة فى حياتها ، نادمة على ارتباطها بى ؛ ومن ثم كان هذا الاعتراف واجباً ، وكنت مضطراً إلى أن أفضى لها بما يخنقنى ، فجاء اعترافى نفثة مضطرمة لإحساس يعانى ألماً مبرحاً ، يتجدد برؤيتها والتفكير فيها .

إنها لحرة . . فلها — بعد هذا الاعتراف — أن تقبل يدى أو ترفضها . . فقد أديت واجبى كرجل شريف ، وبصرتها بحقيقة أمرى ، وبما هى مقدمة عليه ، ولم أحاول غشها والتغرير بها ؛ فإن ارتبطنا عشنا سعداء ، وإلا يكن ، فسأتم وحدى ما كتب علىّ من شقاء . .

يا لسخرية الحياة ! وما أعجب ما تأتى به الأيام من متناقضات ! فقد نحيا فى رفقة بعض الناس طويل زمن ، فى مودة وصداقة ، لكننا لا نخاطبهم مرة واحدة من صميم نفوسنا ؛ وقد نرى بعضاً آخر ، فلا يمضى على تعارفنا غير القليل ، حتى نظهر له مكنون ضمائرنا ، ونطلعه على أسرارنا ؛ وهذا ما كان بينى وبين « سمية » : بحت لها بسريرتى ، وكشفت لها نفسى ، وحدثتها عن أشياء لا يعرفها غير الخلصاء ، ولم أحبس عنها إلا ما لا يقال ، لأنه لا يقبل أن يقال !

وإذ فرغت من اعترافى الطويل ، لم تقل إلا : « ربنا يدبرها » !

وغرقتُ من بعدُ فى دوامة تفكير عميق . .

وقضيت الليل أفكر فيها ، وأحلم . . أحلم ، فأرتاح وأطمئن ، وأبتهج وأبتسم للحياة ، ويشرق المستقبل فى وجهى كالفجر الوردى !

يا رعاك الله ، أيتها الصديقة ! . . إنى — حين أفكر فيك — أسلو بك عمن فقدت ، وتختفى الأحزان !

* * *

كنا على موعد نلتقى فيه أمام دار « سينما مترو » ، لنشاهد عرض قصة « تزوجت ملاكاً » . . وكنت أنا وصديقى « عبد الرءوف » نسير فى شارع « فؤاد الأول » ، فى منتصف المسافة بين مبنى « المحكمة المختلطة » و « الأمريكين » حين لمحت « سمية » بين « سعاد » وشقيقتها ، فدفعنى الشغف — أو النزق والطيش — إلى الإسراع ، لألحق بهن قبل أن يملن إلى شارع « سليمان باشا » . .

وفجأة وجدتنى مرمياً على الأرض ، وفوقى سيارة . .

تجمع الناس ، وجرى « عبد الرءوف » ، ووضعونى فى السيارة التى صدمتنى ، لتنقلنى إلى « الإسعاف » . . ثم عدا « عبد الرءوف » ، وعاد بهن . .

وتحملت من الألم شديداً ،وأنا أحاول أن أظهر بمظهر القوى الجليد . .

كانت إصابتى الظاهرة خفيفة ، فأصررت على أن نذهب إلى السينما كما تواعدنا من قبل ، وهم يحاولون أن يصرفونى عما أريد ، وأنا لا أزداد إلا إصراراً . .

ذهبنا إلى السينما . . وكان شكلى وحده سينما . . « أفندى » طويل عريض وجهه معفر ينطق بالألم على الرغم من الابتسامة المزيفة ، وثيابه ملطخة ، وأحد حذاءيه مقطوع ، والآخر مخلوع ، وقدمه معصوبة ، وهو يمشى يعرج مستنداً إلى رجل ، وثلاث صبايا حسان يحطن به ، ويدخل السينما ليشاهد مناظر الآخرين !

اشتد بى الألم ، وورمت رجلى ورماً بالغاً ، وفقدت الشجاعة التى

كنت أستعين بها على تحمل هذا الألم المتزايد . .

وذهبوا بى إلى « المستشفى الفرنساوى » ، وكشفت الأشعة أن مشط قدمى اليسرى ، وكعبها ، قد أصابتهما كسور وشروخ . .

زارتنى « سمية » فى الأسبوع الأول ثلاث مرات . . وفى المرة الرابعة التقت بشقيقى « عبد الحميد » ، ودار بينهما حديث طويل ، فتوهمت أنه يبغى إفهامها أن أهلى غير راضين عن زواجى بها ، فتركتنا كئيبة غاضبة . وانقطعت عن زيارتى . .

وأحسست إحساساً مضاعف الألم بالوحدة تسحقنى سحقاً ، وبالفراغ يرهق أعصابى تلفاً واضطراباً . .

لقد توهمت أنى واجد فى « سمية » الشريكة التى تقاسمنى همى وحزنى ، كما تقاسمنى فرحى وسعادتى ؛ وأحسست أنى أحببتها ، وأنها أحبتنى ، ولأجلها هجرت الصديقات جميعاً ، واستولت علىّ حالة تصوف عجيب ، وظللت نصف عام أتخيل حياة الهدوء والاستقرار ، وأحلم بالبيت السعيد ، والأسرة والأطفال . .

أكانت تلك أحلام أطفال كبار يخدعون أنفسهم ؟ ! أكلما التقيت فى دربى بالصدر اللين الحنون ، الذى أريح فوقه رأسى ، فقدته وحرمته؟! أترى قدّر علىّ أن أترك الدنيا محروماً شطر روحى ؟ ! أتنقضى حياتى بدون أن أنعم فى جوار من جئت إلى الدنيا لأجلها ؟ ! أعلى كثرة ما شربت من خمر الغيد أروح آخر اليوم ظمآن ؟ ! أعلى كثرة ما غنيت أموت وبين جنبى أغان حبيسة ، لم يتح لى أن أشدو بها ، لأن الأصابع التى خلقت لتجذب أنغامها من قلبى لم أهتد إليها فى سفر الحياة ؟ ! أواه ! أيتها الأنغام الشجية ، يا أشجى من كل ما غنّيت ، ارقدى بسلام ، فقد قدّر عليك ألا تخرجى إلى الوجود ، وأن تظلى سجينة قلبى إلى الأبد !

* * *

انقضت ثلاثة أسابيع منذ انقطعت « سمية » عن زيارتى فى المستشفى، لكن طيفها أبى أن يفارقنى . . وحاولت أن أتصبر وأتناساها ، فأخفقت محاولاتى كلها ، بل لم تزدنى إلا تعلقاً بها . .

وكرهت المستشفى . وكرهت الحياة . . وقبل أن أبرأ وتلتئم جراحى . وتنجبر كسورى ، تركت المستشفى متوكئاً على عصا . وعلى الصديق العزيز « عبد الرءوف » . .

٥٠

تعبت . . تعبت حقاً . . وزاد من أساى أنى لا أملك تغييراً ولا تبديلا لشىء قد وقع ومضى . وهل للإنسان حيلة فى تغيير ما كان ؟ !

وبدأت أروض نفسى على أن أحبس فيها كل ما أشعر به ،وأخذت أفكر فى الخطط التى تمس الوحدة لا الاجتماع ، وصرت لا أعتمد إلا على نفسى فى إنفاذ ما أضع من خطط ؛ بل لقد عددت آراء الآخرين مضايقة لى ، وعثرة فى سبيل هناءتى .

ويوماً بعد يوم جعلت الرغبة فى العزلة تغزو نفسى ، وحب الانقباض عن الناس يتغلب علىّ ، وسئمت الصلات بينى وبين من حولى ، وأصبحت أفزع من عقد صداقات جديدة . وأمسيت لا أشعر ببرد الراحة وعذوبة الاطمئنان إلا فى الوحدة ؛ وأخفيت فى أغوارى ما يعتلج بين جنبى . لا أخرج عن صمتى ، ولا أطيق الحديث إلا بمعاناة ؛ وفى هذه الحال كنت أقطع الحديث بالنكات الهزيلة ، والدعابة المتصلة ، لأعمّىَ الطريق إلى نفسى ، وأخفى عن الناس أفكارى !

وفى وحدتى عكفت أدير الأفكار فى رأسى . . وانتهيت — بعد تفكير طويل عميق ، وبعد مجاهدة عنيفة — إلى نوع من الفلسفة ،

هو أنى أريد أن أغير روحى . .

نعم ؛ أريد أن أغير نفسى كلها . . وليس فى ذلك شىء من المغالاة أو شىء من الاستحالة . . بل إنه أمر معقول ، وتجربة يمكن أن تنجح ؛ فما أنا إلا ربع قرن من العادات والحوادث ، والأفكار والأقوال والأعمال ! . . إن نفسى هى العمل الذى أعمله ، والحى الذى أعيش فيه ، والمنزل الذى أسكنه ، وصديقاتى وأصدقائى وزملائى . . إنها ذلك العالم المألوف لى ، المحيط بى ، الذى يضغط علىّ ، ويخنقنى ، والذى أريد أن أرفعه عن عاتقى ، وأطوّح به بعيداً . .

ولم أروّ أو أتأنّ ، بل اندفعت كالمحموم ، فغيرت الحى والمنزل ، وتركت الإقامة فى قلب القاهرة إلى ضاحية المعادى ، وهجرت الصديقات وتجنبت جل الأصدقاء ، واعتزلت . .

وأطلقت العنان لخاطرى ، فانطلق يتنسم كل حرز ، ويرتاد كل مكان ، فراعنى أن ألفيت كثيراً مما لُقّنته هراء وسفاسف وأوهاماً . . وقد هالنى ذلك ، وآذانى ، وحمل إلىّ الشك فى كل شىء . . ففزعت إلى نفسى أصفى جوهرها مما علق به من أدران الأباطيل : أقذف هنا بالشبهات ، وأرمى هناك بالسخافات ، وأهزأ بما لا يقره المنطق من متوارث السنين والعادات ، حتى وجدتنى كأنما نشئت خلقاً جديداً ، حرًّا قبل كل شىء ، طليقاً ، مستقلا ، ما يربطنى بالحياة إلا الفكر ، ولا يصلنى بالناس إلا الرأى الأصيل !

وهكذا نفعنى العقل ، وآذانى . . أما النفع فلأنه فتح عينى على مواضع الزلل ، فاجتنبتها ، ووسع علىّ أبواب الحياة ، فدخلتها باباً باباً ، وعلمنى معنى الرجولة الحق ، بعد أن رفع من قدرها فى نظرى وكرّمها علىّ . . وأما الأذى فلأنه فتح عينى على مخزيات كان من الخير ألا أعرفها ، وبث لى فى كل سرور ألماً ، وأرانى طىّ كل نعمة نقمة ، وطوانى على القلق والحيرة

والشك ، فضيق عليّ هنا من حيث وسع هناك ، وجمّل الحياة فى عينى من جانب ، من حيث شوهها فى كل الجوانب !

ولجأت إلى كتاب الله أتلوه فى وعى وخشوع .. وتبلج لى فجر جديد .. وآمنت .. آمنت إيماناً لا يقوم على التقليد والوراثة ، ولا على الإحساس والعاطفة ، ولا على العقل واقتناعه ، وإنما آمنت إيماناً قائماً على الإيمان وحده ! .. « ولم يكن يقين قط حتّى كان قبله شك » ، كما قال النظام !

لم أفكر فى أن أصير عابداً زاهداً .. لا ، فحسبى أن أصبح إنساناً طيباً خيّراً ، أعين المحتاجين ، وأخفف آلام المنكوبين — وما أكثرهم ! .. حسبى أن أضحى بشهواتى ، وأن أوثر الآخرين بالحب والبر ..

وبدأت أمارس الفضائل وأعمال الخير ، وأخذت نفسى أخذاً عنيفاً بأداء الصلاة لوقتها . ولحرصى على صلاة الفجر فى المسجد اتّهمت بأنى قد أصبت بلوثة دينية !

كنت أستيقظ فى جوف الليل ، فأغتسل بالماء البارد صيفاً وشتاء ، وأخرج إلى الطريق الصامت الساكن ، كأنه مدينة الموتى ، لا أبالى بعصف الريح ، أو هطول المطر ..

وجعلت أتفقد اليتامى والأرامل ، والعجزة والمرضى ، وأبذل جهدى ما استطعت لأدخل البهجة على الحزانى والمتألمين ..

لم أعد أجرب اكتساب الفضائل بطرق خيالية ، وإنما سرت فى الطريق السوىّ ، وضربت الأمثال للناس على نجاح التوبة ، والقدرة على التضحية والإيثار ، فحظيت بإجلال عارفىّ ، وتقدير من حولى ! .. صحيح أن طيبتى وإنسانيتى لم تخففا الكثير من هموم البشر الثقيلة ، لكنى كنت سعيداً ، لأنى صرت إنساناً خيّراً ، يؤمن أن العمل الطيب هو روح الحياة ، وملاك السكينة وأس السعادة والسلام النفسى ..

وتقدمت فى طريق الفضيلة ، لأنى قنعت ورضيت ! .. لقد جربت

كل شيء ، حتى سئمت كل شيء ، فلم يعد يلفتني اليوم ما كان يصبيني بالأمس ، ولم يبق للحوادث على نفسي من سلطان إلا بمقدار ما يسمح به عقلي ، ويرتضيه فكري . .

وشفيت من دائي ، واستراحت نفسي المتعبة ، وهدأت ثائرة ضميري الحائر ، وانشرح صدري المنقبض ، وولجت الحياة من باب جديد !

* * *

كتبت إلى « سمية » رسالة حملتها العزيزة « سعاد » . .

وحضرت « سمية » في الموعد الذى ضربته . .

كانت حزينة واجمة . وبعد حديث طويل قالت : ساءنى كلام شقيقك « الدكتور عبد الحميد » . . فلهجته كانت توحي بظن أهلك أنى أعترض طريقك ، وأعرض عليك شيئاً تأباه نفسك ، وأفرض عليك أمراً يرفضه ذووك . . وساءنى أيضاً أنك لم تحاول تلطيف الجو ، وتخفيف التوتر .

— إن الصراحة في مثل هذا المقام خير من الخداع والنفاق . وإن ما علمتيه عن ماضيّ قد يكون ذا أثر سيئ في نفسك . . ولهذا أقول لك إن زواجنا قد يتم ، وقد لا يتم . لكن الأمر الذى لا ريب فيه هو هيامي بك . . وسواء تزوجنا أو لم نتزوج فموقفي منك لن يتغير . . وسأعيش وأموت على الولاء لك . . وسأكون دائماً صديقك الصدوق الوفي . . فاذكرى هذا جيداً يا « سمية » . .

— وهل من الحصافة أن أتزوجك على كره من أهلك ؟ !

— أعتقد أن مرجع هذا لنا كلينا ، لا لأهلينا وذوينا . . وثقي أني رجل رشيد ، وإن عزمت على شيء فلن يردني رادّ ، ولن تثبت في طريقي عقبة . . المهم أن تغفرى لي ما مضى !

— أتظن أني أحقد عليك لهذا الماضي ؟ ! . . لا ، يا صديقي . .

إن الماضى الميت هو الذى صقل روحك ، وأرهف حسك ، وجعل منك هذا المخلوق المحبوب . . إنك لن تكون رجلى المنشود إلا إذا كان لك ماض ، وإلا إذا مات هذا الماضى لأحيا مكانه .. إن الرجل الذى لا ماضى له مثل الكتاب الذى كسدت سوقه بعد طبعته الأولى ! . . أما الكتاب الناجح فيقاس بعدد طبعاته السابقة، وكلما تكررت الطبعات دل ذلك على أن الكتاب لا يزال مرموقاً بعين التقدير والإعجاب . . والذين حصلوا على الطبعات القديمة يحسدون من يفوزون بطبعته الجديدة المنقحة المهذبة المصقولة ، الغالية الثمن ! . . ليس المهم أن أغفر لك ما مضى ، وإنما المهم أن تنسى أنت هذه الذكريات !

كانت — وهى تتحدث — كأنها تتناول رأسى فى رفق ، وتسكب الكلمات فى أذنى بحنان ، وكأننى طفل مدلل . .

لقد كنت أنشد مثل هذه الفتاة منذ زمان . . . .

* * *

ثم لعبت بعقلى الظنون، واستولى علىّ خاطر غريب ، لوّث خيالى عن «سمية» ، وزعزع ثقتى بها ، وجعلنى أرتاب فى صدق حبها ووفائها ؛ فقد انتابتنى غيرة رهيبة قاتلة ، غيرة شاذة لا تستند إلى أساس ، لأنها غيرة من الماضى !

لم لم تتزوج بخاطبها السابق ؟ ولم تأبى الحديث عن فترة خطبتها هذه ؟ . . إن امتناعها الحذر عن الاسترسال فى الكلام عن هذه الفترة ، وصرفها الحديث إلى أى شأن آخر ، أمر يدعو إلى الارتياب وإمعان الفكر . .

إن صلتها بخاطبها كانت صلة علنية ، ولم تكن بالعلاقة الخفية كالتى بيننا ، وليس من المعقول أنها هى التى رفضت الزواج به ، بعد أن استمرت خطبتهما قرابة عام ، وليس من المعقول أيضاً أنها هى التى رفضت — فما

بعد — خطبة أربعة من كرام الخاطبين ، فقد كنا أيامئذ فى أزمة زواج ،وكان فى البلد مليونا فتاة ينتظرن . .

رباه ! لكم هو عذاب أليم أن يشك المرء فى عزيز عليه ! . . لكن ماذا أفعل ، وهى تخفى عنى أشياء كثيرة ؟ ! ربما كانت أشياء تافهة لا قيمة لها ، لكن يجب أن أعرفها ، وأن تحدثنى عنها ، فأى رجل أكون أنا إذا ظهرت أمام الناس وبجانبى زوجتى التى أحببتها، واخترتها من بين الفتيات ، ورجل أو اثنان أو أكثر — من هؤلاء الذين يزحمون المقاهى والشوارع ودور السينما — ينظرون إلىّ وإليها ، وهم قد عرفوها قبلى ، وأنا أجهل من هم ؟ ولا أعرف ما كانت صلتها بهم ؟ وماذا قالوا لها ؟ وأى الأمكنة ترددوا عليها ؟! . . أريد أن أعرف كل شىء . .

إن حبى لها ليزداد لو عرفت ، وإن بغضى ليزداد أيضاً لهؤلاء الذين سبقونى إلى معرفتها ، والجلوس إليها ، والتحديق إلى عينيها . .

أريحى قلبى المعذب يا « سمية » . .

لا ريب أن لك ماضياً حافلا بأنواع الهناء وأسباب الشقاء . . ولا شك أن رأسك قد امتلأ بالأفراح والأحزان ، بالظلال الضخمة والأطياف المزيلة . . فبوحى لى بهذا الماضى يا حبيبتى . . أسمعينى ذكرياتك ، لأعرف عنك الكثير . . لقد مر بك ربع قرن . . فماذا كنت تفعلين ؟ وفيم كنت تفكرين ؟ وماذا قلت ؟ وماذا قيل لك ؟ وكيف كانت تجرى حياتك ؟ !

لولا هذا الماضى المجهول لحملتك إلى جهات نائية ، وكشفت لك فتنة المساء فى ليالى الصيف ، وجعلتك تتذوقين جمال الطرق الطويلة المهجورة. وأخبرتك بأسماء القرى الجميلة التى يقع عليها بصرنا ! . . لولا هذا الماضى لأريتك العالم ، وفتحته لك ، فأنا أجيد هذا كله .

وارحمتاه لى ! . . لقد سبقونى إلى بعض — أو كل — ما أريد ، وتركوا طابعهم محفوراً على حياتك ، فلا أستطيع الآن شيئاً !

٥١

آمنت « سمية » أنى جاد فى تنفيذ مشروع الزواج ، بعد أن تخطيت العقاب ، وذللتُ الصعاب ، وتم الاتفاق على يوم إعلان الخطبة . .

وقالت باسمة الثغر ، مشرقة الوجه : لا تظن أنى غبية لم أفطن إلى ضيقك بكثير من تصرفاتى . . فالحق أنى كنت أتعمد هذه التصرفات ، وأرى فيها السلامة !

— لم يكن يثيرنى إلا صمتك وإباؤك الحديث عن الماضى . .

— أتظن المرأة كالرجل تستطيع أن تتحدث عن خاصة نفسها إلى كل من هبّ ودبّ ؟ !

— أتعدّينى بين من هبّ ودبّ ؟ !

— لا تغضب . . لقد كنت كذلك ! . . فأنا لا أومن بصداقة تنمو بين ذكر وأنثى ليس بينهما وشيجة قرابة ، أو صلة رحم . . وأنت لم تكن فى نظرى سوى صديق لخاطب إحدى زميلاتى . . ثم تفتّح لك قلبى . . لكنى — مع حبى — طويت عنك أمرى ، لأنى أحسست أن كشف نفسى أمامك يشدنى إليك ، ويزيد تعلق قلبى بك ، وأنت من أنت . . صياد نساء لا يشبع ! . . فأبوء أنا بالحسرة والحرقة والندم . .

— يا لك من ماكرة ! . . على كل حال لا يهمنى إلا أن أعرف موقفك من خاطبيك . .

— خاطبىّ ؟ ! . . هكذا بصيغة الجمع ؟ !

— ألم تخطبى غير مرة ؟

— أنا لم أقبل خطبة أحد إلا مرة واحدة .. وكان خاطبي هو الأستاذ « يوسف » . . المدرس بمدرسة طنطا الثانوية للبنات ، حيث كنت زميلة له . إنه شاب أسن منك ، وعلى حظ من المرح والرقة المصطنعة . وقد استمرت خطبتنا سبعة أشهر . وكنت أنا أسكن فى المدرسة ، وكان هو يروح كل يوم إلى قريته ، التى لا تبلغ المسافة بينها وبين طنطا طول شارع من شوارع القاهرة . : وصدقنى إذا قلت لك إن « يوسف » — طوال هذه الأشهر السبعة — لم يظفر منى بقبلة كالتى ظفرت أنت بها ! . ولم يكن ذلك عن عفة وتقى ، بقدر ما كان منه رعاية للعرف والتقاليد فى بيئته ، فهو من أسرة زارعة فى الريف . ولما بدأ ينشط ، وتلتهب عاطفته ، كنت أنا قد بدأت أنفر منه . لقد تبينت أنه « يهودى » فى استثمار المال والحرص عليه ؛ فلم يكن يشغل باله إلا العجول التى يشارك فى تربيتها ، والزرعة التى سيحصل على نصف حصادها خالصاً من دون جهد . . وكنت أتمنى آن تبدو منه بادرة غيرة على بدون جدوى ! فى حين كان خاطب إحدى زميلاتى يغار علينا جميعاً — لا عليها وحدها — من أجل فراش شاب كان يقوم بخدمتنا . وأذكر أن « يوسف » رآنى مرة أجالس فى النادى هذا الخاطب — وهو أجمل منه وأثرى — لأحمل إليه رسالة اعتذار من خطيبته عن إبطاء مفاجئ .. أفتعرف ماذا حدث؟ ! .. لقد مر بى وكأنه لا يعرفنى ، ففرحت أكثر مما جزعت ، وقلت : لقد دب دبيب الغيرة أخيراً فى قلبه ؛ ولكن ما كان أشد جزعى وتقززى حين تقدم منى بعد ذلك يعتذر ضاحكاً : لو أنى جالستكما لاضطررت إلى الدفع ، ولهذا أشحت بوجهى ليدفع هو الحساب ! . . إن « يوسف » لا يدخن ، ولا يجلس فى مقهى ، ولا يتردد على ملهى ، بل إنه لا يفكر فى شىء من هذا . . لكنه يدخن ، ويجلس فى المقاهى ، ويشرب « البيرة » أيضاً ، ويذهب إلى السينما — إذا كان شىء من هذا لا يكلفه

فتح حافظة نقوده ! . . والأدهى من هذا أنه حدثنى فى لهجة وقحة عما أدفعه له شهريًا من راتبى . . تصور ! ماذا كان يظن هذا الأحمق ؟ . . أكان يظن أنى أستأجره ؟ ! . . وزادت وقاحته ، فجعل يحاسبنى فيم أنفقت راتبى ؟! فى حين لم يسألنى مرة فيم أنفقت وقتى ؟ ! . . لقد جعلنى – بما كشف من طباعه – أحتقره الاحتقار كله ، وأصر إصراراً ملحاحاً على فسخ خطبته . . صحيح أن من واجب الزوجة العاملة أن تسهم فى نفقات البيت ، فإن الزوج لم ينزل عن حقه فى تفرغها له ولبيته وأولاده إلا لتشاركه فى أعباء الأسرة المالية . . غير أن الطريقة الجافة التى تحدث بها « يوسف » كانت منفرة ، بعيدة كل البعد عن الكياسة والذوق والأدب ، وكشفت عن معدن نفسه الخسيس ، على الأقل من وجهة نظرنا نحن بنات حواء ؛ فإن المرأة إذا كشفت أن رجلها لا يعرف الحب ولا الصداقة ، وليس أهلا لهما ، فقد أقيم بينه وبينها حجاب ليس إلى اجتيازه من سبيل ! . . هذه – يا سيدى – حكاية الخطبة وفسخها . . وبعد ذلك بأيام ، صدر قرار نقلى إلى القاهرة ، فتركت الأستاذ « يوسف » ، وتركت له طنطا . .

– بلغنى أن أحد زملائك الحاليين قد أبدى رغبته فى خطبتك ، وأنك اعتذرت . .

– اسمع يا سيدى منذ جئت إلى القاهرة ، أو منذ فسخت خطبة الأستاذ « يوسف » ، تقدم أربعة يريدون خطبتى : ابن عم لى ، وزميلى الحالى ، وابن عم زميل ثان ، وأخو زميلة أخرى . . أما ابن عمى فموظف بإحدى الشركات الكبرى ، ذو مركز طيب ، ومرتب كبير ، لكنه دونى ثقافة ، فأنا جامعية – كما تعلم – وهو قد وقف فى تعليمه عند حد شهادة « البكالوريا » ؛ ثم إن قلبى لا يميل إليه ، وهذا هو أهم ما فى الأمر . . وأما زميلى الحالى فهو رب أسرة من قبل أن يتزوج ، إذ يرعى

أمه الأرملة ، وأخته الطالبة ، وهما تقيمان معه ولن تتركاه ؛ وأنا أريد أن أكون حرة مستقلة فى حياتى الزوجية ؛ وفى نيتى ألا أشرك أحداً — ولا أمى نفسها — فى شئون بيتى وأمور زوجى . وأما ابن عم الزميل الثانى فيكبرنى بخمس عشرة سنة ، وهو طيب إلى حد البله . . وأما أخو الزميلة الأخرى فهو — على رفعة قدره ، وسمو منصبه ، ورغبته فى أن أترك عملى وأتفرغ له وللبيت — قد أتم الأربعين . ألست ترانى — بعد أن عرفت هذه الحقائق — محقة فيما فعلت من رفضى الزواج بأحد منهم ؟ !

— إنما كان القدر يدخرك لى ، يا حبيبتى !

* * *

وتزوجنا . .

وبدأنا حياتنا حبًّا جارفاً ، وهوى عنيفاً ، وإخلاصاً متبادلا ، ووفاء نادراً . .

وعشنا عاماً وبعض عام ، وحياتنا تدور فى فلك من الغبطة التى لا تطولها الأوهام ، فكلانا سعيد بصاحبه ، يبادله عواطف الحب والتقدير ؛ وينظر إلى الحياة معه نظرة فياضة بالهناءة ، ملؤها الأمل الحلو ، والرجاء الباسم ، والتطلع إلى المستقبل البعيد فى ثقة وطمأنينة . .

كنا نقضى عطلة الأسبوع ، وإجازات الأعياد والمواسم ، بعيداً عن ضوضاء القاهرة ، نمرح بين الحقول والبساتين ، ونلهو على شواطئ البحر أو النهر ، فنغذى حبنا وهوانا ، ونجدد نشاطنا وقوانا . . وكنا نتناول عشاءنا ليلة بعد ليلة فى المطاعم الفاخرة ، ونسهر فى الملاهى الراقية . . وكنا — فى بيتنا — نستضيف « عبد الرءوف » و « سعاد » ، وبعض الأصدقاء الخلصاء وزوجاتهم ، فنسمر ونلعب الورق ، ونطرب بأعذب الألحان . .

وفجأة خبت نار الحب ، وذوت أزهار الأحلام ، ولم يبق منها سوى

الشوك ، منذ أن التقينا ذات ليلة — أمام « سينما ريفولى » — بالحبيبة القديمة « نعيمة » وزوجها المهندس « محسن » وطفلهما اللطيف الجميل الذى بلغ الخامسة أو كاد . .

وكان لقاء ، وكانت ذكريات . . ودعتنا « نعيمة » وزوجها إلى تناول الشاى فى « الفيلا » التى يقيمان بها فى مصر الجديدة ، منذ انتقل « محسن » من الإسكندرية إلى القاهرة . . ودعوناهم إلى مسكننا المطل على النيل . . واتصل بين الأسرتين حبل الصداقة والود . .

ويوماً بعد يوم أخذت الغيرة تغزو صدر « سمية » ، وبدأت تفسر تصرفاتى حيالها ، ومعارضتى إياها ، وعدم خضوعى لرغباتها — بأنها اضطهاد لها ، وانصراف عن حبها . . فانقلبت بشاشتها ومرحها ، وساءت ظنونها ، فجعلت تسمم حياتى ، وتنغص على عيشى . . وكثيراً ما جاهرتنى بأنها كانت تود لو كنت كغيرى من الرجال بى ما بهم من نقائص ، ولى ما لهم من مساوئ ، على أن أكون شديد التعلق بقدسية الزواج ، حتى إذا ما دفعنى النزق نحو شىء مغرٍ كان لى من الحشمة والحياء ما يجعل جبينى يندى خجلا !

إنها لم تتهم حرارة عاطفتى ، ورقة حنانى ، لكنها كانت تتوجس خيفة على مستقبل حياتنا الزوجية ، وتخشى آثار زياراتنا المتكررة ، وترددنا المتصل إلى « فيلا » المهندس « محسن » وزوجته الحسناء « نعيمة » ، التى تفوق « سمية » ذكاء وجمالا ونعومة حس !

وباتت « سمية » تعيش فريسة النكبة التى خلقها وهمها وخوفها . : فما خفى عليها ما كانت تحمله النظرات بينى وبين « نعيمة » من حديث صامت وحنين ؛ وصور لها الخيال المريض أن « نعيمة » غريمتها ، وأنها توشك أن تسلبها زوجها ، فتعاظم الحقد فى قلبها ، وثارت كوامنه . . لكن كبرياءها حالت دون أن تصارح أحداً بما تعانى ، وحرصت على أن

يظل سر غيرتها مكتوماً .. وقد بعثها هذا على أن تنقطع عن زيارة « نعيمة »، وعن زيارة صواحبها خشية أن تنم حركاتها وأقوالها على أنها معذبة شهيدة . . فعاشت فى عزلة لا تزور ولا تزار ، وعشت أنا فى عزلة فكرية عنها ، وبدأت أضيق ذرعاً بها ، وأرى أنها صارت عبئاً ينوء به كاهلى أكثر من أنها مصدر مسرة وبهجة !

ولقد حاولت مراراً أن أدخل الأنس على نفسها . . ما فى ذلك ريب ! . . واستصرخت الذكريات والخيال والشعور بالواجب ، والعقل نفسه — فأخفقت . . وكيف يستطيع عزم أنشأه الواجب أن يحيى عاطفة مرّت عليها يد الموت ؟ !

وعشنا معاً بنوع شديد الضعف من ذاكرة القلب إلى حدٍّ أصبحنا معه لا نحس السعادة فى اجتماعنا !

أنا لا أتنصل من نزق مسلكى ؛ فالحقيقة أن النفور الذى استحكم بيننا مأتاه — من جانبى — غيبة الحب عن قلبى ، وبعث حب قديم ! . . وإن الغضب يقبل الإصلاح ، وكذلك الجور ، والإعراض نفسه — أما الرياء فيدخل على الحياة عُنصراً غريباً كريهاً ، يشوه جمالها ، ويجعلها مقيتة لا تطاق ! . . لكنى تصبرت ، وجعلت أعزى نفسى وأمنيها ، والحال لا تزداد إلا سوءاً . . وكلما مرت ساعة أحسست انفرادى بانفعالاتى وأفكارى ، لا تشاطرنى فيها امرأتى . . وكلما انقضى يوم شعرت أنى لم أخطئ فى حياتى خطأ يوازى إقدامى على الزواج من « سمية » ؛ فإنها بغيرتها الحمقاء قد أفسدت علىّ حياتى .. نعم ؛ إن الحياة التى كنت آملها وأتوقعها قد صارت فى حيِّز الأحلام !

لقد تزوجتها لأنجو مما كنت أعانيه من وحدة ووحشة ، فإذا غيرتها تشوه جمال الحياة فى عينى ، وتحيلها مظلمة قاتمة ، وتقطع أسباب أملى فى السعادة ، وتهدم أركان عافيتى ، وكأن وكدها أن تنتقم من ماضىّ بأن

تحيل حياتى جحيماً ، كله بؤس وشقاء ، وملل وسأم ، وحزن وألم ، فلا أكاد أستقر ، ولا أكاد أتلمس معنى واضحاً لوجودى . .

وضاق صدرى بآمالى وأشواقى وأحلامى ، حتى فكرت فى أن أطرح عن كاهلى هذا العبء الثقيل . .

٥٢

بعد منتصف الليل أويت إلى الفراش ، واستلقيت على السرير بجوار « سمية » ، لكن النوم جفا أجفانى ، فظلت عيناى مفتوحتين ترقبان نور القمر ، وهو يتسلل إلى الحجرة من خلال زجاج النافذة ، حتى ملأ المخدع . .

فتحت الشرفة ، ووقفت أتطلع إلى البدر ، وإذا لسانى يتمتم : رحم الله « أليس » ! . . كانت تهوى الليالى القمراء . .

ثم التفتّ خلفى ، فرأيت « سمية » راقدة ، ورأسها بين وسادتين ، وذوب القمر يغمر الفراش . . وأحسست أن هذه الفتاة قد قيدتنى بقيود الزواج ، وغلت عنقى بأغلاله . . وداعبتنى الأحلام بأن أحطم قيود أسرى . .

وفجأة هبّت « سمية » من نومها مذعورة تصيح : « عبده » . . « عبده » . . فكأن أفكارى قد أزعجتها ، وأيقظتها من أحلامها !

صاحت : « عبده » . . ماذا جرى ؟ . . لماذا تقف فى البرد ؟ !

ــ أتأمل صفحة النيل تحت ضوء القمر . .

ــ ادخل . . حتى لا يصيبك البرد . .

ــ ثيابى ثقيلة . . والجو لطيف !

وساد الصمت برهة ، ثم عادت تقول : « عبده » . . « عبده » . .

ظللت متكئاً على حاجز الشرفة ، وقلت بدون أن ألتفت نحوها : نعم ، يا ستى !

— فيم تفكر ؟ . . ماذا يشغل بالك ؟ !

— لا أفكر فى شىء معين . . ولا شىء يشغل بالى !

— لماذا لم تنم ؟

— ألمَّ بى الأرق . .

فجلست على طرف السرير ، وقالت : الهواء . . هلاّ دخلت ، وأغلقت باب الشرفة !

ضاق صدرى بثرثرتها ، فدخلت ، وجلست على المقعد الطويل (الشيزلونج) ، فقالت : قل الحق يا « عبده » . . هل أحببت امرأة سواى ؟ !

— ما هذا يا « سمية » ؟ . . ألا تعقلين ؟ . . لقد طرحت علىّ هذا السؤال ألف مرة !

— نعم . . وكنت فى كل مرة تقول : لا . . لكنى الآن أريد أن أسمع ردك الصادق الصريح !

كان الضجر قد نال منى ، فقلت : أنا لست غلاماً يا « سمية » . . أنا رجل . .

— أعرف هذا يا حبيبى . . أنت فعلا زين الرجال . . لكنى أحب أن تجيب عن سؤالى . .

— « لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » . . صدق الله العظيم . . أتريدين الجواب الصادق الصريح ؟ !

— نعم ؛ ليطمئن قلبى !

— كل الرجال يحبون قبل الزواج !

فبدا على وجهها الحزن ، وهى تنظر إلىّ فى قلق تنطق به عيناها

السوداوان الواسعتان ... وعضت على شفتيها ، وقالت بعد فترة صمت : كم أنثى أحببت ؟ ! . . لا تكتمني شيئاً يا « عبده » . .

صحت قائلا : لم أحب سوى واحدة . .

— واحدة فقط ؟ !

— نعم . . واحدة فقط !

فدقت يداً بيد ، وصاحت : لو قلت إنك أحببت عشرين . . أو ثلاثين . . أو مائة . . لما اهتممت ، ولا حفلت . . أما وأنت لم تحب إلا واحدة ، فمعنى هذا أنك لم تزل تهواها ، وتحن إلى عهدها . .

وأخذت تبكى ، وتغدق الدمع ، وكأن الأسى — وقد أثقل روحها — أبى إلا أن يتفجر من مآقيها ، وأنا كالحجر الصلد . . فكفكفت عبراتها ، وسألت : هل كنت تحبها حباً عظيماً ؟ !

— نعم . . أعظم حب !

— لم لم تتزوجها ؟ !

كنت أتمنى أن أصيح فى وجهها : ليتنى تزوجتها . . إذاً كنت أستريح من غيرتك وهذرك وفضولك ! . . لكنى لزمت الصمت ، فعادت تسال : لم لم تقترن بها ؟ !

— لأنها ماتت . .

— ماتت ؟ ! . . شيء محزن ! . . ماتت أم تزوجت غيرك ؟ !

لم أجب .. فغادرت الفراش ، وسارت نحوى ، وجلست على ركبتى ، ورفعت ذقنى بيدها ، لترى وجهى ، وقالت : « عبده » . . « عبده » . .

— دعى ذقنى . . أحسبتنى طفلا ؟ !

تراجعت ، وجلست عند قدمى ، وأنشأت تبكى وتنشج ، وهى لا تزال تردد : رد على سؤالى . . « عبده » أجبنى عن سؤالى . .

صحت فيها غاضباً مهدداً : ما هذه السخافات ؟ ! . . أو كلما

استرحت من لوثتك طلعت على ّ بلون آخر من جنونك ؟ !

— إني عاقلة يا « عبده » . . وأنت تعلم ذلك !

— صدقت . . وأنت ست العاقلات !

نظرت إلى بعينين يترقرق الدمع فيهما ، وقالت : هل حزنت على من ماتت ؟

— حسبي الحزن الذى ألقاه منك . .

— أنا يا « عبده » ؟ ! . . أنا أسبب لك حزناً ؟ !

— كفى هذراً . . عودى إلى فراشك . .

— أغضبت منى يا « عبده » ؟ ! . . أنا أحبك . . أحبك . . أنت دنياى كلها . .

— عودى إلى فراشك . .

— لن أنام حتى تسامحنى ، وتقبلنى !

— لقد سامحتك . .

وقبلتها . . فعادت إلى السرير ، واختفت بين الغطاء والوطاء ، ودفنت رأسها بين الوسادتين ، وتركتنى مطرقاً أفكر . .

٥٣

شقيقى العزيز « عبد الرحمن »

. . وإنى لأفهم كم يتألم من كان يعتقد أنه قد قبض على ناصية السعادة ، ثم رأى أن ليس فى يده إلا وهم ٌ يتبدد كسحابة صيف !

لقد كنت تحلم بحياة هانئة كتلك التى نعمنا بها فى بيت أبوينا — رحمهما الله — وكان إحساسك الرهيف ، ومخيلتك الخصبة ، يصوران لك تلك الهناءة فى منزل ممتلئ حبًّا وصدقاً ، ووفاء وحناناً ، تقر فيه

عينك ، ويطمئن فيه قلبك ، داخله سحر ، وخارجه ذكر ، تمر فيه الأيام والليالى كأنها رؤى ، والهم فيه لا يكاد يعكر جو الروح حتى تبدده شموس الابتسام ، والمرض نفسه لا يوافى إلا وقد طردته — قبل أن يستقر — أيد تتفانى فى الخدمة ، وعيون لا تغمض من السهر ، وقلوب لا تهدأ من الخفقان . . ولكن . . هل رأيت هذا الحلم تحقق لغيرك من الأغنياء أو الفقراء ، من العظماء أو الصعاليك ؟ !

حقًا ، إنه لمطلب جميل ، لكنه لا يرام فى غير الأحلام !

أنا — يا شقيقى العزيز — لا أنكر ما تقاسى من الهم والغم ، بل أعلم أنك تتألم أكثر من سواك ، لا لأن زوجتك شر النساء — ولديها من وقدة الحب ، ونقاء السريرة ، ومن الغيرة أيضاً ، ما يخفف من ذنبها وأذاها — ولكن لأنك أنت إنسان رقيق الشعور رهيف الحس إلى أقصى الحدود ، ولأن مخيلتك ، وما أنت عليه اليوم من مضايقة العلة — كل ذلك قد جعلك تنسب إلى زوجتك أكثر مما تذنب به إليك . .

أنت تريد منها أن تكون مثلا أعلى ، تفهم من الإشارة احتياجك ، وتدرك باللحظ ، أو بالوهم ، ما فى نفسك . . وليس هذا بالسهل حتى على الملائكة . . وأين تلك الغيرى من هذا الكمال ؟ !

يعلم الله ، وأنت تعلم ياشقيقى ، مقدار محبتى لك ، ومبلغ رغبتى فى سعادتك . . ولا يجوز أن تفسر نظراتى ، وفى بعض الأحيان توبيخاتى ، إلا بنظرات الأخت الشقيقة الشفيقة . .

ربما قسوت عليك أحياناً ، فلمتك شديداً ، ولكنك تدرك وتعلم أنى أبتغى شفاء نفسك ، وأتمنى أن تصير رجلا قويًا ، تحسن الصبر ، ولا تتزعزع أمام عواصف الحياة . .

لعلك لم تنس بعد أنى قلت لك — حين استشرتنى فى أمر زواجك — إنك تقدم على أمر يتعلق بمستقبل حياتك ، وإنك لن تستطيع أن تغير

الزوجة كما تغير القميص !

أما قلت لك هذا ، يا شقيقى ؟

لقد كنت خائفة من هذا الزواج ، ومن أى زواج ، لأنك عجلت به ولم تتأنّ ؛ ونصحتك بالتبصر والتمهل، فأصررت ، فتركنا لك الحرية فى الاختيار . .

سأحضر إلى القاهرة بعد أسبوع ، فأرجو أن أراك قد استعدت صحتك وقوتك ، حتى إذا صممت على أمر صممت عليه وأنت مالك جميع قواك الفكرية ، وأنت خال من كل انفعال نفسانى ، فتتصرف — فى هذه المرة — بعقل وروية ، لا بشهوة واندفاع عاطفى !

واحذر يا شقيقى أن يكون فى قلبك غش ، أو شىء من الظلم ، لأنك إن ظلمت فلن تجد سعادة ولا راحة فى مستقبلك .. وإنى لأوثر أن أراك تتعذب مظلوماً على أن تستريح — إن وجدت راحة — وأنت ظالم ، فإن تلك راحة خير منها العذاب !

إن الذى أخافه كل الخوف أن يتغلب فيك الطبع الضعيف على العقل الرشيد ، وأن تنمى فى نفسك عواطف الكراهية حتى تدفعك إلى ركوب ما لا تحمد عقباه . .

على كل أنا قادمة إليك بعد أيام ، وسنبحث معاً هذه المسألة بحثاً دقيقاً ، وعسى أن ننتهى إلى رأى صالح . .

ولك ولزوجتك قبلات شقيقتك :

سميرة

الإسكندرية ؟ ؟ ؟ . . .

* * *

ومع الزمن يرضى الثور النافر بالنير حول عنقه ، بل يشتاقه ويحن إليه ! . . وقد حملت — فى ضجر متزايد ، وقلق لا نهاية له — هذا النير

القاسى الذى اخترته لنفسى . . ثم أخذ اليأس يدب إلى قلبى دبيب الظلام فى الأصيل الخافت !

ثم علمتنى الأيام أنه لا بد من أشياء كثيرة علينا أن نتحملها، وعلمتنى أن أرضى بالأمر الذى يقع ، إذا لم يقع الأمر الذى أرضاه ، وعلمتنى أن مخاوف الخيال أشد من مخاوف الحقيقة !

ثم ولدت لى ابنة . . وشغلت « سمية » بالطفلة ، وخفت غيرتها وهدأت ، واطمأنت نفسها واستراحت ، وأخذت السحب التى خيمت فى سماء حياتنا تنقشع . .

ثم رزقنا ابناً . . وامتلأ البيت بهجة وأنساً بضحكات الطفلين وعبثهما ولعبهما وبكائهما أيضاً ؛ وأظلنا الحب بجناحيه الرفيقين ، واستعادت « سمية » مرحها ، وطفق وجهها الدقيق الجميل يطفح بشراً وزهواً ، لولا سحابة من القلق تمر به كلما فكرت فى ماضىّ الطويل العريض ، فتنظر إلىّ فى إشفاق وحب تنطق به عيناها الدعجاوان الجميلتان !

٥٤

أوشك ظلام الليل أن ينقشع ، وكاد الفجر يسترد أنفاسه ؛ والساعة على الحائط يتحرك رقاصها ذات اليمين وذات الشمال حركته المنتظمة الرتيبة ؛ وكلب ضال فى الشارع ينبح ويعوى ؛ وطفل رضيع فى الشقة المجاورة يصيح ويبكى ؛ وأسرتى مستغرقة فى النوم ، وأنا — فى تلك الحجرة العالية التى تطل على النيل الخالد — جالس إلى مكتبى ، أستدبر أعوامى الأربعين ، وأجتر شئون الماضى ، وأنفض الغبار عن ذكرياته ، وفى حنايا النفس انفعالات شتى تعتمل وتفور ، هى ذكريات عهد لا أتبين الآن أكان عهداً جميلا ، لأنه قطعة منى فى أيقظ الأوقات ؟

أو كان عهداً شائهاً لأنه موقر بالخطايا والآثام ؟ !

في خلوتي هذه أرى أني قد فعلت الكثير ، دون أن أفيد شيئاً ، فلم أترك في الحياة أثراً ، ولا حققت غاية ! ولو مت هذه الليلة ما استحققت أن يذكر اسمي على لسان ، ولا أن تبقى صورتي في ذاكرة أو خيال ! . . ليتني لا أموت هذه الليلة ! . . دعاء أرفعه إلى الله . . لكن ما تراني فاعلا فيما بقي لي من أيام ؟ !

على المكتب مذياع صغير يرسل أنغاماً هادئة تأتي من بعيد، وبين يديّ « ألبوم » صوري . . ويقف نظري على صورة تمثلني أنا و . .

من هذه ؟

آه ! . . هذه « جوزفين » . . أول من عرفت في فرنسا ، في ليلتي الأولى . .

نعم ؛ هذه هي بصدرها البلوري ، وجسمها الرشيق ، وعينيها الواسعتين اللتين تنطقان ببراءة الأطفال . . وفي يد كل منا كأس . .

هنا . . في هذه الصورة : الشباب ، والنساء ، والخمر . . الثالوث الذي تمتعت به حيناً كم تقضّ مضجعي الآن ذكراه !

لقد فقدت هذا الثالوث جميعاً . . أما الخمر والنساء فقد ولتا شرعاً ، فلا كأس اليوم ولا نديمة ! . . وأما الشباب فقد ولى حقيقة . . فهذا شعري الفاحم الغزير قد تساقط بعضه ، وغزا الشيب بعضه الآخر ، وهذا جسمي القوي الفتي قد تخاذل واضمحل ، وهذا عنقي الطويل المرتفع قد انحنى تحت أثقال ما أحمل من هم ملأ قلبي مرارة !

ما أشد ما يفعل الزمن بالإنسان !

إني في هذه الصورة أبدو شابًّا وسيماً ، مرحاً طروباً . . فأين أنا اليوم منها ؟ !

لقد كنت أيامها عاشقاً معشوقاً . . كنت كل شيء . . وفجأة شخت من دون أن أشعر . . وا أسفاه ! . . كيف لا نشعر بما تفعل بنا الأيام ؟ . . كيف لا نرى سير الزمن ؟ . . كيف لا نفطن لتقدم السن ؟ ! . . أكان هذا لأننا نرى وجوهنا فى المرايا كل يوم ، والسن بطيئة فى تقدمها ، والزمن ماكر فى فعله ، فلا نحس الفرق بين اليوم والأمس ؟ !

نعم ؛ إن الزمن يعمل فى بطء ، ويتقدم فى انتظام ، ويغير من وجوهنا ونفوسنا فى كثير أناة ، فلا نشعر به ، ولا نفطن لفعله ، ولهذا السبب لا نموت حسرة بعد عامين أو ثلاثة من الحياة العاصفة !

إننا لا نستطيع أن نلمح آثار الزمن . . ولكى نقدرها يجب أن نمتنع عن النظر إلى المرآة أعواماً ثلاثة مثلا . . إذاً ، فأى مفاجأة نلقى ؟ !

. . وأقلب صفحات « الألبوم » ، وتقع عيناى على عشرات من الصور وعشرات . . وترجع بى الذاكرة إلى سنين خلت ، خفق فيها القلب بالحب مرحاً فتياً ، واستمتعت فيها بالشباب متوهجاً قوياً ، وعبثتُ فيها ما عبثت شيطاناً غوياً . . ثم هبّت رياح الخريف ، وعصفت أعاصير الشتاء ، فبردت العاطفة ، ونام قوّام الليالى ، وتبدلت الدنيا غير الدنيا ، وفقدت الحياة بهجتها ونضارتها ، وأصابتنى « عاهة مستديمة » تحُول دون أن أتمتع برغيد العيش ، ولذيذ الحياة ! . . . فهذا الشيب يزجرنى ، وهذه وقدة الشباب قد خبت فى قلبى ، وهذا معين الحياة قد نضب فى نفسى ، فما أدرك لجمال الطبيعة معنى ، ولا أقيم لغض الصبا وزناً . . ومع هذا كله لا تبرح الهواجس القاتمة اللئيمة تتنزى فى صدرى ، ولا تفتأ الوساوس المجنونة الباغية تأخذ بخناقى ، ولا تزال الذكريات القاسية الأليمة تثقل رأسى حتى انحنى فى إطراقة واجمة !

ذكريات . . ذكريات . .

نساء من كل جنس ، ومن كل لون ، ومن كل دين . . وفى كل

زمان ومكان . .

كم من جميلات عرفت ثم سلوت . . بعد يوم ، أو أسبوع ، أو شهر ، أو سنة !

جميلات فاتنات لا حصر لهن قد تلطفت فى حبهن ؛ لكنى الساعة أوقن أنى لم أحب غير « سوزان » . . « سوزان » وحدها هى التى أحببتها الحب الصادق المخلص ، الحب الدائم الذى لا ينتهى حتى يأتينى اليقين . .

وإذا كنت لم أذكر عنها شيئاً فى هذه الاعترافات ، فذاك لأن حبها « قدس أقداسى » ، ولأنى أعتزم كتابة قصتى معها فى كتاب مستقل . .

إن « زوزو » هى الروح التى تنجذب إليها روحى .. إنها العقل الذى يهواه عقلى . . إنها القلب الذى يحن ّ إليه قلبى . . إنها الجسد الذى يتوق إليه جسدى ؛ فهى تجمع اللذات التى أريدها كاملة مكتملة : لذات الروح والعقل والقلب والجسد . . إنها الأنثى التى عرفتها فعرفت الحياة ونعيمها وبهجتها ورواءها . . ثم فارقتنى ، فأخذت أتقلب بين أحضان النساء علنى أنساها ! . . إنها الأنثى التى تجمع ما طوّفت أفتش عنه ، فكأنى كنت أبحث فى جوف الليل عن ضياء شمس بلا غروب !

« سوزان » هى الأنثى التى أومن أنها تمنحنى السعادة التامة . . « سوزان » هى الأنثى التى أعتقد أنى بجوارها سأكون — وهى معى — أسعد الخلق أجمعين ؛ فإنى لأعشقها العشق كله ، بآماله المختلفة ولذاته المتنوعة . . إنى أحبها الحب الوثنى فيه الشهوة ، وأحبها الحب الصوفى فيه السمو إلى المثل الأعلى !

وإنى لأنزل راضياً عما بقى من عمرى — ولو كان مائة عام — إن قدّر لى أن أحيا بجوارها شهراً واحداً . . شهراً واحداً يا ربى بقرب « سوزان » ثم أموت ! فإن أمت قبل أن ألتقى بها مرة أخرى ، فإنما أموت وقلبى

متمزق حسرة على فراقها !

أين أنت الآن يا « زوزو » ؟ وما فعل بك الزمان ؟ . . أتعيشين سعيدة مع زوجك ، أم لا تزالين شقية بحمقه وغيرته ؟ . . وطفلك الصغير . . هل نما وكبر وصار رجلا ؟ ! . .

« سوزان » . . إنى لا أحيا إلا على أمل أن أراك ، أيتها الحبيبة الغالية . . وإنى لأقف اليوم على أطلال حبك . . لأرثيه . . ولأندب شبابى الذى ضاع وأنت بعيدة عنى ! . . فهل تسمعين ؟ هل تقرئين ؟ هل تصدقين ؟ !

* * *

وأحلّل فى خاطرى بعض الذكريات ، فأرى أن أكثر عشيقاتى المتزوجات كان أزواجهن خيراً منى ، وأنهن لم يكنّ فى حاجة إلى وسامتى وشبابى وهداياى وألطافى ، وأن دافعهن إلى الحب كان فراغ العين وإسفاف الطبع اللئيم ! . . أما العذارى العاشقات فما أحمق أولئك الكتاب الذين يصورونهن فى صورة المتحسرات على ذكريات الحب !

إنها لزائفة هذه الصورة ، فما هؤلاء العذارى إلا باحثات عن أزواج ، فإذا عثرن على الزوج المنشود نسين ما فات ، وعشن الحياة الزوجية فى بيوت هادئة وديعة ، لا تمر بمخيلتهن أطياف الحب القديم إلا فى لمحات خاطفة ، والحوادث تثير فى نفس كل إنسان كوامن الماضى !

إن هؤلاء العذارى ، وشبيهات العذارى ، حين يتزوجن ، وتتذكر إحداهن هذه الضمة التى استجابت لها هنا ، أو هذه القبلة التى اختلسها منها صديقها هناك ، فإنما تذكر ذلك دون تحسر أو ندم ! . . فهذه الذكريات لا تستند عندهن — فى أغلب الأحيان — إلى عاطفة صادقة ، أو حب صحيح ! . . ومغفل كبير من يعتقد غير هذا !

نعم ! . . لقد أمسيت أشك فى أن تسع عذارى من كل عشر من

عذارى مغامرات الماضى ، لم يُقبلن على الاشتراك فى تلك الحماقات إلا تخلصاً من ملل البيت ، وهرباً من الضجر الذى يشوب حياة الشباب فى سن معينة ، وإقناعاً لأنفسهن بأنهن ما فتئن فى الحومة ، وأنهن لمّا يزلن طالبات مطلوبات ! فإذا لاحت لهن فرصة الاستقرار فى منزل هادئ ، تحت كنف رجل ما يهبهن اسمه ، ارتمين عليها ، ونسين الماضى ، وخلفننا — معشر العشاق — نتابع حيـــاة التشرد فى المقاهى والملاهى وأوكار الليل !

أذكر — وأنا أكتب هذا — ما قالته غير عذراء من أنى أسبب لهن شيئاً من البهجة والمرح ، وأطرد عنهن بعض السآمة والملل ، وأملأ فراغ فترة الانتظار : انتظار الزوج الموعود . .

على أنى بعد الخبرة الطويلة أستطيع أن أقول إن النساء الفضليات كثيرات . . كثيرات جداً . . وهن فاضلات لأن ظروف حياتهن أرادت ذلك ؛ فالمرأة التى تعيش بعيدة عن المعاشرات الجذابة ، والأوساط المهتاجة ، تستطيع أن تحفظ نفسها من السقوط . . أما التى ترتاد النوادى والمراقص والملاهى ، وتستمع إلى أحاديث المفتونين من الرجال ، فكثيراً ما ينتهى بها الأمر أن تفقد نقاء ثوبها وطهارة ذيلها ! وهنا أذكر قول « نابليون » المأثور : « إن فضيلة المرأة معلقة بحجرة فيها مقعد ورجل » !

* * *

لقد نسيت كثيرات ممن سرن معى فى درب الحب ، فذاكرتى لم تعد تعى أسماءهن ، وخيالى لم يعد يجلو صورهن . . لكن اسم « هدى » لا يزال محفوراً فى ذاكرتى ، وصورتها لا تغيب عن خيالى ؛ فالمرأة الأولى فى حياة كل رجل لا تنسى !

ويا ويحى من خطايا ذهبت شهوتها ولذتها ، وبقيت تبعتها وحسابها العسير !

٥٥

أصدقائي

طلبتم أن أقص عليكم – في كتاب – مغامراتي مع النساء. فشكراً لكم، لأنكم هيأتم لي فرصة أخلو فيها إلى نفسي، وأستعرض نزق المراهقة وطيش الشباب، حتى صورت – قدر ما استطاع قلمي الكليل – ما أحسسته من انفعالات، دون أن أسخر هذا القلم لإثبات حقائق علمية، أو تأييد نظريات نفسية؛ فما زدت على أن بسطت الحقيقة عارية عن كل زخرف، ورسمت ما انفعلت به، وما عشته.

وفي الختام يهمني أن أقول لكم إن مباهج الحياة كثيراً ما تدفع الإنسان إلى اصطناع الإثم، ومعالجة الرذيلة. فيسقط، ويتعرض لغضب الأرض والسماء. فإذا ما عثر، واحتواه الظلام. نهض من عثرته بقوة من الحياة نفسها، ولمست عيناه النور، فاسترد معه إيمانه بالله، وقداسة السماء، وشريعة المجتمع، وآداب الحياة. فندم واستغفر. وأصبح ممن يمارسون الفضائل في صدق وإخلاص. فاطمأنت الإنسانية إلى حاضره، وأنزلته المنزلة اللائقة!

فهل قلت ما يشبع نهمكم، ويرضي فضولكم، ويرجع بكم إلى عهد الشباب؟

ربما تقولون: نعم..

ولكن.. هل قلت أنا كل ما وقع؟!

نعم.. ولا..

نعم؛ لأني قلت ما يمكن أن يقال.. ولا؛ لأن هناك أشياء يحسها الإنسان بقلبه. ولا يستطيع التعبير عنها بقلمه، أو بلسانه.. والحب – الحب الحقيقي الصادق – من هذه الأشياء التي لا يحسن التعبير عنها غير القلب!

ومن ليس له سر يخفيه، فلا جمال له يبديه!

الخاتمة

هل انتهت قصة العاشق « عبد الرحمن » ؟

لا . . لم تنته القصة بعد ، وإنما انتهت مذكراته التى كتبها . . أما القصة فلها بقية أرى من حق « عبد الرحمن » علىّ أن أكتبها ، لا استجابة لرغبته ، وتنفيذاً لوصيته وحسب ، وإنما — أيضاً — ليعرف القارئ الخاتمة التى انتهت إليها هذه الحياة المرحة اللاهية الماجنة ، وكيف كان مصير ذلك الشباب الخصب الفتىّ الريان ؟ !

لقد كنت ممن عاصروا بعض أحداث هذه الحياة الصاخبة العاصفة ، وممن رغبوا إلى « عبد الرحمن » أن يسجل ذكريات عشقه فى كتاب ، لعلها تكون مثار عظة وعبرة ، أو وسيلة تسلية وتزجية فراغ . .

أما بقية القصة فهى أننى نقلت إلى القاهرة ، ونقل إليها نفر من الأصدقاء والزملاء ، جمعت بيننا المودة والألفة ، منذ أيام الدراسة الجامعية ، ثم فرقتنا الحياة ، وذهب كل منا فى اتجاه ، وشغلتنا الشواغل ، حتى اجتمع شملنا من جديد ، فتواعدنا على اللقاء فى أمسية معينة من كل أسبوع ، فى مقهى « ركس » بشارع « عماد الدين » ، فنلعب النرد أو الشطرنج حيناً ، ثم ننتقل إلى منزل أحدنا ، فنسهر نسمر ونتدارس ونتناقش ؛ فإذا كان مساءُ الخميس صحب كل منا زوجه ، وتلاقينا جميعاً فى دار « الأوبرا » ، أو فى أحد ملاهى « روض الفرج » أو « عماد الدين » ، ولا سيما « مسرح الريحانى » ، ثم نعود إلى منازلنا مبتهجين سعداء . .

وخيمت الهناءة علينا ، وعلى بيوتنا ، بالرغم من اختلاف ميولنا ، وتباين مواضينا ؛ فقد كنا مختلفين طباعاً ومشارب ، لكننا كنا متفقين

عقولاً وأرواحاً . . كان منا التقى الذى لم يذق الخمر ، ولا علق أنثى ، ولا رأى امرأة عارية غير زوجته .. وكان منا من سقط مرة أو مرتين ، ثم نهض من كبوته ، وندم وتاب . . وكان منا من ركب رأسه ، وأطلق العنان لشهواته ولذاته ، مثل « عبد الرحمن » الذى شغفه جمال المرأة ، فجرى وراءها حتى لهث ، وشاقه اللهو والمجون ، فلم يدع ملعباً أو ملهى إلا ولجه ، ولا مطعماً إلا طعمه ، ولا مشرباً إلا احتساه ، ولا مخدراً إلا جربه ، حتى شبع واتّخم ، ولم تعد له شهوة يشتهيها ، ولا أمنية يتمناها ، وتشغل فكره ، ويسعى إلى تحقيقها جهده ، ويجعلها نصب عينيه صباح مساء ، إلا أن يُسعد زوجه الفضلى « سمية » ، ويربى ولديه التربية القويمة التى تجنبهما أخطاءه ، وتعصمهما من حماقاته !

ومرت بنا سنوات ست ، ونحن وأسرنا تدور حياتنا فى فلك من الرضا والقناعـــة والتعاون والمحبة ، فلا يكاد أحدنا تظهر فى سماء حياته سحابة هم ، أو ضباب ألم ؛ حتى نتكاتف جميعاً لتفريج ضائقته ، وطرد همه ، وتخفيف ألمه ، ورد البهجة والهناءة إليه وإلى أسرته :

نعم ؛ كنا مختلفين أدياناً ، ومذاهب سياسية ، لكننا كنا أكثر من أقرباء ؛ فالقرابة علاقة إجبارية بين دمين ، أما الصداقة الخالصة فامتزاج اختيارى بين روحين . .

وفجأة بدأ « عبد الرحمن » يتخلف عن اجتماعاتنا ، وكان واسطة عقدها ؛ فقد كان ذكياً مرحاً ، حاضر البديهة ، سريع النكتة ، ينشر البهجة والسرور حيث حل ؛ وكان قلبه رحباً يخفق بضروب المشاعر والأحاسيس ، ويتسع لمتناقض الانفعالات ، ويجمع مختلف النزعات ؛ وكان يحمّل نفسه جريرة الشرير ، فيتهم نفسه ، ويراها شريكة للجانى ، ولم يقترف إثماً ، ولا حمل وزراً ؛ وكان ينتشى نشوة السعيد بالفرح يصيب الناس ، ويسعد للخير يشيع بينهم ؛ وإن لم ينله ذلك الفضل من

قريب أو بعيد ! . . كان إنساناً بالرغم من ماضيه الآثم ، ونزواته السالفة ، فكان يؤثر غيره على نفسه ، ولو كانت به خصاصة !

وذهبنا نسأل عنه ، فإذا هو طريح الفراش، يشكو آلاماً تحرمه الراحة والمنام ، حتى إنه لم يستطع أن يخرج للقائنا ، ودعانا إلى رؤيته وهو فى سريره . . فلما أحطنا به أخذ يقلب بصره فينا ، ويبكى كالأطفال ويردد فى حزن قول الشاعر الفرنسى « ألفرد دى فينى » : « آه ، يا إلهى لقد عشت ذا سلطان ، وهأنذا وحيد الآن ، فدعنى أستروح النوم فى جوف الثرى ! » ، ثم أنشد قول الشاعر :

مضى الشبابُ وولّى ما انتفعتُ به وليته فارطٌ يُرجَى تلافيه !
أو ليت لى عملا فيه أسرّ به أو ليته ما جرى لى ما جرى فيه !
فاليومَ أبكى على ما فاتنى أسفاً وهل يفيد بكائى حين أبكيه ؟ !

أخذنا نسرّى عنه ، ونشجعه، ونسأله عما يشكو ، فلا يزيد على أن ينوح مردّداً قول الشاعر إبراهيم ناجى :

قفْ تأملْ مغربَ العمر وإخفاقَ الشعاعِ
وابكِ جبارَ الليالى هدّه طولُ الصراعِ
واضياعَ الحزنِ والدمع على العمر المضاع !
ما يهمّ الناس من نجم على وشْك الزماع ؟
غاب من بعد طلوع وخبا بعد التماع
طال بى سهدى وإعيائى وقد حان اضطجاعى!

وكلما مر يوم تضاعف ألمه ، وشحب لونه ، وغارت عيناه ، وازداد ضعفه ، وبدا هزاله ، وكثرت صنوف الأدوية على « الكومدينو » بجانب سريره . .

وعاده غير طبيب ، وكل منهم يصف ألواناً من الحقن والأقراص والحبوب ، وينصح بالراحة التامة ، وتناول المقويات والمهدئات

والمنوّمات، وتحاشي ضروب الانفعالات .. لكن هذا كله لم يجد نفعاً، ولم يردّ إلى المريض العزيز فتوته وصحته . .

وعاده أخوه الطبيب « عبد الحميد » ، وابن أخيه الطبيب « أسامة » ، وذهبا به إلى أشهر الأطباء الباطنيين والجراحين ، فأجمعوا — بعد الفحص الدقيق ، والكشف بالأشعة ، وبعد التحاليل المختلفة — على أن « عبد الرحمن » مصاب بالسرطان ؛ ونصحوا بإجراء جراحة عاجلة تستأصل الداء الخبيث قبل أن يستفحل أمره ، ويستشري شره ..

وتردد « عبد الحميد » و « أسامة » لحظات ، ثم لم يجدا بدًّا من مصارحة المريض العزيز بحقيقة دائه ، وبأنه لا مفر من إجراء العملية ، فرفض — في شدة — إجراء أى جراحة ، وطلب منهما إخفاء مرضه عن زوجه « سمية » . .

وحاول سائر إخوته وأخواته أن يحملوه على إجراء العملية ، فأصر على الرفض ، وكلما زاد إلحاحهم ازداد هو إصراراً على الرفض ، وقال فى حزم : العمر واحد ، والرب واحد ، ولن تطيل العملية عمرى ثانية . . وإنى لأفضل أن أموت موتة واحدة ، على أن أموت عضواً فعضواً . . لن أقبل أن تجرى لى هذه العمليات، ولن أرضى أن أموت « بالقطاعى » ! وإذا كانت « أم كلثوم » تشدو بقول الخيام :

فما أطال النـوم عمراً ولا   قصر فى الأعمار طول السهر

فإنى أومن بالله ، وأومن أن إجراء أى جراحة لن يطيل عمرى يوماً ، وأن عدم إجرائها لن يقدم رحيلى ساعة ، (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) ، فدعونى . . أرجوكم . . دعونى أمت كما أريد . . إننى فى حال لن تدوم ، وهذا ما يعزينى ، فإما أن يتفاقم المرض فيقضى علىّ ، وإما أن أنتصر عليه وأبرأ منه . . إما أن أزول ، وإما أن أبقى .. والأمران عندى سيان، وإنما المهم ألا تطول الآلام التى تعذبنى!

وصارحنا يوماً بدائه ، فأخذنا وذهلنا ، وبهتنا وفزعنا . . وخيم الصمت لحظة . ثم بدأنا نهوّن الأمر عليه ، ونقص عليه قصص من نعرف ممن أصيبوا بدائه ، وبرئوا بعد إجراء العملية ، وعاشوا سنين عدداً ، لا يحسون وجعاً ، ولا يشكون ألما . . وحاولنا إقناعه بقبول إجراء العملية ، فأصر على الرفض ، وقال : يفعل الله ما يشاء ويختار !

حدث هذا كله و « سمية » لا تعرف حقيقة مرض زوجها ، فقد أخفاه الجميع عنها تلبية لرجاء « عبد الرحمن » ، لكنها لم يغب عنها هزاله المطرد ، على ما يتناول من أطايب الطعام ، وأحسن المقويات ، وبرغم ما تهيئ له من راحة كاملة . .

وفطنت الزوجة الطيبة إلى تعلق زوجها بولديهما تعلقاً أكثر من مألوفه وعادته ، فكلما هدأ ألمه دعاهما إليه ، واحتضنهما فى شغف شديد ، وحدب بالغ ، وقبّل كل جزء يستطيع تقبيله فيهما ، وهو مستلق فى فراشه ، ثم يصرفهما ، وينفجر يبكى . .

ولا يلبث أن يدعو « سمية » ، فيلاطفها ، ويستسمحها ، ويحتضنها ، ويقبلها فى لهفة وحنان ، وهو لا يبرح يبالغ فى وصايتها بولديهما ورعايتهما . . فإذا هونت عليه مرضه ، وحدثته عن الأمل والمستقبل ، انهالت الدموع من عينيه مدراراً ، وضمها إلى صدره ، وقال : « سمية » ؛ يا زوجتى الحبيبة ، إن أمى وأبى يدعوانى . . إنى أراهما كل ليلة فى أحلامى ، وأحس إحساساً عميقاً أنى راحل إليهما عما قريب ! . . فيزداد حزن المسكينة ، وتتضاعف تعاستها ، وتبكى فى حرقة وجزع ، وهى تقضى الليل الطويل بجوار المريض العزيز . فإذا ما تقلب أو تأوه أو ناداها ، جففت دموعها ، وأسرعت تلبى نداءه ، وتغطيه وتشجعه ، وتواسيه . .

كانت كلمتا : « نعم » و « حاضر » على لسانها دائماً ، وكان رأسها يرتفع فى سرعة ، وإن كانت لا تستطيع أن ترفع أجفانها إلا بعد جهد ،

أو بعد أن ترطب عينيها بالماء !

ويوماً وجدت « سمية » نفسها تسعى إلى الأستاذ الطبيب ، فإذا هو يفجؤها بحقيقة مرض زوجها . فكأن صاعقة قد انقضت عليها . . برد جسمها ، وجحظت عيناها ، وجف ريقها ، واعتراها بهر شديد ، وتسارعت دقات قلبها ، وعقدت المفاجأة لسانها ، وأطلقت الدموع من عينيها حارة غزيرة . .

حاول الأستاذ الطبيب أن يهدئ من روعها ، ويسرى عنها ، وهى تنتحب وتنشج ، وترجوه أن يبذل كل جهد لإنقاذ زوجها ، وتقول : إنى لأضحى بكل شىء فى سبيل شفائه . . خذ أمعائى يا « دكتور » ، وضعها مكان أمعائه . . خـــذ قلبى . . خذ عينى . . أنقذه وخذ ما تشاء . .

فقال لها الأستاذ الطبيب : يا سيدتى ، لم يعد هناك أمل فى إنقاذه، فقد فات الأوان . . إن زوجك يا سيدتى ، لن يعيش إلا شهرين أو ثلاثة على أكثر تقدير ، مهما يبذل الطب . . وكل ما نستطيع أن نفعل من أجله الآن أن نخفف آلامه بالمسكنات والمنومات . . دعيه يأكل ويشرب ما يشتهى ويشاء . والله معك !

عادت « سمية » إلى بيتها . فارتمت فى حضن زوجها تبكى وتجهش ، وتقبل شعره ووجهه ويديه . وكل ما تستطيع فى جسده الواهى الهزيل . . ثم جثت على ركبتيها ، ودست رأسها تحت غطاء المريض ، وهى تنتحب وتقول : أهكذا تخفى عنى حقيقة مرضك ، يا حبيبى ؟ ! . . سلامتك ألف سلامة ، يا روحى ، يا حياتى . . كيف نعيش من بعدك ؟ ! . . كلنا نفديك بأرواحنا ، يا أغلى من أرواحنا !

أحاط « عبد الرحمن » عنق زوجته بذراعه، وقال : عشت يا « سمية » ، وبارك الله فيك ، وبارك لك . . يا « سمية » العزيزة ؛ سامحينى إذا كنت

قد أغضبتك ساعة ، أو قسوت عليك مرة . . وصيتي أن ترعى الأولاد ، وأن تنشئهم تنشئة صالحة . . واستعيني بشقيقي « عبد الحميد » في تربيتهم ورعايتهم ، حتى لا يذوقوا العذاب الأليم الذي أذوقه . .

أخذت « سمية » تتوسل ، وتنزح ما في عينيها من دموع ، لكن توسلاتها ودموعها لم تثن « عبد الرحمن » عن رفضه إجراء العملية ، ولو ليخفف عنه بعض هذا العذاب الذي يعانيه ، ورد عليها باسماً : ما أعذب هذا الألم العظيم يا « سمية » ! .. إني لأرجو أن يكون تكفيراً عما اقترفت ، وسبيلا إلى عفو الله وغفرانه . .

ثم تحامل على نفسه ، ونهض من سريره ، وتظاهر بالقوة والعافية ؛ وأخذ يتنقل في أرجاء البيت ، يداعب الشغالة ، ويلاعب الأولاد ، ويقول لزوجه : انظري يا « سمية » .. انظري . . أنا بخير . . سأبرأ بدون عملية . . إن الله على كل شيء قدير ، يا زوجتي العزيزة !

لكن الداء الخبيث كان يدب في أحشاء المسكين ، ويتغلل ويستشرى . . وكان ألمه يزداد دقيقة بعد دقيقة .. ألم لا يطاق ، ولم تخلق له أعصاب ، وهو صابر راض ، لا ينفك يتأوه ، ويستغفر الله ، ويسأله العفو والعافية !

وكانت « سمية » لا تفارق زوجها ، بل زادت أن جاءته بممرضة خاصة ، فإذا تعشى الأولاد وناموا ، صرفت « سمية » الممرضة لتنام هي أيضاً ، وجلست مكانها على الكرسي بجوار سرير المريض طول الليل ، فإذا غلبها التعب والنعاس مالت برأسها على مسند الكرسي ، وكلها أعصاب متنبهة لحركات المريض وتأوهاته . .

مضى شهران ، والمريض يتقدم كل يوم نحو النهاية المحتومة ..

ويوماً حدثتني « سمية » في « التليفون » قائلة : « عبد الرحمن » يريد أن يراك اليوم وحدك !

ذهبت إليه فى الحال ، فقال لى : طلبت أن أراك على انفراد ، لأمر خاص . .

واستند إلى ذراعى ، ونزل عن سريره ، وذهب بى إلى حجرة مكتبه ، وفتح أحد أدراج المكتب ، وأخرج ستة كشاكيل فنظر إليها واحداً واحداً ، ورفع من بينها كشكولا مكتوباً على غلافه بخط كبير : « دموع القلب » ، فأعاده إلى الدرج ، وأغلق الدرج بالمفتاح ، ثم أخذ يقلب الكشاكيل الخمسة الباقية ، وينظر لحظات فى بعض صفحاتها ، وعيناه تدمعان ، وجسمه يرتعش . . ثم دفعها إلىّ قائلا : هذا اعترافى . . مذكرات خطاياى وآثامى ، التى طلبتم أن أسجلها . . أنت تعرف أكثرها ، وقد رأيت بعضها رأىَ العين . . خذها ، ونقح صياغتها ، ورتبها حسب وقائعها ، واحذف منها ما لا يليق نشره من وصف مكشوف ، وعبارات جنسية صريحة . . لكن عاهدنى ألا تضيف إليها شيئاً لم أكتبه . . احذف ما تشاء ، لكن لا تضف إليها سوى النهاية التى رأيتها وتراها . . لقد سميتها « صياد النساء » ، ثم عدلت عن هذا الاسم ، وسميتها « اعترافات عاشق » . . انشرها ، يا صديقى العزيز ، فلعلها تفيد بعض الشبان الطائشين ، فيدركوا حقيقة الحكمة القائلة : « لا خير فى لذة تعقب ندماً » ! . . لقد فقدت إرادة الحياة ، يا صديقى . . وهأنتذا ترانى أستعجل الموت . وأتخبط فى ضباب الغم ، وأتعثر فى أشواك الألم . . إن رؤية الأصدقاء تسرنى ، وتؤلمنى معاً . . ولست أشك فى أن رؤيتكم إياى فى هذه الحالة تؤلمكم . . فليكن لقاؤنا هنا فى السابعة من مساء كل خميس . . نصف ساعة لا أكثر . .

ثم أخرج من درج ثان « ألبوم » صور ، وقال : أما هذا « الألبوم » فلا تنشر منه إلا صور الأجنبيات . . حذار أن تنشر صورة مصرية ، أو صورة أوربية عاشت فى مصر . . عاهدنى . . ضع يدك فى يدى ،

وأقسم».. إن لك مطلق الحرية فى أن تحذف من المذكرات ما تشاء ، لكن لا تنسب إلىّ شيئاً لم أذكره . . وأفضل ألا تنشر من الصور إلا معالم البلاد .

وهذا ما كان ؛ فقد حذفت من المذكرات أضعاف ما أبقيت . ولم أضف من عندى سوى المقدمة وهذه الخاتمة الحزينة ؛ فلم أنحله لفظاً لم يقله ، ولم أضف وصفاً لم ينشئه .

ومرت الأيام ، واستشرى الداء الخبيث ؛ وامتنع « عبد الرحمن » عن رؤية أحد ، وجعل يتناول كميات مضاعفة من المسكنات المخدرة ، فكان يقضى أكثر وقته نائماً لا يكاد يطعم أو يشرب . .

فإذا خيم الليل طلب من « سمية » أن تسانده وتذهب به إلى الشرفة المطلة على النيل ، وأن تأتيه بالمصحف ، وبقلم وورقة بيضاء ؛ فيجلس فى الشرفة حيناً يدعو ويستغفر ويقرأ القرآن ، والألم يهرأ أحشاءه ، و « سمية » تلحظه عن قرب ، وهى فى أسوأ حال ، تجرى دموعها على خديها ، بدون أن تنطق أو تتحرك ، فقد طلب منها ألا تعكر عليه ساعاته الأخيرة بحركة أو كلمة !

فإذا ما فعلت المخدرات فعلها ، وأوشك النوم أن يداعب جفونه ، وبدأ رأسه يميل ، قامت « سمية » فقادته إلى سريره ، وبسطت عليه الغطاء ، وربتت وجهه فى حب وحنان ، وكأنه طفلها الصغير ، ودموعها تتساقط غزيرة حارة . . فإذا استغرق فى نومه جلست هى على الكرسى بجوار السرير . .

وفى ليلة النصف من شعبان ، وهما فى الشرفة ، غلب « سمية » الإعياء والنوم ، فلم تلحظ أن رأس زوجها قد مال على صدره . . فلما أفاقت من غفوتها ، وهمت أن تعود به إلى فراشه ، لم تجد إلا جسداً بارداً ، قد صعدت روحه إلى بارئها . . ورأت أصابعه تقبض على القلم ، وقد كتب

بضع كلمات ينعى فيها نفسه : « انتقل إلى رحمة الله . . » ، ثم شطبها وكتب : « ربما أنتقل إلى سقر » . وكتب تحتها : « لبى نداء ربه . . » ثم ضرب عليها بالقلم ، وكتب : شيعت أمس جنازة المرحوم « عبد الرحمن . . » !

لقد انتهت الآلام ، وانتهى الحب والوله ، ونضب العطش القديم ، وتقلصت الشفاه الملتهبة ، ومات الشباب !

والموت يذهب بالجمال ، وبالحب ، وبالمرض ، وبالألم . . إنه يذهب بكل شيء !

* * *

ورأيته وهو يُنزل به فى منزل ضيق ، خال حتى من الأحلام !

ومع ذلك لم أستطع أن أتصور أنه مات !

كان يعيش ، ولم يعد يعيش . . أصبح الآن لا شيء ! . . أصبح يرقد فى هذا القبر البارد . . فهل تأتى روحه وتحوم حول أحبابه ؟ !

إنى حينما أفكر فيه أحس أن روحه تحوم حولى ، وتحرك ذاكرتى !

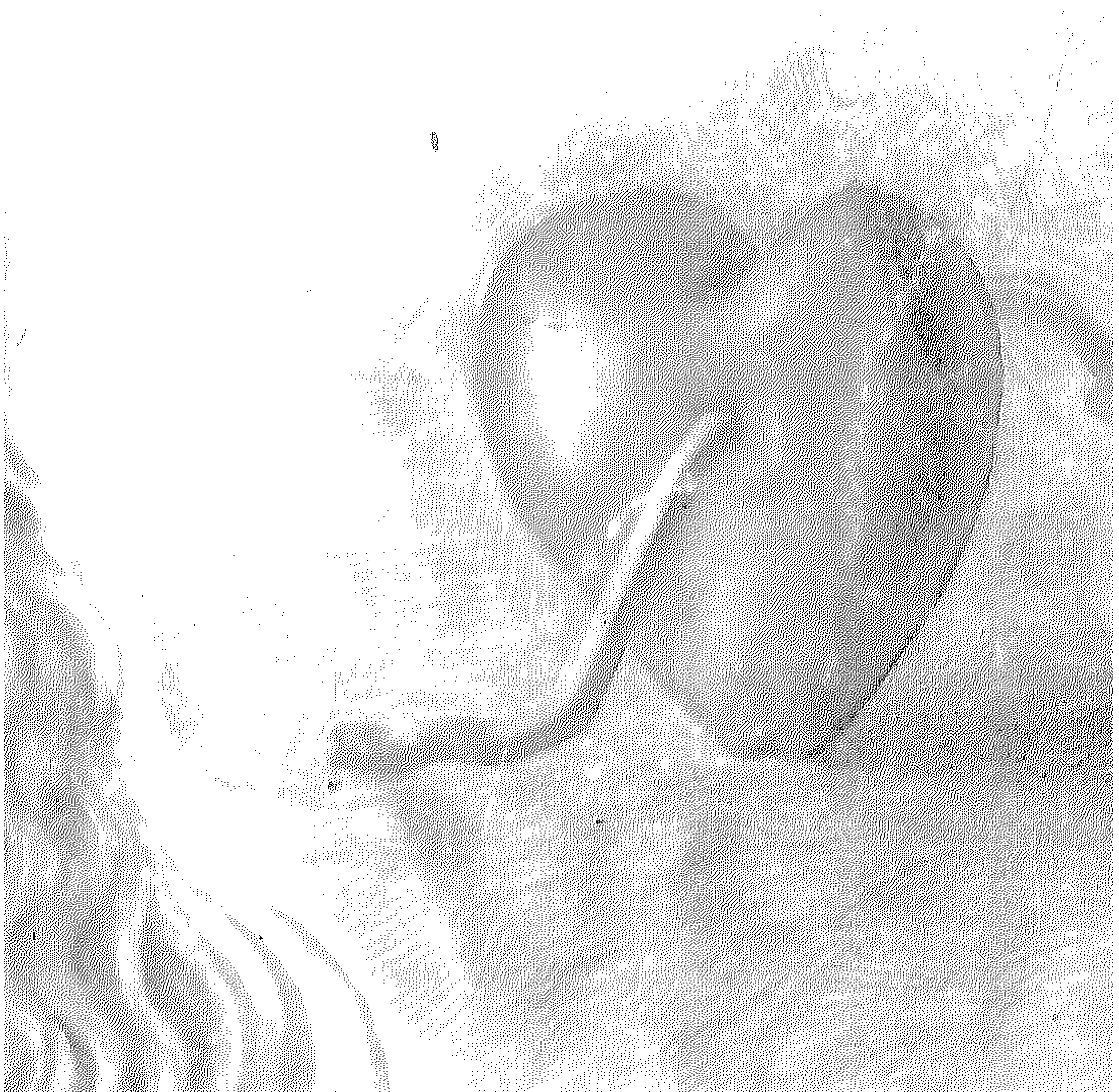
كتب للمؤلف

السلّم الرخامىّ	(قصة طويلة)	نشر دار المعارف
هاتف من التاريخ	(مسرحية)	» » »
البجعات المتوحشات	(قصة للأطفال)	» » »
القدّاحة العجيبة	(» »)	» » »
الرفيق المجهول	(» »)	» » »
أليس فى بلاد العجائب	(» »)	» » »
الكرة الذهبية	(» »)	» » »
المرآة السحرية	(» »)	» » »
دموع القلب	(ديوان شعر)	نفد
المسيحية فى الإسلام	[(للمثقفين)	»
مريم المجدلية	(مسرحية)	»
القيامة	(»)	»
الدنيا والآخرة	(للمثقفين)	»

تحت الطبع :

المنتظرون الثلاثة : الدجّال ، المهدى ، المسيح

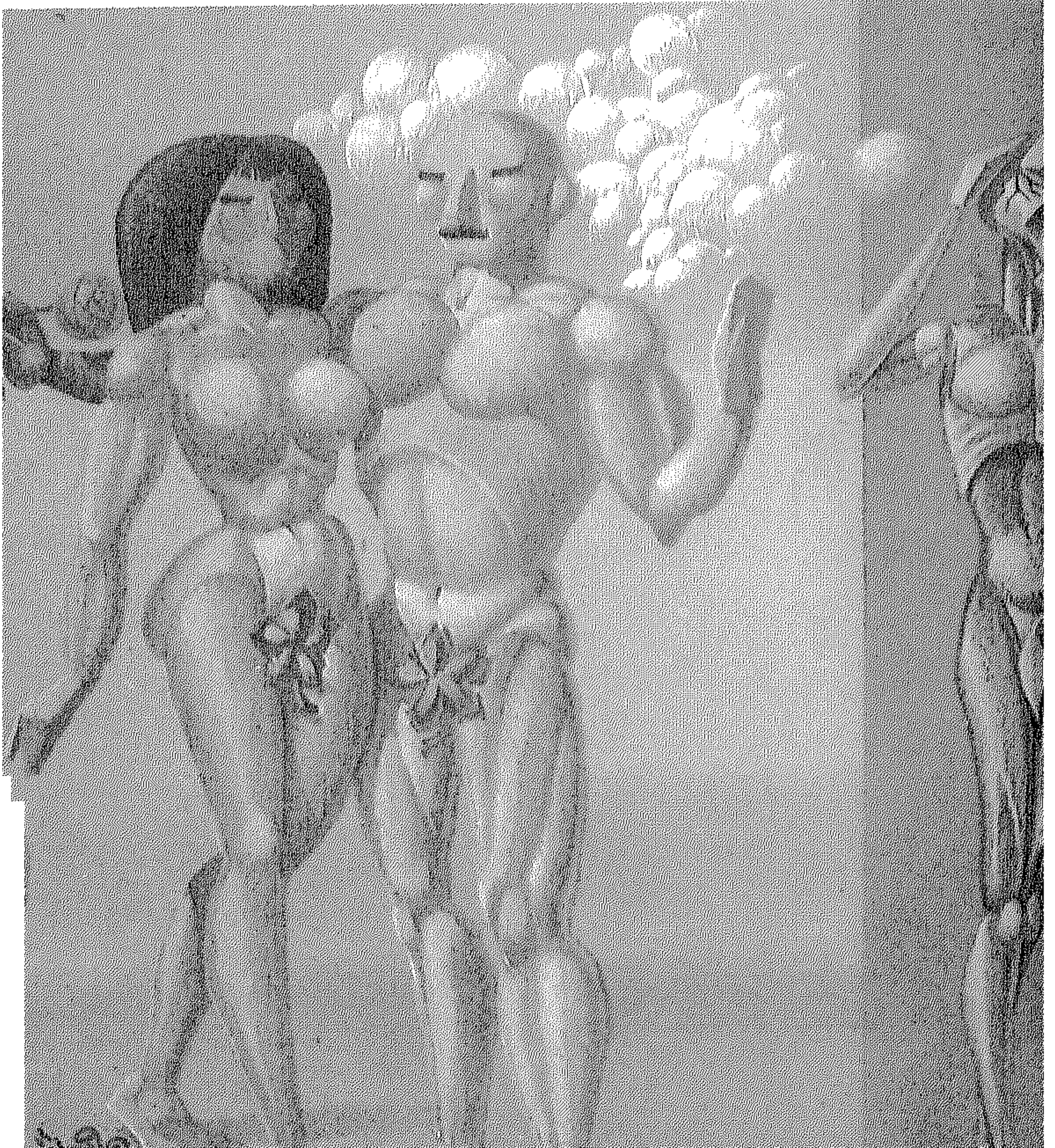
تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٥/٤٤٤٩
مطابع دار المعارف بمصر — ١٩٧٥
١/٧٥/٢١٩



اقرأ

الدكتور إبراهيم فهيم

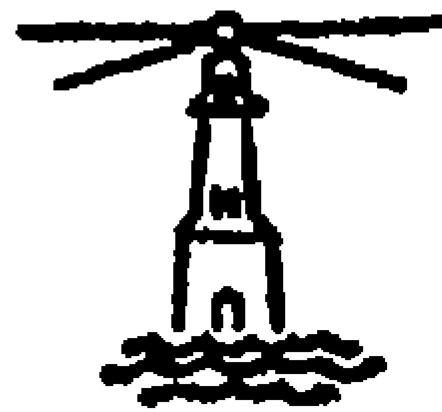
عش سليماً بغير مرض





تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر



الدكتور إبراهيم فهيم

عش سليماً بغير مرض

اقرأ ٤٠٥

دار المعارف بمصر

(اقرأ ٤٠٥)

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

مقدمة المؤلف

ظهرت باللغة العربية عدة كتب تناولت أعراض الأمراض المعروفة ، وطرق علاجها، ووسائل الوقاية منها . ومعظم هذه الكتب يهدف إلى تمكين القارىء من التخلص من المرض إذا كان مريضاً ، ووقايته إذا كان متمتعاً بكامل صحته، كما يوضح له سبيل المحافظة على سلامة جسمه ، وأجسام أبنائه فى مختلف مراحل أعمارهم . فهل حققت هذه الكتب ما تهدفبه إليه ؟

لقد تقدمت العلوم الطبية فى السنوات الأخيرة تقدماً لم يكن يتوقعه أكثر العلماء تفاؤلا ، وأصبحنا، بفضل الاكتشافات الأخيرة العديدة ، لا نخشى الأوبئة والأمراض التى كان يذهب ضحيتها الملايين فى كل عام . فلم تعد للتيفوس أو التيفود أو الطاعون أو الجدرى أو الالتهابات الرئوية وما إليها سطوة الماضى ؛ فقد دالت دولة الميكروبات المسببة لها ، وأصبحت تعجز عن مقاومة الأمصال ، ومبيدات الميكروب ، ومركبات السلفا ، أكثر من بضعة أيام — أو أسابيع — كما دلت التجارب على أن استخدام مبيدات الحشرات والمطهرات الحديثة وغيرها من وسائل الصحة الوقائية ، سلاح فعال فى الفتك بالحشرات الناقلة للميكروبات ، والوقاية من الأوبئة والأمراض السريعة الانتشار ، ولكن بالرغم من ذلك ، وبالرغم من تقدم وسائل التشخيص ، بحيث أصبح تشخيص العلة الجسمانية —

أغلب الأحوال – أمراً يسيراً أكيداً لا يحتمل الشك ، فقد زادت نسبة الوفيات الناشئة عن الأمراض المصحوبة بارتفاع الضغط ، وتصلب الشرايين ، واضطرابات القلب زيادة كبيرة ، وفى اعتقادى أن ما أحرزه العلم من تقدم فى وسائل التشخيص وابتكار العقاقير – فى ميدان الطب الباطنى – لم يستفد منه الكثيرون من المرضى الاستفادة المرجوة . فقد كانت الاستفادة فى أغلب الأحوال مؤقتة .. لأنهم ليسوا مرضى بأجسامهم بقدر ما هم مرضى بنفوسهم وأعصابهم .

إن العدو الأكبر فى معركتنا اليوم ضد المرض هو الأعصاب الثائرة المضطربة ، وعلاج هذه الأعصاب فى يدك أنت وحدك . فقد تولد بأعصاب رقيقة مرهفة ، ولكن فى وسعك أن تنظم حياتك وأن تمارس عادات تنعم بفضلها بهدوء لا يفسد صحتك وينغص عليك حياتك . وقد تولد بجهاز سليم قوى ، ولكنك تسلك فى حياتك مسلكاً يدفعك إلى الانهيار دفعاً ، فتنتابك علل لا تفيد فى علاجها العقاقير ما لم تبادر بتغيير مسلكك وتنظيم حياتك .

لذلك لن أحدثك فى هذا الكتاب حديثاً طبياً خالصاً ، ولن أحدثك حديثاً نفسياً خالصاً ، وإنما سيكون حديثى مزيجاً من هذا وذاك . فأنت لا تستطيع أن تعيش صحيح الجسم ما لم يكن جهازك العصبى سليماً ، ولن يكون جهازك العصبى سليماً ما لم يكن جسمك سليماً . ولقد صدق أفلاطون منذ أكثر من ألفى عام ، حين كان يردد لمريديه : « إن أكبر

خطأ يقع فيه الأطباء اليوم فى علاج الجسم البشرى انهم يفصلون بين النفس وبين الجسم .

إننى أطمع فى أن تقرأ هذا الكتاب بإمعان، وأن تعمل جاداً على تطبيقه ، فإنك لن تتذوق طعم الحياة وأنت ثائر الأعصاب مضطرب النفس ، ولن ينعم أبناؤك وزوجك بما تهيئه لهم من أسباب الرغد والترف طالما كنت مريض النفس مضطرب الأعصاب .

* * *

إن الاضطرابات النفسية والعصبية «أمراض معدية» ، تنتقل إلى ذويك ومخالطيك . وهذا هو السر فى أن كثيرين من رجال الأعمال والتجار والمحامين والجامعيين — وحتى الأطباء — يعيشون فى هذه الأيام فى أجواء عاصفة مريرة ، وقل أن تجد بين ذويهم من لا يشكو علة مزمنة — برغم أنها ليست مستعصية — لم تفد فى علاجها مختلف الأقراص والحقن . إن هؤلاء لا « يموتون » ، ولكنهم « يقتلون » أنفسهم !

إلى هؤلاء أقدم كتابى هذا ، راجياً أن أحقق الغرض الذى أهدف إليه ، وهو أن أمهد الطريق أمام أكبر عدد من المواطنين فى مصر، وبلاد الشرق العربى ، لحياة سعيدة خالية من المرض .

دكتور إبراهيم فهيم

الفصل الأول

هل يمكن أن تعيش سليمًا ؟



إن البشر لا يولدون متساوين فى تكوينهم الجسمى والعقلى والنفسى ، فأنت تولد متميزاً ، لا يشبهك أحد ، لأن الوراثة تجعل منك شخصاً مختلفاً عن غيرك كل الاختلاف ، وثمة طفل يولد وجسده يمكن أن يصمد لمتاعب الحياة عشرين عاماً فقط ، وآخر يولد مكتسبا لصفات يمكن أن تصل بعمره حتّى الخمسين ، وثالث يولد بامكانيات البقاء حتّى المائة والعشرين !

وكما ينبغى ألا نتوقع من سيارة مختلة المحرك ، نفس القوة والسرعة ودرجة الاحتمال التى نتوقعها من سيارة جيدة الصنع سليمة الأجهزة ، فإنه لا يمكن لطفل هزيل ، ولد لأبوين مريضين ، أن تتوافر له فرص البقاء وسلامة الجسم التى تتاح لطفل ولد لأبوين قويين صحيحى الجسم.

ومع ذلك فإن كل إنسان يمكن أن يعيش سنى حياته بطريقة تمكنه من الاستمتاع بأفضل ما يمكن أن تقدمه له الحياة من مباهج ومسرات فأسلوب حياة المرء تتوقف عليه — إلى حد كبير — حالته الصحية والنفسية ، وهذا الأسلوب من اختصاصه وحده، وعليه أن يحدده بنفسه .

وليست الصحة هى الخلو من المرض فحسب ، بل هى كذلك فى الإحساس بالحيوية والشعور ببهجة الحياة . ويحدث هذا عندما تعمل جميع أعضاء الجسم بانتظام وانسجام ، فيكمل كل عضو وظائف الأعضاء الأخر ، ويستجيب الجسم كله ، فى سرعة ويسر ، لأى واجب

يلقى إليه ، أو طارىء يطرأ عليه .

والشخص غير المريض قد يكون رخواً كسولا ، يقوم بأعماله اليومية « الروتينية » بعد جهد وعناء، ويظل يقاوم الكسل وفتور الهمة ولكنه لن يصمد طويلا ، إنه أشبه بسيارة محركها قوى سليم، ولكن صاحبها يهوى قيادتها وهو ضاغط على الفرامل !

إن أكثر الشباب لا يدرك أهمية الصحة ، على الرغم من الشواهد الكثيرة التى تؤكد أهميتها، فكم من مريض يملك من المال ما يمكنه من الظفر بكل ما تشتهيه نفسه من متاع ، ولكنه رغم ذلك يتمنى لو خسر ماله واستعاد صحته .

الصحة أمر طبيعى :

قصدت الطبيعة أن نكون جميعاً أصحاء . وكما يرفق مهندسو الآلات الدقيقة تعليمات تتبع عند إدارة هذه الآلات ، حتى لا تفسد أو تبلى قبل الأوان ، كذلك وضعت الطبيعة نظما — كشفت عنها الخبرة الطويلة والبحوث العلمية الحديثة — إذا اتبعتها ضمنت سلامة أجهزة جسدك حتى نهاية المدة المقررة لعملها . والطبيعة أعظم واق لك وأنجع علاج للكثير من أمراضك وأوجاعك ، إذا أتحت لها الفرصة لكى تعمل ، وسلكت فى حياتك مسلكاً يتمشى مع نظمها وتعليماتها .

لا تعاند الطبيعة ، ثم تتوقع من الطبيب أن يقدم لك المعجزات . إن أكبر خدمة يمكن أن يؤديها لك الطبيب ، تدخل فى نطاق الوقاية ،

لا فى نطاق العلاج . فهو لا يستطيع أن يصلح ما تفسده أنت بتهورك وإهمالك . ولكنه يستطيع أن يعاونك على الاحتفاظ بصحتك إن كنت صحيحاً ، ويمكنك من أن تعيش بمرضك أطول مدة ممكنة ، تستمتع خلالها بأقصى ما يمكن من الشعور بالحيوية والإحساس ببهجة الحياة .

ثلاث صور من الناس :

وأنا وأنت إزاء الصحة ، واحد من ثلاثة :

١ ــ شخص يغلو فى تطبيق القواعد الصحية ، حتى يصبح أسيراً لها . إنه فى كل صباح يحصى عدد ساعات نومه ، ويراجع فى كل مساء ما أكله وما شربه ، وذهنه متعلق دائماً بدقات قلبه ، فإن أسرع قليلا تملكه الخوف ، وإن أبطأ قليلا خيل له أن نهايته قد اقتربت . إنه لا يشرب من كوب فى مطعم ، ولا يستعمل أدوات غير أدواته مهما اضطرته الظروف إلى ذلك خشية المرض . وحديثه فى معظم الأوقات ــ فى بيته وفى عمله ــ يدور حول الظواهر الكثيرة التى « ينفرد » بها ، فى رأسه ، وصدره ، وقلبه ، ومعدته . وعلى مر الأيام يتزايد اضطراب نفسه ، واضطراب أعصابه ، فتنهار جميع أجهزة جسمه ، وتختل وظائفها .

٢ ــ شخص ثان يضرب بجميع النصائح المتعلقة بالصحة عرض الحائط إنه يؤمن بالفلسفة القائلة : « كل واشرب وامرح فقد تموت غداً » . ولعلنا لا نعيب مسلك هذا الشخص ، لو أن فى استطاعة الإنسان أن يأكل ويشرب ويمرح ويستمتع بأوقات طيبة طول الوقت ، ثم تنتهى

حياته وهو غارق فى ملذاته ، ولكننا لا نسيطر على حياتنا ، وإذا لم نلتزم الحكمة فى شبابنا ، فإننا لا نلبث أن نقع فريسة للأمراض والأوجاع ونرزح ما بقى من حياتنا تحت نير آلام جسمانية ونفسية لا حصر لها . ويزيد من إحساسنا بالألم ، شعورنا بأننا أصبحنا عبئاً ثقيلا على الغير ، وأننا قد جنينا على أبنائنا وذوينا ، بحرمانهم من معاونتنا ورعايتنا ، نتيجة للإهمال والتهور والإسراف ، فى المراحل الأولى من العمر .

٣ – وبين هاتين الصورتين المتناقضتين ، صورة أخرى تعد من الناحية الطبية صورة مثالية . إنها صورة الشخص الذى يسير فى جميع أطوار حياته بقدمين ثابتتين وخطى وئيدة ، فى طريق وسط ، مؤمنا بأن الاعتدال هو حجر الزاوية للحياة الصحيحة السعيدة ، ومؤمنا أيضاً بأن درهم وقاية خير من قنطار علاج ، ولذلك فإنه يعرف نقط الضعف فى جسمه – وكلنا لا يخلو من ناحية حساسة فى جسمه تتأثر بسرعة لأقل المؤثرات – ويعرف عن خبرة ما يثير هذا الضعف ، فيتفاداه فى غير هم أو قلق . وهو يثق بأن الطبيعة كفيلة بتحقيق ما يهدف إليه من صحة بدنية ونفسية وعقلية ، طالما هو لا يقف فى طريقها ، بل يعاونها فى أداء مهمتها . مثل هذا الشخص قد يقضى ليلتين ساهراً حتى ساعة متأخرة من الليل ، ولكنه يأوى إلى فراشه مبكراً فى الأمسيات الخمس الباقية من الأسبوع ، وهو إذا أفرط فى تناول الطعام يوما ، قلل منه فى اليوم التالى . وإذا اجهد نفسه صباحا ، عمد إلى الراحة التامة مساء ، لذلك تراه فى معظم الأوقات هادىء النفس والأعصاب ، يفيض بشرا ونشاطاً وحيوية .

الاعتدال طريق الصحة :

الطبيعة تريد أن نلتزم الاعتدال فى كل شىء ، فإذا غالينا فى عمل أو فكر أو عاطفة ، أنذرتنا الطبيعة بالألم . فالذين يسرفون فى التهام الطعام ، والذين يسرفون فى تجويع أنفسهم ، والذين يكثرون من النوم ، والذين لا ينامون ، والذين لا يكفون عن الضحك ، والذين لا يضحكون ، والذين لا يكفون عن البكاء والذين لا تعرف عيونهم الدموع ، والذين يسرفون فى رفاهافة الحس والذين لا « يحسون » ، والذين يكثرون من الكلام ، والذين يعمدون دائماً إلى الصمت ، والذين ينفقون بسخاء ، والذين يسرفون فى البخل ، والذين يتخذون دائماً موقف الهجوم والإيذاء ، والذين يتخذون دائماً موقف الاستكانة والاستسلام ، والذين يريدون أن يكونوا دائماً فى عزلة ، والذين لا يطيقون أن يبقوا وحدهم لحظات ، والذين يسرفون فى الاهتمام بالنظافة والذين يكفرون بها ، والذين يندفعون فى الحياة وكأنهم فى سباق والذين يتراجعون إلى الوراء لتهيبهم مواجهة الحياة ، أولئك جميعاً يشقون ويتألمون . وأولئك جميعاً يتعرضون لعقد نفسية ومتاعب جسمانية لا تلبث أن تضعف مقاومتهم وتسىء إلى صحتهم .

لذلك أدعوك — إذا أردت أن تعيش سليماً صحيحاً بغير مرض — أن تراجع نظام حياتك ، وأن تبدأ ، على الفور ، فى انتهاج خطة الاعتدال والتعقل والاتزان فى كل شىء . إن مضايقات الحرمان من عادة استعبدتك لا تقاس بالآلام التى تتهددك إذا اسرفت فى ممارسة هذه

العادة . ابحث عن طريق الوسط ، وسر فيه باستمرار ، فهو الطريق الوحيد نحو الصحة النفسية والبدنية والعقلية .

الخوف من المرض :

تروى أسطورة أن أحد الأشخاص لقى ملاك الموت فى الطريق ، فقال له : « إلى أين أنت ذاهب ؟ » فأجاب : « إننى ذاهب لأنشر وباء فى المدينة القريبة كى أحصد أرواح خمسة آلاف نسمة من أهلها» . وبعد أيام سمع أن خمسين ألفاً من أهل المدينة راحوا ضحية الوباء . واتفق أن التقى بملاك الموت بعد بضعة أيام . فقال له : « لماذا كذبت على وقتلت خمسين ألفاً من أهل المدينة بدلاً من خمسة آلاف ؟ » فأجاب : « لم أكذب عليك ، لقد فتك الوباء بخمسة آلاف فقط كما قلت لك ، أما الخمسة والأربعون ألفاً الآخرون فقد ماتوا من الخوف ! »

إن الخوف من المرض يسبب لكثيرين المرض ، إذ يشعرون دوماً أن حياتهم وحياة ذويهم فى خطر ، ويتزايد هذا الخوف تدريجياً حتى يشل تفكيرهم وينغص عليهم حياتهم ، ويمتص حيويتهم ونشاطهم . والخوف الطارئ المعتدل أمر طبيعى، فهو فى هذه الحالة يكون وسيلة لتمكيننا من التخلص من الأخطار التى تحدق بنا ، فلو أن شخصاً صوب نحونا بندقية ، كان الأثر الطبيعى أن نخاف أولاً ، ثم نتحفز للدفاع أو للفرار ثانياً ، غير أن البعض يتخيل ، عندما يشير إليه أحد

الأشخاص بأصبعه ، أنه يوجه نحوه بندقية ، ويسبب له هذا الخوف قلقاً واضطراباً عصبياً يؤدى إلى اضطراب جميع وظائف أجهزة الجسم ، الذى يظهر فى صور مرضية مختلفة .

ولكن كيف يسيطر الخوف على نفوس هؤلاء ؟ الغالب أن مرجعه أنهم قضوا حياتهم ، منذ نعومة أظفارهم فى جو من الخوف . والخوف يظهر حيث يختفى الحب . فالطفل يولد فى هذه الحياة بغير سند ، وهو يحس إحساس الشخص الضال فى غابة واسعة الأرجاء تضم أكثر الوحوش ضراوة وافتراساً ، فإذا وقف والداه إلى جواره يغمرانه بالحب والعطف والرعاية ويجيبان له حاجاته ، أحس بالأمان والسعادة والراحة النفسية، أما إذا ضن عليه أبواه بالحب أو أهملاه ، أحس بأنه مكروه غير مرغوب فيه ، وأن والديه يتمنيان موته ، ويظل هذا الإحساس عميقاً كامناً فى نفسه يحرمه من متعة الصحة وبهجة الحياة عندما يكبر .

وأنا أحب أن أوجه حديثى ، بهذه المناسبة ، إلى الآباء والأمهات الذين يبذلون أقصى الجهد لتوفير جميع ما يحتاج إليه أبناؤهم ماديا ، ويعنون كل العناية برعايتهم الصحية ، ولكنهم يحرمونهم من أهم ما يحتاجون إليه وهو « الحب » ، فيحولون بذلك بينهم وبين الصحة النفسية والجسمانية فى طفولتهم ، وفى شبابهم .

هؤلاء الآباء والأمهات يخطئون فى حق أولادهم أكبر الخطأ ، فالعناية بصحة أولادهم أمر له أهميته ، والعناية بتثقيفهم فى المدارس التى تهيىء لهم أجواء صالحة ، شيء جميل، وتوفير الأموال التى تتيح لهم أن يبدأوا

حياتهم العملية بداية طيبة، فضل لا ينكر أثره . ولكن هذه الجهود لا تعادل أثر الحب والعطف والحنان والتشجيع فى نفوسهم . فإذا حرموا الحب تعرضت نفوسهم لمختلف ألوان العقد والاضطرابات ، وظلت هذه العقد تنمو معهم وتكبر ، حتى إذا ما بلغوا مرحلة الشباب بدأت آثارها تظهر فى صور متعددة من الأعراض المرضية التى لا تجدى فى علاجها العقاقير أو الوسائل الطبية المعروفة .

مثل هؤلاء يتسم سلوكهم فى الحياة بطابع الشذوذ ، وتنعكس على تصرفاتهم آثار الخوف من كل شىء : من المرض، أو الفقر أو الموت ، أو لقاء الناس . ويمتزج هذا الخوف غالباً بالحقد ، والضغينة ، وسرعة الغضب ، والميل إلى الانطواء على النفس خشية أن تنكشف نفوسهم المريضة . والجسم لا يمكن أن يكون صحيحاً إذا كانت فى داخله نفس مريضة .

أعصابك الثائرة :

ليست « العصبية » مرضاً ، وإنما هى عارض لاعتلال فى الصحة يرجع إلى واحد من أسباب عدة ، بعضها عضوى بحت، وبعضها نفسى بحت . وكثيراً ما يسأل المريض ، بعد أن يوضح له الطبيب أثر التوتر العصبى وسرعة الانفعال على صحته : « ولكن ما هو أحسن علاج للعصبية ؟ » ، وطالما أن العصبية ليست مرضاً ، فمن الواضح أنه ليس هناك ما يمكن أن نطلق عليه « أحسن علاج لها » . والوسيلة لتفاديها ،

هى معرفة سببها فى كل حالة ، ومحاولة استبعاده أو التخفيف من أثره .

ومما لا شك فيه أن ثمة أشياء عامة تفيد فى جميع الحالات ، فالتحكم فى العواطف ، وشغل الذهن بأشياء بهيجة ، وممارسة الرياضة الكافية فى الهواء الطلق ، تفيد جميعاً أى شخص عصبى مهما كان سبب « عصبيته » ، ولكن هناك حالات كثيرة يستلزم علاجها معاونة الطبيب ، لكى يتبين سبب هذه الظاهرة . وقد يكتشف أن كل ما تحتاج إليه هو تعديل عاداتك ونظام معيشتك ، كما أنه قد يكتشف أن « عصبيتك » نتيجة علة عضوية لا تفطن إليها ، أو علة نفسية تحتاج إلى علاج نفسى .

ومن الأسباب العضوبة لهذه الحالة ضعف البصر ، فإجهاد العينين يكون أحياناً فى مقدمة هذه الأسباب ، وكذلك تسوس الأسنان وأمراض الفم والزور والأنف ، وكل ما يسبب اضطرابا فى الجهاز الهضمى .

والشخص الذى يتناول كميات معتدلة من غذاء كامل ، تهضمه معدته فى يسر ، ويتمثله جسمه بسهولة ، غالباً ما يشعر بالانتعاش والحيوية ، وهذا الإحساس بدوره يجعله ينظر إلى الحياة فى تفاؤل . ولكن إذا قل الطعام عن حاجته اليومية أو زاد ، شعر بتغيرات فى إحساساته العصبية ــ قد لا يفطن إلى سببها ــ فيصبح سريع التأثر لأقل المؤثرات الخارجية ، فالشىء الذى كان عادة لا يسبب له سوى إحساس طفيف بالضيق ، يغدو سبب قلق عميق ، والإجهاد العصبى يلحق دائماً بركاب القلق .

فإذا كنت عصبياً راجع قائمة طعامك ، فإذا اكتشفت أنك تأكل أكثر مما ينبغي أو تأكل أقل مما ينبغي ، أو كنت لا تدقق فى اختيار ألوان الطعام أو تكثر من «الحوادق» أو الحلوى، فأنت تسمم جسمك ، وتفسد أعصابك . وتعاطى المشروبات الكحولية والإسراف فى شرب الشاى والقهوة يحدثان نفس الأثر .

وقد يحلو للبعض أن يحرم نفسه من ألوان ضرورية من الطعام — وخاصة اللبن — بحجة أنها تسبب اضطراباً معدياً ، أو لأن طبيباً نصحه مرة ، خلال توعك أصابه أو مرض طارىء ، بالامتناع عنها . أن الاعتقاد بأن اللبن مثلا يسبب غازات فى المعدة ، أو اضطراباً فى الهضم يرجع إلى إحساس وهمى . ولو أن هؤلاء استبعدوا هذا الوهم وتناولوه ، لتبين لهم خطأ اعتقادهم . والعصبيون الذين يشكون من سوء التغذية أو النحافة الزائدة ينبغى أن يكثروا من تناول اللبن بالذات . إن للبعض حساسية لأنواع معينة من الأطعمة ، ولكن هؤلاء — لحسن الحظ — قلة . والقاعدة التى يجب أن يتبعها أغلب الناس ، أنه لا ضرر من تناول أى نوع من الأطعمة المغذية ، إذا وجدت الإرادة ، وتوفرت الرغبة لتناوله .

أعراض الإجهاد العصبى :

إن عدداً غير قليل من المرضى الذين يترددون على عيادات الأطباء فى هذه الأيام يشكون من انهيار الأعصاب ، وإن كثيرين غيرهم فى

طريقهم إلى الانهيار . وقد يبدو أن هذه الحالات تأتى مفاجئة بغير انذار ، ولكن الواقع أنها نتيجة تطور تدريجى ، وتسبقها إنذارات عدة ، لو تنبهنا لها فى مرحلة مبكرة ، لتهيأت الفرصة لتفاديها وما يصحبها من مآس .

وأحد الإنذارات الشائعة هو العجز المفاجىء عن النوم العميق ، فمن يجد صعوبة فى الاستغراق فى النوم ، أو تتخلل نومه الأحلام المفزعة — أو ما يعرف باسم « الكابوس » — أو يتكرر حدوث هذه الأحلام لشخص لم يتعود عليها ، كل ذلك من أعراض الإجهاد العصبى .

ويدل على هذا الإجهاد أيضاً ، الإحساس بتعب شديد عند اليقظة فى الصباح ، وهذه الظاهرة شائعة بين كثيرين ممن يبلغون أواسط العمر ، وهى فى أية سن قد ترجع إلى أسباب خارجية بحتة ، كالنوم فى غرفة رديئة التهوية ، ولكنها إذا اقترنت بأعراض أخرى كانت نذيراً بالإجهاد العصبى .

والشخص الهادىء الأعصاب ، حين يثور لأتفه الأسباب ، ينبغى أن يدرك أن جهازه العصبى — لسبب أو لآخر — قد بدأ يخرج عن طوره . « فالعصبية » المفاجئة علامة شائعة لضعف الجهاز العصبى . ونحن نعرف أن المرء حين يتعب لأى سبب ، يصعب تحكمه فى أعصابه . فإذا غدت صعوبة التحكم فى الأعصاب عادة ، أو صحب سرعة « النرفزة » ميل إلى الأحساس باليأس والضيق ، وعدم الاهتمام بنواحى النشاط العادية لغير سبب ظاهر ، وجب الاشتباه فى أن الجهاز العصبى

قد أجهد إلى ما بعد درجة الأمان .

ومن أعراض الإجهاد العصبي أيضاً ضعف القدرةعلى التفكير السليم ، والتذكر ، وتركيز الانتباه ، ويصحب هذه الحالة أحياناً عجز عن الاستقرار والبقاء فى مكان واحد لأية فترة من الوقت ، ولو كان الجو الذى يسود المكان هادئا بهيجاً .

والصداع المستمر المتكرر عارض عضوى يدل أحياناً على الإجهاد العصبى ، وكذلك « وش » الأذنين ، واضطرابات الهضم المفاجئة . وقد تبدأ نوبة الانهيار العصبي بفقدان الثقة بالنفس، وظهور أحاسيس مفزعة ، فتستولى الشكوك على المصاب ويخشى مقابلة الناس. وتنتابه مخاوف لا أساس لها خاصة بعمله أو صحته ، فيشرع فى قياس درجة حرارته عدة مرات فى اليوم ، أو يغسل يديه باستمرار لكى يتجنب عدوى الميكروبات ، أو يتأثر تأثراً بالغاً بالأصوات المفاجئة ، أو عند القرع على باب مسكنه ، أو عند سماع صوت إدارة محرك سيارة ، أو زحزحة مقعد ، أو صياح مرتفع . ونحن جميعاً قد نتأثر نفس التأثير للأصوات المفاجئة ، ولكن ليس بصفة مستمرة .

هذه جميعاً ليست جميع الأعراض التى تصحب جهازاً عصبياً مهدداً بالانهيار ، ولكنها أكثر الأعراض شيوعاً . وعندما تبدأ فى الظهور تنبغى المبادرة باتخاذ الحيطة حتى لا تزداد الحالة سوءاً .

التحكم فى العواطف :

لو عرف الناس أن « العصبية » لا تورث ، وأنها ليست فى الواقع سوى عادة سيئة يمكن الإقلاع عنها ، لقلت حالات الانهيار العصبى . إن الأمراض العصبية يمكن تقسيمها إلى قسمين : قسم يشمل الأمراض التى ترجع إلى سبب عضوى يؤثر تأثيراً مباشراً على الجهاز العصبى ، وقسم يضم أمراضاً يكون فيها الجهاز العصبي سليماً ولكنه لا يؤدى وظائفه كما ينبغى .

عندما تراجع تاريخ مصاب بمرض من أمراض القسم الأخير ، تجد أنه اكتسب منذ مرحلة الطفولة المبكرة عادة الانسياق وراء عواطفه وأحاسيسه المرهفة ، فإذا لم تلب رغبة له ، تمرغ على الأرض وأخذ يضرب بيديه فى الهواء ويصيح ويصرخ حتى تجاب رغبته ، أو يستسلم للحزن والبكاء فى صمت على انفراد .

وفى هذه المرحلة المبكرة من العمر ، يكون من السهل — بطرق تعليمية — تدريب الطفل على التحكم فى عواطفه ، والحيلولة دون سيطرة شعوره على تفكيره وسلوكه ، ولكن الآباء والأمهات لا يقدرون أهمية البدء بتدريب الأطفال على التحكم فى عواطفهم وهم لا يزالون صغاراً . إنهم قد يؤنبونهم ويعاقبونهم ولكنهم لا يدربونهم ، فتنمو معهم العادة حتى تصبح أصيلة فيهم ، وتصبح نفوسهم تربة خصبة لكثير من الأمراض النفسية والعصبية ، وتعرضهم أقل الصدمات العاطفية أو المتاعب العائلية

أو الأزمات المالية للإصابة بالانهيار العصبي .

ولذلك فإن التدريب المبكر على قوة الإرادة ، والاهتمام بالتحكم فى العواطف هو أسلم الطرق للوقاية من كثير من الأمراض العصبية الشائعة اليوم . على أنه إذا لم يتم هذا التدريب ، وكنت تشكو من اضطراب عصبى ، فإن إعادة تدريب الإرادة أمر ميسور .

يحدث أحياناً أن يشكو مريض من آلام متكررة فى الظهر ، تكون مرة فى الجزء الأسفل منه ، ومرة أخرى فى الجزء الأوسط ، وأحياناً فى الجزء العلوى ، وقد تنتقل إلى أعلى الكتفين والذراعين . وبفحص المريض لا يظهر سبب عضوى لهذه الآلام ، والغالب فى هذه الحالة أن تكون الآلام نتيجة تركيز الذهن فى منطقة الظهر لسبب ما ، كأن تكون هناك علة عضوية فى وقت من الأوقات سببت ألم الظهر ولكنها عولجت بنجاح أو زالت من تلقاء نفسها ، لكن المصاب تملكته عادة تركيز ذهنه فى الأجزاء التى آلمته ، فإذا به يعانى من الآلام حتى بعد زوال سببها العضوى . ولذلك فإنه لأقل إحساس بالتعب أو الضيق يتحول تفكيره بحكم العادة نحو ظهره — وتركيز التفكير قد يكون كافياً لأن يسبب الألم .

إن مثل هذا الشخص ينبغى أن يسعى إلى تحويل تفكيره إلى شىء آخر حالما يشعر ببوادر الألم ، كأن يلعب الورق ، أو يزور صديقاً ، أو يغادر البيت للنزهة ، أو يقرأ كتابا ممتعاً . وحين يتحول تفكيره عن مصدر الألم يغلب أن يزول إحساسه بالألم .

ونفس الشيء يحدث إذا كنت تعانى الصداع العصبى . فالصداع يكون فى بعض الحالات وليد آلام تنتاب المرء « بحكم العادة » . فالمؤكد أن تركيز الذهن فى أى جزء من أجزاء الجسم يمكن أن يسبب ألماً فيه . وبدلا من تناول المسكنات فى هذه الحالة ، ينبغى أن تعالج الصداع بتحويل التفكير عن رأسك ، وتفادى الإجهاد العصبى الذى يؤدى إليه .

الإيحاء بالصحة

من الحقائق الثابتة أن كل فكرة ترسخ فى الذهن لها — إلى حد ما — أثرها الموجه على السلوك ، وبالتالى على الصحة . وإذا كان التفكير فى الألم يسبب الألم ، والإيحاء بالمرض يسبب المرض ، فإن الإيحاء بالصحة يمهد الطريق إلى الصحة . ومن هنا ، كان من أهم أسباب نجاح الطبيب فى عمله إدراكه لهذه الحقيقة ، واهتمامه إلى جانب تشخيص المرض ووصف العلاج المناسب بتبديد مخاوف المريض ومحاولته التهوين من آثار علته ، وبث روح التفاؤل فى نفسه ، وغالباً ما تكون نتيجة العلاج ناجحة بقدر تمكن الإيحاء بالصحة من نفسه . وفى وسعك أنت أيضاً أن توحى لنفسك ولغيرك باستمرار بالصحة ، فتغدو أنت وهو صحيحاً .

القلق وأولاده :

القلق من أكثر الأشياء ضرراً على الصحة ، فهو يجعل النوم — فى الغالب — مستحيلا ، وبغير نوم يستحيل أن تكون صحيحاً ، إذ

يسبب ذلك اضطراب وظائف أكثر أجهزة الجسم ، وبطء الدورة الدموية ، ويؤثر فى عمل القلب والكلى والكبد والمعدة ، فضلا عن أنه من أقوى العوامل – فى أغلب الأحوال – الكامنة وراء الاضطرابات العصبية والعقلية .

والقلق يمهد لكثير من العواطف الهدامة . فالغيرة ، والخوف ، وعدم الثقة بالنفس ، ومعظم ألوان الضيق النفسى هى « أولاد » القلق ، وهى تنخر كالسوس فى الأجسام السليمة ، فتضعف مقاومتها وقوتها .

والقلق – بتأثيره الهدام على الجسم والذهن – من أقوى الدوافع على الرذيلة والجريمة ، فلولاه لضعف الإقبال على المكيفات والخمور والمخدرات ولولاه لقلت حوادث الانتحار .

فإذا كنت من ضحايا القلق ، حاول أن تهرب من شباكه وأن تتفادى سمومه بأسرع ما تستطيع . قد تقول : « وما السبيل إلى الفرار ؟ لقد حاولت أن أتخلص منه ولكن دون جدوى ، وكلما رغبت فى الخلاص عذبنى القلق بسياطه ، يبدو أن قوة إرادتى قد انهارت وذهبت إلى غير رجعة » .

والرد على هذا القول أن الإخفاق فى التغلب على القلق ليس – حتما – دليلا على انهيار قوة الإرادة ، وإنما يعنى إساءة استعمال قوة الإرادة . فبدلا من اعتزام « عدم التفكير » فيما يقلقك ، حول تفكيرك إلى شىء آخر . فهذا أسهل بكثير وإتمامه يعنى التخلص من القلق .

لا تحاول أن تهزم القلق بطريق مباشر ، وإنما حاول أن تتغلب عليه عن طريق استبدال الأحاسيس المؤلمة الهدامة التى يفرضها عليك ، بأحاسيس أخرى بناءة تمتزج بالبشر والأمل والتفاؤل . سخر قوة إرادتك فى المبادرة بالاهتمام بأوجه نشاط سارة مفيدة . اقرأ كتبا مسلية توحى بالبهجة والثقة والإيمان . مارس هواية مفيدة . ضاعف اهتمامك بعملك. ابحث عن الأفكار السارة ، فكلما ملأت ذهنك بهذه الأفكار ضاق الحيز الذى يمكن أن تشغله الأفكار السوداء . وبقدر نجاحك فى تثبيت الأفكار البناءة ، تهدأ أعصابك ، وتخف حدة غضبك ، ويزول القلق.

* * *

والقلق قد يكون نتيجة التشاؤم ، والميل إلى التفكير فى الجوانب المظلمة من الأشياء . وتوافر هذا الميل يوفر الظروف المهيئة لاعتلال الصحة . إن كل يوم يمر لا يخلو من متاعب ومضايقات ، فإذا ظللنا نجتر هذه المتاعب ، اضطربت أعصابنا ، واضطربت تبعاً لذلك وظائف أجسامنا ، فإذا كنت من هذا الطراز ، راجع قبل أن تذهب إلى الفراش أحداث اليوم ، وتخيل أنك تمسك بميزان . ضع فى إحدى الكفتين الأحداث التى ضايقتك ، وفى الكفة الأخرى الأحداث التى كانت فى صفك ، وسوف تجد ، إذا كنت أميناً مع نفسك ، أن الكفة الأخيرة ترجح الأولى بكثير .

إن هذه العادة البسيطة تفيد كثيرين ممن يميلون إلى التشاؤم والأسى والشك والخوف ، وتجعلهم ينظرون إلى متاعب الحياة نظرة فلسفية ،

وبالقدر الذى به « يتفلسفون » سوف يلمسون تحسنا غير متوقع فى صحتهم ونشاطهم .

* * *

وإذا كان القلق يضعف الجسم، فإن الجسم الضعيف يورث القلق، لذلك ننصحك أن تتشبث بنشاطك وحيويتك ، فالرجل الضعيف فاتر النشاط ، يتأثر تأثراً بالغاً بالأحداث المسببة للقلق .

زد حيويتك تزد فرصك للاستجابة بتعقل للأحداث والمتاعب والكوارث المفاجئة . إن الرجل السليم ذا الطاقة الإيجابية ، لا يجد وقتا للقلق ، إنه يجد أشياء أخرى كثيرة تشغله . إن القلق يصيب أصحاب الطاقات المحدودة البطيئة . فإذا أردت أن تهرب من القلق ، اخرج إلى الهواء الطلق يومياً ، واقض وقتا خارج جدران المنزل أو المكتب بقدر ما تستطيع ، حاول أن تمشى ثلاثة أو أربعة كيلومترات يومياً ، فالمشى رياضة سهلة تنشط الدورة الدموية ، ولا تهرب من الهواء الطلق وأنت داخل البيت ، فسوء التهوية من أهم العوامل المساعدة على القلق . خف من الهواء الفاسد ، ولا تخف من الهواء النقى ، فالأول يسمم الجسم ، والثانى يطرد السموم . وكلما كان الهواء الذى تستنشقه نقياً تحسنت صحتك وكلما تحسنت صحتك تحررت من داء القلق .

توأم القلق :

إن الحياة الشاقة المجهدة ليست حتما حياة عليلة ضارة ، ولكنها تكون ضارة حينما تقترن بالقلق — أو بتوأم القلق — « العجلة » . إنك إذا حللت العجلة تبينت أنها تتركب من نفس عناصر القلق . ومعظم الناس يتناسى هذه الحقيقة ، فهم إذ يصابون باضطرابات نفسية أو عصبية ينكرون أن للقلق يدا فى ذلك ، ولكنهم يعترفون فى أحاديثهم أنهم يجدون أنفسهم منساقين فى تيار الحياة الجارف بسرعة عجيبة . فإذا قلت لهم أن العجلة لون من القلق لا يصدقون ، ففى كل مرة يسرع المرء — عن إرادة أو غير إرادة — تسيطر على نفسه فكرة الخوف من التأخير ، وهذه الفكرة تنطوى على القلق .

والواقع أن العجلة قد تكون مجرد عادة — كما يقول معظم المتعجلين — ولكنها لا يمكن أن تخلو من بعض عناصر الخوف والإجهاد العاطفى . فالمتعجل يقع دائماً تحت نير احساس — قد لا يدرك مصدره — بخوف ممتزج بالقلق ، وهو الإحساس الذى يكمن دائماً وراء القلق والعجلة ، ويسبب اضطراب الجهاز العصبى وأجهزة الجسم عامة .

لا تتعجل ، وسر فى طريق الحياة بخطى معقولة بغير إسراع وبغير تباطؤ ، فهذا من أهم السبل المؤدية للصحة ، وهو فى نفس الوقت من أهم عوامل السلام النفسى والسعادة والنجاح .

هواة المتاعب :

وهناك فئة من الناس ، آفتها الكبرى عدم الثقة بالحياة ، إنهم يتوقعون أن يسير كل شيء على غير ما يشتهون . إنهم يعتقدون — سلفاً — أن كل يوم يمر سوف يواجههم بسلسلة متلاحقة من المتاعب . وعقيدتهم هذه تتحقق دوما ، لا لأن « سوء الحظ » يحالفهم كما يتوهمون ، وإنما لأن هذا الشعور يسبب لهم اضطرابا يؤثر على أجسادهم وأذهانهم ، فيضعف تفكيرهم ويضطرب . فيسلكون سلوكاً شاذاً يجلب لهم المتاعب التي يتوقعونها .

إنك إذا كنت متشائماً نفر منك الناس ، وعاق التشاؤم تقدمك في عملك ، ومهما كانت كفايتك ، فإن الرؤساء وأصحاب الأعمال يفضلون أن يتعاملوا مع المبتسمين والمتفائلين . وإذا كنت كفؤاً حقاً ، فإن تشاؤمك سوف يحطم كفايتك تدريجياً لأن التشاؤم يسمم الجسم والذهن .

إن التشاؤم يكون أحياناً نتيجة صحة معتلة ، ولكنه ، في الغالب نتيجة تفكير خاطيء وعادات سيئة . فنحن كثيراً ما نسمح للأحداث التافهة أن تزعجنا ، وتضايقنا ، وتشل نشاطنا . فإذا تأخر طعام الإفطار أو نسي بائع الصحف أن يترك الصحيفة ، أو إذا لم يقف سائق سيارة الأوتوبيس في المحطة أثناء انتظارنا في الصباح ، ضاقت صدورنا ، واسودت الدنيا في أعيننا . وإذا فاتنا موعد أو سقطت ساعة لنا فتحطمت لم نستطع أن نتذوق للحياة متعة طول اليوم ، وعندئذ تضطرب أعصابنا ، وتختل وظائف أجسامنا .

ينبغى أن نتحكم فى هذه الأحاسيس ، فلا نسمح لأثرها بالبقاء فى نفوسنا أكثر من لحظات ، إذا لم يكن من الميسور عدم المبالاة بها إطلاقاً بدلا من أن نهيء لها الفرصة كى تتحكم فينا وتغرس فى نفوسنا عادة التشاؤم . ينبغى أن نستبدل الأحزان التى تشوه بهجة الحياة ، بالمشاعر البهيجة التى تنعشنا وتبعث النشاط ، فى أجسامنا ، إن الحزن والتشاؤم ليسا علاجا للمتاعب . . . بل هما يضاعفانها .

نظرتك إلى العمل :

وأنت تقضى فى عملك وقتاً غير قصير ، لذلك أحب أن ألفت نظرك إلى ضرورة الإقبال على العمل بنفس راضية منشرحة ، فتعتبر العمل أكبر نعمة فى الوجود . إن كثيرين يتمنون ، لو تيسرت لهم الأحوال ، أن يمتنعوا عن العمل ويعمدوا إلى الخمول والكسل . ولو تحققت أمنيتهم لتملكهم الندم ، فالامتناع عن العمل من عوامل اعتلال الصحة نفسياً وجسدياً . إن عملك هو حياتك ، فينبغى أن يكون من بواعث السرور فى نفسك والنشاط فى جسدك ، إذا عرفت كيف تكيف ظروفك وسلوكك لما يتطلبه هذا العمل .

التعب الزائف :

ومن الخطأ أن ترغم نفسك على مواصلة العمل عندما تحس بالتعب . ولكن حذار من « التعب الزائف » . تمر ببعض مضطربى

الأعصاب فترات يجهدون فيها أنفسهم ، وكان يمكن ألا يسبب لهم هذا الإجهاد ضرراً لو أنهم عمدوا إلى الراحة بعد الإجهاد . وقد يمضون بعد الإجهاد وقتا لا يعملون فيه شيئاً ، ولكنهم فى هذه الفترة يجترون أحاسيسهم بالتعب وتبحث أفكارهم عما ينتظر أن يجلبه لهم التعب من علل وأمراض ، وتظل هذه الأحاسيس نشطة فى أذهانهم ، توحى إليهم بالتعب من حين لآخر ، فتبدو عليهم مظاهر التعب المعروفة لأقل مجهود يبذلونه ، برغم ما يتعاطونه من عقاقير مقوية ، وبرغم تأكيد الأطباء لهم بسلامة أجسامهم . وأفضل سبيل للتخلص من هذه الحالات هى تحرير الذهن من صور التعب الزائفة التى رسبت فى أعماق النفس ، بأن تحول اهتمامك إلى شيء آخر . لا تركز ذهنك فى حالتك الصحية ، وحول أفكارك إلى شيء — أو أشياء — أخرى ، ولو إلى ممارسة هواية بسيطة كجمع طوابع البريد . فكلما زاد اهتمامك بهذه الهواية ، تخلصت من نوبات « التعب الزائف » .

أسباب التعب :

على أن التعب ليس « زائفاً » كله . وهو إنذار الطبيعة بقرب نفاد الطاقة العصبية أو الذهنية ، وضرورة الراحة لتعويض ما استنفد منها .

وثمة عوامل تعجل الشعور بالتعب عند الأصحاء ، فإذا لم يتناول المرء طعاماً كافياً ، أو لم يحرص على تنويع الطعام لتوفير العناصر الغذائية الضرورية له ، فإنه يكون سريع التعب ، وقد تنتابه أحاسيس مستمرة

من التعب . وفى هذه الحالة لا يعوض التعب بساعات إضافية من النوم لأن المرء فى هذه الحالة يحتاج إلى الاهتمام بغذائه .

وإهمال تجديد الهواء سبب آخر لسرعة التعب . إن الآلة البشرية تحتاج إلى قدر كبير من الهواء النقى كى يحفظها متأهبة لبذل النشاط والجهد . فالحرص على فتح النوافذ والنزهة فى الهواء الطلق قد يكفيان للشعور بالراحة . وعدم نظافة الجلد سبب آخر لسرعة التعب ، وكذلك إجهاد العينين وتسويس الأسنان وعسر الهضم .

وكلما أحب المرء عمله ، استطاع أن يقضى فيه مدة أطول دون الشعور بالتعب . والواجب التوقف عن العمل عند بدء الشعور بالتعب الحقيقى .

وثمة تعب ذهنى يزعج كثيرين ، وإن كان لا يختلف فى منشئه عن التعب العادى . ومن أعراض هذا التعب ، ضعف الذاكرة ، وصعوبة تركيز الانتباه ، والعجز عن مواجهة مطالب الحياة . ويغلب أن يكون القلق وراء هذا النوع من التعب . فالقلق يسبب سوء الهضم ، واضطراب الدورة الدموية ، وهذان يؤثران فى تغذية المخ ، وبالتالى فى قدرته على تأدية وظائفه .

ومعظم الذين يشتغلون بالأعمال الذهنية يهملون الرياضة ، ويهملون الخروج إلى الحدائق العامة ، بل إنهم يهملون تهوية مكاتبهم وغرفهم . ويشكو طلبة الجامعات وتلاميذ المراحل الدراسية المتقدمة من هذا اللون من التعب ، فالطالب الذى يستذكر دروسه فى ظروف سيئة ، لا يمكن

أن يكون ذهنه صافياً . وأغلب الطلبة يهملون الرياضة والهواء النقى ، فيركبهم القلق وتنتابهم المخاوف خشية الرسوب فى الامتحانات ، وهذه العوامل كثيراً ما تشل نشاطهم الذهنى .

وأهم علاج لهذه الحالة هو الراحة والاستجمام فضلا عن تنمية عادة التحكم فى العواطف ، حتى يمكن التغلب على أى اتجاه للقلق ، والعناية بالصحة عامة ، بالاهتمام بالعينين والأذنين والأنف والزور والأسنان ، والعناية بالتغذية ، والحرص على الرياضة ، وحسن التهوية . وعامل آخر هام فى العلاج هو تعود إراحة خلايا المخ عن طريق « اللعب » .

اللعب والاستجمام :

إذا أردت أن تحافظ على صحتك ، تدرب على « اللعب » كما تتدرب على العمل . والذين يهملون اللعب ، ولا يؤمنون بفائدة الاستجمام مثل الذين يهملون العمل ولا يؤمنون بفائدته ، يعانون غالباً من ألوان الاضطرابات العصبية .

أعرف شاباً ناجحاً يعمل بإحدى المؤسسات الكبيرة . قضى عشر سنوات فى عمله ، لم يقم خلالها بأجازته السنوية إلا لبضعة أيام متقطعة . وكان يقضى معظم أيام الراحة الأسبوعية فى إنجاز الأعمال التى لم تتم خلال الأسبوع . كان عمله يستغرق كل وقته وتفكيره . ثم رأى بعد هذه السنوات الطويلة ، وهذا المجهود الشاق ، أن يقوم بأجازة طويلة ، وإذا به يشعر بعد أيام من أجازته « بتنميل » فى ساقيه وذراعيه ، يعاوده من

حين لآخر ، ويزحف أحياناً إلى وجهه ورقبته ، فاستولى عليه القلق خشية أن تكون هذه الأعراض بوادر شلل .

وقد دل فحص الشاب على خلوه من أى سبب عضوى للشكوى ومع ذلك لم تذهب عنه هذه الأعراض إلا بعد أن عاد إلى عمله ، ليجرفه التيار من جديد . إن أمثال هذا الشاب كثيرون ، عملهم يستغرق كل تفكيرهم ، فلا يعرفون الرياضة أو الترفيه ، ولا مزاج لهم فى فن أو موسيقى أو مسرح ، ولا تروقهم قراءة رواية أو كتاب يتناول شيئاً يخرج عن محيط عملهم . لذلك فإنهم حين يتوقفون عن العمل ، لا يجدون ما يشغل أذهانهم ، فينشغلون بأنفسهم ، فتتراءى لهم ألوان منوعة من الأوهام والأعراض العصبية . وقد يظل العمل مسلاة لهؤلاء « وعلاجاً » لهم ، ولكنهم سوف يعجزون عن العمل يوماً ، وهنا يهددهم « الفراغ » بما يصحبه من انهيار عصبى يحيل حياتهم جحيماً .

لا تقع فى هذا الخطأ ، ولا تدع عملك ينسيك مباهج الحياة البريئة التى هيأتها الطبيعة لكى تستمتع بها . تعلم رياضة تروقك ، ومارس هواية مفيدة تحول ذهنك بعيداً عن عملك دون أن ترهقك . وكلما زاد الخلاف بين طبيعة العمل الذى تقوم به وبين هذه الهواية ، استراحت خلايا المخ أثناء ممارستها . هذه الهواية — إذا أحسنت اختيارها — لا تطرد التعب فحسب ، وإنما تزيد نشاطك الذهنى وتساعدك على أن تكون صحيح الجسم والنفس .

الخمول انتحار بطيء :

إن الجسم الخامل أشبه بآلة معطلة – والآلة إذا تركت بغير عمل تراكم عليها الصدأ ، وتآكلت شيئاً فشيئاً ، فى حين أنها لو استعملت بانتظام لعمرت وقتا طويلا . إن « الكسل » يسبب فسادها وعطبها . والآلة البشرية كالآلة الميكانيكية ، خلقت للنشاط والعمل . إن جميع أجهزة الجسم الدقيقة المعقدة من عضلات وغدد وأعصاب ، ينبغى أن تعمل كى تظل سليمة أطول مدة ممكنة . وهى إذا لم تعمل تراكم عليها الصدأ ، فى صورة سموم تؤثر فى وظائف الجسم ، والشخص الخامل يتحدى قوانين الطبيعة ، وهو يدفع ثمن هذا التحدى من أعصابه .

إن الأعصاب الضعيفة تصاحب العضلات الرخوة الضعيفة دائماً ، وأحب أن ألفت هنا نظر القارئات – بوجه خاص – فبعضهن يبقين فى الفراش حتى ساعة متأخرة من الصباح ، ويقضين اليوم فى الزيارات وقراءة الصحف والروايات ، ويلقين عبء تنظيف البيت وإدارة شئونه على الخدم ، فتصاب أعضاؤهن الداخلية بالخمول ، ويضعف جهازهن العصبى ، وتنتابهن أعراض مرضية كثيرة لا يجدى فى علاجها سوى العمل والحركة والنشاط .

والكسل الذهنى ليس أقل ضرراً بالصحة من كسل العضلات ، فالعقل الخامل يغدو تربة خصبة للقلق والمخاوف وعدم القناعة والرضا ، وهذه بدورها تؤثر على أجهزة الجسم وخاصة الجهاز الهضمى .

لا تخف من الأرق :

والخوف من عواقب الأرق أشد ضرراً من الأرق نفسه . وهذا الخوف يبدأ غالباً بعد بضع ليال من أرق مفاجئ ، ثم يغدو عاملا رئيسياً فى تحويل الأرق المؤقت إلى أرق مزمن . وعواقب القلق التى يتصورها الكثيرون أغلبها وهم . فالأرق ليس ضاراً بالدرجة التى ترتسم فى أذهان الكثيرين ، ولو أمكن إقناع المصابين بالأرق بهذه الحقيقة لقل عددهم كثيراً .

وليس معنى هذا أننا نستطيع أن نعيش أصحاء بغير نوم ، ولكن الطبيعة لا تتركنا بدون نوم . إنها تعمد إلى أن تضعنا فى « حالة وسط » بين النوم واليقظة ، أثناء فترات يقظتنا . وهذه اللحظات التى نغفو فيها ونصبح خلالها كأننا فى حلم ، تكفى لإنعاشنا وتعويض جانب غير قليل مما فاتنا من فؤائد النوم . وهذا هو السر فى أن كثيرين ممن يزعمون أنهم لم يناموا لبضع ليال ، يحتفظون أحياناً بصحة جيدة ومظهر طيب ، ذهناً وجسماً .

وقد أجرت إحدى الهيئات العلمية تجربة على ثلاثة أشخاص ، حرصت على أن يظلوا بغير نوم لمدة تسعين ساعة متواصلة ، وقد دلت التجربة على أنه بالرغم مما بدوا عليه من يقظة — ومن اعتقادهم هم أنهم أنهم لم يناموا فعلا — فقد مروا بهذه « الحالة الوسط » عدة مرات ، وعندما كانت توجه إليهم أسئلة خلال هذه اللحظات ، كانت أجاباتهم تدل على أنهم كانوا يحلمون .

فإذا كنت تشكو من الأرق ، فابعد عن ذهنك صور العواقب السيئة التى تتوهمها للأرق — والتى لن تحدث لك قط — فالأرق لن يؤدى بك إلى الجنون كما تتوهم ، ولكن الخوف من الأرق هو الذى يسبب الانهيار العصبى الذى يمهد الطريق إلى عواقب جسمانية وذهنية وخيمة، وإذ تتخلص من هذه الصور السوداء، تكون قد خطوت خطوات واسعة نحو التخلص من الأرق نفسه .

والمصاب بالأرق يتخيل أحياناً أنه لا علاج لأرقه المزمن ، والواقع أن النوع الوحيد من الأرق الذى لا علاج له ، هو العجز عن النوم المصحوب بأمراض عضوية لم يجد لها الطب حتى الآن علاجاً ، فالآلام التى تصاحب هذه الأمراض القليلة النادرة قد تسبب الأرق، وقد يحدث الأرق نتيجة لإثارتها للمخ . ولكن فى تسع وتسعين حالة من مائة حالة ، يكون المصابون بالأرق سالمين من الأمراض العضوية . والمشكلة الكبرى عندهم أنهم بثوا فى أنفسهم — عن وعى أو عن غير وعى — أنهم لن يناموا ، ولو أنهم استطاعوا أن يتغلبوا على هذه العقيدة ، لا تضح لهم أنهم يستطيعون أن يناموا — كبقية الناس — نوماً عميقاً .

إن مشكلة النوم تتوقف إلى حد كبير على تنظيم ساعات المساء ، فمن الضرورى ألا تشغلها بأشياء تقلقك أو تثيرك . قم بلعبة هادئة أو اقرأ كتاباً مسلياً أو طالع مجلة مصورة ، أو تحدث حديثاً طريفاً مع صديق حتى يتهيأ لك الهدوء الذهنى الذى يمكن أن ينتقل بك إلى دنيا النوم .

وهناك أشياء « مادية » تساعد على النوم ، فمن تمنعهم أقدامهم الباردة عن النوم ينبغي أن يحرصوا على تدفئتها ، ومن يمنعهم الجوع من النوم يفيدهم تناول كوب من لبن دافىء قبيل النوم مباشرة. ومن يصيبهم الأرق بعد الإجهاد الشديد ، أو بعد يوم من الخمول، ينبغي أن ينظموا أعمالهم خلال النهار .

ويشكو البعض من « النوم المتقطع » فهم يستيقظون مرات قبل موعد اليقظة . ويرجع ذلك إلى عدة أسباب بعضها عضوي وبعضها ذهني . إن البعض يذهبون إلى أسرتهم بمعدة فارغة ، تمشياً مع الفكرة القائلة بأن الأكل قبل النوم يسبب اضطرابا ، فإذا ما زال تعب الجسم بعد ثلاث أو أربع ساعات من النوم ، وأصبح النوم أقل عمقاً بدأت إحساسات الجوع توقظ النائم . وهو أحياناً لا يفطن إلى حقيقتها . وفي هذه الحالات يفيد كوب من اللبن أو قليل من البسكويت — قبيل النوم مباشرة — أكثر من أى علاج آخر .

وأحياناً يكون النوم المتقطع نتيجة القلق — بسبب موعد اليقظة فى الصباح مثلا — فالذين يقيمون فى الضواحي وتضطرهم أعمالهم للحاق بقطار الصباح ، يغلب أن يصبح نومهم متقطعاً ، وسوء تهوية غرف النوم يحول أيضاً دون النوم الهادىء العميق ، وكذلك أغطية السرير إذا كانت ملساء أكثر مما يجب أو خشنة أكثر مما يجب ، وأيضاً الإحساس بالبرد الشديد أو الحر الشديد .

ويستيقظ البعض أحياناً من النوم فجأة ، وهم يحسون كأن قلوبهم

توشك أن تتوقف عن العمل ، ومرجع هذا الإحساس في الغالب امتلاء المعدة ، وخاصة إذا كان المرء نائماً على جنبه الأيسر . وكثرة الغازات في المعدة قد تؤدى إلى نفس الإحساس بسبب الضغط على الحجاب الحاجز ، ويحدث هذا عند المتقدمين في السن ، في الليالى التي يأوون فيها إلى مخادعهم وهم مجهدون ، وكذلك عند الشابات والشبان المصابين بالانيميا عندما يبذلون جهداً أكبر من طاقتهم المعتادة خلال النهار ، وما لم تكن هناك علة في القلب ، فإن هذا الإحساس لا يعنى شيئاً ، ولا ضرر منه إطلاقاً .

وبين العصبيين طائفتان يصابون بهذا الإحساس ، طائفة النحاف الذين لا يأكلون القدر الكافى من الطعام، وطائفة المنطوين على أنفسهم الذين لا يخرجون لاستنشاق القدر الكافى من الهواء الطلق أثناء النهار ، أما في حالة الأطفال فيغلب أن يكون الاضطراب في النوم نتيجة علة عضوية أو اضطراب نفسى يستلزم علاجاً .

الأحلام المزعجة :

لقد كان ، ولا يزال . البعض يظن أن الأحلام المزعجة نتيجة مباشرة لعسر الهضم ، وإن الوسيلة الوحيدة لتفاديها هى الامتناع عن تناول الأطعمة العسرة الهضم ، ولكن التجارب دلت على أن كثيرين من متعودى هذه الأحلام يستمرون في أحلامهم برغم احتياطاتهم الغذائية ، كما لوحظ أن كثيرين من أصحاب المعدات الضعيفة لا يصابون بهذه

الأحلام مهما كانت مغامراتهم فى التهام الطعام .

إن مردّ هذه الحالات فى الغالب « نفسى » فكل امرئ مر بتجارب أثرت فى نفسه تأثيراً عميقاً ، وبمرور الوقت نسى العقل الواعى هذه التجارب ، ولكنها رسبت فى العقل الباطن وظلت حية تؤثر فى حياة المرء وسلوكه بطرق مختلفة ، ومن هذه الطرق الأحلام . فالأحلام المزعجة دليل على أن المرء يخفى فى عقله الباطن أفكاراً وذكريات غير سارة ، وعندما يسترجع المرء هذه الذكريات ويحللها ويتعرف عليها تزول الأحلام المزعجة .

وقد يستيقظ المرء أحياناً وهو يحس بثقل فوق الصدر يعوق التنفس ويمنع الرئتين من التمدد، فيبذل محاولات عنيفة لكى يحرك أطرافه وخاصة ذراعيه بقصد إزاحة الثقل الجاثم فوق صدره ، ولكن عضلة واحدة لا تتحرك ، فيلجأ إلى الأنين بصوت مرتفع ، إذا أسعفته قواه على ذلك ، ولكن يبدو أن كل محاولة يقوم بها تستنفد البقية الباقية من قوته ، فإذا ترك لحاله ، فإنه يظل على هذه الحال نحو دقيقة أو دقيقتين يستعيد بعدهما قوته .

وفى بعض الحالات يستمر هذا « العجز » الوقتى نحو عشر دقائق ، وبتكرار هذه الحالات ينزعج المرء كثيراً ، وهى دون شك حالات عصبية غير عادية، ولكنها ليست ذات خطر، فهى فى الواقع ليست سوى امتداد « لكابوس » أصيب به وهو نائم ، ولكن المصاب لا يتذكر الحلم المزعج لأن حالة العجز المفاجئة تنسيه الصور التى تراءت له خلال النوم، لقد

كان يحلم حلما مزعجا أراد أن يهرب منه باليقظة ، ولكنه لم يستطع أن ينتقل مباشرة من حالة النوم إلى حالة اليقظة التامة ، فمر بحالة نصف « يقظة » من أعراضها هذا العجز المخيف .

ألوان من الصداع :

يمكن تقسيم الصداع إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول يكون عارضا خفيفاً لحالة مرضية فى الجسم ، ويدخل فى نطاق هذا القسم الصداع الناجم عن العيوب البصرية وأمراض الكليتين وضغط الأورام وما إلى ذلك .

والقسم الثانى يكون نتيجة خروج على النظام الصحى ، مثل الاكثار من الطعام وادمان المكيفات والنوم فى غرف سيئة التهوية وما إليها . ومن أكثر هذه الأسباب شيوعا أجهاد العينين، على الرغم من أن قليلين يدركون مدى الآثار السيئة لاجهاد العينين ، والسهولة التى يمكن أن تجهد بها العين فى ظروف المعيشة الحالية .

إن تكوين العين — منذ العهود الأولى عندما كان الإنسان الأول يعيش فى الكهوف ويتجول فى الغابات باحثا عن صيد يقتات به — يهيئها أصلا للرؤية من بعيد ، ولكن مع تقدم المدنية — وخاصة بعد اختراع الطباعة وتطور الفنون الصناعية — قلت الحاجة للرؤية من بعيد ، وظلت هذه الحاجة تقل حتى أصبحت مهمة العين تكاد تكون مقصورة على رؤية الأشياء القريبة ، ويبدو أنه لم يمر وقت كاف لكى تمر العين

بالتطورات الضرورية للوظائف الجديدة التى استلزمتها مستحدثات العصر ، ومن هنا ، فإن كثيرين يعانون آثار الأجهاد البصرى الذى يظهر غالبا فى صورة صداع متكرر من حين لآخر .

ولتفادي هذا النوع من الصداع يجب استعمال النظارات المناسبة كما ينبغى الاستعانة بظروف ضوئية تقلل الاجهاد ، على أنه من الأهمية بمكان اعطاء العين فترات راحة متكررة . ولا حاجة لأن تكون هذه الفترات طويلة ، فإذا كان عملك يتطلب قراءة ، أو كتابة ، أو رسما ، أو ما إلى ذلك ، لبضع ساعات كل يوم ، فإن تحويل نظرك نحو شيء بعيد لبضع ثوان من حين لآخر سوف يخفف جهد القراءة القريبة أو النظر القريب المستمر ، ويفيدك أيضاً أن تغلق عينيك بضع ثوان ، وأن تدع عضلات جسمك كلها تتراخى ، أو أن تترك مكانك وتتمشى قليلا فى المكتب أو تنظر من النافذة إلى بعيد .

وإذا كنت تستقل عربة أو قطاراً من بيتك إلى مكان عملك أو العكس فاجعل هذه الفترات أوقات راحة لعينيك ، وأحذر القراءة أثناء السفر بقدر المستطاع ، فالضوء يغلب ألا يكون مناسباً ، وتأرجح العربة أو القطار يزيد جهد العينين ، ولا تركز بصرك باستمرار فى الأشياء المختلفة التى تمر بها السيارة ، وينبغى أيضاً ألا تقرأ أو تكتب أو تقوم بأعمال دقيقة وعلى عينيك نظارات شمس ، فذلك كثيراً ما يسبب الصداع ، وصداع الاجهاد العصبى قد يكون أيضاً نتيجة وضع خاطىء أثناء الجلوس للقراءة أو الكتابة .

أما النوع الثالث من الصداع ، فقد أشرنا إليه من قبل ، وهو صداع لا تسببه حالة عضوية بقدر ما يأتى من تركيز الاهتمام بالاحاسيس المختلفة فى الرأس ، والذين يشكون من هذا النوع من الصداع أكثر ممن يشكون من أى نوع آخر ، ولو أن هؤلاء ركزوا أذهانهم فى أى شىء آخر غير رؤوسهم لزال الصداع .

ولكن هذا لا يعنى أن معظم ألوان الصداع وهمية ، أنها دائماً حقيقية ولكن كثيراً منها نفسى وعصبى أكثر مما هو عضوى ، وعلاجها كذلك ينبغى أن يعتمد على وسائل نفسية أكثر من اعتماده على العقاقير .

إن العقاقير المسكنة تزيل الصداع العصبى دائماً ، ولكن الشفاء يكون نتيجة عقيدة المصاب فى جدوى هذه العقاقير ، فالفائدة التى يحصل عليها فى الغالب نتيجة « ايحاء » وهى نتيجة مؤقتة ، وحين يطرأ شىء يحول الاهتمام إلى الرأس مرة أخرى يبدأ الصداع من جديد !

فإذا كنت ممن يشكون من هذا اللون من الصداع ، فغير أسلوب تفكيرك : تبرأ من الصداع المزمن المتكرر الذى حرت فى علاجه .

بيتك :

إن توافر الشروط الصحية فى البيت أمر ضرورى ، لا شك إنك توليه عناية خاصة . ولكن هذا ليس سوى عنصر ثانوى فى البيت ، للذين يحبون أن يحافظوا على سلامة أعصابهم ، إن أثر البيئة فى توجيه خلق الإنسان وسلوكه أمر لم يعد ينكره أحد ، ولكن البيئة ليست الأشخاص الذين يحيطون بالمرء فحسب ، وإنما هى الأشياء الصامتة التى لا تنبض

بالحياة أيضاً ، فهى تؤثر فى أعصابه أثراً طيباً أوضاراً .

وإن كنت تقضى وقتاً غير قصير فى بيتك — فإن زوجتك وأولادك يقضون فيه معظم أوقاتهم ولذلك فإن « الجو » الذى يسود البيت من العوامل المهمة فى المحافظة على سلامة الأعصاب أو الأضرار بها أكثر من أى عامل خارجى فى أى مكان آخر ، والواقع أن كل شيء فى البيت يؤثر بطريق مباشر أو غير مباشر — فى أعصاب ساكنى البيت ، فطراز الأثاث ولونه وطريقة ترتيبه ، قد يكون له تأثير قوى على الأعصاب وأحياناً يكون تبديل الأثاث كافياً لاستعادة الصحة وهدوء الأعصاب لساكنى البيت . وغرفة الطعام قد تحفز على الأكل بشهية وقد تنفر من الطعام ، وألوان ستائر النوافذ وسجاجيد الغرف قد تكون من بواعث المرح والنشاط والتفاؤل ؛ وقد توحى بالضيق وتبعث على انقباض النفس .

وإزدحام الأثاث فى البيت يوحى لضعاف الأعصاب أحياناً بأن البيت أشبه بالسجن ، والصور التى تعلق على الجدران قد توحى بطرد اليأس والخوف، والتعب وإشاعة الإيمان والتفاؤل ، وهى أحياناً تشع ايحاءات بالقوة والنبل والمثل العليا »

وطبيعة أجسامنا تجعل كل ما نراه أو نسمعه — حتى ونحن مشغولون بأشياء أخرى — ينتقل مباشرة إلى أذهاننا ، لكى يصبح جزءاً من تكويننا النفسى ، وكلما تكررت مرات انتقال هذه الأشياء إلى الذهن عظم أثرها وتعمق ، فإذا كانت هذه الأشياء توحى بالخير والجمال والقوة ، فإن تأثيرها على تكوين الخلق يكون طيباً ، أما إذا أوحت بالشر والقبح والضعف فإن أثرها يكون ضاراً .

الفصل الثانى

علاج النفس



الرابطة بين الجسم والنفس رابطة معروفة منذ القدم ، ولكن اهتمام الطب بدراسة آثار كل منهما على الآخر ، والبحث عن طرق لعلاج النفس لم يبدأ إلا فى عام ١٩٣٥ حين نشر أحد العلماء بحثاً بعنوان « العواطف والتغيرات البدنية » حدد فيه أثر الانفعالات النفسية على وظائف الجسم . وجاءت الحرب العالمية الثانية وبدت آثار الخوف والقلق واضحة على ملايين المرضى المدنيين والعسكريين ، إذ تزايدت نسبة المصابين بقرح المعدة والذبحة وارتفاع الضغط والسكر وتقلص القولون والربو والأرتكاريا زيادة مفاجئة كبيرة . فنشط الباحثون بالجامعات والمستشفيات فى دراسة هذه الظواهر وأنشئت أقسام جديدة للعلاج النفسى وتأسست جمعيات علمية نفسية ، وصدرت مجلات متخصصة فى هذا الميدان .

وبعد سنوات من الدراسة والبحث اتضح بما لا يدع مجالا للشك أن الانفعالات النفسية يمكن أن تسبب أمراضاً عضوية ، أو اضطرابات فى وظائف بعض الأعضاء أو تثير مرضاً كامناً لم يكن يشعر المريض بآثاره من قبل . . وفى السنوات الأخيرة أصبح الطبيب النفسانى فى أمريكا وبعض دول الغرب يشترك مع الطبيب الباطنى فى علاج المريض ، إذ يحاول أن يكتشف من المريض العوامل التى يمكن أن تساعد على شفائه ، فقد يكتشف مثلا أن المريض يتخذ من مرضه وسيلة لتبرير رغبة دفينة للظفر برعاية الذين

يحيطون به وإشفاقهم وتدليلهم ، فيفطن الطبيب الباطنى لهذه الناحية ويأخذها فى الاعتبار عند الفحص الإكلينيكى والعلاج .

محاولات للعلاج :

يعتقد أتباع « فرويد» أن الاضطرابات النفسية غالباً ما تكون نتيجة اختبارات سابقة دفينة فى العقل الباطن ترجع إلى سنوات متعددة مضت ، وقد ترجع إلى مرحلة الطفولة . وعن طريق التحليل النفسى يحاول المعالج أن يهيىء الجو للمريض كى يعيش هذه الأحداث مرة أخرى، وأن يفصح عن كل ما يخفيه فى العقل الباطن . وإذا لم يتيسر كسب ثقة المريض واستدراجه للتنفيس عما فى صدره والإجابة بصدق عما يوجه إليه من أسئلة أعطى عقاقير تهدئ العامل الشعورى عنده ، فينطلق فى الحديث بحيث تتضح الصورة العامة للطبيب ، ويستخلص منها أسباب المرض النفسى ثم يفسر المرض للمريض ويحاول أن يجد حلا واقعياً للمشكلة . ولكن كيف يجد الحل ؟ .. وهل يمكن التغلب على متاعبنا النفسية بمجرد الوقوف على أسباب ما نشكو منه .. إن ذلك قد يريحنا بعض الوقت ولكنه لن يمحو هذه المتاعب، فهى فى أغلب الأحوال فوق مقدرة المحلل النفسانى أو أى إنسان آخر .

الموسيقى :

ويعتقد بعض علماء النفس أن للموسيقى أثراً ساحراً فى التخفيف من حدة الاضطرابات النفسية . إنهم يشبهون أعصاب البشر بأوتار

الآلة الموسيقية كلما ازداد توترها أعطت استجابة لكل فعل يمسها أو ضربة تصيبها ، وكلما زادت استرخاء كان ردها للفعل أبطأ وأهدأ . والموسيقى خير وسيلة للاسترخاء والتخفيف من حدة التوتر . وقد أجريت أبحاث على مختلف ألوان الموسيقى ودرجاتها وتأثيرها النفسى والبيولوجى . وتعرض فى الأسواق الآن أشرطة تسجيل بها ألوان مختلفة من الموسيقى تناسب كل منها حالات نفسية معينة .

والواقع أن استخدام الموسيقى للعلاج ليس جديداً فقد استخدمها الأطباء العرب . وكانت تعتبر من العلوم التى يدرسونها قبل أن يزاولوا عملهم . وقد قسموا المقامات الموسيقية على أنواع الأمراض بما يلائم كلا منها ، يقول ابن خلدون مفسراً أثر الموسيقى : «إن النفس عند سماع النغم والأصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك ، فيصيب مزاج الروح نشوة يسهل معها الصعب ، ويزيد تأثيراً إذا كانت الأصوات مناسبة ، وتقوم بعض معاهد العلاج النفسى فى أمريكا الآن بتشجيع المترددين عليها على الرقص على نغمات الموسيقى كوسيلة للتخفيف من الضغوط النفسية .

الضحك والبكاء :

حين يضحك المرء أو يبكى فإنه ينفس عن مشاعره المكبوتة بطريقة طبيعية : فالبكاء صمام أمن تلقائى ، والضحك يخفف من حدة التوتر النفسى . وقد اهتم أحد معاهد العلاج النفسى بفرنسا بتخصيص جلسات للتدريب على الضحك : تبدأ الجلسة فيطلب من الحاضرين أن يسترخوا

استرخاء تامًّا ، ثم تدار أسطوانات تنبعث منها كل أنواع الضحكات ، فإذا بعدوى الضحك تنتقل إلى المستمعين ، فينفجر بعضهم ضاحكاً ولا يلبث الآخرون أن يتبعوه، ويظلون على هذه الحال حتى تنتهى الجلسة .

ولكن هل يمكن أن يبدل الضحك أو البكاء من نفسية المرء وأن يظل أثرهما وقتاً طويلا أو حتى مدة معقولة . . إن نوبات البكاء لا يمكن أن تشفى الجراح الغائرة فى النفس ولا الضحك يمكن أن يمحو الهم الجاثم على القلب .

العلاج بالعقاقير :

لقد نشطت معامل البحوث الملحقة بمصانع الأدوية العالمية فى استنباط مجموعات من العقاقير المهدئة والمقوية للأعصاب والمضادة للقلق والإكتئاب ، والمنظمة للمشاعر والموجهة للسلوك ، ولكن تأثيرها جميعاً وقتى .. ومن المحتمل أنها تضر خلايا المخ وتسبب اضطراباً فى التوازن الهرمونى للجسم .

واستعملت المنبهات والصدمات الكهربائية فى بعض الحالات : ونظمت بالإضافة إلى ذلك «دراسات» لتقوية الإرادة ومقاومة الانفعالات والمغالاة فى رهافة الحس ومواجهة الأحاسيس الباعثة على الخوف والقلق بشجاعة .

وكانت هذه الدراسات تصادف إقبالا وحماساً شديداً ثم لا يلبث المترددون عليها أن تنقطع صلتهم بها :

« فلسفات » لحل المشاكل :

وثمة مدرسة ترى أن المشاكل العديدة التى تصادفها والتى تثقل على النفس فتثير فيها القلق والخوف ويعجز العقل عن إيجاد حلول لها ، من الممكن أن نتخلص من آثارها إذا اعتنقنا فلسفة « المفاجآت السارة» فكل منا يستطيع وهو يراجع أحداث حياته الماضية أن يتبين لحظات كثيرة تأزمت فيها الأمور بحيث لم تعد هناك وسيلة للنجاة ، أو صادف مأزقاً لا سبيل للخروج منه ، وإذا بمفتاح الفرج يأتى عن طريق لم يكن يتوقعه .. قرار لم يكن يتصور صدوره ، زيارة مفاجئة لصديق انقطعت علاقته به منذ زمان طويل ، مقال يقرؤه فى صحيفة وكأن صاحبه يخاطبه هو بالذات . فلو آمنا بهذه الفلسفة وتوقعنا المفاجآت السارة حينما تسد جميع الأبواب أمامنا لما تمكن الخوف والقلق فى نفوسنا .

ويقول آخرون كلما صادفتك مشكلة لا تنفعل بها .. ألقها بعيداً عن أعصابك وضعها أمام العقل ، فالانفعال هو الذى يضرنا صحياً ويحول دون حل المشكلة :

وثمة آراء أخرى متعددة ونصائح وتوجيهات لا حصر لها ، ولكن مضطرب النفس لا يحتاج إلى نصائح وفلسفات بقدر ما يحتاج إلى قوة تشد أزره وتحميه :

الحقيقة المنسية :

إن العاملين فى ميادين الطب المختلفة كلما تعمقوا فى البحث وزادت خبرتهم فى متابعة أطوار المرض وحالات المرضى أحسوا إحساساً عميقاً بأن ثمة قوة عليا تسيطر على الأجهزة البشرية الدقيقة ، ويشعرون بأن يد عليا تتحكم فى مصائرها . يقول أحد مشاهير الأطباء : « إن الطبيب عندما يدخل غرفة المريض لا يكون وحده . إنه يستطيع فقط أن يعاون المريض بالوسائل المادية والمعلومات العلمية للطب الأكاديمى .. وإيمانه فى قوة عليا هو الذى يقوم بالدور الباقى .

إن أبناءنا الطلبة يظنون ساعة تخرجهم من كلية الطب – وبخاصة المتفوقين منهم – أنهم قد أحاطوا علماً بكل شىء فى جسم الإنسان : لقد درسوا وعرفوا كل عظمة وعضلة وشريان ووريد وكل صغيرة وكبيرة فى كل عضو من أعضاء الجسم ، ودرسوا وظيفة كل عضو وعلاقته بالأعضاء الأخرى ، ودرسوا دراسة وافية الأمراض التى تصيبه وطريقة علاج كل مرض – ماذا يتبقى بعد ذلك ؟ .. إن بيدهم شفاء أية علة أو مرض .. ويبدأون حياتهم العملية ، ويصدمون ؛ إذ يجدون أنهم لا يتعاملون مع آلات أو نماذج من البشر متكررة ، يمكن أن يقوم أحد الأجهزة الإلكترونية – كما يحاول البعض – باكتشاف العلة فيها ووصف العلاج :

يروى أحد أساتذة أمراض الأطفال أنه فى أكثر من مرة كان يستدعى

للكشف على طفل مريض ، ويرى — حسب خبرته الطويلة — بما لايدع مجالا للشك أنه لن تمر ساعات حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة ، فيحاول بصعوبة أن يتحكم فى أعصابه ويكتب دون تفكير مجموعة من العقاقير فى تذكرة الدواء ويسرع بالخروج ، ويدهش إذ يتصل به والد الطفل فى اليوم التالى ليخبره بأن أعراض المرض قد زالت ويشيد «بعبقرية» الطبيب الفذة التى أنقذت حياة ابنه ! .

إن الطبيب يستطيع أن يشخص المرض ، وأن يعطى الدواء ، بل أن يعطى أحدث وأفضل ما توصل إليه العلم ، ولكن القدرة الإلهية — فى النهاية هى التى تشفى . إن الجراح يجرى جراحاته ، وعليه أن يترقب قوة عليا تعمل على التئام الجرح ، بل إن معظم الجراحين — مهما طالت خبرتهم يحسون برهبة أمام الجسد الممدد أمامهم وهم فى غرفة العمليات فيرفعون عيونهم إلى فوق طالبين عوناً وهداية ، وطبيب العظام فى وسعه أن يعيد عظمة إلى مكانها ولكنه ينتظر قوة عليا كى تجبر وتشفى . يقول أحد كبار أطباء الولادة : «لقد أشرفت على ولادة أكثر من خمس وعشرين ألف سيدة . ومع ذلك فإننى فى كل مرة أحس أننى أمام معجزة إلهية تتم أمامى . أتطلع إلى المولود وأتصور أنه منذ تسعة أشهر مضت لم يكن له وجود . والآن له أذنان وعينان وأنف وفم ويدان وقدمان ، و بعد ساعات من ولادته يرضع سعيداً من ثدى أمه .

هل زوده العلم بمجموعة من التعليمات وأخبره أين يجد طعامه وكيف يجده : هل أخبرناه أن يغلق عينيه وينام بعد أن يأكل ويشعر بالدفء

هل دربناه — وهو عاجز أن يحرك نفسه — على أن يرفس برجليه ويطوح بذراعيه حتى تقوى عضلاتها .. » .

العلاج الوحيد :

وإذا كانت العقاقير — أو مشرط الجراح — ينسينا دور الخالق فى شفاء العلل البدنية ، فإن الإيمان هو العلاج الوحيد لطرد المخاوف وبث السلام فى النفس . وما أكثر بواعث الخوف والقلق فى ظروفنا الحاضرة . بعضنا يخاف من الألم ، وبعضنا يخاف الإخفاق وبعضنا يخشى تقلبات الزمن ومنا من يخاف مما يقوله الناس عنهم ، منا من يخاف من أشياء غامضة لا يستطيع أن يسمعها أو يلمسها .. إنها أشبه بأصوات مفزعة فى غابة موحشة . ونحن لم نوجد فى هذه الحياة لنقضيها خائفين مرتعبين . إن خالقنا لم يتركنا وحدنا . . إنه معنا ودائماً إلى جوارنا مادمنا نرعى قوانين السماء ولا نعصاها . إنه معنا فى كفاحنا فى هذه الأرض التى نعيش عليها . لقد أودع فى أعماق نفوسنا أشياء حلوة وبريئة وبسيطة ويريدنا أن نقضى هنا حياة حلوة صادقة أمينة فلا يرفع الواحد منا عينيه إلى السماء أو يتطلع حوله إلى الحقول والبحار والزهور فى جمالها وروعتها فيحس أنه بقعة سوداء فى هذه اللوحة الرائعة..

لسنا دمى فى يد الحظ كما يتصور البعض ، إننا فى يد إله عظيم محب حنون .. والإحساس بمحبته ورعايته أنفس وأغلى ما نملك .

إن هذا الإحساس يبعث فى نفوسنا ثقة وسلاماً وشجاعة ، إنه إيمان

يغوص إلى أعماق النفس فيطرد مخاوفها وشكوكها أياً كانت هذه المخاوف والشكوك .

يصور لنا أحد الأدباء فى قصيدة له ، طائراً يقف على فرع شجرة يهتز بشدة لأنه كان فى مهب ريح شديدة فى يوم عاصف . ولكن الطائر كان يغرد مطمئناً . ذلك لأنه يعرف أن له جناحين قويين يمكن أن يحلق بهما إلى فوق إذا كسر الغصن أو إذا سقطت الشجرة ..

هكذا قوة الإيمان بالله .. هى وحدها التى تهبنا مثل هذا الإحساس من الثقة فى كل الأمور وفى جميع الأوقات .. لن نخاف من الحياة .. من مدها وجزرها .. لن نخاف من الناس .. لن نرى الحياة تافهة لا معنى لها وستمتلئ قلوبنا محبة لكل ما حولنا .

يقول أحد كبار المعالجين النفسيين المعاصرين : فى خلال السنوات الثلاثين الماضية استشارنى أناس من مختلف دول العالم ، وعالجت مئات المرضى من مختلف الأعمار فلم أجد واحداً منهم لم تكن مشكلته فى جوهرها الافتقار إلى نظرة دينية واقعية للحياة . وفى يقينى أن كل واحد منهم أصيب بمرضه النفسى لأنه فقد الشيء الثمين الذى يهبه الدين للنفس ، ولم ينل الشفاء الحقيقى واحدمنهم لم يستعد نظرته الدينية الصحيحة . ولقد حاولت أن أعالج بعض الحالات بالإيحاء لهم بالهدوء والثقة بالنفس ولكن بغير نجاح إلى أن ربطت هذه الإيحاءات بالإيمان بقدرة الخالق ومحبته . وعندئذ تحسنت حالات المرضى والملاحظ الآن أنه كلما فترت الحياة الدينية الصحيحة زادت حالات الاضطرابات النفسية .

درب نفسك على مراعاة قوانين السماء فى كل ما تفعل .. فهى لخيرك وهى الضمان الأكيد لصحة نفسك وجسدك . فلك فيها سلام فى الحياة وسلام فى الفكر وسلام فى القلب . والإيمان ليس شعوراً باطنياً وإنما هو عمل إيجابى . إن كلمة « الإيمان » فى اللغة مشتقة من الأمن ومعنى «يؤمن» يأتمن على ، ويسلم فإذا كنت صادقاً فى إيمانك فلا بد أنك تحس بالأمن والسلام .

مع الإيمان رجاء وأمل .. والحياة بغير رجاء تغدو كئيبة مملة لا شىء فيها لأنه لا شىء وراءها .. لا معنى لها لأنه لا مستقبل لها . الذين يثقون فيما بعد الحياة الدنيا يسيرون فى طرقاتها المتشعبة الشائكة بلا خوف .. الألم بالنسبة لهم لا شىء .. الضيقات سحابة صيف لا تلبث أن تزول ، الحياة بالنسبة لهم هبة كبرى من الخالق .. حتّى الموت مغامرة من مغامرات الحياة .. بعثة إلى عالم الخلود .. قفزة من الأرض إلى السماء.

الفصل الثالث

كن طبيب نفسك



لا شك أنك قرأت ، أو سمعت ، كثيراً عن خطورة قيامك بتطبيب نفسك ، ولكنك لم تقرأ كيف تقوم بهذه المهمة دون خطر. وعلى الرغم من التحذيرات الكثيرة من الإهمال فى استشارة الطبيب عند أول بادرة للمرض ، فإن جميع الأطباء يعلمون أن الإنسان العادى لا يمكن أن يعيش دون أن يصاب فى كل عام بعدد من نوبات البرد ، أو الصداع ، أو سوء الهضم ، أو الإمساك ، أو الإسهال ، وما شابهها . ويهدف الطبيب إلى أن يكون المرء حكيماً فى علاج هذه الحالات البسيطة ، وأن يكون على بينة من أثر إساءة استعمال الأدوية الشائعة لعلاجها ، وأن يعرف متى يكون فى حاجة فعلية لاستشارة الطبيب .

إن كثيرين وكثيرات يتصورون خطأ أن الإنسان الصحيح لا يمرض إطلاقاً ، فكثيراً ما يستولى القلق على الأمهات لأن أبناءهن أو بناتهن أو جميعهم قد يصابون بنوبتين أو ثلاث نوبات من البرد خلال موسم الشتاء أو أنهم يصابون بالإمساك من حين لآخر ، أو أنهم أصيبوا بنزلة معوية فى إحدى المرات . ومثل هذه الأم تسيء فى الواقع لأولادها وبناتها أكثر مما تفيدهم . فهى إذ تسعى لأن تحول بينهم وبين هذه التوعكات التى لابد منها ، تطلب المستحيل ، وتأبى أن تواجه الواقع . وهى فى الغالب تغرس فى نفوس أولادها الاعتقاد الخاطئ — الذى يغلب أن يشب معهم — بأن صحتهم أقل من المستوى العادى .

وكنتيجة لسوء فهم معنى الصحة ، يعتقد البعض بأن تناول العقاقير بانتظام أمر طبيعى جداً . فأنت لاشك تعرف صديقاً أو أكثر يتناول باستمرار جرعاً للكبد وأخرى لسوء الهضم والصداع وما إليها ، دون أن يفطن إلى خطر المداومة على هذه العقاقير .

لقد رسخت فى أذهان معظم الأشخاص العاديين — مع مرور الوقت — فكرة عن تطورات صحتهم خلال العام . ولعلك اكتشفت فعلا ، أنك تصاب بنوبتين من البرد فى السنة وأنك عندما تجهد نفسك أكثر من المعتاد ، يغلب أن تصاب بنوبة خفيفة من الإسهال أوالصداع . والغالب أنك اكتشفت أيضاً دواء أصبحت تفضله لعلاج هذه النوبات فإذا كان الأمر كذلك ، فلا بأس من استعماله حتى تزول النوبة . وطالما أن سبب العلة يبدو واضحاً ، ولا يقترن بأعراض غير عادية ، ولم تزد آلامك أو مضايقاتك أثناء النوبات ، وكذلك عدد مرات الإصابة بها ، فلا بحاجة لأن تقاق بسببها .

ولكن إذا حدث تغيير مفاجىء فى نظام هذه التطورات ، كأن يصاب شخص لم يصب بصداع قط ، بآلام فى الرأس ثلاث مرات فى أسبوع ، أو إذا تحول اتجاهه الطبيعى للإمساك إلى اتجاه للإسهال ، وجب أن يستشير الطبيب ، على الرغم من أن العلة قد تبدو خفيفة ، وعلى الرغم من أنها قد تستجيب للأدوية التى يشتريها من الصيدلية بغير «تذكرة دواء» . وإذا وجدت أنك أصبحت تعتمد أكثر فأكثر — وبصفة مستمرة — على نوع معين من العقاقير ، وخاصة الأدوية المنومة ، أو الملينات ،

ينبغى أن تناقش الأمر مع الطبيب .

* * *

وإذا سلمنا بأن صحة الشخص العادى عرضة للمد والجزر ، فإن هذا لا يعنى أن نسرع إلى الصيدلية كلما أحسسنا باضطراب فى الجسم . ينبغى أن ندرك أن هناك أشياء كثيرة طبيعية وجدت لكى تساعد الجسم على التغلب على الأمراض البسيطة ، وعلى المحافظة أو على تحسين الصحة وبين هذه الأشياء الراحة ، والرياضة ، والغذاء ، والتدليك ، والتدفئة أو التبريد ، وما إليها .

فالراحة عامل جوهرى لمقاومة وعلاج بعض نوبات المرض التى تتردد عليك . فإذا لم تكن الراحة ميسورة فلا أقل من تغيير «الروتين» الذى تتبعه فى عملك ، فهذا قد يكون أكثر فائدة من إضافة ساعات من النوم . والرياضة لها أثر يعادل أثر الراحة أحياناً ، وخاصة إذا تضمنت تغيير المناظر أو صحبة أشخاص جدد ، أو القيام بنشاط تحبه ، وحتى المشى أو اللعب مع أطفالك قد يحسن روحك المعنوية وينشط عضلاتك كما ينشط عمل كل عضو حيوى فى جسمك ، من القلب إلى الأمعاء والغدد .

والغذاء الصحى ، والاحتفاظ بوزن الجسم المناسب ، لهما أثرهما الطيب فى الصحة وعلاج بعض الحالات . خذ مثلا حالات الإمساك والإسهال . فإدمان الإمساك يمكن مقاومته بالإكثار من الفاكهة أو عصيرها ، والخضر الطازجة ، مع الإقلال من المواد النشوية مثل الأرز والمكرونة والحلوى الجيلاتينية واللحوم . والميل إلى الإسهال يقاوم بالإكثار

من الأطعمة المرغوب فى الإقلال منها فى حالات الإمساك : وآلام العضلات نتيجة المجهود الشاق والإحساس بالتعب الشديد ، يزيلها ويخففها كثيراً التدفئة أو الاسترخاء فى حوض به ماء دافئ لمدة ربع ساعة . والتدليك أيضاً يفيد ، مالم يكن بالمنطقة المتألمة التهاب أو احتقان أو انسلاخ أو احتمال كسر ، فهو علاج ومهدئ فى الوقت نفسه .

وبعض الوصفات «البلدية» يفيد فى الحالات المرضية البسيطة خذ مثلا الوصفة القديمة لعلاج احتقان الزور بالغرغرة بماء يحتوى على قليل من الملح (نحو ملعقة متوسطة فى كوب ماء) فقد دل الاختبار على أنها أكثر فائدة فى تخفيف التهابات الحلق،من أى نوع من العقاقير الشائعة المخصصة لهذا الغرض واستنشاق قليل من هذا المحلول الملحى ثم استخراجه مرة أخرى بلطف فتحىّ الأنف ، ويفيد فى تخفيف احتقانه .

وتستطيع الأم علاج بعض توعكات الأطفال بملاحظة الصلة بينها وبين الجو النفسى الذى يمهد إليها — فقد تضطرب معدة الطفل أثر زجره أو خدش شعوره . ولن تنفع العقاقير فى هذه الحالات ، ولكن ينفعها معرفة الأسباب المؤدية إليها وتفاديها ، ونفس الشىء يحدث أحياناً مع الزوجات والأزواج !

* * *

وينبغى ألا تستعمل الأدوية التى تشترى بغير استشارة الطبيب إلا بعد

أن تقرأ جيداً التعليمات المرفقة بها . وحاول أن تطبق هذه التعليمات بدقة ، فكل دواء يمكن أن يغدو خطراً إذا استعمل جزافاً أو بطريقة مخالفة للتعليمات . خذ مثلا قطرات الأنف ، فهى إذا استعملت بكثرة يمكن أن تجفف الغشاء المخاطى للأنف أو تسبب احتقاناً مؤقتاً فيه ، وقد تؤدى إلى التهاب الجيوب الأنفية . وقطرات الأنف الزيتية ينبغى استعمالها بحذر شديد وخاصة وقت النوم ، فإذا تعاطاها طفل صغير السن أو شيخ متقدم السن أو شخص منهوك القوى ، قد يتسرب الزيت إلى الرئتين ، ولأنه لا يمكن امتصاصه ، فقد يسبب نوعاً مزمناً من الالتهاب الرئوى .

وأقراص التهابات الحلق يمكن أن تكون أيضاً ضارة إذا استعملت بكثرة . وعقاقير الكحة ، يحتوى بعضها على مواد تثير بعض المصابين بالحساسية . ولذلك فإنه من المستحسن دائماً أن تسأل طبيبك عن أدوية الكحة التى تناسبك وتناسب أولادك . واستعمال الزيوت المعدنية «كالبارافين» كملين باستمرار يحرم الجسم فى الغالب من بعض الفيتامينات الضرورية له . وإذا أعطيت للأطفال بالقوة ، فإن قليلا من الزيت قد يتسرب إلى الرئتين . والأسلم فى حالة الملينات أن تستشير طبيبك عن النوع الذى تستعمله .

والأدوية القاتلة للميكروبات ينبغى ألا تستعمل إلا بإرشاد الطبيب فهو وحده الذى يعرف مدى فائدتها ، ومقدار الجرعة الواجب استعمالها ، فإذا لم تؤخذ الجرعة المناسبة فإنها قد تكسب الميكروب مقاومة ضد

الدواء . واستعمال هذه الأدوية يسبب أحياناً مضاعفات لا يستطيع مواجهتها بسرعة ونجاح سوى طبيب يدرك هذا الاحتمال .

أما العقاقير المنومة ، فإن بعضها يحتوى على مواد قد تسبب — إذا أخذت لمدة طويلة — نقصاً فى «كريات » الدم البيضاء، وبالتالى تضعف مقاومة الجسم وقدرته .

وثمة تحذير آخر ، إن خزانة أدويتك فى البيت تتطلب تنظيفاً تاماً كل ستة أشهر ، فأكثر الأدوية — مثل أفلام التصوير — لا تصلح إلا لمدد معينة . وعندما تنتهى هذه المدة يجب أن تستبعد نهائياً . والأقراص التى يبدو عليها التفتت أو يتغير لونها يجب أن تستبعد ، وكذا السوائل إذا ظهر بها راسب أو تغير لونها .

الغذاء وأثره فى الصحة :

إن مهمة الطبيب برغم دقتها وخطرها ليست شيئاً بالنسبة لمهمتك أنت ، وخاصة فيما يتصل بجانب الوقاية من المرض وبتهيئة الجسم لمقاومته . والتغذية من أهم العوامل التى ينبغى أن تحرص على تنظيمها لتحقيق ما تنشده من صحة . وهى متشعبة النواحى ، يستوعب البحث فيها مجلدات (١) لذلك سأتناول بإيجاز أهم الجوانب التى تعنيك فى هذه الناحية .

---

(١) أصدرت دار المعارف كتابا للمؤلف فى التغذية بعنوان « عالج نفسك بالغذاء » ضمن سلسلة (اقرأ) .

بدون تغذية جيدة يستحيل أن تستمتع بالصحة التى تنشدها أو تحس بالحيوية والنشاط ، كما يستحيل أن تتقى المرض أو تتخلص منه ، فسوء التغذية يؤذى الصحة بطرق كثيرة مختلفة . وأعنى بسوء التغذية عدم الحرص على توازن العناصر الغذائية التى تتناولها . فالبدانة إحدى نتائج سوء التغذية ، فهى فى الغالب دليل على الإكثار من الأطعمة النشوية والدهنية على حساب العناصر الأخرى الضرورية ، والنحافة الزائدة غالباً ما تكون نتيجة عدم تزويد الجسم بالوحدات الحرارية اللازمة له . وسوء التغذية كثيراً ما يؤدى إلى سرعة توتر الأعصاب ، وتشوش الفكر ، وصعوبة تركيز الذهن ، وسرعة التعب . وقد يؤدى إلى ضعف القدرة التناسلية ، وسرعة الإصابة بالأمراض المعدية .

وثمة أمراض معينة تكون نتيجة مباشرة لسوء التغذية وعدم احتوائها على النسب الضرورية من الفيتامينات . مثل بعض حالات التهابات الأعصاب ، والتهابات العين المتكررة ، وبعض الأمراض الجلدية ، ونزيف اللثة ، وأمراض الشرايين والقلب ، واضطرابات الأمعاء . وأحياناً يمهد سوء التغذية لمرض عقلى لا تصاحبه أعراض مرضية بالجسم .

وعلى الرغم مما تقرأه فى تحديد أنواع الفيتامينات التى يسبب نقصها أمراضاً معينة . فإنه ينبغى أن تعلم أن التغذية مهمة معقدة ، وأنه لا يمكن أن يعزى مرض معين إلى نقص معين فى التغذية . ومن هنا وجب أن يشمل العلاج الصورة بأكملها ، وأن يسد النقص فى جميع جوانب التغذية .

أعراض سوء التغذية :

إن الأعراض الأولى لسوء التغذية ، تكون فى العادة أعراضاً عامة ، ولا يمكن ملاحظتها أو تحديدها بوضوح ، فسرعة التعب والشعور بإنهاك القوى، وسرعة « النرفزة »، والإصابة بنوبة مرضية بعد أخرى ، كلها من أعراض سوء التغذية، وإن كانت هذه الأعراض قد تكون وليدة متاعب نفسية وعاطفية إذا لم تكن لأسباب عضوية .

ومن الحكمة دائماً – فى هذه الحالات – أن تراجع بدقة عادات الأكل عندك ، وأن تبدأ نظاماً جديداً يوفر لك جميع العناصر الغذائية اللازمة ، فإذا لم يصحب هذا النظام الجديد تحسن أو بعض تحسن ، خلال شهر أو نحوه ، فمن الخير أن تزور الطبيب لكى يفحصك .

والشخص البالغ الذى يقل وزنه باستمرار ، أو الطفل الذى لا ينمو فى الطول أو يزيد فى الوزن بانتظام ، قد يكون فى حاجة إلى زيادة نسبة البروتينات أو «السعرات» الحرارية فى غذائه . وعلى الرغم من أن الطفل الصحيح الجسم ، لا يكتسب كل شهر زيادة فى الوزن بصفة مستمرة ، غير أن توقفه عن الزيادة فى الوزن خلال بضعة أشهر ينبغى أن يكون مدعاة للاهتمام .

* * *

إن أحمرار اللسان المصحوب بفقدان الشهية للطعام واضطرابات المعدة قد يدل على نقص «لنياسين» أحد مركبات فيتامين ب . والجلد الخشن

أو ما يبدو فى مظهره مثل جلد الإوزة باستمرار ، يمكن أن يعنى نقصاً فى فيتامين ا ، والإحساس بوخز فى الذراعين والساقين واليدين والقدمين أشبه بوخز الدبابيس والإبر — وخاصة إذا كانت هذه الأحاسيس فى جانبى الجسم فى وقت واحد — قد تدل على نقص فيتامين ب ١ ، واحمرار الجلد وتشقق جانبى الفم يشيران إلى نقص فيتامين ب ، وهذه الحالة شائعة عند الأطفال فى مرحلة النمو ، واللثة المتورمة التى تنزف لأقل ضغط تعنى نقص فيتامين « ج» أو « C » ، واستعداد الكبار لسرعة تسلخ الجلد والجروح يدل على نقص فيتامين (ج) أو «ك» . وتأخر المشى أو الإحساس بالألم عند المشى وتقلصات اليدين والقدمين عند الأطفال ، قد يشيران إلى نقص فى الكلسيوم وفيتامين «د» .

الأغذية الضرورية :

يمكن تقسيم الأغذية الضرورية للجسم إلى فئات :

(١) اللحوم والدجاج والسمك والبيض ، ويضاف إليها الفول والبسلة المجففة — وإن كانت أقل مرتبة

(٢) اللبن والجبن .

(٣) الخضروات ذات الأوراق الخضراء والبطاطس والخضر

(٤) الموالح وعصير الفاكهة والطماطم .

(٥) الخبز .

(٦) الزبد والسمن والمواد الدهنية الأخرى .

وعلى هذا ينبغى أن نتناول من كل هذه الفئات بقدر ، على أن لا نشعر أننا نتبع فى غذائنا برنامجاً يومياً لا يتغير ، فالمهم أن تستوثق أن عائلتك تحصل على ما يكفيها من الوحدات الحرارية «السعرات» وأن غذاءها يتضمن قدراً مناسباً من المواد البروتينية مثل اللحم أو الدجاج أو السمك أو البيض أو الجبن واللبن كل يوم .

على أننى لا أحب أن تشغل ذهنك بمهمة حساب العناصر الغذائية التى تتناولها ، فهى مهمة معقدة تفقدك متعة الطعام ، كما أكرر ماسبق أن أكدته من ضرورة الاعتدال فى الأكل ، وتفادى التخمة التى تؤدى إلى عسر الهضم ، وبالتالى إلى سوء التغذية . كما أننى أعارض فكرة استبعاد اللحوم من الغذاء ما لم ير الطبيب ذلك فى بعض الحالات المرضية ، فاللحوم من أهم مصادر البروتينات لبناء الخلايا وتعويض ما يبلى من أنسجة الجسم .

* * *

لقد ظل البعض يشكك فى فائدة اللحوم ويغالى فى بيان أضرارها حتى بضع سنوات مضت . عندما أجريت عدة تجارب على لفيف من الإسكيمو الذين يعيشون فى أقصى الشمال ولا يأكلون سوى اللحوم وبعض الفطريات التى تنمو هناك بعكس الإسكيمو الذين يعيشون فى الجنوب ، فإنهم يأكلون كميات كبيرة من المواد السكرية والدقيق والفاكهة المجففة . وقد دل فحص الفريقين على نطاق واسع ، أن حالات ارتفاع ضغط الدم بين أهل الشمال لا وجود لها إطلاقاً ، فى حين أن ارتفاع

ضغط الدم وما يتبعه من أمراض كان شائعاً بين أهل الجنوب بنسبة شيوعه فى البلاد المتمدينة ، ووجد أن مستوى الصحة عند الفريق الأول أعلى بكثير منه عند الفريق الثانى .

ومن الشواهد التى تتخذ للتدليل على أن الإنسان خلق لكى يجمع بين أكل اللحوم وأكل النباتات ، تكوين أسنانه . فالفم مزود بنوعين من الأسنان : القاطعة والطاحنة . فهل كانت الطبيعة تمدنا بهذين النوعين معاً ، لو أنها أرادتنا من أكلة اللحوم فقط ، أو من أكلة النباتات فقط ؟

التنويع فى الطعام :

والتنويع فى الطعام أمر ضرورى . فعلى الرغم من أننا نعرف الآن الكثير عن الفيتامينات ، ونعرف مصادرها ووظائفها بالتحديد ، فإنه لا يستبعد أن تكون هنالك فيتامينات مفيدة يحتاج إليها الجسم ، ولكنها لم تكتشف بعد ، فلا تقصر طعامك على أنواع معينة ، أو على الأغذية التى تحبها ، فقد يكون فى الأغذية الأخرى من العناصر ما يحتاج إليها جسمك أنت بالذات . وليس اشتهاء الشيء دائماً دليلا على حاجة الجسم إليه . خذ مثلا الأطفال ، إنهم مرات يقبلون على نوع معين من الطعام إقبالاً كبيراً . فيعوقهم ذلك عن تناول أنواع أخرى هم فى أشد الحاجة إليها . ومن هنا ينبغى منعهم من الأفراط فيه .

وأحياناً تسيطر على الطفل — وعلى البالغين فى بعض الحالات — شهوة مجنونة لتناول أشياء غير صحية كالجلود ، أو المشمع ، أو رؤوس

عيدان الكبريت ، أو الملح ، وما إلى ذلك . وهذه حالات تستلزم المبادرة باستشارة الطبيب ، وقد تحتاج لعلاج نفسى .

هذا إلى أن شهية المرء للطعام عرضة للمد والجزر، لأسباب متعددة لا دخل للمرض فيها ، فإذا شعرت بفقدان الشهية للطعام يوماً أو بضعة أيام، فلا تقلق ولا تدع نفسك بغير طعام لانعدام الشهية له ، بل ساعد نفسك بأغذية صحية سهلة الهضم .

الفيتامينات الصناعية :

ويتساءل كثيرون : هل من الحكمة تعاطى فيتامينات إضافية من الصيدليات بصفة مستمرة تفادياً لما قد يكون فى التغذية من نقص ؟

الواقع أن الجسم إذا حصل على القدر المناسب له من الطعام المنوع المعد إعداداً جيداً ، فإنه لا يحتاج إلى فيتامينات إضافية ، طالما كان الجسم قادراً على استيعاب وتمثيل الأغذية التى يتناولها . ولكن البعض لا يستفيدون من الأغذية التى يتناولونها الاستفادة المرجوة . نتيجة لبعض أمراض الكبد ، أو البنكرياس ، أو القرح ، أو نوبات المغص والإسهال المزمنة وما إليها . وفى هذه الحالة يجب تعاطى فيتامينات إضافية ، ويستحسن أن تكون باستشارة الطبيب .

وعندما يتعذر عليك — لسبب مؤقت من الأسباب — أن تحصل على غذاء منوع كامل، أو على أطعمة طازجة كافية ، كأن تكون فى رحلة تستغرق وقتاً ، فإنه ينبغى أن تتعاطى فيتامينات إضافية ولكن بشرط

ألا تتجاوز الكمية المحددة فى النشرة المرفقة بها . وأحياناً يتسبب التعود على استعمال البارافين كملين فى نقص فيتامين ا أو ك فهو يمتص هذه الفيتامينات ويحول دون استيعابها . فإذا كان استعماله ضرورياً ، وجب استعمال فيتامين اضافى يعوض ما يفقده الجسم منه.

إعداد الطعام :

على أننى أحب أن أوجه لربة البيت كلمة موجزة تتصل بإعداد الطعام ، فمما لاشك فيه أن الطعام يمكن أن يفقد الكثير من قيمته الغذائية إذا أسيء إعداده . فلكى تضمن ربة البيت تفادى ذلك ينبغى أن تراعى ما يلى :

١ ــ لا تعدى كمية من الطعام أكثر مما هو ضرورى للوجبة الواحدة ــ وخاصة اللحوم ــ فإن التسخين المتكرر يفسد بعض العناصر الغذائية والفيتامينات فى اللحوم والخضر ، وخاصة فيتامين ج « C » وفيتامين « ب » المركب .

٢ ــ لا تستعينى بدرجات حرارة أعلى مما ينبغى عند إعداد الطعام وخاصة بالنسبة للحوم ، فالحرارة الزائدة تعنى فقدان بعض الفيتامينات والعناصر المعدنية المهمة للجسم والأفضل أن تطيلى مدة الطهى مع استخدام درجات من الحرارة المنخفضة .

٣ ــ استعملى أقل قدر ممكن من الماء فى الطهى ، لأن الماء يذيب

بعض العناصر المعدنية والفيتامينات . واستعملى السائل الناتج من الأطعمة المطهية كلما كان ذلك ميسوراً . إن هذه السوائل تفقد كثيراً من عناصرها الغذائية عندما تختزن ، وإذا استعملت الخضر المحفوظة ، سخنيها فى الماء الذى تحتوى عليه العلبة .

٤ ــ احتفظى بالسلطة والفاكهة ــ عدا الموز ــ باردة ، واستعملى عصير الفاكهة بعد عصرها مباشرة أو بعد فتح العلب المحفوظة فيها مباشرة. مع مراعاة عدم استعمال عصارات من معادن يدخل فى تركيبها النحاس فهو يساعد على سرعة فساد فيتامين « C » . وإذا كان لابد من حفظ العصير مدة طويلة ، فاحتفظى به بارداً فى وعاء مماوء إلى حافته ومغلق غلقاً جيداً ، فتعريض هذا الفيتامين للهواء يعجل بفساده .

وكلمة أخرى عن الغذاء أثناء الحمل والرضاعة . إذا كان غذاؤك قبل الحمل جيداً منوعاً ، واستمر على ذلك بعد الحمل دون أن يحدث ما يحول دون استفادة الجسم منه وتمثيله ، كالغثيان أو القئ واضطرابات الهضم أو النزيف وما شابه ذلك ، فإنك لا تحتاجين إلى كميات إضافية من الكلسيوم والفيتامينات خلال الأشهر الستة الأولى من الحمل . فالسبب فى وصف الكلسيوم والحديد والفيتامينات فى الأشهر الأولى هو التعويض عن سوء التغذية السابق للحمل أو لتعويض ما يفقده الجسم بسبب الغثيان أو القئ وغيرهما من المتاعب التى تقترن بالحمل عند بعض السيدات . أما خلال أشهر الحمل الثلاثة الأخيرة . فإنك تحتاجين إلى

وحدات حرارية وبروتينات وكلسيوم وفيتامينات أكثر مما تستهلكينه عادة .

* * *

والأم المرضع تحتاج دائماً إلى تناول غذاء كامل ، مضافاً إليه وحدات حرارية معادلة للوحدات المستخلصة من لتر ونصف لتر من اللبن الذى ترضعه لوليدها . وهذه الوحدات الإضافية ينبغى أن تستخلص من أغذية غنية بالكلسيوم والبروتينات .

وأحب أن ألفت نظرك يا سيدتى إلى أن ضعف الشهية للأكل لا يولد مع طفلك ولكنه يكتسب ، وغالباً ما يكون ذلك بسبب قلقك عليه ومبالغتك فى الاهتمام بأمر تغذيته . فعلى الرغم من اختلاف أمزجة الأطفال وطباعهم ، وعلى الرغم من أن عملية « التمثيل الغذائى » تختلف فى السرعة والانتظام من طفل لآخر . فإنه ليس ثمة طفل صحيح الجسم منشرح الصدر لا يحب أن يأكل . فالشهية المضطربة عند طفل لا يشكو علة عضوية ، تدل على اضطراب عاطفى أو نفسى ، فلا تلجأى إلى التهديد أو التوسل ، ولا تظهرى لطفلك اهتماماً زائداً أو قلقاً بسبب غذائه . اتركيه يأكل ما يشتهيه من طعام ويمتنع عما لا يشتهيه فى حدود المعقول . وحاولى أن تكون أوقات الأكل — على الأقل — أوقاتاً مرحة .

ويغلب أن تظهر أعراض سوء التغذية عند الطفل فيما بين سن السابعة والعاشرة ، فهو يكون فى هذه السن أكثر اهتماماً باللعب ، فى حين تزداد سرعة نموه . ولذلك فإنه يستحسن مساعدته ببعض الفيتامينات أو العقاقير المحتوية على الحديد .

والأنيميا من أعراض سوء التغذية، وهى دليل على نقص فى عنصر الحديد اللازم للجسم ، أو نقص فى البروتينات ، أو نقص من الناحيتين ، ولكن الأنيميا التى تصاب بها النساء أحياناً ، هى فى الغالب نتيجة عجز الجسم عن تعويض ما يفقده من دم أثناء العادة الشهرية . فالمرأة — خلال سنواتها النشطة — تحتاج لحديد أكثر من حاجة الرجل إليه . ويمكن مواجهة هذه الحالة عادة بغذاء خاص غنى بالحديد والبروتينات وأحياناً يكون الحديد الإضافى ضرورياً .

البدانة :

ويسوقنا الحديث عن التغذية إلى البدانة ، والشخص البدين فى عرف الطب هو من يزيد وزنه بنسبة ١٥ ٪ — أو أكثر عن الوزن المناسب لعمره وطوله . والبدانة كما أشرنا تكون فى الغالب نتيجة عدم توازن عناصر التغذية فى الطعام والإفراط فى الأكل . ومحاولة التخلص منها أو تفاديها من ضرورات الصحة الجيدة ، فهى تمهد الطريق لكثير من الأمراض مثل السكر وارتفاع ضغط الدم وأمراض الشرايين وسرعة تكون حصيات الكلى والمرارة ، وهى غالباً ما تؤدى إلى التهاب المفاصل ، التى تنوء بحمل وزن الجسم وأرطال الدهن المكدسة فيه ، كما تزيد العبء على القلب والدورة الدموية .

وأنا لا أريد أن أحدثك عن حالات البدانة التى ترجع إلى اضطرابات فى الغدد .. فعلاج هذه الحالات — وهى لحسن الحظ قليلة جداً — من

اختصاص الطبيب . ولكن يهمنى أن أنبهك إلى ما تسببه لنفسك ، بإهمالك وإفراطك فى الطعام، وما يتبعهما من ترهل فى الجسم وتكور فى الكرش ، من متاعب صحية ونفسية .

أن البعض يعلل بدانته بأنها وراثية ، فطالما أن الوالدين أو أحدهما بدين، فلا ذنب للأبناء إذا اكتنزت أجسامهم شحماً يكاد يشل حركتهم . ولكن الواقع أن التشابه بين أمثال هؤلاء وبين ذويهم ، ليس فى تكوين الجسم الطبيعى ، وإنما فى عادات الأكل واختيار ألوان الطعام ، ففى أغلب البيوت تعد وجبات الطعام لكى تشبع رغبات الوالدين وترضى شهيتهم بغض النظر عن فائدتها أو أثرها على الصحة أو وزن الجسم ، والصغار يقتدون عادة بالكبار ، لذلك لم يكن عجباً أن يشبوا على التلهف على الأطعمة الدسمة والحلوى وتعود الإفراط فى الطعام، وأن تترهل أجسامهم مثل ذويهم ، إن لم يزيدوا عليهم فى هذا المضمار .

ولو سلمنا جدلا بأن الوراثة تلعب دوراً فى البدانة – وهذا لم يثبت علمياً – فإن أمثال هؤلاء يستطيعون أن يتخلصوا من البدانة إذا شاءوا. وأنا لا أحب أن تفكر فى التخلص من الزائد من وزنك إذا كانت هذه الزيادة تتراوح بين ثلاثة كيلوجرامات وخمسة كيلو جرامات . فمثل هذه الزيادة تعتبر «احتياطياً » يمكن الالتجاء إليه عند الحاجة .

ولا أحب أن تلتزم حرفياً بالأرقام التى تتضمنها الجداول الموضوعة للأوزان المناسبة للأطوال ، فالوزن المثالى لشخص ما قد يكون وزناً غير مناسب لشخص آخر ، وإن كان الشخصان من طول واحد وعمر واحد . فهيا كل الأجسام تختلف من شخص لآخر اختلافاً غير قليل . فشخصان

فى الثلاثين من العمر – طول كل منهما خمس أقدام وست بوصات قد يكون بينهما فارق فى الوزن قدره خمسة كيلوجرامات. ومع ذلك فإن كلا منهما يكون وزنه مثالياً ، لأن محيط صدر أحدهما أربعون بوصة بينما محيط صدر الآخر ثلاثون بوصة فقط ، وقد يكون الفارق فى الوزن حتمياً لاختلاف فى عرض الكتفين . ومن هنا،فإن ذوى الأحجام الصغيرة قد يعدون بدينين برغم أن أوزانهم لا تتجاوز الوزن العادى المدون بالجداول .

* * *

إن الوزن الصحيح الذى يناسبك ، هو الوزن الذى تعمل فيه أعضاء جسمك على خير وجه ، فلا تلهث لأقل مجهود ، ولا تعجز عن بذل مجهود إضافى إذا اضطرتك الظروف للعجلة . وهو الوزن الذى يبدو فيه مظهرك وسيما متناسقاً .

فإذا كنت تحس على ضوء هذا التعريف أنك بدين ، وجب أن تفكر فى التخلص من زيادة الوزن، لا عن طريق الصوم عن الطعام أو الرياضة العنيفة المجهدة ، أو العقاقير التى تعرض فى الأسواق ، فهذه فى الواقع أخطر على صحتك من الشحم نفسه . صحيح أنك ستفقد عن طريقها جانباً من وزنك ، ولكن الإنسان يمكن أن يفقد جانباً كبيراً من وزنه عن طريق الإصابة بالتيفود أو الالتهاب الرئوى أو غيرهما من الأمراض الخطرة الأخرى !

إذا كنت تريد أن تقلل من وزنك ، فإن مجرد الرغبة لا تكفى ينبغى أن تعمل وتجاهد لتحقيق هذا الهدف . ولا بد من الوقت والصبر والمثابرة

لقد استغرق تراكم الشحم فى جسمك وقتاً غير قصير ، ولذلك فإنه من المستحسن – بل من الضرورى لصحتك – أن يستغرق التخلص منه وقتاً . فمن الخير لمن يريد أن ينقص ووزنه ٢٤ كيلو جراماً – فعلا – أن يفقد كيلوجراماً واحداً كل أسبوعين لمدة عام ، من أن يفقد القدر كله فى ستة أشهر ، وإن تيسر له ذلك .

ومما لا شك فيه أن البعض يستطيعون أن يتخلصوا من الزائد من أوزانهم بسرعة وسهولة أكبر من الآخرين ؛ كما أن البعض يستطيعون زيادة وزنهم بسرعة أكبر من غيرهم ، والبعض يستطيعون أن يقوموا بألوان عنيفة من الرياضة دون أن تتأثر صحتهم ، ويستطيعون أن يقللوا من الطعام دون أن يتأثر نشاطهم . فلا تدع المقارنات تثبط همتك . وثق أنك تستطيع أن تتخلص من بدانتك مهما استغرق ذلك من وقت أطول من غيرك ، بشرط ألا تيأس ، أو تستسلم فى أول الطريق أو منتصفه ، أو أن تتصور أنك تستطيع فى بضعة أيام أن تمحو كتلا من الشحم تكدست فى شهور أو فى سنوات ! .

* * *

وإذا شئت أن تتبع نظاماً صحياً للتخلص من البدانة وجب أن تمزج بين النظام الغذائى «رجيم» والرياضة فى آن واحد . ولكى نوضح ذلك علمياً نقول إن الطعام وقود نحرقه فى «أفران» أجسامنا ، والنشاط الجثمانى هو النيران التى نحرقه بها ؛ فإذا لم يكن هناك توازن بين الاثنين ، أى إذا لم تكن النيران كافية لحرق الوقود كله ، اكتنز المتبقى منه فى الجسم

على هيئة شحم . فإذا أكلنا مثلا من الأطعمة ما يمد الجسم بثلاثة آلاف وحدة حرارية كل يوم ، وحرقنا منها ألفى وحدة حرارية فقط فى نشاطنا الجثمانى والذهنى ، فإن المتبقى يختزن فى الجسم على هيئة شحم . ومن جهة أخرى ، إذا حرصنا على الإقلال من الطعام بحيث نتناول ما يمدنا بألفى وحدة فقط ، وزدنا النشاط الجثمانى بحيث يمكن أن يحرق ثلاثة آلاف وحدة ، اضطررنا إلى استهلاك ألف وحدة يومياً من الشحم المختزن بالجسم . وفى الوقت نفسه سيحفظ النشاط الجثمانى والرياضة عضلات الجسم قوية نشطة ، وبذلك نتفادى الضعف والهزال الذى يصحب التخلص من البدانة عن طريق «الرجيم» وحده .

ولكن أى أنواع الرياضة نمارس؟ إن المشى يفيد جداً . وإذا شئت العب التنس ، أو كرة السلة ، أو أى نوع من الرياضة المريحة التى تستهويك . فعندما يقترن النشاط الرياضى بالمتعة والحماس ، فإن النتائج تكون أسرع ولمدد أطول . أما التمارين الرياضية التى تملى عليك إملاء ، فإنها تغدو مع مرور الوقت روتينية بغيضة ، فإذا لم تكن لك قوة إرادة فائقة فإنه يغلب أن تكف عن ممارستها .

* * *

والنظام الغذائى مشكلة أخرى . ولذا ينبغى أن نتفادى « الرجيم » الذى يستبعد بعض العناصر الغذائية المهمة للجسم . فسواء أكان وزننا فوق المعتاد أم أقل من المعتاد ، فإن أجسامنا تحتاج إلى كمية معينة من الطعام لكى تؤدى وظائفها الطبيعية ، وهذه الكمية ينبغى أن تحتوى على

مقادير معينة من جميع العناصر الغذائية ، فإذا كانت الكربوهايدرات (المواد النشوية والسكرية تمد الجسم بوحدات حرارية أكثر من الأطعمة الأخرى ، فإنه لا ينبغي أن تستبعد كلية من الطعام بأية حال ، هذا إلى أن قصر الطعام على أنواع معينة يقتل الشهية تدريجياً ، وينفر المرء من تناول هذه الأنواع ، بحيث يجد المرء نفسه بعد مدة مندفعا إلى تناول أى طعام آخر .

احرص على أن تقلل من تناول المواد الكربوهايدراتية ، وعوض ذلك بالخضر الطازجة ــ وخاصة ذات الأوراق الخضراء ــ والفاكهة الطازجة واللحوم الحمراء . ولاحظ أنك مهما أقللت من الطعام ، ينبغى أن تبذل نشاطاً يكفى لاستنفاد الوحدات الحرارية التى أمدك بها الطعام الذى تناولته ، وإلا تحول الباقى منها إلى شحم .

وعلى البدين أن يمتنع عن شرب الخمر ، فهى فضلا عن ضررها بالصحة بوجه عام ، تتأكسد بسرعة كبيرة داخل الجسم ، وبذلك تحول دون إذابة الشحم المترسب فى الجسم . وللنوم علاقة كبيرة بزيادة الوزن ، ففى ساعات الراحة والنوم نستنفد القليل من الطاقة الحرارية . وعلى الرغم من أن النوم ضرورى للصحة ، فإن كثيرين يقضون فى النوم ساعات أكثر مما ينبغى . فإذا كنت متعوداً على أن تكتفى بسبع أو ثمانى ساعات ، ثم بدأت تنام من ١٠ ــ ١٢ ساعة ، كان لابد لك من أن تزيد نشاطك بنفس النسبة خلال ساعات اليقظة ، وإلا زاد وزنك وترهل جسمك . ومن هنا ينبغى أن تحاول اليقظة قبل الموعد الذى تعودت عليه بنصف ساعة أو ساعة ، وسوف تحس بأنك أكثر نشاطاً واستعداداً لمواجهة أعباء اليوم.

ويلجأ البعض للحمامات التركية كوسيلة للتخلص من البدانة ، بما تستنفده من الماء الزائد بالجسم الذى يخرج عرقاً يتصبب ولكن النتيجة فى الغالب مؤقتة ، إذ سرعان ما يعمل الجسم على تعويض المفقود منه.

والفكرة الشائعة من أن الامتناع عن شرب الماء يساعد على التخلص من البدانة ، فكرة لا أساس لها . فنحن سواء كنا بدينين أو كنا نشكو من النحافة ، ينبغى أن نشرب كفايتنا من الماء ، وإلا عرضنا أنفسنا لكثير من الاضطرابات الجثمانية . والتدليك أيضاً لا يفيد الفائدة المرجوة، إن له فوائد كثيرة فى بعض الحالات المرضية ، ولكن الاعتماد عليه كبديل للرياضة ، عند محاولة التخلص من البدانة ، اعتماد خاطىء .

كيف تقاوم النحافة :

إذا كنت تشكو من النحافة الزائدة ، فأنت أحد ثلاثة :

١ ــ قد تكون من أسرة عرف معظم أفرادها بالنحافة الزائدة ، أى قد تكون النحافة وراثية فى العائلة . وفى هذه الحالة ، لا فائدة من محاولة التخلص منها . فإذا كنت نحيفاً ، ولم تستطع أن تزيد وزنك بكافة الطرق سنة بعد أخرى ، وكنت سليماً لا تشكو مرضاً ، فنحافتك نحافة طبيعية ، لا تقلق بسببها .

٢ ــ قد تكون نحافتك بسبب اعتلال صحتك ، أو اضطراب أساسى فى إحدى وظائف جسمك . فإذا كان وزنك أقل من المعتاد ، وظل ينقص خلال بضعة أشهر متوالية ، فالراجح أن يكون السبب راجعاً

إلى اضطراب وظائفى أو إلى بؤرة فى مكان ما بجسمك . وفى هذه الحالة أيضاً لا تضطرب ، لأن الاضطراب لن يؤدى إلا إلى نقص إضافى فى وزنك ، وعليك فى هذه الحالة ، أن تستشير طبيبك الباطنى ، وطبيب أسنانك . فهما اللذان يستطيعان أن يحددا ما إذا كانت النحافة ناتجة عن تلف الأسنان أو « اللوزتين » أو بسبب نشاط ضار لغددك الدرقية أو النخامية ، أو لأية بؤرة أخرى تفرغ سموماً فى جسمك . فإذا عرف السبب وعولج ، فإنه فى تسع حالات من عشر حالات سوف يأخذ وزنك فى الزيادة على الفور .

٣ ــ قد تكون حالتك ــ كما هى الحال مع معظم الذين يشكون من النحافة ــ نتيجة إهمال التغذية والصحة العامة ، فإذا قرر طبيبك أنك سليم من المرض ، وكانت أسنانك سليمة ، ولم تكن نحافتك وراثية ، ففى وسعك أن تزيد وزنك إذا اتبعت نظاماً صحياً ، من حيث الغذاء والرياضة والاستجمام والنوم ، يتلخص فيما يلى :

١ ــ أكثر من الأطعمة الدهنية والنشويات مع عدم الإخلال بتوازن العناصر الغذائية فى طعامك . وتناول اللحوم « المدهنة » والزبدة والجبنة والبندق والجوز ، والشيكولاتة ، والبطاطس ، والفول السودانى ، والكريمة ، والسكر ، والشوفان .

٢ ــ حاول أن تأكل الموز أو تشرب اللبن بين وجبات الطعام .

٣ ــ زيت السمك علاج للنحافة قديم ، ولكنه مفيد إذا تناولته باستمرار أو على الأقل فى موسم الشتاء .

٤ ـ إذا كانت شهيتك للطعام عادية ، فلا ترغم نفسك على الإكثار من الأكل ، فهذا لن يزيد وزنك ، ولكنه فى الغالب لن يسبب لك إلا سوء الهضم .

٥ ـ حاول أن تقلل من التدخين وشرب الشاى ، فالإكثار منهما يضعف الشهية للطعام .

فإذا أردت أن تتخلص من النحافة ـ وكنت سليماً لا تشكو مرضاً ـ تأكد أن شهيتك بخير ، وكل باعتدال ، مراعياً زيادة نسبة المواد الدهنية والنشوية فى غذائك .

والرياضة المعتدلة عنصر هام فى مقاومة النحافة ، وخاصة الرياضة التى تقوى عضلات البطن .

* * *

ولعل من أصعب المهام، أن تقنع شخصاً مفرطاً فى النحافة ـ رجلا كان أو امرأة ـ أن يأخذ قسطاً كافياً من الراحة أو يأخذ الأمور ببساطة، أو يكف عن القلق ويعمد إلى الاسترخاء فالشخص النحيف يغلب أن يكون متوتر الأعصاب، لا يستطيع أن يبقى فى مكانه ساكناً . فهو يجرى ـ أو يكاد يجرى ـ كلما هم بالمشى . وهو يحتفظ بعضلاته فى أغلب الأوقات متوترة وكأنه يتوقع أن يجرى إلى مكان ما فى أية لحظة . ويلتهم الطعام بسرعة حتى لا « يضيع » وقتاً نفيساً يمكن أن ينفق فى شىء آخر . وهو دائم القلق، يخشى دائماً أن لا تسير الأمور على ما يرام . إن مشكلة مثل هذا الشخص ، مشكلة نفسية بحتة . وإلى أن يسلك

مسلكاً مخالفاً ، ويتعلم كيف يستجم ، وكيف يهدأ ، فإنه سوف يتعذر عليه أن يزيد وزنه .

والنوم ضرورة للذين يشكون من النحافة . ينبغى أن يناموا ثمانى ساعات على الأقل، وينبغى أيضاً أن يشربوا الماء بوفرة . إن كثيراً من النحاف والنحيفات تبدو أجسامهم وكأنها قد جفت ولم يعد بها أثر من الماء . والدم وأنسجة الجسم جميعاً إذ تحرم من الكمية المعتادة من الماء تؤخر أو تعطل وظائف الجسم . فشرب لترين أو ثلاثة لترات من الماء كل يوم يساعدك على زيادة وزنك .

وعليك بعد هذا أن تستنشق الهواء النقى وأن تتعرض لأشعة الشمس الهادئة بقدر ما تستطيع . وإذا كنت تعانى من إمساك مزمن فبادر بمحاولة تصحيح هذا الوضع ، فطالما أن جهازك الهضمى يحتفظ بفضلات فى داخله ، فأنت تحتفظ بسموم فى جسمك ، تضعف الفائدة المرجوة من أية تغذية تحصل عليها .

نظم حياتك : نم ، واعمل ، والعب ، وكل فى فترات منظمة بقدر المستطاع ، ولا تغير برنامجك من يوم لآخر . كن صبورا ، وتذكر أنه من الصعب أن تضيف إلى وزنك من أن تقلل منه ، لذلك لا تتوقع المعجزات . فخلال الأسبوع الأول أو الأسبوعين الأولين من محاولة زيادة وزنك وإعادة بناء جسمك ، يغلب ألا تضيف إليه أوقية واحدة . بل إنك قد تفقد كيلو أو أكثر . ولكن رقم الميزان سوف يكون فى جانبك بعد ذلك ، إذا داومت على تنفيذ برنامجك بدقة وانتظام .

أثر المكيفات !

الشاى ، والقهوة ، والتدخين ، ما أثرها على الصحة ؟ إن بعض المتزمتين يصورونها سموماً تضعف الصحة وتسمم الجسم ، أما الآخرون فيصورونها مفيدة للصحة وضرورية للاستمتاع بمباهج الحياة ، والحقيقة تقع فى مكان متوسط بين هذين الرأيين .

القهوة والشاى :

يمكن معالجة موضوعى القهوة والشاى معاً ، فالعامل المهم فى كليهما هو « الكافيين » ، ومع أن أوراق الشاى تحتوى على أكثر من ضعف نسبة الكافيين الموجودة فى حبات البن ، فإن الفنجان العادى من كل المشروبين يحتوى على حبة ونصف حبة Gratn [1] (من الكافيين ، وهى الجرعة التى توصف عادة عندما يشار باستعمال الكافيين لأغراض طبية .

وقد درست آثار الكميات المختلفة من الكافيين على الجسم دراسة شاملة دقيقة . والثابت الآن أن جرعة الكافيين فى فنجان من القهوة أو الشاى تزيد فى العادة سرعة الدم ، وسرعة التنفس وعمقه ، وتوليد الجسم للحرارة بما يتراوح بين ١٠٪ و ٢٠٪ . وأثرها على الهضم ليس

(١) الحبة وحدة للوزن ، والجرام يساوى ١٥ حبة .

محدداً ، فهى تسبب للبعض بطء الهضم وللبعض الآخر سرعة الهضم ، ولا تؤثر على عملية الهضم إطلاقاً عند الآخرين . ولكن من آثار الكافيين المشتركة عند الجميع زيادة إفراز البول ، وإن لم يعرف بعد ما إذا كانت إثارة الكليتين المستمرة بواسطة الكافيين تسبب ضرراً لهما أم لا .

والكافيين عند البعض ينشط الجهاز العصبى نشاطاً ملموساً . فيزيد القدرة على التفكير والعمل الجسمى والذهنى . ولكنه يسبب للبعض الأرق والعصبية وأحياناً الصداع ، ولو كان بنسبة معتدلة .

وهذا الاختلاف فى أثر الكافيين المباشر يلقى ضوءاً على السر فى الاختلاف الكبير فى الآراء العلمية عن فائدة أو ضرر القهوة والشاى . على أن الراجح أن شرب الشاى والقهوة بمقادير معتدلة ، ليس ضاراً بالصحة . هذا باستثناء الذين لهم حساسية للكافيين ، أو المصابين بأمراض عصبية ، وبعض أمراض أخرى معينة ، فإنهم ينبغى أن يمتنعوا عن شربها . أما الإفراط فى شربها فهو ضار بغير شك .

هل تمتنع عن التدخين :

يحتوى التبغ على مادة تعرف بالنيكوتين ، هى مركب زيتى لا لون له ، وهى فى حالة التركيز تعد من أقوى السموم المعروفة . فنقطة مركزة واحدة منه توضع على لسان خنزير ، أو فوق جلد أرنب فى موضع أزيل منه الشعر ، تكفى لأن تقتلهما . وإذا حقن شخص فى وريده ، بمقدار أقل من جزء من خمسين جزءاً من النقطة ، فإنه يسبب له نقصاً فى

سرعة ضربات القلب ، وارتفاعاً فى ضغط الدم ، وانخفاضاً فى درجة حرارة الجلد .

ومقدار النيكوتين الذى يمتصه الجسم من التبغ يختلف باختلاف نوعه وطريقة استعماله . فإذا سحق التبغ واستعمل سعوطاً ، فإن نسبة النيكوتين التى يمتصها الجسم تكون أعلى من نسبتها عند المضغ ، والمضغ بدوره يسبب امتصاصاً أكبر من التدخين ، وتدخين الغليون « البيب » يسبب امتصاصاً أكبر من تدخين السيجار ، والسيجار أكبر من السيجارة . وفى حالة الدخان الرطب يكون الامتصاص أكبر منه وهو جاف .

والتدخين يسبب أحياناً الصداع ، والدوخة ، والأرق ، وسرعة استثارة الأعصاب ، وقد تتأثر ، بسبب الإفراط فيه ، قوة الإبصار . وأحياناً يؤثر فى عمل القلب والجهاز التنفسى ، فيسبب ألما فى منطقة القلب ، وعدم انتظام فى ضرباته ، بل إنه قد يكون من العوامل المساعدة على « هبوط القلب Heart Failure » ويعتقد البعض أن هناك رابطة بين التدخين والذبحة الصدرية وارتفاع ضغط الدم . وأحياناً يسبب الإفراط فى التدخين — لما يحتويه التبغ من مواد تثير الأغشية المبطنة للجهاز التنفسى — كحة مزمنة أو التهاباً مزمناً فى الأنف والحلق .

وقد ثبت علمياً أن تدخين السيدة الحامل ، يزيد سرعة النبض عند الجنين . وقد وجد أن أربع أوقيات من لبن الثدى — عند أمهات يدخن ما بين ست لفافات وثمانى لفافات فى اليوم — تحتوى على نيكوتين

يكفى لقتل ضفدع وقد ثبت أخيراً وجود علاقة وثيقة بين التدخين وسرطان الرئة .

بعد أن عرفت هذه الحقائق ، هل ينبغى أن تمتنع عن التدخين إذا كنت من المدخنين ؟

برغم الدراسات الكثيرة لآثار التبغ على الإنسان والحيوان ، فإننا لا نستطيع أن نعطى جواباً قاطعاً عن النتائج الحقيقية للتدخين المعتدل على الصحة ، ونعنى بالمعتدل أربع أو خمس سجاير فى اليوم ، فمما لا شك فيه أن تأثر الإنسان بالتبغ يختلف اختلافاً كبيراً من شخص لآخر . وهناك أمثلة لحالات اضطربت فيها ضربات القلب واستمر الاضطراب لبضعة أيام ، وأحياناً لبضعة أسابيع ، بسبب التدخين المعتدل . أما الإفراط فى التدخين ، فهو ضار بغير شك .

فإذا رأيت بعد الموازنة بين « المتعة » المؤقتة التى تحصل عليها من التدخين ، وبين النفقات ، واحتمال تعريض صحتك للضرر ، أن تستمر فى التدخين ، فإننى أنصح بما يلى :

- لا تدخن أكثر من خمس سجاير فى اليوم .
- لا تستنشق أو تطرد الدخان من الأنف .
- ليكن تدخينك بعد الأكل مباشرة .
- توقف عن التدخين لمدة شهر أو أكثر كل عام .
- دع الطبيب يفحصك من حين لآخر .

المشروعات الكحولية :

أما المشروبات الكحولية ، فهى تسمم جسمك . فالمقادير الكثيرة منها تشل مركزاً عصبياً بعد آخر ، حتى تؤدى إلى فقدان الوعى . والكميات المتوسطة منها تؤثر فى قوة التفكير والقدرة على التركيز والذاكرة والحكم على الأشياء . ومن الآثار الفسيولوجية تمدد الأوعية الدموية التى ينشأ عنها احمرار الجلد والإحساس بالدفء ، وهذا يصحبه عادة هبوط قليل فى ضغط الدم ، وزيادة فى سرعة ضربات القلب .

وقد لوحظ أن الالتهابات الرئوية تشيع بوجه خاص ، وبدرجة خطيرة ، بين المفرطين فى شرب الخمر . ويؤيد ذلك ، الاختبارات العلمية على الأرانب ، فقد ثبت أنها أكثر عرضة للإصابة بميكروبات الالتهابات الرئوية إذا حقنت بالكحول أو الأثير تحت الجلد . وشرب الخمر يؤثر تأثيراً ضارًّا على الجهاز العصبى ، فيسبب ارتجاف اليدين واللسان ، كما يسبب سرعة « النرفزة » وسرعة النسيان ، وبلادة الذهن ، وأحياناً يؤدى الإفراط فيه إلى الصرع . وهو يؤثر أيضاً فى الجهاز الهضمى ، إذ يضعف الشهية للطعام — على خلاف ما يتوهم البعض — ويسبب الأمساك المزمن .

وهو يسبب تغيرات واضحة فى الكبد ، ويؤدى إلى نوع من التصلب أو التليف ، حتى لو شرب باعتدال . وقبل التليف يتضخم الكبد ،

وأحياناً يتورم الطحال، وتتأثر الكليتان ، والقلب ، والشرايين . وأحياناً
[يؤدى إلى « هلوسة » فى البصر والسمع ، فيرى المدمن صورا وهمية لفيران
أو ثعابين ، أو يسمع أصواتها ويتوهم أنها تزحف نحوه أو على جسمه ،
مما يؤدى به تدريجياً إلى الجنون .

وتدل احصاءات شركات التأمين على أن نسبة الوفيات بين « المعتدلين جداً فى شرب الخمر » تزيد بنسبة ١٨٪ عنها بين من لا يشربون إطلاقاً .
والاعتدال هنا معناه زجاجة من البيرة أو كأس من الويسكى يومياً .

وأغلب الذين يتورطون فى علاقات جنسية تؤدى بهم إلى أمراض تنغص عليهم حياتهم ، يكون تورطهم نتيجة شرب الخمر .

هذا إلى أن شرب الخمر يمنع تقدم علاج الأمراض التناسلية ، وينشط العدوى الكامنة .

استفد من الطبيعة :

إن الطبيعة تعطينا أفضل ما فى الوجود بغير ثمن ، فالهواء النقى ، وأشعة الشمس ، والماء ، كل هذه الأشياء وغيرها ، لا تكلفنا شيئاً ، ولعلنا لهذا لا ندرك قيمتها .

ولو أن شخصاً يشكو من أعراض واضحة لسوء التغذية ، رفض أن يتناول الأطعمة المغذية التى تقدم له باستمرار ، أو اكتفى بتناول

لقيمات قليلة ، لاتهمناه بالغباء والجنون . وبرغم ذلك ، فإن كثيرين يقفون موقفاً مشابهاً بعدم إفادتهم من أهم العناصر التى تهب الصحة والحيوية والنشاط ، وهى : الهواء النقى ، وأشعة الشمس ، والماء .

الهواء النقى :

إن الهواء النقى أحد دعائم الصحة الرئيسية . والذين يعيشون ويعملون فى أماكن مزدحمة لا يتجدد هواؤها ، والذين يهملون الإفادة من الهواء الطلق فى الحدائق العامة وعلى شواطىء البحار ، أو فى أعالى الجبال ، سوف يجدون — إن عاجلا أو آجلا — أن أعصابهم تزداد توتراً ، وصدورهم تزداد ضيقاً ، وعقولهم تأخذ فى التبلد ، وأجسامهم تغدو أقل مقاومة للمرض . وبعبارة أخرى ، فإنهم يسلبون أنفسهم الحق الطبيعى للصحة لأنهم ينكرون على أنفسهم نصيباً كاملا من أعظم دعائم الصحة المجانية .

ولكن الاستمتاع بالهواء النقى يمكن — ككل شىء آخر — أن يساء استعماله ، فالتنفس العميق للهواء النقى فى الصباح مثلا ، عادة طيبة . ولكن الذى يقفز من فراشه ليفتح نافذة غرفته ويقف أمامها — مواجهاً جوّاً بارداً جدًّا — لكى يستنشق الهواء ، يغلب أن يصاب بالتهاب رئوى . وتهوية غرفة النوم بانتظام وفى كل الأوقات شىء جوهرى ولكن هذا لا يعنى أن تدع تياراً بارداً يكتسحها وأنت نائم ، فتجنب التيارات الهوائية ضرورة بدهية .

والتنفس وظيفة طبيعية تلقائية ، المفروض فيها أن يكون استنشاق الهواء من الأنف ، حتى تتاح الفرصة لتدفئته وتخليصه من الأتربة والمواد الغريبة العالقة به قبل دخوله إلى الرئتين ، كما أن المفروض ألا يكون التنفس قصيراً جداً أو عميقاً جداً «كما يتعمد البعض ذلك تطبيقا لرأى مشكوك فى صحته» . ولو أن الجميع تنفسوا كما أرادت الطبيعة لهم أن يتنفسوا ، وحرصوا على ملء رئاتهم بالهواء النقى — ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا — لقلت نوبات الكحة والبرد والاحتقان ومتاعب الرئتين عما هى عليه الآن قلة ملموسة .

فنى الأيام التى يصفو فيها الجو ، اهرب من بيتك إلى أحضان الطبيعة ، أنت وزوجتك وأولادك — وخاصة إذا كنت من سكان المدن المزدحمة — واقض أطول وقت ممكن مستمتعاً بالهواء النقى حتى توفر لنفسك جانباً كبيراً من نفقات علاج الكحة ونوبات البرد ومضاعفاتها .

أشعة الشمس :

وأشعة الشمس أقوى مطهر أوجدته الطبيعة ، فهى تفتك بالجراثيم والميكروبات . وقد عرف منذ زمان طويل أن لها خواصاً علاجية . فالشمس عامل علاجى شاف ، كما أنها عامل وقائى من المرض والضعف ومهما عنينا بالغـــذاء والرياضة ، وظللنا نعيش فى مكان مظلم رطب لما أمكننا أن نعيش أصحاء ، لذلك ينبغى أن نحرص على أن تكون الغرف التى يقيم بها أطفالنا وأماكن مذاكرتهم ولعبهم ، معرضة لأشعة الشمس تعرضاً كافياً .

الماء :

أما الماء ، فهو من الدعامات الأولى للصحة . إنه مخفف ضرورى للأطعمة التى نأكلها . وهو العامل الرئيسى للتخلص من جميع سموم الجسم خلال مسام الجلد ، أو خلال الكليتين والأمعاء والرئتين . وفى الجو الحار يشرب الشخص العادى ماء كافياً ، ولكن فى الجو البارد لا يشرب الناس القدر الكافى منه ، على الرغم من أهميته للجسم أثناء البرد شتاء بقدر أهميته أثناء الحر صيفاً .

ومن المشاهدات الطبية ، أن سيدة كانت كثيرة الإصابة بنوبات البرد ، برغم عنايتها بغذائها وبالنزهة والرياضة فى الهواء الطلق . وكانت تنام ساعات كافية أثناء الليل . ومع ذلك ، فقد كانت تحس بأن صحتها تتدهور بسبب نوبات البرد المتلاحقة التى كانت تصاب بها دون أن تعرف السبب المؤدى إليها . واكتشف الطبيب المعالج أنها تقلل من شرب الماء، حتى إنها لم تكن تشربه إطلاقاً فى بعض الأيام . فنصحها بالمبادرة بشرب كوب من الماء عند اليقظة صباح كل يوم – دافئاً أو بارداً كيفما يروق لها وأن تكرر ذلك بعد العشاء – وفيما بين الأكل تشرب مرتين أو ثلاث مرات أخرى . وبعد بضعة أسابيع أحست بتحسن ملموس ، فقلت إصابتها بنوبات البرد ، وزال عنها الإمساك المزمن التى كانت تشكو منه .

ولا يعنى هذا أن الماء يمنع نوبات البرد ، ولكنه يساعد الجسم على

التخلص من سمومه وعلى رفع قوة مقاومته ، بل وفى دفاعه ضد ميكروبات البرد .

استفد إذن من الهواء النقى ، وأشعة الشمس ، والماء ، بقدر ما ما تستطيع ، فهذه هى « وصفة » الطبيعة للصحة ، ووصفات الطبيعة لن تجد لها مثيلا .

فائدة الرياضة :

يستمتع البعض بصحة طيبة دون أن يمارسوا أى لون من ألوان الرياضة ، أو كانوا يمارسونها نادراً جداً ، ولكن الغالبية منا يشعرون بنشاط أوفر ، وينامون نوما أعمق ، ويشعرون ببهجة الحياة شعوراً أقوى إذا مارسوا بانتظام رياضة معتدلة حبيبة إلى نفوسهم .

وأوضح أثر للرياضة المنتظمة ، تقوية العضلات وتنشيط أكثر وظائف الجسم ، فضربات القلب تقوى وتزداد سرعة ، والتنفس يزداد عدداً وعمقاً ، وتوليد الحرارة وإفراز العرق يزداد .

والطاقة التى تستنفدها الرياضة تستخلص من أكسدة « احتراق » العناصر الغذائية . وخاصة المواد الكربوهايدراتية والدهنية . وكنتيجة لذلك تقوى الشهية للطعام وتنشط عملية التخلص من الفضلات والسموم ، كما ينشط النمو عند الأطفال . هذا إلى أن الرياضة تخفف من توتر العضلات ومن التعب الذهنى .

ولكن ما هو نوع الرياضة الذى يلائمك ؟ وكم من الوقت ينبغى أن تقضيه فى ممارسته ؟ إن الطفل فى مرحلة النمو ، والشاب والشابة فى

مقتبل العمر ، يجدون لذة فى ممارسة الرياضات العنيفة المجهدة . إنهم يتعبون لدرجة الإرهاق ، ولكنهم سرعان ما يتخلصون من أثر التعب بعد فترة راحة قصيرة ، ويختلف الحال مع متوسطى العمر والمتقدمين فى السن فبالنسبة لهؤلاء ، الاعتدال فى الرياضة من الأهمية — بل من الضرورة — بمكان .

ولكن ماذا يقصد بالاعتدال ؟ إن الاختلاف فى التكوين الجثمانى كبير جداً بدرجة يصعب معها تحديد نوع الرياضة أو الوقت الذى يستحسن إنفاقه فيه بالنسبة لعمر معين. فمباراة تنس تستغرق ساعة قد تكون مفيدة جدا لشخص فى الأربعين ، ولكنها مضرة جداً لشخص آخر فى نفس السن . إن حد الأمان فى الرياضة يتوقف على حالة القلب ، والعضلات ، ونوع الرياضة ، ودرجة الانتظام التى تمارس بها ، ولذلك ، فإنك إذا أردت أن تستفيد من الرياضة ، وجب أن تفحص نفسك من وقت لآخر لمعرفة حالة القلب والصحة عامة . فإذا لم يكن بالجسم عيب عضوى ، مارس الرياضة التى تهواها على ألا تصل إلى درجة الإرهاق فى رياضتك .

وإذا شعرت بعد ممارسة الرياضة ، بالحاجة إلى الاسترخاء ، بعد بعض التعب ، فإن هذا الأمر مرغوب فيه ، ولكن التعب إلى حد الإرهاق قد يسبب أضراراً من الخير أن تتفاداها .

إن الرياضة لا يمكن أن تشفى الأمراض العضوية . أما الأمراض التى تنشأ عن اضطراب أو كسل فى وظائف أعضاء الجسم ، مثل بعض

حالات الإمساك والصداع والعصبية التى تتفاقم — إن لم تكن ناشئة — بسبب أعباء الحياة العصرية ومطالبها ، فقد يخفف من حدتها لعب التنس . أو ركوب الخيل ، أو صيد السمك ، أو السباحة ، وما إليها . وأفضل أنواع الرياضة فى هذه الحالات ما ينشط جسمك ، ويبعد فى الوقت نفسه ، المتاعب والهموم عن ذهنك .

إعتدال القامة :

وللقامة المعتدلة ارتباط وثيق بالصحة ، فالكتفان المقوستان ، والعمود الفقرى المنحنى ، يلقيان عبئاً إضافياً على عضلات الساقين والظهر . والبطن البارز يسمح بارتخاء الأعضاء الداخلية ، وهذا الارتخاء بدوره يؤثر فى وظائفها . وهو يعمل على سرعة الإحساس بالتعب ، والتعب يساعد على عدم اعتدال القامة ، وهكذا تجرى الأمور فى حلقة مفرغة .

لقد نجحت الدعاية التى تهدف إلى ترويج عقاقير الكلى ، فى ربط آلام الظهر بأمراض الكليتين فى أذهان الكثيرين .والواقع أن أمراض الكليتين قليلة الحدوث ، وعندما يصاب بها المرء يندر أن تصحبها آلام فى الظهر . ومن جهة أخرى ، فإن آلام الظهر الشائعة يغلب أن تكون نتيجة عدم الحرص على اعتدال القامة أثناء الجلوس أو الوقوف ، أو وجود عيب فى إحدى القدمين أو فى كلتيهما معاً . والتخلص من آلام الظهر فى هذه الحالة ، لا يكون باستعمال عقاقير الكلى وإنما بتصحيح السبب المباشر للألم .

وقد يكون عدم اعتدال القامة نتيجة ميل وراثى ، أو عادة ، أو نتيجة تعب مزمن ، أو عدم تمرين واستعمال عضلات الظهر والبطن والساقين استعمالا كافياً ، أو لهذه الأسباب جميعاً . ولتحسين هذه الحالة ، تفيد الرياضة فائدة ملموسة ، ولكن الاهتمام وقوة الإرادة والراحة قد تكون لها نفس الفائدة ، بل إنه إذا كان التعب والإجهاد هما العاملان المهمان فى عدم اعتدال القامة ، فإن الراحة تكون أجدى من الرياضة .

ومهما يكن من سبب تقوس الظهر والكتفين ، ففرص علاجهما إبان الطفولة تكون كثيرة ، وتقل تدريجياً كلما تقدم العمر ، فعادات الطفل فى الوقوف والجلوس والمشى وما إليها تكون فى دور التكوين ، وعضلاته وأربطة أنسجته تكون غضة مرنة ، وعظامه لينة .

* * *

والرياضة المفيدة فى تحسين القامة هى التى تقوى عضلات الظهر والبطن ، وإليك بعض تمارين مبسطة منها :

* ارقد على ظهرك ويداك خلف رقبتك . خذ نفساً عميقاً بحيث يرتفع صدرك عاليا . ثم اطرد الهواء عن طريق جذب عضلات البطن بقوة .

* اتخذ نفس الوضع مع ثنى الركبتين ، ورفع القدمين إلى أعلى اجذب عضلات البطن بقوة ، ثم استرح مكرراً هذه العملية . ويمكن القيام بهذا التمرين وأنت واقف ويداك متماسكتان فوق رأسك .

* اجلس على مقعد ، بينما يكون ظهرك فى وضع مستقيم ، مل بجذعك — مرة بعد أخرى — للأمام ، محتفظاً بعمودك الفقرى مستقيماً .

إن هذا الوضع هو الذى يجب أن تتخذه عندما تميل لتكتب أو لتقوم بأى عمل آخر وأنت جالس إلى مكتبك . وهذا التمرين يمكن أن تقوم به وأنت واقف .

• قف معتدلا واضعاً يديك خلف ظهرك ، وذقنك معتمد على صدرك ثم أرفع ساقك إلى الأمام دون أن تثنى الركبة ، وبعد أن تعيدها إلى موضعها كرر نفس الحركة مع الساق الأخرى، إن هذا التمرين يعلمك كيف تحتفظ بقامتك منتصبة بغير تقوس .

• قف معتدلا ، منتصب القامة ، ثم ارفع نفسك برفع أصابع قدميك ، وأنت تمد ذراعيك إلى الأمام وإلى أعلى وكرر الحركة مرات .

حافظ على قدميك :

وتعب القدمين بسبب عدم ملاءمة الحذاء ، يسبب أحياناً ألماً فى الظهر أو الرأس ، كما قد يسبب سرعة التعب وسرعة « النرفزة » ، لذلك احرص على أن يكون حذاؤك دائماً مريحاً ، ومن السعة بحيث تظل أصابع القدمين فيه مستقيمة غير مضغوطة ، أى يكون بينها وبين السطح العلوى فراغ .

والأحذية ذات الكعوب العالية تسبب آلاماً كثيرة لبعض السيدات فى أقدامهن وظهورهن ، إذ يضطر الجسم لبذل جهد خاص لحفظ توازنه عند استعمال هذه الأحذية أثناء المشى ، هذا فضلا عن أن الأحذية ذات الكعوب العالية تؤدى أحياناً إلى تقوس الظهر ، ودفع

الأمعاء ومحتويات البطن إلى الخارج .

إن بعض السيدات يستطيع استعمال الأحذية ذات الكعوب العالية طوال حياتهن دون ضرر أو إحساس بالألم ، وأخريات قد يستعملنها سنوات دون أن يحسسن بشيء ، ولكن يأتي وقت – يكون غالباً فى أواسط العمر – أو بعده ، تثور فيه القدمان ويثور الجسم على هذا الوضع غير الطبيعى ، ويترجم الجسم ثورته بآلام متعددة تتخذ صوراً مختلفة .

والمشاهد أن السيدة التى تستعمل أحذية ذات كعوب عالية باستمرار تصاب عضلات الجزء الخلفى من ساقيها أحياناً بشيء من الخمول والقصر نتيجة عدم الاستعمال . فإذا حاولت مثل هذه السيدة أن تستبدل هذه الأحذية بأخرى لا كعوب لها إطلاقاً ، ألقت جهداً شديداً على الأوتار المتصلة بكعب القدم . ولذلك ينبغى أن يكون الانتقال بالتدريج ، من كعب عال إلى كعب متوسط الارتفاع ، وهكذا .

على أن أكبر عيوب القدم المؤلمة ، هو ما يعرف بالقدم المسطحة Flat Foot ، وفى هذه الحالة « يتفلطح» التقوس الطويل الممتد من الكعب إلى أصبع القدم الكبير . ولو أخذت « بصمة » القدم المصابة بالتفلطح – أى لو وضعت هذه القدم وهى مبتلة على قطعة من الكاوتشوك الجاف مثلا – لكانت الصورة المنطبعة على الكاوتشوك تمثل مستطيلا بنفس العرض تقريباً ابتداء من الكعب حتى أطراف الأصابع ، فى حين أن الصورة المنطبعة للقدم العادية تكون ضيقة فى الوسط ، عريضة عند الكعب والأصابع .

وبعض الأشخاص يولدون بهذا العيب ، ولا يتألمون بسببه ، إلا بعد أن يلقوا جهداً كبيراً على أقدامهم . أما الذين تتفلطح أقدامهم بسبب الأحذية غير الملائمة ، أو عدم تمرين القدم تمريناً كافياً وما إلى ذلك ، فإنهم يشعرون بآلام مختلفة ، ويحسون بإجهاد شديد بعد مشى قليل أو أثناء الوقوف .

وأحياناً يحدث تفلطح فى النصف الأمامى من القدم يسبب ألما فى الأصابع الثلاثة الخارجية يمتد إلى وسط القدم . وينبغى ألا يتخذ أى إجراء لعلاج هذا العيب أو غيره من عيوب القدم قبل استشارة إخصائى .

* * *

وقد وجدت القدم للمشى ، ولكن استخدام السيارات فى الانتقال والمصاعد للصعود إلى الأدوار العليا فى المكاتب والمنازل جعل مجال المشى ونشاط القدمين يقل شيئاً فشيئاً . وكنتيجة لذلك ، أخذت عضلات القدم تضعف وتتراخى ، وبدأت تظهر المتاعب التى يشكو منها الرجل العصرى والسيدة العصرية . وأفضل طريقة لتفادى هذه المتاعب الحرص على المشى وقتاً — ولو يسيراً — كل يوم ، مع الحرص على استخدام أحذية صحية مريحة .

الراحة والإسترخاء :

وإذا كانت الرياضة المعتدلة المناسبة من مقومات الصحة ، فإن الراحة الجثمانية والذهنية فى الوقت المناسب وبالقدر المناسب ، من أهم

العوامل لاسترداد النشاط ومقاومة الأمراض .

إن الإحساس بالتعب هو فى الواقع إحساس بالألم نتيجة تأثير مواد سامة معينة على المراكز العصبية فى المخ . وهذه المواد السامة قد تتكون من العضلات كنتيجة ثانوية لأكسدة العناصر الغذائية حتى تتولد الطاقة اللازمة لمواجهة النشاط الجسمى . وقد تكون وليدة بؤرة أو مرض بالجسم ، وقد تمتص هذه السموم من الجهاز الهضمى أو الجهاز التنفسى .

ومهما يكن مصدرها ، فإنها تتسرب إلى الدم وتدور معه فى جميع أجزاء الجسم مسببة الإحساس بالتعب ، كإنذار وقائى يهدف إلى وقف النشاط العضلى أو الذهنى قبل أن تنهار هذه العضلات أو كنذير بأن ثمة مرضاً بالجسم يحتاج إلى علاج .

وعلى الرغم من اهتمام أكثر العائلات بالتغذية والسكن والملبس وإتخام الأطفال بالمقويات والفيتامينات ، فإنه قل من يهتم بمقاومة التعب والإجهاد ، أو يحرص على تكوين رصيد من الصحة عن طريق الراحة والنزهة فى أيام العطلة وشهور الإجازة فى الصيف .

* * *

راجع نفسك . . . كيف كانت صحتك وصحة عائلتك خلال أشهر الشتاء الماضى . هل كنت أنت وأولادك ضحية لنوبات متكررة من البرد والكحة والتعب والهزال ؟ إن مثل هذه النوبات لا يمكن الوقاية منها فى شهر ديسمبر أو مارس ، ولكن تستطيع أن تقى نفسك عواقبها

لو عنيت بنزهة أولادك واستمتعت معهم بما يقدمه لك الصيف من فرص للراحة وتجديد النشاط . فالصيف — إذا استغل استغلالا حكيماً — هو أفضل مقو لك ولأولادك ، يدوم أثره طول العام .

فالإنسان بحكم تكوينه يحتاج إلى شهور الصيف المشمسة لتكوين رصيد من الصحة ييسر له استئناف النشاط خلال الفصول التالية التى تستلزم منه ومن بنيه نشاطاً مضاعفاً مجهداً ، كما تواجهه بعدد من الأمراض التى تستلزم قوة مقاومة غير يسيرة .

والإنعاش النفسى الذى يهيئه لنا الصيف من الأهمية بمكان فهو فصل المرح والاجتماع بالإصدقاء والأحباء ، إذ يأخذ معظم الناس إجازتهم فى هذا الوقت ، ويذهبون جماعات إلى الشاطىء أو إلى أعالى الجبال أو إلى البحيرات والأماكن الخلوية الأخرى .

وفى شهور الصيف يبطؤ نشاطنا ، وتأخذ حيويتنا فى الفتور ، فيحفزنا ذلك كما تحفزنا الظروف المحيطة بنا إلى النظر إلى الحياة وشؤونها نظرة فلسفية هادئة ، تخفف من توتر الأعصاب ، وغليان النفوس ، ودوران الرؤوس ، وما إليها من عوامل تأتى فى رأس قائمة مسببات اضطرابات القلب والمعدة والغدد وكثير من أمراض الحساسية الشائعة .

والإجازات هدفها الأول أن تجعلنا نحس بالراحة والنشاط ، لا أن تسبب لنا التعب والإجهاد ، نتيجة قلة النوم ، أو الإسراف فى السباحة ، أو الرياضة ، أو المشى . والأطفال خاصة ينبغى أن يعودوا إلى البيت مرحين فرحين لا مجهدين متعبين . فإذا كان عملك ذهنياً ، ولا يستلزم

منك بذل أى مجهود جثمانى طوال العام ، فلا تسرف فى المشى أو السباحة ، ولا تشترك فى رحلات مجهدة بمجرد وصولك إلى المصيف ، وإنما نظم إجازتك بحيث تهيىء لنفسك ولجميع أفراد أسرتك أكبر الفرص للاسترخاء والراحة والرياضة المعتدلة والإفادة من أشعة الشمس والهواء الطلق النقى .

ومن المفيد جداً أن تعود نفسك فى غير أيام الإجازات على الاسترخاء المنتظم ، فهو من أهم عوامل المحافظة على الصحة والحيوية خلال سنين طويلة من الحياة المجهدة النافعة . اقض وقتاً على مقعد مريح وعيناك مغلقتان وعقلك ساكن هادئ لا يفكر فى شىء ، وكل عضلة من عضلاتك مسترخية استرخاء تاماً . ولعلك لا تستطيع ذلك فى أول الأمر أكثر من دقائق معدودة ، ولكنك ينبغى أن تزيد هذه المدة إلى نحو خمس عشرة دقيقة ، مرة أو مرتين كل يوم .

أمراض الحساسية :

ترجع نسبة غير قليلة من الأمراض الشائعة اليوم إلى « الحساسية » حتى لقد أصبحت « الحساسية » كلمة تتردد على ألسنة كثيرين وكثيرات ممن يترددون على عيادات أطباء الأمراض الجلدية ، وأطباء الأنف والحنجرة ، وأطباء العيون ، وأطباء الأمراض الباطنية ، ففضلا عن أمراض الحساسية المعروفة : الأكزيما ، الرمد الربيعى ، الربو ، حمى القش ، فإن قائمة أخرى من الأمراض — آخذة فى الزيادة — من المعتقد أنها

أصلا وليدة الحساسية ، منها : الصداع الشقيق ، تقلص القولون ، التهابات الجيوب الأنفية ... إلخ .

وهناك عدد كبير من الناس تظهر عليهم — برغم ما يبدو عليهم من صحة — أعراض الحساسية من حين لآخر : نوبات عطس مفاجئة ، أو إصابات جلدية لا يعرف سببها ، أو نوبات إسهال لا يمكن تفسيرها. أو كحة مزمنة ، أو افرازات مستمرة من الأنف . فماذا يجعل المرء «حساساً» أو — كما اصطلح المجمع اللغوى على تسميته — «تحساسا» هل يولد بهذا الداء ؟ وهل هو وراثى وهل الإصابة آخذة فى الزيادة ؟ وما هو الدور الذى تلعبه النواحى العاطفية فى إظهاره ؟ وهل من وسيلة لتفاديه أو مقاومته ؟

من المؤكد الآن أن المرء لا يولد حساساً ، فالطفل لا تبدو عليه أعراضها عندما يتعرض — لأول مرة — لشيء يمكن أن يثيرها وإنما تظهر عليه الأعراض ، فيأخذ فى العطس أو حك الجلد ، أو فرك العينين وغير ذلك ، بعد أن يتمكن منه أثر الشيء المثير وهذه هى الطريقة التى يتمكن بها هذا الأثر ويزمن .

* * *

إن أجسامنا مزودة بعدد من الحواجز ، مثل الجلد ، والغشاء المخاطى المبطن للأنف والأمعاء . والغرض من هذه الحواجز أن تحول دون دخول المواد غير المرغوب فيها ، إلى مجرى الدم عن طريق الشعيرات الدموية العديدة المجاورة . وهذه الحواجز تؤدى مهمتها — بوجه عام —

على أكمل وجه . ولكن يحدث أحياناً أن تتسرب أجسام غريبة إلى الدم . وهذا التسرب يحدث عند الأصحاء ، كما يحدث عند المصابين بالحساسية وفى الحالتين ، يجند الجسم قواه لمحاربة هذه المواد حالما تمتزج بالدم . ولكنها فى الحالة الأولى لا يمكن أن تجد لها مقاماً ، إذ سرعان ما يتلاشى أثرها دون أن تسبب ضرراً . أما عند « التحساس » أو الحساس فإن المعركة تتجه اتجاهاً آخر . صحيح أن الجسم فى أول الأمر يكسب المعركة ، ولكنه خلال الأيام أو الأسابيع التالية يتغير الوضع . فهذه المواد الغريبة تكون لنفسها — بطريقة لم تفهم بوضوح بعد — حواجز وقائية . فإذا تركزت هذه المواد فى أنسجة معينة من الجسم أصبحت الخلايا حساسة بدرجة أن أى اتصال جديد بالمادة المثيرة — ويطلق عليها طبياً اسم « انتيجن » Antigen يسبب ما يشبه الانفجار .

فإذا كان ذلك فى أنسجة الرئتين ، أصيب المرء بنوبة ربو ، وإذا كان فى موضع ما فى الجلد ، ظهرت أعراض بعض أنواع الإكزيما ، وإذا كان فى الغشاء المبطن للأمعاء حدث قىء أو مغص ، أو كان فى الغشاء المخاطى للأنف ، والعينين ، ظهرت أعراض « حمى القش » ، وهكذا .

ومن هنا ، نتبين لماذا تعجل بنوبات الحساسية ، أشياء يأكلها المرء ، أو يلمسها ، أو يتنفسها مع الهواء الداخل إلى رئتيه . فمن الأطعمة التى تعد من مثيرات الحساسية : البيض (إلا إذا وضع فى ماء مغلى نحو ثلاثين دقيقة) واللبن (إلا إذا كان محفوظاً فى علب وسبق أن تعرض لحرارة شديدة) والسمك وغيره من الكائنات البحرية ، والشكولاتة ،

والفراولة وما إليها . ومن العقاقير المثيرة للحساسية عند البعض : الإسبيرين والكينين ، والسلفا ، وقاتلات الميكروب وغيرها . ومن المواد التى تثير عن طريق التنفس ، لقاح الزهور والأتربة وغبار القطن وروائح القطط وما إليها .

وقد أوضحنا أن المفروض نظرياً أن أول مساس لهذه المواد بأنسجة الجسم ، لا يحدث أعراضاً مرضية . ولكن دلت المشاهدات على أن بعض الأطفال الرضع يصابون بأعراض الحساسية حالما يعطون ملعقة من عصير برتقال أو قطعة من بيضة ، مما لم يجد الباحثون له تفسيراً ، إلى أن اكتشف أن الأجنة يمكن أن تتأثر أجسامها بأطعمة تسرف الأم فى تناولها ، كأن تتعاطى يومياً أربع أو خمس بيضات — وخاصة إذا كانت نيئة أو نصف مسلوقة — أو تشرب لترين من اللبن ، أو تأكل نصف أقة من البندق وما شابه ذلك .

* * *

وهذه عشر نصائح للأمهات ، تفيد مراعاتها فى تجنب إصابة أولادهن بالحساسية :

١ — ينبغى أن تراعى الأم أثناء الحمل تنويع الطعام الذى تتناوله ، وألا تسرف فى تناول ألوان معينة مهما كانت صحية ومغذية ، فإذا وجدت ميلا شديداً لأنواع محدودة ، فتأكلها بعد أن توضع على النار مدة طويلة (لا تقل عن ثلاثين دقيقة) ففى هذه الحالة يقل احتمال تسرب جزئياتها من خلال الحواجز الطبيعية للجسم إلى مجرى الدم ، كما أنها تغدو سهلة التحول بواسطة العصير الهضمى إلى مواد لا تثير الحساسية .

٢ – لا تبكرى فى إعطاء الطفل أطعمة خارجية قبل السن المحددة لكل لون من ألوان الطعام . واحرصى عند إعطائه طعاما جديداً أن يكون مطهياً جيداً ، وقدميه له فى كميات صغيرة وفى فترات منتظمة . ولاترغميه على تناوله مهما بدا لك أنه صحى ومفيد .

٣ – عند بدء إعطاء الطفل أطعمة خارجية، ابدئى بنوع واحد فى المرة الواحدة . وباعدى بين كل نوع وآخر، حتى إذا ظهرت أعراض الحساسية ، أمكن معرفة النوع المثير لحساسيته بسهولة .

٤ – حاولى أن يكون أثاث الغرفة التى ينام فيها الطفل بسيطاً ، وليس بها وسادات بداخلها ريش ، أو لعب محشوة بالقطن وجنبيه استنشاق الأتربة أثناء تنظيف الغرف أو تنظيف السجاجيد .

٥ – يكون الطفل أكثر عرضة للإصابة بالحساسية بعد نوبات الإسهال الشديدة ، أو الاضطرابات المعدية ، وأثناء دور النقاهة . لذلك إحرصى على إعطائه خلال هذه الفترات طعاماً تام النضج (وضع على النار مدة كافية) وتجنبى إعطاءه ألواناً جديدة من الطعام خلال هذه الفترات . واحترسى من إعطائه كميات كبيرة أثناءها من عصير الفاكهة الطازج أو البيض أو الحلوى التى تحتوى على نسبة كبيرة من البيض .

٦ – بعض المواد والسوائل القاتلة للحشرات تحتوى على مادة تعرف باسم « بيرثرم » Pyrethrum اتضح أنها من المثيرات القوية للحساسية، لذلك ينبغى تجنب استعمالها .

٧ — لا تستعملى قاتلات الميكروب لعلاج الطفل بدون استشارة الطبيب ، فقد اتضح أن هذه العقاقير عندما تعطى عن طريق الفم — إذا تيسر ذلك — يكون احتمال إثارتها للحساسية أقل مما لو أعطيت حقنا .

٨ — راقبى الأعراض الأولى للحساسية عند الطفل ، وبادرى بعلاجها. إن أعراض « الحساسية » تتشابه كثيراً مع أعراض بعض الأمراض الأخرى. والأم الحكيمة ينبغى ألا تتشكك بمجرد إصابة ابنها باحمرار فى فخذيه ، أو بقع حمراء فى جلده ، أو نوبة عطس مفاجئة ، أو كحة ، أو إسهال ، أو مغص ، أو اضطراب معدى ، فى أنه مصاب بالحساسية . ولكن إذا تكررت بعض هذه الأعراض — أو تكررت جميعاً وخاصة إذا لم تكن مصحوبة بارتفاع فى درجة الحرارة — ينبغى أن تستشيرى الطبيب .

٩ — لا داعى للقلق إذا اتضح أن هذه الأعراض نتيجة « حساسية » بالفعل ، ففى حالات كثيرة تزول هذه الأعراض من تلقاء نفسها مع تقدم الطفل فى السن . هذا إلى أن تفادى المثيرات — إذا عرفت — يحول دون ظهور النوبات . وعند الطبيب الآن من الوسائل ما يمكنه من معرفة هذه المثيرات ، وعلاج الحساسية فى مراحل الطفولة بحيث لا تتطور ولا تزمن .

١٠ — على الرغم من أن الحساسية اضطراب عضوى ، فإن الاضطرابات النفسية والعاطفية من العوامل المهيئة — بل المعجلة — لها . ولذلك ، فإنه من المهم لوقاية الطفل من النوبات ، مراعاة الجوانب النفسية ، وتهيئة الجو الملائم لنمو الطفل نمواً عاطفياً سليماً .

منافذ العدوى :

معظم الإصابات التى يتعرض لها المرء تدخل ميكروباتها الجسم عن طريق الأنف أو الفم . فالبرد العادى ، والإنفلونزا ، والتهاب اللوزتين ، والالتهاب الرئوى ، والحمى القرمزية ، والدفتريا ، وشلل الأطفال ، إلى آخر قائمة الأمراض الطويلة ، تجد طريقها إلى الجسم من هذين المنفذين . ولسنا فى حاجة إلى بيان أهمية تكرار غسيل اليدين ، وخاصة عند الأطفال ، وتعويدهم تجنب وضع الأصابع فى الفم ، واستعمال أكواب خاصة للشرب ، وعدم التعرض للمصابين بهذه الأمراض ، وما إلى ذلك من قواعد صحية تعد من الدعائم الأولى لمقاومة المرض وتفاديه .

الأنف :

والأنف هو المنفذ الطبيعى لدخول الهواء إلى الرئتين ولكن البعض ـ وخاصة الأطفال ـ يتنفسون مرغمين من أفواههم ، بسبب التهاب فى الجيوب الأنفية ، أو الزوائد الأنفية ، أو وجود لحمية بالأنف ، أو الإصابة المتكررة بنوبات البرد نتيجة « الحساسية » ، أو لعيب خلقى فى الحاجز الأنفى .

والجيوب الأنفية فجوات فى عظام الوجه تتصل بفتحتى الأنف من طريق فتحات صغيرة . وهى تبطن بغشاء يعتبر امتداداً للغشاء المخاطى للأنف ، ويحدث أحياناً حينما تستمر نوبة برد حادة لبضعة أيام دون

تحسن ملموس ، أن يمتد الالتهاب إلى الأغشية المبطنة للجيوب ، وخاصة الجيوب السفلية التي لا يسهل تصفية الإفرازات منها :.

ومن العوامل المهيئة لالتهاب الجيوب الأنفية ، تنظيف الأنف بعنف ، والحساسية ، والسباحة عندما يكون الأنف تحت الماء ، وكذلك رطوبة الجو الزائدة ، والاستعمال الخاطئ « للبخاخات » وقطرات الأنف ومطهراتها أثناء نوبات البرد الحادة .

والتهاب الجيوب الأنفية يزول في كثير من الحالات ، بتحسن الحالة الصحية العامة ، وما يتبعها من زيادة قوة مقاومة الجسم ، ونشاط القوى الطبيعية للإصلاح ، أو بالاستعانة ببعض الوسائل البسيطة مثل التدفئة ، أو استنشاق البخار ، أو الراحة . على أن النوبة قد تشتد في بعض الحالات بحيث يتجمع الصديد داخل الجيب ويصحب الحالة ألم وصداع ، وأحياناً ارتفاع في درجة الحرارة ، وآلام في جميع أجزاء الجسم ، وكذلك الاصابة بكحة مزمنة ، وسرعة الإحساس بالتعب : وأحياناً تنتقل العدوى عن طريق الدم من الجيوب الأنفية إلى أجزاء أخرى في الجسم مثل المفاصل أو الكليتين أو القلب أو المخ .

ومن هنا تتبين أهمية التأكد من سلامة الجيوب الأنفية ، والمبادرة بعلاجها في حالة الاشتباه فيها ، تفادياً لكثير من الأمراض والاضطرابات التي لا تفيد العقاقير في شفائها ، طالما ظل السبب بدون علاج :

والحاجز الأنفي حاجز يفصل بين فتحتي الأنف ، وهو من الناحية النظرية ينبغي أن يكون مستقيماً ، ولكنه يندر أن يكون كذلك . ومع أن

معظم تشويهات الحاجز الأنفى لا أثر لها إطلاقاً — أو أن أثرها ضئيل — غير أنها قد تكون فى وضع يهيىء لسرعة الإصابة بالبرد، وتكرار التهاب الجيوب الأنفية ، وفى هذه الحالة يمكن تعديل الحاجز بجراحة بسيطة .

متى تستأصل اللوزتان ؟ :

يعتقد كثيرون أن للوزتين وظيفة وقائية من نوع ما ، ولكنه لم يقم الدليل على ذلك . واللوزتان تكونان عادة كبيرتى الحجم فى مرحلة الطفولة ثم يأخذ حجمهما فى النقصان مع التقدم فى السن وثمة ثلاث حالات يستحسن استئصال اللوزتين فيها :

١ — تكرار الإصابة بالالتهابات الحادة فى اللوزتين .

٢ — تضخم اللوزتين إلى الحد الذى تسببان فيه انسداد الأنف وقناة يوستاكى .

٣ — إذا كانت اللوزتان متقيحتين وتعتبران بؤرة عدوى فى الجسم.

واستئصال اللوزتين ليس جراحة خطرة ، إذا اتخذت الاحتياطات اللازمة عند إجرائها . على أنه ينبغى ألا يتوقع الآباء والأمهات المعجزات بعد استئصالها ، فهى تستأصل فى أحيان كثيرة بغير مبرر كاف ، ولكن استئصالها يكون إحتياطاً لا مفر منه .

قوة السمع :

بعض أنواع الصمم يمهد له قبل ولادة الطفل ، وبعضها يظهر فى مراحل العمر الأولى ، والبعض الآخر يظهر مع التقدم فى العمر . على

أن معظم أنواع الصمم ، وثقل السمع ، يرجع إلى التهابات فى الأذن الوسطى ، أو عائق يحول دون التنفس الطبيعى من الفم ، أو بؤرة فى الجيوب الأنفية أو اللوزتين ، أو الأسنان ، أو المرارة ، أو فى أى عضو آخر من أعضاء الجسم ، أو إلى السموم التى تفرزها فيروسات الحمى القرمزية أو الدفتريا أو الزهرى ، أو إلى تراكم الصملاخ فى قناة الأذن الخارجية ، أو إلى بعض الأمراض الناشئة من سوء التغذية أو إضطرابات الغدد .

أما التهابات الأذن الوسطى ، فإنها تنشأ عن عدوى تصل من الحلق عن طريق « قناة يوستاكى » . وعند الأطفال تكون هذه القناة أكثر إستقامة وسعة منها عند البالغين . ولذلك فإن العدوى تنتقل بسهولة إلى الأطفال . والتهاب الأذن الوسطى مهما كان حادًّا — ولو كانت طبلة الأذن مفتوحة — لا يسبب ضعفاً فى السمع ما لم تتكرر نوباته .

ومضاعفات الدمامل التى تظهر بداخل الأذن يمكن — إلى حد كبير — تفاديها إذا هيئت للحالة العناية اللازمة . والذى يحدث أحياناً ، أن يهتم الوالدان بأذن الطفل طالما كانت إفرازاتها كثيرة ، فإذا جفت هذه الإفرازات ، تصوروا أن الحالة قد انتهت ، وأهملا الاهتمام بها فتتفاقم الحالة وتظهر آثارها بعد حين فى صورة قد يعز معها العلاج . والسمع إذا فقد ، استحال فى أغلب الحالات استعادته .

وتفادى عدوى الأذن يتوقف إلى حد كبير على تفادى عدوى الأنف والحلق ، وسرعة علاجها إذا أصابتها أو أصابت الجسم عدوى .

ويتوقف كذلك على استئصال اللوزتين المريضتين والزوائد الأنفية، وتفادى تنظيف الأنف بعنف ، فذلك يؤدى لمتاعب فى الأذن قد تسبب ضعف السمع .

أما الصمم الذى قد ينشأ من الحميات أو الإصابة بالزهرى فيمكن تفاديه بالعناية الطبية اللازمة .

أما صملاخ الأذن إذا تراكم وتجمد — كما يحدث أحياناً — بحيث يغطى طبلة الأذن ويؤثر على السمع ، فيمكن إزالته بغسيل الأذن — بلطف بماء دافئ . فإذا لم يفد هذا ، ينبغى استشارة الطبيب . ويجب مراعاة عدم استعمال أدوات صلبة لتنظيف الأذن ، فهى تؤذيها وتتسبب فى نقل العدوى إليها .

والسباحة والغوص فى الماء لا ضرر منهما على السمع إذا كانت طبلة الأذن سليمة ، واتخذت الاحتياطات اللازمة ، بحيث لا يقوم المرء بالسباحة مثلا وهو مصاب بنوبة برد أو عدوى فى أذنه ، أو بعد إجراء جراحة فى أذنه ، بدون الحرص على منع الماء من الوصول إلى أذنه الوسطى :

تسوس الأسنان :

وثمة علاقة وطيدة بين سلامة الأسنان وبين الصحة عامة . والتسوس من العوامل الأولى الشائعة التى تسبب فساد الأسنان . وقد أجريت دراسات واسعة النطاق لمعرفة أسبابه ، دلت على أنه لا يرجع إلى سبب

واحد ، وإنما إلى عدة أسباب متشابكة ، منها : الغذاء ، والوراثة ، وإفرازات الغدد الداخلية ، والعوامل الآلية ، وعدم العناية بنظافة الفم .

ومما لا شك فيه أن أسس سلامة الأسنان ينبغى أن تهيأ منذ السنوات الأولى من العمر ، بل ينبغى أن تهيأ أثناء فترة الحمل ، فغذاء الحامل يلعب دوراً فى سلامة أسنان الطفل بعد ولادته ، وقد دلت البحوث الأخيرة على أنه لا يوجد عنصر غذائى واحد يمكن أن يعزى إلى نقصه سرعة تسوس الأسنان ، فقد كان يظن أن الكلسيوم وفيتامين « د » الذى ينظم الإفادة من المعادن فى الجسم ، هما العاملان الأكثر أهمية فى هذه الناحية ، ولكن اتضح أخيراً أن عنصر الفوسفور لا يقل أهمية عن الكلسيوم ، إن لم يزد عنه لضمان سلامة الأسنان .

واللبن والسمك ، وبعض أنواع الخضر ، غنية بالكلسيوم والفوسفور فى وقت واحد . أما فيتامين « د » فإنه يكاد ينعدم فى الأغذية الطبيعية خلال فصل الشتاء ، ولكنه يسهل الحصول عليه من زيت كبد الحوت والفيتامينات الصناعية . ولذلك من المستحسن للمحافظة على أسنان الأطفال الحرص على تنويع الأطعمة التى تقدم لهم ، وأن يراعى أنهم يتناولون قدراً كافياً من اللبن وعصير البرتقال والفاكهة الطازجة ، ولا بأس من مساعدتهم بفيتامين « د » أو بزيت السمك . هذا فضلا عن اهتمام الأم بغذائها أثناء الحمل والرضاعة :

ولما كان التسوس نتيجة مفعول الأحماض ، التى ينتجها تحلل الأطعمة — بواسطة البكتريا — على ميناء الأسنان ، ثم على الطبقة الرخوة

الداخلية ، ولأن مقدار التحلل وتكوين الحامض يكونان بنسبة أكبر كلما كثرت فضلات الطعام المتبقية فى الفم ، فإن نظافة الأسنان تعد من العوامل المهمة لسلامتها .

ويقول الإخصائيون أن هناك عوامل أخرى تلعب دوراً فى سلامة الأسنان ، بدليل ما يشاهدونه من أسنان سليمة لا تصاب بالتسوس إطلاقاً عند أناس يشكون من سوء التغذية ، ولا يبدون أى إهتمام بنظافة افواههم وأسنانهم . بينما توجد حالات أخرى يكثر فيها التسوس عند أشخاص لا يشك فى عنايتهم بالتغذية ، ونظافة أفواههم وأسنانهم : والمرجح أن أهم العوامل الأخرى ، هى الوراثة وإفرازات الغدد الصمّاء .

* * *

وتصل أحياناً أنواع من البكتريا الضارة إلى جذور الأسنان ، مكونة فى أول الأمر التهاباً بسيطاً فى المنطقة العظمية التى « يبيت » فيها الضرس: وما لم يتكون خراج يجد منفذاً إلى السطح العلوى ، فإن هذه العدوى تظل دفينة غير ملحوظة ، فتتسرب السموم وأحياناً البكتريا نفسها إلى الدم فينقلها إلى جميع أجزاء الجسم مسببة آلاماً مختلفة ، والتهابات فى المفاصل والكليتين وصمامات القلب . وأحياناً إذا كان الالتهاب فى جذور ضرس فى الفك العلوى ، فإنه قد يسبب نوعاً من التهاب الجيوب الأنفية يعد من أشد الأنواع إيلاماً . والعلاج الوحيد لمثل هذه الحالات بعد اكتشافها خلع للضرس للذى يخفى البؤرة المتقيحة : :

أما اللثة ، فإنها قد تصاب بالتهاب حاد ، فتتورم ويصبح لونها داكناً وتنزف دماً لأقل ضغط . وقد يكون هذا الالتهاب نتيجة نقص فى التغذية ، أو إثارة آلية ، أو عدوى من بكتريا . ويبدو أن فيتامين ج C أكثر أنواع الفيتامينات اتصالا بسلامة اللثة . وقد لوحظ أن الاهتمام بتناول كوب من عصير البرتقال ، أو ما يعادل عصير ليمونة واحدة يومياً ، يشفى بعض هذه الحالات من الالتهاب ، أما الإثارة الآلية . فقد تكون نتيجة استعمال خاطئ لفرشة الأسنان ، أو تراكم الرواسب الجيرية على الأسنان عند موضع اتصالها باللثة .

ولا شك فى أن تدليك اللثة ، وتدريب الأسنان بمضغ الأجسام الصلبة ، يساعدان على أن تكون الدورة الدموية منتظمة والفم سليما . ولذلك فإنه ينبغى عدم الإكثار من استعمال أحد جانبى الفم وترك الجانب الآخر بغير استعمال لحاجة ضرس فيه إلى إصلاح أو حشو أو لأى سبب آخر .

وإذا كان التهاب اللثة مصحوباً بصديد ، عرفت الحالة طبياً باسم « بيوريا » وليس ثمة غسيل للفم أو معجون أو مسحوق للأسنان يمكن أن يشفيها . ولذلك يلزم المبادرة بعلاجها عند إخصائى .

وأحياناً تنبعث من الفم رائحة كريهة . وهذه قد تكون نتيجة تسوس فى الأسنان ، أو نتيجة تحلل فضلات الطعام بين الأسنان ، أو من احتقان بالأنف أو الجيوب الأنفية أو من تقيحات باللوزتين ، أو من مواد طيارة تنبعث من الدم أثناء مروره بالرئتين ، ولتفادى هذه الرائحة ،

ينبغى معرفة سببها والعمل على إزالته . وفى حالة انبعاثها من الدم مع الهواء الخارج من الرئتين ، يفيد جداً الإقلال من تناول المواد الدهنية .

حافظ على بصرك :

لا تستطيع العين البشرية أن تقاوم طويلا إذا أسيء استعمالها ، ولكنك إذا كنت تتوقع منها خدمة ممتازة يوماً بعد آخر ، وسنة بعد أخرى ، ينبغي أن توليها الكثير من العناية . فإذا كنت تستخدمها أغلب الأوقات فى الرؤية القريبة ، يجب أن تريحها من حين لآخر بالنظر إلى شيء بعيد :

والعين تكون عرضة لسرعة الإجهاد والتعب أثناء المرض ، وفى دور النقاهة ، ولذلك ينبغى أن تريحها خلال هذه الفترات . وهى إلى ذلك تحتاج إلى وقاية عند إصابة الجسم بأمراض معدية وخاصة الحصبة

وعادة القراءة فى الفراش باستمرار تسبب إجهاد العينين ، لأن الكتاب ، أو المجلة ، أو الجريدة ، لا تكون فى الوضع المناسب المريح للعين ، كما أن الإضاءة لا يكون وضعها مناسباً ويغلب ألا تكون كافية . وكذلك القراءة على ضوء مهتز أو فى قطار متحرك . فالضوء الوفير الثابت، الموضوع فى مكان مناسب أمر جوهرى لراحة العينين وعدم إجهادهما عند الاستعمال .

وحين تظهر أعراض إجهاد العينين أو اضطراب الرؤية ينبغى استشارة إخصائى . على أنه من المهم أن تدرك أن حالة العينين ترتبط إرتباطاً وثيقاً بحالة الصحة عامة ، ولذلك فإن إضطراب البصر قد يكون

وليد مرض معين بالجسم ، وقد يتفاقم ويزيد بسبب ضعف الصحة ، كما أن إجهاد العينين قد يسبب أعراضاً مرضية ، فى أجزاء بعيدة من الجسم لم تكن تخطر على بال

وثمة حقيقتان ينبغى أن يفطن إليهما القارئ :

أولا : لقد تقدم الطب تقدماً كبيراً فى التغلب على عيوب البصر وأمراض العين ، حتى أن كثيراً من الحالات التى كان ينظر إليها على أنها حالات ميئوس منها — منذ عشرين عاماً — أصبحت تعالج الآن بنجاح كبير ، لذلك فإنه لا داعى للقلق والخوف عند اضطراب البصر لسبب أو لآخر .

ثانياً : استشارة الطبيب فى الوقت المناسب عن متاعب عينى طفلك يعد كسباً لنصف المعركة .

فمن نواحى تقدم الطب فى هذا المجال ، استعمال قاتلات الميكروب — وخاصة البنسلين — فى علاج الأمراض السرية لدى الأمهات بنجاح قبل أن تؤذى هذه الأمراض عينى الجنين قبل ولادته ، واستعمال عقاقير السلفا فى علاج الأرماد المختلفة ، والتقدم الجراحى فى علاج الكتاراكت وغيرها من العيوب البصرية وكذلك معرفة العلاقة بين الصحة عامة وبين قوة للبصر .

هذا هو الجانب المضيء من الصورة . ويمكن أن يكون أكثر إشراقاً إذا قام الآباء والأمهات بواجبهم فى العناية بعيون أبنائهم ، وبعيونهم هم أنفسهم :

إن الكثيرين يعلمون أن البصر لا يكون كامل النمو عند الولادة ، ولكن قليلين يعلمون أنه يستمر فى التقدم والنمو حتى سن السابعة أو الثامنة . وهذا يعنى أنه إذا كان طفلك – وهو فى الرابعة من عمره مثلا – يشكو من عيب يضعف قدرته على الرؤية ، فإن النمو العادى لنظره قد يضطرب اضطراباً شديداً ما لم يعن بعلاج هذا العيب .

ولكن ما هى الأعراض التى تشير إلى وجود عيب بالبصر يستلزم استشارة الطبيب ؟

إن عينى الطفل الصغير قد تعمل فى إتجاهين مضادين – كما لو كان مخموراً – أو يبدو كأنه « أحول » بعض الشىء . وهذا عادى جداً حتى الشهر السادس أو الثامن . ولكن بعد هذه السن ينبغى أن تعمل العينان معاً عندما ينظر إلى شىء متحرك . فإذا تبينت أن إحدى عينيه ، أو عينيه معاً – بعد هذه السن – تتحركان فى غير انسجام ؟ وجب عرضه على إخصائى .

وليس صحيحاً – كما يظن البعض – أن « الحول » يشفى من تلقاء نفسه مع تقدم السن . إنه يمكن أحيانا تصحيحه باستعمال النظارات وعمل تمرينات يصفها لك الطبيب . ولكن إذا لم يؤد ذلك إلى تحسن مطرد خلال سنة ، وجب إجراء جراحة . ولا داعى للخوف من هذه الجراحة ، فهى لا يمكن أن تؤذى العين .

وإذا لاحظت أن ابنك لا يستطيع أن يميز الأشياء البعيدة ، أو أنه يشكو كثيراً من آلام فى الرأس ، أو يشكو من أن عينيه تؤلمانه

أو يحس فيهما بحرقان ، أو لا يرى جيداً ينبغى أن تعرضه على إخصائى لفحصه . ولعل من المستحسن دائما أن يفحص أحد الإخصائيين عينى الطفل عند أول التحاقه بالمدرسة ، على الرغم من نجاحه فى الكشف الطبى ورؤيته العلامات جيداً عند إختبار قوة بصره، فهذه العلامات لا تروى قصة جميع العيوب التى يشكو منها طفلك .

وليس صحيحاً ما يقال إن استعمال الطفل للنظارات وهو صغير يزيد حاجته واعتماده عليها . بل العكس هو الصحيح ، فإن استعمال النظارات دائماً فى مرحلة الطفولة قد يعنى استغناءه عنها كلية بعد سنوات. فالنظارة المناسبة تسهل له الرؤية ، وبذلك تهيىء الطريق لنمو بصره نمواً عادياً بحيث لا يعوقه عائق . وسوف يخبرك الطبيب الذى يقوم بعمل النظارة عن المدة التى يلزم استعمال النظارة خلالها .

ولا ريب أن التغذية الطيبة المنوعة تساعد كثيراً على الاحتفاظ بسلامة البصر وتفادى أنواع العدوى المختلفة التى تصيب العينين . فالإكثار من الحلوى — مثلا — قد يجعل طفلك أكثر عرضة للإصابة بعدوى دمامل العين . والأنيميا تسبب سهولة الإصابة بدمامل العين كما تسبب سرعة إجهادها .

ومن العوامل المهمة التى تساعد على سلامة عينى الطفل تعويده الجلوس إلى مكتبه جلسة صحية مريحة أثناء الكتابة أو القراءة أو الرسم ، ومنعه من القيام بها وهو مستلق على بطنه ، أوفى الفراش، أو فى ضوء غير كاف، وتعويده عدم حك عينيه بيده . وأن يحتفظ بيديه وأظافره دائماً

نظيفة ، وأن يستعمل « فوطة» للوجه خاصة به ، وما إلى ذلك من الاحتياطات الصحية .

الوقاية بالتطعيم :

الرياضة ، والهواء النقى ، والطعام الجيد النوع ، والراحة ، تزيد مقاومة الجسم للمرض ، وهى ضرورية للمحافظة على الصحة ، ولكنها لا تقى الجسم من الأمراض المعدية التى تنتقل بسهولة وسرعة من شخص لآخر . فالبطل الرياضى فى عنفوان صحته ، لا تقل فرص إنتقال عدوى الجدرى أو الحمى القرمزية أو الحصبة وغيرها من الأمراض المعدية إليه عن صديق له يقضى معظم أوقاته جالساً إلى مكتبه ، إذا لم يتخذ الإجراءات اللازمة .

إن مقاومة الجسم للأمراض المعدية تتوقف على حيازة الجسم لمواد وقائية معينة . تفتك بالميكروبات المهاجمة ، أو تقاوم إفرازاتها السامة ؛ والجسم قد ينتج هذه المواد بنفسه ، وقد يحصل عليها من شخص آخر أو حيوان سبق أن أنتجها .

وجسم الإنسان أو الحيوان ينتج المواد حينما يحفز على إنتاجها بسبب وجود ميكروبات تسبب أمراضاً ، أو وجود إفرازات سامة لهذه الميكروبات .

ومن الناحية العملية ، قد يحدث ذلك نتيجة الإصابة بالمرض ، أو نتيجة إدخال بعض الميكروبات الميتة ، أو ميكروبات أضعفت لدرجة كبيرة ، أو كميات صغيرة جداً من إفرازاتها السامة ، فى الجسم ؛

وتعرف الطريقة الأخيرة « بالتطعيم » .

ولا يمكننا أن نتصور كيف كان الجدرى – مثلا – مرعباً وفظيعاً قبل أن يعرف التطعيم . لقد كان من الأمراض التى لا مفر من الإصابة بها ، مثل الحصبة اليوم . كان الجدرى مرضاً من أمراض الطفولة ، مثل السعال الديكى والحصبة . ويقدر عدد الذين ماتوا ضحية هذا المرض فى أوربا وحدها ، خلال القرن الثامن عشر بنحو ٦٠ مليون نسمة !

والجدرى مرض معد ، ينتشر حيث يجد الوسيلة للانتشار بغض النظر عن الجو أو التربة أو السن ، وهو لا يميز بين فقير أو غنى ، نظيف أو قذر . والطريقة الوحيدة للتحكم فيه ووقفه ، هى رفع درجة مقاومة الجسم له عن طريق التطعيم .

ومن هنا كانت أهمية « التطعيم » الذى لم يعد أحد يشك فى جدواه – بل فى ضرورته – لا ضد الجدرى وحده ، بل ضد الدفتريا والتيفود والسعال الديكى ، وشلل الأطفال وغير ذلك من الأمراض .

ولا يزال أمام العلماء مجال واسع لإعداد لقاحات ضد كثير من الأمراض المعدية ، تزيد مقاومة الجسم لميكروباتها وفيروساتها ، بحيث يستطيع الجسم أن يتغلب عليها ويفتك بها إذا هاجمته خلال الفترة التى تكسبه فيها هذه اللقاحات حصانة ضدها .

الفصل الرابع

الڤيتامينات والهرمونات وأثرها في صحتك ..



باعدت المدنية الحديثة بين الإنسان وبين الطبيعة بعناصرها الحيوية المفيدة ، فهدت أعصابه وكادت أن تجرده من المناعة ضد المرض ، فخلقت بذلك الحاجة إلى إستعمال الفيتامينات التى لا تكاد تخلو اليوم وصفة طبية منها ، كما خلقت الحاجة للعلاج بالهرمونات .

ماهية الفيتامينات والهرمونات :

الخلية وحدة الأحياء وإذا شبهت الخلية بمصنع كيميائى فإن الآلات والأدوات هى الفيتامينات والأنزيمات هى العمال . أما الهرمونات فهى الأوامر والتعليمات المرسلة من مركز الإدارة لتنظيم عملية الإنتاج .

وعليه يمكن تعريف الفيتامينات والهرمونات بأنها مواد كيميائية ذات نشاط حيوى ، وفاعلية كبيرة بمقادير ضئيلة ، ولها أهميتها العظمى ، إذ تساعد أو توجه كافة التفاعلات الكيميائية التى تتم داخل الجسم دون أن تكون طرفاً فيها ، أو مصدراً لتوليد الطاقة بها .

وبدراسة خلية واحدة ، أو أى حيوان وحيد الخلية ، يمكن التعرف على مجموعة كبيرة من الفيتامينات منسقة بحيث تسهل عمليات التمثيل الغذائى :

وهكذا ثبت أن الفيتامين يلعب دوراً هاماً فى عمليات التمثيل الغذائى فى الخلية فى مختلف صور الحياة من البكتريا إلى الإنسان .

والواقع أن تناول مركبات السلفا — القريبة الشبه من أحد الفيتامينات اللازمة لنمو البكتريا — هو عملية خداع للميكروبات لتلتهمها على أنها فيتامين، وبذا يتعطل نموها وتسنح الفرصة لقوى الجسم الدفاعية للتغلب عليها .

فالخلية إذن تحتوى على فيتامينات ولاتحتوى على هرمونات .

وكما أن الإنسان عندما بدأ يعيش فى قبائل ثم فى مجموعات ثم فى قوميات ظهرت الحاجة إلى القوانين والتقاليد لتنظم تصرفات الفرد لخير المجموع ، كذلك عندما بدأت الخلايا المتعددة تعيش معاً فى جسم الحيوان والإنسان ظهرت الحاجة إلى طرق للتنظيم ، فتكون لهذا الغرض جهازان أحدهما الجهاز العصبى التلقائى ، أو المخ العصبى ، والآخر الجهاز الهرمونى أو المخ الكيميائى

أثر الفيتامينات :

قامت بعض الهيئات العلمية بدراسة الشعوب البدائية التى لا تزال تعيش حتى اليوم فى عزلة — فى أنحاء مختلفة من العالم — مثل شعوب الإسكيمو فى ألاسكا ، وبعض الهنود فى أقصى الشمال ، فى كندا ، وأهالى بعض الجزر الجنوبية فى المحيط الهادى ، وبعض المناطق فى أستراليا وأواسط أفريقيا ، ونيوزيلاندا ، فاتضح أن هذه الشعوب تحتفظ بمستوى عال من المناعة ضد المرض ، وأن التشويهات الجسمية وعلامات الضعف والانحلال عند أبنائهم تكاد تنعدم، ويرجع ذلك أولا إلى الأغذية

الطبيعية ، الغنية بالفيتامينات ، التى يتناولونها ، فهى جميعًا طازجة أخذت من الطبيعة على علاتها دون محاولة لانتزاع بعض عناصرها فى سبيل تحسين المظهر أو المذاق ، فلا تعرف هذه الشعوب الخبز الأبيض والأرز المبيض والأطعمة المحفوظة ، والدهون النباتية .

إن الفيتامينات ما عرف منها وما لم يعرف بعد ، تلعب دوراً حيوياً فى حياتنا ، فهى تحدد إلى حد كبير درجة مناعة الجسم وحصانته ضد المرض ودرجة نشاط المرء وخموله وحالة الأعصاب وقوة التناسل .

وقد تم اكتشاف الفيتامينات فى مطلع القرن العشرين ، وعرف هذا الاسم لأول مرة عام ١٩١١ ، ووضعت لها الرموز الأبجدية ، ثم اكتشفت بعدئذ حقيقتها الكيميائية .

وإن لم يكن القدماء قد عرفوا الفيتامينات بأسمائها ، فأغلب الظن أنهم قد عرفوا شيئًا عن خواصها ففى بردية إيبى المدونة عام ١٦٠٠ ق. م تأكيد لأهمية التغذية بالكبد فى علاج أمراض العيون ، والكبد غذاء غنى بفيتامين (ا) الذى ينشأ عن نقصه مرض العشا الليلى وتليف القرنية .

وقد تمكن الدكتور مورى اليابانى عام ١٩٠٤ من شفاء مرض العشا الليلى باستبدال غذاء الأرز الخالص بآخر يحتوى على كبد الدجاج .

وعند نقص فيتامين (ا) لا يتمكن الإنسان أو الحيوان من الرؤية فى الضوء الخافت ، إذ أن ضوء النهار يحلل المادة التى تفرز على جانبى شبكية العين والتى ، تمكن من الرؤية فى الغسق ، وهى تتحلل إلى فيتامين (ا) . . وبروتين، ولكى تعد هذه المادة ثانية يجب أن تكون هناك

كمية كافية من فيتامين (ا) . وعلى مقدار هذه الكمية تتوقف الفترة التى تمر حتى تتمكن من الرؤية فى الظلام كما يحدث عند دخولنا السينما فى أثناء العرض (مثلا) إذ تمر برهة حتى نتمكن من الرؤية .

وفيتامين (ا) لازم لعمليات النمو والتناسل والرضاعة والمحافظة على حيوية الجسم فى جميع مراحل الحياة ، وقد لوحظ ضعف النسل عند تغذية حيوان ذكر مع أنثاه بجميع العناصر فيما عدا فيتامين (ا) فقد يولد الجنين ميتاً ، وأحياناً تعجز الأم عن إرضاع صغيرها ، وترتفع نسبة فيتامين (ا) فى البطاطا والجزر والسبانخ والفلفل الأخضر والطماطم واللبن والبيض والزبدة .

وقد أكدت البحوث الحديثة دور فيتامين (ا) الهام فى جسم الإنسان فهو لازم لسلامة الجلد وكافة الأغشية المخاطية ، وعند الحرمان منه تضعف هذه الأغشية وتقل مقاومتها لما يحيط بها من عوامل مضادة : ه ه ففى الجهاز التنفسى تتنمر الميكروبات الموجودة وتسبب الزكام والنزلات الشعبية والالتهابات الرئوية .

وفى المعدة لا يستطيع الغشاء المخاطى أن يقاوم الحموضة ، ويمكن أن يعتبر نقص فيتامين (ا) واحداً من عوامل كثيرة مهيئة لقرحة المعدة .

وفى الجهاز البولى يصبح الغشاء المخاطى خشناً تترسب عليه الأملاح ، وهذا من العوامل المهيئة لحصوات المجارى البولية ، كما يخشوشن الجلد وتضمحل كافة الغدد العرقية .

وعند بدء إستعمال مضارب الأرز البخارية فى القرن التاسع عشر ،

بدأ وباء البرى برى فى الصين وبلاد الشرق الأقصى ، وانتشر بين الطبقات الغنية التى يعتمد غذاؤها على الأرز المبيض على حين سلمت الطبقات الفقيرة التى تأكل الأرز غير مبشور ، ومن هنا بدأ البحث فى قشور الأرز ، وتم اكتشاف فيتامين ب١ ، ونقص هذا الفيتامين فى الغذاء يسبب فقدان الشهية وعسر الهضم ، وتبدو أعراض نقص ب١ سريعة فى فترة النمو إذ أن هذه الفترة تتطلب طاقة إضافية ، وهذه بدورها تتطلب زيادة فى إستهلاك هذا الفيتامين الذى يدخل مع الفوسفور فى تركيب مادة لازمة لتمثيل المواد النشوية التى تزداد الحاجة إليها كلما زاد نشاط الفرد .

والريبوفلافين مادة صفراء اكتشف وجودها فى اللبن لمدة نصف قرن، قبل أن تعرف خواصها كفيتامين وتدعى ب٢ ويتحد ب٢ مع الفوسفور والبروتين ليكون مادة لازمة لكل الخلايا والأنسجة الحية وتعزى الشيخوخة المبكرة إلى نقص هذا الفيتامين ،وتعطيل وظيفة الخلايا . ولقد وجد أن حيوية الخلايا تزداد إذا زادت نسبة الريبوفلافين إلى أربعة أمثال حاجة الخلايا ، ولذلك أطلق على هذا الفيتامين بحق أنه المهيمن على الاحتفاظ بفتوة الشباب وحيويته .

ويبدأ ظهور أعراض نقص ب٢ فى الإنسان بحدوث التهاب فى زاويتى الفم ثم تشقق فى جانبى الشفتين ، وتغير فى الجلد الذى يحيط بفتحة الأنف والعين والوجنتين فيبدو صقيلا وعليه حبوب صفراء وتدمع العينان وتلتهب القرحية .

وفى عام ١٩١٠ ثبت أن البلاجرا تنشأ من نقص مادة فى الغذاء وفى عام ١٩٣٧ ظهر أن هذه المادة هى النياسين ، وهو موجود بكثرة فى فى أنواع اللحوم المختلفة ، وبخاصة فى الكبد ، كما يوجد فى اللبن والبيض ومعظم الخضر والفاكهة . وهو يظل محتفظاً بكيانه بعد عملية الطهى .

وفى بحث لمعرفة مدى انتشار البلاجرا فى الإقليم المصرى بالفحص الشامل لمجموعة كبيرة من القرى والبلدان فى مختلف الجهات ، تبين أن المرض منتشر فى الوجه البحرى ،ونادر فى الوجه القبلى ويكاد يكون منعدماً فى المدن الكبرى ، وثبت كذلك أن البلاجرا فى مصر ليست من النوع الخطر الذى يصيب الجهاز العصبى ويرجع سبب هذه الظاهرة إلى أن البلح والملوخية واللفت وغيرها من الأغذية الشعبية المصرية فى مقدمة الأغذية التى تحوى أكبر كمية من النياسين .

وعندما حقن الفيران بالغذاء الذى أحدث به الدكتور جولد برجر مرض البلاجرا فى الإنسان ظهرت عليها هى الأخرى اضطرابات جلدية، أطلق عليها اسم بلاجرا الفيران ، ولكن عندما غذيت الفيران بالذرة الشامية شفيت من البلاجرا المزعومة ، وبما أن الذرة الشامية لا تحتوى على النياسين الذى يشفى البلاجرا فقد استدعت هذه التجربة البحث عن فيتامين آخر ، وسرعان ما عثر عليه وتم فصله نقياً من قشر الأرز عام ١٩٣٨ وسمى ب٦ ، وب٦ سريع التأثر بالحرارة ، ولذا فإن الأطفال الذين يعتمدون على الألبان الصناعية ينقصهم هذا الفيتامين ، إذ يتلف بالحرارة المستعملة فى تعقيم هذه الألبان ، ولذا يعانى هؤلاء الأطفال من اليقظة

الدائمة ، والتأثر الشديد بالمنبهات الخارجية ، وقد يصل الأمر إلى إصابتهم بالتهيج والتقلصات المعوية الشديدة وحدوث القىء عقب الرضاعة ، وتتحسن هذه الأعراض عقب إعطائهم هذا الفيتامين ، ولذلك عملت معظم المصانع إلى إضافته إلى الألبان الصناعية . ويسبب نقص هذا الفيتامين عند الحوامل قيئاً شديداً .

أما قصة حامض الفولك وفيتامين ب١٢ فتبدأ عام ١٨٤٩ عندما وصف إديسون نوعاً خبيثاً من الأنيميا يتميز بتغير فجائى يطرأ لغير ما سبب معروف على كريات الدم الحمراء ، فتفقد القدرة على النضوج ومن ثم تعجز عن نقل الأكسيجين والغذاء إلى مختلف أنسجة الجسم ، فيضعف المصاب شيئاً فشيئاً .

وفى عام ١٩٢٦ لاحظ مارفى ولوفلين تحسناً كبيراً يطرأ على مرضى الأنيميا الخبيثة إذا كان غذاؤهم يحتوى على رطل من الكبد الطازج كل يوم .

وفى هذه الأثناء كان كاسيل أستاذ الفسيولوجيا بجامعة هارفارد يجرى أبحاثه على المعدة . فوجد أن هناك أنواعاً من الأغذية ، عندما تضاف إلى العصارة المعدية ويتناولها هؤلاء المرضى يظهر عليهم تحسن ملحوظ .

وهذا هو أساس النظرية السائدة التى تتلخص فى احتواء بعض الأطعمة على عامل خارجى يتفاعل مع العامل الداخلى الذى يفرزه الغشاء المخاطى المبطن للمعدة فيتكون نتيجة لذلك العامل الواقى من الأنيميا الخبيثة التى يختزن بعدئذ فى الكبد .

وقد تنافس الكيميائيون فى تحضير خلاصات مختلفة من الكبد ، تحتوى على هذا العامل المجهول الذى يقى السليم ، ويشفى المصاب من الأنيميا الخبيثة .

وفى عام ١٩٥٠ وفق القائمون بالأبحاث فى بعض مصانع الأدوية العالمية إلى فصل بللورات حمراء الشكل من الكبد أطلق عليها اسم فيتامين ب ١٢ .

وقد قدر أن كمية ب١٢ التى يمكن الحصول عليها من مقدار طن من الكبد الطازج لا تتجاوز ٢٠ ملليجراماً فى أحسن الأحوال ، ولكنها على أية حال تكفى لعلاج ٢٠٠٠ مريض ، وقد أمكن تحضيره كذلك بالتخمير العميق للفطر الذى يفرز مادة الأستربتوميسين .

وتشمل مجموعة فيتامين ب المركب أيضاً حامض البانتوثنيك الذى يسبب نقصه بياض شعر الحيوانات (ولكنه لم ينجح فى علاج الشيب) والبيوتين ، وحامض البارامينوبنزويك ، والكولين ، والأينزيتول .

والكولين يقوم بمهمة عربات النقل إذ يحمل الدهن من الكبد لمختلف الأنسجة المحتاجة إليه ، ولذلك فإنه عند نقصه يحدث تدهن الكبد ثم تليفه والأدوية المحتوية عليه تسمى بواقيات الكبد ولها أهميتها فى مصر نظراً لانتشار البلهارسيا والدوسنطاريا وفى الخارج نظراً لانتشار الخمور .

أما فيتامين ج . فهو لازم لبناء المادة التى تسبب تماسك خلايا الشعيرات الدموية كما يمسك الأسمنت قوالب البناء ، وينشأ عن نقصه

أورام مفصلية ، ونزيف فى اللثة وتآكل فى الأسنان ، وهو ما يعرف بمرض الأسقربوط .

وقد عرف هذا المرض باسم طاعون البحار ، إذ كان يسبب هلاك كثير من بحارة السفن الشراعية ، لعدم توافر الفواكه والخضر الطازجة خلال رحلاتهم الطويلة عبر المحيطات .

ويسبب نقص فيتامين ج سهولة العدوى بالميكروبات الخارجية كما ينشط الميكروبات الداخلية ، التى تعجز فى حالة توافره عن إحداث المرض فتستأسد وتستشرى وتهاجم الجسم ، ولذا فإنه فى حالات الأنفلونزا ونزلات البرد يؤخذ بكمية كبيرة . ومن حسن الطالع أن الأغذية الزهيدة القيمة التى فى متناول الفقراء تحوى من فيتنامين ج كميات أكبر من الأغذية المرتفعة السعر .

وبدراسة العوامل المختلفة التى تؤثر فى نسبة فيتامين ج ، ظهر أن هذه النسبة تزيد مع درجة النضج ، وأن الثمار الملونة أفضل من الخضراء ، وأنه للمحافظة على مستوى هذا الفيتامين يجب حفظ الخضر فى الثلاجة ، كما وجد أن الطهى يسبب فقدان كمية كبيرة من الفيتامين ، وببحث أثر الغلى فى ٢٨ نوعاً من الخضر ظهر أن نسبة الخسارة فى هذا الفيتامين بين ٢٢ إلى ٨١٪ ، كما اتضح أن التجفيف فى الأفران أقل ضرراً من التجفيف بالتعرض للشمس ، أما التخليل فيسبب فقدان جميع الفيتامين ج فى خلال أسبوعين .

وكما عرف الكيميائى النياسين قبل أن يكتشف أحد علاقته بالبلاجرا

بحوالى ٧٥ سنة ، كذلك شيدت مادة كيميائية بسيطة عام ١٩١٢ واتضح فى عام ١٩٣٣ أن لها علاقة بتجلط الدم ، وعند نقص هذه المادة من غذاء الكتاكيت ظهر أنها تسبب لها أنزفة خطيرة تشبه إلى حد ما مرض الأسقربوط . ولقد أجريت تجارب على كتاكيت يتكون غذاؤها من الأرز والخميرة المركزة والسمك فكانت حالتها عادية ، ولكن عند إعطائها السمك خالياً من الدهن وفحص دمها اتضح أنه يظل سائلا لعدة ساعات وأن إضافة كميات من فيتامين ك إلى الغذاء ترجع سرعة التجلط إلى مستواها العادى خلال بضعة أيام .

ولا يحدث نقص فيتامين ك فى الإنسان بسبب نقصه فى الغذاء ، بل يحدث عادة بسبب أخطاء فى تمثيل الغذاء نفسه ، وأهم الأسباب هو اليرقان الانسدادى الذى يحدث اضطراباً فى تمثيل الدهنيات ، ينشأ عنه نقص هذا الفيتامين الذى يذوب فى الدهن فقط وعندئذ تحدث أنزفة فى الأغشية المخاطية لعدم قدرة الدم على التجلط . وقد أمكن الهيمنة على النزيف بنجاح عند الأشخاص المصابين بانسداد الصفراء بالاستعانة بهذا الفيتامين . وكذلك أمكن بواسطته وقاية الأطفال حديثى العهد بالولادة من الأنزفة ، ويتوافر فيتامين ك فى صفار البيض والأوراق الخضراء والكرنب والسبانخ .

ونحن لا نعتمد على الغذاء وحده فى الحصول على فيتامين د إذ يمكن لأشعة الشمس فوق البنفسجية أن تكونه فى الجلد وعليه تندر الإصابة بالكساح فى بلاد الشمس المشرقة ، وفى الأقاليم المعتدلة الجو ينتشر هذا

المرض فى الشتاء أكثر منه الصيف .

وفيتامين د لازم لسلامة الأسنان والعظام والوقاية من الكساح وهو لازم أيضاً للنمو الطبيعي وفى غيبة فيتامين د يصعب على العظام الحصول على الكالسيوم والفوسفور فينبعج الصدر ويضيق الحوض وتتقوس الساقان .

ويتعرض الطفل الكسيح لتسوس الأسنان والنزلات الشعبية والالتهابات الرئوية .

وباكتشاف فيتامين د فى زيت كبد الحوت بدأ عهد جديد فى تاريخ مرض الكساح يتميز باستعمال هذا السلاح الوقائى يوميا فى تغذية الأطفال الرضع .

وعلى أية حال فهذا الفيتامين متوافر فى معظم الأغذية الشائعة ، بحيث إن الطعام العادى لا ينقصه هذا الفيتامين .

ولعلنا قد تبينا الآن الدور الحيوى الذى تلعبه الفيتامينات فى صحة الإنسان وهو دور فرضته المدنية الحديثة التى حرمت الإنسان من الأغذية الطبيعية الغنية بحاجاته من الفيتامينات .

أثر الهرمونات :

فى جسم الإنسان نحو ست غدد صغيرة تتراوح أحجامها بين حجم حبة البسلة وحجم البيضة وهى لو وضعت معاً فى الميزان لبلغ وزنها نحو رطل تقريباً ومع ذلك فهى تتحكم فى طول المرء أو قصره ونحافته أو بدانته وسرعة

تفكيره أو بطئه وهدوء طبعه أو حدته وسرعة غضبه .

تلك هي الغدد الصماء التي أدرك العلماء وجودها في الجسم منذ عرفت مبادئ التشريح نفسه ولكن فهم وظائفها يرجع إلى بضع عشرات من السنين فقط ، وفي وقت من الأوقات ظن البعض أن إحدى هذه الغدد هي مقر الروح . فإذا أخفقت الغدة الدرقية في صنع القدر المناسب من الهرمون في الطفولة يقف نمو الطفل الجسمي والعقلي ويتشوه شكله ولو بلغ عمره ٢٨ عاماً فإن نموه وإدراكه يظلان لطفل في الرابعة .

ولكن ماذا يحدث إذا زاد إفراز هذه الغدة لسبب ما ، كما يحدث عادة بعد الصدمات النفسية الشديدة ؟ إن حيوية الجسم وحدة الذهن تتضاعف بدرجة يذوى معها البدن ، ويسرع النبض ، ويصبح العقل في حالة نشاط متواصل ، وبغير علاج لا يلبث المرء أن يحرق نفسه ، ويقضى على صحته ، هذا بالإضافة إلى جحوظ العينين .

وقد كان العلاج في المرضى مقصوراً على مبضع الجراح باستئصال ٨/٧ هذه الغدة ، أما اليوم فتلعب الأدوية دوراً كبيراً في علاج هذا المرض ، فلدينا مشتقات اليوراسيل التي توقف صنع الثيروكسين في إحدى مراحل تكوينه ، كما أمكن الاستفادة من خاصية الغدة الدرقية في امتصاص اليود من الجسم بإعطاء اليود الذرى الذى تنخدع بوجوده الغدة الدرقية فتمتصه على أنه يود عادى يتركز في خلاياها حيث يتمكن من إبادتها بواسطة إشعاعاته .

وإلى جوار الغدة الدرقية في الرقبة ، توجد مجموعة من الغدد الصغيرة

لم تعرف وظيفتها حتى ٧٠ عاماً مضت ، وكان أساتذة التشريح يحسبونها خطأ جزءاً من الغدة الدرقية ، ولكن ظهر أن هذه الغدد الصغيرة ، وتعرف باسم جارات الدرقية — ذات أهمية حيوية بالنسبة للإنسان، فبدونها تتقلص عضلات الجسم ويموت المصاب . وأثر هذه الغدد على الشخصية قوى أيضاً فإذا افتقر المرء إلى النسبة الصحيحة من هرمونها غدا سريع الضجر، حاد الطبع ، مرهف الحساسية فينفجر غاضباً لأتفه الأسباب ، ويقال إن هتلر فى أخريات أيامه أصيب باضطراب هذه الغدد ، وأغلب الظن أن هذه الغدد هى سبب التغييرات اليومية فى المزاج التى نصادفها جميعاً ، فهى حين تضطرب تبدو الحياة قاتمة مظلمة ويبدو كل شىء فى نظرنا معادياً لنا . وحين تكون الغدة صحيحة يغلب أن تكون نظرتنا إلى الحياة خلال منظار وردى اللون .

وكما هو الحال فى جميع الهرمونات ، فإن زيادة هرمون هذه الغدة مضر مثل الإقلال منه ، فالعظام فى هذه الحالة تصبح هشة سهلة الكسر ويضعف الذكاء وينعدم الطموح، والعلاج هنا ينحصر فى إزالة الغدد المريضة.

ويهيمن على التوازن الكيميائى للجسم ثلاث غدد صغيرة لا يزيد وزن جميعها على ثلث الأوقية، هى الغدة النخامية الموجودة فى قاع الجمجمة والغدتان فوق الكليتين الموجودتين فى أعلى كل كلية .

وعندما يتعرض الإنسان للبرد مثلا ، تفرز هذه الغدد هرمونات تضيق الأوعية الدموية وترفع ضغط الدم وبذلك تحتفظ للجسم بأكبر قسط من التدفئة .

وعندما تغزو الجسم ميكروبات تقوم هذه الغدد بمهمة إقامة الأسوار والحواجز لرفع المقاومة . وفى حالات الجروح البليغة تعمل هذه الغدد على سرعة تجلط الدم وخفض ضغطه ، وبذلك تجتهد فى وقف النزيف تلقائيا ، كما تزيد مقدار السكر فى الدم وتحرره من مخازنه لتعطى الجسم وقوداً سريعاً وتقلل الإحساس بالألم ، وهكذا يمكن التغلب على الصدمة .

ومن ذلك يتضح أن هذه الغدد الثلاث ، هى بمثابة القيادة الواعية التى ترسل جنودها البواسل لتدفع عن الجسم كل بلاء يطرأ عليه من الخارج أو من الداخل .

ونحن فى حياتنا اليومية مشغولون دائماً قلقون أبداً ، وهكذا تلقى هذه الغدد الثلاث ضغطاً مستمراً ينبعث من نفوسنا المثقلة بأعباء الحياة .

وتجتهد هذه الغدد الصغيرة فى الصمود أمام الضغط المستمر عليها فتظل تقذف بهرموناتها فى الدم، وتنجح فى مبدأ الأمر فى مجابهة هذه الطوارئ ، ولكن عندما تزول عن هذه الأحداث صفة الطوارئ ، وتظهر صفة الاستمرار تخفق كل الجهود فى مجابهتها .. فتتصلب الشرايين ويرتفع ضغط الدم ويمرض القلب ويلتهب الجلد وتتورم المفاصل .

وهكذا يتعرض الإنسان لأمراض متنوعة مبعثها القلق والعصبية والتفكير الدائم والهم المكبوت ، الذى يلقى عبئاً ثقيلا على مركز القيادة فى هذه الغدد المسئول عن تنظيم حيوية الجسم .

وإننا لنجد الحادث الواحد يسبب فى الناس آثاراً مختلفة ،فهو عديم الأثر فى بعضهم ، وهو صدمة عصبية فى بعضهم الآخر ، وهو أحياناً

انهيار تام يبعث على التخلص من الحياة نفسها على النحو المثير الذى تطالعنا به الصحف والذى يدهش الكثيرون لتفاهة أسبابه .

والتطبيق العلمى لهذه التجارب هو إدخال هرمون الكرتيزون من قشرة الغدة فوق الكلوية ، ا ك ت ه من الغدة النخامية لعلاج أعراض مجموعة كبيرة من الأمراض لا رابط يجمع أشتاتها مثل الأمراض الروماتزمية . . والتهابات العين . . وأمراض زيادة الحساسية .

والتطبيق العملى لهذه النظرية فى حياتنا هو أن نبتعد عن القلق والمنغصات ونلجأ إلى الاعتدال فى الحزن وفى الفرح وفى جميع المشاعر الإنسانية .

ونسيج الغدة فوق الكلوية مزدوج الشخصية ... ولو صنعنا قطاعاً فيها لوجدناها مؤلفة من منطقتين متباينتين ، منطقة داخلية وأخرى خارجية ، فالداخلية تفرز الأدرينالين بكثرة فى الأوقات الحرجة التى تستلزم الدفاع عن النفس بالهجوم أو الهروب ، فتسرع دقات القلب ويقف الشعر وتبلغ العضلات الحد الأقصى فى قوتها استعداداً لمواجهة الخطر .

أما المنطقة الخارجية فتحوى هرمونات عديدة منها الكرتيزون ومنها الهرمونات المختصة بمظاهر الذكورة والأنوثة فإذا زاد إفرازها عند الرجل تبرز ثدياه ويرق صوته ويزول شاربه ولحيته ويصبح أقرب للنساء منه إلى الرجال ، وحين يزيد إفرازها عند المرأة تفقد رقة الصوت وينبت لها لحية وشارب وتسترجل .

وتفرز خلايا ب الموجودة فى جزر لانجرهان بالبنكرياس هرمون الأنسولين.

وفى غيبة الأنسولين يحدث مرض السكر ، إذ لا يتمكن سكر الجلوكوز الموجود فى الدم من دخول خلايا الجسم .

أما الغدة النخامية الموجودة فى قاع الجمجمة فهى التى تتحكم فى الطول فتجعل المرء قزماً أو عملاقاً . . . ويحدث أحياناً أن غدة نخامية سليمة تصاب باضطراب فى مرحلة متقدمة فى العمر حين تكون عظام الأطراف والجذع قد توقفت عن النمو فتتركز الزيادة فى النمو فى الفك واليدين والقدمين ويصحب هذا التشويه حدة الطبع وسرعة الغضب وأحياناً اضطراب العقل ، وحينما يقل إفراز هذه الغدة يصاب المرء بفقدان الذاكرة وبلادة الذهن وانقباض النفس والميل إلى الكسل والنوم وعلاج هذه الحالة محفوف بالخطر وليس ناجحاً فى أغلب الحالات .

ولم يمكن فصل هورمون النمو نقياً لعلاج الأقزام إذ تشوبه هرمونات أخرى ، وقد صنعت إحدى الشركات العالمية هذا الهرمون واتضح أنه يزيد طول القامة ولكنه يسبب مرض السكر وسرعان ما جمعته من الأسواق إذ يفضل المرء أن يكون قزماً سليما على أن يكون مريضاً سمهرى القامة .

وحينما يضطرب الفص الخلفى للغدة النخامية يحدث مرض البول السكرى الكاذب الذى يتميز علاوة على الظمأ البالغ وكثرة التبول بأن البول لا يحتوى على سكر وكثافته تقرب من كثافة الماء العادى ويستعمل لعلاجه محلول زيتى من الهرمون أو مسحوق من الغدة كنشوق .

وإذا كانت هناك غدة يمكن أن تسمى غدة الشخصية فهى الغدة النخامية ، فبين هرموناتها ما ينظم الإنتاج الهرمونى للغدد التى تؤثر فى

شخصية المرء مثل الغدة الدرقية والغدة فوق الكلوية والغدد الجنسية ، هذا إلى أنها مسئولة مباشرة عن بعض الصفات الخلقية الخاصة .

فهورمون النمو الذى تفرزه يكسب المرء فى حالة زيادته فى مراحل العمر المبكرة الشجاعة وقوة الإرادة والإقدام وحب المغامرة ، ويقال إن نابليون يدين بأمجاده العسكرية لهذا الهرمون ، وإذا قل هذا الهرمون فى الجسم اتصف الشخص بالجبن والخجل . وفى إحدى التجارب أمكن تحويل كلب شرس إلى كلب وديع رقيق بإزالة غدته النخامية ، وحين أعطى هذا الكلب خلاصة الغدة بعد ذلك عادت إليه شجاعته المفقودة .

وهناك ناحية أخرى فى تأثير الغدة النخامية على الطباع ، فبحقن هرمونها المقوى لإفراز اللبن فى صغار أنثى الفيران قويت عندها غريزة الأمومة بدرجة ظاهرة ، وإذا كان هذا هو أثر الهرمون ذو العلاقة غير المباشرة بالناحية الجنسية فما أثر غدد الجنس نفسها ؟

إن هرمون الخصية لا ينشط الوظيفة الجنسية وحدها ولكنه يبعث الحيوية فى الجسم كله وقد أمكن بتحوير بسيط فى تركيبه الحصول على هرمون يبنى الجسم ولا علاقة له بالجنس ، ويستعمل لزيادة وزن ذوى النحافة من الرجال والنساء على السواء .

وهرمونات الجنس تعمل على إيقاف نمو العظم وهذا يفسر وقوف النمو بعد سن البلوغ ، كما يمكن أن يفسر نقص متوسط الطول فى المناطق الحارة حيث البلوغ المبكر عنه فى المناطق الباردة .

ويفرز المبيض هرمونين : هما الأسترون فى النصف الأول من

دورة الحيض والبروجسترون فى النصف الثانى ويمكن إحداث الطمث صناعيا بتبادل حقنهما على هذا النحو ، والبروجسترون يحافظ على الجنين ويمنع بعض حالات الإجهاض أما الأسترون فعلى النقيض منه .

وحقن هرمون الخصية للرجل بعد الخمسين يمنع تضخم البروستاتا .

وحقن هرمون المبيض فى الرجال يخفف آلام سرطان البروستاتا ويغنى عن حقن المورفين .

وحقن هرمون الخصية فى السيدات يشفى التهاب الثدى ويمنع تكون أخطر مضاعفاته وهو سرطان الثدى .

واستعمال مرهم الأسترون موضعياً يمكن أن يخفف تجاعيد الشيخوخة .

إن كل غدة من هذه الغدد الست عامل مهم من عوامل صحتنا البدنية والنفسية مثل القلب والكليتين والجهاز الهضمى والجهاز العصبى ، وهى تلعب دوراً جوهريا فى تحديد الصفات المميزة للشخص رجلا كان أو امرأة .

ولكن هل يعنى ذلك أن أجسامنا هى التى تحدد سلوكنا وشخصياتنا ؟ وإننا مسيرون ولسنا مخيرين ، أو هل نحن — إلى حد ما — نحدد مسار التفاعلات الكيميائية التى تدور داخل أجسامنا ؟

إن الإنسان أكبر بكثير من مجموع الأجهزة العجيبة المختلفة التى بداخله ، والغدد الصماء ليست سوى أدوات فى خدمته . إن سر طبيعة الإنسان لا يمكن أن يفسر بلغة الكيمياء . وحينما يكون المرء فى صحة جيدة — جسداً ونفساً — فإنه بطريقة غامضة يكون قادراً على أن يتحكم

فى غده وأن يوجهها الوجهة التى يشاء . بل إنه يستطيع أن يضيف أو يحذف من العناصر المكونة لشخصيته بحيث يتحقق اله الانسجام والتوازن والقدرة على مواجهة كل الظروف المحيطة به بثقة وشجاعة وحكمة .

يقول أحد كبار الأخصائيين : إن كل الدلائل المادية قد تكون ضد حرية إرادة الإنسان ، ولكن كل الاختبارات البشرية تؤيد هذه الحرية وتدلل عليها . ولذلك فمن واجب كل امرىء أن يحدد لنفسه أين يقع الفاصل الكبير بين الدوافع الداخلية التى تحفزنا لسلوك معين وبين حرية الإرادة فى أن يضبطها وينظمها ويوجهها وفقاً لإرادته .

الهرمونات واستعادة الشباب :

فى مطلع القرن الثامن عشر ، نجح هنتر فى نقل الخصية من حيوان إلى آخر ، واستعمل براون سيكار خلاصة غدة تناسل الثيران فى حقن ألوف المساجين ، وحقن نفسه بها وهو فى السبعين من عمره ، وسرعان ما شعر ببوادر الحيوية والفتوة . . . وجمع أعضاء المجمع العلمى الذين أذهلتهم حيويته البادية وخطاه الثابتة واستغناؤه عن العكاز التقليدى الذى كان يتوكأ عليه . . . ولكنها كانت الومضة الخاطفة التى تسبق انطفاء شعلة الحياة .

وابتكر ستايناخ عملية ربط القناة المنوية ليدخر هذا السائل الحيوى لنفع أنسجة الجسم، وقد شاعت هذه العملية زمناً ، ولقيت تحبيذاً وأجريت لمئات الشيوخ بغير جدوى .

وتمكن فيرونوف من نقل خصية قرد صغير السن إلى خصية إنسان، وقد أحدث هذا انخفاضاً فى ضغط الدم ، وفى نسبة الكولسترول ، كما تحسنت قوة الإبصار ولكن الفحص الهستولوجى المتتابع أثبت تحول خلايا الخصية المنقولة تدريجيا إلى نسيج ليفى ، يذوى معــه سريعاً الشباب الصناعى .

ولم يمكن الحصول على نتائج أفضل بوضع بللورات الهورمونات الجنسية المركزة تحت جلد البطن ، إذ يعتبرها الجسم مادة غريبة فيحيطها بنسيج ليفى ، ويلفظها خارجاً .

وفى معهد روكفلر للأبحاث ، عمد ألكسى كاريل إلى إجراء تجاربه على الكلاب الهرمة ، التى يبلغ عمرها ١٨ عاماً ، وهذه السن تعادل ٩٠ عاماً عند الإنسان ، وتتلخص العملية فى نزف دم الحيوان بعد تخديره وفصل كراته الحمراء وحقنها ثانية إليه مع محلول فسيولوجى حديث التحضير ، وسرعان ما استعادت هذه الحيوانات شبابها إذ لمع بريق العين وفتحت الشهية للطعام وعلا صوت النباح . ووجدت القدرة على الحركة والميل الجنسى ، ولكن بعد أسابيع قليلة انتكس الحال ، واختفت هذه الظاهرة .

وهكذا أخفقت عمليات نقل دم الشبان الأقوياء إلى الشيوخ المتهدمين .

والمشاهد أن التئام الجروح فى الشبان أسرع منه فى الشيوخ ، وقد وضع أحد العلماء قاعدة يمكن بها معرفة عمر الإنسان بقياس طول الجرح

وعمقه ومعرفة الزمن الذى يستغرقه فى الالتئام .

وهذا هو فى الواقع أساس النظرية الحديثة التى تعتبر أن الشيخوخة ما هى إلا فقدان قدرة خلايا الجسم على التجدد ، فالمعروف أن جميع أجهزة الجسم – باستثناء الجهاز العصبى – قادرة على تجديد ما يتلف من خلاياها ، وأن هذه القدرة تضعف تدريجيا مع تقدم العمر .

ولهذا اتجهت البحوث الأخيرة نحو إيجاد منشط عام لكافة خلايا الجسم ، وكانت قبلا مركزة فى الوظيفة الجنسية وحدها ، مما يحدث تحسناً مؤقتاً يعقبه رد فعل سيء .

وقد أثبت « فيلاتوف » أن خلايا المشيمة بعد الولادة تحتوى على منشطات عضوية عامة . . . وهذا هو أساس استعمال حقن خلاصة المشيمة ، وقد اتضح أنها تقوى الإبصار ، ولهذا يستعملها الآن أطباء العيون فى حالات قصر النظر والتهابات الشبكية .

أما مصل بوجومو لتز فيحضر بطريقة أسطورية . . . إذ تستلزم حقن الجياد ، (بكميات متزايدة تدريجياً) بمسحوق من النخاع العظمى والطحال البشرى لشبان حديثى الوفاة من ضحايا الحوادث الفجائية عقب موتهم بزمن وجيز ثم ينزف جزء كبير من دم الحصان ، وتفصل كرياته الحمراء ، ويؤخذ المصل المطلوب الذى إذا حقن فى الإنسان بكميات دقيقة يؤدى إلى تجديد جميع خلايا الجسم .

ومن الواضح أن هناك عقبات كثيرة فى سبيل استعمال هذا المصل على نطاق واسع بفرض صحة نفعه ... فالقوانين لا تسمح بتحضيره من

جثث الناس جزافاً ، وقد أسف ألكسندر بوجومولتز لحرمان الأحياء من إطالة عمارهم على حساب الموتى . وقد كان يعتقد أن مصله قادر على إطالة العمر إلى ١٥٠ عاماً ، ومما يذكر أنه مات عام ١٩٤٦ غير متجاوز ٦٤ عاماً — أى فى مقتبل العمر وأوج الشباب « تطبيقاً لنظريته » .

الواقع أن من بلغ مرحلة الشيخوخة ، فلا حيلة فى نكوصه عنها أو إرتداده منها ، أما من هو فى الطريق فعلى العلم أن يسعى فى تأخيره عن الوصول فيقف به طويلا فى مرحلة الشباب .

فالاحتفاظ بالشباب لا إعادته هو إذن الهدف المعقول الذى يمكن الوصول إليه خصوصاً أن الطبيعة لم تضن بهذه الظاهرة... فكثيراً ما نلحظ وجود شيوخ يتمتعون بحيوية الشباب وفتوته . وعلى النقيض منهم كثيراً ما نرى شباناً متهدمين .

ولا شك فى أن لعوامل الوراثة والبيئة والمناعة الطبيعية وتنوع الغذاء والتوازن بين الفيتامينات والهرمونات أثراً كبيراً فى الاستمتاع بشيخوخة فتية شابة .

الفصل الخامس

حياتك الجنسية



عند بدء سن البلوغ تقتحم حياة الشباب قوة جديدة جبارة طاغية تزيد مشاكله الصحية والاجتماعية تعقيداً ، إذ تستيقظ القوى الجنسية الكامنة من سباتها ، وتبلغ أوج اندفاعها نحو الجنس الآخر ، ويزيد من قوة هذا الاندفاع ما تفرزه الغدد التناسلية من هورمونات ، مما يخلق للناشئ الصغير مشكلة عويصة ، تتطلب مجهوداً جبارا لضبط النفس من خطر التطلع إلى الاختبارات الجنسية .

إن الإخصائيين يصادفون كل يوم أشقياء استحالت حياتهم جحيما بسبب الإخفاق فى حياتهم الجنسية . وقلة من هؤلاء يشكون من انحرافات ملموسة بحيث يمكن أن ندرجهم فى عداد المصابين بالشذوذ . أما الغالبيه الكبرى فإنهم أشخاص عاديون ترجع تعاستهم إلى الجهل من جانب وإلى الأفكار العتيقة عن موانع ومحرمات وعقائد — ما تزال سائدة فى مجتمعاتنا — من جانب آخر .

وهكذا تتصارع فى الشاب قوتان هائلتان ، القوى الجنسية الطافية على السطح ، والمبادئ المثالية والدينية الراسبة فى أعماق النفس البشرية منذ أقدم العصور .

ونحن لا نريد للشباب صراعا عنيفا ، ولا حربا داخلية تولد الخوف والقلق والعقد النفسية ، ولكننا نريد فهما عميقا لمشاكل الجنس لا يتعارض والمثالية المرموقة :

نريد للشباب أن يبتعد عن عواصف الجنس ، ويبتعد كذلك ، عن الخيال ، ليعيش فى الواقع الهادئ المعتدل .

فالاعتدال يجب أن يكون دستور حياتنا ، حتى فى العواطف البريئة ، فإن تعلق الأب بابنته ، والأم بابنها ، لو زاد عن حد الاعتدال ، فإنه يصبح من العسير على الأبناء والبنات الفكاك من أسر التعلق بوالديهم ، والاتجاه بعواطفهم نحو الوضع الصحيح ، لتكوين أسر جديدة سعيدة .

* * *

والزواج هو وحده الذى ينظم العلاقات الجنسية لأسباب لها أهميتها القصوى ، وحيويتها الكبرى ، وقد اكتسبها الجنس البشرى وتميز بها عبر القرون .

والزواج فى بدء البلوغ الجنسى أمر عسير المنال ، إذ أن أمام البالغ الصغير سنوات طويلة من الدراسة والتحصيل ليصبح قادراً على تحمل الأعباء الاقتصادية والاجتماعية التى يلقيها عليه الزواج .

فهناك فترة طويلة تتراوح بين ٨، ١٥ سنة بين سن البلوغ التى تلح فيها الغريزة الجنسية على الشاب إلحاحاً عنيفاً ، والسن التى يمكن أن ينهض فيها بأعباء الزواج .

وهذا هو الوضع الذى يخلق المشاكل الجنسية بمختلف درجات العنف ، ويتوقف مبلغ خطورتها على الفرد نفسه ، ودرجة تمرسه ، ومقدار نضج شخصيته .

ولابد من الاعتراف بأن هذا الوضع صعب وشاذ ، ولابد أيضاً من مجابهته ، وتكييف حياتنا وتقبله كأمر واقع ، فهذه هي ضريبة المدنية . ففى البلاد المتأخرة والقبائل البدائية ، ينتشر الزواج المبكر فضلا عن زواج الأطفال ، ولذلك لا توجد هذه الفترة الحرجة فى حياتهم .

ولكن علينا ألا نبتئس من هذه الفترة القلقة ، فقد عوضتنا المدنية الجزاء مضاعفا ، إذ ارتقت العواطف وتهذبت النفوس ، وأصبح الزواج أمراً سامياً روحياً مقدساً وليس مجرد إشباع رغبة مادية كالطعام والشراب كما هو الحال فى هذه القبائل المتأخرة . ونعتقد أن التسامى بالغريزة الجنسية ، وحصر الفكر فى بناء المستقبل المرموق ، والتمسك بأهداب الدين ، يساعد الشباب على اجتياز هذه الفترة الحرجة بسلام هو أساس السعادة فى الحياة الزوجية المقبلة .

والواقع أن المعلومات الوثيقة عن فسيولوجية الجنس على جانب كبير من الأهمية ، فإننا قد نتسامح فى الجهل بوظائف القلب أو التنفس أو الهضم ، إذ لن يؤثر ذلك فى دقات القلب ، أو خلجات الرئة ، أو تقلصات المعدة والأمعاء . أما اعتناق فكرة خاطئة أو ترويج معلومات مضللة فى أمور الجنس ، فذلك يسبب أمراضاً نفسية عنيفة ، تقود إلى حلقة مفرغة من الهموم والمتاعب .

الأعضاء التناسلية

تحقق الأعضاء التناسلية هدف الطبيعة الأعظم فى حفظ النوع ، ويتم ذلك فى الحيوانات بطريقة آلية بحتة ، أما الإنسان المتحضر فقد أحاط الحياة الجنسية بهالة من العواطف الرقيقة ، وبنى عليها الحب والأسرة والأطفال ، وربط بها خلاصة مافى الدنيا من جمال وبهجة ، وتمثل فيها أسمى ما فى الحياة من معان .

وتفرز الخصية الحيوانات المنوية التى تختزن فى الحويصلة وتصل إلى الخارج عن طريق قناة مجرى البول التى تخترق عضو الذكر ويحيط بها نسيج اسفنجى ملئ بالأوعية الدموية .

ويفرز المبيض فى المرأة البويضات التى تنضج منها بويضة واحدة كل شهر ، ثم تنفجر وتصل سطح المبيض ، ويحدث هذا عادة فى منتصف الدورة الشهرية للأنثى ، وتصل البويضة عن طريق قناة خاصة إلى الرحم .

والرحم عضو عضلى يوجد فى منتصف الحوض ، والجزء الأسفل منه يعرف بعنق الرحم ويبرز داخل المهبل .

وعندما يلتقى حيوان منوى ببويضة فهذا بشير ببدء حياة جديدة تنتظر بدورها نعمة الحب . .

الطمث

بدء الطمث معناه أن الفتاة قد بلغت سن النضج الجنسى ، وأن الإخصاب عندها قد أصبح ممكنا ، وفى كل شهر يتضخم الغشاء المخاطى المبطن للرحم ويصبح معدا لاستقبال البويضة الملقحة ، فإن لم يحدث تلقيح فإن هذا الغشاء المتضخم يتساقط ويقذف خارجا مختلطا بكمية من الدم . وهذا ما يعرف بالحيض الشهرى أو الطمث ، وتتكرر هذه العملية كل شهر بتأثير هورمونات خاصة .

ويبدأ الطمث عادة فى سن ١٢ ــ ١٤ ، غير أنه فى بعض الأحوال النادرة قد يبكر فيبدأ فى سن العاشرة أو يتأخر إلى سن ١٦ ــ ١٨ سنة .

ويجب أن تعلم الفتاة شيئاً عن هذا الأمر حتى لا يزعجها أول طمث .

وبما أن الطمث أمر عادى، فالطبيعى ألا يصاحبه أى ألم ، غير أننا نأخذ على بعض الأمهات تسمية الطمث « بالمرض الشهرى » فتنشأ الفتيات وقد علق بأذهانهن هذا الوهم الخاطئ مما قد يسبب أوخم العواقب .

وفى الأحوال النادرة التى يصاحب الطمث فيها ألم شديد ، يجب المبادرة باستشارة الطبيب لتلافى هذه الأعراض .

وغالبا يزول هذا الألم بممارسة بعض أنواع الرياضة الخفيفة ولو مجرد السير على الأقدام لمسافات طويلة . ويحسن تجنب القفز والرياضة العنيفة أثناء الطمث ، أما مجرد السير فى اليوم الأول فمن شأنه أن ينشط الدورة

الدموية ويمنع احتقان المبيض الذى هو سبب الألم .

وواجب كل أم أن تشرح لابنتها بلباقة المعلومات الوافية عن العادة الشهرية ، ابتداء من سن ١١ أو ١٢ ، لينطبع فى ذهن الصغيرة حقيقة هذا الأمر العادى الطبيعى الذى لا يمكن أن يكون مرضا يستوجب الاعتكاف فى الفراش أسبوعا من كل شهر .

اعتقادات غريبة فى الطمث :

وهناك عقائد غريبة متأصلة منذ أزمنة بعيدة تتعلق بالطمث ، ففى غرب أفريقيا تمنع النساء فى فترة الحيض من عبور النهر ، وهذا يشبه إلى حد ما اعتقاد البحارة الأوروبيين القدماء من أن المرأة أثناء الحيض تمنع البوصلة من أن تشير إلى الاتجاه الصحيح .

وفى بلجيكا تمنع المرأة من تمليح الزبدة وصنع المربات وحفظ الخضروات طيلة فترة الطمث .

وفى فرنسا تعتقد النساء أن تغيير الملابس قبل اليوم الرابع يزيد من تدفق الدم .

ومن الوجهة العلمية لا يمكن أن يحدث حمل وولادة ما لم يكن هناك طمث ، إلا أن الكتاب المقدس يحدثنا عن حمل سارة واليصابات بعد انقطاع الحيض .

وسجلت حالات عجيبة أخرى عن حمل البنات الصغار قبل بدء الحيض :

وفى الهند كانت تتزوج البنت فى سن السابعة، وقد تنجب فى الثامنة.

وقد عرضت منذ سنوات أمام الأكاديمية البلجيكية حالة طفلة فى الرابعة من عمرها يأتيها الحيض فى موعده الشهرى!

ويعتقد البعض أن دورة الحيض لها علاقة بدورة القمر الطبيعى، وربما توهموا فى المستقبل أن لها علاقة بالقمر الصناعى!

ويخشى البعض من دم الحيض إلى هذا اليوم، وينسبون إليه خواصاً عجيبة.

فى قبائل الهنود الحمر بأمريكا تعزل المرأة أثناء هذه الفترة، وتمنع من تحضير الطعام والشراب لأى شخص سواها. ويعتقدون أنها لو سارت بجوار أى سلاح فإنه يفقد مفعوله فى الحال.

حوادث عجيبة :

وفى أحوال نادرة، يمتنع دم الحيض عند الأنثى ويأتى بدلا منه — وفى موعده — نزيف من الأنف!

وقد سجلت المراجع الطبية القديمة حالة أكثر عجباً، لفتاة امتنع عندها دم الحيض الشهرى وكان ينزف بدلا منه دم من الثدى بضع مرات كل سنة، وهناك حالة فتاة أخرى، كان يأتيها «الحيض» من الأذن اليمنى.

ولعل أعجب ما كتبه طبيب فى العصور الوسطى فى هذا الشأن أنه شاهد فتاة تشكو من آلام فى الرأس وفى جميع أجزاء الجسم وحكة شديدة فى طرف سبابة اليد اليمنى، وقد اضطرها هذا إلى عض أصبعها فانبثق

الدم منه بغزارة ، مندفعا لمسافة بعيدة . وعندما نزل من الدم ما تبلغ زنته نحو أوقيتين ، وقف النزيف من تلقاء نفسه ، وزالت جميع الآلام ، وتكررت هذه العملية كل شهر .

وقد كان الطب القديم مرتبطا بالخرافات أشد الارتباط ، فلا عجب أن نجد المراجع الطبية القديمة تدون هذه الأحوال الغريبة وتعنى بإبرازها، غير أن الخرافات المتعلقة بدم الحيض وخواصه لا تزال عالقة بأذهان الكثيرين وإن برئ منها ومن غيرها الطب الحديث .

الاحتلام :

الاحتلام دليل نضج الخصيتين ، ويجب أن ينظر إليه الشاب ووالداه على أنه أمر طبيعي الحدوث .

وقد يبدأ الاحتلام في سن مبكرة تتراوح بين التاسعة والعاشرة ، وقد يتأخر إلى سن ١٦ ، أو ١٧ ، وهذا لا يعني شيئاً ذا بال ، ولاعلاقة له بالنمو أو ظهور اللحية أو الشارب .

وفي بعض الأحوال يكون الاحتلام كل ليلة ، وفي أحوال أخرى يحدث مرة واحدة في الشهر ،وأن انتظام مواعيده أو اضطرابها ، ليس له دلالة خاصة ، ويجب ألا يبذل أي جهد للتحكم فيها ، لأن هذا الجهد سيفشل حتما ، وسيولد عند الناشئ الصغير شعوراً بالعجز والنقص يكون له أسوأ الأثر في حياته .

ويعتقد الكثيرون خطأ أن فقدان السائل المنوي معناه فقدان مصدر

ثمين للطاقة ، وتعطيل كبير للحيوية .

والواقع أن السائل المنوى مجرد إفراز يجب أن يخرج من الجسم ولا علاقة له مطلقاً بالحيوية ، ولا يمكن أن يكون مصدراً للطاقة ، ولا يستفيد الجسم من وجوده شيئاً .

ونعتقد أن مصدر هذا الزعم هو الخلط بين السائل المنوى وإفراز الخصية الداخلى الذى يصل إلى الدورة الدموية ويعرف بهورمون الجنس وهو الذى يؤثر فعلا فى جميع خلايا الجسم وله علاقة كبرى بالنمو وعمليات التمثيل الغذائى .

ويجب أن يعلم اليافع من والديه أو من أصدقائه طبيعة الاحتلام ومصدره . كما يجب أن يعرف بأنه لا يضر بأية وظيفة من وظائف الجسم . فجهله بذلك يسبب له اضطرابات نفسية منشؤها الإحساس بالإثم والشعور بالعجز عن التحكم فى وقف هذا الأمر الطبيعى .

وأكثر الابناء يخجلون من مصارحة ذويهم فى الشئون الجنسية ، لذلك ينبغى أن يشجعهم الآباء على مناقشة هذه الموضوعات لتصحيح معلوماتهم عنها وتبديد جهلهم بها .

العادة السرية !

العادة السرية من المشكلات الجنسية القليلة التى أثير حول نتائجها كثير من المعلومات الخاطئة المضللة .

فى العصور الوسطى ، كان الرأى السائد أن هذه العادة تسبب قائمة

طويلة من الأمراض ، وأنها تضعف القوى الطبيعية والعقلية ، وتقتل الإرادة ، وتتلف القوى الجنسية وتؤدى إلى الجنون .

وقد سجلت حالات انتحار كثيرة كانت نتيجة انتشار مثل هذه التعاليم ، ومما ساعد على اتهام هذه العادة بأنها سبب أمراض عديدة ، أن هذه الأمراض لم يكن لها وقتئذ سبب معروف .

فإذا مرض شاب بالتشنج العصبي ، فما أسهل اتهام العادة السرية بأنها السبب ، وإذا أصيب آخر بفقدان الشهية ، فهى كذلك أس البلاء !

ولقد ثبت الآن بما لا يدع مجالا للشك أنه لاضرر على الصحة من ممارسة العادة السرية باعتدال كما اتضح من الاحصاءات الدقيقة أن ٩٢٪ من الشباب فى سن البلوغ يمارسونها ، وإنما الضرر الأكبر لهذه العادة هو التوهم أن لها ضرراً .

وهذا ليس معناه أننا نؤيد ممارسة العادة السرية ، فهى ليست أمرا طبيعيا ، والشبان يصعب عليهم الاعتدال ، فهم مغرمون بالاندفاع والمغالاة ، ولابد من أن نؤكد أن الإكثار من ممارسة هذه العادة هو تضييع للجهود فيما لا طائل تحته ، وتبذير للحيوية فى سن يحتاج فيها الفتى والفتاة لتعبئة كل الطاقة لتكوين الشخصية وتحصيل العلم وتنمية الخلق وبناء المستقبل .

العلاقات الزوجية :

الزواج والأسرة هما عماد المجتمع فى كل البلاد المتحضرة . والزواج المثالى هو المبنى على وحدة المشاعر والأحاسيس والأمانى ، غير أن للتوافق الجنسى دوراً هاماً فى السعادة الزوجية .

ويجب أن يدخل فى الحسبان ، الفارق الكبير بين الرجل والمرأة فى المشاعر الجنسية ، فالغريزة فى الرجل سطحية تسهل إثارتها ، ويسهل إشباعها ، أما فى المرأة فهى عميقة ، تحتاج إلى وقت أطول للإثارة ، وتحتاج إلى وقت أطول للإشباع ، وتختلف حدتها من وقت لآخر بحسب موعد الحيض وظروف المبيض .

ولا تنظم العلاقات الزوجية من حيث العدد والفترات أية قاعدة صحية ثابتة سوى الرغبة المتبادلة ، وفهم كل من الزوجين لمشاعر الآخر .

تأثير الغذاء :

وللغذاء الذى نأكله ، والعمل الذى نمارسه ، والمؤثرات التى تتعرض لها حواسنا ، أثر فى الرغبة الجنسية .

وتزداد قيمة هذه العوامل بعد الأربعين ، عندما تخبو فورة الشباب ، وتبدأ قوى الجسم الحيوية فى الاضمحلال .

ومنذ العصور القديمة عرف الإنسان أن لبعض أنواع الأطعمة أثراً مقويا للجنس ، فحرم الفراعنة تناول السمك على الكهنة حتى لاتشتعل

فيهم نيران الرغبة فتؤثر فى قلسيتهم .

ويحتفظ السمك إلى هذا اليوم بشهرته فى هذا الميدان :

وفى قصة السلطان صلاح الدين والدرويش الذى اختاره لتعليم جواريه ، ما يشير إلى الأثر المباشر للطعام ، فقد ظل الدرويش محتفظا بطهارته حتى ضل بعد وجبة سمك شهية !

والمشاهد أن سكان المدن الساحلية التى تستهلك كمية كبيرة من السمك يتميزون بوفرة عدد أطفالهم .

ومن الأغذية الجنسية التى لها شهرتها التاريخية الحمام والديوك الرومى والبيض والبطارخ ولحم الضأن،ولعل من الطريف أن نذكر « الروشتة » التاريخية للتقوية الجنسية التى كانت تستعمل فى القرون الوسطى بنجاح كبير : يغلى رطلان من لحم الضأن وقبضة من البقدونس،وثلاثة رؤوس كبار من القرنبيط ، كل فى وعاء خاص لمدة ساعة ثم يمزج الجميع ويغلى المزيج لمدة ربع ساعة بعد إضافة كمية قليلة من الماء ، ويؤخذ منه فنجان كل ٣ ساعات فى اليوم الأول ، ثم فنجان واحد صباحاً فقط بعد ذلك .

والغريب أن الإنسان قد اكتشف أن لهذه الأطعمة خاصية فى تقوية الرغبة الجنسية قبل أن يعرف شيئا عن تركيبها ، وقد أثبتت التحاليل الحديثة أن هذه الأغذية غنية بالفوسفور والحديد ، والفوسفور له علاقة خاصة بتقوية الأعصاب ، والحديد له دور هام فى تقوية الدم :

الحواس الخمسة والجنس :

وللحواس الخمس دور كبير فى إثارة غريزة الجنس . ومنذ عصور ما قبل التاريخ عرف الإنسان أهمية حاسة الشم ، وحتى القبائل البدائية لا تنقصها هذه الخبرة . . فى تاهيتى تقضى النساء وقتا طويلا فى تدليك أجسامهن بالزيوت العطرية .

وفى استراليا وشمال كونيسلا يستخدم الأهالى عصير نبات خاص يسمى الجيانجينا ، وهذا العصير عندما يختلط بالعرق تصبح له رائحة نفاذة مثيرة للجنس .

أما فى جزر الفليبين فيحتفظ كل من الخطيبين بقطع من ملابس الآخر ليوسعها لثما وتقبيلا وشما بين الحين والآخر !

وفى نشيد الإنشاد يتغنى سليمان كثيراً برائحة المحبوب .

أما الهنود والصينيون والأجناس السوداء ، فيفضلون التضمخ بالمسك. ويستعمل الأوروبيون خلاصة البنفسج .

ومن الغريب أن لرائحة العرق نفسه فى بعض الأحوال خاصية تنبيه الجنس ، وقد وقع هنرى الثالث ملك فرنسا فى غرام عروس أمير كوندية عقب استعماله مصادفة منديلها المبلل بالعرق .

ويقال إن الأنف الضخم من علامات القوة الجنسية ، ويختلف توارد الدم إلى الأنف بحسب حالة الدورة الشهرية للأنثى ، وعندما يزيد النشاط الجنسى عن الحد ، يلتهب الغشاء المخاطى المبطن للأنف،

ويعوق حساسية الشم ليهدئ ثورة الجنس .

وتضطرب حاسة الشم كثيراً عندما يمرض أحد أعضاء التناسل .

وقد سبق أن أشرنا إلى حالات غريبة يحدث فيها نزيف شهرى من الأنف بدلا من الحيض المعتاد ، وفى أحوال أخرى تصاحب نزيف الأنف العادة الشهرية .

وقد تبدأ الرغبة فى الأنثى بالعطس والتهاب الأنف ، وهكذا نجد علاقة بين الأنف والجنس .

* * *

أما اللمس فدوره الجنسى ثابت معروف ، ولعل من الطريف أن نذكر أن الشفتين ليستا أكثر الأماكن حساسية ، فالقبلة بضغط ملليجرامين على الجبهة أو الخد تعادل قبلة بضغط ٣ مليجرامات على كف اليد ، و٥ ملليجرامات على الجفون ، و١٥ مليجراما على الأصبع ، و٥ مليجرامات على الشفتين .

وتسبب القبلة زيادة مؤقتة فى ضغط الدم قد تصل إلى ٣٠ ملليجراماً من الزئبق كما يسرع النبض .

* * *

ولحاسة السمع دور صغير فى تنبيه الجنس ، فبعض أنواع الموسيقى ينبه عاطفة الجنس ، كما أن صوت الجنس الآخر يثيره إلى حد ما ، ومع أن « الأذن تعشق قبل العين أحياناً » إلا أن دور العين أهم كثيراً ، فالجمال مقياس الجاذبية الجنسية بلا منازع .

عقاقير الحب !

لعل أغرب بحث تقدم به طبيب للحصول على درجة الدكتوراه هو رسالة فرانسوا دى بواسيه العلمية التى عرضت على جامعة باريس عام ١٨٠٠ وموضوعها « هل يمكن علاج الحب بالعقاقير ؟ » .

فبينما يكرس الأطباء وقتهم وجهدهم لبحث الأمراض وعلاجها فقد كرس دى بواسيه وقته وجهوده لبحث الحب وعلاجه .

ولم يكن دى بواسيه أول من فكر فى الحب كمرض يمكن علاجه بالعقاقير ، فقبل ذلك بمئات السنين ، كان هناك أطباء وسحره وعجائز حكيمات ، تخصصوا جميعا فى شئون الحب ، كيف يمنحونه ، وكيف يمنعونه !

فى عهد الإغريق والرومان شاع استعمال قراطيس الحب لدرجة كبيرة ، وفى وقت من الأوقات تدخل القانون نفسه لفرض رقابة وعقوبة خشية سوء استعمال هذه الأدوية الفعالة !

وانتشر نوعان من القراطيس ، النوع الأول له خاصية سحرية تغرس بذور الحب فى قلب شخص معين ، والنوع الثانى فائدته تقوية الجنس .

وتتركب معظم هذه القراطيس من فلفل ومر وعطر قبرصى وعطر مصرى ، ويلزم شرب هذا المستحضر فى وعاء فخارى ليحدث مفعوله العجيب :

أما الرومان فأدخلوا غدد الخيل فى هذه المستحضرات ، ولم يكن الإغريق متأخرين فى هذا الفن ، ويظهر أنهم بلغوا من المهارة فى هذا المضمار شأواً بعيداً ، إذ يصفون أحد مستحضراتهم بأن له من القوة والفاعلية إلى حد أنه يثير الغريزة بمجرد تدليك الأصبع به ! . كما أنهم صنعوا مستحضرات لها مفعول مزدوج فهى تمنح الحب الجديد وتنزع الحب القديم .

ويتحدث ثيوكويتاس عن استعانة شباب كروتونا بزهر التليفيلان (وهو نوع من أشجار الفلفل) لاختيار الزوجة الصالحة .

ومن دراسة أوراق البردى ، اتضح أن قدماء المصريين أولوا عناية خاصة لفن منح الحب ومنعه بالعقاقير . وكانت جرعة الحب عبارة عن مسحوق التوابل ممزوجا بالخمر ، ويمكننا أن ندرك سر هذا المفعول ، إذ أن هذه الأدوية تهيج الغشاء المخاطى وتزيد كمية الدم التى تصل إلى الأعضاء التناسلية .

ولقد استهوى هذا الفرع الطريف من فروع العلم ، طائفة من الشخصيات التاريخية ، فالشاعر الإغريقى ديموكرتياس اشتهر بموهبته الخارقة فى تركيب جرعات الحب ، وكتب باراكلياس فى العصور الوسطى بتعمق وجدية عن عقاقير الحب ، وفى عصر الملكة اليزابيث تخصص كثيرون فى هذا الفن وكانت من بينهم الملكة نفسها . وكانت أكثر جرعات الحب انتشارا خلاصة من جذور النباتات اشتهرت باسم « اكسير القبلة » .

* * *

وفى القرن الخامس عشر إنتشرت عقاقير الحب وأصبحت تجارة واسعة مربحة ، وعندما بلغ الحب والفروسية أسمى الدرجات ، انتشرت فى مدينة البندقية كتب كثيرة تحوى وصفات مفصلة تجلب الحب .

وفى القرن السابع عشر ، إخترع الدكتور هوفمان ماء المغناطيس وهو عبارة عن منقوع كحولى من حشرة معينة ، ولا تزال تستعمل المادة الفعالة المستخلصة من هذه الحشرة والمعروفة باسم « كانثاريدين » إلى هذا اليوم كمنبه للجنس .

وقد تغنى الشعراء بعقاقير الحب ، وهذا أنموذج مما كتبه أحدهم :

« إلى حانوت العطار فورا توجهت » .

« وفى جرعة الحب ، كل ما معي أنفقت » .

ولقد كان إيمان مشاهير ذلك العصر ، راسخاً فى هذه العقاقير ، وقد اعتادت مدام دى بومبادور إستعمال جرعات منتظمة حتى تحتفظ بقلب لويس الخامس عشر ، وكانت تتركب من الجزر والسوسن وجوزة الطيب .

وهكذا نجد أن البحث عن عقاقير الحب بدأ منذ أقدم العصور ، فنى سنة ٣٣٦ ق . اهتم أرسطوطاليس بالأدوية ووصف زيت النعناع كمنبه جنسى ، ثم اكتشف ليردى أن للفسفور هذه الخاصية .

وفى عام ١٨٧٥ إستعملت حبوب الداميانا لإثارة الرغبة الجنسية، واهتم الكيميائى الألمانى سبايجل بنبات اليوهمبا الذى يستخدمه أهالى الكميرون لأغراض غرامية فاستخلص اليوهمبين منه .

ومن عالم النبات والمعادن إنتقل البحث إلى المملكة الحيوانية .

فى عام ١٩٣١ تم فصل هورمون الخصية فى صورة بللورات معدة للحقن ، وهكذا توصل الطب فعلا إلى دواء حب حقيقى .

ولنذكر هذه الحالة على سبيل المثال الذى يبين فعالية هذا العقار ، شاب عمره ٢٦ عاما توقف نموه الجنسى منذ كان طفلا، وكان صوته أشبه بصوت الأطفال ، ولا لحية له ولا شارب ، ولا يولى الجنس الآخر أدنى اهتمام ، وعند ما عولج بهورمون الخصية بمقدار خمسة مليجرامات ، ٣ حقنات أسبوعياً لمدة أربعة شهور، نضج جنسياً وهو يستعد الآن للزواج .

الشذوذ

هناك أنواع من الشذوذ الجنسى يعتبرها البعض جنوناً ، وهى فى نظر البعض الآخر إجرام يستحق احتقار المجتمع وعقوبة القانون .

ومنذ عهد قريب اتجهت أنظار الطب إلى العناية بهذه الفئة لتمد يد الرحمة إلى الملايين من أولئك المعذبين فى الأرض .

والشذوذ الجنسى أنواع متباينة مختلطة ، فمنها مرض الماسوكزم الذى لا يشعر فيه الرجل بلذة إلا عن طريق الخضوع والاستكانة والتذلل والتزلف للمرأة ، مما يسبب كثيراً من المآسى والشقاء النفسى . وفى بعض كتابات جان جاك روسو ما يفيد إصابته بهذا الداء، إذ يصف سعادته بأنها فى « الركوع على ركبتيه والسجود لمعبودته ، وإطاعة أوامرها وسؤالها العفو والغفران»!

أما مرض السادزم (الصادية) فيجد الرجل فيه السعادة فى التنكيل بالمرأة ، وإلحاق ضروب الأذى بها والاستمتاع برؤيتها تئن وتتوجع .

وهناك نوع كريه آخر من الشذوذ الجنسى ، يتجه فيه ميل الفتى إلى فتى مثله ، وتتجه الفتاة إلى فتاة مثلها !

وهناك أنواع من الشذوذ تخفى وراءها مرض القصور الجنسى ، كأولئك العجائز المتصابين الذين لا عمل لهم إلا التطلع إلى الغاديات والرائحات .

والواقع أن هذه الأمراض مثل غيرها من الاضطرابات العقلية والعاطفية يمكن علاجها بتقصى أسبابها الحقيقية وتحرى العوامل النفسية الكامنة وراءها .

القصور :

العنة أو الارتخاء حدث خطير يهدد الحياة الزوجية تهديداً كبيراً ، وقد يفصم عراها نهائياً ، إذ تفقد غرضها الأساسى ، وهو تكوين الأسرة وحفظ النسل .

والعنة نوعان : عضوى ونفسى ، والارتخاء العضوى يسببه مرض يمكن الكشف عنه والتعرف عليه .

أما النفسى فيرجع إلى حالة عصبية أو عقلية . ويحتاج كلا النوعين إلى إهتمام الطبيب وعنايته . ويشمل القصور الجنسى العضوى ضعف الرغبة والارتخاء وسرعة القذف ، وقد ينشأ القصور فجأة أو يأتى تدريجياً .

وأسباب القصور العضوى كثيرة ، فأى مرض يؤثر على الأعضاء قد يسببه . وكذلك تلعب الأمراض التناسلية دوراً هاماً فيه ، والتهابات الأعضاء الداخلية وبخاصة الحويصلة المنوية التى هى مخزن السائل المنوى وغدة البروستاتا التى تحيط بمجرى البول من الداخل ، و « بروستاتا » كلمة لاتينية معناها حارس وإفرازها لازم لحيوية الحيوانات المنوية . وبغيره يفقد الرجل قدرة التناسل ، ونقص إفرازات الغدد وبخاصة غدد الجنس قد يسبب العنة . كما ينشأ القصور بسبب أورام فى أعضاء التناسل . وأمراض الأعصاب التى تغذى هذه الأعضاء تسبب إرتخاء فجائياً كاملا .

وكثرة استعمال بعض العقاقير وإدمان الخمور والمخدرات تضعف القوى الجنسية على نقيض ما يظنه كثير من الناس خطأ .

ويحسن أن ننبه كذلك إلى أن الإفراط فى العلاقات الجنسية ، والضعف العام ، واستعمال مانعات الحمل والإمناء فى الخارج وغيرها من الطرق غير الطبيعية قد يؤدى إلى القصور الجنسى .

والإمناء فى الخارج عادة شائعة كطريقة لمنع الحمل وتحديد النسل، ويعتقد الكثيرون أنها خالية من الضرر ، والواقع أنها كثيراً ما تسبب التهابات الحويصلة المنوية وبالتالى ضعف القوى الجنسية .

وعندما تضمحل الصحة العامة تنقص القوى الجنسية ، كما أن ضغط الدم المنخفض قد يسبب الارتخاء . وأمراض السكر والدم والقلب والكلى تقلل الرغبة والحيوية .

* * *

أما القصور النفسى الناشئ عن إضطرابات عقلية وعصبية ، فيمكن تحديد بعض أسبابها وأهمها الخوف والغضب والنفور والخسائر المالية والقلق والإجهاد فى العمل ، وهناك عوامل أعمق من هذه كالرغبات الجنسية الشاذة أو الشعور بالعجز الجنسى .

ولعل فى ذكر بعض المشاهدات الواقعية ما يلقى ضوءاً على هذا النوع من القصور الجنسى .

شاب فى العشرين من عمره وحيد والديه الثريين ، ويدير متجرهم الكبير ، صمم على الإضراب عن الزواج ، وقد أسر فى أذن الطبيب أنه يعتقد فى قصوره الجنسى وأن اختباراته الشخصية تؤيد هـذا الاعتقاد .

وبفحص حالته اتضح أنه خال من الأمراض العضوية ، ولكن حجم عضو التناسل كان صغيراً جداً ، وهذا ما أقلق الشاب وأزعجه وسبب له الاضطراب العصبى .

وبمجرد أن علم أن حجم العضو لا أثر له مطلقا على العملية الجنسية وأن فى وسعه إنجاب أطفال ، زال عنه هذا الوهم . وهو الآن رب أسرة سعيدة ووالد طفلين !

* * *

رجل فى الخامسة والأربعين يشكو من ضعف الرغبة الجنسية بسبب تقدم السن ، وبدا للطبيب أن هذا التفسير ليس معقولا ، فأخذ يبحث تاريخ حالته بإمعان ، فاتضح أنه فى شبابه أحب فتاة ولم يستطع الزواج

بها لمعارضة أهله الذين أجبروه على الزواج بأخرى لم تستطع أن تنزع من قلبه الحب القديم . وبعد ٢٥ عاماً علم أن فتاته الأولى قد أصبحت أرملة ، وعاوده الحنين إليها ، ففقد كل رغبة فى الاتصال الجنسى بزوجته وأصيب بالقصور الجنسى بالنسبة إليها .

* * *

وفى حالة أخرى كان الشاب فى سن الثلاثين ، وبدأ حياة زوجية سعيدة وحباً جارفا متبادلا ، ولكنه برغم ذلك لم يلبث أن أصيب بالقصور الجنسى . ومن دراسة تاريخ الحالة اتضح أن طباع زوجته قد تغيرت منذ وضعت مولودها الأول ، إذ إستولى عليها شيطان الغيرة ، وملك الشك قلبها، فأصبحت تنكر عليه أقل جنوح إلى الانفراد بنفسه أو الابتعاد عنها طويلا ، خشية أن يكون قد اتخذ من دونها امرأة أخرى ، وهكذا خبت نار الحب المتأججة ، إذ لا يمكن أن يبقى الحب مزدهراً نامياً وسط الأبخرة السامة المنقعة فى جو النكد . فالنكد هو أقسى المبتكرات الجهنمية التى نبغ فى إختراعها أبالسة الجحيم لتحطيم الحب ، وهو أعظمها فتكاً . إنه سرطان خبيث ليس له دواء .

ومن ذلك يتضح أن كراهية الزوجة من أهم أسباب القصور الجنسى ، وهذا بدوره فى مقدمة أسباب الاضطرابات النفسية والعصبية العنيفة .

ويقابل حالة القصور الجنسى عند الرجال ، ما يعرف بالبرود الجنسى عند النساء الذى سرعان ما يقودهن إلى الانهيار العصبى ، وينشأ البرود الجنسى عن أسباب عديدة منها ، إنعدام الثقة فى الزوج ، والخوف من

الحمل ، والجزع من الإضرار بالجهاز التناسلى . والصدمات العصبية والنفسية ، وكراهية الزوج ، والإزدراء الطبيعي للعلاقات الجنسية .

الكبت :

أثير جدل كبير حول موضوع الكبت الجنسى ، فبينما يعتقد البعض أنه يسبب تلف الأعصاب والأضرار الخطيرة بالصحة يعتقد البعض الآخر أنه مفيد للجسم .

والواضح أنه ليست لدى الناس فكرة صحيحة عن هذا الأمر . وقد عاش إسحاق نيوتن أعزب طوال حياته حتى توفى فى سن الخامسة والثمانين ، ومن مذكراته الشخصية ثبت أنه عاش حياة طاهرة تماماً . والمعروف أنه عاش طوال حياته سليما بغير مرض ، أما قواه العقلية فقد بلغت أوج القمة والعظمة كما تشهد بذلك نظرياته العلمية الخالدة .

وعلى النقيض من ذلك نجد أن الفيلسوف سقراط عاش حياة أبعد ما تكون عن الفضيلة ، والواقع أن أصابع الاتهام تكاد تجمع على شذوذه الجنسى ، ومع ذلك فإن صحته الجسمية والعقلية لم تتأثر بعاداته الجنسية الممقوتة .

وفى الحياة العملية شاهدنا حالات إمتناع تام عن العلاقات الجنسية دون أن يكون لذلك أدنى أثر على الصحة العامة ، لأن الغريزة الجنسية عند هذه الفئة ضعيفة أصلا ، فلم تكن هناك رغبة قوية تحتاج إلى إرادة أقوى لكبح جماحها ، مثل هؤلاء الناس يعيشون حياة العزوبة ، ولا يفكرون

فى الزواج ، وليس لذلك أى أثر على صحتهم الجسمية والنفسية .

ومن جهة أخرى ، فحالات الكبت الجنسى فى الأفراد العاديين لها نتائج وخيمة ، وليس هناك من سبب يجيز للمتزوجين الانقطاع عن العلاقات الزوجية بحجة توفير حيوية الجسم أو ما شابه ذلك من علل واهية .

ومن الصعب فى الأمور الجنسية وضع قواعد عامة ، فلكل حالة ظروفها الخاصة التى يجب أن تعالج فى ضوئها .

تحديد النسل والصحة :

لا يمكن القول إن تحديد النسل ضار أو مفيد بوجه عام ، فهو موضوع متشعب النواحى ، إذ أن له علاقة بالصحة والدين والاجتماع والاقتصاد ، ولكل من هذه النواحى مبررات فى صالح تحديد النسل وأخرى فى غير صالحه .

والواقع أن محاولة تجنب الحمل مع الحرص على التمتع بالعلاقات الجنسية ، أمر عرفه الإنسان منذ أقدم العصور ، ولم يخرج سببه إذ ذاك عن أمرين ، إما الخوف من افتضاح الأمر فى حالة العلاقات غير المشروعة ، وإما اتفاق الزوجين على عدم إنجاب الأبناء لسبب ما ، أما المسائل الاقتصادية والصحية فلم تكن لتخطر على بال أحد ، إذ لم يكن

الفكر الإنسانى قد بلغ هذه الدرجة من التقدم .

وأول إشارة إلى تجنب الحمل وتحديد النسل جاءت فى التوراة . وفى عهد الإغريق القدماء ، لم يشر أرسطو فى كتاباته إلى موضوع منع الحمل أدنى إشارة ، بل أوضح انتشار ممارسة الإجهاض ، وقتل الأطفال ، وهذه الملاحظة لها أهميتها إذا علمنا أن أرسطو وأبقراط قدتوسعا فى الكتابة عن الأمور الجنسية .

وحتى عندما دب الفساد فى الإمبراطورية الرومانية ، وانحلت الأخلاق ، لا نجد إشارة إلى طرق منع الحمل إلا ما يدل على انتشار الطرق البدائية مثل الإمناء فى الخارج وبعض الإشارات العابرة والمعلومات السطحية عن فترة الأمن عند النساء .

وظلت هذه الطرق وحدها تستعمل لمنع الحمل حتى بعد اكتشاف الكينا والمطاط فى القرن السابع عشر ، إذ لم تعرف خواص الكينا فى قتل الحيوانات المنوية ، ولم تصنع أكياس المطاط الواقية من الحمل إلا منذ عهد قريب جداً ، ونعلم ذلك من الرجوع إلى قاموس الدكتور جيمس الذى ظهر عام ١٧٤٣ وهو أكبر القواميس الطبية ، إذ لا نجد فيه شيئاً عن منع الحمل ، مع أنه توسع فى شرح الأمور الجنسية الأخرى ، وأخذ خلاصة المراجع السابقة ، حتى إنه نقل نصوصا مما كتبته الدكتورة أسباسيا أول طبيبة بين النساء فى التاريخ . وقد ظلت الحال على هذا المنوال حتى أواخر القرن التاسع عشر عندما إسترعى موضوع تحديد النسل أنظار المفكرين من الرجال والنساء .

والواقع أن مالثوس يعتبر أول من إهتم بهذا الأمر من ناحيتيه الاقتصادية والاجتماعيـــة ، ويمكننا أن ندرك السر فى تجاهل هذا الموضوع طيلة هذه الفترة إذا علمنا أن سلطة بابوات روما التى بدأت فى التزايد منـــذ القرن السادس عشر كانت قد بلغت ذروتها وأن كل كتابة تمس موضوع تحـــديد النسل من قريب أو بعيد كانت تعرض كاتبها لحكم الإعدام ، وقد نفذ حكم الإعدام شنقا فى آنى بسبات ووادلو عام ١٨٧٧ لبيعهما منشورا عن تحديد النسل !

وعقب هذا الحادث مباشرة عدل مالثوس القانون وأباح مناقشة تحديد النسل .

ومنذ ذلك الحين ، نظر الناس إلى تحديد النسل كأحد مستلزمات المدنية الحديثة التى يستشيرون فيها الطبيب بغير حرج .

ونعتقد أنه بجانب الاعتبارات الاقتصادية توجد دواع طبية تحتم تحديد النسل هى :

١ – تنظيم فترة راحة بين كل حمل وآخر ، لا تقل بأية حال عن سنتين ، فإن ذلك يسمح بعودة الأم إلى حالتها الطبيعية ، ويحول دون إصابتها بأمراض نقص الكالسيوم والضعف العام .

٢ – تحسين صحة النسل ، فإن كثرة الحمل تسبب فى النهاية إنجاب أطفال ضعاف البنية .

٣ – مرض أحد الوالدين يستلزم تحديد النسل حفظاً للمستوى الصحى للجيل المقبل .

٤ ـ في حالة إصابة أحد الوالدين بأمراض مزمنة في الكلى أو الرئة أو القلب أو الأعصاب .

٥ ـ عقب إجراء جراحة للأم في الحوض أو البطن ، لإعطاء فرصة كافية لا لتئام الأنسجة .

وخير وسائل تحديد النسل هي كيس المطاط للرجل والعجلة المطاطة التي توضع على عنق الرحم . أما إستعمال الكينا فهو وسيلة غير مأمونة ولا مضمونة ، وكذلك يجب ألا نعتمد على فترة الأمن عند النساء، أي الفترة التي لا يحدث فيها نظرياً إخصاب ، وهي عشرة أيام عقب انتهاء الحيض إذ لا تكون البويضة قد نضجت .

ومن حسن الطالع ، اكتشاف أقراص منع الحمل، وهي تمنع نمو ونضج البويضة ولابد لنجاح هذه الأقراص من تعاطيها بانتظام من اليوم الخامس لبداية الطمث حتى اليوم الخامس والعشرين . . . وهي لا تسبب عقما حتى ولو إستعملت لفترة طويلة ، ولكنها قد تطيل دورة الطمث وهي تسبب زيادة في الوزن .

الإجهاض :

الإجهاض هو إنهاء الحمل بطرق متعمدة قبل أن تكتمل حيوية الجنين ، أى قبل الأسبوع الثامن والعشرين من الحمل ، وهو جريمة يعاقب عليها القانون .

وفي العصور القديمة كانت الطرق المتبعة للتخلص من الجنين هي

قتله بعـــد الولادة مباشرة . ويفضل أرسطو الإجهاض على قتل الطفل الحديث الولادة .

أما أبقراط فلا يوصى بالإجهاض فقط أو يكتفى بذكر شيوعه بين الإغريق ، بل يقرر أنه أجهض حاملا قبل نهاية الشهر الأول للحمل مما يدل على أن الإجهاض لم يكن أمر مشيناً للطبيب أو مخالفا للقانون، وقد كتب عن هذه الحالة بطريقة تدل على أنه كان مغتبطاً أشد الاغتباط بالبويضة التى حصل عليها أكثر من سروره بنجاح دوائه ، فقد وصف هذه البويضة بالتفصيل ، والواقع أن هذه هى أول بويضة بشرية وصفت فى التاريخ بالعين المجردة :

وفى كتاب « اسباسيا » أول سيدة طبيبة ، نجد وصفات نسائية متنوعة تشمل وصفات للإجهاض وأخرى لمنع الحمل نهائياً ، وهى تبرر استعمال هذه الطرق المخالفة للقانون فى حالة الحوامل اللواتى يعرض الحمل حياتهن لخطر واضح أكيد .

أما « سورانس » فى القرن الثانى للميلاد ، فيشير بالاجهاض عندما يكون الحوض صغيراً جداً .

« واتياس » هو أول من وصف طرقا ميكانيكية لإحداث الاجهاض، فذكر الإسفنج المجفف وأعواد النباتات لتوسيع عنق الرحم ، والطريف فى الأمر أن هذه الطرق التى وصفها القدماء تمت بصلة إلى ما يستعمله الطب الحديث .

والطبيب لا يقوم بعملية الإجهاض إلا فى الأحوال التى يكون فيها

استمرار الحمل خطراً محققاً على حياة الأم ، ويلزم الحصول على رأى اثنين على الأقل من الأخصائيين فى الأمراض الباطنية للتحقق من وجود هذا الخطر .

التعقيم والعقم :

يشمل التعقيم أى إجراء يقصد به حرمان الرجل أو المرأة من القدرة على إنجاب الأبناء .

وعملية إزالة الخصيتين أو المبيضين معروفة منذ استخدمها الإنسان فى الحيوانات ، ووجد أن هذه العملية تسبب زيادة وزن الطيور التى يأكلها والخيول التى يستخدمها . ويروى « لاندمان » أن هذه العمليات كانت تجرى على الإنسان كنوع من العقوبة الصارمة .

وفى عهد الرقيق ، كانت تجرى هذه العملية على العبيد ليصبحوا أقدر على الخدمة ولم يكن فى إمكان الأتراك أن يسمحوا للعبيد بالخدمة فى الحريم قبل إجراء هذه العملية .

وقد أجريت هذه العملية على الأطفال الصغار قبل سن البلوغ فى العصور الوسطى ليحتفظوا بأصواتهم الرقيقة لإنشاد الترانيم الكنسية ، وقد ظلت هذه العادة حتى حرمها البابا ليو الثامن .

وتحدثنا كتب التاريخ أن قدماء المصريين والأشوريين والرومان والفرس والإغريق كانت لديهم عادة خصى الأسرى والمجرمين للتنكيل بهم .

أما فى جاوة والملايو والفليبين فتجرى هذه العملية لأغراض دينية، على

أن التعقيم فى حالة المرض إجراء حديث جداً . ويختار الطبيب الطريق الجراحي أو تعريض الأعضاء التناسلية للأشعة مدة معينة مع أخذ إقرار كتابى من الزوجين بموافقتهما على إجراء العملية .

وهناك تشريعات فى بعض الدول تحتم التعقيم فى بعض الأمراض ، مثل حالة المرض العقلى لصالح المجموع ، حتى لا يثمر هذا الزواج أبناء يصبحون عالة على المجتمع .

العقم :

توجد حالات يزول العقم فيها بمعرفة حقيقة علمية واحدة هى أنه توجد فترة شهرية فى حياة الأنثى تكون فيها درجة الإخصاب فى أوجها ، وتقع هذه الفترة فى منتصف دورة الطمث ، وهى بالتحديد العشرة الأيام التى تكون فى وسط المدة التى بين دورتين متتاليتين . (أى العشرة أيام الثانية بعد انتهاء الطمث) والتى قد تهمل فيها العلاقات بسبب جهل أهميتها فينشأ العقم .

فى هذه الفترة تكون البويضة قد نضجت وأصبحت مهيأة للتلقيح . ولهذا السبب يشير البعض إلى العشرة الأيام التى تلى الطمث مباشرة باعتبارها فترة أمن أى لا يحدث فيها حمل مطلقا .

ولكننا لسنا من أهل هذا الرأى . صحيح أن فرص الحمل ضعيفة فى هذه الفترة ، ولكن لا يصح الاعتماد عليها كوسيلة محققة لتحديد النسل .

وفى جميع الأحوال يجب على الزوجين ألا يخامرهما أدنى شك فى

الإصابة بالعقم إلا بعد مرور عامين من الزواج .

وعلى نقيض ما يعتقد الكثيرون ، ثبت أن مسئولية الزوج عن العقم تكاد تتساوى مع مسئولية الزوجة .

فيجب التحقق من حالة الزوج الصحية بفحص السائل المنوى . والسائل المنوى العادى حجمه فى المرة الواحدة نحو ٤ سنتيمترات مكعبة ويحتوى على حيوانات متحركة بنسبة ٨٥ — ٨٠٪ ، وأكثر من أربعة أخماسها طبيعى الشكل والنمو ، ويحتوى كل سنتيمتر مكعب واحد على ٨٠,٠٠٠,٠٠٠ حيوان منوى ، وتظل هذه الحيوانات على كثرتها حية متحركة خارج الجسم لمدة ١٨ ساعة فى درجة حرارة الجسم أو فى الثلاجة .

وقد يلجأ الطبيب لأخذ عينة من السائل المنوى من الحويصلة المنوية نفسها وهو إجراء عادى وخال من الألم .

وعلاوة على ذلك يجب التحقق من خلو الزوجين من الأمراض التناسلية ، وبخاصة الزهرى والسيلان وتحليل الدم والبول ، والتحقق من سلامة الغدد والكشف بالاشعة .

أما فحص الزوجة فيشمل انتظام الطمث ، وحالة القنوات والرحم والمبيض والغدد الجنسية والغدة النخامية، والغدة الدرقية ونفخ الأنابيب للتحقق من عدم انسدادها ، وهو إجراء يسير لا يحتاج إلى بنج أو مسكن .

وفى أكثر من ثلث الحالات التى يداوم فيها الزوجان على العلاج بصبر

وأناة ينجح علاج العقم ، وينجب الزوجان أطفالا هم ، زينة الحياة الدنيا .

ثمار الخطيئة :

الأمراض التناسلية لا تنتج إلا من العلاقات الجنسية غير المشروعة وأسوأ هذه الأمراض جميعا مرض الزهرى .

ولا يعلم أحد متى وأين بدأ هذا المرض؟. فقد ظهر من فحص العظام والجماجم أن المرض كان منتشراً عند قدماء المصريين والنوبيين والصينيين واليابانيين والفرنسيين منذ آلاف السنين .

وما كتبه القدماء عن الزهرى قليل مبعثر ، ولكنه واضح تماماً ، فى سجلات المكتبة الملكية بسردينيا مخطوط مدون عام ٧٠٠ ق.م، يذكر أن إستار إلهة الحب الأثيم قد صبت لعنة على ايبانى وازدوبار ، ولا يشك أحد عند اطلاعه على أوصاف هذه اللعنة بأنها عبارة عن مرض الزهرى .

وكتب هيرودوت عام ٤٥٠ ق . م ، أن الغزاة هاجموا المعبد المقدس فى العسقلون بسورية فأصابتهم الآلهة بمرض خبيث ويعدد مرة أخرى صفات مرض الزهرى .

وفى الأقصر ، توجد دلائل لا تخطئ تثبت أن الزهرى كان منتشراً إبان حكم سيزوستريس فرعون مصر منذ نحو ٣٠٠٠ عام .

على أن الجيوش الغازية هي السبب الأول فى إنتشار هذا المرض :

وأول وباء مريع لفت الانظار بشكل واضح إلى هذا الداء كان فى خريف عام ١٤٩٤ عندما غزا شارل الثامن ملك فرنسا ، ايطاليا بجيوش متحالفة من دول أوربا الغربية ، واحتل نابولى وأقام بها عدة شهور استباح فيها جنده الأموال والأعراض ، وسرعان ما حصد الكثيرون نتيجة هذا الإثم والطغيان ، إذ إنتشر فى الجيش وباء خبيث قضى على الروح المعنوية فيه ، وأصبح بادى الضعف والهوان ، فانتفض شعب نابولى إنتفاضة قوية وطرد الغزاة المعتدين .

وبرجوع الجيش المدحور وتفرقه فى أنحاء أوربا انتشر الزهرى فيها انتشاراً مريعاً ، وسرى بها كما تسرى النار فى الهشيم ، فانتشر الوباء فى فرنسا وألمانيا وسويسرا عام ١٤٩٥ وفى هولندا واليونان عام ١٤٩٦ وفى إنجلترا واسكتلندا عام ١٤٩٧ وفى المجر وروسيا عام ١٤٩٩ .

وهكذا اشتهر شارل الثامن ملك فرنسا فى تاريخ الطب ، واقترن اسمه بمرض الزهرى وارتبط ذكره بأبشع مرض تناسلى عرفته الإنسانية .

ولعل من الطريف أن نذكر أن كل دولة أطلقت عليه اسم الدولة المعادية وألصقته بها .

فهو فى إيطاليا « المرض الفرنسى » وفى فرنسا « المرض الإيطالى » وفى إنجلترا « المرض الإسبانى » وفى روسيا « المرض البولندى » وفى وفى تركيا « المرض الفرنسى » وفى الهند واليابان « المرض البرتغالى »

وهكذا حاولت كل دولة أن تتبرأ منه وتلقى تبعته على الأخرى ، مع أن الجميع كانوا به مصابين .

* * *

وقد اتخذت الدول قرارات حاسمة للحد من إنتشار هذا الوباء ، فقرر برلمان باريس عام ١٤٩٦ طرد جمع المصابين بهذا الداء من البلدة خلال ٢٤ ساعة واتخذ قرار مماثل فى نورمبرج .

أما فى اسكتلندا فصدر قرار فى ٢١ ابريل عام ١٤٩٧ يقضى بدمغ وجوه النسوة المريضات بسيخ محمى ونفيهن من أدنبره .

ومن سوء الحظ أن عاصر إنتشار الزهرى فى أوربا فترة رحلات الاستكشاف . وهكذا نقل البرتغاليون المرض إلى أفريقيا وبلاد الشرق ، ونقله فاسكودى جاما إلى الهند فى عام ١٤٩٧ ، وظهر المرض فى كانتون والصين عام ١٥٠٥ عقب زيارة الأوربيين لهما ، ونقله الملاحون الصينيون والبرتغاليون إلى نجازاكى باليابان .

ولقد وصف شكسبير فى أشعاره أعراض الزهرى ، وعرف قابليته للعدوى بطريقة تكاد تطابق ما عرفه أطباء عصره . ويكفى للدلالة على ذلك قراءة إحدى روائعه « حلم منتصف ليلة صيف » .

* * *

وبمرور الزمن عرف الإنسان أن الزهرى له أربع مراحل ، فالمرحلة الأولى . . قرحة موضعية على الأعضاء التناسلية عادة ، وقد توجد فى أماكن أخرى تبعا لظروف خاصة . والمرحلة الثانية طفح أحمر على

الجسم ، وتورم الغدد اللمفاوية ، وسقوط الشعر إلخ . أما المرحلة الثالثة ، فأورام صمغية يتعرض لها أى عضو من أعضاء الجسم الداخلية ، ولا يسلم منها الجلد أيضاً . وفى المرحلة الرابعة يصيب الزهرى الجهاز العصبى حيث يسبب المرضين المعروفين « ضنى الظهر » و« جنون العظمة » .

وهناك أيضاً الزهرى الوراثى الذى يصيب الجنين ، فيسبب الإجهاض فى الشهور الأولى ثم فى الشهور الأخيرة من الحمل . وبعد ذلك يولد الطفل ميتاً وفى الحمل التالى يولد الطفل مشوها .

ولقد بدأ العلم بالكشف عن حقيقة المرض فى عام ١٩٠٣ عندما إستطاع ميشنكوف أن يصيب القردة فى المعمل بمرض الزهرى .

وفى عام ١٩٠٥ تم الكشف عن ميكروب الزهرى اللولبى الشكل ، وفى عام ١٩٠٦ إكتشف « وزرمان » طريقته المعروفة باسمه لتشخيص الزهرى عن طريق فحص الدم أو النخاع . وتمكن نجوشى عام ١٩١١ من زرع ميكروب الزهرى .

على أن محاولات علاج الزهرى بدأت منذ أقدم العصور ، ففى عام ٢٦٣٧ ق . م . أوصى الإمبراطور الصينى هوانج تى باستعمال الزئبق ، وفى عام ١٧٠٠ أدخل إستعمال البزموت لعلاج الزهرى . أما استعمال محلول الزرنيخ عن طريق الفم ، فأدخله شارل لويس كاديه طبيب نابليون ولم يكن له أثر يذكر على سير المرض .

وفى عام ١٩٠٧ بدأ بول أرلخ سلسلة تجاربه على مركبات الزرنيخ ،

فكان يحقن الحيوانات بميكروب الزهرى ثم يحقنه بالمركب الزرنيخى، فكانت النتيجة موت ميكروب الزهرى وحيوان التجربة معاً . ولكنه لم ييأس واستمر فى محاولاته ، فقد كان قوى الإيمان بنظريته فى إمكان الحصول على مركب يقضى على الميكروب ولا يضر بالحيوان تمهيداً لاستعماله فى علاج الإنسان .

وقد نجحت التجربة رقم ٦٠٦ ، وبذلك سجل المركب الزرنيخى رقم ٦٠٦ أول إنتصار فى عالم العلاج الكيميائى للأمراض . وقد حصل بول أرلخ على جائزة نوبل للطب عام ١٩١٠ اعترافا بما أداه للإنسانية من خدمة جليلة ، غير أن أصواتاً كثيرة قابلت هذا الكشف بعداء مرير وهجوم عنيف ووصفته بأنه يهدم الأسر ويشجع على الدعارة، إذ يعالج اللعنة التى تحيق بالمستهترين ، وظهرت فى الصحف الروسية المحافظة مقالات كثيرة بعناوين مثيرة مثل « لا خطر بعد الآن . . . » « ليسقط الزواج! » ، « تحيا الدعارة . . . ! »

والآن بعد كشف البنسلين ومبيدات الميكروب الحديثة أصبح علاج الزهرى أمراً ميسوراً ، غير أنه يجب ألا يغرب عن البال أن المرض لا يزال موجوداً ولاتزال مضاعفاته منتشرة ، إذ لايمكن للعلاج إصلاح ما يسببه الزهرى للجسم من أضرار ، وما يورثه للأبناء والأحفاد من أذى . فالمشكلة ليست فى علاج الزهرى ولكن فى توقيه ، ولا يمكن توقى هذا المرض البشع إلا بالحياة الطاهرة النظيفة .

جناية الآباء على الأبناء :

وصف قدماء المصريين منذ ٢٠٠٠ عام ق.م إفراز سائل صديدياً بعد البول عند الرجال والنساء . ودونوا معلومات كثيرة عن هذا المرض فى أوراق البردى ، كما جاء ذكره فى التوراة ، وكذلك إهتم به أبقراط .

وفى العصور الوسطى تقدم تشخيص المرض ، وعرف أنه مرض معد وأن طريقة العدوى هى العلاقات الجنسية غير المشروعة .

واكتشف نايسر ميكروب السيلان عام ١٨٧٩ وهو ميكروب مكور ثنائى دقيق ، لا يمكنه أن يعيش خارج جسم الإنسان . ولذلك لا يقضى على الحياة مطلقاً . ولعل من الطريف أن نذكر أن الميكروبات التى تعتمد فى حياتها على التطفل على جسم الإنسان لا تقتله ، ولكنها تقتصر فقط على الإضرار بصحته . أما الميكروبات التى يمكنها أن تعيش خارج الجسم ، كميكروب الكوليرا والتيفود والتى يمكنها أن تعيش فى المياه فلا تعنيها حياة الإنسان، وقدتفتك به وتقضى على حياته سريعاً .

وتظهر أعراض السيلان بعد العدوى بفترة وجيزة تتراوح بين ٣ إلى ٥ أيام ، والأعراض هى الإحساس بألم فى مجرى البول الأمامى ، وتتورم الفتحة الخارجية . وبعد يوم أو اثنين « يسيل » الإفراز الصديدى الذى أعطى المرض اسم « السيلان » وعندما تزمن الحالة يصعد الميكروب

إلى الجزء الخلفى من مجرى البول ويصل عن طريق الأوعية اللمفاوية إلى البروستاتا .

وفى النساء لا يقتصر ميكروب السيلان على المريضة وحدها ، ولكنه يسبب فقدان بصر أطفالها ساعة الولادة . وحتى عام ١٨٨٠ ثبت أن ٣٠٪ من العميان فقدوا أبصارهم بعد الولادة مباشرة .

ويرجع الفضل فى انخفاض عدد المصابين بفقدان البصر من ضحايا السيلان إلى « كريدى » الذى إبتكر عام ١٨٨٠ طريقة لوقاية الأطفال من هذا الخطر . ولقد ظلت إلى عهد قريب تستعمل « كروتين وقائى » ، وهى تتلخص فى وضع محلول مركز من نترات الفضة بنسبة ١ : ٨٠ فى عينى الوليد الصغير يعقبه مباشرة محلول ملح الطعام .

وقد كان علاج السيلان إلى عهد غير بعيد أمرا مزعجا للطبيب والمريض ، إذ يقتضى ادخال قسطرة رفيعه فى مجر البول والغسيل بالبرمنجنات والمطهرات ثم استعمال آلات لتوسيع مجرى البول .

أما الآن بعد إكتشاف السلفا والبنسلين ومبيدات الميكروب الحديثة فقد أصبح العلاج أمراً هيناً ميسوراً .

ولكننا نعود فنؤكد ضرورة توقى هذه الأمراض التناسلية بالحياة الطاهرة النظيفة .

٧ نصائح للحامل :

١ — ينبغي الاهتمام بالغذاء منذ أول يوم من أيام الحمل مع الحرص على شرب كوب أو كوبين من اللبن والإكثار من تناول الخضراوات الطازجة والفاكهة .

٢ — يلزم تفادى الإجهاد البدنى والذهنى والانفعالات النفسية الضارة، فذلك ينعكس أثره عليك، وعلى الجنين أيضاً

٣ — ضرورة المبادرة بعلاج أى بؤرة تقيح فى الجسم ، كما هو الحال فى بعض أمراض اللثة والأسنان .

٤ — التردد على الطبيب بصفة منتظمة للاطمئنان على سير الحمل .

٥ — تتبع ضغط الدم والتأكد من عدم وجود الزلال فى البول ، والسيطرة على مرض السكر إن كان موجوداً.

٦ — الامتناع عن تعاطى العقاقير المهدئة والمنومـــة والمسكنة ، وعدم استعمال مضادات الحيوية دون إستشارة الطبيب . .

٧ — الإكثار من شرب السوائل والإقلال من الملح فى الطعام خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة .

متى يحين موعد الولادة ؟

تقلق كثيرات فى الأيام الأخيرة من الحمل بسبب جهلهن بالمواعيد المحتملة للولادة.

والجدول التالى يحدد التواريخ المتوقعة :

الفصل السادس

استمتع بالحياة رغم الشيخوخة



قصدت الطبيعة أن يكون متوسط عمر الإنسان مائة وعشرين عاماً، قياسا على ما يشاهد من أن متوسط أعمار الطيور والحيوانات يعادل فى الغالب تسعة أمثال السن التى تصل فيها إلى مرحلة البلوغ . فإذا كان هذا هو ما قصدته الطبيعة من حيث العمر ، فقد قصدت أيضا أن يظل « الخط البيانى » للصحة والقوة فى تقدم وارتفاع حتى الستين أو السبعين على الأقل ، ثم يأخذ فى الهبوط تدريجيا حين تبدأ عوامل الانحلال تدب فى خلايا الجسم ، فتضعف مقاومته ، وتظهر أعراض الأمراض ، التى تعرف فى الطب باسم « الأمراض الانحلالية » أو « أمراض الشيخوخة » ، وهى أمراض يستطيع « الشيخ » أن يحيا — على الرغم منها — هانئا سعيدا مستمتعا ببهجة الحياة ، إذا عرف منشأها وحرص على إتباع نظام خاص فى غذائه ونظام حياته يتلاءم معها .

فحديثى فى هذا الفصل موجه إلى الشيوخ الذين تجاوزوا سن الستين ، وقد يستفيد منه الذين أساءوا إلى أنفسهم ، فسمحوا لعوامل الانحلال أن تدب فى خلايا أجسامهم وللشيخوخة أن تهاجمهم قبل الآوان

إنحلال الخلايا :

بتقدم العمر ، تبدأ خلايا الجسم فى الانحلال ، ولا يمكنها الاستجابة الطبيعية ، لأوجه النشاط اليومية ، ولذا تتسم تصرفات

الشيوخ بالبطء فى كل شيء : فى السير ، وفى الكلام ، وفى الحركة ، وفى النشاط ، ولكنهم يخلعون على هذا البطء لقب « الوقار » ، وهو فى الحقيقة « عجز » عن الحيوية والنشاط !

وقد يخفى « الوقار » إضطراباً فى وظائف الجسم ، فمن المهم أن نكتشف سبب أقل إنحراف فى هذه الوظائف لإصلاحه فى الوقت المناسب ، أو لوقف إستفحاله على الأقل .

وخير سبيل للوصول إلى هذا الهدف هو أن يتعود المرء على فحص حالته فحصا طبيا شاملا كل عام ، والمدهش أنه بالرغم من الأهمية الكبرى لهذا الفحص ، فإنه قل من يعنى به ، وقليل من الأطباء من يعلق على هذا الفحص أهمية خاصة ، فعندما يذهب مثل هذا الشخص لطبيبه — وهو لا يشكو شيئاً — ليطلب فحص حالته فقط ، فالغالب أن يجتهد الطبيب فى التخلص من الشيخ السليم المتمارض . وقد يمازحه قائلا : « وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟ » .

والواقع أن الفحص السنوى للصحة العامة يجب أن يبدأ بالاستفسار الكامل عن حالة الشخص الاجتماعية ، وعاداته فى العمل ، والأكل ، والنوم ، ثم بعد ذلك تبدأ المناقشة فى الأعراض التى تشير إلى اضطراب أعضاء خاصة ، مثل النظر ، والسمع ، أو صعوبة التبول أو التبرز ، أو ضيق التنفس والخفقان

وبعد ذلك يبدأ الفحص ، الذى يجب أن يكون شاملا ، فيسجل وزن الجسم ، ولون الجلد ، ونتيجة التحليل الكامل للبول ، ويفيد

عمل إختبار ترسيب الدم ، الذى رغماً عن أنه لا يختص بمرض معين ، فإنه يثبت الخلو من عدة أمراض خطرة عندما تكون نتيجته عادية ، فإذا كانت النتيجة إيجابية مرتفعة ، فإن ذلك يحفز الطبيب على البحث عن السبب ولا بد من فحص قاع العين واختبار السمع أيضاً .

وعندما يشكو متقدمو السن من اضطرابات الهضم ، أو من آلام أو فقدان للشهية أو إمساك مفاجئ ، أو إسهال مفاجئ أو تبادل الإسهال والإمساك المفاجئين ، فلابد من عمل صورة بالأشعة للمعدة والأمعاء .

وهناك إختبارات أخرى عديدة ، وفحوص معملية كثيرة ، تجرى فى حالات خاصة ، تترك لتقدير الطبيب المعالج . ولكننا نحب أن نؤكد ضرورة عناية كل من المريض والطبيب بالفحص الشامل السنوى كل العناية .

وعلى الطبيب أن يقرب إلى ذهن مريضه ، مغزى بعض الأعراض الهامة التى تصادف متقدمى السن ، ليسرع فى الاستشارة ، كلما أحس بشىء منها .

فنقص الوزن ، وفقدان الشهية ، والضعف العام ، كل هذا قد يتأتى من نقص التغذية ، أو زيادة إفراز الغدة الدرقية .

وجفاف الجلد ، والحكة ، قد لا تعنى سوى الشيخوخة ، ويمكن إصلاح الحالة بالهورمونات ، كما قد تنشأ بسبب كثرة الاستحمام ، والإسراف فى إستعمال الصابون ، مما يزيل المادة الدهنية التى تشحم الجلد ، دون أن يعوض ذلك باستعمال «الكريم» خاصة وأن المادة

الدهنية التى توجد تحت الجلد تقل عنـــد متقدمى السن وقد تنشأ الحكة بسبب مرض عام فى الجسم . وكثرة ظهور البقع الزرقاء على الجلد دليل نقص فيتامين « ج » أو ضعف الشعيرات الدموية .

وإذا حدث نزيف من الشرج ، فيجب ألا يمر ذلك ببساطة ، وألا يعزى إلى وجود البواسير ، حتى ولو كانت هذه البواسير موجودة فعلا ، ففى السن المتقدمة كثيراً ما يأتى هذا النزيف من مناطق الأمعاء العليا ، حيث قد يكتشف ورم أو قرحة . والنزيف المهبلى يستلزم هو الآخر فحصاً دقيقا للتحقق من السبب .

وصعوبة التبول لدى الشيوخ تنتج من تضخم البروستاتا ، وهذا المرض يأتى ببطء زائد ، لدرجة أن المريض لا يحس بتقدم الحالة إلا مؤخراً ، فمن الحكمة أن تستشير الطبيب مبكراً . أما فى النساء فتكون صعوبة ضبط البول بسبب ضعف عضلات الحوض من جراء التمزقات التى تحدث أثناء الولادة ، وتقدم العمر .

وكثير من متقدمى العمر يشكون من آلام روماتزمية قد تكون فى العضلات ، أو المفاصل ، أو العمود الفقرى ، وينشأ هذا الألم من انحناء الظهر ، أو من تآكل العظام ، أو من إضمحلال غضاريف المفاصل ، أو من الإصابة بميكروب ، وكل هذه الحالات تستلزم الفحص الدقيق والعلاج المناسب .

يجب ألا تهمل الأورام فى أى مكان ، بل يجب أن تكون سببا هاماً للإسراع فى إستشارة الطبيب .

ويتضح مما تقدم أنه من الخطأ أن تعزى الأعراض التى يشكو منها متقدمو السن إلى الشيخوخة وحدها، فهى قد تنبىء عن علل يمكن علاجها ، أو على الأقل وقف استفحالها .

غذاؤك بعد الستين :

الغذاء وقود الجسم ، يمده بالطاقة اللازمة للنشاط ، ولتعويض ما يتلف من الخلايا ، وهذا الوقود يجب أن يتناسب مع ما يقوم به الشخص من أعمال .

وبتقدم العمر ، يقل النشاط الحيوى للجسم ، ويقل تبعا لذلك ما ينفقه من طاقة ، فإذا زاد « الوقود » عن الحاجة ، تكدس الزائد شحماً يضاف إلى وزن الجسم ، وإن قل ينقص الوزن وينحف الشخص .

ولا يمكن الاعتماد على الشهية للطعام ، إذا أن الإسراف فى الأكل قد يصنبح عادة تلازم الشيخ ، فيتناول نفس الكميات التى كان يتناولها إبان عنفوانه، ومن ذلك تحدث البدانة .

ويلعب سوء التغذية دورا هاماً فى شيخوخة الخلايا ، وليس المقصود بسوء التغذية قلة الغذاء فقط ، ولكنه يشمل أيضا عدم توازنه ، وسوء اختياره ، أو كثرته بالنسبة لاحتياجات الجسم الفعلية .

وما يحتاج إليه متقدمو السن هو الإكثار من البروتين اللازم لحيوية الأنسجة ، إذ أن الجسم لا يختزنه ، ومن هنا يجب أن نمده به يومياً . وأغنى مصادر البروتين هى اللحوم ، والجبنة ، والسمك ، والبيض ، واللبن ، والجوز ، واللوز ، والبندق .

كما أنه يجب الحرص على مد الجسم بكميات كافية من الكلسيوم للمحافظة على صلابة العظام ، ويتوافر الكلسيوم فى اللبن ، والجبنة ، والكرنب ، والفول الأخضر ، والجزر .

ويجب الحرص على مد الجسم بكميات كافية من الحديد اللازم لبناء كريات الدم الحمراء ، التى تحمل الأكسجين إلى مختلف الأنسجة ، كى يتم إحتراق الأغذية الوقودية . والحديد كذلك عنصر ضرورى لحيوية كل خلية ، ومصادر الحديد الغنية هى صفار البيض ، والكبد ، والخضروات ، والسبانخ ، والخبز والحبوب ، واللحوم ، والقراصيا ، والزبيب والبلح .

ويجب الإكثار من الفيتامينات فى هـذه السن ، ويحسن عدم الاكتفاء بمصادرها الغذائية وحدها ، بل تدعيمها بتناول حبة أو اثنتين من المستحضرات الطبية التى تحتوى على مجموعة كاملة من الفيتامينات المركزة .

وننصح بالإقلال من ملح الطعام بقدر المستطاع ، إذ أن المزيد من الملح ، يحتفظ بسوائل زائدة فى الأنسجة ، بطريق الضغط الأسموزى ، مما يلقى المزيد من الأعباء الثقيلة على القلب « العجوز » .

ويجب الإقلال من تناول المشويات ، مع العناية بزيادة نضج الأطعمة عن المعتاد ، أما الخضروات فتغلى فى كمية قليلة من الشوربة .

وننصح ألا يملأ الشيخ معدته بالطعام ، مع توزيع الكمية اليومية على وجبات صغيرة متعددة .

الجلد :

بتقدم العمر ، يصبح الجلد رقيقاً ، ويفقد مرونته ، وتختفى الطبقة الدهنية من تحته ، فيفقد تماسكه ، ويتجعد ، ويلمع ، ويتساقط منه الشعر لاضمحلال جذوره ، وتقل الغدد التى تفرز العرق والدهن الذى يشحمه ، ولذلك يجف الجلد وتسمك الأظافر ، وخصوصاً ظفر إبهام القدم ، وكل هذا يجب ألا يقلق البال .

وقد تحدث مضايقات ناشئة عن جفاف الجلد ، إذ يصبح أكثر تعرضاً للإصابات . ويزيد فى جفاف الجلد ، كثرة استعمال الماء والصابون ، وعليه ننصح بالمداومة على إستعمال « الكريم » « واللانولين » لترطيب الجلد .

والحكة العامة « الهرش » أمر شائع فى متقدمى السن ، وهى عادة تصاحب الشيخوخة ، ولكن يجب أن نتحقق من عدم الإصابة بالسكر ، أو مرض « هودجيكين » Hodge kin's disease وهو مرض يتضخم فيه الطحال وغدد الرقبة .

ويجب فحص الدم للتحقق من عدم الإصابة بأحد هذه الأمراض النادرة ، وعندما يثبت أن السبب الوحيد هو الشيخوخة — وهذا هو الغالب — فإن استعمال « الكريمات » الموضعية ، وحقن خلاصة الخصية للرجال ، وخلاصة المبيض للنساء تشفى تماما هذه الحكة .

وتظهر أحياناً أورام جلدية بارزة فى المواضع المعرضة للشمس ،

وهذه يحسن استئصالها ، إذ قد تتحول إلى أورام خبيثة، ومن الملاحظ أن سرطان الجلد ينشأ بكثرة فى الفلاحين ، والملاحين ، وغيرهم من ذوى المهن التى يتعرض الإنسان فيها كثيراً للشمس ، والمشاهد أن الشمس – مثل أشعة إكس – قد تحدث تغيرات سرطانية فى الجلد . وقد حدث ذلك لكثير من الأطباء عند بدء إستعمال الأشعة ، ولكن هذا ليس معناه ألا نتعرض للشمس وألا نفحص بالأشعة ، ففى الإسراف فى التعرض لكل منهما كل الضرر ، أما الاعتدال فهو طريق الأمن والسلام .

والجلد الحساس « العجوز » لا يتحمل الاحتكاك ، ويتعرض كثيراً للالتهابات . ونجد ذلك فى مواضع الاحتكاك المتواصل فى الجسم ، بين الفخذين ، وتحت الإبطين ، وخلف النهدين فى النساء ، إذ يتجمع العرق ، وينقع الجلد ، وتتكاثر الميكروبات فيحدث الالتهاب ، وأهم نواحى العلاج هى تغطية هذه الأجزاء بالقطن أو الشاش بعد وضع مرهم ملطف كمرهم « البوريك » وقد يحتاج الأمر لاستعمال « السلفا » موضعياً ، أو البنسلين حقنا ، وعند الشفاء تستعمل بودرة « الطلق » Talc .

والشيب والصلع من مظاهر تقدم العمر ، والعوامل الوراثية هى التى تحدد بدء هذه العلامات ، فكثيراً ما يحدثان فى سن مبكرة ، بل وفى مطلع الشباب فى بعض العائلات . ولا يوجد فى الوقت الحاضر عقار أو علاج يحفظ للشعر نموه ولونه

الأمراض المعدية :

يلعب الميكروب اليوم دوراً صغيراً فى الأمراض ، ومنذ عهد قريب ، كان ميكروب الالتهاب الرئوى أهم أسباب الوفاة ، ولكن إكتشاف السلفا والبنسلين قد غير هذه الصورة القاتمة تماما .

ولا يهب تقدم العمر مناعة ضد نزلات البرد ، فمعظم الشيوخ يعانون منها ومن مضاعفاتها ، كالنزلة الشعبية . ولضعف حيوية الأنسجة لا يتخلص الشيخ بسهولة من نزلات البرد ، وليس هناك عقار يقضى على « فيروس » الزكام ، ولكن إستعمال الأسبيرين ومضادات « الهستامين » تهب راحة مؤقتة ، ولكنها لا تزيد من المقاومة ، ولا تمنع هجوم الميكروبات الثانوية ، التى تسبب التهاب الجيوب الأنفية ، والنزلات الشعبية والالتهاب الرئوى الشعبى ، ولذلك كان من الحكمة البدء باعطاء البنسلين أو غيره من مبيدات الميكروب لمنع هذه المضاعفات ، وأما عند حدوث الالتهاب الرئوى ، فيجب أن ننظر إلى الأمر بعين الحذر والاعتبار ، فإن كل إصابة بهذا المرض ، تزيد فى ضعف الرئة ، وتزيد فى فقدها للمرونة ، وتهيئ الطريق لاصابة جديدة . ويتعرض متقدمو السن دائما ، للالتهابات الرئوية ، وخاصة عند ملازمة الفراش فترة طويلة ، فهذا وحده عامل يساعد على حدوث المرض .

وفى هذه المرحلة من العمر ، تضعف الأغشية المخاطية الواقية فى الحنجرة ، ويسهل دخول الميكروبات من الأنف إلى الرئة ووجود صديد

فى اللثة أو الأسنان يمهد السبيل لإحداث خراج الرئة :

ويعتاد متقدمو السن تعاطى « البرافين » لمنع الإمساك ، وكثيراً ما يضل جزء منه طريقه إلى الحنجرة والرئة ، ويسبب نوعا من الالتهاب ، لذلك يجب الحذر عند تعاطى مثل هذا العقار .

وعندما ترتفع درجة الحرارة ، ولا تستجيب « للسلفا » أو « البنسلين » أو غيرهما من مبيدات الميكروب الحديثة : يغلب أن تكون الإصابة نتيجة « فيروس » ؛ فلا يزال معظم « الفيروسات » يقاوم أثر هذه العقاقير ؛ وفى جميع الأحوال ، تجب العناية بمتقدمى السن ، حيث إن المناعة الطبيعية لديهم ضعيفة ، والأنسجة منحلة ؛ مما يلزم الطبيب بفحص القلب ، والرئة ، والكلى ، والكبد ، والجهاز الهضمى ، بين الحين والآخر .

وقد كانت « الحمرة » Erysepalous العدو الأكبر الذى يتربص بالشيوخ ، فالجلد مضمحل ، وأقل عدد من الميكروبات « السبحية » يدخل من شقوقه قادر على إحداث الحمى والتسمم ، أما الآن فتكفى بضع أقراص من البنسلين للقضاء التام على الميكروبات « السبحية » ومرض « الحمرة الذى تسببه

أمراض الدم :

الأنيميا الشائعة ، المعروفة بالأنيميا الثانوية « فقر الدم » ، ليست مرضا فى الدم ، أو فى الأعضاء التى تصنع الدم ، ولكنها تنشأ بسبب نقص مادة الحديد فى غذاء الإنسان . وفى مصر عامل آخر

يزيد فى حدة فقر الدم ، وهو الإصابة بديدان الأنكلستوما ، وتعرف أنيميا الانكلستوما باسم « الرهقان » .

ويختزن الجسم الحديد لصنع كريات الدم الحمراء ، ولا يحتاج إلا قدراً ضئيلا من الحديد هو ١٥ ملليجراما يومياً . ولا يسبب نقص الحديد نقصا فى عدد كرات الدم الحمراء ، ولكنه يسبب نقص ما تحويه من مادة الهيموجلوبين الحمراء ، ولذلك يبدو لون الإنسان أصفر باهتاً . ونقص الحديد فى الغذاء يسبب بمرور الشهور والأعوام هذه الانيميا . وأهم الأغذية المحتوية على الحديد هى اللحوم والخضروات ، وقد تنشأ الأنيميا بسبب فقدان الأسنان ، أو الحساسية للغذاء أو عمل « رجيم » لعلاج قرحة المعدة ، وأى نزيف مزمن يسبب فقر الدم ، مثل وجود بواسير ، أو نزيف الأنف المتكرر ، الذى يحدث بسبب ارتفاع ضغط الدم . وقد يحدث نزيف شديد من قرحة المعدة ، أو الاثنى عشر ، ونزيف الأورام المبيضية فى السيدات المتقدمات فى السن ، ونزيف الحيض الشهرى قبل ذلك . وقد لا يبدو أى مصدر للنزيف ، ولكن فحص البراز يثبت وجود دم . وهذا ينشأ عن قرح وأورام القناة الهضمية . فعند وجود أنيميا ، يجب الفحص الكامل المدعم بالأشعة للجهاز الهضمى ، لمعرفة السبب ، وخاصة عند متقدمى السن ، ذوى النخاع العظمى الضعيف.

وفى الحالات المتوسطة من الأنيميا لا يشكو المريض إلا من ضعف عام ، ولكن عندما تشتد الحال ، وينزل معدل الهيموجلوبين لأقل من ٦٠٪ فإنه تظهر أعراض يشترك فيها القلب ، فوظيفة الهيموجلوبين هى نقل

الأكسجين اللازم للأنسجة ، فيجتهد القلب فى تعويض ذلك بزيادة سرعة دقاته، ولكن عضلة القلب هى الأخرى تعانى من نقص الأكسجين وعليه فقد يحدث هبوط القلب .

* * *

وأساس علاج الانيميا هو معرفة السبب ، فإذا كان غذائياً ، وجب وصف الغذاء المناسب ، وإذا كان بواسير وجب استئصالها ، كما توصف بعض العقاقير المحتوية على الحديد . ولا لزوم لحقن خلاصة الكبد ،أما فيتامين ب ١٢ فهو لازم لبناء الهيموجلوبين ويحسن إعطاؤه .

وعقاقير الحديد تسبب إمساكا ، يجب إصلاحه بالملينات .

أما الأنيميا الخبيثة ، فهى أكثر شيوعاً فى السن المتقدمة ، وسببها نقص إفراز خاص من الغشاء المخاطى المبطن للمعدة ، يتحد مع بعض أنواع الطعام ، مكوناً عنصراً يختزن فى الكبد ، ويلزم لتنبيه النخاع العظمى لصنع كريات الدم الحمراء .

ويشكو المريض من أعراض الأنيميا العادية المشار إليها سابقاً ، ويشعر بالإضافة إلى ذلك باضطرابات فى الإحساس وحركة الساقين . وتحليل الدم وعصارة المعدة يؤكد التشخيص . والعلاج بسيط ميسور بإعطاء حقن فيتامين ب١٢ ، وحامض الورقيك Folic Acid

ويجب أن يدرك المريض أن هذا العلاج يجب أن يستمر مدى الحياة والا ينقطع عنه بمجرد تحسن الأعراض ، إذ أن أسوأ مافى هذه

الحال أن كل مرة تعود فيها الأنيميا تؤثر على أعصاب الساق ، وقد يصل الحال إلى العجز التام عن الحركة فلا يمكن إصلاحه . ولا عذر للمريض فى الانقطاع عن العلاج ، إذ أنه لا يزعج مطلقا ، وقد تكفى حقنة فى الشهر أحياناً . وعلى أية حال يجب أن يكون المريض تحت الإشراف الطبى المستمر .

وعلى النقيض من الانيميا . قد تزيد كريات الدم الحمراء زيادة كبيرة أحياناً ، وقد تكون هذه الزيادة أولية أو ثانوية . تنشأ فى المصابين « بالامفيزيما » والنزلة الشعبية ، إذ لا تتمكن الكريات من إمتصاص الأكسجين ، فيعوض الجسم عن ذلك بزيادة عددها ؛ وفى هذه الحال يزرق الجسم لقلة الأكسجين . وعلاج هذا النوع من الزيادة الثانوية لكريات الدم الحمراء ، هو معالجة السبب الذى أحدثها .

أما زيادة كريات الدم الحمراء الأولية فليس لها سبب معروف ، ويرتفع العدد من ٥ ملايين كرة لكل سنتيمتر مكعب من الدم إلى ١٠ ملايين ، ويرتفع الهيموجلوبين إلى ١٥٠٪ ، ويحدث نزيف من الأنف أو الأمعاء أو الرحم ، وتحدث جلطات داخلية فى الشرايين والأوردة ، بكل مضاعفاتها التى تتوقف على موقع الشريان أو الوريد . وتعالج هذه الحالة الآن بالفسفور المشع ، والعلاجات القديمة هى فصد الدم ، وتعريض العظام والطحال للأشعة .

* * *

واللوكيميا هى زيادة كرات الدم البيضاء وفى بعض حالاتها يتضخم

الطحال ، وفى البعض الآخر تتورم الغدد الليمفاوية .

والكورتيزون يزيل اللوكيميا الجادة التى تصيب الصغار مؤقتا ، واللوكيميا لا تصيب متقدمى السن إلا نادرا ، وهى من النوع المزمن الذى قد يستمر عدة سنوات ، بغير أعراض مزعجة .

أمراض الرئة :

الكحة المزمنة ، والنزلات الشعبية ، والالتهابات الرئوية ، وتقدم العمر ، هى العوامل التى تفقد الرئة مرونتها وتعطل وظيفتها فى التمدد والانكماش أثناء الشهيق والزفير ، وتؤدى إلى صعوبة التنفس لأقل مجهود .

ويتعرض البعض للالتهاب الرئوى مرة أو أكثر كل شتاء ، ولا يعنون بعلاج الكحة المستمرة ، مع أن كل التهاب جديد ، يزيد فى تلف الرئة ويقود إلى الربو الشعبى ، مما يلقى أعباء ثقيلة على البطين الأيمن ، فيضعف القلب ، وقد يفشل فى النهاية فى تأدية مهمته .

وتبدأ مآسى الجهاز التنفسى عادة بزكام قد نستصغر شأنه ونهمل أمره ، ثم تتلوه نزلة شعبية فالتهاب رئوى ، فتجنب الزكام ، والراحة التامة عند الإصابة به ، عامل هام فى توقى أمراض الجهاز التنفسى . ويفيد — كما سبق أن ذكرنا — جو الأقصر وأسوان وحلوان والتدفئة بوجه عام .

ولا تؤثر مبيدات الميكروب كالبنسلين ونظائره على « فيروس »

الزكام، ولكنها تمنع مضاعفاته كإصابة جيوب الأنف والرئة بالميكروبات، ولذلك فإنه من الحكمة إستعمال هذه العقاقير منذ بداية المرض .

وفى الأحوال العادية ، يجب تجنب ما يهيج الغشاء المخاطى المبطن للرئة ، وفى مقدمتها دخان التبغ . أما المصابون بالنزلات الشعبية والكحة المزمنة ، فعليهم الامتناع عن التدخين تماماً ، وعدم العودة إليه مطلقاً. كما يجب ألا يتعرضوا للغبار والأتربة التى تزيد نوبات الكحة ، كما يحدث كثيراً للخبازين والكناسين وعمال النظافة وذوى الأعمال المتربة .

وضيق التنفس والكحة وزرقة الشفتين وأطراف الأصابع ، قد تنشأ بسبب فشل القلب أو الرئة أو كليهما ، وعلى الطبيب أن يشخص أساس العلة .

* * *

والكحة المزمنة تؤدى إلى « الفتق » إذ تزيد فى الضغط داخل البطن ، وتجبر الأعضاء الداخلية على النفاذ من الأمكنة الضعيفة فى جدار البطن. مثل « الأرب . . ، والسرة » ، وموضع التئام فتحات العمليات .

والربو أنواع كثيرة ، فمنه ما ينشأ عن هبوط حاد فى البطين الأيسر ، مما يحدث احتقانا فى الرئة ، ويتحسن هذا النوع بعلاج القلب .

أما الربو الشعبي الحاد ، فينشأ بسبب زيادة حساسية المريض لمؤثر خاص ، قد يكون التراب ، أو حبوب اللقاح ، أو ريش الحيوانات ، أو السمك ، أو اللبن ، أو البيض ، أو بعض أنواع الفاكهة . ويجب تمييز الربو الشعبي من النزلة للشعبية الرئوية .

ويستفيد مرضى الربو الشعبي الناشئ عن زيادة الحساسية من تجنب ما يثير النوبات ، والتطعيم بكميات متزايدة من خلاصات بروتينية منوعة ، وباستنشاق الادرينالين ، واستعمال مستحضرات الكورتيزون .

وأهم قاعدة عامة ، للمحافظة على سلامة الصدر ، هي وجوب الفحص بالأشعة لكل شخص يشكو من مرض مزمن في الرئة ، سواء كانت هذه الشكوى نزلة شعبية ، أو ربوا ، أو مجرد كحة لم تستجب للعلاج السريع ، فبذلك فقط يمكن إكتشاف السل في أولى مراحله ، وسرطان الرئة المبكر . كما يحسن التحليل المتكرر للبصاق .

الروماتزم :

ليس الروماتزم مرضا قائما بذاته ، ولكنه اسم يطلق على مجموعة كبيرة من الأمراض ، هي روماتزم المفاصل ، والعضل ، والأنسجة ، وروما تويد المفاصل الصغيرة وعرق النسا ، واللمباجو وغيرها .

والروماتزم بهذا الوصف الشامل هو أكثر الأمراض شيوعاً ، وتزداد مضايقاته بتقدم العمر . ونحو ٢٪ من المصابين بأحد الأمراض الروماتزمية يعجزون تماماً عن العمل ، غير أنه يندر أن تحدث الوفاة بسبب أحد هذه الأمراض .

ولا يزال سبب الأمراض الروماتزمية مجهولا ، وأكثر الأنواع شيوعاً عند متقدمي السن هو « التعظم » المفصلي Osteoarthritis .

وفي هذا المرض يتآكل الغضروف الكائن وسط المفصل ، وتتكون

زوائد عظمية جانبية تحد من حركة العضل ؛ ويبدو أن سبب هذا المرض هو تقدم السن ، وتبادل عمليات هدم وبناء الأنسجة ، ولذا يبدو الأثر واضحا فى المفاصل التى يقوم عليها ضغط كبير مثل الركبة والعمود الفقرى . والبدانة تزيد من حدة المرض ، بالإضافة إلى أية أخطاء فى ميكانيكية الجسم ، مثل القدم المسطحة ، أو الكسور القديمة .

ولا ينشأ هذا المرض بسبب الميكروب ، وعليه فلا توجد له أعراض عامة مثل إرتفاع درجة الحرارة ، أو نقص الوزن ، أو الأنيميا . وتبقى الأعراض محلية فى المفصل المصاب وما يحيط به من أنسجة ، ويزداد ببطء على مر الأيام .

ولا يوجد علاج يرجع المفصل لحالته الطبيعية ، ولكن يمكن وقف تقدم المرض والمحافظة على حركة المفصل ووظيفته ، وهذه نقطة هامة يجب على المريض أن يعرفها منذ البداية ، حتى لا ييأس من العلاج ويعرض عن إتمامه ، عندما يرى أن مفصله لم يعد لطبيعته الأولى ،وأن التحسن ليس ملموساً .

ويستهدف العلاج ألا يتعرض المفصل لإصابات جديدة ، وأن تخف أعباؤه ، ولهذا يجب التخلص من زيادة الجسم عن الوزن المقرر ، كما يجب إصلاح القدم المسطحة ، ولا ينبغى أن نلزم المريض بالرقاد فى الفراش ، بل نطالبه بألا يجهد مفاصله ، وإذا كانت « الركبة » هى المصابة ، فعليه ألا يقف كثيراً ، وأن يمتنع بتاتا عن صعود الدرج ،

وعندما يكون العمود الفقرى هو المصاب ، يستعمل المريض نوعاً من الدرع الواقى للظهر . وبهذه الاحتياطات يزول الألم ، ويعيش المصاب حياة عادية برغم وجود المرض .

* * *

والروماتزم العضلى مرض منتشر يتميز بالإحساس بآلام فى مختلف العضلات والأنسجة ، وليس لهذا المرض سبب معروف . لقد كان الرأى السائد إلى عهد قريب أنه يرجع إلى وجود بؤرة تقيح فى الجسم : فى الأسنان ، أو اللوز ، أو جيوب الأنف ، أو المرارة ، أو غيرها مما يفرز ميكروبات وسموما تصل إلى العضلات المصابة فتسببه التهابا ، وعلى أساس هذه النظرية الخاطئة إستؤصلت آلاف من الأسنان واللوز والمرارة دون جدوى .

ومن الغريب فى ألم الروماتزم — الذى لم يعرف الطب له سببا حتى الآن — أنه يكون فى أسوأ حالاته فى الصباح بعد راحة طول الليل . ويخف تدريجيا كلما قام المرء بنشاطه اليومى . وتنتقل الآلام من جهة لأخرى . والمصابون بالروماتزم شديدو الحساسية للتغيرات الجوية لدرجة أن بعضهم يمكن أن يتنبأ بالأمطار والعواصف قبل حدوثها .

ويفيد فى هذه الحالات إستعمال الإسبيرين بكميات كافية .ويلزم الاحتياط لتغيرات الطقس المفاجئة .

* * *

وهناك نوع من الروماتزم يصيب الكتف ، ويفيد فى علاجه

الكورتيزون . أما تقلصات عضلات الساق المفاجئة ، فتتحسن بالتدليك والتدفئة ، واستعمال الكينين .

« وروماتويد » المفاصل الصغيرة يصيب الأصابع فتتورم قاعدتها وتصبح مغزلية الشكل ولا يمكن تحريكها ، وقد تنحرف الكف بأكملها ، وهو مرض مزمن ، يتحسن ويسوء ، وتلزم له الرعاية الطبية المستمرة . ويفيد استعمال الكورتيزون بين حين وآخر .

وفى عرق النسا يشعر المريض بألم فى الجزء الخلفى من الفخذ وقد يكون سببه « روماتزم » كما قد ينشأ عن أسباب أخرى ، منها انزلاق الغضروف أو تضخم البروستاتا ، أو الأورام التى تضغط على عصب خاص يمتد خلف الفخذ والساق ، مسببة الآلام العنيفة التى يشكو منها المريض ، ويحدد مكان إنتشارها واتجاهها بكل دقة .

* * *

واللمباجو هو التهاب الأغشية التى تحيط بعضلات الظهر ، ويستجيب عادة لعقاقير الروماتزم العادية كالأسبيرين ، والساليسيلات مع تدفئة الجزء المصاب .

وعندما يوقظ الإنسان ليلا ألم حاد فى إبهام القدم ، يعقبه تورم هذا الاصبع ولمعان جلده مع إرتفاع درجة الحرارة والرعشة ، فهذا دليل إصابة حادة بمرض النقرس . وينشأ هذا المرض عن اضطراب الهضم وتمثيل الأغذية « البيورينية » مثل اللحم والسمك ، فتزداد نسبة حامض البوريك فى الدم ، وتترسب أملاحه فى جهات متعددة بالجسم ، وبخاصة

حول المفاصل وغضاريف الأذن .

وتلعب الوراثة دوراً فى تهيئة أسباب هذا المرض الذى يختص الرجال بنسبة عالية من إصابته . والأغذية البيورينية والخمور من أقوى عوامل إحداث هذا المرض .

وقد تحدث نوبة النقرس الحادة عند المهيئين عقب إصابة طفيفة، وقد يكون ضغط الحذاء على إبهام القدم هو العامل المباشر لاختيار النقرس لهذا الجزء بالذات لبدء نوبته . ويلعب الغذاء دورا رئيسيا فى علاج مرض النقرس ، رغم وجود عقاقير فعالة .

وفى النوبة الحادة لابد من تعاطى بذور اللحلاح ، أو عنصرها الفعال المعروف « بالكولشسين » ، فهذا العقار هو الوحيد الذى يجدى أثناء النوبة الحادة ، ويؤخذ – تحت إشراف الطبيب . إلى أن تزول كافة الآلام .

ويندر أن يصيب النقرس نحيفاً ، فهو يفضل البدينين دائما . ولذلك يجب أن ينقص وزن المريض إلى الوزن الطبيعى له بالتقليل من كميات الطعام ، هذا بالإضافة إلى أن كثرة الغذاء – بغض النظر عن نوعه – تزيد فى نسبة حامض اليوريك . ويجب أن يخلو الغذاء من المواد البيورينية بقدر الامكان وأهم الأغذية البيورينية : اللحوم والسمك وبخاصة لحم الأعضاء الحلوية مثل الكبد والكلاوى والمخ والبنكرياس المعروف بالحلويات ، ويجب الامتناع عن الخمور .

الجهاز الهضمى :

يشكو كثيرون من إضطرابات المعدة والأمعاء . وقد دلت الإحصائيات الدقيقة على أن أكثر من ٥٠٪ من الحالات ناشئة عن إضطرابات فى وظيفة هـــذه الأعضاء ، وليس عن أمراض عضوية .

وتهيمن على الجهاز الهضمى مجموعتان من الأعصاب ، احداهما تعمل على انقباض عضلاته ، والأخرى تعمل على إرتخائها . وعندما نكون فى كامل صحتنا تعمل هذه الأعصاب فى سهولة ويسر وتوازن ، على خلط الطعام دون أن نشعر ، ولكن عندما يختل هذا التوازن بسبب القلق ، والتوتر ، أو المؤثرات العاطفية ، أو بسبب عدم مراعاة القواعد الصحية فى التغذ ية ، يتغلب أثر إحدى المجموعتين ، فإن زاد مفعول المجموعة القابضة أحسسنا بتقلص ومغص وقىء وإسهال أو إمساك تشنجى ، وإن زاد مفعول المجموعة المسئولة عن ارتخاء العضلات ، يحدث تأخير فى سير الغذاء ، وفى التخلص من الفضلات ، فتتجمع الغازات ، ويحدث انتفاخ فى البطن ، ونحس بهذه المضايقات .

والواقع أن كلمة ســوء الهضم تستعمل بغير ضابط لوصف أية مضايقات فى الجزء الأعلى من البطن ، وهى قد تنشأ عن أسباب عديدة منها التافه ومنها الخطر ، وقد يكون السبب مجرد الإفراط فى الأكل ، وقد يكون جلطة فى الشرايين التاجية أو سرطان المعدة .

والمقصود بسوء الهضم هو الأحساس بالإمتلاء فى الجزء العلوى من لبطن ، تحت الضلوع مباشرة ، مصحوبا بتقلصات أو « حرقان » ، وتأتى هذه الأعراض بعد الأكل ، خصوصا بعد أكلة كبيرة ، وقد يكون السبب هو الإسراع فى الأكل ، أو الإفراط فى الأكل ، أو تناول الطعام أثناء نوبات الغضب والقلق والعصبية . وأى من هذه العوامل يمكنه أن يشيع الاضطراب فى وظيفة المعدة .

ويشعر كثير من الناس بالتعب بعد لون معين من ألوان الغذاء ، وفى غالب الأحيان يحدث هذا التعب لسبب آخر ، ولكننا نسرف فى إتهام هذا الغذاء أو ذاك ، وهكذا نضيف إلى قائمة الممنوعات جديداً فى كل فترة ، إلى أن يصبح غذاؤنا ناقص العناصر ، مما يسبب أعراض سوء التغذية .

والواقع أن هناك أغذية مثل السمك ، واللبن ، تسبب الحساسية وتحدث « آرتيكاريا » لدى بعض الأشخاص ، ولكن موضوع الحساسية متشعب دقيق . وللتحقق منه يجب أن تلاحظ الارتيكاريا للتثبت من أنها حدثت من هذا الغذاء المعين .

ومن الحكمة الاهتمام بشكوى سـوء الهضم ، وردها إلى واحد من أسبابها العديدة كالتهاب المعدة ، أو قرحة المعدة، أو قرحة الاثنى عشر، أو أمراض المرارة ، أو فتق معدة خلال الحجاب الحاجز ، أو سرطان المعدة ، أو أمراض القلب المختلفة .

وعلاج الأحوال العادية من سوء الهضم هو إتباع قواعد الصحة الغذائية

فيجب أن نلزم الاعتدال فى تناول الطعام ، كما يجب أن نبتعد عن الأطعمة التى حققت التجارب أنها تسبب لنا المضايقات . وينبغى أن نحذر من بلع كميات كبيرة من الهواء مع الطعام والشراب ، لأنه ينفخ المعدة ويسبب سوء الهضم .

ومعظم الناس يرى أن زيادة الحموضة هى سبب سوء الهضم فيتعاطون مختلف أنواع القلويات ، مثل بيكربونات الصودا ، والأملاح الفوارة . والواقع أن إستعمال هذه المستحضرات بين حين وآخر لا ضرر منه ، ولكن ليس من المصلحة المداومة على إستعمالها . كما أن هناك أحوالا يضر فيها إستعمال الصوديوم ، ولذلك تنبغى إستشارة الطبيب ليصف الدواء المناسب .

* * *

والإمساك عرض شائع فى جميع الأعمار ، ولكنه أكثر شيوعاً بين متقدمى العمر . وينشأ الإمساك عن أسباب عديدة ، منها عدم التعود على مواعيد منتظمة لتفريغ الأمعاء ، أو نقص التغذية والسوائل ، أو ضعف فى عضلات الامعاء ، والبطن كنتيجة للخمول والضعف العام ، أو كثرة إستعمال المسهلات والحقن الشرجية ، أو إضطراب الأعصاب التى تهيمن على حركة الأمعاء الغليظة بسبب الإرهاق فى العمل ، أو التوتر والقلق ، أو الإفراط فى التدخين ، أو الإكثار من شرب القهوة ، أو قلة النوم ، وقد تسبب آلام البواسير الإمساك .

ومع أن الإمساك عرض بسيط شائع ، إلا أن حدوثه فجأة عند

متقدمى العمر ، يجب أن يسترعى كل إهتمام . والإسهال الفجائى عند هؤلاء الأشخاص له أيضاً دلالة هامة ، فضلا عما يعنيه تبادل الإسهال والإمساك .

والقاعدة الصحية السليمة التى نحب أن نؤكدها ، هى أن أى تغير فى مواعيد تفريغ الأمعاء يخالف ما إعتاد عليه الشخص المتقدم فى العمر ، قد يكون أول إنذار لحالة تستلزم المبادرة باستشارة الطبيب لفحص شامل مدعم بالأشعة .

وعلاج الإمساك العادى يجب أن يبدأ بوضع مواعيد ثابتة لتناول الطعام ، وأخرى لتفريغ الأمعاء ، والمحافظة على توازن الغذاء ، وعدم إستعمال المسهلات بصفة منتظمة ، وتقوية عضلات البطن بممارسة بعض التمرينات الرياضية ، والسير مسافات طويلة ، وركوب الخيل ، والإكثار من الفاكهة والخضروات والسلطات ، وإضافة « الردة » للخبز ، ويمكن الاستعانة بزيت البرافين أو « الآجار » أو « لبوس الجليسرين » ، كما يفيد البعد عن التوتر والعصبية ، والاعتدال فى مواجهة أعباء الحياة ، والنوم الكافى ، والإقلال من القهوة والتدخين .

قرحة المعدة :

لا يعرف الطب سبباً معيناً لقرحة المعدة والاثنى عشر ، ولكن المعروف أن هناك عدة أسباب مهيئة للمرض ، هى زيادة الحموضة ، وتكوين الجسم الطبيعى والعصبية !

والغشاء المخاطي المبطن للمعدة والاثنى عشر ، له القدرة على البقاء مغموراً فى الوسط الحامضى القوى ، وتحدث قرحة المعدة ، إذا زادت هذه الحموضة لدرجة كبيرة ، أو إذا ضعفت مقاومة الغشاء المخاطى لدرجة كبيرة أيضا ، أو إذا حدث كلاهما معا ، وهذا هو الغالب :

وأعراض القرحة هى الألم فى منطقة المعدة ، عقب الأكل بساعة أو اثنتين ، ويخف هذا الألم عند تناول الطعام ، أو إستعمال بيكربونات الصودا . وقد يوقظ الألم المريض من نومه ، حيث تشتد نوبة الألم عندما تكون المعدة فارغة ، وليس بها من الطعام ما يعادل زيادة الحموضة : وهذا هو السبب فى رسم خطة العلاج بحيث يتناول المريض وجبات صغيرة متعددة على فترات قصيرة .

وعندما تظهر هذه الأعراض لأول مرة ، ينبغى أن يفحص المريض فحصاً دقيقاً مدعماً بالأشعة . ومن المهم التحقق من أن القرحة ليست سرطانية ، خصوصاً إذا بدأت الإصابة بها فى سن متقدمة .

وقد يحدث نزيف من القرحة ، يسبب القيء الدموى ، أو البراز الدموى ، كما قد تسد فتحة البواب . وإذا انثقبت تسبب التهاب البريتون الحاد . وكل من هذه المضاعفات يستدعى علاجاً طبياً سريعاً ، كما قد تستدعى الحالة التدخل الجراحى .

وعندما تشتد أعراض القرحة ، يجب ألا يغادر المريض الفراش ، وأن يتبع نظاماً غذائياً خاصاً . وبما أن قرحة المعدة مرض مزمن ، يزيد فى حدته الإجهاد العصبي والبدنى ، فقد يستدعى الأمر تغيير نوع العمل ،

ونظام الحياة نفسه ، إذ يجب الابتعاد عن الأعمال التى تحتاج إلى مجهود بدنى أو عقلى كبير مثل قيادة السيارات وإدارة البنوك أو الشركات ، وأعمال البورصة . وهى مهام لا تناسب مرض القرحة ، إذ أن الحياة الهادئة ، البعيدة عن المنغصات ، تعمل على تحسين القرحة ، أكثر من أى علاج طبى أو غذائى .

ومن الملاحظات الطريفة ، أن أعراض القرحة تشتد عند مديرى المصارف أثناء نظر الميزانية السنوية ، وتزول الأعراض تماماً عندما يذهبون لقضاء إجازة فى مكان بعيد .

والواقع أن الغشاء المخاطى المبطن للمعدة والأمعاء يتعرض لنفس التغيرات التى يتعرض لها الجلد بفعل المؤثرات النفسية . فهو يحمر خجلا ، ويقشعر فزعاً ، ويحتقن غضبا ! ولهذا تأتى ظروف على الغشاء المخاطى تجعله يعجز عن مقاومة حموضة المعدة ، فتتكون القرحة وتشتد أعراضها .

* * *

ويتلخص العلاج الطبى والجراحى فى مقاومة الحموضة. فى الحالة الأولى، يستعين الطبيب « برجيم » غذائى مع بعض العقاقير ، وفى الحالة الثانية يستأصل الجراح الجزء من المعدة المسئول عن إفراز الحامض .

ويجب أن نبدأ بالعلاج الطبى ، حيث توصف القلويات مثل ايدروكسيد الألومنيوم ، كما يوصى بالامتناع عن التدخين والخمور ، والإقلال من القهوة والشاى كما تعطى كذلك كمية كافية من الفيتامينات، أما الغذاء فيتناوله المريض كل ساعتين .

وإذا لم تستجب القرحة لهذا العلاج، أو حدثت مضاعفات كالنزيف أو الانثقاب ، فلابد من التدخل الجراحي لاستئصال جزء من المعدة ، وهي جراحة مأمونة العواقب عندما تتوافر الخبرة .

أورام الجهاز الهضمي :

القناة الهضمية من المواضع التي يكثر فيها تكون السرطان ، فثلث كافة أنواع السرطان في الرجال، وخمس أنواعه في النساء ، يبدأ في المعدة. أما سرطان الأمعاء الغليظة فتبلغ نسبته ١٥٪ من مجموع أنواع سرطان الأعضاء الأخرى، وقد يبدأ السرطان في الشفة ، أو في اللسان ، أو في المعدة أو في الأمعاء ، أو في المستقيم ، وفي معظم الأحوال يبدأ السرطان بعد الخمسين ، وتزداد الإصابة به كلما تقدم العمر .

والمشكلة الكبرى في كافة أنواع السرطان هي التشخيص المبكر للمرض وعليه فإن أية قرحة مزمنة في الشفة ، أو في اللسان ، تستلزم أخذ عينة منها وفحصها ميكروسكوبيا . فإذا ثبت وجود خلايا سرطانية ، أمكن العلاج بالجراحة أو بالراديوم ..

أما تشخيص سرطان المعدة المبكر فأمر دقيق ، إذ أن أعراضه مبهمة تنحصر في تكرر نوبات سوء الهضم ، وفقدان الشهية ، ونقص الوزن ، والضعف العام ، وبعض آلام البطن . والطريقة الوحيدة للتحقق منه ، هي الفحص بالأشعة بعناية فائقة . ولذلك ننصح من تخطى الخمسين من عمره أن يعرض نفسه للفحص بالأشعة عندما يشعر بضيق في منطقة

المعدة . وحبذا لو أمكن تنظيم هذا الفحص وجعله جماعياً فى كل عام، غير أن هناك صعوبات عملية تعترض هذا النظام الجماعى السنوى ، ولو أن التجارب التى أجريت على نطاق محدود فى بعض البلاد الأوروبية ، أمكن بواسطتها اكتشاف خمس حالات سرطانية فى كل ألف حالة .

ونحو ٥٠٪ من حالات سرطان المعدة التى تشاهد فى المستشفيات الكبيرة قد فاتها أوان العلاج الجراحى ، إذ لم تشخص فى الوقت المبكر المناسب ، حيث يجرى الاستئصال التام ، وحيث فرص الشفاء كثيرة .

وصعوبة البلع خصوصا إذا صاحبه إحساس بأن الطعام قد ضل طريقة إلى المعدة ، سبب هام للاسراع فى الفحص بالأشعة ، للتمييز بين ضيق الجزء الأسفل من المرئ ، أو أورام المرئ ، أو سرطانه .

ويجب تطبيق هذه المبادئ العامة على سرطان القولون ، فأى إمساك مفاجئ ، أو إسهال مفاجئ ، أو تبادل الإسهال والإمساك المفاجئين عند متقدمى العمر ، يجب أن يكون داعيا هاما للفحص بالأشعة .

ويجب ألا يغيب عن البـــال أن ظهور بواسير لأول مرة فى سن متقدمة ، قد يكون ناشئاً عن سرطان المستقيم . والبواسير عبارة عن أوردة متمددة ، فلذلك يجب ألا يقنع الطبيب بتشخيص البواسير ، بل عليه أن يتحرى أسبابها .

وجميع هذه الأورام يمكن علاجها والتخلص منها بالتشخيص المبكر والاستئصال التام الكامل بالجراحة .

وهناك ورم قولونى يسمى أميبوما ، إذ أنه ناشئ عن الإصابة بالأميبا. ومن أهم مميزاته أنه يتلاشى تماماً بواسطة حقن الأميتين . وتنتشر أمراض الأميبا فى مصر والهند والسودان ومعظم المناطق الحارة حيث يكثر الذباب . والأميبا كائن حى ميكرسكونى الحجم ، يعيش فى المياه ، وعلى سيقان النباتات المائية . وتتلوث الخضروات ومياه الشرب بأكياس الأميبا هستولتكا ، إما مباشرة ، وإما بواسطة الذباب ، وتنتقل مع الطعام إلى الإنسان ، وتمر بالمعدة دون أن تتأثر بافرازاتها ، وتصل الأمعاء الدقيقة حيث يذوب الكيس الخارجى بتأثير عصارة البنكرياس ، وتستقر فى الأمعاء الغليظة. وهناك تتحين الفرص ، وتتحالف مع الميكروبات المحلية للتمكن من مهاجمة الغشاء المخاطى فى الوقت المناسب . محدثة به تقرحات عديدة .

والسبب فى ازمان أميبا القولون وصعوبة علاجها ، هو أن الأميبا تتحصن داخل كيس من إفرازها عندما تجد أن الوسط فى الأمعاء لا يلائم نشاطها ، وإذ ذاك لا يؤثر فيها أى عقار ، وهى تنتهز الفرص المواتية لتعاود الهجوم من جديد . ونظرا لصمود أكياس الأميبا وعدم وجود العقار الكفيل بالقضاء المبرم عليها ، ينبغى تبادل إستعمال العقاقير الأميبية لفترة طويلة من الزمن ، للحصول على أحسن النتائج النسبية .

الكبد والمرارة :

يتعرض الكبد كبقية أعضاء الجسم ، لأمراض متنوعة قد تصيب أوعيته الدموية أو خلاياه : وهى إما أن تكون التهابية وإما إضمحلالية :

كما قد يحدث مرض تليف الكبد علاوة على الأورام الحميدة والخبيثة .

وقد دلت التجارب الحديثة على قدرة خلايا الكبد الفذة على التجدد لتعويض ما يتلف منها ، كما ثبت أن وقاية الخلايا الكبدية تستدعى عناية تامة فى جميع الأحوال مهما اختلف نوع المرض .

والثابت أن الغذاء الغنى بالمواد النشوية والبروتينية ، والقليل من الدهن ، يناسب مرضى الكبد بالإضافة إلى حقن الجلوكوز ، وملح الطعام ، والأحماض الامينية ، وخلاصة الفيتامينات المركزة ، واملاح الصفراء وفيتامين ك . وعلى مريض الكبد أن يحتفظ بوزنه الطبيعى المناسب لطوله وعمره ، وأن يتجنب التوابل والأغذية المهيجة . كما يجب تجنب الخمور بجميع أنواعها تجنباً تاماً ، إذ أنها معاول هدم لخلايا الكبد المريض . ويحسن الاستعانة بالعقاقير المحتوية على الكواين الذى يقوم بمهمة عربات النقل ، فيحمل الدهن من الكبد إلى مختلف أعضاء الجسم ، وبذلك يمنع تكدس الدهن فى خلايا الكبد ، لأن إصابة الكبد بالدهن هى أولى مراحل تليف الكبد ، التى يعقبها مرض الاستسقاء .

* * *

والبلهارسيا المنتشرة فى مصر تؤدى إلى تليف الكبد . لذلك ننصح باستعمال كبسولة يوميا من العقاقير المحتوية على الكولين والتى تعرف بواقيات الكبد Lipotropic drugs

ومن وظائف الكبد الهامة تنقية الدم من السموم وصنع بعض الفيتامينات ، غير أن خلايا الكبد وحدها هى القادرة على صنع أملاح الصفراء ، ذات الأهمية القصوى فى هضم الدهنيات . وتختزن الصفراء وتتركز فى المرارة .

وتركيز الصفراء في المرارة يساعد على تكوين الحصى بها . وحصى المرارة منتشر جداً ، وقد لا يسبب أية أعراض أو مضايقات . وقد إتضح من فحص جثث المتوفين أن ٣٠ ٪ من النساء ، و١١٪ من الرجال يصابون بعد الستين من أعمارهم بحصى المرارة .

وسبب تكون حصى المرارة غير معروف تماماً . وهناك أنواع من الحصى : فحصى الكولسترول يكون عبارة عن حصاة كبيرة واحدة تنتج من ترسيب الكولسترول من الصفراء . أما الحصى المتكون من الكلسيوم وملونات الصفراء bile pigments فيكون صغيراً وعديداً ، وقد نجد منه مئات في المرارة .

وعندما تظل الحصيات ساكنة في المرارة لا تسبب أي عرض، ولكن عندما تنتقل من مكانها إلى القناة المرارية تسبب ألماً عنيفاً يعرف بالمغص المراري . وأعراضه ألم في المنطقة العليا للجزء الأيمن من البطن ، ينتشر إلى الخلف ، أو إلى الكتف اليمنى ، وقد يكون مصحوباً بقيء . وعندما تقفل الحصاة القناة المرارية ، يحدث نوع من اليرقان ، يعرف باليرقان الانسدادي ، الذي يكتسب فيه بياض العين لونا أصفر ، كما يصطبغ الجلد فيه باللون الأصفر أيضاً ، ويتحول لون البول إلى أحمر قاتم ، ويكون لون البراز أبيض وقد يشكو المريض من حكة شديدة ، كما قد تبطئ دقات قلبه نظراً لأمتصاص أملاح الصفراء . وقد يحدث التهاب المرارة في وجود أو غيبة الحصيات ، وقد يكون حاداً يشبه ألم « المصران الأعور » ، كما قد يكون مزمناً .

والتهاب المرارة المزمن يسبب إنتفاخ البطن ، وسوء الهضم ، وقد تشتبه الأعراض مع قرحة المعدة، أو أى سبب آخر لعسر الهضم ، وفى الغالب لا يحتمل المريض الأغذية الدهنية .

وتشخيص هذا المرض ليس يسيراً ، إذ يحتاج لعمل صورة بالأشعة . بعد مرور ١٢ ساعة من تناول دواء يسمى« رابع يودور فينول فثالين» ، وهذا الدواء يفرزه الكبد، ويتركز فى المرارة ، ونظراً لاحتوائه على اليود فإنه يعطى ظلا فى صور الأشعة ويبدو شكل المرارة واضحاً .

ثم يعطى المريض غذاء دهنياً مثل « ساندويتش زبدة » وتؤخذ صورة أخرى بعد أربع ساعات. فإذا كانت المرارة سليمة ، فإن حجمها يبدو فى الصورة الأخيرة أصغر من حجمها فى الصورة الأولى، نظراً لأن الدهن ينبه المرارة للامتصاص ، وتفريغ محتوياتها التى تساعد على هضم الدهنيات . فإذا لم يحدث هذا الصغر فى الحجم، كان ذلك دليلاعلى تليف جدر المرارة ، بسبب التهابها المزمن .

واستئصال المرارة جراحياً بسبب الالتهاب المزمن يبرره وجود الحصيات . أما فى حالة عدم وجود حصيات ، فنرى التريث فى هذا الاستئصال ، إذ أنه لا يجدى فى كثير من الأحيان .

والعلاج الطبى لأمراض المرارة يعتمد بنوع خاص على الغذاء . ومعظم مرضى المرارة من البدينين الذين ينبغى إنقاص وزنهم إلى الوزن المناسب للطول والسن ، كما يجب عليهم الامتناع عن أكل الزبدة ، والكريم ،

وصفار البيض ، وزيت الزيتون ، واللحوم البيضاء ، والسمك . وتجنب الإمساك باستعمال ، ملين كل صباح ، وهذا يساعد على تفريغ محتويات المرارة . وقد يصف الطبيب أملاح الصفراء ، وبعض الأدوية المضادة لانقباض العضلات الرخوة .

الجهاز البولى :

يتكون الجهـــاز البولى من الكليتين ، والحالبين ، والمثانة ، وقناة مجرى البول .

ووظيفة الكلى إخراج المواد غير المرغوب فيها مع البول ، وكذلك حفظ التفـــاعل الكيميائى للدم ثابتا بافراز الزائد من ايونات الصوديوم والبوتاسيوم والكلورور وغيرها .

وللكلى السليمة قدرة كبيرة على مواءمة حاجة الجسم . ويهيمن على بعض وظائفها هورمون الفص الخلفى من الغـــدة النخامية وترتبط وظيفتها بمقدار الدم الذى يمر فيها كل لحظة ، والواقع أن تأدية الكلى لمهمتها على الوجه الأكمل بشير بسلامة الدورة الدموية .

والكلى عبارة عن مرشحات عضوية ، تسمح بمرور الزائد من الأملاح والماء ، والمواد السامة من الدم ، وتفرزه على هيئة سائل ملون هو البول . ولاتسمح الكلى السليمة بمرور الزلال أو السكر ، طالما كانت نسبته فى الدم لاتتجاوز ١٢,٠٪ .

وأهم أمراض الكلى هى الالتهابات والحصيات ، أما الالتهاب الكلوى

ـ المعروف باسم مرض « برايت » ، نسبة إلى اسم مكتشفه ــ فهو أحد المضاعفات الخطرة لكثير من الحميات ، وبخاصة الحمى القرمزية فى الأسبوع الثالث ، وكذلك الحصبة والجدرى والدفتريا . كما أنه قد يعقب إلتهابا متكرراً فى اللوزتين ، أو بيوريا مزمنة فى الأسنان ، أو نتيجة أية بؤرة تقيح أخرى فى الجسم . وقد يحدث كذلك أثناء فترة الحمل والنفاس ، وقد ثبت أن التعرض للبرد وتعاطى المواد الكحولية من العوامل الهامة التى تقلل مقاومة الكلى وتسهل إصابتها بالالتهاب .

ويمكن الوقاية من الالتهاب الكلوى بتجنب البرد وعدم تعاطى لكحول وتفادى الإجهاد . ويجب على المريض بالحمى سرعة العلاج المبكر ، مع تناول كمية كافية من القلويات مثل سترات الصودا ، كما يجب علاج بؤرة التقيح فى الجسم سواء أكانت فى اللوزتين أم فى الأسنان أم فى أى عضو آخر .

والتهاب الكلى هو أحد العوامل التى تهيئ الطريق لتكوين الحصى ، إذ تفقد الأغشية المبطنة نعومتها ، مما يسهل ترسيب الأملاح عليها ، كما أن نقص فيتامين (ا) له نفس التأثير ، إذ أن نقصه يسبب « تخشن » سطح هذه الأغشية . وكذلك اضطراب التمثيل الغذائى يسبب تركيزاً فى الأملاح ، مما يسهل رسوبها على شكل حصيات ، وخصوصاً عندما تكون هناك نواة ترسيب ، مثل بويضات البلهارسيا أو أى عائق آخر .

* * *

وللوقاية من الحصيات الكلوية ، أو لمنع تكرر حدوثها يجب العلاج الكامل من البلهارسيا ، واستعمال مطهرات المجارى البولية ، وتناول كميات كافية من فيتامين (ا) ، وتجنب الاسراف فى تناول اللحوم ، والكبد ، والقهوة ، والشاى ، والكاكاو ، والشيكولاته ، وغيرها من الأغذية الغنية بقاعدة « البيورين » : التى يتخلف عن هضمها وتمثيلها حامض البوليك « اليوريك » .

وهذه الالتهابات المختلفة ، والحصيات المتنوعة ، هى أهم الأسباب التى قد تعجز الكلى عن تأدية وظيفتها الرئيسية ، وهى تحرير الدم من السموم والمخلفات ، فينشأ عن ذلك المرض المعروف بالتسمم البولى ، أو داء البولينا . ومن أعراض هذا الداء الصداع الشديد ، وقئ وتشنج فى العضلات ، وعسر فى التنفس ، وأخيراً غيبوبة طويلة قد يعقبها الوفاة . ولا تظهر هـذه الأعراض طالما كان ثلث الكلية سليما .

* * *

ولا يوجد عقار يشفى مرشحات الكلى التالفة ، لتستأنف القيام بوظيفتها الحيوية ولم توفق الجراحة بعد إلى استباط وسيلة لاستبدال الكلى المريضة بكلى سليمة ، لحيوان أو إنسان حديث الوفاة ، قياساً على نجاحها فى استبدال قرنية العين المعتمة بقرنية شفافة . وإن نجحت عمليات زرع الكلى إذا أخذت من أشقاء ، وحبذا لو اخذت من توائم. لذلك اتجه تفكير العلماء أخيراً إلى ابتكار جهاز يعمل على أساس

فكرة تفريق المواد البللورية السامة ، التى تشبه البولينا ، من المواد الهامة كزلال الدم ، بواسطة غشاء شبه نفاذ يسمح بمرور الأولى ولا يسمح بمرور الثانية . وبذلك تستطيع السموم والأملاح المرور خارجة مع الاحتفاظ ببلازما الدم داخلها .

وقد ابتكر جهاز الكلية الصناعية البروفسور كولف الهولندى أثناء احتلال الألمان لبلاده ، واحتفظ به سرًّا طيلة مدة الحرب حتى لا ينتفع به العدو .

وهو يتكون من إسطوانة تدار بواسطة محرك كهربائى وملفوف حولها أنابيب من السيلويدين ، النصف الأسفل منها مغمور فى حمام به محلول خاص .

ويمر الدم من الشريان الذراعى خلال الجهاز ، فيتخلص من السموم والشوائب ويرجع انقى نسبيا إلى الوريد الفخذى ، ويعود ثانية من الجهاز واليه ، وهكذا دواليك . وهذا الإجراء لايسبب عناء ، ولا يحتاج إلى مخدر ، بل إن كل ما يلزم هو جهاز لنقل الدم يعوض الدم المرجود داخل أنابيب الكلية الصناعية ، الذى هو فى الواقع خارج الدورة ، أما المدة اللازمة لتنقية الدم نهائيا بحيث يصبح طبيعياً — إذ تنخفض نسبة البولينا من الأرقام التسممية العالية « ٣٠٠ ملليجرام فى المائة » إلى الأرقام العادية « ٤٠ ملليجراما فى المائة » — فهى فى المتوسط من ثلاث ساعات إلى ست ساعات — وقد أمكن بواسطة الكلى الصناعية إنقاذ ضحايا التسمم البولى من موت محقق .

وأهم الحالات التى تستعمل فيها الكلى الصناعية بنجاح ، هى التسمم البولى الذى يعقب بعض العمليات الجراحية نتيجة توقف الكلى مؤقتا عن إفراز البول ، والذى ينشأ عن تضخم البروستاتا ، أو عن حصاة فى الكلى أو الحالب ، أو عن التهاب كلوى حاد ، أو تناول مادة سامة للكلى مثل الجرعات الكبيرة من مركبات السلفا التى يجب أن تستعمل بإشراف الطبيب وليس اعتباطا كما هو حادث الآن .

ويجب على مرضى الكلى الحذر من إجهاد الكلى المريضة ، وتوقى حدوث التسمم البولى والاستسقاء ، ومراعاة نظام غـــذائى يكفل المحافظة على الأنسجة من الاضمحلال . ويمكن الإكثار من المواد النشوية ، وعدم الإسراف فى تناول المواد الدهنية . أما المواد الزلالية فتتغير كميتها حسب حالة الكلى ، فتارة يجب الإقلال منها ، وتارة يجب الإكثار منها ، ويحسن أن يكون ملح الطعام قليلا دائماً . وتمنع الخمور منعاً باتاً ، ويجب تعاطى المواد القلوية مثل سترات البوتاسيوم الفوارة من حين لآخر .

تضخم البروستاتا :

كلمة « بروستاتا » معناها حارس ، وهذه الغدة تحرس فتحة المثانة ولها إفراز هام لحيوية الحيوانات المنوية ، وتقوم فى أسفل قناة مجرى البول بين المثانة وعضو الذكر . وتبدأ غدة البروستاتا فى التضخم بعد الخمسين من العمر .

وقد دلت الإحصائيات على أن ٦٦٪ من الرجال فى سن السبعين تتضخم عندهم البروستاتا ، غير أن أعراض المرض لا تظهر إلا فى خمس هذه الحالات فقط .

ومنشأ هذا التضخم غير محدد تماما . وهناك نظريات عدة لتفسير هذا السبب ، منها أنه تورم عادى ، ومنها اضطراب نسبة الهورمونات ، وعلى أساس هذه النظرية يعالج التضخم بحقن هورمون الخصية المعروف باسم تستو ستيرون .

وتضخم البروستاتا يضيق مجرى البول ، ويسبب صعوبة التبول ، واحتقان القناة البولية ، ويشعر المريض بالرغبة فى التبول كل فترة وجيزة ، مع الإحساس بألم بالغ ، ويستيقظ من نومه مرات عديدة لتفريغ المثانة . والتعرض للبرد وتعاطى الخمور يزيد الحالة سوءا .

وبمرور الوقت يزيد الانسداد ، وتتمدد المثانة ، ولا يمكن تفريغ كل محتوياتها ، فيختزن جزء من البول قد يبلغ $\frac{1}{3}$ لتر ، وهذا يسبب ضغطا خلفيا يوسع الحالب وحوض الكلى ، ويضر الكلى نفسها . هذا فضلا عن تكاثر الميكروبات فى المثانة ، مما يسبب بها إلتهاباً قد يصعد إلى الكلى فيضاعف من خطورة الحال .

ومن السهل تشخيص تضخم البروستاتا ، فالأعراض التى يشكو منها المريض تتحدث عن المرض ، وللتحقق يضع الطبيب الأصبع فى الشرج ليلمس مقدار التضخم ، ويمكن قياس البول المختزن عقب سحبه « بالقسطرة » .

وتضخم البروستاتا مرض بطئ . ويجدى فيه كثيراً اتخاذ الاحتياطات الصحية ، وهى تفريغ المثانة عند الشعور بالحاجة إلى التبول ، وتجنب الخمور . كما يفيد تدليك البروستاتا . أما العلاج بهورمون الخصية فقد يفيد فى بعض الأحيان ، غير أنه يجب ألا نسرف فى استعماله . وأن نتجنبه تماما عند الاشتباه فى سرطان البروستاتا ، إذ أنه يعمل على سرعة انتشار هذا النوع من السرطان ، ونفضل استعمال حقن هورمون المبيض . فهو يساعد على انكماش غدة البروستاتا ، ولا خطر منه على سرطانها . بل على النقيض من ذلك ، فهو يستعمل بنوع خاص فى حالة سرطان البروستاتا ، لتخفيف الآلام الشديدة التى يعانيها المريض ، ويغنى عن استعمال حقن المورفين .

وعند وجود صعوبة فى التبول ، تفيد تدفئة منطقة المثانة ، وخير الطرق لذلك هى الجلوس فى الماء الساخن لأكبر درجة يمكن للجسم تحملها ، فهذا يزيل تقلص فتحة المثانة ، ويسمح للبول بالمرور . فإذا فشل هذا الإجراء ، وجب إستدعاء الطبيب فوراً لعمل « قسطرة » .

وقد تنشأ ضرورة إجراء عملية لاستئصال البروستاتا ، وأنه لمما يبعث على الدهشة والسرور معا ، أن نجد شيخا فى التسعين من عمره يعانى من ضغط الدم وتصلب الشرايين وأمراض القلب ، ومع ذلك يتحمل فى سهولة ويسر عملية استئصال البروستاتا .

وهناك نوعان من العمليات ، فى النوع الأول تفتح المثانة ، أما فى النوع الثانى فطريق الوصول إلى البروستاتا هو إدخال المنظار فى قناة مجرى البول .

ويجب ألا يغرب عن البال احتمال الاصابة بسرطان البروستاتا، ومن ثم يجب التشخيص المبكر ، ليمكن الاستئصال الجراحى .

ولا توجد البروستاتا فى النساء ، ولذلك استرحن من اضطراباتها وأمراضها . غير أن لديهن الرحم ، والثدى . وهما أكثر الأمكنة تعرضاً للسرطان .

ويبدأ سرطان الثدى بورم موضعى قد لا يسبب أى ألم. ولا بد أن نؤكد ضرورة أخذ عينة من هذه الأورام وفحصها الباثولوجى بالميكروسكوب للتحقق من عدم وجود سرطان ، وتشخيص الحالات المبكرة منه التى يتسنى استئصالها التام بالجراحة .

البلهارسيا :

ينتشر مرض البلهارسيا فى مصر ، كما ينتشر فى كثير من البلاد العربية الأخرى كالعراق ، وليبيا ، وتونس ، ومراكش ، وفلسطين ، والسودان ، وفى كثير من البلاد الافريقية مثل زنجبار ، وتنجانيقا ، وروديسيا ، وجنوبى أفريقيا ونيجيريا ، وساحل الذهب ، وساحل العاج ، وسيراليون ، ومنطقة الكونغو وغيرها . كما توجد البلهارسيا فى الصين ، واليابان، والفليبين ، وجنوب شرقى آسيا . وتتوطن بالهارسيا الأمعاء فى فنزويلا والبرازيل .

على أن مصر تنفرد من بين هذه البلاد كلها بأنها تحوى أكبر عدد من المصابين بالبلهارسيا البولية ، أو بالبلهارسيا المعوية ، أو بهما معا .

ولم يجد استعمال حقن « الطرطير » فى إستئصال شأفة هذا المرض من مصر لأن عدد المصابين به من أبنائها يبلغ عدة ملايين ، أكثرهم من القرويين الفقراء ، الذين لا تمكنهم أعباء الحياة من الانقطاع عن طلب الرزق ، خلال الفترة التى يتطلبها العلاج ، وهى لا تقل عن شهر .

وإهمال علاج هذا المرض فى مراحل العمر الأولى يمهد لمجموعة من الأمراض تظهر أعراضها بوضوح مع التقدم فى السن .

فالبلهارسيا البولية تمهد الطريق لحصيات المثانة والحالب ، وضيق مجرى البول ، وتمدد حوض الكلى وفروعه ، والتقيح وسرطان المثانة .

والبلهارسيا المعوية تسبب نوعا من الدوسنطاريا ، علاوة على أورام المستقيم الحميدة والخبيثة ، وتضخم الطحال ، وتليف الكبد ، وسرطانه أحياناً ، والاستسقاء .

* * *

ولذلك لم يكن عجبا ، أن تكون مكافحة هذا المرض هى الشغل الشاغل لكثير من العلماء والباحثين المصريين . وتهدف جهودهم إلى تحسين طريقة العلاج المستعملة ، وإيجاد وسيلة فعالة لمقاومة انتشار هذا المرض .

وقد تم إكتشاف مادة « الفؤادين » عام ١٩٣١ ، وثبتت صلاحية هذه المادة لعلاج البلهارسيا عن طريق الحقن العضلى . وبذلك أمكن علاج حالات الأطفال والسيدات البدينات ، بعد تعذر علاجهن بالحقن الوريدى بمادة الطرطير .

وكذلك أمكن ، بعد أبحاث مضنية ، ايجاد مادة تقتل القواقع الناقلة

لطفيل البلهارسيا فى الترع والقنوات ، وهذه المادة هى كبريتات النحاس بنسبة خمسة أجزاء إلى كل مليون سنتيمتر مكعب من مياه الجدول المراد تطهيره . وقد ثبت أن هذه النسبة لا تضر الإنسان أو الأسماك أو الحيوانات المستأنسة أو النباتات المصرية المختلفة التامة النمو ، كما أنها لا تؤثر فى إنماء البذور .

ولا شك أن إبادة القواقع الناقلة لطفيل البلهارسيا كفيلة باستئصال شأفتها ، وتطهير أرض الوطن منها ، فالمعروف أن هذه القواقع هى التى تساعد على التواطن ، ولذلك لم تتوطن فى إنجلترا ، أو الهند ، أو استراليا ، برغم اصابة الكثيرين من أبنائها بالبلهارسيا أثناء تجنيدهم فى مصر ، لخلو هذه البلاد من القواقع السالفة الذكر .

وفى سبيل إبادة القواقع من مصر ، قام معهد الأبحاث بمحاولات أخرى على نطاق واسع ، مستخدماً « الجامكسان » و « الدلتاكسان » ، والفينول خماسى الكلور لمعرفة أثر كل منها على قواقع البلهارسيا .

ومنذ وقت — غير بعيد — حاول العالم البرازيلى « دياس » تربية قواقع البلهارسيا لإجراء بعض تجاربه عليها ، ولشد ما كانت دهشته عندما وجد أنها هلكت كلها بينما كان يهدف بتجربته إلى إكثارها وتنميتها . وعند فحص هذه الظاهرة الغريبة ، تمكن من فصل فيروس خاص يقتل القواقع ، وسرعان ما حمل فيروسه العجيب فى حقيبته وحصر طائراً إلى مصر ، بلد البلهارسيا حيث أخذ يجرى تجاربه مع بعض الأطباء المصريين ، لتطهير القواقع من ترعة إمبابه ، حيث أمضى عدة

أشهر يدرس ويدقق ويفحص !

أما من حيث العلاج ، فقد أمكن إستنباط وسيلة لتقصير المدة للشفاء التام ، من شهر كامل ، إلى ما يتراوح بين خمسة أيام وعشرة أيام حسب الحالة الصحية العامة للمريض من حيث سلامة القلب والكلى والكبد .

ولا شك أن تقصير فترة العلاج . يعود على الدولة بفوائد صحية واقتصادية جمة .

ولقد جرب الإخصائيون بدائل « الميراسيل » ، وهو العقار الألمانى الذى يعالج البلهارسيا عن طريق الفهم على هيئة أقراص ، غير أنه ، من ناحية الوقاية ، سوف يساعد على القضاء على البلهارسيا ، تنفيذ وتعميم المشروعات الصحية فى القرى وانتشار التعليم بها ، فيحذر أهالى الريف من الاستحمام والخوض فى مياه الترع والبرك والمساقى ومزارع الأرز التى تهدى إليهم هذا المرض الوبيل .

ولعله من حسن الطالع ، أن اكتشف أخيراً ، أن الجسم يفرز مواد مضادة للطفيليات ، وأن ديدان البلهارسيا تحيط نفسها بمواد مخاطية لتتحصن ضد ما يفرزه الجسم من مواد للعمل على إبادتها وطردها . . . وتدور البحوث الآن على قدم وساق لإيجاد لقاح يحصن الجسم ضد العدوى بالبلهارسيا ومصل يعالج به المرضى . . والواقع أن هذه الطريقة ستحدث ثورة فى علاج الطفيليات عموماً ، وستكون هى القضاء المبرم على البلهارسيا .

مرض السكر

تكثر الإصابة بالسكر بين الشيوخ . وهو مرض يتميز بعجز الجسم عن الانتفاع بالسكر الذى يمتص من الطعام ، فيطرد فى البول ولتسهيل مهمة اخراجه تفرز الكلى البول بكثرة ولهذا نجد أن من أعراض السكر إفراز كمية كبيرة من البول تحتوى على مادة سكر الجلوكوز .

وسبب مرض السكر نقص إنتاج هرمون الأنسولين ، الذى يصنع فى خلايا البنكرياس – تلك الغدة الهضمية التى توجد خلف المعدة – والبنكرياس يفرز عصارة هاضمة . تصل عن طريق قناة خاصة إلى الاثنى عشر ، لتفتيت جزئيات الطعام البروتينى والدهنى والنشوى ، وتحويل كل هذا إلى مواد بسيطة قابلة للامتصاص . ويحتوى البنكرياس كذلك على مجموعة من الخلايا تسمى جزر لانجرهان ، تفرز هورمون الأنسولين . الذى يصل إلى الدم مباشرة . والغريب أنه قد لا تحدث تغيرات فى تركيب هذه الخلايا تفسر مظاهر مرض السكر ، والواقع أن سبب هذا المرض ليس بهذه البساطة . فهناك عوامل متشابكة ، منها الغدة النخامية التى تسيطر على إفراز الأنسولين وخلايا « ا » الموجودة فى نفس جزر لانجرهان ، والتى تفرز هى الأخرى هورمونا يسمى جلوكاجون « يضاد مفعول الأنسولين.

ولا يؤدى نقص الأنسولين إلى إضطراب هضم وتمثيل النشويات وحدها ، ولكنه يعطل أيضا تمثيل الدهنيات ، مما ينشأ عنه حموضة الدم

والغيبوبة التى قد تعقبها الوفاة

ولا يعرف للآن سبب نقص الأنسولين ، ولكن الملاحظ أن مرض السكر ينتقى عائلات معينة ويختار ضحاياه من البدينين .

ويختلف مرض السكر فى متقدمى السن عنه قبل الأربعين ، ففى الأطفال والشبان يعتبر هذا المرض خطراً ، وتصعب السيطرة عليه ، وقبل اكتشاف الأنسولين كان يسبب الموت المحقق ، والآن يحتاج إلى رعاية طبية مستمرة .

أما مرض السكر فى الشيوخ ، فهو أمر يسير ، يندر أن يسبب حموضة فى الدم أو الغيبوبة ، ولا يحتاج إلى أنسولين أو حتى إلى اتباع نظام غذائى خاص .

وتوجد علاقة وثيقة بين مرض السكر وتصلب الشرايين ، وارتفاع ضغط الدم ، ومعظم مرضى السكر ، سواء من الصغار أو الكبار ، يصيبهم تصلب الشرايين ، بغض النظر عن العناية بالعلاج .

والحقيقة الهامة التى يجب أن نوضحها ، هى أن مرض السكر لا يؤثر فى حياة الشيوخ ، ولكن الذى يؤثر فيهم هو تصلب الشرايين ، سواء كانت شرايين القلب ، أم الساق ، أم المخ ، أم الكلى .

ويبدأ السكر فى الشيوخ ببطء ، وقد يكتشف مصادفة أثناء الفحص الروتينى للبول ، ولو أن كل فرد اهتم بالفحص الشامل السنوى الذى سبق أن أكدنا أهميته ، لاكتشفت حالات السكر فى بدئها ، وقد يزول مرض السكر نهائياً من البدينين بمجرد إنقاص وزنهم .

ومعظم سكر الشيوخ يعالج بنجاح بتنظيم الغذاء وحده ، وبانقاص الجسم إلى الوزن الطبيعي . ويلاحظ أن أى ارتفاع فى درجة الحرارة يسئ إلى الحالة ، ولذلك يتطلب علاجاً سريعاً بمبيدات الميكروب .

ومن حسن الحظ أن لاحظ أحد العلماء نقص كمية السكر فى دم المرضى أثناء العلاج بمركبات السلفا . وقد استحدثت مركبات كيمائية قريبة الشبه من السلفا ، وأخرى من « اليوريا » ، وقد ثبت أنها تفيد فى علاج السكر لدى متقدمى السن ، عند تعاطيها كأقراص ، عن طريق الفم .

وعندما تتصلب الشرايين التاجية التى تغذى عضلة القلب ، يلاحظ أهمية عدم انقاص السكر سواء بالغذاء أو بالأنسولين أو بالأقراص سالفة الذكر ، فإن ذلك يعرض لانسداد هذه الشرايين بالجلطة الدموية ، مما قد يسبب السكتة القلبية

وتصلب شرايين الساق شائع فى مرض السكر ، وقد يؤدى إلى « الغنغرينا »

وتحدث تغيرات أيضاً فى شرايين الكلى ، وفى شرايين شبكية العين ، كما أنه من الشائع أيضاً حدوث التهاب أعصاب الأطراف .

البول السكرى الكاذب :

ينشأ مرض البول السكرى الكاذب عن نقص إفراز هورمون الفص الخلفى للغدة النخامية .

ويشعر المريض فى حالة الإصابة به بالظمأ البالغ ، وكثرة التبول .

كما يشعر بذلك مريض السكر ، وإن كان هذا المرض لا علاقة له مطلقاً بمرض السكر ، ولذلك دعى بمرض السكر الكاذب ، فالبول فى هذا المرض لا يحتوى على السكر ، وكثافة بول مريض السكر الكاذب ١٠٠١ وكثافة الماء ١٠٠٠ وكثافة البول العادى وبول مريض السكر١٠١٥

ولا يعرف الطب سبباً لاضطراب هذا الجزء من الغدة النخامية، الذى يؤدى إلى هذه الاعراض المزعجة . ونرجح أنها أسباب عصبية .

وعلى المريض بهذا الداء أن يوطن نفسه على المداومة على استعمال حقن خلاصة الفص الخلفى للغدة النخامية ، ويفضل المحلول الزيتى منه ، حقنة كل يومين أو ثلاثة .

ويمكن استعمال مسحوق مجفف من هذه الغدة «كنشوق»

ويجب على المريض عدم الإسراف فى استعمال «النشوق » أوالحقن لأنهما لا يستعملان إلا عند الحاجة ، وبالقدر الذى يحسّن الأعراض فقط ، وإلا فإنهما يسببان احتجاز الماء فى أنسجة الجسم.

أمراض القلب والشرايين :

أمراض القلب والشرايين أكثر الأمراض شيوعاً [1] ، وإليها ترجع نسبة كبيرة من الوفيات فى معظم البلاد المتحضرة ، غير أن الخوف من هذه الأمراض يرجع لأسباب أعمق ، متأصلة فى النفس البشريةمنذ أقدم العصور . إذ كان يعتقد أن القلب منبع الحياة ، ومكمن العواطف .

(١) أصدرت دار المعارف كتاباً للمؤلف فى هذا الموضوع بعنوان : «أنت وقلبك» .

لذلك نضفى على اضطرابات القلب ، أهمية أكبر من تلك التى نضفيها على اضطرابات الأعضاء الأخرى كالمعدة ، أو الكبد ، أو الكلى .

وأهم الأمراض التى تصيب القلب تنشأ بسبب تصلب الشرايين التاجية التى تغذى عضلة القلب نفسها ، أو ارتفاع ضغط الدم الذى يلقى عبئاً ثقيلا على عضلة القلب ، فتتمدد ، ثم تضعف . أو تلف صمامات القلب ، أو ازدياد إفراز هورمون الغدة الدرقية ، كما أن هناك عوامل عصبية عديدة ، تسبب اضطرابات وظائف القلب ، ينشأ عنها الإحساس بالضيق والتوتر والقلق البالغ ، مع أنها لا تسبب أبداً تلفاً مستديماً فى عضلة القلب ، ولا تحدث الوفاة مطلقاً .

تصلب الشرايين :

يصيب تصلب الشرايين صمامات القلب أو الأوعية الدموية ، وأول تغير يحدث هو ترسيب طبقة دهنية على سطح الشريان الداخلى، مما يسبب تلفاً وتليفاً فى بعض أجزائه . وهذا بدوره يؤدى إلى ترسيب مواد جيرية ، والنتيجة النهائية لهذه العمليات هى ضيق الوعاء المريض ، مما يعوق مرور الدم به ، وقد ينتهى هذا إلى إغلاق الوعاء تماماً . وفى أحوال أخرى يتسبب بطء مرور الدم به فى إحداث جلطة بداخله ، تسبب انسداداً مفاجئاً .

وتصلب الشرايين مرض منتشر بين متقدمى السن، لدرجة أنه اعتبر ضريبة لازب للشيخوخة ، وضريبة لتقدم العمر .

غير أن دراسة شرايين المتوفين فى سن الثمانين والتسعين ، دلت على أن الكثير منها لم يكن به أى تصلب ، كما شوهدت حالات تصلب شرايين فى الصغار ، مصحوبة باضطراب فى هضم وتمثيل المواد الدهنية ، وأهمها مادة « الكولسترول » .ونسبة الكولسترول فى الدم يمكن قياسها بسهولة . وقد لوحظ أن تصلب الشرايين يصاحبه دائماً ارتفاع فى نسبة الكولسترول فى الدم .

وثمة دليل آخر ، على علاقة تصلب الشرايين بالغذاء ، يبينه لنا التوزيع الجغرافى للمرض . ففى شمال الصين وأوكيناوه ، حيث الطعام قليل ، واللبن والزبدة والبيض — وهى المواد الغنية بالكولسترول — تكاد تنعدم ، نجد أن تصلب الشرايين يكاد ينعدم هو الآخر . وفى الحرب الأخيرة نقصت نسبة الوفيات بسبب تصلب الشرايين فى إسكندناوة لقلة الغذاء عامة، وقلة المواد الدهنية على وجه الخصوص، باستثناء الدانمركيين ، الذين فضلوا أكل الجبن والزبد ، وامتنعوا عن تصديرهما إلى ألمانيا ، وفى بريطانيا نقصت الإصابات بتصلب الشرايين ، بسبب توزيع الطعام بالبطاقات أثناء الحرب وبعدها .

ومن ذلك يتضح أن الوقاية من مرض تصلب الشرايين ، تستلزم تناول غذاء خفيف قليل الدهن . ولا ريب فى أن أهم أسباب انتشار هذا المرض فى مصر والشرق العربى ، أننا نحب الأكل بشراهة ونهم عجيبين .

على أن هناك عوامل أخرى تلعب دوراً هاماً فى انتشار المرض ،

منها عامل الوراثة ، وعدم قدرة الجسم على تمثيل مادة الكولسترول : فيجب على كل منا أن يعمل على إنقاص وزنه إلى الوزن المناسب للطول والسن ، وأن يتناول الطعام بالقدر الذى يحافظ بالضبط على هذا الوزن وأن يكون الغذاء قليل الدهن .

وعندما يكون مرض تصلب الشرايين شائعاً بين أفراد الأسرة ، فهذا نذير يلزم الفرد بالاهتمام البالغ باتباع نظام غذائى دقيق منذ فجر حياته ليتسنى له الوقاية من هذا المرض .

وتصلب الشرايين مرض خطر ، إذ يختار عادة الشرايين التاجية ، أو شرايين الأطراف أو المخ مسرحاً لمضاعفاته التى تهدد الحياة تهديداً مباشراً .

تصلب الشرايين التاجية :

وتصلب الشرايين التاجية ، التى تغذى عضلة القلب ، تسبب نوعاً من الألم العنيف يعرف بالذبحة الصدرية . وتشخيص الحالة يعتمد إلى حد كبير على شكوى المريض ووصفه لنوع الألم ، وتوقيته ، ومداه ، وعلاقته بالقيام بمجهود .

وهناك مجموعة من الأمراض تسبب آلاماً ينسبها الناس خطأ إلى ذبحة الصدر ، وهى التهابات البللور ، وضيق المرئ والتصاقات الرئة ، والروماتزم العضلى ، والتهابات العمود الفقرى ، وزيادة حساسية الأعصاب .

وإنه لمن سوء الحظ أن أى ألم فى الصدر ، وبخاصة فى الجهة اليسرى ، يسبب للناس قلقاً بالغاً ، ويضيع من الأطباء وقتاً طويلا ينفقونه فى بث

الطمأنينة فى النفوس والإقناع بسلامة القلب .

ولا بد أن نؤكد أن كثيرين من مرضى الذبحة الصدرية يعيشون حياة طويلة سعيدة ، وقد تزول الذبحة نهائياً فى بعض الأحوال ، إذ بمرور الزمن تكبر الفروع الصغيرة للشرايين التاجية وتكفل تغذية عضلة القلب، بدلا من الشرايين الاصلية المتصلبة الضيقة .

ويمكن لمريض الذبحة القيام بأعماله اليومية فى حدود امكانيات قلبه المريض . ومن حسن الحظ أن لدينا مقياساً دقيقاً لا يخطىء فى تقدير هذه الإمكانيات هو الشعور بالألم ، وهذا فى الواقع هو العلامة الحمراء التى تنذر بالوقوف عند هذا الحد من الجهد .

ويجب ألا تملأ المعدة بالطعام ، فتعدد الوجبات الصغيرة ، أفضل من وجبة واحدة كبيرة . ويحسن تناول الملينات ، ويسمح بتناول القهوة والشاى باعتدال ، لما فيهما من منبهات خفيفة للقلب ، وهذه المنبهات تحسن مرور الدم فى الشرايين التاجية .

تصلب شرايين الساق :

وكما أن تصلب الشرايين التاجية يسبب آلاماً تعرف بالذبحة الصدرية ، كذلك تصلب شرايين الساق يسبب آلاماً عنيفة عند السير ، قد تضطر المريض إلى الوقوف ، وتسمى بالتقلصات المفاجئة .

ومع أن التدخين لا يؤثر كثيراً على مصير الذبحة الصدرية ، إلا أن ضرره محقق فى حالة تصلب شرايين الساق ، فهو يزيد فى تضييقها،

وبذلك يزيد فى تقليل كمية الدم التى ترد إلى عضلات الساق والقدم . ولذلك كان الإقلاع عن التدخين شرطاً هاماً لتحسين هذه الحالة ، مع العناية بالقدم ، حيث إن قلة توارد الدم يجعل الالتهابات والتقرحات بطيئة الشفاء والالتئام ، وقد يصل الأمر إلى « الغنغرينا » .

ويجب ألا تستعمل الأحذية الضيقة ، أو الجوارب الضاغطة ، أو الاستعانة بالماء الساخن للتدفئة ، والحذر عند قص الأظافر .

وبالمداومة على الرعاية الصحية ، والفهم الدقيق لتطورات المرض ومضاعفاته ، والعمل على توقيها تتحسن الحالة تدريجياً .

تصلب شرايين المخ :

تصلب شريان المخ ، الذى يغذى مركز الحركة ، يسبب الشلل النصفى ، وهو ما يطلق عليه الناس اسم « النقطة» ، وفيه تصاب اليد والساق بالشلل . وقد يفقد النطق ، إذا كان الشلل فى الجهة اليمنى من الجسم . وتتحسن الساق عادة قبل اليد .

وتلعب قوة إرادة المريض دوراً فعالا فى استعمال أطرافه عندما تدب فيها الحركة ، والشخص الذى أصيب بالنقطة مرة واحدة ، يعيش فى فزع دائم من تكرارها ، وهذا أمر طبيعى ، ولكنه ضار ، ففى كثير من الأحيان لا تتكرر المأساة ، ويعيش الإنسان حياة طبيعية منتجة .

ولعل أروع مثال لذلك العالم البكتريولوجى الشهير لويس باستير ، فقد عاش ٢٨ عاماً بعد إصابته بالشلل النصفى ، وسجل فى هذه الفترة أعظم اكتشافاته العلمية الخالدة فى عالم الميكروبات .

روماتزم القلب :

روماتزم القلب هو مرض الطفولة وفجر الحياة ، ومن يصاحبه المرض حتى سن متقدمة ، يحتاج لعناية خاصة ، لمقاومة الميكروبات التى تزيد الحالة سوءاً .

فالتهاب اللوزتين والحلق قد يسبب مزيداً من تلف صمامات القلب ، فتجب المبادرة بعلاج هذه الالتهابات بالبنسلين وما شابهه فى الوقت المناسب . ويحسن استعمال البنسلين البطئ ، أو أقراص السلفا ، كسلاح وقائى كلما كان هناك احتمال للإصابة بهذه الالتهابات .

وعندما يستدعى الحال خلع إحدى الأسنان ، يجب استعمال البنسلين قبل وبعد هذه العملية ، إذ أن ما يصاحبها من تلف للأنسجة يسمح للميكروبات بالوصول إلى مجرى الدم ، وهذه الميكروبات لا يحلو لها الاستقرار والنمو ، إلا على صمامات القلب التالفة ، مسببة مرضاً بالغ الخطر ، يعرف باسم « التهاب غشاء القلب تحت الحاد » .

أوهام حول القلب :

يفزع الكثيرون من أى ألم فى الجهة اليسرى من الصدر ، أو أى ضيق فى التنفس ، أو الإحساس بدقات القلب ، مع أنه باستثناء ألم الذبحة ، لايوجد عرض آخر يؤكد وحده مرض القلب .

فضيق التنفس قد ينشأ من البدانة ، أو اضطراب الرئة ، أو الأنيميا ،

بالإضافة إلى أمراض القلب .

وتورم القدمين لا يعنى حتما هبوط القلب ، فقد ينشأ عن أمراض الكلى ، والأنيميا الشديدة ، والأوردة المتمددة ، واضطرابات الدورة الدموية موضعيا فى الساق ، أو سوء التغذية ، وبخاصة نقص البروتينات .

والخفقان ، أى الإحساس بدقات القلب ، يحدث بعد القيام بمجهود ، وعند الخوف المفاجئ وقد يحدث للشخص السليم الخالى من مرض القلب ، بسبب زيادة حساسية الأعصاب .

أما « الدقة » الزائدة المفاجئة ، التى يهرع بسببها الناس إلى الأطباء فزعين ، ويطلقون عليها اسم « القفزة » ، فهى تحدث بسبب التعب ، أو الإفراط فى التدخين ، أو الإكثار من تجرع القهوة ، أو لغير ما سبب !

مثل هؤلاء الناس يمرضون وهم أصحاء ، ويحتاجون لكثير من الصبر والأناة والإقناع وبسط الحقائق وتوضيح الأمور ، لإنتزاع مرض الوهم الخبيث من نفوسهم .

ضغط الدم :

ضغط الدم هو القوة التى يندفع بها الدم داخل الشرايين ، محدثا ضغطا على جدرها ، يتراوح تقديره العادى بين ١٢٠ — ١٤٠ ملليمترا من الزئبق عند انقباض عضلة القلب ، ٨٠ — ٩٠ ملليمتراً عند انبساطها .

ويكون الضغط لدى بعض الناس أقل من هذا القدر ، وهؤلاء

عادة نحاف الأجسام ، طوال القامة ، وليس هذا علامة مرض معين ، بل على النقيض من ذلك ، فإن فرصة ذوى الضغط المنخفض كبيرة فى حياة طويلة سليمة خالية من أمراض القلب والشرايين ، ولا يحتاجون عادة إلا إلى العناية بالتغذية وممارسة الرياضة البدنية ، لبناء أجسامهم .

وقد ينشأ ضغط الدم المنخفض عن الضعف والأنيميا ، وفى دور النقاهة من الأمراض الشديدة .

أما عندما يكون انخفاض ضغط الدم ناشئا عن مرض « أديسون » ، أو الصدمة ، أو انسداد الشرايين التاجية بجلطة دموية ، فهذه حالات خطرة ، تستدعى علاجاً سريعاً .

وفيما عدا هذه الحالات النادرة ، فإن انخفاض ضغط الدم يجب ألا يقلق بال أحد .

* * *

أما ذوو الضغط المرتفع فيجب أن يألفوا الحياة به ، لا أن يعيشوا له ، فكثيرون يبالغون فى الخضوع لجهاز قياس ضغط الدم ، ويصرون على قراءته كل وقت ، ويقلقون لإرتفاع عشر درجات أو عشرين درجة . والواقع أن فائدة هذا الجهاز هى وضع معدل يكون أساساً لرسم حياة هادئة بعيدة عن القلق والانزعاج ، الذى لا يجدى سوى ازدياد الحالة سوءاً !

وأول ما يجب أن يدركه مريض إرتفاع ضغط الدم ، هو أن سير هذا المرض طويل وتدريجى ، وأن هناك سنوات طوالا تمر دون أن يعكر الصفو أمر ذو بال :

ونحب أن نؤكد حقيقة هامة ، هى أن أساس علاج ارتفاع ضغط الدم هو « الاعتدال» فى الأكل ، وفى العمل ، وفى اللهو ، وفى طلب المشورة الطبية . فليس هناك علاج لإرتفاع ضغط الدم الأولى ، ولكن توجد وسائل مختلفة لخفضه ، وتعديل سيره ، وتعويق اطراد زيادته ، ومنع مضاعفاته .

وفى مقدمة هذه الوسائل ، إنقاص الوزن إلى القدر الطبيعى ، فارتفاع الضغط وحده عبء ثقيل على القلب ، يجب ألا نضيف إليه عبء البدانة التى لا خير فيها .

وفى الحالات المبكرة من المرض ، لا داعى مطلقاً لتحديد أنواع الطعام ، فقد ثبت خطأ الرأى القديم ، الذى ينصح بمنع اللحوم الحمراء ، والبيض ، وكل ما يسبب نقصاً خطراً فى البروتين ، ويمكن أن يسمح بالتوابل .

ويحتل ملح الطعام اليوم مكان الصدارة فى قائمة الممنوعات ، وكل مريض بالضغط ، أو القلب ، يعرف تماماً أهمية تجنب ملح الطعام ، والواقع أنه من الحكمة تقليل ملح الطعام فى الأحوال المتوسطة ، إذ لا يفيد كثيراً الامتناع التام عنه . أما فى الأحوال التى يبلغ فيها الإرتفاع درجة تسبب أعراضاً ملموسة ، فالغذاء الخالى من الملح تماماً يصنع العجائب ، وأن سر نجاح غذاء الأرز فى تخفيض الضغط ، ليس فى الأرز نفسه ، ولكن فى كونه قليل الملح .

وطبيعى أن ممارسة هذا النظام القاسى فى التغذية ، يجب أن يكون

تحت إشراف الطبيب .

ويسمح بتناول القهوة والشاى باعتدال . والواقع أن الكافيين فى هذه المشروبات يفيد أحياناً فى إزالة صداع الضغط ، والتدخين الخفيف لا ضرر منه ، بل إن ذلك يفيد فى بعض الأحيان ، إذ يمنع القلق ، ويهدئ الأعصاب .

* * *

ويحسن أن يستمر مرضى الضغط فى القيام بأعمالهم العادية وأن يخففوا من طموحهم ، وألا ينتظروا الوصول إلى ذروة الإتقان فى العمل ، وأن ساعات العمل الطويلة أقل ضرراً من عمل ساعة واحدة بتوتر زائد .

فالموظف الذى يشغل ذهنه بالعلاوات والترقيات ، والطبيب الذى يحمل عبء كل مريض ، والعامل الذى يتبارى فى سرعة الإنتاج ، كل أولئك يعملون على زيادة الضغط المرتفع فبإجراء تعديل بسيط فى نظام الحياة ، يمكن أن يؤدى كل منهم عمله العادى ، على أن يتوقف عند التعب ، لينال قسطا من الراحة ، وأن يوزع أجازته السنوية الطويلة على عدة أجازات قصيرة ، موزعة على طول العام . ويجب استعمال المسكنات والملينات .

ولما كان العصب السمبثاوى هو المهيمن على تضييق الشرايين ، فهو يعتبر عاملا رئيسياً فى رفع الضغط . ولذلك فقد استحدثت عقاقير كثيرة تهدف جميعاً إلى الحد من نشاط هذا العصب وتقليل مفعوله ، فتتسع

الشرايين ، ويهبط الضغط :

* * *

ولقد ابتكرت ، منذ عهد غير بعيد ، عملية جراحية لقطع ضفائر من العصب السمبثاوى ، فى منطقة الحجاب الحاجز ، لوقف أثره فى ضيق الأوعية نهائيا ، ولقد لوحظ من تتبع حالة هؤلاء المرضى ، أن الأعراض تتحسن كثيراً عقب إجراء العملية ، ولكن الضغط يعود إلى الارتفاع ثانية بعد فترة من الزمن .

وقد اكتشفت فى الأعوام الأخيرة عدة عقاقير مفيدة وفعالة لتخفيض الضغط :

الفصل السابع

حافظ على صحّة طفلك



« مواود المرأة قليل الأيام شبعان تعب » . . . فما إن تحين ساعة الولادة حتى يتعرض لشد وجذب وآلات قد تضغط على رأسه أو تحنى ساقه أو تسد منافذ الهواء إلى صدره ، وما إن يخرج إلى الوجود باكياً ، حتى تفزعه الأصوات العالية ويتملكه إحساس بالخوف وعدم الاطمئنان، ويضاعف من هذا الإحساس أن يبحث عن أمه فلا يجدها ؛ فنحن حرصاً على صحة بدنه نعزله فى أسرة معقمة وضعت فى غرفة مكيفة ، ونعطيه وجبات غذائية معينة فى ساعات محددة ، فلا ينعم بما ينعم به وليد الحيوان من الدفء واستشعار الحب والأمان فى حضن أمه .

إن حاجة الطفل للحب والحنان ، لا تقل عن حاجته للغذاء ، فهو « إنسان » وليس آلة يكفى أن تزود بالوقود وبالصيانة، ولعل الأطفال لم يحظوا بالعناية بأبدانهم وتغذيتهم مثلما يحظون فى هذه الأيام ، ولكننا حرمناهم من أهم الأشياء التى يحتاجون إليها ، حتى الرضاعة من ثدى الأم بما فيها من تعبير من مشاعر الأمومة وإشباع لحاجته النفسية الغريزية استبدلت بالتغذية الصناعية ، لقد أنستنا مشاغل الحياة واجباتنا نحوهم وأصبحنا نتركهم فى أهم مرحلة من مراحل العمر فى رعاية جاهلات أو سيدات لا يبدين لهم من الحب ما هم فى حاجة إليه ... إنها المرحلة التى نضع فيها الأساس لحياتهم المستقبلة . . . فى وسعنا أن نغرس فى نفوسهم بذور الإيمان والخير ، وأن نجنبهم الكثير من الاضطرابات والعقد النفسية

فى باكورة شبابهم ، وفى وسعنا أن نتركهم وشأنهم ، كما يفعل الكثيرون فى هذه الآونة . . فتنبت فى نفوسهم أشواك شيطانية تثير صراعات داخلية تتزايد على مر الزمن .

إنها مسئولية الآباء والأمهات أن يهيئوا للطفل جوّاً من الاستقرار والحب ، والبيت السعيد المترابط يندر أن يشب فيه طفل ممزق النفس . ولو أن الأمهات حرصن على أن يرضعن أولادهن ويرعين شئونهم بأنفسهن لتفادينا القلق والإكثار من التردد على الأطباء ، فالطفل الذى ينعم بجو نفسى ملائم يندر أن يحتاج إلى طبيب .

فلنرع الله فى تربية أولادنا وبناتنا ولنحرص على أن نكون قدوة طيبة يحتذونها ، فالطفل لا يستمع لنصائحنا وتوجيهاتنا بقدر ما يتأثر بسلوكنا وشخصياتنا . . . وهو إذ يبدأ خطواته الأولى فى الحياة على الطريق السليم ، يغلب أن يستمر فيه مستمتعاً بسلامة النفس وصحة البدن .

وإليك بعض الأمراض الشائعة التى يتعرض لها الطفل وكيف يمكن تفاديها وعلاجها .

النزلات المعوية :

إن النزلات المعوية من أكثر الأمراض التى تصيب الطفل ، وترجع أسبابها إلى الإصابة بالميكروبات المعدية التى تنتقل عن طريق الذباب أو المأكولات الملوثة أو اللبن غير المعقم ، أو تنشأ عن إعطاء الطفل أطعمة وألباناً غير مناسبه لسنه على أمل أزدياد وزنه مما يسبب عسراً فى الهضم

ينتج عنه ارتباك أو تلبك معوى ، وقد اتضح أن نسبة الإصابة بالنزلات المعوية تكون أكثر حدوثاً لدى الأطفال الذين يتناولون رضعات صناعية ، وينتج ذلك من عدم تعقيم الأدوات المستخدمة فى تحضير الرضعات أو ترك الرضعة الصناعية فترة بعد التحضير مما يعرضها للتلوث أو الفساد .

وتبدأ أعراض النزلات المعوية بارتفاع درجة حرارة الطفل ، ويصحب ذلك قىء وإسهال ، وفى الحالات الشديدة نتيجة لفقد الجسم السوائل والأملاح يصاب الطفل بالجفاف فيقل إفراز البول وتصبح العينان غائرتين وبالتالى ينقص الوزن .

ويجب أن تمتنع الأم عن إعطاء اللبن طفلها وأيضاً تمنع عنه الطعام ، وتكتفى بإعطائه السوائل مثل الينسون أو الكراوية بكميات قليلة وعلى فترات متقاربة ، ويمكن عمل مكمدات ثلج إذا كانت الحرارة مرتفعة وإعطاء النوفالجين على هيئة نقط وذلك لحين العلاج الكامل . وواجب الأم عدم الاستهانة بأية حالة إسهال عند طفلها لأنه إذا ازدادت الحدة ووصلت إلى درجة الجفاف فحياة طفلها تكون معرضة للخطر .

الصفراء :

« الصفراء » أو الالتهاب الكبدى الوبائى يسببه فيروس يصيب الكبد مما ينتج عنه قلة القدرة على وصول العصارة الصفراوية التى تساعد على الهضم ، وتمنع التعفن فى الأمعاء وتمنع الإمساك ، وتزداد نسبة حدوث الإصابة بالالتهاب للكبدى عند الأطفال بعد الفطام نتيجة لتناولهم أطعمة

ملوثة ، أما أعراض المرض فهى فقدان شديد فى الشهية بحيث لا يرغب الطفل فى تناول أى طعام ، وقد يصحب ذلك ألم فى البطن وقىء فى بعض الأحيان ثم يعقب هذه الظواهر تغير فى لون البول فيصبح غامقاً ثم يحدث إصفرار فى الجسم وفى بياض العين .

وللوقاية من هذا المرض تجب العناية بغسل الخضروات والفاكهة جيداً ، ويجب على الأم عند ملاحظتها أعراض الصفراء على طفلها أن تمنع عنه تناول الأغذية الدهنية وتكتفى بإعطائه سوائل وأغذية مسلوقة وسكريات ، مثل العسل والمربى ، ولا بد من راحة الطفل راحة كاملة فى أثناء فترة العلاج التى قد تستمر ما بين شهر أو اثنين لحين تمام شفاء الطفل ، حتى لا يترك المرض أثراً على الكبد فى المستقبل ، وعندما يعود الطفل إلى تناول طعامه العادى يجب أن يتم ذلك تدريجياً .

الحصبة :

الحصبة ، مرض معد يسببه فيروس : وأعراضه حساسية العين للضوء ، وشعور الطفل بنوبة برد خفيفة ، وارتفاع فى درجة الحرارة ، وبعد أربعة أو خمسة أيام من بدء النوبة يظهر طفح جلدى :

ويجب أن نحتفظ بالطفل دافئا فى الفراش : ويقتصر غذاؤه على السوائل والأطعمة الخفيفة . وأن نحافظ على عينيه من الضوء ، الشديد : ولا ندعه يقرأ أو يكتب أو يقوم بعمل قد يجهد عينيه : ولا ندع الطفل يختلط بآخرين مصابين بنوبة برد ، ففيروسات البرد قد تسبب للطفل

مضاعفات فى هذه الحالة

ويجب أن يستدعى الطبيب ، فيصف دواء للكحة إذا لزم الأمر ويصف أحياناً أحد عقاقير السلفا أو قاتلات الميكروب لتفادى المضاعفات ، وأحياناً يعطى حقن Gamma Globulin لتعجيل شفاء النوبة ، فهى تفيد فى هذه الناحية وخاصة لو أعطيت بعد ظهور الأعراض الأولى .

ومدة هذا المرض أسبوعان ينبغى عزل الطفل المريض فيهما عن الأطفال الآخرين، لأن عدواه تستمر من ظهور أعراضه الأولى إلى ما بعد ظهور الطفح بأربعة أو خمسة أيام .

كما أنه تتوافر الآن لقاحات للتحصين ضد الحصبة .

الالتهابات الرئوية :

هى عدوى فى الرئتين أو فى الشعب الهوائية ، نتيجة واحد من مجموعة مختلفة من للبكتريا ، أو فيروس خاص .

ومن أعراض هذا المرض ارتفاع فى درجة الحرارة ، والإحساس بالبرد . وصداع . وكحة جافة وتنفس سريع ، يكون أحياناً مؤلماً .

– وينبغى استدعا الطبيب والاحتفاظ بالطفل دفئا ومستلقياً على ظهره فى الفراش :

وإذا كانت الحرارة مرتفعة جداً ، استعمل كمادات باردة على الرأس، وكمادات ساخنة عند القدمين ــ أعط الطفل سوائل :

ويصف الطبيب دواء لتخفيف الألم ، ويصف إحدى مبيدات الميكروب أو مركبات السلفا .

ويجب اعتكاف المريض فى الفراش مدة تتراوح بين يومين وعدة أسابيع ، فإذا كانت العدوى بفيروس الالتهاب الرئوى ، فإنها عادة تستغرق مدة أطول من الإصابة بالميكروبات الأخرى .

وينبغى تجنب الاختلاط بالمصابين بالمرض ، وتجنب التعرض للتيارات الهوائية والرطوبة الشديدة . والمبادرة بعلاج نوبات البرد وجميع إصابات الجهاز التنفسى بسرعة وعناية :

التهاب اللوزتين :

التهاب اللوزتين يسببه نوع من مجموعة مختلفة من الميكروبات والفيروسات، ومن أعراضه ألم فى الحلق . وصداع . وارتفاع فى درجة الحرارة، ويكون البلع أحياناً مؤلماً ، وأحياناً يصحب الحالة قئ أو إسهال أو ألم فى المعدة ..

ولهذا يجب أن يستدعى الطبيب وأن يحتفظ بالطفل دافئاً فى الفراش وأن يعطى غذاءً خفيفاً ، ويستحسن إعطاؤه السوائل، وفى هذه الحال يصف الطبيب عقاقير السلفا ومبيدات الميكروب .

ومدة هذا المرض ثلاثة أو أربعة أيام ، يجب أن يقضيها الطفل فى الفراش . وإذا أهمل علاج هذا المرض ،فإنه قد يؤدى إلى عدوى بالأذن ، أو إلى تورم الغدد ، وخاصة عند الرضع والأطفال الصغار .

وينبغى تجنب الاختلاط بالمصابين بعدوى فى الجهاز التنفسى : والحرص على تفادى الرطوبة الزائدة أو البرودة الشديدة المفاجئة .

السعال الديكى :

هو مرض معد يصيب الجهاز التنفسى نتيجة ميكروب معين .

وأهم أعراضه نوبات كحة مستمرة ، تشتد ليلا وفى الصباح الباكر ، ولا تستجيب للعقاقير العادية ، وقد تكون هذه النوبات من العنف بحيث يحمر معها وجه الطفل احمراراً ملحوظاً ، أو يصحبها قئ ، و« الشقهة » التى تصحب الكحة تظهر أحياناً بعد مضى ثلاثة أو أربعة أسابيع من الإصابة بالمرض . وأحياناً يحدث ارتفاع قليل فى درجة الحرارة

ويعرض الطفل على الطبيب فى الحال . وينبغى مراعاة إطعام الطفل بعد القئ، وتعريض الطفل للهواء النقى والشمس أكبر مدة ممكنة.

ويصف الطبيب العقاقير المهدئة لنوبات الكحة ، وأحياناً يصف أحد أنواع مبيدات الميكروب .

وتتراوح مدة المرض بين خمسة أسابيع واثنى عشر أسبوعاً ، ولكنها لا تستلزم عادة البقاء فى الفراش. والمرض يكون معدياً فى الثلاثة أو الأربعة الأسابيع الأولى ، وإذا أهمل علاجه فقد يضعف الجسم ضعفاً ملحوظاً بسبب القئ . وقد يؤدى إلى الالتهاب الرئوى المزمن ، أو يؤثر على الجهاز العصبى المركزى .

ولكى نحافظ على سلامة الطفل من عدوى هذا المرض يجب إعطاؤه اللقاح المضاد للسعال الديكى ، وعدم اختلاطه بالمصابين بالمرض.

التهاب الزائدة الدودية :

الالتهاب فى الزائدة الدودية لم يعرف بعد سببه . وأعراضه :

– ألم فى الجانب الأيمن من البطن ، وارتفاع فى درجة الحرارة وأحياناً غثيان وقئ . وتوتر أو تقلص فى عضلات البطن .

– ويجب استدعاء الطبيب ، ولا يعطى الطفل ملينا إلا بعد استشارة الطبيب . وإجراء جراحة لإزلة الزائدة الدودية أصبح الآن يعد من الجراحات البسيطة المأمونة .

وتتطلب جراحة استئصال الزائدة الدودية البقاء بالمستشفى ما بين ثلاثة أيام وستة أيام ، وملازمة الفراش نحو أسبوع بالمنزل .

الحصبة الألمانية :

هى مرض معد يسببه فيروس وأعراضه التهاب بسيط بالحلق ، وارتفاع قليل فى درجة الحرارة ، بعد يوم أو يومين ويظهر طفح جلدى دقيق خلف الأذنين أولا ، ثم الوجه والرقبة ، ثم على الجذع ، وأحياناً تتورم الغدد خلف الرأس ، وخلف الأذنين .

وينبغى استدعاء الطبيب واعتكاف الطفل دافئاً فى الفراش وأن يغذى غذاء خفيفاً . كما تنبغى المحافظة على عينيه من الضوء الساطع الشديد

.٢٥٦

ولا تدعه يقرأ أو يؤدى عملا يجهد عينيه .

وعلى الطبيب أن يتأكد من أن التشخيص صحيح ، ولا يستلزم الأمر عادة وصف عقاقير »

ولا تزيد مدة المرض على ستة أيام ، يقضى الطفل منها يوماً أو يومين فى الفراش . والمرض معد منذ بدء ظهور أعراضه ، حتى ينقضى يومان بعد ظهور الطفح . وإذا انتقلت العدوى لسيدة أثناء شهور الحمل الثلاثة الأولى ، فإن المرض قد يضر الجنين .

وللوقاية من المرض يجب البعد عن الاختلاط بالمصابين ، وإن كان كثير من الأطباء يرون أنه من المفضل أن تصاب البنات بالمرض فى السنوات الأولى من حياتهن ، حتى يكتسبن مناعة تحول بينهن وبين الإصابة به أثناء الحمل ..

الجدرى :

هو مرض معد يصيب الجلد والغشاء المخاطى . ويسببه فيروس .

وأعراضه نوبة برد خفيفة وارتفاع قليل فى درجة الحرارة تعقبه بعد ٢٤ ساعة حبيبات حمراء مايئة بسائل . وبثور الجدرى ، تظهر عادة فى أول الأمر فى سقف الحلق (يستطيع الطبيب أن يراها) ، ثم تنتشر على الوجه والصدر والجذع . وبعض الأطفال لا تظهر على أجسامهم سوى بثور قليلة جداً مبعثرة

وفى هذه الحال يستدعى الطبيب ويحتفظ بالطفل دافئاً فى الفراش

ويعطى طعاماً خفيفاً . ولا ندعه يستحم ويحتفظ بأظافره قصيرة حتى لا يؤذى نفسه بحك البثور، وعلى الطبيب أن يصف عقاراً يخفف الحكة.

ويستغرق المرض مدة تتراوح بين عشرة أيام وأربعة عشر يوماً ، يقضى الطفل منها أياماً قليلة فى الفراش . والمرض معد لمدة أسبوع واحد يبدأ من تاريخ ظهور آخر بثرة على الجسم

— وللوقاية من هذا المرض ينبغى تجنب الاختلاط بالمصابين بالمرض وإذا تعرض الطفل للعدوى أثناء مرضه لسبب آخر . فإنه يستحسن إعطاؤه حقن «الجاما جلوبيولين» Gamma Globulin لتمنع الإصابة بالمرض أو لتجعل نوبته خفيفة . وإن كان من النادر أن تستلزم الحالة مثل هذا الإجراء والتطعيم الإجبارى ضد الجدرى قد منع ويلاته .

الدفتيريا :

مرض معد يصيب الجهاز التنفسى ، يسببه ميكروب خاص .

وأعراضه ألم فى الزور . وارتفاع فى درجة الحرارة وصداع ، وبقع بيضاء داخل الزور ، وأحياناً نزيف من الأنف ويجب استدعاء الطبيب فوراً ، وأن يحتفظ بالطفل دافئاً فى الفراش .

ويصف الطبيب للطفل الحقن المضادة للدفتريا فوراً ، كما يصف أحد العقاقير المبيدة ، للميكروبات وعقاقير أخرى مثل الكورتيزون أو الجلوكوز .

ومدة هذا المرض أسبوع يقضيه الطفل فى الفراش طالما بقيت الحرارة

مرتفعة . والمرض يظل معدياً . لنحو سبعة أيام . وإذا أهمل العلاج حدثت اضطرابات بالقلب والكليتين وتتورم الغدد وقد يختنق المريض لانسداد فى الحلق .

ولتفادى المرض يجب الاهتمام بإعطاء الطفل الحقن المضادة للدفتريا فى الوقت المناسب ، مع تجنب الاختلاط بالمصابين .

الإلتهاب السحائى [١] :

هو الالتهاب فى الغشاء المبطن للعمود الفقرى والمخ ، وهو مرض معد يسببه نوع من مجموعة مختلفة من البكتريا والفيروسات

وأعراضه صداع ، وارتفاع فى درجة الحرارة ، وقئ ، وتصلب فى الرقبة وعضلات الظهر ، وأحياناً رعشة ونوبات تشنجية .

وينبغى استدعاء الطبيب فوراً ويعتكف الطفل دافئاً فى الفراش . إذا كانت درجة الحرارة مرتفعة جداً ويعمل له كمادات باردة على الرأس وساخنة عند القدمين .

ـ ويصف الطبيب عقاقير السلفا أو مبيدات الميكروب . وقد تكون فترة المرض بضعة أيام وقد تمتد إلى بضعة أسابيع فى الفراش . والمرض يظل معدياً حتى يتخلص منه الطفل .

ـ ويجب تجنب الاختلاط بالمصابين بالمرض . فإذا اختلط الطفل بمصاب استشر الطبيب فى إعطائه أقراص السلفا ديازين .

---

(١) Meningitis .

أبو اللكيم[1] :

هو التهاب فى الغدد النكفية Parotid glands التى تقع أمام الأذنين وأسفلهما . وهذا الالتهاب مرض معد يسببه فيروس .

وأعراضه ارتفاع فى درجة الحرارة . وألم أمام إحدى الأذنين وتحتها أو أمام الأذنين معاً وتحتهما ، ورم بالرقبة وفى إحد الخدين ، أو الخدين معاً ، وخاصة أمام الأذنين .

فى هذه الحالة يستدعى الطبيب ويعتكف بالطفل دافئاً فى الفراش ويعطى غذاء خفيفاً . وأحياناً كمادات دافئة أو باردة على الفكين قد تساعد على تخفيف حدة الألم . ويصف الطبيب إحد مبيدات الميكروب لوقاية الطفل من المضاعفات .

وتتراوح مدة المرض مابين خمسة أيام وأسبوع يقضيها الطفل فى الفراش إلى أن يزول الورم ، والمرض يكون قبل ظهور الورم بأسبوع ، ويظل كذلك حتى يزول الورم ، وإذا أهمل علاج المرض، فإنه قد يؤثر على الغدد التناسلية (المبيضين أو الخصيتين) بعد البلوغ . فيسبب العقم عند النساء ، والعنة عند الرجال . وأحياناً يمهد السبيل لالتهاب البنكرياس أو للالتهاب السحائى .

وينبغى تجنب الاختلاط بالمصابين . فإذا اختلط ابنك بأحد المصابين بالمرض ، استشر الطبيب فى اعطائه حقن جلوبيولين Gamma Globulin الفاكسين المضاد للمرض

---

(١) Mumps .

شلل الأطفال :

التهاب فى بعض الخلايا العصبية للجهاز العصبي المركزى ، يسببه فيروس : وأعراضه ألم شديد فى الحلق ، وصداع ، وارتفاع فى درجة الحرارة ، وأحياناً قئ ، وتصلب فى عضلات الرقبة والظهر ، وألم فى الذراعين والساقين ، وأحياناً تقلص فى العضلات .

وينبغى استدعاء الطبيب . ويحتفظ بالطفل دافئاً مستلقياً على ظهره فى الفراش .

ويختلف علاج الطبيب بإختلاف شدة الحالة . أحياناً يصف عقاقير أو كمادات ساخنة لتخفيف تقلص العضلات

وتتراوح مدة المرض بين بضعة أيام وبضعة أسابيع أو أشهر يمكثها فى الفراش ، وأحياناً تكون الرعاية الطبية بالمستشفى ضرورية ويجب أخذ لقاح سولك كما يوجد الآن لقاح سابين ضد شلل الأطفال والتطعيم ضده إجبارى

الحمى الروماتيزمية :

التهاب يصيب المفاصل كما يصيب — غالباً — صمامات القلب والأغشية المبطنة له . تسببه حساسية خاصة . لنوع معين من عدوى ميكروبية للزور يغلب أن تتكرر .

وأعراضها آلام متنقلة فى المفاصل أو العضلات ، وأحساس بالتعب

ودرجة حرارة مرتفعة . تظهر هذه الأعراض بعد إصابة الزور بما يتراوح بين خمسة أيام وبضعة أسابيع .

ويحتفظ بالطفل دافئاً فى الفراش . ويعطى غذاء خفيفاً .

ويستدعى الطبيب ، ويصف الكورتيزون أو جرعاً كبيرة من الأسبيرين أو العقارين معاً ، مع المراقبة التامة للطفل لتفادى تفاقم الحالة .

وتتراوح مدة المرض بين أسبوعين وثلاثة أسابيع أو بضعة أشهر يقضيها الطفل فى الفراش . وإهمال العلاج يسبب مضاعفات قد يصعب علاجها .

وللوقاية من هذا المرض ينبغى أن يكون غذاء الطفل جيداً ومنوعاً : تجنب تعريضه للرطوبة الزائدة والبرد الشديد والتيارات الهوائية . جنبه الاختلاط بمصابين بعدوى ميكروبية وإذا أصيب طفلك مرة بالحمى الروماتيزمية ، وجب أن يشرف الطبيب على صيانته من نوبات البرد بإعطائه جرعاً منتظمة من عقاقير السلفا ، أو مبيدات الميكروب ، وخاصة خلال موسم الشتاء

الدرن :

هو مرض معد يصيب الرئتين ، والغدد أو المفاصل ، يسببه ميكروب خاص . وإذا كان بالمنزل مصاب بالدرن ، ينبغى ملاحظة أى عارض من الأعراض التالية :

نقصان وزن الطفل : سرعة إحساسه بالتعب . فقد الشهية : أحياناً ارتفاع فى درجة الحرارة . كحة مزمنة . ورم بالغدد ، أو ورم فى مفصل

أو عدة مفاصل . أحياناً تكون الإصابة بمرض الالتهاب السحائى أول دليل على إصابة الطفل بالدرن

وينبغى عرض الطفل على أخصائى لفحصه ويصف الأخصائى أحد العقاقير الجديدة المضادة للدرن والأستربتوميسين . وينصح بالراحة وطعام مغذ معين والإفادة من الهواء النقى والشمس .

وتتراوح مدة المرض بين بضعة أشهر وبضع سنوات ، فكلما اكتشف المرض فى مرحلة مبكرة ، أمكن فى معظم الحالات وقف المرض والتخلص منه .

وللوقاية من هذا المرض تجب العناية بصحة الأطفال عامة . تجنب الاختلاط بالمصابين بالمرض . إذا لم يكن ثمة مفر من الاختلاط استشر الطبيب فى حقن الطفل باللقاح المضاد للمرض المعروف باسم بى سى جى B.C.g .

فهرس

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٥/٥١٠٨

مطابع دار المعارف بمصر - ١٩٧٥
١/٧٥/٢٨٣

ه
٢٠

